

نظائر اللغات

في
تناسب الآيات والسُّور
للإمام
برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي
المتوفى سنة ٨٨٥ هـ

ضجّ آياته وأحاديثه وروضع مواجبه
عبدالرزاق غالب المهدي

الجزء الثالث

المحتوى

من أول سورة الأعراف حتى آخر سورة هود

دارالكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تكس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢ - ٠٠/٦٠٢١٣٣ - ٠٠/٩٦١١



سورة الأعراف

مكية - آياتها مائتان وست

﴿الْمَصَّ ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

مقصودها إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية من التوحيد والاجتماع على الخير والوفاء لما قام على وجوبه من الدليل في الأنعام، وتحذيره بقوارع الدارين، وهذا أحسن مما كان ظهر لي وذكرته عند «والوزن يومئذ الحق» وأدل ما فيها على هذا المقصد أمر الأعراف فإن اعتقاده يتضمن الإشراف على الجنة والنار والوقوف على حقيقة ما فيهما وما أعد لأهلها الداعي إلى امتثال كل خير واجتناب كل شر والاتعاظ بكل مرقق ﴿بسم الله﴾ المتردي برداء الكبر وإزار العظمة والجلال ﴿الرحمن﴾ الذي من رحمته انتقامه من أهل الكفر والضلال ﴿الرحيم﴾ الهادي لأهل الاصطفاء إلى لزوم طريق الوفاء ﴿الْمَصَّ﴾.

لما ذكر سبحانه في آخر التي قبلها أنه أنزل إليهم كتاباً مباركاً، وأمر باتباعه وعلل إنزاله وذكر ما استتبعه ذلك مما لا بد منه في منهاج البلاغة وميدان البراعة، وكان من جملته أن أمر المدعويين به ليس إلا إليه، إن شاء هداهم وإن شاء أضلهم، واستمر فيما لا بد منه في تميم ذلك إلى أن ختم السورة بما انعطف على ما افتتحت به، فاشتد اعتناقه له حتى صاروا كشيء واحد؛ أخذ يستدل على ما ختم به تلك من سرعة العقاب وعموم البر والثواب وما تقدمه، فقال مخبراً عن مبتدئ تقديره: هو: ﴿كتب﴾ أي عظيم أوضح الطريق المستقيم فلم يدع بها لبساً ولم يذر خيراً إلا أمر به ولا شراً إلا نهى عنه، فإنزاله من عظيم رحمته؛ ثم وصفه بما أكد ما أشار إليه من رحمته بقوله: ﴿أنزل إليك﴾ أي وأنت أكرم الناس نفساً وأوسعهم صدرأً وأجملهم قلباً وأعرقهم إصالةً وأعرفهم باستعطاف المباحد واستجلاب المنافر المباحض، وهذا شيء قد خصك به فرفعك على جميع الخلق درجات لا تحصى ومراتب لا حد لها فستقصى.

ولما كان المقصود من البعثة أولاً النذارة للرد عما هم عليه من الضلال، وكانت مواجهة الناس بالإنذار شديدة على النفوس، وكان الإقدام عليها من الصعوبة بمكان عظيم؛ قدم قوله مسبباً عن تخصيصه بهذه الرحمة: ﴿فلا يكن﴾ وعبر عن القلب بمسكنه الذي هو أوسع منه مبالغة في الأمر فقال: ﴿في صدرك حرج﴾ أي شيء من ضيق بهم أو خوف أو نحو ذلك ﴿منه﴾ على ما تعلق به «أنزل» من قوله: ﴿لتنذر به﴾ أي نذري لكل من بلغه أو للمخالفين من سرعة العقاب على نحو ما وقع سبحانه بالقرون الماضية والأمم السالفة - كما أشار إليه آخر الأنعام، وسيقص من أخبارهم من هذه السورة ﴿و﴾ لتنذر به ﴿ذكرى﴾ أي عظيمة ﴿للمؤمنين﴾ أي بالبشر والمواعظ والغفران والرحمة على ما أشار إليه ختام الأنعام، وحذف المفعول يدل على عموم الرسالة لكل من أمكن إنذاره وتذكيره من العقلاء، ويجوز أن تعلق لام «لتنذر» بمعنى النهي، أي انف الحرج لكذا، فإن من كان منشرح الصدر أقدم على ما يريد أو يخرج، أي لا يكن الحرج الواقع لأجل أن تنذر، أي لأجل إنذارك به، والنهي للنبي ﷺ، حُول إلى الحرج مبالغة وأدباً، ويجوز أن يكون التقدير: لتنذر به وتذكر به، فإنه نذري للكافرين وذكرى للمؤمنين، والآية على كل تقدير من الاحتباك: إثباته «لتنذر» أولاً دال على حذف «لتذكر» ثانياً، وإثبات المؤمنين ثانياً دال على حذف المخالفين أولاً، فإن النفوس على قسمين: نفوس بليدة جاهلة بعيدة عن عالم الغيب غريقة في طلب اللذات الجسمانية والشهوات الحيوانية فبعثة الرسل في حقهم إنذار وتخويف، ونفوس شريفة مشرقة بالأنوار الإلهية فبعثة الرسل في حقهم تذكير لأن هذه النفوس بمقتضى جواهرها الأصلية وجبلتها الخلقية مستعدة للانجذاب إلى عالم القدس إلا أنه ربما غشيتها غواش من عالم الأجساد فيعرض لها نوع ذهول وغفلة، فإذا سمعت دعوة الأنبياء واتصلت بها أنوار أرواح رسل الله تذكرت مركزها وأبصرت منشأها، فاشتاقت إلى ما حصل هناك من الروح والريحان فطارت نحوهم كل مطار فتمحضت لديها تلك الأنوار؛ وقال أبو حيان: واعتلاق هذه السورة بما قبلها هو أنه لما ذكر تعالى قوله: ﴿وهذا كتب أنزلناه مبارك فاتبعوه﴾ [الأنعام: ١٥٥] واستطرد منه لما بعده إلى قوله في آخر السورة ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ [الأنعام: ١٦٥] وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم، وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعية، ذكر ما يكون به التكليف، وهو الكتاب الإلهي، وذكر الأمر باتباعه كما أمر في قوله: ﴿وهذا كتب أنزلناه مبارك فاتبعوه﴾ [الأنعام: ١٥٥] - انتهى. وقال شيخه الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما قال تعالى ابتداء بالاعتبار ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا

الأنهر تجري من تحتهم فأهلكنهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿ [الأنعام: ٦] ثم قال تعالى ﴿ ولقد استهزىء برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [الأنعام: ١٠] ثم قال تعالى: ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [الأنعام: ١١] ثم قال تعالى ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا ﴾ [الأنعام: ٣٤] وقال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذتهم بالآساء والضراء ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ يُمعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آيتي ﴾ [الأنعام: ١٣] فوَقعت الإحالة في هذه الآي على الاعتبار بالأمم السالفة وما كان منهم حين كذبوا أنبياءهم وهلاك تلك القرون بتكذيبهم وعتوهم وتسليية رسول الله ﷺ بجريان ما جرى له بمن تقدمه من الرسل ﴿ وقد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون ﴾ [الأنعام: ٢٣] فاستدعت الإحالة والتسليية بسط أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية، والإعلام بصبر الرسل - عليهم السلام - عليهم وتلطفهم في دعائهم، ولم يقع في السور الأربع قبل سورة الأنعام مثل هذه الإحالة والتسليية وقد تكررت في سورة الأنعام كما تبين بعد انقضاء ما قصد من بيان طريق المتقين أخذاً وتركاً وحال من حاد عن سنهم ممن رامه أو قصده فلم يوفق له ولا أتم له أمله من الفرقتين: المستندة للسمع والمعتمدة للنظر، فحاد الأولون بطاريء التغيير والتبديل، وتنكب الآخرون بسوء التناول وقصور الأفهام وعلّة حيد الفريقين السابقة الأزلية؛ فلما انقضى أمر هؤلاء وصرف الخطاب إلى تسليية عليه السلام وتثبيت فؤاده بذكر أحوال الأنبياء مع أممهم وأمر الخلق بالاعتبار بالأمم السالفة، وقد كان قدّم لرسول الله ﷺ عند ذكر الأنبياء ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام: ٩٠] بسط تعالى حال من وقعت الإحالة عليه، واستوفى الكثير من قصصهم إلى آخر سورة هود إلى قوله سبحانه ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ [هود: ١٢٠] فتأمل بما افتتحت به السورة المقصود بها قصص الأمم وبما اختتمت يُلح لك ما أشرت إليه - والله أعلم بمراده، وتأمل افتتاح سورة الأعراف بقوله ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ [الأعراف: ٧] وختم القصص فيها بقوله: ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ [الأعراف: ١٧٦] بعد تعقيب قصص بني إسرائيل بقصة بلعام ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتينه آيتنا ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، ثم قال: ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآيتنا ﴾ [الأعراف: ١٧٦] فتأمل هذا الإيماء بعد ذكر القصص، وكيف ألحق من كذب رسول الله ﷺ من العرب وغيرهم بمن قص ذكره من المكذبين، وتأمل افتتاح ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام وكلاهما ممن كفر على علم، وفي ذلك أعظم موعظة، قال الله تعالى إثر ذلك ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ﴾

سورة الأعراف

[الأعراف: ١٧٨]، فبدأ الاستجابة بنبيه ﷺ بذكر ما أنعم عليه وعلى من استجاب له فقال تعالى: ﴿الْمَصَّ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ٢] فأشار إلى نعمته بإنزال الكتاب الذي جعله هدى للمتقين، وأشار هنا إلى ما يحمله عليه من التسلية وشرح الصدور بما جرى من العجائب والقصص مع كونه هدى ونوراً، فقال ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ [الأعراف: ٢] أي أنه قد تضمن مما أحلناك عليه ما يرفع الحرج ويسلي النفوس لتنذر به كما أنذر من قبلك ممن نقص خبره من الرسل، ولتستن في إنذارك ودعائك وصبرك سنهم، ولتذكر المؤمنون؛ ثم أمر عباده بالاتباع لما أنزله فقال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ [الأعراف: ٣] فإن هلاك من نقص عليكم خبره من الأمم إنما كان لعدم الاتباع والركون إلى أوليائهم من شياطين الجن والإنس، ثم أتبع ذلك بقصة آدم عليه السلام ليبين لعباده ما جرت سنته فيهم من تسلط الشياطين وكيدته وأنه عدو لهم ﴿يبني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبيكم من الجنة﴾ [الأعراف: ٢٧] ووقع في قصة آدم هنا ما لم يقع في قصة البقرة من بسط ما أجمل هناك كتصريح اللعين بالحسد وتصور خيريته بخلقه من النار وطلبه الإنظار والتسلط على ذرية آدم والإذن له في ذلك ووعيده ووعيد متبعيه ثم أخذه في الوسوسة إلى آدم عليه السلام وحلفه له ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ [الأعراف: ٢١] وكل هذا مما أجمل في سورة البقرة ولم تتكرر قصة إلا وهذا شأنها، أعني أنها تفيد مهما تكررت ما لم يكن حصل منها أولاً؛ ثم انجزت الآي إلى ابتداء قصة نوح عليه السلام واستمرت القصص إلى قصص بني إسرائيل، فبسط هنا من حالهم وأخبارهم شبيه ما بسط في قصة آدم وما جرى من محنة إبليس، وفصل هنا الكثير وذكر ما لم يذكر في البقرة حتى لم يتكرر بالحقيقة ولا التعرض لقصص طائفة معينة فقط، ومن عجيب الحكمة أن الواقع في السورتين من كلتا القصتين مستقل شاف، وإذا ضم بعض ذلك إلى بعض ارتفع إجماله ووضح كماله، فتبارك من هذا كلامه ومن جعله حجة قاطعة وآية باهرة. ولما أعقب تعالى قصصهم في البقرة بأمره نبيه والمؤمنين بالعتو والصفح فقال تعالى ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ [البقرة: ١٠٩] أعقب تعالى أيضاً هنا بقوله لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقد خرجنا عن المقصود فلنرجع إليه - انتهى .

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءَهَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُنَّ

عَلَيْهِمْ يَعْلَمُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

ولما تقدم سبحانه إليه ﷺ في أمر الإنذار والإذكار بالكتاب تقدم إلى اتباعه فأمرهم باتباعه ونهاهم عن اتباع أهل الضلال وما يوحي إليهم أولياؤهم من زخارفهم بعد أن أخبر بكونه ذكرى أنه سبب لعلو شأنهم وعز سلطانهم، فقال ملتفتاً إليهم مقبلاً بعز جلاله عليهم ﴿اتبعوا﴾ أي حملوا أنفسكم حملاً عظيماً بجهد ونشاط على اتباع ﴿ما أنزل إليكم﴾ أي قد خصصتم به دون غيركم فاشكروا هذه النعمة ﴿من ربكم﴾ أي الذي لم يزل محسناً إليكم ﴿ولا تتبعوا﴾ ولعله عبر بالافتعال إيحاء إلى أن ما كان دون علاج - بل هفوة وبنوع غفلة - في محل العفو ﴿من دونه﴾ أي دون ربكم ﴿أولياء﴾ أي من الذين نهيناكم عنهم في الأنعام وبيننا ضررهم لكم من شياطين الإنس والجن وعدم إغنائهم وأن الأمر كله لربكم.

ولما كانوا قد خالفوا في اتباعهم صريح العقل وسليم الطبع، وعندهم أمثلة ذلك لو تذكروا، قال منبهاً لهم على تذكر ما يعرفون من تصرفاتهم: ﴿قليلاً﴾ وأكد التقليل بـ «ما» النافي ويادغام تاء التفعّل فقال: ﴿ما تذكرون﴾ أي تعالجون أنفسكم على ذكر ما هو مركز في فطركم الأولى فإنكم مقرون بأن ربكم رب كل شيء، فكل من تدعون من دونه مربوب، وأنتم لا تجدون في عقولكم ولا طباعكم ولا استعمالاتكم ما يدل بنوع دلالة على أن مربوباً يكون شريكاً لربه.

ولما كان من أعظم ما يتذكر سار النعم وضار النقم للإقبال على الله والإعراض عما سواه وعدم الاعتزاز بأسباب الأمن والراحة، قال: ﴿وكم﴾ أي قلّ تذكركم وخوفكم من سطواتنا والحال أنه كم ﴿من قرية﴾ وإن جلت؛ ولما كان المراد المبالغة في الإهلاك، أسنده إلى القرية والمراد أهلها فقال: ﴿أهلكنها﴾ أي بما لنا من العظمة لظلمها باتباع من دون الله، فلا تغتروا بأوليائكم من دونه وأنتم عالمون بأنهم لم ينفخوا من ضل من الأمم السالفة وقت إنزالنا بهم السطوة وإحلالنا بهم النعمة وتحقق المهلكون إذ ذاك - مع أنهم كانوا أشد منكم بطشاً وأكثر عدداً وأمتن كيداً - عدم إغنائهم فلم يوجهوا آمالهم نحوهم.

ولما كان المعنى: أردنا إهلاكها وحكمنا به، سبب عنه قوله: ﴿فجاءها بأسنا﴾ أي عذابنا بما لنا من القوة والعظمة، أو الإهلاك على حقيقته وهذا تفصيل له وتفسير؛ ولما كان لا فرق في إتيان عذابه سبحانه بين كونه ليلاً أو نهاراً، وكان أفحش البأس وأشدّه ما كان في وقت الراحة والدعة والغفلة قال: ﴿بياتاً﴾ أي وقت الاستكنان في البيوت ليلاً كما أهلك قوم لوط عليه السلام وقت السحر.

ولما كان المراد بالقرية أهلها، بينه بقوله لأنه إذا حذف المضاف جاز فيه اعتباران بحسب ما يحسن من المعنى: أن لا يلتفت إليه - كما في أول الآية، وأن يلتفت إليه - كما في هذا الأخير لبيان أن الأهل هم المقصودون بالذات لأنه موضع التهديد: ﴿أو هم قائلون﴾* أي نائمون وقت القائلة أو مستريحون من غير نوم كما أهلك قوم شعيب عليه السلام، يعني أنهم كانوا في كل من الوقتين غافلين بسبب أنهم كانوا آمنين، لم يظنوا أن شيئاً من أعمالهم موجب للعذاب ولا كانوا مترقبين لشيء منه، فالتقدير: بيانا هم فيه باثنون أي نائمون، أو قائلة هم فيها قائلون أي نائمون، فالآية من الاحتباك: دل إثبات «بياتاً» أولاً على حذف «قائلة» ثانياً، وإثبات «هم قائلون» ثانياً على حذف «هم نائمون» أولاً، والذي أرشدنا إلى هذا المعنى الحسن سوق «هم» من غير واو، وهذا قريب من قوله تعالى فيما يأتي ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾ [الأعراف: ٩٧] فالأقرب أن يكون المحذوف أولاً نائمون، وثانياً نهاراً، فيكون التقدير: بياتاً هم فيه نائمون، أو نهاراً هم فيه قائلون، وبين عظمة ما جاءهم وهوله بأنهم في كل من الوقتين لم يقع في فكر أحد منهم التصويب إلى مدافعتهم بما سبب عن ذلك من قوله: ﴿فما كان دعؤهم﴾ أي قولهم الذي استدعوه ﴿إذ جاءهم بأسنا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿إلا أن قالوا﴾ أي إلا قولهم ﴿إنا كنا﴾ أي بما لنا من الجبله ﴿ظالمين﴾* أي في أنا لم نتبع ما أنزل إلينا من ربنا، فلم يفدهم ذلك شيئاً غير شدة التحسر؛ ثم سبب عما مضى من أمر الرسول والأمم قوله دفعاً لوهم من يظن أن الأمر انقضى بما عذبوا به في الدنيا: ﴿فلننسلن﴾ أي بما لنا من العظمة على جهة التوبيخ والتقرع للعصاة والتشريف والتعظيم للمطيعين، وأظهر موضع الإضمار تعميماً فقال: ﴿الذين﴾*.

ولما كانت الملامة على تكذيب الرسول لا بقيد كونه معيناً، بني للمفعول قوله: ﴿أرسل إليهم﴾ أي وهم الأمم، هل امثلوا أو امرنا وأحجموا عند زواجنا كما أمرتهم الرسل أم لا ﴿ولننسلن﴾ أي بعظمتنا ﴿المرسلين﴾* أي هل كان في صدورهم حرج مما أرسلناهم به وهل بلغوه أم لا يوم تكونون شهداء على الناس بما علمتم من شهادتي في هذا القرآن ويكون الرسول عليكم شهيداً فإننا لا بد أن نحبيكم بعد الموت ثم نسألکم في يوم تظهر فيه السرائر وتنكشف - وإن اشتد خفاؤها - الضمائر، ولنرين الأفعال والأقوال، ولا نترك شيئاً من الأحوال.

ولما كان السؤال يفهم خفاء المسؤول عنه على السائل، سبب عن ذلك ما يزيل هذا الوهم بقوله مؤذناً بأنه أعلم من المسؤولين عما سألهم عنه: ﴿فلنقصن﴾ أي بما لنا من صفات العظمة المستلزمة لكل كمال ﴿عليهم﴾ أي المسؤولين من الرسل وأمهم، جميع أحوالهم وما يستحقون من جزائها ﴿بعلم﴾ أي مقطوع به لا مظنون، فقد كنا معهم في جميع تقلباتهم ﴿وما كنا﴾ أي في وقت من الأوقات كما هو مقتضى ما لنا من

العظمة ﴿غائبين﴾ أي مطلقاً ولا عن أحد من الخلق بل علمنا شامل لجميع الكليات والجزئيات لأن ذلك مقتضى العظمة ومقتضى ما لنا من صفات الكمال، ومن لم يكن محيط العلم بأن يميز المطيع من العاصي لا يصح أن يكون إلهاً.

﴿وَالْوِزْنُ يُومَدُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ .

ولما تقدمت الإشارة بقوله تعالى: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ [الأنعام: ١٥٢] الآية إلى المساواة الحقيقية في الميزان معجوز عنها وأنه أبعد المقادير عن التساوي، والنص في قوله تعالى ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ [الأنعام: ١٦٠] على قدرة القدير على ذلك، وختم الآية السالفة بإحاطة العلم على الوجه الأبلغ المقتضى لذلك على أعلى الوجوه؛ أكد الأمر أيضاً وقصره على علمه هنا فقال: ﴿والوزن﴾ بميزان حقيقي لصحف الأعمال أو للأعمال أنفسها بعد تصويرها بما تستحقه من الصور أو بغير ذلك بعد أن يقذف الله في القلوب العلم به، ولعله حال من نون العظمة في الآية التي قبلها، أي إنا لا نكتفي بما نقص بل نزنه فيصير بحيث يظهر لكل أحد أنه على غاية ما يكون من التساوي؛ قال أبو حيان وعلي بن الحسين النحوي الأصفهاني في إعرابه: «الوزن» مبتدأ ﴿يومئذ﴾ ظرف منصوب به ﴿الحق﴾ خبر المبتدأ، زاد الأصفهاني فقال: واستضعف إعمال المصدر وفيه لام التعريف وقد ذكرنا أنه جاء في التنزيل ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ [النساء: ١٤٨] - انتهى. أي والوزن في ذلك اليوم مقصور على الحق، يطابقه الواقع مطابقة حقيقية لا فضل فيها أصلاً ولا يتجاوز الوزن في ذلك اليوم الحق إلى شيء من الباطل بزيادة ذرة ولا نقصها ولا ما دون ذلك، فتحرر أن مقصود السورة الحث على اتباع الكتاب، وهو يتضمن الحث على اتباع الرسول والدلالة على التوحيد والقدرة على البعث ببيان الأفعال الهائلة في ابتداء الخلق وإهلاك الماضين إشارة إلى أن من لم يتبعه ويوحده - من أنزله على هذا الأسلوب الذي لا يستطيع، والمنهاج الذي وقفت دونه العقول والطباع، لما قام من الأدلة على توحيده بعجز من سواه عن أقواله وأفعاله - أو شك أن يعاجله قبل يوم البعث بعقاب مثل عقاب الأمم السالفة والقرون الخالية مع ما ادخر له في ذلك اليوم من سوء المنقلب وإظهار أثر الغضب.

ولما أخبر أن العبرة بالميزان على وجه يظهر أنه لا حيف فيه بوجه، تسبب عنه قوله: ﴿فمن نقلت﴾ أي دست ورسبت على ما يعهد في الدنيا ﴿موازينه﴾ أي موازنات أعماله، أي أعماله الموزونة، ولعله عبر بها عنها إشارة إلى أن كل عمل يوزن على حدة ليسعى في إصلاحه ﴿فأولئك﴾ أي العالو الهمم ﴿هم﴾ أي خاصة ﴿المفلحون﴾ أي الظاهرون بجميع مآربهم ﴿ومن خفت﴾ أي طاشت ﴿موازينه﴾ أي التي توزن فيها الأعمال الصالحة ﴿فأولئك﴾ المبعدون ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي التي هي رأس مالهم فكيف بما دونها ﴿بما كانوا بأيتنا﴾ أي على ما لها من العظمة ﴿يظلمون﴾ أي باستمرار ما يجددونه من وضعها في غير المحل الذي يليق بها فعل من هو في ظلام؛ قال الحسن: وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل، وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف.

ولما أمر الخلق بمتابعة الرسل وحذرهم من مخالفتهم، فأبلغ في تحذيرهم بعذاب الدنيا ثم بعذاب الآخرة، التفت إلى تذكيرهم ترغيباً في ذلك بإسباغ نعمه وتحذيراً من سلبها، لأن المواجهة أردع للمخاطب، فقال في موضع الحال من ﴿خسروا أنفسهم﴾: ﴿ولقد مكناهم﴾ أي خسروها والحال أنا مكناكم من إنجائها بخلق القوى والقدر وإدرار النعم، وجعلنا مكاناً يحصل التمكّن فيه ﴿في الأرض﴾ أي كلها، ما منها من بقعة إلا وهي صالحة لانتفاعهم بها ولو بالاعتبار ﴿وجعلنا لكم﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿فيها معاش﴾ أي جميع معيشة، وهي أشياء يحصل بها العيش، وهو تصرف أيام الحياة بما ينفع، والياء أصلية فلذا لا تهمز، وكذا ما ولي ألف جمعه حرف علة أصلي وليس قبل ألفه واو كأوائل ولا ياء كخياثر جمع أول وخير فإنه لا يهمز إلا شاذاً كمناثر ومصائب جمع منارة ومصيبة.

ولما كان حاصل ما مضى أنه سبحانه أوجدهم وقوّاهم وخلق لهم ما يديم قواهم، فأكلوا خيره وعبدوا غيره، أنتج قوله على وجه التأكيد: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي لمن أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة بما تنجون به أنفسكم؛ وقال أبو حيان: إنه راجع للذين خوطبوا بـ ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾ [الأعراف: ٣] وما بينهما أورد مورد الاعتبار والاتعاظ بذكر ما آل إليه أمرهم في الدنيا وما يؤول إليه في الآخرة - انتهى.

ولما ذكر سبحانه ما منحهم به من التمكين، ذكرهم ما كانوا عليه قبل هذه المكنة من العدم تذكيراً بالنعم في سياق دال على البعث الذي فرغ من تقريره، وعلى ما خص به أباهم آدم عليه السلام من التمكين في الجنة بالخلق والتصوير وإفاضة روح الحياة وروح العلم وأمر أهل سماواته بالسجود له والغضب على من عاداه وطرده عن محل

كرامته ومعدهن سعادته وإسكانه هو بذلك المحل الأعلى والموطن الأسنى مأذوناً له في كل ما فيه إلا شجرة واحدة، فلما خالف الأمر أزاله عنه وأخرجه منه؛ وفي ذلك تحذير لأهل المكنة من إزالة المنة في استردار النعمة وإحلال النعمة فقال: ﴿ولقد خلقناكم﴾ أي بما لنا من صفات العظمة ﴿ثم صورناكم﴾ أي قدرنا خلقكم ثم تصويركم بأن جعلنا فيكم قابلية قريبة من ذلك بتخصيص كل جزء من المادة بمقداره المعين بتخمير طينة آدم عليه السلام على حالة تقبل ذلك كما يهيا التراب بتخميره بإنزال المطر لأن يكون منه شجرة، وقد تكون تلك الشجرة مهياً لقبول صورة الثمرة وقد لا تكون كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] وقال النبي ﷺ كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح»^(١) وعنه أيضاً رضي الله عنه عند مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب! أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك»^(٢) الحديث. فظاهر هذا الحديث مخالف للفظ الذي قبله وللآية، فيحمل على أن معنى صورها: هياها في مدة الأربعين الثانية لقبول الصورة تهيئة قريبة من الفعل، وسهل أولها بالتخمير على هيئة مخصوصة بخلاف ما قبل ذلك، فإنها كانت نطفة فكانت بعيدة عن قبول الصورة، ولذلك اختلفوا في احترامها وهل يباح إفسادها والتسبب في إخراجها، ومعنى «خلق»: قدر أي جعل لكل شيء من ذلك حداً لا يتجاوزه في الجملة، والدليل على هذا المجاز شكه في كونها ذكراً أو أنثى، ولو كان ذلك على ظاهره لما حصل شك في كونها ذكراً أو أنثى إذ آلة الذكر والأنثى من جملة الصورة، وبهذا تلتئم هذه الآية مع قوله تعالى ﴿إذ قال ربك للملكة إني خالق بشرأ من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [ص: ٧١] فهذا خلق بالفعل، والذي في هذه السورة بإيداعه القوة المقربة منه، والمراد من الآية التذكير بالنعمة استعطافاً إلى المؤلففة وتفظيلاً بحال المخالفة، أي

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤٥٤ و ٣٢٠٨ ومسلم ٢٦٤٣ وأبو داود ٤٧٠٨ والترمذي ٢١٣٧ وابن ماجه ٧٦ وابن حبان ٦١٧٤ والطيالسي ٢٩٨ وأبو يعلى ٥١٥٧ وابن أبي عاصم في السنة ١٧٥ و ١٧٦ وأحمد ٤١٤/١ من حديث ابن مسعود

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٤٥ وابن حبان ٦١٧٧ والطبراني ٣٠٣٦ و ٣٠٤٣ وابن أبي عاصم ١٧٧ و ١٧٩ وأحمد ٧٠٦/٤ من حديث ابن مسعود.

خسروا أنفسهم والحال أنا أنعمنا عليهم بنعمة التمكين بعد أن أنشأناهم على الصورة المذكورة بعد أن كانوا عدماً، وأسجدنا ملائكتنا لأبيهم وطردها من تكبر عليه طرداً لا طرد مثله، وأبعدناه عن محل قدسنا بعداً لا قرب معه، وأسكننا أباهم الجنة دار رحمتنا وقرينا، فقال تعالى مترجماً عن ذلك: ﴿ثُمَّ قَلْنَا﴾ أي على ما لنا من الاختصاص بالعظمة ﴿لِلْمَلَكَةِ﴾ أي الموجودين في ذلك الوقت من أهل السماوات والأرض كلهم، بما دلت عليه «ال» سواء قلنا: إنها للاستغراق أو الجنس ﴿اسجدوا لآدم﴾ أي بعد كونه رجلاً قائماً سوياً ذا روح كما هو معروف من التسمية؛ ثم سبب عن هذا الأمر قوله: ﴿فسجدوا﴾ أي كلهم بما دل عليه الاستثناء في قوله: ﴿إلا إبليس﴾ ولما كان معنى ذلك لإخراجه ممن سجد أنه لم يسجد، صرح به فقال: ﴿لم يكن من الساجدين *﴾ أي لآدم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٧﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مَنَّا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ فِيمَا أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴿٢١﴾﴾.

ولما كان مخالف الملك في محل العقاب، تشوف السامع إلى خبره فأجيب بقوله: ﴿قال﴾ أي لإبليس إنكاراً عليه توبيخاً له استخراجاً لكفره الذي كان يخفيه بما يبدي من جوابه ليعلم الخلق سبب طرده ﴿ما منعك﴾ ولما كانت هذه العبارة قد صرحت بعدم سجوده، فكان المعنى لا يلبس بإدخال «لا» في قوله: ﴿ألا تسجد﴾ أتى بها لتفيد التأكيد بالدلالة على اللوم على الامتناع من الفعل والإقدام على الترك، فيكون كأنه قيل: ما منعك من السجود وحملك على تركه ﴿إذ﴾ أي حين ﴿أمرتك﴾ أي حين حضر الوقت الذي يكون فيه أداء المأمور به ﴿قال﴾ أي إبليس ناسباً ربه سبحانه إلى الجور أو عدم العلم بالحق ﴿أنا خير منه﴾ أي فلا يليق لي السجود لمن هو دوني ولا أمري بذلك لأنه مناف للحكمة؛ ثم بين وجه الخيرية التي تصورها بسوء فهمه أو بما قاده إليه سوء طبعه بقوله: ﴿خلقتني من نار﴾ أي فهي أغلب أجزائي وهي مشرفة مضيئة عالية غالبية ﴿وخلقت من طين *﴾ أي هو أغلب أجزائه وهو كدر مظلم سافل مغلوب، وقد غلط غلطاً فاحشاً فإن الإيجاد خير من الإعدام بلا نزاع، والنار سبب الإعدام والمحق لما خالطته، والطين سبب النماء والتربية لما خالطه، هذا لو كان الأمر في الفضل باعتبار العناصر والمبادئ وليس كذلك، بل هو باعتبار الغايات.

ولما كان هذا أمراً ظاهراً، وكان مجرد التكبر على الله كفراً على أي وجه كان، أعرض عن جوابه بغير الطرد الذي معناه نزوله المنزلة الذي موضع ما طلب من علوها

فاستأنف قوله: ﴿قال﴾ مسيئاً عن إيبائه قوله: ﴿فأهبط منها﴾ مضمراً للدار التي كان فيها وهي الجنة. فإنها لا تقبل عاصياً، وعبر بالهبوط الذي يلزم منه سقوط المنزلة دون الخروج، لأن مقصود هذه السورة الإنذار وهو أدل عليه، وسبب عن أمره بالهبوط الذي معناه النزول والحدود والانحطاط والنقصان والوقوع في شيء منه قوله: ﴿فما يكون﴾ أي يصح ويتوجه بوجه من الوجوه ﴿لك أن تتكبر﴾ أي تعتمد الكبر وهو الرفعة في الشرف والعظمة والتجبر، ولا مفهوم لقوله ﴿لك﴾ ولا لقوله: ﴿فيها﴾ لوجود الصرائح بالمنع من الكبر مطلقاً ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ [النحل: ٢٣]، وكذلك يطبع الله على قلب كل متكبر ﴿غافر: ٣٥﴾، ﴿قال الذين استكبروا إنا كل فيها﴾ [النساء: ٤٨]، وإنما قيد بذلك تهويلاً للأمر، فكأنه قيل: لا ينبغي التكبر إلا لنا، وكلما قرب الشخص من محل القدس الذي هو مكان المطيعين المتواضعين جل تحريم الكبر عليه «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»^(١) رواه مسلم وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه، وسبب عن كونها لا تقبل الكبر قوله: ﴿فاخرج﴾ أي من الجنة دار الرضوان، فانتفى أن يكون الهبوط من موضع عال من الجنة إلى موضع منها أحط منه، ثم علل أمره بالهبوط والخروج بقوله مشيراً إلى أن كل من أظهر الاستكبار ألبس الصغار: ﴿إنك من الصغرين﴾ أي الذين هم أهل للطرد والبعد والحقارة والهوان.

ولما علم أن الحسد قد أبعده ونزل به عن ساحة الرضى وأقعده، تمادى فيه فسأل ما يتسبب به إلى إنزال المحسودين عن درجاتهم العالية إلى دركته السافلة، ولم يسأل بشقاوته فيما يعليه من دركته السافلة إلى درجاتهم العالية، وذلك بأن ﴿قال﴾ أي إبليس، وهو استئناف؛ ولما كان السياق - ولا سيما الحكم بالصغار العاري عن تقييد - يأبى لأن يكون سبباً لسؤاله الانتظار، ذكره بصيغة الإحسان فقال ﴿أنظرنى﴾ أي بالإمهال، أي اجعلني موجوداً بحيث أنظر وأتصرف في زمن ممتد ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي من القبور، وهو يوم القيامة، وكان اللعين طلب بهذا أنه لا يموت، فإن ذلك الوقت ليس وقتاً للموت، إنما هو وقت إفاضة الحياة الأبدية في شقاوة أو سعادة، فأعلم سبحانه أنه حكم له بالانتظار، لكن لا على ما أراده ولا على أنه إجابة له، ولكن هكذا سبق في الأزل في حكمه في قديم علمه، وإليه يرشد التعبير بقوله: ﴿قال إنك من المنظرين﴾ أي في الجملة، ومنعه من الحماية عن الموت بقوله كما ذكره في سورتي الحجر وصر

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٩١ وأبو داود ٤٠٩١ والترمذي ١٩٩٨ و ١٩٩٩ وابن ماجه ٤١٧٣ وابن حبان ٢٢٤ وابن خزيمة في التوحيد ص/ ٣٨٤ والطبراني ١٠٠٠٠ و ١٠٠٠١ وأحمد ٤١٢/١ من حديث ابن مسعود.

﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ [الحجر: ٣٨، ص: ٨١]، وهو وقت النفخة الأولى التي يموت فيها الأحياء فيموت هو معهم، وكان ترك هذه الجملة في هذه السورة لأن هذه السورة للإنذار، وإبهام الأمر أشد في ذلك، وأجابه إلى الإنظار وهو يريد به الفساد، لأنه لا يعدو أمره فيه وتقديره به، ولأنه سبحانه لا يسأل عما يفعل، ولتظهر حكمته تعالى في الثواب والعقاب.

ولما كان قد حكم عليه بالشقاء، قابل نعمة الإمهال وإطالة العمر بالتمادي في الكفر، وأخبر عن نفسه بذلك بأن ﴿قال﴾ مسبباً عن إيقاعه في المعصية بسبب نوع الآدميين ﴿فبما أغويتني﴾ أي فبسبب إغوائك لي، وهو إيجاد الغي واعتقاد الباطل في قلبي من أجلهم والله ﴿لأقعدن لهم﴾ أي أفعل في قطعهم عن الخير فعل المتمكن المقبل بكليته المتأنى الذي لا شغل له غير ما أقبل عليه في مدة إمهالك لي بقطعهم عنك بمنعهم من فعل ما أمرتهم به، وحملهم على فعل ما نهيتهم عنه، كما يقعد قاطع الطريق على السابلة للخطف ﴿صراطك﴾ أي في جميع صراطك، بما دل عليه نزع الخافض ﴿المستقيم﴾ وهو الإسلام بجميع شعبه، ومن أسند الإغواء إلى غير الله بسبب اعتقاده أن ذلك مما ينزه الله عنه، فقد وقع في شر مما فر منه، وهو أنه جعل في الوجود فاعلين يخالف اختيار أحدهما اختيار الآخر.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَبَقَاؤُهُمْ أَتَى وَرُوحَكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَكَمَارُبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونُوا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ .

ولما كان قد أقام نفسه في ذلك بغاية الجِد، فهو يفعل فيه بالوسوسة بنفسه ومن أطاعه من شياطين الجن والإنس ما يفوت الحد ويعجز القوى، أشار إليه بحرف التراخي فقال مؤكداً: ﴿ثم لآتينهم﴾ أي إتياناً لا بد لي منه كائناً ابتداءه ﴿من بين أيديهم﴾ أي مواجهة، فأحملهم على أن يفعلوا ما يعلمون أنه خطأ ﴿و﴾ كائناً ﴿من خلفهم﴾ أي مغافلة، فيعملون ما هو فاسد في غاية الفساد ولا شعور لهم بشيء من فساده حين تعاطيه فأدلهم بذلك على تعاطي مثله وهم لا يشعرون ﴿وعن﴾ أي ومجاوزاً للجهة التي عن ﴿إيمانهم﴾ إليهم ﴿وعن﴾ أي ومجاوزاً لما عن ﴿شمائلكم﴾ أي مخالفة، فيفعلونه وهو مشتبه عليهم، وهذه هي الجهات التي يمكن الإتيان منها، ولعل فائدة «عن» المفهومة

للمجاوزه وصل خطى القدام والخلف ليكون إتيانه مستوعباً لجميع الجهة المحيطة، وأفهمت الجهات الأربع قدحه وتليسه فيما يعلمونه حق علمه وما يعلمون شيئاً منه وما هو مشتبه عليهم اشتهاً قليلاً أو كثيراً، وهم من ترك ذكره الأعلى أنه لا قدرة له على الإتيان منه لثلا يلتبس أمره بالملائكة، وقد ذكر ذلك في بعض الآثار كما ذكره في ترجمة ورقة بن نوفل رضي الله عنه .

ولما عزم اللعين على هذا عزمًا صادقاً ورأى أسبابه ميسرة من الإنظار ونحوه، ظن أنه بما رأى لهم من الشهوات والحظوظ يظفر بأكثر حاجته، فقال عاطفاً على ما تقديره: فلاغوينهم ولتبعنني: ﴿ولا تجد أكثرهم﴾ كما هي عادة الأكثر في الخبث ﴿شكرين﴾ فأريد به الشقاء فأغرق في الحسد، ولو أريد بالشقي الخير لاستبدل بالحسد الغبطة فطلب أن يرتقي هو إلى درجاتهم العالية بالبكاء والندم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة خضوعاً لمقام الربوبية وذلاً لعظيم شأنه .

ولما كان كأنه قيل: ماذا قال له؟ قيل: ﴿قال﴾ في جواب ما ذكر لنفسه في هذا السياق من القوة والاعتدال وأبان عنه من الكبر والافتخار ما دل على أنه من أهل الصغار، لا يقدر على شيء إلا بإقرار العزيز الجبار، مصرحاً بما أريد من الهبوط الذي ربما حمل على النزول من موضع من الجنة عال إلى مكان منها أحط منه ﴿أخرج منها﴾ أي الجنة ﴿مذموماً﴾ أي محقوراً مخزياً بما تفعل، قال ابن القطاع: ذأمت الرجل: خزيته، وقال ابن فارس: ذأمته، أي حقرته ﴿مدحوراً﴾ أي مبعداً مطروداً عن كل ما لا أريده .

ولما علم بعض حاله، تشوفت النفس إلى حال من تبعه، فقال مقسماً مؤكداً بما يحق له من القدرة التامة والعظمة الكاملة: ﴿لمن تبعك منهم﴾ أي بني آدم، وأجاب القسم بما أغنى عن جواب الشرط فقال: ﴿لأملأن جهنم منكم﴾ أي منك ومن قبيلك ومنهم ﴿أجمعين﴾ أي لا يفوتني منكم أحد، فلم يزل من فعل ذلك منكم على أذى نفسه ولا أبالي أنا بشيء .

ولما أوجب له ما ذكر من الشقاوة تماديه في الحسد وكثرة كلامه في محسوده، التفت إلى محسوده الذي لم يتكلم فيه كلمة واحدة، بل اشتغل بنفسه في البكاء على ذنبه، واكتفى بفعل ربه بما ينجيه من حبائل مكره التي نصبها بما ذكر، ليكون ذلك سبب سعادته، فقال عاطفاً على ﴿أخرج منها﴾: ﴿ويأدم أسكن﴾ ولما كان المراد بهذا الأمر هو نفسه لا التجوز به عن بعض من يلبسه، أكد ضميره لتصحيح العطف ورفع التجوز فقيل: ﴿أنت وزوجك الجنة﴾ .

ولما كان السياق هنا للتعريف بأنه مكن لأبينا في الجنة أعظم من تمكينه لنا في الأرض بأن حباه فيها رغد العيش مقارناً لوجوده؛ ثم حسن في قوله: ﴿فكلاً﴾ العطف بالفاء الدال على أن المأكول كان مع الإسكان، لم يتأخر عنه، ولا منافاة بينه وبين التعبير بالواو في البقرة، لأن مفهوم الفاء نوع داخل تحت مفهوم الواو، ولا منافاة بين النوع والجنس، وقوله: ﴿من حيث شتتما﴾ بمعنى رغداً أي واسعاً، فإنه يدل على إباحة الأكل من كل شيء فيها غير المنهي عنه، وأما آية البقرة فتدل على إباحة الأكل منها في أي مكان كان، وهذا السياق إلى آخره مشير إلى أن من خالف أمره تعالى ثل عرشه وهدم عزه وإن كان في غاية المكنة ونهاية القوة كما أخرج من أعظم له المكنة بإسجاد ملائكته وإسكان جنته وإباحة كل ما فيها غير شجرة واحدة؛ أكد تحريمها بالنهي عن قربانها دون الاكتفاء بالنهي عن غشيانها فقال: ﴿ولا تقربا﴾ أي فضلاً عن أن تتناولوا ﴿هذه الشجرة﴾ مشيراً إلى شجرة بعينها أو نوعها؛ ثم سبب عن القربان العصيان، فإن من حام حول الحمى أوشك أن يواقعه فقال: ﴿فتكونا﴾ أي بسبب قربها ﴿من الظالمين﴾ أي بالأكل منها الذي هو مقصود النهي فتكونا بذلك فاعلين فعل من يمشي في الظلام؛ ثم سبب عن ذلك بيان حال الحاسد مع المحسودين فيما سأل الإنظار بسببه، وأنه وقع على كثير من مراده واستغوى منهم أمماً تجاوزوا الحد وقصر عنهم مدى العدة؛ ثم بين أنه أقل من أن يكون له فعل، وأن الكل بيده سبحانه، هو الذي جعله آلة لمراده منه ومنهم، وأن من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضل فأولئك هم الخاسرون، فقال: ﴿فوسوس﴾ أي ألقى في خفاء وتزيين وتكرير واشتهاء ﴿لهما الشيطان﴾ أي بما مكنه الله منه من أنه يجري من الإنسان مجرى الدم ويلقى له في خفاء ما يميل به قلبه إلى ما يريد؛ ثم بين علة الوسوسة بقوله: ﴿ليدي﴾ أي يظهر ﴿لهما ما وري﴾ أي ستر وغطي بأن جعل كأنه وراءهما لا يلتفتان إليه ﴿عنهما﴾ والبناء للمفعول إشارة إلى أن الستر بشيء لا كلفة عليهما فيه كما يأتي في قوله ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ [الأعراف: ٢٧] ﴿ومن سواتهما﴾ أي المواضع التي يسوءهما انكشافها، وفي ذلك أن إظهار السوء موجب للبعد من الجنة وأن بينهما منفية الجمع وكمال التباين.

ولما أخبر بالوسوسة وطوى مضمونها مفهوماً أنه أمر كبير وخداع طويل، عطف عليه قوله: ﴿وقال﴾ أي في وسوسته أيضاً، أي زين لهما ما حدث بسببه في خواطرهما هذا القول: ﴿ما نهكما﴾ وذكرهما بوصف الإحسان تذكيراً بإكرامه لهما تجربة لهما على ما يريد منهما فقال: ﴿ربكما﴾ أي المحسن إليكما بما تعرفانه من أنواع إحسانه ﴿عن﴾ أي ما جعل نهايتكما في الإباحة للجنة متجاوزة عن ﴿هذه الشجرة﴾ جمع بين الإشارة

والاسم زيادة في الاعتناء بالتنصيص ﴿إلا أن﴾ أي كراهية أن ﴿تكونا ملكين﴾ أي في عدم الشهوة وفي القدرة على الطيران والتشكل وغير ذلك من خواصهم ﴿أو تكونا﴾ أي بما يصير لكما من الجبله ﴿من الخلدين﴾ أي الذين لا يموتون ولا يخرجون من الجنة أصلاً.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلْنَهُمَا يُفْرِرُونَ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتَا لَهُمَا سَوَاءُ لَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْتُهُمَا رُبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهَيْطُوا بِعَضْكُمُ لِبَعْضِ عَدُوِّ وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ .

ولما أوصل إليهما هذا المعنى، أخبر أنه أكده تأكيداً عظيماً كما يؤكد الحالف ما يحلف عليه فقال: ﴿وقاسمهما﴾ أي أقسم لهما، لكن ذكر المفاعلة ليدل على أنه حصلت بينهما في ذلك مراوغات ومحاولات بذل فيها الجهد، وأكد لمعرفة أنه طبعاً على النفرة من المعصية - ما أقسم عليه أنواعاً من التأكيد في قوله: ﴿إني لكما﴾ فأفاد تقديم الجار المفهم للاختصاص أنه يقول: إني خصصتكما بجميع نصيحتي ﴿لمن النصحين﴾ وفيه تنبيه على الاحتراز من الحالف، وأن الأغلب أن كل حلاف كذاب، فإنه لا يحلف إلا عند ظنه أن سامعه لا يصدقه، ولا يظن ذلك إلا وهو معتاد للكذب.

ولما أخبر ببعض وسوسته لهما، سبب عنها ترجمتها بأنها إهباط من أوج شرف إلى حضيض أذى وسرف فقال: ﴿فذلّلها﴾ أي أنزلها عما كانا فيه من علو الطاعة مثل ما فعل بنفسه بالمعصية التي أوجبت له الهبوط من دار الكرامة ﴿بفروور﴾ أي بخداع وحيلة حتى نسي آدم عهد ربه، وقوله: ﴿فلما ذاقا﴾ مشير إلى الإسراع في الجزاء بالفاء والذوق الذي هو مبدأ الأكل ﴿الشجرة﴾ أي وجدا طعمها ﴿بدت﴾ أي ظهرت ﴿لهما سواتهما﴾ أي عوراتهما اللاتي يسوءهما ظهورها، وتهافت عنهما لباسهما فأبصر كل واحد ما كان مستوراً عنه من عورة الآخر، وذلك قصد الحسود فاستحيا عند ذلك ﴿وطفقاً﴾ أي شرعاً وأقبلاً ﴿يخصفن عليهما﴾ أي يصلان بالخياطة ﴿من ورق الجنة﴾ ورقة إلى أخرى ﴿وناديهما ربهما﴾ أي المحسن إليهما بأمرهما ونهيهما، ولم يفعل شيئاً من ذلك إلا بمرأى منه، فقال منكراً عليهما ما فعلاه ومعاتباً: يا عبدي ﴿ألم أنهكما﴾ أي أجعل لكما نهاية فيما أذن لكما فيه متجاوزة ﴿عن تلكما الشجرة﴾ أي التي كان حقها البعد منها، الموجبة للقربة من هذا الموضع الشريف إحساناً إليكما ﴿وأقل لكما إن

الشيطان ﴿ أي الذي تكبر عن السجود حسداً لك يا آدم ونفاسة عليك، فاحترق بغضبي فطرد وأبعد عن رحمتي ﴾ ﴿لكما﴾ أي لك ولزوجك ولكل من تفرع منكما ونسب إليكما ﴿عدو مبين﴾ * ظاهر العداوة يأتيكم من كل موضع يمكنه الإتيان منه مجاهرة ومساترة ومماكرة فهو مع ظهور عداوته دقيق المكر بما أقدرته عليه من إقامة الأسباب، فإني أعطيته قوة على الكيد، وأعطيتكم قوة على الكيد وأعطيتكم قوة على الخلاص وقلت لكم: تغالبوا فإن غلبتموه فأنتم من حزبي، وإن غلبكم فأنتم من حزبه مع ما له إليكم من العداوة، فالآية منبهة على أن من غوى فإنما هو تابع لأعدى أعدائه تارك لأولى أوليائه.

ولما كان هذا، تشوف السامع إلى جوابهما، فأجيب بقوله: ﴿قالا﴾ أي آدم وحواء - عليهما السلام وأزكى التحية والإكرام - قول الخواص بإسراعهما في التوبة ﴿ربنا﴾ أي أيها المحسن إلينا والمنعم علينا ﴿ظلمنا أنفسنا﴾ أي ضررناها بأن أخرجناها من نور الطاعة إلى ظلام المعصية، فإن لم ترجع بنا وتب علينا لنستمر عاصيين ﴿وإن لم تغفر لنا﴾ أي تمحو ما عملناه عيناً وأثراً ﴿وترحمنا﴾ فتعلي درجاتنا ﴿لنكونن من الخسرين﴾ * فأعربت الآية عن أنهما فزعا إلى الانتصاب بالاعتراف، وسميا ذنبهما - وإن كان إنما هو خلاف الأولى لأنه بطريق النسيان كما في طه - ظلماً كما هي عادة الأكابر في استعظام الصغير منهم، ولم يجادلا كما فعل إبليس، وفي ذلك إشارة إلى أن المبادرة إلى الإقرار بالذنب من فعال الأشراف لكونه من معالي الأخلاق، وأنه لا مثيل له في اقتضاء العفو وإزالة الكدر وأن الجدال من فعال الأردال ومن مساوي الأخلاق وموجبات الغضب المقتضي للطرد.

ولما تشوفت النفس إلى جواب العلي الكبير سبحانه، أجيب بقوله: ﴿قال﴾ اهبطوا ﴿ أي إلى دار المجاهدة والمقارعة والمناكدة حال كونكم ﴾ ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي أنتما ومن ولدتماه أعداء إبليس ومن ولد، وبعض أولادكم أعداء لبعض، ولا خلاص إلا باتباع ما منحتكم من هدى العقل وما أنزلت إليكم من تأييده بالنقل، وفي ذلك تهديد صاعد لمن له أدنى مسكة بالإشارة إلى قبح مغبة المخالفة ولو مع التوبة، وحث على دوام المراقبة خوفاً من سوء المعاقبة ﴿ولكم في الأرض﴾ أي جنسها ﴿مستقر﴾ أي موضع استقرار كالسهول وما شابهها ﴿ومتاع إلى حين﴾ * أي انقضاء آجالكم ثم انقضاء أجل الدنيا.

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٥٠﴾ يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَاسًا يُورِي

سَوَاءٌ تَكُونُمْ وَرِيشًا وَوَلِيَّاسٌ أَلْتَقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمًا إِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ .

ولما علم بهذا أن للكون في الأرض آخرًا، وكان من الفلاسفة التناسخية وغيرهم ممن يقر بالوحدانية من يقول: إن النفوس مجردة عن الجسمية وعلائقها وإنه إذا هلك الجسد اتصلت بالعلويات إما بكوكب أو غيره أو انحطت في سلك الملائكة وبطل تعلقها بالبدن من كل وجه فلا تتصل به لا بتدبير ولا غيره ولا بالبعث - عند من قال منهم بالبعث، كان كأنه قيل: فماذا يكون بعد ذلك؟ فأجيب بقوله: ﴿قال﴾ أي الله راداً عليهم ما يعتقدون من بطلان التعلق بالبدن معبراً بالخطاب بالضمير الذي يعبر عن هذا الهيكل المخصوص روحاً وجسداً ﴿فيها﴾ أي الأرض لا في غيرها ﴿تحيون﴾ أي أولاً وثانياً على ما أنتم عليه بظواهركم وبواطنكم أبداناً وأرواحاً ﴿وفيها﴾ أي كذلك، لا في غيرها كما أنتم لذلك مشاهدون ﴿تموتون﴾ أي من الحياة الأولى بجملتكم، فيكون للأرواح تعلق بالأبدان بوجه ما حتى يقعد الميت في القبر ويجب سؤال الملكين عليهما السلام، وتلتذ الأجساد بلذتها وتآلم بتآلمها، فأشير إلى الحشر مع تفصيل حال الكون في الأرض، وختمت القصة بما ابتدئت به من الإعلام بالبعث بقوله: ﴿ومنها﴾ أي لا من غيرها بإخبار الصادق ﴿تخرجون﴾ أي روحاً وبدناً بعد موتكم فيها وعودكم إلى ما كنتم عليه أولاً تراباً، للجزاء وإظهار ثمرة الملك بإنصاف بعضكم من بعض والتحلي بصفة العدل فما كان بعضكم يفعل مع بعض من العسف والجور الذي لا يرضي أقل رؤسائكم أن يقر عليه عبيده، وعلم بهذا أن الدلالة على الحشر فذلكة القصة، وهذا أبين من ذكره فيما مضى في قوله ﴿فلنستلن الذين أرسل إليهم﴾ [الأعراف: ٦].

ولما بين فيما مضى أن موجب الإخراج من الجنة هو ما أوجب كشف السوءة من المخالفة وفرغ مما استتبعه حتى أخبر بأنه حكم بإسكاننا هذه الدار بعد تلك الدار، شرع يحذرنا من عدونا كما حذر أبانا عليه السلام، وبدأ بقوله بياناً لأنه أنعم علينا فيها بكل ما يحتاج إليه في الدين والدنيا وإيذاناً بما في كشف العورة من الفضيحة والإبعاد عن كل خير وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى ﴿يبنى آدم﴾ .

ولما كان الكلام في كشف العورة، وأن آدم عليه السلام أعوزه الساتر حتى فرغ إلى الورق، كان موضع أن يتوقع ما يكون في ذلك فقال مفتتحاً بحرف التوقع: ﴿قد﴾ ١٠٠ ﴿أي بعظمتنا﴾ عليكم من آثار بركات السماء، إما ابتداء بخلقه وإما بإنزال أسبابه لمطر ونحوه ﴿لباساً﴾ أي لم يقدر عليه أبوكم في الجنة ﴿بإبوابي سواتكم﴾ إرشاداً

إلى دواء ذلك الداء وإعلاماً بأن نفس الكشف نقص لا يصلح لحضرات الكمال، وقال: ﴿وريشاً﴾ إشارة إلى أنه سبحانه زادنا على الساتر ما به الزينة والجمال استعارة من ريش الطائر، محبباً فيما يبعد من الذنب ويقرب إلى حضرة الرب .

ولما ذكر اللباس الحسي، وقسمه على ساتر ومزين، أتبعه المعنوي فقال مشيراً - بقطعه في قراءة الجمهور عما قبله - إلى كمال تعظيمه حثاً عليه وندباً إليه: ﴿ولباس التقوى﴾ فعلم أن ساتر العورات حسي ومعنوي، فالحسي لباس الثياب، والمعنوي التحلي بما يبعث على المناب؛ ثم زاد في تعظيم المنوي بقوله: ﴿ذلك خير﴾ أي ولباس التقوى هو خير من لباس الثياب، ولكنه فصل باسم الإشارة المقترن بأداة البعد إيماء إلى علو رتبته وحسن عاقبته لكونه أهم اللباسين لأن نزعه يكون بكشف العورة الحسية والمعنوية، فلو تجمل الإنسان بأحسن الملابس وهو غير متق كان كله سوءات، ولو كان متقياً وليس عليه إلا خريقة تواري عورته كان في غاية الجمال والستر والكمال، بل ولو كان مكشوف العورة في بعض الأحوال كما قال ﷺ «ستر ما بين عوراتكم وأعين الجن أن يقول أحدكم إذا دخل الخلاء: بسم الله اللهم! إنني أعوذ بك من الخبيث والخبائث» رواه الترمذي وابن ماجه عن علي رضي الله عنه، والذي يكاد يقطع به أن المعاصي سبب إحلال السوءة الذي منه ضعف البدن وقصر العمر حساً أو معنى بمحق البركة منه لما يفهمه ما تقدم في البقرة في بدء الخلق عن التوراة أن الله تعالى قال لآدم عليه السلام: كل من جميع أشجار الفردوس، فأما شجرة علم الخير والشر فلا تأكل منها لأنك في اليوم الذي تأكل منها تموت موتاً أي تنهياً للموت حساً، ويقضى عليك بالاشتغال بأسباب المعيشة فيقصر عمرك معنى بذهاب بركته - والله أعلم .

ولما كان في شرع اللباس تمييز الإنسان عن بقية الحيوان وتهيته أسبابه التي لم يجدها آدم عليه السلام في الجنة من الفضل والنعمة والدلالة على عظمة المنعم ورحمته وقدرته واختياره ما هو معلوم، قال: ﴿ذلك﴾ أي إنزال اللباس ﴿من آيت الله﴾ أي الذي حاز صفات الكمال الدالة على فضله ورحمته لعباده، ولعل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في ﴿لعلهم يذكرون﴾ - ولو على أدنى وجوه التذکر بما يشير إليه الإدغام - لثلا يقول المتعنت: إن الحث على التذکر خاص بالمخاطب ويدعي أنه المسلمون فقط، أي أنزلنا ذلك ليكون حالهم حال من يتذکر فيعرف أنه يستقبح منه ما يستقبح من غيره .

ولما كان المقصود من ذكر القصص لا سيما قصص الأنبياء الاعتبار بها، فكان بيان ما وقع بين آدم عليه السلام وبين الشيطان من شديد العداوة مقتضياً للتحذير من الشيطان، وكان المقام خطراً والتخلص عسراً، أشار إلى ذلك بالتأكيد وبيان ما سلط

الشیطان به من المکاید الخفية والأسباب الدقيقة لیعلم الناجي أنه إنما نجا بمحض التوفيق ومجرد اللطف فیقبل علی الشکر متبرئاً من الحول والقوة، فقال منادياً لهم بما يفهم الاستعطاف والترأف والتحنن والترفق والاستضعاف: ﴿بِئْسَ آدَمُ﴾ أي الذي خلقته بيدي وأسكنته جنتي ثم أنزلته إلى دار محبتي إرادة الإعلاء لكم إلى الذروة من عبادتي والإسفال إلى الحضيض من معصيتي ﴿لَا يَفْتَنَنَّكُمْ﴾ أي لا یخالطنکم بما یمیلکم عن الاعتدال ﴿الشيطان﴾ أي البعيد المحترق بالذنوب، یصدکم عما یكون سبباً لردکم إلى وطنکم بتزیین ما ینزع عنکم من لباس التقوی المفضي إلى هتک العورات الموجب لخزي الدنيا، فیمنعکم بذلك من دخول الجنة ویدخلکم النار ﴿كما أخرج أبو یوسف من الجنة﴾ بما فتنهما به بعد أن كانا سکانها وتمکنا فیها وتوطنها، وقد علمتم أن الدفع أسهل من الرفع فإیاکم ثم إیاکم! فالآية من الاحتباك: ذکر الفتنة أولاً دليلاً علی حذفها ثانياً، والإخراج ثانياً دليلاً علی حذف ضده أو نظيره أولاً.

ولما كان الشيطان قد بذل الجهد في إخراجهما، فسر الإخراج - مشيراً إلى ذلك - بإطالة الوسواس وإدامة المكر والخديعة بالتعبير بالفعل المضارع فقال في موضع الحال من ضمير «الشيطان»: ﴿ینزع عنهما﴾ أي بالتسبیب بإدامة التزیین والأخذ من المأمّن ﴿لباسهما﴾ أي الذي كان الله سبحانه قد سترهما به ما دام حافظين لأنفسهما من موقعة ما نهيا عنه، ودل علی منافاة الكشف للجنة بالتعليل بقوله: ﴿لیريهما سواتهما﴾ فإن ذلك مبدأ ترك الحياء و«الحياء والإيمان في قرن»^(١) - كما أخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رضي الله عنهما، و«الحياء لا يأتي إلا بخير»^(٢) - كما رواه الشيخان عن عمران بن حصين رضي الله عنهما.

ولما كان نهى الشيطان عن فتنتنا إنما هو في الحقيقة نهى لنا عن الافتتان به، فهو في قوة لیشتد حذرکم من فتنته فإنه دقيق الكيد بعيد الغور بدیع المخاتلة؛ علل ذلك

(١) قلت. أخرج أبو نعيم في الحلية ٢٩٧/٤ من حديث ابن عمر بلفظ: «الحياء والإيمان قرناً جميعاً، فإذا رفع أحدهما، رفع الآخر» قال أبو نعيم: غريب من حديث سعيد تفرد به عنه يعلى أ ه قلت: يعلى بن حكيم من رجال الشيخين.

وبلفظ المصنف أخرج الطبراني في الأوسط ٢٢٣ كما في المجمع ٩٢/١ بزيادة: «فإذا سلب أحدهما تبع الآخر» من حديث ابن عباس. قال الهيثمي: وفيه يوسف بن خالد السمي كذاب خبيث أ ه.

وله شاهد آخر من حديث أبي موسى أخرج الطبراني في الأوسط والصغير ٦٢٢ وذكره الهيثمي في المجمع ٩٢/١، وقال: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وتفرد به محمد بن عبيدة القومسي أ ه وهو زاه كما قال المناوي في فيض القدير ٤٢٦/٣.

(٢) صحيح. أخرج البخاري ٦١١٧ ومسلم ٣٧ من حديث عمران بن حصين بهذا اللفظ.

بقوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ﴾ أي الشيطان ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ أي جنوده ﴿مَنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ عن مالك بن دينار أن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله .

ولما كان كأنه قيل: لم سلطوا علينا هذا التسليط العظيم الذي لا يكاد يسلم معه أحد، قال مخففاً لأمرهم موهياً في الحقيقة لكيدهم: ﴿إِنَّا﴾ أي فعلنا ذلك لأننا بما لنا من العظمة ﴿جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ﴾ أي المحترقين بالغضب البعدين من الرحمة ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أي قرياء وقرناء ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي يجددون الإيمان، لأن بينهم تناسباً في الطباع يوجب الاتباع، وأما أولياؤنا الذين منعناهم بقوتنا منهم أو فتناهم يسيراً بهم، ثم خلصناهم بلطفنا منهم فليسوا لهم بأولياء، بل هم لهم أعداء وآيتهم أنهم يؤمنون، والمعنى أنا مكناهم من مخاللتكم بسترهم عنكم وإظهاركم لهم، فسلطانهم بذلك على من حكمنا بأنه لا يؤمن بتزيينهم لهم وتسويلهم واستخفافهم بأن ينصروهم في بعض المواطن ويوصلوهم إلى شيء من المطالب، فعلنا ذلك ليتبين الرجل الكامل - الذي يستحق الدرجات العلى ويتردد إليه الملائكة بالسلام والجنى - من غيره فخذوا حذرهم فإن الأمر خطر والخلاص عسر، وبعبارة أخرى: إنا سلكتناكم طريقاً وجعلنا بجنبتيها أعداء يرونكم ولا ترونهم، وأقدرناهم على بعضكم، فمن سلك سواء السبيل نجا ومن شذ أسره العدو، ومن دنا من الحافات بمرافقة الشبهات قارب العدو ومن قاربه استغواه، فكلما دنا منه تمكن من أسره، وكل من تمكن من أسره بعد الخلاص فاحذروا، وعدم رؤيتنا لهم في الجملة لا يقتضي امتناع رؤيتهم على أنه قد صح تصورهم في الأجسام الكثيفة ورؤية بني آدم لهم في تلك الأجسام كالشيطان الذي رآه أبو هريرة رضي الله عنه حين أمره رسول الله ﷺ بحفظ الصدقة^(١)، وكذا أبي بن كعب رضي الله عنه^(٢)، وحديث خالد بن الوليد رضي الله عنه في شيطان العزي معروف في السير^(٣)، وكذا

(١) يشير المصنف لحديث أبي هريرة عند البخاري ٢٣١١ و ٣٢٧٥ و ٥٠١٠ والنسائي في عمل اليوم والليلة من السنن الكبرى ١٠٧٩٥ والبيهقي في الدلائل ١٠٧/٧ و ١٠٨ وهو حديث طويل، وفيه: «أما إنه صدقك، وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قال: لا قال: ذاك شيطان .

(٢) يشير المصنف لحديث أبي بن كعب عند النسائي في سننه الكبرى ١٠٧٩٦ و ١٠٧٩٧ والبيهقي في الدلائل ١٠٨/٧ و ١٠٩ والطبراني في الكبير برقم ٥١٤ وابن حبان ٧٨٤ والحاكم ٥٦٢/١ وهو حديث طويل، وفيه: «فسلمت فرد السلام، فقلت: ما أنت؟ جن أم إنس؟ فقال جن، فقلت: ناولني يدك، فإذا يد كلب وشعر كلب...»

(٣) هذه القصة ذكرها البيهقي في الدلائل من حديث أبي الطفيل ٧٧/٥ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى... فإذا امرأة عريانة ناشزة شعرها تحثو التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها...»

حديث سواد بن قارب رضي الله عنه في إرشاد رئيه من الجن له^(١)، وكذا خطر ابن مالك رضي الله عنه في مثل ذلك وغيرهما، وفي شرحي لنظمي للسيرة كثير من ذلك، وكذا حديث العفرية الذي تفلت على رسول الله ﷺ بشعلة من نار ليقطع عليه صلاته فأخزاه الله وأمكن منه رسول الله، وقال النبي ﷺ: «لولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لأصبح مربوطاً بسارية المسجد يتلعب به ولدان أهل المدينة»^(٢) قال أبو حيان: إلا أن رؤيتهم في الصور نادرة كما أن الملائكة عليهم السلام تبدو في صور كحديث جبريل عليه السلام.

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٧٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٠﴾ يَبْنِي عَادٌ مِثْرًا لِمَنْ هُمْ يُبْنُونَ وَارْتَمَتْ عَادُ الْمِثْرَافِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

ولما جعل أمارتهم في ولاية الشيطان عدم الإيمان، عطف على ذلك أمارة أخرى فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ أي أمراً بالغاً في القبح كالشرك وكشف العورة في الطواف ﴿قَالُوا﴾ معللين لارتكابهم إياها ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا﴾ أي الفاحشة ﴿آبَاءَنَا﴾ ولما كانت هذه العلة ظاهراً عارها بيناً عوارها، ضموا إليها افتراء ما يصلح للعلية، فقالوا معبرين بالاسم الأعظم غير محتشمين من جلاله وعظمته وكماله: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

ولما كانت العلة الأولى ملغاة، وكان العلم ببطانها بديهياً، لأن من المعلوم أنهم لو وجدوهم على سفه في تحصيل المال ما تابعوهم؛ أعرض عنها إشارة إلى ذلك، وأمر بالجواب عن الثانية التي هي افتراء على الملك الأعلى مع ادعائهم أنهم أبعد الناس

(١) حديث سواد بن خاطر. أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٤٨/٢ و٢٤٩ و٢٥١ مطولاً وفيه: «إني كنت نازلاً بالهند وكان لي رتي من الجن. قال: فبينما أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءني في منامي ذلك، قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤي بن غالب، ثم أنشأ يقول:
عجبت للجن وأنجاسها وشدها العيس بأحلاسها».

وأخرجه البخاري في صحيحه دون ذكر (اسم سواد بن خاطر) من حديث عبد الله بن عمر، وكذا البيهقي في الدلائل ٢٤٣/١. ٢٤٤.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٥٤٢ والنسائي ١٣/٣ وابن حبان ١٩٧٩ والبيهقي ٢/٢٦٣ و٢٦٤ من حديث أبي الدرداء، وفي الباب، من حديث عائشة.

عن مطلق الكذب وأشدهم تحريماً بقوله: ﴿قل إن الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿لا يأمر بالفحشاء﴾ أي بشيء من هذا الجنس.

ولما كان الكذب قبيحاً في نفسه وهو عندهم أقيح القبيح مطلقاً، فكيف به على كبير منهم فكيف إذا كان على أعظم العظماء! قال منكرراً عليهم موبخاً لهم مهدداً: ﴿أقولون على الله﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ما لا تعلمون﴾ لأنكم لم تسمعوا ذلك عن الله بلا واسطة ولا نقل إليكم بطريق صحيح عن نبي من الأنبياء عليهم السلام، وفيه تهديد شديد على الجهل والقول على الله بالظن.

ولما كان تعليلهم بأمر الله مقتضياً لأنه إذا أمر بشيء أتبع، أمره أن يبلغهم أمره الذي جاء به دليل العقل مؤيداً بجازم النقل فقال: ﴿قل﴾ أي لهؤلاء الذين نابذوا الشرع والعرف ﴿أمر ربي﴾ المحسن إليّ بالتكليف بمحاسن الأعمال، التي تدعو إليها الهمم العوال ﴿بالقسط﴾ وهو الأمر الوسط بين ما فحش في الإفراط صاعداً عن الحد، وفي التفريط هابطاً منه؛ ولما كان التقدير: فأقسطوا اتباعاً لما أمر به، أو كان القسط مصدراً ينحل إلى: أن أقسطوا، عطف عليه ﴿وأقيموا وجوهكم﴾ مخلصين غير مرتكبين لشيء من الجور ﴿عند كل مسجد﴾ أي مكان ووقت وحال يصلح السجود فيه، ولا يتقيدن أحد بمكان ولا زمان بأن يقول وقد أدركته الصلاة: أذهب فأصلي في مسجدي ﴿وادعوه﴾ عند ذلك كله دعاء عبادة ﴿مخلصين له الدين﴾ أي لا تشركوا به شيئاً.

ولما كان المعنى: فإن من لم يفعل ذلك عذبه بعد إعادته له بعد الموت، ترجمه مستدلاً عليه بقوله معللاً: ﴿كما بدأكم﴾ أي في النشأة الأولى فأنتم تبتدئون نعيدكم بعد الموت فأنتم ﴿تعودون﴾ حال كونكم فريقين: ﴿فريقاً هدى﴾ أي خلق الهداية في قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية ﴿وفريقاً أضل﴾، ثم فسر أضل - لأنه واجب التقدير بالنصب - بقوله: ﴿حق﴾ أي ثبت ووجب ﴿عليهم الضلالة﴾ أي لأنه أضلهم فيحشرون على ما كانوا عليه في الدنيا من الأديان، والأبدان، وقد تبين أن ههنا احتباكين: أثبت في أولهما بدا دليلاً على حذف يعيد وذكر تعودون دليلاً على حذف تبتدئون، وأثبت في الثاني هدى دليلاً على حذف أضل وذكر حقوق الضلالة دليلاً على حذف حقوق الهدى.

ولما كرر سبحانه ذكر البعث كما تدعو إليه الحكمة في تقرير ما ينكره المخاطب تأنيساً له به وكسراً لشوكته وإيهاناً لقوته وقمعاً لسورته إلى أن ختم بما هو أدل عليه مما قبل من قوله ومنها تخرجون ﴿فلنستلن الذين أرسل إليهم﴾ [الأعراف: ٦] علل ما ختم به هذا الدليل من حقوق الضلالة أي وجوبها أي وجوب وبالها عليهم بقوله: ﴿إنهم

اتخذوا ﴿ أي كلفوا أنفسهم ضد ما دعتهم إليه الفطرة الأولى بأن أخذوا ﴾ الشيطيين أولياء ﴿ أي أقرباء وأنصاراً ﴾ من دون الله ﴿ أي الملك الأعلى الذي لا مثل له ﴾ ويحسبون ﴿ أي والحال أنهم يظنون بقله عقولهم ﴾ أنهم مهتدون * ﴿ فأشار بذلك إلى أنهم استحقوا النكال لأنهم قنعوا في الأصول - التي يجب فيها الابتهاال إلى القطع - بالظنون .

ولما أمر سبحانه بالقسط وإقامة الوجه عند كل مسجد، أمرهم بما ينبغي عند تلك الإقامة من ستر العورة الذي تقدم الحث عليه وبيان فحش الهتك وسوء أثره معبراً عنه بلفظ الزينة ترغيباً فيه وإذناً في الزينة وبياناً لأنها ليس مما يتورع عنه لقوله ﷺ «إن الله يحب إذا بسط على عبد رزقه أن يرى أثر نعمته عليه»^(١) رواه أحمد والترمذي وابن منيع عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأتبع ذلك أعظم ما ينبغي لابن آدم أن يعتبر فيه القسط من المأكول والمشرب فقال مكرراً النداء استعطافاً وإظهاراً لعظيم الإشفاق وتذكيراً بقصة أبيهم آدم عليه السلام التي أخرجته من الجنة مع كونه صفي الله ليشتد الحذر: ﴿ يبنني آدم ﴾ أي الذي زيناه فغره الشيطان ثم وقيناه شره بما أنعمنا عليه به من حسن التوبة وعظيم الرغبة ﴿خذوا زيتكم﴾ أي التي تقدم التعبير عنها بالريش لستر العورة والتجمل عند الاجتماع للعبادة ﴿عند كل مسجد﴾ وأكد ذلك كونهم كانوا قد شرعوا أن غير الحمس يطوفون عراة .

ولما أمر بكسوة الظاهر بالثياب لأن صحة الصلاة متوقفة عليها، أمر بكسوة الباطن بالطعام والشراب لتوقف القدرة عادة عليها فقال: ﴿وكلوا واشربوا﴾ وحسن ذلك أن بعضهم كان يتدين في الحج بالتضييق في ذلك .

ولما أمر بالملبس والمطعم، نهى عن الاعتداء فيهما فقال: ﴿ولا تسرفوا﴾ بوضع

(١) حسن . أخرجه أبو داود ٤٠٦٣ والنسائي ١٨٠/٨ و ١٨١ وابن حبان ٥٤١٦ و ٥٤١٧ والقضاعي في الشهاب ١١٠٠ والطبراني ١٩ (٦٢٣) (٦٢٤) والحاكم ١٨١/٤ وأحمد ٤٧٣/٣ و ١٣٧/٤ من حديث أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه . صححه الحاكم، ووافقه الذهبي .
وله شاهد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أخرجه الترمذي ٢٨١٩ وقال : حديث حسن .
وله شاهد آخر من حديث أنس أخرجه القضاعي ١١٠١ وفي إسناده ضعف .
وحديث أبي هريرة الذي ذكره المصنف هو عند البيهقي في الشعب برقم ٦٢٠٢ و ٦٢٠٣ وعند أبي نعيم في أخبار أصبهان ٧٨/١ .
وله شاهد آخر من حديث عمران بن حصين أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر ٥٠ والقضاعي ١١٠٢ والبيهقي ٣/٢٧١ وفي الشعب ٦٢٠٠ والطبراني في الكبير ٢٨١ و ٤١٨ والطحاوي في المشكل ٤/١٥١ وأحمد ٤/٢٣٨ ورجاله ثقات وكذا، الحاكم في معرفة علوم الحديث ص/١٦١ .

شيء من ذلك فيما لا يكون أحق مواضعه ولو بالزيادة على المعاء، ومن ذلك أن يتبع السنة في الشرب فيسير لأن العكر يرسب في الإناء فربما أذى من شربه، ولذلك نهى عن النفس في الإناء لأنه ربما أنتن فعافته النفس، وأما الطعام فيلحسن إناءه والأصابع لنيل البركة وهو أنظف، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يكرمهم، ولا شك أن من لا يحبه لا يحصل له شيء من الخير فيحيط به كل شر، ومن جملة السرف الأكل في جميع البطن، والاقتصاد الاقتصار على الثلث كما قال النبي ﷺ «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»^(١) و «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن»^(٢) و «الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معى واحد»^(٣) أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال الأطباء: الأمعاء سبعة، فالمعنى حينئذ أن الكافر يأكل سبعاً فيملاً الأمعاء السبعة، والمؤمن يأكل تقوتاً فيأكل في معى واحد، وذلك سبع بطنه، وإليه الإشارة بلقيمات، فإن لم يكن ففي معاءين وشيء وهو الثلث - والله أعلم - وسبب الآية أنهم كانوا يطرحون ثيابهم إذا أرادوا الطواف، يقولون: لا نظوف في ثياب إذ بتنا فيها، ونتعري منها لتتعري من الذنوب إلا الحمس وهم قريش ومن ولده، وكانوا لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً، فقال المسلمون: يا رسول الله! فنحن أحق أن نفعل ذلك - فأنزلت^(٣).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٢٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾^(٢٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٢٤)

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٣٨٠ والنسائي في الكبرى ٦٧٦٨ و ٦٧٦٩ وابن ماجه ٣٣٤٩ وابن حبان ٦٧٤ و ٥٢٣٦ والحاكم ١٢١/٤ والقضاعي ١٣٤٠ و ١٣٤١ والطبراني ٢٠/٦٤٦) وأحمد ١٣٢/٤ من حديث المقدم بن معد يكرب وذكره ابن حجر في شرحه على البخاري ٥٢٨/٩ وحسنه، وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: صحيح. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٣٩٧ و ٥٣٩٦ ومسلم ٢٠٦٣ والترمذي ١٨١٩ وابن ماجه ٣٢٥٦ وابن حبان ١٦١ و ١٦٢ ومالك ١٠٩/٣ وأحمد ٢٥٧/٢ من حديث أبي هريرة.

(٣) مرسل. أخرجه الواحدي في أسبابه ٤٥٣ من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلًا، ولم يذكرها في آخره (كانوا لا يأكلون الطعام...). وعجزه عند الواحدي لكن برقم ٤٥٤ من طريق الكلبي وهو متهم. وانظر الدرر المنتور ٤٥/٣ [الأعراف: ٣١]. وله شاهد عند مسلم برقم ٣٠٢٨ من حديث ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت، وهي عريانة، فتقول: من يُعيرني تطواقاً تجعله على فرجها... فتزلت هذه الآية: ﴿خذوا زيتكم عند كل مسجد﴾.

ولما كان من المعلوم أن ما كانوا ألفوه واتخذوه ديناً يستعظمون تركه، لأن الشيطان يوسوس لهم بأنه توسع الدنيا، والتوسع فيها مما ينبغي الزهد فيه كما دعا إليه كثير من الآيات، أكد سبحانه الإذن في ذلك بالإنكار على من حرمه، فقال منكراً عليهم إعلماً بأن الزهد الممدوح ما كان مع صحة الاعتقاد في الحلال والحرام، وأما ما كان مع تبديل شيء من الدين بتحليل حرام أو عكسه فهو مذموم: ﴿قل﴾ منكراً موبخاً ﴿من﴾ حرم زينة الله ﴿أي الملك الذي لا أمر لأحد معه﴾ التي أخرج لعباده ﴿أي ليعتصموا بها من الثياب والمعادن وغيرها.

ولما ذكر الملابس التي هي شرط في صحة العبادة على وجه عم غيرها من المراكب وغيرها، أتبعها المآكل والمشرب فقال: ﴿والطيبات﴾ أي من الحلال المستلذ ﴿من الرزق﴾ كالبخائر والسوائب ونحوها؛ ولما كان معنى الإنكار: لم يحرمها من يعتبر تحريمه بل أحلها، وكان ربما غلا في الدين غال تمسكاً بالآيات المنفرة عن الدنيا المهونة لشأنها مطلقاً فضلاً عن زينة وطيبات الرزق، قال مستأنفاً لجواب من يقول: لمن؟: ﴿قل هي﴾ أي الزينة والطيبات ﴿للذين آمنوا﴾ وعبر بهذه العبارة ولم يقل: ولغيرهم، تنبيهاً على أنها لهم بالاصالة ﴿في الحياة الدنيا﴾ وأما الكفار فهم تابعون لهم في التمتع بها وإن كانت لهم أكثر، فهي غير خالصة لهم وهي للذين آمنوا ﴿خالصة﴾ أي لا يشاركهم فيها أحد، هذا على قراءة نافع بالرفع، والتقدير على قراءة غيره: حال كونها خالصة ﴿يوم القيمة﴾ وفي هذا تأكيد لما مضى من إحلالها بعد تأكيد ومحو الشكوك، وداعية للتأمل في الفصل بين المقامين لبيان أن الزهد المأمور به إنما هو بالقلب بمعنى أنه لا يكون للدنيا عنده قدر ولا له إليها التفات ولا هي أكبر همه، وأما كونها ينتفع بها فيما أذن الله فيه وهي محقورة غير مهمتها فذلك من المحاسن.

ولما كان هذا المعنى من دقائق المعاني ونفائس المباني، أتبعه تعالى قوله جواباً لمن يقول: إن هذا التفصيل فائق فهل يفصل غيره هكذا؟ ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا التفصيل البديع ﴿نفصل الآيت﴾ أي نبين أحكامها ونميز بعض المشتبهات من بعض ﴿لقوم يعلمون﴾ أي لهم ملكة وقابلية للعلم ليتوصلوا به إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح.

ولما بين أن ما حرموه ليس بحرام فتقرر ذلك تقررأ نزع من النفوس ما كانت ألفتها من خلافه، ومحا من القلوب ما كانت أشربته من ضده؛ كان كأنه قيل: فماذا حرم الله الذي ليس التحريم إلا إليه؟ فأمره تعالى بأن يجيبهم عن ذلك ويزيدهم بأنه لم يحرم

غيره فقال: ﴿قل إنما حرم ربي﴾ أي المحسن إليّ بجعل ديني أحسن الأديان ﴿الفواحش﴾ أي كل فرد منها وهي ما زاد قبحه؛ ولما كانت الفاحشة ما يتزايد قبحه فكان ربما ظن أن الإسرار بها غير مراد بالنهاي قال: ﴿ما ظهر منها﴾ بين الناس ﴿وما بطن﴾.

ولما كان هذا خاصاً بما عظمت شناعته قال: ﴿والإثم﴾ أي مطلق الذنب الذي يوجب الجزاء، فإن الإثم الذنب والجزاء؛ ولما كان البغي زائد القبح مخصوصاً بأنه من أسرع الذنوب عقوبة، خصه بالذكر فقال: ﴿والبغى﴾ وهو الاستعلاء على الغير ظلماً، ولكنه لما كان قد يطلق على مطلق الطلب، حقق معناه العرفي الشرعي فقال: ﴿بغير الحق﴾ أي الكامل الذي ليس فيه شائبة باطل، فمتى كان فيه شائبة باطل كان بغياً، ولعله يخرج العلو بالحق بالانتصار من الباغي فإنه حق كامل الحقية، وتكون تسميته بغياً على طريق المشاكلة تنفيراً - بإدخاله تحت اسم البغي - من تعاطيه وندباً إلى العفو كما تقدم مثله في ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ [النساء: ١٤٨] ويمكن أن يكون تقييده تأكيداً لمنعه بأنه لا يتصور إلا موصوفاً بأنه بغير الحق كما قال تخصيصاً وتنصيماً تنبيهاً على شدة الشناعة: ﴿وأن تشركوا بالله﴾ أي الذي اختص بصفات الكمال ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ فإنه لا يوجد ما يسميه أحد شريكاً إلا وهو مما لم ينزل به الله سلطاناً بل ولا حجة به في الواقع ولا برهان، ولعله إنما قيده بذلك إرشاداً إلى أن أصول الدين لا يجوز اعتمادها إلا بقاطع فكيف بأعظمها وهو التوحيد! ولذلك عقبه بقوله: ﴿وأن﴾ أي وحرّم أن ﴿تقولوا على الله﴾ أي الذي لا أعظم منه ولا كفوء له ﴿ما لا تعلمون﴾ أي ما ليس لكم به علم بخصوصه ولا هو مستند إلى علم أعم من أن يكون من الأصول أو لا.

ولما تقدم أن الناس فريقان: مهتد وضال، وتكرر ذم الضال باجترائه على الله بفعل ما منعه منه وترك ما أمره به، وكانت العادة المستمرة للملوك أنهم لا يمهلون من تتكرر مخالفتهم؛ كان كأنه قيل: فلم لا يهلك من يخالفه؟ فقيل وعظماً وتحذيراً: إنهم لا يضرّون بذلك إلا أنفسهم، ولا يفعلون شيئاً منه إلا بإرادته، فسواء عندهم بقاؤهم وهلاكهم، إنما يستعجل من يخاف الفوت أو يخشى الضرر، ولهم أجل لا بد من استيفائه، وليس ذلك خاصاً بهم بل ﴿ولكل أمة أجل﴾ وهو عطف على ﴿فيها تحيون وفيها تموتون﴾ [الأعراف: ٢٥] ﴿فإذا جاء أجلهم﴾.

ولما كان نظرهم إلى الفسحة في الأجل، وكان قطع رجائهم منه من جملة عذابهم، قدمه فقال: ﴿لا يستأخرون﴾ أي عن الأجل ﴿ساعة﴾ عبر بها والمراد أقل ما

يمكن، لأنها أقل الأوقات في الاستعمال في العرف، ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها لا على جزائها قوله: ﴿ولا يستقدمون﴾ أي على الأجل المحتوم، لأن الذي ضربه لهم ما ضربه إلا وهو عالم بكل ما يكون من أمرهم، لم يتجدد له علم، لم يكن يتجدد شيء من أحوالهم، ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله ﴿ولكنكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ [الأعراف: ٢٤] وتكون الآية معلمة بأنهم سيتناسلون فيكثرون حتى يكونوا أمماً، ولا يتعرضون جملة بل يكون لكل أمة وقت.

﴿يَبْنِيْٓ أَدَمَ ۖ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۖ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ النَّصِيبُ مِمَّنْ أَلْكَتِبِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيُنَا مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ ۖ مِّنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ولما كان استشراف النفس إلى السؤال عما يكون بعد حين المستقر والمتاع أشد من استشرافها إلى هذا لكونه أخفى منه، فهو أبعد من خطوره في البال؛ قدم قوله ﴿قال فيها تحيون﴾ [الأعراف: ٢٥] ولما كان ذكر الدواء لداء هتك السوء أهم قدم ﴿أنزلنا عليكم لباساً﴾ [الأعراف: ٢٦] ثم ما بعده حتى كان الأنسب بهذه الآية هذا الموضع فنظمت فيه.

ولما تقدمت الإشارة إلى الحث على اتباع الرسل بآيات المقصد الأول من مقاصد هذه السورة كقوله تعالى ﴿كتب أنزل إليك﴾ [الأعراف: ٢] و﴿لتنذر﴾ [الأعراف: ٢] و﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾ [الأعراف: ٣] وقوله ﴿فلننسلن الذين أرسل إليهم﴾ [الأعراف: ٦] وقوله ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿إنما حرم ربي الفواحش﴾ [الأعراف: ٣٣] والتحذير من الشياطين بقوله ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ [الأعراف: ٣] ويقول ﴿لأفعدن لهم صراطك المستقيم﴾ [الأعراف: ١٦]، ﴿لا يفتنكم الشيطان﴾ [الأعراف: ٢٧] وغيره، فتحذر أنه لا سبيل إلى النجاة إلا بالرسول، وختم ذلك بالأجل حثاً على العمل في أيام المهلة؛ أتبع ذلك قوله حاثاً على التعلق بأسباب النجاة باتباع الدعاة الهداة قبل الفوت بحادث الموت ببيان الجزاء لمن أحسن الاتباع في الدارين: ﴿يَبْنِيْٓ أَدَمَ﴾.

ولما كان له سبحانه أن يعذب من خالف داعي العقل من غير إرسال رسول، وكان إرسال الرسل جائزاً له وفضلاً منه سبحانه إذ لا واجب عليه، أشار إلى ذلك

بحرف الشك فقال: ﴿إِذَا﴾ هي إن، الشرطية وصلت بها ما تأكيداً ﴿يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ﴾ ولما كانت زيادة الخبرة بالرسول أقطع للعدر وأقوى في الحجة قال: ﴿مَنْكُمْ﴾ أي من نوعكم من عند ربكم.

ولما كان الأغلب على مقصد هذه السورة العلم كما تقدم في ﴿فَلَنَقْصِنَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] ويأتي في ﴿وَلَقَدْ جِئْتُم بِكُتُبٍ فَلَنُلْهِكُمْ فِيهَا سُبُوْحًا وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٥٢] وغيرها، كان التعبير بالقص - الذي هو تتبع الأثر كما تقدم في الأنعام - أليق فقال: ﴿يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ أي يتابعون ذكرها لكم على وجه مقطوع به، ويتبع بعضهم بها أثر بعض لا يتخالفون في أصل واحد من الأصول.

ولما كان لقاء الرسل حتماً والهجرة إليهم واجبة لأن العمل لا يقبل إلا بالاستناد إليهم مهما وجد إلى ذلك سبيل، ربط الجزاء بالفاء فقال: ﴿فَمَنْ أَتَقَى﴾ أي خاف مقامي وخاف وعيدي بسبب التصديق بالرسول والتلقي عنهم ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي عمل صالحاً باقتضاء آثارهم ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ أي غالب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي بسبب ذلك من شيء يتوقعونه ﴿وَلَا هُمْ﴾ أي بضماثرهم ﴿يَحْزَنُونَ﴾ أي يتجدد لهم في وقت ما حزن على شيء فاتهم، لأن الله يعطيهم ما يقر به أعينهم، وكأنه غاية في التعبير لأن إجلالهم لله تعالى وهيبتهم له يمكن أن يطلق عليهما خوف.

ولما ذكر المصدق، أتبعه المكذب فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ أي على ما لها من العظمة بإضافتها إلينا؛ ولما كان التكذيب قد يكون عن شبهة أو نوع من العذر، نفى ذلك بقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي أوجدوا الكبر لإيجاد من هو طالب له عظيم الرغبة فيه، متجاوزين عنها إلى أضداد ما دعت إليه.

ولما كان ذلك ليس سبباً حقيقياً للتعذيب، وإنما هو كاشف عن ذراه الله لجهنهم لإقامة الحجة عليه، أعري عن الفاء قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ولما كان صاحب الشيء هو الملازم له المعروف به، قال مصرحاً بذلك: ﴿هُمْ﴾ أي خاصة ليخرج العاصي من غير تكذيب ولا استكبار ﴿فِيهَا﴾ أي النار خاصة، وهي تصدق بكل طبقة من طبقاتها ﴿خَالِدُونَ﴾ فقد تبين أن إثبات الفاء أولاً للترغيب في الاتباع، وتركها ثانياً للترهيب من شكاسة الطباع، فالمقام في الموضوعين خطر، ولعل من فوائده الإشارة إلى أنه إذا بعث رسول وجب على كل من سمع به أن يقصده لتحرير أمره، فإذا بان له صدقه تبعه، وإن تخلف عن ذلك كان مكذباً - والله الموفق.

ولما كان تكذيب الرسل تارة يكون بشرع شيء لم يشرعوه، وتارة برد ما شرعوه

قولاً وفعلاً، وأخبر أن المكذبين أهل النار، علل ذلك بقوله: ﴿فمن أظلم﴾ أي أشنع ظلماً ﴿ممن افترى﴾ أي تعمد ﴿على الله﴾ أي الملك الأعلى ﴿كذباً﴾ أي كمن شرع في المطاعم والملابس غير ما شرع، أو ادعى أنه يوحى إليه فحكم بوجود ما لم يوجد ﴿أو كذب بآيته﴾ أي برد ما أخبر به الرسل فحكم بإنكار ما وجد.

ولما كان الجواب: لا أحد أظلم من هذا، بل هو أظلم الناس، وكان مما علم أن الظالم مستحق للعقوبة فكيف بالأظلم قال: ﴿أولئك﴾ أي البعداء من الحضرات الربانية ﴿ينالهم نصيبهم من الكتب﴾ أي الذي كتب حين نفخ الروح أو من الآجال التي ضربها سبحانه لهم والأرزاق التي قسمها، تأكيداً لرد اعتراض من قال: إن كنا خالفنا فما له لا يهلكنا؟ ثم غيى نيل النصيب بقوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ أي الذين قسمنا لهم من عظمتنا ما شئنا حال كونهم ﴿يتوفونهم﴾ أي يقبضون أرواحهم كاملة من جميع أبدانهم ﴿قالوا أين ما كنتم﴾ عناداً كمن هو في جبلته ﴿تدعون﴾ أي دعاء عبادة ﴿من دون الله﴾ أي تزعمون أنهم واسطة لكم عند الملك الأعظم وتدعونهم حال كونكم معرضين عن الله، ادعوهم الآن ليمنعوكم من عذاب الهوان الذي نذيقكم ﴿قالوا ضلوا﴾ أي غابوا ﴿عنا﴾ فلا ناصر لنا.

ولما كان الإله لا يغيب فعلموا ضلالهم بغيبتهم عنهم، قال مترجماً عن ذلك: ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ أي بالغوا في الاعتراف ﴿أنهم كانوا كافرين﴾ أي ساترين عناداً لما كشف لهم عنه نور العقل فلا مانع منه إلا حظوظ النفوس ولزوم البؤس.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخِنَهَا حَتَّى إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأَوْلِيَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلِيَهُمْ لِأَخْرِبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ .

ولما كان كأنه قيل: لقد اعترفوا، والاعتراف - كما قيل - إنصاف، فهل ينفعهم؟ قيل: هيهات! فات محله بفوات دار العمل لا جرم! ﴿قال﴾ أي الذي جعل الله إليه أمرهم ﴿ادخلوا﴾ كائنين ﴿في أمم﴾ أي في جملة جماعات و فرق أم بعضها بعضاً؛ ثم وصفهم دالاً ببناء التانيث على ضعف عقولهم فقال: ﴿قد خلت﴾ ولما كان في الزمن الماضي من آمن، أدخل الجار فقال: ﴿من قبلكم﴾ ولما كان الجن الأصل في الإغواء قدمهم فقال: ﴿من الجن والإنس﴾ ثم ذكر محل الدخول فقال: ﴿في النار﴾ .

ولما جرت عادة الرفاق بأنهم يتكالمون وحين الاجتماع يتسالمون تشوف السامع

إلى حالهم في ذلك فقال مجيباً له: ﴿كلما دخلت أمة﴾ أي منهم في النار ﴿لعنت أختها﴾ أي القرية منها في الدين والملة التي قضيت آثارها واتبعت منارها، يلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى - وهكذا، واستمر ذلك منهم ﴿حتى إذا اداركوا﴾ أي تداركوا وتلاحقوا، يركب بعضهم بعضاً - بما يشير إليه الإدغام ﴿فيها جميعاً﴾ لم يبق منهم أمة ولا واحد من أمة ﴿قالت أضرهم﴾ أي في الزمن والمنزلة، وهم الأتباع والسفل ﴿لأولهم﴾ أي لأجلهم مخاطبين لله خطاب المخلصين ﴿ربنا﴾ أي الذي ما قطع إحسانه في الدنيا عنا على ما كان منا من مقابلة إحسانه بالإساءة ﴿هؤلاء﴾ أي الأولون ﴿أضلونا﴾ أي لكونهم أول من سن الضلال ﴿فأنهم﴾ أي أذقهم بسبب ذلك ﴿عذاباً ضعفاً﴾ أي يكون بقدر عذاب غيرهم مرتين لأنهم ضلوا وأضلوا لأنهم سنوا الضلال، «ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١) ومنه «لا تقتل نفس ظلماً إلا على ابن آدم الأول كفل من دمها» لأنه أول من سن القتل، ثم أكدوا شدة العذاب بقولهم: ﴿من النار *﴾.

ولما كان كأنه قيل: لقد قالوا ما له وجه، فبم أجيبوا؟ قيل: ﴿قال﴾ أي جواباً لهم ﴿لكل﴾ أي من السابق واللاحق والمتبوع والتابع ﴿ضعف﴾ وإن لم يكن الضعفاء متساويين لأن المتبوع وإن كان سبباً لضلال التابع فالتابع أيضاً كان سبباً لتمادي المتبوع في ضلاله وشدة شكيمته فيه بتقويته بالاتباع وتأييده بالمناضلة عنه والدفاع؛ ولما كانوا جاهلين باستحقاقهم الضعف لسبب هذه الدقيقة قال: ﴿ولكن لا تعلمون *﴾ أي بذلك.

ولما ذكر ملام الآخرين على الأولين، عطف عليه جواب الأولين فقال: ﴿وقالت أولهم﴾ أي أولى الفرق والأمم ﴿لأضرهم﴾ مسبيين عن تأسيسهم لهم الضلال ودعائهم إليه ﴿فما كان لكم علينا﴾ أي بسبب انقيادكم لنا واتباعكم في الضلال ﴿من فضل﴾ أي لنحمل عنكم بسببه شيئاً من العذاب لأنه لم يعد علينا من ضلالكم نفع وقد شاركتمونا في الكفر ﴿فذوقوا﴾ أي بسبب ذلك ﴿العذاب﴾ في سجين ﴿بما﴾ أي بسبب ما ﴿كنتم تكسبون *﴾ لا بسبب اتباعكم لنا في الكفر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٠١٧ و الترمذي ١٦٧٥ و النسائي ٧٧٠٥ و ابن ماجه ٢٠٣ و ابن حبان

٣٣٠٨ و الطيالسي ٦٧٠ و البيهقي ١٧٦/٤ و الطبراني ٢٣٧٣ و ٢٣٧٤ و أحمد ٣٥٧/٤ و ٣٥٨ و ٣٥٩

من حديث جرير.

فَوْقَهُمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ .

ولما جرت العادة بأن أهل الشدائد يتوقعون الخلاص، أخبر أن هؤلاء ليسوا كذلك، لأنهم أنجاس فليسوا أهلاً لمواطن الأقداس، فقال مستأنفاً لجواب من كأنه قال: أما لهؤلاء خلاص؟ وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ أي وهي المعروفة بالعظمة بالنسبة إلينا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي وأوجدوا الكبر متجاوزين عن اتباعها ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ﴾ أي لصعود أعمالهم ولا دعائهم ولا أرواحهم ولا لنزول البركات عليهم ﴿أَبْوَابِ السَّمَاءِ﴾ لأنها طاهرة عن الأرجاس الحسية والمعنوية فإذا صعدت أرواحهم الخبيثة بعد الموت مع ملائكة العذاب أغلقت الأبواب دونها ثم ألقيت من هناك إلى سجين ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ أي التي هي أطهر المنازل وأشرفها ﴿حَتَّى﴾ يكون ما لا يكون بأن ﴿يَلْجُ﴾ أي يدخل ويجوز ﴿الْجَمَلِ﴾ على كبره ﴿فِي سَمٍ﴾ أي في خرق ﴿الْخِيَاطِ﴾ أي الإبرة أي حتى يكون ما لا يكون، إذاً فهو تعليق على محال، فإن الجمل مثل في عظم الجرم عند العرب، وسم الإبرة مثل في ضيق المسلك، يقال: أضيق من خرق الإبرة، ومنه الماهر الخريت للدليل الذي يهتدي في المضايق المشبهة بأخراق الإبر؛ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الجمل فقال: زوج الناقة - استجهالاً للسائل وإشارة إلى أن طلب معنى آخر غير هذا الظاهر تكلف.

ولما كان هذا للمكذبين المستكبرين أخبر أنه لمطلق القاطعين أيضاً فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء بهذا العذاب وهو أن دخولهم الجنة محال عادة ﴿نَجْزِي الْمَجْرِمِينَ﴾ أي القاطعين لما أمر الله به أن يوصل وإن كانوا أذنباً مقلدين للمستكبرين المكذبين؛ ثم فسر جزاء الكل فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي فرش من تحتهم، جمع مهد، ولعله لم يذكره لأن المهاد كالصريح فيه ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي أعطية - جمع غاشية - تغشيهم من جهنم؛ وصرح في هذا بالفوقية لأن الغاشية ربما كانت عن يمين أو شمال، أو كانت بمعنى مجرد الوصول والإدراك، ولعله إنما حذف الأول لأن الآية من الاحتباك، فذكر جهنم أولاً دليلاً على إرادتها ثانياً، وذكر الفوق ثانياً دليلاً على إرادة التحت أولاً.

ولما كان بعضهم ربما لا تكون له أهلية قطع ولا وصل، قال عاماً لجميع أنواع الضلال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ليعرف أن المدار على الوصف، والمجرم: المذنب، ومادته ترجع إلى القطع، والظالم: الواضع للشيء في

غير موضعه كفعل من يمشي في الظلام، ويجوز أن يكون نبه سبحانه بتغاير الأوصاف على تلازمها، فمن كان ظالماً لزمه الإجرام والتكذيب والاستكبار وبالعكس.

ولما أخبر عن أحوالهم ترهيباً، أتبعه الإخبار عن أحوال المؤمنين ترغيباً فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ في مقابلة ﴿الذين كذبوا﴾.

ولما قال: ﴿وعملوا﴾ أي تصديقاً لإيمانهم في مقابلة ﴿الذين استكبروا﴾ ﴿الصلحت﴾ وكان ذلك مظنة لتوهم أن عمل جميع الصالحات - لأنه جمع محلى بالألف واللام - شرط في دخول الجنة؛ خلل ذلك بجملة اعتراضية تدل على التخفيف فقال: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ وترغيباً في اكتساب ما لا يوصف من النعيم بما هو في الوسع ﴿أولئك﴾ أي العالو الرتبة ﴿أصحاب الجنة﴾ ولما كانت الصحبة تدل على الدوام، صرح به فقال: ﴿هم فيها خالدون﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رَسُولٌ رَّبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَ مُلْكُ الْجَنَّةِ أَوْ رِيشُهَا يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَوِئَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ولما كانت الدار لا تطيب إلا بحسن الجوار قال: ﴿ونزعنا﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء ﴿ما﴾ كان في الدنيا ﴿في صدورهم من غل﴾ أي ضغينة وحقد وغش من بعضهم على بعض يغل، أي يدخل بلطف إلى صميم القلب، ومنه الغلول، وهو الوصول بالحيلة إلى الذنوب الدقيقة، ويقال: غل في الشيء وتغلغل فيه - إذا دخل فيه بلطافة كالحب يدخل في صميم الفؤاد، حتى أن صاحب الدرجة السافلة لا يحسد صاحب العالية.

ولما كان حسن الجوار لا يلد إلا بطيب القرار، وكان الماء سبب العمارة وطيب المنازل، وكان الجاري منه أعم نفعاً وأشد استجلاباً للسرور قال تعالى: ﴿تجري من﴾ وأشار إلى علوهم بقوله: ﴿تحتهم الأنهر﴾ فلما تمت لهم النعمة بالماء الذي به حياة كل شيء فعرف أنه يكون عنه الرياض والأشجار وكل ما به حسن الدار، أخبر عن تعاطيهم الشكر لله ولرسوله المستجلب للزيادة بقوله: ﴿وقالوا الحمد﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿لله﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة لذاته لا لشيء آخر؛

ثم وصفوه بما يقتضي ذلك له لأوصافه أيضاً، فقالوا معلمين أنه لا سبب لهم في الوصول إلى النعيم غير فضله في الأولى والأخرى: ﴿الذي هدنا﴾ أي بالبيان والتوفيق، وأوقعوا الهداية على ما وصلوا إليه إطلاقاتاً للمسبب على السبب ﴿لهذا﴾ أي للعمل الذي أوصلنا إليه ﴿وما﴾ أي والحال أنا ما ﴿كنا لنهتدي﴾ أصلاً لبناء جبلتنا على خلاف ذلك ﴿لولا أن هدنا الله﴾ أي الذي له الأمر كله، وقراءة ابن عامر بغير واو على أن الجملة موضحة لما قبلها، والقراءتان دامغتان للقدرية.

ولما كان تصديقهم للرسول في الدنيا إيماناً بالغيب من باب علم اليقين، أخبروا في الآخرة بما وصلوا إليه من عين اليقين سروراً وتبججاً لا تعبدأ، وثناء على الرسول ومن أرسلهم بقولهم مفتحين بحرف التوقع لأنه محله: ﴿لقد جاءت رسل ربنا﴾ أي المحسن إلينا ﴿بالحق﴾ أي الثابت الذي يطابقه الواقع الذي لا زوال له.

ولما غبطوا أنفسهم وحقروها وأثبتوا الفضل لأهله، عطف على قولهم قوله مانأ عليهم بقبول أعمالهم، ولما كان السار الإخبار عن الإيراث لا كونه من معين، بني للمفعول قوله: ﴿ونودوا﴾ أي إتماماً لنعيمهم ﴿أن﴾ هي المخففة من الثقيلة أو هي المفسرة ﴿تلکم الجنة﴾ العالية ﴿أورثتموها﴾ أي صارت إليكم من غير تعب ولا منازع ﴿بما﴾ أي بسبب ما ﴿كنتم تعملون﴾ لأنه سبحانه جعله سبباً ظاهرياً بكرمه، والسبب الحقيقي هو ما ذكروه هم من توفيقه.

ولما استقرت بهم الدار، ونودوا بدوام الاستقرار، أخبر سبحانه أنهم أقبلوا متبججين على أهل النار شامتين بهم في إحلالهم دار البوار تليذياً لأنفسهم بالنعيم وتكديراً على الأشقياء في قوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ أي بعد دخول كل من الفريقين إلى داره ﴿أصحاب النار﴾ يخبرونهم بما أسبغ عليهم من النعم، ويقررونهم بما كانوا يتوعدونهم به من حلول النقم؛ ثم فسر ما وقع له النداء بقوله: ﴿أن﴾ أو هي مخففة من الثقيلة، وذكر حرف التوقع لأنه محله فقال: ﴿قد وجدنا﴾ أي بالعيان كما كنا واجدين له بالإيمان ﴿ما وعدنا ربنا﴾ أي المحسن إلينا في الدارين من الثواب ﴿حقاً﴾ أي وجدنا جميع ما وعدنا ربنا لنا ولغيرنا حقاً كما كنا نعتقد ﴿فهل وجدتم﴾ أي كذلك ﴿ما وعد﴾ وأثبت المفعول الأول تليذياً، وحذفه هنا احتقاراً للمخاطبين، وليشمل ما للفريقين فيكون وجد بمعنى العلم وبمعنى اللقى، وفي التعبير بالوعد دون الوعيد مع ذلك تهكم بهم ﴿ربكم﴾ أي الذي أحسن إليكم فقابلتم إحسانه بالكفران من العقاب ﴿حقاً﴾ لكونكم وجدتم ما توعدكم به ربكم حقاً ﴿قالوا نعم﴾ أي قد وجدنا ذلك كله حقاً؛ قال سيبويه: نعم عِدَّة، أي في جواب: أتعطيني كذا، وتصديق في مثل قد كان

كذا، والآية من الاحتباك: أثبت المفعول الثاني أولاً دليلاً على حذف مثله ثانياً، وحذفه ثانياً دليلاً على إثبات مثله أولاً - والله أعلم.

ولما حبوا من النعم بما تقدم، وكان منه الجار الحسن، وكان العيش مع ذلك لا يهنأ إلا بإبعاد جار السوء، أخبروا ببعده وزيدوا سروراً بإهانتته في قوله: ﴿فَأَذْنِ﴾ أي بسبب ما أقر به أهل النار على أنفسهم ﴿مؤذنين بينهم﴾ أي بين الفريقين ﴿أن﴾ مخففة أو مفسرة في قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم، وشددها الباقر ونصبوا ﴿لعنة الله﴾ أي طرد الملك الأعظم وإبعاده على وجه الغضب ﴿على الظالمين﴾ أي الذين كانوا مع البيان الواضح يضعون الأشياء في غير مواضعها كحال من لم ير نوراً أصلاً ﴿الذين يصدون﴾ أي لهم فعل الصد لمن أراد الإيمان ولمن آمن ولغيرهما بالإضلال بالإرغاب والإرهاب والمكر والخداع ﴿عن سبيل الله﴾ أي طريق دين الملك الذي لا كفوء له الواضح الواسع ﴿ويبغونها﴾ أي يطلبون لها ﴿عوجاً﴾ بإلقاء الشكوك والشبهات، وقد تقدم ما فيه في آل عمران ﴿وهم بالآخرة كفرون﴾ أي ساترون ما ظهر لعقولهم من دلائلها؛ فمتى وجدت هذه الصفات الأربع حقت اللعنة ﴿وبينهما﴾ أي وحال الفريقين عند هذه المناذرة أنه بينهما أو بين الدارين ﴿حجاب﴾ أي سور لثلا يجد أهل النعيم في دارهم ما يكدر نعيمها ﴿وعلى الأعراف﴾ جمع عرف وهو كل عال مرتفع لأنه يكون أعرف مما انخفض، وهي المشرفات من ذلك الحجاب ﴿رجال﴾ استوت حسناتهم وسيئاتهم فوقوا هنالك حتى يقضي الله فيهم ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته كما جاء مفسراً في مسند ابن أبي خيثمة من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ (١) ﴿يعرفون كلاً﴾ أي من أصحاب الجنة وأصحاب النار قبل دخول كل منهم داره ﴿بسيمهم﴾ أي علامتهم ﴿ونادوا﴾ أي أصحاب الأعراف ﴿أصحاب الجنة﴾ أي بعد دخولهم إليها واستقرارهم فيها ﴿أن سلم عليكم﴾ أي سلامة وأمن من كل ضار.

ولما كان هذا السلام ربما أشعر أنه بعد دخول أهل الأعراف الجنة، فكانه قيل: أكان نداؤهم بعد مفارقتهم الأعراف ودخولها؟ فقول: لا، ﴿لم يدخلوها﴾ أي الجنة بعد ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم ﴿يطمعون﴾ في دخولها، وعبر بالطمع لأنه لا سبب للعباد إلى الله من أنفسهم وإن كانت لهم أعمال فضلاً عن هؤلاء الذين لا أعمال لهم.

(١) لم أجده بهذا اللفظ. ولعله في مسند ابن أبي خيثمة كما ذكر المصنف، وورد بنحوه عن حذيفة من قوله، انظر الطبري ٤٩٩/٥ (١٤٦٩٤)، والدر المنثور ١٦٢/٣ [الأعراف: ٤٤] والبيهقي في البعث والنشور ص ٨١ - ٨٢ (١٠٩).

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصُرُهُمْ فَلِقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٨﴾ أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ رَبِّهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

ولما دل ما تقدم على أنهم مقبلون على الجنة وأهلها، قال مرغباً مرهباً: ﴿وإذا صرفت﴾ بناء للمفعول لأن المخيف لهم الصرف لا كونه من معين ﴿أبصارهم﴾ أي صرفها صارف من قبل الله بغير اختيار منهم ﴿تلقاء﴾ أي وجه ﴿أصحاب النار﴾ أي بعد استقرارهم فيها فرأوا ما فيها من العذاب ﴿قالوا﴾ أي أصحاب الأعراف حال كونهم لم يدخلوها وهم يخافون مستعيذين منها ﴿ربنا﴾ أي أيها المحسن إلينا في الدنيا بكل إحسان وفي الآخرة بكونك لم تدخلنا إلى هذا الوقت إلى النار ﴿لا تجعلنا مع القوم الظلمين﴾ بأن تدخلنا مدخلهم.

ولما تقدم كلامهم لأهل الجنة بالسلام، أخبر أنهم يكلمون أهل النار بالتوبيخ والملام فقال: ﴿ونادى﴾ وأظهر الفاعل لثلا يلبس بأهل الجنة فقال: ﴿أصحاب الأعراف﴾ أي الحال صرف وجوههم إلى جهة أهل النار ﴿رجالاً﴾ أي من أهل النار ﴿يعرفونهم﴾ أي بأعيانهم، وأما معرفتهم إجمالاً فتقدم، وإنما قال هنا: ﴿بسيمهم﴾ لأن النار قد أكلتهم وغيرت معالمهم مع تغييرهم بالسمن وسواد الوجوه وعظم الجثث ونحوه ﴿قالوا﴾ نفيًا أو استفهامًا توبيخاً وتقريعاً ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ أي للمال والرجال ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ أي تجددون بهما هذه الصفة وتوجدونها دائماً في الدنيا زاعمين أنه لا غالب لكم؛ ثم زادوا في توبيخهم وتقريعهم وتحزينهم وتأسيفهم والإنكار عليهم بقولهم مشيرين إلى ناس كانوا يستضعفونهم من أهل الجنة ويحقرونهم: ﴿أهؤلاء﴾ وكأنه يكشف لهم عنهم حتى يروهم زيادة في عذابهم ﴿الذين أقسمتم﴾ أي في الدنيا ﴿لا ينالهم الله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿برحمته﴾ فكيف بكمال الرحمة.

ولما كان التصريح بأمرهم بدخول الجنة إنكاء لأهل النار لأنه أنفى لما أقسموا عليه، قالوا: ﴿ادخلوا﴾ أي قال الله لهم أو قائل من قبله: ادخلوا ﴿الجنة لا خوف عليكم﴾ أي من شيء يمكن توقع أذاه ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ أي يتجدد لكم حزن في

وقت من الأوقات على شيء فات لما عندكم من الخيرات التي لا تدخل تحت الوصف .

ولما تقدم نداء أصحاب الجنة عندما حصل لهم السرور بدخولها لأصحاب النار بما يؤلم وينكي، وختم بهذه الرحمة التي تطمع المحروم فيما يسر ويزكي، أخبر أن أصحاب النار يتادون أصحاب الجنة عندما حصل لهم من الغم بدخولها، لكن بما شأنه أن يرقق ويبكي، فقال ما يدل على أن عندهم كل ما نفي عن أهل الجنة في ختام الآية السالفة من الخوف والحزن: ﴿ونادى أصحاب النار﴾ أي بعد الاستقرار ﴿أصحاب الجنة﴾ بعد أن عرفهم إياهم وأمر الجنة فتزخرت فكان ذلك زيادة في عذابهم؛ ثم فسر المنادى به فقال: ﴿أن أفيضوا علينا من الماء﴾ أي لأنكم أعلى منا، فإذا أفضتموه وصل إلينا، وهذا من فرط ما هم فيه من البلاء، فإن بين النار والجنة أهوية لا قرار لها ولا يمكن وصول شيء من الدارين إلى الأخرى معها.

ولما كانت الإفاضة تتضمن الإنزال قالوا: ﴿أو﴾ أي أو أنزلوا علينا ﴿مما رزقكم الله﴾ أي الذي له الغنى المطلق، من أي شيء هان عليكم إنزاله ﴿قالوا﴾ أي أصحاب الجنة ﴿إن الله﴾ أي الذي حاز جميع العظمة ﴿حرمهما﴾ أي منعهما بتلك الأهوية وغيرها من الموانع ﴿على الكافرين﴾ أي الساترين لما دلهم عليه قويم العقل وصريح النقل ﴿الذين اتخذوا﴾ أي تكلفوا غير ما دلهم عليه العقل الفطري حين نبه بالعقل الشرعي بأن أخذوا ﴿دينهم﴾ بعد ما محقوا صورته وحقيقته كما يمحق الطين إذا اتخذته خزفاً، فصار الدين ﴿لهوا﴾ أي اشتغلاً بما من شأنه أن يغفل وينسى عن كل ما ينفع من الأمور المعجبة للنفس من غير نظر في عاقبة، فجوزوا من جنس عملهم بأن لم ينظر لهم في إصلاح العاقبة.

ولما قدم ما هو أدعى إلى الاجتماع على الباطل الذي هو ضد مقصود السورة من الاجتماع على الجسد وأدعى إلى الغفلة، وكان من شأن الغفلة عن الخير أن تجر إلى استجلاب الأفرح والانهماك في الهوى، حقق ذلك بقوله: ﴿ولعباً﴾ أي إقبالاً على ما يجلب السرور ويقطع الوقت الحاضر بالغرور، ولذلك أتبعه قوله: ﴿وغرهم﴾ أي في فعل ذلك ﴿الحياة الدنيا﴾ أي بما فيها من الأعراض الزائلة من تأميل طول العمر والبسط في الرزق ورغد العيش حتى صاروا بذلك محجوبين عن نظر معانيها وعماد دعا إليه تعالى من الأعراض عنها فلم يحسبوا حساب ما وراءها. ولما كان تركهم من رحمته سبحانه مؤبداً، أسقط الجار ﴿فاليوم﴾ أي فتسبب عن ذلك أنا في هذا اليوم ﴿ننسلهم﴾ أي نتركهم ترك المنسي ﴿كما﴾ فعلوا هم بأنفسهم بأن ﴿نسوا﴾ أي تركوا ﴿لقاء يومهم

هذا ﴿ فلم يعدوا له عدته ﴿وما﴾ أي وكما ﴿كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿بآيتنا﴾ على ما لها من العظمة بنسبتها إلينا ﴿يجحدون﴾ أي ينكرون وهم يعرفون حقيقتها لأنها في غاية الظهور .

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بَأْمَرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ .

ولما ذكر نسيانهم وجودهم، ذكر حالهم عند ذلك فقال: ﴿ولقد﴾ أي فعلوا ذلك والحال أنا وعزتنا قد ﴿جئتهم﴾ أي على عظمتنا بإتيان رسولنا إليهم عنا ﴿بكتب﴾ ليس هو موضعاً للجحد أصلاً؛ ثم بين ذلك في سياق مرغّب للمؤلف مرهّب للمخالف فقال: ﴿فصلناه﴾ أي بينا معانيه لم ندع فيها لبساً، وجعلنا آياته فواصل حال كون ذلك التفصيل ﴿على علم﴾ أي عظيم، فجاء معجزاً في نظمه ومعناه وسائر علمه ومغزاه، وحال كونه ﴿هدى﴾ أي بياناً ﴿ورحمة﴾ أي إكراماً، ثم خص المتفعين به لأن من لا ينتفع بالشيء فهو كالمعدوم في حقه فقال: ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي فيهم قابلية ذلك، وفيه رجوع إلى وصف الكتاب الذي هو أحد مقاصد السورة على أبداع وجه في أحسن أسلوب.

ولما وصف الكتاب وذكر المتفع به، تشوفت النفس إلى السؤال عن حال من لا يؤمن به وهم الجاحدون، فقال مشيراً إلى أن حالهم في وقوفهم عن المتابعة بعد العلم بصدقه بعجزهم عنه كحال من ينتظر أن يأتي مضمون وعيده: ﴿هل ينظرون﴾ أي ينتظرون، ولكنه لما لم يكن لهم قصد في ذلك بغير ما يفهمه الحال، جرد الفعل وإفادة أنه بتحقيق إتيانه في غاية القرب حتى كأنه مشاهد لهم ﴿إلا تأويله﴾ أي تصيير ما فيه من وعد ووعيد إلى مقاره وعواقب أمره التي أخبر أنه يصير إليها.

ولما كان كأنه قيل: ما يكون حالهم حينئذ؟ قال: التحسر والإذعان حيث لا ينفع، والتصديق والإيمان حين لا يقبل، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿يوم يأتي تأويله﴾ أي بلوغ وعيده إلى مبلغه في الدنيا أو في الآخرة؛ ولما قدم اليوم اهتماماً به، أتبعه العامل فيه فقال: ﴿يقول الذين نسوه﴾ أي تركوه ترك المنسي، ويجوز أن يكون عد ذلك نسياناً

لأنه ركز في الطباع أن كل ملك لا بد له من عرض جنده ومحاسبتهم، فلما أعرضوا عن ذلك فيما هو من جانب الله عده نسياناً منهم لما ركز في طباعهم.

ولما كان نسيانهم في بعض الزمان السابق، أدخل الجار فقال: ﴿من قبل﴾ أي قبل كشف الغطاء محققين للتصديق ﴿قد جاءت﴾ أي فيما سبق من الدنيا ﴿رسل ربنا﴾ أي المحسن إلينا ﴿بالحق﴾ أي المطابق لهذا الواقع الذي نراه مما كانوا يتوعدوننا به، فما صدقوا حتى رأوا فلم يؤمنوا بالغيب ولا أوقعوا الإيمان في دار العمل فلذا لم ينفعهم.

ولما وصفوه سبحانه بالإحسان لما كشف الحال عنه من حلمه وطول أناته، سبوا عن ذلك قولهم: ﴿فهل لنا من شفعاء﴾ أي في هذا اليوم، وكأنهم جمعوا الشفعاء لدخولهم في جملة الناس في الشفاعة العظمى لفصل القضاء؛ ثم سبوا عن ذلك تحقيق كونهم لهم أي بالخصوص فقالوا: ﴿فيشفعوا لنا﴾ أي سواء كانوا من شركائنا الذين كنا نتوهم فيهم النفع أو من غيرهم ليغفر لنا ما قدمنا من الجرائم ﴿أو نرد﴾ أي إن لم يغفر لنا إلى الدنيا التي هي دار العمل، والمعنى أنه لا سبيل لنا إلى الخلاص إلا أحد هذين السببين؛ ثم سبوا عن جواب هذا الاستفهام الثاني قولهم: ﴿فنعمل﴾ أي في الدنيا ﴿غير الذي كنا﴾ أي بجلاتنا من غير نظر عقلي ﴿نعمل﴾.

ولما كان من المعلوم عند من صدق القرآن وعلم مواقع ما فيه من الأخبار أنه لا يكون لهم شيء من ذلك، كانت نتيجته قوله: ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ أي فلا أحد أخسر منهم ﴿وضل﴾ أي غاب وبطل ﴿عنهم ما كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً، لا يمكنهم الرجوع عنه إلا عند رؤية البأس ﴿يفترون﴾ أي يتعمدون في الدنيا من الكذب في أمره لقصد العناد للرسول من ادعاء أن الأصنام تشفع لهم ومن غير ذلك من أكاذيبهم.

ولما كان مدار القرآن على تقرير الأصول الأربع: التوحيد والنبوة والمعاد والعلم، وطال الكلام في إخباره سبحانه عن أوامره ونواهيه وأفعاله وأوليائه وأعدائه الدالة على تمام القدرة والعلم، وختم بأن شركاءهم تغني عنهم، علل ذلك بأنه الرب لا غيره، في سياق دال على الوحداية التي هي أعظم مقاصد السورة، كفيل بإظهار الحجج عليها، وعلى المقصد الثاني - وهو الإعادة التي فرغ من تقرير أحوالها بالإيداء الذي تقرر في العقول أنه أشد من الإعادة - بأدلة متكفلة بتمام القدرة والعلم فقال: ﴿إن ربكم﴾ أي المحسن إليكم بالإيجاد من العدم وتدبير المصالح هو ﴿الله﴾ أي الملك الذي لا كفوء له وحده لا صنم ولا غيره؛ ثم وصفه بما حقق ذلك فقال: ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ أي على اتساعهما وعظمتها.

ولما كان ربما قال الكفار: ما له إذا كان قادراً وأنت محق في رسالتك لا يعجل لنا الإتيان بتأويله، بين أن عاداته الأناة وإن كان أمره وأخذه كلمح بالبصر إذا أَرادَه، فقال: ﴿في ستة أيام﴾ أي في مقدارها؛ ولما كان تدبير هذا الخلق أمراً باهراً لا تسعه العقول، ولهذا كانت قريش تقول: كيف يسع الخلق إله واحداً! أشار إلى عظمته وعلو رتبته بأداة البعد فقال: ﴿ثم استوى على العرش﴾ أي أخذ في التدبير لما أوجده وأحدث خلقه أخذاً مستوفى مستقصى مستقلاً به لأن هذا شأن من يملك ملكاً ويأخذ في تدبيره وإظهار أنه لا منازع له في شيء منه وليكون خطاب الناس على ما ألفوه من ملوكهم لتستقر في عقولهم عظمته سبحانه، وركز في فطرهم الأولى من نفى التشبيه منه، ويقال: فلان جلس على سرير الملك، وإن لم يكن هناك سرير ولا جلوس، وكما يقال في ضد ذلك: فلان ثل عرشه، أي ذهب عزه وانتقض ملكه وفسد أمره، فيكون هذا كناية لا يلتفت فيه إلى أجزاء التركيب، والألفاظ على ظواهرها كقولهم للطويل: طويل النجاد، وللكريم: عظيم الرماد.

ولما كان سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، ابتدأ من التدبير بما هو آية ذلك بمشاهدته في تغطية الأرض بظلامه في آن واحد، فقال دالاً على كمال قدرته المراد بالاستواء بأمر يشاهد كل يوم على كثرة منافعه التي جعل سبحانه بها انتظام هذا الوجود: ﴿يغشي﴾ أي استوى حال كونه يغشي ﴿الليل النهار﴾ وقال أبو حيان: وقرأ حميد بن قيس: يغشى الليل - بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وضم اللام، كذا قال عنه أبو عمرو الداني، وقال أبو الفتح بن جني عن حميد بنصب الليل ورفع النهار، وقال ابن عطية: وأبو الفتح أثبت، وهذا الذي قاله - من أن أبا الفتح أثبت - كلام لا يصح، إذ رتبة أبي عمرو الداني في القراءة ومعرفتها وضبط رواياتها واختصاصه بذلك بالمكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءة فضلاً عن النحاة الذين ليسوا مقرئين ولا رووا القراءة عن أحد ولا روى عنهم القراءة أحد، هذا مع الديانة الزائدة والتثبت في النقل وعدم التجاسر ووفور الحظ من العربية، فقد رأيت له كتاباً في كلا وكتاباً في إدغام أبي عمرو الكبير دلاً على اطلاعه على ما لا يكاد يطلع عليه أئمة النحاة ولا المقرئين إلى سائر تصانيفه، والذي نقله أبو عمرو الداني عن حميد أمكن من حيث المعنى، لأن ذلك موافق لقراءة الجماعة إذ ﴿الليل﴾ في قراءتهم - وإن كان منصوباً - هو الفاعل من حيث المعنى إذ همزة النقل أو التضعيف صيره مفعولاً، ولا يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً من حيث المعنى، لأن المنصوبين تعدى إليهما الفعل وأحدهما فاعل من حيث المعنى، فيلزم أن يكون الأول منهما كما لزم ذلك في: ملكت زيدا عمراً، إذ رتبة التقديم هي الموضحة أنه الفاعل من حيث المعنى كما لزم ذلك في ضرب موسى عيسى - انتهى.

ولما أخبر سبحانه أن الليل يغطي النهار، دل على أن النهار كذلك بقوله مبيناً لحال الليل: ﴿يطلبه﴾ أي الليل يجر ويطلب النهار دائماً طلباً ﴿حثيثاً﴾ أي سريعاً جداً لتغطية الليل، وذلك لأن الشيء لا يكون مطلوباً إلا بعد وجوده، وإذا وجد النهار كان مغطياً لليل، لأنهما ضدان، وجود أحدهما ماح لوجود الآخر، وابتدأ سبحانه بذكر الليل لأن إغشائه أول كائن بعد تكمل الخلق، وحركتها بواسطة حركة العرش، ولذا ربطهما به، وهي أشد الحركات سرعة وأكملها شدة، وللشمس نوعان من الحركة: أحدهما بحسب ذاتها تتم بقطع الدرج كلها في جميع الفلك، ويسببه تحصل السنة، والثاني بحسب حركة الفلك الأعظم تتم في اليوم بليلته، والليل والنهار إنما يحصلان بسبب حركة السماء الأقصى الذي يقال له العرش لا بسبب حركة النيرين، وأجاز ابن جني أن يكون ﴿يطلبه﴾ حالاً من النهار في قراءة الجماعة وإن كان مفعولاً، أي حال كون النهار يطلب الليل حثيثاً ليغطيه، وأن يكون حالاً منهما معاً لأن كلاهما طالب للآخر، وبهذا ينتظم ما قاله في قراءة حميد، فإن كلاهما يكون غاشياً للآخر، قال في كتابه المحتسب في القراءات الشواذ: ووجه صحة القراءتين والتقاء معنيهما أن الليل والنهار يتعاقبان، وكل واحد منهما وإن أزال صاحبه فإن صاحبه أيضاً مزيل له، وكل واحد منهما على هذا فاعل وإن كان مفعولاً ومفعول وإن كان فاعلاً، على أن الظاهر في الاستحاثات هنا إنما هو النهار لأنه بسفوره وشروقه أظهر أثراً في الاستحاثات من الليل.

ولما ذكر الملونين، أتبعهما آية كل فقال: ﴿والشمس والقمر والنجوم﴾ أي خلقها، أو يغشى كل قبيل منهما ما الآخر آيته حال كون الكل ﴿مسخرات﴾ أي للسير وغيره ﴿بأمره﴾ وهو إرادته وكلامه، تقودها الملائكة كما روي أن الله ملائكة يجرون الشمس والقمر.

ولما صح أن جميع ما نراه من الذوات خلقه، وما نعلمه من المعاني أمره، أنتج قطعاً قوله: ﴿ألا له﴾ أي وحده، وقدم المسبب على السبب ترقية - كما هو مقتضى الحكم - من المحسوس إلى المعقول فقال: ﴿الخلق﴾ وهو ما كان من الإيجاد يتسبب وتنمية وتطوير قال الرازي: فكل ما كان جسماً أو جسمانياً كان مخصوصاً بمقدار معين فكان من عالم الخلق، فعالم الخلق بتسخيره، وعالم الأمر بتدبيره، واستيلاء الروحانيات على الجسمانيات بتقديره ﴿والأمر﴾ وهو ما كان من ذلك إخراجاً من العدم من غير تسبب كالروح، وما كان حفظاً وتدبيراً بالكلام كالأديان وكل ما يلاحظ القيومية؛ وقال الرازي: كل ما كان بريئاً من الحجم والمقدار كان من عالم الأمر، وعد الملائكة من عالم الأمر، فأنج ذلك قطعاً قوله على سبيل المدح الذي ينقطع دونه الأعناق ويتقاصر دون عليائه ذرى الآفاق: ﴿تبرك﴾ أي ثبت ثبوتاً لا ثبوت في الحقيقة

غيره مع اليمين والبركة وكثرة الآثار الفاضلة والنتائج الشريفة ﴿الله﴾ أي ذو الجلال والإكرام.

ولما دل على أنه يستحق هذا الشناء لذاته، دل على أنه يستحقه لصفاته فقال: ﴿رب العلمين﴾ أي مبدع ذلك كله ومربيه خلقاً وتصريفاً بأمره، وفي الجزء السادس من فوائد المخلص عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما يقول هذه الدوبية - يعني بشراً المريسي؟ قالوا: يا أبا محمد! يزعم أن القرآن مخلوق، فقال: كذب، قال الله عز وجل ﴿إلا له الخلق والأمر﴾ فالخلق خلق الله، والأمر القرآن - انتهى. وهذا الذي فسر به مما تحتمله الآية بأن يكون الأمر هو المراد بقوله ﴿بأمره﴾ وهو الإرادة والكلام مع احتمال ما قدمته.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالًا سُقِنَتْهُ لِبَلَدٍ مَّيْمَنٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ .

ولما ذكر تعالى تفرده بالخلق والأمر المقتضي لتفرده بالعبادة للتوجيه إلى تحصيل المعارف النفسانية والعلوم الحقيقية، أمر بهذا المقتضى اللائق بتلك المعارف، وهو الدعاء الذي هو مخ العبادة فقال: ﴿ادعوا ربكم﴾ أي الدائم الإحسان إليكم دعاء عبادة وخضوع ﴿تضرعاً﴾ أي تذلاً ظاهراً ﴿وخفية﴾ أي وتذلاً باطناً، وقد أثنى على عبده زكريا عليه السلام فقال: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ [مريم: ٣] أي اجتمعوا إلى خضوع الظاهر خضوع الباطن، أي أخلصوا له العبادة، إنه يحب المخلصين لأن تفرده بأن يدعى هو اللائق بمقام عز الربوبية، والتذلل على هذه الصفة هو اللائق بمقام ذل العبودية، وهذا هو المقصود من الدعاء لا تحويل العلم الأزلي، وهو المقصود من جميع العبادات، فإن العبد لا يدعو إلا وقد استحضر من نفسه الذل والصعب والحاجة، ومن ربه العلم والقدرة والكفاية، وهذا هو المقصود من جميع العبادات، فلهذا كان الدعاء مخ العبادة، وقد جمع هذا الكلام على وجازته كل ما يراد تحقيقه وتحصيله من شرائط الدعاء بحيث إنه لا مزيد عليه، ومن فعل خلاف ذلك فقد تجاوز الحد، وإلى ذلك أوماً بتعليقه بقوله: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي المجاوزين لما أمروا به في الدعاء وغيره، قالوا: فالمعنى أن من ترك هذا لا يحبه الله، أي لا يشبهه البتة ولا يحسن إليه، فالآية من

الاحتباك: آخرها يدل على حذف ضده من صدرها، وصدرها يدل على أنه حذف قبل الآخر: ولا تتركوا الإخلاص تكونوا معتدين.

ولما كان ذلك من الوفاء بحق الربوبية والقيام بحق العبودية مقتضياً للصلاح أمر بإدامته بالنهي عن ضده في قوله: ﴿ولا تفسدوا﴾ أي لا تدفعوا فساداً ﴿في الأرض﴾ أي بالشرك والظلم، فهو منع من إيقاع ماهية الإفساد في الوجود، وذلك يقتضي المنع من جميع أنواعه فيتناول الكليات الخمس التي اتفقت عليها الملل، وهي الأديان والأبدان والعقول والأنساب والأموال ﴿بعد إصلاحها﴾ والظاهر أن الإضافة بمعنى اللام وهي إضافة في المفعول، أي لا تندسوها بفساد بعد أن أصلحها لكم خلقاً بما سوى فيها من المنافع المشار إليها بقوله ﴿يغشي الليل النهار﴾ [الأعراف: ٥٤]، الدال على الوحدانية الداعي إلى الحق إقامة للأبدان، وأمر بما أنزل من كتبه على السنة رسله عليهم الصلاة والسلام إقامة للأديان فجمع إلى الإيجاد الأول الإبقاء الأول.

ولما كان ذلك ربما اقتضى الاقتصار بكمال التذلل على مقام الخوف، نفى ذلك بقوله: ﴿وادعوه خوفاً﴾ أي من عدله؛ ولما كان لا سبب للعباد من أنفسهم في الوصول إليه سبحانه، عبر بالطمع فقال: ﴿وطمعاً﴾ أي في فضله، فإن من جمع بين الخوف والرجاء كان في مقام الإحسان وكأنه مشاهد للرحمن، ما زجره زاجر الجلال بسياط سطوته إلا دعاه داعي الجمال إلى بساط رأفته، ومن حاز مقام الإحسان كان أهلاً للرحمة ﴿إن رحمت الله﴾ أي إكرام ذي الجلال والإكرام لمن يدعو على هذه الصفة، وفخمها بالتذكير لإضافتها إلى غير مؤنث فيما قال سيبويه، فقال: ﴿قريب﴾ وكان الأصل: منكم، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال: ﴿من المحسنين﴾.

ولما كان دوام الصلاح لا يكون إلا بالغيث، وهو من أجل أنواع الرحمة، وهو لا يكون إلا بالسحاب، وهو لا يكون إلا بالريح، قال تعالى عاطفاً على ﴿إن ريكم الله﴾ تنبيهاً بعد تحقيق المبدأ على تحقيق المعاد: ﴿وهو﴾ أي لا غيره ﴿الذي يرسل﴾ أي بالتحريك ﴿الرياح﴾ هذا في قراءة الجماعة، وأنواعها خمس: جنوب وشمال وصبا ودبور ونكباء، وهي كل ریح انحرفت فوقعت بين ريحين، ووحد ابن كثير وحمزة والكسائي على إرادة الجنس ﴿بشراً﴾ بضمبتين في قراءة أهل الحجاز والبصرة، أي منتشرة جمع نشور من النشر، وهو بسط ما كان مطوياً، وتفريقه في كل وجه لا لذات الريح وإلا لدام ذلك منها ولا بقوة فلك أو نجم لأن نسبتها إلى الهواء واحدة ﴿بين يدي﴾ أي قبل ﴿رحمته﴾ أي المطر، ولعله عبر فيه باليدين: اليمنى واليسرى، لدلالته -

مع ما فيه من الفخامة - على أنه تارة يكون رحمة وتارة يكون عذاباً كما كان على قوم نوح عليه السلام وإن كانت الرحمة فيه أغلب وهي ذات اليمين، وتارة تكون الرياح جامعة لها لحفظ الماء، وتارة مفرقة مبطله لها، وتارة تكون مقومة للزروع والأشجار مكملة لها وهي اللواقح، وتارة تكون منمية لها أو مهلكة كما يكون في الخريف، وتارة تكون طيبة وتارة مهلكة إما بشدة الحرارة والبرودة؛ ثم غيَّيَ الإرسال بقوله: ﴿حتى إذا أقلت سحاباً﴾ أي حملتها لقلتها عندها لخفتها عليها ﴿ثقلاً﴾ أي بالماء؛ ولما دل على العظمة بالجمع وحقق الأمر بالوصف، أفرد اللفظ دلالة على غاية العظمة بسوقه مجتمعاً كأنه قطعة واحدة، لا يفترق جزء منه عن سائره إذ لو تفرق لاختل أمره، فقال: ﴿سقنه لبلد﴾ أي لأجله وإليه ﴿ميت﴾ أي بعدم النبات ﴿فأنزلنا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿به﴾ أي بالبلد، أو بسبب ذلك السحاب ﴿الماء﴾ أي هذا الجنس، وأشار إلى عظمة الإنبات بالنون فقال: ﴿فأخرجنا به﴾ أي بالماء ﴿من كل الثمرات﴾ أي الحقيقية على الأشجار، والمجازية من النبات وحبوبه. ولما كان هذا - مع ما فيه من التذكير بالنعمة المقتضية لتوحيده بالدعوة - دليلاً ثانياً في غاية الدلالة على القدرة على البعث، قال تعالى: ﴿كذلك﴾ أي مثل ما أخرجنا هذا النبات من الأرض بعد أن لم يكن ﴿نخرج الموتى﴾ أي من الأرض بعد أن صاروا تراباً ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي قلنا هذا لتكون حالكم حال من يرجى تذكر هذه الآية المشاهدة القريبة المأخذ ولو على أدنى وجوه التذكر بما أشار إليه الإدغام، لأنه سبحانه كما قدر على إعادة النبات بجمع الماء له من جوف الأرض بعد أن كان تغيب في الأرض وصار تراباً، وأحىي الشجرة بعد أن كانت لا روح لها بإيداع الثمرة التي هي روحها، فهو قادر على إعادة الأشباح وإيداعها الأرواح كما كانت أول مرة، لأنه لا فرق بين الإخراجين.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾

ولما كانت الموت موتين: حسيّاً ومعنويّاً - كما أشير في الأنعام في آية ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعثهم الله﴾ [الأنعام: ٣٦] ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢] كان كأنه قيل: لا فرق في ذلك عندنا بين أموات الإيمان وأموات الأبدان، فكما أنا فإوتنا بين جواهر الأراضي بخلق بعضها جيداً وبعضها رديئاً كذلك فإوتنا بين عناصر الأناسي بجعل بعضها طيباً وبعضها خبيثاً، فالجيد العنصر يسهل

إيمانه، والخبيث الأصل يعسر إذعانه وتبعد استقامته وإيقانه ﴿والبلد الطيب﴾ أي الذي طابت أرضه فكانت كريمة منبثة ﴿يخرج نباته﴾ أي إذا نزل عليه الماء خروجاً كثيراً حسناً سهلاً غزيراً ﴿بإذن﴾ أي بتمكين ﴿ربه﴾ أي المرابي له بما هياه له، والذي طاب في الجملة ولم يصل إلى الغاية يخرج له نبات دون ذلك، والخبيث لا يخرج له نبات أصلاً بمنع ربه له ﴿والذي خبث﴾ أي حصلت له خبائة في جبلته بكون أرضه سبخة أو نحوها مما لم يهيئه الله تعالى للإنبات ﴿لا يخرج﴾ أي نباته ﴿إلا﴾ أي حال كونه ﴿نكدأ﴾ أي قليلاً ضعيف المنفعة، وهو - مع كونه دالاً على أن ذلك ما كان على ما وصف مع استواء الأراضي في الأصل واستواء المياه ونسبتها إلى الأفلاك والنجوم إلا بالفاعل المختار - مثل ضربه سبحانه للمؤمن والكافر عند سماعهما للذكر من الكتاب والسنة، والآية من الاحتباك .

ولما استوت هذه الآيات على الذروة من بدائع الدلالات، كان السامع جديراً بأن يقول: هل تبين جميع هذه الآيات هذا البيان؟ فقل: ﴿كذلك﴾ أي نعم، مثل هذا التصريف، وهو التردد مع اختلاف الأنحاء لاختلاف الدلالات وإبرازها في قوالب الألفاظ الفائقة والمعاني الرائقة في النظم المعجزة على وجوه لا تكاد تدخل تحت الحصر: ﴿نصرف الآية﴾ أي كلها؛ ولما تم ذلك على هذا المنهج الغريب والمنوال العجيب المذكر بالنعمة في أسلوب دال على التفرد وتمام القدرة، كان أنسب الأشياء ختمه بقوله مخصصاً بها المنتفع لأنها بالنسبة إلى غيرهم كأنها لم توجد: ﴿لقوم يشكرون﴾ أي يوجد منهم الشكر للنعمة وجوداً مستمراً فلا يشركون بل ينتفعون بما أنعم عليهم به وحده في عبادته وحده، وينظرون بعقولهم أنه أقدروهم بنعمه على ما هم عاجزون عنه، فلا يسلبون عنه شيئاً من قدرته على بعث ولا غيره فإنهم يزعمون أنهم أهل معالي الأخلاق التي منها أنه ما جزاء الإحسان إلا الإحسان .

ولما طال تهديده سبحانه لمن أصر على إفساده، ولم يرجع عن غيئه وعناده بمثل مصارع الأولين ومهالك الماضين، ونوع في هذه الآيات محاسن الدلالات على التوحيد والمعاد بوجوه ظاهرة وبيئات قاهرة وبراهين قاطعة وحجج ساطعة، ساق سبحانه تلك القصص دليلاً حسيماً على أن في الناس الخبيث والطيب مع الكفالة في الدلالة على تمام القدرة والغيرة من الشرك على تلك الحضرة - بتفصيل أحوال من سلفت الإشارة إلى إهلاكهم وبيان مصارعهم وأنه لم تغن عنهم قوتهم شيئاً ولا كثرتهم بقوله تعالى ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ [الأعراف: ٤٤] وقوله: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾ [الأعراف: ٣٤] الآية تسلية للنبي ﷺ وتقوية لصالحى أتباعه بالتنبيه على أن الإعراض

عن الآيات ليس من خواص هذه الأمة بل هي عادة الأمم السالفة، وعلى أن النعم خاصة بالشاكرين، ولذا كانت النعم مقصورة على الكافرين، فقال تعالى: ﴿لقد أرسلنا﴾ أي بعظمتنا، وافتتحه بحرف التوقع لما للسامع الفطن من التشوف إلى ذكر ما تكرر من الإشارة إليه، ولأن اللام المجاب بها القسم المحذوف لا ينطقون بها غالباً إلا مقترنة بقد، لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها فكانت مظنة بمعنى التوقع الذي هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم ﴿نوحاً﴾ يعني ابن لمك بن متوشلخ بن خنوخ، وهو إدريس عليه السلام، وكان عند الإرسال ابن خمسين سنة.

ولما كان إرساله ﷺ قبل تفرق القبائل باختلاف اللغات قال: ﴿إلى قومه﴾ أي الذين كانوا ملء الأرض كما في حديث الشفاعة في الصحيحين وغيرهما عن أنس رضي الله عنه: اتنوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض. وفيهم من القوة على القيام بما يريدون ما لا يخفى على من تأمل آثارهم وعرف أخبارهم، فإن كانت آثارهم فقد حصل المراد، وإن كانت لمن بعدهم علم - بحكم قياس الاستقراء - أنهم أقوى على مثلها وأعلى منها، ولسوق ذلك دليلاً على ما ذكر جاء مجرداً عن أدوات العطف، وهو مع ذلك كله منبه على أن جميع الرسل متطابقون على الدعوة إلى ما دل عليه برهان ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ [الأعراف: ٥٤] من التوحيد والصلاح إلى غير ذلك من بحور الدلائل والحجاج المتلاطمة الأمواج - والله الهادي إلى سبيل الرشاد، وكون نوح عليه السلام رسولاً إلى جميع أهل الأرض - لأنهم قومه لوحدة لسانهم - لا يقدح في تخصيص نبينا ﷺ بعموم الرسالة، لأن معنى العموم إرساله إلى جميع الأقوام المختلفة باختلاف الألسن وإلى جميع من ينوس من الإنس والجن والملائكة، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة الصافات لهذا مزيد بيان.

ولما كان من المقاصد العظيمة الإعلام بأن الذي دعا إليه هذا الرسول لم تنزل الرسل - على جميعهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام - تدعو إليه، وكان نوح أول رسول ذكرت رسالته عقب ذكر إرساله بذكر ما أرسل به بالفاء بقوله: ﴿فقال يقوم﴾ أي فتحجب إليهم بهذه الإضافة ﴿اعبدوا الله﴾ أي الذي له جميع العظمة من الخلق والأمر، فإنه مستحق لذلك وقد كلف عباده به.

ولما كان المقصود إفراده بذلك، علله بقوله مؤكداً له بإثبات الجار: ﴿ما لكم﴾ وأغرق في النفي فقال: ﴿من إله غيره﴾ ثم قال معللاً أو مستأنفاً مخوفاً مؤكداً لأجل تكذيبهم: ﴿إني أخاف عليكم﴾ في الدنيا والآخرة، ولعله قال هنا: ﴿عذاب يوم

عظيم* وفي هود ﴿أليم﴾ [هود: ٢٦] وقال في المؤمنون ﴿أفلا تتقون﴾ [المؤمنون: ٢٣] لأن ترتيب السور الثلاث - وإن كان الصحيح أنه باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم - فلعله جاء على ترتيبها في النزول، لأنها مكيات، وعلى ترتيب مقال نوح عليه السلام لهم فالأن لهم أولاً المقال من حيث إنه أوهم أن العظم الموصوف به ﴿اليوم﴾ لا بسبب العذاب بل لأمر آخر، فيصير العذاب مطلقاً يتناول أي عذاب كان و لو قل، فلما تمادى تكذيبهم بين لهم أن عظمه إنما هو من جهة إيلام العذاب الواقع فيه، فلما لجوا في عتوهم قال لهم قول القادر إذا هدد عند مخالفة غيره له: ألا تفعل ما أقول لك؟ أي متى خالفت بعد هذا عاجلتك بالعقاب وأنت تعرف قدرتي .

ولما تم ذلك، وكان الحال مقتضياً - مع ما نصب من الأدلة الواضحة على الوجدانية - لأن يجيبوا بالتصديق، كان كأنه قيل: فيماذا كان جوابهم؟ فقال: ﴿قال الملائكة﴾ أي الأشراف الذين يملأ العيون مرآهم عظمة، وتتوجه العيون في المحافل إليهم، ولم يصفهم في هذه السورة بالكفر لأن ذلك أدخل في التسلية، لأنها أول سورة قص فيها مثل هذا في ترتيب الكتاب، ولأن من آمن به مطلقاً كانوا في جنب من لم يؤمن في غاية القلة، فكيف عند تقييدهم بالشرف! وأكد ذمهم تسلية لهذا النبي الكريم بالتعريف بقربهم منه في النسب بقوله: ﴿من قومه﴾ وقابلوا رفته وأدبه بغلظة مؤكداً ما تضمنته من البهتان لأن حالهم مكذب لهم فقالوا: ﴿إنا لنرك﴾ أي كل واحد منا يعتقد اعتقاداً هو في الثقة به كالرؤية أنك ﴿في ضلل﴾ أي خطأ وذهب عن الصواب، هو ظرف لك محيط بك ﴿مبين*﴾ أي ظاهر في نفسه حتى كأنه يظهر ذلك لغيره .

﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ أَتَلْعَبُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْحَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١٤﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنزَلْنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَتَلْعَبُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ .

ولما قذفوه بضللال مقيد بالوضوح، نفى الضلال المطلق الذي هو الأعم، وبنفيه ينتفي كل أخصياته بل نفى أقل شيء من الضلال، فقال تعالى مخبراً عنه ﴿قال يقول﴾ مجدداً لاستعطافهم ﴿ليس بي ضلالة﴾ فنفي وحدة غير معينة، ولا يصدق ذلك إلا بنفي

لكل فرد، فهو أنص من نفي المصدر، ولم يصف الملاء من قومه هنا بالذين كفروا ووصفهم بذلك في سورة هود، إما لأنها صفة ذم لم يقصد بها التقييد فلا يختل المعنى بإثباتها ولا نفيها، أو لأنهم أجابوه بذلك مرتين: إحداهما قبل أن يسلم أحد من أشرفهم، والثانية بعد أن أسلم بعضهم.

ولما نفى ما رموه به على هذا الوجه البليغ، أثبت له ضده بأشرف ما يكون من صفات الخلق، فقال مستدركاً - بعد نفي الضلال - إثبات ملزوم ضده: ﴿ولكني رسول﴾ أي إليكم بما أمرتكم به فأنا على أقوم طريق ﴿من رب العلمين﴾ أي المحسن إليهم بإرسال الرسل لهديتهم بإنقاذهم من الضلال، فرد الأمر عليهم بألطف إشارة؛ ثم استأنف الإخبار عن وظيفته بياناً لرسالته فقال: ﴿أبلغكم﴾ وكأن أبواب كفرهم كانت كثيرة فجمع باعتبارها أو باعتبار تعدد معجزاته أو تعدد نوبات الوحي في الأزمان المتطاولة والمعاني المختلفة، أو أنه جمع له ما أرسل به من قبله كأدريس جده وهو ثلاثون صحيفة وشيث وهو خمسون صحيفة عليهما السلام فقال: ﴿رسلت ربي﴾ أي المحسن إلي من الأوامر والنواهي وجميع أنواع التكاليف من أحوال الآخرة وغيرها، لا أزيد فيها أنقص منها كما هو شأن كل رسول مطيع.

ولما كان الضلال من صفات الفعل، اكتفى بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث في قوله: ﴿وأنصح﴾ وقصر الفعل ودل على تخصيص النصيح بهم ومحضه لهم فقال: ﴿لكم﴾ والنصيحة: الإرشاد إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه، ولما كان الضلال من الجهل قال: ﴿وأعلم من الله﴾ أي من صفات الذي له صفات الكمال وسائر شؤونه ﴿ما لا تعلمون﴾ أي من عظيم أخذه لمن يعصيه وغير ذلك مما ليس لكم قابلية لعلمه بغير سفارتي فخذوه عني تصيروا علماء، ولا تتركوه بنسبتي إلى الضلال تزدادوا ضلالاً.

ولما كان الحامل لهم على هذا مجرد استبعاد أن يختص عنهم بفضيلة وهو منهم كما سيأتي في غير هذه السورة، أنكر ذلك عليهم بقوله: ﴿أو عجبتم﴾ أي أكذبتهم وعجبتم ﴿أن جاءكم﴾ وضمن جاء معنى أنزل، فلذلك جعلت صلته «على» فقال: ﴿ذكر﴾ أي رسالة ﴿من ربكم﴾ أي المحسن إليكم بالإيجاد والتربية منزلاً ﴿على رجل﴾ أي كامل في الرجولية وهو مع ذلك بحيث لا تتهمونه فإنه ﴿منكم﴾ لقولكم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي إرسال البشر ﴿في آبائنا الأولين﴾ [المؤمنون: ٢٤] ﴿لينذركم﴾ لتحذروا ما ينذركموه ﴿ولتتقوا﴾ أي تجعلوا بينكم وبين ما تحذرونه وقاية لعلكم تتجون ﴿ولعلكم ترحمون﴾ أي وليكون حالكم إذا لقيتم الله حال من ترجى رحمته بأن يرفعه الله في الدارين.

ولما نسبوه أولاً إلى الضلال وهو قد يكون خطأ عن ذهول ونحوه، فأقام لهم الدليل على أنه على الصواب، أخبر أنه لم يتسبب عن ذلك إلا تصریحهم بما لوحوا إليه أولاً بالضلال من التكذيب فقال: ﴿فكذبوه﴾ أي الملائمة وتبعهم من دونهم؛ ولما تسبب عن تكذيبهم له تصديق الله لهم بإهلاكهم وإنجائهم ومن آمن به، قال مقدماً لإنجائه اهتماماً به: ﴿فأنجينه﴾ بما لنا من العظمة من أهل الأرض كلهم ومن عذابنا الذي أخذناهم به ﴿والذين معه﴾ أي بصحبة الأعمال الدينية ﴿في الفلك﴾ وهو السفينة التي من الله على الناس بتعليمه عملها لتقيه من الطوفان فكانت آية ومنفعة عظيمة لمن أتى بعدهم ﴿وأغرقنا﴾ أي بالطوفان، وهو الماء الذي طبق ظهر الأرض فلم يبق منها موضعاً حتى أحاط به، وأظهر موضع الإضمار تعليقاً للفعل بالوصف إشارة إلى أن من فعل مع الرسول شيئاً فإنما فعله مع مرسله فهو يجازيه بما يستحقه فقال: ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي وهي من الظهور في حد لا خفاء به لما لها من العظمة بالنسبة إلينا، وعدي هنا فعل النجاة بالهمزة وهي الأصل في التعدية، وقرنت بـ ﴿الذين﴾ لأنه أخلص الموصولات وأصرحها.

ولما أعيدت القصة في سورة يونس عليه السلام، كان الأليق بكلام البلغاء والأشبه بطرائق الفصحاء التفتن في العبارة، فعدي التضعيف مع ما فيه من الأبلغية بإفهام مزيد الاعتناء مناسبة لما تقدم من مزيد التفويض في قوله ﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ [يونس: ٧١]، وتلا بـ ﴿من﴾ ضمّاً للفرع إلى الفرع فإن ﴿من﴾ مشترك بين الوصل والشرط، وهي أيضاً قد تطلق على ما لا يعقل، فناسب ذلك الحال، وزيد هناك في وصف الناجين ﴿وجعلنهم خلف﴾ [يونس: ١٠] نظراً إلى قوله تعالى في أول السورة ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ [يونس: ١٣]، ثم قال: ﴿ثم جعلنكم خلف في الأرض من بعدهم لنتظر كيف تعملون﴾ [يونس: ١٤] فلوح لهم بالإهلاك إن ظلموا، ثم أشار لهم - في قصة نوح عليه السلام بكونه أعلمهم أن الخلائف هم الناجون الباقي ذكرهم وذريتهم - إلى أنه تفضل عليهم بالتوفيق إلى الإجابة ورحمهم بهذا النبي الكريم - عليه أفضل الصلاة والتسليم - فقضى أنهم غير مهلكين.

ولما افتتحت القصة بنسبتهم له إلى الضلال باطلاً، وهو ناشئ عن عمى البصيرة أو البصر، ناسب أن يقلب الأمر عليهم على وجه الحق فقال مؤكداً لإنكارهم ذلك: ﴿إنهم كانوا﴾ أي لما في جبلتهم من العوج ﴿قوماً عمين﴾ أي مطبوعين في عمى القلب مع قوتهم فيما يحاولونه، ثابت لهم ذلك، بما أشار إليه فعل دون أن يقال فاعل، وختمت القصة في يونس بقوله: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ [يونس: ٧٣] لقوله

أولها ﴿إِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي﴾ [يونس: ٧١] أي إنذارني لأنه أعلم أنه كبر عليهم ولو كان تبشيراً لما عز عليهم.

ولما كان عاد بعدهم، ولم يكن هنا ما يقتضي تشويش الترتيب، اتبعهم بهم مقدماً المرسل إليه ليفيد تخصيص رسالته بهم وهم بعض أهل الأرض فقال: ﴿وإلى عاد﴾ أي خاصة أرسلنا ﴿أحاهم﴾ أي في النسب لأنهم عنه أفهم وبحاله في الثقة والأمانة أعرف؛ ولما عطفه على نوح عليهما السلام بعد تقديم المرسل إليهم، بينه بقوله: ﴿هوداً﴾ بخلاف قوم نوح فإنهم كانوا جميع أهل الأرض، لأن القبائل لم تكن فرقت الناس ولا الألسنة إذ كان لسان الكل واحداً، ولم تفرق الألسنة إلا بعد الصرح، ولهذا عم الغرق جميع أهل الأرض، فكان المعنى حينئذ لا يختلف في قصته بتقديم ولا تأخير، فناسب تقديم الرسالة أو المرسل لأنه أهم.

ولما كانت قصة نوح عليه السلام أول قصص الأنبياء مع قومهم، ولم يكن للعرب عهد بمجاورات الأنبياء ومن يرسلون إليه، فأتى فيها بالأصل «أرسلناه» فقال سيقاً واحداً إخباراً لمن هو فارغ الذهن من كل جزء من أجزائها؛ أنت قصة هود عليه السلام بعد علم السامعين بقصة نوح عليه السلام مما وقع من تبليغه لهم وردهم عليه، فلما ذكر إرساله تشوف السامع إلى أنه هل قال لهم كما قال نوح وهل ردوا عليه كرد قومه أو كان الأمر بخلاف ذلك؟ فأجيب سؤال المتشوف بقوله: ﴿قال﴾ كقول نوح عليه السلام سواء ﴿يقوم﴾ مذكراً لهم بأنه أحدهم يهمة ما يههمهم ﴿اعبدوا الله﴾ أي لاستحقاقه ذلك لذاته؛ ثم علل أو استأنف بقوله: ﴿ما لكم﴾ وأغرق في النفي فقال: ﴿من إله غيره﴾ ولما كانوا عارفين بما أصاب قوم نوح قال: ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تجعلون بينكم وبين عذاب هذا الواحد الجبار وقاية.

ولما تشوف السامع إلى جوابهم بعد هذا الترغيب الممزوج بالترهيب، أجيب بقوله: ﴿قال الملائ﴾ أي الأشراف الذين يملؤون العيون بهجة والصدور هيبة، ولما كانت عاد قليلاً بالنسبة إلى قوم نوح عليه السلام، وكان قد أسلم من أشرافهم من له غنى في الجملة، قيد بقوله: ﴿الذين كفروا﴾ أي ستروا ما من حقه الظهور من أدلة الوحداية، ووصفوا تسلياً لهذا النبي الكريم فيما يرى من جفاء قومه بأن مثل ذلك كان لإخوانه من الأنبياء بقوله: ﴿من قومه﴾ وأكدوا ما واجهوه به من الجفاء لأنهم عالمون بأن حاله في علمه وحكمه يكذبهم بقولهم: ﴿إنا لنرك﴾ أي نعلمك علماً متيقناً حتى كأنه محسوس ﴿في سفاهة﴾ أي مظروفاً لخفة العقل، فهي محيطة بك من جميع الجوانب، لا خلاص

لك منها، فلذا أدتكم إلى قول لا حقيقة له، فالتنوين للتعظيم، فإن قيل: بل للتحقير، كأنهم توقفوا في وصفه بذلك كما توقفوا في الجزم بالكذب فقالوا: ﴿وإنا لنظنك من الكذابين﴾ أي المتعمدين للكذب، وذلك لأنه كان عندهم علم من الرسل وما يأتي مخالفهم من العذاب من قصة نوح عليه السلام ولم يكن العهد بعيداً، وأما قوم نوح فجزموا بالضلال وأكوده بكونه مبيئاً، لأنه لم يكن عندهم شعور بأحوال الرسل وعذاب الأمم قبل ذلك، ولهذا قالوا ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ [المؤمنون: ٢٤]، قيل: ليس كذلك، فقد ورد في جواب قوم نوح في سورة هود مثل هذا، وهو قوله ﴿بل نظنكم كذابين﴾ [هود: ٢٧]؛ فإن قيل: إنما كان هذا في ثاني الحال بعد أن نصب لهم الأدلة وأقام البراهين على صحة مدعاه وثارَت حظوظ الأنفس بالجدال، فإنه يبعد أن يكون قومه أجابوه بذلك أول ما دعاهم، قيل: والأمر كذلك في قصة هود عليه السلام سواء فإنه لم يقل له ذلك إلا الكفار من قومه، فتقيدهم بالوصف يدل على أنه كان فيهم من اتبعه، بل وإن متبعه كان من أشرفهم هم بالظن، وتعبير في الكذب لإرادتهم أنه يكفي في وصفه بالسفاهة التي زعموها إقدامه على ما يحتمل معه ظنهم لكذبه، أو يكون قوله غير الحق في زعمهم مردداً بين أن يكون قاله عن تعمد أو حمله عليه ما رموه به من السفه من غير تأمل. ولما قابلوا لينته لهم وشفقته عليهم بهذه الغلظة، أعرض عن ذلك وعاملهم من الحلم بضد ما سموه به بأن ﴿قال﴾ معلماً الأدب في مخاطبة السفهاء ﴿يقوم﴾ مذكراً بما بينهم من النسب الداعي إلى الود والمناصحة والعطف والملاطفة ﴿ليس بي سفاهة﴾ فنفي أن يكون به شيء من خفة حلم، فانتفى أن يكون كاذباً لأن الداعي إلى الكذب الخفة والطيش فلم يحتج إلى تخصيصه بنفي.

ولما نفى السفاهة، أثبت ما يلزم منه ضدها بقوله: ﴿ولكني رسول﴾ وبين المرسل تعظيماً للأمر بقوله: ﴿من رب العلمين﴾ أي المحسن إليهم بعد نعمة الإيجاد والأرزاق بإرسال الرسل إليهم ليكسبوهم معالي الأخلاق التي بها انتظام نعمة الإبقاء ﴿أبلغكم﴾ وجمع الرسالة لما تقدم في قصة نوح عليه السلام فقال: ﴿رسلت ربي﴾ أي المحسن إليّ بتعليمي ما لم أكن أعلم وتأهيلي لما لم يكن في حسابي.

ولما كانوا قد رموه بالسفه الذي هو من غرائز النفس لأنه ضد الحلم والرزانة، عبر عن مضمون الجملة النافية له بما يقتضي الثبات فقال: ﴿وأنا لكم ناصح﴾ أي لم يزل النصح من صفتي، وليس هو ما تكسبته بل غريزة فيّ، قد بلوتموني فيه قبل الرسالة وإظهار هذه المقالة دهنراً دهنراً وزماناً طويلاً؛ ولما قالوا: إنهم يظنون كذبه، زادهم صفة الأمانة فقال: ﴿أمين﴾.

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا نَعْبُدُونَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ أَتُجَدِّدُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٨﴾ ۞ .

ولما كان يعرف ما يعتقدونه من أمانته وعقله، وظن أنه ما حملهم على هذا إلا العجب من أن يطلع على ما لم يطلعوا عليه، أنكر عليهم ذلك ذكراً لما ظنه حاملاً لهم ملوحاً بالعطف إلى التكذيب فقال: ﴿أو عجبتم﴾ أي أكذبتم وعجبتم ﴿أن جاءكم ذكر﴾ أي شرف وتذكير ﴿من ربكم﴾ أي الذي لم يقطع إحسانه عنكم قط، منزلاً ﴿على رجل منكم﴾ أي عزه عزكم وشرفه شرفكم فما فاتكم شيء ﴿لينذركم﴾ أي يحذركم ما لمن كان على ما أنتم عليه من وخامة العاقبة.

ولما كان التقدير: فاحذروا، عطف عليه تذكيرهم بالنعمة مشيراً به إلى التحذير من عظيم النعمة في قوله: ﴿واذكروا إذ﴾ أي حين ﴿جعلكم خلفاء﴾ أي فيما أنتم فيه من الأرض، ولما كان زمنهم متراخياً بعدهم، أتى بالجاء فقال: ﴿من بعد قوم نوح﴾ أو يكون المحذوف ما اقتضاه الاستفهام في قوله ﴿أو عجبتم﴾ من طلب الجواب، أي أجيبوا واذكروا، أي ولا تبادروا بالجواب حتى تذكروا ما أنعم به عليكم، وفيه الإشارة إلى التحذير مما وقع لقوم نوح، أو يكون العطف على معنى الاستفهام الإنكاري في ﴿أفلا تتقون﴾، ﴿أو عجبتم﴾ أي اتقوا ولا تعجبوا واذكروا، أو يكون العطف - وهو أحسن على ﴿اعبدوا الله﴾ وقوله ﴿خلفاء﴾ قيل: إنه يقتضي أن يكونوا قاموا مقامهم، ومن المعلوم أن قوم نوح كانوا ملء الأرض، وأن عاداً إنما كانوا في قطعة منها يسيرة وهي الشجرة من ناحية اليمن، فقيل: إن ذلك لكون شداد بن عاد ملك جميع الأرض، فكانه قيل: جعل جدكم خليفة في جميع الأرض، فلو حصل الشكر لتمت النعمة، فأطيعوا يزدكم من فضله، وقيل: إن قصة ثمود مثل ذلك، ولم يكن فيهم من ملك الأرض ولا أرض عاد، فأجيب بما طرد، وهو أن عاداً لما كانوا أقوى أهل الأرض أبداناً وأعظمهم أجساداً وأشدهم خلقاً أشهرهم قبيلة وذكرأ، كان سائر الناس لهم تبعاً، وكذا ثمود فيما أعطوه من القدرة على نحت الجبال ونحوها بيوتاً، وعندني أن السؤال من أصله لا يرد، فإن بين قولنا: فلان خليفة فلان، وفلان خليفة من بعد فلان - من

الفرق ما لا يخفى، فالمخلوف في الثاني لم يذكر، فكأنه قيل: جعلكم خلفاء لمن كان قبلكم في هذه الأرض التي أنتم بها، وخص قوم نوح وعاد بالذكر تذكيراً بما حل بهم من العذاب، ولهذا بعينه خص الله هذه الأمم التي وردت في القرآن بالذكر، وإلا فقد كانت الأمم كثيرة العد زائدة على الحد عظيمة الانتشار في جميع الأقطار، ومعلوم أن الله تعالى لم يترك واحدة منها بغير رسول ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء: ١٥] وفي قصة هود في سورة الأحقاف ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ وله سر آخر وهو أن هذه الأمم كان عند العرب كثير من أخبارهم ففصلت لهم أحوالهم، وطوي عنهم من لم يكن عندهم شعور بهم فلم يذكروا إلا إجمالاً لئلا يسارعوا إلى التكذيب بما ينزل فيهم من غير دليل شهودي يقام عليهم.

ولما ذكرهم بمطلق الإبقاء بعد ذلك الإغراق العام، أتبعه التذكير بالزيادة فقال: ﴿وزادكم﴾ أي على من قبلكم أو على من هو موجود في الأرض في زمانكم ﴿في الخلق﴾ أي الخاص بكم ﴿بسطة﴾ أي في الحس بطول الأبدان والمعنى بقوة الأركان، قيل: كان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً، وقيل: أكثر.

ولما عظمت النعمة، كرر عليهم التذكير فقال مسيئاً عن ذلك ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي نعم الذي استجمع صفات العظمة التي أنعم عليكم بها من الاستخلاف والقوة وغيرهما، واذكروا أنه لا نعمة عندكم لغيره أصلاً، فصار مستحقاً لأن تخصوه بالعبادة ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجى فلاحه وهو ظفره بجميع مراده، لأن الذكر موجب للشكر الموجب للزيادة.

ولما كان هذا منه موجباً ولا بد لكل سامع منصف من المبادرة إلى الإذعان لهذه الحجة القطعية، وهي استحقاقه للأفراد بالعبادة للتفرد بالإنعام، ازداد تشوف المخاطب إلى جوابهم، فأجيب بقوله: ﴿قالوا﴾ منكرين عليه معتمدين على محض التقليد ﴿اجتئنا﴾ أي من عند من ادعت أنك رسوله ﴿لنعبد الله﴾ أي الملك الأعظم ﴿ووحده﴾ ولما كان هذا منهم في غاية العجب المستحق للإنكار، أتبعوه ما هو كالعلة لإنكارهم عليه ما دعاهم إليه فقالوا: ﴿ونذر﴾ أي ترك على غير صفة حسنة ﴿ما كان يعبد آباؤنا﴾ أي مواظبين على عبادته بما دلوا عليه بـ «كان» وصيغة المضارع - مع الإشارة بها إلى تصوير آباؤهم في حالهم ذلك - ليحسن في زعمهم إنكار مخالفتهم لهم.

ولما كان معنى هذا الإنكار أنا لا نعطيك، وكان قد لوح لهم بالتذكر بقوم نوح وقوله ﴿أفلا تتقون﴾ إلى الأخذ إن أصروا، سببوا عن ذلك قولهم: ﴿فأنتنا﴾ أي عاجلاً ﴿بما تعدنا﴾ أي من العذاب بما لوح إليه إيمانهم إلى التكذيب بقولهم: ﴿إن كنت من الصالحين﴾ وتسميتهم للأنذار بالعذاب وعداً من باب الاستهزاء.

ولما كانوا قد بالغوا في السفه في هذا القول، وكان قد علم من محاورته ﷺ لهم الحلم عنهم، اشتد التطلع إلى ما يكون من جوابه لهذا والتوقع له، فشفى غليل هذا التشوف بقوله: ﴿قال قد وقع﴾ أي حق ووجب وقرب أن يقع ﴿عليكم من ربكم﴾ أي الذي غركم به تواتر إحسانه عليكم وطول إملائه لكم ﴿رجس﴾ أي عذاب شديد الاضطراب في تتبع أقصاكم وأدناكم موجب لشدة اضطرابكم ﴿وغضب﴾ أي شدة في ذلك العذاب لا تفلتون منها.

ولما أخبرهم بذلك، بين لهم أن سببه كلامهم هذا في سياق الإنكار فقال: ﴿أتجادلونني﴾ ولما كانت ألهمتكم تلك التي يجادلون فيها لا تزيد على الأسماء لكونها خالية من كل معنى، قال: ﴿في أسماء﴾ ثم بين أنه لم يسمها آلهة من يعبد به فقال: ﴿سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ ولما كان الله تعالى أن يفعل ما يشاء وأن يأمر بالخضوع لمن يشاء، قال نافياً التنزيل فإنه يلزم منه نفي الإنزال: ﴿ما نزل الله﴾ أي الذي ليس الأمر إلا له ﴿بها﴾ أي بتعبدكم لها أو بتسميتكم إياها، وأغرق في النفي فقال: ﴿من سلطن﴾ ولعله أتى بصيغة التنزيل لأن التفعيل يأتي بمعنى الفعل المجدد وبمعنى الفعل بالتدرج فقصد - لأنه في سياق المجادلة وفي سورة مقصودها إنذار من أعرض عما دعا إليه هذا الكتاب النازل بالتدرج - النفي بكل اعتبار، سواء كان تجديداً أو تدرجاً وإشارة إلى أنه لو نزل عليهم في الأمر بعبادتها شيء واحد لتوقفوا فيه لعدم فهمهم لمعناه حتى يكرر عليهم الأمر فيه مرة بعد أخرى، فيعلموا أن ذلك أمر حتم لا بد منه كما فعله بنو إسرائيل في الأمر بذبح البقرة لأجل القتل لأجل أنهم لم يعقلوا معناه، دل ذلك قطعاً على أن الأمر لهم بعبادتها إنما هو ظلام الهوى لأنه عمى محض من شأن الإنسان ركوبه بلا دليل أصلاً.

ولما أخبرهم بوقوع العذاب وسببه، بين لهم أن الوقوع ليس على ظاهره في الإنجاز، وإنما معناه الوجوب الذي لا بد منه فقال: ﴿فانتظروا﴾ ثم استأنف الإخبار عن حاله بقوله: ﴿إني﴾ وأشار بقوله: ﴿معكم﴾ إلى أنه لا يفارقهم لخشيته منهم ولا غيرها ﴿من المنتظرين﴾.

﴿فَأَنبِئِنَّهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايُنِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٦) وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَعْلَمُ بَيْتَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ مَا يَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ

عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا
فَازْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ .

ولما كان هذا ينبغي أن يكون سبباً للتصديق الذي هو سبب الرحمة، بين أنه إنما سبب لهم العذاب، وله وللمن تبعه النجاة، فبدأ بالمؤمنين اهتماماً بشأنهم بقوله: ﴿فأنجينه﴾ أي بما لنا من العظمة إنجاء وحيثاً سريعاً سللناهم به من ذلك العذاب كسل الشعرة من العجين ﴿والذين معه﴾ أي في الطاعة، وأشار إلى أنه لا يجب على الله شيء بقوله: ﴿برحمة﴾ أي بإكرام وحياطة ﴿منا﴾ أي لا بعمل ولا غيره.

ولما قدم الإنجاء اهتماماً به، أتبعه حالهم فقال معلماً بأن أخذه على غير أخذ الملوك الذين يعجزون عن الاستقصاء في الطلب، فتفوتهم أواخر العساكر وشذاب الجنود والأتباع ﴿وقطعنا﴾ دابرهم أي آخرهم، هكذا كان الأصل، ولكنه أظهر تصريحاً بالمقصود وبياناً لعله أخذهم فقال: ﴿دابره﴾ أي آخر، أي استأصلنا وجعلنا ذلك الاستئصال معجزة لهود عليه السلام ﴿الذين كذبوا بآئتنا﴾ أي ولم يراقبوا عظمتها بالنسبة إلينا، وقوله: ﴿وما كانوا﴾ أي خلقاً وجيلة ﴿مؤمنين﴾ عطف على صلة ﴿الذين﴾ وهي ﴿كذبوا بآئتنا﴾ وهي جارية مجرى التعليل لأخذهم مؤذنة بأنه لا يحصل منهم صلاح كما ختم قصة نوح بقوله ﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾ [الأعراف: ٦٤] تعليلاً لإغراقهم، أي أنا قطعنا دابرهم وهم مستحقون لذلك، لأنهم غير قابلين للإيمان لما فيهم من شدة العناد ولزوم الإلحاد، فالمعنى: وما كان الإيمان من صفتهم، أي ما آمنوا في الماضي ولا يؤمنون في الآتي، فيخرج منه من آمن وكان قد كذب قبل إيمانه ومن لم يؤمن في حال دعائه لهم وفي علم الله أنه سيؤمن، ويزيده حسناً أنهم لما افتتحوا كلامهم بأن نسبوه إلى السفاهة كاذبين؛ ناسب ختم القصة بأن يقلب الأمر عليهم فيوصفوا بمثل ذلك صدقاً بكلام يبين أن اتصافهم به هو الموجب لما فعل بهم، لأن الإيمان لا يصدر إلا عن كمال الثبات والرزانة وترك الهوى وقمع رعونات النفس والانتقياد لواضح الأدلة وظاهر البراهين، فمن تركه مع ذلك فهو في غاية الطيش والخفة وعدم العقل، وأيضاً فوصفهم بالتكذيب بالفعل الماضي لا يفهم دوامهم على تكذيبهم، فقال سبحانه ذلك لنفي احتمال أنهم آمنوا بعد التكذيب وأن أخذهم إنما كان لمطلق صدور التكذيب منهم، وأنهم لم يبادروا إلى الإيمان قبل التكذيب، ويحتمل أن تكون الجملة حالاً، والمعنى على كل تقدير: قطعنا دابرهم في حال تكذيبهم وعدم إيمانهم.

ولما أتم سبحانه ما أراد من قصة عاد، أتبعهم ثمود فقال: ﴿وإلى ثمود﴾ أي خاصة، منع من الصرف لأن المراد به القبيلة، وهو مشتق من الثمد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، أرسلنا ﴿أخاهم صلحاً﴾

ثم استأنف الإخبار عن قوله - كما مضى في هود عليه السلام فقال: ﴿قال يقوم﴾ مستعظفاً لهم بالتذكير بالقرابة وعاطف النسابة ﴿اعبدوا الله﴾ أي الذي لا كمال إلا له ﴿ما لكم﴾ وأكد النفي بقوله: ﴿من إله غيره﴾.

ولما دل على صدقه في ذلك أنهم دعوا أوثانهم فلم تجبهم، ودعا هو ﷺ ربه سبحانه فأخرج لهم الناقة، علل صحة ما دعا إليه بقوله: ﴿قد جاءكم بينة﴾ أي آية ظاهرة جداً على صدقي في ادعاء رسالتي وصحة ما أمرتكم به، وزادهم رغبة بقوله: ﴿من ربكم﴾ أي الذي لم يزل محسناً إليكم؛ ثم استأنف بيانها بقوله: ﴿هذه﴾ مشيراً إليها بعد تكوينها تحقيقاً لها وتعظيماً لشأنها وشأنه في عظيم خلقها وسرعة تكوينها لأجله.

ولما أشار إليها، سماها فقال: ﴿ناقة الله﴾ شرفها بالإضافة إلى الاسم الأعظم، ودل على تخصيصها بهم بقوله: ﴿لكم﴾ حال كونها ﴿آية﴾ أي لمن شاهدها ولمن سمع بها وصح عنده أمرها؛ ثم سبب عن ذلك قوله: ﴿فذروها﴾ أي اتركوها ولو على أدنى وجوه الترك ﴿تأكل﴾ أي من النبات ﴿وفي أرض الله﴾ أي مما أنبت الله الذي له كل شيء وهي ناقته كما أن الأرض كلها مطلقاً أرضه والنبات رزقه، ولذلك أظهر لثلاثاً يختص أكلها بأرض دون أخرى.

ولما أمرهم بتركها لذلك، أكد الأمر بنهيهم عن أذاها فقال: ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ فضلاً عما بعد المس ﴿فياخذكم﴾ أي أخذ قهر بسبب ذلك المس وعقبه ﴿عذاب اليم﴾ أي مؤلم.

ولما أمرهم ونهاهم، ذكر لهم ترغيباً مشيراً إلى تهيب فقال: ﴿واذكروا﴾ أي نعمة الله عليكم ﴿إذ جعلكم خلفاء﴾ أي فيما أنتم فيه ﴿من بعد عاد﴾ أي إهلاكهم ﴿وبوأكم في الأرض﴾ أي جعل لكم في جنسها مساكن تبوءون أي ترجعون إليها وقت راحتكم، سهل عليكم من عملها في أي أرض أردتم ما لم يسهل على غيركم، ولهذا فسر المراد بقوله: ﴿تتخذون﴾ أي بما لكم من الصنائع ﴿من سهولها قصوراً﴾ أي أبنية بالطين واللبن والآجر واسعة عالية حسنة يقصر أمل الآمل ونظر الناظر عليها مما فيها من المرافق والمحاسن ﴿وتنتحون الجبال﴾ أي أي جبل أردتم تقدرونها ﴿بيوتاً﴾.

ولما ذكرهم بهذه النعم مرغباً مرهباً، كرر ذلك إشارة وعبرة فقال مسبباً عما ذكرهم به: ﴿فاذكروا﴾ أي ذكر إذعان ورغبة ورهبة ﴿آلاء﴾ أي نعم ﴿الله﴾ أي الذي له صفات الكمال فلا حاجة به إلى أحد، فإحسانه هو الإحسان في الحقيقة ﴿ولا تعثوا في﴾

الأرض ﴿ من العني وهو الفساد، وهو مقلوب عن العيث - قاله ابن القطاع، وحينئذ يكون قوله: ﴿مفسدين﴾ بمعنى متعمدين للفساد.

﴿ قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ آثِنَانَا يَمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْنَ لَكَدَ أَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٩﴾ .

ولما حصل الالتفات إلى جوابهم، قيل: ﴿قال الملأ﴾ أي الأشراف، وبينه بقوله: ﴿الذين استكبروا﴾ أي أوقعوا الكبر واتصفوا به فصار لهم خلقاً فلم يؤمنوا؛ ونبه على التأسية بقوله: ﴿من قومه﴾ ولما قال: ﴿للذين استضعفوا﴾ كان ربما فهم أنهم آمنوا كلهم، فنفي ذلك بقوله مبدلاً منه: ﴿لمن آمن منهم﴾ أي المستضعفين، فهو أوقع في النفس وأروع للجان من البيان في أول وهلة مع الإشارة إلى أن أتباع الحق هم الضعفاء، وأنه لم يؤمن إلا بعضهم، ففيه إيحاء إلى أن الضعف أجل النعم لملازمته ل طرح النفس المؤدي إلى الإذعان للحق، وبنائوه للمفعول دليل على أنهم في غاية الضعف بحيث يستضعفهم كل أحد ﴿أتعلمون﴾ أي بدؤوهم بالإنكار صداً لهم عن الإيمان ﴿أن صلحاً﴾ سموه باسمه جفاء وغلظة وإرهاباً للمسؤولين ليجيبوهم بما يرضيهم ﴿مرسل من ربه﴾ وكأنهم قالوه ليعلموا حالهم فيبنوا عليه ما يفعلونه، لأن المستكبرين لا يتم لهم كبرهم إلا بطاعة المستضعفين.

ولما علموا ذلك منهم، أعلموهم بالمنايذة اعتماداً على الكبير المتعال الذي يضمحل كل كبر عند كبره ولا يعد لأحد أمر مع أمره، بأن ﴿قالوا﴾ منبهين لهم على غلظتهم وغلظتهم في توسمهم في حالهم معبرين بما دل على العلم بذلك والإذعان له ﴿إنما بما أرسل به﴾ وبنى للمفعول إشارة إلى تعميم التصديق وإلى أن كونه من عند الله أمر مقطوع به لا يحتاج إلى تعيين ﴿مؤمنون﴾ أي غريقون في الإيمان به، ولذلك ﴿قال الذين استكبروا﴾ أي في جوابهم معبرين بما يدل على المخالفة لهم والمعاندة ﴿إنما بالذي﴾ ووضعوا موضع «أرسل به» - رداً لما جعلوه معلوماً وأخذوه مسلماً ﴿آمتتم به﴾ أي كائناتاً ما كان ﴿كفرون﴾ ثم سبب عن قولهم قوله ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أي التي جعلها الله لهم آية، وعبر بالعقر دون النحر لشموله كل سبب لقتلها لأن ابن إسحاق ذكر أنه

اجتمع لها ناس منهم فرماها أحدهم بسهم وضرب آخر قوائمها بالسيف ونحرها آخر فأطلق اسم السبب على المسبب، لكن قوله تعالى: ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ [القمر: ٢٩] وقوله ﴿إذا انبعث أشقها﴾ [الشمس: ٩١] وقوله ﷺ ﴿انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في قومه﴾^(١) قالوا: هو قدار بن سالف، جعلت له امرأة من قومه ابنتها إن عقرها، ففعل فكان أشقى الأولين، وأشقى الآخرين عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، جعلت له قطام امرأة من بني عجل جميلة نفسها إن قتله، فالمناسبة بينهما أن كلاً منهما ألقى نفسه في المعصية العظمى لأجل شهوة فرجه في زواج امرأة، وقوله ﷺ ﴿أشقى الأولين عاقر الناقة﴾^(٢) يدل على أن عاقرها رجل واحد، وحينئذ يكون المراد به قطع القوائم، فحيث جمع أراد الحقيقة والمجاز معاً، وحيث أفرد أراد الحقيقة فقط، فالتعبير به لأنه الأصل والسبب الأعظم في ذبح الإبل؛ قال البغوي: قال الأزهري: العقر هو قطع عرقوب البعير، ثم جعل النحر عقراً لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره - انتهى. وكان هذا إشارة إلى أن المراد بالعقر في كلامه النحر، ولا ريب في أن أصل العقر في اللغة القطع، ومادته تدور على ذلك، عقر النخلة. إذا قطع رأسها فيبست، والفرس: ضرب قوائمها بالسيف وأكثر ما يستعمل العقر في الفساد، وأما النحر فيستعمل غالباً في الانتفاع بالمنحور لهماً وجلداً وغيرهما، فلعل التعبير به دون النحر إشارة إلى أنهم لم يقصدوا بنحرها إلا إهلاكها عتواً على الله وعناداً وفعالاً للسوء مخالفة لنهي صالح عليه السلام، ولا يشكل ذلك بما ورد من أنهم اقتسموا لحمها، لأنه لم يدع أن العقر يلزمه عدم الانتفاع بالمنحور، وعلى التنزل فهم لم يريدوا بذلك الانتفاع باللحم، وإنما قصدوا - حيث لم يمكنهم المشاركة جميعاً في العقر - أن يشتركوا فيما نشأ عنه تعريضاً برضاهم به ومشاركتهم فيه بما يمكنهم ﴿وعتوا﴾ أي تجاوزوا الحد في الغلظة والتكبر ﴿عن أمر﴾ أي امتثال أمر ﴿ربهم﴾ أي المحسن إليهم الذي أتاهم على لسان رسوله من تركها ﴿وقالوا﴾ زيادة في العتو ﴿ينصلح اثنتا﴾.

ولما نزلوا وعيدهم له - حيث لم يؤمنوا به - منزلة الوعد والبشارة، قالوا: ﴿بما تعدنا﴾ استخفافاً منهم ومبالغة في التكذيب، كأنهم يقولون: نحن على القطع بأنك لا تقدر على أن تأتينا بشيء من ذلك، وإن كنت صادقاً فافعل ولا تؤخره رفقاً بنا وشفقة

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٤٢ ومسلم ٢٨٥٥ والترمذي ٣٣٤٣ والنسائي في الكبرى ١١٦٧٥ من حديث عبد الله بن زعنة بأتم منه.

(٢) قلت: أخرجه الطبراني في الكبير كما في المجمع ١٤/٧ و٣٩٩ (١٠٩٧٠) (١٢٣١٩) من حديث عبد الله بن عمرو، وصده: «أشقى الناس ثلاثة». وقال الهيثمي في المجمع عقب الرواية الأولى: فيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وعقب الرواية الثانية: وفيه حكيم بن جبير وهو متروك، وضعفه الجمهور، وقال أبو زرعة محله الصدق إن شاء الله، وابن إسحاق: مدلس اهـ.

علينا، فإننا لا نتأذى بذلك، بل نتلذذ من يلقي الوعد الحسن، وحاصله التهكم منهم به والإشارة إلى عدم قدرته؛ وأكدوا ذلك بقولهم بأداة الشك: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾* أي الذين سمعنا أخبارهم فيما مضى؛ ثم سبب عن عتوهم قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ﴾ أي التي كانت عنها أو منها الصيحة، أخذ من هو في القبضة على غاية من الصغار والحقارة، ولعل توحيد الدار هنا مع الرجفة في قصة صالح وشعيب عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي مساكنهم، وجمعها في القصتين مع الصيحة، في سورة هود عليه السلام للإشارة إلى عظم الزلزلة والصيحة في الموضوعين، وذلك لأن الزلزلة إذا كانت في شيء واحد كانت أمكن، فتكون في المقصود من النكال أعظم، والصيحة من شأنها الانتشار، فإذا عمت الأماكن المتناحية والديار المتباعدة فأهلكت أهلها ومزقت جماعتها وفرقت شملها، كانت من القوة المفرطة والشدة البالغة بحيث تنزعج من تأمل وصفها النفوس وتجب له القلوب، وحاصله أنه حيث عبر بالرجفة وحد الدار إشارة إلى شدة العذاب بعظم الاضطراب، وحيث عبر بالصيحة جمع إيماء إلى عموم الموت بشدة الصوت، ولا مخالفة لأن عذابهم كان بكل منهما، ولعل إحداها كانت سبباً للأخرى، ولعل المراد بالرجفة اضطراب القلوب اضطراباً قطعها، أو أن الدار رجفت فرجفت القلوب وهو أقرب، وخصت الأعراف بما ذكر فيها، لأن مقصودها إنذار المعرضين، والرجفة أعظم قرعاً لعدم الإلف لها - والله أعلم ﴿جَثْمِينَ﴾* أي باركين على ركبهم لازمين أماكنهم لا حراك بأحد منهم، ولم يبق منهم في تلك الساعة أحد إلا رجل واحد كان في الحرم، فلما خرج منه أصابه ما أصاب قومه وهو أبو رغال، ومسافة الحرم عن أرضهم تزيد على مسيرة عشرة أيام، ومن الآيات العظيمة أن ذلك الذي خلع قلوبهم وأزال أرواحهم لم يؤثر في صالح عليه السلام والمستضعفين معه شيئاً، وذلك مثل الريح التي زلزلت الأحزاب، وأنالتهم أشد العذاب، ورمتهم بالحجارة والتراب حتى هزمتهم وما نال النبي ﷺ وأصحابه منها كبير أذى، وكفها الله عن حذيفة، وكذا البرد الذي كان ذلك زمانه لما أرسله النبي ﷺ ليتعرف له أخبارهم (١).

ولما أصابهم ذلك، سبب لهم الهجرة عن ديارهم ديار السوء والغضب واللعنة فقال تعالى إلاماً لنا بذلك: ﴿فَتَوَلَّى﴾ أي كلف نفسه الإعراض ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ﴾ أي لما أدركه من أحوال البشر من الرقة على فوات إيمانهم وهم أصله وعشيرته ﴿يَقُومُ﴾ أي

(١) هذا خبر صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨٨ وابن حبان ٧١٢٥ والبيهقي في السنن ١٤٨/٩ و١٤٩ وفي

الدلائل ٤٤٩/٣. ٤٥٠. والبزار ١٨٠٩ والحاكم ٣١/٣ من حديث حذيفة بن اليمان.

الذين يعز علي ما يؤذيهم ﴿لقد أبلغتكم﴾ ولعله وحد قوله: ﴿رسالة بي﴾ لكون آيته واحدة ﴿ونصحت﴾ وقصر الفعل وعده باللام فقال: ﴿لكم﴾ دلالة على أنه خاص بهم، روي أنه خرج عنهم في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، وكان قومه ألفاً وخمسمائة دار، وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

ولما كان التقدير: ففعلت معكم ما هو مقتض لأن تحبوني لأجله، عطف عليه قوله: ﴿ولكن﴾ لم تحبوني، هكذا كان الأصل ولكنه عبر بما يفهم أن هذا كان دأبهم وخلقاً لهم مع كل ناصح فقال: ﴿لا تحبون﴾ أي حاكياً لحالهم الماضية ﴿النصحين﴾ أي كل من فعل فعلي من النصح التام.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَنَاحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾
 إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٧﴾ وَمَا
 كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ ﴿٨٧﴾
 فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِنَ الْعَجْرِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَر
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٨﴾ وَإِلَىٰ مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا
 اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
 وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيَاءَ هُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
 ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾﴾

ولما أتم سبحانه ما وفي بمقصد هذه السورة في هذا السياق من قصتهم، أتبعه من بعده ممن تعرفه العرب كما فعل فيما قبل فقال: ﴿ولوطاً إذ قال﴾ ولما كانت رسالته إلى مدن شتى، وكانهم كانوا قبائل شتى، قيل: كانوا خمسة وهي المؤتفكات، وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة الشريفة، قال: ﴿لقومه﴾ وقد جوزوا أن يكون العامل فيه ﴿أرسلنا﴾ و ﴿اذكر﴾ ولا يلزم من تقدير ﴿أرسلنا﴾ أن يكون إرساله في وقت تفوهه لهم بهذا القول غير سابق عليه، لأنه كما أن ذلك الزمن - المنطبق على أول قوله وآخره - وقت له فكذلك اليوم - الذي وقع فيه هذا القول - وقت له، بل وذلك الشهر وتلك السنة وذلك القرن، فإن من شأن العرب تسمية الأيام المشتركة في الفعل الواحد يوماً، قالوا: يوم القادسية، وهو أربعة أيام إن اعتبرنا مدة القتال فقط، وعدة شهور إن اعتبرنا بالاجتماع له، وكذا يوم صفين، وقال تعالى في قصة بدر ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ إلى أن قال: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ إلى أن قال: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ ﴿إذ يوحى ربك إلى الملكة﴾ [الأنفال: ٧] وكلها إبدال من قوله:

﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين﴾ ولا ريب في أن زمان الكل لم يكن متحداً إلا بتأويل جميع الأيام المتعلقة بالوقعة من سير وقاتل وغير ذلك - والله أعلم، وعبر في قصة نوح عليه السلام بـ ﴿أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ [الأعراف: ٥٩] ثم نسق من بعده عليه فقيل: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ [الأعراف: ٧٣] ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ [الأعراف: ٨٥] وعدل عن هذا الأسلوب في قصة لوط فلم يقل: ﴿وإلى أهل أدوما أخاهم لوطاً، أو إلى أهل سدوم لوطاً أو أرسلنا لوطاً إلى قومه ونحو ذلك كما سيأتي في قصة موسى عليه السلام، لأن من أعظم المقاصد بسياق هذه القصص تسليية النبي ﷺ، في مخالفة قومه له وعدم استجابتهم وشدة أذاهم وإنذار قومه أن يحل بهم ما حل بهذه الأمم من العذاب، وقصص من عدا قوم لوط مشابهة لقصة قريش في الشرك بالله والأذى لعباده المؤمنين، وأما قصة قوم لوط فزائدة عن ذلك بأمر فظيع عظيم الشناعة شديد العار والفحش فعدل عن ذلك النسق تنبيهاً عليه تهويلاً للامر وتبشيعاً له، ليكون في التسليية أشد، وفي استدعاء الحمد والشكر أتم، وحينئذ يترجح أن يكون العامل ﴿اذكر﴾ لا ﴿أرسلنا﴾ أي واذكر لوطاً وما حصل عليه من قومه زيادة على شركهم من رؤيته فيهم هذا الأمر الذي لم يبق للشناعة موضعاً، فالقصة في الحقيقة تسليية وتذكير بنعمة معافاة العرب من مثل هذا الحال وإنذار لهم سوء المآل مع ما شاركت فيه أخواتها من الدلالة على سوء جبلة هؤلاء القوم وشرارة جوهرهم المقتضي لتفردهم عن أهل الأرض بذلك الأمر الفاحش، والدليل على أنه أشنع الشنع بعد الشرك - مع ما جعل الله تعالى في كل طبع سليم من النفرة عنه - اختصاصه بمشاركته للشرك في أنه لم يحل في ملة من الملل في وقت من الأوقات ولا مع وصف من الأوصاف، وبقية المحرمات ليست كذلك، فأما قتل النفوس فقد حل في القصاص والجهاد وغير ذلك، والوطء في القبل لم يحرم إلا بقيد كونه زنى، ولولا الوصف لحل، وأكل المال الأصل فيه الحل، وما حرم إلا بقيد كونه بالباطل - وكذا غير ذلك؛ قال أبو حيان: ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحه ومركوزاً في العقول فحشه، أتى معرفاً - أي في قوله بعد إنكاره عليهم وتقريعه وتوبيخه لهم: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي أتفعلون السيئة المتמادية في القبح وإن كان بينكم وبينها مسافة بعيدة - أو تكون «أل» فيه للجنس على سبيل المبالغة، كأنه لشدة قبحه جعل جميع الفواحش ولبعد العرب عن ذلك البعد التام، وذلك بخلاف الزنى فإنه قال فيه ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة﴾ [الإسراء: ٣٢].

ولما كان غير مستبعد على صفاقة وجوههم ووقاحتهم أن يقولوا: لم تكون فعلتنا

منكراً موبخاً عليها؟ قال: ﴿ما سبقكم بها﴾ وأغرق في النفي بقوله: ﴿من أحد﴾ وعظم ذلك بتعميمه في قوله: ﴿من العلمين﴾ فقد اخترعتم شيئاً لا يكون مثل فحشه لتذكروا به أسوأ ذكر، كما أن ذوي الهمم العوال والفضل والكمال يستنبطون من المحاسن والمنافع ما يبقى لهم ذكره وينفعهم أجره، وفي ذلك أعظم إشارة إلى تقبيح البدع والتشنيع على فاعليها، لأن العقول لا تستقل بمعرفة المحاسن.

ولما أبهم الفاحشة ليحصل التشوف إلى معرفتها، عينها في استفهام آخر كالأول في إنكاره وتوبيخه ليكون أدل على تناهي الزجر عنها فقال: ﴿أنتم لتأتون الرجال﴾ أي تغشونهم غشيان النساء؛ ولما أبقى للتشوف مجالاً، عين بقوله: ﴿شهوة﴾ أي مشتتهين، أو لأجل الشهوة، لا حامل لكم على ذلك إلا الشهوة كالبهائم التي لا داعي لها من جهة العقل، وصرح بقوله: ﴿من دون النساء﴾ فلما لم يدع لبساً، وكان هذا ربما أوهم إقامة عذر لهم في عدم وجدان النساء أو عدم كفايتهن لهم، أضرب عنه بقوله: ﴿بل أنتم قوم﴾.

ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار كان الأليق به الإسراف الذي هو غاية الجهل المذكور في سورة النمل فقال ﴿مصرفون﴾ أي لم يحملكم على ذلك ضرورة لشهوة تدعونها، بل اعتياد المجاوزة للحدود، ولم يسم قوم لوط في سورة من السور كما سميت عاد وثمود وغيرهم صوناً للكلام عن تسميتهم، وأما قوم نوح فإنما لم يسموا لعدم تفرق القبائل إذ ذاك، فكانوا لذلك جميع أهل الأرض ولذا عمهم الغرق - والله أعلم.

ولما كان كأنه قيل: هذا التفرغ يوجب غاية الاستحياء، بل إنه يذهب كل من سمعه منهم إلى مكان لا يعرف فيه سترأ لحاله، فيا ليت شعري ما كان حالهم عنده! فقيل: كان كأنهم أجابوه بوقاحة عظيمة وفجور زائد على الحد، فما كان جوابهم إلا أذى لوط عليه السلام وآله بما استحقوا منهم به شديد الإنذار الذي هو مقصود السورة، عطف عليه قوله: ﴿وما كان جواب قومه﴾ أي الذين كانوا هم أهل قوة شديدة وعزم عظيم وقدرة على القيام بما يحاولونه ﴿إلا أن قالوا﴾.

ولما كان المقصود بيان أنهم أسرعوا إجابته بما ينكيه أضمر ما لا يشكل بالإضمار، أو أنه لما كان السياق لبيان الخبيث بين أنه لا أخبث من هؤلاء الذين بلغ من رذلتهم أنهم عدوا الطاهرين المتطهرين مما يصاب اللسان عن ذكره فقال تعالى مشيراً إلى ذلك في حكاية قولهم: ﴿أخرجوهم﴾ أي المحدث عنهم، وهم لوط ومن انضم إليه ﴿من قريبتكم﴾ والمراد ببيان الإسراع في هذا تسلية النبي ﷺ من رد قومه لكلامه لثلاث

يكون في صدره حرج من إنذارهم، ثم عللوا إخراجهم بقولهم: ﴿إنهم أناس﴾ أي ضعفاء ﴿يتطهرون﴾ * وكانهم قصدوا بالتفعل نسبتهم إلى محبة هذا الفعل القبيح، وأن تركهم له إنما هو تصنع وتكليف لنفوسهم بردها عما هي مائلة إليه، وإقبال على الطهر من غير وجهه وإظهار له رياء بما أشار إليه إظهار تاء التفعل، وفيه مع ذلك حرف من السخرية، وحصر جوابهم في هذا المعنى المؤدي بهذا اللفظ لا ينافي آية العنكبوت القائلة ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اثنتا بعذاب الله﴾ [العنكبوت: ٢٩]، لأن إطلاق الجواب على هذا يجوز، والمعنى: فما كان قولهم في جوابه إلا إتيانهم بما لا يصلح جواباً، وذلك مضمون هذا القول وغيره مما لا يتعلق بالجواب، أو أن هذا الجواب لما كان - لما فيه من التكذيب والإيذان بالإصرار والإغلاظ لرسول الله ﷺ - مستلزماً للعذاب، كانوا كأنهم نطقوا به فقالوا ﴿اثنتا بعذاب الله﴾، جعل نطقهم بالسبب نطقاً بالمسبب، أو أنهم استعملوا لكل مقام مقالاً، ويؤيده أن المعنى لما اتحد هنا وفي النمل حصر الجواب في هذا، أي فما كان جوابهم لهذا القول إلا هذا؛ ولما زادهم في العنكبوت في التقرير فقال: ﴿أنتم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت: ٢٩] أتوه بأبلغ من هذا تكديماً واستهزاء فقالوا ﴿اثنتا بعذاب الله﴾ - الآية.

ولما تسبب عن عنادهم إهلاكهم وإنجاؤه، وكان الإعلام بإنجائه - مع كونه يفهم إهلاكهم - أهم، قال: ﴿فأنجينه وأهله﴾ أي من أطاعه ﴿إلا امرأته﴾ ولما كان كأنه قيل: ما لها؟ قال: ﴿كانت من الغبيرين﴾ * أي الباقيين الذين لحقتهم بالعذاب العيرة والتذكير إشارة إلى أنها أصابها مثل عذاب الرجال سواء، لم تنقص عنهم لأنها كانت كافرة مثلهم.

ولما أفهم هذا إهلاكهم، بينه دالاً على نوعه بقوله: ﴿وأمطرنا﴾ أي حجارة الكبريت بعد أن قلعت مدائنهم ورفعت وقلبت حتى رجم بها مسافروهم وشذابهم لأنه عذاب الاستئصال عمن لا يعجزه شيء؛ وأوضحه بقصره الفعل وتعديته بحرف الاستعلاء فقال: ﴿عليهم﴾ وأكد كونه من السماء لا من سطح أو جبل ونحوه بقوله: ﴿مطراً﴾ وأشار إلى عظمه مزيلاً للبس أصلاً بما سبب عنه من قوله: ﴿فانظر كيف كان عاقبة﴾ أي آخر أمر ﴿المجرمين -﴾ * وأظهر موضع الإضمار تعليقاً للحكم بوصف القطع لما حقه الوصل بوصل ما حقه القطع من فاحش المعصية دليلاً على أن الرجم جزاء من فعل هذا الفعل بشرطه، لأن الحكم يدور مع العلة، وسيأتي في سورة هود عليه السلام سياق قصتهم من التوراة بعد أن مضى في البقرة عند ﴿إذ قال له ربه أسلم﴾

[البقرة: ١٣١] أوائل أمرهم، وهذا كما سومت الحجارة لقريش - لما أجمعوا أن يرجعوا بعد توجيههم عن غزوة أحد من الطريق - ليفزعوا من النبي ﷺ وأصحابه على زعمهم، كما قال ﷺ «والذي نفسي بيده! لقد سومت لهم الحجارة، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب»^(١) ولكنه ﷺ لما كان رسول رحمة لم يقض الله برجوعهم فمضوا حتى أسلم بعد ذلك كثير منهم، وكما أمطر الله الحجارة على أصحاب الفيل سنة مولده ﷺ حماية لبلده بيركته.

ولما انقضت هذه القصة العجيبة في القصص، أعاد النسق الأول فقال: ﴿وإلى مدين﴾ أي أرسلنا، وهي بلد، وقيل قبيلة من أولاد مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿أخاهم﴾ أي من النسب، وبينه بقوله: ﴿شعيباً﴾ وهو موصوف بأنه خطيب الأنبياء عليهم السلام لحسن مراجعة قومه؛ ثم استأنف قوله على ذلك النسق: ﴿قال يقوم﴾ دالاً على النصيحة والشفقة بالتذكير بالقرابة، وبدأ بالأصل المعبر في جميع الشرائع المأثورة عن الأنبياء عليهم السلام فقال: ﴿اعبدوا الله﴾ أي الذي يستحق العبادة لذاته بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ولما كان المراد إفراده بالعبادة لأنه لا يقبل الشرك لأنه غني، علل ذلك بقوله: ﴿ما لكم﴾ وأغرق في النفي بقوله: ﴿من إله غيره﴾ ثم استأنف التذكير بما دل على صحة دعواه في نفسها وصدقها في دعوى الرسالة بقوله: ﴿قد جاءكم﴾ أي على يدي ﴿بينة﴾ ولما كنا عالمين من قول النبي ﷺ الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»^(٢) أن هذه البينة معجزة، مثلها كاف في صحة الدعوى ولم تدع ضرورة إلى ذكرها لنا، لم تعن؛ ثم زادهم ترغيباً بقوله: ﴿من ريكم﴾ أي الذي لم تروا إحساناً إلا منه.

ولما كان إتيانه بالبينات سبباً لوجوب امتثال أمره، قال مسبباً عنه: ﴿فأوفوا الكيل﴾ أي والمكيال والوزن ﴿والميزان﴾ أي ابدلوا ما تعطون بهما وافيأ، فالآية من الاحتباك، وكان المحكي عنه هنا من أوائل قوله لهم فترك التأكيد الرافع لمجاز المقاربة بذكر القسط.

ولما كان الأمر بالوفاء يتضمن النهي عن البخس، صرح به على وجه يعم غيره

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٩ و ١٥٢ وأحمد ٤٥١/٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٨١ ومسلم ١٥٢ وأحمد ٤٥١/٢ من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ.

فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾ أي تنقصوا وتفسدوا كما أفسد البخسة ﴿الناس أشياءهم﴾ أي شيئاً من البخس في كيل ولا وزن ولا غيرهما، والناس - قال في القاموس - يكون من الإنس ومن الجن جمع إنس أصله أناس جمع عزيز أدخل عليه «أل»، وقال أبو عبد الله القزاز: الناس أصله عند البصريين أناس، ثم أدخلوا الألف واللام على ذلك وحذفوا الهمزة وبقي الناس، وكان أصله فعال من: أنست به، فكأنه قيل: أناس - يعني على القلب، قال: لأنه يؤنس إليهم - انتهى. إذا علم هذا علم أن نهيه ﷺ عن بخس الجمع الذين فيهم قوة المدافعة نهى عن بخس الواحد من باب الأخرى لأن الشرائع إنما جاءت بتقوية الضعيف على حقه.

ولما نهى عن الفساد بالبخس، عم كل فساد فقال: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا﴾ أي توقعوا الفساد ﴿في الأرض﴾ بوضع شيء من حق الحق أو الخلق في غير موضعه؛ ولما نهاهم عن هذه الرذائل، ذكر بنعمة الله تأكيداً للنهي بما في ذلك من التخويف وحثاً على التخلق بوصف السيد فقال: ﴿بعد إصلاحها﴾ أي إصلاح الله لها بنعمة الإيجاد الأول بخلقها وخلق منافعها وما فيها على هذا النظام البديع المحكم ثم بنعمة الإبقاء الأول بإنزال الكتب وإرسال الرسل ونصب الشرائع التي بها يحصل النفع وتتم النعمة بإصلاح أمر المعاش والمعاد بتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله، ويجمع ذلك كله التنزه عن الإساءة.

ولما تقدم إليهم بالأمر والنهي، أشار إلى عظمة ما تضمنه ذلك حثاً لهم على امتثاله فقال: ﴿ذلكم﴾ أي الأمر العظيم العالي الرتبة مما ذكر في هذه القصة ﴿خير لكم﴾ ولما كان الكافر ناقص المدارك كامل المهالك، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي فلا تفسدوا أو فأنتم تعرفون صحة ما قلته، وإذا عرفتم صحته عملتم به، وإذا عملتم به أفلحتم كل الفلاح، ويجوز - وهو أحسن - أن يكون التقدير: فهو خير لكم، لأن المؤمن يثاب على فعله لبنائه له على أساس الإيمان، والكافر أعماله فاسدة فلا يكون فعله لهذه الأشياء خيراً له من جهة إبعاده في الآخرة لأنه لا ثواب له.

﴿وَلَا تَفْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

ولما كان للتعميم بعد التخصيص والتفصيل بعد الإجمال من الموقع في النفوس

ما لا يخفى، وكان النهي عن الإفساد بالصد عن سبيل الله هو المقصود بالذات لأنه ينهى عن كل فساد، خصه بالذكر إشارة إلى أنه زبدة المراد بعد التعميم فقال: ﴿ولا تقعدوا﴾ أي تفعلوا فعل المترصد المقبل بكليته ﴿بكل صراط﴾ أي طريق من طرق الدنيا والدين من الحلال والحرام والأوامر والنواهي والمحكم والمتشابه والأمثال ﴿توعدون﴾ أي تههدون من يسلكه بكل شر إن لم يوافقكم على ما تريدون.

ولما كان طريق الدين أهم، خصه بالذكر فقال: ﴿وتصدون﴾ أي توقعون الصد على سبيل الاستمرار ﴿عن سبيل الله﴾ أي طريق من له الأمر كله؛ ولما ذكر الصدود عنه، ذكر المصدود فقال: ﴿من آمن به﴾ أي بالله فسلك سبيله التي لا أقوم منها؛ ولما كانوا لا يقنعون بمطلق الصد بالتهديد ونحوه، بل يبدون للمصدود شبهة توهمه أنه على ضلال، قال عاطفاً: ﴿وتبغونها عوجاً﴾ أي وتطلبون السبيل حال كونها ذات عوج، أي تطلبون اعوجاجها بإلقاء الشبهات والشكوك كما تقول: أريد فلاناً ملكاً، أي أريد ملكه، وقد تقدم في آل عمران أن نصبه على الحال أرجح، وأن قوله ﷺ في الصحيح «ابغني أحجاراً أستفرض بها»^(١) يرجح نصبه على المفعولية - والله أعلم.

ولما كانت أفعالهم نقص الناس إما في الأموال بالبخس وإما في الإيمان والنصرة بالصد، ذكرهم أن الله تعالى فعل معهم ضد ذلك من التكثير بعد القلة في سياق منذر باجتثاثهم عن وجه الأرض وخصهم فضلاً عن تقليلهم ونقصهم، فقال عاطفاً على قوله ﴿اعبدوا الله﴾ وما بعده من الأوامر والنواهي: ﴿واذكروا إذ﴾ أي حين ﴿كتم قليلاً﴾ أي في العدد والمدد ﴿فكشركم﴾ أي كثر عددكم وأموالكم وكل شيء ينسب إليكم، فلا تقابلوا النعمة بضدها، فإن ذكر النعمة مرغّب في الشكر.

ولما رغبهم بالتذكير بالنعمة، حذرهم بالتذكير بأهل النعمة فقال: ﴿وانظروا كيف كان عاقبة﴾ أي آخر أمر ﴿المفسدين﴾* أي في عموم الإهلاك بأنواع العذاب لتحذروا من أن يصيبكم مثل ما أصابهم كما صرح به في سورة هود لكون الحال هناك مقتضياً للبسط كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ولما حذرهم وخامة الفساد الذي نهاهم عنه، وعلق انتباههم عنه بوصف الإيمان،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٥٥ من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ وصدوره: «اتبعت النبي ﷺ، وخرج لحاجته، فكان لا يلتفت، فذنوت منه، فقال: إبغني...».

ورود من حديث ابن مسعود أخرجه أبو يعلى ٤٩٧٨ و ٥١٨٤ وأحمد ٤٢٦/١ والبيهقي ١٠٨/١ وغيرهم، بنحو هذا اللفظ.

رجع إلى قسم ما شرط به الانتهاء عن الإفساد فقال: ﴿وإن كان طائفة منكم﴾ أي جماعة فيهم كثرة بحيث يتحلقون بمن يريدون ﴿آمنوا بالذي أرسلت به﴾ وبناه للمفعول إشارة إلى أن الفاعل معروف بما تقدم من السياق، وأنه صار بحيث لا يتطرق إليه شك لما نصب من الدلالات ﴿وطائفة﴾ أي منكم ﴿لم يؤمنوا﴾ أي بالذي أرسلني به من أيديني بما علمتم من البينات، وحذرهم سطوته بقوله: ﴿فاصبروا﴾ أي أيها الفريقان ﴿حتى يحكم الله﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿بيننا﴾ أي بين فريقنا بإعزاز المصلح وإهلاك المفسد كما أجرى بذلك عادته ﴿وهو﴾ أي والحال أنه ﴿خير الحكمين﴾ لأنه يفصل النزاع على أتم وجه وأحكمه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولُو كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ولما انتهى كلامه عليه السلام على هذا الوجه البديع، أخبر سبحانه بما أفهم أن قومه لم يجدوا عنه جواباً أصلاً لأنهم انتقلوا إلى الدفاع بالفعل، وهو أمانة الانقطاع، فقال مستأنفاً: ﴿قال الملأ﴾ أي الأشراف ﴿الذين استكبروا﴾ أي أوجدوا الكبر إيجاد من هو طالب له بغاية الرغبة، وخصهم ليحصل تمام التسلية بقوله: ﴿من قومه لنخرجنك﴾ وبين غلظتهم وجفاءهم بقولهم: ﴿يشعيب﴾ من غير استعطاف ولا إجلال ﴿والذين آمنوا﴾ ويجوز أن يتعلق قوله: ﴿معلك﴾ بـ﴿آمنوا﴾ و﴿نخرج﴾ ﴿من قريتنا﴾ أي من المكان الجامع لنا لمفارقتكم إيانا ﴿أو لنعودن﴾ أي إلا أن تعودوا، أي ليكون آخر الأمرين: إما الإخراج وإما العود ﴿في ملتنا﴾ أي بالسكوت عنا كما كنتم، ولم يريدوا منه العود إلى الكفر لأنه ﷺ كان محفوظاً قبل النبوة كإخوانه من الأنبياء عليهم السلام، بل كانوا يعدون سكوته عليه السلام - قبل إرساله إليهم من دعائهم وسب آلهتهم وعيب دينهم - كوناً في ملتهم، ومرادهم الآن رجوعه عليه السلام إلى تلك الحالة والقناعة ممن اتبعه بذلك، فيكون مرادهم بالعود حقيقة في الجميع.

ولما كان كل من الإخراج والرد مستعظماً، أخبر تعالى أنه أنكره بقوله: ﴿قال أولو﴾ أي أخرجوننا أو تعيدوننا لو كنا راضين للإخراج والعود ولو ﴿كنا كرهين﴾.

ولما كان العرب أبعد الناس من مطلق الكذب وأشدهم له تحامياً ومنه نفرة فكيف بالكذب على الأكابر فكيف به على الملوك فكيف به على ملك الملوك! علق الكذب

على الله تعالى بالعود إلى ملتهم بقوله مستأنفاً الإخبار لمن تشوف إلى علم ما كان منه بعد هذا الكلام اللين وتوقع غيره: ﴿قد افترينا﴾ أي تعمدنا الآن بما نقوله لكم، أي من أن الله حرم الكفر والإقرار عليه ﴿على الله﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿كذباً﴾ ويجوز أن يكون تنوينه للتعظيم، ويجوز أن يكون للتحقير، ولكل وجه يدعو إليه المقام لا يخفى ﴿إن عدنا﴾ أي ساعة من الدهر ﴿في ملتكم﴾ أي بسكوتنا أو بسكوتي وكفر من كان ممن تبني كافرأ ﴿بعد إذ نجنا الله﴾ أي الملك الأعلى خارقاً للعادة بما كنا جديرين بالانغماس فيه متابعة للآباء والأجداد والعشيرة بما له من القدرة والعظمة ﴿منها﴾ أي إن فعلنا ذلك فقد ارتكبنا أقبح القبائح على بصيرة منا بذلك، فهو تعليق على محال عادة، وهو من وادي قول الأشر النخعي:

بقيت وفري وانحرفت عن العلى ولقيت أضيافي بوجه عبوس

إن لم أشنْ على ابن هند غارة لم تخل يوماً من نهاب نفوس

غير أن المعلق في البيت تقديري، وفي الآية تحقيقي، لأنهم أخبروهم أن الله تعالى نهى عن الكفر وأمرهم بإنذار كل كافر، فمتى تركوا ذلك لزمهم الكذب حتماً ﴿وما يكون لنا﴾ أي ما يصح وما يتفق ﴿أن نعود فيها﴾ أي ملتكم.

ولما كان الله سبحانه أن يفعل ما يشاء لا واجب عليه ولا قبيح منه، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿إلا أن يشاء الله﴾ فذكر اسم الذات إشارة إلى أن له جميع الحمد لذاته؛ ثم ذكر صفة الإحسان عياداً من أن يراد بهم الهوان فقال: ﴿ربنا﴾ أي خرق العادة فله ذلك، فهو من باب التذکر للمخاوف والإشراف على إمكان سوء العواقب للصدق في التضرع إلى الله تعالى والالتجاء إليه والاستعاذة من مكرهه، ولذلك أتى باسم الجلالة الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنی وصفة الربوبية الملتمس بذكرها فعل ما يفعل لمربي الشفيق، فكأنه قال: إن عودنا في ملتكم غير ممكن عادة، والمحال عادة لا يقدر عليه إلا بقدر من الله، بل ولا توجه الهمم إليه، والله تعالى أكرم من أن يعود فيما وهب لنا من هذا الأمر الجليل، وينزع عنا هذا اللباس الجميل، وهو صريح في أن الكفر يكون بمشيئة الله، بل ولا يكون إلا بمشيئته، وقوله: ﴿وسع ربنا﴾ أي المحسن إلينا ﴿كل شيء علماً﴾ زيادة في حث أمته على الالتجاء والتبري من الحول والقوة، أي لا علم لنا بخواتم الأعمال والعلم لله فهو التام العلم الكامل القدرة، فهذه الجملة كالتعليل للتعليق بالمشيئة قطعاً - لما عساه أن يحدث من طمع المخاطبين في عودهم، كأنه قيل: وإنما علقنا العود بالمشيئة لنقص علومنا، فربما كان في سعة علمه قسم ثالث، وهو أن نكون في القرية على ديننا وتكونون أنتم أو لا، أو توافقونا على ما نحن عليه، وهكذا

ينبغي للمربوب، ولا ينبغي الجزم بأمر يستقبل إلا الله ربنا لإحاطة علمه، والآية تدل على أنه كان في الأزل عالماً بكل شيء من الكليات والجزئيات لأن «وسع» ماض، وقد تقدم في الأنعام أن قول الخليل عليه السلام وهذا وآية الكهف من مخبر واحد - والله أعلم.

ولما كان المراد من هذا ما ذكر، كان مزعجاً للقلوب مقلقاً للنفوس مززعجاً للخواطر مزلزلاً للأفكار بتأمل هذه الأخطار المشفية على غاية الخسار، فكأن المؤمنين قالوا: ما العمل وأين المفر؟ فقال: ﴿على الله﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه، وحده لا على غيره ﴿توكلنا﴾ أي فوضنا جميع أمورنا إليه، وهو أكرم من أن يختار لنا غير الأرشد وقد تبرأنا من حولنا وقوتنا واعتصمنا بحوله وقوته، وجعلنا جميع أمورنا كلها محمولة على قدرته كما يحمل الوكيل أمر موكله عنه ويريحه من همه وقلقه منه.

ولما جرت العادة بأن الموكل يخبر الوكيل بما يريد ليفعله، أتبع ذلك الدعاء بالحكم بما يقتضيه ظاهر الحال من نصر المحقّ وخذل المبطل فقال: ﴿ربنا﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿افتح﴾ أي احكم ﴿بيننا﴾ ولما كان يريد استعطافهم لإسعادهم قال: ﴿وبين قومنا﴾ وفيه إشارة إلى ميله إلى الدعاء بهدايتهم، وأدب بعدم التصريح بما لم يؤذن له فيه ﴿بالحق﴾ أي بالأمر الفيصل من معاملة كل من المحقّ والمبطل بما يستحقه شرعاً وعرفاً بحيث يكون لكل فريق باب يصل به إلى غاية أمره وهذا مقام الإنصاف، فقد علم من إشارة قوله العناية بقومه، ومن عبارته الإنصاف من نفسه، ولو أراد ترجيح نفسه ومتبعيه لدعا لهم أن يعاملوا بالفضل وأن يعامل ضدهم بالعدل، والآية معلمة بأن له تعالى أن يفعل ما يريد من خذلان الظالم ونصر المظلوم وتعذيب العاصي وإثابة الطائع وعكس ذلك، ﴿لا يستل عما يفعل﴾ [الأنبياء: ٢٣] لأنه التام الملك العظيم المملك الشامل القدرة الحكيم الخبير، ويجوز أن يكون المراد: لا نعود إلى ما كنا عليه من السكوت عن دعائكم إلى الله ونهيككم عن أفعال الضلال لأننا أمرنا بإنذاركم إلا أن يشاء الله سكوتنا بأمر يحدثه إلينا في ذلك لمصلحة اقتضاها علمه وقصرت عنها علومنا، فإذا أراد ذلك وأمرنا به فعلنا، فله الخلق والأمر.

ولما أشار إلى الدعاء لقومه، أشار - بالعطف على غير معطوف عليه ظاهر - إلى أن التقدير: فأنت خير الراحمين: ﴿وأنت خير الفتحين﴾ أي على من سدت عليه الأبواب ولم يجد مخلصاً.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثْمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

ولما انقضى جواب الفصل المبني على إبطال الفضل وإظهار العدل، ذكر سبحانه قولهم بعده عاطفاً له على ما مضى من قولهم أو على قوله، كان الأصل أن يقال: وقالوا، ولكنه أظهر الوصف بالشرف إشارة إلى أنه الذي حملهم على نتيجة الاستكبار وهي الكفر، ثم لم يرضوا به حتى أضافوا إليه تكفير غيرهم فقال: ﴿وقال الملا﴾ أي الأكابر ﴿الذين﴾ يملؤون العيون مرأى والقلوب مهابة، فحملهم التكبر على أنهم ﴿كفروا﴾ .

ولما كان من المستبعد أن يكون أقاربه يتكبرون عما أتاهم به من الخير لحسد أو اتهام أو غيرهما، فكان ربما ظن أن هؤلاء الذين يعاملونه بهذه الغلظة أجنب عنه، قال: ﴿من قومه﴾ بياناً لأن الفضل بيد الله فقد يؤتبه البغيض البعيد ويمنعه الحبيب القريب ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ [القصص: ٥٦]، ووطؤوا للقسم بقولهم: ﴿لئن اتبعتم﴾ أي أيها الأتباع ممن لم يؤمن بعد ﴿شعيباً﴾ أو تركتم ما أنتم عليه مما أورثه لكم آباؤكم؛ وأجاب القسم بما سد عن جواب الشرط بقوله: ﴿إنكم إذا﴾ أي وقت اتباعه ﴿لخسرون﴾ أي لأنكم استبدلتم بدين الآباء غيره وحرمتهم فوائد البخس والتطفيف وقطع السبل .

ولما كمل إثمهم بالضلال والإضلال، استحقوا الأخذ فقال: ﴿فأخذتهم﴾ أي فتسبب عن أقوالهم هذه وأفعالهم أنه أخذتهم ﴿الرجفة﴾ أي الزلزلة العظيمة في القلوب أو الديار التي كانت سبباً للصيحة أو مسببة عنها ﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي مساكنهم، وتقدم سر توحيدها ﴿جثمين﴾ أي باركين على الركب أو لازمين أمكنتهم لا حراك بهم، وهذا دون ما كان للنبي ﷺ لما نزلت الملائكة بحنين، فكان الكفار يسمعون في أجوافهم مثل وقع الحصاة في الطست، ودون ما كان يجد مخالفه من الرعب منه مسيرة

شهر من ورائه وشهر من أمامه، ولكونه كان نبي الرحمة ما اقتضى ذلك الهلاك بل النجاة.

ولما أخبر سبحانه بهلاكهم وما سببه من أقوالهم وأفعالهم، وكان للتخليص من العظمة في القلوب بتصوير المخلص للأذهان ما لا يخفى، لخص ذلك ذاكراً لأنه حل بهم بالخصوص - ما نسبوا إلى المؤمنين من الخسارة فقال: ﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ أي نسبوه إلى الكذب فيما قاله عنا وأيدناه فيه بالبينات ﴿كان﴾ أي هم المخصصون بالهلاك حتى كأنهم ﴿لم يغنوا﴾ أي ينزلوا ويقيموا، وبطل مقامهم لاهين بالأفراح والغناء والاستغناء من المغاني وهي المنازل والاستغناء ﴿فيها﴾ أي الدار بسبب تكذيبهم.

ولما كان تكذيب الصادقين لا سيما الرسل في غاية الشناعة، كرره إشارة إلى ذلك وإعلاماً بأنه سبب لهم أعظم من هلاك الأشباح ضد ما سبب التصديق للمؤمنين فقال: ﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ أي فكان تكذيبه سبباً لهلاكهم ﴿كانوا﴾ أي بسبب التكذيب أيضاً ﴿هم﴾ أي خاصة ﴿الْخُسْرَيْنِ﴾ أي خسروا أرواحهم كما خسروا أشباحهم فهم لما سوى ذلك أخسر، وأما الذين اتبعوه فما نالهم شيء من الخسار، وفي هذا الاستئناف والابتداء والتكرير مبالغة في رد مقالة الملأ لأشباعهم وتسفيه لآرائهم واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

ولما صارت تلك الدار محل الغضب، سبب ذلك أن هاجر عنها كما كانت عادة من قبله من الأنبياء عليهم السلام، فقال: ﴿فتولى عنهم﴾ بعد نزول العذاب وقبله عند رؤية مخايله ذاهباً إلى مكان غيره، يعبد ربه فيه ﴿وقال﴾ متأسفاً على ما فاته من هدايتهم ﴿يقوم﴾ أي يا عشيرتي وأقرب الناس إليّ ﴿لقد أبلغتكم﴾ ولعله جمع لأجل كثرة ما أتاهم به من المعجزات فقال: ﴿رسلت ربي﴾ أي المحسن إليّ بإنجائي ومن تبغني من عذابكم لتوفيقه لنا إلى ما يرضيه ﴿ونصحت﴾ أي وأوقعت النصح ﴿لكم﴾ أي خاصة.

ولما كان هذا مفهماً لما طبع البشر من الأسف على أهله وعشيرته، سبب عنه منكرأ على نفسه قوله: ﴿فكيف آسى﴾ أي أحزن حزناً شديداً ﴿على قوم كافرين﴾ أي عريقين في الكفر، فعرف أنه أسف عليهم من أجل قربهم وفوات الإيمان لهم غير أسف عليهم من أجل كفرهم، وتخصيص تكرر هذه القصص الخمس على هذا الترتيب في كثير من سور القرآن - دون قصة إبراهيم عليه السلام وهو أعظمهم - لانتظامهم في أنهم أقرت أعينهم بأن رأوا مصارع من خالفهم، وأما إبراهيم عليه السلام فإنه وقع النص في قوله ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ [الصفافات: ٩٩] بأنه خرج من بين قومه قبل عذابهم ولم يسلك به سبيلهم في إقرار عينه بإهلاك من كذبه بحضرته، وهو أفضلهم لأن

الكائن في قصته أعظم في الأفضلية، وهو طبق ما اتفق لولده أفضل البشر نبينا محمد ﷺ، وانظر إلى قوله تعالى ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] تعرف ما في هذا المقام من الإكرام، وأن الأمر كما قيل: لعين تجازى ألف عين وتكرم.

ولما قدم سبحانه إجمال الإنذار بما اشتركت فيه الأمم من الإهلاك بقوله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ [الأعراف: ٤] الآية، ثم أتبعه - بعد تقديم ما يحتاج إليه على النظم الذي سبق التنبيه عليه - تفصيل ما انفردت به كل أمة من العذاب الحاث على سبيل الصواب، أتبع ذلك إجمالاً آخر أبسط من الأول على نمط غريب دال على عادته المستمرة وسنته المستقرة في شرح حال هؤلاء الأمم الذين ذكرهم وغيرهم، لثلا يظن أن غيرهم كان حاله غير حالهم، فبين أن الكل على نهج واحد وأن السبب في استئصالهم واحد، وهو التكذيب والاستكبار على الحق، ليكون الإجمال كالضوابط والقواعد الكلية لتنتطبق على الجزئيات. وذلك الاستبصار بما يكون من نافع أو ضار وعدم الاغترار بأحوال المستدرجين الأشرار متكفل بالتسلية لنبيه ﷺ والتأسية، متقدم على قصة موسى وهارون عليهما السلام لطولها وتعجيلاً بما في ذلك من مصارع الإنذار بقوله تعالى: ﴿وما﴾ أي أرسلنا فلاناً فكان كذا وفلاناً فكان كذا، وما ﴿أرسلنا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿في قرية﴾ أي من قرى أولئك وغيرهم ﴿من نبي﴾ أي من الأنبياء الذين تقدموا ﴿إلا﴾ كان ما نخبر به من ترهيبهم من سطواتنا وهو أنا ﴿أخذنا﴾ أي بعظمتنا ﴿أهلها﴾ أي أخذ قهر وسطوة، أي لأجل استكبارهم عن الحق ﴿بالبأساء﴾ أي قهر الرجال ﴿والضراء﴾ أي المرض والفقر ﴿لعلهم يضرعون﴾ أي ليكون حالهم عند المساءة حال من يرجى تضرعه وتذله وتخضعه لمن لا يكشف ذلك عنه غيره ولو كان التضرع في أدنى المراتب - على ما أشار إليه الإدغام، لأن ذلك كاف في الإنقاذ من عذاب الإنذار الذي هذه سورته بخلاف ما مضى في الأنعام.

ولما لم يتضرعوا صادقين من قلوبهم معترفين بالحق لأهله كما يحق له، استدرجهم بإردار النعم، فقال مشيراً إلى طول مدة الابتلاء واستبعادهم لكشف ذلك البلاء: ﴿ثم بدلنا﴾ ومظهر العظمة يؤيد الاحتمال الثاني ﴿مكان﴾ أي جعلنا بدل ﴿السيئة﴾ أي النعمة ﴿الحسنة﴾ أي النعمة، وبين أنه مد النعمة بقوله: ﴿حتى عفوا﴾ أي كثروا وكثرت نعمهم فلم يشكروا ﴿وقالوا﴾ مسندين الأمر إلى غير أهله ﴿قد مس آباءنا الضراء﴾ أي الشدة ﴿والسراء﴾ أي الرخاء والنعمة، معتقدين أن هذه عادة الدهر لا فعل الفاعل المختار.

ولما لم يعتبروا ويعلموا أن ذلك ممن يحب أن لا يعدل عن بابه ولا يغفل عن

جنابه، وظنوا أن ذلك دأب الدهر وفعل الزمان، واستمروا على فسادهم في حال الشدة والرخاء، سبب عنه قوله: ﴿فَأَخَذْنَهُمْ﴾ أي بعظمتنا أشد الأخذ وأفظعه في الظاهر والباطن ﴿بِغْتَةٍ﴾ أي فجأة حتى لا ينفعهم التوبة، وأكد معنى البغت تحقيقاً لأمره بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فحق من سمع هذا أن يبادر إلى الرجوع عن كل مخالفة هو فيها خوفاً من الأخذ بغتة.

ولما بين تعالى ما كان قولهم مسبباً له من الأخذ بغتة، بين ما كان يكون ضد قولهم مسبباً له من البركات لو وقع بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ أي هذه التي قصصنا أخبارها ﴿آمَنُوا﴾ أي بما أتاهم به رسلهم ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي خافوا أمر الله وجعلوا بينهم وبين سخطه وقاية من طاعاته فاستمروا على إيمانهم ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾ أي خيرات ثابتة لا يقدر أحد على إزالتها ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي بالمطر الذي يكون كأفواه القرب وما شابهه ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبت الغليظ وما قاربه، وقراءة ابن عامر بالتشديد يدل على كثرة تلك البركات، وأصل البركة المواظبة على الخير.

ولما كان الكلام بما أفهمته ﴿لَوْ﴾ في قوة أنهم لم يؤمنوا عبر بقوله: ﴿وَلَكِنْ كَذَبُوا﴾ أي كان التكذيب ديدنهم وشأنهم، فلذلك لم يصدقوا رسلنا في شيء، ولما كان التكذيب موضع الجلافة والجمود الذي هو سبب لعدم النظر في الدليل، سبب عنه العذاب فقال: ﴿فَأَخَذْنَهُمْ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿بِمَا﴾ أي بسبب ما ﴿كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي بجلاتهم الخبيثة من الأعمال المناسبة لها.

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَهْلُ الْقَوْمِ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولما كانوا قد ضلوا ضلالاً بعيداً في غلظهم في جعلهم السراء والضراء سبباً للأمن من مكر الله، قال منكرأ عليهم أمنهم عاطفاً له على ﴿كذبوا﴾ لأنه سبب الغلط وهو سبب الأمن فقال: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ أي كذبوا ناسين أفعالنا المرهبة بالمرض والمرغبة بالمسار فأمّنوا ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ أي الناشئ عما لنا من العظمة التي لا ينساها إلا خاسر ﴿بيئاتاً﴾ أي ليلاً وهم قد أخذوا الراحة في بيوتهم، ولما كان النوم شيئاً واحداً يغمر الحواس فيقتضي الاستقرار، عبر بالاسم الدال على الثبات فقال: ﴿وهم نائمون﴾ أي على غاية الغفلة عنه.

ولما كان ربما قال جاهل: لو جاءهم وهم أيقاظ لا يمكن أن يدافعوا! قال: ﴿أو أمن أهل القرى﴾ أي مجتمعين أو منفردين فإنه لا فرق عندنا في ذلك ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ أي وقت راحتهم واجتماع قواهم ونشاطهم؛ ولما كانت اليقظة موجبة للحركة، عبر بالمضارع في قوله: ﴿وهم يلعبون﴾ أي يتجدد لعبهم شيئاً فشيئاً في ذلك الوقت، وفيه تفرغ لهم بنسبتهم إلى أنهم صبيان العقول، لا التفات لهم إلى غير اللعب.

ولما كان ضلالهم - الذي نسبوا فيه الأمر إلى غير أهله - أشنع ضلال لتضمنه التعطيل وما يجبر إليه من الأباطيل، كرر الإنكار عليهم على وجه أشد من الأول فقال مسيئاً الإنكار عما أثبت هذا الكلام من العظمة التي لا يتماهى فيها ذو لب: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ أي فعله الذي يشبه المكر بأخذ الإنسان من حيث لا يشعر بالاستدراج بما يريد من النعم والنقم؛ وسبب عن ذلك قوله: ﴿فلا يأمن مكر الله﴾ أي الذي لا أعظم منه فلا يرد له أمر ﴿إلا القوم الخسرون﴾ أي الذين كانت قواهم سبباً لعراقتهم في الأفعال الضارة والخصال المهلكة.

ولما بان بما مضى حال الكفار مجملاً ومفصلاً، وكان المقصود من ذلك عبرة السامعين، وكان أخذهم بالبأساء والضراء مع إبقاء مهجهم وحفظ أرواحهم وأفهامهم بعد إهلاك من قبلهم في بعض ما لحقهم من ذلك وإيراثهم الأرض من بعدهم حالاً يكونون بها في حيز من يرجى منه الخوف المقتضي للتضرع والعلم قطعاً بأن الفاعل لذلك هو الله، وأنه لو شاء لأهلكهم بالذنوب أو غطى أفهامهم بحيث يصيرون كالبهائم لا يسمعون إلا دعاء ونداء، فسماعهم حيث لا فهم كلا سماع، فجعلوا ذلك سبباً للأمن؛ أنكر عليهم ذلك بقوله ﴿أفأمن﴾ إلى آخره؛ ثم أنكر عليهم عدم الاستدلال على القدرة فقال عاطفاً على ﴿أفأمن﴾: ﴿أولم يهد﴾ أي بين أخذنا للأمم الماضية بالبأساء والضراء ثم إهلاكهم إذا لم يتعظوا ﴿للذين يرثون الأرض﴾ وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف وإشارة إلى بلادتهم لعدم البحث عن الأخبار ليعلموا منها ما يضر وما ينفع فلا يكونوا كالبهائم، فإنهم لو تأملوا أحوالهم وأحوال من ورثوا أرضهم وأحوال الأرض لكفاهم ذلك في الهداية إلى سواء السبيل.

ولما كان إرثهم غير مستغرق للزمان، أتى بالجار فقال: ﴿من بعد أهلها﴾ ثم ذكر مفعول ﴿يهد﴾ بقوله: ﴿إن﴾ أي إنا ﴿لو نشاء﴾ أي في أي وقت أردنا ﴿أصبنتهم بذنوبهم﴾ أي إصابة نمحقهم بها كما فعلنا بمن ورثوا أرضهم؛ ولما كان هذا تخويفاً للموجودين بعد المهلكين، ومنهم قريش وسائر العرب الذين يخاطبون بهذا القرآن، فكان المخوف به لم يقع بعد، عطف على أصبنا قوله: ﴿ونطيع على قلوبهم﴾ أي بإزالة

عقولهم حتى يكونوا كالبهائم، ولذلك سبب عنه قوله: ﴿فهم لا يسمعون﴾ أي سماع فهم، وعبر عن الإصابة بالماضي إشارة إلى سرعة الإهلاك مع كونه شيئاً واحداً غير متجزئ، وعن الطبع بالمضارع إيماء إلى التجدد بحيث لا يمر زمن إلا كانوا فيه في طبع جديد.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ولما انقضى ذلك على هذا الوجه الأعظم والنظم الأبلغ الأحكم، وكانت هذه القرى بحيث تعرفها العرب ويرونها، أشار إليهم حثاً على الاعتبار بهم، ولما كان أهلها جديرين بالبعد عنهم والهرب منهم، عبر عنهم بأداة البعد فقال: ﴿تلك القرى﴾ أي محال القبائل الخمس، ويجوز أن يكون البعد لعظمة ما حصل لأهلها من العذاب، ويؤيده قوله مبيناً لحالها: ﴿نقص عليك﴾.

ولما كان العاقل من يكفيه أدنى شيء، هول الأمر بأن أخبارها تفوت الحصر، وأن ما قص منها يكفي المعتبر، فقال: ﴿من أنبائها﴾ أي أخبارها العظيمة الهائلة المطابقة للواقع شيئاً بعد شيء كما يفعل من يتتبع الأثر، وأنت الضمير لأن لرؤية القرى أنفسها مدخلاً في معرفة أخبار أهلها.

ولما كان المقام مقام العجب من التكذيب بعد ذلك البيان، كان ربما تخيل متخيل أنهم لم يؤتوا بالبيان الشافي، فشهد الله تعالى للرسول عليهم السلام تصديقاً لمن قال منهم: قد جاءتكم بيته، بقوله: ﴿ولقد﴾ أي والحال أنه قد ﴿جاءتهم﴾ أي أهل القرى لأنهم المقصودون بالذات ﴿رسلم﴾ أي الذين أرسلناهم إليهم ﴿بالبينت فما﴾ أي فلم يتسبب عن ذلك بسبب طبعنا على قلوبهم إلا أنهم ما ﴿كانوا﴾ موقنين ﴿ليؤمنوا﴾ أي عند مجيئها، وقد أكد منافاة حالهم الإيمان باللام والكون أتم تأكيد ﴿بما﴾ أي بالذي ﴿كذبوا﴾ أي به، وحذفها أدل على الزجر من مطلق التكذيب وأوفق لمقصود السورة.

ولما كان تكذيبهم غير مستغرق للزمان الماضي، أدخل الجار فقال: ﴿من قبل﴾ أي قبل مجيء الرسل إليهم أو بتكذيبهم الواقع منهم للرسول فيما أتوا به عن الله من قبل الأخذ بغتة، أو من قبل مجيء الرسل بالآيات، فإنهم أول ما جاؤوهم فاجؤوهم بالتكذيب، فجازوا على تكذيب الحق من غير نظر في دليل بالطبع على قلوبهم فأتوهم

بالمعجزات فأصروا على ذلك التكذيب ووقفوا لذلك الطبع مع حظوظهم، ومنعتهم شماختهم وشدة شكائهم عن الإيمان لثلا يقال: إنهم خافوا أولاً فيما وقع منهم من التكذيب فكانوا فيه على غير بصيرة، أو إنهم خافوا ثانياً ما قرعتهم به الرسل من الوعيد، فدخلوا جنباً فيما يعلمون بطلانه، فكان تزيين هذا لهم طبعاً على قلوبهم، فكانه قيل: إن هذا العجب هل يقع في مثل ذلك أحد؟ فقيل: نعم، مثل ما طبعنا على قلوبهم حتى صارت مع الفهم لا تنتفع، فكانها لا تفهم فكانها لا تسمع ﴿كذلك يطبع الله﴾ أي الجامع لصفات الكبر ونعوت الجلال بما يجعل من الرين بما له من العظمة ﴿على قلوب الكافرين﴾ أي كل من يغطي ما أعطاه الله من نور العقل بما تدعوه إليه نفسه من الهوى عريقاً في الاتصاف بذلك فيترك آيات الله.

ولما كان نقض العهد أفضح شيء ولا سيما عند العرب، قال عاطفاً على «فما كانوا»: ﴿وما وجدنا﴾ أي في عالم الشهادة ﴿لأكثرهم﴾ أي الناس، وأكد الاستغراق فقال: ﴿من عهد﴾ طبق ما كان عندنا في عالم الغيب، وهذا إما إشارة إلى الميثاق يوم ﴿ألست بربكم﴾ إن كان ذلك على حقيقته، أو إلى ما يفعلون حال الشدائد من الإقلاع عن المعاصي والمعاهدة على الشكر ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشكرين﴾ [يونس: ٢٢] «أو إلى إقامة الحجج بإفاضة العقول ونصب الأدلة، فصار بنصبها وإيضاحها للعقول كأنه أخذ العهد على من عقل أنه يبذل الجهد في التأمل ولا يتجاوز ما أبداه له صحيح النظر ﴿وإن﴾ أي وإنا ﴿وجدنا﴾ أي علمنا في عالم الشهادة ﴿أكثرهم لفسقين﴾ أي خارجين عن دائرة العهد مارقين مما أوقفهم عند الحد عريقين في ذلك طبق ما كنا نعلمه منهم في عالم الغيب، وما أبرزناه في عالم الشهادة إلا لنقيم عليهم به الحجة على ما يتعارفونه بينهم في مجاري عاداتهم ومدارك عقولهم.

ولما انقضى بيان هذا الإجمال الخالع لقلوب الرجال، أتبعه الكشف عما كان بعد قصة شعيب عليه السلام من قصة صهره موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وهي كالدليل على آيات الإجمال كما كانت القصص الماضية كالدليل على ما في أول السورة من الإجمال، فإن قصة فرعون مشتملة على الأخذ بالبأساء والضراء، ثم الإنعام بالرخاء والسراء، ثم الأخذ بغتة بسبب شدة الوقوف مع الضلال بعد الكشف الشافي والبيان لما على قلوبهم من الطبع وما قادت إليه الحظوظ من الفسق، وكأنه فصلها عن القصص الماضية تنويهاً بذكرها وتنبيهاً على علي قدرها، لأن معجزات صاحبها أعظم من معجزات من كان قبله، وجهل من عالجهم كان أعظم وأفحش من جهل تلك الأمم، ولذلك عطفها بأداة البعد مع قرب زمنها من التي قبلها إشارة إلى بعد رتبها بما فيها من

العجائب وما اشتملت عليه من الرغائب والغرائب، ولذلك مد لها الميدان وأطلق في سياقها للجواد العنان فقال: ﴿ثم بعثنا﴾ أي على عظمتنا ﴿من بعدهم﴾ أي الرسل المذكورين والأمم المهلكين ﴿موسى بآيتنا﴾ أي التي يحق لها العظمة بإضافتها إلينا فثبت بها النبوة ﴿إلى فرعون﴾ هو علم جنس لملوك مصر ككسرى لملوك فارس وقيصر لملوك الروم، وكان اسم فرعون موسى عليه السلام قابوس، وقيل: الوليد بن مصعب ابن الريان ﴿وملئناه﴾ أي عظماء قومه، وخصهم لأنهم إذا أذعنوا أذعن من دونهم، فكانهم المقصودون والإرسال إليهم إرسال إلى الكل.

ولما سببت لهم الظلم قال: ﴿فظلموا﴾ أي وقعوا في مثل الظلام حتى وضعوا الأشياء في غير مواضعها فوضعوا الإنكار موضع الإقرار ﴿بها﴾ أي بسبب رؤيتها خوفاً على رئاستهم ومملكتهم الفانية أن تخرج من أيديهم؛ ولما كان ذلك من أعجب العجب، وهو أن سبب العدل يكون سبب الظلم، وكان هذا الظلم أعظم الفساد، سبب عنه قوله معجباً: ﴿فانظروا﴾ أي بعين البصيرة ﴿كيف كان عاقبة﴾ أي آخر أمر ﴿المفسدين﴾ فلخص في هذه الآية على وجازتها جميع قصتهم على طولها، وقدم ذكر الآيات اهتماماً بها ولأنها الدليل على صحة دعوى البعث.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُنْفِرْعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٤﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِثَابِتٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٥﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١١٦﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٨﴾﴾ .

ولما كان التقدير عطفاً على ﴿فظلموا بها﴾: ووضعها موسى مواضعها، عبر عنه بقوله: ﴿وقال موسى يفرعون﴾ خاطبه بما يعجبه امتثالاً لأمر الله تعالى له أن يلين في خطابه، وذلك لأن فرعون لقب مدح لمن ملك مصر.

ولما أتاهم عليه السلام وهم عارفون بأمانته وصدقه وعظم مكانته ومكارم أخلاقه وشريف عنصره وعظيم مخبره، وفرعون أعظمهم معرفة به لأنه ربي في حجره، كان هذا حالاً مقتضياً لأن يلقي إليهم الكلام غير مؤكد، لكن لما كان الإرسال من الله أمراً عظيماً جداً، وكان المقصود به تخلية سبيل بني إسرائيل، وكان فرعون ضنيناً بذلك، أكده بعض التأكيد فقال: ﴿إني رسول﴾ ثم بين مرسله بقوله: ﴿من رب العلمين﴾ أي المحسن إليهم أجمعين - وأتم منهم - بإيجادهم وتربيتهم، فهو تنبيه لمن سمعه على أن فرعون مربوب مقهور.

ولما خلفه بهذا مما يدعيه من الربوبية دالاً على تسويته ببقية العالمين: ناطقهم وصامتهم، وكان لذلك بعيداً من الإذعان لهذا الكلام، أتبعه قوله على وجه التأكيد مستأنفاً بيان ما يلزم للرسول: ﴿حقيق﴾ أي بالغ في الحقيقة، وهي الثبات الذي لا يمكن زواله ﴿على أن لا أقول على الله﴾ أي الذي له جميع الكمال، ولا عظمة لسواه ولا جلال ﴿إلا الحق﴾ أي الثابت الذي لا تمكن الممارسة فيه أصلاً لما يصدقه من المعجزات، وحاصل العبارة ومآلها: حق على قولي الذي أطلقه على الله أن لا يكون إلا الحق أي غير الحق، ولذلك عبر بالاسم الأعظم الجامع لجميع الصفات، وقراءة نافع بتشديد ياء الإضافة في ﴿على﴾ بمعنى هذا سواء، لأن من حق عليه شيء حق على كلامه.

ولما كان الحال إذ ذاك يقتضي توقع إقامة موسى عليه السلام البينة على صحة رسالته، كان كأنه قيل: ما دليل صدقك؟ فقال مفتتحاً بحرف التوقع والتحقيق: ﴿قد جئتكم﴾ أي كلكم، لا أخص أحداً منكم ﴿ببينة﴾ دليلاً على رسالتي وقولي الحق ﴿من ربكم﴾ أي المحسن إليكم بكل نعمة ترونها لديكم من خلقكم ورزقكم وكف الأمم عن انتزاع هذا الملك منكم وإهلاككم، وتلك البينة هي المعجزة، فكرر البيان في هذا الكلام على أن فرعون ليس كما يدعي لأنه مربوب، لا فرق بينه وبين بقية العالمين في ذلك.

ولما كان من المعلوم أن مثله في تمام عقله وشرف خلأثقه لا يدعي في تلك المجامع إلا حقاً مع ما نبه عليه من البيان على تفرد الله بالإلهية كما تفرد بالإحسان، كان كأنه أظهر البينة التي أقلها كفهم عن إهلاكهم. فأتبع ذلك طلب النتيجة إعلاماً بغاية ما يريد منهم بقوله مسبباً عن مجرد هذا الإخبار الذي كان قد أوقع مضمونه: ﴿فأرسل﴾ أي يا فرعون ﴿معني بني إسرائيل﴾ أي فسبب عن إقامتي الدليل على صحة ما قلته أن أمر بما جئت له - وهو إرسالهم معي - أمر من صار له سلطان بإقامة البينة لنذهب كلنا إلى بيت المقدس موطن آبائنا التي أقسم الله لهم أن يورثها، أبناءهم، وفي جعل ذلك نتيجة الإرسال إليه تنبيه على أن رسالته مقصورة على قومه، فكانه قيل: فماذا قال فرعون في جواب هذا الأمر الواضح؟ فقيل: ﴿قال﴾ معرضاً عنه معمياً له خوفاً من غائلته عند من يعرف موسى عليه السلام حق المعرفة معبراً بأداة الشك إيقافاً لهم: ﴿إن كنت جئت بأية﴾ أي علامة على صحة رسالتك ﴿فأت بها﴾ فأوهم أنه لم يفهم إلا أن المراد أنه سيقمها من غير أن يكون في كلامه السابق دلالة على صدقه، وأكد الإبهام والشك بقوله: ﴿إن كنت﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿من الصلدين﴾ أي في عداد أهل الصدق العربيين فيه لتصح دعواك عندي وثبت.

ولما ساق هذا الطلب مساقاً دالاً على أنه شك في أمره، أخبر تعالى أنه فاجأه بإظهار الآية دالاً على ذلك بالفاء المسببة المعقبة من غير مهلة فقال عن فعل موسى عليه السلام: ﴿فألقي عصاه﴾ وعن فعله هو سبحانه ﴿فإذا هي﴾ أي العصا ﴿ثعبان مبين﴾ أي ظاهر في كبره وسرعة حركته بحيث إنه لشدة ظهوره كأنه ينادي الناس فيظهر لهم أمره، وهو موضح لصدق من تسبب عن فعله في جميع مقالاته؛ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان ثعباناً أشعر فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فوثب من سريره هارباً وأحدث، وحمل على الناس فانهمزوا وصاحوا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، وصاح فرعون: يا موسى خذه وأنا أومن بك فأخذه فعاد عصاً. ثم قال: هل معك آية أخرى؟ قال: نعم ﴿ونزع يده﴾ أي أخرجها من جيبه بعد أن أراه إياها محرقة أدماً كما كانت وهو عنده ﴿فإذا هي بيضاء﴾ ونبه على ثبات بياضها وزيادة إعجابه بقوله: ﴿للتظنرين﴾ قال أبو حيان: أي للتظارة، وفي ذكر ذلك تنبيه على عظم بياضها لأنه لا يعرض العجب لهم إلا إذا كان بياضها خارجاً عن العادة، وقال ابن عباس: صارت نوراً ساطعاً يضيء ما بين السماء والأرض، له لمعان مثل لمعان البرق فخرروا على وجوههم، وما أعجب أمر هذين الخارقين العظيمين: أحدهما في نفسه وذلك اليد البيضاء، والآخر في غير نفسه وهي العصا التي أمسكها بيده، وجمع بدينك تبديل الذوات من الخشبية إلى الحيوانية، وتبديل الأعراض من السمرة إلى البياض الساطع، فكانا دالين على جواز الأمرين - انتهى.

ولما أتى بالبيان وأقام واضح البرهان، اقتضى الحال السؤال عما أبرزوه من المقال في جوابه فقال: ﴿قال الملا﴾ أي الأكابر ﴿من قوم فرعون﴾ ما تلقفوه من فرعون واحداً بعد واحد، يلقيه أكبرهم إلى أصغرهم ﴿إن هذا لسحر﴾ أي فهذا الذي رأيتموه أيها الناس من تخيله ما لا حقيقة له، فلا تبادروا إلى متابعتة.

ولما كان ذلك خارجاً عما ألفوه من السحرة قالوا: ﴿عليم﴾ أي بما هم فيه، بالغ في علمه إلى حد عظيم، فلذلك جاء ما رأيتم منه فوق العادة، فكان فرعون قال ذلك ابتداء - كما في سورة الشورى - فتلقفوه منه وبادروا إلى قوله، يقوله بعضهم لبعض إعلماً بأنهم على غاية الطواعية له خوفاً على رئاستهم تحقيقاً لقوله تعالى ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ [الزخرف: ٥٤] واختير هنا إسناده إليهم، لأن السياق للاستدلال على فسق الأكثر، وأما هناك فالسياق لأنه إن أراد سبحانه أنزل آية خضعوا لها كما خضع فرعون عند رؤية ما رأى من موسى عليه السلام حتى رضي لنفسه بأن يخاطب عبده -

على ما يزعم - بما يقتضي أن يكون لهم عليه أمر، فلذا كان إسناد القول إليه أحسن، لأن النصره في مقارعة الرأس أظهر، وخضوع عنقه أضخم وأكبر.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٧﴾ يَا تَوَكُّبِكُلِّ سَاحِرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٨﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٩﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١٢١﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٢٢﴾ ﴿١٢٣﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٢٤﴾

ولما خيلوهم حتى أوقفوهم عما فهموا عنهم من المبادرة إلى المتابعة بادعاء أنه ساحر؛ نفروهم من ذلك وخوفوهم بأنه يريد أن يحكم فيهم قومه الذين كانوا عبيداً لهم ويزيحوهم من ديارهم التي هي لأشباههم مثل أشباحهم لأرواحهم بقولهم: ﴿يريد أن يخرجكم﴾ أي أيها القبط ﴿من أرضكم﴾ أي هذه التي أثلها لكم آباؤكم وبها قوامكم؛ ولما كان السياق لبيان فسقهم، أسقط قولهم في الموضوع الآخر ﴿بسحره﴾ إفهاماً لعجلتهم في إبرام الأمر في ضربه إشارة إلى تغاليتهم في الفسق بعلمهم أنه محق وليس بساحر.

ولما كان المقصود بهذا الكلام استعطاف المخاطبين، استعطفوهم بعد أن أوقفوهم، ثم خوفوهم بما سببوا عن الخطاب السابق من قولهم: ﴿فماذا تأمرون﴾* أي تقولون في هذه المشورة أيها السادة ليمثل.

ولما كان كأنه قيل: فعلى أي شيء استقر رأيهم؟ فقيل: على تأخير الأمر إلى حشر السحرة للمعارضة، أخبر تعالى، دلالة على أن أصل قول الملائمة، أنهم أقبلوا عليه مخاطبين له ملفتين من أبلغهم عنه تعظيماً له مسندين الأمر إليه بقوله: ﴿قالوا﴾ أي الملائمة لفرعون بعدما استقر في أذهانهم ما نصبوه إليه من الإرادة ﴿أرجه﴾ أي موسى عليه السلام ﴿وأخاه﴾ أي أخرهما تنفيساً لنا من هذا الخناق إلى وقت ما حتى ننظر في أمرهما ﴿وأرسل في المدائن﴾ أي من ملك مصر ﴿حشرين﴾* يحشرون لك السحرة ويجمعونهم من كل فج عميق، والحشر: الجمع بكرة ﴿يأتوك بكل﴾ ولما كانت دلالة السياق على رغب فرعون أقل مما في الشعراء لما اقتضاه الحال في كل منهما، قرأ الجمهور: ﴿سحر عليم﴾* أي بالغ العلم في السحر، وفي قراءة حمزة والكسائي ﴿سحار﴾ زيادة مبالغة أيضاً لما رأوا من قلق فرعون في الجملة، وهذا يدل على أن

السحرة كانوا في ذلك الزمان عندهم في غاية الكثرة، ويدل على أن في طبع الناس المعارضة، فمهما أمكنت بطلت دعوى النبوة، وإذا تعذرت صحت الدعوى.

ولما كان التقدير: فأخر أمرهما وأرسل كما قالوا، فجمعوا من وجدوه منهم، عطف عليه قوله: ﴿وجاء السحرة فرعون﴾ ولما تشوف السامع إلى خبرهم، قال مجيباً له استئنافاً: ﴿قالوا﴾ أي لفرعون عندما حضروا بين يديه متوثقين لنفع أنفسهم مفهمين له أنهم غالبون، لا مانع لهم من ذلك إلا عدم إنصافهم، سائقين للكلام في قراءة الجماعة مساق الاستفهام أدباً معه في طلب الإكرام: ﴿أئن لنا لأجراً﴾ وأكدوا طلباً لإخراج الوعد على حال التكذيب ﴿إن كنا نحن﴾ أي خاصة ﴿الغالبين﴾ ومن أخبر أراد الاستفهام وهم نافع وابن كثير وحفص عن عاصم ﴿قال﴾ أي فرعون ﴿نعم﴾ أي لكم أجر مؤكد الخبر به، وزاد بيان التأكيد بما زادهم به رغبة في قوله: ﴿وإنكم﴾ أي زيادة على ذلك ﴿لمن المقربين﴾ أي عندي في الحضرة.

ولما فرغوا من محاورته، تشوف السامع إلى قولهم لموسى عليه السلام، فاستأنف قوله جواباً: ﴿قالوا﴾ بادئين باسمه ﴿يموسى﴾ مخيرين له أدباً معه كما هي عادة عقلاء الأخصام قبل وقوع الخصام في سياق مفهوم أن قصدهم الإلقاء أولاً، وذلك قولهم: ﴿إما أن تلقى﴾ أي أنت أولاً ما تريد أن تلقيه للمغالبة في إظهار صحة دعواك ﴿وإما أن نكون نحن﴾ أي خاصة ﴿الملقين﴾ أي لما معنا أولاً.

ولما فهم موسى عليه السلام مرادهم مما عبر هذا النظم عن حقيقة معناه من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر وإقحام الفصل، وكان واثقاً من الله تعالى بما وعده به جارياً مع مراده، لا فرق بين أن يتقدم أو يتأخر؛ أجابهم إلى سؤالهم. وهو أوقع في ازدراء شأنهم، فاستأنف سبحانه الخبر عنه بقوله: ﴿قال القوا﴾ أي أنتم أيها السحرة ما تريدون إلقاءه، وهو أمر تعجيز.

ولما أذن لهم بادرُوا إلى ذلك كما أفهمه العطف بالفاء في قوله: ﴿فلما القوا﴾ أي ما أعدوه للسحر ﴿سحروا أعين الناس﴾ أي عن صحة إدراكها حتى خيلوا إليها ما لا حقيقة له، وهي أن جبالهم وعصيتهم - وكانت كثيرة جداً - صارت تتحرك ويلتوي بعضها على بعض، وبعثوا جماعة ينادون: أيها الناس احذروا ﴿واسترهبوهم﴾ أي وأوجدوا رهبتهم إيجاداً راغب فيها طالب لها غاية الطلب.

ولما قيل ذلك، كان ربما ظن أنهم خافوا مما لا يخاف من مثله، فقال تعالى مبيناً أنهم معذرون في خوفهم: ﴿وجاؤوا بسحر عظيم﴾ قال صاحب كتاب الزينة:

والسحر على وجوه كثيرة، منه الأخذ بالعين، ومنه ما يفرق به بين المرء وزوجه، ومنه غير ذلك، وأصله مأخوذ من التعلل بالباطل وقلب الأمر عن وجهه كما ذكرنا من لغة العرب .

ولما تنهى الأمر واشتد التشوف إلى ما صنع موسى عليه السلام، قال معلماً عنه عطفاً على ﴿وجاء﴾: ﴿وأوحينا﴾ أي مظهرين لعظمتنا على رؤوس الأشهاد بما لا يقدر أحد أن يضاهيه ﴿إلى موسى أن ألق عصاك﴾ أي فألقها ﴿فإذا هي﴾ من حين إلقائه لها ﴿تلقف﴾ أي تلتقم تماماً حقيقياً شديداً سريعاً جداً بما دل عليه حذف التاء، ودل على كثرة ما صنعوا بقوله: ﴿ما يَأْكُونُ﴾ أي يجددون حين إلقائهم في تزويره وقلبه عن وجهه، فابتلعت ما كان ملء الوادي من العصي والحبال، ثم أخذها موسى عليه السلام فإذا هي كما كانت لم يزد شيء من مقدارها على ما كانت عليه، وفي هذا السياق المعلم بتثبيت موسى عليه السلام بعد عظيم ما رأى من سحرهم إلى الإيحاء إليه بيان لأدبه عليه السلام في ذلك المقام الضنك وسكونه تحت المقاربة مع مرسله سبحانه إلى بروز أوامره الشريفة .

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغَلَبُوا هَٰلِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْنَتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأَذِّنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا الْمَكْرُ مَكْرُتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ .

ولما علم أن ما صنعوه إنما هو خيال، وما صنعه موسى عليه السلام أثبت من الجبال، سبب معقباً قوله: ﴿فوقع الحق﴾ أي الذي لا شيء أثبت منه، فالواقع يطابقه لأن باطن الأمر مطابق لما ظهر منه من ابتلاعها لأمتعتهم فالإخبار عنه صدق، وفيه تنبيه على أن فعلهم إنما هو خيال بالنسبة إلى ظاهر الأمر، وأما في الباطن والواقع فلا حقيقة له، فالإخبار عن تحرك ما ألقوه كذب .

ولما أخبر عن ثبات الحق، أتبعه زوال الباطل فقال: ﴿وبطل﴾ بحيث عدم أصلاً ورأساً ﴿ما كانوا يعملون﴾ فدل بكان والمضارع على أنهم - مع بطلان ما عملوا - نسوا علمهم بحيث إنه أسند عليهم باب العمل بعد أن كان لهم به ملكة كملكة ما هو كالجبل - والله أعلم؛ ثم سبب عن هذا قوله: ﴿فغلبوا هالك﴾ أي عند هذا الأمر العظيم العالي الرتبة ﴿وانقلبوا﴾ أي جزاء على قلبهم لتلك الحقائق عن وجوها حال كونهم ﴿صغرين﴾ أي بعد أن كانوا - عند أنفسهم ومن يقول بقولهم وهم الأغلب -

عالمين، ولا ذل ولا صغار أعظم في حق المبطل من ظهور بطلان قوله على وجه لا يكون فيه حيلة.

ولما كان الأدب وذو النفس لا يأتي إلا بخير، لأنه اللائق بالعبيد، قاد كثيراً منهم إلى السعادة الأبدية، فلذلك قال: ﴿وَأَلْقَى السِّحْرَةَ﴾ أي ألقاهم ملقى الخوف من الله والشوق إلى الخضوع بين يديه والذل لديه حين عرفوا أن ما فعله موسى عليه السلام أمر سماوي، صدق الله تعالى به موسى عليه السلام في أنه رسوله، ولم يتأخروا بعد ذلك أصلاً حتى كأنهم خروا من غير اختيار ﴿ساجدين﴾ * شكراً لله تعالى وانسلاخاً عن الكفر ودليلاً على أقصى غايات الخضوع، فعل الله ذلك بهم حتى تبهر به فرعون وملاه وتحير عقولهم.

ولما كانوا بمعرض التشوف العظيم إلى معرفة قولهم بعد فعلهم، أخبر عن ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا﴾ أي حال إلقائهم للسجود ﴿آمناً﴾ أي كلنا ﴿برب العلمين﴾ * أي الذي خلق فرعون ومن قبله وما يعيشون به؛ ثم خصوا من هداهم الله على أيديهما تصريحاً بالمراد وتشريفاً لهما فقالوا: ﴿رب موسى﴾ ثم أزالوا الشبهة بحذافيرها - لأن فرعون ربما ادعى بتربية موسى عليه السلام أنه المراد - بقولهم: ﴿وهرون﴾ * وفي الآية دليل على أن ظهور الآية موجب للإيمان عند من ظهرت له، ولو أن الرسول غير مرسل إليه.

ولما صرحوا بالذي آمنوا به تصريحاً منع فرعون أن يدلس معه بما يخيل به على قومه، شرع في تهديدهم على وجه يمكر فيه بقومه ويلبس عليهم إيقافاً لهم عن المبادرة إلى الإيمان - كما بادر السحرة - إلى وقت ما، فاستأنف الخير عنه سبحانه بقوله مصرحاً باسمه غير مضمّر له كما في غير هذه السورة لأن مقصود السورة الإنذار، وهو أحسن الناس بالمناداة عليه في ذلك المقام، وقصته مسوفة لبيان فسق الأكثر، وهو أفسق أهل ذلك العصر: ﴿قال فرعون﴾ منكرأ عليهم موبخاً لهم بقوله: ﴿آمنتم﴾ أي صدقتم ﴿به﴾ أي بموسى تصديقاً آمنه من رجوعكم عنه، ومن أخبر أراد الاستفهام، وأوهم فرعون من فهم عنهم من القبط إرادة الإيمان لأجل ما رأوا من دلائل صدق موسى عليه السلام واقتداء بالسحرة بقوله: ﴿قبل أن آذن لكم﴾ ليوقفهم من خطر المخالفة له بما رجاهم فيه من إذنه، فلما ظن أنهم وقفوا خيلهم بما يذهب عنهم ذلك الخاطر أصلاً ورأساً بقوله مؤكداً نفياً لما على قوله من لوائح الكذب: ﴿إن هذا لمكر﴾ أي عظيم جداً، وطول الكلام تبييناً لما أرادوا وتنسية لخاطر الإيمان فقال: ﴿مكرتموه في المدينة﴾ أي على ميعاد بينكم وبين موسى، وحيلة احتلتموها قبل اجتماعكم، وليس إيمانكم لأن صدقه

ظهر لكم؛ ثم علل بما يتعلق به فكرهم وتشوش قلوبهم فقال: ﴿لنخرجوا﴾ أي أنتم وموسى عليه السلام ﴿منها أهلها﴾ وتسكنوها أنتم وبنو إسرائيل.

ولما استتب له ما أراد من دقيق المكر، شرع في تهديدهم بما يمنع غيرهم وربما ردهم، فقال مسيياً عن ذلك: ﴿فسوف تعلمون﴾ أي بوعد لا خلف فيه ما أفعل بكم من عذاب لا يحتمل، ثم فسر ما أجمل من هذا الوعيد بقوله: ﴿لأقطعن أيديكم﴾ أي اليمنى مثلاً ﴿وأرجلكم﴾ أي اليسرى، ولذلك فسر به بقوله: ﴿من خلاف﴾ أي يخالف الطرف - الذي تقطع منه اليد - الطرف الذي تقطع منه الرجل.

ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار، فذكر فيها ما وقع لموسى عليه السلام والسحرة على وجه يهول ذكر ما كان من أمر فرعون على وجه يقرب من ذلك، فعبر بحرف التراخي لأن فيه - مع الإطناب الذي يكون شاغلاً لأصحابه عما أدهشهم مما رأوه - تعظيماً لأمر الصلب. فيكون أرهب للسحرة ولمن تزلزل بهم من قومه فقال: ﴿ثم لأصلبكنم﴾ أي أعلقنكم ممدودة أيديكم لتصيروا على هيئة الصليب، أو حتى يتقاطر صليبيكم وهو الدهن الذي فيكم ﴿أجمعين﴾ أي لا أترك منكم أحداً لأجعلكم نكالا لغيركم.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٧٥﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ تَنَّا رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴿١٧٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُ وَعَالِهَتِكَ قَالَ سَنَقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٧٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنِّي الْاَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مَن عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾﴾.

ولما كان حالاً يشوق النفوس إلى جوابهم، استأنفه بقوله: ﴿قالوا﴾ أي أجمعون، لم يرتع منهم إنسان ولا تزلزل عما منحه الله به من رتبة الإيمان ﴿إنا إلى ربنا﴾ أي الذي ما زال يحسن إلينا بنعمه الظاهرة والباطنة حتى جعل آخر ذلك أعظم النعم، لا إلى غيره ﴿منقلبون﴾ أي بالموت انقلاباً ثابتاً لا انفكاك لنا عنه إن صلبتنا أو تركتنا، لا طمع لنا في البقاء في الدنيا، فنحن لا نبالي - بعد علمنا بأننا على حالة السعداء - بالموت على أي حالة كان، أو المراد أنا نقلب إذا قتلنا إلى من يحسن إلينا بما منه الانتقام منك، ولذلك اتبعوه بقولهم: ﴿وما تنقم﴾ أي تنكر ﴿منا﴾ أي في فعلك ذلك بنا وتعيب علينا ﴿إلا أن أمانا﴾ أي إلا ما هو أصل المفاخر كلها وهو الإيمان ﴿بآيات ربنا﴾ أي التي عظمت بكونها صادرة عنه ولم يزل محسناً إلينا فوجب علينا شكره ﴿لما﴾ أي حين

﴿جاءتنا﴾ لم نتأخر عن معرفة الصدق المصدق، وهذا يوجب الإكرام لا الانتقام؛ ثم أذنوه بأنهم مقدمون على كل ما عساه أن يفعل به فقالوا: ﴿ربنا﴾ أي أيها المحسن إلينا القادر على خلاصنا ﴿أفرغ﴾ أي صب صباً غامراً ﴿علينا﴾ أي فيما تهددنا به هذا الذي قويته علينا ﴿صبراً﴾ أي كثيراً تغمرنا به كما يغمر الماء من يفرغ عليه حتى لا يروعنا ما يخوفنا به ﴿وتوفنا﴾ أي اقبض أرواحنا وافية حال كوننا ﴿مسلمين﴾ أي عريقين في الانقياد بالظاهر والباطن بدلائل الحق، والظاهر أن الله تعالى أجابهم فيما سأله تلويحاً بذكر الرب فلم يقدره عليهم لقوله تعالى ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٥] ولم يأت في خبر يعتمد أنه قتلهم، وسيأتي في آخر الحديد، عن تاريخ ابن عبد الحكم ما هو صريح في خلاصهم.

ولما قنع فرعون في ذلك الوقت الذي بهرت قومه تلك المعجزة الظاهرة بالانفصال على هذا الوجه الذي لم يدع فيه حيلة إلا خيل بها، وخلص موسى عليه السلام بقومه متمكناً منهم بعض التمكّن، وكان السياق لبيان أن أكثر الخلق فاسق، أخبر تعالى بما قال قوم فرعون بعدما رأوا من المعجز القاهر دليلاً على ذلك، فقال عاطفاً على ﴿وألقي السحرة سجدين﴾ وما بعده، أو على قول فرعون: ﴿وقال الملا﴾ أي الأشراف ﴿من قوم فرعون﴾ أي ظانين أن فرعون متمكّن مما يريد بموسى عليه السلام من الأذى، منكرين لما وصل إليه الحال من أمر موسى عليه السلام حين فعل ما فعل وآمن به السحرة، وما عمل فرعون شيئاً، لا قتله ولا حبسه، لأنه كان لا يقدر على ذلك ولا يعترف به لقومه ﴿أنذر موسى وقومه﴾.

ولما كان ما كان في أول مجلس من إيمان السحرة جديراً بأن يجر إليه أمثاله، سموه فساداً وجعلوه مقصوداً لفرعون إحماء له واستغضاباً فقالوا: ﴿ليفسدوا﴾ أي يوقعوا الفساد وهو تغيير الدين ﴿في الأرض﴾ أي التي هي الأرض كلها، وهي أرضنا هذه، أو الأرض كلها، لكون مثل هذا الفعل جديراً ببرد أهل الأرض كلهم عن عقائدهم ﴿ويذرك وآلهتك﴾ قيل: كان أمر قومه أن يعبدوا الأصنام تقرباً إليه، وقال الإمام: الأقرب أنه كان دهرياً منكراً لوجود الصانع، وكان يقول: مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب، وأنه المخدوم في العالم للخلق أو لتلك الطائفة والمربي لهم؛ ثم قال: وإذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يقال: إنه كان قد اتخذ أصناماً على صور الكواكب ويعبدها على ما هو دين عبدة الكواكب انتهى. ولذلك قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤]، - هكذا قيل، وهو ظاهر عبارة التوراة الآتية في آية القمل، ولكن إرادته غير ملائمة لهذه المعادلة، بل الظاهر أنه كان سمي أمراءه آلهة، وسمى لكل أمير قوماً

يتألهونه أي يطيعونه، فإنه نقل عنهم أنهم كانوا يسمون الحاكم بل والكبير إلهاً كما سيأتي عن عبارة التوراة، فحيث وقعت الموازنة بين موسى عليه السلام وقومه وبين فرعون وقومه، عبر بالآلهة تعظيماً لجانبه بالإشارة إلى أنه إله أي حاكم معبود، ليس وراءه منتهى وملؤه كلهم آلهة أي حكام دونه، وموسى عليه السلام ليس بإله ولا في قومه إله بل هم محكوم عليهم فهم ضعفاء فكيف يتركون! وحيث نفى الإلهية عن غيره فبالنظر إلى خطابه للملأ ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨] وحيث حشر الرعية ناداهم بقوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] وكان ذلك كان يطلق على الحاكم مجازاً، فجعلوه حقيقة وصاروا يفعلون ما يختص به الآلهة من التحليل والتحرير كما قال تعالى ﴿اتخذوا أجباهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ [التوبة: ٣١] فكفروا بادعاء الربوبية بمعنى العبودية، ونفى المعبود الحق بدليل آية ﴿ما علمت﴾، والحاصل أنهم عيروه بالرضى بأن يكون رئيساً على القبط وموسى عليه السلام رئيساً على بني إسرائيل فيكونوا بهذه المتاركة أكفاء للقبط.

ولما أعجزه الله سبحانه أن يفعل بهم أكثر مما كان يعمل قبل مجيء موسى عليه السلام لما يراد به من الاستدراج إلى الهلاك، أخبر عنه سبحانه بما يفهم ذلك فقال مستأنفاً: ﴿قال﴾ أي فرعون ﴿سنقتل﴾ أي تقتيلاً كثيراً ﴿أبناءهم﴾ أي كما كنا نفعل ﴿ونستحيي نساءهم﴾ أي نقيهم أحياء إذلالاً لهم وأماناً من غائلتهم في المستقبل ﴿وإنا فوقهم﴾ أي الآن ﴿قهورون﴾ ولا أثر لغلبة موسى لنا في هذه المناظرة لثلاثتهم العامة أنه المولود الذي تحدث المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده فيبسطهم ذلك عن الطاعة، موهماً بهذا أن تركه لأذى موسى عليه السلام لعدم التفاته إليه، لا يعجزه شيء عنه.

ولما كان هذا أمراً يزيد من قلق بني إسرائيل لما شموا من رائحة الفرج، استأنف سبحانه الخبر عما ثبتهم به موسى عليه السلام قائلاً: ﴿قال موسى لقومه﴾ أي بني إسرائيل الذين فيهم قوة وقيام فيما يريدون من الأمور لو اجتمعت قلوبهم ﴿استعينوا﴾ أي ألقوا طلب العون ﴿بالله﴾ الذي لا أعظم منه بما يرضيه من العبادة ﴿واصبروا﴾ ثم علل ذلك بأنه فعال لما يريد، ولا اعتراض عليه ولا مفر من حكمه فقال: ﴿إن الأرض﴾ أي كلها مصر وغيرها ﴿لله﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه، كرهه تذكيراً بالعظمة وتصريحاً وتبركاً؛ ثم استأنف قوله: ﴿يورثها من يشاء من عباده﴾.

ولما أخبر أن نسبة الكل إليه واحدة، أخبر بما يرفع بعضهم على بعض فقال: ﴿والعاقبة﴾ أي والحال أن آخر الأمر وإن حصل بلاء ﴿للمتقين﴾ أي الذين يقون

أنفسهم سخط الله بعمل ما يرضيه فلا عبرة بما ترون في العاجل فإنه قد يكون استدراجاً .

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٨﴾ فَإِذَا جَاءَ نَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْ عَنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ آكَرَهُمُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢٩﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ .

ولما تشوف السامع إلى ما كان من جوابهم، أشار تعالى إلى أن قلقهم كان وصل إلى حد لا صبر معه بقوله مستأنفاً: ﴿قالوا﴾ ولما كان الموجه هو الأذى، لا كونه من معين، بنوا للمفعول قولهم: ﴿أوذينا﴾ أي بالقتل والاستعباد .

ولما كان أذاهم غير مستغرق للزمان، أثبتوا الجاز فقالوا: ﴿من قبل أن تأتينا﴾ أي كما تعلم ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ أي فما الذي أفادنا مجيئك ﴿قال﴾ مسلماً لهم وداعياً ومرجياً بما رمز إليه من قبل ﴿عسى ربكم﴾ أي الذي أحسن إلى آبائكم بما تعرفون وإليكم بإرسالي إليكم ﴿أن يهلك عدوكم﴾ فلا يهولنكم ما ترون ﴿ويستخلفكم﴾ أي ويوجد خلافتكم لهم متمكين، لا يحكم عليكم غيركم ﴿في الأرض﴾ أي جنسها إن كنتم متقين؛ ثم سبب عن الاستخلاف قوله مذكراً لهم محذراً من سطواته سبحانه: ﴿فينظر﴾ أي وأنتم خلفاء متمكنون ﴿كيف تعملون﴾ أي يعاملكم معاملة المختبر وهو في الأزل أعلم بما تعملون منكم بعد إيقاعكم للأعمال، ولكنه يفعل ذلك لتقوم الحجة عليكم على مجاري عاداتكم .

ولما رجاهم موسى عليه السلام بذلك، أخبر سبحانه أنه فعل ما أخبرهم به، فذكر مقدماته فقال: ﴿ولقد﴾ أي قال لهم ما قال. والحال أنا وعزتنا قد ﴿أخذنا﴾ أي قهرنا ﴿آل فرعون﴾ ولينا عريكتهم وسهلنا شكيمتهم ﴿بالسنين﴾ أي بالفقحط والجوع، فإن السنة يطلق بالغلبة على ذلك كما تطلق على العام؛ ولما كانت السنة تطلق على نقص الحبوب، صرح بالثمار فقال: ﴿ونقص من الثمرات﴾ أي بالعاهاث إن كان الماء كثيراً، أو السنة للبادية والنقص للحاضرة ﴿لعلهم يذكرون﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجو ناظره أن يتذكر في نفسه ولو بأدنى وجوه التذكر - بما أشار إليه الإدغام، فإن الضر يزيل الشماخة التي هي مظنة الوقوف مع الحظوظ ويوجب للإنسان الرقة فيقول: هذا إنما حصل لي بسبب تكذبي لهذا الرسول وعبادتي من لا يكشف السوء عن نفسه ولا غيره .

ولما لم يتذكروا ولا لانوا، سبب عن أخذهم قوله معرفاً بغباوتهم معبراً في الخير بأداة التحقيق إشارة إلى أنه أغلب من الشر، حثاً على الشكر: ﴿فإذا﴾ أي فما تسبب عن ذلك إلا أنهم كانوا إذا ﴿جاءتهم الحسنة﴾ أي الحالة الكاملة التي يحبونها من الخصب وغيره، وعرفها بعد تحقيقها إشارة إلى إكمالها ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي نحن حقيقون بها، ودل على أن الخير أكثر من غيره بقوله بأداة الشك مع التنكير: ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي حالة يكرهونها.

ولما كانت الإصابة بالسيئات تخصصهم ولا يلحق بني إسرائيل منها شيء، فكان إظهارهم للتطير بهم ظاهراً في ردهم عليهم وتكذيبهم فيه، أشار سبحانه بإدغام التاء إلى أنهم كانوا إنما يدسونه إلى من يمكنهم اختداعه من الجهلة والأغبياء على وجه الحيلة والخفاء، بخلاف ما في يس فقال: ﴿يطيروا﴾ أي يتشاءموا ﴿بموسى ومن معه﴾ أي بأن يقولوا: ما حصل لنا هذا السوء إلا بشؤمهم، وهو تفعل من الطير، وهو تعمد قصد الطير لأن يطير للتفاؤل به من خير أو شر، وأصله أن العرب كانوا إذا مر الطائر من ميامنهم إلى جهة مياسرهم قالوا: بارح، أي مشؤوم، من البرح وهو الشدة، فإذا طار من جهة اليسار إلى جهة اليمين عدوه مباركاً، قالوا: من لي بالساح بعد البارح، أي بالمبارك بعد المشؤوم، وعرف أن المراد هنا التشاؤم لا اقترانه بالسيئة.

ولما كذبوا في الموضوعين، قال مستأنفاً على وجه التأكيد: ﴿ألا إنما طرهم﴾ أي قدرهم الذي سبق في الأزل من الخير والشر فلا يزداد ولا ينقص ﴿عند الله﴾ أي الملك الذي لا أمر لغيره وقد قدر كل شيء، فلا يقدر على المجيء به غيره أصلاً ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا علم لهم أصلاً فهم لا يهتدون إلى ما ينفعهم ويظنون أن للعباد مدخلاً في ذلك، فلذلك تراهم يضيفون الأشياء إلى أسباب يتوهمونها.

ولما كان هذا الذي قالوه يدل على سوء المزاج وجلافة الطباع بما لا يقبل العلاج، أتبعه ما هو شر منه، وهو أنهم جزموا بأنه كلما أتاهم شيء في المستقبل قابله بالكفر فقال: ﴿وقالوا مهما﴾ هي مركبة من «ما» مرتين: الأولى الشرطية والثانية تأكيد. قلبت ألف الأولى هاء استقلاً، وقيل: مه هي الصوت الذي يكون للكف وما الشرطية، أي كف عنك ما أنت فيه. ثم استأنفوا «ما»: ﴿تأتنا به﴾ أي في أي وقت وعلى أي حالة كان؛ ثم بينوا المأتي به بقولهم: ﴿من آية﴾ أي علامة على صدقك، وهذا على زعمه، ولذلك عللوه بقولهم: ﴿لتسحرنا﴾ أي لتخيل على عقولنا ﴿بها﴾ وتلفنتا عما نحن عليه إلى ما تريد فنحن نسميها سحراً وأنت تسميها آية؛ ثم أجابوا الشرط بقولهم: ﴿فما نحن﴾ أي كلنا ﴿لك﴾ أي خاصة ﴿بمؤمنين﴾ أي من أن نكذبك.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٧﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٨﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٩﴾ وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَنِي بَنرْكَنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٤٠﴾ ۝

ولما بارزوا بهذه العظيمة، استحقوا النكال فسبب عن ذلك قوله: ﴿فأرسلنا عليهم﴾ أي عذاباً لهم - لما يفهمه حرف الاستعلاء ﴿الطوفان﴾ أي الرعد والبرق والنار مع المطر والبرد الكبار الذي يقتل البقر فما دونها، والظلمة والريح الشديدة التي عمت أرضهم وطافت بها؛ ولما كان ذلك ربما أخصبت به الأرض، أخبر أنه أرسل ما يفسد ذلك فقال: ﴿والجراد﴾.

ولما كان الجراد ربما طار وقد أبقى شيئاً، أخبر بما يستمر لازقاً في الأرض حتى لا يدع بها شيئاً فقال: ﴿والقمل﴾ قال في القاموس: القمل كالسكر: صغار الذر والديبي الذي لا أجنحة له - وهو أصغر الجراد أو شيء صغير بجناح أحمر، وشيء يشبه الحلم خبيث الرائحة أو دواب صغار كالقردان يعني القراد. وقال البخاري في بني إسرائيل من صحيحه: القمل: الحمنان يشبه صغار الحلم.

ولما كان ربما كان عندهم شيء مخزوناً لم يصل إليه ذلك، أخبر بما يسقط نفسه في الأكل فيفسده أو ينقصه فقال: ﴿والضفادع﴾ فإنها عمت جميع أماكنهم، وكانت تتساقط في أطعمتهم، وربما وثبت إلى أفواههم حين يفتحونها للأكل.

ولما تم ما يضر بالمأكل، أتبعه ما أفسد المشرب فقال: ﴿والدم﴾ فإن مياههم انقلبت كلها دماً منتناً، وعم الدم الشجر والحجارة وجميع الأرض في حق القبط، وأما بنو إسرائيل فسالمون من جميع ذلك.

ولما ذكر تعالى هذه الآيات العظيمة، نبه على عظمتها بذكر حالها فقال: ﴿آيت﴾ أي علامات على صدقه عظيمة ﴿مفصلات﴾ أي يتبع بعضها بعضاً، وبين كل واحدة وأختها حين يختبرون فيه مع أن مغايرة كل واحدة لأختها في غاية الظهور، وكذا العلم بأنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره.

ولما كانت حقيقة بأن يتسبب عنها الإيمان عند سلامة القلب، سبب عنها قوله: ﴿فاستكبروا﴾ مبيناً أن الذي منعهم من الإيمان مرض القلب بالكبر والطغيان ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي في جبلتهم قطع ما ينبغي وصله مع قوتهم على ما يحاولونه.

ولما كان هذا في الحقيقة نقضاً لما أخذه الله على العباد بعهد العقل، أتبعه نقضاً حقيقياً، فقال مبيناً لحالهم عند كل آية، ولعله عبر بما يشملها ولم ينص على التكرار لأن ذلك كاف فيما ذكر من النقص والفسق: ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ يعني العذاب المفصل الموجب للاضطراب ﴿قالوا يلموسى ادع لنا ربك﴾ أي المحسن إليك، ولم يسمحوا كبيراً وشماخة أن يعرفوا به ليقولوا: ربنا ﴿بما عهد عندك﴾ أي من النبوة التي منها هذا البر الذي تراه يصنعه بك؛ ثم أكدوا العهد بقولهم استثنافاً أو تعليلاً: ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ أي العذاب الذي اضطربت قلوبنا وجميع أحوالنا له ﴿لنؤمنن لك﴾ أي لنجعلنك آمناً من التكذيب بإيقاع التصديق، ويكون ذلك خالصاً لأجلك وخصوصاً بك ﴿ولنرسلن معك﴾ أي في صحبتك، لا نجس أحداً منكم عن الآخر ﴿بني إسرائيل﴾ أي كما سألت؛ ودل على قرب الإجابة بالفاء في قوله: ﴿فلما كشفنا﴾ أي بعظمتنا ﴿عنهم الرجز﴾ كرره تصريحاً وتهويلاً، ومددنا الكشف ﴿إلى أجل﴾ أي حد من الزمان ﴿هم بلغوه﴾ أي في علمنا ﴿إذا هم﴾ أي بضمايرهم التي تجري ظواهرهم على حسبها ﴿ينكثون﴾.

ولما أخبر أنهم فاجزوا النكث وكرروه، سبب عنه قوله: ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي انتقاماً ليس كذلك الذي كنا نؤذيهم به، بل انتقام إهلاك عبدة لوصولهم بعد كشف جميع الشبه إلى محض العناد؛ ثم فسره بقوله: ﴿فاغرقنهم﴾ بما لنا من العظمة ﴿في اليم﴾ أي في البحر الذي يقصد لمنافعه ﴿بأنهم﴾ أي بسبب أنهم ﴿كذبوا بآيتنا﴾ أي على ما لها من العظمة بما عرف من صحة نسبتها إلينا، ودل سبحانه على أنهم كذبوا بغير شبهة عرضت لهم بل عناداً بقوله: ﴿وكانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿عنها غفلين﴾ أي يكون حالهم بعدها كحالهم قبلها، فكانها لم تأتهم أصلاً فاستحقوا الأخذ لوقوع العلم بأن الآيات لا تفيدهم.

ولما أخبر عن إهلاكهم، عطف عليه ما صنع ببني إسرائيل فقال: ﴿وأورثنا﴾ أي بعد إهلاكهم بما لنا من العظمة ﴿القوم﴾ ولما أشار بهذه العبارة - التي معناها أنه كانت فيهم قوة وكثرة وشدة عزم على ما يحاولونه ويقومون به - إلى أنه هو الذي أذلهم لا فرعون، أتبعه ما يدل عليه فقال: ﴿الذين كانوا يستضعفون﴾ أي يطلب ضعفهم ويوجد بالشوكة واجتماع الكلمة بحاكم قد تمكنت عظمتها في القلوب التي الوهم غالب عليها،

وهم بنو إسرائيل ﴿مشارك الأرض﴾ أي الكاملة لبركاتها ﴿ومغاربيها﴾ أي أرض الشام من الفرات إلى بحر سوف: الموضع الذي خرجوا منه من البحر وغرق فيه فرعون وآله - كما مضى نقله في المائدة عن التوراة، يعني حكماً بإيراثهم ذلك وأنجزناه لأبناء الذين خرجوا من مصر بعد إهلاكهم في التيه؛ ثم وصفها تغبطاً بها بقوله: ﴿التي بركننا فيها﴾ أي في أرضها بالمياه والأشجار والثمار والخصب، وفي أزاقها بالكثرة والطيب، وفي رجالها بالعلم والنبوة وفي طباعهم بالاستقامة، وفي عزائمهم بالنجدة والشجاعة والمكارم، وفي جميع أحوالهم بأنه لا يبغيهم ظالم إلا عوجل بالنقمة ﴿وتمت﴾ أي وجدت صحتها لوجود مضمونها في عالم الشهادة وظهوره من ستور الغيب ﴿كلمت ربك﴾ أي المحسن إليك بإنزال هذه الأنباء على هذه الوجوه المفيدة مع إعجازها لغاية العلم والحكمة ﴿الحسنى﴾ مستعالية ﴿على بني إسرائيل﴾ أي التي هي أحسن الكلام وهي وعده سبحانه لهم بالخلاص من العبودية وإيراثهم مساكن آبائهم كما كانوا يسمعون من أسلافهم، وإذا استعلت عليهم منعت أعداءهم من الوصول إليهم ﴿بما صبروا﴾ أي بسبب صبرهم على الاستعباد وذبح الأولاد وما حصل بعد ذلك من طويل الأنكاد ﴿ودمرنا﴾ أي أهلكنا إهلاكاً عظيماً جعل يدمره كالرماد، لا خير فيه أصلاً ﴿ما كان يصنع﴾ أي صنفاً بغاية الإقبال عليه حتى كأنهم خلقوا لهم ﴿فرعون وقومه﴾ أي من الصنائع الهائلة المعجبة لكل من يراها أو يسمع بها مع أنهم قد مروا عليها فصارت أسهل شيء عندهم ﴿وما كانوا﴾ أي بما هو كالجبلية والطبع ﴿يعرشون﴾ أي من الجنان والقصور العالية الأركان، وكفى بهذه الآية حائنة على الصبر وضامنة على كل حائر للأجر بالتفريج عن المظلوم ونصره وإهلاك الظلوم وقهره.

شرح ما يحتاج إلى شرحه هنا من التوراة الموجودة الآن بين أظهر اليهود، قال مترجمها في الأصحاح الثالث من السفر الثاني ما نصه: وقال الرب لموسى في مدين: انطلق راجعاً إلى مصر لأن الرجال الذين كانوا يطلبون نفسك قد هلكوا جميعاً، فانطلق موسى بامرأته وبنيه وحملهم على حماره وأخذ بيده عصا الرب، وقال الرب لموسى: انظر كل آية أجريتها على يدك فاصنعها أمام فرعون وأنا أقسي قلبه فلا يرسل الشعب وقل لفرعون: هكذا يقول الرب: ابني بكري إسرائيل، أرسل ليعبدني، فإن أبيت أن ترسل ابني فإنني أقتل ابنك بكرك، فلما صار موسى في الطريق في المبيت لقيه ملاك الرب فأخذت صفورا حجراً من حجارة المروة فحشت غرلة ابنها وأخذت برجليه - وفي نسخة السبعين: ووقعت عند رجليه - وقالت: إن اليوم عرس الدم - تعني الختان، فقال الرب لهارون: اخرج فتلق أخاك في القفر، فخرج فلقيه في جبل الله في حوريب فعانقه

وقبله، فأخبر موسى هارون بجميع قول الرب الذي أرسله فيه وما أمره به من الآيات، وانطلق موسى وهارون، فجمع أشياخ بني إسرائيل، فقص عليهم جميع ما قال الرب لموسى، وجرح جرائح وآيات قدام الشعب - وفي نسخة السبعين: فجمعوا مشايخ بني إسرائيل وتكلم هارون بجميع الكلام الذي كلم الله به موسى وعمل الآيات قدام الشعب - فأمن الشعب وسمعوا أن الرب قد ذكر بني إسرائيل وأبصر إلى خضوعهم، وجثا الشعب وسجدوا للرب، ومن بعد هذه الآيات والخطوب دخل موسى وهارون وقالوا لفرعون: هكذا يقول الله رب إسرائيل: أرسل شعبي يحجون إلى القفر - وفي نسخة السبعين: ليعبدوني في البرية - عوض: يحجون إلى القفر، فقال فرعون: ومن هو الرب حتى أطيعه؟ لا أعرف الرب ولا أرسل بني إسرائيل، وقالوا له: الرب إله العبرانيين اعتلن لنا، فننطلق مسيرة ثلاثة أيام في القفر ونذبح الذبائح لله ربنا لكيلا ينزل بنا الحزن والوباء - وفي نسخة السبعين: لئلا يفاجننا موت أو قتل - قال فرعون: ما بالكما تبطلان الشعب من أعمالهم؟ فأمر فرعون ولاة الشعب وكتبتهم وقال لهم: لا تعودوا أن تعطوا الشعب تبناً لضرب اللبن كما كنتم تعطونهم، بل هم ينطلقون فيجمعون لأنفسهم التبن، وخذوهم بحساب اللبن على ما كنتم تأخذونهم به أمس وأول من أمس - وفي نسخة السبعين: في كل يوم ولا تنقصوهم شيئاً من عملهم لأنهم بطروا لذلك يصيحون فيقولون: ننطلق فنذبح للرب إلهنا - فليشتد العمل على الرجال - وفي نسخة السبعين - فليتضاعف عمل هؤلاء القوم - حتى يهتموا به ولا يهتموا بكلام الباطل، فخرج ولاة الشعب وكتبتهم بما قال فرعون، فتفرق الشعب في جميع أرض مصر في جمع التبن، وجعل ولاتهم يلحون عليهم ويقولون: ارفعوا إلينا العمل كما كنتم ترفعون من قبل حيث كنتم تعطون التبن، فزادت كتبة بني إسرائيل وعوقبوا من الذين ولوهم عليهم وقالوا: لم لم ترفعوا إلينا حساب اللبن كما كنتم ترفعون، فأتى كتبة بني إسرائيل فشكوا إلى فرعون وقالوا: ما بال عبيدك يصنع بهم هذا الصنيع؟ فقال فرعون: أنتم قوم بطرون، تقولون: ننطلق لنذبح لربنا، فسار - أي الكتبة - في بني إسرائيل وقالوا لهم: لا تنقصوا من لبنكم شيئاً، بل ارفعوا إلينا كما كنتم ترفعون كل يوم، فلقوا موسى وهارون وهما واقفان أمامهم - وفي نسخة السبعين: وهما يجيئان نحوهم إذ خرجوا من بين يدي فرعون - فقالوا لهما: الله يحكم بيننا وبينكما لأنكما حرضتما علينا فرعون وعبيده حتى ضيق علينا بأن يضع السلاح فينا فيقتلنا، فرجع موسى إلى الرب وقال: يا رب! لم أسأت بشعبك وأضررت به؟ لأني ساعة أن أتيت فرعون فذكرت اسمك أساء بهذا الشعب وشق عليهم وأنت فلم تخلص شعبك، فقال الرب لموسى: الآن ترى ما أصنع

بفرعون لأنه سيرسلهم - وفي نسخة السبعين: وسوف ترى ما أصنع بفرعون وكيف يرسلهم بيد منيعة وبذراع عظيمة يخرجهم من أرض مصر! أنا الرب الذي اعتلنت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وسميت بإله المواعيد ولم أعلمهم اسم الرب - وفي نسخة السبعين: واسمي الرب فلم أظهره لهم - وأثبت عهدي أيضاً ووعدتهم أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي سكنوها؛ وقد سمعت ضجيج بني إسرائيل من تعبد أهل مصر، وأنجيتكم من أعمالهم وأخلصكم بيد منيعة وذراع عالية وبأحكام عظيمة، وأختصكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً، وتعرفون أنني أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من تعبد المصريين وأقبل بكم إلى الأرض التي رفعت يدي لأعطيها آباءكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأجعلها لكم ميراثاً إلى الدهر، أنا الرب! فقال موسى لبني إسرائيل هذه الأقاويل فلم يسمعوا من موسى ولم يطيعوه من شدة حزنهم واستيقاد نفوسهم من الكد الشديد، وكلم الرب موسى وقال له: انطلق إلى فرعون ملك مصر وقل له فيرسل بني إسرائيل - من أرض مصر، فقال موسى للرب: إن بني إسرائيل لا يسمعونني ولا يطيعونني، وأنا أرت المنطق ثقيل اللسان فكيف يطيعني فرعون ويسمع مني! فقال الرب لموسى: انظر، إني قد جعلتك إلهاً لفرعون، وهارون أخوك يكون نبياً عليك، أنت تقضي جميع ما أمرك به، وهارون أخوك يقول لفرعون - وفي نسخة السبعين: وهارون أخوك يكون لك نبياً وأنت تتكلم بجميع ما أمرك به وهارون أخوك يكلم فرعون - ليرسل بني إسرائيل من أرضه وأنا أقسي قلب فرعون فأكثر آياتي وعجائبي بأرض مصر، فلا يطيعكما فرعون ولا يسمع منكما فأمد يدي على مصر وأخرج جميع جنودي وشعبي بني إسرائيل من أرض مصر بالأحكام العظام، فيعرف أهل مصر أنني أنا الرب، فصنع موسى وهارون كما أمرهما الرب وانتهيا إلى أمره، وكان قد أتى على موسى ثمانون سنة، وكان هارون ابن ثلاث وثمانين سنة إذ كلما فرعون، فقال الرب لموسى وهارون: إن قال لكما فرعون: أظهرا لي آية وجريحة، قل لهارون: خذ عصاك وألقها بين يدي فرعون فتكون تيناً عظيماً، فأتى موسى وهارون إلى فرعون فصنعا كما أمرهما الرب، فألقى عصاه - وفي نسخة السبعين: فألقى هارون عصاه - بين يدي فرعون وأمام أمرائه - وفي نسخة السبعين: وعبيده - فصارت تيناً عظيماً، فدعا فرعون بالحكماء والسحرة، فصنع سحرة مصر أيضاً بسحرهم كذلك، فألقى كل امرئ منهم عصاه فصارت تيناً، فابتلعت عصا هارون عصيهم، فقسا قلب فرعون وأبى أن يرسلهم كما قال الرب، وقال الرب لموسى: إن قلب فرعون قد قسا وأبى أن يرسل الشعب، انطلق إلى فرعون بالغداة، هو ذا يخرج ليغتسل على شاطئ البحر، وخذ العصا التي تحولت في يدك ثعباناً وقل: إن

الرب إله العبرانيين أرسلني إليك، يقول لك: أرسل شعبي حتى يعبدني في البرية لأنك حتى الآن لا تسمع ولا تطيع، هكذا يقول الرب: بهذا تعلم أنني أنا الرب، هأنذا أضرب ماء النهر بعصاي فيصير دماً، وتموت الحيتان التي في النهر ويتن - وفي نسخة السبعين: ولا يقدر أهل مصر أن يشربوا الماء من هذا النهر - وقال الرب لموسى: مر هارون أن يأخذ عصاه، وارفع يدك على ماء المصريين على أنهارهم وعلى غدرانهم وعلى آجامهم وعلى دواليب مياههم - وفي نسخة السبعين: وقال الرب لموسى: قل لهارون: خذ عصاك ومد يدك على ماء مصر وعلى أنهارها وآجامها ونقارها وعلى كل مائها المستنقع - فيتحول دماً، فيصير الدم في جميع أهل مصر في الأرض والخشب والحجارة، فصنع موسى وهارون كما أمرهما الرب، فرفع هارون العصا التي في يده فضرب بها ماء النهر وفرعون وعبيده ينظرون، فتحول ماء النهر فصار دماً، وماتت الحيتان التي بالنهر، ففسد ماء النهر وأتن، ولم يقدر أهل مصر على شرب الماء من الدم، فصار الدم في جميع أرض مصر وقسا قلب فرعون فلم يطعهما كالذي قال الرب، فانصرف فرعون فدخل منزله ولم يفكر في شيء من ذلك وتهاون به، وكملت سبعة أيام من بعد ما ضرب الرب النهر، وقال الرب لموسى: انطلق إلى فرعون وقل له: هكذا يقول الرب: أرسل شعبي حتى يعبدوني، فإن أبيت أن ترسله فإني أضرب جميع حدودك بالضفادع فتدب الضفادع فتصعد فتدخل إلى بيتك وقيطونك وفي مبيتك وعلى مضجعك وأسرتك وفي بيوت عبيدك وشعبك ومخادعك وبيوت طعامك، وتدب الضفادع عليك وعلى جميع شعبك، وقال الرب لموسى: قل لهارون أخيك أن مد يدك بعصاك على الأنهار وعلى الدواليب وعلى الآجام فأصعد الضفادع على أرض مصر، فرفع هارون يده على مياه المصريين فأصعد الضفادع فغشيت أرض مصر، فدعا فرعون موسى وهارون وقال لهما: صليا بين يدي الرب فتنصرف الضفادع عني وعن شعبي حتى أرسل الشعب فيذبحوا بين يدي الرب، فقال موسى لفرعون: سل وقتاً أصلي عليك فيه وعلى عبيدك وشعبك فتنصرف الضفادع عنك وعن بيتك - وفي نسخة السبعين: عنك وعن قومك وعن بيوتك - فقال له: غداً فقال له موسى: سيكون كما سألت فتعلم أنه لا إله غير إلّهنّا، فيصرف الضفادع عنك وعن بيتك - وفي نسخة السبعين: بيوتك وعن عبيدك وعن شعبك ما خلا الضفادع التي في النهر - فخرج موسى وهارون من بين يدي فرعون، فصلى موسى بين يدي الرب فاستجاب الرب لموسى، فماتت الضفادع في الدور والبيوت والرياح فجمعوها أنابيب أنابيب فأصلت الأرض وأجنت - وفي نسخة السبعين: فجمعوها صبياً صبياً فأتنت الأرض - فرأى فرعون الفرج والراحة وجفا قلبه فلم يطعهما كالذي قال الرب، فقال الرب

لموسى: مر هارون فيرفع عصاه ليضرب ثرى الأرض فيكون القمل في جميع أرض مصر، ففعل ذلك فذب القمل في الناس والبهائم وصار جميع ثرى الأرض قملاً في جميع أرض مصر، فصنع مثل ذلك السحرة بسحرهم فلم يقدرُوا أن يصرفوا القمل في الناس والبهائم، فقالت السحرة لفرعون: إن هذا فعل رب العالمين، فقسا قلب فرعون ولم يطعهما كما قال الرب، فقال الرب لموسى: أدلج باكراً وقف بين يدي فرعون، وهو ذا يخرج يغتسل - وفي نسخة السبعين: فإنه يخرج إلى الماء - فقل له: هكذا يقول الرب: أرسل شعبي فيعبدوني، فإن أنت أبيت فهأنذا مرسل - وفي نسخة السبعين: إني مرسل - عليك وعلى شعبك وعلى أهل بيتك هوام وحشرة من كل جنس فتمتلىء - وفي نسخة: ذباب الكلب فتمتلىء - بيوت المصريين من الهوام والحشرة مثل ثرى الأرض التي هم عليها، وأميز في ذلك اليوم أرض جاسان التي يسكنها شعبي، فلا يكون فيها من الهوام والحشرة شيء لتعلم أني أنا الرب، وأميز بين شعبي وشعبك، وتكون هذه الآية غداً، وفعل الرب كذلك وأنزل الهوام على بيت - وفي نسخة: بيوت - فرعون وعبده وعلى جميع أرض مصر، ففسدت الأرض بالهوام، فدعا فرعون موسى وهارون وقال لهما: انطلقوا فاذبحوا الذبائح لله ربكم في هذه الأرض، فقال موسى: لا يحسن بنا أن نفعل ذلك لأننا إنما نذبح للرب إلهنا من نجاسة المصريين وبدعهم، فإن نحن ذبحنا أمام آلهة المصريين رجمونا، بل نطلق مسيرة ثلاثة أيام في القفر فنذبح هنالك للرب إلهنا على ما يأمرنا ويقول لنا، فقال فرعون: أنا أرسلكم فتذبحوا الذبائح للرب إلهكم في البرية، ولكن لا تتطلقوا فتتوانوا، بل صلوا عليّ أيضاً - وفي نسخة السبعين: ولكن لا تبتعدوا وصلوا عليّ أيضاً إلى ربكم - فقال موسى لفرعون: هأنذا أخرج من بين يديك فأصلي بين يدي الرب، فيصرف الهوام والحشرة عن فرعون وعن عبده وعن شعبه غداً، ولكن لا يعود فرعون أن يكذب في قوله ويأبى أن يرسل الشعب ليذبحوا الذبائح، فخرج موسى من بين يدي فرعون وصلى بين يدي الرب، فقبل الرب صلاة موسى وصرف الهوام فلم يوجد منها ولا واحد، فقسا قلب فرعون بعد هذا أيضاً ولم يرسل الشعب، فقال الرب لموسى: انطلق إلى فرعون وقل له: هكذا يقول الرب إله العبرانيين: أرسل شعبي حتى يعبدوني، فإن أبيت أن ترسله - وفي نسخة السبعين: وتمسكت به، فإن يد الرب تضرب ماشيتك التي في القفر من الخيول والحمير والبقر والغنم، فيقع فيها الوباء العظيم الصعب الشديد، ويميز الرب بين دواب بني إسرائيل وبين بهائم أهل مصر، فلا يموت من بهائم آل إسرائيل ولا واحد، ووقت الرب وقتاً ليكمل فيه هذا القول على الأرض، فأكمل الرب هذا الأمر من غد ذلك اليوم، فماتت

جميع بهائم المصريين ولم يمت من دواب بني إسرائيل ولا واحد، وأرسل فرعون فإذا أنه لم يمت من دواب بني إسرائيل ولا دابة، فقسا قلب فرعون بعد هذا أيضاً فأبى أن يرسل الشعب، فقال الرب لموسى وهارون: خذا في حقيبتكما من رماد الأتون فيذره موسى إزاء السماء نحو فرعون، فيكون العجاج في أرض مصر، فيضرب الناس والبهائم جميعاً قروح ناتية رخوة في أرض مصر كلها، فأخذا رماد الأخدود ووقفوا بين يدي فرعون فذره موسى نحو السماء أمام فرعون فظهرت قروح ناتية رخوة، فاستعلت في الناس والبهائم، فلم يقدر السحرة على الوقوف بين يدي موسى من كثرة القروح التي ظهرت في السحرة وفي جميع أهل مصر، فقسى الرب قلب فرعون فلم يسمع لهما ولم يطعهما كالذي قال الرب لموسى، فقال الرب لموسى: أدلج باكراً وقف بين يدي فرعون وقل له: هكذا يقول الرب إله العبرانيين: أرسل شعبي فيعبدونني وإلا فأنا مرسل في هذا الوقت ضربتي على قلبك وعلى عبيدك وعلى شعبك لتعلم أنه لا إله غيري على الأرض كلها، لأنني مجمع من الآن أن أمد يدي فأضربك وشعبك بالوباء، وتبيد عن جديد الأرض، وإنما بغيتك بهذا الأمر لأظهر لك عزي وقدري ولينادي باسمي في الأرض كلها، وأنت حتى الآن تتمسك بالشعب وتأبى أن ترسله، وغداً في هذا الوقت أهبط البرد العظيم الشديد ما لم يكن - وفي نسخة السبعين: الذي لم يكن مثله - بمصر منذ اليوم الذي أسست فيه قواعدها إلى يوم الناس هذا، والآن أرسل فأدخل جميع دوابك وكل مالك في الحقل لأن كل بهيمة أو إنسان يلقي في الحقل ولا يدخل البيت يهبط عليهم البرد فيموتون، وكل من خاف كلمة الله من عبيد فرعون نقل عبيده وبهائمه إلى البيوت، والذي لم يفكر في كلمة الله وتهاون بها ترك دوابه وعبيده في الحقل، وقال الرب لموسى: ارفع يدك إلى السماء يهبط البرد على جميع أرض مصر على الناس والبهائم وجميع الحقول - وفي نسخة السبعين: على الناس والدواب وجميع نبات الصحراء - فرفع موسى عصاه نحو السماء فأرجفهم الرب بالبرد والنار وجعلت النار تضطرم على الأرض، فأهبط الرب البرد وكان البرد يهبط والنار تضطرم في البرد، وكان شديداً عظيماً، ولم يكن مثله في جميع أرض مصر منذ اليوم الذي سكنها بنو البشر، فضرب البرد جميع أرض مصر لكل من كان في الحقل من الناس والبهائم، وأهلك الرب جميع عشب الحقل وحطم جميع أشجار الغياض، فأما أرض جاسان التي كانت آل إسرائيل يسكنونها فلم يهبط عليها البرد، فأرسل فرعون فدعا موسى وهارون فقال لهما: قد خطئت في هذه المرة أيضاً، والرب بار وأنا وشعبي منافقون - وفي نسخة السبعين: إني قد أخطأت والرب بار وأنا وشعبي فجار - فصليا بين يدي الرب فإنه ذو

إمهال وأناة فيصرف عنا الرجفة والرعد والبرد فأرسلكم فلا تعودوا أن تتأخروا - وفي نسخة السبعين: وأنا أرسلكم ولا أعود أن أؤخركم - فقال موسى لفرعون: إذا ما خرجت من القرية أبسط يدي للرب فيصرف عنكم صوت الرعد والرجفة، ولا يعود البرد يهبط أيضاً لكي تعلم أن الأرض وما عليها لله. وأنا أعلم أنك وعبيدك إلى الآن لم ترهبوا الله ولم تخافوا عقابه، وقد هلك الكتان والشعير - وفي نسخة السبعين: وضرب البرد الشعير والكتان - لأن الشعير كان قد بدأ أن يسبل، والكتان قد بدأ أن يبزر، فأما زرع الحنطة والكتيب فلم يهلك لأنه كان متأخراً، فلما جاء موسى من القرية من بين يدي فرعون بسط - وفي نسخة السبعين: فأما زرع الحنطة والذرة فإنه لم يضرهما لأنهما كانا لقسا، وخرج موسى من عند فرعون خارج المدينة فبسط - يديه بين يدي الله نحو السماء فصرف عنهم الرعد والبرد، وانقطع المطر عن الأرض، فرأى فرعون أن القطر والبرد والرعد قد انقطع وسكن فعاد وخطأ وقسا قلب فرعون وعبيده - وفي نسخة السبعين: وقسا قلبه وقلب عبيده وجفا - ولم يرسل بني إسرائيل كرسالة الرب - وفي نسخة السبعين: على ما تكلم به الرب على يد موسى - فقال الرب لموسى: انطلق إلى فرعون لأني أنا الذي أقسي قلبه وقلوب عبيده، فأظهر هذه الآيات لتجر بنيك وبني بنيك بما صنعت بأهل مصر من الآيات الكثيرة التي أظهرت، فيعلموا أنني أنا الرب، فأتى موسى وهارون إلى فرعون وقالوا له: هكذا يقول الرب إله العبرانيين: حتى متى تأبى أن تخافني وترهبنني! أرسل شعبي ليعبدوني، فإن آبيت أن ترسل شعبي فهأنذا محدر على جميع تخومك الجراد - وفي نسخة السبعين: فإني أجلب عليك غداً هذا الوقت جراداً عظيماً على جميع حدودك - فيغطي عين الأرض فلا يقدر إنسان على النظر إلى الأرض، فمهما أبقى لكم البرد أكله، ويأكل جميع الشجر التي تثبت لكم في الحقل، ويمتلئ منه بيوتك وبيوت عبيدك وبيوت جميع المصريين ما لم ير مثله أباًؤك وأجدادك من اليوم الذي أسست الأرض إلى يوم الناس هذا، ورجعا من بين يدي فرعون فقال لعبيده: حتى متى يكون لنا هذه العثرة! يرسل القوم فيعبدون - وفي نسخة السبعين: فقال عبيد فرعون لفرعون: حتى متى يكون لنا هذا البلاء! أرسل القوم فيعبدوا - الرب إلههم أما تعلم - وفي نسخة السبعين: أو ما علمت - أن مصر قد خربت، فردوا موسى وهارون إلى فرعون فقال لهم: انطلقوا فاعبدوا بين يدي الرب إلهكم، ولكن من منكم ينطلق؟ فقال له موسى: إنا ننتقل بشباننا وشيوخنا وبنينا وبناتنا وبغنمنا وبقرنا، لأنه عيد لنا للرب، فقال لهما: ليكن كما قلتما، والله يصحبكما إذا ما أرسلتكم وحشمكم، لعله أن يعرض لكم في الطريق آفة، ولكن ليس هكذا، انطلقوا الآن معاشر الرجال! اعبدوا بين يدي

الرب لأنكم إنما تطلبون بذلك الراحة، فأخرجوهما من بين يدي فرعون، فقال الرب لموسى: ارفع يدك على أرض مصر فيأتي الجراد فيصعد على أرض مصر فيأكل عشب الحقل وجميع ما نجا من البرد، فرفع موسى عصاه على أرض مصر، فأهب الرب على الأرض ريح السموم جميع ذلك اليوم - وفي نسخة السبعين: والرب جلب ريحاً قبلية على الأرض نهار ذلك اليوم - وتلك الليلة، فلما كان بالغداة احتملت ريح السموم الجراد، فصعد الجراد - وفي نسخة السبعين: أخذت الرياح القبالية الجراد وأصعدته - على جميع أرض مصر، فسقط على جميع تخوم أرض المصريين، وكان منيعاً عظيماً جداً، ولم يكن مثل ذلك الجراد فيما خلا ولا يكون مثله فيما بعده، فغطى جميع عين الأرض فأظلمت الأرض، وأكل جميع عشب الحقل وجميع الشجر التي نجت من البرد، ولم يبق في الشجر غصن ولا ورق ولا في الحقل عشب في جميع أرض مصر، فاستعجل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما: قد خطئت بين يدي الله إلهكما، والآن اعفوا عن ذنبي وجهلي هذه المرة، وصليا بين يدي الرب إلهكم فيصرف عني هذه الآفة والموت، فخرج موسى من بين يدي فرعون وصلى بين يدي الرب، فعاد الرب بريح السموم عاصفاً فاحتملت الجراد فقذفت به في بحرسوف - وفي نسخة السبعين: فغير الرب تلك الرياح بريح من البحر شديدة فأخذت الجراد وألقته في البحر الأحمر - ولم يبق في جميع تخوم المصريين شيء من الجراد، فقسى الرب قلب فرعون فلم يرسل بني إسرائيل، فقال الرب لموسى: ارفع يدك إلى السماء فليكن الدجى والحنادس على جميع أرض مصر فتذلمهم الظلمة، فرفع موسى يده إلى السماء فكانت الظلمة والدجى - وفي نسخة السبعين: فصارت ظلمة وزوبعة - على جميع أرض مصر، ولم ير المرء منهم صاحبه ثلاثة أيام، فأما جميع بني إسرائيل فكان لهم الضياء والنور في مساكنهم، فدعا فرعون موسى فقال له: انطلقوا فاعبدوا بين يدي الرب إلهكم، فأما بقركم وغنمكم فدعوها هاهنا، وأما حاشيتكم فانطلقوا بها معكم، فقال موسى لفرعون: وأنت أيضاً تعطينا من الذبائح فنذبح لله ربنا، وبهائمتنا أيضاً تنطلق بها معنا، ولا يبقى منها هاهنا ظلف على الأرض لأننا نأخذ من مالنا لنذبح بين يدي الرب إلهنا، ولسنا نعلم بماذا نعبد الله إذا بلغنا هناك، فقسى الرب قلب فرعون وأبى أن يرسلهم، فقال فرعون لموسى: اخرج من بين يدي واحذر أن تتراءى لي أيضاً لأن اليوم الذي تتراءى لي بين يدي تموت فيه، قال له موسى: ما أحسن قولك! لست بعائد أن أرى وجهك، قال الرب لموسى: إني أعود أيضاً فانزل بفرعون والمصريين ضربة واحدة، وعند ذلك أرسلكم من هاهنا، فإذا أرسلتكم فاخرجوا كلكم، وأمر الشعب وقال لهم: ليستعمر المرء

منكم من صاحبه والمرأة من جارتها حلي ذهب وفضة - وفي نسخة السبعين: آنية الفضة وآنية الذهب - والكسوة، وجعل الرب للشعب في قلوب المصريين محبة ورحمة، وموسى كانت له هيبه وكرامة عظيمة في جميع أرض مصر - وفي نسخة السبعين: عند المصريين وعند فرعون وعند جميع عبيده - فقال موسى: هكذا يقول الرب: إني خارج نصف الليل فأجوز في أرض مصر فأتوفى جميع أبقار مصر من بكر فرعون الجالس على منبره إلى بكر الأمة التي في بيت الرجل، وتموت جميع أبقار البهائم فتسمع الولولة العظيمة والصراخ والأنين الفظيع ما لم يسمع مثله أيضاً - وفي نسخة السبعين: ولا يعود أيضاً أن يكون مثلها - فأما آل إسرائيل فلا يصاب منهم ولا الناس ولا البهائم ولا الكلب بلسانه - وفي نسخة السبعين: ولا يعوي من جميع بني إسرائيل كلب بلسانه - ليعلموا أن الرب ميز بين المصريين وآل إسرائيل، فيهبط جميع عبيدك هؤلاء فيسجدون لي ويقولون: اخرج أنت وجميع الشعب معك، وعند ذلك أخرج، فخرج موسى من بين يدي فرعون بغضب شديد، فقال الرب لموسى: إن فرعون لا يطيعكما، ذلك أني مكثر آياتي وعجائبي بأرض مصر، وإن موسى وهارون جرحا هذه الجرائح وأظهرا هذه الآيات كلها بين يدي فرعون، فقسى الرب - وفي نسخة السبعين: وأقسى الرب - قلب فرعون فلم يرسل بني إسرائيل عن أرضه، وقال الرب لموسى وهارون بأرض مصر: هذا الشهر - أي نيسان - يكون لكم رأس الشهور، ويكون هذا أول شهور السنة، قل لجميع جماعة بني إسرائيل في عشر من هذا الشهر فليأخذ الرجل منهم حملاً - وفي نسخة السبعين: خروفاً - لبيته وحملاً لآل أبيه، وإن كان آل البيت قليلاً لا يحتاجون إلى حمل فليشترك هو وجاره القريب إلى بيته على عدة الناس، وعدوا كل امرئ منهم على قدر أكله من الحمل، حملاً بلا عيب فيه ذكراً بيناً، يكون الحمل حويلاً من الخراف والجددي وتأخذونه، ويكون محفوظاً لكم حتى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر، ويذبحه كل جماعة من كنيسة بني إسرائيل أصيلاً، ويأخذون من دمه ويضعونه على القائمين والعتبة من البيت الذي تأكلون فيه، أي علامة - للملائكة الذين يؤمرون بقتل أبقار المصريين، وتأكلون اللحم في هذه الليلة مشويماً بفطير، ولا تأكلوا منه نيئاً ولا مطبوخاً بالماء، ولا تبقوا منه شيئاً لغد، ولا تكسروا منه عظماً، وما فضل منه إلى غد فأحرقوه بالنار، وكلوه وأنتم قيام وقد شدتكم أوساطكم ونعالكم في أرجلكم وعصيكم في أيديكم وكلوه بعجلة، فإنه فصح للرب، وأنا فإني أعبر في أرض مصر في هذه الليلة وأضرب كل بكر بأرض مصر من الناس والبهائم، وأعمل نقمة من جميع آلهة المصريين، أنا الرب! ويكون لكم هذا اليوم ذكراً وتعيدونه عيداً للرب لدهوركم إلى الأبد وتعيدونه

سبعة أيام، وتأكلون فطيراً وتعزلون الخمير من بيوتكم من أول يوم، وكل من يأكل خميراً فإن تلك النفس تبيد من إسرائيل من اليوم الأول إلى اليوم السابع، وكل عمل يعمل فلا تعملوه فيها، واحفظوا هذه الوصية، ففي هذا اليوم خرج عسكريكم من مصر، فاجعلوا هذا اليوم لدهوركم سنة، فإذا بدأ اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من العشيّ كلوا فطيراً إلى يوم إحدى وعشرين من الشهر إلى العشاء، ولا يوجد خمير في بيوتكم سبعة أيام، وكل من يأكل مخمراً فإن تلك النفس تبيد من جماعة بني إسرائيل من الملة والذمة ومن سكان الأرض، ما كان خميراً فلا تأكلوه وكلوا فطيراً في جميع مساكنكم، فدعا موسى جميع أشياخ بني إسرائيل وقال لهم: عجلوا فخذوا غنماً لقبائلكم وأذبحوا الفصح وخذوا حزمة من ريحان الأدبان واغمسوها بدم الحمل ورشوا على معاقم أبوابكم ومعاضدها - وفي نسخة السبعين: على العتبة وكلا القائمين - من الدم الذي في الإناء، ولا يخرج أحد منكم من باب بيته إلى غدوة - وفي نسخة السبعين: إلى الصباح - فتحفظون هذه السنة والوصية أنتم وبنوكم إلى الأبد، وإذا دخلتم الأرض التي يعطيكم الرب كما وعدكم فاحفظوا هذا العمل، وإذا سأل بنوكم فقالوا لكم: ما هذا الفعل؟ فقولوا لهم: هذه ذبيحة فصح الرب إذ أفصح على بيوت بني إسرائيل بمصر إذ قتل المصريين وخلص بيوتنا، فرجع الشعب كله ساجداً لله وانطلق بنو إسرائيل فصنعوا كما أمر الله موسى وهارون، وفي بيوت بني إسرائيل فلما كان عند نصف الليل قتل الرب أبكار أرض مصر - وفي نسخة السبعين: كل بكر بأرض مصر - من بكر فرعون الجالس على منبره - وفي نسخة السبعين: على كرسيه - وحتى بكر السبي المحبوس في السجن وجميع أبكار البهائم فوثب فرعون في تلك الليلة هو وجميع عبده وكل أرض مصر - وفي نسخة السبعين: وجميع المصريين - وكانت ولولة عظيمة في جميع أرض مصر لأنه لم يوجد بيت لم يكن فيه ميت، فدعا فرعون بموسى وهارون في تلك الليلة وقال لهما: انهضوا فاخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل أيضاً وانطلقوا فاعبدوا بين يدي الرب كقولكما، وسوقوا غنمكم وبقركم أيضاً كما قلتما، وانطلقوا وصلوا عليّ أيضاً وادعوا لي، فألح المصريون على الشعب ليخرجوهم عن الأرض مسرعين لأنهم قالوا: إنا جميعاً سنموت، فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر، والبارد من فطيرهم مشدوداً في عمائمهم ملقى على أعناقهم، وصنع بنو إسرائيل كما أمرهم موسى، واستعاروا من المصريين حلي ذهب وفضة وكسوة - وفي نسخة السبعين: أنية الفضة والذهب والكسوة - وجعل الرب للشعب في أعين المصريين محبة ورحمة فأعاروهم، فحربوا المصريين، وظعن بنو إسرائيل من رعسيس - وعلى حاشية نسخة السبعين أنها عين شمس - يطلبون

ساخوت ستمائة ألف رجل سوى الحشم والعيال، وصعد معهم من الغرباء أيضاً من كل خلط ومن البقر والغنم والماشية كثيراً جداً، فاخترتوا العجين الذي أخرجوه معهم من مصر رغفاً - وفي نسخة السبعين: فراني - فطيراً لم يختبؤوه - وفي نسخة السبعين: لم يختمر - وذلك لأن المصريين أخرجوهم فلم يقدرُوا أن يلبثوا، ولم يتزودوا زاداً للطريق أيضاً، وكان مسكن بني إسرائيل في أرض مصر أربعمائة وثلاثين سنة، في هذا اليوم خرج جميع جنود الرب من أرض مصر - وفي نسخة السبعين: ليلاً - كان الرب وقت في سابق علمه حفظ تلك الليلة التي خرجوا فيها من مصر، وكانت هذه الليلة محفوظة معروفة لدى الرب لهلاك أبنكار مصر وإخراج جميع بني إسرائيل ليكون ذكر ذلك في جميع أحقابهم وخلوفهم، وقال الرب لموسى وهارون: هذه سنة الفصح، لا يأكل منه غريب، وكل عبد لرجل اشتراه إذا ختنه عند ذلك فأطعمه الفصح، والأجير والساكن فلا يأكل منه، في بيت واحد فليؤكل - وفي نسخة السبعين: وكل عبد لرجل اشتراه فليختن ثم يأكل منه، الملقى والأجير لا يأكلان منه، وليؤكل في بيت واحد - ولا تخرجوا من اللحم خارجاً من البيت شيئاً ولا تكسروا فيه عظماً، وإذا سكن معكم غريب فختن كل ذكر في بيته عند ذلك فليقترب - وفي نسخة السبعين، وليختن منهم كل ذكر ثم يدنون - من بعد ذلك إلى أكل الفصح، وليكن عند ذلك بمنزلة أهل الأرض، ولا يأكل منه أغرل، ولتكن سنة واحدة لأهل الأرض والغرباء الذين يسكنون معكم، وصنع جميع بني إسرائيل كما أمر موسى وهارون، وفي هذا اليوم أخرج الرب بني إسرائيل من أرض مصر وجميع جنودهم، وقال الرب لموسى: طهر لي كل ذكر ويفتح كل رحم من بني إسرائيل من الناس والبهائم يكونون لي، فقال موسى للشعب: اذكروا هذا اليوم الذي خرجتم فيه من مصر من العبودية والرق، لأن الرب أخرجكم من هاهنا بيد منيعة - إلى آخر ما مضى في سورة البقرة؛ ثم ذكر في الخامس علة الفصح فقال: احفظوا شهر البهار فاعملوا فصحاً لله ربكم لأنه إنما أخرجكم من أرض مصر في شهر البهار ليلاً، فاذبحوا فصحاً لله ربكم من البقر والغنم في الموضع الذي يختار الله ربكم، فلا تأكلوا فيه خميراً بل كلوا فطيراً سبعة أيام خبزاً يدل على التواضع لأنه إنما خرجتم من أرض مصر بعجلة لتذكروا اليوم الذي أخرجتم فيه من مصر كل أيام حياتكم، ولا يرى الخمير في حدودكم سبعة أيام، ولا يحل لكم أن تأكلوا الفصح في قرية من القرى التي يعطيكم الله ربكم، ولكن في الموضع الذي يختار الله ربكم أن يصير فيه اسمه ففيه اذبحوا الفصح، ويذبح عند غروب الشمس في الوقت الذي خرجتم من أرض مصر، ثم قال: وأحصوا سبعة سوابيع من بعد عيد الفصح، ثم اعملوا عيد السوابيع واثتوا بخواص

غلاتكم للرب، كما بارك لكم الله ربكم في الموضع الذي يختار الرب أن تصيروا اسمه فيه واذكروا أنكم كنتم عبيداً بأرض مصر، فاحفظوا هذه السنن كلها واعملوا بها، واعملوا عيد المظال سبعة أيام إذا ما دخلتم بيادركم وخزنتم معاصرکم ليبارك الله ربكم في جميع غلاتكم وفي كل عمل أيديكم، وتكونوا فرحين، ويروى ذكركم أمام الله ربكم في الموضع الذي يختار ثلاث مرات في السنة: عيد الفطير وعيد السوايع وعيد المظال - انتهى. وفيه مما لا يجوز إطلاقه في شرعنا إضافة - الابن في قوله: ابني بكري، وهو مؤول بأنه يكرمه إكرام الولد، وإطلاق الإله على غير الله سبحانه مراد به الحاكم، ولا يجوز هذا الإطلاق عندنا.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْبَحْرِ فَاَتَوُوا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَىٰ آصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذْ أَجْنَيْنَكُمْ مِّنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٠﴾﴾

ولما انقضى ما أراهم سبحانه من الأفعال الهائلة التي استخلصهم بها من ذلك الجبار، شرع يذكر ما قابلوه به من الجهل به سبحانه وما قابلهم به من الحلم، ثم ما أحل بهم بعد طول المهلة من ضرب الذلة والمسوخ بصورة القردة، فقال عاطفاً على قوله «فاغرقنهم في اليم» أو قوله «ثم بعثنا من بعدهم موسى»: ﴿وجوزنا﴾ أي قطعنا بما لنا من العظمة - وساقه على طريق المفاعلة تعظيماً له، روي أن جوازهم كان يوم عاشوراء، وأن موسى عليه السلام صامه شكراً لله تعالى على إنجائهم وإهلاك عدوهم ﴿ببني إسرائيل﴾ بعد الآيات التي شاهدها ﴿البحر﴾ وإنما جعلته معطوفاً على أول القصة لأن هذه القصص كلها بيان لأن في الناس السيء الجوهر الذي لا يغنيه الآيات كما مضى عند قوله: ﴿والبلد الطيب﴾ [الأعراف: ٥٨] وبيان لقوله ﴿أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾ [الأعراف: ٩٤] إلى آخرها، ويدل على ذلك - مع ما ابتدئت به القصص - ختمها بقوله ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقوله: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ [الأعراف: ١٧٩] وحسن موقعها بعد قوله: ﴿وتمت كلمت ربك الحسنی﴾ [الأعراف: ١٣٧] لأنه لما قيل ﴿بما صبروا﴾ تشوفت النفس إلى فعلهم حال الرخاء هل شكروا؟ فبين أن كثيراً منهم كفروا تصديقاً لقوله ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ [الأعراف: ١٠٢] وما شاكله، وما أحسن تعقيب ذلك - بقوله: ﴿فاتوا﴾ أي مروا - بفاء

التعقيب ﴿على قوم﴾ أي ذوي قوة، قيل: كانوا من لحم ﴿يعكفون﴾ أي يدورون ويتحلقون ملازمين مواظبين ﴿على أصنام لهم﴾ أي لا قوة فيها ولا نفع، فهم في عكوفهم عليها مثل في الغباوة، وقيل: إنها كانت تماثيل بقر، وكان ذلك أول أمر العجل.

ولما أخبر سبحانه بذلك، علم السامع أنهم بين أمرين: إما شكر وإما كفر، فتشوف إلى ما كان منهم، فأجاب سبحانه سؤاله بقوله: ﴿قالوا﴾ أي لم يلبث ذكرهم لما أراهم سبحانه من عظمتهم وشكرهم لما أفاض عليهم من نعمته إلا ريثما أمنوا من عدوهم بمجاوزتهم البحر وإغراقهم فيه حتى طلبوا إلهاً غيره بقولهم: ﴿يموسى﴾ سموه كما ترى باسمه جفاء وغلظة اعتماداً على ما عمهم من بره وحلمه غير متأدين بما بهرهم من جلاله حظه من الله وقسمه ﴿اجعل لنا إلها﴾ أي شيئاً نراه ونطوف به تقيداً بالوهم ﴿كما لهم آلهة﴾ وهذا منهم قول من لا يعد الإله - الذي فعل معهم هذه الأفاعيل - شيئاً، ولا يستحضره بوجه.

ولما كان هذا منهم عظيماً، استأنف جواب من تشوف إلى قول موسى عليه السلام لهم ما هو بقوله: ﴿قال إنكم قوم﴾ أي ذوو قيام في شهوات النفوس، وقال: ﴿تجهلون﴾ مضارعاً إشعاراً بأن ذلك منهم كالتطبع والغريزة، لا يتقلون عنه في ماض ولا مستقبل، واعلم أنه لا تكرير في هذه القصص فإن كل سياق منها لأمر لم يسبق مثله فالمقصود من قصة موسى عليه السلام وفرعون - عليه اللعنة والملام - هذا الاستدلال الوجودي على قوله ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفسقين﴾ [الأعراف: ١٠٢] ومن هنا تعلم أن سياق قصة بني إسرائيل بعد الخلاص من عدوهم لبيان إسرعهم في الكفر ونقضهم للعهود، واستمر سبحانه في هذا الاستدلال إلى آخر السورة، وما أنسب ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، لقوله ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ [الأعراف: ١٠٢] وذكر في أول التي تليها تنازعهم في الأنفال تحذيراً لهم من أن يكونوا من الأكثر المذمومين في هذه، هذا بخلاف المقصود من سياق قصص بني إسرائيل في البقرة فإنه هناك للاستجلاب للإيمان بالتذكير بالنعم، لأن ذلك في سياق خطابه سبحانه لجميع الناس بقوله: ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ [البقرة: ٢١] ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ [البقرة: ٢٨] وما شاكله من الاستعطاف بتعداد النعم ودفع النقم - والله أعلم.

ولما استفيد من كلامه لهم غاية الإنكار عليهم، علل هذا الإنكار بقوله: ﴿إن هؤلاء﴾ أي القوم ﴿مبتر ما هم فيه﴾ أي مكسر مفتت مهلك على وجه المبالغة، وإذا

فسد الظرف فسد المظروف، وإليه الإشارة بجعل «هؤلاء» اسماً لإن، وإيلائه خبير الجملة الواقعة خبراً مقدماً على مبتدئه.

ولما كان الشيء قد يهلك في الدنيا أو في الآخرة - وهو حق، أعلمهم بأن هذا الهلاك إنما هو الهلاك عند الله أعم من كونه في الدنيا أو في الآخرة لبطلان ما هم فيه، فقال معبراً بالاسمية إشارة إلى أنه الآن كذلك، وإن رثي بخلافه: ﴿وَيُطَّل﴾ أي مضمحل زائل ﴿مَا كَانُوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أي مواظبين عليه من الأصنام والعكوف وجميع أعمالهم لأجله، لا وزن لشيء منها أصلاً ولا اعتبار، و - فيه إشارة إلى أن العبادة لا تنبغي إلا للباقي الذي لا يجوز عليه التغيير، فإذا كان كذلك كان العمل له أيضاً ثابتاً باقياً لا يجوز عليه البطلان، وفي تعقيبها لتدمير آل فرعون إشارة إلى موجب ذلك، وأن كل من كان على مثل حالهم من عبادة غير الله كانت عاقبته الدمار.

ولما كان هذا استدلالاً على أن مثل هذه الأصنام التي مروا عليها لا تصلح لأن تعبد، كان ذلك غير كاف لهم لما - تقرر من جهلهم، فربما ظنوا أن غيرها مما سوى الله تجوز عبادته، فكانه قيل: هذا لا يكفي جواباً لمثل هؤلاء فهل قال لهم غير ذلك؟ فقيل: نعم! ﴿قَالَ﴾ منكرأ معجباً ﴿أَغْيِرَ اللَّهُ﴾ أي الذي له جميع العظمة، فهو المستحق للعبادة ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ أي أطلب لكم ﴿إِلَهَاءَ﴾ فأنكر أن يتأله غيره، وحصر الأمر فيه ثم بينه بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ أي والحال أنه هو وحده ﴿فَضَلَّكُمْ﴾ دون غيركم ممن هو في زمانكم أو قبله ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي لو لم يكن لوجوب اختصاصهم له بالعبادة سبب سوى اختصاصه لهم بالتفصيل على سائر عباده الذين بلغهم علمهم ممن هو أقوى منهم حالاً وأكثر عدداً وأموالاً لكان كافياً.

ولما أثبت أن الإلهية لا تصلح لغيره، وأن غيره لم يكن يقدر على تفضيلهم، وكان المقام للعظمة، وكان كأنه قيل إيذاناً بغلظ أكبادهم وقلة فطنتهم وسوء مقابلتهم للمنعم: اذكروا ذلك، أي تفضيله لكم باصطفاء آبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وما تقدم له عندهم وعند أولادهم من النعم لا سيما يوسف عليه السلام الذي حكمه في جميع الأرض التي استذلكم أهلها؛ عطف عليه إشارة إليه قوله التفاتاً إلى مظهر العظمة تذكيراً بعظمة مدخوله: ﴿وَإِذْ﴾ أي واذكروا إذ ﴿أُنْجَيْنَاكُمْ﴾ أي على ما نحن عليه من العظمة التي أنتم لها عارفون، ولها في - كل وقت في تلك الآيات مشاهدون ﴿مَنْ آَلَ فِرْعَوْنَ﴾ وما أفضنا عليكم بعد الإنجاء من النعم الجسام وأريناكم من الآيات العظام تعرفوا أننا فضلناكم على جميع الأنام، ثم استأنف بيان ما أنجاهم منه بقوله: ﴿يَسْؤِمُونَكُمْ﴾ أي ينزلون بكم دائماً ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

ولما كان السياق - كما مضى - لبيان إسراعهم في الكفر وشدة علوتهم في قوتهم وجلافتهم، وكان مقصود السورة إنذار المعرضين وتحذيرهم من القوارع التي أحلها بالماضين، بين سوء العذاب عادلاً في بيانه عن التذبيح - لأنه لا يكون عند الانذباح، وهو في الأصل لمطلق الشق - إلى التعبير بالقتل لأنه أدل على الإماتة وأهز، لأنه قد يكون على هيئة شديدة بشعة كالتقطيع والنخس والخبط وغير ذلك مع أنه لا بد فيه من تفويت ذلك فقال: ﴿يقتلون﴾ أي تقتيلاً كثيراً - ﴿أبناءكم﴾ ودل على حقيقة القتل بقوله: ﴿ويستحيون﴾.

ولما كان المعنى أنهم لا يعرضون للإناث صغاراً ولا كباراً، وكان إنكار ما يكون إبقاء النساء بلا رجال لما يخشى من الضياع والعار، وكان مظنة العار أكبر - عبر عنهن بقوله: ﴿نساءكم﴾ وتبنيهاً على أن قتل الأبناء إنما هو للخوف من صيرورتهم رجالاً لئلا يسلبهم واحد منهم أعلمهم به كهانهم ملكهم؛ وأشار إلى شدة ذلك بقوله: ﴿وفي ذلكم﴾ أي الأمر الصعب المهول ﴿بلاء﴾ أي اختبار لكم ولهم ﴿من ريكم﴾ أي المحسن إليكم في حالي الشدة والرخاء، فإنه أخفى عنهم الذي قصدوا القتل لأجله، وأنقذكم به بعد أن رباه عند الذي هو مجتهد في ذبحه ﴿عظيم﴾.

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ نَثَلَيْنِ لَيْلَةٍ وَأَتَمَمْنَاهَا عِشْرَ فِتْمَ مِيقَتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٦﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَجَلَىٰ رَبُّهُ لَلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٧﴾ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخَذُّمَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٨﴾ .

ولما ذكرهم بنعمة إنجاء الأبدان، أتبعها التذكير بأكثر منها إذ كانت لحفظ الأديان وصيانة جوهرة الإيمان بما نصب لهم من الشرع في التوراة، فقال معجباً من حالهم إذ كان في الإنعام عليهم بنصب الشرع الهادي لهم من الضلال واختصاص نبيهم بمزيد القرب بالمناجاة، وهم في اتخاذ إله سواه، لا نفع فيه أصلاً، ولا يرضى قلب أو عقل أن يعبد، عاطفاً له على ما سبق تعجيبه به منهم في قوله: ﴿وجوزنا بني إسرائيل﴾: [الأعراف: ١٣٨] ﴿ووعدنا﴾ أي على ما لنا من باهر العظمة ﴿موسى ثلثين﴾ أي مناجاة ثلاثين ﴿ليلة﴾ أي عقبها ﴿وأتممناها﴾ أي المواعدة ﴿بعشر﴾ أي ليل، وذلك لأنه لما مضت ثلاثون ليلة، وهو شهر ذي القعدة فيما قيل، وكان موسى عليه السلام قد صامها

ليلها ونهارها، أدرك من فمه خلوقاً فاستاك، فأعلمه الله أنه قد أفسد ريح فمه، وأمره بصيام عشرة أيام أخرى و - هي عشر ذي الحجة ليرجع ما أزاله من ذلك، وذلك لأن موسى عليه السلام كان وعد بني إسرائيل - وهو بمصر - أنه إذا أهلك سبحانه عدوهم، أتاهم بكتاب من عنده فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما أهلك الله عدوهم سأل موسى عليه السلام الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً ثم أمره بالعشر.

ولما كان من الممكن أن يكون الثلاثون هي النهاية، وتكون مفصلة إلى عشرين ثم عشر، أزال هذا الاحتمال - بقوله: ﴿فتم ميقات ربه﴾ أي الذي قدره في الأزل لأن يناجيه بعده - بالفاء ﴿أربعين﴾ ولما كانت العشر غير صريحة في الليالي، قال: ﴿ليلة﴾ فانتفى أن تكون ساعات مثلاً، وعبر بالميقات لأنه ما قدر فيه عمل من الأعمال، وأما الوقت فزمان الشيء سواء كان مقدراً أم لا، وعبر بالرب إشارة إلى اللطف به والعطف عليه والرحمة له، والميقات هو الأربعون - قاله الفارسي في الحجة، وقدر انتصاب أربعين بـ «معدوداً هذا العدد» كما تقول: تم القوم عشرين، أي معدودين هذا العدد وأجمل سبحانه الأربعين في البقرة لأن المراد بذلك السياق تذكيرهم بالنعمة الجسام والتمت إليهم بالإحسان والإكرام، ليكون ذلك أدعى إلى رجوعهم إلى الإيمان وأمكن في نزوعهم عن الكفران بدليل ما سبق قصتهم من قوله: ﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم﴾ [البقرة: ٢١] ﴿كيف تكفرون بالله﴾ [البقرة: ٢٨] وما اكتنفها أولاً وأخراً من قوله: ﴿يبنى إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ [البقرة: ٤٠] الآيتين المبدوء بها والمختوم بها، وفصل هنا الأربعين إلى ثلاثين وعشر، لأن المراد بهذا السياق - كما تقدم - بيان كفرهم ومرودهم على خزيمهم ومكرهم وأنه لم ينفعهم سؤال المعجزات، ولا أغنى عنهم شيئاً تواتر النعم والآيات، كما كان ذلك في قصص الأمم الخالية والقرون الماضية ممن ذكر في هذه الصورة استدلالاً - كما تقدم - على أن المفسد أكثر من المصلح - إلى غير ذلك مما أجمل في قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها﴾ [الأعراف: ٩٤] إلى آخره، وتسلية لهذا النبي الكريم وترهيباً لقومه لما وقع لهم من العقاب الأليم، والفصل بين السياقين يدق إلا عن أولي البصائر - والله أعلم، فيكون المراد بتفصيل الأربعين هنا بيان أن إبطاء موسى عليه السلام عما علموه من الميعاد إنما كان لعشرة أيام، فارتكبوا فيها هذه الجريمة التي هي أعظم الجرائم، وأشار تعالى إلى عظيم جراتهم وعراقتهم في السفه بقوله عاطفاً على ﴿وعدنا﴾: ﴿وقال موسى﴾ أي لما واعدناه ﴿لأخيه﴾ ثم بينه تصريحاً باسمه فقال: ﴿هنون أخلفني﴾ أي كن خليفتي فيهم تفعل ما كنت أفعل، وأكد الارتسام بما يجده له بقوله: ﴿في قومي﴾

وأشار إلى حثه على الاجتهاد بقوله: ﴿وأصلح﴾ أي كن على ما أنت عليه من إيقاع الإصلاح.

ولما كان عالماً بأنه ﷺ مبرأ من السوء غير أن عنده ليناً، قال: ﴿ولا تتبع﴾ أي تكلف نفسك غير ما طبعت عليه بأن تتبع ﴿سبيل المفسدين﴾ أي استصلاحاً لهم وخوفاً من تنفيرهم، فاختلفوا عن الطريق كما تفرس فيهم موسى عليه السلام ولم يذكروا عاقبة فلا هم خافوا بطش من بطش بمن كان يسومهم سوء العذاب، ولا هم سمعوا لأخيه في الصلاح، ولا هم انتظروه عشرة أيام، فلا أخف منهم أحلاماً ولا أشد على المعاصي إقداماً.

ولما ذكر سبحانه مواعده واحتياطه في إصلاح قومه، شرح أمره حال المواعدة وحالهم بعد غيبته عنهم فقال: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ أي عند أول الوقت الذي قدرناه للمناجاة؛ ولما كان مقام الجلال مهولاً لا يستطيع وعي الكلام معه، التفت إلى مقام الإكرام فقال: ﴿وكلمه﴾ أي من غير واسطة ﴿ربه﴾ أي المحسن إليه بأنواع الإحسان المتفضل على قومه بأنواع الامتنان، والذي سمعه موسى عليه السلام عند أهل السنة من الأشاعرة هو الصفة الأزلية من غير صوت ولا حرف، ولا بعد في ذلك كما لا بعد في رؤية ذاته سبحانه وهي ليست بجسم ولا عرض لا جوهر، وليس كمثله شيء، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سبحانه كلمه في جميع الميقات وكتب له الألواح، وقيل: إنما كلمه في أول الأربعين، والأول أولى.

ولما كلمه بصفة الربوبية الناظرة إلى العطف واللطف، وكانت الرؤية جائزة، اشتاق إلى الرؤية شوقاً لم يتمالك معه لما استحلاه من لذاعة الخطاب فسألها لعلمه أنها جائزة ﴿قال﴾ مسقطاً الأداة كعادة أهل القرب - ﴿وب أرني﴾ أي ذاتك الأقدس بأن ترفع عني الحجاب فتجعلني متمكناً من النظر، وهو معنى قول الحبر ابن عباس: أعطني وحقق أنها رؤية العين بقوله في جواب الأمر - ﴿أنظر﴾ أي أصوب تحديق العين وأشار إلى عظمته سبحانه وعلو شأنه علو العظمة لا المسافة - بالتعدية بحرف النهاية بعد أن أشار بحذف أداة النداء إلى غاية القرب بالإحسان - فقال: ﴿إليك﴾ أي فأراك.

ولما كان سبحانه قد قضى أنه عليه السلام لا يراه في الدنيا ﴿قال﴾ نافياً المقصود، وهو الرؤية لا مقدمتها، وهو النظر الذي هو التحديق بالعين ﴿لن ترني﴾ ودل سبحانه بهذه العبارة على جواز رؤيته حيث لم يقل: لن أرى، أو لن يراني أحد؛ ثم زاد ذلك بياناً بتعليقه بممكن فقال: ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ إشارة إلى جبل بعهد، وهو أعظم جبل هناك، وزاد في الإشارة إلى إمكان الرؤية بالتعبير بأداة الشك وإتباعها بأمر

ممکن فقال :- ﴿فإن استقر مكانه﴾ أي وجد قراره وجوداً تاماً، وأشار إلى بعد الرؤية أيضاً وجلالة المطلوب منها بقوله: ﴿فسوف تزني﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿فلما تجلى ربه﴾ أي المحسن إليه بكل عطاء ومنع وبين بتعبيره باللام أنه تجلى قربه وخصوصيته، ولو عبر بعلى مثلاً لكان أمر آخر فقال :- ﴿للجبل﴾ أي بأن كشف للجبل عما شاء من حجب عظمته ﴿جعله دكاً﴾ أي مذكوكاً، والدك والدق أخوان ﴿وخر﴾ أي وقع ﴿موسى صعقاً﴾ أي مغشياً عليه مع صوت هائل، فعلم أن معنى الاستدراك أنك لن تثبت لرؤيتي في هذه الدار ولا تعرف ذلك الآن، ولكنك تعرفه بمثال أريكه وهو الجبل، فإن الفاني - كما نقل عن الإمام مالك - لا ينبغي له أن يرى الباقي - ﴿فلما أفاق﴾ أي من غشيته ﴿قال سبحنك﴾ أي تنزيهاً لك عن أن أطلب منك ما لم تأذن فيه ﴿تبت إليك﴾ أي من ذلك ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أي مبادر غاية المبادرة إلى الإيمان بكل ما أخبرت به كل ما تضمنته هذه الآيات، فتعبيره بالإيمان في غاية المناسبة لعدم الرؤية لأن شرط الإيمان أن يكون بالغيب، فقد ورد في نبينا ﷺ آيتان: إحداهما يمكن أن تشير إلى الرؤية بالتعبير بالمسلمين دون المؤمنين في قوله ﴿وأنا أول المسلمين﴾ [المائدة: ١٦٣] والثانية تومي إلى عدمها وهي ﴿آمن الرسول﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى قوله: ﴿كل آمن بالله﴾ [البقرة: ٢٨٥] - والله أعلم -، وكل هذا تبكيت على قومه وتبكيت لهم في عبادتهم العجل وردع لهم عن ذلك، وتنبيه لهم على أن الإلهية مقرونة بالعظمة والكبر بعيدة جداً عن ذوي الأجسام لما يعلم سبحانه من أنهم سيكررون عبادة الأصنام، فأثبت للإله الحق الكلام والتردي عن الرؤية بحجاب الكبر والعظمة واندكاك الجبل عند تجليه ونصب الشرع الهادي إلى أقوم سبيل تعريضاً بالعجل، وإلى ذلك يرشد قوله تعالى: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم﴾ الآية.

ولما منعه الرؤية بعد طلبه إياها، وقابل ذلك بمحاسن الأفعال والأقوال، تشوف السامع إلى ما قوبل به من الإكرام، فاستأنف سبحانه الإخبار بما منحه به تسلية له عما منعه وأمرأ بشكره بقوله: ﴿قال يموسى﴾ مذكراً له نعمه في سياق دال على عظيم قدرها وإيجاب شكرها مسقطاً عنه مظهر العظمة تأنيساً له ورفقاً به - ﴿إني اصطفتك﴾ أي اخترتك اختياراً بالغاً كما يختار ما يصفى من الشيء عن كل دنس ﴿على الناس﴾ أي الذين في زمانك ﴿رسلتي﴾ أي الآيات المستكثرة التي أظهرتها وأظهرها على يديك من أسفار التوراة وغيرها ﴿وبكلامي﴾ أي من غير واسطة وكأنه أعاد حرف الجر للتنبيه على ذلك، كما اصطفى محمداً ﷺ على الناس عامة في كل زمان برسالته العامة وبكلامه المعجز وبتكليمه من غير واسطة في السماء التي قدست دائماً ونزهت عن التدنيس بمعصية.

ولما كان ذلك مقتضياً لغاية الإقبال والنشاط، سبب عنه قوله: ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي مخصصاً لك به ﴿وكن من الشكرين﴾ أي العريقين في صفة الشكر المجبولين عليها.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَهُ بِأَخْذِهَا بِحَسَنٍ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلاً جَسَداً لَهُمْ خُورٌ الرَّيْرِوَأُ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ .

ولما انقضى ما أنسه سبحانه به لفت الكلام - في الإخبار لنا عن عظيم ما آتاه - لي مظهر العظمة، فقال مفصلاً لتلك الرسالة ومبيناً بعض ما كان من الكلام ﴿وكتبتنا﴾ أي بعظمتنا ﴿له في الألواح﴾ عرفها لعظمتها تنبيهاً على أنها لجلالة ما اختصت به كأنها المختصة بهذا الاسم، وأعظم من هذا جعل قلب النبي الأمي لوحاً قابلاً لما يلقي إليه جامعاً لعلوم الأولين والآخرين ﴿من كل شيء﴾ أي يحتاجه بنو إسرائيل، وذلك هو العشر الآيات التي نسبتها إلى التوراة نسبة الفاتحة إلى القرآن، ففيها أصول الدين وأصول الأحكام والتذكير بالنعم والأمر بالزهد والورع ولزوم محاسن الأعمال والبعد عن مساوئها، ولذا قال مبدلاً: ﴿موعظة وتفصيلاً﴾ أي على وجازتها بما كانت سبباً لكل شيء ﴿أي لأنها - مع كونها أمهات وجوامع - مفصلة ترجع إليها بحور العلم وتنشق منها ينابيعها .

ولما كان هذا هكذا، تسبب عنه حتماً قوله تعالى التفاتاً إلى خطاب موسى عليه السلام بخطاب التأنيس إشارة إلى أن التزام التكليف صعب: ﴿فخذها﴾ أي الألواح ﴿بقوة﴾ أي بجهد وعزيمة في العلم والعمل ﴿وأمر قومك﴾ أي الأقوياء على محاولة ما يراد ﴿ياخذوا بأحسنها﴾ كأنه سبحانه أطلق لموسى عليه السلام الأخذ بكل ما فيها لما عنده من الملكة الحاجزة له عن شيء من المجاوزة، ولذلك قال له ﴿بقوة﴾ وقيدهم بالأحسن ليكون الحسن جداً مانعاً لهم من الوصول إلى القبيح، وذلك كالاقتصاص والعفو والانتصار والصبر.

ولما كان كأنه قيل: وهل يترك الأحسن أحداً فقيلاً: نعم، الفاسق يتركه، بل

ويتجاوز الحسن إلى القبيح، بل وإلى أقبح القبيح، ومن تركه أهلكته وإن جل آله وعظمت جنوده وأمواله، قال كالتعليل لذلك: ﴿سأوریکم دار الفسقين﴾ أي الذين يخرجون عن أوامري إلى ما أنهاهم عنه فأنصرکم عليهم وأمكنکم بفسقهم من رقابهم وأموالهم من الكنعانيين والحاثانيين وغيرهم من سكان الأراضي المقدسة لتعلموا أن من أغضبني وترك أمري أمكنت منه، وإنما ذكر الدار لثلاث تغرهم منعها إذا استقروا بها فيظنوا أن لا غالب لهم فيها بوعورة أرضها وشهوق جبالها وإحكام أسوارها، وإذا تأملت ما سيأتي في شرح هذه الآيات من التوراة لاح لك هذا المعنى، وكذا ما ذكر من التوراة عند قوله في المائدة ﴿قل هل أنبئکم بشر من ذلكم مثوبة عند الله﴾ [المائدة: ٦٠] وفي هذه الجملة المختصرة بشارة بإتمام الوعد بنصرتهم عليهم بطاعتهم ونذارة على تقدير معصيتهم، فكأنه قيل: إن أخذوا بالأحسن أريتهم دار الفاسقين، وأتممت عليهم النعمة ما داموا على الشكر، وإن لم يأخذوا أهلكتهم كما أهلک الفاسقين من بين أيديهم، فحذرهم لثلاث يفعلوا أفعالهم إذا استقرت بهم الدار، وزالت عنهم الأكدار، ويؤيد كون المراد القدس لا مصر قراءة من قرأ: سأورثکم - من الإرث، لأنها هي المقصودة بإخراجهم من مصر وبعث موسى عليه السلام، ولا ينفي ذلك احتمال مصر أيضاً - والله أعلم.

ولما انقضى ذلك، كان كأنه قيل: وكيف يختار عاقل ذلك؟ فكيف بمن رأى الآيات و شاهد المعجزات؟ فقال: ﴿سأصرف عن آيتي﴾ أي المسموعة والمرئية على عظمتها بما أشارت إليه الإضافة بالصرف عن فهمها واتباعها والقدرة على الطعن فيها بما يؤثر في إبطالها ﴿الذين يتكبرون﴾ أي يطلبون الكبر بما ليس لهم ويعملون قواهم فيه ﴿في الأرض﴾ أي جنسها الذي أمرت بالتواضع فيه.

ولما كان من رفعه الله بصفة فاضلة فوضع نفسه موضعها ولم يهنها نظراً لما أنعم الله به عليه ومنحه إياه ربما سمي ذلك كبيراً، وربما سمي طلبه لتلك الأخلاق التي توجب رفعته تكبيراً، وليس كذلك وإن وافقه في الصورة، لمفارقته له في المعنى فإنه صيانة النفس عن الذل، وهو إنزال النفس دون منزلتها صنعة لا تواضعاً، والكبر رد الحق واحتقار الناس، ففي التقييد هنا إشارة خفية لإثبات العزة بالحق والوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الصنعة وقوفاً على شرط العزم المنصوب على متن نار الكبر؛ قال الإمام السهروردي: ولا يؤيد في ذلك ويثبت عليه إلا أقدام العلماء الراسخين - قال تعالى احترازاً عنه ومدخلاً كل كبر خلا عن الحق الكامل: ﴿بغير الحق﴾ أي إنما يختار غير الأحسن من يختاره بقضائي الذي لا يرد وأمري العالي على

أمر كل ذي جد فأزين لمن علمت خباثة عنصره ورداءة جوهره ما أريد حتى يرتكبوا كل قبيحة ويتركوا كل مليحة، فينصرفون عن الآيات ويعمون عن الدلالات الواضحات.

ولما أخبر بتكبرهم في الحال، عطف عليه فعلهم في المآل فقال: ﴿وإن يروا كل آية﴾ أي مرئية أو مسموعة ﴿لا يؤمنوا بها﴾ أي لتكبرهم عن الحق ﴿وإن يروا سبيلاً﴾ أي طريق ﴿الرشد﴾ أي الصلاح والصواب الذي هو أهل للسلوك ﴿لا يتخذوه سبيلاً﴾ أي فلا يسلكونه بقصد منهم ونظر وتعمد، بل إن سلكوه فعن غير قصد ﴿وإن يروا سبيلاً الغي﴾ أي الضلال ﴿يتخذوه سبيلاً﴾ أي بغاية الشهوة والتعمد والاعتماد لسلوكه.

ولما كان هذا محل عجب، أجاب من يسأل عنه بقوله: ﴿ذلك﴾ أي الصرف العظيم الذي زاد عن مطلق الصرف بالعمى عن الإيمان واتخاذ الرشاد ﴿بأنهم﴾ أي بسبب أنهم ﴿كذبوا بآياتنا﴾ أي على ما لها من العظمة ﴿وكانوا عنها﴾ أي خاصة جبلة وطبعاً ﴿غفليين﴾ أي كان دأبهم وديندهم معاملتهم لها بالإعراض عنها حتى كأنها مغفول عنها فهم لذلك يصرون على ما يقع منهم.

ولما ذكر أحوال المتكبرين الذي أدهم كبرهم إلى التكذيب في الدنيا، ذكر أحوالهم في الآخرة فقال: ﴿والذين﴾ أي كذبوا بها والحال أن الذين ﴿كذبوا بآياتنا﴾ أي فلم يعتبروا عظمتها ﴿ولقاء الآخرة﴾ أي ولقائهم إياها أو ولقائهم ما وعدوا به فيها، اللازم من التكذيب بالآيات الحامل التصديق بها على معالي الأخلاق ﴿حبطت﴾ أي فسدت فسقطت ﴿أعمالهم﴾ والآية من الاحتباك: إثبات الغفلة أولاً يدل على إرادتها ثانياً، واللقاء ثانياً يدل على إرادته أولاً.

ولما كان كأنه قيل: لم بطلت؟ قيل: ﴿هل يجزون إلا ما﴾ أي جزاء ما ﴿كانوا يعملون﴾ أي بإبطال أعمالهم وإن عملوا كل حسن سوى الإيمان بسبب أنهم أبطلوا الآيات والآخرة بتكذيبهم بها، أي عدوها باطلة، والجزاء من جنس العمل، والحاصل أنهم لما عموا عن الآيات لأنهم لم ينظروا فيها ولا انقادوا مع ما دلت عقولهم عليه من أمرها، بل سدوا باب الفكر فيها؛ زادهم الله عمى فحتم على مداركهم، فصارت لا ينتفع بها فصاروا لا يعون، وهذه الآيات أعظم زاجر عن التكبر، فإنها بينت أنه يوجب الكفر والإصرار عليه والوهن في جميع الأمور، ولما كان ذلك كله مما يتعجب الموفق من ارتكابه، أعقبه تعالى مبيناً ومصوراً ومحققاً لوقوعه ومقررراً قوله عطفاً على ﴿فأتوا على قوم يعكفون﴾ [الأعراف: ١٣٨] مبيناً لإسراعهم في الكفر: ﴿واتخذ﴾ أي بغاية الرغبة ﴿قوم موسى﴾ أي باتخاذ السامري ورضاهم، ولم يعتبروا شيئاً مما أتاهاهم به من تلك الآيات التي لم ير مثلها ﴿من بعده﴾ أي من بعد إبطائه عنهم بالعشرة الأيام التي

أتمننا بها الأربعين ﴿من حلبيهم﴾ أي التي كانت معهم من مالهم ومما استعاروه من القبط ﴿عجلاً﴾ ولما كان العجل اسماً لولد البقر، بين أنه إنما يشبه صورته فقط، فقال مبدلاً منه: ﴿جسداً﴾.

ولما كان الإخبار بأنه جسد مفهماً لأنه خال مما يشبه الناشئ عن الروح، قال: ﴿له خوار﴾ أي صوت كصوت البقر، والمعنى أنه لا أضل ولا أعمى من قوم كان معهم حلي أخذوه ممن كانوا يستعبدونهم ويؤذونهم وهم مع ذلك أكفر الكفرة فكان جديراً بالبغض لكونه من آثار الظالمين الأعداء فاعتقدوا أنه بالصوغ صار إلهاً وبالغوا في حبه والعبودية له وهو جسد يرونه ويلمسونه، ونبههم الذي هداهم الله به واصطفاه لكلامه يسأل رؤية الله فلا يصل إليها.

ولما لم يكن في الكلام نص باتخاذها إلهاً، دل على ذلك بالإنكار عليهم في قوله: ﴿الم يروا﴾ أي الذين اتخذوه إلهاً ﴿أنه لا يكلمهم﴾ أي كما كلم الله موسى عليه السلام ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ كما هداهم الله تعالى إلى سبيل النجاة، منها سلوكهم في البحر الذي كان سبباً لإهلاك عدوهم كما كان سبباً لنجاتهم؛ قال أبو حيان: سلب عنه هذين الوصفين دون باقي أوصاف الإلهية لأن انتفاء التكليم يستلزم انتفاء العلم، وانتفاء الهداية إلى سبيل يستلزم انتفاء القدرة، وانتفاء هذين الوصفين يستلزم انتفاء باقي الأوصاف.

ولما كان هذا أمراً عظيماً جداً مستبعد الوقوع ولا سيما من قوم نبههم بينهم ولا سيما وقد أراهم من النعم والآيات ما ملأت أنواره الآفاق، كان جديراً بالتأكيد فقال تعالى: ﴿اتخذوه﴾ أي بغاية الجد والنشاط والشهوة ﴿وكانوا﴾ أي جبلة وطبعاً مع ما أثبت لهم من الأنوار ﴿ظلمين﴾ أي حالهم حال من يمشي في الظلام، أو أن المقصود أن الظلم وصف لهم لازم، فلا بدع إذا فعلوا أمثال ذلك.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَقْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعْجَلْتُم أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

ولما كان هذا في سياق ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غفلين﴾ فأتج أن من كذب على هذه الصفة أهلك، فانتظر السامع الإخبار بتعجيل هلاكهم، أخبر بأنه منعهم

من ذلك وحرسهم المبادرة بالتوبة، ولما اشتد من تشوف السامع إليه، قدمه على سببه وهو رجوع موسى عليه السلام إليهم وإنكاره عليهم، ولأن السياق في ذكر إسرائعهم في الفسق لم يذكر قبول توبتهم كما في البقرة؛ ولما كان من المعلوم أنهم تبين لهم عن قرب سوء مرتكبهم لكون نبيهم فيهم، عبر بما أفهم أن التقدير: فسقط في أيديهم، وعطف عليه قوله سائناً مساق ما هو معروف: ﴿ولما سقط﴾ أي سقطت أسنانهم ﴿في أيديهم﴾ بعضها ندماً سقوطاً كأنه بغير اختيار لما غلب فيه من الوجد والأسف الذي أزال تأملهم ولذلك بناه للمفعول ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي عن الطريق الواضح ﴿قالوا﴾ توبة ورجوعاً إلى الله كما قال أبوهم آدم عليه السلام ﴿لئن لم يرحمنا ربنا﴾ أي الذي لم يقطع قط إحسانه عنا فيكيف غضبه ويديم إحسانه ﴿ويغفر لنا﴾ أي يمحو ذنوبنا عيناً وأثراً لئلا ينتقم منا في المستقبل ﴿لنكونن من الخسرين﴾ أي فينتقم منا بذنوبنا.

ولما أخير بالسبب في تأخير الانتقام عنهم مع مساواتهم لمن أوقعت بهم النقمة في موجب الانتقام، أخير سبحانه بحال موسى عليه السلام معهم عند رجوعه إليهم من الغضب لله والتبكيك لمن خالفه مع ما اشتمل عليه من الرحمة والتواضع فقال: ﴿ولما رجع موسى﴾ أي من المناجاة ﴿إلى قومه غضبان﴾ أي في حال رجوعه لما أخبره الله تعالى عنهم من عبادة العجل ﴿أسفاً﴾ أي شديد الغضب والحزن ﴿قال بئسما﴾ أي خلافة خلافتكم التي ﴿خلفتموني﴾ أي قمتم مقامي وفعلمت خلفي.

ولما كان هذا ربما أوهم أنهم فعلوه من ورائه وهو حاضر في طرف العسكر، قال: ﴿من بعدي﴾ أي حيث عبدتم غير الله أيها العبد، وحيث لم تكفوهم أيها الموحدون بعد ذهابي إلى الجبل للمواعدة الإلهية وبعد ما سمعتم مني من التوحيد لله تعالى وإفراده عن خلقه بالعبادة ونفي الشركاء عنه، وقد رأيتم حين كففتكم وزجرتكم عن عبادة غيره حين قلتم ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ ومن حق الخلفاء أن يسيروا سيرة المستخلف ولا يخالفوه في شيء.

ولما كان قد أمرهم أن لا يحدثوا حدثاً حتى يعود إليهم، أنكر عليهم عدم انتظاره فقال: ﴿أعجلتم﴾ قال الصغاني في المجمع: سبقتم، وقال غيره: عجل عن الأمر - إذا تركه غير تام، ويضمن معنى سبق، فالمعنى: سابقين ﴿أمر ربكم﴾ أي ميعاد الذي ما زال محسناً إليكم، أي فعلتم هذا قبل بلوغ أمر الموعد الذي زاد فيه ربي وهو العشرة الأيام برجوعي إليكم إلى حده، فظننتم أنني مت فغيرتم كما غيرت الأمم بعد موت أنبيائها، وقال الإمام أبو عبد الله القزاز أيضاً: عجلتم: سبقتم، ومنه تقول: عجلت فلاناً: سبقته، وأسنده ابن التياني إلى الأصمعي ﴿وألقي الألواح﴾ أي التي فيها التوراة

غضباً لله وإرهاباً لقومه، ودل هذا على أن الغضب بلغ منه حداً لم يتمالك معه، وذلك في الله تعالى ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ أي بشعره ﴿يجره إليه﴾ أي بناء على أنه قصر وإعلاماً لهم بأن الغضب من هذا الفعل قد بلغ منه مبلغاً يجعل عن الوصف، لأنه اجتثاث للدين من أصله.

ولما كان هارون عليه السلام غير مقصر في نهيهم، أخذ في إعلام موسى عليه السلام بذلك مخصصاً الأم وإن كان شقيقه - تذكيراً له بالرحم الموجبة للعطف والرفقة ولا سيما وهي مؤمنة وقد قاست فيه المخاوف، فاستأنف سبحانه الإخبار عن ذلك بقوله: ﴿قال ابن أم﴾ وحذف أداة النداء وياء الإضافة لما يقتضيه الحال من الإيجاز، وفتح الجمهور الميم تشبيهاً له بخمسة عشر وعلى حذف الألف المبدلة من ياء الإضافة، وكسر الميم ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بتقدير حذف ياء الإضافة تخفيفاً ﴿إن القوم﴾ أي عبدة العجل الذين يعرف قيامهم في الأمور التي يريدونها ﴿استضعفوني﴾ أي عدوني ضعيفاً وأوجدوا ضعفي بإرهابهم لي ﴿وكادوا يقتلونني﴾ أي قاربوا ذلك لإنكاري ما فعلوه فسقط عني الوجوب.

ولما تسبب عن ذلك إطلاقه، خاف أن يمنعه الغضب من ثبات ذلك في ذهنه وتقرره في قلبه فقال: ﴿فلا تشمتم بي الأعداء﴾ أي لا تسرهم بما تفعل بي فأكون ملوماً منهم ومنك؛ ولما استعطفه بالتذكير بالشماتة التي هي شماتة به أيضاً، أتبعه ضرراً يخصه فقال: ﴿ولا تجعلني﴾ أي بمؤاخذتك لي ﴿مع القوم الظالمين﴾ أي فتقطعن بعدك لي معهم وجعلي في زمرتهم عمن أحبه من الصالحين، وتصلني بمن أبغضه من الفاسدين الذين فعلوا فعل من هو في الظلام، فوضعوا العبادة في غير موضعها من غير شبهة ولا لبس أصلاً.

ولما تبين له ما هو اللائق بمنصب أخيه الشريف من أنه لم يقصر في دعائهم إلى الله ولا ونى في نهيهم عن الضلال، ورأى أن ما ظهر له من الغضب مرهب لقومه وازع لهم عما ارتكبوا، دعاء له ولنفسه مع الاعتراف بالعجز وأنه لا يسع أحداً إلا العفو، وساق سبحانه ذلك مساق الجواب لسؤال بقوله: ﴿قال رب﴾ أي أيها المحسن إليّ ﴿اغفر لي﴾ أي ما حملني عليه الغضب لك من إيقاعي بأخي ﴿ولأخي﴾ أي في كونه لما يبلغ ما كنت أريده منه من جهادهم.

ولما دعا بمحو التقصير، أتبعه الإكرام فقال: ﴿وأدخلنا﴾ أي أنا وأخي وكل من انتظم معنا ﴿في رحمتك﴾ لتكون غامرة لنا محيطية بنا؛ ولما كان التقدير: فأنت خير

الغافرين، عطف عليه ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي لأنك تنعم بما لا يحصره الجد ولا يحصيه العد من غير نفع يصل إليك ولا أذى يلحقك بفعل ذلك ولا تركه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٧﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ولما كان السؤال له ولأخيه وهما معصومان من الذنوب، طوى ما يتعلق بالمغفرة وذكر متعلق الرحمة بخلاف ما يأتي في السؤال له وللسبعين من قومه فإنه عكس فيه ذلك؛ ولما صحت براءة الخليفة، وأشير إلى أنه مع ذلك فقير إلى المغفرة، التفتت النفس إلى حال المفسدين فقال مخبراً عن ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ﴾ أي رغبوا رغبة تامة في أخذهم إلهياً مع المخالفة لما ركز في الفطرة الأولى ودعاهم إليه الكليم عليه السلام ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ أي بوعده لا خلف فيه ﴿غَضَبٌ﴾ أي عقوبة فيها طرد أو إبعاد، ولعله ما أمروا به من قتل أنفسهم، وأشار إلى أنه فيه رفق بهم وحسن تربية لتوبة من يبقى منهم بقوله: ﴿مَنْ رَبِّهِمْ﴾ أي الذي لا محسن إليهم غيره، يلحقهم في الدنيا ويتبعهم في الآخرة ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي جزاء لهم على افترائهم وكذلك من رضي فعلهم ولا سيما إن كان من أولادهم كقريظة والنضير وأهل خيبر ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي ومثل جزائهم ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي المتعمدين للكذب، وهذا نص في أن كل مفتر ذليل، كما هو المشاهد - وإن أظهر الجراءة بعضهم.

ولما ذكر المصرين على المعصية، عطف عليه التائبين ترغيباً في مثل حالهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ عبر بالعمل إشارة إلى العفو وإن أقدموا عليها على علم، وجمع إعلماً بأنه لا يتعاضمه ذنب وإن عظم وكثر وإن طال زمانه، ولذلك عطف بأداة البعد فقال: ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ وحقق الأمر ونفى المجاز بقوله: ﴿مَنْ بَعْدِهَا﴾ ثم ذكر الأساس الذي لا يقبل عمل لم يبين عليه على وجه يفهم أنه لا فرق بين أن يكون في السيئات ردة أو لا فقال: ﴿وَآمَنُوا﴾ ثم أجاب المبتدأ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي المحسن إليك بقبول توبة التائبين لما سيرك من ذلك لأنك بهم رؤوف رحيم ﴿مَنْ بَعْدِهَا﴾ أي التوبة ﴿لَعَفُورٌ﴾ أي محاء للذنوب التائبين عيناً وأثراً وإن عظمت وكثرت ﴿رَحِيمٌ﴾ أي فاعل بهم فعل الرحيم من البر والإكرام واللطف والإنعام، وكان المصرين هم الذين قتلوا لما أمرهم موسى عليه السلام بقتل أنفسهم، فلما أهلك المصر وتاب الباقي،

وصحت براءة أخيه وبقاؤه على رتبته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاجتهاد في أمر الله، زال موجب الغضب فأخبر سبحانه عما يعقبه فقال: ﴿ولما سكت﴾ أي كف، شبه الغضب بمتكلم كان يحث موسى عليه السلام ويغريه على ما يوجبه ويقتضيه، فلما شفى غيظه سكن وقطع كلامه فخلفه ضده وهو الرضى ﴿عن موسى الغضب﴾ وهو غليان القلب بما يتأذى به النفس ﴿أخذ الألواح﴾ أي التي جاء بها من عند الله بعدما ألقاها ﴿وفي﴾ أي والحال أنه في ﴿نسختها﴾ أي الأمر المكتوب فيها، فعلة بمعنى مفعولة، وعن ابن عباس أنه لما ألقاها صام - مثل ما كان صام للمناجاة - أربعين يوماً أخرى، فردت عليه في لوحين مكان ما تكسر. ﴿هدى﴾ أي شيء موضح للمقاصد ﴿ورحمة﴾ أي سبب للإكرام ﴿للمذنبين هم لربهم﴾ أي لا لغيره ﴿يرهبون﴾ أي هم أهل لأن يخافوا خوفاً عظيماً مقطعاً للقلوب موجباً للهرب ويستمرون على ذلك.

شرح ما في هذه الآيات من عند قوله ﴿سأوريكم دار الفسقين﴾ من البدائع من التوراة - قال المترجم في السفر الخامس منها بعد أن بكتهم ببعض ما فعلوه مما أوجب لهم الغضب والعقوبة بالتيه وحثهم على لزوم أمر الله لينصرهم: وأما الوصايا التي أمركم بها اليوم فاحفظوها واعملوا بها لتحياوا وتكثروا وترثوا الأرض التي أقسم الله لأبائكم فتذكروا كل الطريق الذي سيركم الله ربكم فيه، ودبركم منذ أربعين سنة في البرية ليواضعكم ويجربكم وليعلم ما في قلوبكم هل تحفظون وصاياه أم لا، فواضعكم وأجاعكم وأطعمكم متألم تعرفوه أنتم ولا آباؤكم ليبين لكم أنه ليس إنما يعيش الإنسان بالخبز فقط، بل إنما يعيش بما يخرج من فم الله، ولم تبل ثيابكم ولم تجف أقدامكم منذ أربعين سنة، احفظوا وصايا الله ربكم وسيروا في طرقة واتقوه، لأن الله ربكم هو الذي يدخلكم إلى الأرض المخصصة، أرض كثيرة الأودية والينابيع والعيون التي تجري في الصحارى والجبال، أرض الحنطة والشعير، فيها الكروم والتين والرمان والزيتون والدهن والعسل، أرض لا تحتاجون فيها ولا تأكلون خبزكم بالفقر، ولا يعوزكم فيها شيء، أرض حجارتها حديد تستخرجون النحاس من جبالها، فاحفظوا، لا تنسوا الله ربكم، واحفظوا وصاياه وشرائعه التي أمركم بها اليوم، لا تبطروا، فإذا أكلتم وشبعتم وبنيتم بيوتاً وسكنتموها وكثر غنمكم وبقركم وكثرت أموالكم فتعظم قلوبكم وتنسوا الله ربكم الذي أخرجكم من أرض مصر وأنقذكم من العبودية ودبركم في البرية الموهوبة العظيمة حيث الحيات الحردات والعقارب وفي مواضع العطش وحيث لم يكن لكم ماء، أخرج لكم من ماء الظران، وأطعمكم متألم يعرفه آباؤكم ليواضعكم ويجربكم ويحسن إليكم آخر ذلك، وانظروا، لا تقولوا في قلوبكم إننا إنما استفدنا هذه الأموال

بقوتنا وعزة قلوبنا، ولكن اذكروا الله ربكم الذي قواكم أن تستفيدوا هذه الأموال ليثبت العهد الذي أقسم لآبائكم، وإن أنتم نسيتم الله ربكم وتبعتم آلهة أخرى وعبدتموها وسجدتم لها أشهدت عليكم اليوم فأعلمتكم أنكم تهلكون هلاك سوء، كما أهلكت الشعوب التي أباد الرب بين أيديكم كذلك تهلكون، اسمعوا يا بني إسرائيل! بل أنتم تجوزون اليوم نهر الأردن وتنطلقون لتمتلكوا الشعوب التي هي أقوى وأعظم منكم وتظفروا بالقرى الكبار المشيدة إلى السماء وبشعب كبير عظيم بني الجابرة، وقد علمتم وسمعتم أنه ما يقدر إنسان أن يقوم بين يدي الجابرة، وتعلمون يومكم هذا أن الله ربكم يجوز أمامكم وهو نار محرقة، وهو يهلكهم ويهزمهم أمامكم، ولا تقولوا في قلوبكم إنه إنما أدخلنا الرب ليرث هذه الأرض من أجل برنا، لأنه إنما يهلك الرب هذه الشعوب من أجل خطاياهم، وليثبت الأقوال التي وعد بها آباءكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاعلموا أنه ليس من أجل بركم يورثكم الله هذه الأرض المخصصة، لأنكم صلاب الرقاب، اذكروا ولا تنسوا أنكم أسخطتم الله ربكم في البرية منذ يوم خرجتم من أرض مصر حتى انتهيتم إلى هذه البلاد، ولم تزالوا مسخطين لله ربكم ونحوريب أيضاً أغضبتم الرب، وغضب الرب عليكم وأراد هلاككم حيث صعدت إلى الجبل وأخذت لوحى العهد الذي عاهدكم الرب، ومكثت في الجبل أربعين يوماً بلياليها لم أذق خبزاً ولم أشرب ماء، وأعطاني الرب لوحين من حجارة مكتوب عليهما بأصبع الله، وكانت كل الآيات التي كلمكم الرب بها من الجبل يوم الجماعة ومن بعد الأربعين، وأعطاني لوحى العهد، قال لي الرب: قم فانزل من هاهنا سريعاً، لأن شعبك الذي أخرجته من أرض مصر قد فسدوا ومالوا عن الطريق الذي أمرتهم عاجلاً، وعملوا لهم إلهاً مسبوكاً، وقال لي الرب: رأيت هذا الشعب فإذا هو شعب قاسي القلب، فدعني الآن حتى أهلكهم وأبيد أسماءهم من تحت السماء وأصيرك مدبراً لشعب أعظم وأعز منهم، وأقبلت فنزلت من الجبل والجبل يشتعل ناراً ولوحا العهد بيدي، ورأيت أنكم أذنبتم أمام الله ربكم سريعاً، وعمدت إلى لوحى الحجارة فرميت بهما من يدي وكسرتهما قدامكم، وصليت أمام الرب كما صليت أولاً أربعين يوماً بلياليها، لم أذق طعاماً ولم أشرب شراباً من أجل جميع الخطايا التي ارتكبتكم وما عملتم من الشر بين يدي الرب وأغضبتموه: لأنني فرقت وخفت غضب الله وزجره أنه أراد إهلاككم، واستجاب الله لي في ذلك الزمان، وأما عجل خطاياكم الذي عملتموه فأخذته وأحرقته بالنار وسحقته وطحنته جداً حتى صار مثل التراب وطرحته ترابه في الوادي الذي ينزل في الجبل، وبالحريرق والبلايا وبقبور أصحاب الشهوة، أغضبتم الرب، وإذ أرسلكم ربكم من رقام الحي وقال لكم:

اصعدوا ورثوا الأرض التي أعطيتكم، اجتنبت قول الرب وأغضبتموه ولم تؤمنوا به ولم تسمعوا قوله، ولم تزالوا لله مسخطين منذ يوم عرفتكم، وصلت أمام الرب أربعين يوماً بلياليها، لأن الرب أمر بهلاككم، وقلت في صلاتي: يا رب! لا تهلك شعبك وميراثك الذي خلصته بعظمتك وأخرجتهم من أرض مصر بيد عزيزة، ولكن اذكر عبيدك إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولا تنظر إلى معصية هذا الشعب وإثمه وخطاياهم، لئلا يقول سكان تلك الأرض التي أخرجتهم منها: إن الرب لم يقو أن يدخلهم الأرض التي قال لهم، وإنما أخرجهم من عندنا لبغضه لهم ليضلهم في البرية، وهو شعبك وميراثك الذي أخرجتهم بقوتك العظيمة وذراعك العزيزة، فقال لي الرب في ذلك الزمان أن أنقر لوحين من حجارة مثل اللوحين الأولين واصعد إلى الجبل إليّ واعمل تابوتاً من خشب الشمشاد - وفي نسخة: السنط - ونقرت اللوحين من الحجارة مثل اللوحين الأولين وصعدت إلى الجبل واللوحان في يدي، وكتب على اللوحين الكتاب الأول، وهي العشر الآيات التي كلمكم الرب بها من الجبل من النار يوم الجماعة، ودفعتها الرب إليّ فأقبلت نازلاً من الجبل ووضعت اللوحين في التابوت الذي عملت وتركتها فيه كما أمر الرب، وارتحل بنو إسرائيل من ثروات بني يعقان وموسار، وتوفي هارون هناك، وصار أليعازر ابنه حبراً مكانه، وارتحلوا من هناك إلى جدجد، ومن جدجد إلى يطبت أرض مسایل الماء، في ذلك الزمان أفرز الرب سبط لاوي ليحملوا تابوت عهد الرب، وأن يقوموا أمام الرب ويخدموه وأن يبركوا باسم الرب إلى اليوم، ولذلك ليس لبني لاوي حصة مع بني إسرائيل في ميراثهم، لأن ميراثهم لله ربهم كما قال لهم، وأنا قمت بين يدي الرب في الجبل مثل الأيام الأولى أربعين يوماً بلياليها، واستجاب لي الرب في ذلك الزمان أيضاً، ولم يخذلكم الله ربكم ولم يفسدكم، وقال لي الرب: قم فارتحل وسر أمام الشعب ليدخلوا ويرثوا الأرض التي أقسمت لأبائهم أن أعطيهم، والآن يا بني إسرائيل ما الذي يطلب الله ربكم منكم! ما يطلب الآن إلا أن تتقوا الله ربكم من كل قلوبكم وتسيروا في طرقه وتحبوه، وأن تعبدوا الله ربكم من كل قلوبكم وأنفسكم، وأن تحفظوا وصايا الله ربكم التي أمركم بها اليوم ليحسن إليكم لأن السماء وسماء السماء هما لله ربكم والأرض وجميع ما فيها، وبآبائكم وحدهم سر الرب وأحبهم وانتخب نسلهم من بعدهم وفضلهم على جميع الشعوب كالיום، اختننوا غلغة قلوبكم، ولا تقسوا رقابكم أيضاً، لأن الله ربكم هو إله الآلهة ورب الأرباب، إله عظيم جبار مرهوب لا يحابي ولا يرتشي، ينصف للأيتام والأرامل، ويحب الذي يقبل إليه برزقه طعاماً وكسوة، فأحبوا الذين يقبلون إليه واذكروا أنكم كنتم سكاناً بأرض مصر، فاتقوا الله

ربكم واتبعوه واعبدوه وأقسموا باسمه، لأنه إلهكم ومريحكم، وهو الذي أكمل لديكم العجائب التي رأت أعينكم، واعلموا أنه إنما أنزل آباءكم إلى مصر سبعين رجلاً، والآن فقد كثركم الله ربكم مثل نجوم السماء، أحبوا الله ربكم واحفظوا سننه وأحكامه كل الأيام، واعلموا يومكم هذا أنه ليس لبنيكم الذين لم يعاينوا ولم يعلموا ما رب الرب وعظمته ويده المنيعه وذراعه العظيمة وآياته وأعماله التي عمل بمصر وبفرعون ملك مصر وكل أرضه وما صنع بأجناد ملك مصر وما فعل بالخيول والمراكب وفرسانها الذين قلب عليهم ماء بحر سوف حيث خرجوا في طلبكم وأهلكهم الرب إلى اليوم وجميع ما صنع بكم في البرية حيث انتهيتم إلى هذه البلاد وما صنع بداثان وأبيرم ابني ألب بن روبيل اللذين فتحت الأرض فاها وابتلعتهما وبيتتهما، وخيامهم وكل شيء هو لهم إذ كانوا قياماً على أرجلهم بين يدي جميع بني إسرائيل، ولكن قد رأت أعينكم جميع أعمال الله العظيمة التي عمل، فاحفظوا جميع الوصايا التي أمركم الله بها اليوم لتدخلوا الأرض التي تجوزون إليها لتروها وتطول أعماركم في الأرض التي أقسم الله لآبائكم أن يعطيهم ويرثها نسلهم - وستأتي تتمته إن شاء الله تعالى عند ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبراً صدق﴾ [يونس: ٩٣]، وفيه من المتشابه قوله: فم الله، وإصبع الله، والأول - لكونه لا يجوز إطلاقه في شرعنا - مؤول بالكلام، والثاني بالقدرة.

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَتَّبِعُكَ بِمَا فَعَلْتَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فَنَنُكُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

ولما فرغ سبحانه من ذكر الوعد بالمیقات المقصود به سعي الكليم عليه السلام فيما يهديهم إلى صراط الله، وذكر سعيهم هم فيما أضلهم عن الطريق باتخاذهم العجل، وكان ختام ذلك ما بدا من موسى عليه السلام من الشفقة على أخيه ثم على الكافة بأخذ الألواح عند الفراغ مما يجب من الغضب لله، رد الكلام على ذكر شيء فعله في الميقات مراد به عصمتهم في صراط الله بنقلهم - بمشاركته في سماعهم لكلام الله - من علم اليقين إلى عين اليقين بل حق اليقين شفقة عليهم ورحمة لهم، ليكون إخبارهم عما رأوا مؤيداً لما يخبر به، فيكون ذلك سبباً لحفظهم من مثل ما وقعوا فيه من عبادة

العجل، ومع ذلك وقع منهم العصيان بطلب ما لا ينبغي لهم من الرؤية على وجه التعنت، فقال: ﴿واختار﴾ أي اجتهد في أخذ الخيار ﴿موسى قومه﴾ ثم أبدل منهم قوله: ﴿سبعين رجلاً﴾ إشارة إلى أن من عداهم عدم، لا يطلق عليهم اسم القوم في المعنى الذي أراده، وهو نحو ما قال النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما «الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة»^(١) ثم ذكر علة الاختيار فقال: ﴿لميقاتنا﴾ أي فما أختار إلا من رأى أنه يصلح لما نريد من عظمتنا في الوقت الذي حددناه له، ودنا بهم من الحضرة الخطابية في الجبل هو وهارون عليهما السلام، واستخلف على بني إسرائيل يوشع بن نون عليه السلام، كل ذلك عن أمر الله له، وفي هذا الكلام عطف على قوله ﴿ووعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ [الأعراف: ١٤٢] فيكون الميقات هو الأول وهو ظاهر التوراة كما مر بيانه في البقرة، ويجوز أن يكون عطفاً على قوله ﴿واتخذ قوم موسى﴾ [الأعراف: ١٤٨] أو على قوله ﴿أخذ الألواح﴾ [الأعراف: ١٥٤] وحيث أن يكون هذا الميقات غير الميقات الأول، ويؤيده ما نقل من أن هارون عليه السلام كان معهم، وكأنهم لما سمعوا كلام الله طلب بعضهم الرؤية جاعليها شرطاً لإيمانهم فقالوا ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ [البقرة: ٥٥] كما فعل النقباء الاثنا عشر حين أرسلهم لجس أحوال الجبارين فنقض أكثرهم، فأخذتهم الرجفة فماتوا، فخشي موسى عليه السلام أن يتهمه بنو إسرائيل في موتهم كنفس واحدة ﴿فلما أخذتهم﴾ أي أخذ قهر وغلبة ﴿الرجفة﴾ أي التي سببتها الصاعقة التي تقدمت في البقرة، فزلزلت قلوبهم فأماتتهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هؤلاء غير السبعين الذين قالوا ﴿أرنا الله جهرة فأخذتهم الصلعة﴾ [النساء: ١٥٣] وأن أولئك كانوا قبل هؤلاء، فالظاهر أن سبب الرجفة ما رأوا عند سماع الكلام من جلال الله وعظيم هيئته من الغمام الذي تغشى الجبل والقتار والبروق وأصوات القرون وغير ذلك بحيث كادت الرجفة - وهي رعدة - تفرق أوصالهم بعضها من بعض ﴿قال﴾ أي موسى تملقاً لربه سبحانه ﴿رب﴾ أي أيها المحسن إليّ ﴿لو شئت أهلكتهم﴾ أي أمتهم .

ولما لم يكن إهلاكهم مستغرقاً للماضي، أدخل الجار فقال: ﴿من قبل وإياي﴾ أي قدرتك عليّ وعليهم قبل أن تقترب من هذه الحضرة المقدسة ونحن بحضرة قومنا كقدرتك علينا حين تشرفنا بها، وقد أسبلت علينا ذيل عفوك وأسبغت علينا نعمتك

(١) أخرجه البخاري ٦٤٩٨ ومسلم ٢٥٤٧ والترمذي ٣٠٣٢ وابن ماجه ٣٣٩٠ والبيهقي في الزهد ص ٤٨ وعبد الرزاق ٢٠٤٤٧ وأبو نعيم في الحلية ٣/٩ و٢٣١ وأحمد ١٠٩/٢ من حديث ابن عمر .
- وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١٤١/٧ من حديث أبي هريرة .

ونحن في غير هذه الحضرة فلم تهلكنا، فإنعامك علينا ونحن في حضرة القدس وبساط القرب والأنس أولى.

ثم لما كان الحال مقتضياً لأن يقال: ألم تر إلى ما اجترؤوا عليه، وكان كأنه قال: إنما قال ذلك قوم منهم سفهاء، دل على ذلك بقوله استعظافاً: ﴿أتهلكنا﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجفتهم كانت بسبب أنهم لم ينهوا عن عبادة العجل مع أنهم لم يرضوا بذلك. وكان موسى عليه السلام عبر بهذه العبارة المقتضية لإهلاك الجميع لأنه جوز أنه كما أهلك هؤلاء يهلك غيرهم لتقصير آخر بسبب ذلك كعدم الجهاد مثلاً حتى يعمهم الهلاك ﴿بما فعل السفهاء منا﴾ فكانه ﷺ رضي أنه إن لم يشملهم العفو أن يخص العفو بمن لم يذنب بالفعل ويعفو عن قصر بالسكوت، وعلى تقدير كون الميقات غير الأول يجوز أن يكون بعد اتخاذهم العجل كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما، فيكون موسى عليه السلام خاف أن يكون إهلاكهم فتنة لبني إسرائيل وسبباً لكفرهم كما كان إبطاؤه عنهم بزيادة عشرة أيام على الثلاثين في الميقات الأول سبباً لاتخاذهم العجل، ويجوز حينئذ أن يراد بفعل السفهاء اتخاذ العجل، ويؤيده التعبير بالفعل دون القول وقد تقدم نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ولما كان قوله هذا ربما أفهم رضاه بهلاك المذنبين، قال معرضاً بالسؤال في العفو عن الجميع: ﴿إن هي﴾ أي الفتنة التي أوقعها السفهاء ﴿إلا فتنتك﴾ أي ابتلاؤك واختبارك ﴿تضل بها من تشاء﴾ أي تظهر في عالم الشهادة من ضلاله ما كان معلوماً لك في عالم الغيب ﴿وتهدي من تشاء﴾ أي تظهر ما في علمك من ذلك.

ولما أثبت أن الكل بيده، استأنف سؤاله في أن يفعل لهم الأصلاح فقال: ﴿أنت﴾ أي وحدك ﴿وليننا﴾ أي نعتقد أنه لا يقدر على عمل مصالحنا غيرك، وأنت لا نفع لك في شيء من الأمور ولا ضرر، بل الكل بالنسبة إليك على حد سواء، ونحن على بصيرة من أن أفعالك لا تعلق بالأغراض، وعفوك عنا ينفعنا وانتقامك منا يضرنا، ونحن في حضرتك قد انقطعنا إليك وحططنا رحال افتقارنا لديك.

ولما أثبت أنه الفعال لما يشاء وأنه لا ولي لهم غيره، وكان من شأن الولي جلب النفع ودفع الضرر، سبب عن كونه الولي وحده قوله بادئاً بدفع الضرر: ﴿فاغفر لنا﴾ أي امح ذنوبنا ﴿وارحمنا﴾ أي ارفعنا؛ ولما كان التقدير: فأنت خير الراحمين، عطف عليه قوله: ﴿وأنت خير الغفرين﴾ أي لأن غيرك يتجاوز عن الذنب للثناء أو الثواب أو دفعاً للصفة الخسيسة وهي صفة الحقد ونحوه، وأنت منزّه عن ذلك، وكأنه أحسن العفو عنهم فقال عاطفاً على سؤاله فيه: ﴿واكتب لنا﴾ أي في مدة إحيائك لنا ﴿في هذه

الدنيا﴾ أي الحاضرة والدنية ﴿حسنة﴾ أي عيشة راضية وحياة طيبة ﴿وفي﴾ الحياة ﴿الآخرة﴾ أي كذلك؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنا هدنا﴾ أي تبنا ﴿إليك﴾ أي عما لا يليق بجنابك كما أمرتنا أن نجبر ما عساه يقع منا بالمبادرة إلى التوبة، فبدأ بذكر عزة الربوبية وثنى بذلة العبودية وهما أقوى أسباب السعادة، وهذا تلقين لهم وتعليم وتحذير من مثل ما وقعوا فيه وحث على التسليم، وكأنه لما كان ذنبهم الجهر بما لا يليق به سبحانه من طلب الرؤية، عبر بهذا اللفظ أو ما يدل على معناه تبييناً لهم على أن اسمهم يدل على التوبة والرجوع إلى الحق والصيرورة إلى الصلاح واللين والضعف في الصوت والاستكانة في الكلام والسكوت عما لا يليق، وأن يهودا الذي أخذ اسمه من ذلك إنما سموا به ونسبوا إليه تفاضلاً لهم ليتبادروا إلى التوبة.

ولما كان في كلامه عليه السلام إنكار إهلاك الطائع بذنب العاصي وإن كان ذلك إنما كان على سبيل الاستعطاف منه والتملق مع العلم بأنه عدل منه تعالى وله أن يفعل ما يشاء بدليل قوله ﴿ولو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ [الأعراف: ١٥٥] استأنف سبحانه الإخبار عن الجواب عن كلامه على وجه منبه للجماهير على أن له التصرف المطلق بقوله: ﴿قال عذابي﴾ أي انتقامي الذي يزيل كل عدوية عن وقع به ﴿أصيب به﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿من أشاء﴾ أي أذنب أو لم يذنب ﴿ورحمتي﴾ أي إنعامي وإكرامي.

ولما كان الإيجاد من الرحمة فإنه خير من العدم فهو إكرام في الجملة، قال: ﴿وسعت كل شيء﴾ أي هذا شأنها و صفتها في نفس الأمر وإن بلغ في القبائح ما عساه أن يبلغ، وهذا هو معنى حديث أبي هريرة في الصحيح «إن رحمتي سبقت - وفي رواية: غلبت - غضبي»^(١) سواء قلنا: إن السبق بمعنى الغلبة، أو قلنا: إنه على بابه، أما الأول فلأن تعلق الرحمة أكثر، لأن كل من تعلق به الغضب تعلقت به الرحمة بإيجاده وإفاضة الرزق عليه، ولا عكس كالحیوانات العجم والجمادات وأهل السعادة من المؤمنين والملائكة والحوار وغيرهم من جنود الله التي لا تحصى. ولما أعلم أن رحمته واسعة وقدرته شاملة، وكان ذلك موسعاً للطمع، سبب عن ذلك قوله ذاكراً شرط إتمام تلك الرحمة ترهيباً لمن يتوانى عن تحصيل ذلك الشرط: ﴿فسأكتبها﴾ أي أخص بدوامها بوعد لا خلف فيه لأجل تمكني بتمام القدرة مما أريد مبتوتاً أمرها بالكتابة ﴿للمذنبين يتقون﴾ أي يوجد لهم هذا الوصف الحامل على كل خير ولا يخلّ بوسعها أن أمنع

(١) أخرجه البخاري ٧٤٠٤ و ٣١٩٤ و ٧٤٢٢ و مسلم ٢٧٥١ و الترمذي ٣٥٤٣ وابن حبان ٦١٤٣ وأحمد ٢٤٢/٢ و ٢٥٩ و ٣١٣ من حديث أبي هريرة.

دوامها بعد الإيجاد من غيرهم، فإن الكل لو دخلوا فيها دائماً ما ضاقت بهم، فهي في نفسها واسعة ولكني أفعل ما أشاء.

ولما ذكر نظرهم إلى الخالق بالانتهاء عما نهى عنه والائتمار بما أمر به، أتبعه النظر إلى الخلائق فقال: ﴿ويؤتون الزكوة﴾ ولعله خصها لأن فرضها كان في هذا الميقات كما تقدم في البقرة ولأنها أمانة فيما بين الخلق والخالق كما أن صفات النبي ﷺ التي كتبها لهم وشرط قبول أعمالهم باتباعه كذلك؛ ثم عمم بذكر ثمرة التقوى فقال مخرجاً لمن يوجد منه ذاك الوصفان في الجملة على غير جهة العموم: ﴿والذين هم بأياتنا﴾ أي كلها ﴿يؤمنون﴾ أي يصدقون بالقلب ويقرون باللسان ويعملون تصديقاً لذلك بالأركان، فلا يكفرون ببعض ويؤمنون ببعض.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ولما كان اليهود ربما ادعوا ذلك مكابرة، أوضح غاية الإيضاح بقوله: ﴿الذين يتبعون﴾ أي بغاية جهدهم ﴿الرسول﴾ ولما كان هذا الوصف وحده غير مبین للمراد ولا صريح في الرسالة عن الله ولا في كونه من البشر، قال: ﴿النبي﴾ أي الذي يأتيه الوحي من الله، فبدأ بالأشرف وثنى بما خصه برسالة الله وكونه من الآدميين لا من الملائكة.

ولما لم يتم المراد، قال مبيناً لأعظم المعجزات، وهي أن علمه بغير معلم من البشر: ﴿الأمي﴾ أي الذي هو مع ذلك العلم المحيط على صفة الأم، وأمة العرب لا يكتب ولا يقرأ ولا يخالط العلماء للتعليم منهم بل لتعليمهم، فانطبق الوصف على الموصوف مع التنويه بجلالة الأوصاف والتشويق إلى الموصوف، ولم يعطف لثلاث يوم تعداد الموصوف - والمعنى أنني لا أغفر لأحد من بني إسرائيل ولا من غيرهم إلا إن اتبع محمداً ﷺ، وهذا الاتباع تارة يكون بالقوة فقط لمن تقدم موته على زمانه، وتارة يخرج من القوة إلى الفعل ممن لحق زمان دعوته، فمن علم الله منه أنه لا يتبعه إذا أدركه لا يغفر له ولو عمل جميع الطاعات غير ذلك، وعرفه لهم بجميع خواصه حتى لا يتطرق إليه عند مجيئه ريب ولا يتعلل في أمره بعلّة، ولذلك أتبعه بقوله: ﴿الذي يجدونه﴾ أي علماء بني إسرائيل؛ ولما اشتد تشوف السامع بذكر الوجدان، قال: ﴿مكتوباً﴾ ثم قرب الأمر بقوله: ﴿عندهم﴾ ثم بين أنه مما لا يدخله شك بقوله: ﴿في التورة والإنجيل﴾ أي

اللذين يعلمون أنهما من عند الله بصفته البينة كما تقدم بيانه عما عللوا عن تبديله منهما في البقرة عند ﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه﴾ [البقرة: ١٢٤] وفي آل عمران عند ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً﴾ [آل عمران: ٣٣] وفي النساء عند ﴿ما قتلوه يقيناً﴾ [النساء: ١٥٧] وفي التوراة أيضاً من ذلك في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس: وإذا دخلتم الأرض التي يعطيكم الله ريبكم فلا تعملوا مثل أعمال تلك الشعوب ولا يوجد فيكم من يطلب تعليم العرافين، ثم قال: لأن هذه الشعوب التي ترثونها كانت تطيع العرافين والمنجمين، فأما أنتم فليس هكذا يعطيكم الله ريبكم، بل يقيم لكم نبياً من إخوتكم مثلي، فأطيعوا ذلك النبي كما طلبتم إلى الله ريبكم في حوريب يوم الجماعة وقتلتم: لا تسمع صوت الله ربنا ولا تعاین هذه النار العظيمة لثلا نموت، فقال الرب: ما أحسن ما تكلموا، إني سأقيم لهم نبياً من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فيه ويقول لهم ما أمره به، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه - انتهى .

هكذا رأيت مترجماً في بعض نسخ التوراة، ثم رأيت السؤال بن يحيى المغربي ترجمه في كتابه الذي ذكر فيه سبب إسلامه وكان من أكابر علمائهم بل العلماء فقال: نبياً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، به فليؤمنوا - انتهى . وهو يعني أن يكون هذا النبي محمداً ﷺ لأنه من بني إسماعيل أخي إسحاق وقد أتى بشريعة مستقلة لا تعلق لها بشريعة قبلها ولا توقف لها عليها، وذلك أن في العبارة كلمتين: مثل وإخوة، وحقيقة الأخ ابن أحد الأبوين، وهو لا يتأتى في أحد من أنبيائهم، فأقرب المجاز إلى حقيقته الحمل على أخي الأب، وهو إسماعيل عليه السلام، والشائع في الاستعمال في نحو ذلك على تقدير إرادة أحد منهم أن يقال: من أنفسهم، لا من إخوتهم، وحقيقة المثل المشارك في أخص الصفات، وأخص صفات موسى عليه السلام الرسالة والكتاب بشريعة مستقلة، ولم يأت منهم بعده من هو بهذه الصفة، لأن عيسى عليه السلام لم ينسخ من شريعة موسى عليه السلام إلا بعض الأحكام، وعلى تقدير دعوى ذلك فيه لكونه نسخ في الجملة وتسليم ذلك لا يتأتى قصده بهذا النص لوجهين: أحدهما أنه ليس من رجالهم إلا بواسطة أمه، فحق العبارة فيه: من بني أخواتهم - جمع أخت، وإذا أريد آباء أمه كان المجاز فيهم أبعد من المجاز في بني إسماعيل لما تقدم، ولا ينتقل إلى الأبعد إلا بقرينة تصرف عن الأقرب - والله أعلم. وقال السؤال بن يحيى أحد أحبارهم في سبب إسلامه: إن اليهود يقولون: إن هذه البشارة نزلت في حق سمؤال أحد أنبيائهم الذين بعد موسى لأنه كان مثل موسى عليه السلام في أنه من سبط لاوي، وقال: إنه رأى سمؤال عليه السلام في المنام وأنه دفع إليه كتاباً فوجد فيه هذه البشارة فقال له: هنيئاً

لك يا نبي الله ما خصك الله به! فنظر مغضباً وقال: أوإياي أراد الله بهذا يا ذكي! ما أفادتك إذن البراهين الهندسية، فقلت: يا نبي الله! فمن أراد الله بهذا؟ قال: الذي أراد في قوله: هوفيع ميهار فاران، وتفسيره إشارة إلى نبوة وعد بنزولها على جبال فاران، فعرفت أنه يعني المصطفى ﷺ، لأنه المبعوث من جبال فاران وهي جبال مكة، ثم قال: أو ما علمت أن الله لم يبعثني بنسخ شيء من التوراة، وإنما بعثني أذكرهم بها وأحيي شرائعها وأخلصهم من أهل فلسطين، قلت: بلى يا نبي الله! قال: فأي حاجة بهم إلى أن يوصيهم ربهم باتباع من لم ينسخ دينهم ولم يغير شريعتهم، رأيتهم احتاجوا إلى أن يوصيهم بقبول نبوة دانيال أو يرميا أو حزقيل؟ قلت: لا لعمرى! فأخذ الكتاب من يدي وانصرف مغضباً فارتعبت لغضبه وازدجرت لموعظته واستيقظت مذعوراً. وقال في كتابه غاية المقصود في الرد على النصرى واليهود: إن الله يطلق الإخوة على غير بني إسرائيل كما قال في بني العيص بن إسحاق عليه السلام في الجزء الأول من السفر الخامس ما تفسيره: أنتم عابرون في تخم إخوتكم بني العيص فإذا كان بنو العيص إخوة لبني إسرائيل لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق، فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم عليهم السلام، قال: وفي الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة في ذكر البشارة لإبراهيم عليه السلام ما تفسيره: وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاءك، ها قد باركت فيه وأثمره وأكثره جداً وقال: إن جداً جداً بلسان العبراني مفسر «بماد ماد» وهاتان الكلمتان إذا عددنا حروفهما بحساب الجمل كان اثنتين وتسعين، وذلك عدد حساب حروف اسم محمد ﷺ، يعني فتعين أن يكون مراداً بها لأنها في البشارة بتكثير إسماعيل عليه السلام، وليس في أولاده من كثره الله به وعدد اسمه هذا العدد غير محمد ﷺ، قال: وإنما جعل ذلك في هذا الموضع ملغزاً، لأنه لو صرح به لبدلته اليهود أو أسقطته من التوراة كما عملوا في غيره - انتهى. وفي آخر فصول التوراة: دعا موسى عبد الله لبني إسرائيل قبل وفاته وقال: أتى ربنا من سيناء وشرق لنا من جبل ساعير وظهر لنا من جبل - وفي نسخة: جبال فاران، معه ربوات الأطهار على يمينه، أعطاهم وحببهم إلى الشعوب وبارك على جميع أطهاره، وهم يتبعون آثارك ويتناقلون كلماتك. وفي نسخة بدل: معه ربوات الأطهار - إلى آخره: وأتى من ربوات القدس بشريعة نوره من يمينه لهم، واصطفى أيضاً شعباً فجميع خواصه في طاعتك وهم يقفون آثارك وسيتناقلون كلماتك انتهى. فالذي ظهر من جبال فاران هو محمد ﷺ، لأنهم معترفون أنها مكة، ومعه ربوات، أي جماعات الأطهار، وأمته حببت إلى الشعوب، لأن كلاً من فريقى أهل الكتاب يقدمهم على الفريق الآخر، ولم يقبل أحد جميع كلام موسى عليه السلام

ويتبع جميع آثاره في بشارته ممن يأتي بعد غيرهم - هذا وأما الإنجيل فالبشائر فيه أكثر وقد تقدم كثير منها، وهي تكاد أن تكون صريحة في سورة النساء في قصة رفعه عليه السلام، ومما فيه أيضاً ما في إنجيل متى وغيره وأغلب السياق له: كثيراً أولون يصيرون آخرين وآخرون يصيرون أولين، يشبه ملكوت السماوات إنساناً رب بيت خرج بالغداة يستأجر فعلة لكرمه فشارط الأكرة على دينار واحد في اليوم وأرسلهم إلى كرمه، ثم خرج في ثالث ساعة فأبصر آخرين قياماً في السوق بطالين، فقال لهم: امضوا أنتم إلى كرمي وأنا أعطيك ما تستحقون، فمضوا، وخرج أيضاً في الساعة السادسة والتاسعة فصنع كذلك، وخرج في الحادية عشرة فوجد آخرين قياماً، فقال لهم: ما قيامكم كل النهار بطالين؟ فقالوا له: لم يستأجرنا أحد، فقال لهم: امضوا أنتم بسرعة إلى الكرم وأنا أعطيك ما تستحقون، فلما كان المساء قال رب الكرم لوكيله: ادع الفعلة وأعطهم الأجرة وابدأ بهم من الآخرين إلى الأولين، فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة فأخذوا دينار كل واحد، فجاء الأولون فظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا دينار كل واحد، لما أخذوا تعمقوا على رب البيت وقالوا إن هؤلاء الآخرين عملوا ساعة واحدة، جعلتهم أسوتنا ونحن حملنا ثقل النهار وحرّه! فقال لواحد منهم: يا صاحب! ما ظلمتك، ألسنت بدينار شارطتك، خذ شيك وامض، أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك، أو ما لي أن أفعل ما أردت بمالي؟ وأن عينك شريرة، كذلك يكون الآخرون أولين، والأولون آخرين، ما أكثر المدعويين وأقل المنتخبين، وقال: ودخل إلى الهيكل فجاء إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وقالوا له وهو يعلم: بأي سلطان تفعل هذا؟ ومن أعطاك هذا السلطان؟ أجاب يسوع وقال لهم: أنا أسألكم عن كلمة واحدة، فإن أنتم قلت لي قلت لكم بأي سلطان أفعل هذا، معمودية يوحنا من أين هي؟ من السماء أو من الناس؟ ففكروا في نفوسهم قائلين: إن قلنا: من السماء قال لنا: لماذا لم تؤمنوا به؟ وإن قلنا: من الناس، خفنا من الجمع، وقال لوقا: وإن قلنا من الناس فإن جميع الشعب يرجعنا لأنهم قد تيقنوا أن يوحنا نبي؛ وقال متى: لأن يوحنا كان عندهم مثل نبي؛ وقال مرقس: لأن جميعهم كان يقول: إن يوحنا نبي؛ قال متى: فقالوا: لا نعلم، فقال: ولا أنا أيضاً أعلمكم بأي سلطان أفعل هذا. قال مرقس: وبدأ يكلمهم بأمثال قائلاً؛ قال متى: ماذا تظنون بإنسان كان له ابنان فجاء إلى الأول فقال له: يا بني! اذهب اليوم واعمل في الكرم، فأجاب وقال: ما أريد - وبعد ذلك ندم ومضى، وجاء إلى الثاني وقال له مثل هذا فأجاب وقال: نعم يا رب! أنا أمضي - و - لم يمض، من منهما فعل إرادة الأب؟ فقالوا له: الأول، فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم! إن العشارين والزنا

يسبقونكم إلى ملكوت الله، جاءكم يوحنا بطريق العدل فلم تؤمنوا به، والعشارون والزناة آمنوا به، فأما أنتم فرأيتم ذلك ولم تندموا أخيراً لتؤمنوا به. اسمعوا مثلاً آخر: إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاط به سياجاً وحفر فيه معصرة وبنى فيه برجاً ودفعه إلى فعلة وسافر. قال لوقا: زماناً كثيراً. فلما قرب زمان الثمار أرسل عبيده إلى الفعلة ليأخذوا ثمرته، فأخذ الفعلة عبيده، ضربوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً، فأرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين فصنعوا بهم كذلك، وفي الآخر أرسل إليهم ابنه وقال: لعلمهم يستحيون من ابني، فلما رأى الفعلة الابن قالوا: هذا هو الوارث تعالوا نقتله ونأخذ ميراثه، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه، فإذا جاء رب البيت ماذا يفعل بهؤلاء الفعلة؟ قالوا له: يهلكهم ويدفع الكرم إلى فعلة آخرين ليعطوه ثمرته في حينه، قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب أن الحجر الذي رذله البناؤون صار رأس الزاوية، هذا كان من قبل الرب وهو عجب في أعيننا، من هذا أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمم يصنعون ثمرتها، ومن سقط على هذا الحجر ترضض، ومن سقط عليه طحنه. فلما سمع رؤساء الكهنة والفريسيين أمثاله علموا أنه يقول من أجلهم، فهموا أن يمسكوه وخافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبي. وقال أيضاً: يشبه ملكوت السماء رجلاً صنع عرساً لابنه، فأرسل عبيده ليدعوا المدعويين إلى العرس، فلم يريدوا أن يأتوا، ثم أرسل عبيداً آخرين وقال: قولوا للمدعويين: إن طعامي معد، وعجولي المعلوفة قد ذبحت وكل شيء معد، فتعالوا إلى العرس، فتكاسلوا وذهبوا فمنهم إلى حقله ومنهم إلى تجارته والبقية أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوه، فلما بلغ الملك غضب وأرسل جنده وأهلك هؤلاء القتل وأحرق مدينتهم؛ حينئذ قال لعبيده: أما العرس فمستعد، والمدعوون فغير مستحقين، اذهبوا إلى مسالك الطرق وكل من وجدتموه ادعوه إلى العرس، فخرج أولئك العبيد إلى الطرق فجمعوا كل من وجدوا أشراً وصالحين، فامتأل العرس من المتكئين، فلما دخل الملك لينظر إلى المتكئين رأى هناك رجلاً ليس عليه ثياب العرس فقال: يا هذا! كيف دخلت هاهنا وليس عليك ثياب العرس؟ فسكت، حينئذ قال الملك للخدام: شدوا يديه ورجليه وأخرجوه إلى الظلمة البرانية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان، ما أكثر المدعويين وأقل المنتخبين. وعبارة لوقا عن ذلك: إنسان صنع وليمة عظيمة ودعا كثيراً فأرسل عبده يقول للمدعويين يأتون فهو ذا كل شيء معد، فبدؤوا بأجمعهم يستعفون، فالأول قال: قد اشترت كرمًا، والضرورة تدعوني إلى الخروج ونظره، فأسألك أن تعفيني فما أجبيء، وقال آخر: قد اشترت خمسة أزواج بقر وأنا ماض أجربها، أسألك أن تعفيني فما أجبيء، وقال آخر:

قد تزوجت امرأة، لأجل ذلك ما أقدر أجيء، فأتى العبد وأخبر سيده، فحينئذ غضب رب البيت وقال لعبده: اخرج مسرعاً إلى الطريق وشوارع المدينة وادع المساكين والعور والعميان والمقعدين، اخرج إلى الطريق والسيارات وألح عليهم حتى يدخلوا ويمتلئ بيتي ولا أجد من هؤلاءك يذوق لي عشاء. وقال يوحنا: الحق أقول لكم! إن من لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف، بل يتسور من موضع آخر فإن ذلك لص، الذي يدخل من الباب هو راعي الخراف، والباب يفتح له، والخراف تسمع له، وكباشه تتبعه لأنها تعرف صوته، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف، فأما الآخر الذي ليس براع وليست الخراف له، فإذا رأى الذئب قد أقبل يدع الخراف ويهرب، فيأتي الذئب ويخطف ويبيد الخراف، وإنما يهرب الأجير لأنه مستأجر وليس يشفق على الخراف، أنا الراعي الصالح، ولي كباش آخر ليست من هذا القطيع، فينبغي لي أن آتي بهم أيضاً، فتكون الرعية واحدة، فوقع أيضاً بين اليهود خلف من أجل هذا القول وقال كثير منهم: إن به شيطاناً قد جن، فما استماعكم منه! وقال آخرون: إن هذا ليس كلام مجنون. وفي أوائل السيرة الهشامية: قال ابن إسحاق: وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى ابن مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ مما أثبت يحسن الحوار لهم حين نسخ لهم الإنجيل أنه قال: من أبغضني فقد أبغض الرب، ولولا أنني صنعت بحضرتهم صنائع لمن يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزوني وأيضاً للرب، ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التي في الناموس أنهم أبغضوني مجاناً - أي باطلاً، فلو قد جاء المنحمن هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس، هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس، هذا الذي من عند الرب خرج، فهو شهيد علي وأنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معي، هذا قلت لكم لكيما لا تشكوا. فالمنحمن بالسريانية محمد، وهو بالرومية البارقليطس - انتهى.

ولما دل سبحانه عليه ﷺ بأوصافه في نفسه وفي الكتب الإلهية، دل عليه بشريعته فقال: ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ أي بكل ما يعرفونه من التوراة والإنجيل وما يعرفونه فيهما أنه ينسخ شرعهم ويأتي من عند الله بهذا المذكور ﴿وينههم عن المنكر﴾ أي عن كل ما ينكرونه فيهما، فثبتت بذلك رسالته، فإنه لكونه أمياً لا يعرف المعروف والمنكر فيهما إلا وهو صادق عن علام الغيوب؛ ثم شرع بعد ثبوت رسالته يبين لهم ما في رسالته من المنة عليهم بالتخفيف عنهم بإباحة ما كانوا قد حملوا ثقل تحريمه، فكانوا لا يزالون يعصون الله بانتهاك حرمانه والإعراض عن تبعاته فقال: ﴿ويحل لهم الطيبات﴾ أي التي كانت حرمت عليهم عقوبة لهم كالشحوم ﴿ويحرم عليهم﴾ وعبر بصيغة الجموع إشارة

إلى أن الخبيث أكثر من الطيب في كل مائي الأصل فقال: ﴿الخبِيثُ﴾ أي كل ما يستخبثه الطبع السليم أو يؤدي إلى الخبث كالخمر المؤدية إلى الإسكار والرشى المؤدية إلى النار بعد قبيح العار ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ أي ثقلهم الذي كان حمل عليهم فجعلهم لثقله كالمحبوس الممنوع من الحركة ﴿والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي جميع ما حملوه من الأثقال التي هي لثقلها وكراهة النفوس لها كالغل الذي يجمع اليد إلى العنق فيذهب القوة ﴿فالذين آمنوا به﴾ أي أوجدوا بسببه الأمان من التكذيب بشيء من آيات الله ﴿وعززوه﴾ أي منعه من كل من يريده بسوء وقوا يده تقوية عظيمة على كل من يكيده: قال في القاموس: والتعزيز: ضرب دون الحد أو هو أشد الضرب، والتفخيم والتعظيم ضد، والإعانة كالعزر والتقوية والنصر - انتهى. وقال عبد الحق: العزر: المنع، تقول: عزرت فلاناً عن كذا، أي منعته - انتهى. فالمادة كلها تدور على هذا المعنى والضرب واضح فيه والتعظيم وما في معناه منع من يكيده ﴿ونصروه﴾ أي أيدوه وقمعوا مخالفه ﴿واتبعوا النور﴾ أي الوحي من القرآن والسنة ﴿الذي أنزل معه﴾ أي مصاحباً إنزاله إرساله، سمي نوراً لأنه يجعل المقتدي به ببيان طريق الحق كالماشي في ضوء النهار ﴿أولئك هم﴾ أي خاصة ﴿المفلحون﴾ أي الفائزون بكل مأمول.

ولما تراسلت الآي وطال المدى في أقاصيص موسى عليه السلام وبيان مناقبه العظام ومآثره الجسام، كان ذلك ربما أوقع في بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصباً وأعظمهم رتبة، فساق سبحانه هذه الآيات هذا السياق على هذا الوجه الذي بين أن أعلاهم مراتب وأزكاهم مناقب الذي خص برحمته من يؤمن به من خلقه قوة أو فعلاً، وجعل سبحانه ذلك في أثناء قصة بني إسرائيل اهتماماً به وتعجيلاً له مع ما سيذكر مما يظهر أفضليته ويوضح أكمليته بقصته مع قومه في مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه في سورتي الأنفال وبراءة بكما لها.

ذكر شيء من الآصار التي كانت عليهم وخففت عنهم لو دخلوا في الإسلام ببركته ﷺ غير ما أسلفته في آخر البقرة عند قوله تعالى ﴿ولا تحمل علينا إصراً﴾ [البقرة: ٢٨٦] وفي المائدة عند قوله تعالى ﴿وليحكم أهل الإنجيل﴾ [المائدة: ٤٧] قال في السفر الثاني من التوراة: وقال الرب لموسى: اعمد فخذ طيباً - إلى أن قال: وليكن معجوناً طيباً للقدس ودقه واسحقه ويخر منه فدام تابوت الشهادة في قبة الزمان لأواعدك إلى هناك، ويكون عندكم طيباً مخصوصاً، وأيما رجل اتخذ مثله ليتخبر به فليهلك ذلك الرجل من شعبه؛ وقال في الثالث: ثم كلم الرب موسى قال له: كلم هارون وبنيه وجماعة بني إسرائيل وقل لهم: هذا ما أمرني به الرب أن أخبركم، أي رجل من بني

إسرائيل يذبح في محلة بني إسرائيل أو يذبح خارجاً من العسكر ولا يجيء بقربانه إلى باب قبة الزمان ليقربه يعاقب ذلك الرجل عقوبة من قتل قتيلاً؛ وكلم الرب موسى وقال له: كلم هارون وقل له: من كان فيه عيب من نسلك - أي من الأحبار - في جميع الأحقاب لا يدنو من مقدسي، لا يقرب قرباناً مثل الرجل الأعرج والأعمى والأفطس والأصم الأذن أو رجل مكسور اليد أو رجل قصير أو منحن أو رجل قد أشتر حاجباه أو أجهر العين أو من في عينه بياض أو أبرص أو أحدب أو رجل له خصية واحدة، أي رجل كان فيه عيب من نسل هارون الكاهن لا يدنو من المذبح ليقرب قربان الرب لأن فيه عيباً؛ وقال في السفر الرابع وهو من الحجج على أن التوراة لم تنزل جملة: وكلم الرب موسى في برية سيناء في السنة الثانية لخروج بني إسرائيل من مصر في الشهر الأول وقال: تعمل بنو إسرائيل الفصح في وقته في أربعة عشر يوماً من هذا الشهر - إلى أن قال: وعملوا الفصح، والقوم الذين تنجسوا بأنفس الناس لم يقدروا أن يعملوا الفصح فقالوا: قد تنجسنا بأنفس الناس، أي مسسنا ميتاً، فهل يحرم علينا عمل الفصح؟ فقال لهم موسى: قوموا في مواضعكم حتى تسمعوا ما يأمر الرب فيكم، وكلم الرب موسى وقال له: قل لهم: الرجل إذا تنجس منكم لميت أو كان في مكان بعيد يعمل فصحاً للرب في أربعة عشر يوماً من الشهر الثاني، ومن كان زكياً ولم يكن مسافراً ولم يعمل الفصح في وقته تهلك تلك النفس من بين بني إسرائيل، وقال قبل ذلك: وكلم الرب موسى وقال له: مر بني إسرائيل أن يخرجوا من عسكرهم كل من به برص أو سلس وكل من كان نجساً بنفسه ذكراً كان أو أنثى، يخرجونهم خارج العسكر، ولا تنجسوا عساكركم لأنني نازل بينكم؛ ثم ذكر: الرجل إذا غار على امرأته واتهمها، إنه يأتي الكاهن فيقيمها ويلقنها لعناً، فإذا قالته كتبه وأخذ ماء مقدساً في وعاء فخار ووضع فيه من التراب الذي أسفل المذبح وسقاه لها، فإن كانت خانت انتفخ بطنها وفسد فخذاها وتصير لعنة في شعبها، وإن كانت لم تخن تطهرت وولدت ذكراً، ثم أمرهم بذبح بقرة وإحراقها حتى تصير رماداً، ويغسل الحبر الذي ذبحها ثيابه ويديه، فكل من يقترب إلى ميت أو ميتة يكون نجساً سبعة أيام، وينضح عليه من ذلك الماء في اليوم الثالث واليوم السابع ويتطهر، وإن لم يرش عليه كذلك فلا يتطهر، وكل من دنا من إنسان ميت ولا ينضح عليه من ذلك الماء فقد نجس جناب الرب، فلتهلك تلك النفس لأنه لم ينضح عليه من ماء الرش شيء، فلذلك يكون نجساً ولا يفارقه نجاسته، وهذه سنة الإنسان إذا مات في قبة الزمان، فكل من كان هناك في القبة وكل من يدخلها يكون نجساً سبعة أيام، وكل وعاء يكون مكشوفاً غير مغطى يكون نجساً، وكل من دنا من

قتيل أو يمس عظم إنسان أو يدخل القبر يكون نجساً سبعة أيام ويؤخذ للمتنجس من رماد البقرة ويصب في وعاء ماء عذب وينضح منه - على كيفية ذكرها - ليكون زكياً، ومن تنجس ولم يرش عليه من ذلك الماء تهلك نفسه من جماعتها، ومن دنا من ماء الرش يكون نجساً إلى الليل، ومن اقترب إلى ذلك الذي تنجس يكون نجساً إلى الليل - ثم قال: ثم كلم الرب موسى وقال له: مر بني إسرائيل وقل لهم: قرابتي تكون محفوظة في أوقاتها - ثم ذكر له كثيراً من أمر القرابين، ثم ذكر من أوقاتها يوم السبت ورؤوس الشهور، ثم قال: وفي أربع عشرة ليلة من الشهر الأول هو فصح الرب، ويوم خمسة عشر اتخذه عيداً، واكلوا الفطير سبعة أيام، وصيروا أول يوم من السبعة مميزاً مطهراً، لا تعملوا فيه عملاً، واليوم السابع يكون مميزاً مطهراً لا تعملوا فيه عملاً وأول يوم من الشهر السابع يكون مختصاً مطهراً، لا تعملوا فيه عملاً مما يعمل، بل صيره يوماً يهتف فيه بالقرون، وقربوا ذبائح كاملة - ثم وصفها وكذا غيره من الأيام ثم قال: وكذلك فافعلوا في أول الشهر أبدأ، وفي عشر من الشهر السابع اجعلوه يوماً مختصاً، مطهراً لا تعملوا فيه عملاً، ولكن قربوا، ويوم خمسة عشر من هذا الشهر السابع، ويكون مدعواً، لا تعملوا فيه عملاً، بل اتخذه عيداً للرب سبعة أيام؛ ثم قال: حتى إذا كان اليوم الثامن فاحتفلوا بأجمعكم، ولا تعملوا شيئاً مما يعمل، وقربوا قرابين كاملة - وأطال في ذلك جداً على كفيات حفظها فضلاً عن العمل بها في غاية المشقة؛ ثم قال: وقربوا للرب في أيام أعيادكم غير ندوركم وغير خواصكم التي تختصون للرب؛ ثم قال مخاطباً للمجاهدين في مدين: وأما أنتم فانزلوا خارجاً من العسكر سبعة أيام، كل من قتل نفساً أو مس قتيلاً ينضح عليه من ماء التطهير في الثالث والسابع - وأمرهم بأشياء من الأصار ثم قال: وتطهروا بالماء في اليوم السابع، ثم بعد ذلك تدخلون العسكر؛ ثم قال في الخامس: هذه السنن والأحكام التي يجب عليكم أن تعملوها وتحفظوها في الأرض التي يعطيكم الله ريبكم ميراثاً كل أيام حياتكم، خربوا كل البلدان التي ترثونها، والآلهة التي عبدها أهلها فيها على الجبال الرفيعة والآكام وتحت كل شجرة كبيرة تظل، واستأصلوا مذابحهم وكسروا أنصابهم، وأحرقوا أصنامهم المصنوعة و أوثانهم المنحوتة، ولا تصنعوا أنتم مثل ما صنع أولئك في عبادتكم الله ريبكم، ولكن المواضع التي يختار الله ريبكم أن تصيروا اسمه فيها من جميع قبائلكم، وافحصوا عن محلته، وانطلقوا بجمعكم بقرابينكم الكاملة، كلوا هناك أمام الله ريبكم أنتم وأهاليكم، ولا تعملوا كما يعمل هاهنا اليوم أي قبل الوصول إلى أرض الميراث؛ ثم قال: انظروا لا تقربوا قرابينكم في المواضع التي تريدون، لكن في المواضع الذي يختار الرب، في حد

سبط من أسباطكم؛ ثم قال: وإذا بنيت بيتاً جديداً فحجر على البيت لثلا يقع إنسان من فوقه فليلزمك دمه، ولا تزرعن في حرثك خلطاً لثلا تفسد غلة زرعك وكرمك، لا تحرث بالثور والحمار جميعاً، ولا تنسج ثوباً من قطن ووصوف جميعاً، اعمل خيوطاً في أربعة أطراف رداثك الذي تلبس؛ ثم قال: وإن وجد رجل فتاة عذراء لم تملك، فيظفر بها ويضاجعها ويوجد، يدفع إلى أبيها خمسين مثقالاً من فضة، وتصير امرأته لأنه فضحها، ولا يقدر أن يطلقها حتى يموت. ولا يدخل ولد الزنا إلى بيت الرب، ولا يدخل نسله من بعده إلى عشرة أحقاب، ولا يدخل عماني ولا مؤابي إلى بيت الرب، ولا يدخل نسلهما من بعدهما إلى عشرة أحقاب، لأنهم لم يضيفوكم ولم يعشوكم بالخبز والماء حيث خرجتم من أرض مصر، ولأنهم اکتروا بلعام بن بعور من فتورام من بين النهرين - وهي حران - ليلعنكم، ولم يحب الرب أن يسمع قول بلعام بن بعور، وقلب الله لعنه إلى الدعاء، لأن الله ربكم أحبكم، فلا تريدوا لهم الخير أيام حياتكم، لا تدفعوا الأدمي عنكم لأنه أخوكم، ولا تبعدوا المصري أيضاً لأنكم كنتم سكاناً بأرض مصر، وإن كان في معسكركم رجل أصابته جنابة، يخرج خارج العسكر، ولا يجلس بين أصحابه في العسكر، وإذا كان العشي فليستحم بالماء، وإذا غابت الشمس وأمسى يدخل العسكر، وليكن لكم موضع معروف خارج العسكر تخرجون إليه إلى الخلاء، ويكون على سلاحكم وتد من حديد، فإذا جلستم للخلاء احفروا موضعاً للخلاء وغطوا رجليكم، لأن الله ربكم معكم في العسكر لينقذكم ويدفع عنكم أعداءكم، فليكن معسكركم مطهراً مزيماً لثلا يرى فيكم أمراً قبيحاً، فيرتفع عنكم ولا يصحبكم؛ ثم قال: وإن سكن أخوان جميعاً ومات أحدهما ولم يخلف ولداً، لا تتزوج امرأته من رجل غريب، ولكن يتزوج بها وارثه ويقيم زرعاً، وأول ولد تلد ينسب إلى أخيه الذي مات، ويقال إنه ابن ذلك الذي مات ولم يخلف ولداً، لثلا يبيد اسمه من بني إسرائيل، وإن لم يعجب الرجل أن يتزوج امرأة أخيه، ترتفع امرأة أخيه إلى المشيخة فيدعونه، فإن ثبت على قوله تتقدم إليه المرأة بين يدي المشيخة وتخلع خفيه من قدميه وتبصق في وجهه وتقول: كذلك يصنع بالرجل الذي لا يحب أن يبني بيتاً لأخيه، ويدعى اسمه بين بني إسرائيل: صاحب خلع الخفين، وإن شاجر الرجل صاحبه فذنت امرأة أحدهما لتخلص زوجها من الذي يقاتله، فتمد يدها إلى مذاكير الرجل، يقطع يدها ولا يشفق عليها ولا يترحم - انتهى. وكل هذه الآصار على النصارى أيضاً ما لم يرد في الإنجيل نسخها.

﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدَلُونَ ﴿١٥٩﴾ .

ولما تم ما نظمته تعالى في أثناء هذه القصص من جواهر أوصاف هذا النبي الكريم حثاً على الإيمان به وإيجاباً له على وجه علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف تقدم زمانه أو تأخر؛ أمره سبحانه أن يصرح بما تقدم التلويح إليه، ويصرح بما أخذ ميثاق الرسل عليه تحقيقاً لعموم رسالته وشمول دعوته فقال: ﴿قل﴾ وأتى بأداة البعد لأنه محلها ﴿يأيها الناس﴾ وقد مضى في الأنعام أن اشتقاقهم من النوس، وأن الإمام السبكي قال: إن ذلك يقتضي دخول الجن والملائكة فيهم. وتقدم عند ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ في هذه السورة ما ينفع هنا ﴿إني رسول الله﴾ أي الذي له جميع الملك ﴿إليكم جميعاً﴾ أي لا فرق بين من أدركني ومن تأخر عني أو تقدم علي في أن الكل يشترط عليهم الإيمان بي والاتباع لي؛ وهذا المراد بقوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه حين رفع إليه الذراع فنهش منها فقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة»^(١) وللدارمي في أوائل مسنده عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر»^(٢) وللترمذي في المناقب عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مستشفعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أسوا لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»^(٣) وقال: حديث حسن غريب، وله في المناقب أيضاً عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر»^(٤) وقال: حسن صحيح غريب؛ وللترمذي والدارمي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ألا! وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر،

(١) أخرجه البخاري ٣٣٤٠ ومسلم ١٩٤ والترمذي ٢٤٣٤ وابن حبان ٦٤٦٥ وابن منده في الإيمان ٨٨٢ وأحمد ٤٣٥/٢ - ٤٣٦ من حديث أبي هريرة، مطولاً، وفيه حديث الشفاعة.

(٢) أخرجه الدارمي ٢٧/١ من حديث جابر بهذا اللفظ وإسناده حسن وشواهد تقويه.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٦١٠ والدلمي في الفردوس ١١٧ من حديث أنس قال الترمذي: حسن غريب اهـ. في إسناده الحسين بن يزيد الكوفي لين الحديث، لكن للحديث شواهد كثيرة، وانظر جامع الأصول ٨/٦٣٢٦.

(٤) أخرجه الترمذي بإثر ٣٦١٣ وابن ماجه ٤٣١٤ وأحمد ١٣٧/٥ و ١٣٨ من حديث أبي بن كعب. قال الترمذي: حديث حسن وهو كما قال، انظر جامع الأصول ٦٣٢٧.

وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر» وللترمذي^(١) وقال: حسن - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي^(٢) الفخر: ادعاء العظمة والكبر والشرف، أي لا أقوله تبجحاً، ولكن شكراً وتحديثاً بالنعمة؛ وما اجتمع بهم في مجمع إلا كان إمامهم قبل موته وبعده، اجتمع بهم ليلة الإسراء في بيت المقدس فصلى بهم إماماً، ثم اجتمع بهم في السماء فصلى بجميع أهل السماء إماماً، وأما يوم الجمع الأكبر والكرب الأعظم فيحيل الكل عليه ويؤمنون بالرسالة، وما أحال بعض الأكابر على بعض إلا علماً منهم بأن الختام يكون به. ليكون أظهر للاعتراف بأمانته والانقياد لطاعته، لأن المحيل على المحيل على الشيء محيل على ذلك الشيء، ولو أحال أحد ممن قبل عيسى عليه السلام عليه لطرقة احتمال، والحاصل أنه ﷺ يظهر في ذلك الموقف رسالته بالفعل إلى الخلق كافة، فيظهر سر هذه الآية ﴿الذين يتبعون الرسول﴾ والله الموفق.

ولما دل بالإضافة إلى اسم الذات الدال على جميع الصفات على عموم دعوته وشمول رسالته حتى للجن والملائكة، أيد ذلك بقوله: ﴿الذي له﴾ أي وحده ﴿ملك السموات والأرض﴾ أي فلا بدع أن يرسله إلى جميع من فيهما، بل وما فيهما.

ولما كان مما بالغه في الدنيا أنه ربما كان في مملكة الملك من يناظره أو يقرب منه من ولي عهد أو نحوه، فربما رد بعض أمره في صورة نصح أو غيره؛ نفى ذلك بقوله مبيناً تمام ملكه: ﴿لا إله إلا هو﴾ أي فالكل منقادون لأمره خاضعون له، لأنه لا موجود بالفعل ولا بالإمكان من يصلح للإلهية سواه؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿يحيي ويميت﴾ أي له هاتان الصفتان مختصاً بهما، ومن كان كذلك كان منفرداً بما ذكر، وإذا راجعت ما يأتي إن شاء الله تعالى في أول الفرقان مع ما مضى في أوائل الأنعام، لم يبق عندك شك في دخول الملائكة عليهم السلام في عموم الدعوة.

ولما تقرر أنه لا منازع له، تسبب عن ذلك توجيه الأمر بالانقياد لرسوله فقال: ﴿فأمنوا بالله﴾ أي لما ثبت له من العظمة والإحاطة بأوصاف الكمال وبكل شيء فإن الإيمان به أساس لا ينبنى شيء من الدين إلا عليه.

(١) أخرجه الترمذي ٣٦١٦ والدارمي ٢٦/١ من حديث ابن عباس. قال الترمذي: غريب أه لم يحسنه لأن فيه زمعة بن صالح، وهو ضعيف، لكن للحديث شواهد.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٦١٥ وابن ماجه ٤٣٠٨ وأحمد ٢/٣ من حديث أبي سعيد والنلفظ للترمذي وقال: حسن صحيح، وحسنه الأرنؤوط في جامع الأصول ٨/٦٣٢٥.

ولما كان أقرب الفروع الأصلية إليه الرسالة قال: ﴿ورسوله﴾ أي لأنه رسوله؛ ثم وصفه بما دل على قربة فقال: ﴿النبي﴾ أي الذي يخبره بما يريد من الأمور العظيمة غيباً وشهادة، ويعليه عن كل مخلوق بإخباره بإرساله؛ ولما كان علوه على كل عالم - مع أنه لم يتعلم من آدمي - أدل شيء على صدقه قال: ﴿الأمي﴾ أي الذي هو - مع كونه لا يحسن كتابة ولا قراءة، بل هو على الفطرة الأولى السليمة التي لم يخالطها هوى، ولا دنسها حظ ولا شهوة - بحيث يؤم ويقصد للاقتداء به، لما حوى من علوم الدنيا والآخرة والتخلق بأوصاف الكمال.

ولما أشار بهذه الصفة إلى أن سبب الإيمان الخلاص من الهوى بالكون على الفطرة الأولى، قال منبهاً على وجوب الإيمان به، لكونه أول فاعل لما يدعو إليه: ﴿الذي يؤمن بالله﴾ أي لأجل ما يقتضيه ذاته سبحانه من التعبد له لما له من العظمة، فكلما تجدد له علم من علوم الذات بحسب ترقيه في رتب الكمال من رتبة كاملة إلى أكمل منها إلى ما لا نهاية له، جدد له إيماناً بحسبه، لا تعتريه غفلة ولا يخالطه سهو ولا شائبة فتور ﴿وكلمته﴾ كذلك أيضاً، كلما تجدد له علم بصفة منها جدد لها إيماناً، ومنها المعجزات التي جرت على يديه، كل واحدة منها كلمة لأن ظهوره بالكلمة، كما سمي عيسى عليه الصلاة والسلام كلمة لذلك.

ولما تقرر أنه امتثل ما أمر به، فثبتت بذلك رسالته، استحق أن يكون قدوة فقال: ﴿واتبعوه﴾ أي في كل ما يقول ويفعل مما ينهى عنه أو يأمر به أو يأذن فيه ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجى له حصول ما سأل في الفاتحة من الاهتداء، أي خلق الهداية في القلب مع دوامه.

ولما كثر عد مثالب بني إسرائيل، وختم بتخصيص المتبع لهذا النبي الكريم بالهداية والرحمة المسببة عنها، وكان فيهم المستقيم على ما شرعه له ربه، المتمسك بما لزمه أهل طاعته وحزبه، سواء كان من صفات النبي ﷺ أو غيرها، مع الإذعان لذلك كله؛ نبه عليه عائداً إلى تتميم أخبارهم، ثم ما وقع في أيام موسى عليه السلام وبعدها من شرارهم، تعزية لهذا النبي الكريم وتسلية، وتطيباً لنفسه الزكية وتأسية، وهو مع ما بعده من أدلة ﴿سأصرف عن آيتي﴾ [الأعراف: ١٤٦] فقال تعالى عاطفاً على ﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ [الأعراف: ١٤٨] ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ أي قوم يستحقون أن يؤموا لأنهم لا يتكبرون في الأرض بغير الحق، بل ﴿يهدون﴾ أي يوقعون الهداية وهي البيان ﴿بالحق وبه﴾ أي خاصة ﴿يعدلون﴾ أي يجعلون القضايا المختلفة المتنازع فيها

معادلة ليقع الرضى بها، لا يقع منهم جور في شيء منها، ومنهم الذين اتبعوا النبي ﷺ كعبد الله بن سلام ومخيريق رضي الله عنهما.

﴿ وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمَهُ ۖ
 أَنِ اصْرَبِ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
 مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ ۖ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
 رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ
 اسْكُونُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
 سُجَّدًا نَّفَعِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٧﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
 يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي
 السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
 كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٩﴾ ۝

ولما مدحهم، شرع يذكرهم شيئاً مما أسبغ عليهم من النعم لأجل هؤلاء المهتدين من التكثير بعد القلة والإعزاز بعد الذلة بجعلهم ممن يؤم استعطافاً لغيرهم، ويذكر بعض عقوباتهم ترهيباً فقال: ﴿وقطعناهم﴾ أي فرقنا بينهم بالأشخاص بعد أن كانوا ماء واحداً من شخص واحد، وهو إسرائيل عليه السلام؛ وصرح بالكثرة بعد أن لوح بها بالتقطيع بقوله: ﴿اثنتي عشرة﴾ وميزه - موضع المفرد الذي هو مميز العشرة - بالجمع للإشارة إلى أن كل سبط يشتمل لكثرتة على عدة قبائل بقوله: ﴿أسباطاً﴾ والسبط - بالكسر: ولد الولد، والقبيلة من اليهود، وهذه المادة تدور على الكثرة والبسط؛ وبين عظمتهم وكثرة انتشارهم وتشعبهم بقوله: ﴿أماماً﴾ أي هم أهل لأن يقصدهم الناس لما لهم من الكثرة والقوة والدين، أو أن كل أمة منهم تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى من غيرهم ديناً.

ولما وصفهم بهذه الكثرة، وكان ذلك مجرى لذكر الإنعام عليهم بالكفاية في الأكل والشرب، ذكر نعمة خارقة للعادة في الماء، وبدأ به لأنه الأصل في الحياة، وهي من نوع تقسيمهم من نفس واحدة مشيرة إلى ظلمهم وإسراعهم في المروق فقال: ﴿وأوحينا إلى موسى إذ﴾ أي حين ﴿استسقه قومه﴾ أي طلبوا منه في برية لا ماء بها أن يسقيهم، وذلك في التيه، والتعبير بالقوم إشارة إلى تبيكتهم بكونهم أهل قوة ولم يتأسوا بموسى عليه السلام في الصبر إلى أن يأتي الله الذي أمرهم بهذا المسير بالفرج، بل

طلبوا منه ذلك على الوجه المذكور في البقرة من إظهار القلق والدمدمة ﴿أن اضرب بعصاك﴾ أي التي جعلناها لك آية وضربت بها البحر فانفلق ﴿الحجر﴾ أي أي حجر أردته من هذا الجنس؛ وبين سبحانه سرعة امتثال موسى عليه السلام وسرعة التأثير عن ضربه بحذف: فضربه، وقوله مشيراً إليه: ﴿فانبجست﴾ أي فانشقت وظهرت ونبعت، وذلك كاف في تعنيفهم وذمهم على كفرهم بعد المن به، وهذا السياق الذي هو لبيان إسرعهم في المروق هو لا ينافي أن يكون على وجه الانفجار، ويكون التعنيف حينئذ أشد ﴿منه اثنتا عشرة عيناً﴾ على عدد الأسباط، وأشار إلى شدة تمايزها بقوله؛ ﴿قد علم كل أناس﴾ أي من الأسباط ﴿مشربهم﴾ ولما لم يتقدم للأكل ذكر ولا كان هذا سياق الامتنان، لم يذكر ما أتم هذه الآية به في البقرة.

ولما ذكر تبريد الأكباد بالماء، أتبعه تبريدها بالظل فقال: ﴿وظللنا﴾ أي في التيه ﴿عليهم الغمام﴾ أي لثلا يتأذوا بالشمس؛ ولما أتم تبريد الأكباد، أتبعه غذاء الأجساد فقال: ﴿وأنزلنا عليهم المن﴾ أي خبزاً ﴿والسلوى﴾ أي إداماً؛ وقال السموأل بن يحيى: وهو طائر صغير يشبه السمانى، وخاصيته أن أكل لحمه يلين القلوب القاسية، يموت إذا سمع صوت الرعد كما أن الخطاف يقتله البرد، فيلهمه الله عز وجل أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون بها مطر ولا رعد إلى انفصال أوان المطر والرعد، فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض.

ولما ذكر عظمته في ذلك، ذكر نتيجته فقال: ﴿كلوا من طيبت ما رزقناكم﴾ أي بصفة العظمة القاهرة لما نريد مما لم تعالجوه نوع معالجة، ودل على أنهم قابلوا هذا الإحسان بالطغيان والظلم والعدوان بقوله عطفاً على ما تقديره: فعدلوا عن الطيبات المأذون فيها، وأكلوا الخبائث التي حرمانها عليهم بالاصطياد يوم السبت - كما يأتي - وفعلوا غير ذلك من المحرمات، فظلموا أنفسهم بذلك: ﴿وما ظلمونا﴾ أي بشيء مما قابلوا فيه الإحسان بالكفران ﴿ولكن كانوا﴾ أي دائماً جبلة وطبعاً ﴿أنفسهم﴾ أي خاصة ﴿يظلمون﴾ وهو - مع كونه من أدلة ﴿سأصرف عن آيتي﴾ الآية - دليل على صحة وصف هذا الرسول بالنبى، فإن من علم هذه الدقائق من أخبارهم مع كونه أمياً ولم يخالط أحداً من أخبارهم، كان صادقاً عن علام الغيوب من غير مؤيد وكذا ما بعده.

ولما ذكر ما حباهم به في القفار، أتبعه إنعامه عليهم عند الوصول إلى الدار فقال: ﴿وإذ﴾ أي اذكر لهم هذا ليصدقوك أو يصيروا في غاية الظلم كأصحاب السبت فيتوقعوا مثل عذابهم، واذكر لهم ما لم تكن حاضرهم ولا أخذته عنهم، وهو وقت إذ، وعدل عن الإكرام بالخطاب ونون العظمة، لأن السياق للإسراع في الكفر فقال: ﴿قيل لهم

اسكنوا ﴿ أي ادخلوا مطمئنين على وجه الإقامة، ولا يسمى ساكناً إلا بعد التوطن بخلاف الدخول، فإنه يكون بمجرد الولوج في الشيء على أي وجه كان ﴿ هذه القرية ﴾ فهو دليل آخر على الأمرين: الصرف والصدق؛ وعبر هنا بالمجهول في ﴿ قيل ﴾ إعرافاً عن تليذهم بالخطاب إيذاناً بأن هذا السياق للغضب عليهم بتساقطهم في الكفر وإعراضهم عن الشكر، من أي قائل كان وبأي صيغة ورد القول وعلى أي حالة كان، وإظهاراً للعظمة حيث كانت، أدنى إشارة منه كافية في سكناهم في البلاد واستقرارهم فيها قاهرين لأهلها الذين ملؤوا قلوبهم هيبة حتى قالوا ﴿ إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولما خلت نعمة الأكل في هذا السياق عما دعا إليه سياق البقرة من التعقيب وهو الاستعطاف، ذكرت بالواو الدالة على مطلق الجمع، وهي لا تنافي تلك، فقال: ﴿ واكلوا منها ﴾ أي القرية ﴿ حيث شئتم ﴾ وأسقط الرغد لذلك، وقدم ﴿ وقلوا حطة ﴾ ليكون أول قارع للسمع مما أمروا به من العبادة مشعراً بعظيم ما تحملوه من الآثام، إيذاناً بما سيق له هذه القصص في هذه السورة من المقام.

ولما أمروا بالحطة قولاً، أمروا أن يشفعوها بفعل، لتحت عنهم ذنوبهم، ولا ينافي التقديم هنا التأخير في البقرة، لأن الواو لا ترتب، فقال: ﴿ وادخلوا الباب ﴾ أي باب بيت المقدس حال كونكم ﴿ سجداً نغفر لكم ﴾ ولما كان السياق هنا لبيان إسراعهم في الكفر، ناسب ذلك جمع الكثرة في قوله: ﴿ خطاياكم ﴾ في قراءة أبي عمرو، وأما قراءة ابن عامر ﴿ خطيتكم ﴾ بالأفراد وقراءة غيرهما ﴿ خطياتكم ﴾ جمع قلة فللاشارة إلى أنها قليل في جنب عفوه تعالى، وكذا بناء ﴿ تغفر ﴾ للمجهول تأنيثاً وتذكيراً، كل ذلك ترجية لهم واستعطافاً إلى التوبة، ولذلك ساق سبحانه ما بعده مساق السؤال لمن كأنه قال: هذا الرجاء قد حصل، فهل مع المغفرة من كرامة؟ فقال: ﴿ سنزيد ﴾ أي بوعد لا خلف فيه عن قريب، وهو لا ينافي إثبات الواو في البقرة ﴿ المحسنين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف، وللسياق الذي وصفت قيد قوله: ﴿ فبدل الذين ظلموا ﴾ بقوله: ﴿ منهم ﴾ لثلاث يتوهم أنهم من الدخلاء فيهم ﴿ قولاً غير الذي ﴾.

ولما كان من المعلوم أن القائل من له إلزامهم، بناء للمجهول فقال: ﴿ قيل لهم ﴾ وقال: ﴿ فأرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ عليهم ﴾ بالإضمار تهويلاً لاحتمال العموم بالعذاب ﴿ رجزاً من السماء ﴾ ولفظ الظلم - في قوله: ﴿ بما كانوا يظلمون ﴾ بما يقتضيه من أنهم لا ينفكون عن الكون في الظلام إما مطلقاً وإما مع تجديد فعل فعل من

هو فيه - أهول من لفظ الفسق المقتضي لتجديد الخروج مما ينبغي الاستقرار فيه، كما أن لفظ الإرسال المعدى بـ ﴿على﴾ كذلك بالنسبة إلى لفظ الإنزال.

ولما فرغ من هتك أستارهم فيما عملوه أيام موسى عليه السلام وما يليها، أتبعه خزيًا آخر أشد مما قبله، كان بعد ذلك بمدة لا يعلمه أحد إلا من جهتهم أو من الله، وإذا انتفى الأول ثبت الثاني، فقال: ﴿وسئلهم﴾ أي بني إسرائيل مبكتاً لهم ومقرراً ﴿عن القرية﴾ أي البلد الجامع ﴿التي كانت حاضرة البحر﴾ أي على شاطئه وهي أيلة، ولعله عبر بالسؤال، ولم يقل: وإذ تعدو القرية التي - إلى آخره، ونحو ذلك، لأن كراحتهم للإطلاع على هذه الفضيحة أشد مما مضى، وهي دليل على الصرف والصدق. ولما كان السؤال عن خبر أهل القرية قال مبدلاً بدل اشتغال من القرية: ﴿إذ﴾ أي حين ﴿يعدون﴾ أي يجوزون الحد الذي أمرهم الله به ﴿في السبت إذ﴾ أي العدو حين ﴿تأتيهم﴾ وزاد في التبيكيت بالإشارة إلى المسارعة في الكفر بالإضافة في قوله: ﴿حينانهم﴾ إيماء إلى أنها مخلوقة لهم، فلو صبروا نالوها وهم مطيعون، كما في حديث جابر رضي الله عنه رفعه «بين العبد وبين رزقه حجاب، فإن صبر خرج إليه، وإلا هتك الحجاب ولم ينل إلا ما قدر له»^(١) ﴿يوم سبتهم﴾ أي الذي يعظمونه بترك الاشتغال فيه بشيء غير العبادة ﴿شرعاً﴾ أي قريبة مشرفة لهم ظاهرة على وجه الماء بكثرة، جمع شارعة وشارع أي دان ﴿ويوم لا يستون﴾ أي لا يكون سبت، ولعله عبر بهذا إشارة إلى أنهم لو عظموا الأحد على أنه سبت جاءتهم فيه، وهو من: سبتت اليهود - إذا عظمت سبتها ﴿لا تأتيهم﴾ أي ابتلاء من الله لهم، ولو أنهم صبروا أزال الله هذه العادة فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

ولما كان هذا بلاء عظيماً، قال مجيباً لسؤال من كأنه قال لشدة ما بهره من هذا الأمر: هل وقع مثل هذا؟ مشيراً إلى أنه وقع، ولم يكتف به، بل وقع لهم أمثاله لإظهار ما في عالم الغيب منهم إلى عالم الشهادة: ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا البلاء العظيم ﴿نبلوهم﴾ أي نجدد اختبارهم كل قليل ﴿بما﴾ أي بسبب ما ﴿كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿يفسقون﴾ أي يجددون في علمنا من الفسق، وهو الخروج مما هو أهل للتوطن من الطاعات.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّاكَ رَبِّكَ وَعَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١٦٦) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس ٢١٦٢ من حديث جابر وفيه مجاهيل.

الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَعْيسٍ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧١﴾ .

ولما أخبر أن الفسق ديدنهم، أكده بقوله عطفاً على ﴿إذ يعدون﴾ [الأعراف: ١٦٣] ﴿وإذ﴾ أي وأسألهم عن خبرهم حين ﴿قالت أمة منهم﴾ أي جماعة ممن يعتبر ويقصد من الواعظين الصالحين الذين وعظوا حتى أسوا لأمة أخرى منهم لا يقلعون عن الوعظ تخويفاً للموعوظين بما يتجاوزون به ﴿لم تعظون قوماً﴾ أي معتمدين على قوتهم ﴿الله﴾ أي الذي له الملك كله ﴿مهلكهم﴾ أي لا محالة لأنهم لا ينتهون عن الفساد ولا يتعظون بالمواعظ ﴿أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ أي بعظيم ما يرتكبونه وتماديهم فيه ﴿قالوا﴾ أي الأمة الأخرى من الواعظين: وعظنا ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أي المحسن إليكم بالحفظ عما وقعوا فيه من الذنب والإقبال على الوعظ حتى إذا سئلنا عن أمرنا في عصيانهم نقول: فعلنا في أمرهم جهدنا، هذا إن لم يرجعوا ﴿ولعلمهم يتقون﴾ أي وليكون حالهم حال من يرجى خوفه الله فيرجع عن غيه .

ولما تراجعوا بهذا الكلام ليكون زاجراً للعاصين فلم يرجعوا، أخبر أنه صدق ظنهم بإيقاع الأمرين معاً: العذاب الشديد والإهلاك، فقال: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي فعلوا في إعراضهم عنه فعل الناسي وتركوه ترك المنسي، وهو أن الله لا يهملهم كما أن الإنسان لا يمكن أن يهمل أحداً تحت يده، ليفعل ما يشاء من غير اعتراض ﴿أنجيناً﴾ أي بعظمتنا ﴿الذين ينهون﴾ أي استمروا على النهي ﴿عن السوء﴾ أي الحرام ﴿وأخذنا﴾ أي أخذ غلبة وقهر ﴿الذين ظلموا﴾ أي بالعدو في السبت ﴿بعذاب بئس﴾ أي شديد جداً ﴿بما كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿يفسقون﴾ أي بسبب استمرارهم على تجديد الفسق .

ولما ذكر ما هددهم به من العذاب الشديد، أتبعه الهلاك فقال: ﴿فلما عتوا﴾ أي تكبروا جلافة ويبساً عن الانتهاء ﴿عن ما نهوا عنه﴾ أي بعد الأخذ بالعذاب الشديد، وتجاوزوا إلى الاجترار على جميع المعاصي عناداً وتكبراً بغاية الوقاحة وعدم المبالاة، كان مواقعتهم لذلك الذنب وإمهالهم مع الوعظ أكسبتهم ذلك وغلظت أكبادهم عن الخوف بزاجر العذاب، من عتا يعتو عتواً - إذا أقبل على الآثام، فهو عات، قال عبد الحق في كتابه الواعي: وقيل إذا أقدم على كل أمره، ومنه هذه الآية، وقيل: العاتي هو المبالغ في ركوب المعاصي، وقيل: المتمرد الذي لا ينفذ فيه الوعظ والتوبيخ، ومنه قوله سبحانه ﴿فعتوا عن أمر ربهم﴾ [الذاريات: ٤٤] أي جاوزوا المقدار والحد في

الكفر - انتهى . وحقيقته : جاوزوا الأمر إلى النهي ، أو جاوزوا الائتمار بأمره ، والمادة ترجع إلى الغلظ والشدة والصلابة ﴿قلنا لهم﴾ أي بما لنا من القدرة العظيمة ﴿كونوا قردة﴾ أي في صورة القردة حال كونكم ﴿خسئين﴾ أي صاغرين مطرودين بعيدين عن الرحمة كما يبعد الكلب . ولما تبين بما مضى من جرأتهم على المعاصي وإسراعهم فيها استحقاقهم لدوام الخزي والصغار ، أخبر أنه فعل بهم ذلك على وجه موجب للقطع بأنهم مرتكبون في الضلال ، مرتكبون سىء الأعمال ، ما دام عليهم ذلك النكال ، فقال : ﴿وإذ﴾ وهو عطف على ﴿وسئلهم﴾ أي واذكر لهم حين ﴿تأذن﴾ أي أعلم إعلاماً عظيماً جهراً معتنى به ﴿ربك﴾ أي المربي لك والممهد لأدلة شريعتك والناصر لك على من خالفك .

ولما كان ما قيل جارياً مجرى القسم ، تلقى بلامه ، فكان كأنه قيل : تأذن مقسماً بعزته وعظمته وعلمه وقدرته : ﴿ليبعثن﴾ أي من مكان بعيد ، وأفهم أنه بعث عذاب بأداة الاستعلاء المفهمة لأن المعنى : ليسلطن ﴿عليهم﴾ أي اليهود ، ومد زمان التسليط فقال : ﴿إلى يوم القيمة﴾ الذي هو الفيصل الأعظم ﴿من يسومهم﴾ أي ينزل بهم دائماً ﴿سوء العذاب﴾ بالإذلال والاستصغار وضرب الجزية والاحتقار ، وكذا فعل سبحانه فقد سلط عليهم الأمم ومزقهم في الأرض كل ممزق من حين أنكروا رسالة المسيح عليه السلام ، كما أتاهم به الوعد الصادق في التوراة ، وترجمة ذلك موجودة بين أيديهم الآن في قوله في آخر السفر الأول : لا يزول القضيبي من آل يهودا ، لا يعدم سبط يهودا ملكاً مسلطاً واتخاذة نبياً مرسلأ حتى يأتي الذي له الملك - وفي نسخة : الكل - وإياه تنتظر الشعوب ، يربط بالحبله جحشه ؛ وقال السموأل في أوائل كتابه غاية المقصود : نقول لهم : فليس في التوراة التي في أيديكم ما تفسيره : لا يزول الملك من آل يهودا والراسم بين ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح فلا يقدرن على جحده ، فنقول لهم : إذا علمتم أنكم كنتم أصحاب دولة وملك إلى ظهور المسيح ثم انقضى ملككم - انتهى . ومن أيام رسالة المسيح سلط الله عليهم الأمم ومزقهم في الأرض ، فكانوا مرة تحت حكم البابليين ، وأخرى تحت أيدي المجوس ، وكرة تحت قهر الروم من بني العيص ، وأخرى في أسر غيرهم إلى أن أتى النبي ﷺ فضرب عليهم الجزية هو وأمه من بعده .

ولما كان السياق للعذاب وموجباته ، علل ذلك مؤكداً بقوله : ﴿إن ربك﴾ أي المحسن إليك بإذلال أعدائك الذين هم أشد الأمم لك ولمن آمن بك عداوة ﴿لسريع العقاب﴾ أي يعذب عقب الذنب بالانتقام باطناً بالنكتة السوداء في القلب ، وظاهراً - إن أراد - بما يريد ، وهذا بخلاف ما في الأنعام فإنه في سياق الإنعام بجعلهم خلائف .

ولما رهب، رغب بقوله: ﴿وإنه لغفور﴾ أي محاء للذنوب عيناً وأثراً لمن تاب وآمن ﴿رحيم﴾ أي مكرم منعم بالتوفيق لما يرضاه ثم بما يكون سبباً له من الإغلاء في الدنيا والآخرة.

﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْحَابًا مِّنْهُمْ أَصْحَابَ الْأَنْبِيَاءِ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٧﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّثْلُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ الْأَخْرَةُ حَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ .

ذكر شيء مما هددوا به في التوراة على العصيان والبغي والعدوان غير ما تقدم في المائدة عند ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ [المائدة: ٦٠] وغيرها من الآيات - قال في السفر الخامس: وإن لم تحفظ وتعمل بجميع الوصايا والسنن التي كتبت في هذا الكتاب وتثق الله ربك وتهب اسمه المحمود المرهوب، يخصك الرب بضربات موجعة وبتليك بها، وبيتلي نسلك من بعدك وتدوم عليك، ويبقى من نسلك عدد قليل من بعد كثرتهم التي كانت قد صارت مثل نجوم السماء، وتجلون عن الأرض التي تدخلونها لثروها، ويفرقكم الرب بين الشعوب، وتعبدون هنالك الآلهة الأخرى التي عملت من الحجارة والخشب، ولا تسكنون أيضاً بين تلك الشعوب، ولكن يصير الله قلوبكم هناك فرعة مرتجفة بالغداة تقولون: متى نمسي؟ وبالعشي تقولون: متى نصبح؟ وذلك من فزع قلوبكم وخوفكم وقلة حيلتكم، ويردكم الله إلى أرض مصر في ألوف في الطريق الذي قال الرب: لا تعودوا أن تروه، وتباعون هناك عبيداً وإماء، ولا يكون من يشتريكم - هذه أقوال العهد التي أمر الله بها موسى أن يعاهد بني إسرائيل في أرض مؤاب سوى العهد الذي عاهدهم بحوريب؛ ثم دعا موسى جميع بني إسرائيل وقال لهم: قد رأيتم ما صنع الله بأرض مصر بفرعون وجميع عبيده وكل شعبه والبلايا العظيمة التي رأت أعينكم والآيات والأعاجيب التي شهدتموها، ولم يعطكم الرب قلوباً تفهم وتعلم، ولا أعيناً تبصر ولا آذاناً تسمع إلى يومنا هذا، ودبركم في البرية أربعين سنة، لم تبل ثيابكم عليكم ولم تخلق خفافكم أيضاً ولم تأكلوا خبزاً، لتعلموا أنني أنا الله ربكم، وأنا الذي أتيت بكم إلى هذه البلاد، فاحفظوا وصايا هذه التوراة واعملوا بها وأتموا جميع الأعمال في طاعة الله وأكملوها، لأنكم قد عرفتم جميعاً أننا كنا سكاناً بأرض مصر وجزنا بين الشعوب، ورأيتم نجاستهم وأصنامهم، لعل فيكم اليوم رجلاً أو امرأة أو قبيلة أو سبطاً

يميل قلبه عن عبادة الله ربنا ويطلب عبادة آلهة تلك الشعوب، فيسمع أقوال هذا العهد فيقول: يكون لي السلام فاتبع مسرة قلبي، هذا لا يريد الرب أن يغفر له، ولكن هناك يشتد غضب الرب وزجره عليه وينزل به كل اللعن الذي في هذا الكتاب، ويستأصل الرب اسمه من تحت السماء ويفرزه الرب من جميع أسباط بني إسرائيل للشر والبلايا، ويقول الحقب الآخر بنوكم الذين يقومون من بعدكم والغرباء، وينظرون إلى ضربات تلك الأرض والأوجاع أنزل الله بها ويقول الشعب: لماذا صنع الرب هكذا؟ ولماذا اشتد غضبه على هذا الشعب العظيم؟ ويقولون: لأنهم تركوا عهد الله إله آبائهم، فاشتد غضب الرب على هذه الأمة وأمر أن ينزل بها كل اللعن الذي كتب في هذا الكتاب، ويجليهم الرب عن بلادهم بغضب وزجر شديد ويبعدهم إلى أرض غريبة كما ترى اليوم، فأما الخفايا والسرائر فهي لله ربنا، والأمور الظاهرة المكشوفة هي لنا.

ولما أخبر سبحانه بالتأذن، كان كأنه قيل: فأسرعنا في عقابهم بذنوبهم وبعثنا عليهم من سامهم سوء العذاب بالقتل والسبي، فعطف عليه قوله: ﴿وقطعناهم﴾ أي بسبب ما حصل لهم من السبي المترتب على العذاب بما لنا من العظمة تقطيعاً كثيراً بأن أكثرنا تفريقهم ﴿في الأرض﴾ حال كونهم ﴿أمماً﴾ يتبع بعضهم بعضاً، فصار في كل بلدة قليل منهم ليست لهم شوكة ولا يدفعون عن أنفسهم ظلماً.

ولما كان كأنه قيل: فهل أطبقوا بعد هذا العذاب على الخير؟ قيل: لا، بل فرقتهم الأديان نحو: رقة الأبدان ﴿منهم الصالحون﴾ أي الذين ثبتوا على دينهم إلى أن جاء الناسخ له فتبعوه امتثالاً لدعوة كتابهم ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي بالفسق تارة وبالكفر أخرى ﴿وبلونهم﴾ أي عاملناهم معاملة المبتلى ليظهر للناس ما نحن به منهم عالمون ﴿بالحسنت﴾ أي النعم ﴿والسيئات﴾ أي النقم ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى رجوعه عن غيه رغبة أو رهبة.

ولما كان العذاب الذي وقع التأذن بسببه ممتداً إلى يوم القيامة، تسبب عنه قوله: ﴿فخلف﴾ أي نشأ، ولما كانوا غير مستغرقين لزمان البعد، أتى بالجاء فقال: ﴿من بعدهم خلف﴾ أي قوم هم أسوأ حالاً منهم ﴿ورثوا الكتب﴾ أي الذي هو نعمة، وهو التوراة، فكان لهم نقمة لشهادته عليهم بقبح أفعالهم، لأنه بقي في أيديهم بعد أسلافهم يقرؤونه ولا يعملون بما فيه؛ قال ابن فارس: والخلف ما جاء من بعد، أي سواء كان محرراً أو ساكناً، وقال أبو عبيد الهروي في الغريبين: ويقال: خلف سوء - أي بالسكون - وخلف صدق، وقال الزبيدي في مختصر العين: والخلف: خلف السوء بعد أبيه، والخلف: الصالح، وقال ابن القطاع في الأفعال: وخلف خلف سوء: صاروا بعد قوم

صالحين، وخَلَفَ سوء، قال الأخفش: هما سواء، أي بالسكون، منهم من يسكن ومنهم من يحرك فيهما جميعاً، ومنهم من يقول: خلف صدق - أي بالتحريك - وخلف سوء - أي بالسكون - يريد بذلك الفرق بينهما، وكل ذلك إذا أضاف، يعني فإذا لم يضاف كان السكون - للفساد، والتحريك للصلاح؛ وقال في القاموس: خلف نقيض قدام، والقرن بعد القرن، ومنه: هؤلاء خلف سوء، والرديء من القول، وبالتحريك الولد الصالح، فإذا كان فاسداً أسكنت اللام، وربما استعمل كل منهما مكان الآخر، يقال: هو خلف صدق من أبيه - إذا قام مقامه، أو الخلف بالسكون وبالتحريك سواء، الليث: خلف للأشرار خاصة، وبالتحريك ضده. والمادة ترجع إلى الخلف الذي هو نقيض قدام، كما بينت ذلك في فن المضطرب من حاشيتي على شرح ألفية العراقي.

ولما كان المظنون بمن يرث الكتاب الخير، فكان كأنه قيل: ما فعلوه من الخير فيما ورثوه؟ قال مستأنفاً: ﴿يأخذون﴾ أو يجددون الأخذ دائماً، وحقر ما أخذه بالإعلام بأنه مما يعرض ولا يثبت بل هو زائل فقال: ﴿عرض﴾ وزاده حقارة بإشارة الحاضر فقال ﴿هذا﴾ وصرح بالمراد بقوله: ﴿الأدنى﴾ أي من الوجودين، وهو الدنيا ﴿ويقولون﴾ أي دائماً من غير توبة.

ولما كان النافع الغفران من غير نظر إلى معين، بنوا للمفعول قولهم: ﴿سيغفر لنا﴾ أي من غير شك، فأقدموا على سوء وقطعوا بوقوع ما يبعد وقوعه في المستقبل حكماً على من يحكم ولا يحكم عليه، وصرح بما أفهمه ذلك من إصرارهم معجباً منهم في جزمهم بالمغفرة مع ذلك بقوله: ﴿وإن﴾ أي والحال أنه إن ﴿يأتهم عرض مثله﴾ أي في الدناءة والخسة - والحرمة كالرشي ﴿يأخذوه﴾.

ولما كان هذا عظيماً، أنكر عليهم مشدداً - للنكير بقوله مستأنفاً: ﴿ألم يؤخذ عليهم﴾ بناه للمفعول إشارة إلى أن العهد يجب الوفاء به على كل حال، ثم عظمه بقوله: ﴿ميثاق الكتب﴾ أي الميثاق المؤكد في التوراة ﴿أن لا يقولوا﴾ أي قولاً من الأقوال وإن قل ﴿على الله﴾ أي الذي له كمال العظمة ﴿إلا الحق﴾ أي المعلوم ثباته، وليس من المعلوم ثباته إثبات المغفرة على القطع بغير توبة، بل ذلك خروج عن ميثاق الكتاب.

ولما كان ربما وقع في الوهم أنه أخذ على أسلافهم ولم يعلم هؤلاء به، نفى ذلك بقوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾ أي ما في ذلك الميثاق بتكرير القراءة للحفاظ ﴿والدار الآخرة﴾ أي فعلوا ما تقدم من مجانبة التقوى والحال أن الآخرة ﴿خير﴾ أي مما يأخذون ﴿للمذين يتقون﴾ أي وهم يعلمون ذلك بإخبار كتابهم، ولذلك أنكر عليهم بقوله: ﴿أفلا

تعلقون* ﴿ أي حين أخذوا ما يشقيهم ويفنى بدلاً مما يسعدهم ويبقى، وعلى قراءة نافع وابن عامر وحفص بالخطاب يكون المراد الإعلام بتناهي الغضب.

﴿ وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أُجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ﴿١٧٧﴾ وَإِذْ نُنَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٩﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٨٠﴾

ولما بين ما للمفسدين من كونهم قالوا على الله غير الحق فلا يغفر لهم، بين ما للصلحين المذكورين في قوله ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ومنهم الصالحون﴾ [الأعراف: 159] فقال عاطفاً على تقديره: أولئك حبطت أعمالهم فيما درسوا من الكتاب، ولا يغفر لهم ما أتوا من الفساد: ﴿والذين يمسكون﴾ أي يمسكون إمساكاً شديداً يتجدد على كل وجه الاستمرار، وهو إشارة إلى أن التمسك بالسنة في غاية الصعوبة لا سيما عند ظهور الفساد ﴿بالكتاب﴾ أي فلا يقولون على الله إلا الحق، ومن جملة تمسيكهم المتجدد انتقالهم عن ذلك الكتاب عند إتيان الناسخ لأنه ناطق بذلك - والله الموفق.

ولما كان من تمسيكهم بالكتاب عند نزول هذا الكلام انتقالهم عن دينهم إلى الإسلام كما وقع الأمر به في المواضع التي تقدم بيانها، عبر عن إقامة الصلاة المعهودة لهم بلفظ الماضي دون المضارع لثلا يجعلوه حجة في الثبات على دينهم، فيفيد ضد المراد فقال: ﴿وأقاموا الصلوة﴾ وخصها إشارة إلى أن الأولين تركوها كما صرح به في آية مريم، وتنوياً بشأنها بياناً لأنها من أعظم شعائر الدين، ولما كان التقدير إخباراً عن المبتدئ: سنؤتيهم أجورهم لإصلاحهم، وضع موضعه للتعميم قوله: ﴿إنا لا نضيع﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿أجر المصلحين﴾.

ولما ذكر الكتاب أنه رهيب من مخالفته ورغبهم في مؤالفته، وكان عذاب الآخرة مستقبلاً وغائباً، وكان ما هذا شأنه لا يؤثر في الجامدين، أمره أن يذكرهم بترهيب دنيوي مضى إيقاعه بهم، ليأخذوا موثيق الكتاب لغاية الجدم مع أنه لا يعلمه إلا علماؤهم، فيكون علم الأمي له من أعلام نبوته الظاهرة فقال: ﴿وإذ﴾ أي اذكر لهم هذا، فإن لمن يتعظوا اذكر لهم إذ ﴿تنقنا﴾ أي قلنا ورفعنا، وأتى بنون العظمة لزيادة الترهيب ﴿الجبل﴾ عرفه لمعرفتهم به، وعبر به لدلالة لفظه على الصعوبة والشدة دون

الطور - كما في البقرة - لأن السياق لبيان نكدهم بإسراعهم في المعاصي الدالة على غلظ القلب .

ولما كان مستغرقاً لجميع الجهة الموازية لعساكرهم، حذف الجار فقال: ﴿فوقهم﴾ ثم بين أنه كان أكبر منهم بقوله: ﴿كأنه ظلة﴾ أي سقف، وحقق أنه صار عليهم موازياً لهم من جهة الفوق كالسقف بقوله: ﴿وظنوا﴾ هو على حقيقته ﴿أنه واقع﴾ ولما كان ما تقدم قد حقق العلو، لم يحتج إلى حرف الاستعلاء، فقال مشيراً إلى السرعة واللصوق: ﴿بهم﴾ أي إن لم يأخذوا عهد التوراة، قالوا: ولما رأوا ذلك خر كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وصار ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فزعاً من سقوطه، وهي سنة لهم في سجودهم إلى الآن، يقولون: هذه السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة .

ولما كان كأنه قيل: فقالوا: أخذنا يا رب عهدك، قال مشيراً إلى عظمته ليشند إقبالهم عليه إشارة إلى أنه علة رفع الجبل: ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ أي بعظمتنا، فهو جدير بالإقبال عليه وإن يعتقد فيه الكمال، وأكد ذلك بقوله: ﴿بقوة﴾ أي عزم عظيم على احتمال مشاقه؛ ولما كان الأخذ للشيء بقوة ربما نسيه في وقت، قال: ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي من الأوامر والنواهي وغيرهما - فلا تنسوه ﴿لعلكم تتقون﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجى تقواه، فدل سبحانه بهذا على تأكيد الموائيق عليهم في أخذ جميع ما في الكتاب الذي من جملته ألا تقولوا على الله إلا الحق ولا تكتنوا شيئاً منه، قالوا: ولما قرأ موسى عليه السلام الألواح وفيها كتاب الله لم يبق على الأرض شجر ولا جبل ولا حجر إلا اهتز، فلذلك لا ترى يهودياً يسمع التوراة إلا اهتز وأنفض رأسه .

ولما ذكر أنه ألزمهم أحكام الكتاب على هذه الهيئة القاهرة الملجئة القاسرة التي هي من أعظم الموائيق عند أهل الأخذ وأنه أكد عليهم الموائيق في كثير من فصول الكتاب، وكان ذلك كله خاصاً بهم؛ أمره أن يذكر لهم أنه ركب لهم في عموم هذا النوع الآدمي من العقول ونصب من الأدلة الموضحة للأمر إيضاح المشهود للشاهد ما لو عذب تاركة والمتهاون به لكان تعذيبه جارياً على المناهج ملائماً للعقول، ولكنه لسبق رحمته وغلبة رأفته لم يؤاخذ بذلك حتى ضم إليه الرسل، وأنزل معهم الكتب، وأكثر فيها من الموائيق، وزاد في الكشف والبيان، وإلى ذلك الإشارة باسم الرب، فكان من عنده علم أشد ملامة من الجاهل، فقال: ﴿واذ﴾ أي واذكر لهم إذ ﴿أخذ﴾ أي خلق بقوله وقدرته ﴿ربك﴾ أي المحسن إليك بالتمهيد لرسالتك كما يؤخذ القمل بالمشط من الرأس .

ولما كان السياق لأخذ الموائيق والأخذ بقوة، ذكر أخذ الذرية من أقوى نوعي الآدمي، وهم الذكور فقال: ﴿من بني آدم﴾ وذكر أنه جعلها من أمتن الأعضاء فقال: ﴿من ظهورهم﴾ كل واحد من ظهر أبيه ﴿ذريتهم﴾ إشارة إلى أنه لما أكد عليهم الموائيق وشدها لهم وأمرهم - بالقوة في أمرها، أعطاهم من القوة في التركيب والمزاج ما يكونون به مطيعين لذلك، فهو تكليف بما في الوسع، وجعل لهم عقولاً عند من قال: هو على حقيقته كمنملة سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ أي أوضح لهم من البراهين من الإنعام بالعقول مع خلق السماوات والأرض وما فيهما على هذا المنوال الشاهد له بالوحدانية وتمام العلم والقدرة، ومن إرسال الرسل المؤيدين بالمعجزات ما كانوا كالشهود بأنه لا رب غيره؛ وقد ذكر معنى هذا الإمام حجة الإسلام الغزالي في الكلام على العقل من باب العلم من الإحياء فإنه قال في معنى هذه الآية: والمراد إقرار نفوسهم، لا إقرار الألسنة، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص؛ ثم ذكر أن النفوس فطرت على معرفة الأشياء على ما هي عليه لقرب الاستعداد للإدراك.

ولما تبين أنه فرد لا شريك له فلا راد لأمره، وأنه رب فلا أرف منه ولا أرحم، كان ذلك أدعى إلى طاعته خوفاً من سطوته ورجاء لرحمته، فكانوا بذلك بمنزلة من سئل عن الحق فأقر به، فلذلك قال: ﴿الست بربكم﴾ أي المحسن إليكم بالخلق والتربية بالرزق وغيره ﴿قالوا بلى شهدنا﴾ أي كان علمنا بذلك علماً شهودياً، وذلك لأنهم وصلوا بعد البيان إلى حد لا يكون فيه الجواب إلا ذلك فكانهم قالوه؛ فهو - والله أعلم - من وادي قوله تعالى ﴿والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ [الرعد: ١٥] - الآية و﴿الله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملئكة وهم لا يستكبرون﴾ [النحل: ٤٩].

ولما كان كأنه قيل: لم فعل ذلك؟ قيل: دلالة على أن المتقدم إنما هو على طريق التمثيل بجعل تمكينهم من الاستدلال كالإشهاد، فعله كراهة ﴿أن يقولوا يوم القيمة﴾ أي إن لم ينصب لهم الأدلة ﴿إننا كنا عن هذا﴾ أي وحدانيتك وربوبيتك ﴿غفلين﴾ أي لعدم الأدلة فلذلك أشركنا ﴿أو يقولوا﴾ أي لو لم نرسل إليهم الرسل ﴿إنما أشرك آبائنا من قبل﴾ أي من قبل أن نوجد ﴿وكنا ذرية من بعدهم﴾ فلم نعرف لنا مربياً غيرهم فكنا لهم تبعاً فشغلنا اتباعهم عن النظر ولم يأتنا رسول منبه، فيتسبب عن ذلك إنكارهم في قولهم: ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ أي من آبائنا؛ قال أبو حيان: والمعنى أن

الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مذكر بما تضمنه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حجتان: إحداهما «كنا غافلين» والأخرى «كنا تبعاً لأسلافنا» فكيف والذنب إنما هو لمن طرّق لنا وأضلنا - انتهى . ومما يؤيد معنى التمثيل حديث أنس في الصحيح «يقول الله لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك شيئاً، فأبيت إلا الشرك^(١)» وذلك لأن التصريح بالآباء ينافي كون الإقرار على حقيقته، والأخذ وهو في الصلب إنما هو بنصب الأدلة وتقرير الحق على وجه مهيبٍ للاستدلال بتركيب العقل على القانون الموصل إلى المقصود عند التخلي من الحظوظ والشوائب، وهذا الذي وقع تأويل الآية به لا يعارضه حديث الاستنطاق في عالم الذر على تقدير صحته، فإنه روي من طرق كثيرة جداً ذكرتها في كتابي سر الروح، منها في الموطأ ومسنده أحمد وإسحاق بن راهويه ومحمد بن نصر المروزي وأبي يعلى الموصلي ومستدرك الحاكم وكتاب المائتين لأبي عثمان الصابوني عن صحابة وتابعين مرفوعاً وموقوفاً - منهم عمر وأبي بن كعب وأبو هريرة وحكيم بن حزام وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عمرو وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار وسعيد بن المسيب وأبي العالية رحمهم الله، وإنما كان لا يعارضه لأن في بعض طرقه عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سبحانه قال بعد أن استنطقهم: «إني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، فلا تشركوا بي شيئاً، فإني أرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي، فقالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك فالاستنطاق في الحديث على بابه، عبرة لأبينا آدم عليه السلام ومن حضر ذلك من الخلق، وإيقافاً لهم على بدیع قدرته وعظيم علمه، وإشهاد ما أشهد من المخلوقات بمعنى أنه نصب فيها من الأدلة ما يكون إقامة الحجة به عليهم بالنقض إن أشركوا كشهادة الشاهد الذي لا يرد، وليس في شيء من الروايات ما ينافي هذا؛ والحاصل أنه أخذ علينا عهدان: أحدهما حالي تهدي إليه العقول، وهو نصب الأدلة، والآخر مقالي أخبرت به الرسل، كل ذلك للإعلام بمزيد الاعتناء بهذا النوع البشري لما له من الشرف الكريم ويراد به من الأمر العظيم - والله الموفق .

(١) أخرجه البخاري ٣٣٣٤ و ٦٥٥٧ ومسلم ٢٨٠٥ والنسائي ٣٦/٦ وأحمد ١٢٧/٣ و ١٢٩ من حديث

أنس بن مالك .

﴿ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٦﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِيَةِ ﴿١٧٧﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ ءَخَذَ إِلَى الْأَرْضِ وَاَتَعَ هَوْنَهُ فَشَاطِرٌ مُّكْتَلِبٌ كَمَا كَتَبْنَا عَلَيْهِ إِذْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكُمْ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٨﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَانفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٩﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىَ وَمَن يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨٠﴾ .

ولما كان كأنه قيل تنبيهاً على جلالة هذه الآيات: انظر كيف فصلنا هذه الآيات هذه التفاصيل الفائقة وأبرزناها في هذه الأساليب الرائقة، قال: ﴿وكذلك﴾ أي ومثل ذلك التفصيل البديع الجليل الرفيع ﴿نقصل الآيات﴾ أي كلها لثلا يواقعوا ما لا يليق بجانبنا جهلاً لعدم الدليل ﴿ولعلمهم يرجعون﴾ أي وليكون حالهم حال من يرجى رجوعه عن الضلال إلى ما تدعو إليه الهداة من الكمال عن قرب إن حصلت غفلة فواقعوه، وذلك من أدلة ﴿والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾ [الأعراف: ٥٨] و﴿ما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ [الأعراف: ١٠٢] و﴿سأصرف عن آيتي﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ولما ذكر لهم ما أخذ عليهم في كتابهم من الميثاق الخاص الذي انسلخوا منه، وأتبعه الميثاق العام الذي قطع به الأعداء، أتبعهما بيان ما يعرفونه من حال من انسلخ من الآيات، فأسقطه الله من ديوان السعداء، فأمره ﷺ أن يتلو ذلك عليهم، لأنه - مع الوفاء بتبكييتهم - من أدلة نبوته الموجبة عليهم اتباعه، فذكره ما وقع له في نبذ العهد والانسلاخ من الميثاق بعد أن كان قد أعطى الآيات وأفرغ عليه من الروح فقال: ﴿واتل﴾ أي اقرأ شيئاً بعد شيء ﴿عليهم﴾ أي اليهود وسائر الكفار بل الخلق كلهم ﴿نبأ الذي﴾ وعظم ما أعطاه بمظهر العظمة ولفظ الإيتاء بعد ما عظم خبره بلفظ الإيتاء فقال: ﴿آتينه﴾ .

ولما كان تعالى قد أعطاه من إجابة الدعاء وصحة الرؤيا وغير ذلك مما شاء سبحانه أمراً عظيماً بحيث دله على الله تعالى دلالة لا شك فيها، وكانت الآيات كلها متساوية الأقدام في الدلالة وإن كان بعضها أقوى من بعض، قال تعالى: ﴿آيتنا﴾ وهو بلعام من غير شك للسباق واللحاق، وقيل: هو رجل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين فرشاه فتبع دينه فاقتن به الناس، وقيل: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي قال

فيه النبي ﷺ «آمن شعره وكفر قلبه»^(١) قاله عبد الله بن عمرو وسعيد بن المسيب وزيد ابن أسلم، وقيل: هو أبو عامر الراهب الذي سماه النبي ﷺ الفاسق، وقيل: نزلت في منافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ فأنكروه.

ولما كان الذي جرأهم على عظمتهم سبحانه ما أنعم عليهم به من إعطاء الكتاب ظناً منهم أنه لا يشقيهم بعد ذلك، رهبهم بيان أن الذي سبب له هذا الشقاء هو إيتاء الآيات فقال: ﴿فانسلخ منها﴾ أي فارقتها بالكلية كما تنسلخ الحية من قشرها، وذلك بسبب أنه لما كان مجاب الدعوة سأله ملك زمانه الدعاء على موسى وقومه فامتنع فلم يزل يرغبه حتى خالف أمر الله اتباعاً لهوى نفسه، فتمكن من الشيطان وأشار عليه أن يرسل إليهم النساء مزينات ويأمرهن أن لا يمتنعن من أحد، فأشقاء الله، وهذا معنى ﴿فأتبعه الشيطان﴾ أي فأدركه مكره فصار قريناً له ﴿فكان﴾ أي فتسبب عن إدراك الشيطان له أن كان ﴿من الغوين﴾ أي الضالين الراكبين هوى نفوسهم، وعبر في هذه القصة بقوله: ﴿اتل﴾ دون ﴿وأسألهم عن﴾ [الأعراف: ١٦٣] نحو ما مضى في القرية، لأن هذا الخبر مما يحبون ذكره لأن سلخه من الآيات كان لأجلهم، فهو شرف لهم، فلو سألهم عنه لبادروا إلى الإخبار به ولم يتلعثموا فلا تكون تلاوته ﷺ بعد ذلك لما أنزل في شأنه واقعاً موقع ما لو أخبرهم به قبل، ولعل المقصود الأعظم من هذه الآية والتي قبلها الاستدلال على كذب دعواهم في قولهم ﴿سيغفر لنا﴾ [الأعراف: ١٦٩] بما هم قائلون به، فيكون من باب الإلزام، وكأنه قيل: أنتم قائلون بأن من أشرك لا يغفر له لتركه ما نصب له من الأدلة حتى إنكم لتقولون ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ [آل عمران: ٧٥] لذلك، فما لكم توسعون المغفرة لكم في ترك ما أخذ عليكم به الميثاق الخاص وقد ضيقتموها على غيركم في ترك ما أخذ عليهم به الميثاق العام؟ ما ذلك إلا مجرد هوى، فإن قلت: الأمر في أصل التوحيد أعظم فلا يقاس عليه، قيل لكم؛ أليس المعبود قد حرم الجميع؟ وعلى التنزل فمن المسطور في كتابكم أمر بلعام وأنه ضل، وقد كان أعظم من أحباركم، فإنما آتيناها الآيات من غير واسطة رسول، وكان سبب هلاكه - كما تعلمون - وخروجه من ربة الدين وإحلاله دمه مشورته على ملك زمانه بأن يرسل النساء

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٨٦٩ من حديث الشريد بلفظ: «استشدني النبي ﷺ شعر أمية بن أبي الصلت وأشدته فأخذ النبي ﷺ يقول: هيه هيه حتى أنشدته مائة قافية، فقال: «إن كاد ليسلم».

وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أحمد (٢٣١٢) ٢٥٦/١ وذكره الهيثمي في المجمع ٨/١٢٧ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس.

إلى عسكر بني إسرائيل متزينات غير ممتنعات ممن أرادهن، وذلك من الفروع التي هي أخف من باب الأموال، فقد بحتم كذبكم في قولكم ﴿سيغفر لنا﴾ وأنكم لم تتبعوا فيه إلا الهوى كما تبعه بلعام فانظروا ما فعل به .

ولما كان هذا السياق موهماً لمن لم يرسخ قدمه في الإيمان أن الشيطان له تأثير مستقل في الإغواء، نفى ذلك غيرة على هذا المقام في مظهر العظمة فقال: ﴿ولو شئنا﴾ أي أن نرفعه بها على ما لنا من العظمة التي من دنا من ساحتها بغير إذن محق ﴿لرفعنهُ﴾ أي في المنزلة رفعة دائمة ﴿بها﴾ أي الآيات حتى لا يزال عاملاً بها .

ولما علق الأمر بالمشيئة تنبيهاً على أنها هي السبب الحقيقي وأن ما لم يشأ سبحانه لا يكون، وكان التقدير: ولكننا لم نشأ ذلك وشئنا له الكفر فأخلدناه - إلى آخره، عبر عنه تعليماً للأدب في إسناد الخير إلى الله والشر إلى غيره وإن كان الكل خلقه حفظاً - لعقول الضعفاء من إيهام نقص أو إدخال لبس بقوله مسنداً نقصه إليه: ﴿ولكنه أخلد﴾ أي فعل فعل من أوقع الخلد - وهو الدوام - وأوجده ﴿إلى الأرض﴾ أي رمى بنفسه إلى الدنيا رمياً، تهالكاً على ما فيها من الملاذ الحيوانية والشهوات النفسانية ﴿واتبع﴾ أي اتباعاً شديداً ﴿هوه﴾ فأعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات مقدماً لداعي نفسه على داعي روحه، لأن القلب الذي هو نتيجهما في عالم الأمر له وجهان: وجه إلى الروح العلوي الروحاني الذي هو الأب، وله الذكورة المناسبة للعلو؛ ووجه إلى النفس التي هي الروح الحيوانية التي هي الأم ولها المناسبة للأرض بالأنوثة وبأن أصلها من التراب الذي له الرسوب بوضع الجبله فالتقدير: فحط نفسه حطاً عظيماً، لأننا لم نشأ رفعه بما أعطيناه من الآيات، وإنما جعلناه وبالأعلى عليه، فلا يغتر أحد بما أوتي من المعارف، وما حاز من المفخر واللطائف، فإن العبرة بالخواتيم، ولنا بعد ذلك أن نفعل ما نشاء .

ولما كان هذا حاله، تسبب عنه أن قال تعالى: ﴿فمثلهُ﴾ أي مع ما أوتي من العلم في اتباعه لمجرد هواه من غير دليل بعد الأمر بمخالفة الهوى ﴿كمثل الكلب﴾ أي في حال دوام اللهث .

ولما كان كأنه قيل: مثله في أي أحواله؟ قال: في كونه ﴿إن تحمل عليه﴾ أي لتضربه ﴿يلهث أو تتركه يلهث﴾ فإن أوجب لك الحمل عليه ظن أن لهته لما حاول من ذلك التعب ردك عنه لهته في الدعة، فتعلم حينئذ أنه ليس له سبب إلا اتباع الهوى، فتابع الهوى مثل الكلب كما بين، ومثال هذا المنسلخ الجاهل الذي لا يتصور أن يتبع غير الهوى، لأنه يتبع الهوى مع إتياء الآيات فبعد الانسلاخ منها أولى، فقد وضع تشبيه

مثله بمثل الكلب، لا تشبيهه مثله بالكلب؛ وهذه القصة تدل على أن من كانت نعم الله في حقه أكثر، كان بعده عن الله إذا أعرض عنه أعظم وأكبر.

ولما تقرر المثالان، وكان كل منهما منطبقاً على حالة كل مكذب، كانت النتيجة قوله: ﴿ذلك﴾ أي كل من المثلين ﴿مثل القوم﴾ أي الأقوياء على ما يحاولونه ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي في أن تركهم لها إنما هو بمجرد الهوى، لأن لها من الظهور والعظمة بنسبتها إلينا ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة ﴿فاقصص القصص﴾ أي فأخبر الإخبار العظيم الذي تتبعت به مواقع الوقائع وآثار الأعيان حتى لم تدع في شيء منها لبساً على كل من يسمع لك من اليهود وغيرهم، وهو مصدر قص الشيء - إذا تبع أثره واستقصى في ذلك ﴿لعلهم يتفكرون﴾* أي ليكون حالهم حال من يرجى تفكره في هذه الآيات، فيعلمون أنه لا يأتي بمثلها من غير معلم من الناس إلا نبي فيردهم ذلك إلى الصواب حذراً من مثل حال هذا.

ولما ظهر بهذا أن مثل الكلب الذي اكتسب من ممثوله من السوء والقذارة ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى مثل المكذبين بالآيات، أنتج ذلك قوله تأكيداً لذمهم وزجرهم: ﴿ساء مثلاً القوم﴾ أي مثل القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي فلو لم يكن عليهم درك في فعلهم أن لا تنزل هذا المثل عليهم لكان أعظم زاجراً له أدنى مروءة، لأنهم نزلوا عما لمن يتبعها من العظمة إلى ما ظهر بهذا المثل من الخسة، فكيف وهم يضرون أنفسهم بذلك ولا يضرون إلا إياها، وذلك معنى قوله: ﴿وأنفسهم﴾ أي خاصة ﴿كانوا يظلمون﴾* أي كان ذلك في طبعهم جبلة لهم، لا يقدر غير الله على تغييره.

ولما كان ذلك محل عجب ممن يميل عن المنهج بعد إيضاحه هذا الإيضاح الشافي، قال جواباً لمن كأنه قال: فما لهم لا يؤمنون؟ مفصلاً لقوله ﴿ولو شئنا لرفعنه بها﴾ [الأعراف: ١٧٦]: ﴿من يهد الله﴾ أي يخلق الهداية في قلبه الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه ﴿فهو المهتدي﴾ أي لا غيره.

ولما كان في سياق الاستدلال على أن أكثر الخلق هالك بالفسق ونقض العهد، وحد ﴿المهتدي﴾ [الأعراف: ١٧٧] نظراً إلى لفظ ﴿من﴾ وجمع الضال نظراً إلى معناها فقال: ﴿ومن يضل فأولئك هم﴾ أي البعداء بغضاء خاصة لا غيرهم ﴿الخسرون﴾* إذ لا فعل لغيره أصلاً، والآية من فذلكة ما مضى، وما أحسن ختمها بالخسران في وعظ من ترك الآخرة بإقباله على أرباح الدنيا وأعراضها الفانية، ثم تعقيها بذرة جهنم الذين لا أخسر منهم.

ذكر قصة بلعام من التوراة - قال في السفر الرابع منها بعد أن ساق قتالهم لسيحون ملك الأموريين: وفرق المؤابيون من الشعب فرقاً شديداً لأنهم رأوه شعباً عظيماً، فاضطرب المؤابيون ورجفت قلوبهم خوفاً من بني إسرائيل، وقال ملك مؤاب لأشياخ مدين: اعلموا أن هذا الجمع يرتعي حرثنا، ولا يدع أحداً إلا أهلكه، ويرتعي كل من حولنا كما يرتعي الثور عشب الأرض، وكان ملك المؤابيين في ذلك الزمان بالاق بن صفور، فأرسل رسلاً إلى بلعام بن بعور العراف المعبر للأحلام الذي كان ينزل على شاطئ النهر قريباً من أرض بني عمون ليدعوه إليه فيستعين به: أخبرك أنه قد خرج شعب من أرض مصر، فغشى وجه الأرض كلها، وقد نزلوا جبالنا، فأطلب إليك أن تأتي وتلعن هذا الشعب لأنه أقوى وأعز منا، لعلنا نقدر أن نحاربه ونهلكه عن جديد الأرض، لأنني عارف أن الذي تباركه هو مبارك، والذي تلعنه هو ملعون، وانطلق أشياخ مؤاب وأشياخ مدين ومعهم هدايا وجوائز، فأتوا بلعام فقالوا له قول بالاق، فقال لهم: بيتوا هاهنا ليلتكم هذه فأخبركم بما يقول الرب، فأقام أشراف مؤاب عند بلعام، فأتى ملك الله بلعام وقال له: من القوم الذين أتوك؟ قال بلعام للملاك: بالاق بن صفور ملك مؤاب أرسل إلي وقال: قد خرج شعب من أرض مصر فملاً وجه الأرض، فأقبل إلينا حتى تلعنه، لعلي أقدر أن أجاهده وأهلكه، وقال الملاك لبلعام: لا تنطلق مع القوم ولا تلعن الشعب لأنه مبارك، فقال بلعام بكرة لعظماء بالاق: انطلقوا إلى صاحبكم، لأن الرب لم يحب أن يدعني أنطلق معكم، ونهض عظماء مؤاب فأتوا بالاق وقالوا له: لم يهو بلعام إتيانك معنا، فعاد بالاق أيضاً فأرسل رسلاً أعظم وأكرم من الأولين، فأتوا بلعام وقالوا له: هكذا يقول بالاق بن صفور: لا تمتنع أن تأتيني لأنني سأعظمك وأكرمك جداً، وما قلت لي من شيء فعلت، وأقبل إلينا لتلعن لي - هذا الشعب، فرد بلعام على رسل بالاق قائلاً: لو أن بالاق أعطاني ملء بيته ذهباً وفضة لم أقدر أن أتعدى قول ربي وإلهي، ولا أحميد عن قول صغير ولا كبير من أقواله، فخرجوا أتم أيضاً عندنا ليلتكم هذه حتى أنظر ما يخبرني ملاك الله من أمركم، فنزل وحي الله على بلعام ليلاً، وقال له: إن كان هؤلاء القوم إنما أتوك ليدعوك فقم فانطلق معهم، ولكن إياك أن تعمل إلا ما أقول، فنهض بلعام بكرة وأسرج أتاناه وانطلق مع عظماء مؤاب، فقام ملاك الرب في الطريق ليكون له لبدأ، فرأت الأتان ملاك الله قائماً في الطريق مخترطاً سيفه ممسكه في يده، فحادت عن الطريق وسارت في الحرث، فضربها بلعام ليردها إلى الطريق، فقام ملاك الرب في طريق ضيق بين كرمين فرأت الأتانة ملك الرب فرحمت الحائط وضغطت رجل بلعام في الحائط، فعاد يضربها أيضاً، ثم عاد ملاك الرب وقام في

موضع ضيق حيث ليس لها موضع تحيد منه يمناً ولا يسرة، فبصرت بملاك الرب وربضت تحت بلعام، فاشتد غضب بلعام وضرب الأتان بالعصا، وفتح الرب فم الأتان وقالت لبلعام: ما الذي صنعت بك حتى ضربتني ثلاث مرات؟ قال بلعام: لأنك زريت بي، ولو أنه كان في يدي سيف كنت قد قتلتك الآن، فقالت: ألسنت أتانك التي تركبني منذ صباحك إلى اليوم؟ هل صنعت مثل هذا الصنع قط؟ قال لها: لا، وجلّى الرب عن بصر بلعام فرأى ملك الله قائماً في الطريق مخترباً سيفه ممسكه بيده، فجثا وخر على وجهه ساجداً، فقال له ملاك الرب: ما بالك ضربت أتانك ثلاث مرات أنا الذي خرجت لأكون لك لداداً، لأنك أخذت في طريق خلافاً لأمرى، فلما رأنتي الأتان حادت عني ثلاث مرات، ولو أنها لم تحد عني كنت قتلتك وأبقيت عليها، قال بلعام لملاك الرب: أسأت وأجرمت، لم أعلم أنك قائم بإزائي في الطريق، فالآن إن كان انطلاقي مما تكرهه رجعت، قال ملاك الرب لبلعام: انطلق مع القوم وإياك أن تفعل شيئاً إلا ما أقول لك! فانطلق بلعام، فسمع بالاق فخرج ليلتلقاه وقال بالاق: لم تأتني؟ قال: قد أتيتك الآن، لعلك تظن أنني أقدر أن أقول شيئاً إلا القول الذي يجريه الله على لساني به أنطق، فلما كان الغد عمد بالاق إلى بلعام وأصعده إلى بيت بعل الصنم، فرأى من هناك أقاصي منازل شعب إسرائيل، وقال بلعام لبالاق: ابني لي هاهنا سبعة مذابح، وهبىء لي سبعة ثيران وسبعة كباش، وفعل بالاق كما قال له بلعام، ورفع بالاق الكباش والثيران على المذبح قرباناً، وقال بلعام لبالاق: قم هاهنا عند قرابينك حتى أنطلق أنا، لعل الرب يوحى إليّ ما أهواه، وأنا مظهر لك ما يوحى به، فانطلق فظهر الله وألهمه قولاً وقال له: انطلق إلى بالاق وقل له هذا القول، فاتاه وهو قائم عند قرابينه وجميع قواد مؤاب معه، ورفع بلعام صوته بأمثاله وقال: ساقني بالاق ملك المؤابيين من أرام التي في المشرق، وقال لي: أقبل حتى تلعن يعقوب وتهلك آل إسرائيل، فكيف ألعنه ولم يلعنه الله، وكيف أهلكه والرب لا يريد هلاكه، رأيت من رؤوس الجبال، ونظرت إليه من فوق الآكام وإذا هو شعب وحده، لا يعد مع الشعوب، ومن يقدر يحصي جميع عدد يعقوب، أو من يقدر يحصي عدد ريع بني إسرائيل، تموت نفسي موتاً ويكون آخري إلى آخرهم، قال بالاق لبلعام: دعوتك لتلعن أعدائي فإذا أنت تباركهم وتدعو لهم، فرد بلعام قائلاً: الذي يلهمني الرب ويجري على لساني إياه أحفظ، وبه أنطق: قال له بالاق: مر معي إلى موضع آخر لنراهم من هناك، وإنما أسوقك لترى آخرهم ولا تراهم أجمعين، وانطلق به إلى حقل الريبة وأقامه على رأس الأكمة، وابتنى هناك سبعة مذابح، وقرب عليها الثيران والكباش، وقال بلعام: قف هاهنا عند قرابينك حتى أنطلق أنا الآن،

فانظر ما الذي يقال؟ وتجلى الرب على بلعام وأجرى على فيه قولاً وقال له: انطلق إلى بالاق فأخبره بهذا القول، فاتاه وهو قائم عند قرابينه ومعه أشراف مؤاب، فرفع بلعام صوته بأمثاله وقال؛ انهض بالاق واسمع قلبي وأصغ لشهادتي يا ابن صفور! اعلم أن الله ليس مثل الرجل يحلف ويكذب؛ إذا قال الرب قولاً فعله، وكلامه دائم إلى الأبد، ساقني لأدعو وأبرك، ولا أرد البركة ولا أخالف ما أمرت به، لست أرى في آل يعقوب إثماً ولا غدرأ عند بني إسرائيل ولا ظلماً، لأن الله ربه معه الله الذي أخرجهم من مصر بعزة وعظمة قوية، ولست أرى في آل يعقوب طيرة، ولا حساب نجوم أو عراف بين بني إسرائيل، كيف أقول والشعب قائم مثل الضرغام لا يربض حتى يفترس فريسته ويشرب دم القتل، فقال بالاق لبلعام: أطلب أن لا تلعنه ولا تدعو له، فرد بلعام على بالاق قائلاً: ألسنت قلت لك: إني إنما أنطق بما يقول لي الرب، فقال بالاق: انطلق بنا إلى موضع آخر، لعل الله يرضى بغير هذا فتلعنه لي هناك، فأصعده إلى رأس فغور الذي بإزاء إستيمون، فأمره بمثل ما تقدم من الذبح والقربان، فرأى بلعام أن الرب يحب أن يدعو لبني إسرائيل، ولم ينطلق كما كان ينطلق في كل وقت ليطلب الوحي، ولكن أقبل بوجهه إلى البرية ومد بصره، فرأى بني إسرائيل نزولاً قبائل قبائل فحل عليه روح الله، ورفع صوته بأمثاله وقال: قل يا بلعام بن بعور، قل أيها الرجل الذي أجلى عن بصره، قل أيها الذي سمع قول الله ورأى رؤيا الله وهو ملقى وعيناه مفتوحتان، ما أحسن منزلك يا يعقوب ومنازلك يا إسرائيل! وخيمك كالأودية الجارية، ومثل الفراديس التي على شاطئ النهر، ومثل الجنى الذي ركزه الله، ومثل شجر الأرز على شاطئ النهر يخرج رجل من بينه وذريته أكثر من الماء الكثير، ويعظم على الملك، وذلك بقوة الله الذي أخرجهم من أرض مصر بغير توقف رثماً، يأكل خيرات الشعوب أعدائه ويكسر عظامهم ويقطع ظهورهم، رتع وربض كالأسد ومثل شبل الليث، ومن يقدر أن يبعثه، يبارك مباركوك ويلعن لاعنوك، فاشتد غضب بالاق على بلعام وصفق بيديه ملتهداً وقال: دعوتك للعن أعدائي، فماذا أنت تباركهم وتدعو لهم ثلاث مرات، انصرف الآن إلى بلادك، قد كنت عزمت على إكرامك وإجازتك فإذا الرب قد أحرمك ذلك، فرد بلعام على بالاق قائلاً: قد كنت قلت لرسلك الذين أرسلتهم إليّ أنه لو وهب لي بالاق ملء بيته من ذهب وفضة لم أقدر أتعدى عن قول الرب، ولكن إنما أنطق ما يلهمني الرب، فانا أنطلق الآن إلى أرضي، فأسمع ما أشير عليك وأخبرك ما يصنع هذا الشعب بشعبك آخر الأيام، ثم رفع صوته بأمثاله وقال: قل يا بلعام بن بعور قل أيها الرجل المجلى عن بصره! قل أيها الذي سمع قول الله وعلم علم العلي ورأى رؤيا الله إذ هو ملقى وعيناه

مفتوحتان! فإني رأيته وإذا ليس ظهوره الآن وإن كان متدانفاً، ونظرت في أمره وإذا ليس بقریب، يشرق نجم من آل يعقوب، ويقوم رئيس من بني إسرائيل، ويهلك جابرة من مؤاب ويبيد جميع بني شيث، وتثير أدوم ميراثه، وساعير وراثة أعدائه يصير له، ويستفيد بنو إسرائيل قوة بقوته - ونحو ذلك من الكلام الذي فيه ما يكون سبباً لانسلاخه من الآيات، لكن ذكر المفسرون أنه أشار عليه باختلاط نساء بلاده ببني إسرائيل متزينات غير ممتنعات ممن أرادهن منهم ليزنوا بهن فيحل بهم الرجز، فوقع بهم ذلك، وهو الصواب لأنه ستأتي الإشارة إليه في التوراة عند فتح مدين بقوله: لماذا أبقيتهم على الإناث وهن كن عثرة لبني إسرائيل عن قول بلعام ومشورته - وسيأتي ذلك قريباً، وما فيه من ذكر الوحي فهو محمول على المنام أو غير ذلك مما يليق؛ ثم قال: وقام بلعام ورجع منصرفاً إلى بلاده وبالاق أيضاً رجع إلى بيته، وسكن بنو إسرائيل شاطيم، وبدأ الشعب أن يسفح مع بنات مؤاب، ودعون الشعب إلى ذبائح آلهتهم، وأكل الشعب - من ذبائحهم وسجدوا لآلهتهم، وكمل بنو إسرائيل لعبادة بعليون الصنم، فاشتد غضب الله على بني إسرائيل، فقال الرب لموسى اعمد إلى جميع بني إسرائيل فافضحهم، فقال موسى: يقتل كل رجل منكم كل من أخطأ وسجد لبعليون، وإذا رجل من بني إسرائيل قد أتى بجرأة أمام إخوته من غير أن يستحي، فدخل على امرأة مدينية وموسى وبنو إسرائيل يبكون في باب قبة الآمد، فرآه فنحاس بن اليعازر بن هارون الحبر فنهض من الجماعة غضباً لله وأخذ بيده رمحاً ودخل إلى البيت الذي كانا فيه فطعنهما بالرمح فقتلتهما، فكف الموت الفاشي عن بني إسرائيل، وكان عدد الذين ماتوا في الموت البغته أربعة وعشرين ألفاً، وكلم الرب موسى وقال له: فنحاس صرف غضبي عن بني إسرائيل وغار غيرة الله بينهم وطهر بني إسرائيل، وكان اسم القتل الذي قتل مع المدينية زمري ابن سلو، وكان رئيساً في قبيلة شمعون، وكانت المرأة المدينية كزبي بنت صور، وكان أبوها - من رؤساء أهل مدين، وقال بعض المفسرين: إنه خرج رافعاً الحربة إلى السماء، قد اعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته، فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل ولد فنحاس من كل ذبيحة القبة والذراع واللحي والبكر من كل أموالهم وأنفسهم لأنه كان بكرأ ليعيزار بن هارون. ثم كلم الرب موسى وقال له: ضيق على أهل مدين وأهلكهم كما ضيقوا عليكم ولحسوكم، ثم قال: ثم كلم الرب موسى وقال له: إني لمنتقم من المدينيين ما صنعوا بين بني إسرائيل، ثم تقتص إلى شعبك، ثم قال موسى للشعب: يتسلح منكم قوم للحرب لينتقموا للرب من المدينيين، وليكونوا اثني عشر ألفاً، فانتخب موسى من بني إسرائيل ألفاً من كل سبط، اثني عشر ألفاً أبطالاً متسلحين

وأرسلهم، وصير قائدهم فنحاس بن اليعازر الحبر ومعه أوعية القدس وقرون ينفخ بها، وتقووا على مدين كما أمر الرب موسى وقتلوا كل ذكر فيها وقتلوا ملوك مدين مع القتلى، وقتل بلعام بن بعور معهم في الحرب، وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وانتهبوا مواشيهم وسلبوا جميع دوابهم وأموالهم وأخربوا جميع قرى مساكنهم وأتوا بما انتهبوه إلى موسى، وخرج موسى وجميع عظماء الجماعة فتلقوهم خارج العسكر، وغضب موسى على رؤساء الأحبار ورؤساء الألوف والمثين الذي أتوه من الحرب فقال لهم: لماذا أبقيتم على الإناث وهن كن عثرة لبني إسرائيل عن قول بلعام ومشورته، وقتلوا وغدروا وتمردوا على الرب في أمر غفور - وفي نسخة السبعين: فإن هؤلاء كن شيئاً لبني إسرائيل لقول بلعام أن يتباعدوا ويتهاونوا بكلمة الرب من أجل غفور - فواقعت السخطة جماعة الرب - وفي النسخة الأخرى: وتسلب الموت على جماعة الرب - بغتة، فاقتلوا الآن جميع الذكور من الصبيان، وكل امرأة أدركت وعقلت وعرفت الرجال فاقتلوها، وأبقوا على جميع النساء اللواتي لم يعرفن الرجال وأما أنتم فانزلوا خارجاً عن العسكر سبعة أيام - إلى آخر ما مضى قريباً في الآصار.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوْلَمْ يَنْفَكُوا مَا بَصَّحِهِمْ مِّنْ حَيْثُ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ .

ولما انقضت هذه القصص فأسفرت عن أن أكثر الخلق هالك، صرح بذلك فقال مقسماً لأنه لا يكاد يصدق أن الإنسان يكون - أضل من البهائم، عاطفاً على ما تقديره: هؤلاء الذين قصصنا عليكم أخبارهم ذرأناهم لجهنم: ﴿ولقد﴾ وعزتنا وجلالنا ﴿ذرأنا﴾ أي خلقنا بعضهم وأنشأنا وبشنا ونشرنا ﴿لجهنم كثيراً﴾ أي وألجانأناهم إليها ولم يجعل بينهم وبينها حائلاً.

ولما كانوا يعظمون الجن ويخافونهم ويضلون بهم، بدأ بهم فقال: ﴿من الجن﴾ أي بنصيبهم أنفسهم آلهة بإضلالهم الإنس في تزيين عبادتهم غير الله، فهم في الحقيقة المعبودون لا الحجارة، ونحوها ﴿والإنس﴾ أي بعبادتهم لمن لا يصلح، وعلم أن الآية صالحة لأن تكون معطوفة على الجملة التي قبلها فهي من فذلقة ما تقدم.

ولما كان كأنه قيل: ما لهم رضوا لأنفسهم بطريق جهنم؟ قيل: ﴿لهم﴾ ولما كان السياق للتفكير، بدأ بالقلوب فقال: ﴿قلوب لا يفقهون بها﴾ أي الفقه الذي كلفوا به، وهو النظر في أدلة التوحيد وثبوت النبوة وما تفرع عن ذلك، وهو الفقه المسعد، عد غيره عدماً لأنه لم ينفعهم النفع المقصود في الحقيقة، وما أحسن التعبير بالفقه في سياق إقامه الأدلة التي منها إرسال الرسل وإنزال الكتب.

ولما كان البصر أعم من السمع، لأنه ينتفع به الصغير الذي لا يفهم القول، وكذا كل من في حكمه، قدمه فقال: ﴿ولهم أعين﴾ ولما لم يترتب عليها الإبصار النافع في الآخرة الباقية، نفى إبصارهم وإن كانوا أحد الناس إبصاراً فقال: ﴿لا يبصرون بها﴾ أي الآيات المرئية إبصار تفكر واعتبار ﴿ولهم آذان﴾ ولما لم يترتب على سماعها ما ينفعهم، نفاه على نحو ما مضى فقال: ﴿لا يسمعون بها﴾ أي الآيات المسموعة وما يدل عليها سماع ادكار وافتكار، ولما سلبت عنهم هذه المعاني كانت النتيجة: ﴿أولئك﴾ أي البعداء من المعاني الإنسانية ﴿كالأنعام﴾ أي في عدم الفقه، ولما كانوا قد زادوا على ذلك تفقد نفع السمع والبصر قال: ﴿بل هم أضل﴾ لأنهم إما معاند وإما جاهل بما يضره وينفعه، والأنعام تهرب إذا سمعت صوتاً منكراً فرأت بعينها أنه يترتب عليه ضررها، وتنتظر ما ينفعها من الماء والمرعى فتقصده، والأنعام لا قدرة لها على ما يترتب على هذه المدارك من الفقه. وهؤلاء مع قدرتهم على ذلك أهملوه فنزلوا عن رتبتهما درجة كما أن من طلب الكمال وسعى له سعيه مع نزاع الشهوات علا عن درجة الملائكة بما قاسى من الجهاد.

ولما تشاركوا الأنعام بهذه في الغفلة وزادوا عليها، أنتج ذلك قطعاً على طريق الحصر: ﴿أولئك﴾ أي البعداء البغضاء ﴿هم﴾ أي خاصة ﴿الغفلون﴾ لا الأنعام، فإنها - وإن كانت غافلة عما يراد بها - غير خالدة في العذاب، فلم تشاركهم في العمى والصمم عما ينفعها ولا في الغفلة عن الخسارة الدائمة، فقد أشارت الآية إلى تفضيل الإنسان على الملك كما اقتضته سورة الزيتون، لأنه جعل في خلقه وسطاً بين الملك الذي هو عقل صرف والحيوان الذي هو شهوة مجردة، فإن غلب عقله كان أعلى بما عالجته من جهاد الشهوات فكان في ﴿أحسن تقويم﴾ [التين: ٥]، وإن غلبت شهوته كان أسفل من الحيوان بما أضاع من عقله فكان ﴿أسفل ساقطين﴾ [التين: ٥].

ولما أنتج هذا أن لهم الأسماء السوأى ولمعبوداتهم أسوأ منها، عطف عليه دعماً لوجه من يتوهم بالحكم بالضللال والذرة لجهنم ما لا يليق، وتنبه على أن التمرجيب لشحن جهنم الخفلة عن ذكر الله ودعائه - قوله: ﴿ولله﴾ أي الملك الأعلى المسبب

بجميع صفات الكمال وحده ﴿الأسماء﴾ ولما كان الاسم إذا لحظت فيه المناسبة كان بمعنى الصفة، أنت في قوله ﴿الحسنى﴾ أي كلها باتصافه دون غيره بصفات الكمال التي كل واحدة منها أحسن شيء وأجمله وتنزهه عن شوائب النقص وسمات الحدث، فكل أفعاله حكمة وإنما كان مختصاً بذلك لأن الأشياء غيره ممكنة لتغيرها، وكل ممكن محتاج وأدنى ما يحتاج إلى مرجح يرجح وجوده، وبذلك نعلم وجود المرجح ونعلم أن ترجيحه على سبيل الصحة والاختيار لا الوجوب، وإلا لدام العالم بدوامه، وبذلك ثبت قدرته، وتكون أفعاله محكمة ثبت علمه فثبتت حياته وسمعه وبصره وكلامه وإرادته ووحدانيته، وإلا لوقع التنازع فوق الخلل، فالعلم بصفاته العلى ليس في درجة واحدة بل مترتباً، وعلم بهذا أن الكمال له لذاته، وأما غيره فكماله به وهو بذاته غرق في بحر الفناء واقع في حضيض النقصان ﴿فادعوه﴾ أي فصفوه وسموه واسألوه ﴿بها﴾ لتنجوا من جهنم وتنالوا كل ما تحمد عاقبته، فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله أقبل على الدنيا وشهواتها فوقع في نار الحرص وزمهرير الحرمان ولا يزال في رغبة إلى رغبة حتى لا يبقى له مخلص، وإذا أقبل على الذكر تخلص عن نيران الآفات واستشعر بمعرفة الله حتى تخلص من رق الشهوات فيصير حراً فيسعد بجميع المرادات، وكثرة الأسماء لا تقدر في التوحيد بل تدل على عظم المسمى ﴿وذروا﴾ أي اتركوا على حالة ذرية ﴿الذين يلحدون﴾ أي يميلون عما حد لهم بزيادة فيشبهوا أو نقص فيعطلوا ﴿في أسمائه﴾ أي فيطلقونها على غيره بأن يسموه إلهاً، فيلزمهم أن يطلقوا عليه جميع أوصاف الإله. فقد ألحدوا في البعض بالفعل وفي الباقي باللزوم، أو بأن يسموه بما لم يأذن فيه، وما لم يأذن فيه تارة يكون مأذوناً فيه في الجملة كالضار فلا يجوز ذكره إلا مع النافع، وتارة لا، مثل إطلاق الأب عليه والجسم، وكذا كل ما أوهم نقصاً، فلم يكن أحسن، ولورود إطلاق بعض اشتقاقاته عليه مثل علم لا يجوز أن يقال لأجله: معلم، وكذا لحبهم لا يجوز لأجله أن يقال: يا خالق الديدان والقردة مثلاً، وكذا لا يجوز أن يذكر اسم لا يعرف الذاكر معناه ولو كان الناس يفهمون منه مدحاً كما يقول بعض البدو: يا أبيض الوجه! يا أبا المكارم! فإن ذلك كله إلحاد، وهذا الفعل يستعمل مجرداً فيقال: لحد في كذا وألحد فيه - بمعنى واحد، وهو العدول عن الحق والإدخال فيه ما ليس منه - نقله أبو حيان عن ابن السكيت؛ وقال الإمام أبو القاسم علي بن جعفر بن القطاع في كتاب الأفعال: لحد الميت لحداً وألحدته: شق له القبر، وإلى الشيء وعنه وفي الدين: مال، وقرىء بهما كذلك.

ولما كان كأنه قيل: فما يفعل بمن ألحد؟ وكان المرهب إيقاع الجزاء، لا كونه

من معين، قال بانياً للمفعول: ﴿سيجزون﴾ أي في الدنيا والآخرة بوعد لا خلف فيه ﴿ما كانوا﴾ أي بجبلاتهم ﴿يعملون﴾ أي فيفعل بهم من أنواع الإهانة والعقوبة ما يوجب وصفهم بأقبح الأوصاف ضد ما كانوا يسمعون في الدنيا ممن يدانيهم.

ولما أخبر تعالى عن ذرء جهنم من القبيلتين، تشوف السامع إلى معرفة حال الباقيين منهما، فقال مصرحاً بالخبر عنهم عاطفاً على ﴿ولقد ذرأنا﴾ [الأعراف: ١٧٩] مشيراً بمن التبعية إلى قلتهم تصديقاً لقوله ﴿وان وجدنا أكثرهم لفسقين﴾ [الأعراف: ١٠٢] ﴿وممن خلقنا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿أمة﴾ أي جماعة عرفت من هو أهل لأن يوم ويهتدى به فقصدته فاقبست من أنواره فصارت هي أهلاً لأن تقصد ويؤتم بها.

ولما أفهم لفظ الأمة هذا صرح به في قوله: ﴿يهدون بالحق﴾ أي الثابت الذي يطابقه الواقع ﴿وبه﴾ أي الحق خاصة ﴿يعدلون﴾ أي يجعلون الأمور متعادلة، لا زيادة في شيء منها على ما ينبغي ولا نقص، لأننا وفقناهم فكشفنا عن بصائرهم حجاب الغفلة التي ألزمتها أولئك، قال أكثر المفسرين: هم أمة محمد ﷺ، ورواه بعضهم عن النبي ﷺ وأبهم الأمر بعد تعيين قوم موسى عليه السلام تعظيماً لهم.

ولما بين حال الهادين المهديين، وكان أصل السياق للضالين المضلين، أتبعه بقية الحديث عنهم على وجه ملوح بأن علة الهداية التوفيق، فقال عاطفاً على ما تقديره: فنحن نعلي أمرهم ونطيب ذكركم: ﴿والذين كذبوا﴾ أي نسبوا الرسل إلى الكذب بسبب إتيانهم ﴿بآيتنا﴾ على ما يشاهد من عظمتها ﴿سنستدرجهم﴾ أي نستزلهم ونستدنيهم بوعد لا خلف فيه إلى ما نريد بهم من الشر العظيم درجة درجة بسبب أنهم كلما أحدثوا جريمة أسبغنا عليهم نعمة، وإذا عملوا طاعة قصرنا عنهم في الإنعام، أو ضربناهم بسوط الانتقام، فيظنون أن المعاصي سبب النعم فينسلخون من الدين، ولذلك قال: ﴿من حيث لا يعلمون﴾ أي فيرتكبون ما يتعجب من مداناته فضلاً عن مباشرته ومعاناته من له أدنى بصيرة حتى يكمل ما نريد منهم من المعاصي، وهو من أدلة ﴿سأصرف عن آيتي﴾ وأتى في الاستدرج بأداة العظمة وفي الإملاء بضمير الواحد فقال: ﴿وأملئ لهم﴾ أي أمهلهم بوعد جازم زماناً طويلاً وأمد لهم وهم يعصون حتى يظنوا أن الله يحبهم حتى يزيدوا في ذلك لأنهم لا يفعلون شيئاً إلا بمرادي ولا يفوتوني ولم يأت بهما على نهج واحد، لأن الاستدرج يكون بواسطة وبغيرها، فكأنه قال: سأستدرجهم بنفسي من غير واسطة تارة وبمن أتيج لهم النعم على يده من عبيدي وجنودي أخرى، وأما الإملاء وهو تطويل الأجل - فلا يتصور أن يكون إلا من الله تعالى.

ولما كان هذا موجباً لهم - ولا بد - الإصرار على المعاصي حتى يصلوا إلى ما

حكم عليهم به من النار، قال مستأنفاً ﴿إِنْ كِيدِي﴾ أي فعلي الذي ظاهره رفعة وباطنه ضيعة - ظاهره إحسان وباطنه خذلان ﴿مَتِينٍ﴾ أي شديد قوي لا يمكن أحداً قطعه، قال الإمام بعد تأويل للمعتزلة حملهم عليه إيجابهم رعاية الأصلح: وأنا شديد التعجب من المعتزلة، يرون القرآن كالبحر الذي لا ساحل له مملوءاً من هذه الآيات، والدلائل العقلية القاهرة مطابقة لها، ثم يكتفون في تأويلها - أي عن أنه تعالى يريد الشر - بهذه الوجوه الضعيفة إلا أن علمي بما أراد الله كائن، مزيل هذا التعجب.

ولما كان السياق من أول السورة لإنذارهم، وكان لا بد في صحة الإنذار من تصحيح الرسالة، وختم بأمر الاستدراج، وكانوا قد واقعوا من المعاصي ما لا يجترىء عليه إلا مطموس البصيرة، وكان عندهم أن من قال: إنهم على حال سيء، - مع ما هم فيه من النعم الظاهرة - مجنون، وكان التقدير دلالة على صحة الاستدراج؛ ألم يروا أنهم يقدمون على ما لا يرضاه لنفسه عاقل من عبادتهم للحجر وشماختهم عن أكمل البشر ووصفه بالجنون ووصفهم أفضل الكلام بالسحر والكذب إلى غير ذلك مما يغضب من ليس النفع والضر إلا بيده، وهو مع ذلك يوالي عليهم النعم، ويدفع عنهم النقم، هل ذلك إلا استدراج؛ قال منكرأ عليهم عطفاً على ما أرشد السياق والعطف على غير معطوف عليه إلى تقديره: ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أي يعملوا أفكارهم ويمعنوا في ترتيب المقدمات ليعلموا أنه لا يتوجه لهم طعن يورث شبهة بوجه من الوجوه، وبين المراد من هذا التفكير وعينه بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ أي الذي طالت خبرتهم لأنه أمتنهم عقلاً وأفضلهم شمائل ولم يقل: ما برسولي ونحوه، لثلا يقول متعتهم ما لا يخفى، وأعرق في النفي فقال: ﴿مَنْ جَنَّةٍ﴾ أي حالة من حالات الجنون.

ولما نفى أن يكون به شيء مما نسبوه إليه وافتروه عليه فثبتت رسالته، حصر أمره في النذارة لأنها النافعة لهم مع أن المقام لها في هذه السورة فقال: ﴿إِنْ﴾ أي ما ﴿هُوَ﴾ إلا نذير ﴿أَيُّ بَالِغٍ فِي نَذَارَتِهِ﴾ ﴿مَبِينٍ﴾ أي موضح للطريق إيضاحاً لا يصل إلى غيره، ومن أدلة ذلك عجز الخلق عن معارضة شيء مما يأتي به من أنه أحسن الناس خلقاً وأعلاهم خلقاً وأفضلهم عشرة وأرضاهم طريقة وأعدلهم سيرة وأطهرهم سريرة وأشرفهم عملاً وأحكمهم علماً وأرصنهم رأياً وأعظمهم عقلاً وأشدهم أمانة وأظهرهم نبلاً.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادِي لَمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَسْنَهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْ قَبَّهَا إِلَّا هُوَ نُفِثَتْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يُسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٨﴾ .

ولما كان النظر في أمر النبوة مفرعاً على تقرير أدلة التوحيد، وكان المقصود من الإنذار الرجوع عن الإلحاد، قال منكرأ عليهم عدم النظر في دلائل التوحيد الراد عن كل حال سييء: ﴿أولم﴾ ولما كان الأمر واضحاً قال: ﴿ينظروا﴾ أي نظر تأمل واعتبار، ودل على أنه بالبصيرة لا البصر بالصلة، فقال إشارة إلى أن كل ذرة فيها دلائل جملة ﴿في ملكوت﴾ وعظم الأمر بقوله: ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ملكهما البالغ من حد العظمة أمراً باهراً بظاهره الذي يعرفونه وباطنه الذي يلوح لهم ولا يدركونه .

ولما كانت أدلة التوحيد تفوت الحصر، ففي كل ذرة برهان قاهر ودليل ساطع باهر، قال: ﴿وما﴾ أي وفيما ﴿خلق الله﴾ أي على ما له من الجلال والجمال ﴿من شيء﴾ أي غيرهما، ليعلموا أنه لا يقدر على شيء من ذلك فضلاً عن ذلك غيره، ويتحققوا أن كتابه سبحانه مباين لجميع مخلوقاته فيعلموا أنه صفته سبحانه وكلامه، فلا يلحدوا في أسمائه فلا يسموا بشيء منها غيره لما ظهر لهم من تمام قدرته وتمام عجز غيره عن كل شيء ومن شمول علمه وتناهي جهل غيره بكل شيء إلى غير ذلك حتى يعلموا بعضمة هذا الكون أنه سبحانه عظيم، وبقهره لكل شيء أنه قهار شديد، ويعجز كل شيء عن كل شيء من أمره أنه عزيز، وبإسباغه النعمة أنه رحيم كريم إلى غير ذلك من أسمائه الحسنی وصفاته العلی التي تنطق الأشياء بها بالسنة الأحوال وتتحدث بها صدور الكائنات وإن لم يكن لها مقال، ويشرحها كلام التدبير بما له من الكمال ﴿وأن عسى﴾ أي وينظروا في الإشفاق والخوف من أنه ممكن وخليق وجدير ﴿أن يكون قد اقترب﴾ أي دنا دنواً عظيماً ﴿أجلهم﴾ أي الذي لا شك عندهم في كونه بموته من موتات هذه الأمم التي أسلفنا أخبارها كنفس واحدة أو بالتدرج فيبادروا بالإيمان به خشية انخرام الأجل للنجاة من أعظم الوجل، فإن كل عاقل إذا جوز خطراً ينبغي له أن ينظر في عاقبته ويجتهد في الخلاص منه .

ولما كان قد تقدم في أول السورة النهي عن التحرج من الإنذار بهذا الكتاب، وبان بهذه الآيات أنه ﷺ اتصف بالإنذار به حق الانصاف، وبان أن القرآن مباين لجميع المخلوقات، فثبت أنه كلام الله؛ تسبب عن ذلك الإنكار على من يتوقف عن الإيمان به، والتخويف من إحلال أجله قبل ذلك فيقع فيما لا يمكنه تداركه، وذلك في أسلوب دال على أن الإيمان بعد هذا البيان مما لا يسوغ التوقف فيه إلا لانتظار كلام آخر فقال:

﴿فبأي حديث﴾ أي كلام يتجدد له في كل واقعة بيان المخلص منها ﴿بعده﴾ أي بعد هذه الرتبة العظيمة ﴿يؤمنون﴾ فقد دلت هذه الآية على أن للإيمان طريقين: أحدهما سمعي، والآخر عقلي، قال الحرالي في كتاب له في أصول الفقه: الحكم إنما يتلقى من خطاب الله البالغ على السنة رسله، وقد اتضح واشتهر أن السمع من طرق تفهم خطاب الله الذي تبلغه الرسل، وكذلك أيضاً قد تحقق لقوم من أولي الأبواب أن الرؤية وسائر الحواس طريق من طرق تفهم خطاب الله أيضاً، يعي منه اللب العقلي معنى الإرسال في كتابه المخلوق كما يعي العقل معنى الإرسال من مفهوم كلامه المنطوق، وقوم ممن فهم من مرئي كتاب الله المشهود إرسالاً ولقن أحكاماً يسمون الحنفيين كقس ابن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل، وقد شهد لهم رسول الله ﷺ بأن كل واحد منهم «يبعث أمة واحدة»^(١) لاهتدائه من نفسه من غير رسالة هاد خارج عنه، بل من رسول موجده وإحساسه للعالم، ولأنه إنما أخذ بكلية حكم الإيمان وجوب المناصفة مع الخلق من شهود خلق الله، وصار مع ذلك يتربح تأكيد ما يحصل له عقلاً من مسموع خطاب الله، وعلى نحو هذه الحال - وأتم هي - حال الأنبياء والصديقين قبل مورد الوحي على النبي وقبل سماع صديقه وارد وحيه، وهؤلاء هم - الذين لا يتوقفون عن الإيمان بالنبي عند ابتداء دعوته، وكما أن النبي لا يلزم ويحكم بل يبلغ عن الله فكذلك نظر العقل لا يلزم ولا يحكم بل يبلغ عن الله فيكون الحكم الذي هو تصرف الحق في أفعال الخلق بهذا على ضربين: شرعي أي مأخوذ من الإرسال الشرعي، وعقلي أي مأخوذ من الإرسال العقلي، وحاصل ذلك أن العالم المشهود مبين عن أمر الله، وكل مبين مبلغ، فالعالم مبلغ أي بما يفهمه الفاهم من كلامه عن الله، فإن النحاة قالوا - كما ذكره ابن عصفور في شرح الإيضاح لأبي علي وكذا غيره: إن الكلام في الاصطلاح لا يقع إلا على اللفظ المركب وجوداً أو تقديراً المفيد بالوضع، قال: واحترزوا باللفظ عما يقال له كلام لغة وليس بلفظ كالخط والإشارة وما في النفس وما يفهم من حال الشيء، وقال الحرالي: نحو حال الخجل والغضبان، وبالفعل نحو الإشارة باليد والعقد بالأنامل وبآثار الفعل كالصنائع والأعمال، وباللفظ الذي يلفظ به القلب إلى ظاهر اللسان، وبآثار رقوم يحاذي بها حذو مفهوم اللفظ وهو الخط - انتهى.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ١١٣/١٠٥/٢ من حديث ابن عباس مطولاً وفيه: «رحم الله قساً إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده وجاء في مجمع الزوائد ٤١٦/٩ عن أسماء بنت أبي بكر أن النبي ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال: «يبعث يوم القيامة أمة وحده» رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح اهـ.
- أما ما ورد بأن زيد بن عمرو يبعث أمة وحده أخرجه الحاكم ٤٣٩/٣ و ٤٤٠ وأبو يعلى ٩٧٣ من حديث سعيد بن زيد وإسناد أبي يعلى حسن. انظر المجمع ٤١٧/٩ - ٤١٨.

ولما كان ذلك كله من أعجب العجب، كانت فذلكته قطعاً تعليلاً لما قبله من إعراضهم عما لا ينبغي الإعراض عنه دليلاً على أن الأمر ليس إلا بيد منزله سبحانه قوله: ﴿من يضل الله﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿فلا هادي﴾ أصلاً ﴿له﴾ بوجه من الوجوه؛ ولما دل بالإفراد على أن كل فرد في قبضته، وكان التقدير: بل يستمر على ضلاله، عطف عليه بضمير الجمع دلالة على أن جمعهم لا يغني عن الله شيئاً فقال: ﴿ويذرهم﴾ أي يتركهم على حالة قبيحة، وعبر بالظرف إشارة إلى إحاطة حكمه بهم فقال: ﴿في طغيانهم﴾ أي تجاوزهم للحدود حال كونهم ﴿يعمّهون﴾ أي يتحiron ويرددون في الضلال لا يعرفون طريقاً ولا يفهمون حجة.

ولما بين التوحيد والنبوة والقضاء والقدر، أتبعه المعاد لتكامل المطالب الأربعة التي هي أمهات مطالب القرآن، مبيناً ما اشتمل عليه هذا الكلام من تبلدهم في العمه وتلدهم في إشراك الشبه بقوله: ﴿يسئلونك﴾ أي مكررين لذلك ﴿عن الساعة﴾ أي عن وقتها سؤال استهزاء ﴿أيان مرسلها﴾ أي أي وقت ثبات ثقلها واستقراره، والمرسى يكون مصدراً وزماناً ومكاناً، من رست السفينة - إذا ثبتت بالحديدة المتشعبة، وإنما كان هذا بياناً لعمههم فإنهم وقعوا بذلك في الضلال من وجهين: السؤال عما غيره لهم أهم، وجعله على طريق الاستهزاء مع ما قام عليه من الأدلة، وسيكره في هذه السورة، وكان اللائق بهم أن يجعلوا بدل السؤال عنها اتقاءها بالأعمال الصالحة.

ولما كان السؤال عن الساعة عاماً ثم خاصاً بالسؤال عن وقتها، جاء الجواب عموماً عنها بقوله: ﴿قل إنما علمها﴾ أي علم وقت إرسالها وغيره ﴿عند ربي﴾ أي المحسن إليّ بإقامتها لينعم على من تبعني وينتقم ممن تركني، لم يطلع على ذلك أحداً من خلقه، ولا يقيمها إلا في أحسن الأوقات وأنفعها لي، وإخفاؤها أنفع للخلق لأنه أعظم لشأنها وأهيب، فيكون أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية وأقرب إلى التوبة، ثم خصصت من حيث الوقت بقوله مشيراً إلى أن لها أشراطاً تتقدمها: ﴿لا يجليها﴾ أي يبينها غاية البيان ﴿لوقتها إلا هو﴾.

ولما كان قد أشار إلى ثقل الساعة بالإرساء، وكان الشيء إذا جهل من بعض الوجوه أشكل وإذا أشكل ثقل، قال: ﴿ثقلت﴾ أي الساعة فغاصت إلى حيث لم يتغلغل إليها علم العباد فاهمهم كلهم عليّ شأنها، ولذلك عبر بالظرف فقال: ﴿في السموات والأرض﴾ أي نسبة أهلها إلى خفائها والخوف منها على حد سواء لأن مالكتها قادر على ما يشاء، وله أن يفعل ما يشاء - ثم قرر خفاءها على الكل فقال: ﴿لا تأتیکم﴾ أي في حالة من الحالات ﴿إلا بغتة﴾ أي على حين غفلة.

ولما كانوا قد ألحفوا في سؤاله ﷺ عنها، وكانت صفة الربوبية المذكورة في الجملة الأولى ربما حملت على سؤاله طمعاً في تعرفها من المحسن إليه، قطع الأطماع بقوله مؤكداً للمعنى: ﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ أي عن الساعة مطلقاً في وقت وقوعها وما يحصل من أمورها ويحدث من شدائدها، أي ويلحفون في سؤالك كلما أخبرتهم أنه لا يعلمها إلا الله ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ أي عالم بأمرها مستقص مبالغ في السؤال ﴿عنها قل﴾ أي قطعاً لسؤالهم ﴿إنما علمها عند الله﴾ أي الذي له جميع العزة والعظمة والكبرياء فلا يستطيع علم شيء مما عنده إلا بإذنه، ولم يأذن في علمها لأحد من الخلق ﴿ولكن أكثر الناس﴾ أي الذين غلبت عليهم صفة الاضطراب ﴿لا يعلمون﴾ أي ليسوا من أهل العلم فهم بالسؤال عنها يستهزئون، ولو كانوا من أهله ما كذبوك، فواقوا ما لا يعينهم من السؤال عنها وغيره من أنواع التعنت، وتركوا ما ينجيهم ويغنيهم من المبادرة إلى الإيمان بهذا القرآن خوف انخراط الآجال وهم يهيمون في أودية الضلال.

ولما كان علم الغيب ملزوماً لجلب الخير ودفع الضر، وكانت الساعة أدق علم الغيب، أمره بنفي هذا اللازم فيتني الأعم فيتني بانتفائه الأخص، وقدم النفع لأنه أهم إلى النفس، وليس في السياق ما يوجب تأخيره بخلاف ما في سورة يونس عليه السلام، فقال أمراً بإظهار ذل العبودية: ﴿قل لا أملك﴾ أي في وقت من الأوقات أصلاً ﴿لنفسى نفعاً﴾ أي شيئاً من جلب النفع قليلاً ولا كثيراً ﴿ولا ضراً﴾ كذلك، فإن قدرتي قاصرة وعلمي قليل، وكل من كان عبداً كان كذلك.

ولما كان من المعلوم بل المشاهد أن كل حيوان يضر وينفع، أعلم أن ذلك إنما هو بالله فقال: ﴿إلا ما شاء الله﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد سواه أن يقدرني عليه.

ولما بين لهم بهذا أن سؤالهم عن الساعة وغيرها من المغيبات جهل منهم، لأن حاله واضح في أنه لا يعلم من ذلك إلا ما علمه الله الذي اختص بعلم الغيب، دل عليه بقوله: ﴿ولو كنت﴾ أي من ذاتي ﴿أعلم الغيب﴾ أي جنسه ﴿لاستكثرت﴾ أي أوجدت لنفسي كثيراً ﴿من الخير﴾ باستجلاب المنافع بنصب أسبابها.

ولما كان الضر لا يحتمل منه شيء قال: ﴿وما مسني السوء﴾ أي هذا الجنس بإقامة الموانع له عني لأن من لازم إحاطة العلم شمول القدرة كما سيقدر إن شاء الله تعالى في سورة طه، ولما بين أن علم الغيب رتبة الإله، ختم الآية ببيان رتبته، فقال قالاً ما أدعوه فيه من الجنون لما بان بقوله: ﴿يا بني عبد مناف! اتقوا الله، يا بني فلان يا

بني فلان^(١) وكذا ما لزم عن إلزامهم له بعلم الساعة من أنه يكون إلهاً: ﴿إِن أَنَا إِلَّا﴾ ولما كانت السورة للإنذار، قدمه فقال: ﴿نذير﴾ أي مطلقاً للكافر ليرجع عن كفره، والمؤمن ليثبت على إيمانه ﴿وبشير لقوم يؤمنون﴾ أي خاصة، أو الصفتان لهم خاصة بالنظر إلى النفع، وأما ما لا نفع فيه فعدم.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مَتْنًا رَّوَجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلٌ خَفِيْفًا فَهَمَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثَقَلَ دَعَا رَبَّهَا لِيْنَ ءَاتِيَنَّا صَٰلِحًا لَّتَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا فَتَعَلَىٰ ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴿١٩٠﴾ أَشْرِكُوْنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُوْنَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُوْنَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُوْنَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوْكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ءَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَٰحِبُوْنَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَٰلُكُمْ فَاَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوْا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَٰدِقِيْنَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُوْنَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُوْنَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَعْيُنٌ يُّبْصِرُوْنَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَّسْمَعُوْنَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كَيْدُوْنَ فَلَا يَنْظُرُوْنَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيَّ ٱللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِيْنَ ﴿١٩٦﴾ .

ولما ذكر سبحانه الساعة هنا كما ذكرها أول السورة بما لم يذكره هناك من تهكمهم واستهزائهم، وختم هنا بحصر العلم والقدرة في الله الموجب لتفردة بالإلهية، وكان الذي جرهم إلى ذلك الاستهزاء إشراكهم، ذكر ما ذكر قبلها أول السورة من ابتداء الخلق على وجه الحصر المستلزم لتمام القدرة الموجب لنفي الشريك واعتقاد القدرة على الساعة وغيرها والصدق في كل ما وقع الإخبار به من أمرها وغيره الموجب للاستقامة في قبول بشارته ونذارته والإقبال بالكلية على الخالق، فقال مقررأ للتوحيد مؤكداً لأمره: ﴿هو﴾ أي وحده ﴿الذي خلقكم﴾ أي ولم تكونوا شيئاً ﴿من نفس واحدة﴾ أي خلقها ابتداء من تراب وهي آدم عليه السلام - كما مر بيانه، ومن قدر على اختراع حي من شيء ليس له أصل في الحياة، كان على إعادته حياً من ذلك الشيء بعد أن صار له أصل في الحياة أقدر.

ولما كان آدم عليه السلام بعد صيرورته لحماً ودماً أقرب إلى السببية لخلق ذات

(١) أخرجه البخاري ٤٩٧١ ومسلم ٢٠٨ والبيهقي في الدلائل ١٨١/٢ - ١٨٢ وابن حبان ٦٥٥٠ من حديث ابن عباس .
- وأخرجه البخاري ٢٧٥٣ و ٤٧٧١ ومسلم ٢٠٦ والنسائي ٢٤٨/٦ - ٢٤٩ من حديث أبي هريرة .

لحم ودم منه، قال معبراً بالواو لأنه كاف في نفي الشرك الذي السياق للتحذير منه بخلاف الزمر فإنه للقهر، وتأخير المسببات عن الأسباب مدة أدل عليه لأنه خلاف الأصل، ﴿وجعل﴾ لأن الجعل - كما قال الحرالي - إظهار أمر عن سبب وتصيير ﴿منها﴾ أي لا من غيرها ﴿زوجها﴾ أي حواء من لحمها ودمها وعظمها.

ولما كان المراد بالنفس آدم عليه السلام وكان الزوج يقال على الذكر والأنثى، استخدم ضميره في المذكر ذاكراً علة الجعل بقوله: ﴿ليسكن﴾ أي آدم هو المراد بالنفس هنا، ولما كان الزوج هنا هو المرأة أنث الضمير فقال: ﴿إليها﴾ وتقلكم من ذلك السكون منه إليها - لأن النفس إلى الجنس أميل وعليه أقبل، ولا سيما إن كان بعضاً، ألا ترى إلى محبة الوالد لولده والقريب لقريبه، وإنما منع سبحانه من نكاح الأصل والفرع لما في ذلك من الضرر وغيره من الحكم الكبار، فيغشاها عند ما يسكن إليها فيحصل الحمل والولادة فتفرع النفوس من تلك النفس.

ولما كان السكون هنا كناية عن الجماع، أعاده بلفظ أقرب منه - فقال مؤذناً بقرب غشيانها بعد جعلها، أو ناسقاً له على ما تقديره: فسكن إليها فمالت نفسه إليها فلم يتمالك أن غشيتها: ﴿فلما تغشها﴾ أي غشيتها آدم عليه السلام المعبر عنه بالنفس بهمة عظيمة ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ أي لأنه نطفة ﴿فمرت به﴾ أي فعالجت به أعمالها وقامت وقعدت، لم يعقها عن شيء من ذلك، إعلماً بأن أمرها فيه كان على عادة النساء التي نعرفها ﴿فلما أثقلت﴾ أي صارت ثقيلة بكبره وتحركه في بطنها ﴿دعوا الله﴾ أي آدم وحواء عليهما السلام.

ولما ذكر الاسم الأعظم استحضاراً لأن المدعو هو الذي له جميع الكمال، فهو قادر على ما دعوا به لأنه قادر على كل ما يريد، ذكر صفة الإحسان رجاء القبول والامتنان فقال: ﴿ربهما﴾ أي الذي أحسن إليهما، مقسمين لئن آتيتنا صالحاً﴾ أي ولدأ لا عيب فيه ﴿لنكونن من الشكرين﴾ أي نحن وأولادنا على نعمتك علينا، وذلك أنهما جوزا أن يكون غير سوى لقدرة الله تعالى على كل ما يريد، لأنه الفاعل المختار لا الطبيعة ولا غيرها، وأشار بالفاء إلى قرب الولادة من الدعاء فقال: ﴿فلما آتتهما﴾ أي أبويكم آدم وحواء ﴿صالحاً﴾ أي جنس الولد الصالح في تمام الخلق بدناً وقوة وعقلاً، فكثروا في الأرض وانتشروا في نواحيها ذكوراً وإناثاً ﴿جعلاً﴾ أي النوعان من أولادهما الذكور والإناث، لأن «صالحاً» صفة لولد وهو للجنس فيشمل الذكر والأنثى والقليل والكثير، فكانه قيل: فلما آتاهما أولاداً صالحي الخلق من الذكور والإناث جعل النوعان ﴿له شركاء﴾ أي بعضهم أصناماً وبعضهم ناراً وبعضهم شمساً وبعضهم غير ذلك، هذا

على قراءة الجماعة، وعلى قراءة نافع و أبي بكر عن عاصم بكسر الشين وإسكان الراء والتنوين التقدير: ذوي شرك ﴿فيما أتھما﴾ أي من القوى بالعبادة والرزق بالنذور ونحوها.

ولما لم يضر المشركون بالإشراك إلا أنفسهم، سبب عن ذلك قوله: ﴿فتغلى الله﴾ أي بما له من صفات الكمال التي ليست لغيره تعالياً كثيراً، والدليل على إرادة النوعين قوله: ﴿عما يشركون﴾ بالجمع، وكذا ما بعده من عيب عبادة الأصنام.

ولما ذكر علوه سبحانه، شرع يذكر من أوصافه عبارة وإشارة ما يدل على ذلك، ويقيم الأدلة على عدم صلاحية ما أشركوا به للشركة بعجزها، بأنها من جملة خلقه ولا تصرف لها تستحق به وجهاً من التعظيم، فقال منكرأ على عبادها دالاً على أن المراد الشرك الحقيقي، لاما ذكر من قصة إبليس في تسببه في التسمية بعبد الحارث ونحوه: ﴿أيشركون﴾ أي المشركون و أولادهما في العبادة ﴿ما لا يخلق﴾ أي من الأصنام والطبائع والكواكب وغيرها ﴿شيئاً﴾ أي يوجد من العدم كما يفعل الله الذي أشركوها به.

ولما كان يلزم أن يكون ما لا يخلق شيئاً مخلوقاً لأنه لا يتكون عاجز بغير قادر أوجده، صرح به في قوله مجزياً للأوثان مجرى أولي العلم لتزليلهم منزلتهم في الاعتقاد والعبادة: ﴿وهم﴾ ولما كان المصنوع لا يكون صانعاً، اكتفى بالبناء للمفعول فقال: ﴿يخلقون﴾ أي متجدداً خلق أعراضهم وذواتهم وأمثالهم ﴿ولا يستطيعون لهم﴾ أي للمشركين الذين يعبدونها ﴿نصراً﴾ وهو المعونة على العدو، ولعله عبر بصيغة العاقل إشارة إلى أنهم لو كانوا يعقلون، وكانوا بهذه الصفات الخسيصة ما أهلوهم لأن يكونوا أحبابهم فضلاً عن أن يجعلوهم أربابهم.

ولما كان من لا ينصر غيره قد ينصر نفسه، نفى ذلك بقوله: ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ أي في وقت من الأوقات عند ما يصيبهم بسوء، بل عبدتهم يدافعون عنهم.

ولما تبين من هذا الاستفهام الإنكاري المعجب من حالهم في ضلالهم في أسلوب الغيبة أن من أشركوه ليس فيه نوع قابلية لما أهلوه، فإن المعبود يجب أن يكون قادراً، ومن كان عاجزاً نوع عجز كان مربوباً، وكان للتنبيه بالخطاب ما ليس له بالغيبة؛ أتبع ذلك في أسلوبه تعجيباً آخر منهم أشد من الأول، وذلك أن معبوداتهم التي أشركوا بها كما أنها لا تفعل شيئاً من تلقاء أنفسها، لا تفعله عند دعاء الداعي ولا تهتدي إليه فقال تعالى ﴿وإن تدعوهم﴾ أي وإن تدعوا أيها المشركون أصنامكم دعاء مستمراً متجدداً

﴿إلى الهدى﴾ أي إلى الذي يدل الداعي إليه قطعاً، على أن المتخلف عنه سييء المزاج، محتاج إلى العلاج، لكونه تخلف عما لا يتخلف عنه من له نوع صلاح لكونه أشرف الأشياء، فالتخلف عنه راض لنفسه بالدون ﴿لا يتبعوكم﴾ أي في ذلك الهدى الذي دعوتموهم إليه ولو بالغتم في الاستتباع، ولعله عبر بصيغة الافتعال إشارة إلى أنها لا يتصور منها قصد التبع فضلاً عن إيجاده، ثم بين أن ذلك ليس بأمر عارض، بل هو مستمر دائم بقوله مستأنفاً تأكيداً للمعنى: ﴿سواء عليكم﴾.

ولما كان السواء لا يكون إلا بين أمرين، تشوف السامع إليهما فقال؛ ﴿ادعوتموهم﴾ أي وجد منكم ذلك الدعاء الذي أشير إلى استمراره، وعبر بالاسمية إشارة إلى أنهم لا يدعونهم في وقت الشدائد، بل يدعون الله فقال: ﴿أم أنتم صامتون﴾ أي عن ذلك على الدوام على عادتكم في الإعراض عن دعائهم في أوقات الملمات، فالذين يدعون معتقديهم في وقت الضرورات أقبح حالاً في ذلك من المشركين ويجوز أن تكون الآية من الاحتباك، فيكون نظمها: ادعوتموهم مرة أو أنتم داعوهم دائماً أم صمتم عن دعائهم في وقت ما أم أنتم صامتون دائماً عن دعائهم، حالكم في كل هذه الأجوبة سواء في عدم الإجابة، لا اختلاف فيه بوجه، دل بالفعل أولاً على حذف مثله ثانياً، وبالاسم ثانياً على حذف مثله أولاً.

ولما كان اتباع من يدعي أنه أعقل الناس وأبعدهم عن النقائص وأعرقهم في معالي الأخلاق وأرفعهم عن سفاسفها لمن هذا سبيله أخزى الخزي وأقبح العار، وكانوا مع العلم بهذا الذي وصفت به - معبوداتهم يفعلون في الإشراك بهم وفي خوفهم ورجائهم ما هو عين الجهل؛ كرر تبييتهم باتباعهم في أسلوب آخر أوضح مما قبله في تبيين النقائص والتنبيه على المعايير ملجئاً إلى الاعتراف أو التصريح بالعناد أو الجنون فقال مؤكداً: ﴿إن الذين تدعون﴾ أي أيها المشركون دعاء عبادة ملازمين لذلك، أو أنه أطلق الدعاء على العبادة إشارة إلى أنه لا تصح عبادة من ليس فيه قابلية أن يدعى، والحاصل أن الدعاء يلزم المعبود.

ولما كان دعاؤهم لهم إنما هو على سبيل الإشراك، قال مشيراً إلى سفول رتبتهم بإثبات الجار: ﴿من دون الله﴾ أي الذي له صفات الكمال والعظمة والجلال ﴿عباد أمثالكم﴾ أي في العجز عن كل شيء لا سيما عما وقع به التحدي من معارضة القرآن وغيرها، وأنتم تزيدون عليها بالحياة والعقل، والمعبود لا يصح أن يكون مثل العابد فكيف إذا كان دونه؛ ولما كانوا لا يسلمون أنهم أمثالهم، سبب عن ذلك أمرهم بدعائهم لبيان دعوى المثلية بل الدونية فقال: ﴿فادعوهم﴾ أي إلى شيء من الأشياء.

ولما كان الإله الحق يجيب وليه عند التحدي من غير تخلف، أشار إلى ذلك بالربط بالفاء فقال: ﴿فليستجيبوا لكم﴾ أي يوجدوا لكم إجابة بينة في الإتيان بسورة تماثل شيئاً من القرآن وفي شيء من المنافع.

ولما كان المقام محتاجاً إلى مزيد توبيخ وإلهاب، قدم منه ما رأيت، ثم زاد في الإلهاب فقال: ﴿إن كنتم﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿صديقين﴾ أي في دعوى أنهم آلهة، فإن رتبة الإله تقتضي ذلك، وقرأ سعيد بن جبير ﴿إن﴾ خفيفة و ﴿عباداً أمثالكم﴾ بنصب الدال واللام، واتفق المفسرون على تخريجها على أن «إن» هي النافية أعملت عمل «ما» الحجازية، فرفعت الاسم ونصبت الخبر، وإعمالها هذا العمل فيه خلاف، أجازة الكسائي وأكثر الكوفيين، ومن البصريين ابن السراج والفارسي وابن جني، ومنع منه الفراء وأكثر البصريين، واختلف النقل عن سيبويه والمبرد، والصحيح أن إعمالها لغة ثبت ذلك في النظم والنثر - ذكر ذلك كله أبو حيان وذكر أنه أشبع الكلام فيه في شرح التسهيل، واعترض على هذا التخريج بأنه يلزم منه منافاتها للقراءة المشهورة، وإنما يسلم له ذلك لو توارد النفي والإثبات على شيء واحد، وليس الأمر هنا كذلك، فالإثبات لمماثلتها لهم في مطلق العجز، والنفي لمساواتها لهم فيه لزيادتهم عنها بالبطش ونحوه، أو يكون الأمر - كما قال الزمخشري - أن الإثبات على سبيل التنزل والنفي على الحقيقة.

ولما أثبت عجزهم وأنهم أمثالهم، دل عليه وعلى أنهم دونهم بأسلوب إنكار وتعجيب مفصلاً لبعض ما نفاه عنهم - فقال مقدماً الأرجل لأن أول ما يخشى من الشيء انتقاله: ﴿ألم أرجل﴾ ولما كانت لهم جوارح مصنوعة، بين المراد بقوله: ﴿يمشون بها﴾.

ولما كان المخشي بعد الانتقال مدّ اليد، قال: ﴿أم لهم أيدي﴾ أي موصوفة بأنهم ﴿يبطشون بها﴾ أي نوعاً من البطش؛ ولما كان المخوف بعد البطش باليد البصر خوفاً من الدلالة قال: ﴿أم لهم أعين﴾ أي منعوتة بأنهم ﴿يبصرون بها﴾ أي ضرباً من الإبصار؛ ولما كان الإنسان ربما خاف مما يقصد ضره فتغيب عنه فلا يصل إليه بعد ذلك إلا بالسمع قال خاتماً: ﴿أم لهم آذان﴾ أي مقول فيها أنهم ﴿يسمعون بها﴾ أي شيئاً من السمع.

ولما سواها بهم ونفى عنهم ما تقدم، لزم نقصانها عنهم وأنه في الحقيقة مسلوب عنهم لأنهم ليس لهم من ذاتهم إلا العدم، والقدرة فيما يقدرون عليه إنما هي بيد الصانع لهم أشركهم معها، وقال دالاً على ذلك مستأنفاً: ﴿قل﴾ أي لهؤلاء المشركين ﴿ادعوا شركاءكم﴾ أي هذه التي تقدمت ومهما شئتم غيرها، واستعينوا بها في عداوتي.

ولما كان هذا تحدياً عظيماً يحق لفاعله التمدح به، نبه عليه بأداة التراخي فقال: ﴿ثم كيدون﴾ أي جميعاً أنتم وهم وأنتم أكثر من حصى البطحاء ورمل الفضاء وأنا وحدي، ولما كان المعنى: وعجلوا، عطف بفاء السبب قوله: ﴿فلا تنظرون﴾ أي تمهلون لحظة فما فوقها لثلاثا تعتلوا في الإنظار بعلّة، وعلل عدم المبالاة بكيدهم بقوله دالاً على اتصاف معبوده بما نفاه عن شركائهم من الإحاطة بمنافع الدارين فيما يتعلق بالأديان والأبدان، وقدم الدين إشارة إلى أنه الأهم فقال مؤكداً في مقابلة إنكارهم: ﴿إن وليتي﴾ أي ناصرني ومتولي جميع أموري ﴿الله﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿الذي نزل﴾ أي بحسب التدرج متكفلاً بفصل الوقائع ﴿الكتب﴾ أي الجامع لعلوم الأولين والآخرين وأمر المعاش والمعاد وأحوال الدارين وكل ما فيه صلاح من أحوال القلوب وغيرها الذي عجزتم بأجمعكم ومن دعيتم شركته عن معارضة شيء منه.

ولما تكفل هذا التنزيل بجميع الصفات، وهي الحياة التامة المستلزمة للإرادة والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام، وكان عجزهم عن المعارضة للكتاب دليلاً شهودياً قولياً على كذبهم، أتبع ذلك دليلاً آخر شهودياً فعلياً فقال: ﴿وهو﴾ أي وحده ﴿يتولى﴾ أي يلي ولاية تامة ﴿الصلحين﴾ أي كلهم بنصرهم على كل مناو وكفائتهم لكل مهم وقد علمتم ما قدمه في هذه السورة من وقائعه بمن كذب أنبياءه واستهزأ برسله وأنه أنجى كل من والاه، وأهلك جميع من عاداه كمن عدوهم آلهة، وهو وما بعده وما قبله مثلت إلى قوله تعالى ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ [الأعراف: ٣] بالشرح، وهو دال على أنه هو الذي فعل ما تقدم لأجل أوليائه بدليل أنه أعجزهم عن معارضة شيء من كتابه، وعن الوصول إلى جميع ما يريدون من أوليائه وأحبابه.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصُدُّونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَقْوَةَ أَمْرًا بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾.

ولما صور بهذا جلاله، وقرر عظمته وكماله، باتصافه بجميع الصفات العلى التي منها القدرة التي تكفهم عنه؛ كرر التنفير عن أندادهم في أسلوب آخر تأكيداً للمعنى السابق بزيادة بالغة في العجز وهو تصويب النظر من غير إبطار، مع أن الأول للتقريع،

وهذا للفرق بين من يعبد بحق ومن يعبد باطل ليرجعوا عن غيهم وعنادهم، فقال مبيناً أنهم ليسوا في شيء من صفاته مصرحاً بنفي النصره التي أثبتتها له عنهم مع المواجهة بالخطاب الذي هو أفظع في الجواب: ﴿والذين تدعون﴾ أي تديمون دعاءهم ﴿من دونه﴾ - فإنهم يدعونه سبحانه في بعض الأوقات - أو تدعونهم تاركين له ﴿لا يستطيعون نصركم﴾ أي بوجه من وجوه النصره بدليل عجزكم عني وأنا وحدي وأنتم أهل الأرض ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾* بدليل أن الكلب يبول عليهم فلا يمنعون.

ولما كان دعاء الجماعة أقرب إلى السماع من دعاء الواحد، نسق على ما قبله قوله: ﴿وإن تدعوهم﴾ أي يا من هم أضل منهم وأعجز ﴿إلى الهدى﴾ أي إلى الذي هو أشرف الخلال ليهتدوا في نصر أنفسهم أو غير ذلك ﴿لا يسمعون﴾ أي شيئاً من ذلك الدعاء ولا غيره؛ ولما كان حالهم في البصر بالنسبة إلى كل أحد على حد سواء، قال مفرداً للمخاطب: ﴿وتزهم﴾ أي أيها الناظر إليهم ﴿ينظرون إليك﴾ أي كأنهم ينظرون لما صنعوا لهم من الأعين ﴿وهم لا يبصرون﴾* أي نوعاً من الإبصار، وما أشبه مضمون هذه الآيات بما في سفر أنبياء بني إسرائيل في نبوة أشعياً: هكذا يقول الرب ملك إسرائيل ومخلصه: أنا الأول وأنا الآخر، وليس إله غيري. ومن مثلي يدعي ويظهر قوته ويخبر بما كان منذ بسطت الدنيا إلى الأبد، والآيات القديمة تظهر للشعوب، فلا يفزعون ولا يخافون، ألم أسمعكم منذ أول الدهر وأظهرها لكم وأبين لكم الأمور وأنتم شهدائي أن ليس إله غيري، وليس عزيز منيع إلا وأنا أعز منه، لأن جميع الصناعات الذين يعملون الأصنام إنما عملهم باطل وليس في أعمالهم منفعة، وأن الصناعات الذين يعملونها هم يشهدون عليها أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تعلم، لذلك يخزي جميع صناعات الأوثان المسبوكة لأن جميع ما صنعوا لا عقل له، فيجمعون كلهم ويخزون ويفتضحون لأن النجار نحت بحديده وهياً صنماً بمنقاره وسدده بقوة ساعده وجاع وعطش في عمله. والنجار اختار خشبة وقدرها وألصق بعضها ببعض بالغراء وركبها وعملها كشبه الإنسان، أقام من الخشب الذي قطع من الغيضة كشبه رجل الذي نبت من شرب المطر ليصير للناس للوقود فعملوه لهم إلهاً وعبدوه وسجدوا له، الذي ينصفه خبزوا لهم خبزاً وشووا لهم لحماً على جمرة وأكلوا وشربوا واصطلوا وقالوا: قد حمينا لأننا قد أوقدنا ناراً واصطلينا، والذي بقي منه اتخذوه إلهاً منحوتاً وسجدوا له وصلوا وقالوا: نجنا لأنك إلهنا. ولم يخطر على بالهم فكر أن يقولوا: إنا قد أوقدنا نصفه بالنار، وخبزنا خبزنا وشوينا على جمرة اللحم وأكلنا، ولم يعلموا أن باقيه قد عمل منه صنم وسجدوا له، لأن قلوبهم متمرغة في رماده، وضلت عقولهم فلا يقدرّون ينجون أنفسهم ولا يقولون:

إن أيادينا عملت الباطل واتخذت الكذب، ثم قال: أليس أنا الرب منذ أول، وليس إله غيري ولا مخلص سواي، ادنوا إليّ يا جميع الذين في أقطار الأرض لتنجوا لأنّي أنا الرب وليس إله غيري، حلفت بيمينني وأخرجت كلمة صدق ولست أرجع عنها لأنه لي تحني كل ركبة، وبي يحلف كل إنسان ويقول: إنما البر بالرب، وإليه تدنو الأعراف ويخزي جميع المبغضين، وبي يمتدح ويتبرر، بمن شبهتموني؟ وإلى من نسبتموني؟ بالضالين الذين أخرجوا الذهب من أكياسهم ووزنوا الفضة بالميزان واكتروا الصناعات حتى عملوا لهم آلهة يسجدون لها ويحملونها على أكتافهم ويمشون بها ثم يصلون لها ويدعونها لا تجيبهم ولا تخلصهم من شدائدهم ثم يحملونها أيضاً ويردونها إلى مواضعها، اذكروا هذه الأشياء واعقلوا أيها الأثمة واطفروا على قلوبكم واذكروا الأيام التي كانت من الابتداء، إني أنا الله الخالق وليس إله غيري ولا مثلي، فأنا أظهر العتيدات وأخبر بالذي يكون قبل أن يكون، وأثبت رأبي وأكمل إرادتي وهواي، وأدعو من في المشارق فيأتون أسرع من الطير، وأتاني الرجل الذي قد عمل مسرتي من الأرض البعيدة، لأنّي أنا إذا تكلمت بشيء فعلته. أنا خلقت وأنا أخلق؛ وفي الزبور في المزمور الثالث عشر بعد المائة: إلهنا في الأرض، كل ما يشاء يصنع، أوثان الأمم ذهب وفضة عمل أيدي البشر، لها أفواه ولا تتكلم، لها أعين ولا تنظر، لها آذان ولا تسمع، وأناف ولا تشم، وأيد ولا تلمس، وأرجل ولا تمشي، ولا صوت بحناجرها ولا روح في أفواهها، فليكن صانعوها مثلها وجميع من يتوكل عليها - انتهى.

ولما كان محصل أمرهم الإعراض عما أتاهم بالكذب والإقبال على ما لم يأتهم بالطلب والتعنت كالسؤال عن الساعة، والأمر بالمنكر من الشرك وما يلزم منه من مساوي الأخلاق، والنهي عن المعروف الذي هو التوحيد وما يتبعه من محاسن الشرع، وذلك هو الجهل، وختم ذلك بالإخبار بأنه سبحانه أصلح له الدين بالكتاب، والدنيا بالحفظ من كل ما ينتاب، وكان حالهم ربما كان موثراً من فلاحهم، مفترراً عن دعائهم إلى صلاحهم، كان الداعي لهم ﷺ كأنه قال: فما أصنع في أمرهم؟ فأجابه بالتحذير من مثل حالهم والأمر بضد قالهم وفعالهم والإبلاغ في الرفق بهم فقال: ﴿خذ العفو﴾ أي ما أتاك من الله والناس بلا جهد ومشقة، وهذه المادة تدور على السهولة، وتارة تكون من الكثرة وتارة من القلة، فعفا المال، أي كثر، فصار يسهل إخراجه ويسمح به لزيادته عن الحاجة، وعفا المنزل، أي درس، فسهل أمره حتى صار لا يلتفت إليه.

ولما أمره بذلك في نفسه، أمره به في غيره فقال: ﴿وأمر بالعرف﴾ أي بكل ما عرفه الشرع وأجازته، فإنه من العفو سهولة وشرفاً، وقد تضمن ذلك النهي عن المنكر

فأغنى بذلك عن ذكره لأن السياق للمساهلة؛ ولما أمره بالفعل في نفسه وغيره، أتبعه الترك فقال: ﴿وأعرض عن الجهلين﴾ أي فلا تكافئهم بخفتهم وسفههم ولا تمارهم فإن ذلك أسهل من غيره، وذلك بعد فضيحتهم بالدعاء، وذلك - لأن محط حالهم اتباع الهوى فيدعوهم إلى تكلف ضد هذه الخصال، وفيه إشارة إلى النهي عن أن يذهب نفسه عليهم حسرات مبالغة في الشفقة عليهم، وعن جعفر الصادق أنه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

ولما كان الشيطان بعداوته لبني آدم مجتهداً في التنفير من هذه المحاسن والترغيب في أضرارها، وكان النبي ﷺ قد نزع منه حظ الشيطان بطرح تلك العلقة السوداء من قبله إذ شق جبرائيل عليه السلام صدره وغسل قلبه وقال: هذا حظ الشيطان منك؛ شرع لأمته ما يعصمهم منه عند نزغهم مخاطباً له بذلك ليكون أدمى لهم إلى القبول وأجدر باشتداد الخوف المقتضي للفرار المثمر للنجاة، لأنهم إذا علموا قصد الشيطان لمن نزع منه حظه وعصم من كل محنة علموا أنه لهم أشد قصداً وأعظم كيداً وصدماً، فقال مؤكداً بأنواع التأكيد إشارة إلى شدة قصد الشيطان للفتنة وإفراطه في ذلك، ليبالغ في الحذر منه وإن كان قصده بذلك في محل الإنكار لعلمه بالعصمة - ولذلك عبر بأداة الشك إشارة إلى ضعف كيدته للنبي ﷺ، لأن الله تعالى أعانه على قرينه فأسلم: ﴿وإما﴾ أي إن، وأكدت بـ ﴿ما﴾ إثباتاً للمعنى ونفيّاً لضده ﴿ينزغنك﴾ أي ينخسك نخساً عظيماً ﴿من الشيطان نزغ﴾ أي نخس بوسوسته من شأنه أن يزعج فيسوق إلى خلاف ما تقدم من المحاسن في نحو غضب من جهل الجاهل وسفه السفیه أو إفراط في بعض أوجه كما تساق الدابة بما تنخس به، فيفسر ويجعل النخس ناخساً إشارة إلى شدته ﴿فاستعذ﴾ أي فأوجد أو اطلب العوذ وهو الاعتصام ﴿بالله﴾ أي الذي له جميع العز والعظمة والقدرة والقهر لانقطاعك عن الإخوان والأنصار إليه فلا ولي لك ولا ناصر إلا هو، فإنه إذا أراد إعادتك ذكرك من عزيز نعمه وشديد نقمه ما يرد عن الفساد رغباً ورهباً، والآية ناظرة إلى قوله تعالى أولها ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ [الأعراف: ١٦].

ولما أبطل تعالى أن يكون لشركائهم سمع أو علم، صار إثبات ذلك له كافياً في اختصاصه به من غير حاجة إلى الحصر المتضمن لنفيه عن غيره لتقدمه صريحاً بخلاف ما في فصلت، فقال معللاً: ﴿إنه سميع﴾ أي بالغ السمع فهو يسمع استعاذتك فيجيبك إن شاء ﴿عليم﴾ شامل العلم بما تريد ويريد منك عدوك، فلا يعجزه شيء، وختم بصفة العلم في الموضعين لأن الوسوسة من باب ما يعلم، وختمها في سورة المؤمن بالبصير المشتق من البصر والبصيرة، لأن المستعاذ منه أمر الناس ومنه ما يبصر.

ولما كان لا يحصل للنبي ﷺ إلا شيء خفيف جداً كما نبه عليه بالنزغ، وهو ليس بمحقق كما نبهت عليه أداة الشك، وكان لا يستعيز بالله إلا المتقون فكان كأنه قيل: افعل ذلك عند أول نزغه لتكون من المتقين، علله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي حصل لهم هذا الوصف، وحقق أذاه لهم بأداة التحقيق - بخلاف ما مضى عند أفراد الخطاب للنبي ﷺ - فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ﴾ أي طواف على أنه مصدر، ويجوز أن يكون تخفيف طَيْف كميته وهو بمعنى قراءة طائف على أنه فاعل كميته ومائت، ويجوز أن يكون مصدراً أيضاً، وهو إشارة إلى أن الشيطان دائر حولهم لا يفارقهم، فتارة يؤثر فيهم طوافه فيكون قد مسهم مساً هو أكبر من النزغ لكونه أطاف بهم من جميع الجوانب، وتارة لا يؤثر ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي البعيد من الرحمة المحترق باللعنة ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي كلفوا أنفسهم ذكر الله بجميع ما ينفعهم في ذلك إقداماً وإحجاماً.

ولما كانوا بإسراع التذكر كأنهم لم يمسه شيء من أمره، أشار إلى ذلك بالجملة الاسمية مؤكداً لسرعة البصر بإذا الفجائية: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أي بنور ضمائرهم ﴿مَبْصُرُونَ﴾ أي ثابت إبصارهم فلا يتابعون الشيطان، فإن المتقي من يشتهي فينتهي، ويبصر فيقصر، وفي ذلك تنبيه على أن من تهادى مع الشيطان عمي لأنه ظالم، والظالم هو من يكون كأنه يمشي في الظلام.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٠) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَتْ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِّنَ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢١) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٢) وَأَذْكُرَنَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٣) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَحْسِنُونَ وَلَهُ يُسْجَدُونَ ﴿٢٤﴾ .

ولما وصف المتقون الذين هم العلماء ملوحاً إلى نصح وليهم لهم، وعرف من حالهم أنهم أعداء الشيطان، وعرف أن أضدادهم أولياؤه؛ أتبعه وصف الجاهلين وغش أولياهم لهم والكل غير متقين، فقال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي وإخوان الجاهلين من شياطين الإنس والجن ﴿يمدونهم﴾ أي يمدون الجاهلين، من المد وهو الإمهال والإطالة على قراءة الجماعة، وهو بمعنى قراءة أهل المدينة بالضم من الإمداد، وقال الواحدي: إن هذا أكثر ما يأتي فيما يحمد كأمدناهم بفاكهة، فهو من استعمال الشيء في ضده نحو ﴿فبشرهم بعذاب﴾، وكأنه يشير إلى أن الشيطان أكثر ما يأتي الإنسان في صورة الناصح الشفيق، والأوجه أن يكون الإخوان الجاهلين لأنهم في مقابلة ﴿الذين اتقوا﴾ ويكون

الضمير للشيطان المراد به الجنس، أي وإخوان الشياطين - وهم الجاهلون الذين لا يتقون - يمدهم أولياؤهم من الشياطين ﴿في الغي﴾ وهو ضد الرشاد، وأشار إلى مزيد اعتنائهم بالإغواء ومشايرتهم على الإضلال والإغراء بأداة التراخي فقال: ﴿ثم لا يقصرون﴾ أي لا يتركون إغواءهم ولو لحظة لجهلهم وشرهم.

ولما تقرر ما شرعه من التعفف وعدم التنطع والتكلف، وكان قد أخبر أن من عمههم تكلفهم السؤال عن الساعة، والشياطين لا يفترون عن إغوائهم، أخبره عن مطلق تكلفهم تعجباً منهم وإشهاداً لتماديتهم مع إغواء شياطينهم، وأمره ﷺ بما يجيبهم به فقال عاطفاً على ﴿يمدونهم﴾: ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ أي على حسب اقتراحهم ﴿قالوا لولا﴾ أي هلا ﴿اجتبتيتها﴾ والجبى: الجمع، والإجباء تركه، والاجتباء: الجد في الجمع، ويلزم منه الاصطفاء والاختيار، فمعنى اجتبيتها اجتلبتها، أي تكلفت من عند نفسك الإتيان بها مختارة.

ولما كان المقام داعياً إلى السؤال في تعليم الجواب، أسعف ذلك بقوله: ﴿قل﴾ أي إذا قالوا ذلك ﴿إنما أتبع﴾ أي أتعمد وأتكلف اتباع ﴿ما يوحى إلي﴾ أي يأتيني به الملك ﴿من ربي﴾ أي المحسن إليّ بتعليمي ما ينفعني، لا أنني آتي بشيء من عند نفسي ولا أقترح على ربي.

ولما حصر حاله في اتباع الوحي كان كأنه قيل: ما هذا الذي يوحى إليك؟ فقال - ويجوز أن يكون تعليلاً لاتباعه لأنه كاف في إثبات نبوته مغني عن الآيات المقترحة قاهر في وجوب اتباعه -: ﴿هذا﴾ مشيراً إلى ما يوحى إليه تنبيهاً على أنه يجب أن يكون مستحضراً في سائر الأذهان، حاضراً بين عيني كل إنسان ﴿بصائر﴾ أي أشياء هي - على حسب ما طلبتم - مجتابة، بل هي خيار الخيار، يكون بها نور القلب فيصير للعيون أيضاً بصر يقربه مما يحث الكتاب على نظره من الآيات المرثيات إلى علوم لم تكن لها قبل ذلك، وهي حجج بينة قاهرة على تصديقي وقبول كل ما جئت به، وسماء بذلك لأنه سبب لبصر العقول بدلائل التوحيد والنبوة والمعاد وجميع الشريعة أصولاً وفروعاً، فهو تسمية للسبب باسم المسبب، وعليّ مدحها بقوله: ﴿من ربكم﴾ أي الذي لم يقطع إحسانه عنكم أصلاً، فهو جدير بأن يتلقى ما أتى منه بكل جميل.

ولما كانت البصائر جمعاً، وكانت العادة جارية بأن مفردات الجمع تكون متفاوتة، أكدها بما يشير إلى أنها خارقة للعادة في أنها على حد سواء في أعلى طبقات الهداية فقال: ﴿وهدى﴾ أي بيان؛ ولما كان البيان قد لا يكون على وجه الإكرام، قال: ﴿ورحمة﴾ أي إكرام.

ولما كان من لا يتنفع بالشيء يصح أن ينفي عن الشيء النافع النفع بالنسبة إليه، قال: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يوجدون هذه الحقيقة ويستمرون على تجديدها في كل وقت، وأما غيرهم فقد يكون عليهم عذاباً.

ولما عظم الله شأن القرآن، فكان التقدير: فأمنوا به تفلحوا، عطف عليه قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ أي وهو هذا الذي يوحى إليّ، فتأدبوا وتواضعوا لأنه صفة ربكم ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي ألقوا إليه أسماعكم مجتهدين في عدم شاغل يشغلكم عن السمع.

ولما كان بعض الفهماء يسمع وهو يتكلم، أشار إلى أن هذا الكتاب أعلى قدرًا من أن يناله من يشتغل عنه بأدنى شغل فقال: ﴿وَأَنْصِتُوا﴾ أي للتأمل والتدبر لتنجلي قلوبكم فتعلموا حقيقته فتعلموا بما فيه ولا يكون في صدوركم حرج منه؛ ولما كان ظاهر الآية وجوب الإنصات لكل قارئ على كل أحد، رغب فيه تعظيمًا لشأنه فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي لتكونوا على رجاء من أن يكرمكم ربكم ويفعل بكم كل ما يفعله الراحم مع المرحوم.

ولما تقدم الأمر بالذكر عند نزغ الشيطان، ومر إلى أن أمر بالاستماع لأعظم الذكر، وكان التالي ربما بالغ في الجهر ليكثر سامعه، وربما أسر لثلا يوجب على غيره الإصغاء، علمهم أدب القراءة، وأطلق ذلك في كل حال لأنه ربما فهم فاهم الاقتصار على الذكر في حالة النزغ، ورقى الخطاب منهم إلى إمامهم ليكون أدهى لقبولهم مع الإشارة إلى أنه لا يكاد يقوم بهذا الأمر حق قيامه غيره ﷺ فقال: ﴿وَادْكُرْ﴾ أي بكل ذكر من القرآن وغيره - ﴿رَبِّكَ﴾ أي الذي بلغ الغاية في الإحسان إليك ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ أي ذكراً يكون راسخاً فيك مطروفاً لك لفهمك لمعانيه وتخلقك بما فيه، وليكن سرّاً لأن ذلك أقرب إلى الإخلاص وأعون على التفكير، وكونه سرّاً دال على أشرف الأحوال، وهو المراقبة مع تحقق القرب، فإذا كان كذلك أثمر قوله: ﴿تَضَرَّعاً﴾ أي حال كونك ذا تضرع بالظاهر ﴿وَخِيفَةً﴾ أي لتدعو المخافة إلى تذلل قلبك لتجمع بين تضرع السر والعلن، وبهذا يكمل ذل العبودية لعز الربوبية.

ولما أمر بالسر، قال مقابلاً له: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ أي لأنه أدخل في الإخلاص، ومن المعلوم أنه فوق السر، وإلا لم تفد الجملة شيئاً، ولما كان الجهر قد يكون في الأفعال، أكده بقوله: ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي فإن ذلك يشعر بالتذلل والخضوع من غير صياح كما يناجي الملوك ويستجلب منهم الرغائب، وكما قال ﷺ للصحابه وقد جهروا بالدعاء

فوق المقدار «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً»^(١) فإن المقصود حصول الذكر اللساني ليعين الذكر القلبي، والمقصود حاصل بإسماع النفس فإنه يتأثر الخيال فيتقوى الذكر القلبي، ولا تزال الأنوار تتزايد فينعكس تراجع بعضها إلى بعض حتى يزداد الترقى من ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار مدبر النور والظلام.

ولما أمر بالذكر مكيفاً له بكيفيته اللاتقة به، أمره ﷺ بالمداومة عليه ذاكراً أحسن الأوقات له وأحقها به، لكونها لما فيها من الشغل - أدل على إثاره لمزيد المحبة والتعظيم فقال: ﴿بالغدو﴾ أي أوقات البكر، ولعله أفرد على جعله مصدر غداً، لأنه ما ثم إلا صلاة الصبح، وجمع ما بعده للعصرين والمغرب فقال: ﴿والأصال﴾ أي أوقات العشاء، وقيل: الغدو وجمع غدوة، فيراد حينئذ مع الصبح الضحى، وآخر كل نهار متصل بأول ليلة اليوم الثاني فسمي آخر اليوم أصيلاً لأنه يتصل بما هو أصل اليوم الثاني، وخص هذين الوقتين وإن كان المراد الدوام بتسمية كل من اليوم والليل باسم جزئه، ليذكر بالغدو الانتشار من الموت، وبالأصيل السكون بالموت والرجوع إلى حال العدم فيستحضر بذلك جلال الله عز وجل فيكون ذلك حاوياً على تعظيمه حق تعظيمه.

ولما كان ربما أوهم هذا الخصوص بهذين الوقتين وإن كان ظاهراً في الدوام، قال مصرحاً: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾* أي في وقت غيرهما، بل كن ذاكراً في كل وقت على كل حال؛ ثم علل الأمر بالمراقبة الدالة على أعظم الخضوع بأنها وظيفة المقربين فقال: ﴿إن الذين﴾ وزاد ترغيباً في ذلك بقوله: ﴿عند ربك﴾ أي المحسن إليك بتقريبك من جنبه وجعلك أكرم أحببه، وهم الملائكة الكرام أولو العصمة، والقرب دنو مكانة لا مكان ﴿لا يستكبرون﴾ أي لا يوجدون ولا يطلبون الكبر ﴿عن عبادته﴾ أي الخضوع له والتلبس بانحاء التذلل مع مزيد قربهم وغاية طهارتهم وحبهم ﴿ويسبحونه﴾ أي ينزهونه عن كل ما لا يليق مع خلوصهم عن دواعي الشهوات والحظوظ.

ولما كان هذا يرجع إلى المعارف، وقدمه دلالة على أن الأصل في العبادة أعمال القلوب، أردفه بقوله: ﴿وله﴾ أي وحده ﴿يسجدون﴾ أي يخضعون بإثباتهم له كل كمال، وبالمباشرة لمحاسن الأعمال، وقد تضمنت الآية الإخبار عن الملائكة الأبرار بثلاثة أخبار: عدم الاستكبار الذي هو أجل أنواع العبادة إذ هو الحامل على الطاعة كما أن ضده حامل على المعصية، والتسبيح الذي هو التنزيه عن كل ما لا يليق، وتخصيصه

(١) أخرجه البخاري ٦٦١٠ و ٢٩٩٢ و ٦٣٨٤ و مسلم ٢٧٠٤ وأبو داود ١٥٢٦ - ١٥٢٨ و الترمذي ٣٤٦١ وابن ماجه ٣٨٢٤ وأحمد ٤١٨/٤ و ٤٠٣ و ٤١٧ من حديث أبي موسى الأشعري.

بالسجود، ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار، وكانت على قسمين: قلبية وجسمانية، أشار إلى القلبية بالتزويه، وإلى الجسمانية بالسجود، وهو الحال الذي يكون العبد به عند ربه كالملائكة قريباً وزلفى «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» نبه عليه أبو حيان على أن العبادتين مرجعهما القلب، وإحداهما مدلول عليها بالقول والأخرى بالفعل، وقد رجع آخر السورة في الأمر باتباع القرآن إلى أولها أحسن رجوع، ولوصف المقربين بعدم الاستكبار والمواظبة على وظائف الخضوع إلى وصف إبليس بعصيان أمر الله في السجود لآدم عليه السلام على طريق الاستكبار أي التفات، بل شرع في رد المقطع على المطلع حين أتم قصص الأنبياء، فقوله ﴿ولقد ذرأنا﴾ [الأعراف: ٥٨] يتضح لك ذلك إذا راجعت ما قدمته في المراد منها ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ [الأعراف: ١٨٠] هو - ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ و ﴿ممن خلقنا أمة يهدون بالحق﴾ [الأعراف: ١٨٠] - هو ﴿والذين آمنوا وعملوا الصلح لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة﴾ [الأعراف: ٤٢] ﴿والذين كذبوا بآيتنا واستكبروا عنها﴾ [الأعراف: ٣٦] ﴿وإن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ [الأعراف: ١٨٥] هو ﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون﴾ [الأعراف: ٣٤] و ﴿يسئلونك عن الساعة﴾ [النازعات: ٤٢] هو ﴿كما بدأكم تعودون﴾ [الأعراف: ٢٩] و ﴿لكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ [الأعراف: ٢٤] و ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ [الأعراف: ١٨٩] ﴿لقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ [الأعراف: ١١] ﴿إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ [الأعراف: ٢٠٣] - إلى آخرها بعد التنفير من الأنداد - هو كُتِبَ أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه - إلى قوله: ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ [الأعراف: ٣] فسبحان من هذا كلامه، وتعالى حجابهِ وعز مرامه، وعلى من أنزل عليه صلاته وسلامه، وتحيته وإكرامه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

مدنية - آياتها خمس وسبعون

﴿سَأَلْنَاكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

وتسمى الجهاد ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي الذي له جميع الحول والقوة والطول ﴿الرحمن﴾ الذي أحاط دائرة العقل بشموس الأدلة من كل منقول ﴿الرحيم﴾ الذي من على من شاء من الأتباع بحسن الاتباع؛ ومقصد هذه السورة تبرؤ العباد من الحول والقوة، وحثهم على التسليم لأمر الله واعتقاد أن الأمور ليست إلا بيده وأن الإنسان ليس له فعل، ليثمر ذلك الاعتصام بأمر الله المثمر لاجتماع الكلمة المثمر لنصر الدين وإذلال المفسدين المنتج لكل خير، والجامع لذلك كله أنه لما ثبت بالسور الماضية وجوب اتباع أمر الإله والاجتماع عليه لما ثبت من تفرده واقتداره، كان مقصود هذه إيجاب اتباع الداعي إليه بغاية الإذعان والتسليم والرضى والتبرؤ من كل حول وقوة إلى من أنعم بذلك ولو شاء سلبه وأدل ما فيها على هذا قصة الأنفال التي اختلفوا في أمرها وتنازعا قسمها فمنعهم الله منها وكف عنهم حظوظ الأنفس وألزمهم الإخبات والتواضع، وأعطاهما نبيه ﷺ لأنه الذي هزمهم بما رمى من الحصبات التي خرق الله فيها العادة بأن بثها في أعين جميعهم وبما أرسل من جنوده، فكان الأمر له وحده، يمنحه من يشاء، ثم لما صار له ﷺ، رده فيهم منة منه عليهم وإحساناً إليهم، واسمها الجهاد كذلك لأن الكفار دائماً أضعاف المسلمين، وما جاهد قوم من أهل الإسلام قط إلا أكثر منهم، وتجب مصابرة الضعف، فلو كان النظر إلى غير قوته سبحانه ما أطبق ذلك، ولهذه المقاصد سنت قراءتها في الجهاد لتنشيط المؤمنين للجلاد، وإن كثرت من الأعادي الجموع والأعداد، وتوالت

إليهم زمر الأمداد من سائر العباد، كما ذكره الحافظ أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي المغربي في فتوح البلاد من كتابه الاكتفاء في سيرة المصطفى وأصحابه الثلاثة الخلفاء، وكذا شيخه الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن حبيش في كتابه الذي جمعه في الفتوح، قال في وقعة اليرموك من فتوح الشام عن حديث سيف بن عمر وهذا لفظ ابن سالم: قال: وكان القارئ يوم ذاك المقداد، قالوا: ومن السنة التي سن رسول الله ﷺ بعد بدر أن نقرأ سورة الجهاد عند اللقاء، وهي سورة الأنفال، ولم يزل الناس بعد على ذلك؛ قالوا في وقعة القادسية من فتوح فارس واللفظ لابن سالم أيضاً قالوا: ولما صلى سعد - يعني ابن أبي وقاص - رضي الله عنه الظهر أمر غلاماً كان عمر رضي الله عنه ألزمه إياه وكان من القراءة يقرأ سورة الجهاد، وكان المسلمون كلهم إذ ذاك يتعلمونها فقرأها على الكتيبة التي تليه، وقرئت في كل كتيبة، فهشت قلوب الناس وعرفوا السكينة مع قراءتها، قال مصعب بن سعد: وكانت قراءتها سنة يقرأها رسول الله ﷺ عند الزحوف ويستقرئها، فعمل الناس بذلك - انتهى. ومناسبتها للأعراف أنه لما ذكر تعالى - كما تقدم - قصص الأنبياء عليهم السلام مع أمهم في تلك، ناسب أن يذكر قصة هذا النبي الكريم ﷺ مع قومه، وتقدم أنه لما أظن سبحانه في قصة موسى عليه السلام كان ذلك ربما أوهم تفضيله على الجميع، فأتى بقصة المخاطب بهذا القرآن في سورتين كاملتين: الأنفال في أول أمره وأثنائه، وبراءة في ختام أمره وانتهائه، وفرق بين القصتين، وذلك أن قوم موسى عليه السلام كانوا في سوء العذاب، وكانوا يعلمون عن أسلافهم أن الله سيذكرهم وينجيهم من أيدي القبط، فلما أتاهم موسى عليه السلام وبين لهم الآيات التي أمره الله بها لم يشكوا في أنه الموعود به من رحمة الله لهم، وإتيانه نفع لهم عاجل مع ما فيه من النفع الآجل، فأطبقوا على أتباعه، وكانوا أكثر من ستمائة ألف مقاتل، ومع ذلك فقد كانوا يخالفون عليه في كل قليل، ولا يجدون قلباً يواجهون بها القبط في الإباء عن امتثال أوامرهم، وأما محمد ﷺ فأتى قومه ولا حس عندهم من نبوة ولا علم لهم بها، ولم يكونوا تحت ذل أحد، بل كانوا ملوك العرب، فعندهم أنه جاء يسلبهم عزهم ويصيرهم له تبعاً فخالفوا أشد المخالفة ولم يدعوا كيداً حتى باشروه في رده عما جاء به، ومع ذلك فنصره الله عليهم ولم يزل يؤيده حتى دخل الناس هم وغيرهم في دين الله أفواجاً، وأظهر دينه على الدين كله كما وعده سبحانه، ثم أيد أمره من بعده ولم يزل أتباعه ظاهرين ولا يزالون إلى يوم الدين، فبين القصتين فرقان لأولي الإبصار والإتقان، وأما مناسبة أولها لآخر تلك فقد تبين أن آخر الأعراف آخر قصة موسى عليه السلام المختتمة بقصة بلعام وأن ما بعد ذلك إنما هو

تتمت لما تقدم لا بد منها وتتمت للتمتات حتى كان آخر ذلك مدح من أهلهم لعنديته سبحانه بالإذعان وتمام الخضوع، فلما أضيفوا إلى تلك الحضرة العالية، اقتضى ذلك سؤالاً عن حال الذين عند المخاطب ﷺ فأجيب بقوله تعالى: ﴿يسألونك﴾ أي الذين عند ربك هم الذين هزموا الكفار في الحقيقة كما علمتم ذلك - وسيأتي بيانه، فهم المستحقون للأنفال وليس لهم إليها التفات وإنما همهم العبادة، والذين عندك إنما جعلتهم آلة ظاهرة ومع ذلك فهم يسألون ﴿عن الأنفال﴾ التي توليتهم إياها بأيدي جنودي سؤال منازعة ينبغي الاستعاذة بالله منها - كما نبه عليه آخر الأعراف - لأن ذلك يفضي إلى افتراق الكلمة والضعف عن مقاومة الأعداء، وهو جمع نفل - بالتحريك، وهو ما يعطاه الغازي زيادة على سهمه، والمراد بها هنا الغنيمة، وهي المال المأخوذ من أهل الحرب قهراً، سميت هنا بذلك لأن أصلها في اللغة الزيادة، وقد فضل المسلمون بها على سائر الأمم.

ولما كان السؤال عن حكمها، كان كأنه قيل: فماذا يفعل؟ فقال دالاً على أنهم سألوها عن مصرفها وحكمها - ليطابق الجواب السؤال: ﴿قل﴾ أي لهم في جواب سؤالهم ﴿الأنفال لله﴾ أي الذي ليس النصر إلا من عنده لما له من صفات الكمال ﴿والرسول﴾ أي الذي كان جازماً بأمر الله مسلماً لقضائه ماضياً فيما أرسله به غير متخوف من مخالطة الردى بمواقعة العدى؛ قال أبو حيان: ولا خلاف أن الآية نزلت في يوم بدر وغنائمه، وقال ابن زيد: لا نسخ، إنما أخبر أن الغنائم لله من حيث إنها ملكه ورزقه، وللرسول عليه السلام من حيث هو مبین لحكم الله والصادع فيها بأمره ليقع التسليم من الناس، وحكم القسمة نازل خلال ذلك - انتهى.

ولما أخبر سبحانه أنه لا شيء لهم فيها إلا عن أمر الله ورسوله، وكان ذلك موجباً لتوقفهم إلى بروز أمره سبحانه على لسان رسوله ﷺ، وكانت التقوى موجبة للوقوف خوفاً حتى يأتي الدليل الذي يجسر على المشي وراءه، سبب عن ذلك قوله: ﴿فاتقوا الله﴾ أي خافوا خوفاً عظيماً في جميع أحوالكم من الذي لا عظمة لغيره ولا أمر لسواه، فلا تطلبوا شيئاً بغير أمر رسول الله ﷺ ولا تتخاصموا، فإن الله تعالى الذي رحمكم بإرسال رسول لنجاتكم وإنزال كتاب لعصمتكم غير مهمل ما يصلحكم، فهو يعطيكم ما سبق في علمه الحكم بأنه لكم، ويمنعكم ما ليس لكم ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي الحال التي هي صاحبة افتراقكم واجتماعكم، فإن أغلب أمرها البين الذي هو القطيعة، وقد أشرفت على الفساد بطلب كل فريق الأثرة على صاحبه فأقبلوا على رعايتها بالتسليم لأمر الله ورسوله الأمرين بالإعراض عن الدنيا ليقسمها بينكم على سواء، القوي

والضعيف سواء، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، لتجتمع كلمتكم فيشتد أمركم ويقوى أزركم فتقدروا على إقامة الدين وقمع المفسدين ﴿وأطيعوا الله﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ورسوله﴾ أي الذي عظمته من عظمته في كل ما يأمرانكم به من تنفيل لمن يراه وإنفاذ شرط لمن شرط ووفاء عهد لمن عاهده.

ولما أمر ونهى هيج وألهب فقال مبيناً كون الإيمان مستلزماً للطاعة: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي صادقين في دعوى الإيمان، فليس كل من يدعي شيئاً يكون صادقاً في دعواه حتى يحصل البيان بالامتحان، ولذلك وصل به قوله مؤكداً غاية التأكيد لأن التخلص من الأعراض الدنيوية عسر: ﴿إنما المؤمنون﴾ أي الراسخون في وصف الإيمان ﴿الذين﴾ أي يقيمون الدليل على دعوى الإيمان بتصديق أفعالهم لأقوالهم فيكونون ﴿إذا ذكر الله﴾ أي الجامع لصفات الكمال من الجلال والجمال مجرد ذكر في نحو قوله ﴿الأنفال لله﴾ ﴿وجلت﴾ أي خافت خوفاً عظيماً يتخلل صميم عظامهم ويجول في سائر معانيهم وأجسامهم ﴿قلوبهم﴾ أي بمجرد ذكره استعظماً له ﴿وإذا تليت﴾ أي قرئت على سبيل الموالاة والاتصال من أي تال كان ﴿عليهم آيته﴾ أي كما يأتي في إقامة الأدلة على ذلك الحكم الذي ورد ذكره فيه ﴿زادتهم إيماناً﴾ أي بإيمانهم بها وبما حصل لهم من نور القلب وطمأنينة اليقين بسببها، فإنها هي الدالة على الله بما تبين من عظيم أفعاله ونعوت جلاله وجماله، وتظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه، وكمال قدرة الله تعالى إنما يعرف بواسطة آثار حكمته في مخلوقاته، وذلك بحر لا ساحل له، ولما كانت المراتب لا نهاية لها، كانت مراتب التجلي والمعرفة لا نهاية لها، فالزيادة في أشخاص التصديق ﴿وعلى﴾ أي والحال أنهم على ﴿ربهم﴾ أي الدائم الإحسان إليهم وحده ﴿يتوكلون﴾ أي يجددون إسناد أمورهم إليه مهما وسوس لهم الشيطان بالفقر أو غيره ليكفيهم من حيث لا يحتسبون، فإن خزائنه واسعة، ويده سحاء الليل والنهار، كما أنهم لما توكلوا عليه في القتال نصرهم وقد كانوا في غاية الخوف من الخذلان، وكان حالهم جديراً بذلك لقلقهم وخوفهم وقتلهم وضعفهم.

ولما وصفهم بالإيمان الحامل على الطاعة والتوكل الجامع لهم الدافع للمانع منها، قال منتقلاً من عمل الباطن إلى عمل الظاهر مبيناً أن همتهم إنما هي العبادة والمكارم: ﴿الذين يقيمون الصلوة﴾ أي لا يفترون عن تجديد ذلك؛ ولما كانت صلة بين الخلق والخالق، أتبعها الوصلة بين الخلائق فقال: ﴿ومما رزقنهم﴾ أي على عظمتنا وهو لنا دونهم ﴿ينفقون﴾ ولو كانوا مقلين اعتماداً على ما عندنا فالإنفاق وإهانة الدنيا همتهم، لا الحرص عليها، فحينئذ يكونون كالذين عند ربك في التحلي بالعبادة والتخلي

من الدنيا إعراضاً وزهادة، وهو تذكير بوصف المتقين المذكور أول الكتاب بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون﴾.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^٤
 كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ
 بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا
 لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ
 وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ
 تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾.

ولما حققوا إيمانهم بأفعال القلوب والجوارح والأموال، فاستوفوا بذلك جميع شعب الدين، عظم سبحانه شأنهم بقوله: ﴿أولئك﴾ أي العالو الهمم ﴿هم﴾ أي خاصة ﴿المؤمنون﴾ وأكد مضمون الجملة بقوله: ﴿حقاً﴾.

ولما كانت صفاتهم الخمس المذكورة المشتملة على الأخلاق والأعمال لها تأثيرات في تصفية القلوب وتنويرها بالمعارف الإلهية، وكلما كان المؤثر أقوى كانت التأثيرات أعلى، فلما كانت هي درجات كان جزاؤها كذلك، فلهذا قال سبحانه تعالى في جواب من كأنه قال: فما جزاؤهم على ذلك؟ ﴿لهم درجات﴾ ولما كثرتا بجمع السلامة بما دل عليه سياق الامتنان، عظمها بقوله: ﴿عند ربهم﴾ أي بتسليمهم لأمره.

ولما كان قدر الله عظيماً، وكان الإنسان عن بلوغ ما يجب عليه من ذلك ضعيفاً حقيراً، وكان بأدنى شيء من أعماله يستفزه الإعجاب، أشار سبحانه إلى أنه لا يسعه إلا العفو ولو بذل فوق الجهد فقال: ﴿ومغفرة﴾ أي لذنوبهم إن رجعوا عن المنازعة في الأنفال وغيرها، ﴿ورزق كريم﴾ أي لا ضيق فيه ولا كدر بوجه ما من منازعة ولا غيرها، فهو يغنيهم عن هذه الأنفال، ويملاً أيديهم من الأموال من عنائم فارس والروم وغير ذلك، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فما لا يحيط به الوصف؛ قال أبو حيان: لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وهي الوجل وزيادة الإيمان والتوكل - وبدنية ومالية، ترتب عليها ثلاثة أشياء، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات والبدنية بالغفران، وقوبلت المالية بالرزق الكريم، وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البديع - انتهى. ولما كان الإيمان عند الشافعي رحمه الله الاعتقاد والإقرار والعمل جوز أن يقال: مؤمن إن شاء الله، لأن استيفاء الأعمال مشكوك فيه وإن كان الاعتقاد والإقرار يقيناً، وعند أبي حنيفة رحمه الله الإيمان الاعتقاد والإقرار فقط، فلم يجوز الاستثناء، فالخلاف لفظي، هذا إذا

كان الاستثناء للشك، وإن كان لغيره كان لكسر النفس عن التمدح، وللشهادة بالجنة التي هي للمؤمن، وللحكم على حالة الموت، على أن هذه الكلمة لا تنافي الجزم، فهي بمجرد التبرك كقوله تعالى ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾ [الفتح: ٢٧] ذكر ذلك الإمام فخر الدين.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على النفس، وترك النزاع بعد الانتساب فيه أشد، شرع يذكر لهم ما كانوا له كارهين ففعله بهم وأمرهم به لعلمه بالعواقب فحمدوا أثره، ليكون أدعى لتسليمهم لأمره وازدجارهم بزجره، فشبّه حال كراهتهم لترك مرادهم في الأنفال بحال كراهتهم لخروجهم معه ثم بحال كراهتهم للقاء الجيش دون العير، ثم إنهم رأوا أحسن العقاب في كلا الأمرين فقال: ﴿كما﴾ أي حالهم في كراهية تسليم الأنفال - مع كون التسليم هو الحق والأولى لهم - كما كانت حالهم إذ ﴿أخرجك ربك﴾ أي المحسن إليك بالإرشاد إلى جميع مقاصد الخير ﴿من بيتك بالحق﴾ أي الأمر الفيصل الفارق بين الثابت والمزلزل ﴿وإن﴾ أي والحال أن ﴿فريقاً﴾ عبر به لأن آراءهم كانت تؤول إلى الفرقة ﴿من المؤمنين﴾ أي الراسخين في الإيمان ﴿لكرهون﴾ ثم ذكر دليل كراهتهم فقال: ﴿يجادلونك﴾ أي يكررون ذلك إرادة أن يفتلوك عن اللقاء للجيش إلى الرجوع عنه.

ولما كان لقاء الجيش أمراً قد حتمه الله فلا بد من وقوعه مع أنه يرضيه، قال: ﴿في الحق﴾ أي الذي هو إيثار الجهاد ﴿بعد ما تبين﴾ أي وضح وضوحاً عظيماً سهلاً من غير كلفة نظر بقرائن الأحوال بفوات العير وتيسير أمر النفير وإعلام الرسول ﷺ لهم تارة صريحاً وتارة تلويحاً كقوله «والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم، هذا مصرع فلان وذلك مصرع فلان»^(١).

ولما كان سبحانه قد حكم باللقاء والنصرة تأييداً لوليه وإعلاء لكلمته مع شدة كراهتهم لذلك، شبه سوقه لهم إلى مراده. فقال بانياً للمفعول لأن المكروه إليهم السوق لا كونه من معين: ﴿كأنما يساقون﴾ أي يسوقهم سائق لا قدرة لهم على ممانعته ﴿إلى الموت وهم ينتظرون﴾ لأنها كانت أول غزوة غزاها النبي ﷺ وكان فيها لقاء، وكانوا غير متأهبين للقتال غاية التأهب، إنما خرجوا للقاء العير، هذا مع أنهم عدد يسير، وعدد أهل النفير كثير، وكانوا في غاية الهيبة للقائهم والرعب من قتالهم، وكل هذا تذكير لهم بأنه لم ينصرهم إلا الله بلا صنع منهم، بل كانوا في يد قدرته كالألة في يد أحدهم، لينتج ذلك أنه ليس لهم أن ينازعوا في الأنفال.

(١) تقدم في سورة آل عمران عند قصة بدر، وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٣/٥٠ ومسلم ١٧٧٩.

ولما لانوا بهذا الخطاب، وأقبلوا على الملك التواب، أقبل عليهم فقال: ﴿وإذ﴾ أي اذكروا هذا الذي ذكره الله لكم وقد كان حالكم فيه ما ذكره، ثم أفضى إلى سعادة عظيمة وعز لا يشبهه عز، واذكروا إذ ﴿يعدكم الله﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿إحدى الطائفتين﴾: العير أو النفير، وأبدل من الإحدى - ليكون الوعد بها مكرراً - قوله: ﴿إنها لكم﴾ أي فتكروهون لقاء ذات الشوكة ﴿وتودون﴾ أي والحال أنكم تحبون محبة عظيمة ﴿أن غير ذات الشوكة﴾ أي السلاح والقتال والكفاح الذي به تعرف الأبطال ويميز بين الرجال من ذوات الحجال ﴿تكون لكم﴾ أي العير لكونها لم يكن فيها إلا ناس قليل، يقال: إنهم أربعون رجلاً، جهلاً منكم بالعواقب، ثم تبين لكم أن ما فعله الله خير لكم بما لا يبلغ كنهه، فسلموا له الأمر في السر والجهر تنالوا الغنى والنصر، وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير العاصمي في مناسبة تعقيب الأعراف بهذه السورة ومناسبة آخر تلك لأول هذه ما نصه: لما قصَّ سبحانه على نبيه ﷺ في سورة الأعراف أخبار الأمم، وقطع المؤمنون من مجموع ذلك بأنه لا يكون الهدى إلا بسابقة السعادة، لافتتاح السورة من ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام، وكلاهما كفر على علم ولم ينفعه ما قد كان حصل عليه، ونبه تعالى عباده على الباب الذي أتى منه على بلعام بقوله سبحانه «ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فأشار سبحانه إلى أن اتباع الأهواء أضل كل ضلال، نهبوا على ما فيه الحزم من ترك الأهواء جملة فقال تعالى ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ [الأنفال: ١] الآية، فكان قد قيل لهم: اتركوا ما ترون أنه حق واجب لكم، وفوضوا في أمره لله وللرسول، فذلك أسلم لكم وأحزم في ردع أغراضكم وقمع شهواتكم وترك أمور ربكم وقد ألف في هذه الشريعة السمحة البيضاء حسم الذرائع كثيراً وإقامة مظنة الشيء مقامه كتحریم الجرعة من الخمر والقطرة، والخطبة في العدة واعتداد النوم الثقيل ناقضاً، فهذه مظان لم يقع الحكم فيها على ما هو لأنفسها ولا بما هي كذا، بل بما هي مظان ودواع لما منع لعينه أو استوجب حكماً لعينه وعلته الخاصة به، ولما أمر المسلمون بحل أيديهم عن الأنفال يوم بدر إذ كان المقاتلة قد هموا بأخذها وحدثوا أنفسهم بالانفراد بها ورأوا أنها من حقهم وأن من لم يياشر قتالاً من الشيوخ ومن انحاز منه لمهم فلا حق له فيها، ورأى الآخرون أيضاً أن حقهم فيها ثابت لأنهم كانوا فيه للمقاتلين عدة وملجأ وراء ظهورهم، كان ما أمرهم الله به من تسليم الحكم في ذلك إلى الله ورسوله من باب حسم الذرائع لأن تمشية أغراضهم في ذلك - وإن تعلق كل من الفريقين بحجة - مظنة لرئاسة النفوس واستسهال اتباع الأهواء، فأمرهم الله بالتزهد عن ذلك والتفويض لله ولرسوله فإن ذلك أسلم لهم وأوفى لدينهم وأبقى في إصلاح ذات

الذين وأجدي في الأتباع ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ [الأنفال: ١] الآية، ثم ذكروا بما ينبغي لهم أن يلتزموا فقال تعالى ﴿إنما المؤمنون - إلى قوله: زادتهم إيماناً﴾ [الأنفال: ٢] ثم نبهوا على أن أعراض الدنيا من نفل أو غيره لا ينبغي للمؤمن أن يعتمد عليه اعتماداً يدخل عليه ضرراً من الشرك أو التفاتاً إلى غير الله سبحانه بقوله: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ ثم ذكروا بما وصف به المتقين من الصلاة والإنفاق ثم قال ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ تنبيهاً على أن من قصر عن هذه الأحوال ولم يأت بها على كمالها لم يخرج عن الإيمان ولكن ينزل عن درجة الكمال بحسب تقصيره، وكان في هذا إشعار بعذرهم في كلامهم في الأنفال وأنهم قد كانوا في مطلبهم على حالة من الصواب وشرب من التمسك والأتباع، لكن أعلى الدرجات ما بين لهم ومنحوه، وأنه الكمال والفوز، ثم نبههم سبحانه بكيفية أمرهم في الخروج إلى بدر وودهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم وهو سبحانه يريهم حسن العاقبة فيما اختاره لهم، فقد كانوا تمنوا لقاء العير، واختاروا ذلك على لقاء العدو ولم يعلموا ما وراء ذلك ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ [الأنفال: ٧] إلى ما قصه تعالى عليهم من اكتنافهم برحمته وشمول الطافه وآلائه وبسط نفوسهم ونبههم على ما يثبت يقينهم ويزيد في إيمانهم، ثم أعلم أن الخير كله في التقوى فقال ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ [الأنفال: ٢٩] الآية، وهذا الفرقان هو الذي حرمه إبليس وبلغام، فكان منهما ما تقدم من اتباع الأهواء القاطعة لهم عن الرحمة، وقد تضمنت الآية حصول خير الدنيا والآخرة بنعمة الاتقاء، ثم أجمل الخيران معاً في قوله ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ [الأنفال: ٢٩] بعد تفصيل ما إليه إسراع المؤمنين من الفرقان والتكفير والغفران، ولم يقع التصريح بخيري الدنيا الخاص بها مع اقتضاء الآية إياه تنزيهاً للمؤمن في مقام إعطاء الفرقان وتكفير السيئات، والغفران من ذكر متاع الدنيا التي هي لهو ولعب فلم يكن ذكر متاعها الفاني ليذكر مفصلاً مع ما لا يجانسها ولا يشاكله ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ [العنكبوت: ٦٤] ثم التحمت الآي، ووجه آخر وهو أنه تعالى لما قال ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له﴾ بين لهم كيفية هذا الاستماع وما الذي يتصف به المؤمن من ضروبه فقال ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله﴾ [الأنفال: ٢] الآية، فهؤلاء لم يسمعوا بأذانهم فقط، ولا كانت لهم آذان لا يسمعون بها ولا قلوب لا يفقهون بها، ولو كانوا كذا لما وجلت وعمهم الفزع والخشية وزادتهم الآيات إيماناً، فإذاً إنما يكون سماع المؤمن هكذا ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ [الأنفال: ٢١] ولما كان هؤلاء إنما أتى عليهم من اتباع أهوائهم والوقوف مع أعراضهم وشهواتهم ﴿يأخذون

عرض هذا الأدنى ﴿[الأعراف: ١٦٩]﴾ ولكنّه أخلد إلى الأرض واتبع هوه ﴿[الأعراف: ١٧٦]﴾ وهذه بعينها كانت آفة إبليس، رأى لنفسه المزيد واعتقد لها الحق ثم اتبع هذا الهوى حين قال ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ [الحجر: ٣٣] فلما كان اتباع الهوى أصلاً في الضلال وتنكب الصراط المستقيم، أمر المؤمنين بحسم باب الأهواء، والتسليم فيما لهم به تعلق وإن لم يكن هوى مجرداً لكنه مظنة تيسير لاتباع الهوى، فافتتحت السورة بسؤالهم عن الأنفال وأخبروا أنها لله ورسوله، يحكم فيها ما يشاء ﴿فاتقوا الله﴾ واحذروا الأهواء التي أهلكت من قص عليكم ذكره ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ برفع التنازع، وسلموا لله ولرسوله، وإلا لم تكونوا سامعين وقد أمرتم أن تسمعوا السماع الذي عنه ترجى الرحمة، وبيانه في قوله ﴿إنما المؤمنون﴾ - الآيات، ووجه آخر وهو أن قصص بني إسرائيل عقب بوصاة المؤمنين وخصوصاً بالتقوى وعلى حسب ما يكون الغالب فيما يذكر من أمر بني إسرائيل، ففي البقرة أتبع قصصهم بقوله ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرننا واسمعوا﴾ [البقرة: ١٠٤] ولما كان قصصهم مفتتحاً بذكر تفضيلهم ﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ افتتح خطاب هذه الأمة بما يشعر بتفضيلهم، وتأمل ما بين ﴿يبنينا إسرائيل﴾ و﴿يأيها الذين آمنوا﴾ وأمر أولئك بالإيمان ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ [البقرة: ٤١] وأمر هؤلاء بتعبد احتياطي فقيل ﴿وقولوا انظرننا واسمعوا﴾ [البقرة: ١٠٤] ثم أعقبت البقرة بآل عمران وافتتحت ببيان المحكم والمتشابه الذي من جهته أتى على بني إسرائيل في كثير من مرتكباتهم، ولما ضمنت سورة آل عمران من ذكرهم ما ورد فيها، أعقبت بقوله تعالى؛ ﴿يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ [آل عمران: ١٠٠] ثم أعقبت السورة بقوله ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ [النساء: ١] وعدل عن الخطاب باسم الإيمان للمناسبة، وذلك أن سورة آل عمران خصت من مرتكبات بني إسرائيل بجرائم كقولهم في الكفار ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ [النساء: ٥١] فهذا بهت، ومنها قولهم ﴿الله فقير ونحن أغنياء﴾ [آل عمران: ١٨١] إلى ما تخلل هاتين من الآيات المنبئة عن تعمدهم الجرائم، فعدل عن ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ إلى ﴿يأيها الناس﴾ ليكون أوقع في الترتيب وأوضح مناسبة لما ذكر، ولما ضمنت سورة النساء قوله تعالى ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات﴾ - إلى قوله: ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١] أتبعته بقوله تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: ٥١] ثم ذكر لهم ما أحل لهم وحرم عليهم ليحذروا مما وقع فيه

وأولئك، فعلى هذا لما ضمنت سورة الأعراف من قصصهم جملة، وبين فيها اعتداءهم، وبناء على اتباع الأهواء والهجوم على الأغراض، طلب هؤلاء باتقاء ذلك والبعد عما يشبهه جملة، فقليل في آخر السورة ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾ [الأعراف: ٢٠١] ثم افتتحت السورة الأخرى بصرفهم عما لهم به تعلق وإليه تشبث يقيم عذرهم شرعاً فيما كان منهم، فكان قد قيل لهم: ترك هذا أعلم وأبعد عن اتباع الأهواء، فسلموا في ذلك الحكم لله ورسوله واتقوا الله، ثم تناسج السياق والتحمت الآي، وقد تبين وجه اتصال الأنفال بالأعراف من وجوه، والحمد لله - انتهى .

ولما أخبر تعالى بما هو الحق من أن إرادتهم بل ودادتهم إنما كانت منصبة إلى العير لا إلى النفير، تبين أنه لا صنع لهم فيما وقع إذ لو كان لكان على ما أرادوا، فلا حظ لهم في الغنيمة إلا ما يقسمه الله لهم لأن الحكم لمراده لا لمراد غيره، فقال تعالى عاطفاً على ﴿وتودون﴾: ﴿ويريد الله﴾ أي بما له من العز والعظمة والعلم ﴿أن يحق الحق﴾ أي يثبت في عالم الشهادة الثابت عنده في عالم الغيب، وهو هنا إصابة ذات الشوكة ﴿بكلمته﴾ أي التي أوحاها إلى نبيه ﷺ أنهم يهزمون ويقتلون ويؤسرون، وأن هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، ليعلي دينه ويظهر أمره على كل أمر ﴿ويقطع دابر﴾ أي آخر ﴿الكافرين﴾ أي كما يقطع أولهم، أي يستأصلهم بحيث لا يبقى منهم أحد يشاقق أهل حزبه فهو يدبر أمرهم على ما يريد، فلذلك اختار لكم ذات الجذ والشوكة ليكون ما وعدكم به من إعلاء الدين وقمع المفسدين بقطع دابرهم ﴿ليحق الحق﴾ أي الذي هو دينه القيم وفيه فوز الدارين ﴿ويبطل الباطل﴾ وهو كل ما خالفه ﴿ولو كره﴾ أي ذلك ﴿المجرمون﴾ أي الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويكسر قوتهم بضعفكم ويفني كثرتهم بقلتكم ويمحق عزهم بذلتكم فيظهر علو أمره ويخضع الأعناق لذكره ﴿إذ﴾ ظرف ﴿ليحق الحق﴾ ﴿تستغيثون ربكم﴾ أي تطلبون إغاثة المحسن إليكم، وهو بدل من ﴿إذ يعدكم﴾ فهو من البيان لكرهتهم لقاء ذات الشوكة بشدة جزعهم الموجب لهم الاستغاثة مع إسفار العاقبة عن أن الخير فيما كرهوه، وأنه أحق الحق وأظهر الدين وأوهن أمر المشركين .

ولما أسرع سبحانه الإجابة، دل على ذلك بقوله: ﴿فاستجاب﴾ أي فأوجد الإجابة إيجاداً من هو طالب لها شديد الرغبة فيها ﴿لكم﴾ بغاية ما تريدون تثبيتاً لقلوبكم ﴿إني﴾ أي بأني ﴿ممدكم﴾ أي موجد المدد «لكم» أي بإمدادكم، ولعله حول العبارة لما في التصريح بضميره من العظمة والبركة ﴿بألف من الملكة﴾ حال كونهم ﴿مردفين﴾ أي متبعين بأمثالهم .

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ إِذْ يَغْشَىٰكُمْ النَّعَاسَ أَمَنَةٌ مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٢﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٤﴾ .

ولما كانت نصرة المسلمين في هذه الغزوة ظاهرة جداً، قال: ﴿وما جعله الله﴾ أي الإمداد والوعد به على ما له سبحانه من العظمة التي من راقبها لم يهب شيئاً ﴿إلا بشرى﴾ أي لتستبشر به نفوسكم، ولم يحتج إلى تقييد بأن يقال: لكم، وأما في قصة أحد فقد كان المقتول منهم أكثر من المقتول من الكفار فلولا قوله «لكم» لربما طرق بعض الأوهام حين سماع أول الكلام أن الإمداد بشرى للكفار.

ولما كان الذي وقع الحكم به هنا على الإمداد أنه بشرى نفسه من غير قيد، علم أن العناية به أشد، فكان المحكوم به الطمأنينة كذلك، فكان أصل الكلام: إلا بشرى هو وطمأنينة هو، فلذلك وجب تقديم ضميره في قوله «به» على القلوب تأكيداً لأمره وتفخيماً لشأنه، وإشارة إلى إتمامه على عادة العرب في تقديم ما هم به أعنى وهو عندهم أهم فقال: ﴿ولتطمئن﴾ أي وطمأنينة لتطمئن ﴿به﴾ أي وحده من غير نظر إلى شيء من قوتكم ولا غيرها ﴿قلوبكم﴾ فالآية من الاحتباك، وأما في قصة أحد فلما قيدت البشرى بالإمداد بلکم لما تقدم، علم أن الطمأنينة كذلك، فكان الأنسب تأخير ضميره وتقديم القلوب الملازمة لضميرهم موازنة لقوله «لكم».

ولما كان ذلك مفهوماً أن النصر ليس إلا بيده وأن شيئاً من الإمداد أو غيره لا يوجب النصر بذاته، صرح به في قوله: ﴿وما النصر﴾ أي حاصلًا وموجوداً بالملائكة وغيرهم من الأسباب ﴿إلا من عند الله﴾ أي لأن له وحده صفات الكمال، فما عنده ليس منحصراً في الإمداد بالملائكة فالنصر وإن كان بها فليس من عندها، فلا تعتمدوا على وجودها ولا تهنوا بفقدائها اعتماداً عليه سبحانه خاصة، فإن ما عنده من الأسباب لا يحيط به علماً، هذا إذا أراد النصر بالأسباب، وإن أراد بغير ذلك فعل فكان التعبير بعند لإفهام ذلك.

ولما كانت هذه الغزوة في أول الأمر، وكانوا بعد بروز الوعد الصادق لهم بإحدى الطائفتين كارهين للقاء ذات الشوكة جداً، ثم وقع لهم ما وقع من النصر، كان المقام

مقتضياً لإثبات عزة الله وحكمته على سبيل التأكيد إعلاماً بأن صفات الكمال ثابتة له دائماً، فهو ينصر من صبر واتفى بعزته، ويحكم أمره على أتم وجه بحكمته، هذا فعله دائماً كما فعل في هذه الغزوة فلذلك قال معللاً لما قبله مؤكداً: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي الملك الأعظم ﴿عَزِيزٌ﴾ أي هو في غاية الامتاع والقهر لمن يريد قهره أزلاً وأبداً. لا يغالب ولا يحوج وليه إلى زيادة العدد ولا نفاسة العدد ﴿حَكِيمٌ﴾ أي إذا قضى أمراً كان في غاية الإلتقان والإحكام، فلا يستطيع أحد نقص شيء منه، هذا له دائماً، فهو يفعل في نصركم هكذا مهما استأنستم إلى بشرائه ولم تنظروا إلى قوتكم ولا غيرها مما سواه فلا تقلقوا إذا أمركم بالهجوم على البأس ولو كان فيه لقاء جميع الناس.

ولما أكد هنا، لم يحتج إلى إعادة تأكيده في آل عمران فقيل ﴿العزیز الحکیم﴾ [آل عمران: ١٢٦] أي الذي أخبركم عن عزته وحكمته في غزوة بدر بما يليق بذلك المقام من التأكيد، وأخبركم أنكم إن فاديتهم الأسرى قتل منها في العام المقبل مثل عددهم، ففوق الأمر على ما قال مغن عن التأكيد، ولم يكن أحد من المسلمين في أحد متردداً في اللقاء ولا هائباً له إلا ما وقع من الهم بالفشل من الطائفتين والعصمة منه في الحال، وقد مضى في آل عمران لهذا مزيد بيان.

ولما ذكر البشرى والطمأنينة بالإمداد، ناسب أن يذكر لهم أنه أتبع القول بالفعل فألقى في قلوبهم بعزته وحكمته الطمأنينة والأمن والسكينة بدليل النعاس الذي غشيه في موضع هو أبعد الأشياء عنه وهو موطن الجلاد ومصاولة الأنداد والتيقظ لمخاتلة أهل العناد، وكذا المطر وأثره، فقال مبدلاً أيضاً من ﴿إِذْ يَعْذُرَكُمُ﴾ أو معلقاً بالنصر أو بما في الظرف من رائحة الفعل مصوراً لعزته وحكمته: ﴿إِذْ يَغْشَىٰكُمْ﴾ بفتح حرف المضارعة في قراءة ابن كثير وأبي عمرو فالفاعل ﴿النعاس﴾ وضم الباقون الياء، وأسكن نافع الغين وفتحها الباقون وشدودوا الشين المكسورة، فالفاعل في القراءة الأولى مفعول هنا، والفاعل ضمير يعود على الله،

ولما ذكر هذه التغطية الغربية الخارقة للعوائد، ذكر ما فعلت لأجله فقال: ﴿أَمَنَةٌ﴾ ولما كان ذلك خارقاً للعادة، جاء الوصف بقوله: ﴿مِنْهُ﴾ أي بحكمته لأنه لا ينم في مثل تلك الحال إلا الآمن، ويمنع عنكم العدو وأنتم نائمون بعزته، ولم يختلف فاعل الفعل المعلل في القراءات الثلاث لأن كون النعاس فاعلاً مجازاً، ويصح عندي نصبها على الحال.

ولما كان النعاس آية الموت، ذكر بعده آية الحياة فقال: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ﴾ وحقق كونه مطراً بقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ووقع في البيضاوي وأصله وكذا تفسير أبي حيان

أن المشركين سبقوا إلى الماء وغلبوا عليه، وليس كذلك بل الذي سبق إلى بدر وغلب على مائتها المؤمنون كما ثبت في صحيح مسلم وغيره، فيكون شرح القصة أنم مطروا في المنزل الذي ساروا منه إلى بدر فحصل للمسلمين منه ما ملؤوا منه أسقيتهم فتطهروا من حدث أو جنابة ولبد لهم الرمل وسهل عليهم المسير، وأصاب المشركين ما زلق أروضهم حتى منعهم المسير، فكان ذلك سبباً لسبق المسلمين لهم إلى المنزل وتمكينهم من بناء الحياض وتغوير ما وراء الماء الذي نزلوا عليه من القلب كما هو مشهور في السير، ويكون رجز الشيطان وسوسته لهم بالقلة والضعف والتخويف بكثرة العدو، والربط على القلوب طمأنينتهم وطيب نفوسهم بما أراهم من الكرامة كما يوضح ذلك جميعه قول ابن هشام ﴿وينزل عليكم من السماء﴾ ماء للمطر الذي أصابهم تلك الليلة، فحبس المشركين أن يسبقوا إلى الماء وخلقى سبيل المؤمنين إليه ﴿ليطهركم به﴾ أي من كل درن، وابتداءً من فوائد الماء بالتطهير لأنه المقرب من صفات الملائكة المقربين من حضرات القدس وعطف عليه - بقوله: ﴿ويذهب عنكم﴾ أي لا عن غيركم ﴿ورجز الشيطان﴾ بغير لام ما هو لازم له، وهو البعد الذي كان مع الحدث الذي منه الجنابة المقربة من الخبائث الشيطانية بضيق الصدر والشك والخوف لإبعادها من الحضرات الملائكة «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب» والرجز يطلق على القدر وعبادة الأوثان والعذاب والشرك، فقد كان الشيطان وسوس لهم، ولا شك أن وسوسته من أعظم القدر فإنها تجر من تمادى معها إلى كل ما ذكر؛ ثم عطف عليه ما تهيأ له القلب من الحكم الإلهية وهو إفراغ السكينة فقال: ﴿وليربط﴾ أي بالصبر واليقين.

ولما كان ذلك ربطاً محكماً غالباً عالياً، عبر فيه بأداة الاستعلاء فقال: ﴿على قلوبكم﴾ أي بعد إسكانها الوثوق بلطفه عند كل ملمة حتى امتلأت من كل خير وثبت فيها بالربط، فشبها بجراب ملىء شيئاً ثم ربط رأسه حتى لا يخرج من ذلك الذي فيه شيء، وأعاد اللام إشارة إلى أنه المقصد الأعظم وما قبله وسيلة إليه وعطف عليه بغير لام لازمه من التثبيت فقال: ﴿ويثبت به﴾ أي بالربط أو بالمطر ﴿الأقدام﴾ أي لعدم الخوف فإن الخائف لا تثبت قدمه في المكان الذي يقف به، بل تصير رجله تنتقل من غير اختياره أو بتليد الرمل.

ولما ذكر حكمة الإمداد وما تبعه من الآثار المثبتة للقلوب والأقدام، ذكر ما أمر به المدد من التثبيت بالقول والفعل فقال: ﴿إذ﴾ بدلاً ثالثاً من ﴿إذ يعدكم﴾ أو ظرفاً ليثبت ﴿يوحى ربك﴾ أي المحسن إليك بجميع ذلك ﴿إلى الملائكة﴾ وبين أن النصر منه لا من المدد بقوله: ﴿أنى معكم﴾ أي ومن كنت معه كان ظافراً بجميع مأموله ﴿فثبتوا﴾ أي

بسبب ذلك ﴿الذين آمنوا﴾ أي بأنواع الثبیت من تكثير سوادهم وتقوية قلوبهم وقاتل أعدائهم وتقليلهم في أعينهم وتحقير شأنهم؛ ثم بيّن المعية بقوله: ﴿سألقي﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿في قلوب الذين كفروا﴾ أي أوجدوا الكفر ﴿الرعب﴾ فلا يكون لهم ثبات ﴿فاضربوا﴾ أي أيها المؤمنون من الملائكة والبشر غير هائبين بسبب ذلك.

ولما كان ضرب العنق والرأس أوحى مهلك للإنسان، وكان العنق يستر في الحرب غالباً، عبر بقوله: ﴿فوق الأعناق﴾ أي الرؤوس أو أعالي الأعناق منهم لأنها مفاصل ومذابح.

ولما كان إفساد الأصابع أنكى ما يكون بعد ذلك لأنه يبطل قتال المضروب أو كمال قتاله، قال: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ أي فإنه لا مانع من ذلك لكوني معكم، ثم علل تسليطهم عليهم بقوله: ﴿ذلك﴾ أي التسليط العظيم، وأخبر عنه بقوله: ﴿بأنهم﴾ أي الذي تلبسوا الآن بالكفر ولو كانوا ممن يقضي بإيمانه بعد ﴿شاقوا الله﴾ أي الملك الأعلى الذي لا يطاق انتقامه ﴿ورسوله﴾ أي طلبوا أن يكونوا بمخالفة الأوامر والنواهي في شق غير الشق الذي فيه حزب الهدى في مكر منهم وخداع، وشاقوه باشتهاار السيف جهراً - ثم بين ما لفاعل ذلك، فقال عاطفاً على ما تقديره: فمن شاق الله ورسوله فافعلوا به ذلك، فإنني فاعل به ما فعلت بهؤلاء، وأظهر الإدغام في المضارع لأن القصة للعرب وأمرهم في عداوتهم كان بعد الهجرة شديداً ومجاهرة، وأدغم في الماضي لأن ما مضى قبلها كان ما بين مساترة بالماكرة ومجاهرة بالمقاهرة، وعبر بالمضارع ندباً إلى التوبة بتقييد الوعيد بالاستمرار، وأدغم في الحشر في الموضوعين لأن القصة لليهود وأمرهم كان ضعيفاً ومساترة في مماكرة: ﴿ومن يشاقق الله﴾ أي الذي له الأمر كله فلا أمر لأحد معه ويشاقه سراً أو جهراً ﴿ورسوله﴾ بأن يكون في شق غير الشق الذي يرضيانه ﴿فإن الله﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿شديد العقاب﴾ أي له هذه الصفة، فليتوقع مشاققه عذابه، فالآية من الاحتباك: ذكر الفعل المدغم أولاً دليل على حذف المظهر ثانياً، والمظهر ثانياً على حذف المدغم أولاً. ولما ختم الآية ببيان السبب الموجب لإهانة الذين كفروا وبما له من الوصف العظيم، أتبعه ما يقول لهم لبيان الحال عند ذلك بقوله التفاتاً إليهم لمزيد التبكيت والتوبيخ:

﴿ذَلِكَ فِدْوَةٌ مِّنْ رَبِّكَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

الْمَيْمِ ۖ فَلَم تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ
 وَلِيَسْبِيِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ
 كِيدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِينُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ
 تَعُودُوا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا مِنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا
 سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ .

﴿ذلكم﴾ أي هو سبحانه بما له من هذا الوصف الهائل يذيق عدوه من عذابه ما لا
 طاقة لهم به ولا يدان، فيصير لسان الحال مخاطباً لهم نيابة عن المقال: الأمر الذي
 حذرتكم منه الرسل وأتتكم به الكتب وكنتم تستهزئون به أيها الكفرة هو هذا الأمر
 الشديد وقعه البعيد على من ينزل عليه دفعه قد دهمكم، فما لكم لا تدافعونه! كلا والله
 شغل كلاً ما قابله ولم يقدر أن يزاوله .

ولما كان ما وقع لهم في وقعة بدر من القتل والأسر والقهر يسيراً جداً بالنسبة إلى
 ما لهم في الآخرة، سماه ذوقاً لأنه يكون بالقليل ليعرف به حال الكثير فقال: ﴿فذوقوه﴾
 أي باشروه قهراً مباشرة الذائق واعلموا أنه بالنسبة إلى ما تستقبلونه كالمذوق بالنسبة إلى
 المذوق لأجله ﴿وأن﴾ أي والأمر الذي أتتكم به الرسل والكتب أن لكم مع هذا الذي
 ذقتموه في الدنيا، هكذا كان الأصل ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً بالوصف فقال:
 ﴿للكافرين﴾ أي على كفرهم وإن لم يظهروا المشاققة ﴿عذاب النار﴾ وهو مواقعكم
 وهو أكبر وسترون .

ولما قرر إهانتهم في الدنيا والآخرة بما حسر عليهم القلوب، حسن أن يتبع ذلك
 نهي من ادعى الإيمان عن الفرار منهم وتهديد من نكص عنهم بعد هذا البيان وهو يدعي
 الإيمان فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أي بما أتاهم من عند ربهم ﴿إذا لقيتم الذين كفروا﴾
 أي بآيات ربهم فشاقتوه، وعبر عن حال لقاتهم بالمصدر مبالغة في التشبيه فقال:
 ﴿زحفاً﴾ أي حال كونهم زاحفين محاربين وهم من الكثرة بحيث لا يدرك من حركتهم -
 وإن كانت سريعة - إلا مثل الزحف ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي هرباً منهم وإن كنتم أقل
 منهم ﴿ومن يولهم﴾ ولما كان الأغلب في وقوع القتال النهار، وكان التولية مما لا يكون
 الظرف معياراً له لأنها مما لا يمتد زمنه، فالعصيان يقع بمجرد الالتفات بقصد الفرار،
 والتمادي تكرير أمثال، لا شرط في صحة إطلاق الاسم، عبر باليوم، وجرده عن «في»
 ندباً إلى الكر بعد الفر مع عدم الالتباس، فإن الظرف لا يكون معياراً للفعل إلا إذا كان
 ممتد الزمان كالصوم فقال ﴿يومئذ﴾ أي إذ لقيتم على هذه الحالة في أي وقت كان من
 أوقات القتال من ليل كان أو نهار ﴿دبره﴾ أي يجعل ظهره إليهم لشيء من الأشياء تولية

لا يريد الإقبال إلى القتال منها ﴿إلا﴾ أي حال كونه ﴿متحرفاً﴾ أو الحال التحرف، وهو الزوال عن جهة الاستواء ﴿لقتال﴾ أي لا يتسهل له إلا بذلك أو يخيّل إلى عدوه أنه منهزم خداعاً له ثم يكر عليه ﴿أو متحيزاً﴾ أي متنقلاً من حيز إلى آخر ومتنحياً ﴿إلى فئة﴾ أي جماعة أخرى من أهل حزبه هم أهل لأن يرجع إليهم ليستعين بهم أو يعينهم.

ولما كان هذا محل توقع السامع للجواب وتفريغ ذهنه له، أجاب رابطاً بالفاء إعلماً بأن الفعل المحدث عنه سبب لهذا الجزاء فقال: ﴿فقد باء﴾ أي رجع ﴿بغضب من الله﴾ أي الحائز لجميع صفات الكمال ﴿ومأوه جهنم﴾ أي تتجهمه كما أنه هاب تجهم الكفار ولقاء الوجوه العابسة بوجه كالح عابس ﴿وبئس المصير﴾ هذا إذا لم يزد الكفار عن الضعف - كما سيأتي النص به.

ولما تقدم إليهم في ذلك، علله بتقرير عزته وحكمته، وأن النصر ليس إلا من عنده، فمن صح إيمانه لم يتوقف عن امتثال أوامره، فقال مسبباً عن تحريمه الفرار وإن كان العدو كثيراً، تذكيراً بما صنع لهم في بدر، ليجريهم على مثل ذلك، ومنعاً لهم من الإعجاب بما كان على أيديهم في ذلك اليوم من الخوارق: ﴿فلم تقتلوهم﴾ أي حلّ على المدبر الغضب لأنه تبيين لكل مؤمن أنه تعالى لا يأمر أحداً إلا بما هو قادر سبحانه على تطويقه له، فإنه قد وضع مما يجري على قوانين العوائد أنكم لم تقتلوا قتلى بدر وإن تعاطيتم أسباب قتلهم، لأنكم لم تدخلوا قلوب ذلك الجيش العظيم الرعب الذي كان سبب هزيمتهم التي كانت سبب قتل من قتلتم، لضعفكم عن مقاومتهم في العادة، وفيه مع ذلك زجر لهم عن أن يقول أحد منهم على وجه الافتخار: قتلت كذا وكذا رجلاً وفعلت كذا ﴿ولكن الله﴾ أي الذي له الأمر كله فلا يخرج شيء عن مراده ﴿قتلهم﴾ أي بأن هزمهم لكم لما رأوا الملائكة وامتلات أعينهم من التراب الذي رماهم به ﷺ وقلوبهم جزعاً حتى تمكنتم من قتلهم خرق عادة كان وعدكم بها، فصدق مقاله وتمت أفعاله.

ولما رد ما باشروه إليه سبحانه، أتبعه ما باشره نبيه ﷺ دلالة على ذلك لأنه ﷺ لما رأى قريشاً مقبلة قال: اللهم! هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، فقال جبرائيل عليه السلام: خذ قبضة من تراب فأرمهم بها، ففعل فملات أعينهم فانهمزموا^(١) فقال: ﴿وما رميت﴾ أي يا سيد المؤمنين الرمل في أعين الكفار ﴿إذ

(١) انظر سيرة ابن هشام ١٩٩/٢ باب الرسول يرمي المشركين بالحصباء، والدر المنثور ٣/١٧٥.

- وصح عن النبي ﷺ أنه رمى التراب في وجوه المشركين في غزوة حنين انظر مسلم ١٧٧٧.

رميت ﴿ أي أوقعت صورة قذفه من كفك، لأن هذا الأثر الذي وجد عن رميك خارق للعادة، فمن الواضح أنه ليس فعلك، وهذا هو الجواب عن كونه لم يقل: فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم، لأن زهوق النفس عن الجراح المثخن هو العادة، فهم الذين قتلوهم حين باشرُوا ضربهم، فلا يصح: فلم تقتلوهم حتى قتلتموهم، والمنفي إنما هو السبب المتقدم على القتل الممكن من القتل، وهو تسكين قلوبهم الناشئ عند إقدامهم وإرعاب الكفار الناشئ عند ضعفهم وانهزامهم الممكن منهم، فالمنفي عنهم البداية والمنفي عنه ﷺ الغاية، أو أن الملائكة عليهم السلام لما باشرت قتل بعضهم صح أن ينفي عنهم قتل المجموع مطلقاً، أو أنهم لما افتخر بعضهم بقتل من قتل نفاه سبحانه عنهم مطلقاً لأن مباشرتهم لقتل من قتل في جنب ما أعد لهم من الأسباب وأيدهم به من الجنود عدم، وأما النبي ﷺ فإنه فعل ما أمر به من رمي الرمل ولم يعد فعله ولا ذكره، فأثبتته سبحانه له مع نفي تأثيره عنه وإثباته لمن إليه ترجع الأمور تأديباً منه سبحانه لهذه الأمة، أي لا ينظر أحد إلى شيء من طاعته، فإننا قد نفينا هذا الفعل العظيم عن أكمل الخلق مع أنه عالم مقر بأنه منا فليحذر الذي يرى له فعلاً من عظيم سطواتنا، ولكن لينسب جميع أفعاله الحسنة إلى الله تعالى كما نسب الرمي إليه بقوله: ﴿ولكن الله﴾ أي الذي لا راد لأمره ﴿رمي﴾ لأنه الذي أوصل أثره بما كان هازماً للكفار، فعل ذلك كله ليبيي الكفار منه بأيدي من أراد من عباده بلاء عاقبته سيئة ﴿وليبلي المؤمنين﴾ أي الراسخين في الإيمان ﴿منه﴾ أي وحده ﴿بلاء حسناً﴾ أي من النصر والغنيمة والأجر، ومادة بلاء يائية أو واوية بأي ترتيب كان تدور على الخلطة، وتارة تكون مطلقة نحو أبلاه عذراً، وتارة بكثرة ومحاولة وعناء وهو أغلب أحوال المادة، وتارة تكون للامتحان وأخرى لغيره، وما أباليه باله - أظنه من البال الذي هو الخاطر فهو من بول لا بلو، أجوف لا من ذوات الأربعة، ومعناه: ما أفاعله بالبال، أي ما أكثرته به فما أصرف خاطري إلى مخالطة أحواله حيث يصرف هو خاطره إلي أي ما أفكر في أمره لهوانه علي وسيأتي بسط معاني المادة إن شاء الله تعالى في سورة يوسف عليه السلام عند قوله تعالى ﴿ما بال النسوة﴾ [يوسف: ٥٠] وهذه المادة معناها ضد الدعة، لأن هذه يلزمها شغل الخاطر الذي عنه ينشأ التعب بمدافعة الملابس، والدعة يلزمها هدوء السر و فراغ البال الذي هو منشأ الراحة، فمعنى الآية أنه تعالى فعل ذلك من الإمكان من إذلال الكفار ليخالطهم من شؤونه ما يكون لهم في مدافعتة عاقبة سيئة، وليخالط المؤمنين من ذلك ما يكون لهم في مزاولته عاقبة حسنة بل أحسن من الراحة، لأنه يفضي بهم إلى راحة دائمة، والدعة تفضي إلى تعب طويل - والله موفق.

ولما ثبت بما مضى أن له تعالى الأفعال العظيمة والبطشات الجسيمة. ودلت أقوال من قال من المؤمنين: إنا لم نتأهب للقاء ذات الشوكة، على ضعف العزائم؛ ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال ﴿سَمِيعٌ﴾ أي لأقوالكم من الاستعانة في المعونة على النصره وغيرها ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بعزائمكم وإن لم تتكلموا بها، فهو يجازي المؤمن على حسب إيمانه والكافر على ما يبدي ويخفي من كفرانه، الأمر ﴿ذَلِكُمْ﴾ العظيم الشأن البعيد المتناول الذي أمركم فيه بأوامره ونهاكم به عن مناهيه وأبلاككم فيه البلاء الحسن، وأراكم بأعينكم توهينه لهذه الطائفة التي قصدتكم وأنتم عندها أكلة جزور وعصفور بين يدي صقور، وبين لكم من علل ذلك وعجائب مقدوره ما لم يبق معه عذر لمؤمن، فألزموا طاعته وسابقوا في طاعة رسوله ولا تنظروا في عاقبة شيء مما يأمر به، فإنه ما ينطق عن الهوى بل إنما يأمر عنا، ونحن لم نأمر بشيء إلا بعد تدبيره على أحكم الوجوه وأتقنها ﴿وَأَنَّ﴾ أي والأمر أيضاً أن ﴿اللَّهُ﴾ أي الحاوي لجميع صفات العز والعظمة ﴿مُوهِنٌ﴾ أي مضعف إضعافاً شديداً ثابتاً دائماً أبداً ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أي الراسخين في الكفر جميعهم، فلا تهنوا في ابتغاء القوم وإن نالكم قرح فإننا نجعله لكم تطهيراً وللكافرين تدميراً والعاقبة للتقوى، فنظلكم على عوراتهم ونلقي الرعب في قلوبهم ونفرق كلمتهم ونقض ما أبرموا.

ولما تضمن ذلك إيقاع الإهانة بالكفار بهذه الوقعة، والوعد بالزامهم الإهانة فيما يأتي، كان ذلك مفصلاً للالتفات إلى تهديدهم في قالب استجلائهم والاستهزاء بهم وتفخيم أمر المؤمنين فقال: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي تسألوا الفتح أيها الكفار بعد هذا اليوم كما استفتحتم في هذه الوقعة عند أخذكم أستار الكعبة وقت خروجكم بقولكم: اللهم انصر أهدي الحزين، وأكرم الجندين، وأعلى الفئتين، وأفضل الدينين، ووقت ترائي الجمعين؛ بقول أبي جهل: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعلم فأحنه الغداة؛ أتاكم الفتح كما أتاكم في هذا اليوم ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أي في هذا اليوم بنصر المؤمنين ﴿الْفَتْحُ﴾ أي الذي استفتحتم له لأنهم أهدي الفئتين وأكرم الطائفتين ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ أي بعد هذا عن مثل هذه الأقوال والأفعال المتضمنة للشك أو العناد ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وقد رأيتم دلائل ذلك ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ أي إلى المغالبة لأنكم لم تنتهوا ﴿نَعُدُّكُمْ﴾ أي إلى خذلانكم ﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ﴾ أي أبداً ﴿فَتَنْتَهُوا﴾ أي جماعتكم التي ترجعون إليها للاعتزاز بها ﴿شَيْئاً﴾ أي من الإغناء ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لأن الله على الكافرين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي الملك الأعظم ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الراسخين في الإيمان، ولعله عبر بالمستقبل في الشرط والماضي في الجزاء إشارة إلى أنكم استفتحتم في بدر وجاءكم من الفتح ما رأيتم، فإن

كان أعجبكم فالزموه في المستقبل، فإني لا أجيئكم أبداً ما دمت على حالكم إلا بما جئتمكم به يومئذ، والفتح يحتمل أن يكون بمعنى النصر فيكون تهكماً بهم، وأن يكون بمعنى القضاء.

ولما كان سبب ما أحله بالكفار - من الإعراض عن إجابتهم فيما قصدوا من دعائهم ومن خذلانهم في هذه الواقعة وإيجاب مثل ذلك لهم أبداً - هو عصيانهم الرسول وتوليهم عن قبول ما يسمعون منه من الروح؛ حذر المؤمنين من مثل حالهم بالتمادي في التنازع في الغنيمة أو غيرها فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ادعوا ذلك ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي الذي له جميع العز والعظمة ﴿وَرَسُولَهُ﴾ تصديقاً لدعواكم الإيمان.

ولما كانت طاعة الرسول هي طاعة الله لأنه إنما يدعو إليه وإنما خلقه القرآن، وحد الضمير فقال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي عن الرسول في حال من الأحوال، في أمر من الأوامر من الجهاد وغيره، من الغنائم وغيرها، خف أو ثقل، سهل أو صعب ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أي والحال أنكم ﴿تَسْمَعُونَ﴾ أي لكم سمع لما يقوله، أو وأنتم تصدقونه، لأن ارتكاب شيء من ذلك يكذب دعوى الإيمان وينطبق على أحوال الكفار، وإلى ذلك إشارة بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي بأذاننا ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يستجيبون فكانهم لم يسمعوا، لما انتفت الثمرة عد المثمر عدماً.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ولما كانت حال من هذا شأنه مشابهة لحال الأصم في عدم السماع لعدم الانتفاع به، والأبكم في عدم كلامه لعدم تكلمه بما ينفع، والعادم للعقل في عدم عقله لعدم انتفاعه به، قال معللاً لهذا النهي معبراً بأنسب الأشياء لما وصفهم به: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي التي تدب على وجه الأرض، جعلهم من جنس الحشرات أو البهائم ثم جعلهم شرها.

ولما كان لهم من فضلهم، وكانت العبرة بما عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الذي له جميع الكمال من إحاطة العلم والقدرة وغيرها ﴿الصَّمُّ الْبُكْمُ﴾ أي الطرش الخرس طرشاً وخرساً بالغين ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يتجدد لهم عقل، ومن لم ينتفع بسماع الداعي كان كذلك.

ولما كان ذلك ربما دعا السامع إلى أن يقول: ما للقادر لم يقبل بمن هذا شأنه إلى الخير؟ أجاب بأنه جبلهم من أول الأمر - وله أن يفعل في ملكه ومُلكه ما يريد - جبلة عريقة في الفساد، وجعل جواهرهم شريعة كجواهر العقرب التي لا تقبل التأديب بوجه ولا تمر بشيء إلا لسبته، فعلم سبحانه أنه لا خير فيهم فتركهم على ما علم منهم ﴿ولو علم الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿فيهم خيراً﴾ أي قبولاً للخير ﴿لأسمعهم﴾ أي إسماعاً هو الإسماع، وهو ما تعقبه الإجابة المستمرة.

ولما كان علم الله تعالى محيطاً، وجب أن يعلم كل ما كان حاصلًا، فكان عدم علمه بوجود الشيء من لوازم عدمه، فلا جرم كان التقدير هنا: ولكنه لم يعلم فيهم خيراً، بل علم أنه لا خير فيهم فلم يسمعهم هذا الإسماع ﴿ولو أسمعهم﴾ وهم على هذه الحالة من عدم القابلية للخير إسماعاً قسرهم فيه على الإجابة ﴿لتولوا﴾ أي بعد إجابتهم ﴿وهم معرضون﴾ أي ثابت إعراضهم مرتدين على أعقابهم، ولم يستمروا على إجابتهم لما جبلوا عليه من ملاءمة الشر ومباعدة الخير، فلم يريدوا الإسلام وأهله بعد إقبالهم إلا وهناً، وكما كان لأهل الردة الذين قتلوا مرتدين بعد أن كانوا دخلوا في الإسلام خوفاً من السيف ورغبة في المال وهو من وادي ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: ٢٨] فإن علم الله تعالى أربعة أقسام: جملة الموجودات، وجملة المعدومات، وأن كل واحد من الموجودات لو كان معدوماً كيف يكون حاله، وأن كل واحد من المعدومات لو كان موجوداً كيف يكون حاله، والقسمان الأولان علم بالواقع، والآخران علم بالقدر، والآية من القسم الأخير، ولعمري إنا دفننا إلى زمان أغلب من فيه على قريب من هذا الأمر، أجرأ الناس على الباطل، وأثبتهم في المصاولة فيه، وأوسعهم حبلًا في التوصل إليه، وأجبنهم عند الدعوة إلى الحق، وأسرعهم نكوصاً عند الإقدام بعد جهد عليه، وألكنهم عند الجدل له، فصار ما كان مقدراً مفروضاً حاصلًا وموجوداً، وكلمة ﴿لو﴾ هنا يحتمل أن تكون هي التي يعلق بها أمر على آخر هو بضده أولى فيكون المراد أن المعلق - وهو الثاني - موجود دائماً مثل قول عمر رضي الله عنه: نعم العبد صهيب رضي الله عنه! لو لم يخف الله لم يعصه، فالمراد هنا على هذا أنهم إذا كانوا يتولون مع الإسماع والإجابة، فتوليهم مع عدمهما أولى - نبه على ذلك الرازي، ويحتمل أن تكون على بابها من أن الجزئين بعدها منفيان، وانتفاء التولي إنما يكون خيراً إذا نشأ عن الإسماع المترتب على علم الخير فيهم، وأما عدمه لعدم إسماعهم الإسماع الموصوف لأنه لا خير فيهم فليس من الخير في شيء بل هو شر محض، التولي المنفي عنهم ليس هو الموجود منهم، بل هو الناشئ عن الإسماع الموصوف فلا يناقض

ادعاؤه تحقق عنادهم وعدم انقيادهم، وتحقيقه أن المنفي إنما هو زيادة التولي الناشئة عن الإسماع، فالمعنى: ولو أسمعهم لزدادوا إعراضاً، فالمنفي في هذا السياق تلك الزيادة - والله الموفق.

ولما كان ما مضى من نكال الكافرين مسبباً عن عدم الاستجابة، أمر المؤمنين بها تحذيراً من الكون مع الكفرة في مثل حالهم فيحشروا معهم في مآلهم فقال: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أقروا بالإيمان بألستهم ﴿استجيبوا﴾ أي صدقوا دعواكم ذلك بإيجاد الإجابة إيجاد من هو في غاية الرغبة فيها ﴿الله﴾ أي واجعلوا إجابتك هذه خاصة للذي له جميع صفات الكمال ﴿وللرسول﴾ الذي أرسله إلى جميع الخلق.

ولما كان ﷺ يدعوهم لا محالة لأن الله تعالى أمره بدعائهم، وكان لا يدعوهم إلا إلى ما أمره الله به، وكان سبحانه لا يدعو إلا إلى صلاح ورشد؛ عبر بأداة التحقيق ووحيد الضمير وشوق بإثمار الحياة فقال: ﴿إذا دعاكم﴾ أي الرسول بالنذب والتحريض.

ولما كان اجتناء ثمرة الطاعة في غاية القرب، نبه على ذلك باللام دون «إلى» فقال: ﴿لما يحييكم﴾ أي ينقلكم بعز الإيمان والعلم عن حال الكفرة من الصمم والبكم وعدم العقل الذي هو الموت المعنوي إلى الحياة المعنوية، ولا يعوقكم عن الاستجابة في أمر من الأمور أن تقولوا: إنا استجبنا إلى الإيمان وكثير من شرائعه، فلولا أن ربنا علم فينا الخير ما أسمعنا، فنحن ناجون؛ روى البخاري في التفسير وغيره عن أبي سعيد ابن المعلى رضي الله عنه قال: «كنت أصلي فمر بي رسول الله ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيت فقال: ما منعك أن تأتي؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا استجيبوا﴾ - الآية، ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له فقال: هي ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ١] «هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١). وللترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن النبي ﷺ خرج على أبي بن كعب رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ: يا أباي! وهو يصلي، فالتفت أبي فلم يجبه وصلى أبي فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وعليك السلام، ما منعك يا أباي أن تجيبني إذ دعوتك، فقال: يا رسول الله! إني كنت في الصلاة، قال: فلم تجد فيما أوحى الله إلي أن ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما

(١) أخرجه البخاري ٤٦٤٧ و ٤٤٧٤ و ٥٠٠٦ وأبو داود ١٤٥٨ والنسائي ١٤٩/٢ وابن ماجه ٣٧٨٥ وابن جبان ٧٧٧ وأحمد ٢١١/٤ من حديث أبي سعيد بن المعلّى.

يحييكم ﴿[الأنفال: ٢٤] قال: بلى! ولا أعود إن شاء الله! قال: تحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟ قال: نعم، يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: كيف تقرأ في الصلاة؟ قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده! ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنما سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته»^(١) - هذا حديث حسن صحيح.

ولما كان الإنسان إذا كان على حالة يستبعد جداً أن يصبر على غيرها، قال تعالى مرغباً مرهباً: ﴿واعلموا أن الله﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿يحول﴾ أي بشمول علمه وكمال قدرته ﴿بين المرء وقلبه﴾ فيرده إلى ما علم منه فيصير فيما كشفه الحال كافرأ معانداً بعد أن كان في ظاهر الحال مؤمناً مستسلماً فيكون ممن علم الله أنه لا خير فيه وقصره على الإجابة فلم يستمر عليها، ويرد الكافر بعد عناده إلى الإيمان بغاية ما يرى من سهولة قياده، فكفى سبحانه بشدة القرب اللازم للحيلولة عن شدة الاقتدار على تبديل العزائم والمرادات، وهو تحريض على المبادرة إلى اتباع الرسول ﷺ ما دامت القلوب مقبلة على ذلك خوفاً من تغييرها.

ولما خوفهم عاقبة الحال، حذرهم شأن المال فقال: ﴿وأنه﴾ أي واعلموا أنه تعالى ﴿إليه تحشرون﴾* لا إلى غيره، فيحشر المستجيبين في زمرة المؤمنين، والمعرضين في عداد الكافرين وإن أبوا حكماً واحداً، لأن الدين لا يتجزأ، وقد علم أن «إذا» ليست قيماً وإنما هي تنبيه على وجوب اتباعه في كل ما يدعو إليه لعصمته، وحكمة الإتيان بها الإعلام بأنه ما ترك خيراً إلا دعا إليه؛ قال الحرالي في أواخر كتاب له في أصول الفقه: ولها - أي العصمة - معنيان: أحدهما عصمة الحفظ، وهو معنى ينشأ من التزام الحكم عليه بماضي شرعته، وهي العصمة العامة للأنبياء، وفي هذه الرتبة يقع الكلام في الحفظ من الصغائر بعد الاتفاق على الحفظ عما يخل بالتبليغ ويحط الرتبة من الكبائر، وحقيقة الصغائر مقدمات الذنوب التي لم تتم، فيكون تمامها كبيرتها، وعلى ذلك بنى قوم احتمال وقوع الفعل محظوراً من نبي، وكل ذلك - وإن كان من أحوال أنبياء - فإن المتحقق من أمر النبي ﷺ إنما هو علو عن هذا المحل؛ المعنى الثاني من العصمة رفع الحكم عن النبي ﷺ بما حفظه الحافظ من ماضي ظاهر شرعته وبما بلغ إليه فهمه من مبادئ التنشؤ من سننه، واتخاذ فعله مبدأ للأحكام في كل آن من غير

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٧٥ وأحمد ٤١٣/٢ من حديث أبي هريرة قال الترمذي: حسن صحيح.

التفات لما تقرر في ماضي الزمان، وهذه هي العصمة الخاصة بالنبي ﷺ الجامع، فلا يكون لفعله حكم إلا ما يفهمه إنبأؤه عن حال وقوعه، ويكون الأحكام تبعاً لفعله، لا أن فعله يتبع حكماً، فهذا وجه عصمته الخاصة الممتنع عليها جواز الخروج عنها، فمن كان يسبق إليه من أكابر الصحابة نحو من هذا المعنى لا يتوقف في شيء من أمره كالصديق رضي الله عنه وكما كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في اقتدائه حتى في إدارة راحلته وصبغه بالصفرة ولبسه النعال السبتية ونحو ذلك من أمره وأمر من حذا منهم هذا الحذو، ومن كان يتوهم الحكم عليه بمقتضى علمه وفهمه من أمر شرعته لا يكاد يسلم من وقوع في أمر يرد عليه انتحاله كما حكم أبي رضي الله عنه لما كان يصلي بإمضاء عمل الصلاة إذ دعاه حتى بين له قصور فهمه عن الله في حقه أي بقوله: ألم تسمع الله يقول ﴿استجيبوا لله وللرسول﴾ وكالذي قال: انزل فاجدع لنا، فقال: إن عليك نهراً، فقال له في الثالثة أو الرابعة: انزل فاجدع لنا ويلك أو ويحك! فإذا وضح أن فعله مبدأ الحكم ومعلم الإنباء لزم صحة التأسّي به في جميع أحواله، إما على بيان من تعين رتبة الحكم من وجوب أو نذب أو أباحة، أو على مطلق التأسّي مع إبهام رتبة الحكم والاتكال على ما عنده هو ﷺ من العلم، فنية التأسّي به على إبهام في الحكم ربما كان أتم من العمل بما تبين حكمه، أحرم علي رضي الله عنه وهو باليمن، توجه إلى مكة بإحرام رسول الله ﷺ ولا يتطرق لشيء من أمره ﷺ بما وقع من كونه يفتي بأمر ثم يوافق في غيره، لأن الآخذ في ذلك عن قصور في العلم بمكانته من علم رحمانية الله وكلمته وتنزيله إلى موافقة أمر سنة الله وحكمته نحو الذي أفتاه بتكفير الجهاد كل ذنب بناء على علمه برحمانية الله وإمضاء كلمته، ثم ذكر له ما قال جبرائيل عليه السلام من استثناء الدين مما أنزل على حكم أمر الله في محكم شرعته وسنته، يعني - والله أعلم - أن من صح جهاده تكفر كل ذنوبه، وأن توقف الدين على إرضاء الله لخصمه، فالإخبار بالكفارة ناظر إلى المال، والإخبار بنفيها ناظر إلى الابتداء، وكذلك أفتى بترك التلقيح بناء على إنفاذ كلمة الله، وردهم إلى عادة دنياهم حين لم يتجشموا الصبر إلى ظهور كلمة الله على مستمر عاداته، فقد عمل بأول فتياه غير واحد ممن لم يسترب في نفاذ حكمه وصحته فأخفق ثمرات ثلاث سنين ثم عاد - في غنى عن التلقيح - إلى أحسن من حاله في متقدم عاداته، ولا يتقاصر عن إدراك ذلك من أمره في كل نازلة من نحوه إلا من لم يسم به التأييد إلى معرفة حظ من مكانته، فإذا وضح ذلك فكل فعل فعله رسول الله ﷺ فإن كان بياناً لواجب فهو منج من عقاب الله، وإن كان تعليماً لقربي من الله فهو وصلة إلى محبة الله كما قال تعالى ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل

عمران: [٣١] وإن لم يتضح له مجمل منهما تأسى بها على إبهام يغنيه عمله وتعلو به نيته، وما كان مختصاً به فلا بد من إظهار أمر اختصاصه بخطاب من الله سبحانه أو منه عليه السلام كما قال تعالى ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ [الأحزاب: ٥٠] - انتهى .

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَضِّطَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِضُرِّهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

ولما كان المجيب ربما قال: ليس عليّ إلا الإجابة في خاصة نفسي، وليس عليّ تعريض نفسي للأذى بالأخذ على يد غيري، نَبّه سبحانه على أن ذلك منابذة للدين واجتثاث له من أصله، لأن ترك العاصي على عصيانه كترك الكافر على كفرانه، وذلك موجب لعموم البلاء ومزيد القضاء فقال تعالى: ﴿واتقوا فتنة﴾ أي بلاء مميلاً محيلاً إن لا تتقوه يعمكم، هكذا كان الأصل، لكن لما كان نهي الفتنة على إصابتهم أروع من سوق ذلك مساق الشرط ومن نهيهم عن التعريض لها لما فيه من تصوير حضورها وفهمها للنهي أتى به، ولما كان نهيها عن تخصيص الظالم أشد روعة لإفهامه، أمرها بأن تعم؛ قال مجيباً للأمر: ﴿لا تصيبين﴾ ولحقه نون التأكيد لأن فيه معنى النهي ﴿الذين ظلموا﴾ أي فعلوا بموافقة المعصية ما لا يفعله إلا من لا نور له ﴿منكم﴾ أيها المأمورون بالتقوى ﴿خاصة﴾ أي بل تعمكم، فهو نهي للفتنة والمراد نهي مباشرتها، أي لا يفعل أحد منكم الذنب يصيبكم أثره عموماً أو لا يباشر أسباب العذاب بعضكم والبعض الآخر مقر له يعمكم الله به، وذلك مثل: لا أرينك هاهنا، والمعنى فكن هاهنا فأراك، فالتقدير: واجعلوا بينكم وبين البلاء العام وقاية بإصلاح ذات بينكم واجتماع كلمتكم على أمر الله ورد من خالف إلى أمر الله ولا تختلفوا كما اختلفتم في أمر الغنيمة فتفشلوا فيسلط عليكم عذاب عام من أعدائكم أو غيرهم، فإن كان الطائع منكم أقوى من العاصي أو ليس أضعف منه فلم يردّه فقد اشترك الكل في الظلم، ذلك بفعله وهذا برضاه، فيكون العذاب عذاب انتقام للجميع؛ روى أصحاب السنن الأربعة وحسنه الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: أيها الناس! إنكم تقرأون هذه الآية وتأولونها على خلاف تأويلها ﴿يأيتها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ [المائدة: ١٠٥] إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله

بعذاب من عنده»^(١)؛ وللترمذي وحسنه عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»^(٢)؛ وللإمام أحمد عنه رضي الله عنه أنه قال: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتحاضن على الخير أو ليسحتنكم الله جميعاً بعذاب أو ليؤمنن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم^(٣). وهو في حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي، فإن كان الطائع أضعف من العاصي نزل على ما روى أبو داود والترمذي - وحسنه - وابن ماجه عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أنه قيل له: «كيف تقول في هذه الآية ﴿عليكم أنفسكم﴾ [المائدة: ١٠٥] فقال: أما والله لقد سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله، قال: يا رسول الله! أجر خمسين رجلاً منهم؟ قال: أجر خمسين منكم»^(٤). والأحاديث في مثله كثيرة، وحينئذ يكون العذاب للعاصي نقمة وللطائع رحمة ويعتوثون على نياتهم.

ولما حذرهم سبحانه عموم البلاء، أتبعه الإعلام بأنه قادر مريب ليلزموا سبيل الاستقامة فقال: ﴿واعلموا أن الله﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات العظمة ﴿شديد العقاب﴾.

ولما كان من أشد العقاب الإذلال، حذرهموه بالتذكير بما كانوا فيه من الذل، لأنه أبعث على الشكر وأزجر عن الكفر فقال: ﴿واذكروا﴾ وذكر المفعول به فقال: ﴿إذ أنتم﴾ أي في أوائل الإسلام ﴿قليل﴾ أي عددكم.

(١) أخرجه أبو داود ٤٣٣٩ وابن ماجه ٤٠٠٩ وابن حبان ٣٠٠ والبيهقي ٩١/١٠ والطبراني ٢٣٨٠ وأحمد ٤/٣٦٤ و ٣٦٦ من حديث جرير بإسناد حسن.

وله شاهد من حديث أبي بكر أخرجه أبو داود ٤٣٣٨ والترمذي ٢١٦٨ وابن ماجه ٤٠٠٥ وأحمد ٢/٧ و ٧ وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي ٢١٦٩ من حديث حذيفة وقال: حديث حسن.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد ٣٨٨/٥ - ٣٩١ من حديث حذيفة.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٣٤١ والترمذي ٣٠٥٨ وابن ماجه ٤٠١٤ وابن حبان ٣٨٥ والبيهقي ٩١/١٠ - ٩٢ من حديث أبي ثعلبة الخشني، بإسناد حسن.

وله شاهد من عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه أبو داود ٤٣٤٢ وأحمد ٦٥٠٨ و ٧٠٦٣ والحاكم ٤/٤٣٥ - ٥٢٥ وصححه، ووافقه الذهبي.

ولما كان وجود مطلق الاستضعاف دالاً على غاية الضعف، بنى للمفعول قوله: **﴿مستضعفون﴾** أي لا منفذ عندكم **﴿في الأرض﴾** أطلقها والمراد مكة، لأنها لعظمتها كأنها هي الأرض كلها، ولأن حالهم كان في بقية البلاد كحالهم فيها أو قريباً من ذلك، ولذلك عبر بالناس في قوله: **﴿تخافون﴾** أي في حال اجتماعكم فكيف عند الانفراد **﴿أن يتخطفكم﴾** أي على سبيل التدريج **﴿الناس﴾** أي كما تتخطف الجوارح الصيود، فحذرهم سبحانه - بالتنبية على أنه قادر على أن يعيدهم إلى ما كانوا عليه - من هذه الأحوال بالمخالفة بين كلمتهم وترك التسبب إلى اجتماعها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي ذلك أيضاً إشارة إلى أنهم لما كانوا في تلك الحالة التي هي في غاية الضعف، وكانت كلمتهم مجتمعة على أمر الله الذي هو توحيده وطاعة رسوله، أعقبهم الإيواء في دار منيعة، قد أيدهم بالنصر وأحسن رزقهم، وذلك معنى قوله تعالى مسبباً عما قبله: **﴿فأؤكم﴾** أي في دار الهجرة رحمة لكم **﴿وأيدكم بنصره﴾** أي بأهلها مع الملائكة **﴿ورزقكم من الطيبات﴾** أي الغنائم الكاملة الطيبة بالإحلال وعدم المنازع التي لم تحل لأحد قبلكم وغيرها **﴿لعلكم تشكرون﴾** * أي ليكون حالكم حال من يرجى شكره، فيكون بعيداً عن المنازعة في الأنفال، وذلك إشارة إلى أنهم مهما استمروا على تلك الحالة، كان - بإقبالهم على مثل ما أتاهم به وزادهم من فضله - أن جعلهم سادة في الدارين بما يهب لهم من الفرقان الآتي في الآية بعدها والتوفيق عند إتيانه، فالآية منصبة إلى الصحابة بالقصد الأول وهي صالحة للعرب كافة فتصرف إليهم بالقصد الثاني؛ قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس وأشقاهم عيشاً وأجوعهم بطناً وأعراهم جلدأً وأبينهم ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم تردى في النار معكوفين على رأس الحجرين الشديدين: فارس والروم، يؤكلون ولا يأكلون، وما في بلادهم شيء عليه يحسدون حتى جاء الله بالإسلام، فمكن لهم من البلاد ووسع لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتهم فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم يحب شكره والشاكر في مزيد من الله تعالى.

ولما ختم الآية بما هو في غاية النصيحة منه تعالى لهم من الإيواء والنصر والرزق الطيب المشار به إلى الامتتان بإحلال المغنم، وختم ذلك بالحث على الشكر؛ نهانا عن تضييع الشكر في ذلك بالخيانة في أوامره بالغلول أو غيره فقال: **﴿يأيها الذين آمنوا﴾** تذكيراً بما ألزموا به أنفسهم من الوفاء **﴿لا تخونوا الله﴾** أي تنقصوا من حقوق الملك الأعظم، فإن أصل الخون النقص ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء فصارت نقصاً خاصاً **﴿والرسول﴾** بغلول ولا غيره، بل أدوا الأمانة في جميع ذلك، ولعله كرر العامل

في قوله: ﴿وتخونوا أمتنكم﴾ من الفرائض والحدود والنوافل وغيرها إشارة إلى أن الخيانتين مختلفتان، فخيانتهم لله حقيقة، وخیانتهم للأمانة استعارة، لأن حاملها لما أخل بها كان كأنه خانها؛ وخفف عنهم بقوله: ﴿وانتم تعلمون﴾ حال الغفلة ونحوها، ويجوز أن يكون المفعول غير مراد فيكون المعنى: وأنتم علماء، ويكون ذلك مبالغة في النهي عنها بأنهم جديرون بأن لا يقبل منهم عذر بجهل ولا نسيان لأنهم علماء، والعالم هو العارف بالله، والعارف به لا ينبغي أن ينفك عن المراقبة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا لِلَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

ولما كان سبب الخيانة غالباً محبة المال أو الولد، وكان سبب التقاوت المسبب عنه إنزال هذه السورة - كما سلف بيانه أولها - الأموال من الأنفال، وكان من أعظم الخيانة في الأنفال الغلول، وكان الحامل على الغلول المحنة بحب جمع المال إما استلذاذاً به أو لإنفاقه على محبوب، وكان الولد أعز محبوب؛ حسن كل الحسن إيلاء ذلك قوله: ﴿واعلموا﴾ وهي كلمة ينبه بها السامع على أن ما بعدها مهم جداً ﴿أنما أموالكم﴾ قلت أو جلت هانت أو عزت ﴿وأولادكم﴾ كذلك ﴿فتنة﴾ أي سببها، يفعل الله بها فعل المختبر لينكشف للعباد من يغتر بالعاجل الفاني ممن تسمو نفسه عن ذلك، فلا يحملنكم ذلك على مخالفة أمر الله فتهلكوا ﴿وأن الله﴾ أي المحيط بكل كمال ﴿عنده أجر عظيم﴾ عاجلاً وأجلاً لمن وقف عند حدوده، فيحفظ له ماله ويشمره أولاده ويبارك له فيهم مع ما يدخر له في دار السعادة، وعنده عذاب أليم لمن ضيعها، فأقبلوا بجميع هممكم إليه تسعدوا، وزاد وضعها هنا حسناً سبب نزول التي قبلها من قصة أبي لبابة رضي الله عنه الحامل عليها ماله وولده، وكانت قصته في قريظة سنة خمس وغزوة بدر في السنة الثانية.

ولما ذكروهم ما كانوا عليه قبل الهجرة من الضعف، وامتن عليهم بما أعزهم به، وختم هذه بالتحذير من الأموال والأولاد الموقعة في الردى، وبتعظيم ما عنده الحامل على الرجاء، تلاها بالأمر بالتقوى الناهية عن الهوى بالإشارة إلى الخوف من سطواته إشارة إلى أنه يجب الجمع بينهما، وبين تعالى أنه يتسبب عنه الأمن من غيره في الأولى والنجاة من عذابه في الأخرى فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ تكريراً لهذا الوصف

تذكيراً بما يلزم بادعائه ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ بإصلاح ذات بينكم، وذلك جامع لأمر الدين كله ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ أي نصراً، لأن مادة «فرق» ترجع إلى الفصل، فكأن الشيء إذا كان متصلاً كان كل جزء منه مقهوراً على ملازمة صاحبه، فإذا جعل له قوة الفرق قدر على الاتصال والانفصال، فحقيقته: يجعل لكم عزاً تصيرون به بحيث تفترقون ممن أردتم متى أردتم وتتصلون بمن أردتم متى أردتم لما عندكم من عزة الممانعة، وتفرقون بين من أردتم متى أردتم لما لديكم من قوة المدافعة، أي يجعل لكم ما يصير لكم به قوة التصرف فيما تريدون من الفصل والوصل الذي هو وظيفة السادة المرجوع إلى قولهم عند التنازع، لا كما كنتم في مكة، لا تأمنون في المقام ولا تقدرنون على الكلام - فضلاً عن الخصام - إلا على تهيب شديد، ومع ذلك فلا يؤثر كلامكم أثراً يسمى به فارقاً، والفاروق من الناس الذي يفرق بين الأمور ويفصلها، وبه سمي عمر رضي الله عنه لأنه أظهر الإسلام بمكة إظهاراً فيه عز وقوة، جعل فيه الإيمان مفارقاً للكفر لا يخافه، وفرق - بالكسر بمعنى خاف - يرجع إلى ما دارت عليه المادة، فإن المراد به: تفرقت همومه من اتساع الخوف، والفرق الذي هو المكيال الكبير كأنه هو الفارق بين الغني والفقير، قال الهروي: هو اثنا عشر مداً، وأفرق من علته - إذا برىء، أي صارت له حالة فرقت بين صحته ومرضه الذي كان به، ومنه الفريقة وهي تمر وحلبة يطبخ للنفساء؛ وقرفت الشيء - بتقديم القاف: قشرته، والقرف: الخلط، كأنه من الإزالة، لأنهم قالوا: إن «فعل» يدخل في كل باب، ومنه: قرف الشيء واقترفته: اكتسبه، والاقتراف بمعنى الجماع، ويمكن أن يرجع إلى الوعاء لأن القرف الوعاء، لأنه يفصل مظروفه عن غيره، وفلان قرفتي، أي موضع ظني منه كأنه صار وعاء لذلك، وفرس مقرف، أي بيتن القرفة، أي هجين لأنه واضح التميز من العربي، وقرف بسوء: رمى به، أي جعل وعاء له أو فرق همومه؛ والقف - بتقديم القاف: المكان الخالي لانفصاله من الناس، وأقفر المكان: خلا، وأقفر الرجل من أهله: انفرد عنهم، وقرف الطعام: خلا من الأدم، ورجل قفر الرأس: لا شعر عليه لانفصاله عنه، وقرف الجسد: لا لحم عليه، والقفار: الطعام لا أدم له، واقتفرت الأثر: اتبعته لتفصله من غيره؛ والفقرة - بتقديم الفاء - والقفار: ما تنضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب لتمييز كل واحدة عن أختها، وفقرت الأرض فقراً: حفرتها حفراً، فصارت كل واحدة منفصلة من الأخرى، والفاقرة: الداهية الكاسرة للقفار، ومنه الفقر والافتقار للحاجة، وأقفرني دابته: أعارني ظهرها، وراميته من أدنى فقرة: من أدنى معلم لأن المعالم منفصل بعضها عن بعض، والتقفر في رجل الدابة بياض لانفصاله عن بقية لونها، ورفقت بالأمر: لطفت به، ولا

يكون ذلك إلا بفصله عما يضره، ومنه الرفيق للصاحب من الرفقة، والمرفق من ذلك لما يحصل به من اللطف.

ولما كان الإنسان محل النقصان فلا يخلو من زلة أو هفوة، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي يسترها ما دتم على التقوى ﴿ويغفر لكم﴾ أي يمحو ما كان منكم غير صالح عيناً وأثراً، وفيه تنبيه لهم على أن السادات على خطر عظيم لأنهم مأمورون بالمساواة بين الناس، والنفوس مجبولة على ترجيح من لاءمها على من نافرها، وإشارة إلى أن الحكم بالعدل في أعلى الدرجات لا يتسنمه إلا الفرد النادر، وقوله: ﴿والله﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ذو الفضل العظيم﴾ مَرَجَ للزيادة على الكفارة والمغفرة من فضله، ومعلم بأنه لا يمتنع عليه شيء، فمن الممكن أن يلزم كلاً منهم طريق العدل وإن كانت من خرق العادة في أعلى محل، وفي الآية أعظم مناسبة لقصة أبي لبابة رضي الله عنه لأنه لما كان الحامل له على ما فعل بنفسه من العقوبة التقوى، فكفرت عنه خطيئته وغفر له، عقبته بها ترغيباً لغيره في الإسراع بالتوبة عند موقعة الهفوة، وختم هذه الآية بالفضل على ما كان من نقص، إشارة إلى تفضله سبحانه بما رزق أهل الإسلام من علو المنزلة وانتشار الهيبة وفخامة الأمر في قلوب المخالفين كما هو مشاهد، وختم الآية المحذرة من المداهنة بشديد العقاب، إشارة إلى ما ألبسهم من الأحوال المذكورة في التي تليها من قلة منعتهم واستضعافهم وخوفهم من تخطف المخالفين لهم، ولكنه تعالى رحمهم بأن جعل ذلك من بعضهم ممن يشمل اسم الإسلام لبعض، لا من غيرهم فلبسهم شيعاً وأذاق بعضهم بأس بعض، فكل خائف من الآخر، وصار المتقي من كثرة المخالف لا يزال من المعاطب والمتالف خائفاً يترقب، ومباعداً لا يقرب، على أنهم لا يعدمون أنصاراً يؤيدهم الله بهم، ولا يزال أهل الظلم يختلفون فيما بينهم فيرجع الفريقان إليهم ويعولون عليهم، فمن نصره فهو المنصور، فكلامهم عند المضايق هو الفرقان، ولهم في قلوب الظالمين هبة وإن نزلت بهم الحال أكثر مما للظلمة في قلوبهم من الهيبة ليتيقن الكل أنهم على الحق الذي الله ناصر، وأن أهل الشر على الباطل الذي الله خاذله، قال الحسن البصري رحمه الله في حق العالين في الأرض: أما والله! إن للمعصية في قلوبهم لذلماً وإن طفطف بهم اللحم، فقد انقسم الخوف بينهم نصفين وشتان ما بين الحزبين، فخوفهم يزيدهم الله به أجراً ويجعله لهم ذخراً، وخوف أهل الباطل يزيدهم به وزراً ويجعله لدينه أزرأ، فهذه حقيقة الحال في وصف أهل الحق والمحال.

ولما وعد سبحانه بهذا الفضل العظيم والنبأ الجسيم، ذكرهم من أحوال داعيهم

وقائدهم وهاديهم عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام بما يدعوهم إلى ملازمة أسبابه في سياق المخاطبة له ﷺ تذكيراً بنعمته وإشارة إلى دوام نصرته فقال تعالى عاطفاً على ﴿إذ أنتم﴾: ﴿وإذ يمكر بك﴾ أي يدبر في أذاك على وجه الستر ﴿الذين كفروا﴾ أي أوجدوا هذا الوصف، وفيهم من لم يكن راسخ القدم فيه؛ ثم بيّن غاية مكرهم فقال: ﴿ليثبتوك﴾ أي ليمنعوك من التصرف بالحسب في بيت يسدون عليك بابه - كما هو واضح من قصة مشاورتهم في دار الندوة في أمره ﷺ في السير، ومن قرأها بالموحدة ثم التحتانية من البيات الذي معناه إهلاك العدو ليلاً، فعطف ﴿أو يقتلوك﴾ عنده بمعنى القتل نهاراً جهاراً، وكأنه عد البيات للاستخفاء به عدماً بالنسبة إلى المجاهرة ﴿أو يخرجوك﴾ أي من مكة ﴿ويمكرون﴾ أي والحال أنهم يمكرون بإخفاء ما يريدون بك من ذلك وغيره من الكيد ﴿ويمكر الله﴾ أي يفعل المحيط بكل شيء قدرة وعلماً في أمرهم فعل من يمكر بإخفاء ما يقابلهم به ﴿والله خير المكرين﴾ لأنه لا يمكن أحداً علم ما يريد إخفاءه لأنه الملك الأعلى المحيط بالجلال والجمال، فالنافذ إنما هو مكره، والعالى إنما هو نصره، فكانه تعالى يقول: انظروا إلى مصداق ما وعدتكم به في أحوال نبي ﷺ فإنه كان وحده وجميع الناس يخالفونه فثبت على أداء الرسالة إليهم وإبلاغ النصيحة لهم على ما يصله منهم من الأذى ولا يزيده أذاهم له إلا اجتهاداً في أداء ما ينفعهم إليهم.

﴿وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعْدِبُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۗ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ولما ذكر مكرهم بالرسول، ذكر مكرهم بما أرسل به، فقال عاطفاً على «إذ أنتم»: ﴿وإذا تتلى﴾ أي من أي تال فرض ﴿عليهم آيتنا﴾ أي التي هي الفرقان جلالة وعظماً لم يدعوها تؤثر في تلك الحالة، بل ﴿قالوا﴾ إظهاراً لعنادهم لها وتشيعاً بما لم يعطوا وادعاء لما لمن ينالوا ﴿قد سمعنا﴾ ولما لم يتأثر عن سماعهم الإذعان، تشوف السامع إلى علة إعراضهم فقال معللاً أو مستأنفاً: ﴿لو نشاء﴾ أي في أي وقت أردنا

﴿لقلنا مثل هذا﴾ أي لأنه ليس قول الله كما يزعم محمد ﴿إن﴾ أي ما ﴿هذا﴾ الذي يتلى عليكم ﴿إلا أساطير﴾ جمع سطور وأسطار جمع سطر ﴿الأولين﴾ أي من بني آدم، سطوروا فيها علومهم وأخبارهم فهو من جنس كلامنا وقائله من جنسنا، وهذا غاية المكابرة لأنه قد تحداهم بقطعة من مثله إن كان له - كما يزعمون - مثل، وبالغ في تقيعهم فما منعهم - من إبراز شيء مما يدعون وليس بينهم وبينه بزعمهم إلا أن يشاؤوا، مع انتقالهم إلى أشد الأمور: السيف الماحق على تهالكهم على قهره ﷺ وعلى ما لهم من فرط الأنفة من العار والبعد مما يقضي عليهم بالغلب أو أن يوصفوا بالكذب - إلا علمهم بأن ذلك فاضحهم، ومخزيهم مدى الدهر وقائحهم، والمعنى أني أثبت هذا النبي الكريم على صبره على ذلك ومثابرته على أداء الأمانة بالاجتهاد في النصيحة على ما يلقي إن نجيته منهم ومنعته من جميع ما كادوه به، وكنت لا أزال أؤيده باتباع من أعلم فيه الخير إلى أن هيأت له داراً وخبأت له أنصاراً، وجعلت داره بالأصحاب منيعة، وبنيت لها أعمدة بصوارم الأحباب ثابتة رفيعة، نقلته إلى ذلك مع اجتهاد أهل العناد وهم جميع أهل الأرض في المنع، فلم يؤثر كيدهم، ولا أفادهم مع أيدي أيدهم، وجعلت نفس نقلته له فرقاناً يفرق بها بين الحق والباطل، وصار إلى ما ترون من قبول الأمر وجلالة القدر ونفاذ الفصل بين الأمور وظهر دينه أي ظهور، فلازموا التقوى ملازمته وداوموا على الطاعة مداومته أهب لكم من سيادته وأحملكم بملايس إمامته.

ولما كان ذلك موضع عجب من عدم إعجال الضلال بالعذاب وإمهالهم إلى أن أوقع بهم في غزوة بدر لا سيما مع قوله ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ بين السر في ذلك وإن بالغوا في استعجاله فقال: ﴿وإذ قالوا﴾ أي إرادة المكابرة بالتخييل إلى الناس أنهم على القطع من أنه باطل وإلا لما دعوا بهذا الدعاء ﴿اللهم﴾ أي يا من له تمام المُلْك وعموم الملك ﴿إن كان هذا﴾ أي الأمر الذي أتانا به محمد ﴿هو﴾ أي لا ما نحن عليه ﴿الحق﴾ حال كونه منزلاً ﴿من عندك﴾ وقال الزجاج: إنه لا يعلم أحداً قرأ ﴿الحق﴾ بالرفع - أفاده أبو حيان ﴿فأمطر علينا حجارة﴾ ولعل تقييده بقوله: ﴿من السماء﴾ مع أن الأمطار لا يكون إلا منها - لإزالة وهم من يتوهم أن الإمطار مجاز عن مطلق الرجم وأنه إنما ذكر لبيان أن الحجارة المرجوم بها في الكثرة مثل المطر ﴿أو اتنا بعذاب اليم﴾ أي غير الحجارة، ولعل مرادهم بقولهم ذلك الإشارة إلى أن مجيء الوحي إليك من السماء خارق كما أن إتيان الحجارة منها كذلك، فإن كنت صادقاً في إتيان الوحي إليك منها فأتنا بحجارة منها كما أتت الحجارة منها أصحاب الفيل صوتاً من الله لبيته الذي أراد الجيش انتهاك حرمة وإعظاماً له - أشار إلى ذلك أبو حيان، وهذه

الآية والتي قبلها في النضر بن الحارث أسره المقداد يوم بدر فأمر النبي ﷺ بقتله فقال المقداد: أسيري يا رسول الله! فقال: «إنه كان يقول في كتاب الله تعالى ما يقول»، فعاد المقداد رضي الله عنه لقوله، فقال النبي ﷺ: «اللهم أغن المقداد من فضلك»، فقال: ذاك الذي أردت يا رسول الله! فقتله النبي ﷺ فأنشدت أخته قتيلة أبياتاً منها:

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المخنق
فقال النبي ﷺ: «لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه»^(١). وعن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهل من قومي قومك قالوا ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ [الأنفال: ٣٢] وما قالوا: فاهدنا به، والسر الذي بينه في هذه الآية في إمهالهم هو أنه ما منعه من الإسراع في إجابة دعائهم كما فعل في وقعة بدر إلا إجلال مقامه ﷺ بين أظهرهم فقال: ﴿وما كان الله﴾ أي مع ما له من صفات الكمال والعظمة والجلال، وأكد النفي بقوله: ﴿ليعذبهم﴾ أي ليجدد لهم ذلك في وقت من الأوقات ﴿وأنت﴾ أي يا أكرم الخلق ﴿فيهم﴾ فإنه لعين

تجازى ألف عين وتكرم

ولما بين بركة وجوده، أتبعه ما يخلفه ﷺ إذا غاب في العباد من العذاب فقال: ﴿وما كان الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿معذبهم﴾ أي مثبتاً وصف تعذيبهم بحيث يدوم ﴿وهم يستغفرون﴾ أي يطلبون الغفران بالدعاء أو يوجدون هذا اللفظ فيقولون: أستغفر الله، فإن لفظه وإن كان خبراً فهو دعاء وطلب، فوجوده ﷺ في قوم أبلغ من نفي العذاب عنهم، وهذا الكلام ندب لهم إلى الاستغفار وتعليم لما يدفع العذاب عنهم كما تقول: ما كنت لأضربك وأنت تطيعني، أي فأطعني - نبه عليه الإمام أبو جعفر النحاس، وفي ذلك حث عظيم لمن صار ﷺ بين أظهرهم من المسلمين صادقهم ومنافقهم على الرغبة في مواصلته والرغبة من مفارقتة، وتعريف لهم بما لهم في حلول ذاته المشرقة في ساحتهم من جليل النعمة ترغيباً في المحبة لطول عمره والاستمسك بعززه في نهيه وأمره إذ المراد - والله أعلم - بالاستغفار طلب المغفرة بشرطه من الإيمان والطاعة، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه كان في هذه الأمة أمانان، أما النبي ﷺ فقد مضى، وأما الاستغفار فهو كائن فيكم إلى يوم القيامة.

ولما كان هذا ليس نصاً في استحقاتهم العذاب، قال تعالى عاطفاً على ما تقديره:

(١) ذكره السيوطي في الدر بنحوه ٣/٣٢٧ (الأنفال: ٣١) وقال: أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن سعيد

ابن جبيرة اه. وهو مرسل، وانظر سيرة ابن هشام ٦٨/٢.

وليعذبنيهم الله إذ هاجرت عنهم ولم يؤمنوا فيستغفروا: ﴿وما لهم﴾ قال أبو حيان: الظاهر أن «ما» استفهامية، أي أي شيء لهم في انتفاء العذاب، وهو استفهام معناه التقرير، أي كيف لا يعذبون وهم متصفون بهذه الصفة المتقضية للعذاب وهي صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وليسوا بولاية البيت - انتهى. وتقدير الكلام: وأي حظ لهم في ﴿ألا يعذبهم الله﴾ أي الذي له كمال العز والعظمة على الظالم والإكرام والرفق بالطائع عاجلاً ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم مستحقون للعذاب فهو واقع بهم لا محالة وإن تأخر مدة إبانته وأبطأ عنهم أوانه وقوعاً ينسيهم ما نالوه من اللذات وإن عظم عندهم شأنها وامتد طويلاً زمانها لأنهم ﴿يصدون﴾ أي يوجدون الصد ﴿عن المسجد﴾ أي من أراد تعظيمه بالصلاة التي وضع المسجد لها وغيرها ﴿الحرام﴾ أي العظيم حرمة عند كل أحد فلا اختصاص به لشخص دون آخر، أي شأنهم فعل حقيقة الصد في الماضي والحال والمآل، لا ينفكون عن ذلك، كما كانوا يمنعون من شأوا من دخول البيت ويقولون: نحن ولاته، نفعل ما نشاء، ويصدون المؤمنين عن الطواف به بالتعذيب والفتنة وصدوا رسول الله ﷺ ومن معه بالإخراج ثم صدوهم عام الحديبية عن الوصول إلى البيت وعام عمرة القضية عن الإقامة بعد الثلاثة الأيام ﴿وما﴾ أي والحال أنه لم يكن لهم ذلك لأنهم ما ﴿كانوا أولياءه﴾ أي أهلاً لولايته بحيث إن صدهم ربما يقع موقعه؛ روى البخاري في التفسير عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢] فنزلت ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ إلى ﴿عن المسجد الحرام﴾^(١) [الأنفال: ٣٣].

ولما نفى عنهم الولاية. ذكر أهلها فقال: ﴿إن﴾ أي ما ﴿أولياؤه﴾ أي بالاستحقاق ﴿إلا المتقون﴾ أي العريقون في هذا الوصف بما يجعلون بينهم وبين سخط الله من وقايات الطاعات، لا كل من آمن بل خاصة المؤمنين، وهم ليسوا كذلك لتلبسهم الآن بالكفر ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ليس لهم علم بالأمور ليميزوا بين الحق والباطل والمتقي والفاسق وحسن العواقب وسيئها، ولعله عبر بالأكثر إعلماً بأن فيهم المعاند، ولأنه كان منهم من آمن بعد ذلك فصار من أولي العلم.

ولما كانوا يفعلون عند البيت ما ينزه البيت عنه مما هو غاية في الجهل، قال مينا لجهلهم واستحقاقهم للنكال وبعدهم عن استحقاق ولايته: ﴿وما كان صلاتهم﴾ أي التي ينبغي أن تكون مبنية على الخشوع، وزاد في التبشيع عليهم بقوله: ﴿عند البيت﴾ أي

(١) أخرجه البخاري ٤٦٤٨ و ٤٦٤٩ عن أنس موقوفاً.

فعلهم الذي يعدونه صلاة أو يبذلونها به ﴿إلا مكاء﴾ أي صفيراً يشبه صفير الطير والدبر بريح الحدث - من مكا يمكو مكواً ومكاء - إذا صفر بفيه أو شبك أصابعه ونفخ فيها، ومكت الشجرة بريحها: صوتت، والدبر بريح الحدث: صوت - قال أبو حيان: وجاء على فعال أي بالضم ويكثر فعال في الأصوات كالصراخ - انتهى. ﴿وتصدية﴾ أي و تصفيقاً، كان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويصفرون بأفواههم ويصفقون بأيديهم مقصورة، فيكون تصويتهم ذلك يشبه الذي رجع الصوت في المكان الخالي، فهو كناية عن أن صلاتهم لا معنى لها، وأصله صدد - مضاعف - إذا عرض ومال مثل التظني من ظنن -، فهذا لهو لا عبادة وهزء لا جد مع أن الأمر جد وأتي جد كما قال تعالى: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سُمدون﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١] أي ولا تبكون في حال جدكم بدأبكم في العمل الصالح، فهذا الذي يعملونه مناف لحال البيت فهو تخريب لا تعمير، قال مقاتل: كان النبي ﷺ إذا صلى في المسجد قام رجلان من المشركين عن يمينه يصفران ويصفقان، ورجلان كذلك عن يساره ليخلطوا عليه صلاته، وتقدير الكلام على قراءة الأعمش: صلاتهم - بالنصب: وما كان شيء إلا مكاء وتصدية صلاتهم، فنفي عما يجعلونه صلاة كل شيء إلا المكاء والتصدية، فالصلاة مقصورة عليهما بهذا الاعتبار، فقد صارت بهذا الطريق بمعنى القراءة المشهورة سواء فتأمله فإنه نفيس جداً، وخرج عليه الخلاف في آية الأنعام ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ [الأنعام: ٢٣] وغيره، وقد مضى هناك ما ينفع هنا، ومما يجب أن يعلم أن هؤلاء لم يذمهم الله لأنه أعلى الذم، بل ذمهم لكونهم اتخذوا العبادة لعباً لينبه بذلك على ذم من أشبههم في ذلك فعمد إلى ما هو مباح في أصله فاتخذة ديناً فكيف إذا كان مكروهاً أم كيف إذا كان حراماً، فقبح الله قوماً ادعوا أنهم أعرضوا عن الدنيا ثم اتخذوا الطبول والغنى والتصدية شعارهم ثم ضربوا به حتى فعلوه في المساجد وزادوا على فعل الجاهلية الرقص الذي ابتدعه قوم السامري لما عبدوا العجل، فأخذوا أنواعاً من أفعال أنواع من الكفرة وجعلوها عاداتهم وشعارهم وديانتهم، فلقد انتهكوا حرمت الشريعة وبدلوا واستهانوا بها واسترذلوها.

ولما كان مساق الكلام لبيان استحقاقهم العذاب، وأنه لا مانع لهم منه وكان قد أوقع بهم في هذه الغزوة مبادئه، وكانت المواجهة بالتعنيف وقت إيقاع ما لا يطاق بالعدو إنكاء، قال مسبباً عن قبيح ما كانوا يرتكبونه: ﴿فذوقوا العذاب﴾ أي الذي توعدكم الله والذي رأيتموه ببدر وطلبتموه في استفتائكم حكم الاستهانة به ﴿بما كنتم تكفرون﴾* أي إنكم قد صرتم بهذا الفعل أهلاً لذوقه بما تسترون مما دلتكم عليه عقولكم من هذا الحق الواضح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَلْبُهُمْ خَائِفًا لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي اللَّهِ فَإِنَّ آتَهُمْ فَأَتَىٰ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نَعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعَمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ .

ولما أخبر سبحانه عن أحوال الكفار في الأعمال البدنية، وكان غلبهم مع كثرتهم وقوتهم مستبعداً، أخبر بما يقربه مبيناً لأعمالهم المالية فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مع كثرتهم لأنهم ستروا مرثي عقولهم التي هي الإنسان بالحقيقة فنقصوا بذلك نقصاً لا يدرك كنهه ﴿ينفقون أموالهم﴾ أي يعزمون على إنفاقها فيما يأتي ﴿ليصدوا﴾ أي بزعمهم أنفسهم وغيرهم ﴿عن سبيل الله﴾ أي عن سلوك طريق - الذي لا يداني عظمته عظمة مع اتساعه ووضوحه وسهولته ﴿فسينفقونها﴾ أي بحكم قاهر لهم لا يقدرّون على الانفكاك عنه ﴿ثم تكون﴾ أي بعد إنفاقها بمدة، وعبر بعبارة ظاهرة في مضرتها فقال: ﴿عليهم﴾ وأبلغ في ذلك بأن أوقع عليها المصدر فقال: ﴿حسرة﴾ أي لضياعتها وعدم تأثيرها ﴿ثم يغلبون﴾ أي كما اتفق لهم في بدر سواء، فإنهم أنفقوا مع الكثرة والقوة ولم يغن عنهم شيء من ذلك شيئاً مما أراد الله بهم، بل كان وبالاً عليهم، فإنه كان سبباً لجرأتهم حتى أقدموا نظراً إلى الحاضر وقصوراً عن الغائب كالبهائم فهلكوا، وكان ذلك قوة للمؤمنين فما كان في الحقيقة إلا لهم، وهذا الكلام منطبق على ما كان سبب نزول الآية وعلى كل ما شاكله، وذلك أنهم لما قهروا في بدر قال لهم أبو سفيان: إنه ينبغي أن تنفقوا مال تلك العير - يعني التي كانت معه - ونحث على حرب محمد، فأجابوا وأنفقوه على غزوة أحد فحصل لهم فيها بعض ظفر ثم تعقبه الحسرة والمغلوبية في بدر الموعد وكل ما بعدها؛ ثم أظهر وصفهم الذي استحقوا به ذلك تعليقاً للحكم به وتعميماً منذراً لهم بما هو أشد من ذلك فقال: ﴿والذين كفروا﴾ أي حكم بدوام كفرهم عامة سواء زادوا على الكفر فعل ما تقدم أم لا ﴿إلى جهنم﴾ أي لا إلى غيرها .

ولما كان المنكى هو الحشر، لا كونه من معين، بني للمفعول قوله: ﴿يحشرون﴾ أي بعد الموت فهم في خزي دائم دنيا وأخرى، ويجوز أن يتجاوز بجهنم عن أسبابها فيكون المعنى أنهم يستدرجون بمباشرة أسبابها إليها ويحملون في الدنيا

عليها، وهذه الآيات - مع كونها معلمة بما لهم في الدنيا وما لهم في الآخرة من أن آخر أمرهم في الدنيا الغلب كما كثف عنه الزمان علماً من أعلام النبوة وفي الآخرة جهنم - هي مبينة لكذبهم في قولهم ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ [الأنفال: ٣١] فإنهم لو كانوا صادقين في دعواهم لقالوا مثله ثم قالوا: لو كان هذا هو الحق لا غيره لما قلنا مثله، موضع قولهم ﴿إن كان هذا هو الحق﴾ [الأنفال: ٣٢] إلى آخره، وأما آية المكاء والتصدية فكانها تقول: هذا القرآن في أعلى درج البلاغة ولم تؤهلوا أنتم - مع ادعائكم سبق في البلاغة - لأن تعارضوه بشيء له أهلية لشيء من البلاغة، بل نزلتم إلى أصوات الحيوانات العجم حقيقة، فلا أجلى من هذا البيان على ما ادعيتم من الزور والبهتان، وأما آية الإنفاق فقائلة: لو قدرتم في معارضته على إنفاق الأقوال لما عدلتم عنه إلى إنفاق الأموال المفضي إلى مقاساة الأهوال وفساد الأشباح ونفوق ما حوت من الأرواح المؤدي إلى الذل السرمد بالعذاب المؤبد.

ولما ذكر حشر الكافرين ذكر علته فقال معلقاً بيحشرون: ﴿ليميز الله﴾ أي الذي له صفات الكمال بذلك الحشر ﴿الخبيث من الطيب﴾ أي إنما جعل للكفار داراً تخصهم ويخصونها لإظهار العدل والفضل بأن يميز الكافر من المؤمن فجعل لكل دار يتميز بها عدلاً في الكافرين وفضلاً على المؤمنين، فيجعل الطيب في مكان واسع حسن ﴿ويجعل الخبيث﴾ أي الفريق المتصف بهذا الوصف ﴿بعضه على بعض﴾ والركم: جمع الشيء بعضه فوق بعض، فكان قوله: ﴿فيركمه جميعاً﴾ عطف تفسير يؤكد الذي قبله في إرادة الحقيقة مع إفهام شدة الاتصال حتى يصير الكل كاشيء الواحد كالسحاب المركوم، والنتيجة قوله: ﴿فيجعله في جهنم﴾ أي دار الضيق والغم والتجهم والهم.

ولما كان هذا أمراً لا فلاح معه، استأنف قوله جامعاً تصريحاً بالعموم: ﴿أولئك﴾ أي البعداء البغضاء الذين أفهمهم اسم الجنس في الخبيث ﴿هم الخسرون﴾ أي خاصة لتناهي خسranهم، لأنهم اشتروا بأموالهم إهلاك أنفسهم بذلك الحشر.

ولما بين ضلالهم في عبادتهم البدنية والمالية، و كان في كثير من العبارات السالفة القطع للذين كفروا بلفظ الماضي بالشقاء، كان ذلك موهماً لأن يراد من أوقع الكفر في الزمن الماضي وإن تاب، فيكون مؤسراً من التوبة فيكون موجباً للثبات على الكفر، قال تعالى متلطفاً بعباده مرشداً لهم إلى طريق الصواب مبيناً المخلص مما هم فيه من الوبال في جواب من كأنه قال: أما لهم من جبلة يتخلصون بها من الخسارة: ﴿قل للذين﴾ أي لأجل الذين ﴿كفروا﴾ إني أقبل توبة من تاب منهم بمجرد انتهائه عن حاله ﴿إن يتهوا﴾ أي يتجدد لهم وقتاً ما الانتهاء عن مغالبتهم بالانتهاء عن كفرهم فيذلوا لله

ويخضعوا لأوامره ﴿يغفر لهم﴾ بناه للمفعول لأن النافع نفس الغفران وهو محو الذنب ﴿ما قد سلف﴾ أي مما اجترحوه كائناً ما كان فيمحي عيناً وأثراً فلا عقاب عليه ولا عتاب ﴿وإن﴾ أي وإن يثبتوا على كفرهم و ﴿يعودوا﴾ أي إلى المغالبة ﴿فقد مضت سنة﴾ أي طريقة ﴿الأولين﴾ أي وجدت وانقضت ونفذت فلا مرد لها بدليل ما سمع من أخبار الماضين وشوهد من حال أهل بدر مما أوجب القطع بأن الله مع المؤمنين وعلى الكافرين، ومن كان معه نصر، ومن كان عليه خذل وأخذ وقسر ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿ولينصرون الله من ينصره﴾ [الحج: ٤٠] [وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ] [القصص: ١٢٨] وإن كانت الحرب سجلاً.

ولما أشار ختم الآية إلى قتالهم إن أصروا، وكان التقدير: فأقدموا عليهم حيثما عادوكم إقدام الليوث الجريئة غير هائبين كثرتهم ولا قوتهم فإن الله خاذلهم، عطف عليه قوله مصرحاً بالمقصود: ﴿وقاتلوهم﴾ أي دائماً ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ أي سبب يوجب ميلاً عن الدين أصلاً ﴿ويكون الدين﴾.

ولما كانت هذه الواقعة قد سرت كتائب هيتها في القلوب فوجبت أيما وجبت، فضاقت وضعفت صدور الكافرين، وانشرحت وقويت قلوب المؤمنين؛ اقتضى هذا السياق التأكيد فقال: ﴿كله الله﴾ أي الملك الأعظم خالصاً غير مشوب بنوع خوف أو إغضاء على قذى، وأصل الفتنة: الخلطة المحيلة، ويلزم ذلك أن يكون السبب عظيماً لأن الشيء لا يحول عن حاله إلا لأمر عظيم لأن مخالفة المؤلف عسرة، ومنه التنف، وكذا نفت القدر، وهو أن يغلي المرق فيلزق بجوانبها، والتنوفة: القفر، لأنه موضع ذلك، ويلزمه الإخلاص، من فتنت الذهب - إذا أذنته فتميز جيده من رديئه، وتارة يكون الميل إلى جهة الرديء وهو الأغلب، وتارة إلى الجيد، ومنه ﴿وفتنك فتوناً﴾ [طه: ٤٠].

ولما كان لهم حال اللقاء حالان: إسلام وإقبال، وكفر وإعراض وإخلال، قال مبيناً لحكم القسمين: ﴿فإن انتهوا﴾ أي عن قتالكم بالمواجهة بالإسلام فاقبلوا منهم وانتهوا عن مسهم بسوء ولا تقولوا: أنتم متعوذون بذلك غير مخلصين، تمسكاً بالتأكيد بكله، فإنه ليس عليكم إلا ردهم عن المخالفة الظاهرة، وأما الباطن فإلى الله ﴿فإن الله﴾ أي المحيط علماً وقدرة، وقدم المجرور اهتماماً به إلهاماً لأن العلم به كالمختص به فقال: ﴿بما يعملون﴾ أي وإن دقَّ ﴿بصير﴾ فيجازيهم عليه، وأما أنتم فلستم عالمين بالظاهر والباطن معاً فعليكم قبول الظاهر، والله بما تعملون أنتم أيضاً - من كف عنهم وقتل الله أو لحظ نفس - بصير، فيجازيكم على حقائق الأمور وبواطنها وإن أظهرتم للناس

ما يقيم عذرکم، ويكمل لكل منکم أجر ما كان عزم على مباشرته من قتالهم لو لم ينتهوا، وإن لم ينتهوا بل أقدموا على قتالکم، هكذا كان الأصل، ولكنه سبحانه عبر بقوله: ﴿وإن تولوا﴾ أي عن الإجابة تبشيراً لهم بهزيمتهم وقلة ثباتهم لما ألقى في قلوبهم من الرعب، ويؤيد ذلك قوله: ﴿فاعلموا أن الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء ﴿مولکم﴾ أي متولي أمورکم فهو يعمل معکم ما يعمل من يتولى أمر من يحبه من الاجتهاد في تحصيل ما ينفعه ودفع ما يضره فهو لا محالة ناصرکم؛ ثم استأنف مدحه بما هو أهله تعريفاً بقدره وترغيباً في توليه فقال: ﴿نعم المولى﴾ ولم يدخل فاء السبب هنا لأن المأمور به العلم، واعتقاد كونه مولى واجب لذاته لا لشيء آخر، بخلاف ما في آخر الحج، فإن المأمور هناك الاعتصام ﴿ونعم النصير﴾ أي فلا تخافوهم أصلاً وإن زادت كثرتهم وقويت شوكتهم فلا تبارحوهم حتى لا يكون إلا كلمة الله.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَسَخَتُمُ اللَّيْلُ لِنِزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَعَقَّةً فَآثِمُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْزِعُوا فَفَشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُهُمْ وَأَصْبَرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ .

ولما كان التقدير: فإذا أعانكم مولاكم عليهم وغلبيتموهم وغنمتم فيه فلا تنسبوا إلى أنفسكم فعلاً، بل اعلموا أنه هو الفاعل وحده لأن جميع الأفعال متلاشية بالنسبة إلى فعله فلا تتنازعوا في المغنم تنازع من أخذه بقوته وحازه بقدرته، عطف عليه قوله: ﴿واعلموا﴾ ابتداء بهذا الأمر إشارة إلى أن ما بعدها من المهمات لبيدوا الجهد في تفريغ أذهانهم لوعيه وتنزيله منازل ورعيه ﴿أنما﴾ أي الذي ﴿غنمتم﴾ والغنيمة لغة: الفوز بالشيء، وشرعاً ما دخل في أيدي المسلمين من مال الكفار قهراً بالخيال والركاب، وزاد

في التعميم حتى لأقل ما يمكن بقوله: ﴿من شيء﴾ أي حتى الخيط والمخييط فإنه كله له، لأنه هو الناصر وحده وإنما أنتم آلة لا قدرة لكم على مقاومة الأعداء لأنهم جميع أهل الأرض ولا نسبة لكم منهم في عدد ولا قوة أصلاً، فالجاري على منهاج العدل المتعارف عندكم أن يأخذه كله ولا يمكنكم من شيء منه كما كان فيمن قبلكم، يعزل فتنزل نار من السماء فتأكله، ولكنه سبحانه - علم ضعفكم فمنّ عليكم به ورضي منكم منه بالخمس، فسماه لنفسه ورده عليكم، وهو معنى قوله: ﴿فإن لله﴾ أي الذي له كل شيء ﴿خمس﴾ .

ولما كان من المعلوم أن الله تعالى أجلّ من أن يناله نفع أو ضرر، كان من المعلوم أن ذكر اسمه سبحانه إنما هو للإعلام بأن إسلام هذا الخمس والتخلي عنه لا حظ للنفس فيه، وإنما هو لمحض الدين تقريباً إليه سبحانه، فذكر مصرفه بقوله: ﴿وللرسول﴾ أي يصرف إليه خمس هذا الخمس ما دام حياً ليصرفه في مصالح المسلمين، ويصرف بعده إلى القائم مقامه، يفعل فيه ما كان ﷺ يفعلهُ ﴿ولذي القربى﴾ أي من الرسول، وهم الأهل الذين تحرم عليهم الزكاة: بنو هاشم وبنو المطلب ﴿واليتيم﴾ أي لضعفهم ﴿والمسكين﴾ لعجزهم ﴿وابن السبيل﴾ أي المسافر لأن الأسفار مظنات الافتقار، فالحاصل أنه سبحانه لم يرزأكم من المغنم شيئاً، فاعرفوا فضله عليكم أولاً بالإنعام بالنصر، وثانياً بحل المغنم، وثالثاً بالإمكان من الأربعة الأخماس، ورابعاً برد الخمس الخامس فيكم، فاشتغلوا بشكره فضلاً عن أن تغفلوا عن ذلك فضلاً عن أن تتوهموا أن بكم فعلاً تستحقون به شيئاً فضلاً عن أن تفعلوا من المنازعة في المغنم فعل القاطع بالاستحقاق، اعلموا ذلك كله علم المصدق المؤمن المدعن لما علم لتنشأ عنه ثمرة العمل ﴿إن كنتم﴾ صادقين في أنكم ﴿أمتتم بالله﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه ﴿وما﴾ أي وبالذي ﴿أنزلنا﴾ أي إنزالاً واحداً سريعاً لأجل التفريغ عنكم من القرآن والجنود والسكينة في قلوبكم وغير ذلك مما تقدم وصفه ﴿على عبدنا﴾ أي الذي يرى دائماً أن الأفعال كلها لنا فلا ينسب لنفسه شيئاً إلا بنا ﴿يوم الفرقان﴾ أي يوم بدر الذي جعلنا لكم فيه عزاً ينفذ به أقوالكم وأفعالكم في فصل الأمور.

ولما وصفه سبحانه بالفرقان تذكيراً لهم بالنعمة، بينه بما صور حالهم فيه إتماماً لذلك - أو أبدل منه - فقال: ﴿يوم التقى﴾ أي عن غير قصد من الفريقين بل بمحض تدبير الله ﴿الجمعتن﴾ أي اللذان أحدهما أنتم وكنتم حين الترائي - لولا فضلنا - قاطعين بالموت، وثانيهما أعداؤكم وكانوا على اليقين بأنكم في قبضتهم، وذلك هو الجاري على منهاج العوائد، ولو قيل: يوم بدر، لم يفد هذه الفوائد.

ولما كان انعكاس الأمر في النصر محل عجب، ختم الآية بقوله: ﴿والله على كل شيء﴾ أي من نصر القليل على الكثير وعكسه وغير ذلك من جميع الأمور ﴿قدير﴾ فكان ختمها بذلك كاشفاً للسر ومزيلاً للعجب ومبيناً أن ما فعل هو الجاري على سنن سنته المطرد في قديم عاداته عند من يعلم أيامه الماضية في جميع الأعصر الخالية.

ولما ذكر لهم يوم ملتقاهم، صور لهم حالتهم الموضحة للأمر المبينة لما كانوا فيه من اعترافهم بالعجز تذكيراً لهم بذلك ردعاً عن المنازعة ورداً إلى المطاوعة فقال مبدلاً من ﴿يوم الفرقان﴾ ﴿إذ أنتم﴾ نزول ﴿بالعدوة الدنيا﴾ أي القربى إلى المدينة ﴿وهم﴾ أي المشركون نزول ﴿بالعدوة القصوى﴾ أي البعدى منها القريبة إلى البحر، والقياس قلب واوه ياء، وقد جاء كذلك إلا أن هذا أكثر كما كثر استصوب وقل استصاب، والعدوة - بالكسر في قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب، وبالضم في قراءة غيرهم: جانب الوادي وشطه، ومادتها - بأي ترتيب كان - تدور على الاضطراب ويلزمه المجاورة والسكون والإقبال والرجوع والاستباق والمحل القابل لذلك، فكانها الموضع الذي علا عن محل فكان السيل موضعاً للعدو ﴿والركب﴾ أي العير الذي فيه المتجر الذي خرجتم لاقتطاعه ورئيس جماعته أبو سفيان، ونصب على الظرف قوله: ﴿أسفل منكم﴾ أي أيها الجمعان إلى جانب البحر على مدى من قرية تكادون تقعون عليه وتمدون أيديكم إليه مسافة ثلاثة أميال - كما قال البغوي، وهو كان قصدكم وسؤلکم، فلو كانت لكم قوة على طرده لبادرتهم إلي الطرف وغالبتهم عليه الحتف، ولكن منعكم من إدراك مأمولكم منه من كان جائماً بتلك العدو جنوم الأسد واثقاً بما هو فيه من القوى والعدد كما قال ﷺ لسلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه - لما قال في تحقيرهم بعد قتلهم وتدميرهم: إن وجدنا إلا عجائز صلعاً، ما هو إلا أن لقيناهم فمنحونا أكتافهم - جواباً له ﴿أولئك يا ابن أخي الملأ لو رأيتهم لهبتهم ولو أمروك لأطعتهم﴾^(١) مع استضعافكم لأنفسكم عن مقاومتهم لولا رسولنا يبشركم وجنودنا تثبتكم، وإلى مثل هذه المعاني أشار تصوير مكانهم ومكان الركب إيماء إلى ما كان فيه العدو من قوة الشوكة وتكامل العدة وتمهد أسباب الغلبة وضعف حال المسلمين وأن ظفرهم في مثل هذا الحال ليس إلا صنفاً من الله، وما في البيضاري تبعاً للكشاف من أن العدو الدنيا كانت تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها تقدم رده أول السورة بأن المشهور في صحيح مسلم والسير وغيرها أن المؤمنين هم السابقون إلى الماء، وأن جميع أرض ذلك المكان كانت رملاً تسوخ فيه

(١) انظر دلائل النبوة لليهيقي ٣/١٤٧.

الأقدام، فأتى المسلمين به من المطر ما لبد لهم الأرض، وأتى المشركين منه ما لم يقدروا معه على الحركة ﴿ولو تواعدتم﴾ أي أنتم وهم على الموافاة إلى تلك المواضع في أن واحد ﴿لاختلفتم في الميعاد﴾ أي لأن العادة قاضية بذلك لأمرين: أحدهما بعد المسافة التي كنتم بها منها وتعذر توقيت سير كل فريق بسير صاحبه، والثاني كراحتكم للقائهم لما قر في أنفسهم من قوتهم وضعفكم، وقد كان الذي كره إليكم لقاءكم قادر على أن يكره إليهم لقاءكم، فيقع الاختلاف من جهتهم كما كان في بدر الموعد، وأما في هذه الغزوة فدعاهم من حماية غيرهم داع لم يستطيعوا التخلف معه، وطمس الله بصائرهم وقسى قلوبهم مع قول أبي جهل الذي كان السبب الأعظم في اللقاء لمن عرض عليه المدد بالسلاح والرجال: إن كنا نقاتل الناس فما بنا ضعف عنهم، وإن كنا إنما نقاتل - كما يزعم محمد - الله فما لأحد بالله من طاقة، وقوله أيضاً في هذه الغزوة للأخنس بن شريق: إن محمداً صادق وما كذب قط، فعل الله ذلك لما علم في ملاقاتهم لكم من إعلاء كلمته وإظهار دينه ﴿ولكن﴾ أي دبر ذلك سبحانه حتى توافيتم إلى موطن اللقاء كلكم في يوم واحد من غير ميعاد ولم تختلفوا في موافاة ذلك الموضوع مع خروج ذلك عن العادة لكونه أتقن أسبابه، فأطمعكم في العير أولاً مع ما أنتم فيه من الحاجة ثم وعدكم إحدى الطائفتين مبهماً وأخرج قريشاً لحماية غيرهم إخراجاً لم يجدوا منه بدأ، ولما نجت غيرهم أوردتهم الرياء والسمعة والبطر بما هم فيه من الكثرة والقوة كما قال أبو جهل: لا نرجع حتى نرد بداراً فننحر بها الجزور ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان ونطعم من حضرنا من العرب فلا يزالون يهابوننا مدى الزمان - ﴿ليقضي الله﴾ أي الذي له جميع الأمر من إعزاز دينه بإعزازكم وإذلالهم ﴿أمراً كان﴾ كما تكون الجبلات والطباع في التمكن والتمام ﴿مفعولاً﴾ أي مقدراً في الأزل من لقائهم وما وقع فيه من قتلهم وأسره على ذلك الوجه العظيم فهو مفعول لا محالة ليتبين به إيمان من آمن باعتماده على الله وتصديقه بموعده وكفر من كفر.

ولما علل ذلك التدبير في اللقاء بقوله: «ليقضي الله»، علل تلك العلة بقوله: ﴿ليهلك﴾ أي بعد رؤية ذلك القضاء الخارق للعادة ﴿من هلك﴾ أي من الفريقين: الكفار في حالة القتال وبعدها، والمسلمين هلاكاً متجاوزاً وناشئاً ﴿عن﴾ حالة ﴿بينت﴾ لما بان من صدق رسول الله ﷺ في هذه الواقعة في كل ما وعد به وكذب الكفار في كل ما كانوا يقولونه قاطعين به مع أن ظاهر الحال يقضي لهم، فكان ذلك من أعظم المعجزات ﴿ويحيى من حي﴾ أي بالإسلام حياة هي في أعلى الكمال بما تشير إليه قراءة نافع والبيزي عن ابن كثير وأبي بكر عن عاصم بإظهار اليقين، أو في أدنى الكمال بما يشير إليه إدغام الباقيين تخفيفاً حياة متجاوزة وناشئة ﴿عن﴾ حالة ﴿بينت﴾ أي كائنة

بعد البيان في كون الكافرين على باطل والمؤمنين على حق لما سيأتي من أنهم كانوا يقولون ﴿غر هؤلاء دينهم﴾ [الأنفال: ٤٩] فحينئذ تبين المغرور وكشفت عجائب المقدور عن أعين القلوب المستور.

ولما كان التقدير: فإن الله في فعل ذلك لعزیز حكيم، عطف عليه قوله: ﴿وإن الله لسميع﴾ أي لما كنتم تقولونه وغيره ﴿عليم﴾ بما كنتم تضمرونه وغيره فاستكينوا لعظمته وارجعوا عن منازعتكم لخشيته، ثم أتم سبحانه تصوير حالتهم بقوله مبيناً ما أشار إليه من لطف تدبره: ﴿إذ﴾ أي اذكر إذ أردت علم ذلك حين ﴿يريكهم الله﴾ أي الذي له صفات الكمال فهو يفعل ما يشاء ﴿في منامك قليلاً﴾ تأكيداً لما تقدم إعلامه به من أن المصادمة - فضلاً عما نشأ عنها - ما كان إلا منه وأنهم كانوا كالألة التي لا اختيار لها، وذلك أن النبي ﷺ رآهم في منامه قليلاً فحدث أصحابه رضي الله عنهم بذلك فطمأنت قلوبهم وشجعهم ذلك؛ وعين ما كان يحصل من الفساد لولا ذلك فقال: ﴿ولو أركهم﴾ أي في منامك أو غيره ﴿كثيراً﴾.

ولما كان الإخبار بعد الوقعة بصد ما وقع فيها مما يقتضي طبع البشر التوقف فيه، أكد قوله: ﴿لفلستم﴾ أي جبتم ﴿ولتنازعتم﴾ أي اختلفتم فنزع كل واحد منزعاً خلاف منزع صاحبه ﴿في الأمر﴾ أي فوهنتم فزادكم ذلك ضعفاً وكراهة للقائهم ﴿ولكن الله﴾ أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿سلم﴾ أي ولكن لم يركهم كذلك فحصلت السلامة عما كان يتسبب عنها من النكوص، ثم بين العلة في تربيته ذلك وإخباره بهذا الأمر المفروض بقوله: ﴿إنه عليم﴾ أي بالغ العلم ﴿بذات الصدور﴾ أي ضمائرهما من الجراء والجبن وغيرهما قبل خطورها في القلوب.

ولما بين ما نشأ عن رؤيته ﷺ من قتلهم وما كان ينشأ عن رؤيته الكثرة لو وقعت، لأنه ﷺ - لما هو عليه من النصيحة والشفقة - كان يخبرهم بما رأى كما أخبرهم في غزوة أحد بالبقر المذبحة؛ أتبعه ما فعل من اللطف في رؤيتهم بأنفسهم يقظة فقال: ﴿وإذ﴾ أي واذكروا أيضاً إذ ﴿يريكموهم﴾ أي يبصركم إياهم ﴿إذ﴾ أي حين ﴿التقيتم﴾ ونبه على أن الرؤية ليست على حقيقة ما هم عليه بقوله: ﴿في أعينكم﴾ أي لا في نفس الأمر حال كونهم ﴿قليلاً﴾ أي عددهم يسيراً أمرهم مصداقاً لما أخبركم به النبي ﷺ عن رؤياه لتجرتوا عليهم؛ روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً، قال الحرالي في آل عمران: فجعل القليل وصفاً لهم لازماً ثابتاً دائماً عليهم بما أوجب فيهم من نقص ذواتهم بخفاء فطرتهم وما وراء خلق

الفطرة من الذوات، قال تعالى: ﴿ويقللکم﴾ صيغة فعل واقع وقت لا وصفاً لهم من حيث إنه لو أراهم إياهم على الإراءة الحقيقية لزادهم مضاعفين بالعشر، فكانوا يرونهم ثلاثة آلاف ومائتين وثلاثين - انتهى. ﴿في أعينهم﴾ قبل اللقاء ليجتروا على مصادمتكم حتى قال أبو جهل: إنما هم أكلة جزور، ثم كثرتم في أعينهم حين المصادفة حتى انهزموا حين فاجأتهم الكثرة فظنوا الظنون؛ قال الحرالي: قللهم حين لم يرههم إياهم على الإراءة - الحقيقية العشرية، ولا أراهم إياهم على الصورة الحسية؛ فكان ذلك آية للمؤمنين على قراءة ياء الغائب - أي في آل عمران - وكانت آية للكفار على قراءة ﴿ترونها﴾ - بناء الخطاب، فكان في ذلك في إظهار الإراءة في أعين الفئتين نحو مما كان من الإراءتين الواقعة بين موسى عليه السلام والسحرة في أن موسى عليه السلام ومن معه خيل إليهم من سحرهم أنها تسعى وأن فرعون ومن معه رأوا ثعباناً مبيناً يلقف ما يأفكون رؤية حقيقة، فتناسب ما بين الآيات الماضية القائمة لهذه الآية بوجه ما، وكان هذ الآية أشرف وألطف بما هي في مدافعة بغير آلة من عصي ولا حبل في ذوات الفئتين وإحساسهم - انتهى.

ولما ذكر ما أحاله سبحانه من إحساس الفئتين، علله بقوله: ﴿ليقضي الله﴾ أي الذي له العزة البالغة والحكمة الباهرة من نصركم وخذلانهم بأن تفاجئهم كثرتم بعد رؤيتكم قليلاً فيشجعهم ذلك، ويهزمهم ﴿أمراً كان مفعولاً﴾ أي من إعجالهم - بما فجعهم من الكثرة بعد القلة - عن الحذر والاستعداد لذلك و بما فعل بأيديكم في هذه الغزوة من القتل والأسر والهزيمة المثمر لذل جميع أهل الكفر، كان مقدراً في الأزل فلا بد من وقوعه على ما حده لأنه لا راد لأمره ولا يبدل القول لديه، فعل ذلك كله وحده.

ولما كان التقدير: فبيده سبحانه ابتداء الأمور بتقديره إياها في الأزل لا بيد أحد غيره، عطف عليه قوله: ﴿والى الله﴾ أي الملك الأعلى الذي بيده وحده كل أمر ﴿ترجع الأمور﴾ أي كلها فلا ينفذ إلا ما يريد إنفاذه، فلا تجري الأمور على ما يظنه العباد، وهو من قولك: هذا الأمر راجع إليك، أي مهما أردته فيه مضى، ولو فرض أن غيرك عالجه لم يؤثر فيه؛ ولا يزال كذلك حتى يرجع إليك فيمضى، فالحاصل أن فيه قوة الرجوع بهذا الاعتبار وإن لم يكن هناك رجوع بالفعل، وفي هذا تنبيه على أن أمور الدنيا غير مقصودة لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاداً ليوم المعاد. ولما تقرر ذلك وتم على هذا السبيل الأحكم والمنهاج الأقوم، كان علة لمضمون قوله: ﴿يأياها الذين آمنوا﴾ الآيتين، فكانتا نتيجته، لأنه إذا علم أن الأمر كله له ولا أثر لقلته ولا كثرة أئمر لمن هو في أدنى درجات الإيمان فضلاً عن غيره قلة المبالاة بالظالمين وإن

تجاوزت قواهم الحد، وزادوا كثرة على العد، والآيتان تذكرانهم بحالتهم التي أوجبت نصرهم ليلزموها في كل معترك ولا يتنازعوا كما تنازعوا في المغنم ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾ أي قاتلتهم لأن اللقاء اسم للقتال غالب ﴿فِتْنَةٍ﴾ أي طائفة مستحقة للقتال كما أغنى عن وصفها بذلك وصفهم بالإيمان ﴿فَاقْبِتُوا﴾ أي في لقاءها بقتالها كما ثبتم في بدر ولا تحدثوا أنفسكم بفرار ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي الذي له كل كمال فكل شيء يطلب فهو عنده يوجد ﴿كثييراً﴾ أي كما صنعتهم ثم، لأن ذلك أمانة الصدق في الاعتماد عليه وحده، وذلك موجب للنصر لا محالة كما في الحديث القدسي «إن عبدي كل عبدي للذي يذكرني عند لقاء قرنه»^(١).

ولما أمر بذلك، علله بأداة الترجي، ليكون أدل على أنه سبحانه لا يجب عليه شيء فيكون أثبت للإيمان فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي لتكونوا على رجاء من الفلاح وهو الظفر بالمراد من النصر والأجر وكما كنتم إذ ذاك ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي الذي له الغنى المطلق فلا يقبل إلا الخالص والكمال الأكمل فلا يفعل إلا ما يريد ﴿وَرَسُولَهُ﴾ أي في الإقدام والإحجام لجهلكم بالعواقب، وتلك الطاعة أمانة إخلاصكم في الذكر ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ بأن يريد كل واحد نزع مال صاحبه من رأي وغيره وإثبات ما له، وأشار إلى عظيم ضرر التنازع ببيان ثمرته المرة فقال: ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ أي تضعفوا؛ قال في القاموس: فشل كفرح، فهو فشل: كسل وضعف وتراخي وجبن - انتهى. والمادة راجعة إلى الفيشلة وهي الحشفة، ومن لازمها الرخاوة وينشأ عن الرخاوة الجبن مع الصلف والخفة والطيش.

ولما كان الفشل ربما كان معه الظفر لفشل في العدو أكثر منه أو غير ذلك، عطف ما يلزمه غالباً بالواو دون الفاء فقال: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾ أي غلبتكم وقوتكم، وأصله أن الريح إذا كانت في الحرب من جهة صف كانت في وجوه أعدائهم فمنعتهم بما يريدون فخذلوا فصارت كأنها قوة من أتت من عنده، فصارت يكنى بها عنها؛ ثم ختم هذه الأسباب بالجامع لشملمها الناظم لمقاصد أهلها فقال: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ أي على ما يكون من تلك المشاق فإنكم إن تكونوا تألمون فإن أعداءكم كذلك، وأنتم ترجون من الله ما لا يرجون؛ ثم علله بما يكون عنه النصر في الحقيقة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي المحيط

(١) أخرجه الترمذي ٣٥٨٠ والديلمي في الفردوس ٨٠٩٠ والبيهقي في الشعب ٥٥٧ من حديث عمارة بن زعكرة. قال الترمذي: هذا حديث غريب، ليس إسناده بالقوي اه. وقال البيهقي: وروي ذلك عن جبير بن نفير أنه قال: يقول الله عز وجل: ألا إن عبدي كل عبدي... اه. وقوله: إن كان ملاقياً قرنه: يعني عند القتال.

بصفات الكمال ﴿مع الصبرين﴾* أي لأنهم لا يصبرون إلا اعتماداً عليه، ومن كان معه عز، وهذه الجملة جمع فيها - كما قال الإمام شمس الدين محمد بن قيم الجوزية في آخر كتاب الفروسية المحمدية - تدبير الحروب أحسن جمع على أتم وجه، فأمر فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت قط في فئة إلا انتصرت وإن قلت في جنب عدوها، وخامسها ملاك ذلك وقوامه وأساسه وهو الصبر، فعلى هذه الدعائم الخمس تبنى قبة النصر، ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسبه، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضاً وصار لها أثر عظيم، لما اجتمعت في الصحابة رضي الله عنهم لم تقم لهم أمة من الأمم، ففتحوا البلاد شرقاً وغرباً ودانت لهم العباد سلماً وحرماً، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر قليلاً قليلاً إلى ما ترى - فلا قوة إلا بالله، والجامع لذلك كله طاعة الله ورسوله فإنها موجبة لتأييد المطيع بقوة من هو في طاعته، وذلك سر قول أبي الدرداء رضي الله عنه الذي رواه البخاري في باب «عمل صالح قبل القتال»: إنما تقاتلون الناس بأعمالكم^(١)؛ وهو شرع قديم، قال في أثناء السفر الخامس من التوراة: وإن أنتم سمعتم قول الله ربكم وتحفظتم وعملتكم بكل هذه الوصية التي أمركم بها اليوم يبارك عليكم الله ربكم كما قال لكم، وترزقون إن تقرضوا شعوباً كثيرة ولا تقرضون، وتسلطون على شعوب كثيرة ولا يتسلطون عليكم.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

ولما ذكرهم سبحانه ما أوجب نصرهم أمراً لهم بالثبات عليه، ذكر لهم حال أعدائهم الذي أوجب قهرهم ناهياً عنه تعريضاً بحال المنازعة في الأنفال وأنها حال من يريد الدنيا، ويوشك - إن تمادت - أن تجر إلى مثل حال هؤلاء الذي محط نظرهم الدنيا فقال: ﴿ولا تكونوا﴾ أي يا معشر المؤمنين ﴿كالذين﴾ وصور قبح عملهم من أوله إلى آخره فقال: ﴿خرجوا من ديارهم﴾ أي كل واحد من داره وهم أهل مكة، وكل من عمل مثل عملهم كان مثلهم، ولذا عبر بالوصف ليعم ﴿بطراً﴾ أي طغياناً وتكبراً على الحق، ومادة بطر - بأي ترتيب اتفق - تدور على اللين القابل للعمل حتى ربط، فإنه لولا الضعف ما استوثق من المربوط، ومنه بطر الجرح - وهو شقه - والبيطار، وتارة يكون

(١) انظر البخاري ك ٥٦ ب ١٣.

ذلك اللين عن دهش. ومنه أبطرت حلمه أي أدهشته عنه، وذهب دمه بطراً أي باطلاً للضعف عنه للحيرة في الأمر الموصل إليه، وتارة يكون عن مجاوزة الحد في الصلابة، ومنه بطر النعمة - إذا لم يشكرها فتجاوز الحد في المرح، فإن فاعل ذلك يمكنه الحكيم من مقاتله فيأخذه وهو يرجع إلى عدم احتمال القوى للشكر، ففاعل ذلك ضعيف وإن ظهر منه خلاف ذلك ما قال عمر رضي الله عنه: العدل وإن رئي لنا أكف عن الظلم من الجور وإن رئي شديداً - أو كما قال رضي الله عنه. وأقرب من ذلك أن تكون المادة دائرة على الخلطة الناقلة من حال إلى حال.

ولما ذكر الحامل لهم على الخروج من أنفسهم، ذكر ما أوجبه لهم من غيرها فقال: ﴿ورثاء الناس﴾ أي خرجوا يرون الناس خروجهم وما يتأثر عنه ليروهم ما يقولون فيه، فإنهم لما قيل لهم؛ قد نجى الله غيركم فارجعوا، بطروا النعمة تبعاً لأبي جهل حيث قال: والله لا نرجع حتى نرد بدراناً فنشرب الخمر وننحر الجزور وتعزف علينا القيان فتسمع بنا العرب فلا تزال تهابنا أبداً! فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا الحمر، وناحت عليهم نوائح الزمان مكان العزف والقيان.

ولما ذكر نفس الخروج وما فيه من الفساد وذكر ثمرته الخبيثة الناشئة عن ذينك الخلقين، وعبر عنهما بالاسم إشارة إلى الثبات كما هو شأن الأخلاق، وعن الثمرة بالمضارع تنبيهاً على أنهم لا يزالون يجددونها فقال: ﴿ويصدون﴾ أي يوجدون الصد وهو المنع لأنفسهم وغيرهم ﴿عن سبيل الله﴾ أي الملك الأعظم في ذلك الوجه وهم عازمون على تجديد ذلك في كل وقت، فلما كانت هذه مقاصدهم كان نسجهم هلهلاً وبنيانهم واهياً، فإنها من عمل الشيطان، وكل عمل لا يكون لله إذا صدم بما هو لله اضمحل، بذلك سبحانه أجرى سنته ولن تجد لسنته تحويلاً، فإن العاملين عبيد الله ﴿والله﴾ أي فعلوا ذلك والحال أن المحيط بكل شيء الذي عادوا أولياءه ﴿بما﴾ أو يكون ذلك معطوفاً على ما تقديره: فأبطل الله بجلاله وعظمته أعمالهم وهو بكل ما ﴿يعملون محيط﴾ فهم في قبضته، فأوردهم - إذ خرجوا يحادونه - بدراناً فنحر مكان الجزور رقابهم وسقاهم مكان الخمر كؤوس المنايا، وأصاح عليهم مكان القيان صوائح النوائح، ولعله قدم الجار إشارة إلى أنه لشدة إحاطته بأعمالهم كأنه لا نظر له إلى غيرها فلا شاغل له عنها.

ولما بين لهم فساد أعمالهم لفساد نياتهم تنفيراً منها، زاد في التنفير بالإشارة إلى الأمر بدوام تذكرها بعاطف على غير معطوف عليه مذكور فقال: ﴿وإذ﴾ فعلم أن التقدير قطعاً: اذكروا ذلك واذكروا إذ، وزاد في التنفير بذكر العدو المبين والتنبيه على أن كل ما

يأمر به إنما هو خيال لا حقيقة له كما كان ما سول لهم في هذا الأمر فقال: ﴿زِين لَهُم الشَّيْطَانُ﴾ أي العدو المحترق البعيد من الخير ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ التي أتقنوها بزعمهم في معاداة النبي ﷺ، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الكناني حين خافوا من قومه بني كنانة أن يخلفوهم في أهلهم بسوء لما كان بينهم مما يوجب ذلك، فكاد ذلك أن يشبطهم عن المسير ﴿وَقَالَ﴾ غاراً لهم في أنفسهم ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ والجار خبر ﴿لَا﴾ وإلا لا انتصب اسمها لكونه يكون إذ ذاك شبيهاً بالمضاف ﴿اليوم من الناس﴾ وغاراً لهم فيمن خلفوه بقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ من أن تخلفكم كنانة بشيء تكرهونه، وسار معهم إلى بدر ينشطهم وينشدهم ويسلطهم بهذا القول الظاهر إلى ما يوسوس لهم به في الصدور ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفُتُنُ﴾ أي رأت كل فئة الأخرى ورأى جبريل عليه السلام في جنود الله ﴿نَكَصَ﴾ أي رجع يمشي الفهقري ويطل كيده وأثار وسوسته ﴿عَلَىٰ عَقْبِهِ﴾ أي إلى ورائه، فقالوا أين أي سراق؟ ولا يظنون إلا سراقه، فمر ولم يجبههم ولا عرج عليهم ﴿وَقَالَ﴾ أي بلسان الحال أو القال وهم يسمعون أو لا يسمعون ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ ثم علل براءته منهم بقوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ﴾ أي بعين بصري ﴿مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي من الملائكة والغضب الذي هو نازل بكم، فقال له الحارث بن هشام وكانت يده في يده: والله ما نرى إلا جواسيس يثرب! فاستأنف قوله مؤكداً لإنكارهم لذلك: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً أن يهلكني معكم بالمعاجلة بالعقاب ﴿وَاللَّهُ﴾ أي الملك الأعظم ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فكانوا يقولون: انهزم بنا سراقه، فقال: بلغني أنكم تقولون كذا! والله ما علمت بمسيركم هذا إلا عندما بلغني انهزامكم فكانوا يكذبونه حتى أسلموا فعملوا أن الذي غرهم الشيطان، وذلك مشهور في السير، وهو أولى من أن يحمل على مجرد الوسوسة، وفي الحديث «ما رئي إبليس يوماً أصغر ولا أحقر ولا أغيب من يوم عرفه لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رئي يوم بدر»^(١).

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَدِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَاتَّ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَتُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾ كَذَّابٌ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ .

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٤٢٢/١ عن طلحة بن عبيد الله بن كريب مرسلًا، وقال الزرقاني في شرح الموطأ: وصله الحاكم في المستدرک عن أبي الدرداء.

ولما استوفى ما كان يقطع به في حق أولئك مما هو من أنفسهم ومما هو من تزيين الشيطان، أبدل منه ما كان يقطع به في حقهم هم من أهل الجهل بالله وبأيامه الماضية وأثاره عند أوليائه وأعدائه فقال: ﴿إذ يقول المنفقون﴾ أي من العرب وبني إسرائيل قولاً يجددونه كل وقت لما لهم فيه من الرغبة ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ أي ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه ممن آمن ولم يهاجر أو من اليهود المصاحرين بالكفر حين يرون الكفار وقوتهم وكثرتهم والمؤمنين وضعفهم وقتلتهم ﴿غزاً هؤلاء﴾ مشيرين إليكم ﴿دينهم﴾ أي في إقدامهم على ما يقطع فيه بهلاكهم ظناً منهم أن الله ناصرهم وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف ملوك العرب، فيغيظكم ذلك، فكذبهم الله وصدق أمركم بتوكلكم عليه وصبركم على دينكم ﴿ومن﴾ أي قالوا ذلك عالمين بأنكم متوكلون عليه وصبركم على دينكم ﴿ومن﴾ أي قالوا ذلك عالمين بأنكم متوكلون على من تدينون له والحال أنه من ﴿يتوكل على الله﴾ أي الذي له الإحاطة الشاملة، فهو يفعل ما يشاء منكم ومن غيركم بشرطه من الإيمان والسعي في الطاعة كما فعلتم فإنه معز ومكرم.

ولما كان سبحانه محيطاً بكل صفة كمال على الإطلاق من غير قيد توكل ولا غيره، أظهر تعالى فقال عاطفاً على ما تقديره: فإن الله قادر على نصره: ﴿فإن الله﴾ أي الذي له الكمال المطلق ﴿عزيز﴾ أي غالب لكل من يغالبه فهو جدير بنصره ﴿حكيم﴾ أي متقن لأفعاله فهو حقيق بأن يأخذ عدو المتوكل عليه من الموضع الذي لا ينفعه فيه حيلة.

ولما ذكر ما سرهم من حال أعدائهم المجاهرين والمساترين في الدنيا مرصعاً ذلك بجواهر الحكم وبدائع الكلم التي بملازمتها تكون السعادة وبالإخلال بها تحل الشقاوة، أتبعه ما يسرهم من حال أعدائهم عند الموت وبعده، فقال مخاطباً لمن لو كشف الغطاء لم يزدد يقيناً، حادياً بتخصيصه بالخطاب كل سامع على قوة اليقين ليؤهل لمثل هذا الخطاب حكاية لحالهم في ذلك الوقت ﴿ولو﴾ أي يقولون ذلك والحال أنك ﴿لو ترى﴾ يا أعلى الخلق ﴿إذ يتوفى﴾ أي يستوفى إخراج نفوس ﴿الذين كفروا﴾ أي من هؤلاء القائلين ومن غيرهم ممن قتلتموهم ببدر ومن غيرهم بعد ذلك وقبله ﴿الملئكة﴾ أي جنودنا الذي وكلناهم بهم حال كونهم ﴿يضربون﴾.

ولما كان ضرب الوجه والدبر أدل ما يكون على الذل والخزي، قال: ﴿وجوههم وأدبارهم﴾ أي أعلى أجسامهم وأدناها فغيره أولى ﴿و﴾ حال كونهم يقولون لهم: ذوقوا

ما كنتم به تكذبون ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ * أي لرأيتم منظراً هائلاً وأمرأً فظيلاً. فسركم ذلك غاية السرور، وما أثر كلامهم في غيظكم، فإنهم يعلمون حينئذ من الذي غره دينه و«لو» وإن كانت تقلب المضارع ماضياً فلا يخلو التعبير بالمضارع في حيزها من فائدة، وهي ما ذكر من الإشارة إلى أن هذا لا يخص ميتاً منهم دون ميت، بل لا فرق بين متقدمهم ومتأخرهم، من مات ببدر أو غيرها، وليس في الكلام ما يقتضي أن يكون القائلون ﴿غر هؤلاء دينهم﴾ حضروا بدرأً، بل الظاهر أن قائله كانوا بالمدينة وتعبيرهم بـ ﴿هؤلاء﴾ التي هي أداة القرب للتحقير واستسهال أخذهم كما أن أداة البعد تستعمل للتعظيم ببعد الرتبة، وعلى مثل هذا يتنزل قول فرعون بعد أن سار بنو إسرائيل زماناً أقله ليلة وبعض يوم كما حكاه الله عنهم ﴿إن هؤلاء لشردمة قليلون﴾ [الشعراء: ٥٤] على أن البغوي قد نقل في تفسير قوله تعالى ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ [آل عمران: ١٣] أن جماعة من اليهود حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة. وإذا تأملت هذا مع قوله تعالى ﴿كذاب آل فرعون﴾ علمت أن جل المقصود من هذه الآيات إلى قوله ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ اليهود، وفي تعبيره بـ ﴿لا يفقهون﴾ تبكيت شديد لهم كما قال تعالى في آية الحشر ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [الحشر: ١٣].

ولما عذبوهم قولاً وفعلاً، عللوا لهم ذلك بقولهم زيادة في تأسيهم: ﴿ذلك﴾ أي هذا الفعل العظيم الذي يفعله بكم من العذاب الأليم ﴿بما قدمت أيديكم﴾ أي من الجراءة على الله ﴿وأن﴾ أي وبسبب أن له أن يفعل ذلك وإن لم تقدموا شيئاً فإن ﴿الله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ليس بظلام﴾ أي بذى ظلم ﴿للعبيد﴾ * فإن ملكه لهم تام. والمالك التام المُلْك على ما يملكه المَلِك الذي لا شيء يخرج عن دائرة ملكه، وهو الذي جبلكم هذه الجبلية الشريرة التي تأثرت عنها هذه الأفعال القبيحة، وهو لا يُسأل عما يفعل، من الذي يسأله! ويجوز أن يكون المعنى: وليس بذى ظلم لأنه لا يترك الظالم يبغي على المظلوم من غير جزاء لكم على ظلمكم لأهل طاعته، وسيأتي في «فصلت» حكمة التعبير بصيغة تحتمل المبالغة.

ولما بين بما مضى ما يوجب الاجتماع عليه والرجوع في كل أمر إليه، وبين أن من خالف ذلك هلك كائناً من كان؛ أتبعه بما يبين أن هذا من العموم والاطراد بحيث لا يخص زماناً دون زمان ولا مكاناً سوى مكان فقال تعالى: ﴿كذاب﴾ أي عادة هؤلاء الكفار وشأنهم الذي دأبوا فيه وداوموا وواظبوا فمرنوا عليه كعادة ﴿آل فرعون﴾ أي الذين هؤلاء اليهود من أعلم الناس بأحوالهم ﴿والذين﴾ ولما كان المهلكون لأجل

تكذيب الرسل بعض أهل الزمان الماضي، أدخل الجار فقال: ﴿من قبلهم﴾ وهو مع ذلك من أدلة ﴿فلم تقتلوهم﴾ لأن هؤلاء الذين أشار إليهم كان هلاكهم بغير قتال، بل بعضهم بالرّيح وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالفرق وبعضهم بالخسف الذي هو غرق في الجامد، فكأنه يقول: لا ينسب أحد لنفسه فعلاً، فإنه لا فرق عندي في إهلاك أعدائي بين أن يكون إهلاكهم بتسليط من قتال أو غيره، الكل بفعلي، لولا أنا ما وقع، وذلك زاجر عظيم لمن افتخر بقتل من قتله الله على يده، أو نازع في النفل، وهو راجع إلى قوله تعالى ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٣] وفي ذلك حث على الثمرن على عدم الاكتراث بشيء يكون للنفس فيه أدنى حظ ليصير ذلك خلقاً كما هو دأب رسول الله ﷺ، لا يضيف شيئاً من محاسنه إلا إلى خالقه إلا إن كان مأموراً فيه بالتشريع، بل يقول: قتلهم الله، صرفهم الله، نصرنا الله، كفى الله، فإذا صار ذلك للمستمسكين به خلقاً أفضى بهم إلى مدح الخالق والمخلوق لهم كما قال كعب بن زهير رضي الله عنه في مدحهم:

ليسوا مفارّيح إن نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

ثم بين تعالى الحال الذي شابهوا فيه من قبلهم بقوله: ﴿كفروا بأيت الله﴾ أي ستروا ما دلّتهم عليه أنوار عقولهم من دلالات الملك الأعلى وغطوها لأنهم لم يعملوا بها وصدوا عن ذلك من تبعهم، فكان جزاؤهم ما تسبب عن ذلك من قوله: ﴿فأخذهم الله﴾ أي الذي له مجامع الكبر ومعاهد العظمة والعز أخذ غلبة وقهر وعقوبة ﴿بذنوبهم﴾ كما أخذهم فإنهم تجرّؤوا على رتبة الألوهية التي تخسأ دون شوامخها نوافذ الأبصار، وتظلم عند بوارق أشعتها سواطع الأنوار، وتضمحل بالبعد عن أول مراقبها القوى، وتنقطع بتوهم الدنو من فيافيها الأعناق، فنزلت بهم صواعق هيبتها، وأناخت عليهم صروف عظمتها، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ولا تحس إلا ملاعبهم وأماكنهم.

ولما أخبر بأخذهم، علله بقوله: ﴿إن الله﴾ أي الذي له الإحاطة الشاملة ﴿قوي﴾ أي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿شديد العقاب﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْرِضُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْصُوتُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ فَإِنَّمَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْتَهُمْ بِمَنْ خَلَفْتَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

ولما كان كأنه قيل: فما له يمهلهم ولا يعاجلهم بالأخذ قبل النكايه في أوليائه وأهل وده وأصفيائه؟ قال: ﴿ذلك﴾ أي الأخذ على هذه الحالة ﴿بأن الله﴾ أي بسبب أنهم غيروا ما في أنفسهم، وقد كان له سبحانه أن يأخذهم قبل أن يغيروا لعلمه بما في ضمائرهم، ولكنه تعالى أجرى سنته الإلهية لتمام علمه وكمال قدرته وإحاطته بجميع صفات الكمال بأنه ﴿لم يك﴾ هكذا كان الأصل، ولكن حذف اختصاراً تقريباً لبيان تعميم العلة وإبعاداً للسامع من مثل ذلك، وحذف نون «يكن» إرشاداً إلى أن هذه الموعظة خليقة بأن يوجز بها غاية الإيجاز فيبادر إلى إلقيائها لما في حسن تلقيها من عظيم المنفعة، لأن من خالفها جدير بتعجيل الانتقام ﴿مغيراً نعمة﴾ أي قلت أو جلت، وبين أنه لا نعمة على أحد إلا منه فقال: ﴿أنعمها على قوم﴾ أي من أي طائفة كانوا ﴿حتى يغيروا﴾ أي يبدلوا ﴿ما﴾ يعتقدونه ﴿بأنفسهم﴾ بغيره مما هو غريزة لهم وهو حفي عنهم، يظنون اتصافهم بضده مما هو ظاهر لهم اتصافاً غريباً ﴿وأن﴾ أي وبسبب أن ﴿الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿سميع﴾ أي لما يكذبون به الرسل ولأقوالهم: إن ما يظهرونه وصفهم الحقيقي ﴿عليم﴾ أي بما تكن ضمائرهم من غيره وإن جهلوه هم فيبتليهم ببلاء يظهر به ذلك المكنون ويبرز به كل سر مصون، فإذا تعلق به العلم ظاهراً علق به الحكم قاهراً لتمام قيام الحجة، ولتمام علمه بحالهم أمهلهم، وإنما يستعجل من يخاف أن تخيب فراسته أو يتغير علمه، وأما الذي علمه بالظواهر والضمائر على حد سواء فالحالتان عنده سيان، فهو يمهل لإتمام الحكمة ولا يهمل من استحق النعمة، وذلك التغيير الذي أظهره البلاء هو التكذيب بالحق عناداً والبعد عما كانوا يدعون من العدل والمشى على مناهيج العقل والاستحياء من العناد، والتنزه من طرق الفساد، هكذا كانت كل أمة أرسلت إليها الرسل تدعي وما عندها من خلاف ذلك مستور في ضمائرها مكنون في سرائرها، لا تعلمه كما تشاهد أكثر من تعاشره، يظن في نفسه ما ليس فيها، وعند الامتحان يكذبه العيان، فلما جاءتهم الرسل وأوضحوا لهم الأمر إيضاحاً ليس معه لبس فكذبوهم، غيروا ما كان في نفوسهم مما كانوا يزعمون؛ ثم كرر قوله: ﴿كذاب آل فرعون﴾ أي فرعون وقومه فإنهم أتباعه فلا يخيل أنهم يفعلون شيئاً إلا وهو قائدهم فيه ﴿والذين من قبلهم﴾ - لدقيقة، وهي أنه قد تقدم أنه ما من أمة إلا ابتليت بالضراء والسراء، فالأولى ينظر إليها مقام الإلهية الناظر إلى العظمة والكبرياء والقهر والانتقام، والثانية ثمرة مقام الربوبية الناشئة عنه التودد والرحمة والرفقة والإكرام، ولذا عبر في الأولى باسم الذات الجامع لجميع الصفات الذي لفظه - عند من يقول باشتقاقه - موضوع لمعنى الإلهية إشارة إلى أنهم أعرضوا في حال الضراء عن التصديق وعاملوا بالتجلد

والإصرار، ولذا عبر في هذه الثانية باسم الرب فقال: ﴿كذبوا﴾ أي عناداً زيادة على تغطية ما دل عليه العقل بالتكذيب بالنقل ﴿بآيت ربهم﴾ فأشار بذلك إلى بطرهم بالنعم وتكذيبهم أنها بسبب دعاء الرسل.

ولما أشار بالتعبير به إلى أنه غرهم معاملته بالعطف والإحسان، قال: ﴿فاهلكنهم﴾ أي جميعاً ﴿بذنوبهم وأغرقنا﴾ فأتى بنون العظمة إشارة إلى أنه أتاهم بما أنساهم ذلك البر ﴿آل فرعون﴾ وإشارة إلى أنهم نسوا أن الرب كما أنه يتصف بالرحمة فلا بد أن يتصف بالعظمة والنقمة وإلا لم تتم ربوبيته، وهذا واضح مما تقدم في الأعراف عن التوراة في شرح ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ [الأعراف: 1٣٣] - إلى آخرها، من أن فرعون كان يسأل موسى عليه السلام عند كل نازلة الدعاء برفعها معتلاً بأن الرب ذو حلم وأناة ورحمة، وقدم الأولى إشارة إلى أنهم بلغوا الغاية في الجرأة، والتعبير فيها بـ ﴿كفروا﴾ يؤيد لذلك، أي أن مجرد الستر للآيات بالإعراض عنها كافٍ في إيجاب الانتقام ولو لم يصرح بتكذيب لعظم المقام، ومادة كفر - بأي ترتيبية كان - تدور على الخلطة المميلة المحيلة، وبخصوص هذا الترتيب تدور على الستر، أي غطوا التصديق بآيات ربهم، ويجوز - وهو الأحسن - أن يكون دورانها - مطلقاً لا بقيد ترتيب - على الفكر، وهو إرسال عين البصيرة في طلب أمر ويلزمه الكشف والستر لأنه تارة يرفع أذيال الشبه عن ذلك الأمر فينجلي ويتحقق، وتارة يسلط قواطع الأدلة عليه فينعدم ويتمحق، وربما أرخى أذيال الشبه عليه فأخفى بعد أن كان جلياً كما كان شمرها عنه فألقى وقد كان خفياً.

ولما أخبر سبحانه بهلاكهم، أخبر بالوصف الجامع لهم بالهلاك فقال: ﴿وكل﴾ أي من هؤلاء ومن تقدمهم من آل فرعون ومن قبلهم ﴿كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ظلمين﴾ أي لأنفسهم وغيرهم واضعين الآيات في غير مواضعها وهم يظنون بأنفسهم العدل؛ ثم علل اتصافهم بالظلم أو استأنف بياناً له بقوله: ﴿إن شر الدواب﴾ أي ظلموا لأنهم كفروا بآيات ربهم الذي تفرد بالإحسان إليهم وشر الدواب ﴿عند الله﴾ أي في حكم الحكم العدل الذي له الأمر كله وفي علمه ﴿الذين كفروا﴾ أي منهم ومن غيرهم، أي حكم عليهم بلزوم الكفر لما ركب فيهم من فساد الأمزجة لعدم الملاءمة للخير، فكانوا بذلك قد نزلوا عن رتبة الإنسان إلى رتبة مطلق الحيوان، ثم إلى دركة الحشرات والديدان بل الجعلان، لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصرين الناكثون للعهود ﴿فهم﴾ أي بسبب ذلك ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا يتجدد منهم إيمان يستمرون عليه لما سبق من علم الله فيهم، فلم يتفعلوا بما أتاهم من صفة الربوبية

فمحققتهم صفة الإلهية، ولعله إنما خص آل فرعون تذكيراً - لأكثر من كان يقول ﴿غَرَّ هؤلاء دينهم﴾ وهم اليهود - بأنهم كانوا بالنسبة إلى فرعون وآله أضعف من الصحابة رضوان الله عليهم بالنسبة إلى قريش وأتباعهم، فإن اليهود مع قتلهم عندهم كانوا قد دانوا لهم بذل العبيد لمواليهم بل أعظم، ومع ذلك فإنهم نصرُوا عليهم لما كان الله معهم، وإعلاماً لهم بأنهم الآن كآل فرعون في العناد مع ما هم فيه من القلة والذلة، فقد جمعوا من كل قوم أخس صفاتهم وأردأ حالاتهم، ولذلك أبدل من عموم ﴿الذين كفروا﴾ ﴿الذين عهدت منهم﴾ وهم اليهود بلا شك، إما بنو قينقاع أو النضير أو قريظة أو الجميع بحسب التوزيع، فكل منهم نقض ما كان أخذ عليه ﷺ من العهود، وأخلف ما كان أكده من الوعود.

ولما كان العهد جديراً بالوفاء ولا سيما من العلماء، عبر بقوله: ﴿ثم ينقضون عهدهم﴾ أي يجددون نقضه كلما لاح لهم خلب برق أو زور بطل يغير في وجه الحق؛ ثم عظم الشناعة عليهم بقوله: ﴿في كل مرة﴾ ثم نبه على رضاهم من رتبة الشرف العلية القدر وهدة السفه والسرف بعدم الخوف من عاقبة الغدر بقوله: ﴿وهم لا يتقون﴾ أي الناس في الذم لهم على ذلك ولا الله في الدنيا بأن يمكن منهم، ولا في الآخرة بأن يخزيهم ثم يركسهم بعد المنادة بالعار في النار.

ولما أياسه من تقواهم بما اشتملوا عليه من تكرير النقض الناشئ عن غاية الحسد وصلابة الرقاب وقساوة القلوب والقساوة على الكفر، أمره بما يوهن قواهم ويحل عراهم من إلباس اليأس بإنزال البأس كما جرت عادته سبحانه أنه يوصيه بالرفق ببعض الناس لعلمه أن عمله يزكو لبنيانه على أحسن أساس، فقال مؤكداً لأجل ما جبل عليه ﷺ من محبة الرفق: ﴿فإما تتقنهم﴾ أي تصادفهم وتظفرن بهم ﴿في الحرب﴾ أي التي من شأنها أن يحرب فيها المبطل، ويربح ويرحب المحق المجمل ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي فنكل بهم تنكيلاً يصدع ويفرق عن محاربتك من وراءهم ممن هو على مثل رأيهم في المنافرة لك ولا تتركهم أصلاً لأن أتباعك أمهر منهم وأحذق، فهم لذلك أثبت وأمكن، فإذا أوقعت بهم ذلك لم يجسر عليك أحد بعده اتعاضاً بهم واعتباراً بحالهم؛ ومادة شرد بكل ترتيب تدور على النفوذ، فإن كان على قصد وسنن فهو رشد ويلزمه الاجتماع، وإن كان على غير سنن وجامع استقامة فهو شرود، ودرشة، أي لجاجة ويلزمه التفرق؛ قال ابن فارس: شرد البعير شروداً وشردت به تشريداً، فأما قوله ﴿فشرد بهم﴾ فالمراد نكل بهم وسمّ، قال القزاز: شردت الرجل تشريداً - إذا طردته، وشردت به - إذا سمّعت به وذكرت عيوبه للناس، وقوله تعالى ﴿فشرد بهم﴾ أي اجعلهم

مطردين - انتهى . فالمراد المبالغة في الإيقاع بهم لأنهم إذا ضربوا ضربة تفرقوا فيها على غير وجه ولا انتظام علم من شردوا إليه ممن وراءهم أنه قد تناهى بهم الذعر فذعر هو وقوع في الشرود قوة أو فعلاً، فعلى قراءة من جعل «من» حرف جر يكون المفعول محذوفاً، والتقدير: أوقع - بما تفعل بهؤلاء من الأمور الهائلة - التشريد في المكان الذي خلفهم بشرود من فيه قوة أو فعلاً بما سمعوا أو رأوا من حال هؤلاء حين واجهوك للقتال، وعلى قراءة من جعلها اسماً موصولاً تكون هي المفعول، فالمعنى: شرد الذين خلفهم من أماكنهم إما بالفعل أو بالقوة بأن تفترق قلوبهم بما تفعل بهؤلاء فتصير - بما ترى من قبيح حالهم - قابلة للشرود، ويكون اختلاف المعنى بالتبويض في جعل «من» حرف جر والتعميم في جعلها موصولاً بالنظر إلى القوة أو الفعل .

ولما ذكر الحكم، ذكر ثمرته بأداة الترجي إدارة له على الرجاء فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي المشردين والمشردين بهم ﴿يَذْكُرُونَ﴾ ما سبق من أيام الله فيعلموا أن هذه أفعاله، وهؤلاء رجاله، فينفعهم ذلك فلا ينقضوا عهداً بعده ولقد فعل بهم ﷺ ذلك فإنهم إن كانوا بني قريظة فقد ضربهم ﷺ ضربة لم يفلت منهم مخبر، بل ضرب أعناقهم في حفائر في سوق المدينة وكانوا نحو سبعمائة على دم واحد. إلا من أسلم منهم وهم يسير، وسبى ذراريهم ونساءهم وغنم أموالهم، وإن كانوا قينقاع فقد نزل بساحتهم بعد نقضهم وإظهارهم غاية الاستخفاف والعناد فلم يكتبهم الله أن جعلهم في قبضته وما بقي إلا ضرب أعناقهم كما وقع لبني قريظة فسأله فيهم عبد الله بن أبي المنافق وألح عليه ﷺ في أمرهم وكان يألفه ويتألف به فتركهم له ﷺ وأجلاهم من المدينة، وكانت واقعتهم أول وقائع اليهود بالمدينة، وإن كانوا بني النضير فقد نقضوا أيضاً فأحاط بهم، ومثاهم المنافقون الغرور فقذف الله الرعب في قلوبهم فسأله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ففعل، ثم أتم الله له الأمر فيهم في خيبر ووادي القرى وغيرهما إلى أن لم يدع منهم في جزيرة العرب فريقاً إلا ضربه بالذل وأجرى عليه الهوان والصغار، ووقائعه فيهم مشهورة الخبر معروفة في السير .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانِذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يَعْرِضُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ۖ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ۚ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ

حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصِرِّهِمْ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾ .

ولما أمره بما يفعل بمن تحقق نقضه، أرشده إلى ما يفعل بمن خاف غدره فقال: ﴿وإما تخافن﴾ وأكدته إشارة إلى ظهور القرائن ووضوح الأمارات ﴿من قوم﴾ أي ذوي قوة، بينك وبينهم عهد ﴿خيانة﴾ أي في ذلك العهد ﴿فانبذ﴾ أي اطرح طرح مستهين محترق ﴿إليهم﴾ أي ذلك العهد نبذاً كائناً ﴿على سواء﴾ أي أمر مستو في العلم بزواله بينكم وبينهم وعدل ونصفة ولا تناجزوهم وهم على توهم من بقاء العهد، وهذا إشارة إلى أن يكونوا على غاية الحذر والفحص عن أخبار العدو بحيث لا يتركونه إلى أن ينقض بل يعلمون ميله إلى النقض فينبذون إليه عهده لأن ذلك أردع له، فهو أدعى إلى السلم؛ ثم علل جواز النبذ ووجوب النصفة بقوله: ﴿إن الله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿لا يحب الخائنين﴾ أي لا يفعل بهم فعل المحب لا منكم ولا من غيركم.

ولما كان نبذ العهد مظنة الخوف من تكثير العدو وإيقاظه، وكان الإيقاع أولى بالخوف، أتبع سبحانه ذلك ما يجري عليه ويسلي عن فوت من هرب من الكفار في غزوة بدر فلم يقتل ولم يؤسر فقال: ﴿ولا يحسبن﴾ بالياء غيباً على قراءة ابن عامر وحمزة وحفص، أي أحد من أتباعك في وقت من الأوقات، ووجه قراءة الباقيين بالخطاب أن أمر الرئيس ونهيه أوقع في نفوس الأتباع وأدعى لهم إلى السماع ﴿الذين كفروا﴾ أي عامة من نبذ ومن لم ينبذ ﴿سبقوا﴾ أي وقع لهم سبق، وهو الظفر في وقت ما، فإنهم لم يفوتوا شيئاً من أوامرنا؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنهم لا يعجزون﴾ أي لا يفوتون شيئاً مما يزيد تسليطه عليهم، أي لا يغرنك علوهم وكثرتهم وجرى كثير من الأمور على مرادهم فكل ذلك بتدبيرنا، ولا يخرج شيء عن مرادنا، ولا بد أن نهلكهم فإنهم في قبضتنا، لم يخرجوا منها ولا يخرجون فضلاً عن أن يفوتوها فاصبر.

ولما كان هذا ربما أدى إلى ترك المناصبة والمحاربة والمغالبة اعتماداً على الوعد الصادق المؤيد بما وقع لهم في بدر من عظيم النصر مع نقص العدة والعدة، أتبعه ما يبين أن اللازم ربط الأسباب بمسبباتها، وليتبين الصادق في دعوى الإيمان من غيره فقال: ﴿وأعدوا لهم﴾ أي للأعداء ﴿ما استطعتم﴾ أي دخل في طاعتكم وكان بقوة جهدكم تحت مقدوركم وطاقتكم ﴿من قوة﴾ أي قوة كانت، وفسرها النبي ﷺ بالرمي إشارة إلى أنه أعظم عدده على نحو «الحج عرفة»^(١) وفي أمرهم بقوله: ﴿ومن رباط

(١) أخرجه أبو داود ١٩٤٩ والترمذي ٨٨٩ والنسائي ٢٦٤/٥ - ٢٦٥ وابن ماجه ٣٠١٥ وابن حبان ٣٨٩٣ =

الخيل﴾ إيماء إلى باب من الامتتان بالنصر في بدر لأنهم لم يكن معهم فيه غير فرسين، والرباط هو الخيل التي تربط في سبيل الله الخمس منها فما فوقها، وخصها مع دخولها فيما قبل إشارة إلى عظيم غنائها، والرباط أيضاً ملازمة نحر العدو وربط الخيل به إعداداً للعدو؛ ثم أجاب من كأنه قال: لم نفعل ذلك وما النصر إلا بيدك؟ بقوله: ﴿ترهبون﴾ أي تخوفون تخويفاً عظيماً باهراً يؤدي إلى الهرب على ما أجريت من العوائد ﴿به﴾ أي بذلك الذي أمرتكم به من المستطاع أو من الرباط ﴿عدو الله﴾ أي الذي له العظمة كلها لأنه الملك الأعلى ﴿وعدوكم﴾ أي المجاهدين، والأليق بقوله -: ﴿وآخرين﴾ أي وترهبون بذلك آخرين ﴿من دونهم﴾ - أي يحمل على المنافقين لوصفهم بقوله: ﴿لا تعلمونهم﴾ كما قال تعالى ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم﴾ [التوبة: ١٠١] ولأنهم لا يكونون دونهم إلا إذا لم يكونوا في العداوة مثلهم، وكل من فرض غير المنافقين مظهرين للعداوة، وأما المنافقون فإنهم مدعون بإظهار الإسلام أنهم أولياء لا أعداء ﴿الله﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿يعلمهم﴾ أي فهو يكفيكم ما يظن من أمرهم، وليس عليكم إلا الجهد بحسب ما تعلمون، والآية بالنسبة إلى ما تقدمها من باب «اعقلها وتوكل»^(١) والمعنى لا تظنوا أن الكفار فاتونا وأفلتوا من عذابنا بامتناعهم منكم فإنهم في قبضتنا أينما توجهوا وحيثما حلوا فسوف نهلكهم ولا يعجزوننا، ومع ذلك فلا يحملنكم الاتكال على قوتنا على ترك أسباب مغالبتهم بما أعطيناكم من القوى بل ابذلوا جهدكم وطاقتكم في إعداد مكاييد الحرب وما يتعلق بالرمي من القوة وبالخيل من الطعن والضرب والفروسية لنلقي بذلك رعبكم في قلوب عدوكم القريب والبعيد من تعلمونه منهم ومن لا تعلمونه.

ولما كان أغلب معاني هذه الآية الإنفاق، لأن مبنى إعداد القوة عليه، رغب فيه بقوله: ﴿وما تنفقوا من شيء﴾ أي من الأشياء وإن قلَّ ﴿في سبيل الله﴾ أي طريق من له صفات الكمال من الجهاد وغيره ﴿يوف إليكم﴾ أي أجره كاملاً في الدنيا والآخرة أوفى ما يكون مضاعفاً أحوج ما تكونون إليه ﴿وأنتم لا﴾.

= والحاكم ٢/٢٧٨ و ١/٤٦٤ والبيهقي ٥/١٥٢ و ١٧٣ وأحمد ٤/٣٠٩ - ٣١٠ من حديث عبد الرحمن بن يعمر. صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: قال ابن عيينة هذا أجود حديث رواه الثوري اه.

(١) أخرجه الترمذي ٢٥١٧ من حديث أنس، وقال: هذا حديث غريب اه. وله شاهد من حديث عمرو ابن أمية الضمري أخرجه ابن حبان ٧٣١ والحاكم ٣/٦٢٣ والطبراني كما في المجمع ١٠/٣٠٣ قال الذهبي: سنده جيد. وقال الهيثمي: رواه الطبراني من طرق، ورجال أحدها رجال الصحيح غير يعقوب بن عبد الله بن عمرو بن أمية، وهو ثقة اه.

ولما كان المخوف مطلق النقص، بنى للمفعول قوله: ﴿تظلمون﴾ أي لا تقصون شيئاً منه، وأما الزيادة فلا بد منها وهي على قدر النية.

ولما كان ضمان النصر والحلف في النفقة موجباً لدوام المصادمة والبعد من المسالمة، أتبعه قوله أمراً بالاقتصاد: ﴿وإن جنحوا﴾ أي مالوا وأقبلوا في نشاط وطلب حازم ﴿للسلم﴾ أي المصالحة، والتعبير باللام دون «إلى» لا يخلو عن إيماء إلى التهلك على ذلك ليتحقق صدق الميل ﴿فاجنح﴾ ولما كان السلم مذكراً يجوز تأنيثه، قال: ﴿لها﴾ أي المصالحة، أو يكون تأنيثه بتأنيث ضده الحرب، وكأنه اختير التأنيث إشارة إلى أنه يقتصر فيه على أقل ما يمكن من المدة بحسب الحاجة، هذا إذا كان الصلاح للمسلمين في ذلك بأن يكون بهم ضعف، وأقصى مدة الجواز عشر سنين اقتداء برسول الله ﷺ فلا تجوز الزيادة.

ولما كان ذلك مظنة أن يقال: إنه قد عهد منهم من الخداع ما أعلم أنهم مطبوعون منه على ما لا يؤمنون معه فمسالمتهم خطر بغير نفع، لوح إلى ما ينافي ذلك بقوله: ﴿وتوكل على الله﴾ أي الذي له مجامع العظمة فيما تعهده من خداعهم فإنه يكفيك أمره ويجعله سبباً لدمارهم كما وقع في صلح الحديبية فإن غدرهم فيه كان سبب الفتح، وحرف الاستعلاء في هذا وأمثاله معلم بأنه يفعل مع المتوكل فعل الحامل لما وكل إليه المطبق لحمله؛ ثم علل الأمر بالتوكل الذي معناه عدم الخوف من عاقبة أمرهم في ذلك بقوله: ﴿إنه هو﴾ أي وحده ﴿السميع﴾ أي البالغ السمع، فهو يسمع كل ما أبرموه في ذلك وغيره سراً كما يسمعه علانية ﴿العليم﴾ أي البالغ العلم وحده فهو يعلم كل ما أخفوه كما أنه يعلم ما أعلنوه؛ ثم صرح بالاستهانة بكيدهم فقال: ﴿وإن يريدوا﴾ أي الكفار ﴿أن يخذعوك﴾ أي بما يوقعون من الصلح أو بغيره ﴿فإن حسبك﴾ أي كافيك ﴿الله﴾ أي الذي له صفات العز كلها، ثم علل كفايته أو استأنف بيانها بقوله: ﴿هو﴾ أي وحده ﴿الذي أيدك بنصره﴾ أي إذ كنت وحدك ﴿وبالمؤمنين﴾ أي بعد ذلك في هذه الغزوة التي كانت العادة قاضية فيها بأن من معك لا يقومون للكفار فواق ناقة، ولعل هذا تذكير بما كان من الحال في أول الإسلام، أي إن الذي أرسلك مع وحدتك في مكة بين جميع الكفار وغربتك فيهم - وإن كانوا بني عمك - بسبب دعوتك إلى هذا الدين وعلوك عن أحوالهم البهيمية إلى الأخلاق الملكية، هو الذي قواك وحده بالنصر عليهم حتى لم يقدروا لك على أذى يردك عن الدعاء إلى الله مع نصب جميعهم لك ولمتبئيك شباك الغدر ومدهم إليكم أيدي الكيد ثم سلّمكم من بين أظهرهم كما تسل الشعرة من العجين مع اجتهادهم في منعكم من ذلك، وأيدكم بالأنصار وجمع بين كلمتهم بعد شديد

العداوة ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعد غاية التباغض، فصار البعيد منهم قريباً والبغض حبيباً والعدو صديقاً، وكانوا على قلب واحد؛ ثم استأنف الإخبار بما دل على تعذر ألفتهم لولا هو فقال: ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ﴾ أي وأنت أتقن الخلق لما تصنعه ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ أي في إرادة ذلك ﴿مَا أَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ أي وهو الذي له جميع صفات الكمال ﴿أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ ثم علل نفوذ فعله وأمره فيه بقوله: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي لأنه لولا عزته التي تغلب كل شيء ولا يغلبها شيء وحكمته التي يتقن بها ما أراد بحيث لا يمكن لأحد أن يغير شيئاً منه لما تألفوا بعد أن كان قبل كل أحد من فريقهم للآخر أشهى من لذيد الحياة وصافي العيش لما بينهم من الإحن التي لا تزال تثور فتغلي لها الصدور حتى تفور بقتل الأحباب من الوالدين والأولاد والقهر بأنواع الأذى مع المجاورة المقتضية لدوام التحاسد وإثارة الضغائن، وكذا فعل سبحانه بجميع العرب بعدما كان بينهم من القتل المنتشر مع ما لهم من الحمية والأنفة الحاملة على الانتقام. والذي أمدك بهذه الألفاظ حي لا يموت باق على ما كان عليه من القدرة والقوة، فهو الكفيل بحراستك ممن يريد خداعك، فإذا أمركم بأمر فامتثلوه غير مفكرين في عاقبته، فإنه قد بينه بعزته وأتقنه بحكمته وستعلمون.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُبْخِزَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ .

ولما صرح بأن الله كافيه، وكانت كفاية الله للعبد أعظم المقاصد، التفتت الأنفس إلى أنه هل يكفيه مطلقاً أو هو فعل مع المؤمنين أيضاً مثل ذلك، فأتبعها بقوله معبراً بوصف النبوة الذي معناه الرفعة والاطلاع من جهة الله على ما لا يعلمه العباد، لأنه في سياق الإخبار ببعض المغيبات والتصرف في الملكوت: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ أي العالي القدر الذي نعلمه بعواقب أموره ﴿حسبك﴾ أي كافيك ﴿الله﴾ أي الذي بيده كل شيء ﴿ومن﴾ أي مع من ﴿اتبعتك من المؤمنين﴾ * يجوز أن يكون المعية من ضميره ﷺ فيكون المؤمنون مكفيين، وأن يكون من الجلالة فيكونوا كافين، حتى يكون المعنى: فهو كافيهم أيضاً وهم كافوك لأنه معهم، وساق سبحانه هذا هكذا تطيباً لقلوبهم وجبراً

لخواطرهم وبالمعنى الثاني - لتضمنه الأول وزيادته عليه - قال ابن زيد والشعبي: حسبك الله وحسبك من اتبعك، وساقها سبحانه على وجه مكرر لكفاية نبيه ﷺ محتمل لأن فيمن كان على اتباعه في ذلك الوقت كفاية لثلاثا يستقلوا بالنسبة إلى كثرة أعدائهم.

ولما بين أنهم كافون مكفيون، وكان ذلك مشروطاً بفعل الكيس والحزم وهو الاجتهاد بحسب الطاقة، أمره بأن يأمرهم بما يكونون به كافين من الجد في القتال وعدم الهيبة للأبطال في حال من الأحوال، فقال معبراً بالوصف الناظر إلى جهة التلقي عن الله ليشتد وثوق السامع لما يسمعه: ﴿يأيها النبي﴾ أي الرفيع المنزلة عندنا الممنوح من إخبارنا بكل ما يقر عينه وعين أتباعه ﴿حرض المؤمنين﴾ أي الغريقين في الإيمان ﴿على القتال﴾ أي بالغ في حثهم عليه وندبهم بكل سبيل إليه، ومادة حرض - بأي ترتيب كان - حرض، حضر، رخص، رضح، ضرح؛ ترجع إلى الحضور ويلزمه الخفض والدعة، ويلزم الكسل فيلزمه الضعف فيلزمه الفساد، ومنه الحرض الذي أشفى على الهلاك، أي حضر هلاكه وحضر هو موضعه الذي هو فيه فصار لما به لا يزياله ما دام حياً، ورحض الثوب، أي غسله، من الدعة التي هي شأن الحضور غير المسافرين، والرحضاء عرق الحمى تشبيهه بالمغسول، والمرضاح الحجر الذي لا يزال حاضراً لرضح النوى، والضريح شق مستطيل يوضع فيه الميت فيكون حاضره لازماً له دائماً إلى الوقت المعلوم، ويلزمه الرمي والطول، ومنه المضرحي للطويل الجناحين من الصقور لأن كل صيد عنده حاضر لقوة طيرانه، والرجل الكريم لعلو همته، وأحضرت الدابة: عدت فجعلت الغائب حاضراً، والتحريض الحث على حضور الشيء، فحرض على القتال: حث على الطيران إليه بتعاطي أسبابه والاستعداد لحضوره حتى يصير المحثوث كأنه حاضر، متى قيل: يا صباحاه! طار إلى المنادي، وكان أول حاضر إلى النادي، لأنه لا مانع له من شيء من الأشياء بل استعداده استعداد الحاضر في الصف؛ وقال الإمام أبو الحسن علي بن عيسى الرماني في تفسيره: والتحريض: الدعاء الوكيد لتحريك النفس على أمر من الأمور، والحث والتحريض والتحريض نظائر، ونقيضه التقسير، والتحريض ترغيب في الفعل بما يبعث على المبادرة إليه مع الصبر عليه - انتهى. فهذه حقيقته، لا ما قال في الكشاف وتبعه عليه البيضاوي.

ولما ندبهم إلى القتال، أعلمهم بأنهم منصورون فيه إن لازموا آلة النصر، فقال استثناءً جواباً لمن قال: ما عاقبتهم إذا رغبوا فبادروا إلى ذلك؟: ﴿إن يكن﴾ ولما كانت لذة الخطاب تثير الهمم وتبعث العزائم وتوجب غاية الوثوق بالوعد، عدل عن الغيبة فقال: ﴿منكم عشرون﴾ أي رجلاً: ﴿صبرون﴾ أي الصبر المتقدم ﴿يغلبوا مائتين﴾ أي

من الكفار، والآية من الوعد الصادق الذي حققه وقائع الصحابة رضي الله عنهم ﴿وإن يكن منكم مائة﴾ أي صابرة ﴿يغلبوا ألفاً﴾ أي كائنين ﴿من الذين كفروا﴾ فالآية من الاحتباك: أثبت في الأول وصف الصبر دليلاً على حذفه ثانياً، وفي الثاني الكفر دليلاً على حذفه أولاً؛ ولعل ما أوجبه عليهم من هذه المصابرة علة للأمر بالتحريض، أي حرصهم لأنني أعنت كلاً منهم على عشرة، فلا عذر لهم في التواني؛ وعلل علوهم عليهم وغلبتهم لهم على هذا الوجه بقوله: ﴿بأنهم﴾ أي هذا الذي أوجبته ووعدت بالنصر عنده بسبب أنهم، أي الكفار ﴿قوم لا يفقهون﴾ أي ليس لهم فقه يعلمون به علم الحرب الذي دربه أهل الإيمان وإن كنتم ترونهم أقوياء الأبدان فيهم كفاية للقيام بما ينوبهم من أمر الدنيا لأنهم أبدان بغير معان، كما أن الدنيا كذلك صورة بلا روح، لأنهم لم يبنوا مصادمتهم على تلك الدعائم الخمس التي قدمتها لكم وأهمتكم إياها في بدر، فمن لم يجمعها لم يفقه الحرب، لأن الجيش إن لم يكن له رئيس يرجع إليه لم يفلح، وذلك الرئيس إن لم يكن أمره مستنداً إلى ملك الملوك كان قلبه ضعيفاً، وعزمه - وإن كثرت جموعه - مضطرباً، فإنهم يكونون صوراً لا معاني لها، والصور منفعة لا فعالة، والمعاني هي الفعالة، والمعتمد على الله صورته مقترنة بالمعنى، فأقل ما يكون في مقابلة اثنين من أعدائه كما حط عليه الأمر في الجهاد، ولعل هذا هو السر في انتصار الخوارج - من أتباع شيبب وأنظاره على قتلهم - على الجيوش التي كانوا يلقونها عن ملوك زمانهم على كثرتها، فإن الخوارج معتقدون أن قتالهم لله مستندين في هذا الاعتقاد إلى ظلم أولئك الملوك وخروجهم عن أمر الله، والذين يلقونها عن أولئك الملوك وإن اعتقدوا أنهم أهل طاعة لطاعتهم الإمام الواجب طاعته، لكنهم يعلمون أن استناد إمامهم إلى الله ضعيف لمخالفته لمنهاج الاستقامة، وذلك الرئيس نفسه معتقد ذلك وأن ولايته مفسدة، وأن تحريم النبي ﷺ لقتاله إنما هو درء لأعظم المفسدتين، فصار استناد الخوارج إلى ملك الملوك أعظم من استناد أولئك، ولهذا نشأ عن استناد الخوارج الزهد الذي هو أعظم أسباب النصر، ونشأ عن استناد أولئك الملوك الإخلاق إلى الدنيا الذي هو أعظم الموجبات للخذلان، مصداق ذلك أنهم لما خرجوا على علي رضي الله عنه فسار فيهم بسنة الله من اللطف بهم وتقدير وعظهم والإعذار إليهم وردهم إلى الله فلما لم يقبلوا قصدهم في ساعة، قال له بعض من كان يعتني بالنجوم: إنها ساعة نحس، إن سار فيها حذل، فقال: سيروا فيها فإنه ما كان للنبي ﷺ منجمون، فلما لقي الخوارج لم يواقفوه حلب ناقة ولا أفلت منهم أحد ولا قتل من جماعته إنسان؛ وفهم الإيجاب في قوله تعالى ﴿إن يكن منكم عشرون﴾ - الآية وأن الخبر فيه بمعنى الأمر من قوله: ﴿الآن

خفف الله ﴿أي الملك الذي له الغنى المطلق وجميع صفات الكمال﴾ عنكم ﴿أي رحمة لكم ورفقاً بكم﴾ وعلم ﴿أي قبل التخفيف وبعده﴾ أن فيكم ضعفاً ﴿أي في العدد والعدد، ولكنه أوجب عليكم ذلك ابتلاء، فبعد التخفيف علم ضعفهم واقعاً وقبله علم أنه سيقع، وتصديره هذه الجملة بـ﴾ الآن ﴿يشير إلى أن النسخ كان قبل أن تمضي مدة يمكن فيها غزو، وفائدة الأمر المعقب بالنسخ حيازة الأجر بقبوله والعزم على امتثاله، وقيل: ما كان النسخ إلا بعد مدة بعد أن سألوا في التخفيف؛ وروى البخاري في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ - الآية؛ فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. والمعنى أنه كان كتب مقداراً من الصبر لكل مؤمن، فلما خفف أزال ذلك بالنسبة إلى المجموع، وهذا لا يمنع استمرار البعض على ما كان كما فعل سبحانه بالصحابة رضوان الله عليهم في غير موضع منها غزوة مؤتة، فقد كانوا فيها ثلاثة آلاف، وكان من لقوا من جموع هرقل مائتي ألف: مائة من الروم ومائة من العرب المستنصرة، فصبروا لهم ونصروا عليهم كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال مخبراً عنهم في هذه الغزوة «ثم أخذ الراية عن غير إمرة سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه»^(١). ولما توفي النبي ﷺ ارتد عامة الناس حتى لم يثبت على الإسلام عشر العشر فصبر الصحابة رضوان الله عليهم لهم ونصروا عليهم، بل الذي صبر في الحقيقة أبو بكر رضي الله عنه وحده، ثم أفاض الله من صبره ونوره على جميع الصحابة رضي الله عنهم فصبروا، ثم جهز الجيش وأميرهم الذي سماه النبي ﷺ سيف الله، فأخمد الله به نار الشرك وقطع بصبره وحسن نيته جاذرة الكفر فلم تمض سنة وفي بلاد العرب مشرك. فلما جمع الله العرب بهذا الدين على قلب رجل واحد قصدوا الأعاجم من الفرس والروم والقبط، فقاتلوا أهل فارس في عدة وقائع منها القادسية، وكان الصحابة رضي الله عنهم فيها دون أربعين ألفاً، وكان المجوس أكثر من أربعمائة ألف، وقاتلوا الروم كذلك فكانوا في اليرموك دون أربعين ألفاً وكان الروم نحو أربعمائة ألف - إلى غير ذلك من الوقائع وقد صبروا في أكثرها ونصروا، ثم كانت لهم العاقبة فطردوا الشرك وأهله، وأظهر الله لهم دينه كما وعد به سبحانه، وما اجتمع أهل الإسلام وأهل الضلال قط في معرك إلا كانت قتلى الكفار أضعاف قتلى المسلمين غير أن الله تعالى جده وتبارك اسمه وتمت كلمته ألطف بالعرب علماً منه بأنهم خلاصة الناس بما طبعهم

(١) أخرجه البخاري ٣٧٥٧ من حديث أنس.

سبحانه عليه من الخصال الحميدة والأخلاق السديدة فأسلم كل من اشتملت عليه جزيرتهم بعد وقائع كثيرة في زمان النبي ﷺ وزمان الردة، ولم تبلغ قتلهم فيما أظن عشرة آلاف إنسان، ثم لما جاهدوا الأعاجم من فارس والروم وغيرهم كانت قتلى الكفار تبلغ في المعركة الواحدة مائة ألف ومائتي ألف - كما هو مشهور في كتب الفتوح للمدائني وسيف وابن عبد الحكم والبلاذري وغيرهم، وقد جمع أشتات ذلك الحافظ أبو الربيع بن سالم الكلاعي وشيخه ابن حبيش؛ ولعله حذف في الثانية التقييد بالكفار ليشمل كل من استحق القتال من البغاة وغيرهم، فقال تعالى مسيياً عن التخفيف المذكور راداً الأمر من إيجاب مصابرة عشرة إلى الأمر بمصابرة الضعف، فإن زاد العدد على الضعف جاز الفرار والصبر أحسن: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة﴾ أي الصبر الذي تقدم التنبيه عليه ﴿يغلبوا مائتين﴾ أي من غيركم بإذن الله ﴿وإن يكن منكم ألف﴾ أي على النعت المذكور وهو الصبر ﴿يغلبوا ألفين﴾ ثم أرشد إلى أن المراد بالصبر هو كل المأمور به في آية ﴿إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾ [الأنفال: ٤٥] فقال: ﴿بإذن الله﴾ أي بإرادة الذي له جميع الأمر، ذلك وإباحته لكم وتمكينه، فإن لم يقع الإذن لم يقع الظفر، فالآية من الاحتياك: ذكر في الأول صابرة دلالة على حذفه ثانياً، وذكر ثانياً الإذن دليلاً على حذفه أولاً؛ ثم نبه على عموم الحكم بقوله: ﴿والله﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿مع الصابرين﴾ أي بنصره ومعونته، ومن ثم قال ابن شبرمة: وأنا أرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك. ومادة «إذن» - مهموزة وغير مهموزة وواوية ويائية بتقاليبها الأربعة: إذن ذان ذون ذين - ترجع إلى العلم الناشئ عن حاسة السمع المتعلق بجراحة الأذن، وتارة يثمر الإباحة وتارة المنع، فأذن بالشيء - كسمع: علم به «فأذنا بحرب» أي كونوا على علم من أن حربكم أبيح. وأذن له بالشيء - كسمع أيضاً: أباحه له، وأذنه الأمر وبه: أعلمه - وزناً ومعنى، فجعله مباحاً له أو ممنوعاً منه، وأذن فلاناً تأذينا: عرك أذنه، وأذنه: رده عن الشرب فلم يسقه، كأن التفعيل فيه للإزالة، وأذن النعل وغيرها: جعل لها أذناً، وفعله بإذني: بعلمي وتمكيني، وأذن إليه وله - كفرح: استمع بأذنه، أي أباح ذلك سمعه وقلبه، وأذن لراتحة الطعام: اشتهاه كأنه أباحه لنفسه، وأذنه إيذاناً: أعجبه، مثل ذلك سواء، وأذنه أيضاً: منعه، كأنه الهمزة للإزالة، والأذن: الجارحة المعروفة - بضمه وبضميتين - والمقبض والعروة من كل شيء وجبل، لأن كلاً من ذلك سبب للتمكن من حمل ما هو فيه، والأذن: الرجل المستمع القابل كل ما يقال له كأنه لما قبله أباحه قلبه ومكنه منه، والأذان: النداء إلى الصلاة لأنه إعلام بإباحتها والمكنة منها، وتأذن: أقسم وأعلم، وتارة يتأثر عنه إباحة ومكنة من الشيء وتارة منع

وحرمة، فيكون من الإزالة، وآذن العشب: بدأ يجف فبعضه رطب وبعضه يابس كأنه أمكن من جره وجمعه يبدو صلاحه، والآذن: الحاجب، لأنه للتمكين والمنع، والأذنة محركة: صغار الإبل والغنم كأنها تبيح كل أحد ما يريد منها، وطعام لا أذنة له: لا شهوة لريحه، فكأنه ممنوع منه لعدم اشتهاه، وتأذن الأمير في الناس: نادى فيهم بتهدد، فهو يرجع إلى المنع والزجر عن شيء تعزيراً، والذين - بالكسر والياء: العنب، وكذا الذان - بالألف منقلبة عن واو: العنب، كأنه لسهولة تناوله ولذة مطعمه أمكن من نفسه، والتذون - بالواو مشددة: الغنى والنعمة، كأنهما سبب للإمكان مما يشتهي، والذونون - مهموزاً كزنبور: نبت من نبات الأرض؛ والمعنى أنه إنما أذن لكم في ذلك إذا فعلتم الشرط المذكور لأنكم فقهتم على الحرب وبنيتم أمركم فيه على دعائمها الخمس التي ملاكها والداخل في كل منها الصبر، فكان الله معكم، وهو مع كل صابر هذا الصبر المثبت في الدعائم الخمس في كل أوان، ومما يسأل عنه في الآية أنه ابتدء في العشرات بثاني عقودها، وفي المئات والآلاف بأولها. سألت شيخنا الإمام الراسخ محقق زمانه شمس الدين محمد بن علي القاياتي قاضي الشافعية بالديار المصرية: ما حكمته؟ فقال: الأصل الابتداء بأول العقود، لكن لو قيل: إن يكن منكم عشرة صابرة يغلبوا مائة، لربما توهم أنه لا تجب مصابرة الواحد للعشرة إلا عند بلوغ المؤمنين هذا العقد، فعدل إلى الابتداء بثاني عقود هذه المرتبة لينتفي هذا المحذور، فلما انتفى وعلم أنه يجب مصابرة كل واحد لعشرة، ذكر باقي المراتب في الباقي على الأصل المعتاد، وأما تكرير المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين: قبل التخفيف وبعده فللدلالة - كما قال في الكشاف - على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت وإن كان قد يظن تفاوته، وكأنه لم يذكر الآحاد بشارة بكثرة هذه الأمة واجتماعها وبدأ بالعشرات وختم بالألوف ليستوفي مراتب الأعداد الأصلية - والله أعلم.

ولما تقدم الأمر بالإثخان في ﴿فشرذ بهم﴾ ثم بإعداد القوة، ثم التحريض على القتال بعد الإعلام بالكفاية ثم إيجاب ثبات الواحد لعشرة ثم إنزال التخفيف إلى اثنين؛ كان ذلك مقتضياً للإمعان في الإثخان، فحسن عتاب الأحاب في اختيار غير ما أفهمه هذا الخطاب، لكون ذلك أقعد في الامتحان عليهم بالعمو والغفران بسبب أن أكثرهم مال إلى فداء الأسارى فإن النبي ﷺ استشارهم فيهم فأشار أبو بكر رضي الله عنه بالمفاداة ومال معه الأكثر، وأشار عمر رضي الله عنه بضرب أعناقهم، وروي أنه قال ﷺ: «لو نزل من السماء عذاب - أي في هذا - ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ»^(١) رضي الله

(١) أخرجه البخاري ٤٢٦٢ من حديث أنس.

عنهما. فقال تعالى استئنافاً واستنتاجاً: ﴿ما كان﴾ أي ما صح وما استقام ﴿لنبي﴾ أي في شرع نبي من الأنبياء مستقل ولا مقرر، ولعله عبر بوصف النبوة ليفيد مع العموم أن كلاً من رفعة القدر والإخبار من الله يمنع من الإقدام على فعل بدون إذن خاص ﴿أن يكون له أسرى﴾ أي أن يباح له أسر العدو ﴿حتى يشخن في الأرض﴾ أي يبالغ في قتل أعدائه، فهو عتاب لمن أسر من الصحابة غير من نهى النبي ﷺ عن قتله من المشركين أو رضي بذلك، وإنما أسند إلى نبي - وقرئ شاذاً بالتعريف - ولم يقل: ما كان في شرع نبي، تهويلاً للأسر تعظيماً للعفو للمبالغة في القيام بالشكر، وهذا كان يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله سبحانه وتعالى ﴿فإما متاً بعد وإما فداء﴾ [محمد: ٤] قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومادة ثخن تدور على الضخامة، وتارة يلزمها اللين والضعف، وتارة الصلابة والقوة، فحقيقته: يبالغ في القتل فيغلظ أمره فيقوى، ويلين له أعداؤه ويضعفوا؛ ثم بين لهم أن الميل عن ذلك إنما هو لإرادة الأعراض الدنيوية المبكت به اليهود في آخر التي قبلها بقوله تعالى ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ [الأعراف: ١٦٩] كما أن النزاع في الأنفال ميل إلى الدنيا، وكل ذلك بمعزل عن معالي الأخلاق وكرائم السجايا، معللاً لعدم الكون المذكور بما تقديره: لأن الأسر إنما يراد به الدنيا، هكذا الأصل ولكنه أبرز في أسلوب الخطاب لأنه أوقع في النفس فقال: ﴿تريدون﴾ أي أيها المؤمنون المرغبون في الإنفاق لا في الجمع، باستبقائهم ﴿عرض الدنيا﴾ قال الراغب: العرض ما لا ثبات له، ومنه استعاره المتكلمون لما لا ثبات له إلا بالجواهر كاللون، وقال ابن هشام في تهذيب السيرة: أي المتاع الفداء بأخذ الرجال ﴿والله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿يريد﴾ أي لكم ﴿الآخرة﴾ أي جوهرها لأنه يأمر بذلك أمراً هو في تأكيده ليمثل كالإرادة التي لا يتخلف مرادها، وذلك بالإثخان في قتلهم لظهور الدين الذي تريدون إظهاره والذي به تدرك الآخرة، ولا ينبغي للمحب أن يريد إلا ما يريد حبيبه ﴿والله﴾ أي الملك الأعظم ﴿عزيز﴾ أي منزه جنبه العلي عن لحاق شيء مما فيه أدنى سفول ﴿حكيم﴾ أي لا يصدر عنه فعل إلا وهو في غاية الإتيان فهو يأمر بالإثخان عند ظهور قوة المشركين، فإذا ضعفت وقوي المسلمون فأنتم بالخيار، ولا يصح ادعاء ولايته إلا لمن ترقى في معارج صفاته، فيكون عزيزاً في نفسه فلا يندسها بالأطماع الفانية، وفعله فلا يحطه عن أوج المعالي إلى حضيض المهاوي، وحكياً فلا ينشأ عنه فعل إلا وهو في غاية الإتيان.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ

الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ .

ولما علم من الآية ما أشرت إليه، فكان كأنهم قالوا رضي الله عنهم: تقتضي عزته وحكمته سبحانه من تطهيرنا عما تدنسنا به؟ استأنف تعالى الجواب عن ذلك ممتناً غاية لامتنان ومحذراً من التعرض لمواقع الخسران فقال: ﴿لولا كتب﴾ أي قضاء حتم ثابت مبرم ﴿من الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء قدرة وعلماً ﴿سبق﴾ أي في أم الكتاب من الحكم بإسعادكم، ومن أنه لا يعذب أحداً إلا بعد التقدم إليه بالنهي، ومن أنه سيحل لكم الفداء والغنائم التي كانت حراماً على من قبلكم تشريفاً لكم - كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما ﴿لمسكم فيما أخذتم﴾ أي من الأسرى المراد بهم الفداء ﴿عذاب عظيم﴾ ولكن سبق حكمي بأن المغنم - ولو بالفداء - لكم حل وإن تعجلتم فيه أمري.

ولما ساق سبحانه هذه البشارة في النذارة، سبب عنها قوله: ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ أي من الفدية وغيرها حال كونه ﴿حلالاً﴾ أي لا درك ولا تبعة فيه من جهتي ﴿طيباً﴾ أي شهياً لكم ملائماً لطباعكم، وهذا إذا كان مع الشروط التي أقمتموها لكم من عدم الغلول والخيانة بوجه من الوجوه والاستئثار وشديد الرغبة السائقة إلى ما لا يليق من التنازع وغيره، ذلك فيما تقدمت فيه إليكم ﴿واتقوا الله﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال في جميع ذلك فلا تغلوا ولا تنازعوا ولا تقدموا إلا على ما يبيحه لكم الرسول ﷺ ﴿إن الله﴾ أي المتصف بالجلال والإكرام ﴿غفور﴾ أي لمن يعلم من قلبه أنه من أهل التقوى ﴿رحيم﴾ أي له، فلاجل ما علم في قلوبكم من الخير غفر لكم فلم يعذبكم بتسرعكم إلى إيسار من لم يأمركم به الرسول ﷺ للمفاداة دون توقف على إذنه، ورحمكم فأحسن إليكم فأحل لكم الغنائم، انظر إلى قوله تعالى ﴿ان تقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم﴾ تعرف حسن تعليل الأمر بالتقوى بالمغفرة والرحمة، ويجوز أن يكون علة للأكل، أي كلوا فإن الله قد غفر لكم ما عاتبكم عليه، وفائدة الأمر بالتقوى التحذير من العود اعتماداً على سعة الحلم، وأيضاً فقد تقدم تهديد ومغفرة فناسب أن يدلهم على أن علة المغفرة التقوى، فكان ترجمة ذلك أنه لما رهبهم بمس العذاب عند أخذ الفداء لولا سبق الكتاب، رغبتهم بأنه كلما صدهم عن جنابه صارف ذنب فردهم إليه عاطف تقوى، أسبل عليهم ذيل المغفرة والرحمة، ولما علم من هذا إباحة ما يؤخذ من الأسر من الفداء، وكان ما يؤخذ منهم تعظم مشقته عليهم،

أقبل عليهم مستعطفاً لهم ترغيباً في الإسلام، فأقبل على نبيه ﷺ بالأمر بمخاطبتهم تنبيهاً على أنهم ليسوا بأهل لخطابه سبحانه بما أبعدوا أنفسهم عنه من اختيارهم الكون في زمرة الأعداء على الكون في عداد الأولياء، فقال معبراً بالوصف الناظر إلى تلقي العلم ترغيباً في التلقي منه ﷺ: ﴿يأيها النبي﴾ أي الذي أنبئه بكل معنى جليل، يظهر دينه ويزكي أمته مع رفع مقداره وإتمام أنواره ﴿قل لمن في أيديكم﴾ أي في أيدي أصحابك وأهل دينك، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿من الأسارى﴾ ترغيباً لهم فيما عند الله ﴿إن يعلم الله﴾ بما له من صفات الجلال والجمال ﴿في قلوبكم خيراً﴾ أي شيئاً من تقواه الحاملة على الإيمان الذي هو رأس الخير وعلى كل خير ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي مما يفتح به عليكم من المغنم في الدنيا ويدخره لكم من الثواب في الآخرة ﴿ويغفر لكم﴾ أي ما سلف من ذنوبكم ﴿والله﴾ أي الذي بيده كل شيء ﴿غفور رحيم﴾ أي من شأنه ذلك، والمعنى على ما علم من قصة العباس الآتية رضي الله عنه أنه سبحانه يعاملكم وأمثالكم في غير ما يأخذ منكم جنده بالكرم، وأما إنه يحكم بإسقاط الفداء عنكم ويأمرهم بتركه وإطلاقكم مجاناً بما يعلم في قلوبكم من خير وإيمان كنتم تكتمونونه فلا تظمعو فيه لأن ذلك يفتح باب الدعاوى الباطلة المانعة من الغنائم الموهنة للدين؛ قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في سيرته: قال ابن عباس وسعيد بن المسيب: «كان العباس رضي الله عنه في الأسرى فقال له رسول الله ﷺ: افد نفسك وابني أخيك عقيلاً ونوفلاً وخليتك فإنك ذو مال، فقال: يا رسول الله! إني كنت مسلماً ولكن القوم استكروهني، فقال رسول الله ﷺ: الله أعلم بإسلامك، إن كان حقاً ما تقول فالله يجزيك به، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، قال: ليس لي مال، فقال له رسول الله ﷺ: وأين المال الذي وضعت عند أم الفضل حين خرجت وليس معك أحد؟ ثم قلت: إن أصبت في سفري هذا فأعطي الفضل كذا وعبد الله كذا! فقال: والذي بعثك بالحق! ما علم بهذا أحد غيري وغيرها، ففدى نفسه بمائة أوقية وكل واحد بأربعين أوقية وقال: تركتني أسأل الناس، وأسلم وأمر عقيلاً فأسلم، ولم يسلم من الأسارى غيرهما»^(١).

ولما كان التقدير: فإن صدقوك وقبلوا - بشرى الله، وفي الله لهم، عطف عليه قوله: ﴿وإن يريدوا﴾ أي الأسرى والكفار كلهم أو واحد منهم كأبي عزة ﴿خيانتك﴾ أي وأنت أعلى الخلق في عهد من إسلام أو غيره يوثقونه لك ترضى به في المن على أحد

(١) أخرجه الحاكم ٣/٣٢٤ من حديث عائشة وصححه، ووافقه الذهبي.

وأخرجه البيهقي في الدلائل ٣/١٤٢ - ١٤٣ عن الزهري وعروة مرسلًا.

منهم، بغير فداء، يرد الله أن يكون وبال ذلك راجعاً إليهم فيمكن منهم، فلا تخش من أمرهم ﴿فقد خانوا الله﴾ أي الملك الأعظم؛ ولما كانت خيانتهم غير مستغرقة للزمن، أدخل الجار فقال: ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا الوقت بالكفر وغيره من أنواع الفسق ﴿فأمكن﴾ أي فأوجد الإمكان منهم، وقصره ليدل على أنهم صاروا مسلماً لكل أحد ﴿منهم﴾ أي يوم بدر بسبب خيانتهم، فمثل ما أمكن منهم عند وقوع الخيانة سيمكنك منهم إذا أرادوا الخيانة، فإن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿والله﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿عليم﴾ أي بالغ العلم مطلقاً فهو يعلم الأشياء كلها التي منها أحوالهم ﴿حكيم﴾ أي بالغ الحكمة فهو يتقن كل ما يريد به فهو يوهن كيدهم ويتقن ما يقابلهم به فيلحقهم لا محالة، وكذا فعل سبحانه في أبي عزة الجمحي فإنه سأل النبي ﷺ في المن عليه بغير شيء لفقره وعياله وعاهده على أن لا يظهر عليه أحداً ومدحه ثم خان فظفر به في غزوة حمراء الأسد عقب يوم أحد أسيراً، فاعتذر له وسأله في العفو عنه فقال: ألا تمسح عارضيك بمكة وتقول: سخرت بمحمد مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين، وأمر به فضربت عنقه^(١)، وقال أبو حيان في الخيانة: هي كونهم أظهر بعضهم الإسلام ثم رجعوا إلى دينهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنَ لَّيْتِهِم مِّنَ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

ولما بين للأسرى أن الخير الذي لم يطلع عليه من قلوبهم غير الله لا ينفعهم في إسقاط الفداء عنهم لأنه لا دليل عليه، وكل ما لا دليل عليه فحكمه حكم العدم، لأن مبنى الشرع على ما يمكن المكلف معرفته وهو الظواهر، وختم بصفتي العلم والحكمة، شرع يبين الخبر الذي يفيد القرب الذي تبني عليه المناصرة وكل خير، فقال مقسماً أصحاب النبي ﷺ أربعة أقسام: قسم جمع الإيمان والهجرة أولاً والجهاد، وقسم آوى، وقسم آمن ولم يهاجر، وقسم هاجر من بعد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي بالله ورسوله

(١) قصة أبي عزة الجمحي هي عند البيهقي في الدلائل ٣/ ٢٨٠ - ٢٨١ وسيرة ابن هشام ٣/ ٦٦.

واللفظ النبوي: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين».

أخرجه البخاري ٦١٣٣ ومسلم ٢٩٩٨ وأبو داود ٤٨٦٢ وابن ماجه ٣٩٨٢ وابن حبان ٦٦٣ والبيهقي ٣٢٠/٦ و ١٢٩/١٠ وأحمد ٣٧٩/٢ من حديث أبي هريرة.

﴿وهاجروا﴾ أي واقعوا الهجرة من بلاد الشرك، وهم المهاجرون الأولون، هجروا أوطانهم وعشائرتهم وأحبابهم حباً لله ورسوله ﷺ ﴿وجهدوا﴾ أي واقعوا الجهاد، وهو بذل الجهد في توهين الكفر وأهله.

ولما كانت الآيات المتقدمة في آلات الجهاد من النفس والمال تارة بالحث على إنفاقه وأخرى بالنهي عن حبه وتارة بالتسلية للأسرى عند فقدته، كان الأنسب تقديم قوله: ﴿بأموالهم﴾ أي بإنفاقهم لها في الجهاد وتضييع بعضها بالهجرة من الديار والنخيل وغيرها ﴿وأنفسهم﴾ بإقدامهم على القتال مع شدة الأعداء وكثرتهم؛ وقدم المال لأنه سبب قيام النفس، وكان في غاية العزة في أول الأمر، وأخر قوله: ﴿في سبيل الله﴾ أي الملك الأعظم لذلك، و«في» سببية أي جاهدوا بسببه حتى لا يصد عنه صاد فتظهر محاسنه ويسهل المرور فيه من غير قاطع، ولعله عبر بـ «في» إعلماً بأنه ينبغي أن يكون متمكناً من السبيل تمكن المظروف من ظرفه حتى يكون الدين غالباً عليه لا يخرج عنه بوجه من الوجوه، وأما في سورة براءة فلما كان السياق في بعض الأماكن بها للسبيل قدم - كما سيأتي، وأيضاً فإن هذه السورة نزلت في أوائل الأمر بعد وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وكان الحال إذ ذاك شديداً جداً، والأموال في غاية القلة، والأعداء لا يحصون، فناسب الاهتمام بشأن المال والنفس فقداً ترغيباً في بذلهما، وأما براءة فنزلت في غزوة تبوك في أواخر سنة تسع، فكان المال قد اتسع، والدين قد عز وضحخم وقوي وعظم، وأسلم غالب الناس، فبعدت مواضع الجهاد فعظمت المشقة، وتواكل الناس بعضهم على بعض ورغبوا في الإقبال على إصلاح الأموال، فناسب البداء هناك بالسبيل.

ولما ذكر أهل الهجرة الأولى، أتبعهم أهل النصر، وهم القسم الثاني من المؤمنين الذين كانوا على زمنه ﷺ فقال: ﴿والذين آووا﴾ أي من هاجر إليهم من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فأسكنوهم في ديارهم، وقسموا لهم من أموالهم، وعرضوا عليهم أن ينزلوا لهم عن بعض نسائهم ليتزوجوهن، وإنما قصر الفعل إشارة إلى تعظيم فعلهم بحيث كأنه لا إيواء في الوجود غير ما فعلوا، وكذا قوله: ﴿ونصروا﴾ أي الله ورسوله والمؤمنين، وهم الأنصار رضي الله عنهم، حازوا هذين الوصفين الشريفين فكانوا في الذروة من كلتي الحسينيين، ولولا إيواؤهم ونصرهم لما تم المقصود، والمهاجرون الأولون أعلى منهم لسبقهم في الإيمان الذي هو رئيس الفضائل ولحملهم الأذى من الكفار زماناً طويلاً وصبرهم على فرقة الأوطان والعشائر. وأشار إلى القسمين بأداة البعد لعلو مقامهم وعز مرامهم فقال: ﴿أولئك﴾ أي العالو الرتبة

﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي في الميراث دون القرب العاري عن ذلك، فبين أن الإيمان إن لم يقترب بشهيدين هما الهجرة والجهاد من الغرب عن المدينة وشهيدين هما الإيواء والنصرة من أهل المدينة، كان عائقاً عن مطلق القرب بل مانعاً من نفوذ لحمة النسب كل النفوذ، فكأن من آمن ولم يهاجر لم يرث ممن هاجر قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومادة ولي بجميع تصاريفها ترجع إلى الميل، ويلزم منه القرب والبعد، وربما نشأ عن كل منهما الشدة، وترتيب ولي بخصوصه يدور على القرب، ومن لوازمه النصرة، فالمعنى بعضهم أقرباء بعض، يلزم كلاً منهم في حق الآخر من المناصرة وغيره ما يلزم القريب لقريبه، فمتى جمعهم وصف جعلهم شركاء فيما يثمره، فوصف الحضور في غزوة يشرك بينهم في الغنائم، لأن أنواع الجهاد كثيرة، وكل واحد منهم باشر بعضها، فعن حضور الكل نشأت النصرة، والمهاجر في الأصل من فارق الكفار بقلبه ولاواهم، ورافق المؤمنين بحبه وولبه ووالاهم، لكن لما كان هذا قد يخفى، نيط الأمر بالمظنة وهي الدار، لأنها أمر ظاهر، فصار المهاجر من باعد دار المشركين فراراً بدينه، ثم صار شرط ذلك بعد هجرة النبي ﷺ أن تكون النقلة إلى دار هجرته: المدينة الشريفة هذا حكم كل مهاجر إلا ما كان من خزاعة فإن النبي ﷺ كان قد علم من مؤمنهم وكافرهم حبه ونصحه وبغض عدوه فلم يلزم مؤمنهم النقلة؛ قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في كتاب المدخل إلى الاستيعاب؛ ويقال لخزاعة حلفاء رسول الله ﷺ لأنهم حلفاء بني هاشم وقد أدخلهم رسول الله ﷺ في كتاب القضية عام الحديبية - إلى أن قال: وأعطاهم النبي ﷺ منزلة لم يعطها أحداً من الناس أن جعلهم مهاجرين بأرضهم وكتب لهم بذلك كتاباً - انتهى. وقال شاعرهم نجيد بن عمران الخزاعي يفخر بذلك وغيره مما خصهم الله به على يد رسول الله ﷺ:

وقد أنشأ الله السحاب بنصرنا ركام سحاب الهيدب المتراب
وهجرتنا في أرضنا عندنا بها كتاب أتى من خير ممل وكتاب
ومن أجلنا حلت بمكة حرمة لندرك ثأراً بالسيوف القواضب

ذكر ذلك الحافظ أبو الربيع بن سالم الكلاعي في غزوة الفتح من سيرته، والذي تولى حلفهم أولاً هو عبد المطلب جد النبي ﷺ، قال الواقدي في أول غزوة الفتح: وكانت خزاعة حلفاء لعبد المطلب، وكان رسول الله ﷺ بذلك عارفاً، لقد جاءته يومئذ - يعني يوم الحديبية - خزاعة بكتاب عبد المطلب فقرأه وهو «باسمك اللهم هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة إذ قدم عليه وسراتهم وأهل الرأي، غائبهم مقر بما قضى عليه شاهدهم، إن بيننا وبينكم عهد الله وعقوده، ما لا ينسى أبداً، اليد واحدة والنصر واحد،

ما أشرف ثبير وثبت حراء، وما بل بحر صوفة، لا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبداً أبداً، الدهر سرمداً» فقرأه عليه أبي بن كعب رضي الله عنه فقال: «ما أعرفني بحلفكم وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف، وكل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا حلف في الإسلام»؛ قال الواقدي: «وجاءته أسلم وهو بغدير الأشطاط»^(١) جاء بهم بريدة بن الحصيب فقال: يا رسول الله هذه أسلم وهذه محالها وقد هاجر إليك من هاجر منها وبقي قوم منهم في مواشيهم ومعاشهم، فقال رسول الله ﷺ: أنتم مهاجرون حيث كنتم، ودعا العلاء بن الحضرمي فأمره أن يكتب لهم كتاباً فكتب «هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لأسلم لمن آمن منهم بالله وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فإنه آمن بأمان الله، وله ذمة الله وذمة رسوله، وإن أمرنا وأمركم واحد على من دهمنا من الناس بظلم، اليد واحدة والنصر واحد، ولأهل باديتهم مثل ما لأهل قرارهم وهم مهاجرون حيث كانوا» وكتب العلاء بن الحضرمي فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله! نعم الرجل بريدة بن الحصيب لقومه عظيم البركة عليهم، مررنا به ليلة مررنا ونحن مهاجرون إلى المدينة، فأسلم وأسلم معه من قومه من أسلم، فقال رسول الله ﷺ: نعم الرجل بريدة لقومه وغير قومه يا أبا بكر إن خير القوم من كان مدافعاً عن قومه ما لم يأثم، فإن الإثم لا خير فيه»^(٢) انتهى. وأسلم شعب من أربعة شعوب من خزاعة. ولما فتحت مكة، انقطعت الهجرة لظهور الدين وضعف المشركين، وقام مقام الهجرة النية الخالصة المدلول عليها بالجهاد كما قال ﷺ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»^(٣) وقال ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٤) فإن كان المؤمن لا يتمكن من إظهار دينه وجبت عليه النقلة.

ولما بين سبحانه تعالى أمر من جمع الشروط، شرع يبين حكم من قعد عن بعضها وهو القسم الثالث فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ أي اشتهر إيمانهم ﴿ولم يهاجروا﴾ أي قبل الفتح بل استمروا في بلادهم ﴿ما لكم من ولايتهم﴾ وأغرق في النفي فقال: ﴿من شيء﴾ أي في التوارث ولا في غيره؛ ورغبهم في الهجرة بقوله: ﴿حتى يهاجروا﴾ أي

(١) غدير الأشطاط: على ثلاثة أميال من عسفان مما يلي مكة.

(٢) لم أره بهذا اللفظ. وورد بمعناه في الاستيعاب لابن عبد البر ١٧٥/١ في ترجمة بريدة.

(٣) أخرجه البخاري ١٨٣٤ و ٢٨٢٥ و ٣٠٧٧ و مسلم ١٣٥٣ وأبو داود ٢٤٨٠ و الترمذي ١٥٩٠ والنسائي ١٤٦/٧ وابن حبان ٤٥٩٢ وأحمد ٢٢٦/١ و ٣١٦ و ٣٥٥ من حديث ابن عباس.

(٤) أخرجه البخاري ١٠ وأبو داود ٢٤٨١ والنسائي ١٠٥/٨ وابن حبان ٢٣٠ والبيهقي ١٨٧/١٠ وأحمد ٢٠٦/٢ و ٢١٥ و ١٦٣ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

يواقعوا الهجرة لدار الشرك ومن فيها ﴿وإن استنصروكم﴾ أي طلبوا نصركم ﴿في الدين﴾ أي بسبب أمر من أموره وهم متمكنون من الدين تمكن المظروف من الظرف ﴿فعليكم النصر﴾ أي واجب عليكم أن تنصروهم على المشركين، فالمعنى أنه ليس لهم عليكم حق القريب إلا في الاستنصار في الدين، فإن ترك نصرهم يجر إلى مفسدة كما أن موالاتهم تجر إلى مفسد؛ ثم استثنى من الوجوب فقال: ﴿إلا على قوم﴾ وقع وكان ﴿بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي لأن استنصارهم يوقع بين مفسدتين: ترك نصره المؤمن ونقض العهد وهو أعظمهما فقدمت مراعاته وتركت نصرته، فإن نصرهم الله على الكفار فهو المراد من غير أن تدنسوا بنقض، وإن نصر الكفار حصل لمن قتل من إخوانكم الشهادة ولمن بقي الضمان بالكفاية، وكان ذلك داعياً لهم إلى الهجرة، ومن ارتد منهم أبعده الله ولن يضر إلا نفسه والله غني حميد، فقد وقع - كما ترى - تقسيم المؤمنين إلى ثلاثة أقسام: أعلاها المهاجر، يليه الناصر، وأدناها القاعد القاصر، وبقي قسم رابع يأتي؛ قال أبو حيان: فبدأ بالمهاجرين - أي الأولين - لأنهم أصل الإسلام وأول من استجاب لله تعالى، فهاجر قوم إلى المدينة، وقوم إلى الحبشة، وقوم إلى ابن ذي يزن، ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا قدوة لغيرهم في الإيمان وسبب تقوية الدين «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١) وثنى بالأنصار لأنهم ساووه في الإيمان وفي الجهاد بالنفس والمال، لكنه عادل بالهجرة الإيواء والنصرة، وانفرد المهاجرون بالسبق، وذكر ثالثاً من آمن ولم يهاجر ولم ينصر، ففاتهم هاتان الفضيلتان وحرموا الولاية حتى يهاجروا، ثم قال: أخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري يرثه أخوه الأنصاري إذا لم يكن له بالمدينة ولي مهاجري، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجري، قال ابن زيد: واستمر أمرهم كذلك إلى فتح مكة - انتهى. لكن ما ذكر ابن عبد البر - كما سيأتي - من أن حكم ذلك زال بوقعة بدر أولى للآية الآتية آخر السورة مع ما يؤيد ذلك من آية الأحزاب.

ولما كان التقدير: فالله بمصالحكم خبير، وكان للنفوس دواع إلى مناصرة الأقارب والأحباب ومعاداة غيرهم خفية، ولها دسائس تدرك، حذر من ذلك بقوله عاطفاً على هذا المقدر: ﴿والله﴾ أي المحيط علماً وقدرة، ولما كان السياق لبيان المصالح التي تنظم الدين وتهدم ما عداه، وكان للنفوس - كما تقدم - أحوال، اقتضى تأكيد العلم بالخفايا فقدم الجار الدال على الاختصاص الذي هو هنا كناية عن إحاطة

(١) أخرجه مسلم ١٠١٧ والترمذي ٢٦٧٥ والنسائي ٧٥/٥ - ٧٧ وابن ماجه ٢٠٣ وابن حبان ٣٣٠٨ وأحمد ٣٥٧/٤ و ٣٥٩ من حديث جرير.

العلم فقط مرهباً: ﴿بما تعملون بصير﴾ وفي ذلك أيضاً ترغيب في العمل بما حث عليه من الإيمان والهجرة والنصرة والإنفاق والتحري في جميع من ذلك وترهيب من العمل بأضدادها، وفي «البصير» إشارة إلى العلم بما يكون من ذلك خالصاً أو مشوباً، ففيه مزيد حث على الإخلاص.

ولما بين شرط موالة المسلم، بين موالة الكافر وما يجب من مناظرتهم ومباراتهم فيها، وأنه لا شرط لها غير مطلق الكفر فإنه وإن اختلفت أنواعه وتباعدت أنحاءه - يجمعه عداوة الله و ولاية الشيطان فقال: ﴿والذين كفروا﴾ أي أوجدوا هذا الوصف على أي حال كانوا فيه ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي في الميراث والنصرة وغيرهما، وهو خبر محض مشير إلى نهى المسلم عن موالاتهم، وأما الذي مضى في حق المؤمنين فهو أمر في صورة الخبر وصيغته، يعني أن في كل من الكفار قوة الموالة للآخر عليكم والميل العظيم الحاث لهم على المسارعة في ذلك وإن اشتدت عداوة بعضهم لبعض لأنكم حزب وهم حزب، يجمعهم داعي الشيطان بوصف الكفران كما يجمعكم داعي الرحمن بوصف الإيمان، قال أبو حيان: كانوا قبل بعثة النبي ﷺ يعادي أهل الكتاب منهم قريشاً ويتربصون بهم الدوائر، فصاروا بعد بعثة ﷺ يوالي بعضهم بعضاً وإلباً واحداً على رسول الله ﷺ انتهى. وما ذكره مذكور في السير مشهور عند أهل الأثر ﴿إلا تفعلوه﴾ أي مثله من تولي المؤمنين ومعاداة الكافرين كما يفعل الكفار بالتعاضد والتعاون بالنفس والمال كما أرسدوا مال العير الذي فاتكم حتى استعانوا به على قتالكم في أحد، فاللائق بكم أن تكونوا أعظم منهم في ذلك، لأنهم يريدون بذلك رم واهي دنياهم الفانية وأنتم تبنون آخرتكم الباقية، وداعيكم ولي غنى وداعيهم عدو دنى فضلاً عن أن تنزلوا إلى حضيض التنازع في الغنائم ﴿تكن فتنة﴾ أي عظيمة ﴿في الأرض﴾ أي خلطة مميلة للمقاصد عن وجوها ﴿وفساد كبير﴾ أي ينشأ عن تلك الفتنة، والكبير ناظر إلى العظم، وقرىء شاذاً بالمثلثة فيكون عظمه حينئذ مخصوصاً بالأنواع، وبيان الفساد أنه إذا قارب المؤمن الكافر والكافر المؤمن وتناصروا أو ترك المؤمنون التناصر فيما بينهم انحل النظام فاختلف كل من النقص والإبرام، فاختلف الكلام فتباعدت القلوب، فتزايدت الكروب، فالواجب عليكم أن تكونوا إلباً واحداً ويدا واحداً في الموالة وتقاطعوا الكفار بكل اعتبار ليقوم أمركم وتطيب حياتكم، وتصلح غاية الصلاح دنياكم وآخرتكم، والآية شاملة لكل ما يسمى تولياً حتى في الإرث وقاتل الكفار ومدافعة المسلمين بالأمر والإنكار، ولما ترك بعض العلماء إعانة بعض فئة حصل ما خوف الله تعالى منه من الفتنة والفساد حتى صار الأمر إلى ما ترى من علو المفسدين

وضعف أهل الدين، فالأمر بالمعروف فيهم في غاية الذل والغربة، يرد عليه أدنى الناس فلا يجد له ناصرًا، ويجد ذلك الآخر له على الرد أعواناً كثيرة، وصار أحسن الناس حالاً مع الأمراء وأعظمهم له محبة من يقنع بلومه على فعله ظناً منه أن ذلك شفقة عليه - والله المستعان.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَحْيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

ولما تقدمت أنواع المؤمنين: المهاجر والناصر والقاعد، وذكر أحكام موالاتهم، أخذ يبين تفاوتهم في الفضل فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ أي بالله وما أتى منه ﴿وهاجروا﴾ أي فيه من يعاديه سابقين مع نبيه ﷺ ﴿وجاهدوا﴾ أي بما تقدم من المال والنفس أو بأحدهما ﴿في سبيل الله﴾ أي الذي له صفات الكمال فبدلوا الجهد في إذلالهم كما بذل الأعداء الجهد في إذلالهم، ولم يذكر آلة الجهاد لأنها - مع تقدم ذكرها لازمة ﴿والذين آووا﴾ أي من هاجر إليهم ﴿ونصروا﴾ أي حزب الله، وأعلم بقوله: ﴿أولئك﴾ أي الصنفين الأولين خاصة ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ أي حق الإيمان، لأنهم حققوا إيمانهم: المهاجر بالانسلاخ من كل ما يحبه من الأمور الدنيوية، والناصر من جميع أهل الكفر بإيواء أهل الله ونصرتهم.

ولما بين وصفهم، بين ما حباهم به بقوله دالاً على أن الإنسان محل النقصان، فهو - وإن اجتهد حتى كان من القسم الأعلى - لا ينفك عن مواقف ما يحتاج فيه إلى الغفران: ﴿لهم مغفرة﴾ أي لزلاتهم وهفواتهم، لأن مبنى الآدمي على العجز اللازم عنه التقصير وإن اجتهد، والدين متين فلن يشاده أحد إلا غلبه؛ ولما ذكر تطهيرهم بالمغفرة، ذكر تزكيتهم بالرحمة فقال: ﴿ورزق﴾ أي من الغنائم وغيرها في الدنيا والآخرة ﴿كريم﴾ أي لا كدر فيه بوجه، لا في قطعه ولا في نقصانه ولا في شيء من شأنه.

ولما حصر المؤمنين حقاً في الموصوفين، بين أن من ترك ما هو عليه من لزوم دار الكفر والقيود عن الجهاد، لحق بمطلق درجتهم وإن كانوا فيها أعلى منه فقال ذاكراً القسم الرابع: ﴿والذين آمنوا﴾ ولما كانوا قد تأخروا عن دعوة النبي ﷺ مدة، أدخل الجار فقال: ﴿من بعد﴾ أي من بعد تأخر إيمانهم عن السابقين ﴿وهاجروا﴾ أي لاحقين للسابقين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم من هاجر بعد الحديبية، قال: وهي الهجرة الثانية ﴿وجاهدوا معكم﴾ أي من تجاهدونه من حزب الشيطان ﴿فأولئك منكم﴾

أي لهم ما لكم وعليهم ما عليكم من الموارث والمغانم وغيرها، لأن الوصف الجامع هو المدار للأحكام وإن تأخرت رتبهم عنكم كما أفهمته أداة البعد.

ولما بين أنهم منهم، بين أنه متى جمعهم الوصف المحصل للولاية. كان القرب في الرحم أولى من غيره فقال: ﴿وأولو الأرحام﴾ أي من المؤمنين الموصوفين ﴿بعضهم أولى ببعض﴾ أي في الإرث وغيره من المتصفين بولاية الدين الخالية عن الرحم ﴿في كتب الله﴾ أي القرآن أو في حكمه وقسمه الذي أنزله إليكم الملك الأعظم في آيات الإرث، وهي مقيدة بالعصبات فنسخت الولاية فلا دلالة على توريث غيرهم، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة المنذر بن عمرو أن بديراً قطعت المواخاة بين الصحابة رضي الله عنهم، يعني فتكون هذه الآية ناسخة آية ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ وتكون تلك حينئذ مبينة أمر ما كان قبل غزوة بدر - وهو حسن، والآية التي في سورة الأحزاب مؤيدة له، ثم علل سبحانه ما ذكر بما يرغب فيه فقال: ﴿إن الله﴾ أي الذي له صفات الكمال كلها ﴿بكل شيء عليم﴾ فهو يعلم أن هذا هو الذي تدور عليه المصلحة وتدوم به الألفة كما علم في أول الأمر أن نوط الإرث وغيره من لوازم القرب بالأخوة الإسلامية أولى لما في ذلك من تكثير قلتكم ونصر ذلتكم وجمع شتاتكم وجعل ما بينكم من الأخوة كلحمة النسب، فأما الآن فقد ضرب الدين بجرانه، وثبت بقواعده وأركانه، وولى الكفر بسلطانه، ونكص مديراً بأعوانه، فتوارثوا بالإسلام والقراية وتقاطعوا الكفار، وقربوا وبعدوا، وانحازوا عنهم كما انحازو عنكم، وتبرؤوا منهم كما تبرؤوا منكم، فقد انطبق آخر السورة بالإعراض عن الدنيا وإصلاح ذات البين وبيان المؤمنين حقاً وتقليد العليم في جميع الأعمال من غير اعتراض - على أولها، وبيان من يوالي ومن يعادي على أول براءة - والله الموفق.



سورة براءة

مدنية - آياتها مائة وتسع وعشرون

مقصودها معادة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية من اتباع الداعي إلى الله في توحيده واتباع ما يرضيه، وموالة من أقبل عليه، وأدل ما فيها على الإبلاغ في هذا المقصد قصة المخلفين فإنهم - لاعترافهم بالتخلف عن الداعي بغير عذر في غزوة تبوك المحتمل على وجه بعيد منهم رضي الله عنهم للاعراض بالقلب - هجروا، وأعرض عنهم بكل اعتبار حتى بالكلام، فذلك معنى تسميتها بالتوبة، وهو يدل على البراءة لأن البراءة منهم - بهجرانهم حتى في رد السلام - كان سبب التوبة، فهو من إطلاق المسبب على السبب، وتسميتها ببراءة واضح أيضاً فيما ذكر من مقصودها، وكذا الفاضحة لأن من افتضح كان أهلاً للبراءة منه، والبحوث لأنه لا يبحث إلا عن حال البغيض، والمبعثرة هو المنفرة والمثيرة والحفارة والمخزية والمهلكة والمشردة والمدممة والمنكلة، لأنه لا يبعر إلا حال العدو وكذا ما بعده، والمشردة عظيمة المناسبة مع ذلك لما أشارت إليه الأنفال في ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ [الأنفال: ٥٧] وسورة العذاب أيضاً واضحة في مقصودها، وكذا المقشقة لأنهم قالوا: إن معناه المبرئة من النفاق، من تقشقت قروحه - إذا تقشرت للبرء، وتوجيهه أن من عرف أن الله برىء منه ورسوله والمؤمنون لأمر فهو جدير بأن يرجع عن ذلك الأمر، وعندي أيضاً أنه مضاعف القش الذي معناه الجمع، لأنها جمعت أصناف المنافقين وأحوالهم وعليه خرج قاسم ما في وصف أبي جهم بن حذيفة لمن أراد نكاحها: أخاف عليك قشقاشته، أي تتبعه لمذاق الأمور، أخذاً من القش الذي هو تطلب المأكول من هاهنا وهاهنا، أو عصاه التي هي غاية ذلك، ومادة قش ومقلوبها شق ومضاعفهما قشقس وشقسق تدور على الجمع وتلازمه الفرقة فإنه لا يجتمع إلا ما كان مفرقاً ولا يفرق إلا ما كان مجتمعاً، وقد اقتسم هذان المثالان المعنيين إلا قليلاً، فقش القوم: صلحوا وأحيوا بعد الهزال بجمع اللحم، والرجل: أكل من هاهنا وهاهنا ولف ما قدر عليه مما على الخوان، واضح في ذلك،

وأقشوا وانقشوا - إذا انطلقوا فجفلوا ومروا ذاهبين - وقد انقشوا - إذا مروا وذهبوا مسرعين لاجتماعهم في ذلك وجمعهم ما قدروا عليه من متاعهم، والقش والإقشاش: طلب المأكول من هاهنا وهاهنا لجمعة، والقشة - بالكسر: القردة كأنها لجمعها ما رأت مما يؤكل في فيها، والصبية الصغيرة الجثة التي لا تكاد تثبت كأنها لاجتماعها في نفسها، وكذا القشيس: الصغير من الصبيان، ودوية كالجعل إما لاجتماعها في نفسها أو لجمعها القاذورات، والقشيش كأمر: اللقطة لأنها يجمعها اللقاطون، وصوت جلد الحية يحك بعضها ببعض، لأنه لا يكون إلا عند الثني والتجمع، وأقش من الجدرى: برىء منه كقشيش يصلح أن يكون من الفرقة لأنه فارقه، ومن الجمع لأن البرء جمعه كله فأزاله، ويمكن أن تكون همزته للإزالة، وتقششت القروح وتقششت - إذا تقشرت للبرء، إما من الجمع لاجتماع القوى للصحة، وإما من الفرقة والزوال، وكذا تقشش البعير - إذا برىء من الجرب، ويقال: قششهم بكلامه - إذا تكلم بقبيح وأذاهم، أي لجمعه همومهم على بغضه أو معائبهم، وكذا قش الشيء: جمعه، والناقة: أسرع حلبها، أي جمع الزمان الطويل بجمع ما في ضرعها، والشيء: حكه بيده حتى يتحات، أي قشره جميعه، فهو يصلح للفرقة والجمع، وقش: مشى مشى المهزول أي اضطرب، وهو يوجب الإسراع والثني فيصلح للجمع والفرقة، وقش: أكل مما يلقيه الناس على المزابل أو أكل كسر الصدقة، لأن ذلك غاية في الجمع، وقش النبات: يبس، فاستحق أن يجمع، والقش: رديء التمر كالدقل ونحوه لأنه، يجمع في نفسه، والدلو الضخم لكثرة ما يجمع، وفي الحديث: ﴿قل يا أيها الكفرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾ المقشششان^(١)، أي المبرتان من الشرك لما في الحديث: «اقرأ ﴿قل يا أيها الكفرون﴾ عند منامك فإنها براءة من الشرك»^(٢) فالمعنى أنهما تجمعان كل شرك ونفاق دقيق أو جليل فتزيلانه، والقشيشة يحكى بها الصوت قبل الهدير في محض الشقشقة قبل أن ترعد بالهدير، لأن مبادئ صوت الهدير زائد الضخامة، فكأنه جامع، فكذا ما يحكيه؛ والقشاشة: العصا، لجمعها ما يراد بها أو لأنها يقشر عنها لحاؤها كما يقشر جلد الحية وأما مقلوبه فيقال فيه: شقة: صدعه أي فرقه، وقال الخليل: الصدع ربما كان في أحد الوجهين غير نافذ، والشق لا يكون إلا نافذاً، وشق ناب البعير: طلع، لأنه فرق اللحم،

(١) انظر الدر المنثور ٦/٦٩٢. وأخرجه البيهقي في الشعب ٢٥٢٣ عن أبي عمرو بن العلاء قال: كانت ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ تسمى المقشششة...

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٢٥٢١ من حديث فروة بن نوفل وكذا الحاكم ٥٣٨/٢ وصححه، ووافقه الذهبي.

وشق العصا: فرقها باثنتين و فرق بين الجماعة، وشق عليه الأمر: صعب ففرق نفسه، وشق عليه: أوقعه في مشقة، وشق بصر المحتضر: نظر إلى شيء لا يرتد إليه طرفه، لأنه لتصويبه إلى جهة واحدة مفترق من بقية الجهات، والشق واحد الشقوق، والصبح لأنه يفرق جيش الظلام، وجوبة ما بين الشفرين من جهاز المرأة، والتفريق ومنه شق عصا المسلمين، واستطالة البرق إلى وسط السماء من غير أن يأخذ يميناً وشمالاً لأنه يشق السحاب مستقيماً كما يشق اللوح والعصا، - بالكسر: الجانب لأنه مفارق للجانب الآخر، واسم لما نظرت إليه لأنه في جانب واحد، وجنس من أجناس الجن لأنه فرقة منهم، ومن كل شيء نصفه - ويفتح، و المال بيني وبينك شق الشعرة - ويفتح: نصفان سواء، والشقة - بالكسر: شظية من لوح، ومن العصا والثوب وغيره ما شق مستطيلاً، والشقية: ضرب من الجماع كأنه على شق واحد، والشقة - بالضم والكسر: البعد والناحية يقصدها المسافر، والسفر البعيد، وكله واضح في الفرقة، والمشقة أيضاً لأنها تأخذ أحد شقي النفس، والفرس الأشق: البعيد ما بين الفروج والطويل، كأن أجزاءه تفرقت فطال ضد ما تقدم في الصبية الصغيرة، والأشق أيضاً: العجل إذا استحکم كأنه لما تأهل من شق الأرض بالحرثة، وكل ما اشتق نصفين، والشقيقة كسفية: الفرجة بين الجبلين تنبت العشب، لأنها فرقت بين الجبلين و فرقت عشبها بين ملتئم أرضها، والمطر الوابل المتسع لأن الغيم تشقق عنه، ومن البرق ما انتشر من الأفق لأنه يشق السحاب، ووجع يأخذ نصف الرأس والوجه، وشقائق النعمان معروف سميت لحمرتها تشبيهاً بشقيقة البرق - كذا قالوا، وعندي أنها سميت لتفرق أوراقها وتصفقها فكانها مشقة مع التجمع، والشقاق كغراب: تشقق يصيب أرساغ الدواب، والشقشة - بالكسر: شيء كالرثة يخرج البعير من فيه إذا هاج، كأنه بشق حلقة فيخرج ويوجب هديره الذي يشق انطباق تجويفه ليصوت، ومنه شقشق الفحل: هدر، والعصفور: صوت، وشقق الكلام: أخرجه أحسن مخرج، وشقق الحطب: فرق كل واحدة باثنتين أو أكثر، وانشقت العصا: تفرق الأمر، والاشتقاق: أخذ شق الشيء والأخذ في الكلام وفي الخصومة يميناً وشمالاً مع ترك القصد، لأنه يشق جهات المعاني، وهو أيضاً أخذ الكلمة من الكلمة، فكانه فرق بين أجزائها، وهذا أخي وشق نفسي وشقيقي، كأنه يشق نسبه من نسبه أو كأنه شقه منه. وهذه السورة آخر سورة نزلت روى البخاري في التفسير وغيره من صحيحه عن البراء رضي الله عنه قال: آخر آية نزلت ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وآخر سورة نزلت براءة^(١).

(١) أخرجه البخاري ٤٦٠٥ من حديث البراء بن عازب.

ولما كانت مناسبة أولها - الداعي إلى البراءة ممن يخشى نقضه - لآخر الأنفال المبين لمن يصلح للولاية المختتم بشمول العلم في حد عظيم من الظهور مع ما تقدم من بيان مناسبة آخر الأعراف لأول الأنفال، قدمت الأنفال مع قصرها على براءة مع طولها واشتباها أمرها على الصحابة في كونها سورة مستقلة أو بعض سورة كما قدمت آل عمران مع قصرها على النساء لمثل ذلك من المناسبة، فكان ما ذكر في براءة من البراءة والتولي شرحاً لآخر الأنفال؛ روى الإمام أحمد في المسند وأبو داود في السنن والترمذي في الجامع وحسنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى والبخاري والبيهقي والإمام أبو محمد إسحاق بن إبراهيم البستي القاضي في تفسيره - بسند الترمذي والبيهقي - والإمام أبو جعفر النحاس بغير سند عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطول؟^(١) ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ مما - وقال البستي: ربما - يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، - قال النحاس: وذهب عني أن أسأله عنها - فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فوضعتها في السبع الطول - زاد ابن راهويه: وكانتا تدعيان القريبتين - انتهى. فبين أنهما اشتبا عليه وأنه وضعهما في الطول لمناسبتهما لها على تقدير كونها سورة واحدة؛ قال في القاموس: والسبع والطول - كصرد - من البقرة إلى الأعراف، والسابعة سورة يونس أو الأنفال وبراءة جميعاً لأنهما سورة واحدة - انتهى. وقال في الكشاف: وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة كلتاها نزلت في القتال تعدان السابعة من الطول وهي سبع وما بعدها المئون، وهذا قول ظاهر لأنهما معاً مائتان وست فهما بمنزلة إحدى الطول، وقد اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من يقول: هما سورتان، وتركت «بسم»

(١) أخرجه أبو داود ٧٨٦ والترمذي ٣٠٨٦ والنسائي في الكبرى ٨٠٠٧ وابن حبان ٤٣ والحاكم ٢/٢٢١ و ٣٣٠ والبيهقي ٢/٤٢ وأحمد ٥٧ و ٦٩ من حديث ابن عباس صححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

لقول من يقول: هما سورة واحدة - انتهى . وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال : إنما توهموا ذلك لأن في الأنفال ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود، ووضعت إحداهما بجانب الأخرى، والمراد بالمثاني هنا ما دون المثين وفوق المفصل؛ قال أبو عبيد الهروي: قيل لها مثاني لأن المثين جعلت مبادئ، والتي تليها مثاني - انتهى . والأحسن كون ذلك بالنسبة إلى المفصل من وجهين: الأول أن المفصل أول لقب جامع للسور باعتبار القصر وفوقه المثاني ثم المثون ثم الطول، فالمثاني ثانية له حقيقة، وما هي ثانية للمثين إلا أن ألفينا البداءة بالطول من الطرف الآخر، الثاني أنها لما زادت على المفصل كانت قسمة السورة منها في ركعتين من الصلاة كقراءة سورتين من المفصل فكانت مثاني لتثنيتهما في مجموع الصلاة باعتبار قراءة بعضها في كل من الركعتين؛ قال أبو جعفر النحاس: قال أبو إسحاق: حدثني بعض أصحابنا عن صاحبنا محمد بن يزيد أنه قال: لم تكتب في أول سورة براءة «بسم الله الرحمن الرحيم» لأن «بسم الله الرحمن الرحيم» افتتاح خير، وبراءة أولها وعيد ونقض للعهود فلذلك لم تكتب في أولها بسم الله؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألت علياً رضي الله عنه: لم لم تكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» هاهنا؟ قال: لأن «بسم الله الرحمن الرحيم» أمان، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهد وليس فيها أمان - انتهى . وبهذا أخذ الإمام أبو القاسم الشاطبي في قصيدته حيث قال:

ومهما تصلها أو بدأت براءة تنزيلها بالسيف لست مبسماً

وقال في الكشف: وسئل ابن عيينة فقال: اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبذ والمحاربة، قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لست مؤمناً﴾ [النساء: ٩٤] قيل: فإن النبي ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب «بسم الله الرحمن الرحيم»! قال: إنما ذلك ابتداء، يدعوهم ولم ينبذ إليهم، ألا تراه يقول «سلم على من اتبع الهدى» فمن دعى إلى الله فأجاب ودعى إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى، وأما النبذ فإنما هو البراءة واللعنة - انتهى . ولا يعارض هذا خبر ابن عباس عن عثمان رضي الله عنهما، بل هو شبيه لما نزلت من غير بسملة للمعنى المذكور، اشتبه أمرها على الصحابة رضوان الله عليهم ولم يقع سؤال عنها حتى توفي رسول الله ﷺ، فكانت موافقتهم للسور في تسميتها باسم يخصها دليلاً على أنها سورة برأسها، ومخلفتهم في ترك إنزال البسملة في أولها مع احتمال أنها تركت للمعنى المذكور أو لغيره دليلاً على أنها بعض سورة، فقد روى أبو داود والحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة - وفي رواية: لا يعلم انقضاء السورة -

حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١). قال الحافظ أبو شامة: هذا حديث حسن وللحاكم في المستدرک أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى ينزل «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فلما نزل علم أن السورة قد انقضت^(٢). فلما اشتبه أمرها تركوا كتابة البسملة في أولها وفصلوها عن الأنفال قليلاً - والله الموفق. هذا وقد مضى بيان تشابه قصتيهما في أول الأنفال وأثناء الأعراف إجمالاً، وأما تفصيلاً فلما في كل منهما من نبذ العهد إلى من خيف نقضه، وأن المسجد الحرام لا يصلح لولايته إلا المتقون، وأن المشركين نجس لا صلاحية فيهم لقربانه، وأن قلة حزب الله لا تضرهم إذا لزموا دعائم النصر الخمس وكثرتهم لا تغنيهم إذا حصل في ثباتهم لبس، والحث على الجهاد في غير موضع، وضمان الغنى كما أشار إليه في الأنفال بقوله ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤] وذكر أحكام الصدقات التي هي من وادي الغنائم، وعد أصناف كل، والأمر بالإنفاق المشار إليه في الأنفال بقوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣] أي بالتناصر في الإنفاق وغيره كما فعلوا في مال التجارة الذي أرسدوه حتى استعانوا به على غزوة أحد المشار إليه بآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٦] مع آية ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ [الأنفال: ٧٣] وبيان أحوال المنافقين المشار إليهم في الأنفال بقوله ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأنفال: ٤٩] والأمر الجامع للكل أنهما معاً في بيان حال النبي ﷺ في أول أمره وأثنائه ومنتهاه؛ وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في كتابه: اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف بتوجيهه حتى أن شدة المشابهة والالتئام - مع أن الشارع عليه السلام لم يكن بين انفصالهما - أوجب أن لا يفصل بينهما بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وذلك أن الأنفال قد تضمنت الأمر بالقتال ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] وبين أحكام الفرار من الزحف وحكم النسبة المطلوب فيها بالثبوت ولحوق التأثيم للفرار وأنها على حكم الضعف وحكم الأسرى وحكم ولاية المؤمنين وما يدخل تحت هذه الولاية ومن يخرج عنها، ثم ذكر في السورة الأخرى حكم من عهد إليه من المشركين والبراءة منهم إذا لم يوفوا، وحكم من استجار منهم إلى ما يتعلق بهذا، وكله باب واحد، وأحكام متواردة على قصة واحدة، وهو تحرير حكم المخالف، فالتحمت السورتان

(١) أخرجه أبو داود ٧٨٨ والحاكم ٢٣١/١ من حديث ابن عباس صححه الحاكم على شرطهما، وقال الذهبي: أما هذا فثابت.

(٢) أخرجه الحاكم ٢٣٢/١ من حديث ابن عباس وصححه على شرطهما وقال الذهبي: رواه رحيم هكذا دون سعيد بن جبير.

أعظم التحام، ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أستارهم - انتهى. وأما تطابق آخر الأنفال مع أولها فقد ظهر مما مضى، وأيضاً فلما ذكر في آخر التي قبلها أمر العهد تارة بنبذه إلى من خيفت خيانتته كائناً من كان في قوله ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ [الأنفال: ٥٨] وتارة بالتمسك به عند الأمن من ذلك في قوله ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ [الأنفال: ٧٢] وبين من يصلح للموالة ومن لا يصلح، وختمت بالإخبار بشمول علمه، ابتدئت هذه السورة بالأمر بالنبذ إلى ناس بأعيانهم نقضوا أو خيف منهم ذلك، وذلك تصريح بما أفهمته آيات الموالة في التي قبلها من أن إحدى الفرقتين لا تصلح لموالة الأخرى فقال تعالى:

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِّمُوا أَنْتُمْ غَيْرَ مَعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿براءة﴾ أي عظيمة، ثم وصفها بقوله: ﴿من﴾ أي حاصلة واصلة من ﴿الله﴾ أي المحيط بصفات الكمال، فهو العالم بمن يستحق الولاية ومن يستحق البراءة ﴿ورسوله﴾ أي المتابع لأمره لعلمه به.

ولما كانوا قد توقفوا في الحديبية كلهم أو كثير منهم تارة في نفس العهد وتارة في التأخر عن الأمر بالحلوق، ثم تابغوا في كل منهما، وكان الكفار بمحل البعد عن كل خير، أشار إلى ذلك بأداة الغاية، وجعل الرسول ﷺ مع الله إشارة إلى أنه لا يخالفه أصلاً، وأسندت المعاهدة إليهم إشارة إلى ذلك التوقف تحذيراً من أن يقع مثله، فقال مخبراً عن النبذ الموصوف: ﴿إلى الذين عاهدتم﴾ أي أوقعتم العهد بينكم وبينهم ﴿من المشركين﴾ أي وإن كانت معاهدتكم لهم إنما كانت بإذن من الله ورسوله، فكما فعلتم المعاهدة بإذنهما فافعلوا النقض تبعاً لهما، ودل سياق الكلام وما حواه من بديع الانتظام أن العهد إنما هو لأجل المؤمنين، وأما الله ورسوله فغنيان عن ذلك، أما الله فبالغنى المطلق، وأما الرسول ﷺ فبالذي اختاره للرسالة لأنه ما فعل ذلك به إلا وهو قادر على نصره بسبب وبغير سبب، وعلم أن ذلك فيمن نقض أو قارب من قوله بعد ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئاً﴾ - الآية؛ قال البغوي: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله بنقض عهودهم وذلك قوله تعالى ﴿وما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم﴾ [الأنفال: ٥٨] انتهى. وذكر ذلك ابن إسحاق وغيره، ولعله أطلق هنا ولم يقيد ممن خيف نقضه ليكون ذلك أول السورة مؤذناً بأن الخيانة وهم بالنقض شأن أكثرهم ولا سيما مشركو قريش، وهم - لكون قريش رؤوس

الناس والناس تبع لهم في الخير والشر - يستحقون أن يعبر عنهم بما يفهم الكل ومبنى هذه السورة على البراءة من المشركين والموالاتة للمؤمنين الدال على إيمانهم طاعة الله بالصلاة والزكاة والجهاد لمن أمر بالبراءة منه قل أو كثر قرب أو بعد في المنشط والمكروه والعسر واليسر.

ولما كان ظاهر الحال وقت تكامل نزولها - وهو شوال أو ذو القعدة أو ذو الحجة سنة تسع بعد مرجع النبي ﷺ من تبوك - أن الحرب قد وضعت أوزارها وأطفئت نارهم ببسط الإسلام في الخاص العام، ما بين اليمن والشام، وانتشار ألوته وأعلامه، وتأييد رئيسه وإمامه بقهر جيوش الكفار، وقصد الناس له بالاتباع من جميع الأمصار، أكد أمر الجهاد ومصادمة الأنداد في هذه السورة تأكيداً لم يؤكد في غيرها؛ ذكر الواقدي في أواخر غزوة تبوك كلاماً ثم قال: قالوا: وقدم رسول الله ﷺ المدينة - يعني من غزوة تبوك - في رمضان سنة تسع ثم قال: وجعل المسلمون يبيعون أسلحتهم ويقولون: قد انقطع الجهاد، فجعل القوي منهم يشتريها لفضل قوته، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهم عن ذلك وقال: «لا تزال عصابة من أمي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال»^(١) وإنما قلت: إن تكامل نزولها كان في شوال أو في ذي القعدة أو في ذي الحجة لأن البغوي نقل عن الزهري أن أولها نزل في شوال، وقال ابن إسحاق - ونقله عنه البيهقي في دلائل النبوة -: ثم أقام رسول الله ﷺ بعد منصرفه من تبوك بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة ثم بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج في سنة تسع ليقوم للمؤمنين حجهم والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم - وأسند البيهقي في دلائله إلى عروة قال: فلما أنشأ الناس الحج تمام سنة تسع بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الناس وكتب له سنن الحج - انتهى. فخرج أبو بكر والمؤمنون رضي الله عنهم ونزلت براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينهم وبينه أن لا يصد عن البيت أحد جاءه ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك؛ ونقل أبو محمد البستي عنه أنه قال: فكانت هذه المدة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين العرب أنه لا يصد أحد عن البيت ولا يتعرض لحاج ولا معتمر، ولا يقاتل في الشهر الحرام؛ وكان أماناً مستفيضاً من بعضهم لبعض على غير مدة معلومة؛ رجع إلى ما رأيته أنا في سيرته: وكانت بين ذلك عهود بين رسوله ﷺ وبين قبائل من العرب خصائص إلى آجال مسماة فنزلت فيه

(١) ذكره الواقدي في المغازي ٣/١٠٥٦ - ١٠٥٧ وللرفوع منه شاهد من حديث جابر أخرجه مسلم ١٥٦ وأحمد ٣/٣٨٤.

وفيمن تخلف من المنافقين عنه في تبوك وفي قول من قال منهم، فكشف الله فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون؛ ثم قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: وحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال: «لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليقم للناس الحج قيل له: يا رسول الله! لو بعثت بها إلى أبي بكر! فقال: لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي، ثم دعا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة فأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته»^(١). فهذا فيه أنها نزلت بعد سفر أبي بكر رضي الله عنه، وإنما قيدت أنا بتكامل نزولها لأنه ورد أن الذي في النقص فبعث به علياً رضي الله عنه إنما هو عشر آيات أو سبع، وفي بعض الروايات التصريح بنزولها قبل سفر أبي بكر رضي الله عنه، ففي زيادات مسند الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: «لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا أبا بكر رضي الله عنه فبعثه بها ليقراها على أهل مكة، ثم دعاني النبي ﷺ فقال: أدرك أبا بكر، فحيث ما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم - فذكره، وفيه أن أبا بكر رضي الله عنه قال للنبي ﷺ بعدما رجع: أنزل في شيء؟ قال: لا، ولكن جبريل عليه السلام جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك»^(٢)، ونقل البغوي عن ابن إسحاق أنه ﷺ بعث مع أبي بكر بأربعين آية من صدر سورة براءة ليقراها على أهل الموسم، ثم بعث بعده علياً على ناقته الغضباء ليقراً على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة. وفيه أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله! أنزل في شأني شيء؟ قال: لا، ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا الأمر إلا رجل من أهلي. فتبين أن الأول من إطلاق الكل على الجزء لا سيما وهو الذي فيه البراءة، وما سميت السورة براءة إلا به؛ وأن المعنى: لا يؤدي عني في العهود، لا مطلقاً، فقد أرسل رسلاً للأداء عنه من غير أهل بيته؛ وقال المهدوي في تفسير ﴿فسيحوا في الأرض﴾: وروي أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ بعد خروج أبي بكر

(١) ذكره ابن هشام في سيرته ٥٠/٣ هكذا وأخرجه بمعناه الترمذي ٣٠٩١ من حديث ابن عباس و ٣٠٩٠ من حديث أنس، قال الترمذي: حسن غريب اه. وانظر الدر المنثور ٣/٣٧٨ (براءة: ١) فقد فصل في ذلك.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ١/١٥١ وأبو الشيخ وابن مردويه كما في الدر ٣/٣٧٧ - ٣٧٨ من حديث علي وذكره الهيثمي في المجمع ٧/٢٩ وقال: وفيه محمد بن جابر السحيمي، وهو ضعيف، وقد وثق اه.

بالناس ليحج بهم سنة تسع، فبعث بها النبي ﷺ علياً رضي الله عنه ليتلوها على الناس بالموضع الذي يجتمع فيه الفريقان وهو منى، وأمره أن ينادي: أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، فنادى علي وأعانه أبو هريرة وغيره رضي الله عنهم^(١)، وكان على مكة حينئذ عتاب بن أسيد رضي الله عنه، استخلفه رسول الله ﷺ عام الفتح وهو عام ثمان، وكان حج عتاب وأبي بكر سنة تسع في ذي القعدة - كذا قال وسيأتي بيان بطلانه، وتقدم خلافه عن ابن إسحاق في دلائل النبوة؛ وقال الإمام أبو محمد إسحاق بن إبراهيم البستي القاضي في تفسيره: حدثنا قتيبة عن الحجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال: أقبل رسول الله ﷺ حين فرغ من تبوك فأراد الحج فقال: إنه يحضر البيت المشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما، فطافا في الناس بذئ المجاز وبأمكنهم التي كانوا يتبايعون بها كلها وبالموسم كله، وأذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر - يعني أشهر الحرم المنسلخات المتواليات: عشرون من آخر ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، فأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا، فأمن الناس أجمعون^(٢). وفي سيرة ابن إسحاق: حدثنا يونس - يعني ابن بكير - عن أسباط بن نصر الهمداني عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» قال: عشرين من ذي الحجة إلى عشر من ربيع الآخر ثم لا أمان لأحد ولا عهد إلى السيف أو الإسلام؛ وقال ابن هشام: حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى ما أمنهم^(٣)؛ وللترمذي عن زيد بن أثيب قال: سألت علياً رضي الله عنه: بأي شيء بعثت؟ قال: بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعده إلى مدته ومن لا مدة له فأربعة أشهر^(٤). ونقل ابن سيد الناس عن ابن عائذ أنه لما ضرب للمشركين هذا الأجل قالوا: بل الآن لا نبتغي تلك المدة، نبرأ منك ومن ابن

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٣٧٨ ونسبه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٣٦٧ ونسبه لابن أبي شيبة وابن جريج وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد مرسلًا.

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة ٣/٥٠.

(٤) أخرجه الترمذي ٨٧١ و ٣٠٩٢ والحاكم ٣/٥٢ وأحمد ١/٧٩ من حديث علي، صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن.

عمك إلا بالضرب والظعن؛ فحج الناس عامهم ذلك، فلما رجعوا رغب الله المشركين فدخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً. وصدق الله ورسوله فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان. وقد وردت نصوص وظواهر في كثير من سورة براءة أنه نزل قبل الرجوع عن تبوك أو قبل الاعتذار، فمن النصوص قوله تعالى ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ وقوله ﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ - الآيات، ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم﴾ إلى أن قال: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم﴾ [التوبة: ٩٤] وأما الظواهر فإن الواقي قال في سيرته فأنزل من القرآن في غزوة تبوك، ثم ذكر أكثر سورة براءة وقال هو وغيره من أصحاب السير: وكان رهط من المنافقين يسيرون مع النبي ﷺ في تبوك منهم ودیعة بن ثابت - فذكر القصة التي فيها أن بعضهم قال ترهيباً للمؤمنين: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الجبال، وقال كل منهم شيئاً إلى أن قال: فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلمهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلت كذا وكذا - إلى أن قال: إن بعضهم قال: إنما كنا نخوض ونلعب! فأنزل الله فيه ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب - إلى قوله - بأنهم كانوا مجرمين﴾ ثم قال: وجاء الجلاس إلى رسول الله ﷺ فحلف ما قال من ذلك شيئاً، وكان قد قال: إن كان محمد صادقاً فنحن شر من الحمير، فأنزل الله عز وجل فيه ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ - إلى آخرها، فاعترف الجلاس حينئذ وتاب وحسنت توبته^(١)، وذكر مسجد الضرار وأن أهله كانوا سألوا النبي ﷺ وهو متجهز إلى تبوك أن يصلي لهم فيه فاعتذر إليهم بشغله بالسفر ووعدهم أن يصلي فيه إذا رجع، فلما نزل ﷺ بذي أوان - قال ابن هشام: بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - أتاه خبره وخبر أهله من السماء، فدعا اثنين من أصحابه فأمرهما به فأحرقاه، وتفرق أهله ونزل فيه من القرآن ما نزل ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً﴾ - إلى آخر القصة؛ قال الواقي: وكان عاصم ابن عدي يقول: كنا نتجهز إلى تبوك مع النبي ﷺ فرأيت عبد الله بن نبتل وثعلبة بن حاطب قائمين على مسجد الضرار - إلى أن قال: فوالله ما رجعنا من سفرنا حتى نزل القرآن بدمه وذم أهله ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ [التوبة: ١٠٧] - إلى آخرها، ومن ذلك تسميتها بالفاضحة، فلولا نزولها قبل معرفة أخبارهم لم تكن فاضحة، وهي

(١) ذكره الواقي في مغازيه ١٠٦٦/٣ - ١٠٦٧ وانظر دلائل النبوة لليبي ٢٨١/٥ - ٢٨٢.

في الظاهر للمعاهدين وفي الباطن مشيرة إلى أهل الردة وأن لا يقبل منهم إيمان ما لم يجمعوا بين الصلاة والزكاة كما فهم أبو بكر رضي الله عنه، وأقيمت على ذلك قرائن منها تكرير الجمع بين الصلاة والزكاة في سياق الإيمان تكريراً لم يكن في غيرها من السور، فهي من أعلام النبوة؛ وروى أبو محمد إسحاق بن إبراهيم القاضي البستي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن هذا الإسلام ثلاثون سهماً: عشر منها في براءة، وعشر في الأحزاب، وعشر في المؤمنين وسأل سائل.

ولما أعلمهم سبحانه بأنه رد إليهم عهدهم، وكانوا مختلطين مع أهل الإسلام، جعل لهم مخلصاً إن آثروا البقاء على الشرك مع إعلامهم بأنه لا خلاص لهم لأنهم في قبضته، فقال مخاطباً لهم ولكل مشرك مسيئاً عن البراءة: ﴿فسيحوا﴾ والسياحة: الاتساع في السير والبعد عن المدن والعمارة مع الإقلال من الطعام والشراب، ولذلك يقال للصائم: سائح، والمراد هنا مطلق السير.

ولما كانت السياحة تطلق على غيره، حقق المعنى بقوله: ﴿في الأرض﴾ أي في أي جهة شتتم ﴿أربعة أشهر﴾ أي من أيام الحج، فيكون آخرها عاشر شهر ربيع الآخر، تأمنون فيها أمناً لا تعرض لكم بسوء، بل تذهبون فيها حيث شتتم، أو ترمون حصونكم وتهيئون سلاحكم وتلمون شعثكم لا نغدركم، لأن ديننا مبني على المحاسن، ولولا أن الأمر يتعلق بنفوسنا ما نبذنا عهدكم ولا نقضنا عقدكم، ولكن الخطر في النفس وقد ظهرت منكم أمارات الغدر ولوائح الشر «وعن أي نفس بعد نفسي أقاتل» فإذا نقضت الأربعة الأشهر فتهيؤوا لقتالنا وتدرعوا لنزالنا.

ولما كان الإسلام قد ظهر بعد أن كان خفياً، وقوي بعد أن كان ضعيفاً، افتتح وعظهم بالكلمة التي تقال أولاً لمن يراد تقريع سمعه وإيقاظ قلبه وتنبيهه على أن ما بعدها أمر مهم ينبغي مزيد الاعتناء به فقال: ﴿واعلموا أنكم﴾ أي أيها الكفرة وإن كثرتم ﴿غير معجزى الله﴾ لأن علمه محيط بكل شيء فهو قادر على كل ممكن ﴿وأن الله﴾ أي لما له من الإحاطة بالجلال والإكرام ﴿معجزى الكافرين﴾ أي كلهم منكم ومن غيركم في الدنيا والآخرة لأن قوله قد سبق بذلك، ولا يبدل القول لديه، والإخزاء: الإذلال مع إظهار الفضيحة والعار.. وأظهر الوصف موضع الضمير تعميماً وتعليقاً للحكم به، ولعل الالتفات إلى الخطاب إشارة إلى أن من ترك أمر الله حذباً على قريب أو عشير فهو منهم، وقد برئت منه الذمة، فلينج بنفسه ولا نجاه له، أو يكون لاستعطاف الكفار تليذ الخطاب وترهيبهم بزواج العقاب.

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٣﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

ولما أنزل البراءة، أمر بالإعلام بها في المجمع الأعظم ليقطع الحجج، فقال عاطفاً ظهرة الجملة إلى مضمونها: الإخبار بوجوب الإعلام بما ثبت بالجملة الأولى المعطوفة عليها من البراءة: ﴿وأذان﴾ أي وهذا إعلام وإعلان واقع وواصل ﴿من الله﴾ أي المحيط بجميع صفات العظمة ﴿ورسوله﴾ أي الذي عظمته من عظمته، فلا يوجهه إلى شيء إلا أعلاه عليه؛ ولما كان المقصود الإبلاغ الذي هو وظيفة الرسول، عده بحرف الانتهاء فقال: ﴿إلى الناس﴾ أي كلهم من أهل البراءة وغيرهم ﴿يوم الحج الأكبر﴾ قيده لأن العمرة تسمى الحج الأصغر.

ولما كان كأنه قيل: ما هذا الإعلام؟ قال مفسراً له مصرحاً بما هو المقصود لثلا يقع فيه نوع لبس حاذفاً الصلة إعلماً بأن هذا مستأنف على تقدير سؤال سائل، لا معمول لأذان: ﴿إن الله﴾ أي الذي له الغنى المطلق والقوة الباهرة ﴿بريء من المشركين﴾ أي الذين لا عهد لهم خاص فلا مانع من قتالهم، قيل: والذين وقعت البراءة منهم صنفان: أحدهما كانت مدته دون أربعة أشهر فرجع إليها، والآخر مدته بغير حد فقصر عليها، ومن لم يكن له عهد فهو أولى، ومن كان عهده محدوداً بأكثر من أربعة أشهر ولم يحدث شراً أمر بإتمام عهده إلى مدته ﴿ورسوله﴾ أي بريء منهم، فهو مرفوع عطفاً على المنوي في «بريء» أو على محل ﴿أن﴾ المكسورة واسمها عند من كسرهما، وقرىء بالنصب عطفاً على اسم ﴿أن﴾ أو لأن الواو بمعنى مع، وبالجر على الجوار، وقيل: على القسم - قال في الكشاف، قال: ويحكى أن أعرابياً سمع رجلاً يقرؤها فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء، فلبية الرجل إلى عمر رضي الله عنه فحكى الأعرابي قراءته فعندها أمر عمر رضي الله عنه بتعلم العربية، وروى الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري في مقدمة كتاب الوقف والابتداء بسنده عن ابن أبي مليكة قال: قدم أعرابي في زمان عمر رضي الله عنه فقال: من يقرئني مما أنزل

الله على محمد ﷺ؟ فأقرأه رجل براءة فقال: ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ بالجر، فقال: أوقد بريء الله من رسوله؟ إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر رضي الله عنه مقالة الأعرابي فدعاه - يعني فسأله فأخبره - فقال عمر رضي الله عنه: ليس هكذا يا أعرابي! قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما بريء الله ورسوله منه^(١)، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة. وأمر أبا الأسود فوضع النحو، ونحو ذلك في الاهتمام بشأن العربية ما حكاه الشريف محمد بن أسعد الجواني النسابة في كتابه في الأنساب في ترجمة أبي الأسود الدؤلي بسنده إليه أنه قال: دخلت على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فرأيت مطرقاً مفكراً فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني سمعت ببلدكم هذا لحناً، فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية، فقلت له: إن فعلت هذا بقيت فينا هذه اللغة، ثم أتيت بعد أيام فألقى إليّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال: تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمّر وشيء ليس بظاهر ولا مضمّر، وإنما يتفاضل الناس في معرفة ما ليس بمضمّر ولا ظاهر، قال أبو الأسود الدؤلي: فجمعت أشياء فعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها إن وأن وليت ولعل وكان، ولم أذكر لكن، فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها فيها، فقال بل هي منها فزدها فيها، وقال أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي في طبقات النحويين: وقال أبو العباس محمد بن يزيد: سئل أبو الأسود الدؤلي عمن فتح له الطريق إلى الوضع في النحو وأرشده إليه، فقال: تلقنته من علي بن أبي طالب، وفي حديث آخر: ألقى إليّ أصولاً احتذيت عليها؛ وفي مختصر طبقاتهم للحافظ محمد بن عمران المرزباني: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد رسم لأبي الأسود الدؤلي حروفاً يعلمها الناس لما فسدت ألسنتهم فكان لا يحب أن يظهر ذلك ضمناً به بعد علي رضي الله عنه، فلما كان زياد وجه إليه أن اعمل شيئاً تكون فيه إماماً وينتفع به الناس فقد كنت شرعت فيه لتصلح ألسنة الناس، فدافع بذلك حتى مر يوماً بكلا البصرة وإذا قارئ يقرأ ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ وحتى سمع رجلاً قال: سقطت عصاتي، فقال: لا يحل لي بعد هذا أن أترك الناس! فجاء إلى زياد فقال:

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٣٨٣ ونسبه لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري في كتاب الوقف وابن عساکر، في تاريخه عن ابن أبي مليكة به.

أنا أفعل ما أمر به الأمير فليتبغ لي كاتباً حصيفاً ذكياً يعقل ما أقول، فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه، فأتى بأخر من ثقيف؛ وقال ابن الأنباري في كتاب الوقف: حدثني أبي قال: حدثنا أبو عكرمة قال: قال العتبي: كتب معاوية إلى زياد يطلب عبيد الله ابنه، فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن، فرده إلى زياد وكتب إليه كتاباً يلومه فيه ويقول: أمثل عبيد الله يضيع؟ فبعث زياد إلى أبي الأسود فقال: يا أبا الأسود! إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله، فأبى ذلك أبو الأسود وكره إجابة زياد إلى ما سأله، فوجه زياد رجلاً فقال له: اقعد في طريق أبي الأسود، فإذا مر بك فاقراً شيئاً من القرآن وتعمد اللحن فيه، ففعل ذلك. فلما مر به أبو الأسود رفع الرجل صوته يقرأ ﴿أَنْ اللَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم رجع من فوره إلى زياد فقال: يا هذا، قد أجبتك إلى ما سألت، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن، فابعث إليّ ثلاثين رجلاً، فأحضرهم زياد فاختر منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس، فقال: خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإن أتبعته شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره، ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك - انتهى. ويوم الحج المذكور هنا للجنس، أي في جميع أيام الحج - قاله سفيان الثوري - كيوم صفيان والجمال وبعث يراد به الحين والزمان الذي كان فيه ذلك، ولذلك نادى علي رضي الله عنه بنفسه ومن ندبه لذلك في جميع تلك الأيام، وقال أبو حيان: الظاهر أنه يوم واحد فقال عمر رضي الله عنه وجماعة: هو يوم عرفة، وروي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ^(١)، وقال أبو موسى رضي الله عنه وجماعة: هو يوم النحر، وقيل: أيام الحج كلها - قاله سفيان بن عيينة قال ابن عطية: والذي تظاهرت به الأحاديث أن علياً رضي الله عنه أذن بتلك الآيات يوم عرفة إثر خطبة أبي بكر رضي الله عنه، ثم رأى أنه لم يعم الناس بالإسراع فتتبعهم بالأذان بها أيضاً يوم النحر، وفي ذلك اليوم بعث أبو بكر رضي الله عنه من يعينه بها كأبي هريرة وغيره رضي الله عنهم ويتبعوا أيضاً أسواق العرب كذي المجاز وغيره؛ وبهذا يترجح قول سفيان - انتهى. وروى عبد الرزاق عن علي رضي الله عنه أنه يوم النحر، وقال في تفسيره أيضاً: أخبرنا معمر عن

(١) قال السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٨٢: أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر.

الحسن قال: إنما سمي الحج الأكبر لأنه حج أبو بكر رضي الله عنه الحجة التي حجها، واجتمع فيها المسلمون والمشركون، ووافق أيضاً ذلك عيد اليهود والنصارى - (١).

ولما أعلم سبحانه بالبراءة عنها، سبب عنها مرغباً مرهباً قوله التفاتاً إلى الخطاب: ﴿فإن تبتم﴾ أي عن الكفر والغدر ﴿فهو﴾ أي ذلك الأمر العظيم وهو المتاب ﴿خير لكم﴾ أي لأنكم تفوزون في الوفاء بالأمان في الدنيا، وفي الإسلام بالسلامة في الدارين.

ولما كانت التوبة محبوبة بالطبع لما لها من النفع قال: ﴿وإن توليتم﴾ أي كلفتم أنفسكم خلاف ما تشتهي من التوبة موافقة للفتنة الأولى، وأصررتهم على الكفر والغدر اتباعاً للهوى المكتسب من خيانة الجيلة ورداءة الأخلاط التي قعدت بالروح عن أوجها الأول إلى الحضيض الأسفل ﴿فاعلموا﴾ أي علماً لا شبهة فيه ﴿أنكم غير معجزى الله﴾ أي لأن له صفات الكمال من الجلال والجمال، والالتفات هنا مثله في ﴿فسيحوا﴾ والإشارة به إلى ما ذكر في ذلك.

ولما واجههم بالتهديد، أعرض عنهم وجه الخطاب تحقيراً لهم مخاطباً لأعلى خلقه مبشراً له في أسلوب التهكم بهم، فقال عاطفاً على ما تقديره: فبشر الغادرين بالخذلان، أو فبشر التائبين بنعيم مقيم: ﴿وبشر الذين كفروا﴾ أي أوقعوا هذا الوصف ﴿بعذاب أليم﴾ أي في الدنيا والآخرة أو فيهما.

ولما أعلمهم بالبراءة وبالوقت الذي يؤذن بها فيه، وكان معنى البراءة منهم أنه لا عهد لهم، استثنى بعض المعاهدين فقال: ﴿إلا الذين عاهدتم﴾ أي أوقعتم بينكم وبينهم عهداً ﴿من المشركين ثم﴾ أي بعد طول المدة اتصفوا بأنهم ﴿لم ينقصوكم شيئاً﴾ أي من الأمارات الدالة على الوفاء في أنفسهم كما نقض بنو الدليل من بني بكر في قتالهم لخزاعة حلفاء النبي ﷺ ﴿ولم يظاهروا﴾ أي يعاونوا معاونة تظهر ﴿عليكم أحداً﴾ أي من أعدائكم كما ظهرت قريش حلفاءهم من بني الدليل على حلفائكم من خزاعة ﴿فأتموا﴾ وأشار إلى بعدهم عن الخير بحرف الغاية فقال: ﴿إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ أي وإن طالت؛ قال البغوي: وهم بنو ضمرة حي من كنانة، وكان قد بقي من عهدهم تسعة أشهر، وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا؛ وقال النحاس: ويقال: إن هذا مخصوص يراد به بنو ضمرة خاصة؛ وقال أبو محمد البستي: حدثنا قتيبة قال: ثنا الحجاج عن ابن

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/ ٣٨٢ ونسبه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن به.

جريح عن مجاهد قال: كان بين بني مدلج وخزاعة عهد، وهم الذين قال الله ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾^(١).

ولما كانت محافظتهم على عهدهم من أفراد التقوى، وكان الأمر بالإحسان إلى شخص من أفعال المحب، قال تعالى معللاً: ﴿إن الله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿يحب المتقين﴾ أي يفعل بهم وبكم أفعال المحب، فهو قول حاث للكل على التقوى، وكل ينزله على ما يفهم، فهو من الإعجاز الباهر.

ولما قرر أمر البراءة إثباتاً ونفيًا، أمر بما يصنع بعد ما ضربه لهم من الأجل فقال: ﴿فإذا﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه إذا ﴿انسلخ﴾ أي انقضى وانجرد وخرج ومضى ﴿الأشهر الحرم﴾ أي التي حرمت عليكم فيها قتالهم وضربتها أجلاً لسياحتهم، والتعريف فيها مثله ﴿فأرسلنا إلى فرعون رسولا﴾ فعصى فرعون الرسول ﴿[المزمل: ١٦]﴾ ﴿فاقتلوا المشركين﴾ أي الناكثين الذين ضربتم لهم هذا الأجل إحساناً وكرماً؛ قال البغوي: قال الحسن بن الفضل: هذه الآية تنسخ كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء - انتهى. ومعنى ﴿حيث وجدتموهم﴾ أي في حل أو حرم في شهر حرام أو غيره ﴿وخذوهم﴾ أي بالأسر ﴿واحصروهم﴾ أي بالحبس عن إتيان المسجد والتصرف في بلاد الإسلام وكل مقصد ﴿واقعدوا لهم﴾ أي لأجلهم خاصة فإن ذلك من أفضل العبادات ﴿كل مرصد﴾ أي ارصدوهم وخذوهم بكل طريق يمكن ولو على غرة أو اغتيالاً من غير دعوة، وانتصابه على الظرف لأن معنى اقعدهم لهم: ارصدوهم، ومتى كان العامل في الظرف المختص عاملاً من لفظه أو من معناه جاز أن يصل إليه بغير واسطة «في» فكما يتعدى الفعل إلى المصدر من غير لفظه إذا كان بمعناه فكذلك إلى الظرف - ذكره أبو حيان، والتعبير بالعود للإرشاد إلى الثاني، وفي التردد والاستقرار والتمكن وإيصال الفعل إلى الظرف إشارة إلى أن يشغلوا في التردد كل جزء من أجزاء كل مرصد إن قدروا على ذلك بخلاف ما لو عبر بـ«في» فإنه إنما يدل على شغل كل مرصد الصادق بالكون في موضع واحد منه أي موضع كان.

ولما أمر تعالى بالتضييق عليهم، بين ما يوجب الكف عنهم فقال: ﴿فإن تابوا﴾ أي عن الكفر ﴿واقاموا﴾ أي وصدقوا دعواهم التوبة بالبينه العادلة بأن أقاموا ﴿الصلوة﴾ وآتوا الزكوة ﴿أي فوصلوا ما بينهم وبين الخالق وما بينهم وبين الخلاق خضوعاً لله تعالى وتركاً للفساد ومباشرة للصالح على الوجه الذي أمر به رسول الله ﷺ، فإذا وجد هذان الشاهدان العدلان ﴿فخلوا﴾ أي بسبب ذلك ﴿سبيلهم﴾ أي بأن لا تعرضوا لشيء

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٣٨٣ ونسبه لابن أبي حاتم عن مجاهد.

مما تقدم لأن الله يقبل ذلك منهم ويغفر لهم ما سلف ﴿إن﴾ أي لأن ﴿الله﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿غفور رحيم﴾* أي بليغ المحو للذنوب التي تاب صاحبها عنها والاتباع له بالإكرام.

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ (٦) كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عهدتم عند المسجد الحرام فما استقموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ (٧) كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾ (٨) اشتروا ببايئت الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ (٩).

ولما سد عليهم طريق مخالطتهم ما لم يتصفوا بالتوبة المدلول عليها بالشهيدين المذكورين سداً مطلقاً، وفتحه عند الاتصاف بها فتحاً مطلقاً، عطف على ذلك طريقاً آخر وسطاً مقيداً فقال: ﴿وإن أحد من المشركين﴾ أي الذين أمرناكم بقتالهم ﴿استجارك﴾ أي طلب أن تعامله في الإكرام معاملة الجار بعد انقضاء مدة السياحة ﴿فأجره﴾ أي فأمّنه ودافع عنه من يقصده بسوء ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ أي الملك الأعظم بسماع التلاوة الدالة عليه، فيعلم بذلك ما يدعو إليه من المحاسن ويتحقق أنه ليس من كلام الخلق. ولما ذكر إجارته، وكان له بعدها توبة وإصرار. وكان حال التائب قد ذكر، بين ما يفعل به إن أصر فقال: ﴿ثم أبلغه﴾ أي إن أراد الانصراف ولم يسلم ﴿مأمنه﴾ أي الموضع الذي يأمن فيه ثم قاتله بعد بلوغه المأمن إن شئت من غير غدر ولا خيانة؛ قال الحسن: هي محكمة إلى يوم القيامة؛ ثم علل ذلك بما يبين غدرهم بقوله: ﴿ذلك بأنهم﴾ أي الأمر بالإجارة للغرض المذكور بسبب أنهم ﴿قوم لا يعلمون﴾* أي لا علم لهم لأنه لا عهد لهم بنبوة ولا رسالة ولا كتاب، فإذا علموا أوشك أن ينفعهم العلم.

ولما كان الأمر بالنبذ مظنة لأن يعجب منه، عجب فقال: فمن يتعجب منه؟ وأنكر عليه فقال: ﴿كيف يكون للمشركين﴾ أي أهل العرارة في الشرك الذين توجب عراقتهم فيه ومحبتهم لظهوره نكث العهد الذي لا أقبح منه عند العرب ولا أشنع ﴿عهد عند الله﴾ أي المستجمع لصفات الكمال، فهو لا يحب النقض من أولياته فكيف به من أعدائه ﴿وعند رسوله﴾ أي الذي هو أكمل الخلق وأوفاهم وأحفظهم للعهود وأرعاهم فهم أصداده فأعمالهم أصداد أعماله، وقد بدا منهم الغدر.

ولما كان استفهام الإنكار في معنى النفي، صح الاستثناء منه، فكأنه قيل: لا يكون للمشركين عهد ﴿إلا الذين عهدتم﴾ أي منهم كما تقدم ﴿عند المسجد الحرام﴾ أي الحرم يوم الحديبية، وهذا مما يدل على أن الاستثناء المتقدم من ﴿الذين﴾ في قوله ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عهدتم من المشركين﴾؛ قال البغوي؛ قال السدي والكلبي وابن إسحاق: هم من قبائل بكر: بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الدليل وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، فلم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الدليل من بني بكر فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض. ولما استثنى، بين حكم المستثنى فقال: ﴿فما استقاموا لكم﴾ أي ركبوا الطريق الأقوم في الوفاء بعهدهم ﴿فاستقيموا لهم﴾ والقول في ﴿إن الله﴾ أي المحيط بالجلال والجمال ﴿يحب المتقين﴾ كما سبق.

ولما أنكر سبحانه أن يكون للمشركين غير المستثنى عهد، بين السبب الموجب للانكار مكرراً أداة الإنكار تأكيداً للمعنى فقال: ﴿كيف﴾ أي يكون لهم عهد ثابت ﴿وإن﴾ أي والحال أنهم مضمرون لكم الغدر والخيانة فهم إن ﴿يظهروا عليكم﴾ أي إن يجعل أمر لهم على أمركم بأن يظفروا بكم بعد العهد والميثاق ﴿لا يرقبوا﴾ أي لا ينظروا ويرعوا ﴿فيكم﴾ أي في أذاكم بكل جليل وحقير ﴿إلا﴾ أي قرابة محققة ﴿ولا ذمة﴾ أي عهداً، يعني أن الأمر المبيح للنبد خوف الخيانة، وعلام الغيوب يخبركم أنهم في غاية الخيانة لكم، والإل هذا: القرابة - وهو قول ابن عباس، والمادة تدور على الألة وهي حربة في نصلها عرض، ويلزمها الصفاء والرقة والبريق، ويشبهه به الإسراع في العدو، والثبات في نفسها، ومنه القرابة والعهد والتغير في وصفها، ومنه تغير رائحة الإناء وفساد الأسنان والصوت، ومنه الأنين والجوار في الدعاء مع البكاء وخرير الماء والطعن والقهر، ومنه: إن هذا - أي كلام مسيلمة - ما يخرج من إل، أي من ربوبية، وفي إل الله، أي قدرته وإلهيته.

ولما كان ذلك مظنة لأن يقال: قد أكدوا لنا الأيمان وأوثقوا العهود، ولم يدعوا باباً من أبواب الاستعطاف، قال معللاً لما مضى مجيباً لمن استبعده: ﴿يرضونكم﴾ وعبر بأقصى ما يمكن الكلام به من القلوب تحقيقاً لأنهم ليس في قلوبهم شيء منه فقال: ﴿بأفواههم﴾ أي بذلك التأكيد، وصرح بالمقصود بقوله: ﴿وتأبى قلوبهم﴾ أي العمل بما أبدته ألسنتهم، وقليل منهم من يحمله الخوف ونحوه على الثبات أو يرجع عن هذا الفسق ويؤمن ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ أي راسخو الأقدام في الفسق خارجون - لمخالفة الفعل للقول - عما تريدونه، وإذا نقض الأكثر اضطر الأقل إلى موافقتهم.

ولما دام ما ترى من كشف سرائرهم، شرع سبحانه يقيم لهم الدليل على فسقهم وخيانتهم بتذكيرهم ما بدا من بعضهم من النقض بعد أن أثبت فيما مضى أنهم شرع واحد بعضهم أولياء بعض، وفيما يأتي أنهم بعضهم من بعض، فقال معبراً بما يفيد أنهم تمكنوا من ضد الإيمان تمكناً صار به كأنه في حوزتهم: ﴿اشترؤا﴾ أي لجوا في أهويتهم بعد قيام الدليل الذي لا يشكون فيه فأخذوا ﴿بآيآت الله﴾ أي الذي لا شيء مثله في جلال ولا جمال على ما لها من العظم في أنفسها وبإضافتها إليه ﴿ثمناً قليلاً﴾ من أعراض الدنيا فرضوا بها مع مصاحبة الكفر، وذلك أن أبا سفيان أطعمهم أكلة فتقضوا بها عهودهم ﴿فصدوا﴾ أي فسبب لهم ذلك وأداهم إلى أن صدوا ﴿عن سبيله﴾ أي من يريد السير عليه ومنعوا من الدخول في الدين أنفسهم ومن قدروا على منعه.

ولما دل على ما أخبر به من فساد قلوبهم، استأنف بيان ما استحقوه من عظيم الذم بقوله معجباً منهم: ﴿إنهم ساء ما﴾ وبين عراقتهم في القبائح وأنها في جبلتهم بذكر الكون فقال: ﴿كانوا يعملون﴾ أي يجددون عمله في كل وقت، وكأنه سبحانه يشير بهذا إلى ما فعلت عضل والقارة بعاصم بن ثابت وخبيب بن عدي، ذكر ابن إسحاق في السيرة عن عاصم بن عمر رضي الله عنه - والبخاري في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه -، كل يزيد على صاحبه وقد جمعت بين حديثيهما أنه قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفرأ من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤونا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام فبعث معهم نفرأ ستة - وقال البخاري: عشرة - وأمر عليهم عاصم بن ثابت فخرج معهم، حتى إذا كانوا بالرجيع ماء لهذيل غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذياً، فلما أتوهم أخذوا أسيافهم ليقاتلوهم، فقالوا: إنا والله لا نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكن عهد الله وميثاقه أن لا نقتل منكم أحداً، فأما عاصم فلم يقبل وقاتل حتى قتل هو وناس من أصحابه، ونزل منهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال رجل منهم: هذا أول الغدر، والله لا أصحابكم، إن لي بهؤلاء أسوة - يريد القتلى، فجرروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه؛ فانطلقوا بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة فقتلوهما^(١).. وقصة العرنين الذين قدموا على رسول الله ﷺ فأظهروا الإسلام ثم خرجوا إلى لقاح النبي ﷺ فقتلوا الراعي واستاقوا اللقاح بعد ما رأوا من الآيات، فبعث النبي ﷺ في آثارهم فقتلهم^(٢)؛

(١) انظر صحيح البخاري ٤٠٨٦ وسيرة ابن هشام ١٢٠/٢.

(٢) قصة العرنين عند البخاري ٢٣٣ و ٣٠١٨ و ٤١٩٣ ومسلم ١٦٧ وأبو داود ٤٣٦٤ والترمذي ٧٢ =

وفي تاريخ ابن الفرات عن القتيبي أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن عوسجة البجلي إلى بني حارثة بن عمرو بن قرط بكتاب فرقعوا دلوهم بالكتاب فقال النبي ﷺ: ما لهم! أذهب الله عقولهم، فهم أهل رعدة وكلام مختلط؛ ولما خرج أهل مكة بعد أن عاملهم ﷺ بغاية الإحسان أعتقهم وعفا عنهم بعد تلك الحروب والأذى في المبالغة في النكيات التي لا يعفو عن مثلها إلا الأنبياء، خرجوا معه إلى حنين غير مرادين لنصره ولا محبين لعلو أمره، بل هم الذين انهزموا بالناس - كما نقله البغوي عن قتادة؛ وقال أبو حيان: ويقال: إن الطلقاء من أهل مكة فروا وقصدوا إلقاء الهزيمة في المسلمين وبلغ فلهم مكة - انتهى. وقال الواقدي: وخرج رجال مكة مع النبي ﷺ فلم يتغادر منهم أحد على غير دين ركبناً ومشاة، ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم، ولا يكرهون أن تكون الصدمة بمحمد وأصحابه، وقال هو وغيره: فلما كانت الهزيمة حيث كانت والدائرة على المسلمين تكلم قوم بما في أنفسهم من الكفر والضغن والغش، وذكروا أنه عزم ناس منهم على قتل النبي ﷺ ولكن الله منعه منهم. هذا بعض ما غدر فيه كفار العرب، وأما اليهود فكلهم نقض: بنو قينقاع ثم النضير ثم قريظة ثم أهل خيبر، حتى كان ذلك سبب إخراجهم منها وإجلانهم إلى بلاد الشام، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى أنهم قد تبين لهم مثل الصباح جميعاً ما أخبرهم به النبي ﷺ، فلما لم يرجعوا لمجرد أهوائهم كانوا قد اشتروا بذلك ثمناً قليلاً، وهو التمتع بما هم فيه مدة حياتهم على ما صاروا إليه من سفول الكلمة وإدبار الأمر، فمن قاده هواه إلى ترك السعادة العظمى لهذا العرض الزائل اليسير كان غير مأمون على شيء لأنه رهينة داعي الهوى وأمر الشيطان، لأنه أول ما بدأ بنفسه فغدر بها وغشها غير ناظر في مصلحة ولا مفكر في عاقبة.

﴿ لَا يَرْجُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١١﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٣﴾ أَلَا تَقْبَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّكُمْ أُولَئِكَ أَنْخَشْنَاهُمْ فَأَلَّهْ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

= و ١٨٤٥ و ٢٠٤٢ والنسائي ١٦٠/١ - ١٦١ و ٩٣/٧ - ٩٤ وأحمد ١٨٦/٣ و ١٠٧/٣ من حديث أنس.

ولما أخبر تعالى بعراقتهم في الفسق، دل عليه بأن خيانتهم ليست خاصة بالمخاطبين، بل هي عامة لكل من اتصف بصفتهم من الإيمان، فمدار خيانتهم على الوصف، فقال: ﴿لا يرقبون في مؤمن إلا﴾ أي قرابة وأصلاً جيداً ثابتاً ﴿ولا ذمة﴾ أي عهداً أكيداً ﴿وأولئك﴾ أي البعداء من كل خير ﴿هم﴾ أي خاصة لتناهي عدوانهم ﴿المعتدون﴾ أي عاداتهم المبالغة في حمل أنفسهم على أن يعدوا الحدود لعدم ما يردهم عن ذلك من وازع إلهي وراوع شرعي كما فعل عامر بن الطفيل بأهل بئر معونة مع أنهم في جوار عمه وكان من خبرهم أن عمه أبا براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ فقال له: لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد رجوت أن يستجيبيوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة المعنق ليموت في سبعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين، فلما نزلوا بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل فلم ينظر في كتابه وعدا عليه فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا وقالوا: لن نخفر أبا براء، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم: عصية ورعلاً وذكوان فقتلوهم فلم يفلت منهم إلا ثلاثة نفر عمرو بن أمية الضمري أحدهم، فعظم ذلك على النبي ﷺ ودعا على قتلهم شهراً^(١)؛ قال البغوي: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل الطائف أمدهم - يعني قريشاً - بالأموال ليقوهم على حرب رسول الله ﷺ، فهذا الذي أحكمه تعالى من نبذ العهد نظر للدين، لأنه نظر لجميع أهله الذين لا يوجد إلا بهم.

ولما بين ما أوجب بعدهم منهم ومعاداتهم لهم، بين ما يصيرون به أهلاً فقال ﴿فإن تابوا﴾ أي بالإيمان بسبب ما أبدتكم لهم من الغلظة ﴿وأقاموا﴾ أي أيدوا ذلك بأن أقاموا ﴿الصلوة﴾ أي بجميع حدودها ﴿وآتوا الزكوة﴾ أي كما حده رسول الله ﷺ ﴿فإخوانكم﴾ أي هم، وبين أنها ليست أخوة النسب فقال: ﴿في الدين﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، فلا تعرضوا لهم بما يكرهونه.

ولما كان كأنه قيل بعثاً وتحريضاً على تأمل ما فصل: قد فصلنا لكم أمرهم في هذه الآيات تفصيلاً، عطف عليه قوله: ﴿ونفصل﴾ أي في كل أمر يحتاجون جميع ﴿الآيت﴾ وعظم هذه الآيات وحثهم على تدبرها بقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾ أي صار العلم لهم صفة فلهم ملكة يتصرفون بها في أصوله وفروعه، لا يغترون بمجرد كلام من شأنه الرداءة والمخالفة بين القول والعمل، والاعتراض بهذا بين هذه الجمل المتلاحمة

(١) أخرجه بنحوه البخاري ٤٠٩٠ من حديث أنس.

إشارة إلى عظم الأمر الذي نبه عليه وتحريض على إنعام النظر فيه ليعلم أن مدخوله جليل الأمر عظيم القدر لثلا يظن أنه تكرر.

ولما بين السبب الموجب لمجازاتهم بجنس عملهم، وهو البراءة منهم وما يتبع ذلك إلى أن ختم بتقدير توبتهم، رجع إلى قسيم قوله ﴿فما استقاموا لكم﴾ فقال: ﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ أي التي حلفوها لكم؛ ولما كان النقض ضاراً وإن قصر زمنه، أتى بالجار فقال: ﴿من بعد عهدهم﴾ أي الذي عقده ﴿وطعنوا﴾ أي أوقعوا الطعن ﴿في دينكم﴾ أي بقول أو فعل.

ولما كان هذا الفعل لا يستقل به في الأغلب إلا الرؤساء، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿فقاتلوا﴾ ووضع موضع ضميرهم تحريضاً على قتالهم وإشارة إلى أنهم ما نكثوا وأقدموا على هجنة الكذب ولم يستهجنوا الخروج عن عادات الكرام إلا وقد رسخوا في الكفر فقال: ﴿أئمة الكفر﴾ ثم أشار - بقوله معللاً لجواز المقاتلة: ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ إلى أن ذلك ولو فعله الأتباع ولم يكفهم الرؤساء فهو عن تمال منهم فابدؤوا بالرؤوس فاقطعوا تنقطع الأذناب، وقراءة ابن عامر بالكسر معناها: لا أمان لهم لأنهم قد نقضوا العهد الموجب له بما وقع منهم، ومن طعن من أهل الذمة في الإسلام طعنًا ظاهراً جاز قتله، فإن العهد مأخوذ عليه أن لا يطعن، ثم علل المقاتلة بقوله: ﴿لعلهم يتتهون﴾ أي اجعلوا قصدكم لقتالهم أن يكون حالهم حال من ينتهي عن غيه بما يرى منكم من صادق الجد بماضي الحد، روى البخاري في التفسير عن حذيفة رضي الله عنه قال: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا من المنافقين إلا أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده. (١)

ولما نفى أيمانهم بنفي إيمانهم، شرع يقيم الدليل على ذلك بأمر ارتكبوها، كل منها بسبب باعث على الإقدام عليهم، ويحث على قتالهم في صورة تعجيب ممن يتوانى فيه فقال: ﴿ألا﴾ وهو حرف عرض، ومعناه هنا الحض لدخول همزة الإنكار على النافي فنفته فصار مدخولها مثبتاً على سبيل الحث عليه فهو أبلغ مما لو أثبت بغير هذا الأسلوب ﴿تقاتلون قوماً﴾ أي وإن كانوا ذوي منعة عظيمة ﴿نكثوا أيمانهم﴾ أي في قصة عاصم وأصحابه والمنذر وأصحابه والإعانة على خزاعة وغير ذلك، فكان النكث لهم عادة وخلقاً، وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم ليكون ذلك زاجراً عن النقض، وكانت قصة خزاعة أنه كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة قتل

(١) أخرجه البخاري ٤٦٥٨ عن حذيفة بن اليمان موقوفاً.

في الجاهلية، وكانت خزاعة قد دخلت في عهد النبي ﷺ بالحديبية لما كان لهم فيه من المحبة من مسلمهم وكافرهم لما بينهم من الحلف - كما تقدم آخر الأنفال، ودخلت بنو بكر في عهد قريش فمرت على ذلك مدة، ثم إن أنس بن زعيم الديلي هجا رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فوقع به فشجه فخرج إلى قومه فأراههم شجته فثار الشر مع ما كان بينهم، وما تطلب بنو بكر من خزاعة من دمائها، فكلمت بنو نفاثة من بني بكر أشراف قريش فوجدوا القوم إلى ذلك سراعاً فأعانوهم بالسلاح والكرع والرجال، فخرج نوفل بن معاوية الديلي وهو يومئذ قائدهم؛ قال ابن إسحاق: وليس كل بني بكر بايعه - وقال الواقدي: واعتزلت بنو مدلج فلم ينقضوا العهد - حتى بيت خزاعة وهم على الوتير ماء لهم، فأصابوا منهم رجلاً وتجاوزوا واقتتلوا وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً متكرين منتقبين: صفوان بن أمية ومكرز بن حفص بن الأخيف وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبي جهل وأجلبوا معهم أرقاءهم، وكانت خزاعة آمنة لمكان العهد والموادعة.

ولما ذكرهم بمطلق نكثهم في حقهم عامة، وذكرهم بما خصوا به سيدهم بل سيد الخلق كلهم فقال: ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ أي من مكة في عمرة القضاء، بل أمره بالخروج عند انقضاء الثلاثة الأيام وألحوا في ذلك وهو وإن كان قاضاهم على ذلك، لكن قد نقل ابن إسحاق وغيره في قصة النداء بسورة براءة أنه كان في القضية والعهد الذي كان بينه وبينهم أن لا يمنع من البيت أحد جاءه زائراً، ولعلمهم هموا بإخراجه قبل الثلاثة الأيام لما داخلهم من الحسد عند ما عينوا من نشاط أصحابه وكثرتهم وحسن حالهم، وذلك غير بعيد من أفعالهم، وإظهارهم التبرؤ به ﷺ حتى اجترؤوا - وهو أعلى الخلق مقداراً، وأظهرهم هيئة وأنواراً وأظهرهم رسوماً وأثاراً - على الإلحاح عليه في الخروج من بلد آبائه وأجداده الذين هم أحقهم بها ومسقط رأسه وموضع مرباه، ولكن لم أراه مصرحاً به، وهو عندي على ما فيه أولى مما ذكره من الهم بإخراجه عند الهجرة على ما لا يخفى، أو يكون المراد ما هم به ابن أبي المنافق ومن تابعه من أصحابه من إخراج النبي ﷺ من المدينة حيث قال في غزوة المريسيع: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل بعد إعطائهم العهود على الإيواء والنصرة والإسلام، وذلك لتذكير المؤمنين بمسارعتهم إلى النقض بعد أن أثبت أنهم في الالتحام في كيد الإسلام كالجسد الواحد، فكأنه يقول: إذا ترك هؤلاء إيمانهم فأولئك أخرى أن يتقضوا إيمانهم، وهو بعث للمؤمنين على التبرؤ من الكافرين منافقين كانوا أو مجاهرين مقاربين أو مباعدين.

ولما ذكرهم بالخيانة عامة وخاصة، أتبعها ما حققها بالقتال فقال: ﴿وهم بدؤوكم﴾ أي بتطابق من ضمائرهم وظواهرهم ﴿أول مرة﴾ أي بالقتال والصد في الحديبية بعد إخباركم إياهم بأنكم لم تجيئوا للقتال وأنكم ما جئتم إلا زواراً للبيت الحرام الذي الناس فيه سواء وأنتم أحق به منهم، وذلك أول بالنسبة إلى هذا الثاني مثل قوله ﴿إنكم رضيتم بالعود أول مرة﴾ وقال بعض المفسرين: المراد بأول مرة قتالهم خزاعة، وهو واضح لأنه بعد عقد الصلح، وقيل: في بدر بعد ما سلمت غيرهم وقالوا: لا نرجع حتى نستأصل محمداً وأصحابه، وقيل: المراد به مطلق القتال لأن النبي ﷺ جاءهم بالكتاب المنير ودعاهم بغاية اللين، وتحداهم به عند التكذيب، فعدلوا عن ذلك إلى القتال فهم البادئون والباديء أظلم.

ولما أمرهم بالقتال وكان مكرهاً إلى النفوس على كل حال. شرع يبين الأسباب الحاملة على التواني عن قتالهم، وحصرها في الخشية والعاطفة، وقسم العاطفة إلى ما سببه القرب في محاسن الأفعال وإلى ما سببه القرب في النسب والصهر، ونقض الكل وبين أنه لا شيء منها يصلح للسببية، فقال بادئاً بالخشية لأنها السبب الأعظم في ترك المصادمة منكرأ عليهم موبخاً لهم ليكون أبلغ في الحث على قتالهم منبهاً على أن التواني عنهم مصحح للوصف بالجبن ورقة الدين: ﴿أتخشونهم﴾ أي أتخافون أن يظفروا بكم في القتال بأن يكونوا على باطلهم أشد منكم على حقاكم ﴿فأله﴾ أي الذي له مجامع العظمة ﴿أحق﴾ أي منهم ﴿أن تخشوه﴾ أي بأن يكون مخشياً لكم لما تعلمون من قدرته في أخذه لمن خالفه ولو بعد طول الأناة ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي فإن من صدق بأنه الواحد الذي تفرد بصفات العظمة لم ينظر إلى غير هيبته.

ولما بكت في التواني عنهم، وعدمهم بما يزيل خشيتهم منهم، بل يوجب إقدامهم عليهم ورغبتهم فيهم، فقال مصرحاً بما تضمنه الاستفهام الإنكاري في ﴿ألا تقاتلون﴾ من الأمر: ﴿قاتلوهم﴾ أي لله لا لغرض غيره ﴿يعذبهم الله﴾ أي الذي أنتم مؤمنون بأنه المتفرد بصفات الجلال والجمال ﴿بأيديكم﴾ أي بأن تقتلهم وتأسروهم وتهزمهم ﴿ويخزهم﴾ أي بالذل في الدنيا والفضيحة والعذاب في الأخرى.

ولما كان ذلك قولاً لا يقتضي النصر الذي هو علو العاقبة قال: ﴿وينصركم عليهم﴾ أي فترضوا ربكم بذلك لإذلاله من يعاديه بكم؛ ولما كان نكالهم بما ذكر يثمر لبعض المؤمنين سروراً لهم فيه حظ، بين تعالى أنه لا يؤثر في العمل بعد ثباته على أساس الإخلاص فقال: ﴿ويشف﴾ أي بذلك ﴿صدور قوم مؤمنين﴾ أي راسخين في

الإيمان، أسلفوا إليهم مساويء أوجبت ضغائن وإحناً كخزاعة وغيرهم ممن أعانوا عليه أو أساؤوا إليه .

﴿ وَيَذْهَبَ غَيِّظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٢٢﴾ ۝

ولما كان الشفاء قد لا يراد به الكمال، أتبعه تحقيقاً لكماله قوله: ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ أي يثبت بها من اللذة ضد ما لاقوه منهم من المكروه، وينفي عنها من الألم بفعل من يريد سبحانه من أعدائهم وذل الباقين ما كان قد برح بها، ولقد وفي سبحانه بما وعد به، فكانت الآية من ظواهر الدلائل .

ولما كان التقدير: قاتلوهم فإنكم إن قاتلتموهم كان كذا، عطف سبحانه على أصل هذه الجملة قوله: ﴿ويتوب الله﴾ أي الملك الذي له صفات الكمال ﴿على من يشاء﴾ أي منهم فيصيروا إخواناً لكم أولياء، والمعنى قاتلوهم يكن القتال سبباً لهذه الخمسة الأشياء، وأما التوبة فتارة تسبب عنه وتارة عن غيره، ولأجل احتمال تسببها عنه قرئ شاذاً بالنصب على أن الواو للصرف؛ ولما كان ما تضمنه هذا الوعد الصادق يدور على القدرة والعلم، وكان - العلم يستلزم القدرة، فكان التقدير: فالله على كل شيء قدير، عطف عليه قوله: ﴿والله﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء علماً وقدرة ﴿عليم﴾ أي بكل شيء وبمن يصلح للتوبة ومن لا يصلح وما في قلوبكم من الإقدام والإحجام لو برز إلى الخارج كيف كان يكون ﴿حكيم﴾ أي أحكم جميع أموره، ولم يعلق الأحكام الشرعية من أفعالكم الكسبية إلا بما تعلق العلم به في حال ظهوره .

ولما كان التقدير - لما أرشد إليه تقاعدهم عن القتال وإدخال «أم» المرشد إلى أن مدخوله وسط الكلام فإن الابتداء له الألف وحدها: وهل حسبتم أنه تعالى لا يعلم ذلك أو لا يقدر على نصركم؟ بنى عليه قوله موبخاً لمن تناقل عن ذلك بنوع تناقل: ﴿أم حسبتم﴾ أي لنقص في العقل أنه يبني الأمر فيه على غير الحكمة، وذلك هو المراد بقوله: ﴿أن تتركوا﴾ أي قارين على ما أنتم عليه من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن من المنافق ﴿ولما﴾ عبر بها لدلالاتها - مع استغراق الزمان الماضي - على أن يتبين ما

بعدها متوقع كائن ﴿يعلم الله﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ﴿الذين جاهدوا منكم﴾ أي علماً ظاهراً تقوم به الحجة عليكم في مجاري عاداتكم على مقتضى عقولكم بأن يقع الجهاد في الواقع بالفعل.

ولما كان المعنى: جاهدوا مخلصين، ترجمه وبسطه بقوله: ﴿ولم﴾ أي ولما يعلم الذين لم ﴿يتخذوا﴾ ويجوز أن يكون حالاً، ودل على تراخي الرتب عن مكانته سبحانه بقوله: ﴿من دون الله﴾ أي الذي لا يعدل عنه ويرغب في غيره من له أدنى بصيرة - كما دل عليه الافتعال - لأنه المنفرد بالكمال، وأكد النفي بتكرير ﴿لا﴾ فقال: ﴿ولا رسوله﴾ أي الذي هو خلاصة خلقه ﴿ولا المؤمنين﴾ أي الذين اصطفاهم من عباده ﴿وليجة﴾ أي بطانة تباطونها وتسكنون إليها فتلج أسراركم إليها وأسرارها إليكم، فإن الوليجة كل شيء أدخلته في شيء ليس منه، والرجل يكون في قوم وليس منهم وليجة، فوليجة الرجل من يختصه بدخيلة أمره دون الناس، يقال: هو وليجتي وهم وليجتي - للواحد والجمع - نقل ذلك البغوي عن أبي عبيدة، وقال ابن هشام وليجة: دخيلاً، وجمعها ولائج، يقول: لم يتخذوا دخيلاً من دونه يسرون إليه غير ما يظهرون نحو ما يصنع المنافقون، يظهرون الإيمان للذين آمنوا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم - والحاصل أنه لا يكون الترك بدون علم الأمرين حاصلين، والمراد بنفي العلم نفي المعلوم، فالمعنى: ولما يكن مجاهدون مخلصون.

ولما كان ظاهر ذلك مظنة أن يتمسك به من لم يرسخ قدمه في المعارف، ختم بقوله: ﴿والله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿خبير بما تعملون﴾ أي سواء برز إلى الخارج أو لا.

ولما حذرهم من اتخاذ وليجة من دونه، شرع يبين أن الوليجة التي يتخذها بعضهم لا تصلح للعاطفة بما اتصفت به من محاسن الأعمال ما لم توضع تلك المحاسن على الأساس الذي هو الإيمان المبين بدلائله، فقال سائفاً له مساق جواب قائل قال: إن فيهم من أفعال الخير ما يدعو إلى الكف عنهم من عمارة المسجد الحرام وخدمته وتعظيمه! ﴿ما كان للمشركين﴾ عبر بالوصف دون الفعل لأن جماعة ممن أشرك أسلم بعد ذلك فصار أهلاً لما نفى عنهم ﴿أن يعمروا مسجد الله﴾ أي وهو المنزه بإحاطته بصفات الكمال؛ قال البغوي: قال الحسن: ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام، ثم قال في توجيه قراءة الجمع: قال الحسن: إنما قال: مسجد الله، لأنه قبلة المساجد كلها - يعني فعامره عامر جميع المساجد، ويجوز أن يراد الجنس، وإذا لم يصلحوا لعمارة الجنس دخل المسجد الحرام لأنه صدر الجنس، وذلك أكد لأنه

بطريق الكناية - قال الفراء: وربما ذهب العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى أن الرجل يركب البرذون فيقول: أخذت في ركوب البراذين، ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار - انتهى.

فتحرر أن المعنى: منعهم من إقامة شعائره بطواف أو زيارة أو غير ذلك لأنهم نجس - كما يأتي ﴿شُهَدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي التي هي معدن الأرجاس والأهوية ﴿بِالْكَفْرِ﴾ أي بإقرارهم، لأنه بيت الله وهم يعبدون غير الله وقد نصبوا فيه الأصنام بغير إذنه وادعوا أنها شركاؤه، فإذا عمارتهم تخريب لتنافي عقدهم وفعلهم، قال البغوي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادتهم سجودهم للأصنام، وذلك أنهم كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة، كلما طافوا شوطاً سجدوا لأصنامهم.

ولما نفى قبيح ما يفعلون حسن ما يعتقدون، أشار إلى بعدهم عن الخير بقوله: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي من العمارة والحجابه والسقاية وغير ذلك، فسدت بيطان معانيها لبنائها على غير أساس ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ﴾ أي خاصة ومن فعل كفعلهم فهو منهم ﴿خُلِدُونَ﴾ أي بجعلهم الكفر مكان الإيمان.

ولما نفى عنهم أهلية العمارة، بين من يصلح لها فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي إنما يؤهل لذلك القرب ممن له الأسماء الحسنی والصفات العلی حساً بإصلاح الذات ومعنى بالتعظيم بالقربات من قمها وتنظيفها ورم ما تهدم منها وتنويرها بالمصايح الحسية وبالمعنوية من الذكر والقراءة - ودرس العلم أجل ذلك - وصيانتها مما لم تبين له من أحاديث الدنيا ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي فكان من أهل المعرفة الذين تصح عبادتهم وتفيدهم، فإنها إنما تفيد في ذلك اليوم، ولم يذكر الإيمان بالرسول لأن هذه البراءة عن لسانه أخذت، فالإيمان بها إيمان به لا محالة، فعدم ذكره أقعد في إيجاب الإيمان به ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي وأيد دعواه الإيمان بهذين الشاهدين، وذلك أن عمارة المساجد ليست مقصودة لذاتها، بل الدلالة على رسوخ الإيمان، والصلاة أعظم عمارتها، والزكاة هي المعين لعمدتها على عمارتها.

ولما كان ربما فهم من قوله: ﴿آمَنَ﴾ أنه يكفي في الإيمان مجرد الإقرار باللسان، أعلم أنه لا بد في ذلك من إيجاد التصديق حقيقة المثمر لخشية الله فلذلك قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ أي في الأعمال الدينية ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ أي ولم يعمل بمقتضى خشية غير الملك الأعظم من كف عما يرضي الله بما فيه سخطه، بل تقدم على ما انحصر رضى الله فيه

ولو أن فيه تلفه، وحاصله أنه يقدم خشيته من الله على خشيته من غيره، فهو يرجع إلى قوله ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ ولكن هذا أبلغ لكونه نفى نفس الخشية وإن كان المراد نفي لازمها عادة، وفيه تعريض لهم بأنهم لا يصلحون لخدمته لأنهم يخافون الأصنام ويفعلون معها بعبادتها فعل من يخافها؛ ولما سبب عما مضى نفياً وإثباتاً أن المتصف بهذه الأوصاف يكون جديراً بالهداية وحقيقاً بها، قال تعالى: ﴿فعمى أولئك﴾ أي العالو الهمم ﴿أن يكونوا﴾ أي جبلة ورسوخاً ﴿من المهتدين﴾ فأقامهم - مع ما قدم لهم من الكمال بالمعارف والأفعال - بين الرجاء والخوف مع الإشارة بإفراد الخشية إلى ترجيح الخوف على الرجاء إيداناً بعلو أمره وعظيم كبره إشارة إلى أنه لا حق لأحد عليه وأنه إن شاء أتاب، وإن أراد حكم - وهو الحكم العدل - بالعقاب، لا يسأل عما يفعل، وكرر الاسم الأعظم لمزيد الترغيب لخطر المقام وعزة المرام، ومادة عسى بجمع تصاريفها تدور على الحركة، وهذه بخصوصها للأطماع، والحاصل أن من اتصف بالأوصاف الأربعة كان صالحاً وخليقاً وجديراً وحقيقاً بأن يتحرك طمعه ويمتد أمله إلى أن يكون من جملة أهل الهدى، فكيف توجبون أنتم لمن لم يتصف بواحد منها ما يختص به المهتدون من الموالاتة، هكذا كان ظهر لي أولاً في مدار المادة، ثم ظهر لي أن ذلك في أكثر تقاليبها، مع إمكان أن يكون غيره للإزالة، وأن الشامل لها - يائية وواوية بتقاليبها العشر: عسى، عيس، سعى يسع، عسو، عوس، سعو، سوع، وسع، وعس - أنها لما يمكن أن يكون، وهو جدير وخليق بأن يكون، من قولهم: أعس به - أي أخلق. وبالعسى أن يفعل - أي بالحري، وإنه لمعساة بكذا - أي مخلقه، وبهذا فسرها سيبويه: قال ابن هشام الخضراوي في شرح الإيضاح لأبي علي: وقال سيبويه: إن عسى بمنزلة اخلوق، والمعساء كمكسال: الجارية المراهقة لأنها جديرة بقبول النكاح، ومن ثم اتت للطمع والإشفاق، وقد يزيد الرجاء فيطلق على القرب فيكون مثل كاد، وقد يشتد فيصل إلى اليقين فنستعمله حينئذ في معنى كان، ومنه: عسى الغوير ابوساً لكن قال الرضى: وأنا لا أعرف عسى في غير كلامه تعالى لليقين. وقد يضعف الرجاء فيصير شكاً، ومنه المعسية كمحسنة للناقة، قد شك أبها لبن أم لا، وعسى النبات - كفرح ودعا: غلظ ويبس، أي صار خليقاً لأن يرعى وأن يقطع، واليد من العمل مثله، أي فصارت جديرة بالصبر على المشاق، والعاسي، النخل: لأنه جدير بكمال ما يطلب منه من المنافع، وعسى الشيخ كرضي عساء وعسا كدعا يعسو: كبر، أي صار خليقاً بالموت وبأن لا يتعلم ما لم يكن في غريزته، وكذا عسى وعسا الإنسان عن الأدب، أي كبر عنه، والعود يبس وصلب واشتد أي فصار خليقاً لما يراد منه، والليل: اشتدت ظلمته، فصار

جديراً بمطابقة اسمه لمسماه وبتغطية الأمور، والعسو: الشمع، كأنه لإزالته ظلمة الليل بنوره إذا أحرق، وعسي بالشيء كفرح: لزمه، أي فصار جديراً بإضافته إليه؛ والعيس - بالفتح: ضراب الفحل ويقال: ماؤه لأنه جدير بالإنتاج، والعيس - بالكسر؛ الإبل البيض يخالط بياضها شقرة، وجمل وظبي أعيس وناقة عيساء، لأنها خليقة بكل محمدة لحسن لونها، وتعيست الإبل صارت بياضاً في سواد كذلك أيضاً وعيساء: امرأة والأنثى من الجراد، لشبهها بلون العيس، وأعيس الزرع إذا لم يكن فيه رطب، لأنه صار حقيقاً بالحصاد، والعوس - بالفتح - والعوسان: الطوفان بالليل، لأنه جدير ببلوغ المقاصد، وبالضم: ضرب من الغنم وهو كبش عوسي، إلحاقاً لها بالعيس لكنها لصغرهما اختير لها الضم جبراً لها وتقوية وتفأولاً بالكبر، واختير للإبل الكسر تفأولاً بسهولة القيادة، وبالتحريك: دخول الشدقين عند الضحك وغيره: تشبيهاً بالغنم، فكأنه جدير بأن يترك ما يحدث منه ذلك من الضحك وغيره، والنعت أعوس وعوساء، وعاس على عياله: كد عليهم وكدح، وعياله: قاتهم، وماله عوساً وعياسة: أحسن القيام عليه فعمل بما هو الأليق به في كل ذلك والعواسة - بالضم: الشربة من اللبن وغيره، لأنها جديرة بالري، والأعوس: الصيقل والوصاف للشيء، لأنه جدير بإظهار الخبء، والعواساء كبراكاء: الحامل من الخنافس، لأنها في تلك الحالة أجدر بما تفهمه مادتها من الكراهة فإنه يقال: خنفس عن القوم: كرههم وعدل عنهم، والخنافس - بالضم: الأسد، لأنه جدير بأن يكره ويعدل عنه؛ والسعي: عدو دون الشد وكل عمل سعي؛ قال في القاموس: سعى كرعى: قصد وعمل ومشى وعدا ونم وكسب، وكل ذلك يكون جديراً بدرك حاجته، والسعاية: مباشرة عمل الصدقات التي بها يدرك الإمام أخذ الحقوق، فيكون خليقاً بإغناء الفقراء، وسعت الأمة: بغت، فكانت خليقة بعمل الإماء عند العرب، وساعاها: طلبها للبغيء، وأسعاها: جعله يسعى، والمسعاة: المكرمة والمعلقة في أنواع المجد، لأنها جديرة بأن يسعى لها، واستسعى العبد: كلفه من العمل ما يؤدي به عن نفسه إذا عتق بعضه ليعتق به ما بقي لأنه جدير بذلك، والسعاية - بالكسر: ما كلف من ذلك؛ والسيع: الماء الجاري على وجه الأرض، وقد انسع - إذا جرى، لأن الماء خليق بالجري والحركة، ساع الماء والشراب: اضطرب على وجه الأرض، وسيعاء من الليل وكسيرا: قطع منه، كأنه ينظر إلى الساعة وهي جزء، هو لنفاسته خليق بأن يحفظ ولا يضيع وأن يتدارك إن ضيع، والسياع - بالفتح: ما يطين به، والشحم تطفى به المزادة، كأنه يمنع ما هو خليق بالجري، وقد سيعت الجب - إذا طينته بطين أو جص؛ وكذلك الزق والسفن إذا طليت بالقار، والمسيسة: خشبة مملسة يطين بها تكون مع حذاق

الطيانيين، والتسييع: التطين بها تكون مع حذاق التدهين، وقال القزاز: والسياع: تطيينك بالجص أو الطين أو القير، تسيع به السفن، والسياع: شجر العضاء له ثمر كهيئة الفستق وشجر اللبان، وكل منها خليق بالرغبة فيه، والمسياع؛ الناقة تذهب في المرعى، كأنها شبهت بالماء الجاري، وهي أيضاً خليقة بالسمن، والتي تحمل الضيعة، وسوء القيام عليها، والتي يسافر عليها ويعاد، لأنها خليقة بأن يرغب فيها وأساعه: أهمله، أي أزال ما هو خليق به من الحفظ فصار خليقاً بالهلاك، والسعوة - بالكسر: الساعة كالسعواء بالكسر والضم - وقد تقدم تخريجها - والمرأة البذية الخالعة، كأنها جديرة بسرعة الفراق كالساعة، والساعي: الوالي على أي أمر وقوم كان، ولليهود والنصارى: رئيسهم، لأنه خليق بأن يسعى عليهم ويذب عنهم، والساعة: التصرف، لأن الإنسان جدير به، وسعية علم للعنز، لأنها خليقة بالسعي، والسعاوي - بالضم: الصبور على السهر والسفر، نسبة إلى السعي على وجه بليغ وهو خليق بأن يرغب فيه، وأسعوا به، أي طلبوه بقطع همزتها، والساعة: جزء من أجزاء الجديدين والوقت الحاضر والقيامة، لأن كل ذلك جدير وحقيق بالاحتفاظ من إضاعته، والهالكون كالجاعة للجياع، كأنهم أضاعوا ساعتهم فكانوا جديرين بما حصل لهم، وساعة سوعاء: شديدة، وساعت الإبل تسوع: بقيت بلا راع، فصارت جديرة بالهلاك والضياع، وأساعه: أهمله وضيعه، فصار كذلك، ومنه ناقة مسياع: تدع ولدها حتى يأكله السباع، ويعد سوع من الليل وسواع، أي هدوته، وأسوع: انتقل من ساعة إلى ساعة فصار جديراً بأن يتحفظ فيتدارك في الثانية ما فاته في الأولى، وأسوع الحمار: أرسل غرموله، فصار جديراً بالنزوان، وسواع: اسم صنم عبد في عهد نوح عليه السلام، غرقه الطوفان فاستثاره إبليس حتى عبد أيضاً، لأنه كان خليقاً - عندهم وفي زعمهم - بما أهله له - تعالى الله عن ذلك! والوسع مثلثة: الجدة والطاقة كالسعة، ومعناها الخلاقة بالاحتمال، وسعه الشيء - بالكسر - يسعه كيضعه سعة كدعة وزنة: كان جديراً باحتماله، واللهم سع علينا، أي وسع، وليسعك بيتك، أمراً بالقرار فيه، وهذا الإناء يسع عشرين كيلاً، أي يتسع لها، والواسع: ضد الضيق - كالوسيع، وفي الأسماء الحسنی: الكثير العطاء الذي يسع لما يسأل، أو المحيط بكل شيء أو الذي وسع رزقه جميع خلقه ورحمته كل شيء، والواسع كسحاب: الندب، وهو الخفيف في الحاجة الظريف النجيب، لأنه جدير بما يندب له، ومن الخيل: الجواد أو الواسع الخطو والدرع - كالوسيع، وقد وسع ككرم وساعة وسعة وأوسع: صار ذا سعة، والله عليه: أغناه، وتوسعوا في المجلس: تفسحوا، فصاروا جديرين باحتمال الداخل بينهم، ووسعه توسيعاً ضد ضيقه، ورحمة

الله وسعت كل شيء، أي أحاطت به، ووسع كل شيء علماً، أي أحاط به وأحصاه؛ والوعس كالوعد: شجر تعمل منه البرابط والعيدان، لأنه أحق الأشجار بذلك، والرمل السهل يصعب فيه المشي، لأنه يرى لسهولته خليقاً بأن يمشى فيه، وإذا حقق النظر كان خليقاً بصعوبة المشي لكونه رملًا، وأوعس ركبته، والوعساء: رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول، لأنها للينها حقيقة من بين روابي الرمل بالنبت، ومكان أوعس وأمكنة وعس، والميعاس: ما تنكب عن الغلظ، فهو جدير بالمشي فيه، والأرض؛ لم توطأ، فهي جديرة بالكف عن سلوكها، والطريق، لأنه جدير بأن يسلك، قال في القاموس: كأنه ضد، والمواعسة: ضرب من سير الإبل، كأنه وسط فهو جدير بالخير والمباراة في السير، أو لا تكون إلا ليلاً؛ وقال القزاز: توعست في وجهه حمرة أو صفرة، أي كانت خليقة بالظهور، قال: وإذا ذكروا الرملة قالوا: وعساء، وإذا ذكروا الرمل قالوا: أوعس - هذا ما في تنزيل الجزئيات من اللغة على مدار هذه المادة، وأما كلام أهل العربية في قواعد «عسى» الكلية فقال أبو عبد الله القزاز: هو فعل لا ينصرف فلا تقول؛ يعسى، ولا هو عاس، وقال عبد الحق الإشبيلي: ولا يأتي منه مستقبل ولا فاعل ولا مفعول ولا مصدر قال القزاز: ويصحبه «أن» ويجوز حذفها، و«أن» وما بعدها بمعنى المصدر وهي في موضع نصب، ولا يقع بعدها المصدر ولا اسم الفاعل، وإنما جاء هذا في مثل العرب: عسى الغوير أبؤساً، وأبؤس جمع بأس، وهذا يدل على أن خبر عسى في موضع نصب، وقال في القاموس: والأبؤس: الداهية، ومنه عسى الغوير أبؤساً، أي داهية، قال أبو عبيد في الغريب: كأنه أراد: عسى الغوير أن يحدث أبؤساً وأن يأتي بأبؤس، فهذا طريق النصب، ومما يبينه قول الكميت:

قالوا أساء بنو كرز فقلت لهم عسى الغوير بإس وإغوار

وقال شارح الجزولية أبو محمد بن الموفق: لما كانت للرجاء دخلها معنى الإنشاء فلم تتصرف، لأن تصرفها ينافي الإنشاء لأنها إذا تصرفت دلت على الخبر فيما مضى والحال والاستقبال، وذلك ينافي معنى الإنشاء الذي لا يصلح لماض ولا مستقبل، وقال بعض المتأخرين: عسى موضوعة لفعل يتوهم كونه في الاستقبال وهو على لفظ الماضي فاحتيج إلى «أن» بعده إذ لا مستقبل له، وذهب بعضهم إلى أن عسى حرف لعدم تصرفها ولا معناها في غيرها، والصحيح أنها فعل لفظاً ومعنى، أما لفظاً فظاهر، أي للحاق الضمائر وتاء التأنيث الساكنة، وأما معنى فلأنه إخبار عن طمع وقع للمتكلم، وجعل لفظها بلفظ الماضي لأن الطمع قد وقع، وإنما المطموع هو الذي يتوقع وينتظر، وأدخل «أن» على المطموع فيه لأنه لم يقع بعد، وجردت أخواتها عن «أن» لأن خبرها محقق

في الحال إذ قد شرع فيه إلا «كاد» فإنها للمقاربة في الجملة؛ وقال ابن هشام المصري في توضيحه: ويجب كون خبرها جملة، وشذ كونه مفرداً نحو عسى الغوير أبوساً، ويكون الاسم مرفوعاً بعسى وأن، والفعل في موضع نصب على الخبر، وقال الرضى: إنما لم يتصرف في عسى لتضمنها معنى الحرف، أي إنشاء الطمع والرجاء، وقوله: أبوساً وصائماً، لتضمن عسى معنى كان فأجري مجراه ومذهب المتأخرين أن عسى ترفع الاسم وتنصب الخبر ككان، وقال أبو طالب العبدي في شرح الإيضاح للفارسي: الأفعال موضوعة للتصرف من حيث كانت مقسمة بأقسام الزمان، ولولا ذلك لأغنيت المصادر عنها، ولهذا قال سيبويه فأما الأفعال فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء فبنيت لما مضى ولما يكون ولما هو كائن لم ينقطع، ولما خالفت هذه الأفعال - يعني عسى ونعم وبئس وفعل التعجب - سائر الأفعال في الدلالة ترك تصرفها أبداً بما أريدت له من المبالغة فيما جعلت دالة عليه، فمعنى عسى الطمع والإشفاق - كذا قال سيبويه، ولما اختصت بهذا المعنى ترك تصرفها، وقال الرماني: منعت ذلك حملاً على «لعل» كما حملت «ما» على «ليس» والأول أولى لأنه ليس ينبغي أن يحمل باب الأفعال على الحروف، ولأن الأفعال في بابها بمنزلة الحروف في بابها في لزوم البناء، وإنما الأسماء تحمل عليها كما تقول في قطام وحزام: إنه بني لوقوعه موقع الفعل، وأن أسماء الاستفهام بنيت لوقوعها موقع الحرف ولا تقول في الأفعال إنها بنيت حملاً على الحروف ولا الحروف بنيت حملاً على الأفعال، بل كل منهما أصل فكذلك التصرف، ليس امتناعه لحمله على الحرف وجريه مجراه، وعسى من أخوات «كان» وإنما لم تذكر معها للمخالفة بترك التصرف وبلزوم «أن» الخبر وبكونه فعلاً، ويدل على أنها من أخوات «كان» عسى الغوير أبوساً، فقد انكشف الأصل كما انكشف أصل أقام وأطال ونحوه بقوله:

صددت وأطولت الصدود وقلما وصل على طول الصدود يدوم
ولزوم الفعل بخبرها لجعله عوضاً من التصرف الذي كان ينبغي أن يكون لها،
وأما لزوم «أن» فلما أريد من صرف الكلام إلى تأويل الاستقبال لأن «أن» تخلص إليه،
والبيت الممثل به فيه شيء طريف، وهو مصدر مجموع واقع موقع مصدر واقع موقع
فعل، والمصادر في أصلها لا تجمع ولكنه ضرورة ومثل، فالأصل أن «بأس» ثم أبوساً -
انتهى كلام العبدي، وعندي أنه عند ما يقوى المعنى الذي سيقى له من طمع أو إشفاق
يجعل خبرها اسماً تنبيهاً على أنها الآن بمنزلة كان لما اشتد من شبهها لها بذلك؛ قال

أبو طالب: وإذا وليها «أن» والفعل كان في موضع رفع، وسد طول الكلام مسد الخبر، ومعناها الذي هو الإشفاق والطمع قريب من المقاربة في كاد، فلذلك حذف «أن» من خبرها حملاً لها على كاد كما جوزوا دخول «أن» في خبر كاد حملاً لها على عسى؛ وقال شارح الجزولية: وحذف «أن» من خبر عسى أكثر من إلحاق «أن» في خبر «كاد» لمقاربة كاد ذات الفعل، و «أن» تنافي ذلك، قال: ومن الفرق بينهما أن عسى لا يضمرف فيها ضمير الشأن والقصة لشبهها بالحر ف لعدم تصرفها، وتضمرف في كاد لتصرفها، ثم رجح أنه يضمرف فيها وإن لم تتصرف كما أضمرف في نعم وبئس وقال ابن هشام الخضراوي في شرح الإيضاح أيضاً: إن سيبويه قدر عسى بقارب، أي فترفع وتنصب لأن قارب متعد، وقدرها بقرب، أي فلا تنصب لعدم تعديه، قال: ولا تدخل عسى على الماضي؛ قال أبو علي: لأنها للاستقبال المحض ولذلك وقع بعدها «أن» فلا تصلح للماضي بوجه؛ وقال شارح الجزولية: عسى لها مع الظاهر مذهباً: أحدهما أن تكون ناقصة بمعنى كان الناقصة، تحتاج إلى اسم وخبر إلا أنه يشترط في خبرها أن يكون فعلاً، وأصله أن يكون اسماً مثل خبر كان إلا أنه عدل عنه إلى الفعل تنبيهاً على الدلالة على ما هو المقصود من الرجاء وتقوية لما يفيد الرجاء من الاستقبال، وشبهت في هذا الوجه بـ «قارب زيد الخروج» تحقيقاً لبيان الإعراب، لا في المعنى، لأن «قارب زيد الخروج» ليس فيه إنشاء رجاء ولا غيره، وإنما هو تمثيل لتقدير الإعراب اللفظي لأنه أصلها أن تكون كذلك، وإنما طرأ عليها إنشاء الرجاء كما كان ذلك في التعجب ونعم وبئس وغيرهما؛ والمذهب الثاني أن تأتي تامة فتستعمل استعمال «قرب» فتدخل على «أن» مع الفعل فتقول: عسى أن يقوم زيد، واستغنى فيها - بأن والفعل - عن الخبرين كما استغنى في «ظننت أن يقوم زيد» عن المفعولين، وذلك لاشتماله على مسند ومسند إليه، وهو المقصود بهذه الأفعال، فإذا قلت: زيد عسى أن يقوم، احتمل أن تكون الناقصة فيكون فيها ضمير يعود على زيد هو اسمها و «أن» مع الفعل خبرها، ويحتمل أن تكون التامة فلا يكون فيها ضمير وتكون «أن» مع الفعل فاعلها؛ وقال ابن الخباز الموصلي في كتابه النهاية في شرح كفاية الكفاية: عسى للطمع للمبالغة في الطمع، فلا يكون خبرها ماضياً لأن معناها الرجاء والطمع، والماضي لا يطمع فيه ولا يرجى لحصوله، واستدل على أنها لا تستعمل إلا في المستقبل بقول بعض شعراء الحماسة:

عسى طييء من طييء بعد هذه ستطفئ غلات الكلى والجوانح

فأتى بالسين لأنه لم يمكنه الإتيان بـ«أن» في الشعر؛ وقال شارح الجزولية ما معناه: إنه التزم في خبرها الفعل للدلالة على الاستقبال وألزم «أن» تقوية لذلك، ولهذا

لم يكن خبرها اسماً وإن كان أصله أن يكون اسماً إذ لا دلالة للاسم على الزمان، ولم يوضع مكانها السين وسوف لأنهما يدلان على تنفيس في الزمان والغرض هنا تقريبه، وقد يجيء في الشعر قليلاً - وأنشد البيت المذكور؛ وقال ابن الخباز: ودخول الاستفهام عليها يؤذن بأنها ليست للطمع لأن الاستفهام لا يدخل على الطمع ولا على ما ليس بخبر، فدخول هل عليها مما يؤذن بأنها خبر - انتهى. فتفسيرها بما ذكرته - من أنها لما يمكن أن يكون وهو خليف بأن يكون - أول، ويكون الطمع لازماً لمضمون الكلام لا أنه مدلولها بالمطابقة - والله الموفق.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَدَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِمَّنْ اللَّهُ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولما بين سبحانه الصالح لذلك من غيره، أنكر على من لم يفرق بين الصنفين فقال: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ أي مجردة عن الإيمان ﴿وعِمارة المسجد الحرام﴾ أي كذلك كالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد، وأهل السقاية والعمارة من غير إيمان في موالاتهم والكف عن معاداتهم ﴿كمن آمن بالله﴾ أي الحامل اعتقاد كماله على كل كمال ﴿واليوم الآخر﴾ أي الحاث خوفه على كل خير ﴿وجاهد في سبيل الله﴾ أي الملك الأعلى المحيط بكل شيء، فالآية على قراءة الجماعة من الاحتباك: حذف أولاً المشبه به لدلالة المشبه عليه وثانياً المشبه لدلالة المشبه به عليه، وأما على رواية نسي بن وردان عن أبي جعفر شاذاً: سقاة وعمرة - بالجمع فلا يحتاج إلى تقدير.

ولما كان كأنه قيل: كنا نظن ذلك فما حالهم؟ قال: ﴿لا يستون عند الله﴾ أي الذي له الكمال كله لأن المشركين ظلموا بترك الإيمان ﴿والله﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه ﴿لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي الذين وضعوا الأشياء في غير مواضعها، والكفر أعظم الظلم، فلا توجبوا لهم الهداية ولا المساواة بالمهتدين وإن

باشروا جميع أفعال المهتمدين ما عدا الإيمان، ومن فعل ذلك منكم كان ظالماً وخيف عليه سلب موجب الهداية.

ولما نفى عنهم المساواة من غير تصريح بأهل الترجيح ليشتد التشوف إلى التصريح فيكون أثبت في النفس وأوقر في القلب، كان كأنه قيل: فمن الراجح؟ فقال: ﴿الذين آمنوا﴾ أي أوقعوا هذا الفعل، وهو إيمان المخاطب من أن يكذبه بشيء مما يخبر به عن الله، وقصر الفعل وهو في الأصل متعدد ليفيد أنه لا إيمان غير هذا، وإن وجد غيره فهو عدم بالنسبة إليه، وكذا كل فعل قصر فهو على هذا المنوال ليشار به إلى أنه لعظيم نفعه لا فعل من جنسه غيره ﴿وهاجروا وجهدوا﴾.

ولما كان المحدث عنه فيما قبل المجاهد في سبيل الله، اقتضى المقام تقديمه على الآلة بخلاف ما في آخر الأنفال فإن المقام اقتضى هناك تقديم المال والنفس لما تقدم من موجبه في غير آية - كما سلف بيانه، وأيضاً ففي هذا الوقت كان المال قد كثر، ومواضع الجهاد قد بعدت، فناسب الاهتمام بالسبيل فلذا قدم ﴿في سبيل الله﴾ أي مخلصين له لأنه الملك الذي لا كفوء له، ثم أتبعه قوله: ﴿بأموالهم وأنفسهم﴾ فصرح بالنفس ترغيباً في المباشرة بها ﴿أعظم درجة﴾ أي من جهة ارتفاع الدرجة، وهي الفضيلة المقربة إلى الله.

ولما لم يكن العبرة إلا بما عنده سبحانه، لا بما عند الناس، قال تعالى: ﴿عند الله﴾ أي الملك الأعظم من أهل السقاية وما معها من غير إيمان مدلول عليه بشواهد، وإنما لم يذكر المفضل عليه ليفيد أن فضيلتهم على الإطلاق، فيكون المفضل عليه من جملة المدلول عليه، وكرر الاسم الأعظم لمزيد الترغيب لخطر المقام وصعوبة المرام؛ وأفهم هذا أن تلك الأفعال شريفة في نفسها، فمن باشرها كان على درجة عظيمة بالنسبة إلى من لم يباشرها، ومن بناها على الأساس كان أعظم؛ ثم بين ما يخص أهل حزبه فقال: ﴿وأولئك﴾ أي العالو الرتبة ﴿هم﴾ أي خاصة لا أنتم أيها المفآخرون مع الشرك ﴿الفائزون﴾ أي بالخير الباقي في الدارين دون من عداهم وإن فعل من الخيرات ما فعل، لأنهم ترقوا من العبدية إلى العندية.

ولما بين أن جزاء أولئك الخلود في النار، بين ما لهؤلاء، فقال مفسراً لفوزهم: ﴿يبشرهم ربهم﴾ أي المحسن إليهم بهدايتهم واجتباؤهم. وناهيك بهذه البشارة الدالة على علو مقامهم لأنها بلا واسطة، وكون البشارة على قدر المبشر دال على أن هذه البشارة بشارة عظيمة لا نهاية لها ولا يحاط بمعرفة مقدارها ﴿برحمة﴾ أي عظيمة، وزادها عظماً بقوله: ﴿منه﴾ وذلك إشارة إلى أنه لا نجاة بدون العفو؛ ثم أخبر بأن الرحمة كما أثمرت

العفو الذي هو أدنى المنازل أسعدت بأعلاها فقال: ﴿ورضوان﴾ أي بأن يكون راضياً عن الله للرضى بقضاء الله وذلك يكون إذا قصر نظره على الله فإنه لا يتغير أبداً بقضاء من أفضيته كما أن الله - الذي هو راحمه - لا يتغير، ومن كان نظره لطلب حظ له كان أبداً في تغير من الفرح إلى الحزن ومن السرور إلى الغم ومن الراحة إلى الجراحة ومن اللذة إلى الألم، فثبت أن الرحمة التامة لا تحصل إلا للراضي بقضاء الله ويكون الله راضياً عنه فتكون نفسه راضية مرضية، ولهذا لم يقيد بـ «منه» وهذان في الدنيا والآخرة.

ولما ذكر هذه الجنة الروحانية المنعم بها في الدنيا، أتبعه بيان الجنة الروحانية البدنية الخاصة بالدار التي فيها القرار فقال: ﴿وجئت﴾ أي بساتين كثيرة الأشجار والثمار ﴿لهم فيها نعيم﴾ أي عظيم جداً خالص عن كدر ما، ودل على الخلود بقوله: ﴿مقيم﴾ ثم صرح بخلودهم فيها بلفظ الخلود ليكون أقر للنفس فقال: ﴿خلدين فيها﴾ وحقق أمره بقوله: ﴿أبداء﴾ ثم استأنف المدح لذلك مؤذناً بالمزيد بقوله: ﴿إن الله﴾ أي الذي له الغنى المطلق والقدرة الكاملة ﴿عنده أجر عظيم﴾ وناهيك بما يصفه العظيم دالاً بالعظم، وخص هؤلاء المؤمنين بهذا الثواب المعبر عن دوامه بهذه العبارات الثلاث المقرونة بالتعظيم والاسم الأعظم، فكان أعظم الثواب، لأن إيمانهم أعظم الإيمان.

ولما فرغ من العاطفة بمحاسن الأعمال، شرع في العاطفة بالأنساب والأموال، وقدم الأول إشارة إلى أن المجانسة في الأفعال مقدمة على جميع الأحوال، ولما كان محط الموالاتة المناصرة، وكانت النصرة بالآباء والإخوان أعظم من النصرة بغيرهم، لأن مرجعها إلى كثرة الأعوان والأخذان، اقتصر عليها فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ أي أقروا بألستهم بالإيمان بربهم معرضين عما سواه من الأنداد الظاهرة! صدقوا ادعاءكم ذلك بأن ﴿لا تتخذوا﴾ أي تتعمدوا وتتكلفوا أن تأخذوا ﴿آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ أي على ما يدعو إليه الطباع وتقوية الأطماع فتلقوا إليهم أسراركم وتؤثروا رضاهم والمقام عندهم ﴿إن استحبو﴾ أي طلبوا وأوجدوا أن أحبوا ﴿الكفر﴾ وهو تغطية الحق والتكذيب ﴿على الإيمان﴾ نبه بصيغة الاستفعال على أن الإيمان لكثرة محاسنه وظهور دلائله معشوق بالطبع، فلا يتركه أحد إلا بنوع معالجة ومكابرة لعقله ومجاهدة.

ولما كان أعز الأشياء الدين، وكان لا ينال إلا بالهداية، وكان قد تقدم سلبها عن الظالم، رهيبهم من انتزاعه بقوله: ﴿ومن يتولهم﴾ أي يتكلف أن يفعل في أمرهم ما يفعل القريب مع قريبه ﴿منكم﴾ أي بعد ما أعلمكم الله في أمرهم مما أعلم ﴿فأولئك﴾ أي المبعدون عن الحضرات الربانية ﴿هم الظالمون﴾ أي لوضعهم الموالاتة في غير موضعها بعد أن تقدم إليهم سبحانه بمثل هذه الزواجر، وهذا رجوع بالاحتراس إلى

﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ [الأنفال: ٧٥] - الآية الواوية لبيان المؤمنين حقاً وإشارة إلى أنه يضلهم ولا يهديهم لما تقدم من الخبر بأنه لا يهدي الظالمين .

ولما كانت الأنفس مختلفة الهمم متباينة السجايا والشيم، كان هذا غير كافٍ في التهديد لكلها، فأتبعه تهديداً أشد منه بالنسبة إلى تلك النفوس فقال منتقلاً من أسلوب الإقبال إلى مقام الإعراض المؤذن بزواج الغضب: ﴿قل﴾ أي يا أعظم الخلق شفقة ورفقاً ونصيحة لمن لم يُزعمه ما تقدم من الزواجر أنه يجب تحمل جميع هذه المضار في الدنيا ليبقى الدين سالمًا ولا ينثلم ﴿إن كان آباؤكم﴾ أي الذين أنتم أشد شيء توقيراً لهم ﴿وأبناؤكم﴾ أي الذين هم أعز الناس لديكم وأحبهم إليكم ﴿وإخوانكم﴾ أي الذين هم من أصولكم فهم كأنفسكم ﴿وأزواجكم﴾ أي اللاتي هن سكن لكم ﴿وعشيرتكم﴾ أي التي بها تمام الراحة وقيام العز والمنعة وهم أهل الإنسان الأذنون الذين يعاشرونه .

ولما قدم سبحانه ما هو مقدم على المال عند أولي الهمم العوال قال: ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي اكتسبتموها بالمعالجة من الأسفار وغيرها لمعاشكم ﴿وتجارة تخشون كسادها﴾ أي لفوات أوقات نفاقها بسبب اشتغالكم بما ندب الله سبحانه إليه فيفوت - على ما تتوهمون - ما به قوامكم ﴿ومسكن ترضونها﴾ أي لأنها مجمع لذلك كله، ولقد رتبها سبحانه أحسن ترتيب، فإن الأب أحب المذكورين لما هنا من شائبة النصرة، وبعده الابن ثم الأخ ثم الزوج ثم العشير الجامع للذكور والإناث ثم المال الموجود في اليد ثم المتوقع ربحه بالمتجر، وختم بالمسكن لأنه الغاية التي كل ما تقدم أسباب للاسترواح فيه والتجمل به ﴿أحب إليكم من الله﴾ أي الجامع لصفات الكمال الذي أنعم عليكم بجميع ما ذكر، ومتى شاء سلبكموه ﴿ورسوله﴾ أي الذي أتاكم بما به حفظ هذه النعم في الدارين ﴿وجهاد في سبيله﴾ أي لرد الشارد من عباده إليه وجمعهم عليه، وفي قوله -: ﴿فتربصوا﴾ أي انتظروا متربصين - تهديد بليغ ﴿حتى يأتي الله﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿بأمره﴾ أي الذي لا تبلغه أوصافكم ولا تحتمله قواكم . ولما كان من أثر حب شيء من ذلك على حبه تعالى، كان مارقاً من دينه راجعاً إلى دين من أثره، وكان التقدير: فيصيبكم بقارعة لا تطيقونها ولا تهتدون إلى دفعها بنوع حيلة، لأنكم اخترتم لأنفسكم منابذة الهداية ومعلوم أن من كان كذلك فهو مطبوع في الفسق، عطف عليه قوله: ﴿والله﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿لا يهدي القوم﴾ أي لا يخلق الهداية في قلوب ﴿الفسقين﴾ أي الذين استعملوا ما عندهم من قوة القيام فيما يريدون من الفساد حتى صار الفسق - وهو الخروج مما حقه المكث فيه والتقييد به وهو هنا الطاعة - خلقاً من أخلاقهم ولازماً من لوازمهم، بل يكلمهم إلى نفوسهم فيخسروا الدنيا والآخرة .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّحِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

ولما كان في بعض النفوس من الغرور بالكثرة ما يكسبها سكرة تغفلها عن بعض مواقع القدرة، ساق قصة حنين دليلاً على ذلك الذي أبهمه من التهديد جواباً لسائل كان كأنه قال: ما ذاك الأمر الذي يتربص لإتيانه ويخشى من عظيم شأنه؟ فقيل: الذل والهوان والافتقار والانكسار، فكأنه قيل: وكيف يكون ذلك؟ فقيل: بأن يسלט القدير عليكم - وإن كنتم كثيراً - أقوياء غيركم وإن كانوا قليلاً ضعفاء كما سلطكم - وقد كنتم كذلك - حتى صرتم إلى ما صرتم إليه: ﴿لقد نصركم الله﴾ أي الملك الأعلى مع شدة ضعفكم ﴿في مواطن﴾ أي مقامات ومواقف وأماكن توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ﴿كثيرة﴾ أي من الغزوات التي تقدمت لكم كبدر وقریظة والنضير وقينقاع والحديبية وخيبر وغيرها من مخاصمات الكفار، وكنتم من الذلة والقلّة والانكسار بحال لا يتخيل معها نصركم وظهوركم على جميع الكفار وأنتم فيهم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، وما وكلكم إلى مناصرة من تقدم أمره لكم بمقاطعتهم، فدل ذلك على أن من أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه وإن عاداه الناس أجمعون، ودل بما بعدها من قصة حنين على أن من اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا إلا أن يتداركه الله برحمة منه فيرجع به. فقال تعالى: ﴿ويوم﴾ أي ونصركم بعد أن قواكم وكشركم هو وحده، لا كشرتكم وقوتكم يوم ﴿حنين﴾ وهو واد بين مكة والطائف إلى جانب ذي المجاز، وهو إلى مكة أقرب، وراء عرفات إلى الشمال.

ولما كان سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري رضي الله عنه قد قال حين التقى الجمعان وأعجبه كثرة الناس: لن نغلب اليوم من قلة! فسأه النبي ﷺ كلامه وأن يعتمد إلا على الله، وكان الإعجاب سماً قاتلاً للأسباب، أدبنا الله سبحانه في هذه الغزوة بذكر سوء أثره لنحذره، ثم عاد سبحانه بالإنعام لكون الذي قاله شخصاً واحداً كره غيره مقالته. فقال: ﴿إذ﴾ أي حين ﴿أعجبتكم كثرتم﴾ أي فقطعتم لذلك أنه لا يغلبها غالب، وأسند سبحانه الفعل للجمع إشارة إلى أنهم لعلو مقامهم ينبغي أن لا يكون منهم من يقول مثل ذلك ﴿فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي من الإغناء ﴿وضاقت عليكم الأرض﴾ أي الواسعة ﴿بما رحبت﴾ أي مع اتساعها فصرتم لا ترون أن فيها مكاناً يحصنكم مما

أنتم فيه لفرط الرعب، فما ضاق في الحقيقة إلا ما كان من الآمال التي سكنت إلى الأموال والرجال، ولعل عطفه - لتوليهم بأداة التراخي في قوله: ﴿ثم وليتم﴾ أي تولية كثيرة ظهوركم الكفار، وحقق ذلك بقوله: ﴿مدبرين﴾ أي انهزاماً مع أن الفرار كان حين اللقاء لم يتأخر - إشارة إلى ما كان عندهم من استبعاده اعتماداً على القوة والكثرة ﴿ثم أنزل الله﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال ﴿سكنته﴾ أي رحمته، وهي الأمر الذي يسكن القلوب عن أن تتأثر بما يدهمها من البلاء من الوثوق به سبحانه ومشاهدة جنابه الأقدس والغناء عن غيره.

ولما كان المقام للرسالة، وكان تأييد مدعيها من أمارات صدقه في دعوى أنه رسول، وأن مرسله قادر على ما يريد لا سيما إن كان تأييده على وجه خارق للعادة، عبر به دون وصف النبوة فقال: ﴿على رسوله﴾ أي زيادة على ما كان به من السكينة التي لم يحز مثلها أحد، ثبت بها الثلاثين ألفاً أو عشرين ألفاً أو أربعة آلاف على اختلاف الروايات في عشرة أنفس أو مائة أو ثلاثمائة - على الاختلاف أيضاً، لم يكن ثباتهم إلا به، ثم لم يزد ذلك إلا تقدماً حتى أن كان العباس عمه وأبو سفيان بن الحارث ابن عمه رضي الله عنهما ليكفان بغلته عن بعض التقدم، ولعل العطف بـ «ثم» إشارة إلى علو رتبة ذلك الثبات واستبعاد أن يقع مثله في مجاري العادات ﴿وعلى المؤمنين﴾ أي أما من كان منهم ثابتاً فزيادة على ما كان له من ذلك، وأما غيره فأعطي ما لم يكن في ذلك الوقت له، وذلك أنه ﷺ قال لعمة العباس رضي الله عنه بعدما فر الناس: ناد فيهم يا عباس! فنادى وكان صيئاً: يا عباد الله! يا أصحاب الشجرة! يا أصحاب البقرة! فكروا عنقاً واحداً يقولون: لبيك لبيك^(١)! ويحتمل أن يكون ذكر الرسول عليه السلام لمجرد التبرك كما في ذكر الله في قوله ﴿فإن لله خمسة﴾ [الأنفال: ٤١] وزيادة في تعظيم الامتتان به لأن النفوس إلى ما أعطى منه الرسول أميل والقلوب له أقبل لاعتقاد جلاله وعظمته وكماله ﴿وأنزل﴾ أي من السماء ﴿جنوداً لم تروها﴾ أي من الملائكة عليهم السلام ﴿وعذب﴾ أي بالقتل والأسر والهزيمة والسبي والنهب ﴿الذين كفروا﴾ عبر بالفعل لأن فيهم من آمن بعد ذلك.

ولما كان ما عذب به من أوجد مطلق هذا الوصف عظيماً، أتبعه بيان جزاء العريق في ذلك ترهيباً لمن آثر حب شيء مما مضى على حب الله فقال: ﴿وذلك﴾ أي العذاب

(١) ذكره بنحوه السيوطي في الدر ٤٠٧/٣ ونسبه لابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن مصعب بن شيبة بن عثمان الحجبي عن أبيه به. انظر دلائل النبوة ١٢٩/٥ - ١٣٠.

الذي منه ما عذب به هؤلاء وغيره ﴿جزاء الكافرين﴾* أي الراسخين في وصف الكفر الذين آثروا حب من تقدم من الآباء وغيرهم على الله فبثتوا على تقليد الآباء في الباطل بعدما رأوا من الدلائل ما بهر الشمس ولم يدع شيئاً من لبس، وأما الذين لم يكن كفرهم راسخاً فكان ذلك صلاحاً لهم لأنه قادهم إلى الإسلام، فقد تبين أن المنصور من نصره الله قليلاً كان أو كثيراً، وأن القلة والكثرة والقوة والضعف بالنسبة إلى قدرته سواء، فلا تغتروا بما ألزكم من النعم فإنه قادر على نزعها، لا يستحق أحد عليه شيئاً، ولا يقدر أحد على رد قضائه، وفي ذلك إعلام بأنه لا يرتد بعد إيمانه إلا من كان عريقاً في الكفر، وفيه أبلغ تهديد لأنه إذا عذب من أوجد الكفر وقتاً ما فكيف بمن رسخ فيه!

ولما بين أن العذاب جزاء الكافرين، بين أنه يتوب على من يريد منهم، وهم كل من علم منه قابلية للإيمان وإن كان شديداً في وصف الكفران، فقال عاطفاً على ﴿وعذب﴾: ﴿ثم يتوب الله﴾ أي الذي له الإحاطة علماً وقدره، ولما لم يكن أحد تستغرق توبته زمان البعد أدخل الجار فقال: ﴿من بعد ذلك﴾ أي العذاب العظيم ﴿على من يشاء﴾ أي فيهديه إلى الإسلام ويغفر له جميع ما سلف من الآثام ﴿والله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿غفور رحيم﴾* أي محاء للخطايا عظيم الإكرام لمن تاب، وفي ذلك إشارة إلى أنه جعل هذه الواقعة لحكمته التي اقتضت ربط المسببات بأسبابها. سبباً لإسلام من حضرها من كفار قريش وغيرهم من المؤلفقة بما قسم فيهم ﷺ من غنائم هوازن وبما رأوا من عز الإسلام وعلوه، فكان في ذلك ترغيب لهم بالمال، وترهيب بسطوات القتال، وإسلام وفد هوازن بما حصل لهم من القهر وما شاهدوا للنبي ﷺ من عظيم النصر، وإسلام غيرهم من العرب بسبب علم كل منهم بهذه الواقعة أنهم أضعف ناصراً وأقل عدداً، كل ذلك رحمة منه سبحانه لهم ورفقاً لهم، وقد كان جميع ذلك كما أشار إليه سبحانه، فأسلم الطلقاء وحسن إسلامهم، وقدم وفد هوازن وسألوا النبي ﷺ جبرهم برد ما أخذ لهم فقال لهم: إني استأنيت بكم، فلما أبطأتم قسمت بين الناس فيثهم، فاختراروا المال أو السبي! فاختراروا السبي فشفع لهم عند الناس فأجابوه فرد إليهم أبناءهم ونساءهم رحمة منه لهم^(١)، وذلل العرب لذلك فدخلوا في الدين أفواجاً. وختم هذه الآية بالمغفرة والرحمة على ما هو الأنسب لسياق التوبة بذلك على أنه ما عدل إلى ختم الأولى بـ «عليم حكيم» إلا لما قررته من جعل أم في ﴿أم حسبتم﴾ معادلة للهمزة. والله أعلم.

(١) أخرجه بنحوه البخاري ٤٣١٨ وأبو داود ٢٦٩٣ والبيهقي في الدلائل ١٩١/٥ من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

ولما تقدم في الأوامر والنواهي وبيان الحكم المرغبة والمرهبة ما لم يبق لمن عنده أدنى تمسك بالدين شيئاً من الالتفات إلى المفسدين، بين أن العلة في مدافعتهم وشديد مقاطعتهم أنهم نجس وأن المواضع - التي ظهرت فيها أنوار عظمتها وجلالته وأشرقت عليها شمس نبوته ورسالته، ولمعت فيها بروق كبره وجالت صوارم نهيته وأمره - مواضع القدس ومواطن الأنس، من دنا إليها من غير أهلها احترق بنارها، وبهرت بصره أشعة أنوارها، فقال مستخلصاً مما تقدم ومستنتجاً: ﴿بأيها الذين آمنوا﴾ أي أقروا بألسنتهم بالإيمان وهم ممن يستقبح الكذب ﴿إنما المشركون﴾ أي العريقون في الشرك بدليل استمرارهم عليه.

ولما كانوا متصفين به، وكانوا لا يغتسلون - ولا يغسلون - ثيابهم من النجاسة، بولغ في وصفهم بها بأن جعلوا عينها فقال: ﴿نجس﴾ أي وأنتم تدعون أنكم أبعد الناس عن النجس حساً ومعنى، فيجب أن يقذروا وأن يبعدوا ويحذروا كما يفعل بالشيء النجس لما اشتملوا عليه من خلال الشر واتصفوا به من خصال السوء، وأما أبدانهم فاتفق الفقهاء على طهارتها لأن النبي ﷺ شرب من أوانيهم ولم يبه عن مؤاكلتهم ولا أمر بالغسل منها ولو كانت نجسة ما طهرها الإسلام. ولما تسبب عن ذلك إبعادهم، قال: ﴿فلا يقربوا﴾ أي المشركون، وهذا نهى للمسلمين عن تمكينهم من ذلك، عبر عنه بنهيهم مبالغة فيه ﴿المسجد الحرام﴾ أي الذي أخرجوكم منه وأنتم أطهر الناس، واستغرق الزمان فأسقط الجار ونبههم على حسن الزمان واتساع الخير فيه بالتعبير بالعام فقال: ﴿بعد عامهم﴾ وحقق الأمر وأزال اللبس بقوله: ﴿هذا﴾ وهو آخر سنة تسع سنة الوفود مرجعه ﷺ من غزوة تبوك، فعبر بقربانه لا بإتيانه بعد التقديم إليهم بأن لا يقبل من مشرك إلا الإسلام أو القتل إشارة إلى إخراج المشركين من جزيرة العرب وأنها لا يجتمع بها دينان لأنها كلها محل النبوة العربية وموطن الأسرار الإلهية، فمن كان فيها - ولو في أقصاها - فقد قارب جميع ما فيها، وتكون حينئذ بالنسبة إلى الحرم كأفنية الدور ورحاب المساجد؛ وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أرسل أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج بعد رجوعه من تبوك ثم أردفه بعلي رضي الله عنه

فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا عليّ يوم النحر في أهل منى ببراءة وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان^(١). وهذه سنة قديمة فقد أمر الله تعالى بني إسرائيل في غير موضع من التوراة بأن لا يبقوا في جميع بلاد بيت المقدس أحداً من المشركين بخلاف غيرها من البلاد التي يفتحها الله عليهم، منها ما قال المترجم في أواخر السفر الخامس: وإذا تقدمتم إلى قرية أو مدينة لتقاتلوا أهلها ادعوهم إلى الصلح، فإن قبلوه وفتحوا لكم من كان فيها من الرجال يكونوا عبيداً لكم يؤدوا إليكم الخراج، وإن لم يقبلوا الصلح وحاربوكم فحاربوهم وضيقوا عليهم فإن الله ريكم يدفعها إليكم وتظفرون بمن فيها، فإذا ظفرتهم بمن فيها فاقتلوا الذكور كلهم بالسيف، كذلك اصنعوا بجميع القرى البعيدة النائية التي ليست من قرى هذه الشعوب فأما قرى هذه الشعوب التي يعطيكم الله ميراثاً فلا تبقوا من أهلها أحداً ولكن اقتلوهم قتلاً كالذي أمركم الله ريكم لئلا يعلموكم النجاسة التي يعملونها لألئهم، ومثل ذلك كثير فيها، وقد مضى بعده فيما ذكرته عن التوراة. والله الموفق، وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام: أحدها الحرم، فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال لظاهر هذه الآية، الثاني الحجاز وما في حكمه وهو جزيرة العرب، فيدخله الكافر بالإذن ولا يقيم أكثر من مقام السفر ثلاثة أيام لأن النبي ﷺ قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب^(٢)، وهي من أقصى عدن أبين، وهي في الجنوب إلى أطراف الشام وهي في الشمال طولاً، ومن جدة وهي أقصى الجزيرة غرباً على شاطئ بحر الهند إلى ريف العراق وهو في المشرق عرضاً، والثالث سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر الإقامة فيها بذمة وأمان ما شاء، ولكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم. ذكر ذلك البغوي، قال ابن الفرات في تاريخه عند غزو بخت نصر لبني إسرائيل ولأرض العرب: إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها، فصارت مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم وظهر من ناحية قنسرين ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق حتى وقع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتد البحر من ذلك الموضع مطيفاً ببلاد العرب، فأتى منه عنق على كاظمة وتعدي إلى القطيف وهجر وعمان والشجر، ومال منه عنق إلى حضرموت وناحية أبهر وعدن، واستطال ذلك العنق فطعن في تهامة اليمن ومضى إلى ساحل جدة، وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً

(١) أخرجه البخاري ٤٦٥٦ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري ١١٤ و ٤٤٣١ ومسلم ١٦٣٧ وأبو داود ٣٠٢٩ وأحمد ٣٢٤/١ و ٣٥٥ من حديث

ابن عباس.

للبحر معه حتى وقع في بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها، وأتى على بيروت ونفذ إلى سواحل حمص وقنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق، وأقبل جبل السراة من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف الشام فسمته العرب حجازاً لأنه حجز بين الغور ونجد فصار ما خلف ذلك الجبل في غريبه الغور وهو تهامة، وما دونه في شرقيه نجداً. انتهى.

ولما كان ما والاها من أرض الشام ونحوها كله أنهار أو جداول، جعل كأنه بحر لأنه في حكم شاطئه، ولما كان قوامهم بالمتاجر، وكان قوام المتاجر باجتماعهم في أسواقهم، وكان نفيهم من تلك الأراضي مظنة لخوف انقطاع المتاجر وانعدام الأرباح المفضي إلى الحاجة وكان قد أمر بنفيهم رعاية لأمر الدين، وكان سبحانه عالماً بأن ذلك يشق على النفوس لما ذكر من العلة ولا سيما وقد قال بعضهم لما قرأ علي رضي الله عنه آيات البراءة على أهل الموسم: يا أهل مكة! ستعلمون ما تلقونه من الشدة بانقطاع السبيل وبُعد الحمولات، وعد سبحانه - وهو الواسع العليم - بما يغني عن ذلك، لأن من ترك الدنيا لأجل الدين أوصله سبحانه إلى مطلوبه من الدنيا مع ما سعد به من أمر الدين «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه» فقال: ﴿وإن خفتهم﴾ أي بسبب منعهم من قربان المواطن الإلهية ﴿عيلة﴾ أي فقراً وحاجة ﴿فسوف يغنيكم الله﴾ أي وهو ذو الجلال والإكرام ﴿من فضله﴾ وهو ذو الفضل والطول والقوة والحول.

ولما كان سبحانه الملك الغني القادر القوي الذي لا يجب لأحد عليه شيء وتجب طاعته على كل شيء، نبه على ذلك بقوله: ﴿إن شاء﴾ ولما كان ذلك عندهم مستبعداً، علل تقريباً له بقوله: ﴿إن الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿عليم﴾ أي بوجوه المصالح ﴿حكيم﴾ أي في تدبير استجلابها وتقدير إدارها ولقد صدق سبحانه ومن أصدق منه قليلاً فإنه أغناهم - بالمغانم التي انتشلها بأيديهم بعد نحو ثلاث سنين من إنزالها من كنوز كسرى وقيصر - غنى لم يطرق أوهاهم قط، ثم جعل ذلك سبباً لاختلاط بعض الطوائف من جميع الناس ببعض لصيرورتهم إخواناً في الدين الذي كان سبباً لأن يجتمع في سوق منى وغيره في أيام الحج كل عام من المتاجر مع الغرب والعجم ما لا يكون مثله في بقعة من الأرض، والعيلة: الفاقة والافتقار، ومادتها بهذا الترتيب تدور على الحاجة وانسداد وجوه الحيلة وقد تقدم أول النساء أنها - لا بقيد ترتيب - تدور تقاليبها الثمانية على الارتفاع ويلزمه الزيادة والميل، ومنه تأتي الحاجة، وبرهن على ذلك في جميع الجزئيات.

ولما كان ذلك موضع تعجب يكون سبباً لأن يقال: من أين يكون ذلك الغنى؟ أجاب بقوله: ﴿قاتلوا﴾ أي أهل الأموال والغنى ﴿الذين لا يؤمنون بالله﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال إيماناً هو على ما أخبرت به عنه رسله، ولو آمنوا هذا الإيمان ما كذبوا رسولاً من الرسل، وأيضاً فالنصارى مثلثة وبعض اليهود مثنية ﴿ولا باليوم الآخر﴾ أي كذلك، وأقل ذلك أنهم لا يقولون بحشر الأجساد ﴿ولا يحرمون ما حرم الله﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله ﴿ورسوله﴾ أي من الشرك وأكل الأموال بالباطل وغير ذلك وتبديل التوراة والإنجيل ﴿ولا يدينون﴾ أي يفعلون ويقيمون، اشتق من الدين فعلاً ثم أضافه إلى صفته إغراقاً في اتخاذه بذلك الوصف فقال: ﴿دين الحق﴾ أي الذي أخذت عليهم رسلهم العهود والمواثيق باتباعه، ثم بين الموصول مع صلته فقال: ﴿من الذين﴾ ودل على استهانتهم سبحانه بهم وبراءته منهم بأن بني للمفعول قوله: ﴿أوتوا الكتب﴾ أي من اليهود والنصارى ومن ألحق بهم ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ أي وهي ما قرر عليهم في نظر سكانهم في بلاد الإسلام آمنين، فعله من جزى يجزي. إذا قضى ما عليه ﴿عن يد﴾ أي قاهرة إن كانت يد الآخذ أو مقهورة إن كانت يد المعطي، من قولهم: فلان أعطى بيده ﴿وهم صغرون﴾ ففي ذلك غنى لا يشبه ما كنتم فيه من قتال بعضكم لبعض لتغنى ما في يده من ذلك المال الحقير ولا ما كنتم تعدونه غنى من المتاجر التي لا يبلغ أكبرها وأصغرها ما أرشدناكم إليه مع ما في ذلك من العز الممكن من الإصلاح والطاعة وسترون، وعبر باليد عن السطوة التي ينشأ عنها الذل والقهر لأنها الآلة الباطشة، فالمعنى عن يد قاهرة لهم، أي عن قهر منكم لهم وسطوة بأفعالكم التي أصغرتهم عظمتها وأذلتهم شدتها، قال أبو عبيدة: يقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً عن غير طيب نفس: أعطاه عن يد. انتهى. وعبر بـ «عن» التي هي للمجازاة لأن الإعطاء لا يكون إلا بعد البطش المذل، هذا إذا أريد باليد يد الآخذ، ويمكن أن يراد بها يد المعطي، وتكون كناية عن النفس لأن مقصود الجزية المال، واليد أعظم أسبابه، فالمعنى حتى يعطي كل واحد منهم الجزية عن نفسه.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكُونُوا يُوَفَّوْنَ لَهُمْ مَا أَمَرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ

تُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

ولما كان المراد التعميم أتى بها نكرة لتفيد ذلك، ويؤيد هذا ما نقل العلماء عن الرواة لفتوح البلاد منهم الحافظ أبو الربيع بن سالم الكلاعي، قال في كتابه الاكتفاء في وقعة جلولاء من بلاد فارس: قالوا: قال بعضهم: فكان الفلاحون للطرق والجسور والأسواق والحرث والدلالة مع الجزية عن أيديهم على قدر طاقتهم، وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة، وإنما أخذوا الجزية من المجوس لأن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر^(١) وأخذها منهم لأنهم أهل كتاب في الأصل، قال الشافعي في باب المجمع والمفسر من كتاب اختلاف الحديث: والمجوس أهل كتاب غير التوراة والإنجيل وقد نسوا كتابهم وبدلوه، فأذن رسول الله ﷺ في أخذ الجزية منهم؛ أخبرنا سفيان عن أبي سعد سعيد بن مرزبان عن نصر بن عاصم قال: قال فروة بن نوفل الأشجعي: علام تؤخذ الجزية من المجوس وليسوا بأهل كتاب؟ فقام إليه المستورد فأخذ بلبيه فقال: يا عدو الله! تطعن على أبي بكر وعلى عمر وعلى أمير المؤمنين - يعني علياً - وقد أخذوا منهم الجزية، فذهب به إلى القصر فخرج علي رضي الله عنه عليهما فقال: البدا! البدا! فجلسا في ظل القصر فقال علي: أنا أعلم الناس بالمجوس، كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه، وإن ملكهم سكر فوقع على ابنته أو أخته فاطلع عليه بعض أهل مملكته، فلما صحا جاؤا يقيمون عليه الحد فامتنع عليهم فدعا أهل مملكته فقال: تعلمون ديناً خيراً من دين آدم وقد كان آدم ينكح بنيه من بناته، فأنا على دين آدم، فبايعوه وقاتلوا الذين خلفوهم حتى قتلوهم فأصبحوا وقد أسري على كتابهم فرفع من بين أظهرهم وذهب العلم الذي في صدورهم، وهم أهل كتاب وقد أخذ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منهم الجزية. ولما أمر بقتالهم ووصفهم بما هو السبب الباعث على ذلك، عطف عليه بعض أقوالهم المبيحة لقتالهم الموجبة لنكالهم فقال: **«وقالت»** أي قاتلوا أهل الكتاب لأنهم كفروا بما وصفناهم به وقالت **«اليهود»** منهم كذباً وبهتاناً **«عزيز»** تنوين عاصم والكسائي له موضع لكونه مبتدأ، والباقون منعه نظراً إلى عجمته مع العلمية وليس فيه تصغير، والخبر في القراءة قولهم: **«ابن الله»** أي الذي

(١) يشير المصنف إلى ما أخرجه مالك ٢٧٨ ح ٤٢ والشافعي ٤٣٠/٢ والبيهقي ١٨٩/٩ عن مالك عن جعفر الصادق عن أبيه: أن عمر ذكر المجوس، فقال: لا أدري كيف أصنع. فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد إنني لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سئوا بهم سنة أهل الكتاب» وهو مرسل صحيح محمد الباقر لم يدرك عمر. وانظر نصب الراية ٤٤٨/٣.

له العلو المطلق فليس كمثلته شيء، وعزير هذا هو المسمى عندهم في سفر الأنبياء ملاحيا، ويسمى أيضاً العازر وهو الأصل والعزير تعريبه، وأما الذي جمع لهم هذه التوراة التي بين أيديهم فقال السموأل بن يحيى المغربي الذي كان يهودياً فأسلم: إنه شخص آخر اسمه عزرا، وإنه ليس بنبي. ذكر ذلك في كتابه غاية المقصود في الرد على النصرى واليهود، وهو كتاب حسن جداً، وكان السموأل هذا مع تمكنه من المعرفة بشريعة اليهود وأخبارهم متمكناً من علوم الهندسة وغيرها، وكان فصيحاً بليغاً وكان حسن الإسلام يضرب المثل بعقله، ورأيت اليهود في غاية النكايه منه، وأراني بعضهم رسالة إليه لبعض أحبارهم يسفه فيها رأيه في إسلامه ويشبه عليه بأشياء خطابية وشعرية، فأجابته بجواب بديع افتتحه بقوله تعالى: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولآهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ [البقرة: ١٤٢] ثم رد كلامه أحسن رد ثم قال له ما حاصله: دع عنك مثل هذه الخرافات، وأجب عن الأمور التي ألزمتكم بها في كتاب غاية المقصود، فما أحرار جواباً، ثم القائل لهذا القول منهم روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أربعة، وقيل: قائله واحد وأسند إلى الكل كما يقال: فلان يركب الخيول وقد لا يكون له إلا فرس واحد، وهو كقوله تعالى ﴿الذين قال لهم الناس﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقيل: كان فاشياً فيهم فلما عابهم الله به تركوه وهم الآن ينكرونه، والله تعالى أصدق حديثاً ﴿وقالت النصرى﴾ أي منهم إفكاً وعدواناً ﴿المسيح﴾ وأخبروا عنه بقولهم: ﴿ابن الله﴾ أي مع أن له الغنى المطلق والكمال الأعظم، والمسيح هذا هو ابن مريم بنت عمران؛ ثم استأنف قوله مترجماً قولي فريقيهم: ﴿ذلك﴾ أي القول البعيد من العقول المكذب للنقول ﴿قولهم بأفواههم﴾ أي حقيقة لم يحتشموا من قوله مع سخافته، وهو مع ذلك قول لا تجاوز حقيقته الأفواه إلى العقول لأنه لا يتصوره عاقل، بل هو قول مهمل كأصوات الحيوانات العجم لا يتحقق له معنى؛ قال: ومعناه الحال أن قائله لا عقل له، ليس له معنى وراء ذلك، ولبعده عن أن يكون مقصوداً لعاقل عبر فيه بالأفواه التي هي أبعد من الألسنة إلى القلوب.

ولما كان كأنه قيل: فما لهم إذا كان هذا حالهم قالوه؟ قال ما حاصله: إنهم قوم مطبوعون على التشبه بمن يفعل المفساد كما أنهم تشبهوا بعبدة الأوثان، فعبدوها غير مرة والأنبياء بين أظهرهم يدعونهم إلى الله وكتابهم ينادي بمثل ذلك وينذرهم أشد الإنذار ﴿بضاهئون﴾ أي حال كونهم يشابهون بقولهم هذا ﴿قول الذين كفروا﴾ أي بمثله وهم العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله، كما أنهم لما رأوا الذين يعكفون على أصنام لهم قالوا: ﴿يُمُوسَى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾.

ولما كان لا يمتنع أن يكون الذين شابهم إنما كانوا بعدهم أو في زمانهم من قبل أن يبين فساد قولهم، نفى ذلك بقوله مشيراً بحرف الجر إلى أن كفرهم لم يستغرق زمن القبل: ﴿من قبل﴾ أي من قبل أن يحدث منهم هذا القول، وهذا دليل على أن العرب غيروا دين إسماعيل عليه السلام، اجترؤوا على مثل هذا القول قبل إيقاع بخت نصر باليهود أو في حدوده، وليس ذلك ببعيد مع طول الزمان وإغواء الشيطان، فقد كان بين زمان إبراهيم وعزير عليهما السلام نحو ألف وخمسمائة سنة - هذا على ما ذكره بعض علماء أهل الكتاب عن كتبهم وأيده ما ذكره المسعودي من مروج الذهب في تاريخ ملوك بابل من نمود إلى بخت نصر: وذكر بعض المؤرخين أن بين الزميين زيادة على ألفي سنة على أنهم قد نقلوا ما هو صريح في كفر العرب في ذلك الزمان فرووا عن هشام بن الكلبي أنه قال: كان بدء نزول العرب إلى أرض العراق أن الله عز وجل أوحى إلى برخيا من ولد يهودا أن ائت بخت نصر فمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ويطأ بلادهم بالجنود فيقتل مقاتلتهم ويسبي ذراريهم ويستبيح أموالهم وأعلمه بكفرهم بي واتخاذهم الآلهة دوني وتكذيبهم أنبيائي ورسلي، وعن غير ابن الكلبي أنه نظم ما بين أبله والايلة خيلاً ورجالاً ثم دخلوا على العرب فاستعرضوا كل ذي روح قدروا عليه، وأوصى الله برخيا وإرميا بمعد بن عدنان الذي من ولده محمد المختوم به النبوة، وكان ذكر مشابھتهم لأهل الشرك تحقيراً لشأنهم تجرئة على الإقدام عليهم إذ جعلهم مشابھين لمن دربوا قتالهم وضربوا عليهم فأذلوهم بعد أن كانوا في عزة لا يخشون زوالها، وعزائم شديدة لا يخافون انحلالها، كل ذلك بطاعة الله في قتالهم وطلب مرضاته بنزالهم لأنه عليهم، ومن كان عليه لم يفلح، وإلى مثل ذلك إشارة بقوله في حق هؤلاء: ﴿قتلهم الله﴾ أي أهلكهم الملك الأعظم، لأن من قاتله لم ينج منه، وقيل: لعنهم؛ روي عن ابن عباس قال: وكل شيء في القرآن مثله فهو لعن ﴿أنى يؤفكون﴾ أي كيف ومن أين يصرفون عن الحق مع قيام الأدلة القاطعة عليه، ثم زادهم جرأة عليهم بالإشارة إلى ضعف مستندهم حيث كان مخلوقاً مثلهم بقوله: ﴿اتخذوا﴾ أي كلفوا أنفسهم العدول عن الله القادر على كل شيء وأخذوا ﴿أجبارهم﴾ أي من علماء اليهود، والحبر في الأصل العالم من أي طائفة كان ﴿ورهبانهم﴾ أي من زهاد النصارى، والراهب في الأصل من تمكنت الرهبة في قلبه فظهرت آثارها على وجهه ولباسه، فاختص في العرف بعلماء النصارى أصحاب الصوامع ﴿أرباباً﴾ أي آلهة لكونهم يفعلون ما يختص به الرب من تحريم ما حرموا وتحليل ما حللوا؛ وأشار إلى سفول أمرهم بقوله: ﴿من دون الله﴾ أي الحائز لجميع صفات الجلال، فكانوا يعولون

عليهم ويسندون أمرهم إليهم حتى أن كانوا ليتبعونهم في الحلال والحرام ﴿والمسيح﴾ أي المبارك الذي هو أهل لأن يمسح بدهن القدس وأن يمسح غيره ﴿ابن مريم﴾ أي اتخذه كذلك لكونهم جعلوه ابناً فأهلوه للعبادة بذلك مع كونه ابن امرأة، فهو لا يصلح للإلهية بوجه لمشاركته للآدميين في الحمل والولادة والتربية والأكل والشرب وغير ذلك من أحوال البشر الموجبة للحاجة المنافية للإلهية، ومع تصريحه لهم بأنه عبد الله ورسوله، فتطابق العقل والنقل على أنه ليس بإله.

ولما قبح عليهم ما اختاروه لأنفسهم، قبحه عليهم من جهة مخالفته لأمره تعالى فقال: ﴿وما﴾ أي فعلوا ذلك والحال أنهم ما ﴿أمروا﴾ أي من كل من له الأمر من أدلة العقل والنقل ﴿إلا ليعبدوا﴾ أي ليطيعوا على وجه التعبد ﴿إلهاً واحداً﴾ أي لا يقبل القسمة بوجه لا بالذات ولا بالمماثلة، وذلك معنى وصفه بأنه ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا يصلح أن يكون معه إله آخر، فلما تعين ذلك في الله وكانت رتبته زائدة أبعد عما أشركوا به، نزهه بقوله: ﴿سبحته﴾ أي بعدت رتبته وعلت ﴿عما يشركون﴾* في كونه معبوداً أو مشرعاً؛ ذكر أبو محمد إسحاق بن إبراهيم البستي القاضي في تفسيره وغيره عن عدي ابن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: اقطعه، فقطعته ثم أتيت وهو يقرأ سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ قلت: يا رسول الله! إنا لم نكن نعبدهم! قال: أجل. أليس كانوا يحلون لكم ما حرم الله فتستحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله فتحرمونه؟ قلت: بلى، قال: تلك عبادتهم^(١).

ولما وهى سبحانه أمرهم من جهة استنادهم، زاده توهية من جهة مرادهم بالإعلام بأنهم بقتالهم لأهل الطاعة إنما يقاتلون الله وأنه لا ينفذ غرضهم بل يريد غير ما يريدون، ومن المقرر أنه لا يكون إلا ما يريد، فقال مستأنفاً أو معللاً لما مضى من أقوالهم وأفعالهم: ﴿يريدون أن يطفئوا﴾ أي بما مضى ذكره من أحوالهم ﴿نور الله﴾ أي دين الملك الأعلى الذي له الإحاطة العظمى، وشرعه الذي شرعه لعباده على السنة الأنبياء

(١) أخرجه الترمذي ٣٠٩٥ وابن جرير ١٦٦٣١ و ١٦٦٣٣ وابن سعد وعبد بن حمير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني كما في الدر ٢٣٠/٣ من حديث عدي بن حاتم قال الترمذي: حديث غريب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. غطيف ضعفه الدارقطني كما في الميزان اه لكن وثقه ابن حبان وفي الباب عن حذيفة موقوفاً أخرجه الطبري ١٦٦٣٤ فهو يقويه. - وقال ابن كثير في تفسيره ٣٦٢/٢: روه من طرق عن عدي مرفوعاً اه.

والرسل، كل ذلك ليمكنوا من العمل بالأغراض والأهوية، فإن اتباع الرسل حاسم للشهوات، وهم أبعد الناس عن ذلك.

ولما حقر شأنهم، هدمه بالكلية بقوله: ﴿بأفواههم﴾ أي بقول خال عن شيء يثبت أو يمضيه وينفذه، وفي تسمية دينه نوراً ومعاندتهم إطفاء بالأفواه تمثيل لحالهم بحال من يريد إطفاء نور الشمس بنفخه ﴿ويأبى﴾ أي والحال أنه يفعل فعل الأبى وهو أنه لا يرضي ﴿الله﴾ أي الذي له جميع العظمة والعز ونفوذ الكلمة ﴿إلا أن يتم نوره﴾ أي لا يقتصر على مجرد إشراقه، بل وعد - وقوله الحق - بأنه لا بد من إكماله وإطفائه لكل ما عداه وإحراقه. ولما في «يأبى» من معنى الجحد دخل عليه الاستثناء، أي إنه يأبى كل حالة إلا حالة إتمامه نوره على التجدد والاستمرار ﴿ولو كره الكفرون﴾ أي العريقون في الكفر فكيف بغيرهم.

ولما أخبر أنه معل لقوله ومكمل، ومبطل لقولهم ومسفل، علل ذلك بما حاصله أنه شأن الملوك، وهو أنهم إذا برز لهم أمر شيء لم يرضوا أن يرده أحد فإن ذلك روح الملك الذي لا يجازى الطاعن فيه إلا بالهلك فقال: ﴿هو﴾ أي وحده ﴿الذي أرسل رسوله﴾ أي محمداً ﷺ ﴿بالهدى﴾ أي البيان الشافي بالمعجزات القولية والفعلية ﴿ودين الحق﴾ أي الكامل في بيانه وثباته كمالاً ظاهراً لكل عاقل؛ ثم زادهم جرأة على العدو بقوله معللاً لإرساله: ﴿ليظهره﴾ أي الرسول ﷺ والدين - أدام الله ظهوره ﴿على الدين كله﴾ وساق ذلك كله مساق الجواب لمن كأنه قال: كيف نقاتلهم وهم في الكثرة والقوة على ما لا يخفى؟ فقال: لم لا تقاتلونهم وأنتم لا تعتمدون على أحد غير من كل شيء تحت قهره، وهم إنما يعتمدون على مخالقي مثلكم، كيف لا تجسرون عليهم وهم في قتالكم إنما يقاتلون ربهم الذي أنتم في طاعته؟ أم كيف لا تصادمونهم وهو الذي أمركم بقتالهم لينصركم ويظهر آياته؟ ولعل الختم بقوله: ﴿ولو كره المشركون﴾ * أبلغ لأن الكفر قد لا يكون فيه عناد، والشرك مبناه على العناد باتخاذ الأنداد، أي لا بد من نصركم خالف من خالف مجرد مخالفة أو ضم إلى ذلك العناد بالاستعانة بمن أراد.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْشِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ
وَقَدِ ابْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُفْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ .

ولما حقر أمرهم بتقسيم اعتمادهم على رؤسائهم، وحالهم معروف في أنه لا نفع عندهم ولا ضرر، وأعلى أمر أهل الله باجتماعهم عليه وهو القادر على كل شيء، وكان الإقبال على الدنيا أعظم أمانة على الخذلان ولو أنه بحق فكيف إذا كان بالباطل! أقبل سبحانه وعز شأنه على أهل وده مستعظفاً متلطفاً منادياً باسم الإيمان الذي بنى أمره في أول هذا الكتاب على الإنفاق لا على التحصيل ولو كان بحق، فكيف إذا كان بباطل، ويؤتون الزكاة ومما رزقناهم ينفقون، منبهاً على سفه من ترك من لا يسأله على بذل الهدى والدعوة إلى دين الحق أجراً وهو سفير محض لا ينطق عن الهوى، ولم يعتقدده رسولاً واتخذ مربوباً مثله وهو يأخذ ماله بالباطل ربواً، وذلك مقتض لتحقيرهم لا لمطلق تعظيمهم فضلاً عن الرتبة التي أنزلوهم بها وأهلوهم لها مع الترفع عليهم لقصد أكل أموالهم بالباطل فقال: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أقرؤا بإيمان داعيهم من التكذيب ومما يؤول إليه ﴿إِنْ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ﴾ أي من علماء اليهود ﴿وَالرَّهْبَانِ﴾ أي من زهاد النصارى ﴿لِيَأْكُلُونَ﴾ أي يتناولون، ولكنه عبر به لأنه معظم المراد من المال، وإشارة إلى تحقير الأحبار والرهبان بأنهم يفعلون ما ينافي مقامهم الذي أقاموا أنفسهم فيه ﴿أموال الناس بالباطل﴾ أي بأخذها بالرشى وأنواع التصيد بإظهار الزهد والمبالغة في التدين المستجلب لها بالنذور ونحوها فيكثرونها ولا ينفقونها في سبيل الله من أتاهم بها بالإقبال بقلوب عباده إليهم.

ولما أخبر عن إقبالهم على الدنيا، أتبعه الإخبار عن إعراضهم عن الآخرة فقال: ﴿ويصدون﴾ أي يحتالون في صرف من يأتيهم بتلك الأموال وغيرهم ﴿عن سبيل الله﴾ أي دين الملك الذي له الأمر كله بإبعادهم عنه بإخفاء الآيات الدالة عليه عنهم خوفاً على انقطاع دنياهم بزوال رئاستهم لو أقبل أولئك على الحق.

ولما كان أكثرهم يكتزون تلك الأموال، شرع سبحانه يهدد على مطلق الكنز، ففهم من باب الأولى الصد الذي هو سبب الجمع الذي هو سبب الكنز فقال: ﴿والذين﴾ أي يفعلون ذلك والحال أنهم يعلمون أن الذين ﴿يكتزون﴾ أي يجمعون تحت الأرض أو فوقها من قولهم للمجتمع اللحم: مكنته ﴿الذهب والفضة﴾ أي منهم ومن غيرهم من غير تزكية.

ولما كان من المعلوم أنهما أجل مال الناس، وكان الكنز دالاً على المكاثرة

فيهما، أعاد الضمير عليهما بما يدل على الأنواع الكثيرة فقال: ﴿ولا ينفقونها﴾ أي ينفقون ما وجب عليهم من هذه الأموال التي جمعوها من هذين النوعين مجتمعين أو منفردين، ولو ثنى لأوهم أن اجتماعها شرط للترهيب، وإنما أعاد الضمير عليها من غير ذكر «من» - وهي مرادة - لمزيد الترغيب في الإنفاق والترهيب من تركه، ويجوز أن يعود الضمير إلى الفضة لأن الذم على كتنزها، والحاجة إليها لكثرتها أقل، فالذم على كتنز الذهب من باب الأولى لأنه أعلى منها وأعز بخلاف الذم على كتنز الذهب؛ وقال الحرالي في آل عمران: فأوقع الإنفاق عليهما ولم يخصه من حيث لم يكن، ولا ينفقون منهما كما قال في المواشي [أخذ من أموالهم] لأن هذين الجوهرين خواتم ينال بها أهل الدنيا منافعهم وقد صرف عنهم الانتفاع بهما فلم يكن لوجودهما فائدة إلا بإنفاقهما لأنهما صنما هذه الأمة، فكان كسرهما بإذاهبهما - انتهى. ﴿في سبيل الله﴾ أي الوجه الذي أمر الملك الأعلى بإنفاقها فيه ﴿فبشرهم﴾ أي نقول فيهم بسبب ذلك تهكماً بهم: بشرهم ﴿بعذاب أليم﴾ عوضاً عما أرادوا بهما من السرور بإنجاح المقاصد.

ولما كان السياق دالاً دلالة واضحة على أن هذا العذاب يحصل لهم ويقع بهم، فنصب بذلك قوله: ﴿يوم يحمى﴾ أي يحصل الإحماء وهو الإيقاد الشديد ﴿عليها﴾ أي الأموال التي جمعوها ﴿في نار جهنم﴾ أي التي لا يقاربها ناركم، وتلقى داخلها بالتجهم والعبوسة كما كان يلقي بذلك الفقراء وغيرهم من أهل الله لا سيما من منعه ما يجب له من النفقة ﴿فتكوى بها﴾ أي بهذه الأموال ﴿جباههم﴾ التي هي أشرف أعضائهم لأنها مجمع الوجوه والرؤوس وموضع الجاه الذي يجمع المال لأجله لتعبيسهم بها في وجوه الفقراء ﴿وجنوبهم﴾ التي يحوونه لملئها بالمآكل المشتهاة والمشارب المستلذة ولازورارهم بها عن الفقراء ﴿وظهورهم﴾ التي يحوونه لتقويتها وتحميلها بالملابس وتجليتها وتوليتهم إياها إذا اجتمعوا مع الفقراء في مكان. ثم يقال لهم: ﴿هذا ما كنزتم﴾ وأشار إلى الحامل على الجمع المنافي للعقل بقوله: ﴿لأنفسكم﴾ أي لتنافسوا به وتلتذوا فلم تنفقوه فيما أمر الله ﴿فدوقوا ما﴾ أي وبال وعذاب ما ﴿كنتم تكتزون﴾ أي تجددون جمعه على سبيل الاستمرار حريصين عليه، وأشار بفعل الكون إلى أنهم مجبولون على ذلك؛ روى البخاري في التفسير عن زيد بن وهب قال: مرت على أبي ذر رضي الله عنه بالربذة قلت: ما أنزلك بهذه الأرض قال: كنا بالشام فقرأت ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾ - الآية، قال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب! قلت: إنها لفينا وفيهم؛ وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال، يعني فما أعطى صاحبه ما وجب عليه فيه فليس بكنز.

ولما تقدم كثير مما يبنني على التاريخ: الحج في غير موضع والأشهر وإتمام عهد من له مدة إلى مدته والزكاة والجزية، وختم ذلك بالكتر الذي لا يطلق شرعاً إلا على ما لم تؤد زكاته، وكان مشركو العرب - الذين تقدم الأمر بالبراءة منهم والتأذين بهذه الآيات يوم الحج الأكبر فيهم - قد أحدثوا في الأشهر - بالنسيء الذي أمروا أن ينادوا في الحج بإبطاله - ما غير السنين عن موضوعها الذي وضعها الله عليه، فضاهاوا به فعل أهل الكتاب بالتدين بتحليل أكابره وتحریمهم كما ضاهى أولئك قول أهل الشرك في النبوة والأبوة، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي منتهى عدد شهور السنة ﴿عند الله﴾ أي في حكم وعلم الذي خلق الزمان وحده وهو الإله وحده فلا أمر لأحد معه ﴿أثنا عشر شهراً﴾ أي لا زيادة عليها ولا تغيير لها كما تفعلونه في النسيء ﴿في كتب الله﴾ أي كلام الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً، وحكمه الذي هو مجمع الهدى، فهو الحقيقي بأن يكتب، وليست الشهور ثلاثة عشر ولا أكثر كما كان يفعل من أمرتكم بالبراءة منهم كائنين من كانوا في النسيء ﴿يوم﴾ أي كان ذلك وثبت يوم ﴿خلق السموات والأرض﴾ أي اللذين نشأ عنهما الزمان. والمعنى أن الحكم بذلك كان قبل أن يخلق الزمان ﴿منها﴾ أي الشهور ﴿أربعة حرم﴾ أي بأعيانها لا بمجرد العدد ﴿ذلك﴾ أي الأمر العظيم والحكم العالي الرتبة في الإتيان خاصة ﴿الدين القيم﴾ أي الذي لا عوج فيه ولا مدخل للعباد، وإنما هو بتقدير الله تعالى للقمر؛ روى البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال - يعني في حجة الوداع: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان^(١). ولما بين الأمر سبب عنه قوله: ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ أي الأشهر الحرم ﴿أنفسكم﴾ أي بسبب إنساء بعضها وتحریم غيره مكانه لتوافقوا العدد - لا العين - اللازم عنه إخلال كل منها بإيقاع الظلم فيه وتحریم كل من غيرها، قال قتادة: العمل الصالح والفساد فيها أعظم منه في غيرها وإن كان ذلك في نفسه عظيماً فإن الله تعالى لعظم من أمره ما شاء؛ وقال أبو حيان ما حاصله: إن العرب تعيد الضمير على جمع الكثرة كالواحدة المؤنثة فلذا قال: «منها أربعة» أي من الشهور، وعلى جمع القلة لما لا يعقل بنون جمع المؤنث فلذا قال ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ أي في الأربعة.

ولما كان إنساؤهم إنما هو لتحل لهم المقاتلة على زعمهم قال: ﴿وقاتلوا

(١) أخرجه البخاري ٥٥٥٠ ومسلم ١٦٧٩ وأبو داود ١٩٤٨ وابن ماجه ٢٣٣ وابن حبان ٥٩٧٥ والبيهقي ١٤٠/٥ و ١٦٥ من حديث أبي بكر.

المشركين كافة ﴿ أي كلكم في ذلك سواء، في الائتلاف واجتماع الكلمة ﴾ كما يقاتلونكم كافة ﴿ أي كلهم في ذلك سواء وذلك الحكم في جميع السنة، لا أنهاكم عن قتالهم في شهر منها، فأنتم لا تحتاجون إلى تغيير حكمي فيها لقتال ولا غيره إن اتقيتم الله، فلا تخافوهم وإن زادت جموعهم وتضاعفت قواهم لأن الله يكون معكم ﴾ واعلموا أن الله ﴿ أي الذي له جميع العظمة معكم، هكذا كان الأصل ولكنه أظهر الوصف تعليقاً للحكم به وتعميماً فقال: ﴿ مع المتقين ﴾ أي جميعهم، وهم الذين يثبتون تقواهم على ما شرعه لهم، لا على النسيء ونحوه، ومن كان الله معه نصر لا محالة.

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ .

ولما فهم من هذا إبطال النسيء لأنه فعل أهل الجاهلية فلا تقوى فيه، كان كأنه قيل: أفما في النسيء تقوى فإن سببه إنما هو الخوف من انتهاك حرمة الله بالقتال في الشهر الذي حرمه؟ وذلك أنهم كانوا أصحاب غارات وحروب، وكانوا يحترمون الأشهر الحرم عن القتال حتى لو رأى الإنسان قاتل أبيه لا مانع منه لم يعرض له، فكان إذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم تركه، وكان يشق عليهم ترك ذلك ثلاثة أشهر متوالية، فجعلوا النسيء لذلك، فقيل تصريحاً بما أفهمه ما مضى: ليس فيه شيء من ذلك: ﴿ إنما النسيء ﴾ أي تأخير الشهر إلى شهر آخر على أنه مصدر نساءً نسيئاً - إذا أخره، أو هو اسم مفعول، أي الشهر الذي تؤخر العرب حرمة من الأشهر الحرم عن وقتها ﴿ زيادة في الكفر ﴾ أي لأنه على خلاف ما شرعه الله، وفيه ستر تحريم ما أظهر الله تحريمه.

ولما بين ما في النسيء من القباحة، تحرر أنهم وقعوا على ضد مرادهم فإنهم كانوا لو قاتلوا في الشهر الحرام قاتلوا وهم معتقدون الحرمة خائفون عاقبتها فكانوا غير خارجين عن دائرة التقوى بالكلية، فإذا هم بتحليله قد صاروا خارجين عن دائرتها بمراحل لارتكابهم فيه كل عزيمة مع الأمن لاعتقاد الحل بتحليل ذلك الذي اعتقدوه رباً، فكان يقول: إني لا أجاب ولا أعاب، وإنه لا مرد لقضائي، وإني حللت المحرم وحرمت صفرأ - إلى غير ذلك من الكلام الذي لا يليق إلا بالإله؛ وذلك معنى قوله تعالى بياناً لما قبله: ﴿ يضل به ﴾ أي بهذا التأخير الذي هو النسيء ﴿ الذين كفروا ﴾ أي يحصل لهم بذلك ضلال عما شرعه الله - هذا على قراءة الجماعة والمعنى على قراءة حمزة والكسائي وحفص - بالبناء للمفعول: يضلهم مضل من قبل الله، وعلى قراءة يعقوب - بالضم: يضلهم الله؛ ثم بين ضلالهم بقوله: ﴿ يحلون ﴾ أي ذلك الشهر، وعبر

عن الحول بلفظ يدور على معنى السعة إشارة إلى أنهم يفعلونه ولو لم يضطروهم إلى ذلك جذب سنة ولا عض زمان، بل بمجرد التشهي فقال: ﴿عاماً ويحرمونه عاماً﴾ هكذا دائماً كلما أرادوا. وليس المراد أنهم كل سنة يفعلون ذلك من غير إجلال لسنة من السنين، وهذا الفعل نسخ منهم مع أنهم يجعلون النسخ من معائب الدين ﴿ليواطئوا﴾ أي يوافقوا ﴿عدة ما حرم الله﴾ أي المحيط بالجلال والإكرام في كون الأشهر الحرم أربعة ﴿فيحلوا﴾ أي فيتسبب عن هذا الفعل أن يحلوا ﴿ما حرم الله﴾ أي الملك الأعظم منها كلها، فلا يدع لهم هذا الفعل شهراً إلا انتهكوا حرمة فأرادوا بذلك عدم انتهاك الحرمة فإذا هم لم يدعوا حرمة إلا انتهكوها، فما أبعد من ضلال!

ولما انتهكت بهذا البيان قباحة فعلهم، كان كأنه قيل: إن هذا لعجب! ما حملهم على ذلك؟ فقيل: ﴿زين﴾ أي زين مزين، وقرىء شاذاً بإسناد الفعل إلى الله ﴿لهم سوء اعمالهم﴾ أي حتى رأوا حسناً ما ليس بالحسن فضلوا ولم يهتدوا، فعل الله بهم ذلك لما علم من طبعهم على الكفر فلم يهدهم ﴿والله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿لا يهدي﴾ أي يخلق الهداية في القلوب ﴿القوم الكافرين﴾ أي الذين طبعهم على الكفر فهم عريقون فيه لا يتفكون عنه؛ والنسيء - قال في القاموس -: الاسم من نساء الشيء بمعنى زجره وساقه وأخره، قال: وشهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية فنهى الله عز وجل عنه؛ وقال ابن الأثير في النهاية؛ والنسيء فعول بمعنى مفعول، وقال ابن فارس في المجمل: والنسيء في كتاب الله التأخير، وكانوا إذا صدروا عن منى يقوم رجل من كنانة فيقول: أنا الذي لا يرد لي قضاء! فيقولون: أنسئنا شهراً، أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر - انتهى. ومادة نساء تدور على التغريب، وسبب فعلهم هذا أنهم كانوا ربما أرادوا قتالاً في شهر حرام فيحلونه، ويحرمون مكانه شهراً من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر؛ قال ابن فارس: وذلك أنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها، لأن معاشهم في الغارة فيحل لهم الكناني المحرم - انتهى. وكان النساء من بني فقيم من كنانة، وكان أول من فعل ذلك منهم القلمس وهو حذيفة بن عبد ابن فقيم، وآخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ابن خزيمة. نساء أربعين سنة، كانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فحرم الأشهر الحرم الأربعة، فإذا أرادوا أن يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه، وحرم مكانه صفرأ فحرموه، ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم، فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال: اللهم إني قد أحللت لهم أحد الصفرين الأول، ونسأت الآخر للعام المقبل - ذكر ذلك أهل السير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أول من نساء عمرو بن لحي.

وتحقيق معنى ما كانت العرب تفعله واختلاف أسماء الشهور به حتى يوجب دوران السنين فلا تصادف أسماء الشهور مسمياتها إلا الحين بعد الحين عسر قل من أتى فيه بما يتضح به قول النبي ﷺ في حجة الوداع كما مضى «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض»^(١)، وها أنا أذكر فيه ما لا يبقى بعده لبس إن شاء الله تعالى، فمعنى قوله: ونسأت الآخر للعام المقبل، أنه إذا أحل المحرم وسماه صفرأ ابتدأ السنة بعده بالمحرم ثم صفر إلى آخرها، فيصير بين صفر وذو الحجة الذي وقع النسيء فيه شهران، وقد كان ينبغي أن يكون بينهما شهر واحد، فأخر هذا الذي ينبغي إلى العام المقبل، فالمعنى: وأخرت الصفر الآخر عن محله إلى العام المقبل فإذا جاء العام المقبل انتهى تأخره، وإذا انتهى رجع إلى محله، ويمكن أن ينزل على هذا قول أبي عبيد في غريب الحديث، قال بعد النصف من الجزء الثالث منه في شرح الاستدارة: إن بدء ذلك - والله أعلم - أن العرب كانت تحرم الشهور الأربعة، وكان هذا مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام، وربما احتاجوا إلى تحليل المحرم للحرب تكون بينهم، فيكرهون أن يستحلوه ويكرهون تأخير حربهم فيؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم، وهذا هو النسيء الذي قال الله ﴿إنما النسيء﴾ [براءة: ٣٧] الآية، وكان ذلك في كنانة هم الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب، والنسيء هو التأخير، فكانوا يمكثون بذلك زماناً يحرمون صفرأ وهم يريدون بذلك المحرم ويقولون: هو أحد الصفرين، وقد تأول بعض الناس قول النبي ﷺ «لا صفر»^(٢) على هذا، ثم يحتاجون أيضاً إلى تأخير صفر إلى الشهر الذي بعده كحاجتهم إلى تأخير المحرم فيؤخرون تحريمه إلى ربيع، ثم يمكثون بذلك ما شاء الله ثم يحتاجون إلى مثله ثم كذلك، فكذلك يتدافع شهر بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله به، وذلك بعد دهر طويل، فذلك قول النبي ﷺ «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض»^(٣) يقول: رجعت الأشهر الحرم إلى مواضعها وبطل النسيء، وقد زعم بعض الناس أنهم كانوا يستحلون المحرم عاماً، فإذا كان من قابل رده إلى تحريمه، قال أبو عبيد: الأول أحب إلي لقول النبي ﷺ «إن الزمان قد استدار» وليس في التفسير الأخير استدارة،

(١) هو الحديث المتقدم.

(٢) هو بعض حديث أخرجه البخاري ٥٧١٧ ومسلم ٢٢٢٠ وابن حبان ٦١١٦ والبيهقي ٢١٦/٧ وأحمد ٢٦٧/٢ من حديث أبي هريرة.

(٣) تقدم قبل حديثين.

وعلى هذا التفسير الذي فسرناه قد يكون قوله ﴿يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾ مصداقاً له لأنهم إذا حرموا العام المحرم وفي قابل صفرأ ثم احتاجوا بعد ذلك إلى تحليل صفر أيضاً أحلوه وحرّموا الذي بعده، فهذا تأويل قوله في التفسير: يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً. وقال أبو حيان في النهر ما حاصله: كانت العرب لا عيش لأكثرها إلا من الغارات، فيشق عليهم توالي الأشهر الحرم، وكان بنو فقيم أهل دين وتمسك بشرع إبراهيم عليه السلام، فانتدب منهم القلمس وهو حذيفة بن عبيد بن فقيم، فنسأ الشهور للعرب، ثم خلفه على ذلك ابنه عباد ثم خلفه ابنه قلع ثم خلفه ابنه أمية ثم خلفه ابنه عوف ثم ابنه جنادة بن عوف وعليه قام الإسلام، كانوا إذا فرغوا من حجهم جاء إليه من شاء منهم مجتمعين فقالوا: أنستنا شهراً، فيحل المحرم، ثم يلزمون حرمة صفر ليوافقوا عدة الأشهر الأربعة ويسمون ذلك الصفر المحرم ويسمون ربيعاً الأول صفرأ وربيعاً الآخر ربيعاً الأول - وهكذا سائر الشهور، فيسقط على هذا حكم المحرم الذي حلل لهم، وتجيء السنة من ثلاثة عشر شهراً أولها المحرم الذي هو في الحقيقة صفر؛ وقال البغوي: قال مجاهد: كانوا يحجون في كل شهر عامين، فحجوا في ذي الحجة عامين وحجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذلك في الشهور، فوافقت حجة أبي بكر السنة الثانية من ذي القعدة، ثم حج النبي ﷺ في العام المقبل حجة الوداع، فوافق حجّه أشهر الحج المشروع وهو ذو الحجة، وقال عبد الرزاق في تفسيره: أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ قال: فرض الله الحج في ذي الحجة، فكان المشركون يسمون الأشهر: ذا الحجة والمحرم وصفر وربيع ورمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذا القعدة وذا الحجة، ثم يحجون فيه مرة أخرى، ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه، فيسمونه - أحسبه قال - المحرم صفر، ثم يسمون رجب بجمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ورمضان شوالاً. ثم يسمون ذا القعدة شوالاً. ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة ثم يحجون فيه، واسمه عندهم ذوالحجة، ثم عادوا كمثّل هذه الصفة فكانوا يحجون عامين في كل شهر حتى وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة، ثم حج النبي ﷺ حجته التي حج، فوافق ذلك ذا الحجة، فلذلك يقول النبي ﷺ في خطبته «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض»^(١). وقال ابن إسحاق في السيرة؛ سألت ابن أبي نجيح عن قول رسول الله ﷺ فقال؛ كانت قريش يدخلون في كل سنة شهراً، وإنما كانوا يوافقون ذا الحجة كل اثنتي عشرة سنة مرة،

(١) تقدم.

فوفق الله عز وجل لرسول الله ﷺ في حجته التي حج ذا الحجة، فحج فيها فقال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض»، فقلت لابن أبي نجيح: فكيف بحجة أبي بكر وعتاب بن أسيد؟ فقال: على ما كان الناس يحجون عليه، ثم قال ابن أبي نجيح: كانوا يحجون في الحجة ثم العام المقبل في المحرم ثم صفر حتى يبلغوا اثني عشر شهراً - انتهى. وقوله هذا يوهم أن حج أبي بكر وعتاب رضي الله عنهما اختلافاً، وتقدم عن المهدي وغيره التصريح بأنه كان في ذي القعدة - وفيه نظر، لأن السنة التي حج فيها أبو بكر رضي الله عنه نودي فيها بتحريم النسب وغيره من أمور الجاهلية، فلا شك أنه لم يكن في ذلك العام إنساء، ولما مضى من الشهر الذي حج فيه عشرة أشهر، وكان الحادي عشر وهو ذو القعدة سار النبي ﷺ في أواخره إلى الحج موافياً لهلال ذي الحجة، فلما وقف بعرفة أخبر أن الزمان قد استدار، فعلم قطعاً أن استدارته كانت في حجة أبي بكر، وكذا في سنة ثمان وهي السنة التي حج فيها عتاب بالمسلمين، وذلك لأن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لم يكونوا يعتبرون حساب أهل الجاهلية لا نسأتهم ولا غير نسأتهم، لأنه يلزم من القول بأنهم اعتبروا أمر النساء أنهم اعتبروا ما هو زيادة في الكفر، وهذا ما لا يقوله ذو مسكة، وقد تقدم النقل أن النبي ﷺ أرسل أبا بكر رضي الله عنه إلى الحج في أواخر ذي القعدة أو بعد انقضائه من سنة تسع، ووافاه العرب في ذي الحجة: الكفار وغيرهم، فوقع إعلامهم ببراءة في أيام الحج وأماكنه، فلو كان حصل في سنة عتاب اختلال في ذي القعدة بنسب لكان ذو الحجة بحساب الكفار وهو المحرم بحساب الإسلام، فكان يتأخر مجيء الكفار للحج عن مجيء المسلمين، فثبت بهذا أيضاً أن حجه رضي الله عنه كان في ذي الحجة، فحفظ الله أهل الإسلام من أن يقع في حجه اختلال في سنة من السنين، وما هي بأول نعمة عليهم - والله الموفق؛ وقال الإمام أبو العباس أحمد بن أبي أحمد المشهور بابن القاص من أكابر متقدمي أصحاب الشافعي رحمه الله في كتابه دلائل القبلة في باب معرفة عدد أيام السنة: فالسنة اثنا عشر شهراً بالأهلة، وربما كان الشهر ثلاثين وربما كان تسعاً وعشرين، فمبلغ السنة الهلالية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وثمانين ساعات وأربعة أخماس ساعة، وقالت الهند: السنة ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وست ساعات وخمس ساعة وجزء من أربعمائة جزء من ساعة، وذلك من دخول الشمس برأس الحمل إلى أن تدخل فيه من قابل، ففضل ما بين السنة الهلالية والسنة الشمسية عشرة أيام وإحدى وعشرون ساعة وخمسا ساعة، فإذا زيدت عليها هذه الساعات والأيام استقام حسابه مع دوران الشمس، وكانت العرب تزيده في الجاهلية، وكان الذي أبدع لهم ذلك

رجل من كنانة يقال له القلمس، وذلك أنه يجمع هذه الزيادة فإذا تمت شهراً زاده في السنة وجعل تلك السنة ثلاثة عشر شهراً، وسماه نسيئاً، ويحج بهم تلك السنة في المحرم، فأنزل الله تعالى ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ فلما كانت السنة التي حج فيها رسول الله ﷺ حجة الوداع وافق الحج في تلك السنة ذا الحجة لما أراد الله تعالى بإثبات الحج في تلك السنة، فخطب النبي ﷺ فقال: أيها الناس! ألا إن السنة قد استدارت كهيتها يوم خلق الله السماوات والأرض ﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم﴾^(١) يعني به الحساب القيم، فالحرم رجب جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، فسمي ذلك الحج الأقوم، وقال الشاعر:

وأبطل ذو العرش النسي وقلمسا وفاز رسول الله بالحج الأقوم - انتهى

والقلمس بفتح اللام وتشديد الميم، فالنسيء في البيت متروك الهمز ليصح الوزن، والأقوم منقول حركة الهمزة، وقوله: إن علة النسيء التطبيق بين السنة الشمسية والقمرية - فيه نظر، والظاهر أن علته ما ذكر في السير من اضطرارهم إلى القتال، وأمر الاستدارة في كل من هذه الأقوال واضح الاستنارة، وليس المراد بها مصادفة كل فصل من فصول السنة لموضعه من الحر والبر، ومصادفة اسم كل شهر لمسماه بحسب اشتقاقه حتى يكون رمضان في شدة الحر مثلاً وكذلك غيره وإن كان الواقع أن الأمر كان في هذه الحجة كذلك، لما تقدم من أن غزوة تبوك كان ابتداءها في شهر رجب، وكان ذلك كما تقدم في شدة الحر وحين طابت الثمار، وإنما المراد الأعظم بالاستدارة مصادفة اسم كل شهر لمسماه لا لمسمى شهر آخر لأجل الدوران بالنسيء بدليل أنه ﷺ ما ذكرها إلا لأجله، فقال في بعض طرق حديث جابر الطويل رضي الله عنه: إن النسيء زيادة في الكفر، وإن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً^(٢). فانظر إلى تعقيبه بحصر الأشهر في الاثني عشر نفيًا لجعلهم إياها سنة النسيء ثلاثة عشر شهراً، وقال: منها أربعة حرم، وعينها وقال: أي شهر هذا؟ فلما سكتوا قال: ذو الحجة شهر حرام، كل هذا لبيان أن المراد بالاستدارة رجوع كل شهر

(١) تقدم أنفاً.

(٢) حديث جابر الطويل أخرجه مسلم ١٢١٨ وأبو داود ١٩٠٥ وابن ماجه ٣٠٧٤ والدارمي ١٧٩٣ من حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ، ولم أر الفقرة التي أوردها المصنف، والله أعلم. واللفظ الذي أراده المصنف وهو «السنة اثنا عشر شهراً» عند البخاري ٤٦٦٢ و ٧٤٤٧ ومسلم ١٦٧٩ لكن من حديث أبي بكر.

عما غيره أهل الجاهلية إلى موضعه الذي وضعه الله به موافقاً اسمه لمسماه، وجعلت أشهرنا هلالية مع المنع من النسيء لتحصل الاستدارة فيحصل بسببها كل عبادة تعبدنا بها من صوم وعيد وحج وغيره في كل فصل من فصول السنة بخلاف من شهوره بالحساب، فإن عباداتهم خاصة بوقت من السنة لا تتعداه - والله الموافق له، وقال القاضي أبو محمد إسحاق بن إبراهيم البستي في تفسيره: حدثنا ابن أبي عمر ثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طاوس قال؛ الشهر الذي انتزعه الله من الشيطان المحرم. والحاصل أنه لا شك في أن النسيء لم يكن قط إلا للمحرم لما تقدم، وأن الحج لم يكن قط في جاهلية ولا إسلام إلا في شهر يسمى ذا الحجة لما قاله نقله اللغة والحديث والأخبار، قال ابن الأثير في النهاية ونشوان اليماني في شمس العلوم والقزاز في ديوانه وابن مكتوم في ترتيب العباب والمحكم: ذو الحجة بالكسر: شهر الحج، زاد المحكم: سمي بذلك للحج، وقال القزاز؛ إن الفتح فيه أشهر، وفي النهاية: يوم التروية هو الثامن من ذي الحجة، سمي به لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعده، أي يستقون ويستقون؛ وقال المجدد في القاموس: يوم عرفة التاسع من ذي الحجة، وفي كتاب أسواق العرب لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي رواية أبي سعيد السكري أن عكاظ كانت من أعظم أسواق العرب. فإذا أهل أهلها هلال ذي الحجة ساروا بأجمعهم إلى ذي المجاز وهي قريب من عكاظ، وعكاظ في أعلى نجد، فأقاموا بها حتى يوم التروية، ووافاهم بمكة حجاج العرب ورؤوسهم ممن أراد الحج بمن لم يكن شهد تلك الأسواق. وقال الأزرق في تاريخ مكة: فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز فأقاموا بها ثمان ليال أسواقهم قائمة، ثم يخرجون يوم التروية في ذي المجاز إلى عرفة فيتروون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز، وإنما سمي يوم التروية لترويههم الماء بذي المجاز، ينادي بعضهم بعضاً: ترووا من الماء، إنه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ، ثم ذكر أنه لا يحضر ذلك إلا التجار، قال: ومن لم يكن له تجارة فإنه يخرج من أهله متى أراد، ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم التروية. وروى البيهقي في دلائل النبوة بسنده عن عروة وموسى بن عقبة - فرقهما - قالوا: وأهل رسول الله ﷺ بالعمرة من الجعرانة في ذي القعدة، ثم أسند عن ابن إسحاق أنه قال: فلما فرغ رسول الله ﷺ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم، فكانت عمرة رسول الله ﷺ في ذي القعدة أو في الحجة، وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب يحج عليه، وحج تلك السنة عتاب بن أسيد في سنة ثمان، وحديث

اعتماره ﷺ في ذي القعدة^(١) رواه الشيخان ومضى على ما كانت العرب من الطواف عراة ونحوه؛ وذكر الواقدي عن مشايخ قالوا: وانتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة، فأقام بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة، فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج من الجعرانة ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ليلاً فأحرم - فذكر عمرته ثم قال: واستعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة، وخلف معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما يعلمان الناس القرآن والفقہ في الدين، وأقام للناس الحج عتاب بن أسيد رضي الله عنه عن تلك السنة وهي سنة ثمان، وحج ناس من المسلمين والمشركين على مدتهم، وقدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة، قال الواقدي: فأقام بقية ذي القعدة وذا الحجة، فلما رأى هلال المحرم بعث المصدقين - انتهى. إذا تقرر هذا علم أن الحج لم يكن قط إلا في شهر يسمونه ذا الحجة، وهو مما لا يدور في خلد ولا يقع في وهم فيه تردد، ولا يحتاج إلى تطويل بذكره ولا إطناب في أمره، وتارة يوافق اسمه مسماه وتارة لا يوافق له لأجل النسب، وعلم أيضاً أن حج عتاب بن أسيد كان في ذي الحجة بعد رجوع النبي ﷺ من الجعرانة إلى المدينة الشريفة، وأنه ما تأخر عن ذي الحجة وإلا لنقل، وأن حج أبي بكر رضي الله عنه سنة تسع كان في ذي الحجة لذلك ولما تقدم من أن سفره له من المدينة الشريفة كان في آخر ذي القعدة أو أول ذي الحجة ولقولهم: إن الأربعة الأشهر التي ضربت للمشركين من يوم النحر ولقولهم: إن الأربعة الأشهر كان آخرها عاشر ربيع الآخر، وعلم أن ذا الحجة تلك السنة لو كان وافق مسمى ذي القعدة لم يقع ذو الحجة سنة عشر التي حج فيها النبي ﷺ في موضعه الذي وضعه الله به إلا بأن تكون تلك السنة ثلاثة عشر شهراً بنسب أو غيره، وكل من الأمرين باطل، أما الأول فلأن الله تعالى أبطل النسب في تلك السنة فيما أبطله من أمور الجاهلية في هذه السورة، وأرسل النبي ﷺ بالمناداة بها كما مر، وأما الثاني فهو أمر خارق للعادة لم يكن مثله من حين خلق الله السماوات والأرض، والخارق مما تتوفر الدواعي [على] نقله، ولا ناقل لهذا أصلاً فبطل، وإذا بطل ثبت أن سنة عشر كانت اثني عشر شهراً ولا سيما بعد إنزال الله تعالى في ذلك ما أنزل في هذه السورة، وإذا كان الأمر كذلك كان الشهر الذي وقف فيه النبي ﷺ في موضع الشهر الذي وقف فيه الصديق رضي الله عنه سواء

(١) أخرج البخاري ١٧٨٠ و ٤١٤٨ ومسلم ١٢٥٣ من حديث أنس: «أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلهن في ذي القعدة، إلا التي في حجته...».

بسواء، وقد ثبت أن الزمان كان فيه قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، فثبت من غير مرية أن شهر الصديق رضي الله عنه كذلك كان، وثبت أيضاً أن سنة عتاب ابن أسيد رضي الله عنه كذلك كانت بما قدمت من أنه لم يكن فيها نسيء لتوافق حج المسلمين والمشركين في سنة تسع. فدل ذلك على أنها كانت اثني عشر شهراً، فكان ذو الحجة فيها في موضعه الذي وضعه الله به كما كانت سنة تسع، بل ظاهر قول أبي عبيد: فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه - كما مضى - أن الله حفظ زمن الإسلام كله عن نسيء، وهو الذي اعتقده، وقد لاح بذلك أن السبب في قول من قال: إن حج الصديق رضي الله عنه وافق ذا القعدة، أنه فهم من قول النبي ﷺ «إن الزمان قد استدار^(١)» أن الاستدارة لم تكن إلا في تلك السنة وليس ذلك مدلول هذا التركيب ما لا يخفى والله الوفق: ثم وجدت النقل الصريح في زوائد معجمي الطبراني: الأوسط والأصغر للحافظ نور الدين الهيثمي بمثل ما فهمته، قال في تفسير براءة: حدثنا إبراهيم - يعني ابن هشام - البغوي ثنا الصلت بن مسعود الجحدري ثنا محمد بن عبد الرحمن الطفاوي ثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده يعني عبد الله بن عمرو^(٢) رضي الله عنهما قال: كانت العرب يحلون عاماً شهراً وعاماً شهرين ولا يصيبون الحج إلا في كل ست وعشرين سنة مرة، وهو النسيء الذي ذكره الله عز وجل في كتابه، فلما كان عام حج أبو بكر رضي الله عنه بالناس وافق ذلك العام الحج فسماه الله الحج الأكبر، ثم حج رسول الله ﷺ من العام المقبل فاستقبل الناس الأهلة فقال رسول الله ﷺ: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض^(٣). لم يروه عن عمرو إلا داود تفرد به الصلت - انتهى. وهو حديث حسن إن شاء الله تعالى، ثم رأيت الهيثمي في مجمع الزوائد قال: رجاله ثقات، فأكد ذلك الجزم بما فهمت من أنه حسن، وإنما أطلت هذا بما قد لا يحتاج في إيضاحه إليه لكثرة جدال المجادلين المعاندين ومحال المماحلين الجامدين.

﴿يَعَائِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ

(١) تقدم قبل حديث واحد.

(٢) وقع في الأصل «ابن عمر» والتصويب من مجمع الزوائد ٢٩/٧.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في المجمع ٢٩/٧ من حديث عبد الله بن عمرو. قال الهيثمي: ورجاله ثقات.

إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَفَرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَنْفَرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ .

ولما أوعز سبحانه في أمر الجهاد، وأزاح جميع عليهم وبين أن حسنه لا يختص به شهر دون شهر وأن بعضهم كان يحل لهم ويحرم فيتبعونه بما يؤدي إلى تحريم الشهر الحلال وتحليل الشهر الحرام بالقتال فيه، عاتبهم الله سبحانه على تخلفهم عن رسول الله ﷺ الأمر لهم بالنفر في غزوة تبوك عن أمره سبحانه، وكان ابتداءها في شهر رجب سنة تسع، فقال تعالى على سبيل الاستعطاف والتذكير بنعمة الإيمان بعد ختم التي قبلها بأنه لا يهدي الكافرين - الذي يعم الحرب وغيره الموجب للجرأة عليهم [لأن من لا هداية له أعمى، والأعمى لا يخشى]: ﴿يأيتها الذين آمنوا﴾ أي ادعوا ذلك ﴿ما لكم﴾ أي ما الذي يحصل لكم في أنكم ﴿إذا قيل لكم﴾ أي من أي قاتل كان ﴿انظروا﴾ أي اخرجوا مسرعين بجهد ونشاط جماعات ووحداناً إمداداً لحزب الله ونصراً لدينه تصديقاً لدعواكم الإيمان، والنفر: مفارقة مكان إلى مكان لأمر هاج على ذلك ﴿في سبيل الله﴾ أي بسبب تسهيل الطريق إلى الملك الذي له جميع صفات الكمال، وقال أبو حيان: بني «قيل» للمفعول والقاتل النبي ﷺ ولم يذكر إغلاظاً ومخاشنة لهم وصوناً لذكره إذ أخذ إلى الهويته والدعة من أخذ وخالف أمره - انتهى. ﴿انناقلتم﴾ أي تناقلتم ثقلاً عظيماً، وفيه ما لم يذكروا له سبباً ظاهراً بما أشار إليه الإدغام إخلاداً وميلاً ﴿إلى الأرض﴾ أي لبرد ظلالها وطيب هوائها ونضج ثمارها، فكنتم أرضيين في سفول الهمم، لا سمائيين بطهارة الشيم.

ولما لم يكن - في الأسباب التي تقدم أنها كانت تحمل على التباطؤ عن الجهاد - ما يحتمل القيام بهم في هذه الغزوة إلا الخوف من القتل والميل إلى الأموال الحاضرة وثوقاً بها والإعراض عن الغنى الموعود به الذي ربما يلزم من الإعراض عنه التكذيب، فيؤدي إلى خسارة الآخرة، هذا مع ما يلزم على ذلك - ولا بد - من الزهد في الأجر المثمر لسعادة العقبى بهذا الشيء الخسيس؛ قال مبيناً خسة ما أخذوا إليه تزهداً فيه

وشرف ما أعرضوا عنه ترغيباً فيه منبهاً على أن ترك الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر عظيم منكراً على من تناقل موبخاً لهم: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا﴾ أي بالخفض والدعة في الدار الدنية الغارة ﴿من الآخرة﴾ أي الفاخرة الباقية؛ قال أبو حيان: و «من» تظافرت أقوال المفسرين أنها بمعنى بدل، وأصحابنا لا يشتون أن من تكون للبدل - انتهى. والذي يظهر لي أنهم لم يريدوا أنها موضوعة للبدل، بل إنه يطلق عليها لما قد يلزمها في مثل هذه العبارة من ترك ما بعدها لما قبلها فإنها لا ابتداء الغاية، فإذا قلت: رضيت بكذا من زيد، كان المعنى أنك أخذت ذلك أخذاً مبتدئاً منه غير ملتفت إلى ما عداه، فكأنك جعلت ذلك بدل كل شيء يقدر أنه ينالك منه من غير ذلك المأخوذ. ولما كانوا قد أعطوا الآخرة على الأتباع فاستبدلوا به الامتناع، كان إقبالهم على الدنيا كأنه مبتدئ مما كانوا قد توطنوه من الآخرة مع الإعراض عنها، فكأنه قيل: أرضيتم بالميل إلى الدنيا من الآخرة؟ ويؤيد ما فهمته أن العلامة علم الدين أبا محمد القاسم بن الموفق الأندلسي ذكر في شرح الجزولية أنهم عدوا لـ ﴿من﴾ خمسة معان كلها ترجع إلى ابتداء الغاية عند المحققين، وبين كيفية ذلك حتى في البيانية، فمعنى ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج: ٣٠] الذي ابتدأه من الأوثان، لأن الرجس جامع للأوثان وغيرها.

ولما كان الاستفهام إنكارياً كان معناه النهي، فكان التقدير: لا ترضوا بها فإن ذلك أسفه رأي وأفسده! فقال تعالى معللاً لهذا النهي: ﴿فما﴾ أي بسبب أنه ما ﴿متاع الحياة الدنيا في﴾ أي مغموراً في جنب ﴿الآخرة إلا قليل﴾ والذي يندب هم المتجر ويدعي البصر به ويحاذر الخلل فيه يعد فاعل ذلك سفيهاً.

ولما كان طول الاستعطاف ربما كان مدعاة للخلاف وترك الإنصاف، توعدهم بقوله: ﴿إلا تنفروا﴾ أي في سبيله ﴿يعذبكم﴾ أي على ذلك ﴿عذاباً أليماً﴾ أي في الدارين ﴿ويستبدل﴾ أي يوجد بدلاً منكم ﴿قوماً غيركم﴾ أي ذوي بأس ونجدة مخالفين لكم في الخلال التي كانت سبباً للاستبدال لولايته ونصر دينه.

ولما هددهم بما يضرهم، أخبرهم أنهم لا يضرون بفتورهم غير أنفسهم فقال: ﴿ولا تضروه﴾ أي الله ورسوله ﴿شيئاً﴾ لأنه متم أمره ومنجز وعده ومظهر دينه؛ ولما أثبت بذلك قدرته على ضره لهم وقصورهم عن الوصول إلى ضره، كان التقدير: لأنه قادر على نصر دينه ونبيه بغيركم، فعطف عليه تعميماً لقدرته ترهيباً من عظيم سطوته قوله: ﴿والله﴾ أي الملك الذي له الإحاطة الكاملة ﴿على كل شيء قدير﴾.

ولما وصف سبحانه نفسه الأقدس بما هو له أهل من شمول القدرة وعظيم البأس والقوة، أتبع ذلك بدليل يتضمن أن المستنفر لهم - وهو نبيه ﷺ - غير محتاج إليه

ومتوقف نصره عليهم كما لم يحتج إليهم - بحيطة القادر له - فيما مضى من الهجرة التي ذكرها، وأن نفع ذلك إنما هو لهم باستجلاب ما وعدوه واستدفاع ما أوعده في الدارين المشار إلى ذلك كله بقوله ﴿فما متاع الحيوة الدنيا﴾ الآية وقوله ﴿إلا تنفرو﴾ - الآية، فقال: ﴿إلا تنصروه﴾ أي أنتم طاعة لأمر الله، والضمير للنبي ﷺ إما على طريق الاستخدام من سبيل الله لأنه الموضح له الداعي إليه، أو لتقدم اسمه الشريف إضماراً في قوله ﴿إذا قيل لكم﴾ أي من رسول الله ﷺ استنصاراً منه لكم، وإظهاراً في قوله تعالى ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ [التوبة: ٣٤] الآية وقوة ما في كل جملة من المناسبة المقتضية لأن تعانق التي بعدها ولا تنفك عنها قصر الفصل بين الظاهر وضميره، وذكر الغاز والصاحب أوضح الأمر. وذلك أنه سبحانه لما عابهم باتخاذ الرؤساء أرباباً اشتدت الحاجة إلى بيان أنهم في البعد عن ذلك على غاية لا تخفى على متأمل، فوصفهم بالأكل المستلزم للجسمية المستلزمة للحاجة، وبأن مأكولهم أموال غيرهم باطلاً، وبأنهم يغشونهم لصددهم إياهم عن السبيل التي لا يخفى حسننها على من له أدنى نظر؛ ولما كان ذلك شديد الإثارة لتشوف النفوس إلى السؤال عن العرب: هل فعلوا فعلهم واتبعوا سنتهم؟ أجاب بأن عملهم في تحليل النساء لهم بعض الأشهر الحرم وتحريم بعض أشهر الحل والزيادة في عدة أشهر السنة كعملهم سواء.

ولما أمر بقتال المشركين كافة وحثهم على التقوى، وكان بعضهم قد توانى في ذلك، اشتد اقتضاء الحال للمعاقبة على التثاقل عن النفر، فلما تم ذلك في هذا الأسلوب البديع والطرز الرفيع حث على نصر الرسول الذي أرسله ليظهره على الدين كله فقال جواباً للشرط: ﴿فقد﴾ أي إن لم يتجدد منكم له نصر فإن الله قادر على نصره وسينصره ويغنيه عنكم ولا تضرون إلا أنفسكم فقد ﴿نصره الله﴾ أي الملك الأعظم وحده والأمر في غاية الشدة، ولا شك عند عاقل أن المستقبل عنده كالماضي ﴿إذ﴾ أي حين ﴿أخرجهم الذين﴾ وعبر بالماضي لأن فيهم من أسلم بعد ذلك فقال: ﴿كفروا﴾ أي من مكة وهم في غاية التمالؤ عليه حين شاوروا في قتله أو إخراجه أو إثباته، فكان ذلك سبباً لإذن الله له في الخروج من بينهم حال كونه ﴿ثاني اثنين﴾ أي أحدهما أبو بكر رضي الله عنه ولا ثالث لهما ينصرهما إلا الله ﴿إذ هما في الغار﴾ أي غار ثور الذي في أعلى الجبل المواجه للركن اليماني بأسفل مكة على مسيرة ساعة منها لما كمننا به ثلاث ليال ليفتر عنهما الطلب، وذلك قبل أن يصلا إليكم أو يعولا في النصر عليكم ﴿إذ يقول﴾ أي رسول الله ﷺ ﴿لصاحبه﴾ أي أبي بكر الصديق رضي الله عنه وثوقاً بربه غير منزع من شيء ﴿لا تحزن﴾ والحزن: هم غليظ بتوجع يرق له القلب، حزنه وأحزنه

بمعنى؛ وقال في القاموس: أو أحزنه: جعله حزينا، وحزنه: جعل فيه حزناً؛ ثم علل نبيه لصاحبه بقوله معبراً بالاسم الأعظم مستحضراً لجميع ما جمعه من الأسماء الحسنى والصفات العلى التي تخضع دونها صلاب الرقاب وتندك بعظمتها شوامخ الجبال الصلاب ﴿إن الله﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿معنا﴾ أي بالعون والنصرة، وهو كاف لكل مهم، قوي على دفع كل ملم، فالذي تولى نصره بالحراسة في ذلك الزمان كان قادراً على أن يأمر الجنود التي أيده بها أن تهلك الكفار في كل موطن من غير أن يكون لكم في ذلك أمر أو يحصل لكم به أجر، وكما أنه كان موجوداً في ذلك الزمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى هو على ذلك في هذا الزمان وكل زمان، فتبين كالشمس أن النفع في ذلك إنما هو خاص بكم، وأنه سبحانه ما رتب هذا كله على هذا المنوال إلا لفوزكم، وفي هذه الآية من التنويه بمقدار الصديق وتقدمه وسابقته في الإسلام وعلو منصبه وفخامة أمره ما لا يعلمه إلا الذي أعطاه إياه؛ قال أبو حيان وغيره: قال العلماء: من أنكروا صحبة أبي بكر رضي الله عنه فقد كفر لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة.

ولما كان رضي الله عنه نافذ البصيرة في المعارف الإلهية، راسخ القدم في ذلك المقام لذلك لم يتلثم من أول الأمر في عناد جميع العباد بخلع الأنداد، ثم تدرج فيه مترقياً لثلاث عشرة سنة، وكان الذي به من القلق إنما هو الخوف من أن يحصل للنبي ﷺ أذى فيدركه من الحزن لذلك ما يهلكه قبل سروره بظهور الدين وقمع المعتدين، ولم يكن جنباً ولا سوء ظن، لما كان ذلك كذلك كان رضي الله عنه حقيقاً لحصول السكينة له عند سماع اسم الشريف الأعظم الدال على ذلك المقام المذكور بتلك العظمة التي يتلاشى عندها كل عظيم، ويتصاغر في جنبها كل كبير، ولذلك ذكر هذا الاسم الأعظم وقدم، وأشرك الصديق في المعية وبدأ بالنهي عن الحزن لأنه المقصود بالذات وما بعده علة له. وأما بنو إسرائيل فلم يكن عندهم من المعرفة إلا ما شاهدوا من إحسانه تعالى إلى موسى عليه السلام بإظهار تلك الآيات على يده حتى استنقذهم بها مما كانوا فيه، ومنع موسى عليه السلام مع وحدته من سطوات فرعون على عظمتهم وما كان يواجهه به من المكروه، فلما رأوا جموعه مقبلة كان حالهم مقتضياً للسؤال عن ذلك المحسن بإظهار تلك الآيات: هل هو مع موسى عليه السلام على ما كان عليه فيمنعهم أم لا؟ فلذلك قد إنكار الإدراك ثم إثبات المعية على سبيل الخصوص به، وعبر عن الإله باسم الرب الدال على ذلك الإحسان المذكور به فقال ﴿كلا إن معي ربي﴾ [الشعراء: ٦٢] فكان قيل: ماذا يفعل والبحر أمامنا والعدو وراءنا؟ فقال «سيهدين» أي

إلى ما أفعال، يعرف ذلك من كان متضلعا بالسير وقصص بني إسرائيل على ما ذكرتها في الأعراف عن التوراة، مستحضراً لأن الصديق رضي الله عنه كان في صعودهما إلى الغار يذكر الرصد فيتقدم النبي ﷺ ليفتديه بنفسه ثم يذكر الطلب فيتأخر ثم يذكر ما عن اليمين والشمال فينتقل إليهما، ويقول للنبي ﷺ: إن قتلت أنا فأنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة، وأنه كان عارفاً بأن الله تعالى تكفل بإظهار الدين على يد رسول الله ﷺ المتضمن لحراسة نفسه الشريفة قبل ذلك، ولذلك كان به في هذا اليوم من القلق ما ذكر، وكان عند وفاة النبي ﷺ أثبت الناس، ولذلك أتى بالفاء المعقبة في قوله: ﴿فأنزل الله﴾ أي الملك الأعظم ﴿سكينته﴾ أي السكون المبالغ فيه المؤثر للنسك ﴿عليه﴾ أي الصديق - كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما - لأن السكينة لم تفارق النبي ﷺ، ثم عطف على نصره الله قوله: ﴿وأيده﴾ أي النبي ﷺ واختلاف الضمائر هنا لا يضر لأنه غير مشتبه ﴿بجنود لم تروها﴾ أي من الملائكة الكرام ﴿وجعل كلمة﴾ أي دعوة ﴿الذين كفروا﴾ أي أوقعوا الكفر من آمن منهم بعد ذلك وغيره ﴿السفلى﴾ فخبب سعيهم ورد كيدهم، ثم ابتدأ الإخبار بما له سبحانه على الدوام من غير انقطاع أصلاً في وقت من الأوقات فقال: ﴿وكلمة الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء، ونصبها يعقوب عطفاً على ما سبق ﴿هي العليا﴾ أي وحدها، لا يكون إلا ما يشاء دائماً أبداً، فالله قادر على ذلك ﴿والله﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿عزيز﴾ أي مطلقاً يغلب كل شيء من ذلك وغيره ﴿حكيم﴾ لا يمكن أن ينقض شيء من مراده لما ينصب من الأسباب التي لا مطمع لأحد في مقاومتها فلا محيص عن نفوذها.

ولما بلغت هذه المواعظ من القلوب الواعية مبالغاً هيأها به للقبول، أقبل عليها سبحانه بالأمر فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ والمراد بالخفة كل ما يكون سبباً لسهولة الجهاد والنشاط إليه، وبالثقل كل ما يحمل على الإبطاء عنه؛ وقال أبو حيان: والخفة والثقل هنا مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة ومن يمكنه بصعوبة، وأما من لا يمكنه كالأعمى ونحوه فخارج عن هذا - انتهى. قال البغوي: قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب رحمه الله إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر فقال: استنفر الله الخفيف والثقل، فإن لم يمكنني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع؛ وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده بسند صحيح عن أنس أن أبا طلحة رضي الله عنهما قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال: لا أرى ربي يستنفرني شاباً وشيخاً! جهزوني، فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فما تغير، ﴿وجاهدوا﴾ أي أوقعوا جهدكم ليقع جهد الكفار.

ولما كانت هذه الآية في سياق المعاتبة لمن تناقل إلى الأرض عن الجهاد عند الاستنفار في غزوة تبوك، وكان سبب التناقل ما كان في ذلك الوقت من العسرة في المال والشدة بالحر وما كان من طيب الظلال في أراضي الجنان وقت الأخذ في استواء الثمار - كما هو مشهور في السير؛ اقتضى المقام هنا تقديم المال والنفوس بخلاف ما مضى فإن الكلام كان في المفاضلة بين الجهاد في سبيل الله وخدمة البيت ومن يحججه في هذه السورة التي صادف وقت نزولها بعد مواطن الجهاد وطول المفارقة للأموال، والأولاد وقدم المال لأن النظر إليه من وجهين: قلته، ومحبة الإقامة في الحدائق إيثاراً للتمتع بها وخوفاً من ضياعها مع أن بها قوام الأنفس، فصار النظر إليها هو الحامل على الشح بالأنفس فقال تعالى: ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي بهما معاً على ما أمكنكم أو بأحدهما ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الملك الأعلى أي حتى لا يبقى منه مانع ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر العظيم ﴿خَيْرٌ﴾ أي في نفسه حاصل ﴿لَكُمْ﴾ أي خاص بكم، ويجوز أن يكون أفعل تفضيل بمعنى أن عبادة المجاهد بالجهاد خير من عبادة القاعد بغيره كائناً ما كان، كما قال ﷺ لمن سأل: هل يمكن بلوغ درجة المجاهد؟ فقال: هل تستطيع أن تقوم فلا تفتت وتصوم فلا تفطر؟ وختم الآية بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن هذا الأمر وإن كان عاماً فإنما ينتفع به ذوو الأذهان الصافية والمعالم الوافية، فإن العلم - ولا يعد علماً إلا النافع - يحث على العمل وعلى إحسانه باخلاص النية وتصحيح المقاصد وتقوية العزم وغير ذلك وضده يورث ضده.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمُوا الْكُذِبَ ﴿٤٣﴾﴾ .

ولما كان هذا العتاب مؤذناً بأن فيهم من تباطأ عن الجهاد اشتغالاً بنحو الأموال والأولاد، وكان ما اشتملت عليه هذه الآيات من الأوامر والزواجر والمواعظ جدير: بأن يخفف كل متناقل وينشط كل متكاسل، تشوقت النفوس إلى ما اتفق بعد ذلك فأعلم سبحانه به في أساليب البلاغة المخبرة عن أحوال القاعدين وأقاصيص الجامدين المفهمة أن هناك من غلب عليه الشقاء فلم ينتفع بالمواعظ، فالتفت من لطف الإقبال إلى تبكيت المتناقلين بأسلوب الإعراض المؤذن بالغضب المحقق للسخط المبين لفضائحهم المبعثر لقبائحهم المخرج لهم ما دخلوا فيه من عموم الدعاء باسم الإيمان فقال: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي ما تدعوا إليه ﴿عَرَضًا﴾ أي متاعاً دنيوياً ﴿قَرِيبًا﴾ أي سهل التناول ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي

وسطاً عدلاً مقارباً ﴿لاتبعوك﴾ أي لأجل رجاء العرض مع سهولة السفر لأن همهم قاصرة و منوطة بالحاضر ﴿ولكن﴾ أي لم يتبعوك ثقافلاً إلى الأرض ورضى بالفاني الحاضر من الباقي الغائب لأنها ﴿بعدت عليهم الشقة﴾ أي المسافة التي تطوى بذرع الأرجل بالمسير فيحصل بها النكال والمشقة فلم يواز ما يحصل لهم بها من التعب ما يرجونه من العرض، فاستأذنونك، وفي هذا إشارة إلى ذمهم بسفول الهمم ودناءة الشيم بالعجز والكسل والنهم والثقل، وإلى أن هذا الدين متين لا يحمله إلا ماضي الهم صادق العزم كما قال الشاعر:

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه وأعرض عن ذكر العواقب جانباً

فله در أولي العزائم والصبر على الشدائد والمغارم!

ولما ذمهم بالشح بالدنيا، أتبعه وصمهم بالسماح بالدين فقال مخبراً عما سيكون منهم علماء من أعلام النبوة: ﴿وسيحلفون﴾ أي المتخلفون باخبار محقق لا خلف فيه ﴿بالله﴾ أي الذي لا أعظم منه عند رجوعكم إليهم جمعاً إلى ما انتهكوا من حرمتك بالتخلف عنك لانتهاك حرمة الله بالكذب قائلين: والله ﴿لو استطعنا﴾ أي الخروج إلى ما دعوتمونا إليه ﴿لخرجنا معكم﴾ يحلفون حال كونهم ﴿يهلكون أنفسهم﴾ أي بهذا الحلف الذي يريدون به حياتها لأنهم كذبوا فيه فانتهكوا حرمة اسم الله ﴿والله﴾ أي والحال أن الملك الأعظم المحيط علماً وقدرة سبحانه ﴿يعلم إنهم لكاذبون﴾ فقد جمعوا بين إهلاك أنفسهم والفضيحة عند الله بعلمه بكذبهم في أنهم غير مستطيعين، وجزاء الكاذب في مثل ذلك الغضب المؤيد الموجب للعذاب الدائم المخلد.

ولما بكتهم على وجه الإعراض لأجل التخلف والحلف عليه كاذباً، أقبل إليه ﷺ بالعتاب في لذيذ الخطاب على الاسترسال في اللين لهم والائتلاف وأخذ العفو وترك الخلاف إلى هذا الحد، فقال مؤذناً بأنهم ما تخلفوا إلا بإذنه ﷺ لأعذار ادعوها كاذبين فيها كما كذبوا في هذا الحلف، مقدماً للدعاء على العتاب لشدة الاعتناء بشأنه واللفظ به ﷺ: ﴿عفا الله﴾ أي ذو الجلال والإكرام ﴿عنك﴾ وهذا كما كانت عادة العرب في مخاطبتهم لأكابرهم بأن يقولوا: أصلح الله الأمير، والملك - ونحو ذلك.

ولما كان من المعلوم أنه لا يأذن إلا لما يرى أنه يرضى الله من تألفهم ونحوه، بين أنه سبحانه يرضى منه ترك الإذن فقال كناية عن ذلك: ﴿لم أذنت لهم﴾ أي في التخلف عنك تمسكاً بما تقدم من الأمر باللين لهم والصفح عنهم موافقاً لما جبلت عليه من محبة الرفق، وهذا إنما كان في أول الأمر لخوف التنازع والفتنة، وأما الآن فقد علا

الدين وتمكن أمر المؤمنين فالمأمور به الإغلاظ على المنافقين فهلا تركت الإذن لهم ﴿حتى يتبين لك﴾ أي غاية البيان ﴿الذين صدقوا﴾ أي في التزام الأوامر بما أقرؤا به من كلمة التوحيد ﴿وتعلم الكذابين﴾ أي فيما أظهروا من الإيمان باللسان، فإنك إن لم تأذن لهم لقعدها بلا إذن غير مراعين ميثاقهم الذي واثقوك عليه بالطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره؛ قال أبو حيان: و ﴿حتى﴾ غاية الاستفهام - انتهى. وذلك لأنه وإن كان داخلاً على فعل مثبت فمعناه النفي، أي ما لك لم تحملهم على الغزو معك ليتحقق بذلك الحمل من يطيع ومن يعصي، فالحاصل أن الذي فعله ﷺ حسن موافق لما أمره الله به فإنه لا ينطق عن الهوى بل عن أمر الله إما بإيحاء واصل جديد، أو استناد إلى وحي سابق حاصل عتيد، والذي أشار إليه سبحانه أحسن مثل ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك﴾ [الفتح: ٢] من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ومن باب الترقية من مقام عال إلى مقام أعلى تسييراً فيهم بالعدل لما انكشف أنهم ليسوا بأهل الفضل؛ قال الأستاذ أبو الحسن الحرالي في آخر كتاب العروة في تفاوت وجه الخطاب فيما بين ما أنزل على وفق الوصية أو أنزل على حكم الكتاب: اعلم أن الله سبحانه بعث محمداً ﷺ بالرحمة لجميع العالمين وخلقه بالعفو والمعروف، كما ورد في الكتب السابقة من قوله تعالى: «وأجعل العفو والمعروف خلقه» وبذلك وصاه كما ورد عنه ﷺ أنه قال: «أوصاني ربي من غير ترجمان ولا واسطة بسبع خصال: بخشية الله في السر والعلانية، وأن أصل من قطعني، وأصفح عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبرة»^(١).

فكان فيما أوصاه به ربه تبارك وتعالى من غير ترجمان ولا واسطة أن يصل من قطعه ويصفح عمن ظلمه، ولا أقطع له ممن كفر به وصد عنه، فكان هو ﷺ - بحكم ما بعث به وجبل عليه ووصى به - ملتزماً للعفو عمن ظلمه والوصل لمن قطعه إلا أن يعلن عليه بالإكراه على ترك ذلك والرجوع إلى حق العدل والاقتصاص والانتصاف المخالف لسعة وصيته الموافق لما نقل من أحكام سنن الأولين في مؤاخذتهم بالحق والعدل إلى جامع شرعته ليوجد فيها نحو مما تقدم من الحق والعدل وإن قل، ولتفضل شرعته بما اختص هو به ﷺ من البعثة بسعة الرحمة والفضل ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النحل: ٩]، ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] فمن القرآن ما أنزل

(١) ذكر الذهبي في ميزانه ٣/ ٥٥٠ ثلاث فقرات من هذا الحديث وذلك في ترجمة محمد بن زكريا الغلابي، وقال: قال الدارقطني: يصنع الحديث. قال الذهبي وهذا الحديث رواه عن ابن أبي عائشة عن أبيه وهذا معضل اهـ.

على الوجه الذي بعث له وجبل عليه ووصى به نحو قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ [المؤمنون: ٩٦] وقوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقوله تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله تعالى: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ [الحجر: ٨٥] وقوله تعالى: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ [الزخرف: ٨٩] وأصل معناه في مضمون قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم﴾ [التوبة: ١٢٨] فما كان من المنزل على هذا الوجه تعاضدت فيه الوصية والكتاب وقبله هو ﷺ جبلة وحالاً وعملاً ولم تكن له عنه وقفة لتظافر الأمرين وتوافق الخطابين: خطاب الوصية، وخطاب الكتاب؛ وهذا الوجه من المنزل خاص بالقرآن العظيم الذي هو خاص به ﷺ، لم يؤته أحد قبله ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ [الحجر: ٨٧] ومن القرآن ما أنزل على حكم العدل والحق المتقدم فضله في سنن الأولين وكتب المتقدمين وإمضاء عدل الله سبحانه في المؤاخذين والاكتفاء بوصل الواصل وإبعاد المستغني والإقبال على القاصد والانتقام من الشارد، وذلك خلاف ما جبل الله عليه نبيه وما وصى به حبيبه ﷺ؛ فكان ﷺ إذا أنزل عليه - أي من الكتاب - على مقتضى الحق وإمضاء العدل ترقب تخفيفه وترجى تيسيره حتى يعلن عليه بالإكراه في أخذه والتزام حكمه فحينئذ يقوم لله به ويظهر عذره في إمضائه فيكون له في خطاب التشديد عليه في أخذه أعظم مدح وأبلغ ثناء من الله ضد ما يتوهمه الجاهلون، فمما أنزل إنباء عن مدحه بتوقفه على إمضاء حكم العدل والحق رجاء تدارك الخلق واستعطاف الحق ما هو نحو قوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ [الكهف: ٦] ونحو قوله تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ [الشعراء: ٣] نحو قوله تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ [الحجر: ٩٧] ومما أنزل على وجه الإعلان عليه بما هو عليه من الرحمة وتوقفه على الأخذ بسنن الأولين حتى يكره عليه ليقوم عذره في الاقتصار على حكم الوصية وحال الجبلة ما هو نحو قوله تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلاتك في مرية منه أنه الحق من ربك﴾ [هود: ١٧] ونحو قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [يونس: ٩٩] ونحو قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ [يونس: ٩٤] أي لا تتوقف لطلب الرحمة لهم كما - يتوقف الممتر في الشيء أو الشاك فيه لما

قد علم أنه لا بد لأمته من حظ من مضاء كلمة العدل فيهم وحق كلمة العذاب عليهم وإجراء بعضهم دون كلهم على سنة من تقدمهم من أهل الكتب الماضية في المواخذة بذنوبهم وإنفاذ حكم السطوة فيهم فأخذهم الله بذنوبهم ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ [العنكبوت: ٤٠] ولم ينفعهم الرجوع عند مشاهدة الآيات ﴿الآن وقد عصيت قبل﴾ [يونس: ٩١] ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومسكنكم﴾ [الأنبياء: ١٣] وذلك أن كل مطالع بالعذاب راجع - ولا بد - عن باطله حين لا ينفعه ﴿وحرام على قرية أهلكناها إنهم لا يرجعون﴾ [الأنبياء: ٩٥] ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا﴾ [يونس: ٩٨] لما أبطن تعالى في قلب نبيه عليه السلام عزمًا على هلاكهم، أظهر تعالى رحمة عليهم، ولما ملأ نبيه ﷺ رحمة لأمته: كافرهم ومؤمنهم ومنافقهم، أشار بأي من إظهار مؤاخذتهم وأعلم بكف نبيه ﷺ عن تألفهم وأحسبه بمؤمنهم دون كافرهم ومنافقهم ﴿يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ [الأنفال: ٦٤] وكل ذلك معلوم عنده ﷺ قبل وقوعه بمضمون قوله تعالى: ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل﴾ [الفتح: ٢٣]، ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾ [الحجر: ١٢ - ١٣] ولذلك قال ﷺ حين أنزل عليه ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ [يونس: ٩٤]: «أما أنا فلا أشك ولا أسأل»^(١)، لأنه قد علم جملة أمر الله في أن منهم من يتداركه الرحمة ومن يحق عليه كلمة العذاب، ولكنه لا يزال ملتزمًا لتألفهم واستجلابهم حتى يكره على ترك ذلك بعلن خطاب نحو قوله تعالى: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلاً إنها تذكرة فمن شاء ذكره﴾ [عبس: ١ - ١٢] ونحو قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى يشخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كذب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩] فهذه الآي ونحوها يسمعا العالم بموقعها على إكراه لنبي الرحمة حتى يرجع إلى عدل نبي الملحمة من جملة أمداح القرآن له والشهادة له بوفائه بعهد ووصية حتى تحقق له تسميته بنبي الرحمة ثباتاً على الوصية ونبي الملحمة إمضاء في وقت لحكم الحق وإظهار العدل، فهو ﷺ بكل القرآن ممدوح وموصوف بالخلق العظيم جامع لما تضمنته كتب

(١) ذكره السيوطي في الدر ٥٧١/٣ (يونس: ٩٤) ونسبه لعبد الرزاق وابن جرير عن قتادة مرسلًا.

الماضين وما اختصه الله به من سعة القرآن العظيم، فهذا وجه تفاوت ما بين الوصية والكتاب في محكم الخطاب؛ والله سميع عليم - انتهى .

﴿ لَا يَسْتَعِذُّنَاكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٤) ﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَاكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتِ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (٤٥) ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (٤٦) ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِحْنِكُمْ بِيَعُونَكُمْ أَلْفَنَّةً وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧) .

ولما فاته ﷺ معرفتهم بهذا الطريق، شرع العالم بما في الضمائر يصفهم له بما يعرض عن ذلك، فقال على طريق الجواب للسؤال: ﴿ لا يستأذنك ﴾ أي يطلب إذنك بغاية الرغبة فيه ﴿ الذين يؤمنون بالله ﴾ أي يجددون الإيمان كل وقت حقاً من أنفسهم بالملك الذي له صفات الكمال ﴿ واليوم الآخر ﴾ أي الذي يكون فيه الجزاء بالشواب والعقاب ﴿ أن ﴾ أي في أن ﴿ يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ بل يبادرون إلى الجهاد عند إشارتك إليه وبعثك عموماً عليه فضلاً عن أن يستأذنونك في التخلف عنه، فإن الخلف من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون: لا نستأذنه ﷺ أبداً في الجهاد فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد مرة فأي فائدة في الاستئذان! ولنجاهدن معه بأموالنا وأنفسنا، وكانوا بحيث لو أمرهم ﷺ بالعقود شق عليهم كما وقع لعلي رضي الله عنه في غزوة تبوك حتى قال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»^(١)! ولما كان التقدير: فمن اتصف بذلك فاعلم أنه متق بأخبار الله، عطف عليه قوله: ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ عليهم بالمتقين ﴾ أي الذين يخافون الله كلهم .

ولما أخبر بالمتقين، عرف بغيرهم على وجه الحصر تأكيداً لتحقيق صفة العلم بما أخبر به سبحانه، فصار الاستئذان منفيًا عن المؤمنين مرتين، فثبت للمنافقين على أبلغ وجه ﴿ إنما يستأذنك ﴾ أي في مثل ذلك فكيف بالاستئذان في التخلف! ﴿ الذين لا يؤمنون ﴾ أي يتجدد لهم إيمان ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له نهاية العظمة إيماناً مستجمعاً للشرائط ﴿ واليوم الآخر ﴾ لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً وإن ادعوا ذلك بألستهم .

(١) أخرجه البخاري ٤٤١٦ و ٣٧٠٦ ومسلم ٢٤٠٤ والترمذي ٣٧٢٤ وابن ماجه ١١٥ و ١٢١ والبيهقي

٤٠/٩ وابن حبان ٦٩٢٧ وأحمد ١٧٧/١ من حديث سعد بن أبي وقاص .

ولما كانت [هذه] صفة المصارعين بالكفر، بين أن المراد المنافقون بقوله: **﴿وارتابت قلوبهم﴾** أي تابعت الوسوس وتعمدت المشي معها حتى تخلقت بالشك؛ ولما كان الشاك لا يزال يتجاذبه حسن الفطرة وسوء الوسوسة، قال: **﴿فهم﴾** أي فتسبب عن ذلك أنهم **﴿في ربهم يترددون﴾** أي بين النفي والإثبات دأب المتحير لا يجزمون بشيء منهما وإن صدقوا أن الله موجود فإن المشركين يصدقون بذلك ولكنه لا ينفعهم للإخلال بشرطه، وليس استئذانهم في أن يجاهدوا لإرادة الجهاد بل توطئة لأن يقولوا إذا أمرتهم به: إنه لا عدة لنا في هذا الوقت فائذن لنا في التخلف حتى نستعد! وقد كذبوا، ما ذلك بهم، إنما بهم أنهم لا يريدون الخروج معك **﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له﴾** أي قبل حلوله **﴿عدة﴾** أي قوة واهبة من المتاع والسلاح والكرام بحيث يكونون متصفين بما قدمت إليهم من التحريض على نحو ما وقع الأمر به في الأنفال فيكونون كالحاضرين في صلب الحرب الواقفين في الصف قد استعدوا لها بجميع عدتها **﴿ولكن﴾** لم يريدوا ذلك قط فلم يعدوا له عدة، فملا أمرت به شرعوا يعتلون بعدم العدة وما ذاك بهم، إنما مانع كراحتهم للخروج وذلك بسبب أن **﴿كره الله﴾** أي ذو الجلال والإكرام بأن فعل فعل الكاره فلم يرد **﴿انبعاثهم﴾** أي سيرهم معك مطاوعة لأمرهم بذلك لما علم من عدم صلاحيتهم له **﴿فبظهم﴾** أي حبسهم عنه حبساً عظيماً بما شغلهم بما حبب إليهم من الشهوات وكره إليهم من ارتكاب المشقات بسبب أنهم لا يرجون ثواباً ولا يخشون غير السيف عقاباً، قصرُوا همهم الدنية على الصفات البهيمية، فلما استولت عليهم الشهوات وملكتهم الأنفس الدنيات نودوا من قبلها: إلى أين تخرجون؟ **﴿وقيل﴾** أي لهم لما أسرعوا الإقبال إليها **﴿اقعدوا﴾** أي عن جندي لا تصحبوهم، وفي قوله -: **﴿مع القلدين﴾** أي الذين شأنهم ذلك كالمرضى والزمنى والصبيان والنساء - من التبكيت ما لا يعلم مقداره إلا أولو الهمم العلية والأنفس الأبية، وعبر بالمجهول إشارة إلى أنهم يطيعون الأمر بالقعود حقيقة ومجازاً كائناً من كان كما أنهم يعصون الأمر بالنفر كائناً من كان لأن أنفسهم قابلة للدنيا غير صالحة للمزايا بوجه .

ولما كان كأنه قيل: ما له بظهم وقد كنا قاصدين سفرأ بعيداً وعدواً كثيراً شديداً فنحن محتاجون إلى الإسعاد ولو بتكثير السواد! قيل: **﴿لو﴾** أي فعل بهم ذلك لأنهم لو **﴿خرجوا فيكم﴾** أي وإن كانوا قليلاً معمورين بجماعاتكم **﴿ما زادوكم﴾** أي بخروجهم شيئاً من الأشياء **﴿إلا خبالاً﴾** أي ما أتوكم بشيء زائد على ما عندكم من الأشياء غير الخبال، والاستثناء مفرغ والمستثنى منه - المقدر الثابت لهم الاتصاف به - هو الشيء،

وذلك لا يقتضي اتصاف أحد منهم بالخبال قبل خروج المنافقين، والخبال: الفساد، وهو ينظر على الخداع والأخذ على غرة ﴿وَأَوْضِعُوا﴾ أي أوقعوا الإيضاع، حذف المفعول إشارة إلى أن مرادهم الإيضاع نفسه لا بقيد دابة، وعبر بالإيضاع لأنه للراكب وهو أسرع من الماشي ﴿خَلَلَكُمْ﴾ أي لأسرعوا في السير ذهاباً وإياباً بينكم في تتبع عوراتكم وانتظار زلاتكم ليجدوا منها مدخلاً إلى الفساد بالنميمة وغيرها إن لم يجدوها، والإيضاع في السير يكون برفق ويكون بإسراع، والمراد به هنا الإسراع، ومادة وضع بجميع تراكيبها تدور على الحركة، وتارة تكون إلى علو وتارة إلى سفول، ويلزم ذلك السكون والمحل القابل لذلك، وعلى ذلك يتمشى العضو والعوض، وعوض الذي هو بمعنى الدهر، وضوع الريح والتصويت بالبكاء، والضعة لشجرة في البادية، والوضع للطرح في مكان والسير اللين والسريع؛ والخلال جمع الخلل وهو الفرجة ﴿يَبْغُونَكُمْ﴾ أي حال كونهم يريدون لكم ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي بتشيت الشمل وتفريق الأصحاب وتقدم عند ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] أنها الخلطة المميلة المحيلة، أي يريدون لكم الشيء الذي يصيبكم فغير حالتكم إلى ما يسوءكم فيسرهم ﴿وَفِيكُمْ﴾ أي والحال أنه فيكم ﴿سَمِعُونَ لَهُمْ﴾ أي في غاية القبول لكلامهم لضعف معارفهم وآرائهم. وربما كان سماعهم منهم مؤدياً إلى مطلوبهم ﴿وَاللَّهُ﴾ أي الذي أخبركم بهذا من حالهم وله الإحاطة بكل شيء ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، فثقوا بأخبارهم. هكذا كان الأصل وإنما قال: ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ إشارة إلى الوصف الذي أوجب لهم الشقاء بمنعهم عن موطن الخير، وتعميماً للحكم بالعلم بهم ويمن سمع لهم ظالم، والحاصل أنه شبه سعيهم فيهم بالفساد بمن يوضع بعيره في أرض فيها أجرام شاحصة متقاربة، فهو في غاية الالتفات إلى معرفة ما فيها من الفرج والتأمل لذلك حذراً من أن يصيبه شيء من تلك الأجرام فيسقيه كأس الحمام، فلا شغل لهم إلا بغية فسادكم بعدم وصولكم إلى شيء من مرادكم.

﴿لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنذُن لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْأَلُونَكَ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

ولما أخبر سبحانه بذلك، وحث على قبول أخبارهم بما وصف به ذاته الأقدس من إحاطة العلم، شرع يقيم الدليل على ما قال بتذكيرهم بأشياء تقدمت مشاهدتها منهم، فقال معللاً لما أخبر به: ﴿لقد ابتغوا﴾ أي طلبوا طلباً عظيماً كلهم لكم ﴿الفتنة﴾ أي لتشتيتكم ﴿من قبل﴾ أي قبل هذه الغزوة في يوم أحد بكسر قلوب العسكر بالرجوع عنه حتى كاد بعضهم أن يفشل وفي المريسيع بما قال ابن أبيي ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ [المنافقون: ٨] وفي غزوة الخندق بما وقع منهم من التكذيب في أخذ كنوز كسرى وقيصر والإرجاف بكم في نقض بني قريظة وغير ذلك كما صنعوا قبله في غزوة قينقاع والنضير في قصدهم تقوية كل منهم عليكم وفي غير ذلك من أيام الله التي عكس فيها قصودهم وأنعس جدودهم ﴿وقلبوا﴾ أي تقلبوا كثيراً ﴿لك الأمور﴾ أي التي لك فيها أذى ظهراً لبطن بإحالة الآراء وتدبير المكاييد والحيل لعلمهم يجدون فرصة في نقض أمرك ينتهزونها أو ثغرة في حالة يوسعونها، وامتد بهم الحال في هذا المحال ﴿حتى جاء الحق﴾ أي الثابت الذي لا مرأى في مزاولته مما تقدم به وعده سبحانه من إظهار الدين وقمع المفسدين ﴿وظهر أمر الله﴾ أي المتصف بجميع صفات الكمال من الجلال والجمال حتى لا مطمع لهم في ستره ﴿وهم كرهون﴾ أي لجميع ذلك فلم يبق لهم مطمع في محاولة بمواجهة ولا مخالطة فصار همهم الآن الاعتزال والمبالغة في إخفاء الأحوال وستر الأفعال والأقوال.

ولما أجملهم في هذا الحكم، وكان قد أشار إلى أن منهم من كان قد استأذن في الخروج توطئة للاعتذار عنه، شرع يفصلهم، وبدأ المفصلين بمن صرح بالاستئذان في القعود فقال عاطفاً على «لقد ابتغوا»: ﴿ومنهم من يقول﴾ أي في جبلته تجديد هذا القول من غير احتشام ﴿أئذن لي﴾ أي في التخلف عنك ﴿ولا تفتني﴾ أي تكن سبباً في فتنتي بالحزم بالأمر بالنفر فأفتتن إما بأن أتخلف فأكون مصارحاً بالمعصية أو أسافر فأميل إلى نساء بني الأصفر فأرتد عن الدين فإنه لا صبر لي عن النساء، وقائل ذلك هو الجد ابن قيس، كان من الأنصار منافقاً.

ولما أظهروا أنهم قصدوا البعد من شيء فإذا هم قد ارتكبوا فيه، انتهزت فرصة الإخبار بذلك على أبلغ وجه بإدخال ناف على ناف لتحصيل الثبوت الأكيد بإقرار المسؤول فقيل: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي بما قالوا وفعلوا، فصارت ظرفاً لهم فوضعوا أنفسهم بذلك في جهنم، وفي التعبير بالسقوط دلالة على انتسابهم في أشراك الفتنة انتساباً سريعاً بقوة فصار يعسر خلاصهم معه ﴿وإن جهنم لمحيطة﴾ أي بسبب

إحاطة الفتنة - التي أسقطوا أنفسهم فيها - بهم، وإنما قال: ﴿بالكافرين﴾ * تعميماً وتنبهياً على الوصف الذي حملهم على ذلك.

ولما كان كأنه قيل: ما الفتنة التي سقطوا فيها فأحاطت بهم جهنم بسببها؟ قيل: ﴿إن﴾ أي هي كونهم أن، ويجوز أن يكون علة لإحاطة جهنم بهم، وكأنهم - لأجل أنهم من الأوس والخزرج فالأنصار أقاربهم - خصوا النبي ﷺ بالعداوة وشديد الحنق، وكذا أيضاً كان لا يسوءهم ويسرهم من الحسنة والسيئة إلا ما له وقع - بما أذن به التعبير بالإصابة دون المس - لا ما دونه، حفظاً لقلوب أقاربهم ورعياً لأسرار نسائهم، فقال إشارة إلى ذلك: ﴿تصبك﴾ أي بتقدير الله ذلك ﴿حسنة﴾ أي بنصر أو غيره ﴿تسؤهم﴾ أي لما في قلوبهم من الضغن والمرض ﴿وإن تصبك مصيبة﴾ أي نكبة وإن صغرت كما وقع يوم أحد ﴿يقولوا﴾ أي سروراً وتبجحاً بحسن آرائهم ﴿قد أخذنا أمرنا﴾ أي عصينا الذي أمرنا ولم نسلم قيادنا لأحد فنكون كالأعمه، لأن الأمر الحادثة وضد النهي، ومنه الأمير، رجل إمر وإمرة - بتشديد الميم المفتوحة مع كسر الهمزة وتفتح: ضعيف الرأي، يوافق كل أحد على ما يريد من أمره كله، وهو الأعمه وزناً ومعنى ﴿من قبل﴾ أي قبل أن تكون هذه المصيبة، فلم تكن مؤتمرين بأمر فيصيبنا فلم يكن ما أصاب من تبعه، فكان أمرهم - لو كانوا مطيعين - كان شيئاً متحققاً بيد الأمر، فلما عصوه كانوا كأنهم قد أخذوه منه.

ولما كان قولهم هذا بعيداً عن الاستقامة، فكان جديراً بأن لا يقال، وإن قيل كان حقيقة بأن يستقال بالمبادرة إلى الرجوع عنه والاستغفار منه، أشار تعالى إلى تماديهم فيه فقال: ﴿ويتولوا﴾ أي عن مقامهم هذا الذي قالوا فيه ذلك وإن طال إلى أهاليهم ﴿وهم فرحون﴾ * أي لمصيبتكم لكفرهم ولخلاصهم منها.

ولما كان قولهم هذا متضمناً لتوهمهم القدرة على الاحتراس من القدر، قال تعالى معلماً بجوابهم مخاطباً للرأس لعلو المقام: ﴿قل﴾ أي إنا نحن لا نقول مقاتلكم لمعرفتنا بأننا لا نملك ضراً ولا نفعاً، بل نقول: ﴿لن يصيبنا﴾ أي من الخير والشر ﴿إلا ما كتب﴾ أي قدر ﴿الله﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً، ولما كان قضاء الله كله خيراً للمؤمن إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر، عبر باللام فقال: ﴿لنا﴾ أي لا يقدر على رده عنا إلا هو سبحانه ﴿هو﴾ أي وحده ﴿مولنا﴾ أي القريب منا الذي يلي جميع أمورنا، لا قريب منا سواه، فلو أراد لدفع عنا كل مصيبة لأنه أقرب إلينا منها، لا تصل إلينا بدون علمه وهو قادر، فنحن نعلم أن له في ذلك لطيف سريرة تتضاءل دونها ثواقب الأفكار وتخسأ عن الإحاطة بتحقيقها نوافذ الأبصار فنحن لا نتهمه في قضائه لأننا

قد توكلنا عليه وفوضنا أمورنا إليه، والموكل لا يتهم الوكيل ﴿وعلى الله﴾ أي الملك الأعلى لا غيره ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ أي كلهم توكلأً عظيماً جازماً لا معدل عنه، فالفيصل بين المؤمن والكافر هو إسلام النفس إليه وحده بلا اعتراض عليه يقبلها كيف يشاء ويحكم فيها بما يريد.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ عَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٨﴾﴾.

ولما تضمن ذلك أن سراءهم وضراءهم لهم خير من حيث إن الرضى بمر القضاء موجب لإقبال القاضي على المقضي عليه بالرفقة والرحمة، صرح بذلك في قوله: ﴿قل هل ترصدون﴾ أي تنتظرون انتظاراً عظيماً ﴿بنا إلا إحدى الحسينين﴾ أي وهي أن نصيب أعداءنا فنظفر ونغتم ونؤجر أو يصيبونا بقتل أو غيره فنؤجر، وكلا الأمرين حسن: أما السراء التي توافقوننا على حسنها فأمرها واضح، وأما الضراء فموجبة لرضى الله عنا ومثوبته لنا بالصبر عليها ورضانا بها إجلالاً له وتسليماً لأمره فهي حسنى كما نعلم لا سوى كما تتوهمون ﴿ونحن نترصد بكم﴾ أي ننتظر إحدى السوائين وهي ﴿إن يصيبكم الله﴾ أي الذي له جميع القدرة ونحن من حزيه ﴿بعذاب من عنده﴾ أي لا تسبب لنا فيه كما أهلك القرون الأولى بصائر للناس ﴿أو بأيدينا﴾ أي بسببنا من قتل أو نهب وأسر وضرب وغير ذلك لأن حذرهم لا يمنعهم من الله، وكل ذلك مكروه عندهم.

ولما تسبب عن هذا البيان أن السوء خاصة بحزب الشيطان، حسن أن يؤمروا تهكماً بهم بما أداهم إلى ذلك تخسيساً لشأنهم فقال: ﴿فترصدوا﴾ أي أنتم ﴿إننا﴾ أي نحن ﴿معكم مترصدون﴾ أي بكم، نفعل كما تفعلون، والقصد مختلف، والآية من الاحتباك: حذف أولاً الإصابة للدلالة عليها بما أثبت ثانياً، وثانياً إحدى السوائين للدلالة عليها بإثبات الحسينين أولاً.

ولما كان من جملة ما يصيبهم منهم من العذاب الإنفاق بتزكية ما طهر من أموالهم بالإعانة في سبيل الله خوفاً من اتهامهم بالإنفاق في أقوالهم ليفتدوا أنفسهم به من السفر، قال: ﴿قل أنفقوا﴾ أي أوجدوا الإنفاق لكل ما يسمى إنفاقاً ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ أي مظهرين الطوعية أو مظهرين الكراهية؛ ولما كان الإعراض عنهم إنما سببه كفرهم لا

إنفاقهم، لم يربط الجواب بالفاء بل قال: ﴿لَنْ يَتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ أي يقع تقبل لشيء يأتي من قبلكم أصلاً من أحد له أن يتقبل كائناً من كان، ولذلك بناه للمفعول، لأن قلوبكم كارهة ليست لها نية صالحة في الإنفاق ولا في غيره، فانقسام إنفاقكم إلى طوع وكره إنما هو باعتبار الظاهر، وكأنه عبر بالفعل إشارة إلى قبوله منهم ظاهراً؛ ولما كان غير مقبول باطناً على حال من الأحوال علل بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ كُفَّارًا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي عريقين في الفسق بالغين أنهى غاياته.

ولما علل بالعراقفة في الخروج عن الطاعة، بينه في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا﴾ أي باطناً، ولذا عبر بالمجرد، ولذا بناه للمفعول لأن النافع القبول في نفس الأمر لا كونه من معين ﴿مَنْهُمْ نَفَقْتَهُمْ﴾ أي وإن جلت ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال من الجلال والجمال لفساد جبلاتهم وسوء غرائزهم.

ولما كان قبول النفقات مهيناً للطهارة التي تؤثرها الصلاة، كان السياق لعدم قبولها - ليتسبب عنه النهي عن الصلاة عليهم - أبلغ لأنه أدل على الخبث، فأكد كفرهم بزيادة الجار إشعاراً بأن الكفر بكل منهما على حياله مانع فقال: ﴿وَيُرْسِلُكُمْ﴾ أي فسقهم بأنهم غير مؤمنين وهو السبب المانع بمفرده من القبول: ثم قرح في شاهدي ما يظهرون من الإيمان وهما الصلاة والزكاة وغيرهما من الإنفاق في الخيرات بما هو لازم للكفر ودال عليه فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي المفروضة وغيرها ﴿إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾ أي في حال كسلهم، لا يأتونها قط بنشاط ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ﴾ أي نفقة من واجب أو غيره ﴿إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾ أي في حال الكراهة وإن ظهر لكم خلاف ذلك، وذلك كله لعدم النية الصالحة واعتقاد الآخرة، وهذا لا ينافي طوعاً لأن ذلك بحسب الفرض أو الظاهر وهذا بحسب الواقع.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ مِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٧﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

ولما انتفى عن أموالهم النفع الأخروي الذي هو النفع، تسبب عن ذلك الزهد فيها الموجب لعدم الالتفات إليها وعدم اعتقاد أن فيها بركة ودلالة على خير، فقال - مبيناً ما

فيها من الفساد الذي يظن أنه صلاح: ﴿فلا﴾ - بقاء السبب، فالسياق أبلغ من سياق الآتية بعد النهي عن الصلاة عليهم ﴿تعجبك أموالهم﴾ أي وإن أنفقوها في سبيلي وجهزوا بها الغزاة. فإن ذلك عن غير إخلاص منهم ولا حسن نية ولا جميل طوية، وإنما هو لما أذلهم من عزة الإسلام وأخافهم من سطوة الانتقام فهو من جملة العذاب، وعطف عليها الأولاد لمشاركتها لها في الملاذ والقوة والاستعمال في الجهاد، فقال مؤكداً للنفي بإعادة النافي: ﴿ولا أولادهم﴾ فكأنه قيل: فماذا يراد بإعطائهم ذلك؟ ولو منعها وأعطيتها المخلصون لكان قوة للدين، فقال: ﴿إنما يريد الله﴾ أي يوقع الإرادة لهم بها الملك الذي له الإحاطة بجميع الحكمة كما أن له الإحاطة بتمام القدرة، وأبلغ في الحصر بإدخال اللام في قوله: ﴿ليعذبهم﴾ أي لأجل أن يعذبهم ﴿بها في الحياة﴾ أي وإن كان يتراءى أنها لذيذة، لأن ذلك من شأن الحياة فإنما هي لهم موت في الحقيقة ﴿الدنيا﴾ أي تارة بجمعها وتربيتها وتارة ببذلها كرهاً في سبيل الله أو في تزكيتها وتارة بغير ذلك ﴿وتزهق﴾ أي وإنما يريد بتمكينهم منها لأجل أن يخرج وقت الموت بغاية الصعوبة ﴿أنفسهم﴾ أي بسببها ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم ﴿كفرون﴾ أي عريقون في الكفر، وهكذا كل من أراد استدراجه سبحانه فإنه في الغالب يكثر أموالهم وأولادهم لنحو هذا لأنهم إذا رأوا زيادتهم بها على بعض المخلصين ظنوا أن ذلك إنما هو لكرامتهم وحسن حالتهم فيستمرون عليها حتى يموتوا فهو سبحانه لم يرد بها منحتهم بل فتنتهم ومحتتهم، وأما الدين فإن القادر يقويه بغير ذلك فيكون أظهر لدليله وأوضح لسبيله؛ فالحاصل أنه ظهر لهم أنهم أكرموا بها وخفي عنهم أنها سبب لعذابهم في الحياة باتكالهم عليها، وفي الممات بصعوبته عليهم المشار إليه بالزهوق، وفي الآخرة بسبب موتهم على حال الكفر باستدراجهم بها، وأما المؤمن فلا يموت حتى يرى من الثواب ما يسليه عن كل شيء فيشتاق إلى لقاء الله وتخرج نفسه وهو في غاية المحبة لخروجها لأن البدن عائق له عما يرى.

ولما وضح بهذه الأمور منابذتهم للمؤمنين وخروجهم من ربة الدين المصحح لوصفهم بالفسق، أوضح لسياً آخر من أحوالهم يقيمونه بالأيمان الكاذبة فقال: ﴿ويحلفون﴾ أي طلبوا لكم الفتنة والحال أنهم يجددون الأيمان ﴿بالله﴾ أي على ما له من تمام العظمة ﴿إنهم﴾ أي المنافقين ﴿لمنكم﴾ أي أيها المؤمنون على اعتقادكم باطناً كما هم ظاهراً ﴿وما﴾ أي والحال أنهم ما ﴿هم﴾ صادقين في حلفهم أنهم ﴿منكم﴾ ولكنهم قوم ﴿أي مع أن لهم قوة وقياماً شديداً فيما يحاولونه﴾ يفرقون ﴿أي يخافون منكم على دمائهم خوفاً عظيماً يفرق همومهم فهو الملجئ لهم إلى الحلف كذباً على

التظاهر بالإسلام، فكأنه قيل: فما لهم يقيمون بيننا والمبغض لا يعاشر من يبغضه؟ فقيل: لأنهم لا يجدون ما يحميمهم منكم ﴿لو يجدون ملجأ﴾ أي شيئاً يلجؤون إليه من حصن أو جبل أو قوم يمنعونهم منكم ﴿أو مغزت﴾ في الجبال تسعهم، جمع مغارة - مفعلة من غار في الشيء - إذا دخل فيه، والغور: ما انخفض من الأرض.

ولما كانت الغيران - وهي النقوب في الجبال - واسعة والوصول إليها سهلاً، قال: ﴿أو مدخلا﴾ أي مكاناً يدخلونه بغاية العسر والصعوبة لضيقه أو لمانع في طريقه أو قوماً يداخلونهم وإن كانوا يكرهونهم - بما أرشد إليه التشديد: ﴿لولوا إليه﴾ أي لاشتدوا في التوجه إليه متولين مرتدين عنكم على أعقابهم ﴿وهم يجمحون﴾ أي حالهم حال الدابة التي كانت مسرعة في طواعية راكبها فإذا هي قد نكصت على عقبها ثم أخذت في غير قصده بغاية الإسراع ونهاية الرغبة والداعية لا يردها بثر تقع فيه ولا مهلكة ولا شيء.

ولما قرر حال من يتخلف عن الجهاد، وربما بذل ماله فيه افتداء لسفره، شرع في ذكر من يشاركه في الإنفاق والنفاق ويخالفه فقال: ﴿ومنهم من يلمزك﴾ أي يعيبك عند مشاكليته على طريق الملازمة في ستر وخفاء أو تظاهر وقلّة حياء ﴿في الصدقت﴾ أي اللاتي تؤتيها لأتباعك، ولما أخبر عن اللمز، أخبر أنه لحظ نفسه لا للدين فقال: ﴿فإن أعطوا منها رضوا﴾ أي عنك ﴿وإن لم يعطوا منها﴾ فاجؤوا السخط الذي يتجدد في كل لحظة ولم يتخلفوا عنه أصلاً، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿إذا هم يسخطون﴾ فوافقوا الأولين في جعل الدنيا همهم، وخالفوهم في أن أولئك أنفقوا ليمتعتوا بالتخلف وهؤلاء طلبوا ليتنعموا بنفس المال الذي يأخذونه؛ قيل: إنها نزلت في ذي الخويصرة لما قال للنبي ﷺ وهو يقسم غنائم حنين: اعدل يا محمد! فإني لم أرك تعدل، فقال له النبي ﷺ: «ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟»^(١) وسيأتي حديثه.

ولما أخبر تعالى عن حالهم السيء الدنيء الذي لا يجديهم في الدنيا ويهلكهم في الأخرى، نبههم على ما هو الأصلح لهم من الحال الشريف السني فقال: ﴿ولو أنهم﴾ أي المنافقين ﴿رضوا ما آتاهم الله﴾ أي المنعم بجميع النعم لأن له جميع الكمال ﴿ورسوله﴾ الذي عظّمته من عظّمته قل ذلك المؤتي أو كثر طال زمنه أو قصر ﴿وقالوا﴾ أي مع الرضى ﴿حسبنا الله﴾ أي كافينا لأن له جميع العظمة فهو الغني المطلق.

ولما كانت الكفاية تارة تكون بالتنجيز العاجل وتارة بالوثوق بالوعد الآجل، بين

(١) يأتي عند آية: ٦٠.

أن الثاني هو المراد لأنه أدل على الإيمان فقال: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ﴾ أي الملك الأعظم بوعده لا خلف فيه واعتقدوا أن لا حق لأحد فقالوا: ﴿من فضله ورسوله﴾ أي الذي لا يخالف أمره، على ما قدر لنا في الأزل؛ ثم عللوا ذلك بقولهم: ﴿إنا إلى الله﴾ أي المستجمع لصفات الكمال وحده ﴿رُغِبُونَ﴾ أي عريقون في الرغبة، فلذلك نكتفي بما يأتي من قبله كائناً ما كان، أي لكان ذلك خيراً لهم لأنه لا ينالهم إلا ما قسم سبحانه لهم شاؤوا أو أبوا.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَفَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾ وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ .

ولما أخبر عن لمزهم في الصدقات وقرر ما هو خير لهم إرشاداً لهم إلى النجاة، علل فعل رسول الله ﷺ فيها وبين أنه لا يفعل غيره لأنه الحق الذي لا يجوز في شرعه الأكل غيره لمزوا أو تركوا زهدوا أو رغبوا فقال معبراً بأداة القصر على ما ذكر: ﴿إنما الصدقات﴾ أي هذا الجنس بجميع ما صدق من أفراده، والظاهر أنه قدم الأهم فالأهم، فلذا قال الشافعي: إن الفقير أشدهم حاجة لكونه ابتدأ به، فقال: ﴿للفقراء﴾ أي الذين لا شيء لهم أو لهم شيء يقع موقعاً من كفايتهم ﴿والمسكين﴾ أي الذين لا كفاية لهم بدليل ﴿أما السفينة﴾ [الكهف: ٧٩] وأما ﴿مسكيناً ذا متربة﴾ [البلد: ١٦] فتقييده دل على أن المطلق بخلافه ﴿والمعملين عليها﴾ أي المؤمنيين في السعاية والولاية على جمعها ﴿والمولفة قلوبهم﴾ أي ليسلموا أو يسلم بسببهم غيرهم أو يثبتوا على إسلامهم؛ روى البخاري في التفسير وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «بعث إلى النبي ﷺ بشيء فقسمه بين أربعة وقال: أتألفهم، فقال رجل: ما عدلت! فقال: يخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين. وفي رواية: فاستأذنه رجل في ضرب عنقه فقال: لا، دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم^(١) - الحديث. ولئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد.» ولا يقال: إن العلة مقتضية لقتلهم لا للكف عنهم فإن عمله بالمقام

(١) أخرجه البخاري ٦١٦٣ ومسلم ١٠٦٤ وابن حبان ٦٧٤١ وعبد الرزاق ١٨٦٤٩ وأحمد ٦٠/٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

الخضري - كما تقدم - أنه ما من كرامة لنبي إلا وله ﷺ مثلها أو أعلى منها بنفسه أو بأحد من أمته .

ولما فرغ من هذه الأصناف الأربعة الذين يعطون الصدقة في أيديهم يتصرفون فيها كيف شاؤوا، كما دل عليه التعبير باللام، ذكر الذين يعطون الصدقة لقضاء ما بهم كما دل عليه التعبير بـ «في» فقال: ﴿وفي الرقاب﴾ أي والمكاتبين بسبب فك رقابهم من الرق ﴿والغرمين﴾ أي الذين استدانوا في غير معصية، يصرف ما يعطونه إلى قضاء ديونهم فقط ﴿وفي﴾ أي والمجاهدين في ﴿سبيل الله﴾ أي الذي له الأمر كله بالنفقة والحمل والإعانة بالسلاح وغير ذلك، ونقل القفال عن بعض الفقهاء أنه عمم السبيل فأجاز صرفه إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وعمارة المساجد ونحوها ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر المنقطع عن بلده، يعطى ما يوصله إليه، ففيه إشارة إلى أن رسولنا ﷺ لم يفعل ما أدى إلى لمزهم له بسببه إلا بأمر حقاً، فإننا قد عينا له أهل الصدقات فهو لا يعدل عنهم لشيء من الأشياء لأنه واقف عند ما يرضينا، فإن كانوا منهم أعطاهم وإلا منعهم رضي من رضي وسخط من سخط، وقد فرض ذلك، أو ثابتة للفقراء حال كونها ﴿فريضة﴾ كائنة ﴿من الله﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً لعلمه بأن في ذلك أعظم صلاح، وهذا كالزجر عن مخالفة الظاهر ﴿والله﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿عليم﴾ أي بالغ العلم بما يصلح الدين والدنيا ويؤلف بين قلوب المؤمنين ﴿حكيم﴾ أي فهو يجعل أفعاله من الأحكام بحيث لا يقدر غيره على نقضها؛ قال أبو حيان: «إنما» إن كانت وضعت للحصر فالحصر مستفاد من لفظها، وإن كانت لم توضع للحصر فالحصر مستفاد من الأوصاف إذ مناط الحكم بالوصف يقتضي التعليل به، والتعليل بالشيء يقتضي الاقتصار عليه. وحكمة الزكاة من جهة المالك أن المال محبوب لأنه يحصل المحبوب والتمادي في حبه يوجب الإعراض عن الله المعطي له، فكان من الحكمة تذكير المالك له بالمالك الحقيقي في أنه أوجب عليه إخراج طائفة منه ليكف منه انصباب النفس بالكلية إليه ويظهر النفس عن محبتها له ويظهره عن محض الإنفاق في الشهوات، ومن جهة الآخذ أنه لما اجتمعت حاجته إليه وحاجة المالك - ولو احتمالاً - كان هناك سببان للتسلط على المال: أحدهما اكتساب المالك له، والثاني احتياج الآخذ إليه، فروعى السببان بقدر الإمكان، ورجح المالك بإبقاء الكثير، وصرف إلى الآخذ اليسير. وأجرى الشافعي الآية على ظاهرها فقال: إن أخرجها ذو المال سقط سهم العامل مع سهم المؤلفه وصرف إلى الستة الأصناف، وإن قسم الإمام فعلى سبعة، ويجب أن يعطى من كل صنف ثلاثة أنفس، ومن لم يوجد من الأصناف رد نصيبه على

الباقيين ويستوي بين الأصناف لا بين آحاد الصنف . وقال أبو حنيفة: يجوز صرف الكل لواحد من الأصناف لأن الآية أوجبت أن لا تخرج الصدقة عنهم، لا أن تكون في جميع الأصناف - وهو قول عمر بن الخطاب وحذيفة وابن عباس رضي الله عنهم وسعيد بن جبيرة وعطاء وأبي العالية وميمون بن مهران .

ولما بين الصنفين السالفين، وختم أمرهما بصفتي العلم والحكمة، أتبعهما بصنف آخر يؤدي بما يجعله نقصاً في صفات الرسول ﷺ فيلزم الطعن في علم مرسله وحكمته فقال: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي﴾ أي الذي أعلى الله مقداره، فهو ينبئه بما يريد سبحانه من خفايا الأسرار؛ ولما أخير بمطلق الأذى الشامل للقول والفعل، عطف عليه قوله: ﴿ويقولون هو﴾ أي من فرط سماعه لما يقال له ﴿أذن﴾ ومرادهم أنه يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد - كما سمي الجاسوس عيناً؛ قال أبو حيان: كان خذام بن خالد وعبيد بن هلال والجلال بن سويد في آخرين يؤذون رسول الله ﷺ فقال بعضهم: لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغه فيوقع بنا، فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا فإن محمداً أذن سامعة، ثم نأتيه فيصدقنا، فنزلت، وقيل غير ذلك . يقال: رجل أذن - إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع - انتهى . ومرادهم أنه ﷺ لا يعرف مكر من يمكر به وخداع من يخادعه وكذبوا، هو أعرف الناس بذلك، ولكنه يعرض عند المصالح، لا يليق بمحاسن الدين غيرها، بينها تعالى بقوله: ﴿قل أذن خير﴾ ثم بين أن نفع ذلك عائد إليهم بقوله: ﴿لكم﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يؤمن﴾ أي يوقع الإيمان للملائكة الذين يأتونه عن الله من التكذيب بأن يصدقهم معترفاً ﴿بالله﴾ أي بسبب ما يخبرونه عنه به حق الإيمان لما له من كمال العلم بما له سبحانه من صفات الجلال والإكرام؛ وحاصله أن فعل الإيمان ضمن فعل التصديق ثم حذف وانتزعت منه حال أقيمت مقامه ثم حذفت وأتى بصلة تدل عليها كما قالوا في قوله تعالى ﴿ولتكبروا الله على ما هذكم﴾ [البقرة: ١٨٥] أن التقدير: حامدين على ما هداكم، فالتقدير هنا: يؤمن مصداقاً بالله، فهذا حقيقته وهو يثمر محبة المؤمنين وولايتهم، ولذا أتبعه قوله: ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ أي الراسخين، يوقع الإيمان لهم من التكذيب بأن يصدقهم في كل ما يخبرونه به مما يحتمل التصديق، وذلك لأجل مصالحتهم والتأليف بينهم مع ما ثبت من صدقهم، فإنه لو حملهم على عقله ومبلغ علمه يحبه الكاذب وعاقب الخائن بمجرد علمه وتفروسه، لقصرت عن ذلك غالب الأفهام وتاهت بسببه أكثر الأوهام، فنفرت القلوب ووقع من الأغلب الاتهام . ولما كان التصديق بوجود الإله على ما له من صفات الكمال المقتضي للأمر والنهي عدي بالباء، وهنا لما كان التصديق إنما هو للإخبار بأي

شيء كان عدي باللام وأشير - بقصر الفعل وهو متعد - إلى المبالغة في التصديق بحيث كأنه لا تصديق غيره .

ولما بين سبحانه أن تصديقه ظاهراً وباطناً إنما هو للراسخين في الإيمان، بين أن تصديقه لغيرهم إنما هو الظاهر فقال: ﴿ورحمة﴾ أي وهو رحمة ﴿للدّين آمنوا﴾ أي أظهروا الإيمان بالسنتهم ﴿منكم﴾ فهو - والله أعلم - إشارة إلى المنافقين ومن في حكمهم ممن جزم لسانه وقلبه مزلول، أي أن إظهار تصديقهم قبولاً لما ظهر منهم وستر قبائح أسرارهم سبب للكف عن دمائهم، وإظهار المؤمنين لمقتهم ربما كان ذلك سبباً لصدق إيمانهم بما يرون من محاسن الإيمان بتمادي الزمان، ولا يستبعد كون التعبير بالماضي إشارة إلى المنافقين لا سيما بعد التعبير باسم الفاعل، فقد قال الإمام أبو الحسن الحرالي في كتابه المفتاح ما نصه: الباب الرابع في رتب البيان عن تطور الإنسان بترقيه في درج الإيمان وترديه في درك الكفران: اعلم أن الله محيط بكل شيء خلقاً وأمراً أولاً وآخرأً ظاهراً وباطناً وهو حمده، وله علو في ظهور أمره وكبير خلقه، واحتجاب في مقابل ذلك من خلقه وأمره بما أبداه من حكمته وأسباب هداة وفتنته، وذلك العلو هو إلهيته، والاحتجاب هو ملكه، وبينهما إقامة كل خلق لما خلق له وتأيد كل أمر من الأمرين لما أقيم له، وذلك هو ربانته ولكل فتق من خلقه وأمره رتق سابق. ولكل تفاوت سواء، وذلك هو رحمانيته، ولكل أقرب في مدد الحجاب اختصاص وذلك هو رحيمته، ولكل أبعد في مدد الحجاب بطش منه شديد في رده إلى القرب وتلك هي نعمته، ولكل من تنزلاته العلية ظاهراً وباطناً أمر خاص، ولكل أمر خلق، يرد بيان القرآن لكل خلق بحسب كنه ذاته واختصاص رتبة قربه ومحل بعده، وأن الله سبحانه جعل آدم وذراه خليفة له في جميع أمره وتفصيله، وأنزل القرآن بناء على جملة ذلك، فأردأ الأحوال لهذا المستخلف المحل الذي سمي فيه بالإنسان، وهو حيث أنس بنفسه وغيره ونسي عهد ربه، فيرد لذلك بناؤه بالدم في القرآن ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ [عبس: ١٧] ﴿إن الإنسان لربه لكونود﴾ [العدايات: ٦] ثم المحل الذي تداركه فيه تنبه لسماع الزجر من ربه، وهو له بمنزلة سن الميّر لابن سبع، ولا يقع إلا عن اجتماع وتراء، وذلك هو السن المسمون فيه بالناس لنوسهم، أي ترددهم بين سماع الزجر من ربهم وغلبة أهوائهم عليهم، فيرد لذلك بناؤهم بدم أكثرهم في القرآن ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ولا يشكرون﴾ [الأعراف: ١٨٧] ثم المحل الذي يتحقق لهم قبول وسماع وإيمان لغائب الأمر والخلق، لكنهم يتزلزلون عنه كثيراً عند كل عارضة نيل وخادعة رفعة، وهو لهم بمنزلة سن المحتلم الذي قد ذاق طعم بدو النطفة من باطنه

الناجم العقل للنظر في حقائق المحسوسات، وذلك هو السن الذي يسعون فيه ﴿الذين آمنوا﴾ وهو أول سن التلقي، ولذلك جميع آداب القرآن وتعليمه إنما مورده أهل هذا السن، كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: إذا سمعت الله عز وجل يقول ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ فأعرها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه، وكما أن ما يخص البالغ العاقل من الخطاب لا يدخل فيه الصبي المميز، وما يخص المميز لا يدخل فيه البالغ، كذلك خطاب ﴿الذين آمنوا﴾ لم يصل إليه الناس بعد، وخطاب الناس قد جاوزه ﴿الذين آمنوا﴾ لأنهم قد انزجروا بما قبلت قلوبهم عما ينزجر عنه الناس، وقد ائتمروا بما ياتمر به الناس؛ وهذه الأسنان الخالية عند أولي البصائر، وخاص خطابها أشد ظهوراً من أسنان الأبدان عند أصحاب الأبصار، وعدم التبصرة بهذه المراتب في الأحوال والبيان هي أفعال القلوب المانعة من تدبر القرآن، وكذلك ما فوق سن «الذين آمنوا» من سن ﴿الذين يؤمنون﴾ وهم في أول حد القرب منزلة بلوغ الأشد، وسن ﴿الذين آمنوا﴾ و ﴿الناس﴾ في مدد حد البعد ولذلك يخاطبون بحرف «يا» المرسله إلى حد البعد: ﴿يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله﴾ [الصف: 10] وفوق ذلك سن المؤمنين وأدنى قرباً، ولذلك لم يرد في القرآن في خطابهم ﴿يا﴾ البعد، وهذا السن بمنزلة الاكتهال وسن الشيب، وتام سنهم ﴿المؤمنون﴾ حقاً وكذلك إلى سن ﴿المحسنين﴾ إلى غيب سن ﴿الموقنين﴾ إلى ما وراء ذلك، فإن أسنان الجسم أربع، وأسنان القلب أسابيع، يعرفها من تطور فيها، ويجعلها من نبت سن قلبه على الجهل وتطور سن جسمه إلى الهرم «يهرم ابن آدم ويشيب منه اثنتان: الحرص والأمل» فالحرص فقره ولو ملك الدنيا، والأمل همه وتعبه، فمن لم يتحقق أسنان القلب وتفاوت خطابها لم ينفتح له الباب إلى فهم القرآن، ومن لم يتضح له تنزلات الخطاب لم يبين له خطاب الله من خطاب الرحمن من خطاب الملك الديان - انتهى.

ولما بين ما لمن صدقه باطناً أو ظاهراً من الرحمة، بين ما على من كذبه فأذاه من النعمة فقال: ﴿والذين يؤذون﴾ أي من هؤلاء ومن غيرهم ﴿رسول الله﴾ أي الذي أظهر - وهو الملك الأعلى - شرفه وعظمته بالجمع بين الوصفين وأعلاه بإضافته إليه، وزاد في رفعة بالتعبير باسمه الأعظم الجامع، وهو واسطة بين الحق والخلق في إصلاح أحوالهم فإنما يستحق منهم الشكر والإكرام لا الأذى والإيلام.

ولما كان أذاهم مؤلماً جعل جزاءهم من جنسه فقال: ﴿لهم عذاب أليم﴾ ثم علل ذلك باستهانتهم بالله ورسوله، وأخبر أنهم يخشون على دمائهم فيصلحون ظواهرهم

حفظاً لها بالآيمان الكاذبة فقال: ﴿يحلِفون بالله﴾ أي الذي له تمام العظمة ﴿لكم﴾ أي أنهم ما آذوا النبي ﷺ خصوصاً ولا أولادكم بالمخالفة عموماً؛ وبين غاية مرادهم بقوله: ﴿ليرضوكم﴾.

ولما كان الرسول عليه الصلاة والسلام ليس بأذن بالمعنى الذي أرادوه، بين أنه لم يكن راضياً بإيمانهم لعدم وقوع صدقهم في قلبه ولكنه أظهر تصديقهم لما تقدم من الإصلاح فقال: ﴿والله﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه ﴿ورسوله﴾ أي الذي هو أعلى خلقه، وبلغ النهاية في تعظيمه بتوحيد الضمير الدال على وحدة الراضي لأن كل ما يرضي أحدهما يرضي الآخر فقال: ﴿أحق أن﴾ أي بأن ﴿يرضوه﴾ ولما كان مناط الإرضاء الطاعة ومدار الطاعة الإيمان، قال معبراً بالوصف لأنه مجزأه: ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ أي فهم يعلمون أنه أحق بالإرضاء فيجتهدون فيه، وذلك إشارة إلى أنهم إن جددوا إرضاءه كل وقت كان دليلاً على إيمانهم، وإن خالفوه كان قاطعاً على كفرانهم.

﴿الْمَ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنْفِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ لَا تَعْزِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ تُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ولما بين أن حلفهم هذا إنما هو لكرهة الخزي عند المؤمنين وبين من هو الأحق بأن يرضوه، أقام الدليل على ذلك في استفهام إنكار وتوبيخ مبيناً أنهم فرّوا من خزي منقضى فسقطوا في خزي دائم، والخزي: استحياء في هوان، فقال: ﴿الْمَ يَعْلَمُوا﴾ أي لدلالته على الأحق بالإرضاء. ولما كان ذكر الشيء مبهماً ثم مفسراً أضخم، أضمر للشأن فقال: ﴿أنه﴾ أي الشأن العظيم ﴿من يحادد الله﴾ وهو الملك الأعظم، ويظهر المحادة - بما أشار إليه الفك ﴿ورسوله﴾ أي الذي عظمت من عظمته، بأن يفعل معهما فعل من يخاصم في حد أرض فيريد أن يغلب على حد خصمه، ويلزمه أن يكون في حد غير حده ﴿فإن له نار جهنم﴾ أي فكونها له جزاء له على ذلك حق لا ريب فيه ﴿خلداً فيها﴾ أي دائماً من غير انقضاء كما كانت نيته المحادة أبداً؛ ثم نبه على عظمة

هذا الجزاء بقوله: ﴿ذلك﴾ أي الأمر البعيد الوصف العظيم الشأن ﴿الخزي العظيم﴾*.

ولما علل فعل المستهينين، أتبعه تعليل أمر صنف آخر أخف منهم نفاقاً بما عندهم مما يقارب التصديق فقال: ﴿يحذر المنفقون﴾ وعبر بالوصف الدال على الرسوخ تحذيراً لهم من أدنى النفاق فإنه يجر إلى أعلاه ﴿أن تنزل﴾ ولما كانت السورة الفاضحة لهم داهية ونائبة من نوائب الدهر وشدائده، عدى الفعل بعلی فقال: ﴿عليهم سورة﴾ أي قطعة من القرآن شديدة الانتظام ﴿تنبئهم﴾ أي تخبرهم إخباراً عظيماً مستقصى ﴿بما في قلوبهم﴾ لم يظهروا عليه أحداً من غيرهم أو أحداً مطلقاً، ولعل هذا الصنف كانوا يسلفون الأيمان لعلها تشكك بعض الناس أو تخفف عنهم إذا نزل ما يهتكهم، روي أنهم كانوا يقولون ما يؤدي ويدل على النفاق ويقولون: عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا، وقال بعضهم بعد كلام قالوه: والله إنني لأرانا شر خلق الله ولوددت أنني قدمت فجلدت مائة جلدة وأنه لا ينزل فينا شيء يفضحنا.

ولما كان حذرهم مع العمل بما ينافية من كلام النفاق فعل المستهزيء، قال مهدداً: ﴿قل استهزءوا﴾ أي افعلوا فعل المستهزيء بغاية الرغبة ﴿إن الله﴾ أي المحيط بكمال العلم وتمام القدرة ﴿مخرج﴾ أي كانت له وصف إخراجه ﴿ما تحذرون﴾* أي إخراجه من قبائحكم؛ وعن الحسن: كان المسلمون يسمون هذه السورة الحفارة، حفرت ما في قلوب المنافقين وأظهرته.

ولما وصفهم بالنفاق، حققه بعدم مبادرتهم إلى التوبة التي هي فعل المؤمنين، وباجترائهم على الإنكار مع كون السائل لهم من بلغ الغاية في الجلال والوقار والكمال فقال: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي وأنت من يجب أن يصدقه مسؤوله عما أخرجت السورة مما أظهروا بينهم من الكفر، وذلك حين قال بعضهم: انظروا إلى هذا الرجل يظن أنه يفتح قصور الشام وحصونها! هيهات هيهات! فأعلمه الله فقال: احبسوا عليّ الركب^(١). فسألهم ﴿ليقولن إنما﴾ أي ما قلنا شيئاً من ذلك، إنما ﴿كنا نخوض﴾ أي نتحدث على غير نظام ﴿ونلعب﴾ أي بما لا حرج علينا فيه ويحمل عنا ثقل الطريق، فكأنه قيل: فماذا يقال لهم إذا حلفوا على ذلك على العادة؟ فقال: ﴿قل﴾ أي لهم تقريراً على استهزائهم متوعداً لهم معرضاً عما اعتذروا إعلاماً بأنه غير أهل لأن يسمع جاعلاً لهم كأنهم معترفون بالاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٥٦/٣ ونسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة مرسلًا.

بعد وقوع الاستهزاء وثبوته تكذيباً لهم في قولهم: إنك إذن، بالمعنى الذي أرادوه، وبياناً لما في إظهارك لتصديقهم من الرفق بهم ﴿أبالله﴾ أي وهو المحيط بصفات الكمال ﴿وآيته﴾ أي التي لا يمكن تبديلها ولا تخفى على ذي بصر ولا بصيرة ﴿ورسوله﴾ أي الذي عظمته من عظمته وهو مجتهد في إصلاحكم وتشريفكم وإعلانكم ﴿كنتم﴾ أي دائماً ﴿تستهزءون﴾.

ولما حقق استهزاءهم، أنتج قوله: ﴿لا تعتذروا﴾ أي لا تبالغوا في إثبات العذر، وهو ما ينفي الملام، فإن ذلك لا يغنيكم وإن اجتهدتم لأن القطع حاصل بأنكم ﴿قد كفرتم﴾ أي بقولكم هذا، ودل - على أن كفرهم أحبط ما كان لهم من عمل - بنزع الخافض تشديداً على من نكث منهم تخويفاً له وتحقيقاً بحال من أصر فقال: ﴿بعد إيمانكم﴾ أي الذي ادعيتموه بألستكم صدقاً من بعضكم ونفاقاً من غيره.

ولما كان الحال مقتضياً لبيان ما صاروا إليه بعد إكفارهم من توبتهم أو إصرارهم، بين أنهم قسمان: أحدهما مطبوع على قلبه ومقضي توبته وحبه، وهذا الأشرف هو المراد بقوله بانياً للمفعول إعلماً بأن المقصود الأعظم هو الفعل، لا بالنظر إلى فاعل معين: ﴿إن يعف﴾ لأن كلام الملك وإن جرى في مضمار الشرط فهو مرشد إلى تحققه ليحصل الفرق بين كلام الأعلى والأدنى ﴿عن طائفة منكم﴾ أي لصلاحياتها للتوبة ﴿تعذب طائفة﴾ أي قوم ذوو عدد فيهم أهلية الاستدارة، وقرأ عاصم ببناء الفعلين للفاعل على العظمة ﴿بأنهم﴾ أي بسبب أنهم ﴿كانوا مجرمين﴾ أي كسبهم للذنوب القاطعة عن الخير صفة لهم ثابتة لا تنفك، فهم غير متأهلين للعفو، وشرح هذه القصة أنه كان يسير بين يدي النبي ﷺ في غزوة تبوك ثلاثة نفر من المنافقين: اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والآخر يضحك، قيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم، ما أبعد من ذلك! وقيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين في المدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال: احبسوا الركب علي، فدعاهم وقال لهم: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾^(١) أي كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب؛ قال ابن إسحاق: والذي عفى عنه رجل واحد وهو مخشي بن حمير الأشجعي، يقال: هو الذي كان يضحك، ولا يخوض وكان يمشي مجاناً لهم وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآية تاب. قال: اللهم! لا أزال أسمع آية تقرأ، تقشعر

(١) انظر الحديث المتقدم.

منها الجلود، وتجب منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك! لا يقول أحد: أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره رضي الله عنه^(١). ولعل إطلاق الطائفة عليه تعظيماً له وسترأ عليه وتبشيراً بتوبة غيره، ولعل مخشياً كان مؤمناً ولكن كان إيمانه مزلزلاً فلذا عبر هنا بقوله ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ والتعبير بذلك أشنع في الذم ولا سيما عند العرب لأنهم يتمادحون بالثبات على أي أمر اختاروه ويتذامون بالطيش، ولعل الجلاس المعني بالقصة الآتية وحده أو مع غيره لم يكن آمن كغيره ممن عني بها، وما آمن إلا حين تاب، فلذا عبر هناك بقوله: ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾؛ قال أبو حيان: قال ابن عمر: رأيت وديعة بن ثابت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ يماشيها والحجارة تنكته وهو يقول ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾ والنبي ﷺ يقول: «أبالله وآيته» - الآية^(٢).

ولما بين سبحانه أفعالاً وأقوالاً لطوائف من المنافقين - منهم من كان معه ﷺ في العسكر - هي في غاية الفساد، كان ذلك ربما اقتضى أن يسأل عن المتخلفين لو خرجوا ما كان يكون حالهم؟ فقال جواباً عن ذلك واستدلالاً على أن إجرام الذين لم يعف عنهم منهم خلق لازم: ﴿المتفقون والمنقذت﴾ أي الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفران ﴿بعضهم﴾ ولما كان مرجعهم الجمود على الهوى والطبع والعادة والتقليد من التابع منهم للمتبوع، قال: ﴿من بعض﴾ أي في صفة النفاق هم فيها كالجسد الواحد، أمورهم متشابهة في أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم، والقصد أن حالهم يصاد حال أهل الإيمان ولذلك بينه بقوله: ﴿يأمرن بالمنكر﴾ أي مما تقدم من الخبال والإيضاع في الخلال وغير ذلك من سيء الخصال ﴿وينهون عن المعروف﴾ أي من كل ما يكون فيه تعظيم الإسلام وأهله، يبغون بذلك الفتنة ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي يشحون فلا ينفقون إلا وهم كارهون.

ولما كان كأنه قيل: أما خافوا بذلك من معاجلة العقاب؟ أجاب بقوله: ﴿نسوا الله﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه، ويصلح أن يكون علة لما تقدم عليه؛ ولما أقدموا على ذلك، سبب عنه قوله: ﴿فنسيهم﴾ أي فعل بهم فعل الناسي لما استهان به بأن تركهم من رحمته، فكان ذلك الترك سبباً لحلول نعمته؛ ولما

(١) انظر كتاب المغازي للواقدي ٣/١٠٠٤ - ١٠٠٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٤٥٥ - ٤٥٦ (براءة: ٦٦) دون ذكر «اسم وديعة بن ثابت» ونسبه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث ابن عمر. وانظر كتاب المغازي للواقدي ٣/١٠٠٤.

تطبعوا بهذه النقائص كلها، اختصوا بكمال الفسق فشرح ذلك في أسلوب التعجيب من حالهم فقال مظهراً موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمْ﴾ أي خاصة ﴿الْفُسُقُونَ﴾ أي الخارجون عن دائرة ما ينفعهم من الطاعة الراسخون في ذلك، فقد علم بهذا أنهم لو غزوا فعلوا فعل هؤلاء سواء لأن الكل من طينة واحدة.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ولما بين كثيراً من أحوالهم فاشتد التشوف إلى مآلهم وكان مقصودهم بإظهار الإيمان والاعتذار عن النقائص بتأكيد الإيمان إنما هو التقرب إلى المؤمنين والتحبب طمعاً في العيش في أكنافهم وفرقاً من المعاجلة بما يستحقون من إتلافهم، بين أن لهم على هذا الخداع العذاب الدائم والطرده اللازم، وجمع معهم المصارعين بالكفر إعلماً بأنهم إن لم يكونوا أعظم عناداً منهم فهم سواء، فقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ وساقه بصيغة البشارة تهكماً بهم وإبلاغاً في مساءتهم ﴿الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ﴾ أي المساترين باعتقادهم ﴿وَالْكُفَّارِ﴾ أي المجاهرين في عنادهم.

ولما كانوا مجبولين على تجهم المؤمنين والانقباض عنهم، وإن أظهروا خلاف ذلك فهو تصنع، قال: ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي النار التي من شأنها تجهم أهلها ولقاؤها بالعبوسة الزائدة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي لا يراح لهم عنها ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي كافيتهم في العذاب، لكن لما كان الخلود قد يتجاوز به عن الزمن الطويل فيكون بعده فرج، قال: ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته وهو الملك العليم الحكيم الذي لا أمر لأحد معه فأفهم أنه لا فرج لهم، ثم نفى كل احتمال بقوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي بالأميرين ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي لا وصف له غير الإقامة في الدنيا بما هم مقهورون به من سطوة الإسلام وجنوده الكرام الأعلام، وفي الآخرة بما لا يعلمه حق علمه إلا الله الملك العلام.

ولما كان حالهم في الإقبال على المعاجلة لكونها حاصلة والإعراض عن العقابة لأنها غائبة مشابهاً لحال من كان قبلهم من الأمم الخالية والقرون الماضية، بين لهم ذلك وختم ببيان سوء أحوالهم وقبح مآلهم بتلاشي أعمالهم فقال ملتفتاً إلى أسلوب الخطاب

لأنه أوقع في باب العتاب وأقعد في استجلاب المصالح للمتأب: ﴿كالذين﴾ أي حاصل ما مضى من أمركم أيها المنافقون أنكم مثل الذين؛ ولما كان فاعل ما يذكر إنما هو بعض من مضى أثبت الجازَ فقال: ﴿من قبلكم﴾ أي من الأمم الخالية، ثم شرع في شرح حالهم وذكر وجه الشبه فقال: ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ لأن الزمان كان إذ ذاك أقرب إلى سن الشباب ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً﴾ وهذا ناظر إلى قوله: «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴿فاستمتعوا﴾ أي طلبوا المتاع والانتفاع في الدنيا بغاية الرغبة معرضين عن العقبى ﴿بخلاقهم﴾ أي نصيبهم الذي قدره الله وخلقه لهم، وكان الأليق بهم أن يتبلغوا به في السفر الذي لا بد منه إلى الآخرة ﴿فاستمتعتم بخلاقكم﴾ أي كالمقتنين لأثارهم والقاصدين لنارهم ﴿كما استمتع﴾ وفي الإتيان بقوله: ﴿الذين﴾ ولما كانوا لم يستغرقوا الزمن الماضي، أثبت الجازَ فقال: ﴿من قبلكم بخلاقكم﴾ ظاهراً غير مضمّر تنبيه على ذمهم بقلّة النظر لأنفسهم المستلزم لقلّة عقولهم حيث كانوا دونهم في القوة أبداناً وأموالاً وأولاداً لم يكفوا عن الاستمتاع والخوض خوفاً مما محق أولئك الأحزاب على قوتهم من العذاب من غير أن ينفعهم سبب من الأسباب ﴿وخضتم﴾ أي ذهبتم في أقوالكم وأفعالكم خطأ على غير سنن قويم ﴿كالذي﴾ أي كخوضهم الذي ﴿خاضوا﴾ وهو ناظر إلى قولهم ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾ قال أبو حيان: وهو مستعار من الخوض في الماء ولا يستعمل إلا في الباطل لأن التصرف في الحق إنما هو على ترتيب ونظام، وأمور الباطل إنما هي خوض، ومنه قوله ﷺ: «رب متخوض في مال الله له النار يوم القيامة»^(١).

ولما أذن هذا النظم لهم بالخسارة، حصل التشوف إلى عاقبة أمرهم فأخبر عن ذلك بقوله: ﴿أولئك﴾ أي البعداء من الخير، والظاهر أنه إشارة إلى الذين وصفهم بالشدة وكثرة الأموال والأولاد ﴿حبطت﴾ أي فسدت فبطلت ﴿أعمالهم في الدنيا﴾ أي بزوالها عنهم ونسيان لذاتها ﴿والآخرة﴾ أي وفي الدار الباقية لأنهم لم يسعوا لها سعيها؛ وزاد في التنبيه على بعدهم مما قصدوا لأنفسهم من النفع فقال: ﴿وأولئك هم﴾ أي خاصة ﴿الخسرون﴾ أي لا خاسر في الحقيقة غيرهم لأنهم خسروا خلاقهم في الدارين فخسروا أنفسهم فلا أخسر ممن تشبه بهم، ولعل في الالتفات إلى مقام الخطاب

(١) أخرجه البخاري ٣١١٨ والترمذي ٢٣٧٥ وأحمد ٣٧٨/٦ من حديث خولة الأنصارية، ولفظ البخاري: «إن رجلاً يتخوضون في مال الله بغير حق، فلم النار يوم القيامة».

ومعنى «يتخوضون في مال الله بغير حق» أي: يأخذونها ويتملكونها كما يخوض الإنسان الماء يميناً وشمالاً. وصدده عند الترمذي: «إن هذا المال خضرة حلوة».

أيضاً إشارة إلى تحذير كل سامع من مثل هذه الحال لصحة أن يكون مراداً بهذا المقال، فإن من أسرار القرآن في إعجازه أن تكون عبارته متوجهة إلى شيء وإشارته شاملة لغيره من حيث اتصافه بعلّة ذلك الحال أو غير ذلك من الخلال؛ قال الإمام أبو الحسن الحرالي في آخر عروة المفتاح في بيان تناول كلية القرآن لكلية الآية ولكل قارئ يقرؤه من أهل الفهم والإيقان: اعلم أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن نبأ عن جميع الأكوان، وأن جميع ما أنبأ عنه من أمر آدم إلى زمان محمد عليهما السلام من أمر النبوات والرسالات والخلافات وأصناف الملوك والفراعنة والطفاة وأصناف الجنّة وجميع ما أصابهم من المثوبات والمثلات في يوم آدم عليه السلام إلى زمان محمد ﷺ الذي هو ستة آلاف سنة ونحوها كل ذلك يتكرر بجملته في يوم محمد ﷺ الذي هو ألف سنة أو نحوها أعداداً بأعداد وأحوالاً بأحوال في خير أو شرف، لكل من الماضين مثل يتكرر في هذه الأمة الخاتمة كما قال ﷺ «لكل نبي قبلي في أمّتي نظير» ثم ذكر ﷺ نظراً «مثل إبراهيم كأبي بكر، ومثل موسى كعمر، ومثل هارون كعثمان، ومثل نوح كعلي، ومثل عيسى كأبي ذر»^(١) وقال ﷺ: «إني لأعرف النظراء من أمّتي بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائرتهم كافرهم ومؤمنهم ممن كان ومن هو كائن ومن سيكون بعد، ولو شئت أن أسميهم لفعلت»^(٢) فما صد أكثر هذه الأمة عن فهم القرآن ظنهم أن الذي فيه من قصص الأولين وأخبار المثابين والمعاقبين من أهل الأديان أجمعين أن ذلك إنما مقصوده الأخبار والقصص فقط، كلاً وليس كذلك! إنما مقصوده الاعتبار والتنبيه لمشاهدة متكررة في هذه الأمة من نظائر جميع أولئك الأعداد وتلك الأحوال والآثار حتى يسمع السامع جميع القرآن من أوله إلى خاتمته منطبقاً على هذه الأمة وأئمتها هدايتها وضلالها، فحيثذ يفتح له باب الفهم ويضيء له نور العلم ويتجه له حال الخشية ويرى في أصناف هذه الأمة ما سمع من أحوال القرون الماضية وإنه كما قيل في المثل السائر:

إياك أعني واسمعي يا جارة

ثم إذا شهد انطباق القرآن على كلية الأمة فكان بذلك عالماً يفتح له باب ترق،

(١) أخرج ابن عدي في «الكامل» ٣/ ١٧١ بعضه من حديث ابن عباس وأعله برباح بن أبي معروف ونقل عن يحيى بن سعيد وابن مهدي أنهما تركاه. وذكر عثمان أورده الصفوري في فضائل الزمان الأربعة ص ١٤٤ فقال: وقال مسلم بن يسار اه. وهو عند المحب الطبري في الرياض النضرة ٢/ ١٤٢. وصدر الحديث لم أره عند أحد فليظن.

(٢) لم أجده.

فيترقى سمعه إلى أن يجد جميع كلية القرآن المنطبق على كلية الأمة منطبقاً على ذاته في أحوال نفسه وتقلباته وتصرفات أفعاله وازدحام خواطره حتى يسمع القرآن منطبقاً عليه فينتفع بسماع جميعه ويعتبر بأي آية سمعها منه فيطلب موقعها في نفسه فيجدها بوجه ما رغبة كانت أو رهبة تقريباً كانت أو تبعيداً إلى أرفع الغايات أو إلى أنزل الدركات، فيكون بذلك عارفاً، هذا مقصود التنبيه في هذا الفصل جملة، ولتتخذ لذلك مثلاً يرشد لتفهم ذلك الانطباق على كلية الأمة علماً وعلى خصوص ذات القارئ السامع عرفاناً، فاعلم أن أصول الأديان المزدوجة التي لم تترق إلى ثبات حقائق المؤمنين فمن فوقهم من المحسنين والموقنين التي جعلتها تحت حياة الملك والجزاء والمدائنة، الذين تروعهم راتعة الموت أولاً ثم راتعة القيامة ثانياً إلى ما يشتمل عليه يوم الدين من أهوال المواقف الخمسين التي كل موقف منها ألف من السنين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فعدد هذه الأديان سبعة، ما من دين منها إلا ويوجد في صنف من أصناف هذه الأمة، وتجده المعتبر في نفسه في وقت ما بقله أو كثرة بدوام أو خطرة بضعف أو شدة على إثر دين غالب أو عن لمح عين زائل، وهذه الأديان السبعة هي دين ﴿الذين آمنوا﴾ من هذه الأمة ولم يتحققوا لحقيقة الإيمان فيكونوا من المؤمنين الذين صار الإيمان وصفاً ثابتاً في قلوبهم، الموحدين المتبرئين من الحول والقوة، المتحققين لمعناه، إقداراً لله عليهم بما شاء لا بما يشاؤون ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون - أولئك هم المؤمنون حقا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، وأما الذين آمنوا فهم الذين لا يثبتون على حال إيمانهم ولكن تارة وتارة، ولذلك هم المنادون والمنهيون والمأمورون في جميع القرآن الذين يتكرر عليهم النداء في السورة الواحدة مرات عديدة من نحو ما بين قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصديقين﴾ [التوبة: ١١٩] إلى قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ [المائدة: ٥٤] إلى ما بين ذلك من نحو قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا﴾ [النساء: ١٣٧] فهؤلاء هم أهل دين ثابت ينتظمون به مع من ليس له ثبات من ماضي الأديان المنتظمين مع من له أصل في الصحة من الأديان الثلاثة في نحو قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصرى والصبئين من آمن بالله واليوم الآخر﴾ [البقرة: ٦٢] المنتظمين أيضاً مع المغيرين لأديانهم والمفترين لدين لم ينزل الله به من سلطان في نحو قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصبئين والنصرى والمجوس والذين أشركوا﴾ [الحج: ١٧] فهذا هو الدين الأول؛ وأما الدين الثاني فهو دين الذين هادوا والذين منهم الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها والذين ورثوا الكتاب يأخذون عرض

هذا الأدنى ويقولون: سيغفر لنا، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه والذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله، والذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، والذين يأكلون الربا وقد نهوا عنه، والذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وأما الدين الثالث فدين الذين قالوا: إنا نصارى، الذين منهم الذين ضلوا عن سواء السبيل الذين غلوا في دينهم وقالوا على الله غير الحق واتخذوا رهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وأما الدين الرابع فدين الصابئة الذين منهم متألهو النجوم عباد الشمس والقمر والكواكب ومغبروهم، هم بالترتيب أول من عبد محسوساً سماوياً؛ وأما الدين الخامس فدين المجوس الثنوية الذين جعلوا إلهين اثنين: نوراً وظلمة، وعبدوا محسوساً آفاقياً، وأما الدين السادس فدين الذين أشركوا وهم الذين عبدوا محسوساً أرضياً غير مصور، وهم الوثنية أو مصوراً وهم الصنمية - فهذه الأديان الستة الموفية لعد الست لما جاء فيه؛ وأما الدين السابع فاعلم أن الله سبحانه جعل السابع أبداً جامعاً لستة خيراً كانت أو شراً، فالدين السابع هو دين المنافقين الذين ظاهراً مع الذين آمنوا وباطنهم مع أحد سائر الأديان الخمسة المذكورة إلى أدنى دين مشركها الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم - فهذه الأديان السبعة متكررة بكليتها في هذه الأمة بنحو مما وقع قبل في الأمم الماضية، وهو مضمون الحديث الجامع لذكر ذلك في قوله ﷺ «لَتَأْخُذَنَّ كَمَا أَخَذتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ذُرَاعاً بِذِرَاعٍ وَشِبْرًا بِشِبْرٍ وَبَاعًا بِبَاعٍ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَوْلَادِكَ دَخَلَ فِي جَحْرٍ ضَبَّ لِدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَمَا صَنَعْتَ فَارِسَ وَالرُّومَ؟ قَالَ: فَهَلِ النَّاسُ إِلَّا هُمْ^(١)» وما بينه النبي ﷺ في هذا الحديث هو من مضمون قوله تعالى ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾، وأهل هذه الأديان السبعة هم - أو منهم - عمرة دركات جهنم السبع على ترتيبهم، والناجون بالكلية الفائزون هم المؤمنون فمن فوقهم من المحسنين والموقنين، ومزيد تفضيل في ذلك وثنية قول بما ينبه عليه بحول الله تعالى من جهات تتبع طوائف من هذه الأمة سنن من تقدمهم في ذلك، أما وجه تكرار دين الذين أشركوا في هذه الأمة فباتخاذهم أصناماً وآلهة يعبدونها من دون الله محسوسة جمادية كما اتخذ المشركون الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب واتخذت هذه الأمة بوجه أطف وأخفى أصناماً

(١) أخرجه البخاري ٣٤٥٦ و ٧٣٢٠ و مسلم ٢٦٦٩ و ابن حبان ٦٧٠٣ و الطيالسي ٢١٧٨ و أحمد ٨٤/٣ و ٨٩ من حديث أبي سعيد الخدري.

وأوثاناً فإنها اتخذت الدينار والدرهم أصناماً والسبائك والنقر أوثاناً من حيث إن الصنم هو ما له صورة والوثن ما ليس له صورة، قال ﷺ «صنم أمتي الدينار والدرهم»^(١) وقال ﷺ: «لكل أمة عجل وعجل أمتي الدينار والدرهم»^(٢) فلا فرق بين ظن المشرك أن الصنم الذي صنعه بيده ينفعه وظن المفتونين من هذه الأمة أن ما اكتسبوا من الدينار والدرهم ينفعهم حتى يشير مثلهم: ما ينفعك إلا درهمك ﴿يحلِفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ [التوبة: ٧٤] فما من آية نزلت في المشركين في ذكر أحوالهم وتبيين ضلالهم وتفصيل سرهم وإعلانهم إلا وهي منطبعة على كل مفتون بديناره ودرهمه، فموقع قول المشركين في أصنامهم ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣] مثله موقع نظيره من قول المفتون: ما أحب المال إلا لأعمل الخير وأستعين به على وجوه البر، ولو أراد البر لكان ترك التكسب والتمول له أبر: قال ﷺ: «إنما أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم وهما مهلكاكم»^(٣) فكل من أحبهما وأعجب بجمعهما فهو مشرك هذه الأمة وهما لاته وعزاه اللتان تبطلان عليه قول لا إله إلا الله لأنه تأله ماله؛ قال ﷺ «لا إله إلا الله نجاة لعباد الله من عذاب الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم»^(٤) فمن وجد من هذا مسة فليسمع جميع ما أنزل في المشركين من القرآن منطبقاً عليه ومنزلاً إليه وحافاً به حتى يخلصه الله من خاص شركه كما خلاص من أخرجه من الظلمات إلى النور من الأولين، فتخلص هذا المشرك بما له من ظلمته التي غشيت ضعيف إيمانه إلى صفاء نور الإيمان في مضمون قوله تعالى ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمت إلى النور﴾ [الطلاق: ١١] فهذا وجه تفصيل يبين نحواً من تكرر دين الشرك في هذه الأمة، وأما وجه وقوع المجوسية، ونظيرها في هذه الأمة فإطباق الناس على رؤية الأفعال من أنفسهم خيرها وشرها وإسنادهم أفعال الله إلى خلقه حيث استحكمت عقائدهم على أن فلاناً فاعل خير وفلاناً فاعل شر وفلاناً يعطي وفلاناً يمنع وفلاناً خير مني وفلاناً أعطاني، حتى ملؤوا الدواوين من الأشعار والخطب والرسائل أمداحاً لخلق الله على ما لم يفعلوا وذماً لهم على ما لم يمنعوا يحمدون الخلق على رزق الله ويذمونهم على ما لم يؤته الله ويلحدون في أسمائه حتى يكتب بعضهم لبعض «سيدي وسندي وأسنى عُدي عبدك ومملوكك» يبطلون بذلك أخوة الإيمان

(١) لم أعر عليه. وهو غريب جداً.

(٢) لم أعر عليه بعد بحث فلينظر.

(٣) لم أعر عليه.

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ١٠٤٩٧ و ١٠٤٩٨ من حديث أنس وإسناده غير قوي لأجل عمر ابن حمزة العمري ضعفه يحيى والنسائي وقال أحمد: أحاديثه مناكير. راجع ميزان الذهبى.

ويكفرون تسوية خلق الرحمن ويدعون لأنفسهم أفعال الله فيقولون: فعلنا وصنعنا وأحسننا وعاقبنا - كلمة نمرودية، آتاهم ما لم يشعروا باختصاص الله فيه بأمره كالذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك حين قال: أنا أحبي وأميت، وهذه هي المجوسية الصرف والقدرية المحضة التي لا يصح دين الإسلام معها، لأن المسلم من أسلم الخلق والأمر لربه ﴿أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ [آل عمران: ٢٠]، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ [الأعراف: ٥٤] وما سوى ذلك قدرية وهي مجوسية هذه الأمة حيث جعلوا للعبد شركة في فعل الرب وجعلوا له معه تعالى قدرة وقوة ومشيئة واختياراً وتدبيراً ولم يعلموا أن التقدير منع التدبير، وأنه تعالى هو يدبر الأمر من السماء إلى الأرض؛ قال ﷺ «القدرية مجوس هذه الأمة^(١)» فكل ما أنزل الله عز وجل في القرآن الجامع لذكر جميع الملل والأديان مما عزاها لمن وزع الأفعال بين الحق والخلق من كلام ذي فرعنة أو نمرودية أو ذي سلطان فللمعتقد المدح والذم حظ منه على حسب توغلهم واستغراقهم في الذين زعموا أنهم فيهم شركاء فخافوهم ورجوهم، فكل خائف من الخلق أو راج منهم من عداد الذين آمنوا والذين أسلموا في هذه الأمة فهم من مجوس هذه الأمة، فليسمع السامع ما يقرؤه من ذلك حجة عليه ليسأل الله تعالى التخلص منها وليعلم أن ذلك لم يزل حجة عليه وإن كان لم يشعر به قبل. فهذا وجه من وقوع المجوسية في هذه الأمة، وأما وجه وقوع الصابئة ونظيرها في هذه الأمة - فما غلب على أكثرهم وخصوصاً ملوكها وسلاطينها وذوو الرئاسة منها من النظر في النجوم والعمل بحسب ما تظهره هيئتها عندهم من سعد ونحس والاستمطار بالنجوم والاعتماد على الأنواء وإقبال القلب على الآثار الفلكية قضاء بها وحكماً بحسب ما جرى عليه الخليون الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون - من العناية بها، قال ﷺ: «أربعة من أمتي هن بهم كفر وليسوا بتاركين» - فذكر منها الاستمطار بالنجوم^(٢) فالمتعلق خوفهم ورجاؤهم بالآثار الفلكية هم صابئة هذه الأمة كما أن المتعلق خوفهم ورجاؤهم بأنفسهم وغيرهم من الخلق هم مجوس هذه الأمة، وكما أن المتعلق تشوفهم ورجاؤهم بدرهمهم ودينارهم هم مشركو هذه الأمة وما انطوى عليه سر كل طائفة منهم مما تعلق به خوفهم

(١) أخرجه أبو داود ٤٦٩١ وابن أبي عاصم ٣٣٨ من حديث ابن عمر وفي إسناده ضعف لكن ورد من طرق أخرى، وله شواهد ربما يحسن بها ولذا صححه الألباني في تخريجه لكتاب السنة ٣٤٢ لابن أبي عاصم.

(٢) أخرجه مسلم ٩٣٤ وابن حبان ٣١٤٣ والطبراني ٣٤٢٥ وأحمد ٣٤٢/٥ و٣٤٤ من حديث أبي مالك الأشعري وفي الباب من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي ١٠٠١ وابن حبان ٣١٤٢ والطيلسلي ٢٣٩٥ وأحمد ٤٥٥/٢ و٥٣١.

ورجاؤهم فهو ربهم ومعبودهم الذي إليه تصرف جميع أعمالهم، واسم كل امرئ مكتوب على وجه ما اطمأن به قلبه فكل ما أنزل في القرآن من تزييف أراء الصابئة فهو حجة عليه حيث يقرؤه أو يسمعه من حيث لا يشعر حتى يقرأ قوم القرآن وهو نذير لهم بين يدي عذاب شديد وهم لا يشعرون ويحسبون أنهم يرحمون به وهم الأخرسون ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ [الإسراء: ٨٢] فمما يختص بهذه الطائفة المتصبئة ما هو نحو قوله تعالى ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموت والأرض وليكون من الموقنين﴾ [الأنعام: ٧٥]. - الآيات في ذكر الكوكب والقمر والشمس إلى آيات ذكر التسخير لهم نحو قوله تعالى ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمت البر والبحر والشمس والقمر والنجوم مسخرت بأمره وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ [إبراهيم: ٣٣] ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ [يونس: ٥] ﴿وإنه هو رب الشعري﴾ [النجم: ٤٩] كل ذلك ليصرف تعالى خوف الخلق ورجاءهم عن الأفلاك والنجوم المسخرة إلى المسخر القاهر فوق عباده الذي استوى على جميعها، فهذا وجه من وقوع الصابئة في الذين آمنوا والذين أسلموا في هذه الأمة، وأما وجه وقوع ما غلب على هذه الأمة وكثر فيها وفشا في أعمالها وأحوالها من تمادي طوائف منهم على نظير ما كان عليه اليهود والنصارى في اختلافهم وغلبة أحوالهم - ملوكهم وسلاطينهم - على أحوال أنبيائهم وعلمائهم وأوليائهم فهو الذي حذرت هذه الأمة وأشعر أولو الفهم بوقوعه فيهم بنحو ما في مضمون قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البين﴾ [آل عمران: ١٠٥] وما أنبأ به ﷺ «لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم»^(١) وفي بعض طرقه «حتى لو كان فيهم من أتى أمه جهاراً لكان فيكم ذلك، قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»^(٢) وإنما قوي وكثر في هذه الأمة حال هاتين الملتين لما آتاها الله من الكتاب والعلم والحكمة فاختلّفوا فيها بالأغراض والأهواء وإيثار عرض الدنيا، وسامحوا الملوك والولاء وحلّلوا لهم ما حرم الله وحرّموا لهم ما حلل الله، وتوصلوا بهم إلى أغراضهم في الاعتداء على من حسدوه من أهل الصدق والتقوى، وكثر البغي بينهم فاستقر حالهم

(١) تقدم قريباً بهذا اللفظ.

(٢) هذه الرواية عند الترمذي ٢٦٤١ والحاكم ١٢٩/١ والديلمي ٥٣٤٧ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. قال الترمذي: حديث غريب اه لم يحسنه لأن مداره على عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف كما في التقريب وغيره.

على مثل حالهم، وسلطت عليهم عقوبات مثل عقوباتهم، وتمادى ذلك فيهم منذ تبدلت الخلافة ملكاً إلى أن تضع الحرب أوزارها وتصير الملل كلها ملة واحدة ويرجع الافتراق إلى ألفة التوحيد، فكل من اقتطع واقتصر من هذه الشريعة المحمدية الجامعة للظاهر والباطن خطأ مختصاً من ظاهر أو باطن ولم يجمع بينهما في علمه وحاله وعرفانه فهو بما لزم الظاهر الشرعي دون حقيقة باطنة من يهود هذه الأمة كالمقيمين لظواهر الأحوال الظاهرة التي بها تستمر الدنيا على حسب ما يرضى ملوك الوقت وسلاطينهم، المضيعين لأعمال السرائر، المنكرين لأحوال أهل الحقائق الشاهد عليهم تعلق خوفهم ورجائهم بأهل الدنيا، المؤثرين لعرض هذا الأدنى، فبهذا ظهرت أحوال اليهود في هذه الأمة، مر الأعراب مع النبي ﷺ بسدرة خضراء نضرة، وكان لأهل الجاهلية سدرة يعظمونها ويجمعون عندها وينيطون بها أسلحتهم ويسمون بها ذات أنواط فقالوا: يا رسول الله! اجعل لنا هذه السدرة ذات أنواط كما لهم ذات أنواط! فقال ﷺ: قلتموها ورب الكعبة كما قالت بنو إسرائيل: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة! إنها السنن^(١). فحيث ظهرت أحداث اليهود من البغي والحسد وتعظيم ما ظهر تعظيمه من حيث الدنيا واستحقار ضعفاء المؤمنين فهنالك أعلام اليهودية ظاهرة، وكذلك أيضاً من اقتصر من هذه الشريعة الجامعة المحمدية على باطن من إصلاح حال أو قلب مع تضييع ظاهر الأمر ومجامع الخير وتعاضد الإسلام واكتفى بما استبطن وتهاون بما استظهر فهو من نصارى هذه الأمة، ليس بصاحب فرقان فكيف أن يكون صاحب قرآن، وذلك أن هذا الدين الجامع إنما يقوم بمعالم إسلام ظاهرة وشعار إيمان في القلوب وأحوال نفس باطنة وحقائق إحسان شهودية، لا يشهد المحسن مع الله سواه ولا يؤمن المؤمن مع الله بغيره، ولا يخضع المسلم إلى شيء دونه، فبذلك يتم، وقد التزم بمعالم الإسلام طوائف يسمون المتفقهة، والتزم بشعائر الإيمان طوائف يسمون الأصوليين والمتكلمين، وترامى إلى الإحسان طوائف يسمون المتصوفة، فمتى كان المتفقه منكرأ لصدق أحوال الصوفية لما لعله يراه من خلل في أحوال المتصوفة فقد تسنن بسنن اليهودية، ومتى كان المتصوف غير مجل للفقهاء لما لعله يراه من خلل في أحوال المتفقه فقد تسنن بسنن النصارى، وكذلك حال المتكلم بين الفرقتين لأيهما مال، وإنما أئمة الدين الذين جمع الله لهم

(١) أخرجه الترمذي ٢١٨٠ وابن حبان ٦٧٠٢ وأبو يعلى ١٤٤١ وعبد الرزاق ٢٠٧٦٣ وأحمد ٢١٨/٥ من حديث أبي واقد الليثي.

قال الترمذي: حسن صحيح اه وهو كما قال رجاله رجال البخاري ومسلم، وإسناده متصل وصححه شيخنا الأرنؤوط في جامع الأصول ١٠/٧٤٩٢.

إقامة معالم الإسلام وإيمان أهل الإيمان وشهود أهل الإحسان، تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله فتأتم بهم الصوفية، وتظهر أنوار قلوبهم على ظلم المتشابهات فيأتم بهم أهل الإيمان، وتبدو في أعمالهم معالم الإسلام تامة فيأتم بهم أهل الإسلام ﴿عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ [الفرقان: ٦٣] «أفضل الناس مؤمن في خلق حسن وشر الناس كافر في خلق سييء»^(١) فأولو الفرقان جامعون ومستبصرون فمن اقتصر على ظاهر وأنكر باطناً لزمته مذام اليهود فيما أنزل من القرآن فيهم بحسب توغله واقتصاره، ومن اقتصر على باطن دون ظاهر لزمته مذام النصراني فيما أنزل من القرآن فيهم؛ يذكر أن رجلاً من صلحاء المسلمين دخل كنيسة فقال لراهب فيها: دني على موضع طاهر أصلي فيه، فقال الراهب: طهر قلبك مما سواه وقم حيث شئت، قال ذلك الصالح المسلم: فخجلت منه، فاعلم أن كل واحد من هذين الحالين ليس حال صاحب فرقان ولا حال صاحب قرآن لأن صاحب القرآن لا يخجل لهذا القول لأنه حاله، وقلبه مطهر مما سوى الله، ومع ذلك لا بد أن ينظف ظاهره، لأن الله سبحانه كما أنه الباطن فيحب صفاء البواطن فإنه الظاهر يحب صلاح الظواهر، فصاحب القرآن إذا دعي إلى صفاء باطن أجاب ولم يتلثم وإذا دعي إلى صلاح ظاهر أجاب ولم يتلكأ لقيامه بالفرقان وحق القرآن، يذكر أن مالكا رحمه الله دخل المسجد بعد العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع فقال له صبي: يا شيخ! قم فاركع، فقام وركع ولم يحاجه بما يراه مذهباً، فقبل له في ذلك فقال: خشيت أن أكون من ﴿الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ [المرسلات: ٤٨] ووقف النبي ﷺ على سقاية زمزم وقد صنع العباس رضي الله عنه أحواضاً من شراب فضيخ التمر والمسلمون يردون عليه وقد خاضوا فيه بأيديهم، فأهوى النبي ﷺ يشرب من شرابهم، فقال له العباس رضي الله عنه: يا رسول الله! ألا نسقيك من شراب لنا في أسقية؟ فقال ﷺ: أشرب من هذه الشمس بركة أيدي المسلمين،^(٢) فشرب منه ﷺ. فصاحب القرآن يعبد الله تبارك وتعالى بقلبه وجسمه لا يقتصر على ظاهر دون باطن ولا على باطن دون ظاهر، ولا على أول دون آخر ولا على آخر دون أول؛ قال ﷺ «أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره»^(٣) فمن حق القاريء أن يعتبر القرآن نفسه ويلحظ

(١) لم أره بهذا التمام. وورد نحوه وبمعناه أحاديث كثيرة راجع مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا والطبراني.

(٢) لم أجده بعد فلينظر.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٨٦٩ والديلمي ٦٠٤١ وأحمد ١٤٣/٣ من حديث أنس وقال الترمذي: حسن غريب اهـ. وأخرجه أحمد ٣١٩/٥ من حديث عمار، وذكره الهيثمي في المجمع ٦٨/١٠ وقال: رواه =

مواضع مذامه للفرق ويزن به أحوال نفسه من هذه الأديان الستة في هذه الأمة، وأما وجه وقوع النفاق وأحوال المنافقين فهي داهية القراء وآفة الخليفة؛ قال ﷺ: «أكثر منافقي أمتي قراؤها»^(١) وقال بعض كبار التابعين: أدركت سبعين ممن رأى النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه. وأصل مداخلة على الخلق من إثارة حرمة الخلق على حرمة الحق جهلاً بالله عز وجل واغتراراً بالناس، فيلزم لذلك محاسنة أولي البر والصدق ظاهراً وتكرههم بقلبه باطناً، ويتبع ذلك من الذبذبة بين الحالين ما وصف الله تعالى من أحوالهم وما بينه النبي ﷺ من علاماتهم حتى قال ﷺ: «بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما»^(٢) وكما قال تبارك وتعالى ﴿لا يأتون الصلوة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كرهون﴾ ينظر المنافق إلى ما يستسقط به فضائل أهل الفضل ويتعامى عن محاسنهم، كما روي أن الله يبغض التارك لحسنة المؤمن الآخذ لسيئته، والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوئ أهل المساوئ فكيف بمعايب أهل المحاسن! ومن أظهر علامات المنافق تبرمه بأعمال الصادق كما ذكر، ما كان مؤمناً فيما مضى ولا مؤمناً فيما بقي إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله، وعن ذلك المنافق غماز لماز بخيل جبان مرتاع، مستثقل في مجامع الخير أجنبي منها، مستخف في مواطن الشر متقدم فيها، طلق اللسان بالغيبة والبهتان، ثقل اللسان عن مداومة ذكر الله تبارك وتعالى، عم عن ذكر الله عز وجل في كل حال، ناظر إلى الناس بكل وجه، وهو مع ذلك يصانعهم ولا يصادقهم، يأخذ من الدين ما ينفعه في الدنيا ولا يأخذ ما ينفع في العقبى، ويجتنب في الدين ما يضر في الدنيا ولا يجتنب ما يضر في العقبى مما لا يضر في الدنيا، فهذا وجه من وقوع شياخ النفاق في هذه الأمة، فلذلك من حق القارئ أن يستشعر مواقع آي القرآن من نفسه في ذات قلبه وفي أحوال نفسه وأعمال بدنه وفي سره مع ربه وفي علانيته مع خلقه، فإنه بذلك يجد القرآن كله منطبقاً عليه خاصاً به حتى كأن جميعه لم

= البزار والطبراني وأحمد من حديث عمار رضي الله عنه، ورجال البزار، رجال الصحيح غير الحسن بن قرعة وعبيد بن سليمان وهما ثقتان وفي عبيد خلاف لا يضر. - وذكره السيوطي في الجامع وحسنه.

(١) أخرجه الطبراني ٣٥٥/١٧ وأحمد ١٥١/٤ و ١٥٥ من حديث عقبة بن عامر، وذكره الهيثمي في المجمع ٣٢٩/٦ وقال: وأحد أسانيد أحمد ثقات أثبات اه. وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو أخرجه أحمد ١٧٥/٢ وذكره الهيثمي وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله ثقات وكذلك رجال أحد إسنادي أحمد ثقات. - وله شاهد آخر من حديث عصمة أخرجه الطبراني ١٧٩/١٧ وفي إسناده الفضل ابن المختار، وهو ضعيف اه.

(٢) هو عند البخاري ٦٥٧ ومسلم ٦٥١ ح ٢٥٢ من حديث أبي هريرة لكن بلفظ: «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر...» وله تمة.

ينزل إلا إليه حتى إذا رغب في أمر رغب هو فيه من وجه ولا يقول: هذا إنما أنزل في كذا، وإذا رهب القرآن من أمر رهبه من وجه ما، وإذا أعلى فكذاك وإذا أسفل فكذاك، ولا يقول: هذا إنما أنزل في كذا حتى يجد لكل القرآن موقعا في عمله أي عمل كان ومحلا في نفسه أي حال كان ومشعرا لقلبه أي ملحظ كان، فيستمع القرآن بلاغا من الله سبحانه وتعالى إليه بلا واسطة بينه وبينه، فعند ذلك يوشك أن يكون ممن يقشعر له جلده ابتداء ثم تلين له جلده وقلبه انتهاء، وربما يجد من الله سبحانه وتعالى نفح رحمة يفتح له بابا إلى التخلق بالقرآن أسوة بالنبي ﷺ، سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن^(١) وبذلك هو ذو الخلق العظيم - والله واسع عليم - انتهى .

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٦﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

ولما قرر سبحانه بهذه الآية تشابههم في التمتع بالعاجل، وختمها بهذا الختام المؤذن بالانتقام، اتبع ذلك بتخويفهم من مشابهتهم فيما حل بطوائف منهم ملتفتا إلى مقام الغيبة لأنه أوقع في الهيبة، فقال مقررأ لخسارتهم: ﴿ ألم يأتهم ﴾ أي هؤلاء الأخابث من أهل النفاق ﴿ نبأ الذين من قبلهم ﴾ أي خبرهم العظيم الذي هو جدير بالبحث عنه ليعمل بما يقتضيه حين عصوا رسلنا؛ ثم أبدل من ذلك قوله: ﴿ قوم نوح ﴾ أي في طول أعمارهم وامتداد آثارهم وطيب قرارهم بحسن التمتع في أرضهم وديارهم، أهلكتهم بالطوفان، لم يبق من عصاتهم إنسان، وعطف على قوم القبيلة فقال: ﴿ وعاد ﴾ أي في قوة أبدانهم وعظيم شأنهم ومصانعهم وبنيانهم وتجبرهم في عظيم سلطانهم، أهلكتهم بالريح الصرصر، لم يبق ممن كفر منهم بشر ﴿ وثمود ﴾ أي في تمكنهم من بلاد الحجر عرضها وطولها، جبالها وسهولها، أهلكتها بالرجفة لم يبق من الكفار منهم ديار ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ أي في ملك جميع الأرض بطولها والعرض، سلب الله منهم الملك بعد شديد الهلك ﴿ وأصحاب مدين ﴾ أي في جمع الأموال ومد الآمال إلى أخذها

(١) أخرجه مسلم ٧٤٦ وله قصة وأبو داود ١٣٤٢ وابن ماجه ٢٣٣٣ والبيهقي في الدلائل ٣٠٨/١ وأحمد ٥٤/٦ و ٩١ و ١١١ من حديث عائشة .

من حرام وحلال ونقص الميزان والمكيال فعمهم الله بالنكال ﴿والمؤتفكت﴾ أي في إعراضهم عن صيانة أعراضهم في اتباع لذائد أغراضهم، فأثمر لهم فعلم بعد الخسف عموم انقراضهم.

ولما كان كأنه قيل: ما نبأهم؟ قال: ﴿أنتهم رسلهم﴾ أي أتى كل أمة منهم رسولها ﴿بالبينات﴾ أي بالمعجزات الواضحات جداً بسبب أنهم ارتكبوا من القبائح ما أوجب دمارهم ﴿فما﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه ﴿ما﴾ ﴿كان الله﴾ أي مع ما له من صفات الكمال مريداً ﴿ليظلمهم﴾ أي لأن يفعل بهم في الإهلاك قبل الإنذار وإنارة البينات فعل من تعدونه فيما بينكم ظالماً، ولكنه أرسل إليهم الرسل فكذبوا ما أتوهم به من البينات، فصار العالم بحالهم إذا سمع بهلاكهم وبزوالهم يقول: ما ظلمهم الله ﴿ولكن كانوا﴾ أي دائماً في طول أعمارهم ﴿أنفسهم﴾ أي لا غيرها ﴿يظلمون﴾ أي بفعل ما يسبب هلاكها، فإن لم ترجعوا أنتم فنحن نحذرهم مثل عذابهم، ولعله خص هؤلاء بالذكر من بين بقية الأمم لما عند العرب من أخبارهم وقرب ديارهم من ديارهم مع أنهم كانوا أكثر الأمم عدداً، وأنبيأهم أعظم الأنبياء - نبه على ذلك أبو حيان. ولعله قدم أصحاب مدين على قوم لوط وهم بعدهم في الزمان لأن هذا في شأن من وصفوا بأنهم لم يجدوا ما يحميهم مما هم فيه من العذاب بمشاهدة النبي ﷺ من ملجأ أو مغارات أو مدخل كما أن من قبل المؤتفكات جمعهم هذا الوصف، فقوم نوح عليه السلام لم يمنعهم لما أتاهم الماء معقل منيع ولا جبل رفيع مع أنه يقال؛ إنهم هم الذين بنوا الأهرامات، منها ما هو بالحجارة ليمنعهم من الحادث الذي هددوا به إن كان ماء، ومنها ما هو بالطوب التي لتحميهم منه إن كان ناراً، وعاد لما أنتهم الريح بادروا إلى البيوت فقلعت الأبواب وصرعتهم في أجواف بيوتهم، ولم يخنهم ما كانوا يبنون من المصانع المتقنة والقصور المشيدة والحصون المنعنة، وحال ثمود معروف في توسعهم في البيوت جبلاً وسهولاً فما منعهم من الصيحة التي أعقبت الرجفة، وقوم إبراهيم عليه السلام بنوا الصرح، ارتفاعه خمسة آلاف ذراع أو فرسخان ليتوصل به نمرود كما زعم - إلى السماء فأتى الله بنيانهم من القواعد، ألقت الريح رأسه في البحر وخر عليهم الباقي وهم تحته، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، وأصحاب مدين لما أتاهم العذاب فأخذتهم الرجفة لما تغن عنهم مدينتهم، وإن كانوا هم أصحاب الأيكة فإنهم لما اشتد عليهم الحر يوم الظلة قصدوا المغارات فوجدوها أحر من وجه الأرض فخرجوا منها هارين، فجمعتهم الظلة بنسيم بارد خيلته إليهم ولبست به عليهم، فلما اجتمعوا تحتها أحرقتهم نارها وبقي عليهم عارها، وأما قوم لوط فأتاهم الأمر بغتة، لم يشعروا

حتى قلبت مدائنهم بعد أن رفعت إلى عنان السماء، واتبعت حجارة الكبريت تضطرم ناراً، ولعله خص قوم لوط بالذكر من بين من ليس له هذا الوصف لأن العرب كانوا يمرون على مواضع مدائنهم ويشاهدونها، وعبر عنهم بالمؤتفكات لأن القصص للمنافقين الذين مبنى أمرهم على الكذب وصرف الأمور عن ظواهرها وتقليبها عن وجوهها، فالمعنى أن أولئك لما قلبوا فعل النكاح عن وجهه عوقبوا بقلب مدائنهم، فهؤلاء جديرون بمثل هذه العقوبة لقلب القول عن وجهه، ومادة «إفك» بكل ترتيب تدور على القلب، فإذا كافت الرجل فكأنك قلبت فعله فرددته إليه وصرفته عنك، وأكاف الدابة شبه بالإناء المقلوب، والكذب صرف الكلام عن وجهه فهو إفك لذلك - والله أعلم.

ولما بين سبحانه أن المنافقين بعضهم من بعض وما توعدهم به وما استتبعه من تهديدهم بإهلاك من شابهوه، وختم بما سبب هلاكهم من إصرارهم وعدم اعتبارهم، عطف بيان حال المؤمنين ترغيباً في التوبة طمعاً في مثل حالهم فقال: ﴿والمؤمنون﴾ أي بما جاءهم عن ربهم ﴿بعضهم أولياء﴾ ولم يقل: من، كما قال في المنافقين: من ﴿بعض﴾ دلالة على أن أحداً منهم لم يقلد أحداً في أصل الإيمان ولا وافقه بحكم الهوى، بل كلهم مصوبون بالذات وبالقصد الأول إلى اتباع رسول الله ﷺ بالدليل القطعي على حسب فهم كل أحد منهم، فذلك دليل على صحة إيمانهم ورسوخهم في تسليمهم وإذعانهم؛ ثم بين ولايتهم بأنهم يد واحدة على من سواهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر فقال: ﴿يأمرون﴾ أي كلهم على وجه التعاضد والتناصر ﴿بالمعروف﴾ وهو كل ما عرفه الشرع وأجازة ﴿وينهون﴾ أي كذلك ﴿عن المنكر﴾ لا يحابون أحداً.

ولما ذكر الدليل القطعي على صحة الإيمان، أتبعه أفضل العبادات فقال: ﴿ويقيمون الصلوة﴾ أي يوجدونها على صفة تقتضي قيامها بجميع أركانها وشروطها وحدودها مراقبة لربهم واستعانة بذلك على جميع ما ينوبهم ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي مواساة منهم لفقرائهم صلة للخلائق بعد خدمة الخالق، وذلك مواز لقوله في المنافقين ﴿ويقبضون أيديهم﴾ ولما خص أمهات الدين، عم بياناً لأنهم لا ينسون الله طرفة عين بل يذكرونه في كل حال بقوله: ﴿ويطيعون الله﴾ أي الملك الأعظم الذي لا ملك سواه ﴿ورسوله﴾ إشارة إلى حسن سيرتهم وجميل عسرتهن.

ولما ذكر مكارم أفعالهم، أتبعه حسن مآلهم فقال: ﴿أولئك﴾ أي العظماء الشأن ﴿سيرحهم الله﴾ أي المستجمع لصفات الكمال بوعد لا خلف فيه، وهذا مع الجملة

قبله مواز لقوله في المنافقين ﴿نسوا الله فسيهم﴾ وهو إشارة إلى أن الطريق وعر والأمر شديد عسر، فالسائر مضطر إلى الرحمة، وهي المعاملة بعد الغفران بالإكرام، لا قدرة له على قطع مفاوز الطريق إلا بها، ولا وصول له أصلاً من غير سببها.

ولما بين أن حال المؤمنين مبني على الموالة وكانت الموالة فقيرة إلى الإعانة قال: ﴿إن الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿عزيز﴾ أي غالب غير مغلوب بوجه، فهو قادر على نصر من يوالي حزبه وأن ينيله من ثمرات الرحمة ما يريد من غير أن يقدر أحد على أن يحول بينه وبين شيء من ذلك ﴿حكيم﴾ أي فلا يقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه، وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين لا يزالون منصورين على كل مفسد ما داموا على هذه الخلال من الموالة وما معها من حميد الخصال.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾
يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٨﴾
يَحْفُوفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولِي أَلْسِنَتٍ لَوْلَا
وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبُهُمْ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٩﴾﴾.

ولما ختم الآية بوصف العزة والحكمة المناسب لافتتاحها بالموالة وتعقيها بآية الجهاد، وذلك بعد الوعد بالرحمة إجمالاً، أتبعها بما هو أشد التماماً بها بياناً للرحمة وتفصيلاً لها ترغيباً للمؤمنين بالإنعام عليهم بكل ما رامه المنافقون بنفاقهم في الحياة الدنيا، وزادهم بأنه دائم، وأخبر بأن ذلك هو الفوز لا غيره فقال: ﴿وعد الله﴾ أي الصادق الوعد الذي له الكمال كله ﴿المؤمنين والمؤمنات﴾ أي الراسخين في التصديق بكل ما أتاهم به الرسول ﷺ ﴿جنت تجري من تحتها الأنهار﴾ أي فهي لا تزال خضرة ذات بهجة نضرة؛ ولما كان النعيم لا يكمل إلا بالدوام، قال: ﴿خلدين فيها﴾ ولما كانت الجنان لا تروق إلا بالمنازل والدور الفسيحة والمعازل قال: ﴿ومسكن طيبة﴾ ولما كان بعض الجنان أعلى من بعض، وكان أعلاها ما شرف بوصف العندية المؤذن بالقرب مع بنائه مما يؤكد معنى الدوام، قال: ﴿في جنت عدن﴾ أي إقامة دائمة وهناء وصحة جسم وطيب مقر وموطن ومنبت، وذلك كما قال في حق أضدادهم ﴿عذاب مقيم﴾ وما أنسب ذكر هذه الجنة في سياق التعبير بالوصف المؤذن بالرسوخ فإنه ورد في الحديث أنها خاصة بالنبيين والصدّيقين والشهداء. ولما كان ذلك لا يصفو عن الكدر مع

تجوز نوع من الغضب قال مبتدئاً إشارة إلى أنهى التعظيم :- ﴿ورضوان﴾ أي رضى لا يبلغه وصف واصف بما تشير إليه صيغة المبالغة ولو كان على أدنى الوجوه بما أفاده التوين - ﴿من الله﴾ أي الذي لا أعظم منه عندهم ﴿أكبر﴾ أي مطلقاً، فهو أكبر من ذلك كله لأن رضاه سبب كل فوز، ولا يقع السرور الذي هو أعظم النعيم إلا برضى السيد، وإذا كان القليل منه أكبر فما ظنك بالكثير .

ولما تم ذلك على أحسن مقابلة بما وصف به أضدادهم، قال يصفه زيادة في الترغيب فيه: ﴿ذلك﴾ أي الأمر العالي الرتبة ﴿هو﴾ أي خاصة لا غيره ﴿الفوز العظيم﴾ أي الذي يستصغر دونه كل شيء من أمور الدنيا والآخرة، وفي كون ذلك وعداً لمن اتصف لأجل ما اتصف به ترغيب في الجهاد المأمور به بعدها لكونه من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والداعي الأعظم إلى الموالاة .

ولما ثبتت موالاته المؤمنين ومقاطعتهن للمنافقين والكافرين، وكان ما مضى من الترغيب والترهيب كافياً في الإنابة، وكان من لم يرجع بذلك عظيم الطغيان غريقاً في الكفران، أتبع ذلك الأمر بجهادهم بما يليق بعنادهم فقال آمراً لأعظم المتصفين بالأوصاف المذكورة مفخماً لمقداره بأجل أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿يأيها النبي﴾ أي العالي المقدار بما لا يزال يتجدد له منا من الأنبياء وفينا من المعارف؛ ولما كان الجهاد أعرف في المصارعين، وكانوا أولى به لشدة شكائهم وقوة نفوسهم وعزائمهم بدأ بهم فقال: ﴿جاهد الكفار﴾ أي المجاهرين ﴿والمنفقين﴾ أي المسائرين كلاً بما يليق به من السيف واللسان .

ولما كان ﷺ مطبوعاً على الرفق موسى به، قال تعالى: ﴿واغلظ عليهم﴾ أي في الجهادين ولا تعاملهم بمثل ما عاملتهم به من اللين عند استئذانهم في القعود، وهذا بخلاف ما مضى في وعيد المنافقين حيث قدمهم فقال ﴿المنفقين والمنفقت والكفار﴾ فقدم في كل سياق الأليق به؛ ولما كان المعنى: فإنك ظاهر عليهم وقاهر لهم وهم طعام السيف وطوع العصا، عطف عليه قوله: ﴿وماؤهم﴾ أي في الآخرة ﴿جهنم وبئس المصير﴾ .

ولما أتى بالدليل العام على إجرامهم، أتبعه الدليل الخاص عليه وهو أيضاً دليل على الدليل فقال: ﴿يحلفون بالله﴾ أي الملك الأعلى الذي لا شيء أعظم منه قدرأ ﴿ما قالوا﴾ أي ما وقع منهم قول، فقصر الفعل تعميماً للمفعول إعلاماً بأنهم مهما عنفوا على قول كائناً ما كان بادروا إلى الحلف على نفيه كذباً لأنهم مردوا على النفاق فتطبعوا بأعلى الكذب ومرنوا على سبى الأخلاق، فصار حاصل هذا أنهم أطمعوا في العفو

وحذروا من عذاب الباقيين بسبب إجرامهم لأنهم يأمرون بالمنكر وما يلائمه مقتفين آثار من قبلهم في الانهماك في الشهوات غير مقلعين خوفاً من الله أن يصيبهم بمثل ما أصابهم ولا رجاء له أن ينيلهم مما أعد للمؤمنين مجترئين على الأيمان الباطلة بأعظم الحلف على أي شيء فرض سواء كان يستحق اليمين أو لا غير خائفين من الله أن يهتكهم كما هتك غيرهم ممن فعل مثل أفعالهم؛ ثم دل على عظيم إجرامهم وما تضمنه قوله ﴿المنفقون والمنفقت بعضهم من بعض﴾ - الآية، من كبائر آثامهم، ويجوز أن تكون هذه الآية واقعة موقع التعليل للآية التي قبلها بأنهم يقدمون على ما يستحقون به الجهاد والغلظة والنار من الحلف كذباً على نفي كل ما ينقل عنهم استخفافاً بالله وبأسمائه ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ [المجادلة: ٦] فتكون جواباً لمن كأنه قال: أما جهاد الكفار فالأمر فيه واضح، وأما المنافقون فكيف يجاهدون وهم يتكلمون بلفظ الإيمان ويظهرون أفعال أهل الإسلام فقال: لأنهم يحلفون ﴿ولقد﴾ أي والحال أنهم كاذبون لقد ﴿قالوا كلمة الكفر﴾ أي الذي لا أكبر في الكفر منه، وهي تكذيب النبي ﷺ.

ولما كان هذا السياق لصنف يجددون الاستخفاف بالله تعالى - بما دل عليه المضارع كل وقت، دل على أن إقرارهم بالإيمان كذب وأفعالهم صور لا حقائق لها، فعبّر بالإسلام فقال: ﴿وكفروا﴾ أي أظهروا الكفر ﴿بعد إسلامهم﴾ أي بما ظهر من أفعالهم وأقوالهم، وذلك غاية الفجور؛ ولما كان أعلى شغف الإنسان بشيء أن تحدثه نفسه فيه بما لا يصل إليه، فيكون ذلك ضرباً من الهوس قال: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ أي من قتل الرسول ﷺ أو إخراجه من المدينة، فجمعوا بين أنواع الكفر القول والفعل والاعتقاد، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿مأوهم﴾ والتقدير على هذا: يدخلون جهنم حالفين بالله: ما قالوا كلمة الكفر، ولقد قالوها، فيكون كقوله ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣].

ولما بين من أحوالهم التي لا يحمل على فعلها إلا أمر عظيم، قال: ﴿وما﴾ أي قالوا وفعلوا والحال أنهم ما ﴿نقموا﴾ أي كرهوا شيئاً من الأشياء التي أتتهم من الله ﴿إلا أن أغنهم الله﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال وهو غني عن العالمين ﴿ورسوله﴾ أي الذي هو أحق الخلق بأن يحوز عظمة الإضافة إليه سبحانه، وكان أذاهم هذا للنبي ﷺ وهمهم بقتله مع إعطائه لهم ما أغناهم بخلاف الآية السابقة، فكان الأعداء في ذمهم تأخير قوله: ﴿من فضله﴾ فهو من باب: ولا عيب فيهم.

ولما نبه على أن هذه المساوىء قابلوا بها المحسن إليهم، رغبتهم بأنه قابل المتاب

عليهم، ورهبهم بأنه لا مرد لما يريد من العذاب بقوله: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ ولما كان المقام جديراً بأن يشتد تشوف السامع إلى معرفة حالهم فيه، حذف نون الكون اختصاراً تنبيهاً على ذلك فقال: ﴿يَكُ﴾ أي ذلك ﴿خَيْراً لَهُمْ﴾ من إصرارهم.

ولما كان للنفوس من أصل الفطرة الأولى داعية شديدة إلى المتاب، وكان القرآن في وعظه زاجراً مقبول العتاب عظيم الأخذ بالقلوب والعطف للألباب، أشار إلى ذلك بصيغة التفعّل فقال: ﴿وَإِنْ يَتُوبُوا﴾ أي يكلفوا أنفسهم الإعراض عن المتاب ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً بحوله وقوته ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي لا صبر لهم عليه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي بما هم فيه من الخوف والخزي والكلف وغيرها ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي بالعذاب الأكبر الذي لا خلاص لهم منه ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي التي لا يعرفون غيرها لسفول همهم ﴿مَنْ وَلِيَّ﴾ أي يتولى أمورهم فيصلح ما أفسد العذاب منهم أو يشفع لهم ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ أي ينقذهم؛ وأما السماء فهم أقل من أن يطمعوا منها بشيء ناصر أو غيره وأغلظ أكباداً من أن يرتقي فكرهم إلى ما لها من العجائب وما بها من الجنود؛ وسبب نزول الآية على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان جالساً في ظل شجرة فقال: سيأتاكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعا رسول الله ﷺ فقال: علام تشمتني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله: ما قالوا، فأنزل الله الآية؛^(١) وقال الكلبي: نزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين فسامهم رجساً وعابهم فقال الجلاس: لئن كان محمداً صادقاً لنحن شر من الحمير، فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل، إن محمداً لصادق وأنتم شر من الحمير، فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قاله الجلاس، فقال الجلاس: كذب عليّ يا رسول الله! فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد كذب عليّ عامر، وقام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه، ثم رفع عامر رضي الله عنه يديه إلى السماء فقال: اللهم! أنزل على نبيك تصديقاً الصادق منا، فقال النبي ﷺ والمؤمنون: آمين! فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ﴾ أي التوب ﴿خَيْراً لَهُمْ﴾ فقام الجلاس فقال: يا رسول الله! أسمع الله قد عرض عليّ التوبة، صدق عامر بن قيس فيما قاله، لقد قلته،

(١) ذكره السيوطي في الدر ٤٦٣/٣ ونسبه إلى ابن جرير والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه من حديث ابن عباس.

وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه ثم تاب وحسنت توبته (١). ولا مانع من أن يكون كل ذلك سبباً لها كما تقدم ويأتي، والأوفق لها في السببية الخبر الأول للتعبير في الكفر بـ«أل» المؤذنة بالكمال، ومن شتم نبينا ﷺ فقد ارتكب كل كفر، وفي الآية دليل على قبول توبة الزنديق المسر للكفر المظهر للإيمان - كما قال أبو حيان وقال: وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي، وقال مالك: لا تقبل، فإن جاء تائباً من قبل نفسه من قبل أن يعثر عليه قبلت توبته.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنِ اٰتٰنَا مِنْ فَضْلِهٖ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنُنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّ اٰتٰهُمْ مِنْ فَضْلِهٖ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيْ قُلُوْبِهِمْ اِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَہٗ بِمَا اَخْلَفُوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴿٧٧﴾ اَلَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ اَنْتَ اللّٰهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَاَنْتَ اللّٰهُ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَّوْعِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي الصَّدَقٰتِ وَالَّذِيْنَ لَا يَجِدُوْنَ اِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّٰهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿٧٩﴾ اَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِيْنَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ ذٰلِكَ بِاَنْهُمْ كَفَرُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهٖ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِيْنَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

ولما أقام سبحانه الدليل على ما ذكر بهذه الآية التي ختمها بأنه أغناهم من فضله، أتبعها بإقامة الدليل عليها وعلى أنهم يقبضون أيديهم وعلى اجترائهم على أقبح الكذب فقال: ﴿ومنها من عهد الله﴾ أي الذي لا أعظم منه ﴿لئن آتانا﴾ أي من خير ما عنده، واعترف بأنه لا حق لأحد عليه بقوله: ﴿من فضله﴾ أي بأي طريق كان من تجارة أو غنيمة أو زراعة أو غيرها، وأكد لأنه كاذب يظن أن الناس يكذبونه، وهكذا كل كاذب فقال: ﴿لنصدقن﴾ أي مما آتانا من غير رياء - بما يشير إليه الإدغام ﴿ولنكونن﴾ أي كوناً هو الدال على أنا مجبولون على الخير ﴿من الصالحين﴾ أي لكل خير نندب إليه ﴿فلما آتهم﴾ وكرر قوله: ﴿من فضله﴾ تقريراً لما قاله المعاهد تأكيداً للإعلام بأنه لا حق عليه لأحد ولا صنع فيما ينعم به ولا قدرة عليه بوجه ﴿بخلوا به﴾ أي كذبوا فيما عاهدوا عليه وأكدوه غاية التأكيد، فلم يتصدقوا بل منعوا الحق الواجب إظهاره فضلاً عن صدقة السر ﴿وتولوا﴾ أي كلفوا أنفسهم الإعراض عن الطاعة لمن تفضل عليهم مع معرفتهم بقبح نقض العهد؛ ولما كان التولي قد يحمل على ما بالجسد فقط قال: ﴿وهم

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢/٢٦٣) عن الكلبي بلا سند والكلبي متروك - وانظر الدر المشور ٣/٤٦٣.

معرضون* ﴿أي بقلوبهم، والإعراض وصف لهم لازم لم يتجدد لهم، بل كان غريزة فيهم ونحن عالمون بها من حين أوقعوا العهد؛ قال أبو حيان: قال الضحاک: هم نبتل ابن الحارث وجد بن قيس ومعتب بن قشير وثعلبة بن حاطب وفيهم نزلت الآية - انتهى. وحسن تعقيبها بها أيضاً أن في الأولى كفران نعمة الغني من غير عهد، وفي هذه كفرانها مع العهد فهو ترق من الأدنى إلى الأعلى، ودل على عظيم شأن العهد بتعظيم الجزاء على خيانتته بقوله: ﴿فأعقبهم﴾ أي الله أو التمادي على البخل جزاء على ذلك ﴿نفاقاً﴾ متمكناً ﴿في قلوبهم﴾ أي بأن لا يزالوا يقولون ما لا يفعلون ﴿إلى يوم يلقونه﴾ أي بالموت عند فوت الفوت ﴿بما أخلفوا الله﴾ أي وهو الملك الأعظم ﴿ما وعدوه﴾ لأن الجزاء من جنس العمل؛ ولما كان إخلاف الوعد شديد القباحة، وكان مرتكبه غير متحاش من مطلق الكذب، قال: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي يجددون الكذب دائماً مع الوعد ومنفكاً عنه، فقد استكملوا النفاق: عاهدوا فغدروا ووعدوا فأخلفوا وحدثوا فكذبوا.

ولما كانت المعاهدة سبباً للإغناء في الظاهر، وكان ذلك ربما كان مظنة لأن يتوهم من لا علم له أن ذلك لخفاء أمر البواطن عليه سبحانه، وكان الحكم هنا وارداً على القلب بالنفاق الذي هو أقبح الأخلاق مع عدم القدرة لصاحبه على التخلص منه، كان ذلك أدل دليل على أنه تعالى أعلم بما في كل قلب من صاحب ذلك القلب، فعقب ذلك بالإنكار على من لا يعلم ذلك والتوبيخ له والتقريع فقال: ﴿ألم يعلموا أن الله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿يعلم سرهم﴾ وهو ما أخفته صدورهم ﴿ونجوهم﴾ أي ما فاض فيه بعضهم بعضاً، لا يخفى عليه شيء منه ﴿وأن الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿علام الغيوب﴾ أي كلها، أي ألم يعلموا أنه تعالى لا يخادع لعلمه بالعواقب فيخشوا عاقبته فيوفوا بعهده، وفائدة الإعطاء مع علمه بالخيانة إقامة الحججة؛ قال أبو حيان: وقرأ علي وأبو عبد الرحمن والحسن ﴿ألم تعلموا﴾ بالتاء، وهو خطاب للمؤمنين على سبيل التقرير - انتهى. وفائدة الالتفات الإشارة إلى أن هذا العلم إنما ينفع من هيبء للإيمان.

ولما أخبر تعالى أنه لم يكفهم كفران نعمة الغني من غير معاهدة حتى ارتكبوا الكفران بمنع الواجب مع المعاهدة، أخبر أنه لم يكفهم أيضاً ذلك حتى تعدوه إلى عيب الكرماء الباذلين بصفة جبههم لربهم ما لم يوجه عليهم، فقال تعالى معبراً بصيغة تصلح لجميع ما مضى من أقسامهم إلهاماً لأنهم كلهم كانوا متخلفين بذلك وإن لم يقله إلا بعضهم: ﴿الذين يلمزون﴾ أي يعيبون في خفاء ﴿المطوعين﴾ أي الذين ليس عليهم

واجب في أموالهم فهم يتصدقون ويحبون إخفاء صدقاتهم - بما يشير إليه الإدغام ﴿من المؤمنين﴾ أي الراسخين في الإيمان ﴿في الصدقت﴾ ولما كان ما مضى شاملاً للموسر والمعسر، نص على المعسر لزيادة فضله وإشارة إلى أن الحث على قليل الخير كالحث على كثيره فقال عاطفاً على ﴿المطوعين﴾: ﴿والذين لا يجدون﴾ أي من المال ﴿إلا جهدهم﴾ أي طاقتهم التي أجهدوا أنفسهم فيها حتى بلغوها.

ولما كان اللمز هو العيب، وهو ينظر إلى الخفاء كالغمز، ومادته بكل ترتيب تدور على اللزوم، والمعنى: يلزمون المطوعين عيباً ولا يظهرون ذلك لكل أحد وإنما يتخافتون به فيما بينهم، وهو يرجع إلى الهزء والسخرية، سبب عنه قوله: ﴿فيسخرون منهم﴾ ولما كان لا شيء أعظم للشخص من أن يتولى العظيم الانتقام له من ظالمه، قال: ﴿سخر الله﴾ أي وهو الذي له الأمر كله ولا أمر لغيره ﴿منهم﴾ أي جازاهم على فعلهم بأهل حزبه، وزادهم قوله: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي بما كانوا يؤلمون القلوب من ذلك وإذا حوققوا عليه دفعوا عن أنفسهم ما يردعهم عنه بالأيمان الكاذبة، روى البخاري في التفسير عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت ﴿الذين يلمزون﴾ - الآية.

ولما كان ﷺ معروفاً بكثرة الاحتمال وشدة اللين المشير إليه ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ للمبالغة في استجلابهم والحرص على نجاتهم جميع الخلق فكان معروفاً بالاستغفار لهم تارة على وجه الخصوص بسؤالهم عند اعتذارهم وحلفهم وتارة على وجه العموم عند استغفاره لجميع المسلمين، أخبره تعالى من عاقبة أمره بما يزهده فيهم ليعرض عنهم أصلاً ورأساً، لأنهم تجاوزوا حق الله في ترك الجهاد ومنع الصدقة وحقه ﷺ في لمزه في الصدقات ووصفه بما يجعل عنه إلى حقوق المجاهدين الذين هو سبحانه خليفتهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم مع ما سبق في عمله للمنافقين من أنه لا يغفر لهم فقال: ﴿استغفر﴾ أي اطلب الغفران ﴿لهم أو لا تستغفر لهم﴾ أي استوى في أمرهم استغفاركم لهم وتركه ﴿إن تستغفر﴾ أي تسأل الغفران ﴿لهم سبعين مرة﴾ أي على سبيل الحقيقة أو المبالغة؛ ولما كان الإخبار باستواء الأمرين: الاستغفار وتركه ربما كان مسبباً عن الغفران وربما كان مسبباً عن الخسران، عينه في هذا الثاني فقال: ﴿فلن يغفر الله﴾ أي الذي قضى بشقائهم وهو الذي لا يرد أمره ﴿لهم﴾ وهو يحتمل أن يكون جواباً للأمر، وجواب الشرط محذوف لدلالته عليه، والمراد بالسبعين على ما ظهر في المآل

المبالغة في أنه لا يغفر لهم لشيء من الأشياء ولو غفر لهم لشيء لكان لقبول شفاعته نبيه ﷺ، والعرب تبالغ بما فيه لفظ السبعة لأنها غاية مستقصاة جامعة لأكثر أقسام العدد، وهي تمة عدد الخلق كالسماوات والأرض والبحار والأقاليم والأعضاء.

ولما كان ﷺ شديد الحرص على رشدهم ونفعهم، وكان حقيقة نظم الآية التخيير في الاستغفار وتركه ونفي المغفرة بالاستغفار بالعدد المحصور في سبعين، جعل ﷺ الآية مقيدة لما في سورة المنفقين فاستغفر لابن أبي وصلى عليه وقام على قبره وصرح بأنه لو يعلم أنه لو زاد على السبعين قبل لزيد^(١)، واستعظم عمر رضي الله عنه ذلك منه ﷺ وشرع يمسكه بثوبه ويقول: أتصلي عليه وقد نهاك الله عن ذلك! لأنه لم يفهم من الآية غير المجاز لما عنده من بغض المنافقين، وأما النبي ﷺ فرأى التمسك بالحقيقة لما في الرفق بالخلقية من جميل الطريقة بتحصيل الائتلاف الواقع للخلاف وغيره من الفوائد وجليل العوائد، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يقول لما نزل النهي الصريح: فعجبت بعد من جراتي على رسول الله ﷺ. أي تفتنت بعد هذا الصريح أن ذلك الأول كان محتملاً وإلا لأنكر الله الصلاة عليه، وفي موافقة الله تعالى لعمر رضي الله عنه منقبة شريفة له، وقد وافقه الله تعالى مع هذا في أشياء كثيرة، روى البخاري في التفسير وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه؛ وفي رواية في اللباس، فأعطاه قميصه وقال: إذا فرغت فأذنا، فلما فرغ أذنه فجاء، وفي رواية: فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! تصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه! فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ وسأزيده على السبعين؛ وفي رواية؛ لو أعلم أنني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها، قال: إنه منافق، فصلى عليه رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ إلى ﴿وهم فسقون﴾ فترك الصلاة عليهم، قال: فعجبت بعد من جراتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم^(٢): وله في أواخر الجهاد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ﷺ قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه

(١) انظر الحديث الآتي.

(٢) أخرجه البخاري ٤٦٧٠ و ٤٦٧٢ ومسلم ٢٤٠٠ و ٢٧٧٤ من حديث ابن عمر.

الذي ألبسه، قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يد فأحب أن يكافئه^(١)، وفي رواية عنه في اللباس أنه قال: أتى النبي ﷺ ابن أبي بعد ما أدخل قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه^(٢). انتهى. فكان ابنه رضي الله عنه استحى من أن يؤذن النبي ﷺ به لما كان يعلم من نفاقه، أو آذنه ﷺ به فصادف منه شغلاً فدفنه فجاء رسول الله ﷺ بعد إدخاله القبر وقبل تمام الدفن فأخرجه تطيباً لخاطر ابنه الرجل الصالح ودفعاً لما قد يتوهمه من إحنة عليه وتأليفاً لغيره، فقد روي أنه قال ﷺ: إني أومل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب، فأسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب النبي ﷺ^(٣)، ففي بعض الروايات أنه هو الذي طلب من النبي ﷺ أن يكفنه في قميصه، وتعطفه عليه، أدعى إلى تراحم المسلمين وتعاطف بعضهم على بعض، وقوله: وألبسه قميصه - بالواو لا ينافي الرواية الأولى، وتحمل الرواية الأولى على أنه وعده إعطاء القميص لمانع كان من التنجيز وقت السؤال، فحمل الجزم بالإعطاء على الوعد الصادق ثم أنجزه بعد إخراجه من القبر - والله أعلم؛ ووردت هذه الآية على طريق الجواب لمن كأنه قال: ما تقدم من أحوال المنافقين كان انتهاكاً لحرمة الله أو لحق الرسول ﷺ، ولم يرد فيه أنه يهينهم بالإماتة على النفاق، فكان يكفي فيه استغفار النبي ﷺ لهم، وأما هذان القسمان فأحدهما أخبر بأنه يميتهم منافقين، والثاني انتهك حرمة المخلصين من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فهل ينفعهم الاستغفار لهم؟ فكانه قيل: استوى الاستغفار وعدمه في أنه لا ينفعهم، وختمها بعلّة عدم المغفرة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر الذي يبعد فعله من الحكيم الكريم ﴿بأنهم كفروا بالله﴾ أي وهو الملك الأعظم ﴿ورسوله﴾ أي فهم لا يستأهلون الغفران لأنهم لم يهتدوا لإصرارهم على الفسق وهو معنى قائم بهم في الزيادة على السبعين كما هو قائم بهم في الاقتصار على السبعين ﴿والله﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي أنه لا يهديهم لأنه جبلهم على الفسق، وكل من لا يهديه لأنه جبله على الفسق لا يغفر له، فهو لا يغفر لهم لما علم منهم مما لا يعلمه غيره، فهو تمهيد لعذر النبي ﷺ في استغفاره قبل العلم بالطبع الذي لا يمكن معه رجوع.

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١)

(١) أخرجه البخاري ٣٠٠٨ من حديث جابر.

(٢) أخرجه البخاري ٥٧٩٥ من حديث جابر.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢/٢٦٧.

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٦﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْتَوْكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٩﴾

ولما علل سبحانه عدم المغفرة بفسقهم، وأتى بالظاهر موضع المضمرة إشارة إلى اتصافهم به وتعليقاً للحكم بالوصف، علل رسوخهم في الفسق بعد أن قدم أن المنافقين بعضهم من بعض فهم كالجسد الواحد بقوله: ﴿فرح المخلفون﴾ أي الذين وقع تخليفهم بإذنك لهم وكراهة الله لانبعاثهم ﴿بمقعدهم﴾ أي قعودهم عن غزوة تبوك، ولعله عبر بهذا المصدر لصلاحته لموضع القعود ليكون بدلالته على الفرح أعظم دلالة على الفرح بالموضع، وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأظهر الوصف بالتخلف موضع الضمير زيادة في تهجين ما رضوا به لأنفسهم، وزاده تهجيناً أيضاً بقوله: ﴿خلف﴾ أي بعد و خلف أو لأجل خلاف ﴿رسول الله﴾ أي الملك الأعظم الذي من تخلف عن حزبه هلك ﴿وكرهوا أن يجاهدوا﴾.

ولما كان هذا في سياق الأموال تارة بالرضى بنيلها والسخط بحرمانها، وتارة بقبض اليد عن بذلها، وتارة بالاستمتاع بالخلاف الذي هو النصيب أعم من أن يكون بالمال أو النفس، وتارة بعيب الباذلين وغير ذلك من شأنها قدم قوله: ﴿بأموالهم وأنفسهم﴾ على قوله: ﴿في سبيل الله﴾ أي طريق الملك الذي له صفات الكمال، لأنه ليس فيهم باعث الإيمان وداعي الإيقان الذي بعث المؤمنين، ودل ذلك على عراقتهم في الفسق بأن الإنسان قد يفعل المعصية ويحزن على فعلها وهؤلاء سروا بها مع ما فيها من الدناءة، وقد يسر الإنسان بالمعصية ولا يكره أن يكون بدلها أو معها طاعة وهؤلاء ضموا إلى سرورهم بها كراهية الطاعة، وقد يكره ولا ينهى غيره وهؤلاء جمعوا إلى ذلك كله نهي غيرهم، ففعلوا ذلك كله ﴿وقالوا﴾ أي لغيرهم ﴿لا تنفروا في الحر﴾ بعداً من الإسلام وعمى عن سيد الأحكام، لأن غزوة تبوك كانت في شدة الحر.

ولما كان هذا قول من لم تخطر الآخرة على باله، أمره تعالى أن يحذر من يصغي إليهم أو يقبل عليهم بقوله: ﴿قل﴾ أي يا أعلم بخلقنا استجهالاً لهم ﴿نار جهنم﴾ أي التي أعدها الله لمن خالف أمره ﴿أشد حرّاً﴾ ولفت الكلام إلى الغيبة يدل على أن أعظم المراد بهذا الوعظ ضعفاء المؤمنين لثلاثاً يتشبهوا بهم طمعاً في الحلم فقال تعالى: ﴿لو

كانوا﴾ أي المنافقون ﴿يفقهون﴾* أي لو كان بهم فهم يعلمون به صدق الرسول وقدرة مرسله على ما توعده به لعلموا ذلك فما كانوا يفرون من الحر إلى أشد حرّاً منه، لأن من فر من حر ساعة إلى حر الأبد كان أجهل الجهال، وقال أبو حيان: لما ذكر تعالى ما ظهر من النفاق والهزء من الذين خرجوا معه إلى غزوة تبوك من المنافقين ذكر حال المنافقين الذين لم يخرجوا معه، يعني في قوله ﴿فرح المخلفون﴾ - انتهى. فتكون الآية حينئذ جواباً لمن كأنه قال: هذه أحوال من خرج فما حال من قعد؟ وقد خرج بما في هذه الآية من الأوصاف كعب بن مالك ورفيقاه رضي الله عنهم ونحوهم ممن لم يفرح بالعودة ولا اتصف بما ذكر معه من أوصافهم.

ولما كان غاية السرور الضحك، وكان اللازم لهم في الآخرة البكاء في دار الشقاء الذي هو غاية الحزن لهم، فيها زفير وشهيق وهم يصطرخون فيها، قال تعالى مهدداً لهم مسيئاً عن قبيح ما ذكر من فعلهم مخبراً في صورة الأمر إيذاناً بأنه أمر لا بد من وقوعه: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ أي فليتمتعوا في هذه الدار بفرحتهم بمقعدهم التمتع الذي غاية السرور به الضحك - يسيراً، فإنها دار قلعة وزوال وانزعاج وارتحال ﴿وليبكوا كثيراً﴾ أي في نار جهنم التي أغفلوا ذكر حرورها وأهملوا الاتقاء من شديد سعيها بدل ذلك الضحك القليل كما استبدلوا حرها العظيم بحر الشمس الحقيقير ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾* أي من الفرح بالمعاصي والسرور بالشهوات والانهماك في اللذات.

ولما كان السرور بشيء الكاره لضده الناهي عنه لا يفعل الضد إلا تكلفاً ولا قلب له، إليه وكان هذا الدين مبنياً على العزة والغنى، أتبع ذلك بقوله مسيئاً عن فرحهم بالتخلف: ﴿فإن رجعت الله﴾ أي الملك الذي له العظمة كلها فله الغنى المطلق عن سفرك هذا ﴿إلى طائفة منهم﴾ أي وهم الذين يمد الله في أعمارهم إلى أن ترجع إليهم، وهذا يدل على أنه أهلك سبحانه في غيبته بعضهم، فأردت الخروج إلى سفر آخر ﴿فاستأذنوك﴾ أي طلبوا أن تأذن لهم ﴿للخروج﴾ أي معك في سفرك ذلك ﴿فقل﴾ عقوبة لهم وغنى عنهم وعزة عليهم ناهياً لهم بصيغة الخبر ليكون صدقك فيه علماً من أعلام النبوة وبرهاناً من براهين الرسالة ﴿لن يخرجوا معي أبداً﴾ أي في سفر من الأسفار لأن الله قد أغناني عنكم وأحوجكم إليّ ﴿ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ لأنكم جعلتم أنفسكم في عداد ربات الحجال ولا تصلحون لقتال؛ والتقييد بالمعية كما يؤذن باستقلالهم يخرج ما كان بعده ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم من سفرهم وقاتلهم.

ولما أخزاهم سبحانه بما أخزوا به أنفسهم، علله بقوله: ﴿إنكم رضيتم بالعودة﴾ أي عن التشرف بمصاحبتي، ولما كانت الأوليات أدل على تمكن الغرائز من الإيمان

والكفران وغيرهما قال: ﴿أول مرة﴾ أي في غزوة تبوك، ومن فاتنا يكفيه أنا نفوته؛ قال أبو حيان: فعلل بالمسبب وهو الرضى الناشئ عن السبب وهو النفاق - انتهى.

ولما أنهى الحكم والعلة، سبب عنه قوله: ﴿فاقعدوا مع الخلفين *﴾ أي الذين رضوا لأنفسهم بهذا الوصف الذي من جملة معانيه: الفاسد فهم لا يصلحون لجهاد ولا يلفون أبداً في مواطن الأمجاد، وقال بعضهم: المراد بهم الذين تخلفوا بغير عذر في غزوة تبوك، أو النساء والصبيان أو أدنياء الناس أو المخالفون أو المرضى والزمنى أو أهل الفساد، والأولى الحمل على الجميع، أي لأن المراد بتبكيتهم وتوبيخهم. ولما أتم سبحانه الكلام في الاستغفار وتعليه إلى أن ختم بإهانة المتخلفين، وكان القتل المسبب عن الجهاد سبباً لترك الصلاة على الشهيد تشريفاً له، جعل الموت الواقع في القعود المرضي به عن الجهاد سبباً لترك الصلاة إهانة لذلك القاعد، فقال عاطفاً على ما أفهمت جملة: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ الآية، من نحو: فلا تستغفر لهم أصلاً: ﴿ولا تصل﴾ أي الصلاة التي شرعت لتشريف المصلى عليه والشفاعة فيه ﴿على أحد منهم﴾ ثم وصف الأحد بقوله: ﴿مات﴾ وقوله ﴿أبدأ﴾ متعلق بالنهي لا بالموت ﴿ولا تقم على قبره﴾ أي لأن قيامك رحمة وهم غير أهل لها، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنهم كفروا بالله﴾ أي الذي له العظمة كلها ولما كان الموت على الكفر مانعاً من الصلاة على الميت بجميع معانيها لم يحتج إلى التأكيد باعادة الجار فقيل -: ﴿ورسوله﴾ أي الذي هو أعظم الناس نعمة عليهم بما له من نصائحهم بالرسالة، والمعنى أنهم لعظم ما ارتكبوا من ذلك لم يهدمهم الله فاستمروا على الضلالة حتى ماتوا على صفة من وقع النهي على الاستغفار لهم المشار إليها بقوله ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وذلك المراد من قوله معبراً بالماضي والمعنى على المضارع تحقيقاً للخبر وأنه واقع لا محالة: ﴿وماتوا وهم﴾ أي والحال أنهم بضمائرهم وظواهرهم ﴿فسقون *﴾ أي غريقون في الفسق.

ولما كان ابن أبي سبب النهي عن الاستغفار لهم، وكان ابنه عبد الله بن عبد الله من خيار المؤمنين وخلص المحسنين و كان لبعض المنافقين أبناء مثله، وكان من طبع البشر أن يذكر في كثير من مقاله غلظاً ما يندم عليه، وكان شديد الوقوف لما حف به من العلائق البدنية وشمله من العوائق بالأوهام النفسانية مع أوهامه وعوائقه قاصراً على قيوده وعلائقه، فكان لإعادة الكلام وتكريره وترديده ومزيد تقريره تأكيد في النفوس وتعزية وتثبيت في القلوب، كرر آية الإعجاب لهذه الأسباب لأن يكون حكمها على بال من المخاطب لا ينسأه لاعتقاد أن العمل به مهم جداً يفتقر إلى فضل عناية، وأن ذلك شبيه بما أهم صاحبه فهو يتكلم فيه ثم ينتقل إلى غيره لغرض صحيح ثم يرجع إليه في أثناء

حديثه لشدة اهتمامه به تنبيهاً على ذلك، ولا يرجع إليه إلا على غاية ما يكون من حسن الربط وبراعة التناسب، وعطفها بالواو دون الفاء لأن ذلك ليس مسبباً عما قبله كما سبق في الآية الأولى، أي لا تستغفر لهم ولا تصل عليهم ولا يعجبك قولهم: مستعطفين لك في طلب محبتك وإن زخرفوه وأكدوه بالأيمان التي اتخذوها جنة ﴿ولا تعجبك أموالهم﴾ وأسند النهي إليها إبلاغاً فيه.

ولما لم يكن هنا ما اقتضى تأكيد النفي مما مضى في الآية الأولى، لم يعد النافي ولا أثبت اللام ولا الحياة فقال: ﴿وأولادهم﴾ أي وإن أظهروا أنهم يجاهدون بها معك ويتقربون بها إلى الله فإن الله لا يريد بهم ذلك فلا ييسره لهم لما علم من مبادعتهم للخير وعدم قابليتهم له فلا يحملك الإعجاب بشيء من ذلك على فعل شيء مما تقدم النهي عنه تأليفاً لمثالهم للمساعدة بأولادهم وأموالهم وتطيبياً لقلوب المؤمنين من أولادهم، فإنهم إن كانوا مؤمنين لم يضرهم ترك ذلك وإلا فبعداً لهم وسحقاً ﴿إنما يريد الله﴾ أي بعزه وعظمته وعلمه وإحاطته ﴿أن يعذبهم﴾ أي تعذيبهم ﴿بها﴾ فالفعل واقع بخلافه في الآية السابقة ﴿في الدنيا﴾ أي بجمعها ومحبة الإخلاق إليها وإلى الأولاد إن كانوا مثلهم في الاعتقاد وإلا كانوا زيادة عذاب لهم في الدارين ﴿وتزهق﴾ أي تخرج بغاية العسر ﴿أنفسهم وهم﴾ لاغترارهم بها ﴿كقرون﴾ ولا شك أن خطاب الرأس بشيء أوقع في قلوب أصحابه فلذلك وقع الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره من أتباعه وجماعته وأشياعه ممن قد يجنح إلى الأسباب ويقف عنده كما هو طبع النفوس في تأمل ما شهد ونسيان ما غاب وعهد تدريباً لهم على الحب في الله والبغض فيه لأنه من أدق أبواب الدين فهماً وأجلها قدراً، وعليه تبتنى غالب أبوابه، ومنه تجتنى أكثر ثمراته وآدابه، وذلك أنه ربما ظن الناظر فيمن بسطت عليه الدنيا أنه من الناجين فيوآده لحسن قوله غافلاً عن سوء فعله، أو يظن أن أهل الدين فقراء إلى مساعدته لهم في جهاد أو غيره بما له وذويه روية فيداريه، فأعلمهم تعالى أن ما هذا سبيله مقطوع البركة نهياً عن النظر إلى الصور وتنبيهاً على قصر الأنظار على المعاني ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ [المائدة: ١٠٠]. الآية ﴿وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ [المنافقون: ٤١].

﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ أَمَّنُوا بِاللهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَائِدِينَ ﴾ (٤٦) ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٤٧) ﴿ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُخَرَّبَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَغْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّافَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ .

ولما افتتحت قصتهم بأن المتقين لا يتوقفون في الانتداب إلى الجهاد على أمر جديد ولا استئذان، بل يكتفون بما سبق من عموم الحث عليه والندب إليه فيبادرون إليه الطرف ولا يحاذرون الحتف، وأن من المنافقين من يستأذن في الجهاد جاعلاً استئذانه فيه باباً للاستئذان في التخلف عنه، ومنهم من يصرح بالاستئذان في القعود ابتداء من غير تستر، وعقب ذلك بالنهي عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم ثم مر في ذكر أقسامهم وما لزمهم من فضائحهم وأثامهم، إلى أن ختم القصة بأن أموالهم إنما هي لفتنتهم لا لرحمتهم، ولمحتتهم لا لمنحتهم، أتبع ذلك بدليله من أنهم لا يتوصلون بها إلى جهاد، ولا يتوصلون إلى دار المعاد، فقال عاطفاً على ما أفهمه السياق من نحو أن يقال لأنهم لا يفعلون بها خيراً ولا يكسبون أجراً، أو بانياً حالاً من الكاف في «تعجبك»: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ أي وقع إنزال قطعة من القرآن.

ولما كان الإنزال يدل على المنزل حتماً، فسر به بقوله: ﴿أن آمنوا بالله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿وجاهدوا﴾ أي أوقعوا الجهاد ﴿مع رسوله استأذنك﴾ أي في التخلف من لا عذر له وهم ﴿أولوا الطول﴾ أي أهل الفضل من الأموال والسعة والثروة في غالب الأحوال ﴿منهم﴾ وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم ولا سيما بعد سماع القرآن، ويجوز أن يكون معطوفاً على خبر ﴿أن﴾ في قوله ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ هذا مع ما تضمن استئذانهم من رذائل الأخلاق ودنايا الهمم المحكي بقوله: ﴿وقالوا ذرنا﴾ أي اتركنا ولو على حالة سيئة ﴿نكن﴾ أي بما يوافق جبلاتنا ﴿مع القلدين﴾ أي بالعذر المتضمن - لا سيما مع التعبير بذرنا الذي مادته تدور على ما يكره دون «دعنا» - لما استأنف به أو بين من قوله: ﴿رضوا بأن يكونوا﴾ أي كوناً كأنه جيلة لهم ﴿مع الخوالف﴾ أي النساء ﴿وطبع﴾ أي وقع الطبع المانع ﴿على قلوبهم﴾ أي حتى رضوا

لأنفسهم بالتخلف عن سبب السعادة مع الكون في عداد المخدرات بما هو عار في الدنيا ونار في العقبى .

ولما أبهم فاعل الطبع، نفى دقيق العلم فقال: ﴿فهم﴾ أي بسبب هذا الطبع ﴿لا يفقهون﴾ أي لا فقه لهم يعرفون به ما في الجهاد من العز والسعادة في الدارين، وما في التخلف من الشقاء والعار فلذلك لا يجاهدون، فلا شيء أضر من هذه الأموال والأولاد التي أبعدت عن الممادح وألزمت المذام والقوادح، فقد اكتنفت آية الأموال في أول القصة وآخرها ما يدل على مضمونها .

ولما افتتح القصة بمدح المتقين لمسابقتهم إلى الجهاد من دون استئذان ختمها بذلك وذكر ما أعد لهم فقال معلماً بالغنى عنهم بمن هو الخير المحض تبكيتاً لهم وتقريباً: ﴿لكن الرسول﴾ أي والذي بعثه لرد العباد عن الفساد إلى السداد ﴿والذين آمنوا﴾ أي إيماناً عظيماً كائناً أو كائنين ﴿معه﴾ أي مصاحبين له ذاتاً وحالاً في جميع ما أرسلناه إليهم به ﴿جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ أي بذلوا كلاً من ذلك في حبه ﷺ فتحققوا بشرط الإيمان و «لكن» واقعة موقعها بين متنافسين لأن ما مضى من حالهم كله ناطق بأنهم لم يجاهدوا .

ولما كان السياق لبخلهم بالنفس والمال، ولسلب النفع من أموالهم وأولادهم، اقتصر في مدح أوليائه على الجهاد بالنفس والمال ولم يذكر السبيل وقال: ﴿أولئك﴾ دالاً على أنه معطوف على ما تقديره: فأولئك الذين نورت قلوبهم فهم يفقهون، وقوله: ﴿لهم﴾ أي لا غيرهم ﴿الخيرت﴾ تعريض بذوي الأموال من المنافقين لأن الخير يطلق على المال وتحليلته ب «ال» تدل على استغراقه لجميع منافع الدارين، والتعبير بأداة البعد إشارة إلى علو مقام أوليائه وبعد مناله إلا بفضل منه تعالى، وكذا التعريض بهم بقوله: ﴿وأولئك هم﴾ أي خاصة ﴿المفلحون﴾ أي الفائزون بجميع مرادهم، لا غيرهم؛ ثم بين الإفلاح الأعظم بقوله: ﴿أعد الله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿لهم﴾ أي الآن لينعمهم بها بعد موتهم وانتقالهم من هذه الدار التي هي معدن الأكدار ﴿جنت تجري﴾ أي دائماً ﴿من تحتها﴾ أي مع قربها ﴿الأنهر﴾ ثم عرض بهذه الدنيا السريعة الزوال فقال: ﴿خللدين فيها﴾ ثم رغب فيها بقوله: ﴿ذلك﴾ أي الأمر العالي الرتبة ﴿الفوز العظيم﴾ أي لا غيره .

ولما ختم قصص أهل المدر بزم أولي الطول منهم بتخلفهم، وكان ذمهم إنما هو لكونهم قادرين على الخروج في ذلك الوجه، وقدمهم لكثرة سماعهم للحكمة، وكان أهل الوبر أقدر الناس على السفر لأن مبنى أمرهم على الحل والارتحال، فهم أجدر

بالذم لأنهم في غاية الاستعداد لذلك، تلاهم بهم فقال: ﴿وجاء المعذرون﴾ أي المبالغون في إثبات الخفايا من الأعذار المانعة لهم من الجهاد - بما أشار إليه الإدغام، وحقيقة المعذر أن يتوهم أن له عذراً ولا عذر له، والعذر: إيساع الحيلة في وجه يدفع ما ظهر من التقصير ﴿من الأعراب﴾ قيل: هم رهط عامر بن الطفيل من بني عامر، وقيل: أسد وغطفان، وقيل: رهط من غفار ﴿ليؤذن﴾ أي ليقع الإذن من أي أذن كان في تخلفهم عن الغزو ﴿لهم﴾ أي فاعتذروا بما كذبوا فيه وقعدوا عن الغزو معك، هكذا كان الأصل فوضع موضعه: ﴿وقعد الذين كذبوا الله﴾ أي وهو المحيط علماً وقدرة ﴿ورسوله﴾ تنبيهاً على وصفهم وليكون أظهر في شمول الأعراب وغيرهم.

ولما كان منهم المحتوم بكفره وغيره قال: ﴿سيصيب﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿الذين كفروا﴾ أي حتم بكفرهم ﴿منهم عذاب اليم﴾ أي في الدارين.

ولما كان من القاعدين من أهل المدر والوير من له عذر، استثناهم سبحانه وساق ذلك مساق النتيجة من المقدمات الظاهرة فقال: ﴿ليس على الضعفاء﴾ أي بنحو الهرم ﴿ولا على المرضى﴾ أي بنحو الحمى والرمد ﴿ولا على الذين لا يجدون﴾ ولو بدين يؤدونه في المستقبل ﴿ما ينفقون﴾ أي لحاجتهم وفقدهم ﴿حرج﴾ أي إثم يميل بهم عن الصراط المستقيم ويخرج دينهم.

ولما كان ربما كان أحد من المنافقين بهذه الصفة احترز عنه بقوله: ﴿إذا نصحو﴾ أي في تخلفهم وجميع أحوالهم ﴿الله﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿ورسوله﴾ أي سراً وعلانية، فإنهم حينئذ محسنون في نصحتهم الذي منه تحسرهم على القعود على هذا الوجه وعزمهم على الخروج متى قدروا، وقوله: ﴿ما على المحسنين﴾ في موضع «ما عليهم» لبيان إحسانهم بنصحتهم مع عذرهم ﴿من سبيل﴾ أي طريق إلى ذمهم أو لومهم، والجملة كلها بيان لنصحو الله ورسوله ﴿وقوله﴾: ﴿والله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿غفور﴾ أي محاء للذنوب ﴿رحيم﴾ أي محسن مجمل إشارة إلى أن الإنسان محل التقصير والعجز وإن اجتهد، فلا يسعه إلا العفو؛ ثم عطف على ذلك قوله: ﴿ولا على الذين إذا﴾ وأكد المعنى بقوله: ﴿ما أتوك﴾ أي ولم يأتوا بغير قصدك راغبين في الجهاد معك ﴿لتحملهم﴾ وهم لا يجدون محملاً ﴿قلت﴾ أي أتوك قائلاً أو حال قولك، «وقد مضمرة كما قالوا في ﴿حصرت صدورهم﴾ [النساء: ٩٠] ﴿لا أجد ما﴾ أي شيئاً ﴿أحملكم عليه﴾ وأجاب ﴿إذا﴾ بقوله ويجوز أن يكون استثناءً و «قلت» هو الجواب ﴿تولوا﴾ أي عن سماع هذا القول منك ﴿وأعينهم تفيض﴾ أي تمتلئ فتسيل، وإسناد الفيض إليها أبلغ من حيث أنها جعلت كلها دمعاً: ثم بين الفاض بقوله: ﴿من الدمع﴾

أي دمعاً، والأصل: يفيض دمعها، ثم علل فيضها بقوله؛ ﴿حزناً﴾ ثم علل حزنهم بقوله: ﴿ألا يجدوا﴾ أي لعدم وجدانهم ﴿ما ينفقون﴾ فحزنهم في الحقيقة على فوات مرافقتك والكون في حزنك، وهذه قصة البكائين صرح بها وإن كانوا داخلين في ﴿الذين لا يجدون﴾ إظهاراً لشرفهم وتقريباً لأن الناصح - وإن اجتهد - لا غنى له عن العفو حيث بين أنهم - مع اجتهادهم في تحصيل الأسباب وتحسّرهم عند فواتها بما أفاض أعينهم - ممن لا سبيل عليه أو ممن لا حرج عليه المغفور له .

ولما نفى السبيل عمن وصفه كر على ذم من انتفى عنه هذا الوصف فقال تعالى: ﴿إنما السبيل﴾ أي باللوم وغيره ﴿على الذين يستأذنونك﴾ أي يطلبون إذنك في التخلف عنك راغبين فيه ﴿وهم أغنياء﴾ أي فلا عذر لهم في التخلف عنك وعدم مواساتك، وتضمن قوله تعالى مستأنفاً: ﴿رضوا بأن يكونوا﴾ أي كوناً كأنه جبلة لهم ﴿مع الخوالف﴾ انتفاء الضعف والمرض عنهم من حيث إنه علل فعلهم برضاهم بالتخلف فأفهم ذلك أنه لا علة لهم سواه، وأفهم أيضاً أن كل من كان كذلك كان مثلهم ولو أنه ضعيف أو مريض، وكرر ذكر الخوالف تكريراً ليعيهم برضاهم بالكون في عداد النساء إذ كان ذلك من أعظم المعاييب عند العرب، وسمى الفاعل للطبع حيث حذفه من الأولى: ولما ذكره، عظم الأمر فاقضى ذلك عظم الطبع فنفى مطلق العلم فقال عاطفاً على «رضوا»: ﴿وطبع الله﴾ أي الذي له القدرة الكاملة والعلم المحيط ﴿على قلوبهم﴾ ثم سبب عن ذلك الرضى والطبع قوله: ﴿فهم لا يعلمون﴾ أي لا علم له فلذلك جهلوا ما في الجهاد من منافع الدارين لهم فلذلك رضوا بما لا يرضى به عاقل، وهو أبلغ من نفي الفقه في الأولى، وزاد المناسبة حسناً ضم الأعراب في هذه الآيات إلى أهل الحاضرة وهم بعيدون من الفقه جديرون بعدم العلم .

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا
اللَّهُ مِنْ آجَابِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيِّ
وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتَقَمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
لِتُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ
عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ .

ثم شرع يخبر عن أشياء تقع منهم عند الرجوع دلالة على أن هذا كلامه وأنه عالم بالمغيبات كليها وجزئها، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فقال مبيناً لعدم علمهم: ﴿يعتذرون﴾ أي يثبتون الأعدار لأنفسهم: وأشار إلى بعدهم بالقلوب بقوله: ﴿إليكم﴾ أي عن التخلف ﴿إذا رجعت إليهم﴾ أي من هذه الغزوة، كأنه قيل: فماذا يقال في جوابهم؟ فقال للرأس الذي لا تأخذه في الله لومة لائم: ﴿قل لا تعتذروا﴾ أي فإن أعداركم كاذبة، ولذلك علل النهي بقوله: ﴿لن نؤمن لكم﴾ أي نصدقكم في شيء منها، ثم علل عدم تصديقهم بما أوجب لهم القطع بذلك فقال: ﴿قد نبأنا الله﴾ أي أعلمنا الملك الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء إعلاماً جليلاً ﴿من أخباركم﴾ أي التي ظننتم جهلاً بالله أنها تخفى فقد علمناها؛ ثم هددهم بقوله: ﴿وسيرى الله﴾ أي لأنه عالم بكل شيء وإن دق قادر على كل شيء ﴿عملكم﴾ أي بعد ذلك أتبينون أم تثبتون على حالكم هذا الخبيث كما رأى الذي قبل ﴿ورسوله﴾ أي بما يعلمه به سبحانه وحيماً أو تفرساً، ولما كان الكلام في المنافقين، فكانت الرؤية لنفاقهم الذي يجتهدون في إخفائه، وكان المؤمنون لا اطلاع لجميعهم عليه، لم يذكرهم بخلاف من يأتي بعد فإنهم مؤمنون.

ولما كان هذا ربما أوهمهم أنه لا يعلم إلا ما أوقعوه بالفعل، نفى ذلك بإظهار وصفه في موضع الإضمار مهدداً بقوله مشيراً بأداة التراخي إلى استبعادهم لقيامهم إلى معادهم: ﴿ثم تردون﴾ أي يراد قاهر لا تقدرين على دفاعه بعد استيفاء آجالكم بالموت وإن طالت ثم البعث ﴿إلى علم الغيب﴾ وهو ما غاب عن الخلق ﴿والشهادة﴾ وهو ما اطلع عليه أحد منهم. فصار بحيث يطلعون عليه وهذا ترجمة عن الذي يعلم الشيء قبل كونه كما يعلم بعد كونه ﴿فينبئكم﴾ أي يخبركم إخباراً عظيماً جليلاً مستوعباً ﴿بما كنتم﴾ أي بجبلاتكم^(١) ﴿تعملون﴾ أي مما أبرزتموه إلى الخارج ومما كان في جبلاتكم، ولو تأخرتم لبرز، وهو تهديد عظيم، ووقع ترتيبهم للاعتذار على الأسهل فالأسهل على ثلاث مراتب: الأولى مطلق الاعتذار وقد مضى ما فيها؛ الثانية تأكيد ذلك بالحلف للإعراض عنهم فقال سبحانه: ﴿سيحلفون بالله﴾ أي الذي لا أعظم منه ﴿لكم﴾ إذا انقلبتم إليهم ﴿أي جهد أيمانهم أنهم كانوا معذورين في التخلف كذباً منهم إرادة أن يقلبوا قلوبكم عما اعتقدتم فيهم ﴿لتعرضوا عنهم﴾ أي إعراض الصفا عن معاتبتهم

(١) الجبل: أصل الخلقة أو الخلقة.

﴿فأعرضوا عنهم﴾ إعراض المقت؛ روي أن النبي ﷺ قال «لا تجالسوهم ولا تكلموهم»^(١) ثم علل وجوب الإعراض بقوله ﴿إنهم رجس﴾ أي لا يظهرهم العتاب فهو عبث .

ولما كان من المقرر أنه لا بد لهم من جزاء، وأن النفس تشوف إلى معرفته، قال: ﴿وماؤهم﴾ أي في الآخرة ﴿جهنم جزاء﴾ أي لأجل جزائهم ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي فلا تتكلفوا لهم جزاء غير ذلك بتويخ ولا غيره؛ المرتبة؛ الثالثة الحلف للرضى عنهم فقال: ﴿يحلفون لكم﴾ أي مجتهدين في الحلف بمن تقدم أنهم يحلفون به وهو الله ﴿لترضوا عنهم﴾ خوفاً من غائلة غضبكم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ أي لمجرد إيمانهم المبني على عدم إيمانهم ﴿فإن الله﴾ أي الذي له الغنى المطلق ﴿لا يرضى﴾ عنهم، هكذا كان الأصل ولكنه قال: ﴿عن القوم الفلستين﴾* إشارة إلى تعليق الحكم بالوصف وتعميماً لكل من اتصف بذلك، والمعنى أنه لا ينفعهم رضاكم وتكونون به مخالفين الله، فهو في الحقيقة نهى للمؤمنين عن الرضى عنهم، أبرز في هذا الأسلوب العجيب المرقص، وفي ذلك رد على من يتوهم أن رضى المؤمنين لو رضوا عنهم يقتضي رضى الله، فإن ذلك نزغة مما يفعل الأخبار والرهبان في رضاهم وغضبهم وتحليلهم وتحريمهم الذي يعتقد أتباعهم أنه عن الله تعالى .

ولما رتب سبحانه الاستئذان في العقود والرضى بما فيه من الدناءة على عدم الفقه تارة والعلم أخرى وختم بصنف الأعراب، بين أن الأعراب أولى بذلك لكونهم أعرق في هذا الوصف وأجراً على الفسق لبعدهم عن معدن العلم وصرفهم أفكارهم في غير ذلك من أنواع المخازي لتحصيل المال الذي كلما داروا عليه طار عنهم فأبعد. فهم لا يزالون في همه قد شغلهم ذلك عن كل هم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فقال تعالى: ﴿الأعراب﴾ أي أهل البدو ﴿أشد﴾ أي من أهل المدر ﴿كفراً ونفاقاً﴾ لبعدهم عن دار الهجرة ومعدن العلم وجفائهم بأن مرآتي قلوبهم لم تصقل بأنوار الكتاب والسنة ﴿وأجدر أن﴾ أي وأحق بأن ﴿لا يعلموا﴾ ولما كان الإحجام أصعب من الإقدام، وأطراف الأشياء المختلطة في غاية الإلباس، قال: ﴿حدود ما أنزل الله﴾ أي المحيط علماً وحكمة بكل شيء ﴿على رسوله﴾ أي الذي أعلم الخلق من القرآن والشرائع والأحكام لعدم إقبالهم عليه شغلاً بغيره فإن الله يعلم ذلك منهم ﴿والله﴾ أي الذي له

(١) قال السيوطي في الدر المنثور ٣/٤٨١ (التوبة: ٩٤): أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿فأعرضوا عنهم إنهم رجس﴾ قال: لما رجع النبي ﷺ قال: «لا تكلموهم ولا تجالسوهم، فأعرضوا عنهم كما أمر الله» .

جميع صفات الكمال ﴿عليم﴾ أي بالغ العلم بكل شيء ﴿حكيم﴾ أي بالغ الحكمة فهو يضع الأشياء في أتم محالها.

ولما أثبت هذا الوصف لهذا الصنف بين أن أفراده انقسموا إلى من ثبت على ما هو الأليق بحالهم، وقسم نزع إلى ما هو الأليق بأهل المدر، كما انقسم أهل المدر إلى مثل ذلك، وبدأ بالخبيث لأنه الأصل فيهم فقال: ﴿ومن الأعراب﴾ أي المذكورين ﴿من يتخذ﴾ أي يتكلف غير ما تدعو إليه الفطرة الأولى من الأريحية والهمم العلية بأن يعد ﴿ما ينفق مغمراً﴾ أي فلا يبذله إلا كرهاً ولا يرى له فائدة أخروية بل يراه مثل الصنائع بالنهب ونحوه ﴿ويتربص﴾ أي يكلف نفسه الربص، وهو أن يسكن ويصبر ويتنظر ﴿بكم الدوائر﴾ أي الدواهي التي تدور بصاحبها فلا يتخلص منها، وذلك ليستريح من الإنفاق وغيره مما ألزمه به الدين.

ولما تربصوا هذا التربص، دعا عليهم بمثل ما تربصوه فقال: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي دائماً لا تنفك إما بإذلال الإسلام وإما بعذاب الاصطلام، فهم فيما أرادوه بكم على الدوام، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو بضم السين على أن معناه الشر والضر، وقراءة الباقيين بالفتح على أنه مصدر، فهو ذم للدائرة.

ولما كان الانتقام من الأعداء وإيقاع البأس بهم لا يتوقف من القادر غالباً إلا على سماع أخبارهم والعلم بها، جرت سنته تعالى في ختم مثل ذلك بقوله: ﴿والله﴾ أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة الكاملة ﴿سميع﴾ يسمع ما يقولون ﴿عليم﴾ أي فهو يعلم ما يضمرون عطفاً على نحو أن يقال: فالله على كل شيء قدير، ونحوه قوله ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾.

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَدْخُلُوهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩﴾ وَالسَّيْفُوتِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

ولما افتتح الآية الثانية بقوله: ﴿ومن الأعراب من يؤمن﴾ أي لا يزال يجدد إيمانه آثار الدين ﴿بالله واليوم الآخر﴾ علم أن القسم الأول غير مؤمن بذلك، وإنما وقع منهم الإقرار باللسان من غير إذعان، والإيمان هو الأصل الذي يترتب عليه الإنفاق عن طيب نفس لما يرجى من ثوابه في اليوم الآخر الذي لولا هو انتفتت الحكمة من هذا الخلق

على هذا الترتيب: ثم عطف عليه ما يثمره الإيمان فقال: ﴿ويتخذ﴾ أي يحث نفسه ويجاهدها إن عرضت له الوسوس الشيطانية على أن يعد ﴿ما ينفق﴾ أي فيما أمر الله به ﴿قربت﴾ جمع قربة لما تقرب إليه سبحانه ﴿عند الله﴾ أي الذي لا أشرف من القرب منه لأنه الملك الأعظم ﴿وصلوات﴾ أي دعوات ﴿الرسول﴾ أي الذي وظيفته التبليغ فهو لا يقول لهم شيئاً إلا عن الله، وأطلق القربة والصلاة على سبيلهما.

ولما أخبر عن أفعالهم، أخبر عن عاقبتهم ومآلهم؛ فقال مستأنفاً محققاً لرجائهم ترغيباً في الصدقة بأبلغ تأكيد لما لأعدائهم من التكذيب: ﴿ألا إنها﴾ أي نفقاتهم ﴿قربة لهم﴾ أي كما أرادوا؛ ثم بين ثمرة كونها قربة بقوله: ﴿سيدخلهم الله﴾ أي الذي له صفات الكمال بوعد لا خلف فيه ﴿في رحمته﴾ أي إكرامه فتكون محيطة بهم ثم علل ذلك بقوله معبراً بالاسم الأعظم تنبيهاً على أنه لا يسع الإنسان إلا العفو وإن أعظم الاجتهاد: ﴿إن الله﴾ أي الذي لا يقدر أحد على أن يقدره حق قدره ﴿غفور﴾ أي بليغ الستر لقبائح من تاب ﴿رحيم﴾ أي بليغ الإكرام، ذلك وصف له ثابت، يجلله كل من يستأله.

ولما ذكر القسم الصالح منهم وكانوا متفاوتين فمنهم السابق وأكثرهم التابع اللاحق، أتبعه ذكر السابقين على وجه شامل حاصر لصنفي البادي والحاضر إشارة إلى أنه - وإن أجره - أصله فقد قدمه وصفه بحيث ساوى أهل الكمال في مطلق الانخراط في ملكهم والفوز بدرجتهم لإحسانه في اتباعهم ترغيباً لأهل القدرة والرحمة في اتباع أهل الرضوان والنعمة فقال: ﴿والسبقون﴾ ولما دل على سبقهم بالعلو في مراتبه دل على قديم دخولهم فيه فقال: ﴿الأولون﴾ أي إلى هذا الدين القيم ﴿من المهلجرين﴾ أي لدار الكفر فضلاً عن أهلها ﴿والأنصار﴾ أي الذين آووا ونصروا ﴿والذين اتبعوهم﴾ أي الفريقين ﴿بإحسان﴾ أي في اتباعهم فلم يحولوا عن شيء من طريقهم ﴿رضي الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿عنهم﴾ أي بأفعالهم هذه التي هي وفق ما أمر به ﴿ورضوا عنه﴾ أي بما أتاهم عنه من البشرى وقذف في قلوبهم من النور بلطف الوعظ والذكرى ﴿وأعد لهم﴾ أي جزاء على فعلهم ﴿جنت تجري﴾ ونبه على عموم ربها وكثرة ماؤها بنزع الجار على قراءة الجماعة فقال: ﴿تحتها الأنهر﴾ أي هي كثيرة المياه. فكل موضع أردته نبع منه ماء فجرى منه نهر؛ ولما كان المقصود من الماء إنما هو السهولة في إنباطه^(١) بقربه ويسر جريه وانبساطه أثبتته ابن كثير دلالة على ذلك كسائر المواضع، ولعل تخصيص هذا

(١) نبط الماء: نبع والاستنباط: الاستخراج.

الموضع بالخلاف لأنه يخص هذه الأمة، فلعلها تخص بجنة هي أعظم الجنان رياً وحسناً وزياً.

ولما كان أعظم العيوب الانقطاع، نفاه بقوله: ﴿خللدين فيها﴾ وأكد المراد من الخلود بقوله: ﴿أبداً﴾ ثم استأنف مدح هذا الذي أعده لهم بقوله: ﴿ذلك﴾ أي الأمر العالي المكانة خاصة ﴿الفوز العظيم﴾.

﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعِدُّهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

ولما استوفى الأقسام الأربعة: قسми الحضر وقسامي البدو ثم خلط بين قسامين منهم تشريفاً للسابق وترغيباً لللاحق، خلط بين الجميع على وجه آخر ثم ذكر منهم فرقاً منهم من نجز الحكم بجزائه بإصرار أو متاب. ومنهم من أخر أمره إلى يوم الحساب، وابتدأ الأقسام بالمستور عن غير علمه ليعلم أهل ذلك القسم أنه سبحانه عالم بالخفايا فلا يزالوا أذلاء خوفاً مما هددهم به فقال مصرحاً بما لم يتقدم التصريح به من نفاقهم: ﴿وممن حولكم﴾ أي حول بلدكم المدينة ﴿من الأعراب﴾ أي الذين قدمنا أنهم أشد كفراً لما لهم من الجفاء ﴿منفقون﴾ أي راسخون في النفاق، وكأنه قدمهم لجلافتهم (١) وعتوهم (٢)، وأتبعهم من هو أصنع منهم في النفاق فقال: ﴿ومن أهل المدينة﴾ أي منافقون أيضاً؛ ثم بين أنهم لا يتوبون بوصفهم بقوله: ﴿مردوا﴾ أي ضلوا وداموا وعتوا وعسوا (٣) وعصوا وصار لهم به دربة عظيمة وضراوة حتى ذلت لهم فيه جميع أعضائهم الظاهرة والباطنة وصار لهم خلقاً ﴿على النفاق﴾ أي استعلوا على هذا الوصف بحيث صاروا في غاية المكنة منه؛ ثم بين مهارتهم فيه بقوله: ﴿لا تعلمهم﴾ أي بأعيانهم مع ما لك من عظيم الفطنة وصدق الفراسة لفرط توقيهم وتحامي ما يشكل من أمرهم؛ ثم

(١) قولهم أعرابي جلف أي: جاف.

(٢) العاتي: المجاوز للحد في الاستكبار والعاتي: الجبار أيضاً.

(٣) عسا الشيء: من باب سما وعساء بالمد: أي يبس وصلب وعسا الشيخ يعسو عسياً: وتلى وكبر مثل عتا.

هددهم وبين خسارتهم بقوله: ﴿نحن﴾ أي خاصة ﴿نعلمهم﴾ ثم استأنف جزاءهم بقوله: ﴿سنعذبهم﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿مرتين﴾ أي إحداهما برجعك سالماً وشفوف أمرك وعلو شأنه وضخامة أركانه وعز سلطانه وظهور برهانه، فإنهم قطعوا لغباوتهم وجلافتهم وقساوتهم كما أشرت إليه بقولي ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ - أنك لا ترجع هذه المرة من هذه السفرة لما يعرفون من ثباتك للأقران، وإقدامك على الليوث الشجعان، واقتحامك للأهوال، إذا ضاق المجال، ونكص الضراغمة الأبطال، ومن عظمة الروم وقوتهم وتمكنهم وكثرتهم، وغاب عن الأغبياء وخفي عن الأشقياء الأغنياء أن الله الذي خلقهم أعظم منهم وأكبر، وجنوده أقوى من جنودهم وأكثر؛ والثانية بعد وفاتك بقهر أهل الردة ومحققهم ورجوع ما أصلته بخليفتك الصديق رضي الله عنه إلى ما كان عليه في أيامك من الظهور وانتشار الضياء والنور والحكم على من خالفه بالويل والثبور، وسيأتي أنه يمكن أن تكون المرة الثانية إخراب مسجد الضرار والإخبار بما أضمرؤا في شأنه من خفي الأسرار ﴿ثم يردون﴾ أي بعد الموت ﴿إلى عذاب عظيم﴾* أي لا يعلم عظمه حق علمه إلا الله تعالى، وهو العذاب الأكبر الدائم الذي لا ينفك أصلاً.

ولما ذكر هذا القسم المارد الجافي، ثنى بمقابلة اللين الصافي، وهي الفرقة التي نجز المتاب عليها والنظر بعين الرحمة إليها فقال: ﴿وآخرون﴾ أي وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة آخرون ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ أي كلفوا أنفسهم ذكرها توبة منهم ندماً وإقلاعاً وعزماً ولم يفرغوا إلى المعاذير الكاذبة وهم المقتصدون.

ولما كان الخلط جمعاً في امتزاج، كان بمجرد ذكره يفهم أن المخلوط امتزج بغيره، فالإتيان بالواو في ﴿آخر﴾ يفهم أن المعنى: ﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ بسبب إشارة إلى تساوي العمليين وأنه ليس أحدهما بأولى من الآخر أن يكون أصلاً، وقد فسرها النبي ﷺ بذلك في أناس رآهم في المنام شطر منهم حسن وشرط منهم قبيح^(١)

(١) صحيح البخاري ١٣٨٦ و ٤٦٧٤ و ٧٠٤٧ وابن حبان ٦٥٥ والطبراني ٦٩٨٤ و ٦٩٨٦ و ٦٩٩٠ وأحمد ٩٠٨/٥ من حديث سمرة بن جندب مطوّلاً.

قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان، فابتعثاني، فانتها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشرط كأقبح ما أنت راء. قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة. قالا لي: هذه جنة عدن، وهاذا منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا شطر منه حسن وشرط منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً، وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم».

كما رواه البخاري في التفسير عن سمرة رضي الله عنه ثم أوجب تحقيق توبتهم الملزومة للاعتراف بقبولها بقوله: ﴿عسى الله﴾ أي بما له من الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿إن يتوب عليهم﴾ فإن ﴿عسى﴾ منه سبحانه وتعالى واجبة لأن هذا دأب الملوك ولعل التعبير بها يفيد - مع الإيذان بأنه لا يجب عليه لأحد شيء وأن كل إحسان يفعله فإنما هو على سبيل الفضل إشارة إلى أنهم صاروا كغيرهم من خلص المؤمنين غير المعصومين في مواجهة التقصير وتوقع الرحمة من الله بالرجوع بهم إلى المراقبة، فكما أن أولئك معدودون في حزب الله مع هذا التقصير المرجو له العفو فكذلك هؤلاء؛ ثم علل فعله بهم مرجحاً للمزيد بقوله: ﴿إن الله﴾ أي ذا الجلال والإكرام ﴿غفور رحيم﴾* أي لم يزل موصوفاً بقبول المعروض إذا أقبل وإبدال سيئه بحسن فضلاً منه وإكراماً؛ روى البخاري في صحيحه في التفسير عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهاها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشرط كأقبح ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي: هذه جنة عدن، وهاذا منزلك، قالوا: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشرط منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عفا الله عنهم»^(١).

ولما كان من شأن الرضوان قبول القربان، أمره ﷺ تطهيراً لهم وتطيباً لقلوبهم بقوله: ﴿خذ﴾ ورحمهم بالتبعض فقال: ﴿من أموالهم صدقة﴾ أي تطيب أنفسهم بإخراجها ﴿تطهرهم﴾ أي هي من ذنوبهم وتجري بهم مجرى الكفارة ﴿وتزكيتهم﴾ أي أنت تزيدهم وتنميتهم ﴿بها﴾ بتكثير حسناتهم ﴿وصل﴾ أي اعطف ﴿عليهم﴾ وأظهر شرفهم بدعائك لهم؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إن صلواتك﴾ أي دعواتك التي تصلهم بها فتكون موصلة لهم إلى الله ﴿سكن لهم﴾ أي تطمئن بها قلوبهم بعد قلق الخوف من عاقبة الذنب لما يعلمون من أن القبول لا يكون إلا ممن حصل له الرضى عنهم ومن أن الله يسمع قولك إجابة لك ويعلم صدقك في صلاحهم ﴿والله﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿سميع عليم﴾* أي لكل ما يمكن أن يسمع وما يمكن أن يعلم منك ومنهم ومن غيركم، فهو جدير بالإجابة والإثابة، وذلك أن هذا الصنف لما اشتد ندمهم على التخلف أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فسأل عنهم رسول الله ﷺ حين قدم فقيل:

(١) هو الحديث المتقدم.

ندموا على التخلف عنك فحلفوا: لا يطلقهم إلا أنت، فقال: وأنا لا أطلقهم حتى أومر بذلك، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآيات فقالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها! فقال: ما أمرت بذلك، فلما أنزل الله هذه الآية أخذ الثلث فتصدق به^(١).

ولما ساق توبتهم سبحانه في حيز ﴿عسى﴾، وكان الأصل فيها الترجية في المحبوب والإشفاق في المكروه، و أمر سبحانه بالأخذ من أموالهم لذلك، وكان إخراج المال شديداً على النفوس لا سيما في ذلك الزمان، كان ربما استوقف الشيطان من لم يرسخ قدمه في الإيمان عن التوبة وما يترتب عليها من الصدقة لعدم الجزم بأنها تقبل، فأتبع ذلك سبحانه بقوله: ﴿الم يعلموا﴾ أي المعترفون بالذنوب حتى تسمح أنفسهم بالصدقة أو غيرهم حتى يرغبوا في التوبة والصدقة ﴿أن الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿هو﴾ أي وحده ﴿يقبل﴾ أي من شأنه أن يقبل ﴿التوبة﴾ تجاوزاً ﴿عن عباده﴾ أي التائبين المخلصين ﴿ويأخذ﴾ أي يقبل قبول الآخذ لنفسه ﴿الصدقت﴾ أي ممن يتقرب بها إليه بنية خالصة ﴿وأن الله﴾ أي المحيط بصفتي الجلال والإكرام ﴿هو﴾ أي وحده ﴿التواب الرحيم﴾ أي لم يزل التجاوز والإكرام من شأنه وصفته، وفي ذلك إنكار على غيرهم من المتخلفين في كونهم لم يفعلوا مثل فعلهم من الندم الحامل على أن يعذبوا أنفسهم بالإيثاق في السواري ويقربوا بعض أموالهم كما فعل هؤلاء أو نحو ذلك مما يدل على الاعتراف والندم.

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْتَقَرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٥﴾ وَآخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يَعِدُّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْشَرُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ يُحِبُّ الْمُنْظَرِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

ولما أمره من تطهيرهم بما يعيدهم إلى ما كانوا عليه قبل الذنب، عطف على قوله ﴿خذ﴾ قوله تحذيراً لهم من مثل ما وقعوا فيه: ﴿وقل اعملوا﴾ أي بعد طهارتكم ﴿فسيرى الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿عملكم﴾ أي بما له من إحاطة العلم

(١) قلت: أخرجه البيهقي في الدلائل ٥/ ٢٧٢ والطبري في تفسيره ١٧١٥٢ من حديث ابن عباس بأتم منه. رواه من طريقين. أي البيهقي. وذكره الواحدي في أسبابه ٥٢٥ من حديث ابن عباس بلا سند.

والقدرة فاعملوا عمل من يعلم أنه بعين الله ﴿ورسوله﴾ أي بإعلام الله له . ولما كان هذا القسم من المؤمنين فكانت أعمالهم لاخفاء فيها، قال ﴿والمؤمنون﴾ فزينوا أعمالكم جهدكم وأخلصوا، وفي بعض الأحاديث «لو أن رجلاً عمل في صخرة لا باب لها لأظهر الله عمله للناس كائناً ما كان»^(١).

ولما كان هذا السياق للمؤمنين حذف منه «ثم» لكنه لما كان للمذنبين، أكد بالسبب فقال: ﴿وستردون﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿إلى علم الغيب والشهادة﴾ أي بعد الموت والبعث ﴿فينبثكم﴾ أي بعلمه بكل شيء ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي ما أظهرتم عمله وما كان في غرائزكم، فلو تأخرتم تظهرتم، يجازيكم على حسنة ويزيد من فضله، وعلى سيئة عدلاً إن شاء ولا يظلم مثقال ذرة.

ولما ذكر القسامين المنجز عذابهم ومثابهم، ذكر المؤخر أمرهم وهو القسم الظالم لنفسه في الذي بدأ به في سورة فاطر سورة الحشر الآخر، ولا يبعد أن تكون هذه سورة الحشر الأول لأنه ﷺ ساق الناس إلى أرض المحشر فقال: ﴿وآخرون﴾ أي ومنهم آخرون ﴿مرجون﴾ أي مؤخرون بين الرجاء والخوف ﴿لأمر الله﴾ أي لما يأمر به فيهم الملك الأعظم الذي له الأمر كله لا يدرون أيعدبون أم يرحمون؛ وقدم قوله -: ﴿إما يعذبهم﴾ إن أصروا - تخويفاً لهم حملاً على المبادرة إلى التوبة وتصفيتها والإخلاص فيها وحثاً على أن يكون الخوف ما دام الإنسان صحيحاً أغلب وثنى بقوله: ﴿وإما يتوب عليهم﴾ أي إن تابوا ترجية لهم وترقيقاً لقلوبهم بالتذكير بمنزل الأنس الذي أخرجوا أنفسهم منه ومنعوا من حلوله وطيب مستقره ومقبله وحلي أوقاته وعلني مقاماته وشهتي أقاته .

ولما كان ربما قال قائل: ما فائدة التأخير وما المانع من التنجيز؟ قال: ﴿والله﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿عليم حكيم﴾ ترهيباً وترغيباً وتبعيداً وتقريباً واحتراساً مما قد يوهمه التردد من الشك وتدريباً، وقراءة غفور رحيم للزيادة في الترجية .

ولما ذكر الذين أقامهم في مقام الخطر أتبعه تعيين طائفة من القسم الأول المستور

(١) غير قوي، أخرجه ابن حبان ٥٦٧٨ وأبو يعلى ١٣٧٨ والديلمي في الفردوس ٥٠٩٣ والحاكم ٣١٤/٤ وأحمد ٢٨/٣ من حديث أبي سعيد الخدري وفي إسناده دراج وهو ضعيف في حديثه عن أبي الهيثم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي! . وذكره الهيثمي في المجمع ٢٢٥/١٠ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن اه قلت: مداره على دراج عن أبي السمع . قال عنه أحمد: أحاديثه مناكير . وكذا قال النسائي وغيرهما .

الموصوف بالمرود، فألحق بهم الضرر فقال: ﴿والذين﴾ وهو معطوف في قراءة من أثبت الواو على قوله ﴿وآخرون﴾ وخبره على ما يليق بالقصة: منافقون مردون، وأما على قراءة المدنيين وابن عامر بحذفها فيكون على تقدير سؤال سائل، وذلك أنه لما قال تعالى ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ تشوفت النفس إلى الإعلام بهم، فلما قال ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ اشتغل السامع بفهمه، وربما ظن أنه يأتي في آخر الكلام من تسميتهم ما يغنيه عن السؤال، فلما إنتقل بقوله ﴿وآخرون مرجون﴾ إلى قسم آخر، وختم الآية بصفتي العلم والحكمة ليعلم أن التردد للتقسيم وأنه إن كان شك فهو بالنسبة إلى العباد وأما الله تعالى فمنزه عنه فذكر السامع بالصفيتين ما كان دار في خلدته ومال إليه قلبه من الإعلام بالمرادين على النفاق، فاشتد تشوفه إليه فكان كأنه قال: من من المرادين منهم؟ فقال تعالى الذين ﴿اتخذوا مسجداً﴾ أي من المرادين وهم من أعظمهم مهارة في النفاق وإخفاء الكيد والشقاق لأنهم توصلوا إلى ذلك بأن كلفوا أنفسهم الأخذ لأعظم عرى الدين مع المنازعة للفترة الأولى والحذر من أن يفضحوا، فكان ختام هذه الآية من بديع الختام فإنه احتراس عما يتوهم فيما قبله ودليل على ما بعده، ولذلك ختم قصتهم أيضاً بصفتي العلم والحكمة، ولاح من هذا أن قوله ﴿سنعذبهم مرتين﴾ يمكن أن يراد به: مرة برجوعك، ومرة بإخرايك مسجدهم وتفريقك لشملهم بعد هتك سرائرهم بكشف ضمائرهم، ويَبِّن سبحانه علة اتخاذهم بقوله: ﴿ضراءاً﴾ أي لأهل مسجد قباء أو لحزب الله عامة ﴿وكفراً﴾ أي بالله لاتخاذ دينه هزواً ﴿وتفريقاً﴾ أي مما يبيتونه من المكاييد باستجلابهم لبعض من يخدعونه من المؤمنين ويطمعون فيه ليأتي مسجدهم ويترك المسجد المؤسس على التقوى ﴿بين المؤمنين﴾ أي الراسخين في الإيمان بما جاء من عند الله، لأنهم كانوا يجتمعون في مسجد قباء فيغتص بهم ﴿وارصاداً﴾ أي إعداداً وانتظاراً ﴿لمن حارب الله﴾ أي الملك الأعظم ﴿ورسوله﴾ ولما لم تكن محاربتهم مستغرقة للزمن الماضي، أدخل الجار فقال: ﴿من قبل﴾ أي قبل اتخاذهم لهذا المسجد بزمن قريب وهو أبو عامر الفاسق ليأتي إليهم فيزيدهم قوة على نفاقهم بأن يصير كهفياً يأوون إليه ورأساً لهم يتجمعون عليه «وذلك أنه كان من بني غنم بن عوف، وهو والد حنظلة الغسيل الذي كان من خيار الصحابة، وكان أبو عامر قد تهرب في الجاهلية ولبس المسوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له: ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال: الحنيفية دين إبراهيم، قال أبو عامر: أنا عليها، قال ﷺ: لست عليها، قال: بلى ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها، قال: ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية، قال أبو عامر: أمت الله الكاذب منا طريداً شريداً وحيداً غريباً! فقال ﷺ: آمين! وسماه

الفاسق، ثم تحيز إلى قريش وقاتل النبي ﷺ معهم يوم أحد وقال: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلما قاتل يوم حنين مع هوازن وانهزموا أيس وهرب إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا فإني ذاهب إلى قيصر فأت بجنود ومخرج محمداً! وكانوا قد حسدوا إخوانهم بني عمرو بن عوف على مسجد قباء لما بنوه، وكان النبي ﷺ يأتيه ويصلي فيه، فبنوا مسجد الضرار وأرسلوا إليه ﷺ ليأتيهم فيصلي فيه، وكان يتجهز لتبوك فقال: أنا على جناح سفر وحال شغل، وإذا قدمنا صلينا فيه إن شاء الله! فلما قدم فكان قريباً من المدينة نزلت الآية، فدعا مالك بن الدخشم وجماعة وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، ففعلوا، وأمر ﷺ أن يتخذ مكانه كناسه يلقي فيها الجيف والقمامة؛ ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً طريداً^(١) وقيل: كل مسجد بني مباحة أو لغرض ليس به إخلاص أو بمال مشتبه فهو لاحق بمسجد الضرار.

ولما أخبر عن سرائرهم، أخبر عن نفاقهم في ظواهرهم بقوله: ﴿وليحلفن﴾ أي جهد أيمانهم ﴿إن﴾ أي ما ﴿أردنا﴾ أي باتخاذ له ﴿إلا الحسنى﴾ أي من الخصال؛ ثم كذبهم بقوله: ﴿والله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿يشهد﴾ أي يخبر إخبار الشاهد ﴿إنهم لكذوبون﴾ وقد بان بهذا كله أن سبب فضيحتهم ما تضمنه فعلهم من عظيم الضرر للإسلام وأهله؛ ثم قال ناهياً عن إجابتهم إلى ما أرادوا به من التلبس إنتاجاً عن هذا الكلام الذي هو أمضى من السهام: ﴿لا تقم فيه﴾ أي مسجد الضرار ﴿أبدأ﴾ أي سواء تابوا أو لا، وأراد بعض المخلصين أن يأخذوا أولاً، أي لا بد من إخراجه ومحو أثره عن وجه الأرض.

ولما ذمه وذم أهله، مدح مسجد النبي ﷺ، إما الذي بالمدينة الشريفة وإما الذي ببني عمرو بن عوف بقباء على الخلاف في ذلك. وهو الذي اتخذ في أول الإسلام مسجداً إحساناً وإيماناً وجمعاً بين المؤمنين وإعداداً لمن صادق الله ورسوله، ومدح أهله إرشاداً لكل من كان مال إليه من المؤمنين لقرب أو غيره إلى العوض عنه، ولعله أبهم تعيينه وذكر وصفه ليكون صالحاً لكل من المسجدين.

لما اتصف بهذا الوصف من غيرهما فقال مؤكداً تعريفاً بما له من الحق ولما للمنافقين من التكذيب: ﴿لمسجد أسس﴾ أي وقع تأسيسه ﴿على التقوى﴾ أي فأحاطت التقوى به لأنها إذا أحاطت بأوله أحاطت بآخره؛ ولما كان التأسيس قد تطول مدة أيامه

(١) ذكره الواحدي في أسبابه ٥٢٧ بلا سند. وأخرجه بنحوه الطبري في تفسيره ١٧٢١٢ عن ابن زيد و ١٧٢٠٠ عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم بنحوه.

فيكون أوله مخالفاً لآخره، قال: ﴿من أول يوم﴾ أي من أيام تأسيسه، وفيه إشارة إلى ما تقدم من احتمال أن يريد أحد من أهل الإخلاص أن يتخذه مصلى، فبين أنه لا يصلح لذلك لأن تأسيسه كان لما هو مباح له ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ أي بالصلاة والوعظ وغيره من مسجد لم يقصد به التقوى على تقدير فرض محال إلا في ثاني الحال.

ولما مدحه مدح أهله بقوله: ﴿فيه رجال﴾ أي لهم كمال الرجولية ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ أي في أبدانهم وقلوبهم كمال الطهارة - بما أشار إليه الإظهار، فهم دائماً في جهاد أنفسهم في ذلك فأحبهم الله ﴿والله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿يحب﴾ أي يفعل ما يفعل المحب من الإكرام بالفضل والإحسان، ولإثبات ما أفهم الاجتهاد حصل الغنى عن إظهار تاء التفعّل أو للندب إلى الطهارة ولو على أدنى الوجوه المجزئة فقال: ﴿المطهرين﴾ أي قاطبة منهم ومن غيرهم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَا يَرَأَىٰ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١١﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٢﴾﴾.

ولما علم من هذا بطريق الإشارة والتلويح أن التأسيس مثل ابتداء خلق الحيوان، فمن جبل من أول مرة جبلة شر لا يصلح للخير أبداً ولا يقبله كما قال تعالى ﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: ٢٣] ذكره على سبيل التصريح فسبب عما مضى قوله ممثلاً الباطل ببناء على حرف واد واه جداً على شفير جهنم: ﴿أفمن أسس بنيانه﴾ أي كما أشرت إليه في المسجد المحثوث بالإقبال عليه ﴿على تقوى من الله﴾ أي الملك الأعلى ﴿ورضوان﴾ فكان كمن بنى بنيانه على جبل لا تهدمه الأمطار ولا تؤثر فيه السيول ﴿خير أم من أسس بنيانه﴾ على فسق وفجور وعدم اكتراث بالأمور فكان كمن بنى بنيانه ﴿على شفا﴾ أي حرف، ومنه الشفة ﴿جرف﴾ أي مكان جفرة السيل وجرفه فصار مشرفاً على السقوط، ولذلك قال: ﴿هار﴾ أي هائر، من هار الجرف - إذا أشرف لتخريق السيول على السقوط ﴿فانهار﴾ أي فكان بناؤه لذلك سبباً لأنه سقط سقوطاً لا تماسك معه ﴿به﴾ أي وهو فيه آمناً من سقوطه بقلة عقله وسفاهة رأيه ﴿في نار جهنم﴾ فالجواب: لا شك الأول خير بل، لا خير في الثاني أصلاً، والعجب كل العجب من

كونه بنى هذا البناء هكذا، فأجيب بأنه لا عجب لأن الأمر بيد الله، لا مفر من قضائه، وهو قد هدى الأول إلى ما فيه صلاحه، ولم يهد الثاني لما علم فيه من عدم قابلية الخير ﴿والله﴾ الذي له صفات الكمال ﴿لا يهدي القوم﴾ أي الذين لهم قوة المحاولة لما يريدون ﴿الظالمين﴾ أي المطبوعين على ظلام البصائر، فهم لا يفكرون في شيء إلا جاء في غير موضعه وعلى غير نظام كخطوات الماشي في الظلام، وقد علم أن الآية من قبيل الاحتباك: أثبت أولاً التقوى لأن أهل الإسلام أحق بها، فدللت على حذف ضدها ثانياً، وأثبت ثانياً ضعف البناء حساً لأن مسجد الضرار أولى به، فدل على حذف ضده أولاً، فذكر النهاية المعقولة لأهلها والبداية المحسوسة للناظرين لها؛ وروي عن جابر رضي الله عنه قال: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار؛ وحكي عن خلف بن يسار أنه رأى فيه حجراً يخرج منه الدخان في أول دولة بني العباس.

ولما كان ما تقدم غير قاطع في إخراجه لما ثبت للمساجد من الحرمة، استأنف الإخبار عن أنه لا يعد في عداد المساجد بوجه، وإنما هو في عداد بيوت الأصنام فهو واجب الإعدام فقال: ﴿لا يزال بنيانهم﴾ أي نفس المبنى وهو المسجد ﴿الذي بنوا ريبة﴾ أي شكاً ونفاقاً ﴿في قلوبهم﴾ كما أن بيوت الأصنام كذلك لأهلها، فكان ذلك حثاً على إخراجه ومحوه وقطع أثره. والمعنى أنه جامع لهم على الريبة في كل زمان يمكن أن يكون ﴿إلا أن﴾ ولما كان القطع محصلاً للمقصود من غير نظر إلى قاطع معين، قال بانياً للمفعول: ﴿تقطع قلوبهم﴾ أي إلا زمان يوجد فيه القطع البليغ الكثير لقلوبهم وعزائمهم ويباعد بينهم ويفرق شملهم بإخراجه، وقراءة يعقوب بـ «إلى» الجارة واضحة في المراد، أو يكون المراد أنه لا يزال حاملاً لهم على التصميم على النفاق إلى أن يموتوا، فهو كناية عن عدم توبتهم.

ولما كان التقدير: فالله عليم بما أخبركم به فلا تشكوا فيه، عطف عليه تعميماً للحكم وتعظيماً للأمر قوله: ﴿والله﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿عليم﴾ أي بالغ العلم بكل معلوم ﴿حكيم﴾ فهو يتقن ما يأمر به.

ولما تقدم الإنكار على المتثاقلين عن النفر في سبيل الله في قوله تعالى ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا﴾ [التوبة: ٣٨] ثم الجزم بالأمر بالجهاد بالنفس والمال في قوله ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ [التوبة: ٤١] وكان أمره تعالى كافياً للمؤمن الذي صدق إيمانه بالإسلام في امتثاله لذلك في منشطه ومكرهه، وكان كثير منهم قد فعلوا بتثاقلهم ما يقدح في إيمانهم طمعاً في ستره بمعاذيرهم وإيمانهم، اقتضى المقام تبكيت المتثاقلين وتأنيب المنافقين على وجه مهتك لأستارهم مكشف لأسرارهم، فلما استوفى تعالى في

ذلك أقسامهم، ونكس ألويتهم وأعلامهم، وختمهم بهذه الطائفة التي ظهر فيها امتثاله ﷺ لقوله تعالى ﴿جاهد الكفار والمنقذين وأغلظ عليهم﴾ بأن هدّ مسجدهم وحرّقه بالنار وأزال بنيانه وفرّقه، وقد أديمه عن جديد الأرض ومزقه، أتبع ذلك سبحانه بتذكير المؤمنين ما أمرهم به في قوله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ وقوله ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ ليفعلوا فيه ما فعله رسول الله ﷺ فيما أمر به، فساق مساق الجواب لسؤال من كأنه قال: لقد طال المدى وعظم الخطب في هذه السورة في إبانة الفضائح وهتك السرائر وإظهار القبائح، فلم فعل ذلك وقد جرت عادته بالأمر بالستر وأخذ العفو؟ قوله: ﴿إن الله﴾ أي الملك الذي لا ملك في الحقيقة غيره ولا يخشى إلا عذابه ولا يرجى إلا خيره ﴿اشترى﴾ أي بعهود أكيدة وموathيق غليظة شديدة، ولذلك عبر بما يدل على اللجاج فيها فقال: ﴿من المؤمنين﴾ أي بالله وما جاء من عنده، وقدم النفس إشارة إلى المبايعة سابقة على اكتساب المال فقال مقدماً للأعز: ﴿أنفسهم﴾ أي التي تفرد بخلقها ﴿وأموالهم﴾ أي التي تفرد برزقها وهو يملكها دونهم.

ولما ذكر المبيع أتبعه الثمن فقال: ﴿بأن لهم الجنة﴾ أي خاصة بهم مقصورة عليهم، لا يكون لغير مؤمن، فميزهم حتى يقابل كل بما يستحقه، فكأنه قيل: اشترى منهم ذلك بماذا؟ فقيل: ﴿يقاتلون في سبيل الله﴾ أي الملك الأعلى بسبب دينه الذي لا يرضى غيره، قتالاً يكون الدين محيطاً به وظرفاً، فلا يكون فيه شائبة لغيره؛ ثم سبب عن ذلك ما هو حقيق به، فقال: ﴿فيقتلون ويقتلون﴾ أعم من أن يكون ذلك بالقوة أو بالفعل، فيخصهم بالجنة كما وعدهم، وقراءة حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول أمدح، لأن من طلب الموت - لا يقف له خصمه، فيكون المعنى: فطلبوا أن يكونوا مقتولين فقتلوا أقرانهم، ويجوز أن يكون النظر إلى المجموع فيكون المعنى أنهم يقاتلون بعد رؤية مصارع أصحابهم من غير أن يوهنهم ذلك، وعن بعض الأعراب أنه لما سمع هذه الآية قال: بيع والله مريح! لا نقيلاً ولا نستقيلاً، فخرج إلى الغزو فاستشهد.

ولما كان القتل لكونه سبباً للجنة بشارة ووعداً، أكد ذلك بقوله: ﴿وعداً﴾ وزاده بحرف الإيجاب فقال: ﴿عليه﴾ وأتم التأكيد بقوله: ﴿حقاً﴾ ولما أكد هذه المبايعة الكريمة هذه التأكيدات العظيمة، زاد ذلك بذكره في جميع الكتب القديمة فقال: ﴿في التوراة﴾ كتاب موسى عليه السلام ﴿والإنجيل﴾ كتاب عيسى عليه السلام ﴿والقرآن﴾ أي الكتاب الجامع لكل ما قبله ولكل خير، وهؤلاء المذكورون في هذه السورة كلهم ممن ادعى الإيمان وارتدى به حلل الأمان، ثم إنهم فعلوا بتخلفهم عن الإقباض وتوقفهم عن الإسراع والإيفاض وغير ذلك من أقوالهم ومساوئ أفعالهم فعل الكاذب في دعواه أو

الشاك أعم من أن يكون كذب بالآخرة المشتملة على الجنة أو يكون شك في وعد الله بإيراثهم إياها أو بتخصيصهم بها، وجوز أن يدخلها غيرهم وطمع أن يكون هو ممن يدخلها مع التكذيب، والله تعالى منزه عن جميع ذلك وهو وفي بعهدته ﴿ومن﴾ أي وعد بذلك والحال أنه أوفى المعاهدين فهو مقول فيه على طريق الاستفهام الإنكاري: من ﴿أوفى بعهدته من الله﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال لأن الإخلاف لا يقدم عليه الكرام من الناس فكيف بخالقهم الذي له الغنى المطلق.

ولما كان ذلك سبباً للتبشير، لأنه لا ترغيب في الجهاد أحسن منه، قال مهناً لهم: ﴿فاستبشروا﴾ أي فأوجدوا في نفوسكم غاية البشر يا معاشر المجاهدين ولما ذكره في ابتداء العقد بلفظ يدل على التأكيد، ذكره في آخره بلفظ يدل على السعة إشارة إلى سعة الجزاء فقال: ﴿بييعكم الذي بايعتم﴾ أي أوقعتم المبايعه لله ﴿به﴾ فإنه موفيكم لا محالة فذلك هو الأجر الكريم ﴿وذلك﴾ أي إيراثكم الجنة وتخصيصكم بها ﴿هو﴾ أي خاصة لا غيره ﴿الفوز العظيم﴾ فالحاصل أن هذه الآية واقعة موقع التعليل للأمر بالنفر بالنفس والمال.

﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْلِصُونَ الْمَكْفُورُونَ

الْمُتَجِدِّدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا
أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارًا لِإِبْرَاهِيمَ
لِإِيْسِهِ إِذْ ءَانَ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ
حَلِيمٌ ﴿١١٨﴾

ولما ثبتت المعاقدة وأحكامها، وصف المعاقدين على طريق المدح للحث على أوصافهم فقال: ﴿التائبون﴾ مبتدئاً أوصافهم بالتوبة التي هي أساس العمل الصالح، ثم ابتدأ المؤسس بمطلق العبادة الشاملة لجميع أنواع الدين من العلم وغيره فقال: ﴿العبدون﴾ أي الذين أقبلوا على العبادة فأخلصوها لله؛ ولما كان التزام الدين لا يعرف إلا بالإقرار باللسان، أتبع ذلك الحمد الذي تدور مادته على بلوغ الغاية الذي من جملته الشناء اللساني بالجميل الشامل للتوحيد وغيره فقال: ﴿الحمدون﴾ أي المثنون عليه سبحانه ثناء عظيماً، تطابقت عليه ألسنتهم وقلوبهم فتبعته آثاره؛ ولما كان الإقرار باللسان لا يقبل إلا عند مطابقة القلب، تلاه بالسياحة التي تدور بكل ترتيب على الاتساع الذي منه إصلاح القلب ليتسع للتجرد عن ضيق المألوفات إلى فضاء الحضرات الإلهيات

فقال: ﴿السائحون﴾ ولما كانت الصلاة نتيجة ذلك لكونها جامعة لعمل القلب واللسان وغيرهما من الأركان، وهي أعظم موصل إلى بساط الأنس في حضرات القدس وأعلى مجرد عن الوقوف مع المألوف. وكان أول مراتب التواضع القيام وأوسطها الركوع وغايتها السجود، وكان جميع أشكال الصلاة موافقاً للعادة إلا الركوع والسجود، أشار إليها بقوله مخصصاً لها بالذكر تنبيهاً على أن المراد من الصلاة نهاية الخضوع: ﴿الركعون﴾ فبين أن تمام هذه البشرية لهذه الأمة أن صلاة غيرهم لا ركوع فيها، وأتمها بقوله: ﴿السجدون﴾ ولما كان الناصح لنفسه بتهديب لسانه وقلبه وجميع جوارحه لا يقبل إلا إذا بذل الجهد في نصيحة غيره كما صرح به مثال السفر في السفينة ليحصل المقصود من الدين وهو جمع الكل على الله المقتضي للتعاقد والتناصر الموجب لدوام العبادة والنصرة وبذلك يتحقق التجرد عن كل مألوف مجانس وغير مجانس، أتبع ذلك قوله: ﴿الأمرون بالمعروف﴾ أي السنة.

ولما كان الدين متيناً فلن يشاده أحد إلا غلبه، كان المراد من المأمورات مسماها دون تمامها ومنتهاها «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١) والمراد من المنهيات تركها كلها، ومن الحدود الوقوف عندها من غير مجاوزة «وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»^(٢) رواه البخاري في الاعتصام من صحيحه ومسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، وكانت العرب - كما تقدم في البقرة عند قوله تعالى ﴿والصلوة الوسطى﴾ [البقرة: ٢٣٨] وفي آل عمران عند قوله ﴿الصابرين والصدّيقين﴾ [آل عمران: ١٧] عن الأستاذ أبي الحسن الحرالي - إذا أتبع بعض الصفات بعضاً من غير عطف علم أنها غير تامة، فإذا عطفها أردت التمكن فيها والعراقة والتمام، فأعلم سبحانه أن المراد فيما تقدم من الأوصاف الإتيان بما أمكن منها، فأتى بها اتباعاً دون عطف لذلك، وأشار إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف عند الحدود لا يقنع منه إلا بالتمام لأن المقصر في شيء من ذلك إما راض بهدم الدين وإما هادم بنفسه، فيجب التجرد التام فيه لأن النهي أصعب أقسام العبادة لأنه متعلق بالغير وهو مثير للغضب موجب للحماية وظهور الخصومة، فربما كان عنه ضرب وقتل، فلذلك عطفها ولم يتبعها فقال:

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧٢٨٨ ومسلم ١٣٣٧ والترمذي ٢٦٧٩ والنسائي ١١٠/١٥ وابن ماجه ١ و٢ وابن حبان ١٨ و١٩ و٣٧٠٤ و٣٧٠٥ والديلمي ٣١٣٧ وابن خزيمة ٢٥٠٨ والبيهقي ٣٢٦/٤ وعبد الرزاق ٢٠٣٧٢ وأحمد ٢/٢٥٨ والشافعي ١/١٥ من حديث أبي هريرة. وصدره عند البخاري: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك...». ورواية لمسلم: «ذروني ما تركتكم...».

(٢) هو بعض المتقدم.

﴿والناهون﴾ أي بغاية الجد ﴿عن المنكر﴾ أي البدعة. ولما كان فاعل الخير لا ينفعه فعله إلا باستمراره عليه إلى الموت أتبعه قوله: ﴿والحفظون﴾ أي بغاية العزم والقوة ﴿لحدود الله﴾ أي الملك الأعظم التي حدها في هذا الشرع القيم فلم يتجاوزوا شيئاً منها، فختم بما به بدأ مع قيد الدوام بالرعي والقوة، والحاصل أن الوصف الأول للتجرد عن ربة مألوف خاص وهو شرك المعصية بشركه أو غيره، والثاني للتجرد عن قيود العادات إلى قضاء العبادات، والثالث لبلوغ الغاية في تهذيب الظاهر. والرابع للتوسع إلى التجرد عن قيود الباطن، والخامس والسادس للجمع بين كمال الباطن والظاهر، والسابع للسير إلى إفاضة ذلك على الغير، والثامن للدوام على تلك الحدود بترك جميع القيود. فمقصود الآية العروج من الحضيض الجسماني إلى الشرف الروحاني؛ ثم أمره ﷺ بتبشير المتخلق بهذه الأوصاف عاطفاً لأمره به على محذوف تقديره - والله أعلم: فأنذر من تخلى منها بكل ما يسوءه بعد سجنه في دار الشقاوة فإنه كافر وبشرهم، أي هؤلاء الموصوفين، هكذا كان الأصل الإضمار، ولكنه أظهر ختاماً بما به بدأ وتعليقاً بالوصف وتعميماً فقال: ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي المتخلقين بها بكل ما يسرهم بعد تخصيصهم بدار السعادة، وفي ختم الآيتين بالبشارة تارة من الخالق وتارة من أكمل الخلائق أعظم مزية للمؤمنين، وفي جعل الأولى من الله أعظم ترغيب في الجهاد وأعلى حث على خوض غمرات الجلال، وفي ابتداء الآيتين بالوصف المشعر بالرسوخ في الإيمان الذي هو الوصف المتمم للعشر وختمهما بمثله إشارة إلى أن هذه مائدة لا يخلص عليها طفيلي، وأن من عدا الراسخين في درجة الإهمال لا كلام معهم ولا التفات بوجه إليهم.

ولما كثرت في هذه السورة الأوامر بالبراءة من أحياء المشركين وجاء الأمر أيضاً بالبراءة من أموات المنافقين بالنهي عن الدعاء لهم، جاءت هذه الآية مشيرة إلى البراءة من كل مشرك فوق التصريح بعدها بما أشارت إليه، وذلك أنه لما ثبت بهذه الآية في تقديم الجار أن المبايعة وقعت على تخصيص الجنة بالمؤمنين وأنه تعالى أوفى من عاهد، ثبت أنه لا يجوز أن يدخل غيرهم الجنة وأن غيرهم أصحاب النار، لأنه قد علم أن الآخرة داران: جنة ونار، ولما ثبت هذا كله علم قطعاً علم النتيجة من المقدمات الصحيحة أنه ﴿ما كان﴾ أي في نفس الأمر ﴿للنبي﴾ أي الذي لا ينطق إلا بما عنده فيه بيان من الله ﴿والذين آمنوا﴾ أي أقروا بأنهم صدقوا بدعوته فلا يفعلون إلا ما عندهم منه علم ﴿أن يستغفروا﴾ أي يطلبوا المغفرة ويدعوا بها ﴿للمشركين﴾ أي الراسخين في الإشراك في عبادة ربهم ﴿ولو كانوا﴾ أي المشركين ﴿أولي قربي﴾ أي للذين آمنوا ﴿من

بعد ما تبين لهم ﴿ أي بموتهم على الشرك وإنزال هذه الآية للختم بالتخصيص بالجنة
 ﴿أنهم أصحاب الجحيم ﴾ أي لا أهلية لهم للجنة . فإن الاستغفار معناه محو الذنوب
 حتى ينجو صاحبها من النار ويدخل الجنة وما ينبغي لهم أن يكون لهم إليهم التفات فإن
 ذلك ربما جر إلى ملايين تفتت عن القتال الواقع عليه المبايعه ، فما ينبغي إلا محض
 المقاطعة والمخاشنة والمنازعة . وتقييد النهي بالتبيين يدل على جواز الدعاء للحي فإن
 القصد بالاستغفار الإقبال به إلى الإيمان الموجب للغفران . ولما أنكر أن يكون لهم
 ذلك ، وكان الخليل عليه السلام المأمور بالاقتداء به وال لزوم بملته قد استغفر لأبيه ، بين
 أنه كان أيضاً قبل العلم بما في نفس الأمر من استحقاقه للتأييد في النار ، فقال دالاً بواو
 العطف على أن التقدير : فما استغفر لهم بعد العلم أحد من المؤمنين : ﴿وما كان
 استغفار إبراهيم ﴾ أي خليل الله ﴿لأبيه ﴾ أي بعد أن خالفه في الدين ﴿إلا عن موعده ﴾
 أي وهي قوله ﴿لأستغفرون لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾ [الممتحنة : ٤] وأكد
 صدور الوعد بقوله : ﴿وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ أي الخليل لأبيه قبل أن يعلم أنه أبدى الشقاوة ،
 وقيل : الضمير لأبيه ، كان وعده أنه يسلم فاستغفر له ظناً منه أنه صدق في وعده فأسلم ،
 والذي يدل على أنه كان قبل علمه بذلك قوله : ﴿فلما تبين له ﴾ أي بياناً شافياً قاطعاً
 ﴿أنه عدو لله ﴾ أي الملك الأعلى مؤبد العداوة له بموته على الكفر أو بالوحي بأنه يموت
 عليه ﴿تبراً ﴾ أي أكره نفسه على البراءة ﴿منه ﴾ ثم علل ما أفهمته صيغة التفعّل من
 المعالجة بقوله : ﴿إن إبراهيم لأواه ﴾ أي شديد الرقة الموجبة للتأوه من خوف الله ومن
 الشفقة على العباد ؛ قال الزجاج : والتأوه أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء
 ﴿حليم ﴾ أي شديد التحمل والإغضاء عن المؤذى له ، هكذا خلقه في حد ذاته فكيف
 في حق أبيه ولو قال له ﴿لأرجمنك واهجرني ﴾ [مريم : ٤٦] وأضعاف ذلك ؛ قال الإمام
 أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل البستي القاضي في تفسيره : حدثنا حرمة
 حدثنا ابن وهب أخبرني ابن جريج عن أيوب بن هانيء عن مسروق بن الأجدع عن عبد
 الله بن مسعود رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ خرج يوماً وخرجنا معه حتى انتهى إلى
 المقابر فأمرنا فجلسنا ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فجلس إليه فناجاه طويلاً
 ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ ، ثم إن النبي ﷺ أقبل
 إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ما الذي أبكاك يا نبي الله فقد أبكنا
 وأزعنا ، فأخذ بيد عمر رضي الله عنه ثم أقبل إلينا فأتيناه فقال : أفرعكم بكائي؟ قلنا :
 نعم يا رسول الله ! قال : إن القبر الذي رأيتموني أناجي قبر أمنة بنت وهب وإني استأذنت
 ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي ونزل علي ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا

للمشركين ولو كانوا أولى قربي ﴿ حتى ختم الآية ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ فأخذني ما يأخذ الولد من الرقة فذلك الذي أبكاني» (١) وهذا سند حسن، ولمسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه في الجنايز عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت» (٢).

وللبخاري في التفسير وغيره عن ابن المسيب عن أبيه رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي ﷺ: أي عم! قل: لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ - وفي رواية: فكان آخر ما كلمهم أن قال: هو على ملة عبد المطلب - فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فنزلت ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ وأنزل الله في أبي طالب ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» (٣) [القصص: ٥٦] ولعله استمر يستغفر له ما بين موته وغزوة تبوك حتى نزلت، ورؤي في سبب نزولها غير هذا أيضاً، وقد تقدم أنه يجوز أن تتعدد الأسباب.

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾ ۗ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ۗ ۝﴾

ولما كان الاستغفار للمشركين أمراً عظيماً، وكان فيه نوع ولاية لهم، أظهر سبحانه للمؤمنين ما من عليهم به من عدم المؤاخذه بالإقدام عليه تهويلاً لذلك وقطعاً

- (١) قلت: أخرجه ابن حبان ٩٨١ والواحدي في أسباب النزول ٥٣٢ والحاكم ٣٣٦/٢ من حديث ابن مسعود. وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: أيوب ضعفه ابن معين ١ هـ. وقال الذهبي في الميزان أيضاً: قال أبو حاتم: صالح. وقال يحيى: ضعيف ١ هـ وابن جريج مدلس وقد عنعنه فالخير ضعيف بهذا اللفظ. وهو في صحيح مسلم بدون قصة عمر.
- (٢) صحيح. أخرجه مسلم ٩٧٦ وأبو داود ٣٢٣٤ والنسائي ٩٠/٤ وابن ماجه ١٥٧٢ والبيهقي ٧٦/٤ من حديث أبي هريرة.
- (٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٦٠ و ٣٨٨٤ و ٤٦٧٥ ومسلم ٢٤ والنسائي ٩٠/٤ وابن حبان ٩٨٢ والواحدي ٥٣١ وأحمد ٤٣٣/٥ من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

لما بين أوج الإيمان وحضيض الكفران بكل اعتبار فقال تعالى: ﴿وما كان الله﴾ أي الذي له صفات الكمال؛ ولما كان الضلال سبب الهلاك، وكان من شرع شريعة ثم عاقب ملتزمها من غير بيان كمن دل على طريق غير موصل فهلك صاحبه فكان الدال بذلك مضلاً، قال: ﴿ليضل قوماً﴾ أي يفعل بهم ما يفعل بالضالين من العقوبة لأجل ارتكابهم لما ينهى عنه بناسخ نسخه ﴿بعد إذ هداهم﴾ أي بشريعة نصبها لهم ﴿حتى يبين لهم﴾ أي بياناً شافياً لداء العي ﴿ما يتقون﴾ أي مما هو جدير بأن يحذروه ويتجنبوه خوفاً من غائلته بناسخ ينسخ حال الإباحة التي كانوا عليها.

ولما كان الذي يأمر بسلوك طريق ثم يترك فيها ما يحتاج إلى البيان إنما يؤتى عليه من الجهل أو النسيان. نفى ذلك سبحانه عن نفسه فقال معللاً لعدم الإضلال: ﴿إن الله﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿بكل شيء عليم﴾ أي بالغ العلم فلا يتطرق إليه خفاء بوجه من الوجوه في حين من الأحيان فهو يبين لكم جميع ما تأتون وتذرون وما يتوقف عليه الهدى، وما تركه فهو إنما يتركه رحمة لكم ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ [طه: ٥٢] فلا تبحثوا عنه؛ ثم علل علمه بكل شيء بأن قدرته شاملة فهو قادر على نصره من يريد والانتقام ممن يريد، فلا ينبغي لأحد أن يحب إلا فيه ولا يبغض إلا فيه ولا يهتم بعداوة أحد ممن عاداه فقال: ﴿إن الله﴾ أي الملك الأعظم ﴿له﴾ أي بكل اعتبار تعدونه من اعتبارات الكمال ﴿ملك السموات والأرض﴾ فلا يخفى عليه شيء فهو خبير بكل ما ينفعكم ويضركم وهو وليكم، يبينه لكم، ومن كان له جميع الملك كان بحيث لا يستعصى على أمره شيء: علم ولا غيره، لأن العلم من أعظم القوى والقدر، ولا يكون الملك إلا عالماً قادراً؛ ثم علل قدرته وعلمه بما يشاهد متكرراً من فعله في الحيوان والنبات وغير ذلك فقال: ﴿يحيي ويميت﴾ أي بكل معنى فهو الذي أحياكم وغيركم الحياة الجسمانية وخصكم أنتم بالحياة الإيمانية، وكما جعل غيركم بعضهم أولياء بعض وجمعهم كلهم على ولاية عدوهم الشيطان جعلكم أنتم أولياء ربكم الرحمن فهو وليكم وناصركم ﴿وما﴾ أي والحال أنه ما ﴿لكم﴾ ولما كان ليس لأحد أن يحوز كل ما دون رتبته سبحانه، أثبت الجار فقال: ﴿من دون الله﴾ أي الملك الذي له الأمر كله، وأغرق في النفي بقوله: ﴿من ولي﴾ أي قريب يفعل معكم من الحيطة والنصح ما يفعل القريب من النصر وغيره.

ولما كان الإنسان قد ينصره غير قريبه قال: ﴿ولا نصير﴾ أي فلا توالوا إلا من كان من حزبه وأهل حبه وقربه، وفيه تهديد لمن أقدم على ما ينبغي أن يتقي لا سيما الملاينة لأعداء الله من المساترين والمصارحين، فإن غاية ذلك موالاتهم وهي لا تغني من الله شيئاً.

ولما أشار إلى أنه هو وليهم أحياءهم بروح منه مبين لهم ما يصلحهم وأنه لا ولي لهم غيره، أقام الدليل على ذلك بقوله: ﴿لقد تاب الله﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿على النبي﴾ أي الذي لا يزال عنده من الله خبر عظيم يرشده إلى ما يؤذن بتقوية حياته برفع درجاته، فما من مقام يرقيه إليه إلا رأى أنه لمزيد علوه وتقربه للمقام الذي كان دونه، فهو في كل لمحة في ارتقاء من كامل إلى أكمل إلى ما لا نهاية له.

ولما أخبر تعالى بعلو رتبة النبي ﷺ بترقيته في رتب الكمالات والأكمليات إلى ما لا نهاية له على وجه هو في غاية البعث لكل مؤمن على المبادرة إلى التوبة، أكد ذلك بقوله: ﴿والمهجرين والأنصار﴾ بمحو هفواتهم ورفع درجاتهم ﴿الذين اتبعوه﴾ أي النبي ﷺ ﴿في ساعة العسرة﴾ أي أزمنة غزوة تبوك، كانوا في عسرة من الزمان بالجذب والضيقة الشديدة والحر الشديد، وعسرة من الظهر «يعتقب العشرة» على بعير واحد. وعسرة من الزاد «تزدوا التمر المدود والشعير المسوس والإهالة الزنخة» وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها؛ وسماها ساعة تهويناً لأوقات الكرب وتشجيعاً على مواجهة المكاره فإن أمدّها يسير وأجرها عظيم خطير، فكانت حالهم باتباعه في هذه الغزوة أكمل من حالهم قبلها، وأشار سبحانه إلى تفاوتهم في الثبات على مقامات عالية، ترقوا بالتوبة إلى أعلى منها، وفي قبول وساوس أبعدهم التوبة عن قبولها بقوله: ﴿من بعد ما كاد﴾ أي قرب قرباً عظيماً ﴿تزيغ﴾ أي تزول عن أماكنها الموجبة لصلاحها، وأشار بـ«من» إلى تقارب ما بين كيدودة الزيغ والتدارك بالتوبة. ولما كان المقام للزلازل، ناسب التعبير بما منه الانقلاب والفرقة فقال: ﴿قلوب فريق﴾ أي هم بحيث تحصل منهم الفرقة لما هناك من الزلازل المميلة ﴿منهم﴾ أي من عظيم ما نالهم من الشدائد فتميل لذلك عن الحق كأبي خيثمة ومن أحب الراحة وهاب السفر في ذلك الحر الشديد إلى بني الأصفر الملوك الصيد^(١) الأبطال الصناديد، وهم ملء الأرض كثرة وقدر الحصى عدة ومثل الجبال شدة، ثم عزم الله له فلحق برسول الله ﷺ فرجع سبحانه بالجميع إلى ما كانوا عليه قبيل مقاربة الزيغ من مباعده، ولما صاروا كمن لم يقارب الزيغ. أعلاهم إلى مقام آخر عبر عن عظمتها بأداة التراخي فقال: ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي كلهم تكريراً للرفعة، أو على من كاد يزيغ بالثبات على مباحدة الزلات وبالترقي في أعالي الدرجات إلى الممات؛ ونقل أبو حيان عن الحسن أن زيغها همها بالانصراف لما

(١) أصياد وأصياد وأصاده: آذاه ودأواه من الصيد ضد، والأصيد الملك ورافع رأسه كبيراً والأسد

لقيت من المشقة، قال: وقيل: ساء ظنها بما رآته من شدة العسرة وقلة الوفر وبعد الشقة وقوة العدو المقصود - انتهى. ويجوز أن يكون عبر ب ﴿ثم﴾ لوصولهم إلى حالة يبعد معها الثبات فضلاً عن مباحة مواقع الزلات فثبتها حتى عادت كالحديد من غير سبب ظاهر من «جيش أو غيره» فثبت بذلك أنه مالك الملك متمكن من فعل كل ما يريد وأنه لا ولي لهم سواه: ثم علل لطفه بهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ والرفأة: شدة الرحمة، فقدم الأبلغ فيقال فيه ما قيل في ﴿الرحمن الرحيم﴾ فالمعنى أنه يرحمهم أعلى الرحمة بإسباغ جلائل النعم ودفع جلائل النقم، ويرحمهم أيضاً بإسباغ دقائق النعم ودفع دقائق النقم، وقيل: الرفأة: إزالة الضرر، والرحمة: إيصال النفع، ومادة راف تدور مع السعة على ما أشير إليه في سورة سبحان^(١) على شدة الوصلة. فالرفأة - كما قال الحرالي في البقرة - عطف العاطف على من يجد عنده منه وصلة، فهي رحمة ذي الصلة بالراحم، والرحمة تعم من لا صلة له بالراحم - انتهى. فتكون الرفأة حينئذ للثابتين والرحمة لمن قارب الزيغ. فيصير الثابت مرحوماً مرتين لأنه منظور إليه بالصفتين، وتقدم عند الحزبين من البقرة ما ينفع هنا.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٨﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِم مِّنْ نَّفْسِهِ ؕ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَغِيظَ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِّنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

ولما صرح بالتوبة على من قارب الزيغ وخلط معهم أهل الثبات إشارة إلى أن كل أحد فقير إلى الغني الكبير وليكون اقترانهم بأهل المعالي، وجعلهم في حيزهم تشريفاً لهم وتأنيساً لثلا يشتد إنكارهم، أتبعه التوبة على من وقع منه الزيغ فقال غير مصرح بالزيغ تعليماً للأدب وجبراً للخواطر المنكسرة: ﴿وعلى﴾ أي ولقد تاب الله على ﴿الثلاثة الذين﴾.

ولما كان الخلع للقلوب مطلق التخليف، بني للمفعول قوله: ﴿خلفوا﴾ أي

(١) أي سورة الإسراء وتسمى أيضاً سورة بني إسرائيل.

خلفهم رسول الله ﷺ بالهجران ونهى الناس عن كلامهم، وأخر الحكم فيهم ليأتي أمر الله في بيان أمرهم واستمر تخليفهم ﴿حتى إذا ضاقت﴾ أشار إلى عظيم الأمر بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عليهم الأرض﴾ أي كلها ﴿بما رحبت﴾ أي مع شدة اتساعها، أي ضاق عليهم فسيحها ووسعها.

ولما كان هذا قد يراد به الحقيقة، وكان ضيق المحل قد لا يستلزم ضيق الصدر، أتبعه الدلالة على أن المراد المجاز فقال: ﴿وضاقت عليهم﴾ بالهم المزعج والغم المقلق ﴿أنفسهم﴾ أي من شدة ما لاقوا من الهجران حتى بالكلام حتى برد السلام؛ ولما كان ذلك لا يقتضي التوبة إلا بالمراقبة، أتبعه ذلك للتخلف بها قوله: ﴿وظنوا﴾ أي أيقنوا، ولعله عبر بالظن إيدان بأنهم لشدة الحيرة كانت قلوبهم لا تستقر على حال، فكان يقينهم لشدة الخواطر كأنه ظن، أو يقال - وهو حسن -: إن التعبير به عن يقين المخلصين إشارة إلى أن أعلى اليقين في التوحيد لا يبلغ الحقيقة على ما هي عليه أن لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره - كما قال صدق الخلق ﷺ ﴿لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك﴾^(١) وهذا من النفائس فاستعمله في أمثاله ﴿أن لا ملجأ﴾ أي مهرب ومفزع ﴿من الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿إلا إليه﴾ أي بما يرضيه، وهو مثل لتحيرهم في أمرهم، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف دل عليه صدر الكلام تقديره: تداركهم بالتوبة فردهم إلى ما كانوا عليه قبل مواجعة الذنب.

ولما كان ما عملوه من التخلف عن أمر الرسول ﷺ عظيماً بمجرد المخالفة ثم يترك المواساة ثم بالرغبة عنه ﷺ ثم بأمور عظيمة شديدة القبح وخيمة فكان يبعد معه الزيادة عن رتبة التوبة، أعلم سبحانه أنه رقاهم في رتب الكمال بأن جعل ذلك سبباً لتطهيرهم من جميع الأدناس وتنقيتهم من سائر الأدران المقتضي لمزيد القرب بالعروج في مصاعد المعارف - كما أشار إليه قوله ﷺ لكعب رضي الله عنه ﴿أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك﴾^(٢)، أتبع ذلك سبحانه الإعلام به بقوله - مشيراً إلى ما بعده لولا فضل الله - بأداة الاستبعاد: ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي رجع بهم بعد التوبة إلى مقام من مقامات سلامة الفطرة الذي هو أحسن تقويم يعلو لعلوه بالنسبة إلى ما دونه، توبة ﴿ليتوبوا﴾ أي ليرجعوا إلى ما تقتضيه الفطرة الأولى من الثبات على ما كانوا عليه من

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٤٨٦ وأبو داود ٨٧٩ والترمذي ٣٤٩١ والنسائي ٢/٢٢٥ و ٢٢٣ ومالك ١/٢١٤ من حديث عائشة وصدره: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك...».

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٧٧ ومسلم ٢٧٦٩ في أثناء خبر توبة كعب بن مالك المطول. وهذا بعضه.

الإحسان في الدين والتخلق بأخلاق السابقين، ولعله عبر بالظن موضع العلم إشارة إلى أنه يكفي في الخوف من جلاله للانقطاع إليه مجرد الظن بأنه لا سبب إليه إلا منه لأنه محيط بكل شيء لا يعجزه شيء، ويمكن أن يكون التعبير - ﴿ثم﴾ إشارة إلى عظيم ما قاسوا من الأهوال وما ترقوا إليه من مراتب الخوف، وامتنان عليهم بالتوبة من عظيم ما ارتكبوا، وإنما خصوا عن رفائهم بأن أرجثوا^(١) لأمر الله لعلو مقامهم بما لهم من السابقة ورسوخ القدم في الإسلام، فالمخالفة اليسيرة منهم أعظم من الكثير من غيرهم لأنهم أئمة الهدى ومصابيح الظلم، ومن هذا البارق - حسنات الأبرار سيئات المقربين - ثم علل التوبة بأمر يعم غيرهم ترغيباً فقال معبراً بما يشير مع أعلى مقامهم إلى نزوله عن مقام من قبلهم: ﴿إن الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿هو﴾ أي وحده ﴿التواب﴾ أي البليغ التوبة على من تاب وإن عظم جرمه وتكررت توبته لتكرر ذنوبه ﴿الرحيم﴾ أي المكرم لمن أراد من عباده بأن يحفظه على ما يرتضيه فلا يزيغ، ويبالغ في الإنعام عليه.

ولما كان الذي نالوا به الإقبال من مولاهم عليهم - مما وصفهم به من الضيق وما معه - هو التقوى والصدق في الإيمان كما كان ما يجده الإنسان في نفسه مما الموت عنده والقذف في النار أحب إليه من التلفظ به صريح الإيمان بشهادة المصطفى ﷺ، رغب سبحانه في الصدق فقال: ﴿يأياها الذين آمنوا﴾ أي ادعوا ذلك ﴿اتقوا الله﴾ أي خافوا سطوة من له العظمة الكاملة تصديقاً لدعواكم فلا تفعلوا إلا ما يرضيه ﴿وكونوا﴾ أي كونوا صادقاً بجميع الطبع والجملة ﴿مع الصادقين﴾ أي في كل أمر يطلب منهم، ولعله أخرج الأمر مخرج العموم ليشمل كل مؤمن، فمن كان مقصراً كانت أمرة له باللاحق، ومن كان مسابقاً كانت حائنة له على حفظ مقام الاستباق، ولعله عبر بـ ﴿مع﴾ ليشمل أدنى الدرجات، وهو الكون بالجثت^(٢)، وقد روى البخاري توبة كعب أحد هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم في مواضع من صحيحه منها التفسير، وكذا رواه غيره عن كعب نفسه رضي الله عنه أنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط غير غزوتين: غزوة العسرة - يعني هذه - وغزوة بدر، وأن تخلفه يبدر إنما كان لأن النبي ﷺ لم يندب الناس إليها ولا حثهم عليها لأنه ما خرج أولاً إلا لأجل العير، قال: فأجمعت صدق رسول الله ﷺ، كان قل ما يقدم من سفر سافره إلا ضحى، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين ونهى النبي ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي - يعني مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي - ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا، فاجتنب الناس

(١) أرجيت الأمر: أخرته (يهمز ويُلين).

(٢) تقدم قبل قليل، وانظر الآتي.

كلامنا فلبثت كذلك حتى طال عليّ الأمر، وما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا يصلي عليّ النبي ﷺ أو يموت النبي ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي عليّ، فأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الآخر من الليل ورسول الله ﷺ عند أم سلمة رضي الله عنها، وكانت أم سلمة محسنة في شأني معنية في أمري فقال رسول الله ﷺ: يا أم سلمة! تيب على كعب، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال: إذن يحطمكم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليلة حتى إذا صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر أذن بتوبة الله علينا، وكان إذا استبشر استنار وجهه حتى كأنه قطعة من القمر، وكنا - أيها الثلاثة الذين خلفوا - خلفنا عن الأمر الذي قبل من هؤلاء الذين اعتذروا حين أنزل الله لنا التوبة، فلما ذكر الذين كذبوا رسول الله ﷺ من المتخلفين واعتذروا بالباطل ذكروا بشر ما ذكر به أحد، قال الله عز وجل ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾^(١).

ولما كان ما نالهم من الأهوال إنما نالهم بتخلفهم عن أشرف الخلق، والذي التفت بهم إلى مرابع^(٢) الإقبال إنما هو الصدق، قال تعالى ناهياً بصيغة الخبر ليكون أبلغ، جامعاً إليهم من كان على مثل حالهم في مطلق التخلف: ﴿ما كان﴾ أي ما صح وما انبغى بوجه من الوجوه ﴿لأهل المدينة﴾ أي التي هي سكن رسول الله ﷺ وهي دار الهجرة ومعدن النصره ﴿ومن حولهم﴾ أي في جميع نواحي المدينة الشريفة ﴿من الأعراب﴾ أي من سكان البوادي الذين أقسموا بالإسلام ﴿أن يتخلفوا﴾ أي في أمر من الأمور ﴿عن رسول الله﴾ أي الملك الأعلى، ومن شأن المرسل إليه أن لا يبرح عن جناب الرسول لا سيما وهو رأس الصادقين الذين وقع الأمر بالكون معهم ﴿ولا يرغبوا﴾ أي و ما كان لهم أن يرغبوا، ولعله قللهم بصيغة القلة بالنسبة إلى من أيد به ﷺ من جنوده فقال تعالى: ﴿بأنفسهم عن نفسه﴾ أي التي هي أشرف النفوس مطلقاً بأن يصونوا نفوسهم عما باشره ﷺ بل يلقونها في المتالف دونه وصيانة لنفسه الشريفة عن أدنى الأذى، فهي كالتعليل للأمر بالتقوى أي خافوا الله وأصدقوه كما صدق هؤلاء ليتوب عليكم كما تاب عليهم فإنه لم يكن لكم التخلف فهو نهى بليغ مع تقييح وتوبيخ وإلهاب وتهيج.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٥٧ و ٢٩٤٧ و ٤٩٤٨ و ٢٩٤٩ و ٢٩٥٠ و ٣٥٥٦ و مسلم ٢٧٢٩ وأبو داود ٢٢٠٢ و ٢٦٠٥ و ٢٧٧٣ والنسائي ٥٣/٢ و ٥٤ و ١٥٢/٦ و ١٥٤. الترمذي ٣١٠٢ وابن خزيمة ٢٢٤٢ وعبد الرزاق ١٩٧٤٤ والطبراني ١٩/٩٦ و (٩٧) وأحمد ٦/٢٩٠ من حديث أبي بن كعب.

(٢) المَرَبَع: منزل القوم في الربيع خاصة (تقول: هذه مرابعتا ومصايفنا، أي حيث نرتب ونصيف).

ولما علل الأمر بالتقوى، علل النهي عن التخلف بما يدل على صدق الإيمان فيصير نقيضه دالاً على نقيضه فقال: ﴿ذلك﴾ أي النهي العظيم عن التخلف في هذا الأسلوب النافي للكون ﴿بأنهم لا يصيبهم ظمأ﴾ أي عطش شديد ﴿ولا نصب﴾ أي تعب بالغ ﴿ولا مخمصة﴾ أي شدة مجاعة ﴿في سبيل الله﴾ أي طريق دين الملك الأعظم المتوصلة به إلى جهاد أعدائه، ورتبت هذه الأشياء ترتيبها في الوجود فإن مطلق الحركة يهيج الحرارة فينشأ العطش وتماديها يورث التعب، والأغلب أن يكون قبل الجوع.

ولما كان المقصود من إجهاد النفس بما ذكر إرغام الكفار باقتحام أرضهم المتوصل به إلى إيمانهم بالنيل منهم، أتبع ذلك قوله: ﴿ولا يظؤون موطأ﴾ أي وطأ أو مكاناً وطؤه ﴿يغيظ الكفار﴾ أي وطؤهم له بأرجلهم أو دوابهم ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ أي كائناً ما كان صغيراً أو كبيراً ﴿إلا كتب لهم به﴾ أي في صحائف الأعمال، بني للمفعول لأن القصد إثباته لا من معين ﴿عمل صالح﴾ أي ترتب لهم عليه أجر جزيل.

ولما كان فاعل هذه الأشياء مقدماً على المعاطب في نفسه ومحصلاً لغرض الجهاد، أشير على وجه التأكيد في جملة اسمية إلى أنه محسن، أما في حق نفسه في إقامة الدليل بطاعته على صدق إيمانه. وأما في غيره من المؤمنين فبحمايتهم عن طمع الكافرين. وأما في حق الكفار فبحملهم على الإيمان بغاية الإمكان، فقال تعالى معللاً للمجازاة: ﴿إن الله﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿لا يضيع﴾ أي لا يترك تركه ما من شأنه الإهمال ﴿أجر المحسنين﴾* وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً بالوصف.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً
فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْكُمْ طَائِفَةٌ لِنَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِنُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

ولما كانت المشقة بالإنفاق العائد ضرره إلى المال، ووطئ مطلق الأرض الذي قد لا يلزم منه وصول إلى ما يغيظ العدو دون المشقة الحاصلة في النفس بالظماً وما معه من فعل ما يغيظ العدو وينقصه، قدم ذلك على قوله: ﴿ولا ينفقون﴾ ولما كان القليل قد يحتقر، ابتدأ به ترغيباً في قوله: ﴿نفقة صغيرة﴾ ولما كان ربما تعنت متعنت^(١)

(١) العنت: الفساد والإثم والهلاك ودخول المشقة على الإنسان وعنته تعنياً شدد عليه وألزمه ما يصعب عليه أداءه.

فجعل ذكرها قيماً، قال: ﴿ولا كبيرة﴾ إعلماً بأنه معتد به لثلا يترك، وفيه إشارة إلى آية اللمز للمطوعين في الصدقات ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ أي من الأودية بالسير في الجهاد، والوادي: كل منفرج بين جبال وآكام ينفذ فيه السيل، وهو في الأصل فاعل من ودى - إذا سال ﴿إلا كتب لهم﴾ أي ذلك الإنفاق والقطع، بناء للمفعول لأن القصد الحفظ بالكتابة مطلقاً ﴿ليجزئهم الله﴾ أي ذو الجلال والإكرام، أي بذلك من فضله ﴿أحسن ما كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿يعملون﴾ مضاعفاً على قدر الثبات، وأكدت فاصلة الأولى دون هذه لزيادة تلك في المشقة والنفع، ولذا صرح فيها بالأجر والعمل الصالح - نبه على ذلك الإمام أبو حيان. ومن هنا بل من عند ﴿إن الله اشترى﴾ شرع في عطف الآخر على الأول الذي مضمونه البراءة من المشركين والاجتهاد في قتالهم بعد انقضاء مدتهم حيث وجدوا - إلى أن قال ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ - إلى أن قال ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ ثم قال ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ ثم أتبع ذلك قصص المنافقين كما أنه فعل هنا كذلك أن ختم بقوله ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ الآية ثم أتبعها ذكر المنافقين.

ولما تواترت النواهي للمتخلفين وتواصلت الزواجر وتعاضمت التبكيك والتهديد، طارت القلوب وأشفقت النفوس، فكان ذلك مظنة أن لا يتخلف بعدها أحد عن رسول الله ﷺ وعمن يقوم مقامه فيتمكن حينئذ الأعداء من الأموال والذراري والعيال، فأتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون﴾ أي الذين حثهم على الثفر الرسوخ في الإيمان ﴿لينفروا كافة﴾ أي جميعاً فإن ذلك بخل بكثير من الأغراض الصالحة، وهو تعليم لما هو الأنسب بالدين والدنيا من انقسام الناس قسمين: قسماً للجهاد، وقسماً للنفقة وحفظ الأموال والأولاد، كل ذلك بأمره عليه الصلاة والسلام والعمل بما يرضاه، ولا يخفى ذلك على المخلص، ولعل التعبير بالفعل الماضي في قوله مسبباً عما قبله: ﴿فلولا نفر﴾ ليفهم تبكيك من قصد تبكيته من المتخلفين في جميع هذه السورة بأنه كان عليهم أن ينفر مع النبي ﷺ ﴿من كل فرقة﴾ أي ناس كثير يسهل افتراقهم، قالوا: وهو اسم يقع على ثلاثة ﴿منهم طائفة﴾ أي ناس لا ينفكون حافين بالنبي ﷺ يلزمونه، قيل: والطائفة واحد واثنان، فالآية حجة على قبول خبر الواحد ووجوب العمل به، وكأنه عبر به للإشارة إلى الحث على كثرة النافرين كما هو أصل مدلولها الأغلب فيه ﴿ليتفقهوا﴾ أي ليكلف النافرون أنفسهم الفهم منه ﷺ شيئاً فشيئاً ﴿في الدين﴾ أي بما يسمعونه من أقواله ويرونه من جميل أفعاله ويصل إلى قلوبهم من مستنير أحواله، وهذا غاية الشرف للعلم حيث جعل غاية الملازمة له ﷺ للجهاد، هذا إن كان هو ﷺ النافر في تلك الغزاة، وإن كان غيره كان ضمير ﴿يتفقهوا﴾ للباقيين معه ﷺ.

ولما كان من العلم بشاره ومنه نذارة، وكان الإنسان - لما فيه من النقصان - أحوج شيء إلى النذارة، خصها بالذكر فقال عطفاً على نحو: ليخافوا في أنفسهم فيعملوا في خلاصها: ﴿وَلِيَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي يحذروهم ما أمامهم من المخاوف إن فرطوا في جانب التقوى ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي ما أنذرهموه الرسول ﷺ ويبشروهم بما بشرهم به؛ ثم بين غاية العلم مشيراً إلى أن من جعل له غاية غيرها من ترفع أو افتخار فقد ضل ضلالاً كبيراً، فقال موجباً لقبول خبر من بلغهم: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي كلهم ﴿يَحْذَرُونَ﴾ أي ليكون حالهم حال أهل الخوف من الله بما حصلوا من الفقه لأنه أصل كل خير، به تنجلي القلوب فتقبل على الخير وتعرض عن الشر، فإن الحذر تجنب الشيء لما فيه من الضرر، والمراد بالفقه هنا حفظ الكتاب والسنة وفهم معانيهما من الأصول والفروع والآداب والفضائل، وقال الرماني: الفقه فهم موجبات المعاني المضمنة بها من غير تصريح بالدلالة عليها.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَذَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ؕ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيَاتُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ؕ إِيْمَانًا فَمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

ولما علمت المقاصد وتهيأت القلوب لقبول الفوائد، وأمر بالإنذار بالفقه، وكان من الناس من لا يرجع إلا بشديد البأس، أقبل على الكل مخاطباً لهم بأدنى أسنان القلوب ليتوجه إلى الأدنى ويتناول الأعلى منه من باب الأولى فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ادعوا بالاستتھام الإيمان ﴿قاتلوا﴾ أي تصديقاً لدعواكم ذلك ﴿الذين يلونكم﴾ أي يقربون منكم ﴿من الكفار﴾ فالذين يلونهم إن لم تروا غيره أصلح لمعنى يعرض لما في ذلك من حسن الترتيب ومقتضى الحكمة ولأن الجهاد معروف وإحسان، والأقربون أولى بالمعروف، ولتبعدوا العدو عن بلادكم فيكثر صلاحكم ويقل فسادكم وتكونوا قد جمعتم بالتفقه والقتال بين الجهادين: جهاد الحجة وجهاد السيف مع الاحتراس بهذا الترتيب من أن يبقى وراءكم إذا قاتلتم من تخشون كيده.

ولما كانت الملاينة أولى بالمسالمة، والمخاشنة أولى بالمصارمة، قال: ﴿وليجدوا﴾ من الوجدان ﴿فيكم غلظة﴾ أي شدة وحمية لأن ذلك أهيب في صدورهم. وأكف عن فجورهم، وحقيقة الغلظة في الأجسام، استعيرت هنا للشدة في الحرب، وهي تجمع الجراءة والصبر على القتال وشدة العداوة، فإذا فعلوا ذلك كانوا جامعين بين جهاد الحجة والسيف كما قيل:

من لا يعدله القرآن كان له من الصغار وبيض الهند تعديل
 به على ذلك أبو حيان .

ولما كان التقدير: وليكن كل ذلك مع التقوى لا بسبب مال ولا جاه فإنها ملاك
 الأمر كله، قال منبهاً على ذلك بقوله: ﴿واعلموا أن الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿مع
 المتقين﴾ فلا تخافوا أن يؤدي شيء من مصاحبته إلى وهن فإن العبرة بمن كان الله
 معه .

ولما ذكر هذه السورة أي الطائفة الحاضرة بصيغة «لولا» على النفر مع رسول الله
 ﷺ الأمرة بجهاد الكفار والغلظة عليهم، وكان لا يحمل على ذلك إلا ما أشار إليه ختم
 الآية السالفة من التقوى بتجديد الإيمان كلما نزل شيء من القرآن، وكان قد ذكر سبحانه
 المخالفين لأمر الجهاد بالتخلف دون أمر الإيمان حين قال ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا
 بالله وجاهدوا مع رسوله استأنذك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القلعة﴾ التفت
 إلى ذلك ليذكر القسم الآخر وهو القاعد عن الإيمان فقال: ﴿وإذا﴾ وأكد بزيادة النافي
 تنبيهاً على فضل الإيمان فقال: ﴿ما﴾ .

ولما كان المنكي لهم مطلق النزول، بني للمفعول قوله: ﴿أنزلت سورة﴾ أي
 قطعة من القرآن، أي في معنى من المعاني ﴿فمنهم﴾ أي من المنزل إليهم ﴿من يقول﴾
 أي إنكاراً واستهزاء، وهم المنافقون ﴿أيكم﴾ أي أيها العصاة المنافقة ﴿زادته هذه
 إيماناً﴾ أي إيماناً لأنهم متصفون بأصل الإيمان، لأن الزيادة ضم الشيء إلى غيره مما
 يشاركه في صفته، هذا ما يظهرون تستراً، وأما حقيقة حالهم عند أمثالهم فالاستهزاء
 استبعاداً لكونها تزيد أحداً في حاله شيئاً، وسبب شكهم واستفهامهم أن سامعها انقسموا
 إلى قسمين: مؤمنين ومنافقين، ولذلك أجاب تعالى بقوله مسبباً عن إنزالها: ﴿فأما الذين
 آمنوا﴾ أي أوقعوا الإيمان حقيقة لصحة أمزجة قلوبهم ﴿فزادتهم﴾ أي تلك السورة
 ﴿إيماناً﴾ أي بإيمانهم بها إلى ما كان لهم من الإيمان بغيرها وتدبرها ورقة القلوب بها
 وفهم ما فيها من المعارف الموجبة لطمأنينة القلوب وثلج الصدور .

ولما كان المراد بالإيمان الحقيقة وكانت الزيادة مفهومة لمزيد عليه، استغنى عن أن
 يقول: إلى إيمانهم، لذلك ولدلالة ﴿الذين آمنوا﴾ عليه ﴿وهم يستبشرون﴾ أي
 يحصل لهم البشر بما زادتهم من الخير الباقي الذي لا يعدله شيء ﴿وأما الذين﴾ وبين
 أن أشرف ما فيهم مسكن الآفة فقال: ﴿في قلوبهم مرض﴾ فمنعهم الإيمان وأثبت لهم
 الكفران فلم يؤمنوا .

ولما كان المراد بالمرض الفساد المعنوي المؤدي إلى خبث العقيدة، عبر عنه

بالرجس فقال: ﴿فزادتهم رجساً﴾ أي اضطراباً موجباً للشك، وزاد الأمر بياناً بأن المراد المجاز بقوله: ﴿إلى رجسهم﴾ أي شكهم الذي كان في غيرها ﴿وماتوا﴾ أي واستمر بهم ذلك لتمكنه عندهم إلى أن ماتوا ﴿وهم كفرون﴾ أي عريقون في الكفر، وسمي الشك في الدين مرضاً لأنه فساد في الروح يحتاج إلى علاج كفساد البدن في الاحتياج، ومرض القلب أعضل^(١)، وعلاجه أعسر وأشكل، ودواؤه أعز وأطباؤه أقل. ولما زاد الكفار بالسورة رجساً من أجل كفرهم بها، كانت كأنها هي التي زادتهم، وحسن وصفها بذلك كما حسن: كفى بالسلامة داء، وكما قال الشاعر:

أرى بصري قد راينني بعد نصحه وحسبك داء أن تصح وتسلما

قاله الرماني، فالمؤمنون يخبرون عن زيادة إيمانهم وهؤلاء يخبرون عن عدمه في وجدانهم، فهذا موجب شكهم وتماديهم في غيهم وإفكهم، ولو أنهم رجعوا إلى حاكم العقل لأزال شكهم وعرفهم صدق المؤمنين بالفرق بين حالتهم، فإن ظهور الثمرات مزيل للشبهات، والآية من الاحتباك: إثبات الإيمان أولاً دليل على حذف ضده ثانياً، وإثبات المرض ثانياً دليل على حذف الصحة أولاً.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩).

ولما كان التقدير تسبباً عما جزم به من الحكم بعراقتهم في الرجس وازديادهم منه: أفلا يرون إلى تماديهم في النفاق وثباتهم عليه؟ عطف عليه تقريرهم بعذاب الدنيا والإنكار عليهم في قوله: ﴿أولا يرون﴾ أي المنافقون، قال الرماني: والرؤية هنا قلبية لأن رؤية العين لا تدخل على الجملة لأن الشيء لا يرى من وجوه مختلفة ﴿أنهم﴾ أي المنافقين؛ ولما كان مطلق وقوع الفتنة من العذاب، بني للمفعول قوله: ﴿يفتنون﴾ أي يخالطون من حوادث الزمان ونوازل الحداث بما يضطرهم إلى بيان أخلاقهم بإظهار سرائرهم في نفاقهم ﴿في كل عام﴾ أي وإن كان الناس أخصب ما يكونون وأرفعه عيشاً

(١) أعضل الأمر: اشتد واستغلق، وداء عضال أي شديد أعياء الأطباء.

﴿مرة أو مرتين﴾ فيفضحون بذلك، وذلك موجب للتوبة للعالم بأن من علم سرائيرهم - التي هم مجتهدون في إخفائها - عالم بكل شيء قادر على كل مقدور، فهو جدير بأن تمثل أوامره وتخشى زواجره .

ولما كان عدم توبتهم مع فتنهم على هذا الوجه مستبعداً، أشار إليه بأداة التراخي فقال: ﴿ثم لا يتوبون﴾ أي لا يجددون توبة ﴿ولاهم﴾ أي بضمايرهم ﴿يذكرون﴾* أي أدنى تذكر بما أشار إليه الإدغام، فلولا أنه حصلت لهم زيادة في الرجس لأوشك تكرار الفتنة أن يوهي رجسهم إلى أن يزيله ولكن كلما أوهى شيئاً خلقه مثله أو أكثر بسبب الزيادات المترتبة على وجود نجوم القرآن، والتذكر طلب الذكر للمعنى بالكفر فيه، فالآية ذامة لهم على عدم التوبة بإصابة المصائب لعدم تذكر أنه سبحانه ما أصابهم بها إلا بذنوبهم ﴿ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: ٣٤] كما أن أحدهم لا يعاقب فتاه إلا بذنوب وما لم يتب فهو يوالي عقابه .

ولما ذكر ما يحدث منهم من القول استهزاء، أتبعه تأكيداً لزيادة كفرهم وتوضيحاً لتصويره ما يحدث من فعلهم استهزاء من الإيمان والتغامز بالعيون فقال: ﴿وإذا﴾ وأكد بالنافي فقال: ﴿ما﴾ ولما كان الغرض نفس الإنزال لا تعيين المنزل، بني للمفعول قوله: ﴿أنزلت سورة﴾ أي طائفة من القرآن ﴿نظر بعضهم﴾ أي المنافيين ﴿إلى بعض﴾ أي متغامزين سخرية واستهزاء قائلين: ﴿هل يراكم﴾ وأكدوا العموم فقالوا: ﴿من أحد﴾ أي من المؤمنين إن انصرفتم، فإنه يشق علينا سماع مثل هذا، ويشق علينا أن يطلع المؤمنون على هذا السر منا .

ولما كان انصرافهم عن مثل هذا المقام مستهجناً، أشار إلى شدة قبحه بأداة التراخي فقال: ﴿ثم انصرفوا﴾ أي إن لم يكن أحد يراهم، وإن رآهم أحد من المؤمنين تجشموا المشقة وثبتوا؛ ولما كانوا مستحقين لكل سوء، أخبر عنهم في أسلوب الدعاء بقوله: ﴿صرف الله﴾ أي الذي له الغنى المطلق والكمال كله ﴿قلوبهم﴾ أي عن الإيمان؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿بأنهم قوم﴾ وإن كانوا ذوي قوة على ما يحاولونه فإنهم ﴿لا يفقهون﴾* أي قلوبهم مجبولة على عدم الفهم لما بها من الغلظة، وهذا دليل على ختام الآية قبلها، وهاتان الآيتان المختمتان - بـ ﴿لا يفقهون﴾ التاليتان للأمر بالجهاد في قوله ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ الموازي - ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ الآية - قد احتوتا مع وجازتهما على حاصل أوصاف المنافيين التالية لآية ﴿انفروا﴾ المختتم ما هو العام منها في أهل الحاضرة في قوله ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ بـ ﴿يفقهون﴾ ثم عند إعادة ذكرهم بـ ﴿لا يعلمون﴾، وتصويب هاتين الآيتين إلى أهل الحاضرة ظاهر لكونهم

ممن يحضر نزول الذكر كثيراً مع احتمالهما للعموم، والختم هنا بـ ﴿لا يفقهون﴾ أنسب لأن المقام - وهو النظر في زيادة الإيمان بالنسبة إليهم - يقتضي فكراً وتأملاً وإن كان بالنظر إلى المؤمنين في غاية الوضوح.

ولما أمر ﷺ أن يبلغ هذه الأشياء الشاقة جداً من أمر هذه السورة، وكان من المعلوم أنه لا يحمل ذلك إلا من وفقه الله تعالى، وأما المنافقون فيكفرون ذلك وكان انصرافهم دالاً على الكراهة، عرفهم أن الأمر كان يقتضي توفر دواعيهم على محبة هذا الداعي لهم المقتضي لملازمته والبعد عما يفعلونه به من الانصراف عنه، وأن أحواله الداعية لهم إلى محبته أعظم من أحوال آبائهم التي أوجبت لهم منهم من المحبة وعليهم من الحقوق ما هم مفتخرون بالتلبس به والمغالاة فيه، وأن كل ما يحصل بهذا القرآن من العز والشرف في الدنيا فهو لكل من آمن به فقال: ﴿لقد جاءكم رسول﴾.

ولما كان الرسول يجب إكرامه والوقوف في خدمته لأجل مرسله ولو تجرد عن غير ذلك الوصف، شرع يذكر لهم من أوصافه ما يقتضي لهم مزيد إكرامه فقال: ﴿من أنفسكم﴾ أي ترجعون معه إلى نفس واحدة بأنكم لأب قريب، وذلك أقرب إلى الألفة وأسرع إلى فهم الحجة وأبعد من المحل واللجاجة ﴿عزيز﴾ أي شديد جداً ﴿عليه ما عتتم﴾ والعزة: امتناع الشيء بما يتعذر معه ما يحاول منه بالقدرة أو بالقلة أو بالصعوبة، والعتت: لحاق الأذى الذي يضيق الصدر به ولا يهتدي للمخرج منه ﴿حريص﴾ أي بليغ الحرص ﴿عليكم﴾ أي على نفعكم، والحرص: شدة طلب الشيء على الاجتهاد فيه، وقدم الجار لإفادة الاختصاص فقال: ﴿بالمؤمنين﴾ أي العريقين في هذا الوصف كافة خاصة، ولما ذكر الوصف المقتضي للرسوخ، قدم ما يقتضي العطف على من يتسبب له بما يقتضي الوصلة فقال: ﴿رءوف﴾ أي شديد الرحمة لمن له منه عاطفة وصله لما تقدم من معنى الرأفة قريباً.

ولما كان المؤمن يطلق مجازاً على من يمكن منه الإيمان فوصلته الآن ليست بالفعل بل الإمكان، قال تعميماً لرحمته ﷺ كما هو اللائق بشريف منصبه وعظيم خلقه: ﴿رحيم﴾ ولأجل مثل هذه الأغراض النفسية رتب سبحانه هذين الوصفين هكذا، ولكن المعاني المرادة تارة يظهرها الله تعالى لعبده منحة له وإكراماً، وتارة يخفيها إظهاراً لعجزه ونقصانه ثم يظهرها له في وقت آخر إن صدق في التضرع وإظهار الافتقار والتذلل وأدام الطلب، أو لغيره ممن هو أقل منه علماً وأضعف نظراً وفهماً، وإذا تأملت كتابي هذا ظهر لك أن كثيراً من الآيات فسرها على غير المراد منها قطعاً أكابر العلماء، فعلى الإنسان - إذا خفي عليه أمر - أن يقول: لا أعلم، ولا يظن أنه رتب شيء من هذا

الكتاب العزيز لأجل الفواصل، فذلك أمر لا يليق بكلام الله تعالى، وقد عاب النبي ﷺ السجع، لأن الساجع يكون محطّ نظره الألفاظ، فيدير المعاني عليها ويتبعها إياها، فربما عجز اللفظ عن توفية المعنى؛ روى البخاري في الطب وغيره من صحيحه ومسلم في الديات وأبو داود والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قضى في الجنين يقتل في بطن أمه بغرة عبد أو وليدة، فقال الذي قضى عليه: كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك بطل؛ فقال النبي ﷺ: إنما هذا من إخوان الكهان من أجل سجعه الذي سجع، وفي رواية: فقال النبي ﷺ: سجع كسجع الأعراب^(١) وذلك - والله أعلم - أنه لو كان نظره إلى المعنى وتصحيحه لأغنى عن هذا السجع أن يقال: كيف أغرم من لا حياة له، ولو قصد السجع وتهذيب المعنى لأتى مما يدل على نفي الحياة التي جعلها محط أمره فإن ما أتى به لا يستلزم نفيها، ولو تقيّد بالصحة لاغتنى بنفي النطق عن نفي الاستهلال، فصح بهذا أنه دائر مع تحسين اللفظ صح المعنى أم لا، ولا ينطبع في عقل عاقل أن يكون النبي ﷺ يذم السجع وهو يأتي به ويقصده في القرآن أو في السنة، ولو كان ذلك لأسرعوا الرد عليه، وذكر أصحاب فتوح البلاد في فتح مكران من بلاد فارس أن الحكم بن عمرو لما فتحها أرسل بالأخماس مع صحار العبدى، فلما قدم على عمر رضي الله عنه سأله عن مكران وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه فقال: يا أمير المؤمنين! أرض سهلها جبل، وماءها وشل^(٢)، وثمرها دقل^(٣)، وعدوها بطل^(٤)، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وراءها شر منها؛ فقال، أسجاع أنت أم مخبر؟ فقال: لا بل مخبر، قال: لا والله! لا يغزوها جيش لي ما أطعت. فقد جعل الفاروق السجع قسيماً للخير فدل على أن التقيد به عيب لإخلاله بالفائدة أو بتمام الفائدة، ولعله إنما جوز أن يكون مخبراً لأنه انفك عن السجع في آخر كلامه وكرر لفظ «قليل» فكان ما ظنه، لأنه لو أراد السجع لأمكنه أن يقول والكثير بها ذليل، والقليل بها ضائع قليل، وما وراءها شر منها بأقوم قيل؛ وقد نفى سبحانه عن هذا القرآن المجيد تصويب النظر إلى السجع كما نفى عنه الشعر فإنه تعالى قال ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٩١٠ ومسلم ١٦٨١ وأبو داود ٤٥٧٦ وابن حبان ٦٠١٩ والدارمي ١٩٧/٢

والبيهقي ١١٤/٨ وابن الجارود ٧٧٦ وعبد الرزاق ١٨٣٣٨ وأحمد ٥٣٥/٢ من حديث أبي هريرة.

- وأخرجه النسائي ٥١/٨ والطبراني ١١٧٦٧ من حديث ابن عباس.

(٢) الوشل: الماء القليل يُحلب من صخرة أو جبل.

(٣) الدقل: أردأ التمر.

(٤) بطل الشيء: ذهب ضياعاً وخسراناً.

ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴿ [الحاقة : ٤١، ٤٢] فكما أن قول الشاعر إتيانه بالكلام موزوناً، وكذلك قول الكاهن إتيانه بالكلام مسجوعاً والقرآن ليس من هذا ولا من هذا. وإن وقع فيه كل من الأمرين فغير مقصود إليه ولا معول عليه، بل لكون المعنى انتظم به على أتم الوجوه فيؤتى به لذلك، ثم تبين أنه غير مقصود بالانفكاك عنه في كثير من الأماكن بقرينة ليس لها مجانس في اللفظ لتمام المعاني المرادة عندها فيعلم قطعاً أن ذلك غير مقصود أصلاً لأن مثل ذلك لا يرضى به أقل الساجعين، بل يراه عجزاً وضيقاتاً عن تكميل المشاكلة ونقصاً - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ومما يوجب لك القطع بأن ترتيب هذين الاسمين الشريفين هكذا لغير مراعاة الفواصل قوله تعالى في سورة الحديد ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة﴾ [الحديد: ٢٧] وسيأتي إن شاء الله في سورة طه عن الفخر الرازي والقاضي أبي بكر الباقلاني منع النظر إلى السجع في الكتاب العزيز نقلاً عن جميع الأشاعرة، وإذا تأملت الفواصل في الإتيان بها تارة بكثرة وتارة بقلّة، وتارة تترك بالكليّة ويؤتى في كل آية بفاصلة لا توافق الأخرى، علمت أن هذا المذهب هو الصواب ولا سيما آخر سورة ﴿اقرأ﴾ وإذا تأملت كتب أهل العدد أتقنت علم هذا المستند، وإذا تأملت ما قلته في هذا النحو من كتابي مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور لم يبق عندك شك في شيء من هذا، فإياك أن تجنح لهذا القول فتكون قد وقعت في أمر عظيم وأنت لا تشعر، وأورد سبحانه هذه الآية إيراد المخاطب المتلطف المزيل لما عندهم من الريب بالقسم، فكأنه قال: ما لكم تنصرفون عن حضرته السماء وشمائله العلى! والله لقد جاءكم - إلى آخره، ثم أقبل عليه مسلماً له مقابلاً لإعراضهم إن أعرضوا بالإعراض عنهم والبراءة منهم ملتفتاً إلى أول السورة الأمر بالبراءة من كل مخالف، قائلاً مسبباً عن النصيحة بهذه الآية التي لا يشك عاقل في مضمونها: ﴿فإن تولوا﴾ أي اجتهدوا في تكليف فطرهم الأولى أن ولوا مدبرين عنك بالانصراف المذكور أو غيره بعد النصيحة لهم بهذه الآية ﴿فقل﴾ أي استعانة بالله تفويضاً إليه ﴿حسبي﴾ أي كافي؛ قال الرماني: وهو من الحساب لأنه جل ثناءه يعطى بحسب الكفاية التي تغني عن غيره، ويزيد من نعمته ما لا يبلغ إلى حد ونهاية إذ نعمه دائمة ومنته متظاهرة ﴿الله﴾ أي الملك الأعلى الذي لا كفوء له، وإنما كان كافياً لأنه ﴿لا إله إلا هو﴾ فلا مكافئ له فلا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

ولما قام الدليل على أنه لا كفوء له، وجب قصر الرغائب عليه فقال: ﴿عليه﴾ أي وحده ﴿توكلت﴾ لأن أمره نافذ في كل شيء ﴿وهو رب﴾ أي مالك ومخترع ومدبر؛ ولما كان في سياق القهر والكبرياء بالبراءة من الكفار والكفاية للأبرار، كان المقام

بالعظمة أنسب كآية النمل فقال: ﴿العرش العظيم﴾* أي المحيط بجميع الأجسام
 الحاوي لسائر الأجرام الذي ثبت بأية الكرسي وغيرها أن ربه أعظم منه لأن عظمته على
 الإطلاق فلا شيء إلا وهو في قبضته وداخل في دائرة مملكته، وإذا كان كافي فأنا بريء
 ممن تولى عني وبعد مني كائناً من كان في كل زمان ومكان فقد عانت آخر السورة أولها
 وصافح متتهاها مبتدأها وتأكد ما فهمته من سر الالتفات في ﴿فسيحوا﴾ وفي ﴿فإن تبتم
 فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ والله تعالى أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس

مكية - آياتها مائة وتسع

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

وهي أولى المثين إن جعلنا براءة مع الأنفال من الطول، وإلا فبراءة أولاهن، مقصودها وصف الكتاب بأنه من عند الله لما اشتمل عليه من الحكمة وأنه ليس إلا من عنده سبحانه لأن غيره لا يقدر على شيء منه، وذلك دال بلا ريب على أنه واحد في ملكه لا شريك له في شيء من أمره، وتمام الدليل على هذا قصة قوم يونس عليه السلام بأنهم لما آمنوا عند المخايل كشف عنهم، فدل قطعاً على أن الآتي به هو الله الذي آمنوا به إذ لو كان غيره لكان إيمانهم به موجباً للإيقاع بهم، ولو عذبوا كغيرهم لقليل: هذه عادة الدهر، كما قالوا: قد مس آباءنا الضراء والسراء ودل ذلك على أن عذاب غيرهم من الأمم إنما هو من عند الله لكفرهم لما اتسق من ذلك طرداً بأحوال سائر الأمم من أنه كلما وجد الإصرار على التكذيب وجد العذاب، وعكساً منه كلما انتفى في وقت يقبل قبول التوبة انتفى - والله الموفق ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي الذي لا أمر لأحد سواه فلا كلام يشبه كلامه فلا كفوء له ﴿الرحمن﴾ الذي عم بكلامه جميع خلقه فأوضح البيان ﴿الرحيم﴾ الذي أتم لمطيعهم نعمة الامتنان ﴿الر﴾ فخم الرء ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم، وأمالها ورش عن نافع بين بين، والباقون بالإمالة المحضة، والأصل في ذلك الفتح، وكذا ما كان من أمثالها مما ألفاتها ليست منقلبة عن ياء نحو ما ولا، وإمالتها للتنبيه على أنها أسماء للحروف وليست حروفاً - نقل ذلك عن الواحدي.

لما قدم في أول الأعراف الحث على إبلاغ النصيحة بهذا الكتاب وفرغ مما اقتضاه

السياق من التحذير من مثل وقائع الأولين ومصارع الماضين ومما استتبع ذلك من توصيل القول في ترجمة هذا النبي الكريم مع قومه في أول أمره وأثنائه وآخره في سورتي الأنفال وبراءة، وختم ذلك بأن سور الكتاب تزيد كل أحد مما هو ملائم له متهيباً لقبوله وتبعده عما هو منافر له بعيد من قبول ملاءمته، وأن الرسول ﷺ بذلك قد حوى من الأوصاف والحلي والأخلاق العلى ما يوجب الإقبال عليه والإسراع إليه. والإخبار بأن توليهم عنه لا يضره شيئاً لأن ربه كافيه لأنه لا مثل له وأنه ذو العرش العظيم؛ لما كان ذلك كذلك، أعاد سبحانه القول في شأن الكتاب الذي افتتح به الأعراف وختم به سورة التوبة، وزاده وصف الحكمة وأشار بأداة البعد إلى أن رتبته فيها بعيدة المنال بديعة المثال فقال: ﴿تلك﴾ أي الآيات العظيمة جداً التي اشتملت عليها هذه السورة، أو السور التي تقدمت هذه السورة أو هذه الحروف المقطعة المشيرة إلى أن القرآن كلام الله وإلا لما أعجز القادرين على التلفظ بهذه الأحرف ﴿آيت الكتاب﴾ أي الذكر الجامع لكل خير، وهو هذا القرآن الذي وافق كل ما فيه من القصص كل ما في التوراة والإنجيل من ذلك، فدل ذلك على صدق الآتي به قطعاً لأنه لم يكن يعرف شيئاً مما في الكتابين ولا جالس أحداً يعلمه ﴿الحكيم﴾ فكان فيما مضى - أن كونه من عند الله كاف في وجوب اتباعه - وفيما هنا تأكيد الوجوب بكونه مع ذلك حكيماً والآية: العلامة التي تنبئ عن مقطع الكلام من جهة مخصوصة، والحكيم: الناطق بالحكمة. وهي المعروف بما يجتمع عليه مما يمنع الفعل من الفساد والنقص، استعير له ذلك لأنه دليل كالناطق بالحكمة لأنه يؤدي إلى المعرفة التي يميز بها طريق النجاة من طريق الهلاك، وهو حاكم يبين الحق من الباطل في الأصول والفروع ويحكم بالعدل الذي لا جور فيه بوجه في كل نازلة، ومحكم لما أتى به، مانع له من الفساد، لا يمحوه الماء ولا تحرقه النار ولا تغيره الدهور، وهذا ما ظهر لي في التحامها بما قبلها؛ وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تضمنت سورة براءة قوله تعالى ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ [براءة: ٤٠] وقوله ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [براءة: ٤٣] وقوله ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم﴾ [براءة: ٦١] وقوله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ [براءة: ١٢٨] إلى آخر السورة إلى ما تخلل أثناء آي هذه السورة الكريمة مما شهد لرسول الله ﷺ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب ووصفه بالرافقة والرحمة، هذا ما انطوت هي والأنفال عليه من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه وعلو دعوته وإعلاء كلمته إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه، كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك ومثيراً لتحرك

ساكن الحسد من العدو العظيم ما منحه عليه السلام، قال تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَسِحْرٌ مَبِينٌ﴾ ثم قال ﴿إِنْ رَبِّكُمْ اللَّهُ﴾ الآيات، فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبيده، وإذا كان الكل ملكه وخلقَه فيفعل في ملكه ما يشاء ويحكم في خلقه بما يريد ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ثم توعد سبحانه الغافلين عن التفكير في عظيم آياته حتى أدتهم الغفلة إلى مرتكب سلفهم في العجب والإنكار حتى قالوا ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] وقالوا ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ يُرِينَ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] وهذه مقالات الأمم المتقدمة ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] ﴿قَالُوا أَنْزَمْنَا لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣] فقال تعالى متوعداً للغافلين ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ثم وعد المعتبرين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾، وكل هذا بين الالتحام جليل الالتئام، ثم تناسجت أي السور - انتهى.

ولما كان كونه من عند الله مع كونه حكيماً - موجباً لقبوله بادية بدء والسرور به لما تقرر في العقول وجبلت عليه الفطر من أنه تعالى الخالق الرازق كاشف الضر ومدبر الأمر، كان ذلك موضع أن يقال: ما كان حال من تلي عليهم؟ فقيل: لم يؤمنوا، فقيل: ما شبهتهم؟ هل قدروا على معارضته والطعن في حكمته؟ فقيل: لا! بل تعجبوا من إنزاله على محمد ﷺ وليس بأكثرهم مالاً ولا بأقدمهم سناً، فرجع حاصل تعجبهم إلى ما قاله تعالى إنكاراً عليهم. فإنه لو أرسل ذا سن قالوا مثل ذلك، وهل مثل ذلك محل العجب! ﴿أَكَانَ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أي الذين فيهم أهلية التحرك إلى المعالي، والعجب: تغير النفس بما لا يعرف سببه مما خرج عن العادة؛ ثم ذكر الحامل على العجب وهو اسم «كان» فقال بعد ما حصل لهم شوق إليه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ أي ألقينا أوامرنا بما لنا من العظمة بواسطة رسلنا في خفاء منهن ﴿إِلَى رَجُلٍ﴾ أي هو في غاية الرجولية، وهو مع ذلك ﴿مِنْهُمْ﴾ بحيث إنهم يعرفون جميع أمره كما فعلنا بمن قبلهم والملك العظيم المَلِكُ المالك التام الملك لا اعتراض عليه فيما به تظهر خصوصيته من إعلاء من شاء.

ولما كان في الإيحاء معنى القول، فسره بقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي عامة، وهم الذين تقدم نداءهم أول البقرة، ما أمامهم من البعث وغيره إن لم يؤمنوا أصلاً أو إيماناً

خالصاً ينفي كل معصية صغيرة أو كبيرة وكل هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات ﴿ويبشر﴾ أي خص ﴿الذين آمنوا﴾ أي أوجدوا هذا الوصف وعملوا تصديقاً لدعواهم له الصالحات، أي من الأعمال اللسانية وغيرها، بالبشارة بقبول حسناتهم وتكفير سيئاتهم والتجاوز عن هفواتهم وترفع درجاتهم كما كان إرسال الرسل قبله وكما هو مقتضى العدل في إثابة الطائع وعتاب العاصي، والإنذار: الإعلام بما ينبغي أن يحذر منه، والتبشير: التعريف بما فيه السرور، وأضاف القدم - الذي هو السابقة بالطاعة - إلى الصدق في قوله تعالى موصلاً لفعل البشارة إلى المبشر به دون حرف جر: ﴿أن لهم﴾ أي خاصة ﴿قدم صدق﴾ أي أعمالاً حقة ثابتة قدموها لأنفسهم صدقوا فيها وأخلصوا فيما يترروا له لأنهم خلقوا له وكان مما يسعى إليه بالأقدام، وزاد في البشارة بقوله: ﴿عند ربهم﴾ ففي إضافة القدم تنبيه على أنه يجب أن يخلص له الطاعة كإخلاص الصدق من شوائب الكذب، وفي التعبير بصفة الإحسان إشارة إلى المضاعفة.

ولما ثبت أن الرسول وما أرسل به على وفق العادة، انتفى أن يكون عجباً من هذه الجهة، فصار المحل قابلاً لأن يتعجب منهم فيقال: ما قالوا حين أظهروا العجب؟ ومن أي وجه رأوه عجباً؟ فقيل: ﴿قال الكافرون﴾ أي الراسخون في هذا الوصف منهم وتبعهم غيرهم مؤكدين لما يحق لقولهم من الإنكار ﴿إن هذا﴾ أي القول وما تضمنه من الإخبار بما لا يعرف من البعث وغيره ﴿لسحر﴾ أي محمد لساحر - كما في قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿مبين﴾ أي ظاهر في نفسه، وهو من شدة ظهوره مظهر لكل شيء أنه كذلك، فجاءوا بما هو في غاية البعد عن وصفه، فإن السحر قد تقرر لكل ذي لب أنه - مع كونه تمويهاً لا حقيقة له - شر محض ليس فيه شيء من الحكمة فضلاً عن أن يمتطي الذروة منه مع أن في ذلك ادعاءهم أمراً متناقضاً، وهو أنه من قول البشر كما هي العادة في السحر، وأنهم عاجزون عنه، لأن السحر فعل تخفي الحيلة فيه حتى يتوهم الإعجاز به، فقد اعترفوا بالعجز عنه وكذبوا في ادعاء أنه لسحر لأن الآتي به منهم لم يفارقهم قط وما خالط عالماً لا بسحر ولا غيره حتى يخالطهم فيه شبهة، فهم يعلمون أن قولهم في غاية الفساد، فشرع سبحانه يقيم الدليل على بطلان قولهم من أنه - مع ما تضمنه من البعث - سحر، وعلى حقيقة أنه من عنده من غير شبهة، وعلى أن الرسالة لا عجب فيها، لأنه سبحانه خلق الوجود كله وهو نافذ الأمر فيه وقد ابتلى من فيه من العقلاء ليردهم إليه ويحاسبهم فإنه لم يخلقهم سدى لأنه حكيم، فلا بد من رسول يخبرهم بما يرضيه وما يغضبه لتقوم بذلك الحجة فقال: ﴿إن ربكم﴾ أي الموجد لكم

والمربي والمحسن ﴿الله﴾ أي من ربي شيئاً ينبغي أن يكون حكيماً وقادراً على أسباب صلاحه، فأيقظوا أنفسكم من سنة غفلتها تعلموا أن هذا الكتاب من عند الذي له العظمة كلها قطعاً، وأنه قادر على بعثكم لأنه ربكم ﴿الذي﴾ بدأ الخلق بأن ﴿خلق﴾ أي قدر وأوجد ﴿السموات والأرض﴾ على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع ﴿في ستة أيام﴾ لحكمة أرادها على أن ذلك وقت يسير لا يفعل مثل ذلك في مثله إلا من لا يعجزه شيء.

ولما أوجد سبحانه هذا الخلق الكثير المتباعد الأقطار الواسع الانتشار المفتقر إلى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير، عبر سبحانه عن عمله فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيراً إلى عظمتهم بأداة التراخي: ﴿ثم استوى﴾ أي عمل في تديبه وإتقان ما فيه وإحكامه عمل المعنتي بذلك ﴿على العرش﴾ المتقدم وصفه بالعظمة، وليست «ثم» للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منالها؛ ثم بين ذلك الاستواء بقوله: ﴿يدبر﴾ لأن التدبير أعدل أحوال الملك فالاستواء كناية عنه ﴿الأمر﴾ كله فلا يخفى عليه عاقبة أمر من الأمور، فحصل الأمن بهذا من أن يفعل شيء بغير علمه، لأن التدبير تنزيل الأمور في مراتبها على إحكام عواقبها، وهو مع ذلك منزّه عما تعرفونه من أحوال الملوك من أنه يكون في ممالكهم من يقضي بعض الأمور بغير إذن منهم وإن علموا به لعجزهم عن المجاهرة بإدامة دفعه، بل هو متصف بأنه ﴿ما من شفيح﴾ أي وإن كان بليغ الاتصاف بذلك.

ولما كان تمام قهره وعظيم سلطانه لا يفيد أحداً عند إذنه له إذناً عاماً لجميع الأزمان والأماكن، أتى بالجار فقال: ﴿إلا من بعد إذنه﴾ فإذا لم يقدر شفيح على الكلام في الشفاعة إلا بإذنه فكيف يقدر أحد أن يأتي بشيء من الأشياء بغير إذنه فكيف يأتي بكتاب حكيم ليس من عنده يعجز الخلق عن معارضته، فحصل الأمن أن يكون غيره قاله أو شفع فيمن أبلغه فأبلغه من غير إرادة منه سبحانه، فتنحى عنه ليس إلا من عنده وأنه أمر بإبلاغه، وقد عرف من هذا أن ﴿ما من شفيح﴾ في موضع الدلالة على أنه لا يخرج عن تديبه أمر من الأمور ولا يغلبه شيء أصلاً فبطل ما كانوا يقولون في الأصنام من الشفاعة وغيرها والشفيع: السائل في غيره بتبليغ منزلته من عفو أو زيادة منزلة، وقد وقع ذكر الكتاب والرسول والعرش مرتباً في أول هذه على ما رتب آخر تلك؛ فلما تقرر ما وصف به من العظمة التي لا يشاركه فيها أحد، وجب أن يعبد عبادة لا يشاركه فيها شيء، فنبه على ذلك بقوله: ﴿ذلكم﴾ أي العظيم الشأن العالي المراتب ﴿الله﴾ أي الملك الأعلى ﴿ربكم﴾ الذي تقرر له من العظمة والإحسان بالإيجاد والتربية ما لا يبلغه

وصف ﴿فاعبده﴾ أي فخصّوه بالعبادة فإن عبادتكم مع الإشراك ليست عبادة، ولولا فضله لم يكن لمن زل أدنى زلة طاعة.

ولما سبب سبحانه عن أوصافه العلى ما وجب له من الأمر بالعبادة، تسبب عن ذلك الإنكار عليهم في التوقف عنها والاحتياج فيها إلى بروز الأمر بها لما قام على استحقاقه للأفراد بها من الأدلة التي فيهم شواهدا فقال: ﴿أفلا تذكرون﴾ أي ولو بأدنى أنواع التذكر بما أشار إليه الإدغام، ما أخبركم سبحانه به ونبهكم عليه بما يعلمه كل أحد من نفسه من أنه لا يقدر أحد أن يعمل كل ما يريد، ويعمل كثيراً مما لا غرض له فيه ويعلم أنه يضره إلى غير ذلك من الأمور ليعلم قطعاً أن الفاعل الحقيقي غيره وأنه لا بد لهذا الوجود من مؤثر فيه هو في غاية العظمة لا يصح بوجه أن يشاركه شيء ولو كان أعظم ما يعرف من الأشياء فكيف بجماد لا يضر ولا ينفع!

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

فلما تقرر أنه هو الذي بدأ الخلق، تقرر بذلك أنه قادر على إعادته فقال: ﴿إليه﴾ أي خاصة ﴿مرجعكم﴾ أي رجوعكم وموضع رجوعكم ووقته حال كونكم ﴿جميعاً﴾ لا يتخلف منكم أحد، تقدم وعده لكم بذلك ﴿وعد الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿حقاً﴾ فهو تعليل لعبادته لوحدانيته، فيحيون بعد الموت ويحشرون إلى موضع جزاء الله تعالى لهم في زمانه الذي قدره له، ويرفع ما كان لهم من المكنة في الدنيا، فعلم قطعاً أنه لا بد من الرسول، فاستعدوا للقاء هذا الملك الأعظم بكل ما أمركم به رسوله ﷺ؛ ثم أوضح التنبيه على قدرته مضمناً له بيان حكمته فقال معللاً لوجوب المرجع إليه مؤكداً عدلاً لهم في عداد المنكر للابتداء لأجل إنكارهم ما يلزم عنه من تمام القدرة على البعث وغيره: ﴿إنه يبدؤ الخلق﴾ أي ينشئه النشأة الأولى، له هذه الصفة متجددة التعلق على سبيل الاستمرار ﴿ثم يعيده﴾ ليقيم العدل في خلقه بأن ينجز لمن عبده، وعده بأن يعزه ويذل عدوه وذلك معنى قوله: ﴿ليجزى﴾.

ولما كان في سياق البعث، قدم أهل الجزاء وبدأ بأشرفهم فقال: ﴿الذين آمنوا﴾ أي أوجدوا هذا الوصف الذي هو الأساس الممتقن لكل عمل صالح ﴿وعملوا﴾ أي وصدقوا إيمانهم بأن عملوا ﴿الصلحت﴾ جزء كائناً ﴿بالقسط﴾، واقتصر على العدل

دون الفضل ليفهم أن ترك الحشو مخل بالعمل الذي هو محط الحكمة التي هي أعظم مصالح السورة، والجزاء: الإعطاء بالعمل ما يقتضيه من خير أو شر، فلو كان الإعطاء ابتداء لم يكن جزاء، ولو كان ما لا يقتضيه العمل لم يكن جزاء مطلقاً، والقسط: العدل ﴿والذين كفروا﴾ أي أوجدوا هذا الوصف ﴿لهم﴾ أي في الجزاء على جهة الاستحقاق ﴿شراب من حميم﴾ أي مسخن بالنار أشد الإسخان ﴿وعذاب أليم﴾ أي بالغ الإيلام ﴿بما كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿يكفرون﴾ فإن عذابهم من أعظم نعيم المؤمنين الذين عادوهم فيه سبحانه ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ [سورة المطففين: ٣٤-٣٦] وكأنه قال: ﴿يبدأ﴾ مضارعاً لا كما قال في آية أخرى ﴿كما بدأكم تعودون﴾ [الأنفال: ٢٩] حكاية للحال وتصويراً لها تنبيهاً على تأمل ما يتجدد إنشائه ليكون أدعى لهم إلى تصور القدرة على الإعادة؛ قال الرماني: وقد تضمنت الآية البيان عما يوجبه التمكين في الدنيا من تجديد النشأة للجزاء لأنه لا بد - مع التمكين من الحسن والقبیح - من ترغيب وترهيب لا يؤمن معه العذاب على الخلود ليخرج المكلف بالزجر عن القبیح عن حال الإباحة له يرفع التبعة عليه - انتهى. فقد لاح بما ذكر مع ما تعين في أثناء السورة بتكريره لتوضيحه وتقريره - أن مقصودها وصف الكتاب بما يدل قطعاً على أنه من عنده سبحانه وبإذنه، لأنه لا غائب عن علمه ولا مداني لقدرته ولا مجترىء على عظمته، وأنه تام القدرة متفرد بالخلق والأمر فهو قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء، وأن المراد بالكتاب البشارة والندارة للفوز عند البعث والنجاة من غوائل يوم الحشر مع أنه سبحانه نافذ القضاء، فلا تغني الآيات والدلالات البيّنات عن حكم بشقاوته وقضى بغوايته، وأن ذلك من حكمته وعدله فيجب التسليم لأمره وقطع الهمم عن سواه؛ ثم شرع سبحانه يقرر أمر بدئه للخلق وإعادته في سياق مذكر بالنعمة التي يجب شكرها، ويسمى المعرض عن شكره كافراً فقال: ﴿هو﴾ أي لا غيره ﴿الذي جعل﴾ أي بما هياً من الأسباب ﴿الشمس﴾ .

ولما كان النور كيفية قابلة للشدة والضعف، خالف سبحانه في الأسماء مما يدل على ذلك فقال في نور الشمس: ﴿ضياء﴾ أي ذات نور قوي ساطع وقدرها منازل، هكذا التقدير، لكن لما كانت في قلبها بطيئة بالنسبة إلى القمر ذكره دونها فقال: ﴿والقمر﴾ أي وجعل القمر ﴿نوراً﴾ أي ذا نور من نورها ﴿وقدره﴾ أي وزاده عليها بأن قدره مسيرة ﴿منازل﴾ سريعاً يقلبه فيها، وباختلاف حاله في زيادة نوره ونقصانه تختلف أحوال الرطوبات والحرارات التي دبر الله بها هذا الوجود - إلى غير ذلك من الأسرار التي هي فرع وجود الليل والنهار ﴿لتعلموا﴾ بذلك علماً سهلاً ﴿عدد السنين﴾ أي

المنقسمة إلى الفصول الأربعة وما يتصل بذلك من الشهور وغيرها ليتمكن لكم تدبير المعاش في أحوال الفصول وغيرها ﴿والحساب﴾ أي في غير ذلك مما يدل على بعض تدبيره سبحانه .

ولما كان ذلك مشاهداً لا مرية فيه، وصل به قوله: ﴿ما خلق الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ذلك﴾ أي الأمر العظيم جداً ﴿إلا بالحق﴾ أي خلقاً ملتبساً بالحق الكامل في الحقيقة لا مرية فيه، فعلم أنه قادر على إيجاد الساعة كذلك إذ لا فرق، وإذا كان خلقه كذلك فكيف يكون أمره الناشئ عنه الخلق غير الخلق بأن يكون من السحر الذي مبناه على التمويه والتخييل الذي هو عين الباطل، أو ما خلقه إلا بسبب إظهار الحق من العدل بين العباد بإعزاز الطائع وإذلال العاصي، فإنه لا نعيم كالانتصار على المعادي والانتقام من المشائء، والجعل: وجود ما به يكون الشيء على صفة لم يكن عليها، والشمس: جسم عظيم النور فإنه يكون ضياء النهار؛ والقمر: جسم نير يبسط نوره على جميع الظاهر من الأرض ويكسفه نور الشمس؛ والنور: شعاع فيه ما ينافي الظلام؛ والحساب: عدد يحصل به مقدار الشيء من غيره .

ولما كان النظر في هذه الآيات من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى كثير من الاتصاف بقابلية العلم، ختم الآية بقوله: ﴿يفصل﴾ أي الله في قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحفص عن عاصم بالياء التحتية، وبالالتفات إلى أسلوب العظمة تعظيماً للبيان في قراءة الباقيين بالنون ﴿الآيت﴾ أي يبين الدلائل الباهرة واحدة في إثر واحدة متفصلة بياناً شافياً. ولما كان البيان لمن لا علم له كالعدم، قال: ﴿لقوم﴾ أي لهم قوة المحاولة لما يريدون ﴿يعلمون﴾ أي لهم هذا الوصف على سبيل التجدد والاستمرار؛ ولما كانت لهم المعرفة التامة والنظر الثاقب في منازل القمر عدت من الجلي (١).

﴿إِنَّ فِي أُخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْتَفْقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَاؤُهُم نَارٌ مِّمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ
النَّعِيمِ ﴿٩﴾ .

ولما أشار سبحانه إلى الاستدلال على فناء العالم بتغييره وإلى القدرة على البعث

(١) الجلي: ضد الخفي والخير يجلو جلاء أي: وضع .

بإيجاد كل من الملوين^(١) بعد إعدامه في قوله - مؤكداً له لإنكارهم أن يكون في ذلك دلالة: ﴿إن في اختلاف الليل﴾ أي على تباين أوصافه ﴿والنهار﴾ أي كذلك ﴿وما﴾ أي وفيما ﴿خلق الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿في السموات والأرض﴾ من أحوال السحاب والأمطار وما يحدث من ذلك الخسف والزلازل والمعادن والنبات والحيوانات وغير ذلك من أحوال الكل التي لا يحيط البشر بإحصائها؛ لما أشار إلى ذلك ختمها بقوله: ﴿لايت﴾ أي دلالات بينة جداً ﴿لقوم يتقون﴾* أي أن من نظر في هذا الاختلاف وتأمل تغير الأجرام الكبار كان جديراً بأن يخاف من أن تغير أحواله وتضطرب أموره فيتقي الله لعلمه قطعاً بأن أهل هذه الدار غير مهملين، فلا بد لهم من أمر ونهي وثواب وعقاب؛ والاختلاف: ذهاب كل من الشيتين في غير جهة الآخر، فاختلاف الملوين: ذهاب هذا في جهة الضياء وذاك في جهة الظلام؛ والليل: ظلام من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني، وهو جمع ليلة كتمر وتمر؛ والنهار: اتساع الضياء من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس؛ والخلق: فعل الشيء على ما تقتضيه الحكمة، وأصله التقدير؛ ونبه بما خلق في السماوات والأرض على وجوه الدلالات. لأن الدلالة في الشيء قد تكون من جهة خلقه أو اختلاف صورته أو حسن منظره أو كثرة نفعه أو عظم أمره أو غير ذلك.

ولما أشير بالآية إلى انقراض الدنيا بأن الحادث لا ثبات له، وقام الدليل القطعي على المعاد، ناسب تعقيبها بعيب من اطمأن إليها في سياق مبين أن سبب الطمأنينة إنكار الطمأنينة اعتقاداً أو حالاً؛ ولما كانت ختم تلك بـ ﴿يتقون﴾ لاح أن ثم من يتقي ومن لا يتقي؛ ولما كان الغرور أكثر، بدأ به تنفيراً عن حاله، لأن درء المفسد أولى من جلب المصالح، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم: ﴿إن الذين﴾ ولما كان الخوف والرجاء معدن السعادة، وكان الرجاء أقرب إلى الحث على الإقبال، قال مصرحاً بالرجاء ملوحاً إلى الخوف: ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ بالبعث بعد الموت ولا يخافون ما لنا من العظمة ﴿ورضوا﴾ أي عوضاً عن الآخرة ﴿بالحيوة الدنيا﴾ أي فعملوا لها عمل المقيم فيها مع ما إشتملت عليه مما يدل على حقارتها ﴿واطمأنوا﴾ إليها مع الرضى ﴿بها﴾ طمأنينة من لا يزعج عنها مع ما يشاهدونه مع سرعة زوالها ﴿والذين هم﴾ أي خاصة ﴿عن آياتنا﴾ أي على ما لها من العظمة لا عن غيرها من الأحوال الدنية الفانية ﴿غفلون﴾ أي غريقون في الغفلة، وتضمن قوله تعالى استثناءً: ﴿أولئك﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ماؤهم النار﴾

(١) الملوين: الليل والنهار.

بما ﴿ أي بسبب ما ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يكسبون ﴾ * ﴿ فإن كسبهم كله ضلال - أنه لا يعاجلهم بالعقاب على تأخير المتاب، وجعلت ملاقة ما لا يقدر عليه إلا الله ملاقة الله تفخيماً لشأنها كما جعل إتيان جلائل آيات الله في قوله: ﴿ إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾ [البقرة: ٢١٠] ونحوه، والاطمئنان: الركون إلى الشيء على تمكن فيه، فهؤلاء مكنوا الأحوال للدنيا فصار فرحهم وسخطهم لها؛ والغفلة: ذهاب المعنى عن القلب بما يضاد حضوره إياه، واليقظة نقيضها.

ولما انقضى هذا القسم حالاً ومالاً، أتبعه سبحانه القسم الآخر بقوله مؤكداً لإنكار الكفار هدايتهم: ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف بما لهم من القوة النظرية التي كمالها معرفة الأشياء وسلطانها معرفة الله تعالى ﴿ وعملوا ﴾ أي وصدقوا دعواهم الإيمان بأن عملوا ﴿ الصالحات ﴾ بالقوة العملية التي سلطانها عبودية الله تعالى، والصالح: ما جاء بالحث عليه الأنبياء عليهم السلام ﴿ يهديهم ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ﴿ بآيماهم ﴾ أي بسبب تصديقهم وإذعانهم لمعرفة الآيات التي غفل عنها الذين يأملون البقاء ولا يرجون اللقاء، فقادتهم إلى دار السلام، وهذا كما كان كثير من الصحابة رضي الله عنهم بعد إسلامهم يشدد تعجبهم مما كان من تباطئهم عن الإسلام، وكما ترى أنك تخنق على بعض الكلمة فلا يدعك حظ النفس ترى له حسنة، ثم إنك قد ترضى عنه فتراه كله محاسن.

ولما ذكر أن مآل القسم الأول النار، ذكر مآل هذا القسم في معرض سؤال من يقول: ماذا تورثهم هدايتهم؟ ف قيل له: ﴿ تجري ﴾ وأشار إلى قرب منال المياه وانكشافها عن كل ما ينتفع به في غير ذلك بإثبات الجار فقال: ﴿ من تحتهم ﴾ أي تحت غرفهم وأسرتهم وغير ذلك من مشتبهاتهم كقوله تعالى ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ [مريم: ١٤] وكذا قول فرعون ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ [الزخرف: ٥١] ﴿ الأنهر ﴾ كائنين ﴿ في جثت النعيم ﴾ أي التي ليس فيها من غيره.

﴿ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَّمَ وَأَجْرٌ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ ﴿ وَوَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنذُرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢﴾ .

ولما كان الواجب على العباد أولاً تنزيهه تعالى عن النقائص التي أعظمها الإشراك. وكان من فعل ذلك سلم من غوائل الضلال فربح نفسه فعرف ربه وفاز في شهود حضرته بمشاهدة أوصاف الكمال، أشار إلى التسليك في ذلك بقوله: ﴿ دعوهم ﴾

أي دعاؤهم العظيم الثابت الكثير الذي يقولونه فيها لا على وجه التكليف، بل يلهمونه إلهام النفس في الدنيا ﴿فيها﴾ وأشار إلى مجامع التنزيه عن كل شائبة نقص فقال: ﴿سبحنك اللهم﴾ إشارة إلى الأمر الأول الذي هو الأساس وهو المعراج في الآخرة ﴿وتحتيتهم﴾ أي الله وفيما بينهم ﴿فيها سلم﴾ إشارة إلى أول نتائج الأساس بأنه لا عطب معه بوجه وهو نزول عن المعراج بالنظر في أحوال الخلق ﴿وآخر دعوانهم﴾ أي دعائهم العظيم وهو المعراج الكمالي ﴿أن الحمد﴾ أي الكمال ﴿الله﴾ أي المحيط بجميع أوصاف الجلال والجمال يعني أن التنزيه عن النقص أوجب لهم السلامة؛ ولما سلموا من كل نقص وصلوا إلى الحضرة فغرقوا في بحار الجلال وانكشفت لهم سمات الكمال؛ والدعوى: قول يدعى به إلى أمر؛ والتحية: التكرمة بالحال الجليلة، وأصله من قولهم: أحياء الله حياة طيبة، وأشار بقوله: ﴿رب العلمين﴾ إلى نعمة الإيجاد إرشاداً بذلك إلى القدرة على المعاد، وفيه هبوط عن المعراج الكمالي إلى الخلق، وذلك إشارة إلى أن الإنسان لا ينفك عن الحاجة والنقصان.

ولما أشير في هذه الآية إلى تنزهه تعالى وعلوه وتفرد بنعوت الكمال، ودل بختمها بالحمد على إحاطته ورب العالمين على تمام قدرته وحسن تدبيره في ابتدائه وإعادته، اتبعت بما يدل على ذلك من لطفه في معاملته من أنه لا يفعل شيئاً قبل أوانه لأن الاستعجال من سمات الاحتياج. بل وروى أبو يعلى وأحمد بن منيع عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «التأني من الله والعجلة من الشيطان»^(١) قال شيخنا ابن حجر: وفي الباب عن سهل وسعد رضي الله عنهما فقال تعالى عاطفاً على قوله ﴿يدبر الأمر﴾ ما معناه أنه تعالى يفعل فعل من ينظر في ادبار الأمور فلا يفعل إلا ما هو في غاية الأحكام، فهو لا يعاجل العصاة بل يمهلهم ويسبغ عليهم النعم وهم في حال عصيانهم له أضل من النعم يطلبون خيراته ويستعجلونه بها: ﴿ولو يعجل الله﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿للناس﴾ أي الذين اتخذوا القرآن عجباً لما لهم من صفة الاضطراب ﴿الشر استعجالهم﴾ أي عاملاً في إرادته لإيقاع الشر بهم مثل عملهم في إرادتهم وطلبهم العجلة ﴿بالخير لقضي﴾ أي حُتم وبت وأدى، بناء للمفعول في قراءة

(١) حسن. أخرجه أبو يعلى ٤٢٥٦ والديلمي في الفردوس ٢٤٤٠ والبيهقي ١٠٤/١٠ من حديث أنس بن مالك. - وذكره الهيثمي في المجمع وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح ا هـ مع أن في إسناده سعيد بن سنان مختلف فيه فقد وثقه بعضهم وضعفه آخرون. - وذكر الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٢٨١٢ وقال البوصيري: رواه ثقات. - وورد عن النبي ﷺ أنه قال لأشج بن عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة». أخرجه مسلم ١٨ والنسائي ٣٠٦/٨ فالحديث حسن لشاهده.

الجماعة دلالة على هوانه عنده، ولأن المحذور مجرد فراغه لا كونه من معين. وبناه ابن عامر للفاعل ونصب الأجل ﴿إليهم﴾ أي الناس خاصة ﴿أجلهم﴾ أي عمرهم أو آخر لحظة تكون منه، فأهلك من في الأرض فاختل النظام الذي دبره، ولكنه لا يفعل إلا ما تقدم من إمهاله لهم إلى ما سمي من الآجال المتفاوتة. وذلك سبب إضلال من يريد ضلاله. ولعل التعبير بنون العظمة في ﴿فندرك﴾ إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور؛ فكان القياس هداهم لكثرة ما عليه من الدلائل الظاهرة ولكنه تعالى أراد ضلالهم وهو من العظمة بحيث لا يعجزه شيء. ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله ﴿أولئك مأوهم النار﴾ لأن معناه: أولئك يمهلهم الله إلى انقضاء ما ضرب لهم من الآجال مع مبالغتهم في الإعراض. ثم يكون مأوهم النار ولا يعجل لهم ما يستحقونه من الشر ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ أي ولو يريد عجلة الشر للناس إذا خالفوه أو إذا استعجلوه به في نحو قولهم ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: ٣٢] ودعاء الإنسان على ولده وعبده، مثل استعجالهم أي مثل إرادتهم تعجيل الخير. وعدل عن أن يقال: ولو يستعجل الله للناس الشر ﴿استعجالهم بالخير﴾ أي يعجل، دفعاً لإيهام النقص بأن من يستعجل الشيء ربما يكون طالباً عجلته من غيره لعدم قدرته، وتنبهياً على أن الأمر ليس إلا بيده ﴿لقضي اليهم أجلهم﴾ فإنه إذا أراد شيئاً كان ولم يتخلف أصلاً.

ولما كان التقدير لأن «لو» امتناعية؛ ولكنه سبحانه لا يفعل ذلك لأنه لا يفوته شيء بل يمهل الظالمين ويدر لهم النعم ويضربهم بشيء من النقم حتى يقولوا: هذه عادة الدهر، قد مس آباءنا الضراء والسراء، سبب عنه قوله: ﴿فندرك﴾ أي على أي حالة كانت، ووضع موضع الضمير تخصيصاً وتنبهياً على ما أوجب لهم الإعراض والجرأة قوله: ﴿الذين﴾ وأشار بنفي الرجاء إلى نفي الخوف على الوجه الأبلغ فقال: ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ أي بعد الموت بهذا الاستدراج على ما لنا من العظمة التي من أمنها كان أضل من الأنعام ﴿في طغيانهم﴾ أي تجاوزهم للحدود تجاوزاً لا يفعله من له أدنى روية ﴿يعمهمون﴾ أي يحكم مشيئتنا السابقة في الأزل عمياً عن رؤية الآيات صماً عن سماع البيئات؛ والتعجيل: تقديم الشيء على وقته الذي هو أولى به؛ والشر: ظهور ما فيه الضر، وأصله الإظهار من قولهم: شررت الثوب - إذا أظهرته للشمس، ومنه شرر النار - لظهوره بانتشاره؛ والطغيان: الغلو في ظلم العباد؛ والعمه، شدة الحيرة.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِۗٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُۗ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ

الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ .

ولما بين تعالى أن دأبهم استعجالهم بالخير، وكان منه استكشاف الضر، بين أن حالهم عنده الاعتراف، وشكرهم على النجاة منه الإنكار فدأبهم الطغيان والعمه، وذلك في غاية المنافاة لما يدعونه من رجاحة العقول وإصالة الآراء وسلامة الطباع، فالحاصل أن الانسان عند البلاء غير صابر، وعند الرجاء غير شاعر، فكأنه قيل: فإذا مس الإنسان منهم الخير كان في غفلة بالفرح والأشرف والمرح ﴿وإذا مس الإنسان﴾ منهم ﴿الضر﴾ وإن كان من جهة يتوقعها لطيغان هو فيه ولا يتزع عنه خوفاً مما يتوقعه من حلول الضر لشدة طغيانه وجهله ﴿دعانا﴾ مخلصاً معترفاً بحقنا عالماً بما لنا من كمال العظمة عاملاً بذلك معرضاً عما ادعاه شريكاً لنا كائناً ﴿لجنبه﴾ أي مضطجعاً حال إرادته للراحة، وكأنه عبر باللام إشارة إلى أن ذلك أسر أحواله إليه ﴿أو قاعداً﴾ أي متوسطاً في أحواله ﴿أو قائماً﴾ أي في غاية السعي في مهماته، لا يشغله عن ذلك شيء في حال من الأحوال، بل يكون ظرف المس بالضر ظرف الدعاء بالكشف، ويجوز أن يكون عبر بالأحوال الثلاثة عن مراتب الضر، وقال: لجنبه، إشارة إلى استحكام الضر وغلبته بحيث لا يستطيع جلوساً كما يقال: فلان لما به، وأشار بالفاء إلى قرب زمن الكشف فقال: ﴿فلما كشفنا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿عنه ضره﴾ أي الذي دعانا لأجله ﴿مر﴾ أي في كل ما يريد لاهياً عنا بكل اعتبار ﴿كأن﴾ أي كأنه ﴿لم يدعنا﴾ أي على ما كان يعترف به وقت الدعاء من عظمتنا؛ ولما كان المدعو يأتي إلى الداعي فيعمل ما دعاه لأجله قال: ﴿إلى﴾ أي كشف ﴿ضر مسه﴾ أي كأن لم يكن له بنا معرفة أصلاً فضلاً عن أن يعترف بأننا نحن كشفنا عنه ضره، فهذه الآية في بيان ضعف الإنسان وسوء عبوديته، والتي قبلها في بيان قدرة الله وحسن ربوبيته؛ والمس: لقاء من غير فصل؛ والدعاء: طلب الفعل من القادر عليه؛ والضر: إيجاب الألم بفعله أو السبب المؤدي إليه.

ولما كان هذا من فعل الإنسان من أعجب العجب. كان كأنه قيل: لم يفعل ذلك؟ فقيل: لما يزين له من الأمور التي يقع بها الاستدراج لإسرافه. وهذا دأبنا أبداً ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا التزيين العظيم الرتبة؛ ولما كان الضار مطلق التزيين، بني للمفعول قوله: ﴿زين للمسرفين﴾ أي كلهم العريقين في هذا الوصف ﴿ما كانوا﴾ أي بجبلاتهم ﴿يعملون﴾ أي يقبلون عليه على سبيل التجديد والاستمرار من المعصية بالكفر وغيره مع ظهور فساده ووضوح ضرره؛ والإسراف: الإكثار من الخروج عن العدل.

ولما كان محط نظرهم الدنيا، وكان هذا صريحاً في الإمهال للظالمين والإحسان إلى المجرمين، أتبعه بقوله تعالى مهدداً لهم رادعاً عما هم فيه من اتباع الزينة مؤكداً

لأنهم ينكرون أن هلاكهم لأجل ظلمهم: ﴿ولقد أهلكنا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿القرون﴾ أي على ما لهم من الشدة والقوة؛ ولما كان المهلكون هلاك العذاب المستأصل بعض من تقدم، أثبت الجار فقال: ﴿من قبلكم لما ظلموا﴾ أي تكامل ظلمهم إهلاكاً عم آخريهم وأولهم كنفس واحدة دفعاً لتوهم أنه سبحانه لا يعم بالهلاك، وقال تعالى عطفاً على ﴿أهلكنا﴾: ﴿وجاءتهم رسالهم﴾ أي إلى كل أمة رسولها ﴿بالبينت﴾ أي التي بينت بمثلها الرسالة ﴿وما﴾ أي والحال أنهم ما ﴿كانوا﴾ أي بجبالاتهم، وأكد النفي بمن ينكر أن يتأخر إيمانهم عن البيان فقال: ﴿ليؤمنوا﴾ ولو جاءتهم كل آية، تنبيهاً لمن قد يطلب أنه سبحانه يريهم بوادر العذاب أو ما اقترحوه من الآيات ليؤمنوا، فبين سبحانه أن ذلك لا يكون سبباً لإيمان من قضى بكفره، بل يستوي في التكذيب حاله قبل مجيء الآيات وبعدها ليكون سبباً لهلاكه. فكانه قيل: هل يختص ذلك بالأمم الماضية؟ قيل: بل ﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الجزء العظيم ﴿نجزي القوم﴾ أي الذين لهم قوة على محاولة ما يريدونه ﴿المجرمين﴾ لأن السبب هو العرافة في الإجمام وهو قطع ما ينبغي وصله، فحيث ما وجد وجد جزاؤه؛ والإهلاك: الإيقاع فيما لا يتخلص منه من العذاب؛ والقرن: أهل العصر لمقارنة بعضهم لبعض.

ولما صرح بأن ذلك عام لكل مجرم، أتبعه قوله: ﴿ثم جعلناكم﴾ أي أيها المرسل إليهم أشرف رسلنا ﴿خلئف في الأرض﴾ أي لا في خصوص ما كانوا فيه: ولما كان زماننا لم يستغرق ما بعد زمان المهلكين أدخل الجار فقال: ﴿من بعدهم﴾ أي القرون المهلكة إهلاك الاستئصال ﴿لننظر﴾ ونحن - بما لنا من العظمة - أعلم بكم من أنفسكم، وإنما ذلك لنراه في عالم الشهادة لإقامة الحجة ﴿كيف تعملون﴾ فيتعلق نظرننا بأعمالكم موجودة تخويفاً للمخاطبين من أن يجرموا فيصيبهم ما أصاب من قبلهم.

﴿وَإِذَا تَحَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِشِرَاءٍ غَيْرِ
هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا
أَدْرَيْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ
قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَعَلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ .

ولما تقدم أن من قضى بشقاوته لا يتأتى إيمانه بآية من الآيات حتى تنزل به سطوته وتذيقه بأسه ونقمته . وكان القرآن أعظم آية أنزلت إلى الناس لما لا يخفى . أتبع ذلك عطفاً على قوله ﴿قال الكفرون إن هذا لسحر مبين﴾ بقوله بياناً لذلك : ﴿وإذا تلى﴾ بناه للمفعول إيذاناً بتكذيبهم عند تلاوة أي تالٍ كان . وأبداه مضارعاً إشارة إلى أنهم يقولون ذلك ولو تكررت التلاوة ﴿عليهم﴾ أي على هؤلاء الناس ﴿آياتنا﴾ أي على ما لها من العظمة بإسنادها إلينا ﴿بينت﴾ فإنه مع ما اشتمل عليه مما لزمهم به الإقرار بحقيقته قالوا فيه ما لا معنى له إلا التلاعب والعناد ، ويجوز عطفه على ﴿ثم جعلناكم خلائف﴾ - الآية - والاتفات إلى مقام الغيبة للإيذان بأنهم أهل للإعراض لإساءتهم المخالفة ، والموصول بصلته في قوله : ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ في موضع الضمير تنبيهاً على أن هذا الوصف علة قولهم ، ولعله عبر بالرجاء ترغيباً لهم لأن الرجاء محط أمرهم في طلب تعجيله للخير ودفعه للضمير . فكان من حقهم أن يرجوا لقاء تعالى رغبة في مثل ما أعده لمن أجابه ، ولوح إلى الخوف بنون العظمة ليكون ذلك أدعى لهم إلى الإقبال ﴿انت﴾ أي من عندك ﴿بقرآن﴾ أي كلام مجموع جامع لما تريد ﴿غير هذا﴾ في نظمه ومعناه ﴿أو بدله﴾ أي بالفاظ أخرى والمعاني باقية وقد كانوا عالمين بأنه ﷺ مثلهم في العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا أنه يأخذ في التغيير حرصاً على إجابة مطلوبهم فيبطل مدعاه أو يهلك .

ولما كان كأنه قيل : فماذا أقول لهم؟ قال : ﴿قل ما يكون﴾ أي يصح ويتصور بوجه من الوجوه ﴿لي﴾ ولما كان التبديل يعم القسمين الماضيين قال : ﴿أن أبدله﴾ وقال : ﴿من تلقاء﴾ أي عند وقيل ﴿نفسى﴾ إشارة إلى الرد عليهم في إنكار تبديل الذي أنزله بالنسخ بحسب المصالح كما أنزل أصله لمصلحة العباد مع نسخ الشرائع الماضية به ، فأتى ذلك قطعاً قوله : ﴿أن أتبع﴾ أي بغاية جهدي ﴿إلا ما﴾ ولما كان قد علم أن الموحى إليه الله قال ﴿يوحى إلي﴾ أي سواء كان بدلاً أو أصلاً؛ ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لإنكارهم مضمونه : ﴿إني أخاف﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿إن عصيت ربي﴾ أي المحسن إليّ والموجد لي والمربي والمدير بفعل غير ما شرع لي ﴿عذاب يوم عظيم﴾ فإني مؤمن به غير مكذب ولا شاك كغيري ممن يتكلم من الهذيان بما لا يخاف عاقبته في ذلك اليوم ، وإذا خفته - مع استحضار صفة الإحسان - هذا الخوف فكيف يكون خوفي مع استحضار صفة الجلال . ولما تم ما دفع به مكرهم في طعنهم ، اتبعه بعذره ﷺ في الإبلاغ على وجه يدل قطعاً على أنه كلام الله وما تلاه إلا بإذنه فيجثت طعنهم من أصله ويزيله بحذافيره فقال : ﴿قل﴾ أي لهم معلماً أنه سبحانه إما أن يشاء

الفاعل وإما أن يشاء عدمه وليست ثم حالة سكوت أصلاً ﴿لو شاء الله﴾ أي الذي له العظمة كلها أن لا أتلوه عليكم ﴿ما تلوته﴾ أي تابعت قراءته ﴿عليكم ولا أدركم﴾ أي أعلمكم على وجه المعالجة هو سبحانه ﴿به﴾ على لساني؛ ولما ذكر ذلك أتبعه السبب المعرف به فقال: ﴿فقد لبثت فيكم عمراً﴾ ولما كان عمره لم يستغرق زمان القبل قال: ﴿من قبله﴾ مقدار أربعين سنة بغير واحد من الأمرين لكون الله لم يشأ واحداً منهما إذ ذاك، ثم أتيتكم بهذا الكتاب الأحكم المشتمل على حقائق علم الأصول ودقائق علم الفروع ولطائف علم الأخلاق وأسرار قصص الأولين في عبارة قد عجزتم - وأنتم أفصح الناس وأبلغهم - عن معارضة آية منها، فوقع بذلك العلم القطعي الظاهر جداً أنه من عند الله فذلك سبب عنه إنكار العقل فقال: ﴿أفلا تعقلون﴾ إشارة إلى أنه يكفي - في معرفة أن القرآن من عند الله وأن غيره عاجز عنه - كون الناظر في أمره وأمره من أهل العقل، أي أفلا يكون لكم عقل فتعرفوا به حقيقة القرآن بما أرشدكم إليه في هذه الآية من هذا البرهان الظاهر والسلطان القاهر القائم على أنه ما يصح لي بوجه أن أبدله من قبل نفسي لأنني مثلكم وقد عرفتم أنكم عاجزون عن ذلك مع التظاهر، فأنا وحدي - مع كوني أمياً - أعجز، ومن أنه تعالى لو شاء ما بلغكم، ومن أنني مكثت فيكم قبل إتياني به زمناً طويلاً لا أتلو عليكم شيئاً ولا أدعي فيكم علماً ولا أتردد إلى عالم؛ وتعرفوا أن قائل ما قلت مكدب بآيات الله، وفاعل ما طلبتم كاذب على الله، وكل من ذلك أظلم الظلم ﴿فمن﴾ أي فهو سبب لأن يقال: من ﴿أظلم ممن افترى﴾ أي تعمد ﴿على الله﴾ أي الذي حاز جميع العظمة ﴿كذباً﴾ أي أي كذب كان، وكان الأصل: مني، على تقدير أن لا يكون هذا القرآن من عند الله كما زعمتم، ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ﴿أو كذب بآياته﴾ كما فعلتم أنتم، وذلك من أعظم الكذب. ولما كان التقدير: لا أحد أظلم منه فهو لا يفلح لأنه مجرم، علله بقوله مؤكداً لأجل إنكارهم: ﴿إنه لا يفلح﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿المجرمون﴾ فقد وضح أن المقصود نفي الكذب عن نفسه ﷺ وإلحاق الوعيد حيث كذبوا بالآيات بعد ثبوت أنها من عند الله والإعلام بأنه لا أحد أظلم منهم لأنهم كذبوا على الله في كل ما ينسبونه إليه مما نهى عنه وكذبوا بآياته، والإتيان بالغير قد يكون مع وجود الأول والتبديل لا يكون إلا برفع الأول ووضع غيره مكانه؛ والتلقاء: جهة مقابلة الشيء، أتبعه بمجيئه بعده؛ والمشية خاصة تكون سبباً مؤدياً إلى وقوع الشيء ومرتباً له على وجه قد يمكن أن يقع على خلافه، والإرادة نظيرها؛ والعقل: العلم الغريزي الذي يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب، ويجوز أن يكون ﴿ويعبدون﴾ حالاً من ﴿الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي قالوا ذلك

عابدين ﴿من دون الله﴾ أي الملك الأعلى الذي له جميع صفات الكمال الذي ثبت عندهم أن هذا القرآن كلامه لعجزهم عن معارضة شيء منه وهو ينهاهم عن عبادة غيره وهم يعلمون قدرته على الضر والنفع.

ولما كان السياق للتهديد والتخويف، قدم الضر لذلك وتنبهاً لهم على أنهم مغمورون في نعمه التي لا قدرة لغيره على منع شيء منها، فعليهم أن يقيدوها بالشكر فقال: ﴿ما لا يضرهم﴾ أي أصلاً من الأصنام وغيرها ﴿ولا ينفعهم﴾ في معارضة القرآن بتبديل أو غيره ولا في شيء من الأشياء، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة معاقباً على المعصية وإلا كانت عبادته عبثاً، معرضين عما جاءهم من الآيات البينات من عند من يعلمون أنه يضرهم وينفعهم ولا يملك شيئاً من ذلك أحد سواه، وقد أقام الأدلة على ذلك غير مرة، وفي هذا غاية التبكيت لهم بمنازلة العقل مع ادعائهم رسوخ الأقدام فيه وتمكن المجال منه؛ والعبادة: خضوع بالقلب في أعلى مراتب الخضوع؛ ثم عجب منهم تعجبياً آخر فقال: ﴿ويقولون﴾ أي لم يفهموا قوله ذلك مرة من الدهر حتى يجددوا قوله مستمرين عليه: ﴿هؤلاء﴾ أي الأصنام أو غيرهم ﴿شفعاؤنا﴾ أي ثابتة شفاعتهم لنا ﴿عند الله﴾ أي الملك الأعظم الذي لا يمكن الدنو من شيء من حضرته إلا بإذنه، وقد مضى إبطال ما تضمنته هذه المقالة في قوله تعالى ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ وفيه تخجيلهم في العجز عن تبديل القرآن أو الإتيان بشيء من مثله حيث لم تنفعهم في ذلك فصاحتهم ولا أغنت عنهم شيئاً بلاغتهم، وأعوزهم في شأنه فصحاءهم، وضل عنهم شفعاؤهم، فدل ذلك قطعاً على أنه ما من شفيع إلا بإذنه من بعد، فكأنه قال: بماذا أجيبهم؟ فقال: ﴿قل﴾ منكرأ عليهم هذا العلم ﴿أتنبئون﴾ أي تخبرون إخباراً عظيماً ﴿الله﴾ وهو العالم بكل شيء المحيط بكل كمال ﴿بما لا يعلم﴾ أي لا يوجد له به علم في وقت من الأوقات ﴿في السموات﴾ ولما كان الحال مقتضياً لغاية الإيضاح، كرر النافي تصريحاً فقال: ﴿ولا في الأرض﴾ وفي ذلك من الاستخفاف بعقولهم مما لا يقدر على الطعن فيه بوجه ما يخجل الجماد، فإن ما لا يكون معلوماً لله لا يكون له وجود أصلاً، فلا نفي أبلغ من هذا كما أنك إذا بالغت في نفي شيء عن نفسك تقول: هذا شيء ما علمه الله مني.

ولما بين تعالى هنا ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء، ختم ذلك بتنزيه نفسه بقوله: ﴿سبحته﴾ أي تنزهه عن كل شائبة نقص تنزهاً لا يحاط به ﴿وتعالى﴾ أي وفعل بما له من الإحاطة بأوصاف الكمال فعل المبالغ في التنزه ﴿عما يشركون﴾ أي يوجدون الإشراك به.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ فَقُلْنَا إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

ولما بين شرارتهم بعبادة غير الله وختم بتنزيهه وكماله، بين أن هذا الدين الباطل حادث، وبين نزاهته وكماله ببيان أن الناس كانوا أولاً مجتمعين على طاعته ثم خالفوا أمره فلم يقطع إحسانه إليهم بل استمر في إهمالهم مع تماديهم في سوء أعمالهم ما سبق في علمه ومضى به قضاءه فقال تعالى: ﴿وما كان الناس﴾ أي كلهم مع ما لهم من الاضطراب ﴿إلا أمة﴾ ولما أفهم ذلك وحدتهم في القصد حقيقه وأكده فقال: ﴿واحدة﴾ أي حنفاء متفقين على طاعة الله ﴿فاختلفوا﴾ في ذلك على عهد نوح عليه السلام - كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - عقب وحدتهم بسبب ما لهم من النوس^(١) فاستحق كافرهم تنجيز العقاب ﴿ولولا كلمة﴾ أي عظيمة ﴿سبقت﴾ أي في الأزل ﴿من ربك﴾ أي المحسن إليك برحمة أمتك بإهمالهم، وبين التأكيد بما دل على القسم لأجل إنكارهم أن يكون تأخيرهم لأجل ذلك فقال: ﴿لقضي بينهم﴾ أي عاجلاً بأيسر أمر ﴿فيما﴾ ولما لم يبين الكلام على الاتخاذ الذي محط أمره معالجة بالباطن، لم يذكر الضمير بخلاف الزمر فقال: ﴿فيه﴾ أي لا في غيره بأن يعجل جزاءهم عليه: ﴿يختلفون﴾ وأشار ذلك إلى أن هذا الأمر الذي دعوا إليه ليس أمراً طارئاً حادثاً فيكون بحيث يتوقف فيه للنظر في عواقبه والتأمل في مصادره وموارده، بل هو - مع ظهور دلائله واستقامة مناهجه وصحة مذاهبه وإلقاء الفطر أزمة الانقياد إليه - أصل ما كان العباد عليه، وما هم فيه الآن هو الطارئ الحادث مع ظهور فساده ووضوح سقمه، وهو ناظر إلى قوله تعالى ﴿أكان للناس عجباً﴾ لأن قوله ﴿قال الكفرون إن هذا لسحر مبين﴾ دال على أنهم قسمان: كافر ومؤمن؛ والأمة: الجماعة على معنى واحد في خلق واحد كأنها تؤم - أي تقصد - شيئاً واحداً؛ ثم قال تعالى عطفاً على قوله ﴿ويعبدون﴾: ﴿ويقولون﴾ أي أنهم لما أتتهم البيئات قالوا: ائت بقرآن غير هذا، كافرين بمنزلها عابدين من دونه ما لا يرضى عاقل بتسويته بنفسه فكيف بعبادته قائلين بفرط عنادهم وتماديهم في التمرد ﴿لولا﴾ أي هلا ولم لا ﴿أنزل﴾ أي بأي وجه كان ﴿عليه آية﴾ أي واحدة كائنة وآتية ﴿من ربه﴾ أي المحسن إليه غير ما جاء به وذلك إما لطلبهم آية ملجئة لهم إلى الإيمان أو لكونهم لم يعدوا ما أنزل عليه عداد الآيات فضلاً عن كونها بينات، وكفى بالقرآن

(١) النوس: تذبذب الشيء وأناسه: غيره.

وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة في الآيات دقيقة المسلك بين المعجزات مع عجزهم عن معارضته بتبديل أو غيره، فأبي عناد أعظم من هذا.

ولما كان في ذلك شوب من الاستفهام، قال مسبباً عن قولهم: ﴿فقل﴾ قاصراً قصراً حقيقياً ﴿إنما الغيب﴾ أي الذي عناه عيسى عليه السلام بقوله ﴿ولا أعلم ما في نفسك﴾ [المائدة: ١١٦] وهو ما لم يطلع عليه مخلوق أصلاً ﴿لله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة وحده، لا علم لي بعله عدم إنزال ما تريدون، وهل تجابون إليه أو لا. ولما خصه سبحانه بالعلم. وكان إنزال الآيات من الممكنات. سبب عنه قوله: ﴿فانتظروا﴾ ثم أجاب من كأنه يقول له: فما تعمل أنت؟ بقوله: ﴿إني معكم﴾ أي في هذا الأمر غير مخالف لكم في التشوف إلى آية تحصل بها هدايتكم، ثم حقق المعنى وأكده فقال: ﴿من المنتظرين﴾ أي لما يرد علي من آية وغيرها.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمِ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِيَمٍ يَبْرِجُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِيْنِ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أُنجِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْقُونَ فِي الْأَرْضِ بَعِيرٍ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ولما كان طلبهم لذلك محرراً لنفوس الخيرين إلى ترجي إجابة سؤالهم، أتبعه سبحانه بما يبين أن ذلك غير نافع لهم لأنه محض تعنت. فقال تعالى عاطفاً على قوله ﴿قال الكفرون إن هذا لسحر مبين﴾ أو ﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ مبيناً أن رحمته محققة الوجود كثيرة الورد إليهم مبيناً أن لهم آية عظيماً من أنفسهم لا يحتاجون معها إلى التعنت بطلب آية وهي دالة على نتيجة مقصود السورة الذي هو الوجدانية وأن إشراكهم إنما هو بما لهم من نقص الغرائز الموجب لكفران الإحسان، وذلك أنهم عامة إذا أكرموا بنعمة قابلوها بكفر جعلوا ظرفه على مقدار ظرف تلك النعمة بما أشار إليه التعبير بـ «إذا» ثم إذا مسهم الضر ألجأهم إلى الحق فأخلصوا، لم يختلف حالهم في هذا قط، وهذا الإجماع من الجانبين دليل واضح على كلا الأمرين؛ الكفر ظلاماً بما جر إليه من البطر. والتوحيد حقاً بما دعا إليه من الفطرة القويمة الكائنة في أحسن تقويم بما زال عنها إلحاق الضرر من الحظوظ والشهوات والفتور، وهذا كما وقع في سورة الروم الموافقة لهذه في الدلالة على الوجدانية فلذا عبر في كل منهما بالناس ليكون إجماعهم دليلاً كافياً عليها وسلطاناً جليلاً مضطراً إليها - والله الهادي: ﴿وإذا أذقنا﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿الناس﴾ أي الذين

لهم وصف الاضطراب ﴿رحمة﴾ أي نعمة رحمتهم بها من غير استحقاق.

ولما كان وجود النعمة لا يستغرق الزمان الذي يتعقب النعمة، أدخل الجار فقال: ﴿من بعد ضراء﴾ أي قحط وغيره ﴿مستهم﴾ فاجأوا المكر وهو معنى ﴿إذا لهم مكر﴾ أي عظيم بالمعاصي التي يفعلون في الاستخفاء بأغلبها فعل الماكر ﴿في آياتنا﴾ إشارة إلى أنهم لا ينفكون عن آياته العظام، فلو كانوا منتفعين بالآيات اهتدوا بها، فإذا أتتهم رحمة من بعد نعمة لم يعدوها آية دالة على من أرسلها لهم لخرقها لما كانوا فيه من عادة النعمة مع أنهم يعترفون بأنه لا يقدر على إرسالها وصرف الشدة إلا هو سبحانه، بل يعملون فيها عمل الماكرين بأن يصرفوها عن ذلك بأنواع الصوارف كأن ينسبونها إلى الأسباب كنسبة المطر للأنواء^(١) ونحو ذلك غير خائفين من إعادة مثل تلك الضراء أو ما هو أشد منها.

ولما كانت هذه الجملة دالة على إسرعهم بالمكر من ثلاثة أوجه: التعبير بالذوق الذي هو أول المخالطة ولفظ «من» التي هي للابتداء و«إذا» الفجائية، كان كأنه قيل: أسرعوا جهدهم في المكر، فقيل: ﴿قل الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء ﴿أسرع مكرأ﴾ ومعنى الوصف بالأسرعية أنه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكائدهم - نبه عليه أبو حيان ولما كان المكر إخفاء الكيد، بين لهم سبحانه أنهم غير قادرين على مطلق المكر في جهته عز شأنه وتعالى كبريائه وسلطانه، لأنه عالم بالسر وأخفى، بل لا يمكرون مكرأ إلا ورسله سبحانه مطلعون عليه فكيف به سبحانه! فقال تعالى مؤكداً لأجل إنكارهم: ﴿إن رسلنا﴾ أي على ما لهم من العظمة بإضافتهم إلينا ﴿يكتبون﴾ أي كتابة متجددة على سبيل الاستمرار باستمرار المكتوب ﴿ما تمكرون﴾ لأنهم قد وكلوا بكم قبل كونكم نطقاً ولم يوكلوا بكم إلا بعد علم موكلهم بكل ما يفعلونه ولا يكتبون مكرهم إلا بعد اطلاعهم عليه، وأما هو سبحانه فإذا قضى قضاء لا يمكن أن يطلع عليه رسله إلا باطلاعه فكيف بغيرهم! وإذا تبين أنه عالم بأمورهم وهم جاهلون بأموره، علم أنه لا يدعهم يدبرون كيداً إلا وقد سبب له ما يجعله في نحورهم؛ والمكر: قتل الشيء إلى غير وجهه على طريق الحيلة فيه؛ والسرعة؛ الشيء في وقته الذي هو أحق به، وقد تضمنت الآية البيان عما يوجبه حال الجاهل من تضييع حق النعمة والمكر فيها وإن جلت منزلتها وأتت على فاقة إليها وشدة حاجة إلى نزولها مع الوعيد بعائد الوبال على الماكر فيها، ثم أخذ سبحانه يبين ما يتضح به أسرعية مكره في مثال دال على ما في

(١) النوء: سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيه من المشرق من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجهة فإن لها أربعة عشر يوماً وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها وقيل إلى الطالع منها لأنه في سلطانه وجمعه أنواع.

الآية قبلها من نقله سبحانه لعباده من الضر إلى النعمة ومن سرعة تقلبهم فقال: ﴿هو﴾ أي لا غيره ﴿الذي يسيركم﴾ أي في كل وقت تسيرون فيه سيراً عظيماً لا تقدرُونَ على الانفكاك عنه ﴿في البر والبحر﴾ أي يسبب لكم أسباباً توجب سيركم فيهما ويقدركم على ذلك ويهديكم من بين سائر الحيوانات إلى ما فيه من أصناف المنافع مع قدرته على إصابتكم في البر بالخسف وما دونه وفي البحر بالغرق وما أشبهه.

ولما كان العطب بأحوال البحر أظهر مع أن السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات، بينه معرضاً عن ذكر البر فقال: ﴿حتى إذا كنتم﴾ أي كوناً لا براح لكم منه ﴿في الفلك﴾ أي السفن، يكون واحداً وجمعاً؛ وأعرض عنهم بعد الإقبال لما سيأتي فقال: ﴿وجرين﴾ أي الفلك؛ ﴿بهم﴾ ولما ذكر جريها وهم فيها، ذكر سببه فقال: ﴿بريح طيبة﴾ ثم أوضح لهم عدم علمهم بالعواقب بقوله: ﴿وفرحوا بها﴾ أي بتلك الريح وبالفلك الجارية بها ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ فأزعجت سفنهم وساءتهم ﴿وجاءهم الموج﴾ أي المعروف لكل أحد بالرؤية أو الوصف ﴿من كل مكان﴾ أي يعتاد الإتيان منه فأرجف قلوبهم ﴿وظنوا أنهم﴾ ولما كان المخوف الهلاك، لا كونه من معين، بني للمفعول ما هو كناية عنه لأن العدو إذا أحاط بعدوه أيقن بالهلاك فقال: ﴿أحيط بهم﴾.

ولما كان ما تقدم من حالهم الغريبة التي تجب لها القلوب وتضعف عندها القوى - مقتضياً لأن يسأل عما يكون منهم عند ذلك، أتى المقال على مقتضى هذا السؤال مخبراً عن تركهم العناد وإخلاصهم الدال على جزعهم عند سطواته وانحلال عزائمهم في مشاهدة ضرباته، وعبارة الرمانى: اتصال دعوى اتصال الأجوبة، كأنه قيل: لما ظنوا أنهم أحيط بهم ﴿دعوا الله﴾ أي الذي له صفات الكمال بالرغبة إليه في الخلاص والعبادة له بالإخلاص ﴿مخلصين﴾ أي عن كل شرك ﴿له الدين﴾ أي التوحيد والتصديق بالظاهر والباطن، وقد تضمنت الآية البيان عما يوجهه بديهة العقل من الفرع عند الشدة إلى واهب السلامة ومسبغ النعمة في كشف تلك البلية؛ ثم أتبع سبحانه ذلك حكاية حالهم في وعدهم الشكر على النجاة ثم كذبهم في ذلك مع ادعائهم أنهم أطهر الناس ذبولاً عن الكذب وأشدهم استقباحاً له وأبعد الناس من كفران الإحسان، فقال تعالى حاكياً قولهم الذي دلّوا بتأكيدهم له أنهم قالوه بغاية الرغبة نافين ما يظن بهم من الرجوع إلى ما كانوا فيه قبل تلك الحال من الكفر: ﴿لئن أنجيتنا﴾ أي أيها الملك الذي لا سلطان لغيره ﴿من هذه﴾ أي الفادحة ﴿لنكونن﴾ أي كوناً لا ننفك عنه ﴿من الشكرين﴾ أي المديمين لشكرك العريقين في الاتصاف به.

ولما أعلم سبحانه أنهم أكدوا هذا الوعد هذا التأكيد، أتبعه بيان أنهم أسرعوا في

نقضه غاية الإسراع فقال: ﴿فلما أنجهم﴾ ولما أبانت الفاء عن الإسراع في النقص، أكد مناجاتهم لذلك بقوله: ﴿إذا هم يبعثون﴾ أي يتجاوزون الحدود ﴿في الأرض﴾ أي جنسها ﴿بغير الحق﴾ أي الكامل، فلا يزال الباغي مذموماً حتى يكون على الحق الكامل الذي لا باطل فيه بوجه، وجاء الخطاب أولاً في ﴿يسيركم﴾ ليعم المؤمنين لأن التسيير يصلح للامتنان، ثم التفت إلى الغيبة عند صدور ما لا يليق بهم - نبه على ذلك أبو حيان، وأحسن منه أن يقال: إنه سبحانه أقبل عليهم تنبيهاً على أنه جعلهم - بما هيأ فيهم من القوى - أهلاً لخطابه ثم أعرض عنهم إشارة إلى أنهم استحقوا الإعراض لإعراضهم اغتراراً بما أتاحهم من الريح الطيبة في محل يجب فيه الإقبال عليه والغنى عن كل ما سواه لعظم الخطر وشدة الأمر، وكأنه يذكر لغيرهم من حالهم ما يعجبه منه لينكر عليهم ويقبح حالهم؛ والتسيير: التحريك في جهة تمتد كالسير؛ والبر: الأرض الواسعة التي تقطع من بلد، ومنه البر لاتساع الخير به؛ والبحر: مستقر الماء الواسع حتى لا يرى من وسطه حافظاه؛ والفلك: السفن التي تدور في الماء، وأصله الدور، فمنه فلكة المغزل، والفلك الذي يدور فيه النجوم؛ والنجاة: التخليص من الهلاك؛ والبغي: قصد الاستعلاء بالظلم، وأصله الطلب؛ والحق: وضع الشيء في موضعه على ما يدعو إليه العقل؛ ثم بين أن ما هم فيه من الإمهال إنما هو متاع الدنيا وأنها دار زوال فقال تعالى: ﴿يأيتها الناس﴾ أي الذي غلب عليهم وصف الاضطراب ﴿إنما بغيكم﴾ أي كل بغي يكون منكم ﴿على أنفسكم﴾ لعود الوبال عليها خاصة وهو على تقدير انتفاعكم به عرض زائل ﴿متاع الحيوة الدنيا﴾ ثم يبقى عاره وخزيه بعد الموت ﴿ثم إلينا﴾ أي خاصة ﴿مرجعكم﴾ بعد البعث ﴿فنبئكم﴾ على ما لنا من العظمة إنباء عظيماً ﴿بما كنتم﴾ أي كوناً هو كالجبله ﴿تعملون﴾ ونجازيكم عليه.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَرَ مِنْ أَيْهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ولما كان السياق لإثبات البعث وتخويفهم به وكانوا ينكرونه ويعتقدون بقاء الدنيا وأنها إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع دائماً بلا انقضاء فهي دار يرضى بها فيطمئن إليها، وللتنفير من البغي والتعزز بغير الحق، وكانت الأمثال أجلى لمحال الأشكال، قال تعالى ممثلاً لمتاعها قاصراً أمرها على الفناء رداً عليهم في اعتقاد دوامها من غير بعث: ﴿إنما﴾ فهو قصر قلب ﴿مثل الحيوة الدنيا﴾ التي تتنافسون فيها في سرعة انقضائها

وانقراض نعيمها بعد عظيم إقباله ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي بما لنا من العظمة وحقق أمره وبينه بقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ فشبّهه بأمر النبات وأنه عما قليل يبلغ منتهاه فتصبح الأرض منه بلاق بعد ذلك الاخضرار والينوع، وفي ذلك إشارة إلى البعث وإلى أنه تعالى قادر على ضربه قبل نهايته أو بعدها ببعض الآفات كما يوجد في بعض السنين، فيقفرون منه ويفتقرون إليه، وفي ذلك تحذير عظيم ﴿فَاخْتَلَطُ﴾ أي بسبب إنزالنا له ﴿بِهِ﴾ أي بسبب تليينه ولطافته ﴿نبات الأرض﴾ عموماً في بطنها ﴿مما يأكل الناس﴾ أي كافة ﴿والأنعام﴾ من الحبوب والثمار والبقول فظهر على وجهها ﴿حتى﴾ ولم يزل كذلك ينمو ويزيد في الحسن والجرم؛ ولما كان الخصب هو الأصل، عبر عنه بأداة التحقيق فقال: ﴿إِذَا﴾ ولما كانت بهجة النبات تابعة للخصب، فكان الماء كأنه يعطيها إياها فتأخذه، قال: ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ﴾ أي التي لها أهلية النبات ﴿زخرفها وازينت﴾ بأنواع ذلك النبات زينة منها الجلي ومنها الخفي - بما يفهمه الإدغام ﴿وطن أهلها﴾ أي ظناً مؤكداً جداً بما أفاده العدول عن «قدرتهم» إلى ﴿أنهم قدرون﴾ أي ثابتة قدرتهم ﴿عليها﴾ باجتناء الثمرة من ذلك النبات وغاب عنهم لجهلهم علم العاقبة، فلما كان ذلك ﴿أنها أمرنا﴾ أي الذي لا يرد من البرد أو الحر المفرطين ﴿ليلاً أو نهاراً فجعلناها﴾ أي زرعها وزينتها بعظمتنا بسبب ذلك الأمر وتعقيبه بالإهلاك ﴿حصيداً﴾ وعبر بما فهمه فعيل من المبالغة والثبات بقوله: ﴿كَانَ﴾ أي كأنها ﴿لم تغن﴾ أي لم تكن غانية أي ساكنة حسنة غنية ذات وفر مطلوبة مرغوباً فيها أي زرعها وزينتها ﴿بالأمس﴾ فكان حال الدنيا في سرعة انقضائها وانقراض نعيمها بعد عظيم إقباله كحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وزين الأرض بخضرتها وألوانه وبهجته.

ولما كان هذا المثل في غاية المطابقة للساعة، هز السامع له فازداد عجبه من حسن تفصيله بعد تأصيله فقبل جواباً له: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا التفصيل الباهر ﴿نفصل﴾ أي تفصيلاً عظيماً ﴿الآيت لقوم﴾ أي ناس أقوياء فيهم قوة المحاولة لما يريدون ﴿يتفكرون﴾ أي يجددون الفكر على وجه الاستمرار والمبالغة؛ والمثل: قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالأول؛ والاختلاط: تداخل الأشياء بعضها في بعض؛ والزخرف: حسن الألوان.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ ۗ كَانَمَا أَغَشِيَتْ

وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَانًا
تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿٢٩﴾ .

ولما قرر سبحانه هذه الآيات التي حذر فيها من أنواع الآفات، وبين أن الدار التي
رضوا بها واطمأنوا إليها دار المصائب ومعدن الهلكات والمعاطب وأنها ظل زائل تحذيراً
منها وتنفيراً عنها، بين تعالى أن الدار التي دعا إليها سالمة من كل نصب وهم ووصب،
ثابتة بلا زوال، فقال تعالى عاطفاً على قوله ﴿إِنْ رِيكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾
ترغيباً في الآخرة وحثاً عليها: ﴿وَاللَّهُ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿يَدْعُوا﴾ أي يعلق
دعاه على سبيل التجدد والاستمرار بالمدعويين ﴿إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ عن قتادة أنه سبحانه
أضافها إلى اسمه تعظيماً لها وترغيباً فيها، يعني بأنها لا عطب فيها أصلاً، والسلامة فيها
دائمة، والسلام فيها فاش من بعضهم على بعض ومن الملائكة وغيرهم؛ والدعاء: طلب
الفعل بما يقع لأجله، والدواعي إلى الفعل خلاف الصوارف عنه.

ولما أعلم - بالدعوة بالهداية بالبيان وأفهم ختم الآية بقوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾
أي بما يخلق في قلبه من الهداية ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أن من الناس من يهديه ومنهم
من يضلّه. وأن الكل فاعلون لما يشاء - كان موضع أن يقال: هل هم واحد في جزائه
كما هم واحد في الانقياد لمراده؟ فقيل: لا، بل هم فريقان: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي
الأعمال في الدنيا منهم وهم من هداه ﴿الْحَسَنَى﴾ أي الخصلة التي هي في غاية الحسن
من الجزاء ﴿وَزِيَادَةً﴾ أي عظمة من فضل الله فالناس: مرید خرجت هدايته من الجهاد
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لِنَهْدِيَهُمْ سَبِيلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومراد خرجت هدايته من
المشيئة، فالدعوة إلى الجنة بالبيان عامة، والهداية إلى الصراط خاصة لأنها الطريق إلى
المنعم.

ولما كان النعيم لا يتم إلا بالدوام بالأمن من المضار قال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ أي
يغشى ويلحق ﴿وَجُوهَهُمْ قُتْرًا﴾ أي غبرة كغبرة الموت وكربة، وهو تغير في الوجه معه
سواد وعبوسة تركبهما غلبة ﴿وَلَا ذُلَّةٌ﴾ أي كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان.

ولما كان هذا واضحاً في أنهم أهل السعادة، وصل به قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي العالو
الرتبة ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ولما كانت الصحبة جديرة بالملازمة، صرح بها في قوله:
﴿هَمٌّ﴾ أي لا غيرهم ﴿فِيهَا﴾ أي خاصة ﴿خَالِدُونَ﴾ أي مقيمون لا يبرحون، لأنهم لا
يريدون ذلك لطيبها ولا يراد بهم.

ولما بين حال الفضل فيمن أحسن، بين حال العدل فيمن أساء فقال: ﴿والذين كسبوا﴾ أي منهم ﴿السيئات﴾ أي المحيطة بهم ﴿جزاء سيئة﴾ أي منهم ﴿بمثلها﴾ بعدل الله من غير زيادة ﴿وترهقهم ذلة﴾ أي من جملة جزائهم، فكأنه قيل: أما لهم انفكاك عن ذلك؟ فقيل جواباً: ﴿ما لهم من الله﴾ أي الملك الأعظم؛ وأغرق في النفي فقال: ﴿من عاصم﴾ أي يمنعهم من شيء يريد بهم.

ولما كان من المعلوم أن ذلك مغير لأحوالهم، وصل به قوله: ﴿كأنما﴾ ولما كان المكروه مطلق كونها بالمنظر السيء، بني للمفعول قوله: ﴿أغشيت وجوههم﴾ أي أغشاها مغش لشدة سوادها لما هي فيه من السوء ﴿قطعاً﴾ ولما كان القطع بوزن عنب مشتركاً بين ظلمة آخر الليل وجمع القطعة من الشيء. بين وأكد فقال: ﴿من الليل﴾ أي هذا الجنس حال كونه ﴿مظلماً﴾ ولما كان ذلك ظاهراً في أنهم أهل الشقاوة، وصل به قوله: ﴿أولئك﴾ أي البعداء البغضاء ﴿أصحاب النار﴾ ولما كانت الصحبة الملازمة، بينها بقوله: ﴿هم فيها﴾ أي خاصة ﴿خلدون﴾ أي لا يمكنون من مفارقتها؛ والرهق: لحاق الأمر، ومنه: راهق الغلام - إذا لحق حال الرجال؛ والقتر: الغبار، ومنه الإقتار في الإنفاق لقلته؛ والذلة: صغر النفس بالإهانة؛ والكسب: الفعل لاجتلاب النفع إلى النفس أو استدفاع الضرر.

ولما بين سبحانه مآل الفريقين، نبه على بعض مقدمات ذلك المانعة أن يشفع أحد من غير إذنه بقوله: ﴿ويوم﴾ أي وفرقنا بينهم لأنه لا أنساب هناك ولا أسباب فلا تناصر يوم ﴿نحشرهم﴾ أي الفريقين: الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين حال كونهم ﴿جميعاً﴾ ثم يقطع ما بين المشركين وشركائهم فلا يشفع فيهم شيء مما يعتقدون شفاعته ولا ينفعهم بنافعة، بل يظهرون الخصومة ويبارزون بالعداوة وهو ناظر إلى قوله تعالى ﴿إنه يبدىء الخلق ثم يعيده﴾ [يونس: ٤] وإلى قوله ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ [يونس: ١٨] والحشر: الجمع بكره من كل جانب إلى موقف واحد؛ وأشار سبحانه إلى طول وقوفهم بقوله: ﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾ أي بنا من لم يشارك في خلقهم؛ وقوله: ﴿مكانكم﴾ نقل أبو حيان عن النحويين أنهم جعلوه اسماً لأثبتوا، ورد على الزمخشري تقديره بألزموا لأنه متعدد ويجب أن يساوي بين الاسم والمسمى في التعدي واللزوم، أي نقول لهم: قفوا وقوف الذل ﴿أنتم وشركاؤهم﴾ حتى ينفذ فيكم أمرنا إظهاراً لضعف معبوداتهم التي كانوا يترجونها وتحسيراً لهم، فلا يمكنهم مخالفة ذلك.

ولما كان التقدير: فوقفوا موافقة للأمر على حسب الإرادة، عطف عليه مسبباً عنه

قوله: ﴿فزيلنا﴾ أي أزلنا إزالة كثيرة مفرقة ما كان ﴿بينهم﴾ في الدنيا من الوصلة والألفة حتى صارت عداوة ونفرة فقال الكفار: ربنا هؤلاء الذين أضلونا، وكنا ندعو من دونك ﴿وقال شركاؤهم﴾ لهم متبرئين منهم بما خلق لهم سبحانه من النطق ﴿ما كنتم﴾ أي أيها المشركون، وأضاف الشركاء إليهم لأنهم هم الذين نصبوهم بغير أمر ولا دليل ولأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم ﴿إيانا تعبدون﴾ أي تخصوننا بالعبادة لأننا لا نستحق ذلك إشارة إلى أنه لا يعبد إلا من يستحق الإخلاص في ذلك بأن يعبد وحده من غير شريك، ومن لا يستحق ذلك لا يستحق مطلق العبادة ولا يصلح لها، وكل عبادة فيها شرك لا تعد أصلاً ولا يرضى بها جماد لو نطق، فمتى نفى المقيد بالخلوص نفى المطلق لأنه لا اعتداد به أصلاً، ومن المعلوم أن ما كان بهذه الصفة لا يقدم عليه أحد، فنحن نظن أنه لم يعبدنا عابد فضلاً عن أن يخصنا بذلك، والشخص يجوز له أن ينفي ما يظن نفيه ونحن لم نعلم شيئاً من ذلك.

ولما نفوا ذلك عطفوا عليه مسببين عنه قولهم: ﴿فكفى بالله﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿شهيداً﴾ أي هو يكفينا كفاية عظيمة جداً من جهة الشهادة التي لا غيبة فيها بوجه ولا ميل أصلاً ﴿بيننا وبينكم﴾ في ذلك يشهد لنا وعلينا؛ ثم استأنفوا خبراً يصحح نفيهم فقالوا مؤكداً لأنهم كانوا يعتقدون علمهم: ﴿إن﴾ أي إنا ﴿كنا﴾ أي كوناً هو جبلة لنا ﴿عن عبادتكم﴾ لنا أو لغيرنا مخصصة أو مشوبة؛ ولما كانت «إن» هي المخففة من الثقيلة تلقيت باللام الفارقة بينها وبين النافية فقليل: ﴿لغقلين﴾ لأنه لا أرواح فينا، فلم تكن بحيث تأمر بالعبادة ولا نرضاهما فاللوم عليكم دوننا، وذلك افتداء من موقف الذل أو أنهم لما تخيلوا في الشركاء صفات عبدوها لأجلها وكانت خالية عنها صح النفي لأنهم عبدوا ذوات موصوفة بصفات لا وجود لها في الأعيان، وأيضاً فإنهم ما عبدوا إلا الشياطين التي كانت تزين لهم ذلك وتغويهم، ويكون التقدير على ما دل عليه السياق: ﴿فزيلنا بينهم﴾ أي منعناهم مما كانوا فيه من التواصل والتواد المقتضي للتناصر بعبادة الأوثان، فقال المشركون لشركائهم لما أبطأ عنهم نصرهم: إنا كنا نعبدكم من دون الله فأغنوا عنا كما كنا نذب عنكم وننصر دينكم ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ أي كُشف لنا اليوم بتفهم الله أنه ليس الأمر كما زعمتم وأنكم لم تخصونا بالعبادة حتى يلزمنا منعكم على أنكم لو خصصتمونا ما قدرنا على ذلك كما قال الشيطان ﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾ [إبراهيم: ٢٢] ﴿فكفى﴾ أي فتسبب عن نفينا لذلك على ما كشف لنا من العلم أن نقول: كفى ﴿بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ في ذلك، يشهد أنكم لم تخصوا أحداً منه ومنا بعبادة بل كنتم مذبذبين، وهذا كله إشارة إلى أن العبادة

المشوبة لا اعتداد بها ولا يرضاها جماد لو نطق، وإن من استحق العبادة استحق الإخلاص فيها وأن لا يشرك به أحد وأنه لا يستحق ذلك إلا القادر على كشف الكرب والمنع من أن يقطع بينه وبين متوليه وعابده قاطع؛ ولما كانت فائدة الشاهد ضبط ما قد ينساه المتشاهدان، عللوا اكتفاءهم بشهادة الله بقولهم: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ في تلك الأزمان ﴿لغقلين﴾ فأقروا لهم بما هو الحق مما كان يعلمه كل من له تأمل صحيح أنهم لم يشعروا بعبادتهم ساعة من الدهر قبل ساعتهم هذه، فهم أجدر الخلق بالاكْتفاء بشهادة الشهيد لأنهم أسوأ حالاً ممن يعلم المشهود به ويخشى النسيان، أو يقال: فقال المشركون لشركائهم: إنا كنا نعبدكم فهل أنتم ناصرنا أو شافعون لنا فنحن مما وقعنا فيه ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا﴾ وحدنا ﴿تعبدون﴾ أي ما كنتم تخلصون لنا العبادة حتى يلزمنا أن نخلصكم كما أعلمنا بذلك الله ربنا وربكم المحيط بكل شيء علماً ﴿فكفى﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه كفى ﴿بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ في ذلك، فكأن المشركين قالوا: قد تضمن كلامكم أنا عبدناكم على غير منهج الإخلاص، أفليس قد عبدناكم؟ أفلا تغنون عنا شيئاً؟ فأجاب الشركاء بقولهم: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ خالصة كانت أو مشوبة ﴿لغقلين﴾ فلا نقر لكم بعبادة أصلاً وإن تيقنا الإخلاص لسلب العلم عنا بما كنا فيه من الجمادية فضلاً عن أن نأمركم أو نرضى بعبادتكم على أنه لا غناء عندنا على تقدير من التقادير؛ أو يقال - وهو أحسن مما مضى -: ﴿وقال شركاؤهم﴾ لما تحققوا العذاب طلباً لأن يخفف عنهم منه بتوزيعه عليهم وعلى كل من عبده من غيرهم ﴿ما كنتم﴾ أيها العابدون لنا ﴿إيانا﴾ أي خاصة ﴿تعبدون﴾ بل كنتم تعبدون أيضاً غيرنا، وهذا يعم والله كل من يرائيه غيره بعمل وهو يعلم أنه يرائيه فيقره ولا ينكره عليه؛ ولما أفهموا بنفي العبادة بقيد الخصوص أنهم كانوا يعبدون معهم غيرهم، وكان المخلوق قاصر العلم غير محيطه بوجه بأحوال نفسه فكيف بأحوال غيره، سببوا عن ذلك قولهم: ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن﴾ أي في أنا ﴿كنا عن عبادتكم﴾ أي في الجملة ﴿لغقلين﴾ والحاصل أن هذا ترجمة كلام الكفار وهو ناشئ منهم عن محض غلبة ودش وفرط غم وندم وقلق، فلا يشترط أن يكون معناه على الوجه الأسد والطريق الأبلغ، فالإعجاز في نظمه، ومرادهم به أن يخفف عنهم من العذاب ولو بمشاركة من كانوا يعبدونهم معهم، فهو من وادي قوله تعالى ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ [إبراهيم: ٢١]، ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ [غافر: ٤٧] ﴿فآلهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ [الأعراف: ٣٨] ونحوه ﴿فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب﴾ [الأعراف: ٣٩] - والله أعلم.

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ٣٠ ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكُمْ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْعَلِيُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ .

ولما أخبر عن حال المشركين، تشوفت النفس إلى الاطلاع على حال غيرهم فقال مستأنفاً مخبراً عن كلا الفريقين: ﴿هنالك﴾ أي في ذلك الموقف من المكان والزمان العظيم الأحوال المتوالي الزلزال ﴿تبلوا﴾ أي تخبر وتخالط مخالطة مميلة محيلة ﴿كل نفس﴾ طائعة وعاصية ﴿ما أسلفت﴾ أي قدمت من العمل فيعرف هل كان خيراً أو شراً وهل كان يؤدي إلى سعادة أو شقاوة.

ولما كان مطلق الرد - وهو صرف الشيء إلى الموضع الذي ابتداء منه - كافياً في الرهبة لمن له اب، بُني للمفعول قوله: ﴿وردوا﴾ أي بالبعث بالإحياء كما كانوا أولاً ﴿إلى الله﴾ أي الملك الأعظم ﴿مولهم الحق﴾ فلم يكن لهم قدرة على قصد غيره ولا الالتفات إلى سواه من تلك الأباطيل، بل انقطع رجاءهم من كل ما كانوا يدعون في الدنيا، وهو المراد بقوله: ﴿وصل عنهم﴾ أي بطل وذهب وضاع ﴿ما كانوا﴾ أي كوناً هو جبلة لهم ﴿يفترون﴾ أي يتعمدون كذبه من أن معبوداتهم شركاء، وتيقنوا في ذلك المقام أن توليهم لغير الله كان باطلاً غير حق؛ والتزييل: تفريق يزول به كل واحد عن مكانه، وهو من تفريق الجثث، وليس من الواوي، بل من اليائي، يقال: زلته عن الشيء أزيله - إذا فرقت بينه وبينه؛ والكفاية: بلوغ مقدار الحاجة في دفع الأذية أو حصول المنفعة؛ والإسلاف: تقديم أمر لما بعده؛ والرد: الذهاب إلى الشيء بعد الذهاب عنه كالرجع؛ والمولى: من يملك تولي أمر مولاة.

ولما قدم سبحانه أن شركاءهم مربوبون مقهورون، لا قدرة لهم إلا على ما يقدرهم الله عليه، وأنه وحده المولى الحق، وبانت بذلك فضائحهم، أتبعه ذكر الدلائل على فساد مذهبهم، فوبخهم بأن وجه السؤال إليهم عما هم معترفون بأنه مختص به ويدل قطعاً على تفرده بجميع الأمر الموجب من غير وقفة لاعتقاد تفرده بالإلهية فقال: ﴿قل﴾ أي يا أكرم خلقنا وأرفقهم بالعباد ﴿من يرزقكم﴾ أي يجلب لكم الخيرات أيها المنكرون للبعث المدعون للشركة ﴿من السماء﴾ أي بالمطر وغيره من المنافع ﴿والأرض﴾ بالنبات وغيره لتعيشوا ﴿أمن يملك السمع﴾ أي الذي تسمعون به الآيات،

ووحده للتساوي فيه في الغالب ﴿والأبصار﴾ التي تبصرون بها ما أنعم عليكم به في خلقها ثم حفظها في المدد الطوال على كثرة الآفات فيفيضها عليكم لتكمل حياتكم الحسية ببقاء الروح، والمعنوية بوجود العلم؛ روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: سبحان من بصر بشحم، وأسمع بعظم، وأنطق بلحم.

فلما سألهم عن أوضح ما هم فيه وأقربه، نبههم على ما قبله من بدء الخلق فقال: ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾ من الحيوان والنبات ﴿من الميت﴾ أي من النطفة ونحوها ﴿ويخرج الميت﴾ أي من النطفة ونحوها مما لا ينمو ﴿من الحي﴾ أي فينقل من النقص إلى الكمال؛ ثم عم فقال: ﴿ومن يدبر الأمر﴾ أي كله التدبير العام.

ولما كانوا مقرين بالرزق وما معه من الخلق والتدبير، أخبر عن جوابهم إذا سئلوا عنه بقوله: ﴿فسيقولون الله﴾ أي مسمى هذا الاسم الذي له الكمال كله بالحياة والقيومية بخلاف ما سيأتي من الإعادة والهداية ﴿فقل﴾ أي فتسبب عن ذلك أنا نقول لك: قل لهم مسبباً عن جوابهم هذا الإنكار عليهم في عدم التقوى: ﴿أفلا تتقون﴾ أي تجعلون وقاية بينكم وبين عقابه على اعترافكم بتوحده في ربوبيته وإشراككم غيره في إلهيته؛ ثم علل إنكار عدم تقواهم بقوله: ﴿فذلكم﴾ أي العظيم الشأن ﴿الله﴾ أي الذي له الجلال والإكرام، فكانت هذه قدرته وأفعاله ﴿ريكم﴾ أي الموجد لكم المدبر لأموركم الذي لا إحسان عندكم لغيره ﴿الحق﴾ أي الثابتة ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لاجتماع الصفات الماضية له لا لغيره لأنه لا تكون الربوبية حقيقة لمن لم تجتمع له تلك الصفات ﴿فما﴾ أي فتسبب عن ذلك أن يقال لكم: ما ﴿ذا بعد الحق﴾ أي الذي له أكمل الثبات ﴿إلا الضلال﴾ فإنه لا واسطة بينهما - بما أنبا عنه إسقاط الجار، ولا يعدل عاقل عن الحق إلى الضلال فأتى تصرفون أنتم عن الحق إلى الضلال؛ ولذلك سبب عنه قوله: ﴿فأنتي﴾ أي فكيف ومن أي جهة ﴿تصرفون﴾ أي أنتم من صارف ما كائناً ما كان، عن الحق إلى الضلال.

ولما كانوا جديرين عند تقريرهم بهذه الآية وإقرارهم بمضمونها بأن يقولوا: سلمنا فأسلمنا ولا نصرف عن الحق أبداً، فلم يقولوا، كانوا حقيقين بأن يقال لهم: حقت عليكم كلمة الله لفسقكم وزوغانكم عن الحق. فقيل: هل خصوا بذلك؟ فقيل: بل ﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الحقوق العظيم ﴿حقت كلمت ربك﴾ أي المحسن إليك بإهلاك أعدائك: الكلمة الواحدة النافذة التي لا تردد فيها، ومعنى الجمع في قراءة نافع وابن عامر أنه لا شيء من كلماته يناقض الكلمة التي أوجبت عذابهم، بل كلها توافقها فالمراد واحد، أو يكون ذلك كناية عن أن عذابهم دائم فإن كلماته لا تنفذ ﴿على﴾ كل

﴿الذين﴾ فعلوا فعلهم لأنهم ﴿فسقوا﴾ أي أوقعوا الترك لأمر الله وأوجدوا عصيانه وفعلوا الخروج عن طريق الحق والخروج عن دائرة الصلاح، وهو كونهم أمة واحدة إلى دين أبيهم آدم صفي الله عليه السلام؛ ثم علل ذلك الحقوق بقوله: ﴿أنهم لا يؤمنون﴾* أي لا يتجدد منهم إيمان أصلاً، وعبر بالفسق المراد به الكفر لأن السياق للخروج عن دائرة الدين الحق في قوله ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا﴾ وهذا المعنى أحق بالتعبير للفسق الذي أصله الخروج عن محيط في قولهم: فسقت الرطبة عن قشرها - أي خرجت، أو يكون المعنى: حقت الربوبية له سبحانه بهذا الدليل، وهو فعل هذه الأمور المختمة بالتدبير المقتضي للوحدانية له سبحانه قطعاً لأنه لو كان قادر يساويه في مقدوره لأمكن أن يمانعه، وبطل أن يكون قادراً، وحق أن من زاغ عن الحق كان في الضلال كما حق هذا ﴿كذلك حقت﴾ أي ثبتت ثباتاً عظيماً ﴿كلمت ربك على﴾ كل ﴿الذين﴾ قضى بفسقهم منهم. و ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ تفسير لكلمته التي حقت؛ والرزق: جعل العطاء الجاري.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبَدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تَوَفُّوْنَ ﴿٢٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلَكَرَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ولما علم أنهم معترفون بأمر الهداية وما يتبعها من الرزق والتدبير أعاد سبحانه السؤال عنها مقرونة بالإعادة تنبيهاً لهم على ما يتعارفونه من أن الإعادة أهون، فإنكارها مع ذلك إما جمود أو عناد، وإنكار المسلمات كلها هكذا، وسوقه على طريق الاستفهام أبلغ وأوقع في القلب فقال: ﴿قل﴾ أي على سبيل الإنكار عليهم والتوبيخ لهم ﴿هل من شركائكم﴾ أي الذين زعمتموهم شركاء لي وأشركتموهم في أموالكم من أنعامكم وزروعكم ﴿من يبدؤا الخلق﴾ كما بدأت ليصح لهم ما ادعيتم من الشركة ﴿ثم يعيده﴾.

ولما كان الجواب قطعاً من غير توقف: ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك، وكان لجاجهم في إنكار الإعادة وعنادهم لا يدعهم أن يجيبوا بالحق، أمره بجوابهم بقوله: ﴿قل الله﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿يبدؤا الخلق﴾ أي مهما أراد ﴿ثم يعيده﴾ وأتى هنا بجزئي الاستفهام وكذا ما يأتي في السؤال عن الهداية تأكيداً للأمر بخلاف ما اعترفوا به، فإنه اكتفى فيه بأحد الجزأين في قوله ﴿فسيقولون الله﴾ ولم يقل: يرزقنا - إلى آخره؛ ثم زاد في تبيكتهم على عدم الإذعان لذلك بالتعجب منهم في قوله: ﴿فأنتى توفكون﴾*.

أي كيف ومن أي جهة تصرفون بأقبح الكذب عن وجه الصواب من صارف ما، وقد استنارت جميع الجهات، ورتب هذه الجمل أحسن ترتيب، وذلك أنه سألهم أولاً عن سبب دوام حياتهم وكمالها بالرزق والسمع والبصر وعن بدء الخلق في إخراج الحي من الميت وما بعده، وكل ذلك تنبيهاً على النظر في أحوال أنفسهم مرتباً على الأوضح فالأوضح، فلما اعترفوا به كله أعاد السؤال عن بدء الخلق ليقرن به الإعادة تنبيهاً على أنهما بالنسبة إلى قدرته على حد سواء، فلما فرغ مما يتعلق بأحوال الجسد أمره أن يسألهم عن غاية ذلك، والمقصود منه من أحوال الروح في الهداية التي في سبب السعادة إمعاناً في الاستدلال بالمصنوع على الصانع على وجه مشير إلى التفضيل فقال: ﴿قل﴾ أي يا أيهم العباد وأعرفهم بالمعبود ﴿هل من شركائكم﴾ أي الذين زعمتم أنهم شركاء لله، فلم تكن شركتهم إلا لكم لأنكم جعلتم لهم حظاً من أموالكم وأولادكم ﴿من يهدي﴾ أي بالبيان أو التوفيق ولو بعد حين ﴿إلى الحق﴾ فضلاً عن أن يهدي للحق على أقرب ما يكون من الوجود إعلماً.

ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين، أمره أن يجيبهم معرضاً عن انتظار جوابهم آتياً بجزئي الاستفهام أيضاً فقال: ﴿قل الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿يهدي﴾ ولما كان قادراً على غاية الإسراع، عبر باللام فقال: ﴿للحق﴾ إن أراد، ويهدي إلى الحق من يشاء، لا أحد ممن زعموهم شركاء، فالاشتغال بشيء منها بعبادة أو غيرها جهل محض واختلال في المزاج كبير، فالآية من الاحتباك: ذكر ﴿إلى الحق﴾ أولاً دليلاً على حذفه ثانياً، و ﴿للحق﴾ ثانياً دليلاً على حذفه أولاً، فتسبب عن ذلك إنكار أتباعهم لهم فقال: ﴿أفمن يهدي﴾ أي منتهياً في هداه ولو على بعد ﴿إلى الحق﴾ أي الكامل الذي لا زيف فيه بوجه ولو على أبعد الوجوه ﴿أحق أن يتبع﴾ أي بغاية الجهد ﴿أم من لا يهدي﴾ أي يهتدي فضلاً عن أن يهدي غيره إلى شيء من الأشياء أصلاً ورأساً؛ وإدغام تاء الافتعال للإيماء إلى انتفاء جميع أسباب الهداية حتى أدانيها، فإن التاء عند أرباب القلوب معناها انتهاء التسبب إلى أدناه ﴿إلا أن يهدي﴾ أي يهديه هاد غيره كائناً من كان، وهذا يعم كل ما عبد من دون الله من يعقل وممن لا يعقل؛ فلما أتم ذلك على هذا النهج القويم، كان كأنه قيل: أتجيبون أم تسكتون؟ وإذا أجبتم أتوثرون الحق فترجعوا عن الضلال أم تعاندون، تسبب عن ذلك سؤالهم على وجه التوبيخ بقوله: ﴿فما﴾ أي أي شيء ثبت ﴿لكم﴾ في فعل غير الحق من كلام أو سكوت؛ ثم استأنف تبيكياً آخر فقال: ﴿كيف تحكمون﴾ فيما سألناكم عنه مما لا ينبغي أن يخفى على عاقل، ألباطل أم بالحق؟ فقد تبين الرشد من الغي؛ والبدء: العقل الأول؛ والإعادة: إيجاد الشيء ثانياً؛ والهداية: التعريف بطريق الرشد من الغي.

ولما أخبر بإقرارهم عن بعض ما يسألون عنه ثم عقبه بما لوح إلى إنكارهم أو سكوتهم عن بعضه مما يتعلق بشركائهم، عطف على ما صرح به من قولهم ﴿فسيقولون﴾ وما لوح إليه من «فسينكرون» أو «فسيستكون» قوله: ﴿وما يتبع﴾ أي بغاية الجهد ﴿أكثرهم﴾ أي في نطقه أو سكوته في عبادته للأصنام وقوله: إنها شفعاء، وغير ذلك ﴿إلا ظناً﴾ تنبيهاً على أنهم إنما هم مقلدون وتابعون للأهواء.

ولما كان الظن لا ينكر استعماله في الشرائع، نبه على أن محله إنما هو حيث لا يوجد نص على المقصود، فيقاس حينئذ على النصوص بطريقه، وأما إذا وجد القاطع في حكم فإنه لا يجوز العدول عنه بوجه من الوجوه فقال تعالى في جواب من يقول: أو ليس الظن مستعملاً في كثير من الأحكام؟: ﴿إن الظن لا يغني﴾ أي أصلاً ﴿من الحق﴾ أي الكامل ﴿شيئاً﴾ أي بدله، ولا يكون بدل الحق إلا إذا كان تابعه مخالفاً فيه لقاطع يعلمه.

ولما صار ظهور الفرق ضرورياً، أوقع تهديد المتماذي في غيه في جواب من كأنه قال: إن ذلك غير خفي عنهم ولكنهم يستكبرون فلا يرجعون، فقال: ﴿إن الله﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿عليم﴾ أي بالغ العلم ﴿بما يفعلون﴾ فاصبر فلسوف يعلمون.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ .

ولما قدم في هذه السورة قولهم ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وأتى فيها رداً عليهم ووعظاً لهم من الآيات البالغة في الحكمة جداً يتجاوز قوى البشر ويضمحل دونه من الخلق القدر، وكان آخر ذلك التنبيه على أن شركاءهم لا يهتدون إلا أن هداهم الهادي فضلاً عن أن يهدوا، وإقامة الدليل على أن مذاهبهم ليست مستندة إلى علم بل هي تابعة للهوى، أتبع ذلك دليلاً قطعياً في أمر القرآن من أنه لا يصح أصلاً أن يؤتى به من دون أمره سبحانه رداً لقولهم: إنه مفترى، لأنه من وادي ما ختم به هذه الآيات من اتباعهم للظنون لأنه لا سند لهم في ذلك بل ولا شبهة أصلاً، وإنما هو مجرد هوى بل وأكثرهم عالم بالحق في أمره، فنفي ذلك بما يزيح الظنون ويدمغ الخصوم ولا يدع شبهة لمفتون، وأثبت أنه هو الآية الكبرى و الحقيق بالاتباع لأنه هدى، فقال تعالى:

﴿وما كان﴾ عاطفاً له على قوله ﴿ما يكون لي أن أبدله﴾ إلى آخره، فهو حينئذ مقول القول، أي قل لهم ذلك الكلام وقل لهم ﴿ما كان﴾ أي قط بوجه من الوجوه، وعينه تعييناً لا يمكن معه لبس، فقال: ﴿هذا القرآن﴾ أي الجامع لكل خير مع التأدية بأساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق ﴿أن يفترى﴾ أي أن يقع في وقت من الأوقات تعمد نسبته كذباً إلى الله من أحد من الخلق كائناً من كان؛ وعرف بتساؤل رتبته دون شامخ رتبته سبحانه بقوله: ﴿من دون الله﴾ أي الذي تقرر أنه يدبر الأمر كله، فما من شفيع إلا من بعد إذنه وما يعزب عنه شيء فسبحان المتفضل على عباده بإيضاح الحجج وإزالة الشكوك والدعاء إلى سبيل الرشاد مع غناه عنهم وقدرته عليهم؛ والافتراء: الإخبار على القطع بالكذب، لأنه من فرى الأديم وهو قطعه بعد تفزيه.

ولما كان إتيان الأمي - الذي لم يجالس عالماً - بالأخبار والقصص الماضية على التحرير دليلاً قطعاً على صدق الآتي في ادعائه أنه لا معلم له إلا الله، عبر بأداة العناد فقال: ﴿ولكن﴾ أي كان كوناً لا يجوز غيره ﴿تصديق الذي﴾ أي تقدم ﴿بين يديه﴾ أي قبله من الكتب، والدليل على تصادقه شاهد الوجود مع أن القوم كانوا في غاية العداوة له ﷺ وكان أهل الكتابين عندهم في جزيرة العرب على غاية القرب منهم مع أنهم كانوا يتجرون إلى بلاد الشام وهم متمكنون من السؤال عن كل ما يأتي به، فلو وجدوا مغمراً ما لقدحوا به، فدل عدم قدحهم على التصديق قطعاً.

ولما كان ذلك سلطاناً قاهراً على صدقه ﷺ، زاده ظهوراً بما اشتمل الكتاب الآتي به عليه من التفصيل الذي هو نهاية العلم فقال: ﴿وتفصيل الكتب﴾ أي الجامع المجموع فيه الحكم والأحكام وجوامع الكلام من جميع الكتب السماوية في بيان مجملاتها وإيضاح مشكلاتها، فهو ناظر إلى قوله ﴿أفمن يهدي إلى الحق﴾، فهو برهان على أنه هو الهادي وحده، فهو الحقيق بالاتباع والتفصيل بتبيين الفصل بين المعاني الملتبسة حتى تظهر كل معنى على حقه، ونظيره التقسيم، ونقيضه التخليط والتليس، وبيان تفصيله أنه أتى من العلوم العلمية الاعتقادية من معرفة الذات والصفات بأقسامها، والعملية التكليفية المتعلقة بالظاهر وهي علم الفقه وعلم الباطن ورياضة النفوس بما لا مزيد عليه ولا يدانيه فيه كتاب، وعلم الأخلاق كثير في القرآن مثل ﴿خذ العفو﴾ [الأعراف: ١٩٩] ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾ [النحل: ٩٠] وأمثالهما.

ولما كان - مع الشهادة لنفسه بالصدق بتصديق ما ثبت حقيقة - معجزاً بالجمع والتفصيل لجميع العلوم الشريفة: عقليها ونقلها إعجازاً لم يثبت لغيره، ثبت أنه مناقض للافتراء حال كونه ﴿لا ريب فيه﴾ وأنه ﴿من رب العلمين﴾* أي موجودهم ومدبر

أمرهم والمحسن إليهم لأنه - مع الجمع لجميع ذلك - لا اختلاف فيه بوجه، وذلك خارج عن طوق البشر.

ولما كان هذا موضع أن يذعنوا لأن هذا القرآن ليس إلا من عند الله وبأمره قطعاً، كان كأنه قيل: ارجعوا عن غيهم فأمنوا واستقاموا ﴿أم﴾ استمروا على ضلالهم ﴿ويقولون﴾ على سبيل التجديد والاستمرار عناداً ﴿افتراه﴾ أي تعمد نسبه كذباً إلى الله، فكانه قيل، تمادوا على عتوهم فقالوا ذلك فكانوا كالباحث عن حثفه بظلفه، لأنهم أصلوا أصلاً فاسداً لزم عليه قطعاً إمكان أن يأتوا بمثله لأنهم عرب مثله، بل منهم من قرأ وكتب وخالط العلماء واشتد اعتناؤه بأنواع البلاغة من النظم والنثر والخطب وتمرنه فيها بخلافه ﷺ في جميع ذلك، فلهذا أمره في جوابهم بقوله ﴿قل﴾ أي لهم يا أبلغ خلقنا وأعرفهم بمواقع الكلام لجميع أنواعه، أتى بالفاء السببية في قوله: ﴿فأتوا﴾ أي أنتم تصديقاً لقولكم هذا الذي تبين وأنكم فيه معاندون؛ ولما كانوا قد جزموا في هذه السورة بأنه افتراه، وكان مفصلاً إلى سور كل واحدة منها لها مقصد معين يستدل فيها عليه، وتكون خاتمتها مرتبطة بفتاحتها متحدة بها، اكتفى في تحديدهم بالإتيان بقطعة واحدة غير مفصلة إلى مثل سورة لكن تكون مثل جميع القرآن في الطول والبيان وانتظام العبارة والتتام المعاني فلذلك قال: ﴿بسورة﴾ قال الرماني: والسورة منزلة محيطة بآيات من أجل الفتحة والخاتمة كإحاطة سور البناء، وهذا نظراً إلى أن المتحدى به سورة اصطلاحية والصواب أنها لغوية، وهي كما قال الحرالي تمام جملة من المسموع تحيط بمعنى تام بمنزلة إحاطة السور بالمدينة؛ ووصفها بقوله: ﴿مثله﴾ أي في البلاغة وحسن النظم وصحة المعاني ومصادقة الكتب وتفصيل العلوم لأنكم مثلي في العربية وتزيدون بالكتابة ومخالطة العلماء - من غير إتيان بـ «من» لما تقدم من أن المراد كونها مثل القرآن كله، ولذلك وسع لهم في الاستعانة بجميع من قدروا عليه ووصلت طاقتهم إليه ولم يقصرهم على من حضرتههم فقال: ﴿وادعوا﴾ أي لمعاونتكم ﴿من استطعتم﴾ أي قدرتم على طاعته ولو ببذل الجهد من الجن والإنس وغيرهم للمعاونة، وحقق أن هذا القرآن من عنده سبحانه باستثنائه في قوله: ﴿من دون الله﴾ أي الذي له الكمال كله، ونبه على أنهم متعمدون لما نسبوه إليه - وحاشاه من تعمد الكذب - وأنهم معاندون بقوله: ﴿إن كنتم﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿صديقين﴾ أي في أنه أتى به من عنده، لأن العاقل لا يجزم بشيء إلا إذا كان عنده منه مخرج، وذلك لا يكون إلا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر، وقد مضى في البقرة ويأتي في هود إن شاء الله تعالى ما يوضح هذا المعنى؛ والاستطاعة: حالة تتطوع بها الجوارح والقوى للفعل لأنه مأخوذ من الطوع؛ ثم كان

كأنه قيل: فقال لهم ذلك فلم يأتوا لقولهم بشبهة توجب شكاً فضلاً عن مصدق، لأنه معجز لكونه كلاماً في أعلى طبقات البلاغة بحسن النظام والجزالة منزلاً من عند الله المحيط علماً وقدرة، فهو مشتمل من كل معنى على ما علا كل العلو عن مدان ﴿بل﴾. وأحسن من ذلك أنه لما أقام الدليل على أن القرآن كلامه، وكان الدليل إنما من شأنه أن يقام على من عرض له غلط أو شبهة، وكان قولهم ﴿افتراه﴾ لا عن شبهة وإنما هو مجرد عناد، نبه سبحانه على ذلك وعلى أنه إنما أقام الدليل لإظهار عنادهم لا لأن عندهم شبهة في كونه حقاً بالإضراب عن قولهم فقال: ﴿بل﴾ أي لم يقولوا ﴿افتراه﴾ عن اعتقاد منهم لذلك بل ﴿كذبوا﴾ أي أوقعوا التكذيب الذي لا تكذيب أشنع منه مسرعين في ذلك من غير أن يفهموه مستهينين ﴿بما لم يحيطوا بعلمه﴾ أي في نظمه أو معناه من غير شبهة أصلاً بل عناداً وطغياناً ونفوراً مما يخالف دينهم وشراداً، فهو من باب «من جهل شيئاً عاداه» والإحاطة: إرادة ما هو كالحائض حول الشيء، فإحاطة العلم بالشيء العلم به من جميع وجوهه.

ولما كان لا بد من وقوع تأويله، وهو إتيان ما فيه من الإخبار بالمغيبات على ما هي عليه، قال: ﴿ولما يأتهم﴾ أي إلى زمن تكذيبهم ﴿تأويله﴾ أي ترجيعنا لأخباره إلى مراجعها وغاياتها حتى يعلموا أصدق هي أم كذب، فإنه معجز من جهة نظمه ومن جهة صدقه في أخباره؛ والتأويل: المعنى الذي يؤول إليه التفسير، وهو منتهى التصريح من التضمين.

ولما كان كأنه قيل: إن فعلهم هذا لعجب، فما حملهم على التماذي فيه؟ فقيل: تبعوا في ذلك من قبلهم لموافقتهم في سوء الطبع، قال مهدداً لهم ومسلماً له ﷺ: ﴿كذلك﴾ أي مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم في الشناعة قبل تدبير المعجز ﴿كذب الذين﴾ ولما كان المكذبون بعض السالفين، أثبت الجار فقال: ﴿من قبلهم﴾ أي من كفار الأمم الخالية فظلموا فأهلكناهم بظلمهم؛ ولما كان التكذيب خطراً لما يثير من السرور، سبب عنه - تحذيراً منه - النظر في عاقبة أمره فقال: ﴿فانظر﴾ أي بعينك ديارهم وبقلبك أخبارهم.

ولما كان من نظر هذا النظر وجد فيه أجل معتبر وأعلى مزدجر، وجه السؤال إليه بقوله: ﴿كيف كان عاقبة﴾ أي آخر أمر ﴿الظالمين﴾* أي الذين رسخت أقدامهم في وضع الأشياء في غير مواضعها حتى كذبوا من لا يجوز عليه الكذب بوجه، ومن المقطوع به أن هذا المسؤول يقول من غير تلثم ولا تردد: عاقبة وخيمة قاصمة ذميمة؛ والعاقبة سبب تؤدي إليه البادئة، فالذي أدى إلى هلاكهم بعذاب الاستئصال ما تقدم من ظلمهم لأنفسهم وعتوهم في كفرهم.

ولما ذكر سبحانه تكذيبهم، كان ذلك ربما أيأس من إذعانهم وتصديقهم، وأذن باستئصالهم لتكامل المشابهة للأولين، وكان ﷺ شديد الشفقة عليهم والحرص على إيمانهم، فأتبعه تعالى بقوله بياناً لأن علمه بانقسامهم أوجب عدم استئصالهم عاطفاً على ﴿كذبوا﴾: ﴿ومنهم﴾ أي قومك ﴿من يؤمن به﴾ أي في المستقبل ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ أي القرآن أصلاً ولو رأى كل آية ﴿وربك﴾ أي المحسن إليك بالرفق بأمك ﴿أعلم بالمفسدين﴾ أي الذين هم عريقون في الإفساد، فسيعاملهم بما يشفي صدرك.

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّرْمَةَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ .

ولما قسمتهم هذه الآية قسمين، وتليت بذكر القسم الثاني بالواو، عرف أنه معطوف على مطوى القسم الأول، فكان كأنه قيل: فإن صدقوك فقل: الله ولي هدايتكم ولي مثل أجوركم بنسبتي فيها فضلاً من ربي: ﴿وإن كذبوك فقل﴾ أي قول منصف معتمد على قادر عالم ﴿لي عملي﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ولكم عملكم﴾ ما لأحد منا ولا عليه من جزاء الآخر شيء؛ ثم صرح بالمقصود من ذلك بقوله محذراً لهم: ﴿أنتم بريئون مما أعمل﴾ أي فإن كان خيراً لم يكن لكم منه شيء وإن كان غيره لم يكن عليكم منه شيء ﴿وأنا بريء مما تعملون﴾ لا جناح علي في شيء منه لأنني لا أقدر على ردكم عنه؛ والبراءة: قطع العلقه الذي يوجب رفع المطالبة، ولا حاجة إلى ادعاء نسخ هذه الآية بآية السيف، فإنه لا منافاة بينهما، لأن هذه في رفع لحاق الإثم وهو لا ينافي الجهاد.

ولما قسمهم إلى هذين القسمين، قسم القسم الأخير إلى قسمين فقال: ﴿ومنهم﴾ أي المكذبين ﴿من﴾ ولما كان المستمع إليه أكثر لأنهم أشهى الناس إلى تعرف حاله، وكان طريق ذلك السمع والبصر، وكان تحديق العين إليه لا يخفى، فكان أكثرهم يتركه إظهاراً لبغضه وخوفاً من إنكار من يراه عليه، وكان إلقاء السمع بغاية الجهد يمكن إخفائه بخلاف الإبصار، عبر هنا بالافتعال، وجمع دالاً على كثرتهم نظراً إلى معنى «من» وأفرد في النظر اعتباراً للفظها ودالاً على قلة الناظر بما ذكر فقال: ﴿يستمعون﴾ وضمن الاستماع الإصغاء ليؤدي مؤدي الفعلين، ودل على الإصغاء بصلته معلقة بحال

انتزعت منه فكأنه: قال مصغين ﴿إليك﴾ أي عند قراءة القرآن وبيانه بالسنة، ولكنهم وإن كانوا قسمين بالنسبة إلى الاستماع والنظر فهم قسم واحد بالنسبة إلى الضلال، فكان تعقيب ذلك بحشرهم بعد قصر الهداية عليه سبحانه كذكر حشرهم فيما مضى تقسيمهم إلى قسمين بعد قوله ﴿ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

ولما كان ﷺ يريد - بإسماعه لهم ما أنزل الله - هدايتهم به، سبب عن استماعهم إنكار إسماعهم الإسماع المترتب عليه الهدى فقال: ﴿أفأنت﴾ أي وحدك ﴿تسمع الصم﴾ أي في آذان قلوبهم لأنهم يستمعون إليك وقد ختم على أسماعهم فهم لا يتفعلون باستماعهم لأنهم يطلبون السمع للرد لا للفهم؛ والسمع إدراك الشيء بما يكون به مسموعاً، فكانوا بعدم انتفاعهم كأنهم هم مجانين، لأن الأصم العاقل ربما فهم بالتفلسف في تحريك الشفاه وغيرها فلذا قال: ﴿ولو كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿لا يعقلون﴾ أي لا يتجدد لهم عقل أصلاً فصاروا بحيث لا يمكن إسماعهم لأنه لا يمكن إلا بسماع الصوت الدال على المعنى وبفهم المعنى، والمانع من الأول الصمم، ومن الثاني عدم العقل، فصاروا شراً من البهائم لأنها وإن كانت لا تعقل فهي تسمع، والأصم: المنسد السمع بما يمنع من إدراك الصوت ﴿ومنهم من ينظر﴾ محذوقاً أو رامياً بصره من بعيد ﴿إليك﴾ فهو من التضمين كما سبق في ﴿يستمعون﴾؛ نقل عن التفتازاني أنه قال في حاشية الكشاف: وحقبة التضمين أن يقصد بالفعل معناه الحقيقي مع فعل آخر يناسبه وهو كثير في كلام العرب، وذلك مع حذف حال مأخوذ من الفعل الآخر بمعونة القرينة اللفظية، ويتعين جعل الفعل المذكور أصلاً والمذكور حاله تبعاً، لأن حذفه والدلالة عليه بصلته يدل على اعتباره في الجملة لا على زيادة القصد إليه، ومن أمثله: أحمد إليك الله، أي منهيّاً إليك حمده، ويقلب كفيه على كذا، أي نادماً عليه، ﴿ولا تعد عينك عنهم﴾ [الكهف: ٢٨] أي مجاوزتين عنهم إلى غيرهم، ﴿ولا تأكلوا أموالهم﴾ - ضامياً ﴿إلى أموالكم﴾ [النساء: ٢]، ﴿الرفث - مفضين - إلى نسائك﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿ولا تعزموا﴾ [البقرة: ٢٣٥] أي على النكاح وأنتم تنون عقده ﴿ولا يسمعون﴾ مصغين ﴿إلى الملا الأعلى﴾ [الصافات: ٨]، سمع الله - أي مستجيباً - لمن حمده، ﴿والله يعلم المفسد﴾ [البقرة: ٢٢٠] مميزاً له - ﴿من المصلح﴾، ﴿والذين يؤلون﴾ - ممتنعين ﴿من﴾ وطء ﴿نسائهم﴾ [البقرة: ٢٢٦].

ولما كان المعنى أنك يا أكرم الخلق تريد بنظر هذا الناظر إليك أن ينظر إلى ما تأتي به من باهر الآيات فيهتدي وهو غير منتفع بنظره لما جعل عليه من الغشاوة فكان كالأعمى الذي زاد على عدم بصره عدم العقل فلا بصر ولا بصيرة، قال منكرراً لذلك:

﴿أفأنت تهدي العمي﴾ أي عيوناً وقلوباً ﴿ولو كانوا﴾ أي بما جبلوا عليه ﴿لا يبصرون﴾ أي لا يتجدد لهم بصر ولا بصيرة، فلا تمكن هدايتهم، لأن هداية الطريق الحسي لا تمكن إلا بالبصر، وهداية الطريق المعنوي لا تمكن إلا بالبصيرة؛ والنظر: طلب الرؤية بتقليب البصر، ونظر القلب طلب العلم بالفكر؛ والعمي: آفة تمنع الرؤية عن العين والقلب؛ والإبصار: إدراك الشيء بما به يكون مبصراً، فكأنه قيل: ما له فعل بهم هذا والأمر بيده؟ فقيل: لأنه تام المُلْك والمِلْك وهو مفضل في جميع نعمه لا يجب عليه لأحد شيء فهو لا يسأل عما يفعل، وبنى عليه قوله: ﴿إن الله﴾ وأحسن منه أن يقال: ولما كان التقدير: إذا علمت ذلك فخفف عنك بعض ما أنت فيه، فإنك لا تقدر على إسماعهم ولا هدايتهم لأن الله تعالى أراد ما هم عليه منهم لاستحقاقهم ذلك لظلمهم أنفسهم، علله بقوله: ﴿إن الله﴾ أي المحيط بجميع الكمال ﴿لا يظلم الناس شيئاً﴾ وإن كان هو الذي جبلهم على الشر ﴿ولكن الناس﴾ أي لما عندهم من شدة الاضطراب والتقلب ﴿أنفسهم﴾ أي خاصة ﴿يظلمون﴾ بحملهم لها على الشر وصرف قواهم فيه باختيارهم مع زجرهم عن ذلك وحجبهم عما جبلوا عليه وإن كان الكل بيده سبحانه ولا يكون إلا بخلقه.

ولما كان في هذه الآيات ما ذكر من أفانين جدالهم في أباطيلهم وضلالهم، وكان فعل ذلك - ممن لا يرى حشراً ولا جزءاً ولا نعيماً وراء نعيم هذه الدار - فعل فارغ السر مستطيل للزمان آمن من نوازل الحدثان، حسن تعقيبه بأنهم يرون يوم الحشر من الأهوال ما يستقصرون معه مدة لبثهم في الدنيا، فقد خسروا إذن دنياهم بالنزاع، وآخرتهم بالعذاب الذي لا استطاع، وليس له انقطاع، فقال تعالى مهدداً لهؤلاء الكفار الذين يعاندون فلا يسمعون ولا يبصرون عاطفاً على ﴿ويوم نحشروهم﴾ الأولى: ﴿ويوم نحشروهم﴾ أي واستقصروا مدة لبثهم في الدنيا يوم الحشر لما يستقبلهم من الأهوال والزلازل الطوال، فكأنه قيل: إلى أي غاية؟ فقيل: ﴿كأن﴾ أي كأنهم ﴿لم يلبثوا﴾ في دنياهم، والجملة في موضع الحال من ضمير ﴿نحشروهم﴾ البارز أي مشبهين بمن لم يلبثوا ﴿إلا ساعة﴾ أي حقيرة ﴿من النهار﴾ وقوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾ حال ثانية، أي لم يفدهم تلك الساعة أكثر من أن عرف فيها بعضهم بعضاً ليزدادوا بذلك حسرة في ذلك اليوم بعدم القدرة على التناصر والتعاون والتظافر كما كانوا يفعلون في الدنيا.

ولما كانت حالهم هذه هي الخسارة التي ليس معها تجارة، فكان السامع متوقفاً للخبر عنها، قال متعجباً منهم موضع: ما أخسرهم: ﴿قد خسروا﴾ أي حقاً ﴿الذين كذبوا﴾ أظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف مستهينين ﴿بلقاء الله﴾ أي

الملك الأعلى بما أخذوا من الدنيا من الخسيس الفاني وتركوا مما كشف لهم عنه البعث من النعيم الشريف الباقي؛ ولما كان الذي وقع منه تكذيب مرة في الدهر قد يفتق بعد ذلك فيهتدي، قال عاطفاً على الصلة: ﴿وما كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿مهتدين﴾ مشيراً إلى تسفيهم فيما يدعون البصر فيه من أمر المتجر والمعرفة بأنواع الهداية.

﴿وإِذَا نُرِيتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمُ أَوْ نَتُوفِينَا فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

ولما كان إخبار الصادق بهلاك الأعداء مقراً للعين، وكانت مشاهدة هلاكهم أقر لها، عطف على قوله ﴿قد خسر﴾: ﴿وإما نرينك﴾ أي إراءة عظيمة قبل وفاتك ﴿بعض الذي نعدهم﴾ أي في الدنيا بما لنا من العظمة فهو أقر لعينك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فإلينا مرجعهم﴾ فنريك فيما هنالك ما هو أقر لعينك وأسر لقلبك، فالآية من الاحتباك: ذكر أولاً الإراءة دليلاً على حذفها ثانياً، والوفاة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً؛ و«ثم» في قوله: ﴿ثم الله﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿شاهد﴾ أي بالغ الشهادة ﴿على ما يفعلون﴾ في الدارين - يمكن أن يكون على بابها، فتكون مشيرة إلى التراخي بين ابتداء رجوعهم بالموت وآخره بالقيامة، وليس المراد بقوله ﴿شاهد﴾ ظاهره، بل العذاب الناشئ عن الشهادة في الآخرة إلى أن الله يعاقبهم بعد مرجعهم، فيريك ما بعدهم لأنه عالم بما يفعلون.

ولما كان في هذه الآية التهديد بالعذاب إما في الدنيا أو في الآخرة غير معين له ﷺ واحدة منهما، أتبعها بما هو صالح للأمرين بالنسبة إلى كل رسول إشارة إلى أن أحوال الأمم على غير نظام فلذلك لم يجزم بتعيين واحدة من الدارين للجزاء، وجعل الأمر منوطاً بالقسط، ففي أي دار كان أحكم جعله فيها، فقال تعالى: دالاً على أنه نشر ذكر الإسلام وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر من عهد آدم عليه السلام إلى آخر الدهر على وجه لم يحصل له اندراس في دهر من الدهور، فمن تركه استحق العذاب سواء كان ممن بين عيسى ومحمد عليهما السلام أم لا، فلا تغتر بما يقال من غير هذا: ﴿ولكل أمة﴾ أي من الأمم التي خلت قبلك ﴿رسول﴾ يدعوهم إلى الله؛ ثم سبب عن إتيان رسولهم بيان القضاء فيهم فقال: ﴿فإذا جاء﴾ أي إليهم ﴿رسولهم﴾ في الدنيا بالبينات والهدى؛ وفي الآخرة في الموقف بالإخبار بما صنعوا به

في الدنيا من تكذيب أو تصديق ﴿قضي بينهم﴾ أي في جميع الأمور بما أفاده نزع الخافض على أسهل وجه من غير شك بما أفاده البناء للمفعول؛ ولما كان السياق بالترهيب أجدر، قال ﴿بالقسط﴾ أي أظهر ما كان خفياً من استحقاقهم في القضاء بالعدل والقسمة المنصفة بينهم كلهم بالسوية فأعطى كل أحد منهم مقدار ما يخصه من تعجيل العذاب وتأخيرها كما فعل معك؛ ولما كان ذلك لا يستلزم الدوام، قال: ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يتجدد لهم ظلم منه سبحانه ولا من غيره.

ولما تقدم في هذه الآيات تهديدهم بالعذاب في الدنيا أو في الآخرة، حكى سبحانه جوابهم عن ذلك عطفاً على قوله: ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ فقال: ﴿ويقولون﴾ أي هؤلاء المشركون مجددین لهذا القول مستمرين على ذلك استهزاء: ﴿متى هذا الوعد﴾ أي بالعذاب في الدنيا أو في الآخرة، وألهبوا وهيجوا بقولهم: ﴿إن كنتم﴾ أي أنت ومن قال بقولك ﴿صادقين﴾ والقول كلام مضمن في ذكره بالحكاية وقد يكون كلام لا يعبر عنه فلا يكون له ذكر مضمن بالحكاية، فلا يكون قولاً لأنه إنما يكون قولاً من أجل تضمن ذكره بالحكاية - قاله الرماني، والتضمن جعل الشيء في وعاء؛ والوعد: خبر بما يعطى من الخير، والوعيد: خبر بما يعطى من الشر، وقد يراد الإجمال كما هنا فيطلق الوعد على المعنيين: وعد المحسن بالثواب والمسيء بالعقاب؛ والصدق: الخبر عن الشيء على ما هو به؛ والكذب: الخبر عنه على خلاف ما هو به.

ولما تضمن قولهم هذا استعجاله ﷺ بما يتوعدهم به، أمره بأن يتبرأ من القدرة على شيء لم يقدره الله عليه بقوله: ﴿قل﴾ أي لقومك المستهزئين ﴿لا أملك لنفسي﴾ فضلاً عن غيري؛ ولما كان السياق للنتمة، قدم الضر منبهاً على أن نعمه أكثر من نقمه؛ وأنهم في نعمه، عليهم أن يقيدوها بالشكر خوفاً من زوالها فضلاً عن أن يتمنوه فقال: ﴿ضراً ولا نفعاً﴾.

ولما كان من المشاهد أن كل حيوان يتصرف في نفسه وغيره ببعض ذلك قال: ﴿إلا ما شاء الله﴾ أي المحيط علماً وقدرة أن أملكه من ذلك، فكأنه قيل: فما لك لا تدعوه بأن يشاء ذلك ويقدرك عليه؟ فقيل: ﴿لكل أمة أجل﴾ فكأنه قيل: وماذا يكون فيه؟ فقيل: ﴿إذا جاء أجلهم﴾ هلكوا؛ ولما كان قطع رجائهم من الفسحة في الأجل من أشد عذابهم، قدم قوله: ﴿فلا يستأخرون﴾ أي عنه ﴿ساعة﴾ ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها ﴿ولا يستقدمون﴾ فلا تستعجلوه فإن الوفاء بالوعد لا بد منه. والسين فيهما بمعنى الوجدان، أي لا يوجد لهم المعنى الذي صيغ منه الفعل مثل: استشكل الشيء واستثقله، ويجوز كون المعنى: لا يوجدون التأخر ولا التقدم وإن اجتهدوا في

الطلب، فيكون في السين معنى الطلب والملك قوة يتمكن بها من تصريف الشيء أتم تصريف، والنفع: إيجاب اللذة بفعلها والتسبب المؤدي إليها؛ والضر: إيجاب الألم بفعله أو التسبب إليه؛ والأجل: الوقت المضروب لوقوع أمر.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابُهُ بَيْنَتَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ أَيْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ بِهِ عَاقِبَةُ الْفَنِّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَشِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلُ إِي وَرَفِي إِنَّهُ لِحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٣﴾ .

ولما كان جل قصدهم بذلك الاستهزاء، وكان وقوعه أمراً ممكناً، وكان من شأن العاقل أن يبعد عن كل خطر ممكن، أمره ﷺ بجواب آخر حذف منه واو العطف لثلاث يظن أنه لا يكفي في كونه جواباً إلا بضمه إلى ما عطف عليه فقال: ﴿قل﴾ أي لمن استبطأ وعيدنا بالعذاب في الدنيا أو في الآخرة، وهو لا يكون إلا بعد الأخذ في الدنيا إعلماً بأن الذي يطلبونه ضرر لهم محض لا نفع فيه بوجه، فهو مما لا يتوجه إليه قصد عاقل ﴿أرءيتم﴾ وهي من رؤية القلب لأنها دخلت على الجملة من الاستفهام ﴿إن أتكم عذابه﴾ في الدنيا.

ولما كان أخذ الليل أنكى وأسرع، قدمه فقال: ﴿بياتاً﴾ أي في الليل بغتة وأنتم نائمون كما يفعل العدو؛ ولما كان الظفر ليلاً لا يستلزم الظفر نهراً مجاهرة قال: ﴿أو نهراً﴾ أي مكاشفة وأنتم مستيقظون، أتستمرون على عنادكم فلا تؤمنوا؟ فكأنهم قالوا: لا، فليعجل به ليري، فقيل: إنكم لا تدرن ما تطلبون! إنه لا طاقة لمخلوق بنوع منه، ولا يجترئ على مثل هذا الكلام إلا مجرم ﴿ماذا﴾ أي ما الذي؟ ويجوز أن يكون هذا جواب الشرط ﴿يستعجل﴾ أي يطلب العجلة ﴿منه﴾ أي من عذابه، وعذابه كله مكروه لا يحتمل شيء منه ﴿المجرمون﴾ * إذ سنة الله قد استمرت بأن المكذب لا يثبت إلا عند مخايله، وأما إذا برك بكله وأناخ بثقله فإنه يؤمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [فاطر: ٤٣] وهذا معنى التراخي في قوله: ﴿أئنم إذا ما وقع﴾ أي عذابه وانتفى كل ما يضاذه ﴿أمتتم به﴾ وذلك أنه كانت عاداتهم كمن قبلهم الاستعجال بالعذاب عند التوعد به، وكانت سنة الله قد جرت بأن المكذبين إذا أتاهم العذاب يتراخى إيمانهم بعد مجيء مقدماته وقبل اجتثاثهم بعظائم صدماته لشدة معاندتهم فيه وتوطنهم عليه كما وقع للأولين من الأمم بغياً وعتواً كقوم صالح لما تغيرت وجوههم بألوان مختلفة في اليوم الأول ثم الثاني ثم الثالث وأيقنوا بالهلكة وودع بعضهم بعضاً ولم يؤمنوا. وجرت

بأنهم إذا ذاقوا مس العذاب وأخذتهم فواجته الصعاب شغلتهم دواهيته عن العناد واضطرتهم أهواله إلى سهل الانقياد، فكان في غاية الحسن وضع تقريرهم على الاستعجال عقب الوعيد، ثم وضع التراخي عن الإيمان بالعناد بعد الإشراف على الهلاك ومعاينة التلف، فكان كأنه قيل: أخبروني على تقدير أن يأتيكم عذابه الذي لا عذاب أعظم منه - كما دل على ذلك إضافته إليه - فيبتكم أو كاشفكم، ماذا تفعلون؟ ألا تؤمنون؟ فقالوا لا، فليعجل به ليري، فناسب لما كان استعجالهم بعد هذا الإنذار تسفيهم على ذلك فقيل ﴿ماذا﴾ أي أي نوع منه يطلب عجلته ﴿المجرمون﴾، ولا نوع منه إلا وهو فوق الطاقة ووراء الوسع، إن هذا لمنكر من الآراء، أبعد تراخي إيمانكم عن مخايل صدمته ومشاهدة مبادئ عظمته وشدته أوجدتم الإيمان به عند وقوعه؟ يقال لكم حين اضطرتكم فواجته إلى الإيمان وحملتكم قوارعه على صورة الإذعان: ﴿ألئن﴾ تؤمنون به - أي بسببه - بعد أن أزال بطشنا قواكم وحل عزائم هممكم وأوهاكم ﴿وقد كنتم﴾ أي كوناً كأنكم مجبولون عليه ﴿به تستعجلون﴾ أي تطلبون تعجيله طلباً عظيماً حتى كأنكم لا تطلبون عجلة شيء غيره تكذيباً وعزماً على الثبات على العناد، لو وقع فلم نقبل إيمانكم هذا منكم ولا كف عذابنا عنكم، بل صيركم كأمس الدابر.

ولما كان ما ذكر هو العذاب الدنيوي، أتبعه ما بعده إعلماً بأنه لا يقتصر عليه في جزائهم فقال: ﴿ثم قيل﴾ أي من أي قائل كان استهانة ﴿للذين ظلموا﴾ أي وبعد أركم في الدنيا والبرزخ بالعذاب وهركم بشديد العقاب قيل لكم يوم الدين بظلمكم بالآيات وبما أمرتم به فيها بوضعكم كلاً من ذلك في غير موضعه: ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ فالإتيان بـ «ثم» إشارة إلى تراخي ذلك عن الإهلاك في الدنيا بالمكث في البرزخ أو إلى أن عذابه أدنى من عذاب يوم الدين ﴿هل تجزون﴾ بناه للمفعول لأن المخيف مطلق الجزاء؛ ولما كان الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، وكان المعنى: بشيء، استثنى منه فقال: ﴿إلا بما كنتم﴾ أي بجبالاتكم ﴿تكسبون﴾ أي في الدنيا من العزم على الاستمرار على الكفر ولو طال المدى لا تنفكون عنه بشيء من الأشياء وإن عظم، فكان جزاءكم الخلود في العذاب طبق النعل بالنعل؛ والعذاب: الألم المستمر، وأصله الاستمرار، ومنه العذوبة لاستمرارها في الحلق؛ والبيات: إتيان الشيء ليلاً؛ والذوق: طلب الطعم بالفم في ابتداء الأخذ.

ولما انقضى ما اشتملت عليه الآية من التهديد وصادع الوعيد، أخبر تعالى أنهم صاروا إلى ما هو جدير بسماع ذلك من النزول عن ذلك العناد إلى مبادئ الانقياد بقوله تعالى: ﴿ويستنبئونك﴾ عطفاً على قوله «ويقولون متى هذا الوعد» أي ويطلبون منك

الإنباء وهو الإخبار العظيم عن حقيقة هذا الوعد الجسيم، ويمكن أن يكون ذلك منهم على طريق الاستهزاء كالأول، فيكون التعجيب والتويخ فيه بعد ما مضى من الأدلة أشد ﴿أحق هو﴾ أي أثابت هذا الذي تتوعدنا به أم هو كالسحر لا حقيقة له كما تقدم أنهم قالوه ﴿قل﴾ أي في جوابهم ﴿إي وربِّي﴾ أي المحسن إليّ المدبر لي والمصدق لجميع ما أتى به؛ ولما كانوا منكرين، أكد قوله: ﴿إنه لحق﴾ أي كائن ثابت لا بد من نزوله بكم.

ولما كان الشيء قد يكون حقاً، ويكون الإنسان قادراً على دفعه فلا يهوله، قال نبياً ذلك: ﴿وما أنتم﴾ أي لمن توعدكم ﴿بمعجزين﴾ فيما يراد بكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦) ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمُ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧).

ولما أخبرهم بحقيقته، أخبرهم بما يكون منهم من الظلم أيضاً عند معاينته بالسماح ببذل جميع ما في الأرض حيث لا ينفع البذل بعد ترك الأمور به وهو من أيسر الأشياء وأحسنها فقال: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت﴾ أي عند المعاينة ﴿ما في الأرض﴾ أي كلها من خزائنها ونفائسها ﴿لافتدت به﴾ أي جعلت فدية لها من العذاب لكنه ليس لهم ذلك، ولو كان ما قبل منهم، فإذا وقع ما يوعدون استسلموا ﴿وأسروا الندامة﴾ أي اشتد ندمهم ولم يقدرُوا على الكلام ﴿لما رأوا العذاب﴾ لأنهم بهتوا لعظم ما دهمهم فكان فعلهم فعل المسر، لأنهم لم يطبقوا بكاء ولا شكاية ولا شيئاً مما يفعله الجازع؛ والاستنباء: طلب النبأ كما أن الاستفهام طلب الفهم؛ والنبأ: خبر عن يقين في أمر كبير؛ والحق: عقد على المعنى على ما هو به تدعو الحكمة إليه، وكل ما بني على هذا العقد فهو حق لأجله، والحق في الدين ما شهد به الدليل على الثقة فيما طريقه العلم، والقوة فيما طريقه غالب الأمر، وذلك فيما يحتمل أمرين أحدهما أشبه بالأصل الذي جاء به النص؛ والافتداء: إيقاع الشيء بدل غيره لرفع المكروه، فداء فدية وأفداه وافتداه افتداء وفاداه مفاداة وفداه تفدية وتفادى منه تفادياً؛ والإسرار: إخفاء الشيء في النفس؛ والندامة: الحسرة على ما كان يتمنى أنه لم يكن أوقعها، وهي حال معقولة يتأسف صاحبها على ما وقع منها ويود أنه لم يكن أوقعها.

ولما اشتملت الآيات الماضيات على تحتم إنجاز الوعد والعدل في الحكم،

وختمت بقوله: ﴿وقضي﴾ أي وأوقع القضاء على أيسر وجه وأسهله؛ ولما استغرق القضاء جميع وقائعهم. دل عليه بنزع الجار فقال: ﴿بينهم﴾ أي الظالمين والمظلومين والظالمين والأظلمين ﴿بالقسط﴾ أي العدل؛ ولما كان وقوع ذلك لا ينفي وقوع الظلم في وقت آخر قال: ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم ﴿لا يظلمون﴾ أي لا يقع فيهم ظلم من أحد أصلاً كائناً من كان في وقت ما.

ولما كان السبب الحامل لملوك الدنيا على الكذب والجور والظلم العجز أو طلب التزيد في الملك، أشار إلى تنزهه عن ذلك بقوله مؤكداً سوقاً لهم مساق المنكر لأن فعلهم في عبادة الأصنام فعل من ينكر مضمون الكلام: ﴿إلا إن الله﴾ أي الملك الأعظم وحده ﴿ما في السموات﴾ بدأ بها لعلوها معنى وحساً وعظمتها؛ ولما كان المقام للغنى عن الظلم لم يحوج الحال إلى تأكيد بإعادة النافي فقال: ﴿والأرض﴾ أي من جوهر وعرض صامت وناطق، فلا شيء خارج عن ملك يحوجه إلى ظلم أو إخلاف وعد لحيازته، والحاصل أنه لا يظلم إلا ناقص الملك وأما من له الملك كله فهو الحكم العدل. لأن جميع الأشياء بالنسبة إليه على حد سواء، ولا يخلف الوعد إلا ناقص القدرة وأما من له كل شيء ولا يخرج عن قبضته شيء فهو المحق في الوعد العدل في الحكم، وفي الآية زيادة تحسير وتنديم للنفس الظالمة حيث أخبرت بأن ما تود أن تفتدي به ليس لها منه شيء ولا تقدر على التوصل إليه، ولو قدرت ما قبل منها، وإنما هو لمن رضي منها بالقليل منه فضلاً منه عليها على ما أمر به على لسان رسله، وعلى هذا فيجوز أن يكون التقدير: لو أن لها ذلك لافتدت به، لكنه ليس لها بل لله؛ فلما ثبت بذلك حكمه بالعدل وتنزهه عن إخلاف الوعد. صرح بمضمون ذلك بقوله مؤكداً لإنكارهم: ﴿إلا إن وعد الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿حق﴾ لأنه تام القدرة والغنى، فلا حامل له على الإخلاف ﴿ولكن أكثرهم﴾ أي الذين تدعوهم وهم يدعون دقة الأفهام وسعة العقول ﴿لا يعلمون﴾ أي لا علم لهم فهم لا يتدبرون ما نصبنا من الأدلة فلا يتقادون لما أمرنا به من الشريعة فهم باقون على الجهل معدودون مع البهائم؛ و﴿إلا﴾ مركبة من همزة الاستفهام و﴿لا﴾ وكانت تقريراً وتذكيراً فصارت تنبيهاً، وكسرت إن بعدها لأنها استئنافية ينبه بها على معنى يبتدأ به ولذا يقع بعدها الأمر والدعاء بخلاف «لو» و«إلا» للاستقبال فلم يجز بعدها إلا كسر «إن» «أما» قد تكون بمعنى «حقاً» في قولهم: أما إنه منطلق، وهي للحال فجازي في «أن» بعدها الوجهان - ذكره الرماني؛ والسموات طبقات مرفوعة أولها سقف مزين بالكواكب. وهي من سما بمعنى علا.

ولما تقرر أنه لا شيء خارج عن ملكه، وأنه تام القدرة لأنه لا منجي من عذابه،

شامل العلم لقضائه بالعدل، صادق الوعد لأنه لا حامل له على غيره، وثبت تفرد به بأنه يحيي ويميت؛ ثبت أنه قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء، فثبت أنه لا يكون الرد إلا إليه فنبه على ذلك بقوله: ﴿هو﴾ أي وحده ﴿يحيي﴾ أي كما أنتم به مقرون ﴿ويميت﴾ كما أنتم له مشاهدون ﴿والإله﴾ أي لا إلى غيره ﴿ترجعون﴾ لأنه وعد بذلك في قوله: ﴿إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً﴾ [يونس: ٤] وفي قوله: ﴿فإلينا مرجعهم﴾ [يونس: ٤٦] وفي قوله ﴿أي وربّي إنه لحق﴾ [يونس: ٥٣] وغير ذلك ولا مانع له منه؛ والحياة معنى يوجب صحة العلم والقدرة ويضاد الموت، وهو يحل سائر أجزاء الحيوان فيكون بجميعة حياً واحداً، والحي هو الذي يصح أن يكون قادراً، والقادر هو الذي يصح أن يذم ويحمد بما فعل، والموت معنى يضاد الحياة على البنية الحيوانية، وليس كذلك الجمادية.

ولما ثبت أن ذلك كله حق مبين للسحر الذي مبناه على التخيل، أقبل على الذين تقدم الإخبار عنهم في أول السورة في قوله: أكان للناس عجباً أنهم قالوا إنه سحر، فقال: ﴿يأيتها الناس﴾ أي الذين قالوا: إن وعدنا والإخبار به سحر؛ ولما كان بين الأرواح والأبدان حب غريزي بالتعلق، والتذ الروح لذلك بمشتميات هذه الحياة الدنيا بما انطبع فيه بمظاهر الحس فلم يأت نور العقل حتى تعود النقائص بقوة التعلق فحدث له أخلاق ذميمة هي أمراض روحانية، فأرسل ربه الذي أوجده ودبره وأحسن إليه طبيباً حاذقاً هو الرسول ﷺ لعلاج هذه الأمراض. وأنزل كتابه العزيز لوصف الأدوية، فكان أحكم الطب منع المريض عن أسباب المرض، قال تعالى: ﴿قد جاءكم موعظة﴾ أي زاجر عظيم عن التخلي عن كل ما يشغل القلب عن الله من المحظورات وغيرها من كل ما لا ينبغي، وذلك هو الشريعة.

ولما كان تناول المؤذي شديد الخطر، وهو لذيد إلى النفس لما بينهما من ملاءمة النقص، وكان الانكفاف عنه أشق شيء عليها، رغبها في القبول بقوله: ﴿من ربكم﴾ أي المحسن إليكم المدبر لمصالحكم بهذا القرآن؛ ولما كان أليق ما يعمل بعد الحماية تعاطي الدواء المزيل للأخلاق الفاسدة من الباطن، قال: ﴿وشفاء﴾ أي عظيم جداً ﴿لما في الصدور﴾ من أدواء الجهل، وذلك الشفاء يحصل بتطهير الباطن بعد التخلي عن الأخلاق الذميمة بالتخلي بالصفات الحميدة ليصير الباطن سالماً عن العقائد الفاسدة والأخلاق الناقصة كما سلم البدن من الأفعال الدنية، وهذا هو الطريق.

ولما كانت الروح إذا انصقلت مرآتها فصارت قابلة لتجلي الأنوار عليها بفيض

البروق الإلهية والنفحات القدسية والمواهب الملكوتية لأنها دائمة اللمعان كما قال ﷺ فيما رواه الطبراني عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه: «إن لربكم أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»^(١) - الحديث. وليس المانع من نزولها في كل قلب إلا عدم القابلية من بعضها لتراكم الظلمات فيها من صداء المخالفة ودين الإعراض والغفلة، فيكون بذلك كالمرايا الصديئة لا تقبل انطباع الصور بها، قال تعالى: ﴿وهدى﴾ إلى الحق لأنه نور عظيم يقود صاحبه - ولا بد - إلى الطريق الأقوم، وهذا للصديقين وهو الحقيقة.

ولما كان هذا النور إذا زاد عظمة وانتشر إشراقه يفيض - بعد الوصول إلى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية - على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على أجرام العالم فينير كل قابل له مقبل عليه، قال تعالى: ﴿ورحمة﴾ أي إكرام عظيم بالإمامية بالغ في الكمال والإشراق إلى حد لا مزيد عليه، وهذا للأنبياء عليهم السلام؛ ولما كان لا ينتفع بأنوارهم إلا من توجه إليهم، ثم إن الانتفاع بهم يتفاوت بتفاوت درجات التوجه إليهم والإقبال عليهم، قال: ﴿للمؤمنين﴾ الذين اتبعوه وهم راسخون في التوجه إلى المرشدين والاستسلام لهم فكان ذلك سبباً لنجاتهم - أشار إلى هذا الإمام وقال: فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الكلمات الأربع القرآنية على وجه لا يمكن تأخير شيء منها عن موضعه ولا تقديمه، وهذا بخلاف ما نسبوه إليه ﷺ من السحر فإنه داء كله وضلال يجر إلى الشقاء، والموعظة: إبانة تدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرغبة، والوعظ ما دعا إلى الخشوع والنسك وصرف عن الفسوق والإثم؛ والشفاء: إزالة الداء، وداء الجهل أضر من داء البدن وعلاجه أعسر وأطباؤه أقل، والشفاء منه أجل؛ والصدر: موضع القلب، وهو أجل موضع في الحي لشرف القلب؛ والهدى: بيان عن معنى يؤدي إلى الحق، وهو دلالة تؤدي إلى المعرفة؛ والرحمة: نعمة على المحتاج.

(١) حسن لشواهد. أخرجه الطبراني في الكبير ١٩/ (٢٣٣) والأوسط كما في المجمع ١٠/ ٢٣١ (١٧٧١٣) من حديث محمد بن مسلمة. وقال الهيثمي: وفيه من لم أعرف ومن عرفتهم وثقوا اه. - وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج ٢٧ وفي إسناده عيسى بن محمد ابن إياس بن بكير قال أبو حاتم: ضعيف وذكره ابن حبان في الثقات وفي إسناده أيضاً رويم بن يزيد قال ابن حجر إنه روى عن الليث حديثاً منكراً وسكت عنه ابن حجر في لسان الميزان وكذا الرازي في الجرح والتعديل. - وله شاهد آخر أخرجه الطبراني في الكبير ٧٢٠ من حديث أنس بن مالك وذكره الهيثمي في المجمع (١٧٧١٤) وقال: وإسناد رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى بن إياس، وهو ثقة اه. وفيه: «فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلَهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ .

ولما ثبت ذلك، حثهم عليه لبعده عن السحر بشياته وعدم القدرة على زلزله فضلاً عن إزالته وبأنه شفاء وموعظة وهدى ورحمة فهو جامع لمراتب القرب الإلهي كلها، وزهدهم فيما هم عليه مقبلون من الحطام: لمشاركته للسحر في سرعة التحول والتبدل بالفناء والاضمحلال فهو أهل للزهد فيه والإعراض عنه فقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ ﴾ الآية، وحسن كل الحسن تعقيب ذلك لقوله: ﴿ هو يحيي ويميت ﴾ لما ذكر من سرعة الرحيل عنه، ولأن القرآن محيي لميت الجهل، من أقبل عليه أفاده العلم والحكمة، فكان للقلب كالحياة للجسد، ومن أعرض عنه صار في ضلال وخط فوصل إلى الهلاك الدائم، فكان إعراضه عنه مميتاً له، وجعل أبو حيان متعلق الباء في بفضل محذوفاً تقديره: ﴿ قُلْ ﴾ ليفرحوا ﴿ بفضل الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ وبرحمته ﴾ ثم عطف قصر الفرح على ذلك ﴿ فبذلك ﴾ أي الأمر العظيم جداً وحده إن فرحوا يوماً ما بشيء ﴿ فليفرحوا ﴾ فهما جملتان وقال: إن ذلك أظهر، وفائدة الثانية قصر الفرح على ذلك دون ما يسرون به من الحطام فإن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية. ثم صرح بسبب الفرح فقال: ﴿ هو ﴾ أي المحدث عنه من الفضل والرحمة ﴿ خير مما يجمعون ﴾ أي من حطام الدنيا وإن كان أشرف ما فيها من المتاع دائبين فيه على تعاقب الأوقات، والعاقل يختار لتعبه الأفضل؛ والفضل: الزيادة في النعمة؛ والفرح: لذة في القلب بنيل المشتهى.

ولما وصف القرآن العظيم بالشفاء وما معه المقتضي لاستقامة المناهج وسداد الشرائع ووضوح المذاهب، وأشار إلى أن العاقل ينبغي له أن يخصه بالفرح لبقاء آثاره وما يدعو إليه وزهده فيما يجمعون لفنائه ولأنه يدعو إلى رذائل الأخلاق فيحط من أوج المعالي، أشار إلى أنهم كما خبطوا في الفرح فخصوه بما يفني معرضين عما يبقى فكذلك خبطوا في طريق الجمع فوعدها على أنفسهم بأن حرموا بعض ما أحله، فمنعوا أنفسهم ما هم به فرحون دون أمر من الله تعالى فنقصوا بذلك حظهم في الدنيا بهذا المنع وفي الآخرة بكذبهم على ربهم في تحريمه حيث جعلوه شرعاً مرضياً وهو في غاية الفساد والبعد عن الصواب والقصور عن مراقبي السداد فقال تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ أي لهؤلاء الذين يستهزئون بك استهزاء قاضياً عليهم بأنهم لا عقول لهم مستهزئاً بهم وموبخاً لهم

توبيخاً هو في أحكم مواضعه، وساقه على طريق السؤال بحيث إنهم لا يقدرّون على الجواب أصلاً بغير الإقرار بالافتراء فقال: ﴿أرءيتم﴾ أي أخبروني، وعبر عن الخلق بالإنزال تنبيهاً على أنه شيء لا يمكن ادعاءه لأصنامهم لنزول أسبابه من موضع لا تعلق لهم به بوجه فقال: ﴿ما أنزل الله﴾ أي الذي له صفات الكمال التي منها الغنى المطلق ﴿لكم﴾ أي خاصاً بكم ﴿من رزق﴾ أي أي رزق كان ﴿فجعلتم منه﴾ أي ذلك الرزق الذي خصكم به ﴿حراماً وحلالاً﴾ على النحو الذي تقدم في الأنعام وغيرها قصته وبيان فساده على أنه جلبي الفساد ظاهر العوج؛ ثم ابتداءً أمراً آخر تأكيداً للإنكار عليهم فقال: ﴿قل﴾ أي من أذن لكم في ذلك؟ ﴿الله﴾ أي الملك الأعلى ﴿أذن لكم﴾ فتوضّحوا المستند به ﴿أم﴾ لم يأذن لكم فيه مع نسبتكم إياه إليه لأنكم فصلتموه إلى حرام وحلال ولا محلل ومحرم إلا الله، فأنتم ﴿على الله﴾ أي المحيط بكل شيء عظمة وعلماً ﴿تفترون﴾ مع نسبتكم الافتراء إلي في هذا القرآن الذي أعجز الأفكار والشرع الذي بهر العقول وادعائكم أنكم أبعد الناس عن مطلق الكذب وأطهرهم ذبولاً منه، وتقديم الجار للإشارة إلى زيادة التشنيع عليهم من حيث إنهم أشد الناس تبرؤاً من الكذب وقد خصوا الله - على تقدير التسليم لهم - بأن تعمدوا الكذب عليه.

ولما كان قد مضى من أدلة المعاد ما صيره كالشمس، وكان افتراءهم قد ثبت بعدم قدرتهم على مستند بإذن الله لهم في ذلك، قال مشيراً إلى أن القيامة مما هو معلوم لا يسوغ إنكاره: ﴿وما ظن الذين يفترون﴾ أي يتعمدون ﴿على الله﴾ أي الملك الأعظم ﴿الكذب﴾ أي أنه نازل بهم ﴿يوم القيامة﴾ أي هب أنكم لم تستحيوا منه ولم تخافوا عواقبه في الدنيا فما تظنون أنه يكون ذلك اليوم؟ أتظنون أنه لا يحاسبكم فيكون حينئذ قد فعل ما لا يفعله رب مع مربوبه.

ولما كان تعالى يعاملهم بالحلم وهم يتمادون في هذا العقوق، قال: ﴿إن الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿لذو فضل﴾ أي عظيم ﴿على الناس﴾ أي بنعم منها إنزال الكتب مفصلاً فيها ما يرضاه وما يسخطه وإرسال الرسل عليهم السلام لبيانها بما يحتمله عقول الخلق منها، ومنها طول إمهالهم على سوء أعمالهم فكان شكره واجباً عليهم ﴿ولكن أكثرهم﴾ أي الناس لاضطراب ضمائرهم ﴿لا يشكرون﴾ أي لا يتجدد منهم شكر فهم لا يتبعون رسله ولا كتبه، فهم يخبطون خبط عشواء فيفعلون ما يغضبه سبحانه؛ والتحريم: عقد معنى النهي عن الفعل؛ والتحليل: حل معنى النهي بالإذن؛ والشكر: حق يجب بالنعمة من الاعتراف بها والقيام فيما تدعو إليه على قدرها؛ وافتراء الكذب: تزويره وتمييقه فهو أفحش من مطلق الكذب.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٦﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

ولما وصف القرآن بما وصفه به من الشفاء وما معه بعد إقامة الدليل على إعجازه، وأشار إلى أن ما تدينوا به في غاية الخط وأنه مع كونه كذباً يقدر كل واحد على تغييره بأحسن منه لكونه غير مبني على الحكمة، وختم ذلك بتهديدهم على افتراء الكذب في شرع ما لم يأذن به مع ادعائهم أن القرآن مفترى وهم عاجزون عن معارضته، وبأنهم لم يشكروه على نعمه التي أجلها تخصيصهم بهذا الذكر الحكيم والشرع القويم، وكان قد أكثر في ذلك كله من الأمر له ﷺ بمحاجتهم ﴿ قل لا أملك لنفسي ﴾، ﴿ قل أرأيتم إن أتكم عذابه ﴾، ﴿ قل إي وربي إنه لحق ﴾، ﴿ قل بفضل الله ﴾ - الآية، ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم ﴾، ﴿ قل الله أذن لكم ﴾، قال تعالى ناظراً إلى قوله: ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى ﴾ الآية، تسلياً له ﷺ وتقوية لهمة وزيادة في تهديدهم عطفاً على ما تقديره: فقد أنزل إليهم على لسانك ما هو شرف لهم ونعمة عليهم وهو في غاية البعد عن مطلق الكذب فإن كل شيء منه في أحكم مواضعه وأحسنها لا يتطرق إليه الباطل بوجه وهم يقابلون نعمته بالكفر: ﴿ وما تكون ﴾ أنت ﴿ في شأن ﴾ أي أي شأن كان ﴿ وما تملوا منه ﴾ أي من القرآن المحدث عنه في جميع هذه السورة، الذي تقدم أنهم كذبوا به من غير شبهة لهم ﴿ من قرآن ﴾ أي قليل أو كثير ﴿ ولا تعملون ﴾ أي كلكم طائعتكم وعاصيكم، وأغرق في النفي فقال: ﴿ من عمل ﴾ صغير أو كبير ﴿ إلا كنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ عليكم شهوداً ﴾ أي عاملين بإحاطة علمنا ووكالة جنودنا عمل الشاهد ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ الآية إيذاناً بأنك بعيني في جميع هذه المراجعات وغيرها من شؤونك وأنا العالم بتدبيرك والقادر على نصرتك، وهي كلها من كتابي الذي تتضاءل القوى دونه وتقف الأفكار عن مجاراته لأنه حكيم لكونه من عندي فجعل عن مطلق المعارضة لفظاً أو معنى فضلاً عن التغيير فضلاً عن الإتيان بما هو مثله فكيف بما هو أحسن منه، لاستقامة أمره وتناسب أحكامه كونها شفاء وهدى ورحمة، وما كان كذلك فهو من عندي قطعاً وبإذني جزماً لأنني عالم بالإفاضة فيه والانفصال عنه وجميع الأمور الواقعة منك ومنهم ومن غيرهم.

ولما كان ربما ظن ظان من إفهام ﴿ كنا ﴾ و﴿ شهوداً ﴾ للجنود أنه سبحانه محتاج إليهم، نفى ذلك بقوله: ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ يعزب ﴾ أي يغيب ويخفى ﴿ عن

ربك ﴿ أي المربي لكل مخلوق بعام أفضاله ولك بخاص نعمه وأشرف نواله، وأغرق في النفي فقال: ﴿من مثقال ذرة﴾ أي وزن نملة صغيرة جداً وموضع وزنها وزمانه؛ ولما كان «في» بموزن أهل الأرض كان تقديمها أولى فقال: ﴿في الأرض﴾ ولما لم يدع السياق إلى الجمع - كما سيأتي في سبأ - قال اكتفاء بالمفرد الدال على الجنس: ﴿ولا في السماء﴾ أي ما علا عن الأرض كائناً ما كان.

ولما كان ربما أدى الجمود بعض الأغبياء إلى أن يحمل المثقال على حقيقته ويجهل أن المراد به المبالغة، قال عاطفاً على الجملة من أولها وهو على الابتداء سواء رفعا الرأين على قراءة حمزة ويعقوب أو نصبناهما عند الباقيين: ﴿ولا أصغر من ذلك﴾ أي من مثقال الذرة ﴿ولا أكبر﴾ ولما أتى بهذا الابتداء الشامل الحاصر، أخبر عنه بقوله: ﴿إلا﴾ أي لا شيء من ذلك إلا موجود ﴿في كتب﴾ أي جامع ﴿مبين﴾ أي ظاهر في نفسه مظهر لكل ما فيه، وسيأتي في سبأ ما يتم به هذا المكان، وفي ذلك تهديد لهم وتثبيت له ﷺ، ولاح بهذا أن ما بعد ﴿إلا﴾ حال من الفاعل، أي ما يفعل شيئاً إلا وأنت بأعيننا فثبت أن القرآن بعلمه، فلو افتراه أحد عليه لأمكن منه؛ والإفاضة: الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه وهو الانبساط في العمل أخذاً من فيض الإناء إذا انصب ما فيه من جوانبه، وأفضتم: تفرقتم كتفرق الماء الذي يتصبب من الإناء؛ والعزوب: ذهاب المعنى عن العلم، وضده الحضور؛ والذر: صغار النمل وهو خفيف الوزن جداً، ومثقاله: وزنه.

ولما تقدم أنه سبحانه شامل العلم، وعلم - من وضع الأحوال ما لا تسع ومن لا تسع مجرد أسمائهم الأرض في كتاب مبين أي مهما كشف منه وجد من غير خفاء ولا احتياج إلى تفتيش - أنه كامل القدرة بعد أن تقدم أنهم فريقان: صادق في أمره، ومفتر عليه، وأنه متفضل على الناس بعدم المعالجة والتأخير إلى القيامة، وخوف المفترى عواقب أمره عاجلاً وآجلاً، ورجى المطيع، كان موضع أن يقال: ليت شعري ماذا يكون تفصيل حال الفريقين في الدارين على الجزم؟ فأجيب بأن الأولياء فائزون والأعداء هالكون ليشر كل مطيع عن ساعد جده ويبدل غاية جهده في لحاق المخلصين وتحامي جانب المفترين بقوله تعالى مؤكداً لاعتقادهم أنهم يهلكون حزب الله وإنكارهم غاية الإنكار أن يفوتوهم: ﴿ألا إن أولياء الله﴾ أي الذين يتولون بالطاعة من لا شيء أعز منه ولا أعظم ويتولاهم ﴿لا خوف﴾ أي ثابت عال ﴿عليهم﴾ أي من شيء يستقبلهم ﴿ولا هم﴾ أي بضمايرهم ﴿يحزنون﴾ أي يتجدد لهم حزن على فائت لأن قلوبهم معلقة بالله سبحانه فلا يؤثر فيهم لذلك خوف ولا حزن أثراً يقطع قلوبهم كما يعرض لغيرهم،

وفسرهم بقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ أي أوجدوا هذا الوصف المصحح للأعمال وبه كمال القوة العلمية ﴿وكانوا﴾ أي كوناً صار لهم جبلة وخلقاً ﴿يتقون﴾ أي يوجدون التقوى، وهي كمال القوة العملية في الإيمان والأعمال ويجددونها فإنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره؛ وانتهى الجواب بقوله: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب﴾ - الآية، وهذا الذي فسر الله به الأولياء لا مزيد على حسنه، وعن علي رضي الله عنه «هم قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر خمص البطون من الخوى» وقيل: الولي من لا يرائي ولا ينافق، وما أقل صديق من كان هذا خلقه، وصح عن الإمامين: أبي حنيفة والشافعي، كما نقل ذلك عنهما الشيخ محيي الدين النووي في مقدمة شرح المذهب والتبيان أن كلا منهما قال: إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي. وهذا في العالم العامل بعلمه كما بينته عند قوله في سورة الزمر ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: ٩].

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٣) وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٠٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١٠٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٠٧﴾ .

ولما نفى عنهم الخوف والحزن، زادهم فقال مبيناً لتوليه لهم بعد أن شرح توليهم له: ﴿لهم﴾ أي خاصة ﴿البشرى﴾ أي الكاملة ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي بأن دينهم يظهر وحالهم يشتهر وعدوهم يخذل وعمله لا يقبل وبالرؤية الصالحة ﴿وفي الآخرة﴾ بأنهم هم السعداء وأعداؤهم الأشقياء وتتلقاهم الملائكة ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. ولما كان الغالب على أحوال أهل الله في الدنيا الضيق ولا سيما في أول الإسلام، كان السامع لذلك بمعرض أن يقول: يا ليت شعري هل يتم هذا السرور! فقيل: نعم، وأكد بنفي الجنس لأن الجبايرة ينكرون ذلك لهم لما يرون من أن عزهم من وراء ذلك ليس فيه سوء ما لباطل المتكبرين من السورة والإرجاف والصولة: ﴿لا تبدل﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿لكلمت الله﴾ أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة بكل شيء علماً وقدرة؛ وقوله -: ﴿ذلك﴾ أي الأمر العالي الرتبة ﴿هو﴾ أي خاصة ﴿الفوز العظيم﴾ في موضع البيان والكشف لمضمون هذه البشرى؛ والخوف: انزعاج القلب بما يتوقع من المكروه، ونظيره الجزع والفرع، ونقيضه الأمن؛ والحزن: انزعاجه وغلظ

همه مما وقع من المكروه، من الحزن للأرض الغليظة، ونقيضه السرور، وهما يتعاقبان على حال الحي الذائر للمحبوب؛ والبشرى: الخبر الأول بما يظهر سروره في بشرة الوجه.

ولما تقدمت البشرى بنفي الخوف والحزن معاً عن الأولياء، علم أن المعنى: هذه البشرى للأولياء وأنت رأسهم فلا تخف، فعطف عليه قوله: ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ أي في نحو قولهم: إنهم يغلبون، وفي تكذيبك والاستهزاء بك وتهديدك، فإن ذلك قول يراد به تبديل كلمات الله الغني القدير، وهيئات ذلك من الضعيف الفقير فكيف بالعلي الكبير! وإلى هذا يرشد التعليل لهذا النهي بقوله: ﴿إن العزة﴾ أي الغلبة والقهر وتمام العظمة ﴿لله﴾ أي الملك الأعلى حال كونها ﴿جميعاً﴾ أي فسيذلهم ويعز دينه، والمراد بذلك التسلية عن قولهم الذي يؤذونه به.

ولما بدئت الآية بقولهم، ختمها بالسمع له والعلم به وقصرهما عليه لأن صفات كل موصوف متلاشية بالنسبة إلى صفاته فقال: ﴿هو﴾ أي وحده ﴿السميع﴾ أي البليغ السميع لأقوالهم ﴿العليم﴾ أي المحيط العلم بضمائرهم وجميع أحوالهم فهو البالغ القدرة على كل شيء فيجازيهم بما تقتضيه، وهو تعليل لتفرد العزة لأنه تفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره، ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات العجم فأنى يكون له عزة! والعزة: قدرة على كل جبار بما لا يرام ولا يضام، والمعنى أنه يعزك على من ناواك، والنهي في ﴿ولا يحزنك﴾ في اللفظ للقول وفي المعنى للسبب المؤدي إلى التأذي بالقول، وكسرت «إن» هاهنا للاستئناف بالتذكير بما ينفي الحزن، لا لأنها بعد القول لأنها ليست حكاية عنهم، وقرىء بفتحها على معنى «لأن».

ولما ختمت بعموم سمعه وعلمه بعد قصر العزة عليه، كان كأنه قيل: إن العزة لا تتم إلا بالقدرة فأثبت اختصاصه بالملك الذي لا يكون إلا بها، فقال مؤكداً لما يستلزمه إشراكهم من الإنكار لمضمون هذا الكلام: ﴿إلا إن لله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة؛ ولما كان بعض الناس قد أشركوا ببعض النجوم، جمع فقال معبراً بأداة العقلاء تصريحاً بما أفهمه التعبير سابقاً بأداة غيرهم: ﴿من في السموات﴾ أي كلها، وابتدأ بها لأن ملكها يدل على ملك الأرض بطريق الأولى، ثم صرح بها في قوله مؤكداً لما تقدم: ﴿ومن في الأرض﴾ أي كلهم عبيده ملوكهم ومن دونهم، نافذ فيهم تصريحه، منقادون لما يريد، وهو أيضاً تعليل ثان لقوله ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ أو للتفرد بالعزة، وعبر بـ «من» التي للعقلاء والمراد كل ما في الكون لأن السياق لنفي العزة عن غيره، والعقلاء بها أجدر،

فنفى عنها عنهم نفى عن غيرهم بطريق الأولى، ثم غلبوا لشرفهم على غيرهم، ولذا تطلق «ما» التي هي لغيرهم في سياق هو بها أحق ثم يراد بها العموم تغليبا للأكثر الذي لا يعقل على الأقل؛ ثم نفى أن يكون له في ذلك شريك بقوله عاطفاً على ما تقديره: فما له شريك مما ادعاه المشركون منهما أو من إحداهما: ﴿وما يتبع﴾ أي بغاية الجهد ﴿الذين يدعون﴾ أي على سبيل العبادة ﴿من دون الله﴾ أي الذي له العظمة كلها ﴿شركاء﴾ على الحقيقة؛ ويجوز أن تكون «ما» موصولة تحقيراً للشركاء بالتعبير بأداة ما لا يعقل ومعطوفة على «من» ﴿إن﴾ أي ما ﴿يتبعون﴾ في ذلك الذي هو أصل أصول الدين يجب فيه القطع وهو دعاءهم له شركاء ﴿إلا الظن﴾ أي المخطيء على أنه لو كان صواباً كانوا مخطئين فيه حيث قنعوا في الأصل بالظن، ثم نبه على الخطأ بقوله: ﴿وإن﴾ أي وما ﴿هم إلا يخرصون﴾ أي يحزرون ذلك ويقولون ما لا حقيقة له أصلاً؛ والاتباع: طلب للحاق بالأول على تصرف الحال، فهؤلاء اتبعوا الداعي إلى عبادة الوثن وتصرفوا معه فيما دعا إليه، وظنهم في عبادتها إنما هو بشبهة ضعيفة كقصد زيادة التعظيم لله وتعظيم تقليد الأسلاف، ويجوز أن يكون ﴿شركاء﴾ مفعولاً تنازعه ﴿يتبع﴾ و ﴿يدعون﴾؛ ثم أثبت سبحانه اختصاصه بشيء جامع للعلم والقدرة تأكيداً لاختصاصه بالعزة وتفرد بالوحدانية، وأن من أشرك به خارص لا علم له بوجه لكثرة الدلائل على وحدانيته ووضوحها فقال: ﴿هو﴾ أي وحده ﴿الذي جعل﴾ أي بسبب دوران الأفلاك الذي أتقنه ﴿لكم﴾ أي نعمة منه ﴿الليل﴾ أي مظلماً ﴿لتسكنوا فيه﴾ راحة لكم ودلالة على قدرته سبحانه على الإيجاد والإعدام وأنساً للمحبين لربهم ﴿والنهار﴾ وأعار السبب وصف المسبب فقال: ﴿مبصراً﴾ أي لتنتشروا فيه، حذف وصف الليل وذكرت علته عكس ما فعل بالنهار ليدل ما ثبت على ما حذف، فالآية من الاحتباك.

ولما كانت هذه الآيات من الظهور بحيث لا يحتاج إلى أكثر من سماعها، قال: ﴿إن في ذلك﴾ أي الأمر لعظيم ﴿لآيات لقوم﴾ أي لهم قوة المحاولة على ما يريدونه ﴿يسمعون﴾ أي لهم سمع صحيح، وفي ذلك أدلة واضحات على أنه مختص بالعزة فلا شريك له، لأن الشريك لا بد وأن يقاسم شريكه شيئاً من الأفعال أو الأحوال أو الملك، وأما عند انتفاء جميع ذلك فانتفاء الشركة أوضح من أن يحتاج فيه إلى دليل، ويجوز أن يكون المعنى: لآيات لقوم يبصرون إِبصاراً اعتباراً ويسمعون سماعاً تأمل وإدكاراً، ولكنه حذف «يبصرون» لدلالة ﴿مبصراً﴾ عليه، ويزيد ذلك وضوحاً وحسناً كون السياق لنفي الشركاء، فهو إشارة إلى أنها لا تسمع ولا تبصر أصلاً فكيف بالاعتبار والافتكار؟ فالذين عبدوهم أكمل حالاً منهم.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ
 إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهَذَا أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِيَّاكَ الَّذِينَ
 يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكٰذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِثُهُمْ
 الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِن
 كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذٰكِرِي بِيَاثِدِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ
 لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
 أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ
 وَجَعَلْنَاهُمْ حَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٢٤﴾ ۝

ولما لم يكن شبهة على ادعاء الولد لله سبحانه ولا لهم اطلاع عليه بوجه، ساق
 قوله: ﴿قالوا اتخذ﴾ أي تكلف الأخذ بالتسبب على ما نعهد ﴿الله﴾ أي المسمى بهذا
 الاسم الذي يقتضي تسميته به أن يكون له الكمال كله، فلا يكون محتاجاً إلى شيء
 بوجه ﴿ولداً﴾ مساق البيان لقوله ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ وهذا صالح لأن يكون تعجبياً
 ممن ادعى في الملائكة أو عزيز أو المسيح وغيرهم.

ولما عجب منهم في ذلك لمنافاته بما يدل عليه من النقص لما ثبت لله تعالى من
 الكمال كما مر، نزه نفسه الشريفة عنه فقال: ﴿سبحنه﴾ أي تنزهه عن كل شائبة نقص
 التنزه كله؛ ثم علل تنزهه عنه وبينه بقوله: ﴿هو﴾ أي وحده ﴿الغني﴾ أي عن الولد
 وغيره لأنه فرد منزه عن الأبعاد والأجزاء والمجانسة؛ ثم بين غناه بقوله: ﴿له ما في
 السموات﴾ ولما كان سياق الاستدلال يقتضي التأكيد، أعاد «ما» فقال: ﴿وما في
 الأرض﴾ من صامت وناطق، فهو غني بملك ذلك عن أن يكون شيء منه ولداً له لأن
 الولد لا يملك، وعدم ملكه نقص مناف للغنى، ولعله عبر بـ «ما» لأن الغني محط نظره
 الصامت مع شمولها للناطق.

ولما بين بالبرهان القاطع والدليل الباهر الساطع امتناع أن يكون له ولد، بكتهم
 بنفي أن يكون لهم بذلك نوع حجة فقال: ﴿إن﴾ أي ما ﴿عندكم﴾ وأغرق في النفي
 فقال: ﴿من سلطان﴾ أي حجة ﴿بهذا﴾ أي الاتخاذ، وسميت الحجة سلطاناً لاعتلاء يد
 المتمسك بها؛ ثم زادهم بها تبيكياً^(١) بالإنكار عليهم بقوله: ﴿أنقولون﴾ أي على سبيل
 التكرير ﴿على الله﴾ أي الملك الأعظم على سبيل الاستعلاء ﴿ما لا تعلمون﴾ لأن ما لا

(١) التبيكيت: التقرير والتعنيف.

برهان عليه في الأصول فهو جهل، فكيف بما قام الدليل على خلافه؛ والسلطان: البرهان القاهر لأنه يتسلط به على صحة الأمر ويقهر به الخصم، وأصله القاهر للرعية بعقد الولاية.

ولما قدم أن قولهم كذب، وبكتهم عليه مواجهة، أتبعه بما يشير إلى أنهم أهل للإعراض في سياق مهدد على الكذب، فقال معرضاً عن خطابهم مؤكداً لأن اجترأهم على ذلك دال على التكذيب بالمؤاخذة عليه: ﴿قل﴾ أي للذين ادعوا الولد لله وحرموا ما رزقهم من السائبة ونحوها ﴿إن الذين يفترون﴾ أي يتعمدون ﴿على الله﴾ أي الملك الأعلى ﴿الكذب لا يفلحون﴾ ثم بين عدم الفلاح بقوله: ﴿متاع﴾ أي لهم، ونكره إشارة إلى قلته كما قال في الآية الأخرى «متاع قليل» وأكد ذلك بقوله: ﴿في الدنيا﴾ لأنها دار ارتحال، وما كان إلى زوال وتلاش واضمحلال كان قليلاً وإن تباعد مدته وتطاولت مدده وجل مدده، وزاد على الحصر عدده؛ وبين حالهم بعد النقلة بقوله: ﴿ثم﴾ أي بعد ذلك الإملاء لهم وإن طال ﴿إلينا﴾ أي على ما لنا من العظمة لا إلى غيرنا ﴿مرجعهم﴾ بالموت فنذيقهم عذاباً شديداً لكنه دون عذاب الآخرة ﴿ثم نذيقهم﴾ يوم القيامة ﴿العذاب الشديد بما﴾ أي بسبب ما ﴿كانوا﴾ أي كوناً هو جيلة لهم ﴿يكفرون﴾ ووجب كسر «إن» بعد القول لأنه حكاية عما يستأنف الإخبار به كما فعل في لام الابتداء لذلك.

ولما تقدم سؤالهم الإتيان بما يقترحون من الآيات، ومضت الإشارة إلى أن تسييرهم في الفلك من أعظم الآيات وإن كانوا لإلهم له قد نسوا ذلك، وتناسجت الآي كما سلف إلى أن بين هذا أن متاع المفترين الكذب قليل تخويفاً من شديد السطوة وعظيم الأخذ، عقب ذلك بقصة قوم نوح لأنهم كانوا أطول الأمم الظالمة مدة وأكثرهم عدة، ثم أخذوا أشد أخذ فزالت آثارهم وانطمست أعلامهم ومنارهم فصاروا كأنهم لم يكونوا أصلاً ولا أظهروا قولاً ولا فعلاً، فقال تعالى عاطفاً على قوله ﴿قل إن الذين﴾ مسلياً لنبيه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لأن المصيبة إذا عمت خفت، وتخويفاً للكفار ليرجعوا أو يخفوا من أذاهم: ﴿واتل﴾ أي اقرأ قراءة متتابعة مستعالية ﴿عليهم نبأ نوح﴾ أي خبره العظيم مذكراً بأول كون الفلك وأنه كان إذ ذاك آية غريبة خارقة للعادة عجيبة، وأن قوم نوح لم ينفعهم ذلك ولا أغنى عنهم افتراءهم وعنادهم مع تطاول الأمد وتباعد المدد، بل صار أمرهم إلى زوال، وأخذ عنيف ونكال ﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾ [يونس: ٤٥] مع نجات رسولهم وخيبة مأمولهم، قد ليث فيهم ما لم يلبثه نبي في قومه ولا رسول في أمته ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما آمن معه إلا قليل ﴿إذ قال لقومه﴾ أي بعد أن دعاهم إلى الله فأطال دعاءهم وتمتعوا في الدنيا كثيراً

وأملى لهم طويلاً فما زادهم ذلك إلا نفوراً ﴿يقوم﴾ أي يا من يعز عليّ خلافهم ويشق عليّ ما يسوءهم لتهاونهم بحق ربهم مع قوتهم على الطاعة ﴿إن كان كبير﴾ أي شق وعظم مشقة صارت جبلة ﴿عليكم﴾ ولما كانت عادة الوعاظ والخطباء أن يكونوا حال الخطبة واقفين، قال: ﴿مقامي﴾ أي قيامي، ولعله خص هذا المصدر لصلاحه لموضع القيام وزمانه فيكون الإخبار بكرهته لأجل ما وقع فيه من القيام أدل على كراهة القيام ﴿وتذكيري﴾ أي بكم ﴿بآيت الله﴾ أي الذي له الجلال والإكرام، فإن ذلك لا يصدني عن مجاهدتي بما يكبر عليكم من ذلك خوفاً منكم لأن الله أمرني به وأنا أخاف عذابه إن تركت، ولا أبالي بكرهيتكم لذلك خوف عاقبة قصدكم لي بالأذى ﴿فعلى﴾ أي فإني على ﴿الله﴾ أي الذي له العزة كلها وحده ﴿توكلت﴾ فإقامة ذلك مقام الجزاء من إطلاق السبب - الذي هو التوكل - على المسبب - الذي هو انتفاء الخوف - مجازاً مرسلأً، إعلاماً لهم بعظمة الله وحقارتهم بسبب أنهم أعرضوا عن الآيات وهم يعرفونها، بما دل عليه التعبير بالتذكير، فدل ذلك على عنادهم بالباطل، والمبطل لا يخشى أمره لأن الباطل لا ثبات له، ودل على ذلك بقوله: ﴿فأجمعوا أمركم﴾ أي في أذاي بالإهلاك وغيره، أعزموا عليه وانووه واجزموا به، والواو بمعنى «مع» في قوله: ﴿وشركاءكم﴾ ليدل على أنه لا يخافهم وإن كانوا شركاءهم أحياء كائنين من كانوا وكانت كلمتهم واحدة لا فرقة فيها بوجه.

ولما كان الذي يتستر بالأمور بما يفوته بعض المقاصد لاشتراط التستر، أخبرهم أنه لا يمانعهم سواء أبدوا أو أخفوا فقال: ﴿ثم لا يكن﴾ أي بعد التأيي^(١) وطول زمان المجاوزة في المشاورة ﴿أمركم﴾ أي الذي تقصدونه بي ﴿عليكم غمة﴾ أي خفياً يستتر عليكم شيء منه بسبب ستر ذلك عني لئلا أسعى في معارضتكم، فلا تفعلوا ذلك بل جاهروني به مجاهرة فإنه لا معارضة لي بغير الله الذي يستوي عنده السر والعلانية؛ والتعبير بـ ﴿ثم﴾ إشارة إلى التأيي وإتقان الأمر للأمان من معارضته بشيء من حول منه أو قوة ﴿ثم اقضوا﴾ ما تريدون، أي بتوه بته المقضي إليه واصلاً ﴿إلي﴾.

ولما كان ذلك ظاهراً في الإنجاز وليس صريحاً، صرح به في قوله: ﴿ولا تنظرون﴾ أي ساعة ما، وكل ذلك لإظهار قلة المبالاة بهم للاعتماد على الله لأنه لا يعجزه شيء ومعبوداتهم لا تغني شيئاً؛ ثم سبب عن ذلك قوله: ﴿فإن توليتهم﴾ أي كلفتم أنفسكم الإعراض عن الحق بعد عجزكم عن إهلاكه ولم ينفعكم علمكم بأن

(١) أبى الشيء: امتنع عنه ورفضه.

الذي منعني - وأنا وحدي - منكم وأنتم ملء الأرض له العزة جميعاً وأن من أوليائه الذين تقدم وعده الصادق بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿فما﴾ أي فلم يكن توليكم عن تفريط مني لأنني سقت الأمر على ما يحب، ما ﴿سألتكم﴾ أي ساعة من الدهر، وأغرق في النفي فقال: ﴿من أجر﴾ أي على دعائي لكم يفوتني بتوليكم ولا تتهموني به في دعائكم.

ولما كان من المحال أن يفعل عاقل شيئاً لا لغرض، بين غرضه بقوله مستأنفاً: ﴿إن﴾ أي ما ﴿أجري إلا على الله﴾ أي الذي له صفات الكمال؛ ثم عطف عليه غرضاً آخر وهو اتباع الأمر خوفاً من حصول الضرر فقال: ﴿وأمرت﴾ أي من الملك الأعلى الذي لا أمر لغيره، وبناء للمفعول للعلم بأنه هو الأمر وليزيد في الترغيب في الأمور به وتغطية بجعله عمدة الكلام بإقامته مقام الفاعل فقال ﴿أن أكون﴾ أي كوناً أتخلق به فلا أنفك عنه؛ ولما كان في مقام الاعتذار عن مفاجأته لهم بالإنذار، عبر بالإسلام الذي هو الأفعال الظاهرة فقال: ﴿من المسلمين﴾ أي الراسخين في صفة الانقياد بغاية الإخلاص، لي ما لهم وعلي ما عليهم، أنا وهم في الإسلام سواء، لا مزية لي فيه أتهم بها، وأن أستسلم لكل ما يصيبني في الله، لا يرذني ذلك عن إنفاذ أمره، والحاصل أنه لم يكن بدعائه إياهم في موضع تهمة، لا سألهم غرضاً دنيوياً يزيده إن أقبلوا ولا ينقصه إن أدبروا، ولا أتى بشيء من عند نفسه ليظن أنه أخطأ فيه ولا سلك به مسلماً يظن به استعباده إياهم في اتباعه، بل أعلمهم بأنه أول مؤتمر بما أمرهم به مستسلم لما دعاهم إليه ولكل ما يصيبه في الله، ولما لم يردهم كلامه هذا عن غيهم، سبب عنه قوله مخبراً بتماديهم: ﴿فكذبوه﴾ أي ولم يزداهم شيء من هذه البراهين الساطعة والدلائل القاطعة إلا إدباراً، وكانوا في آخر المدة على مثل ما كانوا عليه من التكذيب ﴿فنجيناه﴾ أي تنجية عظيمة بما لنا من العظمة الباهرة بسبب امتثاله لأوامرنا وصدق اعتماده علينا ﴿ومن معه﴾ أي من العقلاء وغيرهم ﴿في الفلك﴾ كما وعدنا أوليائنا، وجعلنا ذلك آية للعالمين ﴿وجعلناهم﴾ أي على ضعفهم بما لنا من العظمة ﴿خلائف﴾ أي في الأرض بعد من أغرقناهم، فمن فعل في الطاعة فعلهم كان جديراً بأن نجازيه بما جازيناهم ﴿وأغرقنا﴾ أي بما لنا من كمال العزة ﴿الذين كذبوا﴾ أي مستخفين مستهينين ﴿بآيتنا﴾ كما توعدنا الذين يفترون على الله الكذب.

ولما كان هذا أمراً باهراً يتعظ به من له بصيرة، سبب عنه أمر أعلى الخلق فهما بنظره إشارة إلى أنه لا يعتبر به حق الاعتبار غيره فقال: ﴿فانظر﴾ وأشار إلى أنه أهل لأن يبحث عن شأنه بأداة الاستفهام، وزاد الأمر عظمة بذكر الكون فقال: ﴿كيف كان﴾

أي كونا كان كأنه جبلة ﴿عاقبة﴾ أي آخر أمر ﴿المنذرين﴾ أي الغريقين في هذا الوصف وهم الذين أنذرتهم الرسل، فلم يكونوا أهلاً للبشارة لأنهم لم يؤمنوا لنعلم أن من نذرهم كذلك، لا ينفع من أردنا شقاوته منهم إنزال آية ولا إيضاح حجة؛ والتوكل: تعمد جعل الأمر إلى من يدبره للتقدير في تدبيره؛ والغمة: ضيق الأمر الذي يوجب الحزن؛ والتولي: الذهاب عن الشيء؛ والأجر: النفع المستحق بالعمل؛ والإسلام: الاستسلام لأمر الله بطاعته بأنها خير ما يكتسبه العباد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٨﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَلَفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِرِيَاءٌ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾

ولما لم يكن في قصص من بينه وبين موسى عليهم السلام مما يناسب مقصود هذه السورة إلا ما شاركوا فيه قوم نوح من أنهم لم تنفع الآيات من أريدت شقاوته منهم، ذكره سبحانه طاوياً لما عداه فقال تعالى: ﴿ثم﴾ أي بعد مدة طويلة ﴿بعثنا﴾ أي على عظمتنا؛ ولما كان البعث لم يستغرق زمان البعد، أدخل الجار فقال: ﴿من بعده﴾ أي قوم نوح ﴿رسلاً﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام.

ولما كان ربما ظن أن قوم الإنسان لا يكذبونه، وإن كذبوه لم يتمادوا على التكذيب لا سيما إن أتاهم بما يقترحونه من الخوارق قال: ﴿إلى قومهم﴾ أي فجاجهم قومهم بالتكذيب ﴿فجاءوهم﴾ أي فتسبب عن استنادهم إلى عظمتنا أن جاؤوهم ﴿بالبيّنات﴾ ليزول تكذيبهم فيؤمنوا ﴿فما﴾ أي فتسبب عن ذلك ضد ما أمروا به وقامت دلائله وهو أنهم ما ﴿كانوا﴾ أي بوجه من وجوه الكون ﴿ليؤمنوا﴾ أي مقربين ﴿بما كذبوا﴾ أي مستهينين ﴿به﴾ أول ما جاؤوهم. ولما كان تكذيبهم في بعض الزمن الماضي، أدخل الجار فقال: ﴿من قبل﴾ أي قبل مجيء البيّنات لأننا طبعنا على قلوبهم؛ قال أبو حيان: وجاء النفي مصحوباً بلام الجحود ليدل على أن إيمانهم في حيز الاستحالة والامتناع - انتهى. ويجوز أن يكون التقدير: من قبل مجيء الرسل إليهم، ويكون التكذيب أسند إليهم لأن أباهم كذبوا لما بدلوا ما كان عندهم من الدين الصحيح الذي أتتهم به الرسل ورضوا هم بما أحدث آباؤهم استحساناً له، أو لأنه كان بين

أظهرهم بقايا على بقايا مما شرعته الرسل فكانوا يعظونهم فيما يبتدعون فلا يعون ولا يسمعون كما كان قس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وغيرهم قبل بعث النبي ﷺ، لكن المعنى الأول أولى - والله أعلم.

ولما قرر عدم انتفاعهم بالآيات، بنى ما يليه على سؤاله من لعله يقول: هل استمر هذا الخلق فيمن بعدهم؟ فكأنه قيل: نعم! ﴿كذلك﴾ أي مثل ما طبعنا على قلوبهم هذا الطبع العظيم ﴿نطبع﴾ أي نوجد الطبع ونجدده متى شئنا بما لنا من العظمة ﴿على قلوب المعتدين﴾* في كل زمن لكل من تعمد العدو فيما لا يحل له، وهذا كما أتى موسى عليه السلام إلى فرعون فدعاه إلى الله فكذبه فأخبره أن معه آية تصدقه فقال له: إن كنت جئت بآية فائت بها إن كنت من الصادقين، فلما أتاه بها استمر على تكذيبه وكان كلما رأى آية ازداد تكذيباً، وكان فرعون قد قوي ملكه وعظم سلطانه وعلا في كبريائه وطال تجبره على الضعفاء، فطمست أمواله وآثاره، وبقيت أحاديثه وأخباره، ولهذا أفصح سبحانه بقصته فقال: دالاً على الطبع: ﴿ثم بعثنا﴾ أي وبعد زمن طويل من إهلاكنا إياهم بعثنا، ولعدم استغراق زمن البعد أدخل الجار فقال: ﴿من بعدهم﴾ أي من بعد أولئك الرسل ﴿موسى و﴾ كذا بعثنا ﴿هرون﴾ تأييداً له لأن اتفاق اثنين أقوى لما يقرانه وأؤكد لما يذكرانه؛ ولما استقر في الأذهان بما مضى أن ديدن الأمم تكذيب من هو منهم حداً له ونفاسه عليه. كان ربما ظن أن الرسول لو أتى غير قومه كان الأمر على غير ذلك، فبين أن الحال واحد في القريب والغريب، فقال مقدماً لقوله: ﴿إلى فرعون وملائته﴾ أي الأشراف من قومه، فإن الأطراف تبع لهم ﴿بآيتنا﴾ أي التي لا تكتنه عظمتها لنسبتها إلينا، فطبعنا على قلوبهم ﴿فاستكبروا﴾ أي طلبوا الكبر على قبول الآيات وأوجدوا ما يدل عليه من الرد بسبب انبعائه إليهم عقب ذلك ﴿وكانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿قوماً مجرمين﴾* أي طبعهم قطع ما ينبغي وصله ووصل ما ينبغي قطعه، فلذلك اجترؤوا على الاستكبار مع ما فيها أيضاً من شديد المناسبة لما تقدم من قول الكافرين ﴿هذا سحر مبين﴾ في نسبة موسى عليه السلام إليه وبيان حقيقة السحر في زواله وخيبته متعاطية لإفساده إلى غير ذلك من الأسرار التي تدق عن الأفكار، هذا إلى ما ينظم إليه من مناسبة ما بين إهلاك القبط وقوم نوح بآية الغرق، وأنه لم ينفع أحداً من الفريقين معاناة الآيات ومشاهدة الدلالات البيّنات، بل ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه بعد تلك المعجزات الباهرة والبراهين الظاهرة، ثم اتبعهم فرعون بعد أن كانت انحلت عن حبسهم عراه، وتلاشت من تجبره قواه، وشاهد من الضربات ما يهد الجبال، ودخل في طلبهم البحر بحزات لا يقرب ساحتها الأبطال، لما قدره عليه ذو الجلال، ولم

يؤمن حتى أتاه البأس حيث يفوت الإيمان بالغيب الذي هو شرط الإيمان، فلم ينفعه إيمانه مع اجتهاده فيه وتكريره لقوات شرطه إجابة لدعوة موسى عليه السلام، ثم إن بني إسرائيل كانوا قبل مجيء موسى عليه السلام على منهاج واحد. فما اختلفوا إلا بعد مجيء العلم إليهم وبيان الطريق واضحة لديهم، ولهذا المراد ذكر هنا هارون عليه السلام لأن من أعظم مقاصد السورة المنع من طلب الآيات لمن بعد الإيمان عند الإتيان بها، إشارة إلى أن القول من الاثنين أوكد، ومع ذلك فلم يصدق من حكم القدير بشقاوته، كل ذلك حثاً على الرضا والتسليم، ووكل الأمر إلى الرب الحكيم، فمهما أمر به قبل، وما أعرض عنه ترك السؤال فيه رجاء تدبيره بأحسن التدبير وتقديره ألطف المقادير؛ ولما أخبر سبحانه باستكبارهم، بين أنه تسبب عنه طعنهم في معجزاته من غير تأمل، بل بغاية المبادرة والإسراع بما أشعرت به الفاء والسياق، فقال تعالى: ﴿فلما جاءهم﴾ أي فرعون وملؤه ﴿الحق﴾ أي البالغ في الحقيقة، ثم زاد في عظمته بقوله: ﴿من عندنا﴾ أي على ما لنا من العظمة التي عرفوا بها أنه منا، لا من الرسولين ﴿قالوا﴾ أي غير متأملين له ولا ناظرين في أمره بل عناداً ودلالة على استكبارهم مؤكدين لما علموا من تصديق الناس به ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ كما قال الناس الذين أخبر عنهم سبحانه في أول السورة في هذا القرآن وما إبانته من البعث. فلما قالوا ذلك كان كأنه قيل: فماذا أجابهم؟ فأخبر أنه أنكر عليهم، بقوله: ﴿قال موسى﴾ ولما كان تكريرهم لذلك القول أجدر بالإنكار، عبر بالمضارع الدال على أنهم كرروه لينسخوا ما ثبت في قلوب الناس من عظمتهم ﴿أتقولون للحق﴾ ونبه على أنهم بادروا إلى التكذيب من غير نظر ولا توقف بقوله: ﴿لما جاءكم﴾ أي هذا القول الذي قلمتموه وهو أنه سحر، فإن القول يطلق على المكروه، تقول: فلان قال في فلان، أي ذمه، وفلان يخاف القالة، وبين الناس تقاويل؛ ثم كرر الإنكار بقوله: ﴿أسحر هذا﴾ أي الذي هو في غاية الثبات والمخالفة للسحر في جميع الصفات حتى تقولون فيه ذلك. فالآية من الاحتباك: ذكر القول في الأول دال على حذف مثله في الثاني، وذكر السحر في الثاني دال على حذف مثله في الأول.

ولما كان التقدير: أتقولون هذا والحال أنكم قد رأيتم فلاحه، بني عليه قوله: ﴿ولا يفلح﴾ أي يظفر بما يريد في وقت من الأوقات ﴿السحرون﴾ أي العريقون فيه لأن حاصل أمرهم تخييل وتمويه في الأباطيل، فالظفر بعيد عنهم، ويجوز أن تجعل هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿أسحر هذا﴾ لأنه إنكاري بمعنى النفي، فلما أنكر عليهم عليه السلام ما ظهر به الفرق الجلي بين ما أتى به في كونه أثبت الأشياء وبين السحر،

لأنه لا ثبات له أصلاً، عدلوا عن جوابه إلى الإخبار بما يتضمن أنهم لا يقرون بحقيقته لأنه يلزم عن ذلك ترك ما هم عليه من العلو وهم لا يتركونه، وأوهمو الضعفاء أن مراده عليه السلام الاستكبار معللين لاستكبارهم عن اتباعه بما دل على أنهم لا مانع أنهم منه إلا الكبر، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿قالوا﴾ أي منكرين عليه معللين بأمرين: التقليد، والحرص على الرئاسة.

ولما كان هو الأصل في الرسالة. وكان أخوه له تبعاً، وحدوا الضمير فقالوا: ﴿أجبتنا﴾ أي أنت يا موسى ﴿لتلفتنا﴾ أي لتقتلنا وتصرفنا ﴿عما وجدنا عليه﴾ وقالوا مستندين إلى التقليد غير مستحيين من ترك الدليل ﴿آباءنا﴾ من عبادة الأصنام والقول بالطبيعة لنقل نحن بذلك ﴿ويكون لكما﴾ أي لك أنت ولأخيك دوننا ﴿الكبرياء﴾ أي بالملك ﴿في الأرض﴾ أي أرض مصر التي هي - لما فيها من المنافع - كأنها الأرض كلها ﴿وما﴾ أي وقالوا أيضاً: ما ﴿نحن لكما﴾ وبالغوا في النفي وغلب عليهم الدهش فعبروا بما دل على أنهم غلبهم الأمر فعرفوا أنه صدق ولم يذعنوا فقالوا: ﴿بمؤمنين *﴾ أي عريقين في الإيمان، فهو عطف على ﴿أجبتنا﴾ أي قالوا ذاك وقالوا هذا، أو يكون عطفاً على نحو: فما نحن بموصليك إلى هذا الغرض، أفردوه أولاً بالإنكار عليه في المجيء ليضعف ويكف أخوه عن مساعدته، وأشركوه معه ثانياً تأكيداً لذلك الغرض وقطعاً لطمعه؛ والبعث: الإطلاق في أمر يمضي فيه، وهو خلاف الإطلاق من عقاب؛ والملا: الجماعة الذين هم وجوه القبيلة، لأن هيبتهم تملأ الصدور عند منظرهم؛ والاستكبار: طلب الكبر من غير استحقاق؛ والمجرم من اكتسب سيئة كبيرة، من جرم التمر - إذا قطعه، فالجرم يوجب قطع الخير عن صاحبه؛ والسحر: إيهام المعجزة على طريق الجيلة، ويشبهه به البيان في خفاء السبب؛ والحق: ما يجب الحمد عليه ويشدد دعاء الحكمة إليه ويعظم النفع به والضرر بتركه؛ والكبرياء: استحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب، وهي صفة مدح لله وذم للعباد لأنها منافية لصفة العبودية.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

ولما لبسوا بوصفه بما هم به متصفون، أرادوا الزيادة في التلبس بما يوهم أن ما

أتى به سحر تمكن معارضته إيقافاً للناس عن اتباعه، فقال تعالى حكاية عطفاً على قوله: ﴿قالوا أجنثنا﴾: ﴿وقال فرعون﴾ إرادة المناظرة لما أتى به موسى عليه السلام ﴿اثتوني بكل ساحر عليم﴾ أي بالغ في علم السحر لثلا يفوت شيء من السحر بتأخر البعض، وقراءة حمزة والكسائي بصيغة فعال دالة على زيادة لزعمه أقل من سياق الشعراء كما مضى في الأعراف.

ولما كان التقدير: فامتثلوا أمره وجمعوهم، دل على قرب اجتماعهم بالفناء في قوله: ﴿فلما جاء السحرة﴾ أي كل من في أرض مصر منهم ﴿قال لهم موسى﴾ مزيلاً لهذا الإيهام ﴿القوا﴾ جميع ﴿ما أنتم ملقون﴾ أي راسخون في صنعة إلقائه، إشارة إلى أن ما جاؤوا به ليس أهلاً لأن يلقي إليه بال ﴿فلما القوا﴾ أي وقع منهم الإلقاء بحبالهم وعصبيهم على إثر مقالاته وخيلوا بسحرهم لعيون الناس ما زلزل عقولهم ﴿قال موسى﴾ منكرأ عليهم ﴿ما جئتم به﴾ ثم بين أنه ما استفهم عنه جهلاً بل احتقاراً وإنكاراً، وزاد في بيان كل من الأمرين بقوله: ﴿السحر﴾ لأنه استفهام أيضاً سواء قطعت الهمزة ومدت كما في قراءة أبي عمرو وأبي جعفر أو جعلت همزة وصل كما في قراءة الباقيين، فإن همزة الاستفهام مقدرة، والتعريف إما للعهد وإما للحقيقة وهو أقرب، ويجوز في قراءة الجماعة أن يكون خبراً لما يقصد به الحصر، أي هو السحر لا ما نسبتموه إليّ؛ ثم استأنف بيان ما حقره به فقال: ﴿إن الله﴾ أي الذي له إحاطة العلم والقدرة ﴿سيطله﴾ أي عن قريب بوعد لا خلف فيه؛ ثم علل ذلك بما بين أنه فساد فقال: ﴿إن الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿لا يصلح﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿عمل المفسدين﴾ أي العريقين في الفساد بأن لا ينفع بعملهم ولا يديمه؛ ثم عطف عليه بيان إصلاحه عمل المصلحين فقال: ﴿ويحق﴾ أي يثبت إثباتاً عظيماً ﴿الله﴾ أي الملك الأعظم ﴿الحق﴾ أي الشيء الذي له الثبات صفة لازمة؛ ولما كان في مقام تحقيرهم، دل على ذلك بتكرير الاسم الجامع الأعظم. وأشار إلى ما له من الصفات العلى بقوله: ﴿بكلمته﴾ أي الأزلية التي لها الثبات الأعظم، وزاد في العظمة بقوله: ﴿ولو كره المجرمون﴾ أي العريقون في قطع ما أمر الله به أن يوصل، فكان كما قال عليه السلام بطل سحرهم، واضمحل مكرهم، وحق الحق - كما بين في سورة الأعراف.

ولما حكى سبحانه أن موسى عليه السلام أبان ما أبان من بطلان السحر وكونه إفساداً، فثبت ما أتى به لمخالفته له، أخبر تعالى - تسلياً للنبي ﷺ وفطماً عن طلب الإجابة للمقترحات - أنه ما تسبب عن ذلك في أول الأمر عقب إبطال سحرهم من غير مهلة إلا إيمان ناس ضعفاء غير كثير، فقال تعالى: ﴿فما آمن﴾ أي متبعاً ﴿لموسى﴾ أي

بسبب ما فعل، ليعلم أن الآيات ليست سبباً للهداية إلا لمن أردنا ذلك منه؛ وبين أن الصغار أسرع إلى القبول بقوله: ﴿إلا ذرية﴾ أي شبانهم هم أهل لأن تذر فيهم البركة ﴿من قومه﴾ أي قوم موسى الذين لهم قدرة على القيام في المحاولة لما يريدونه، والظاهر أنهم كانوا أيتاماً وأكثرهم - كما قاله مجاهد ﴿على خوف﴾ أي عظيم ﴿من فرعون وملائهم﴾ أي أشرف قوم الذرية؛ ولما كان إنكار الملائ إلا هو بسبب فرعون أن يسلبهم رئاستهم، انحصر الخوف فيه فأشار إلى ذلك بوحدة الضمير فقال: ﴿أن يفتنهم﴾ وأتبعه ما يوضح عذرهم بقوله مؤكداً تنزيلاً لقريش منزلة من يكذب بعلو فرعون لتكذيبهم لأن ينصر عليهم الضعفاء من أصحاب النبي ﷺ لعلوهم: ﴿وإن فرعون لعال﴾ أي غالب قاهر متمكن بما فتناه به من طاعة الناس له ﴿في الأرض﴾ أي أرض مصر التي هي بكثرة ما فيها من المرافق كأنها جميع الأرض ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ أي العريقين في مجاوزة الحدود بظاهره وباطنه، وإذا ضمنت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وإن المسرفين هم أصحاب النار﴾ [غافر: ٤٣] كان قياساً بديهيّاً منتجاً إنتاجاً صريحاً قطعياً أن فرعون من أصحاب النار، تكذيباً لأهل الوحدة في قولهم: إنه آمن، ليهونوا المعاصي عند الناس فيحلوا بذلك عقائد أهل الدين.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُۢم بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا۟ إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَىٰ اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا۟ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يَٰمُوسَىٰ وَاجْعَلْ لِّقَوْمِكَ قِبْلَةً وَأَقِمْوَا الصَّلٰوةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

ولما ذكر خوفهم وعذرهم، أتبعه ما يوجب طمأنينتهم، وهو التوكل على الله الذي من راقبه تلاشى عنده كل عظيم، فقال: ﴿وقال موسى﴾ أي لمن آمن به موطناً لهم على أن الجنة لا تنال إلا بمشقة عظيمة «يبتلى الناس على قدر إيمانهم»^(١) ﴿يا قوم﴾ فاستعطفهم بالتذكير بالقرب وهزهم إلى المعالي بما فيهم من القوة ثم هيجهم وألهبهم على الثبات بقوله: ﴿إن كنتم﴾ أي كوناً هو في ثباته كالخلق الذي لا يزول ﴿أمتم بالله﴾ وثبتهم بذكر الاسم الأعظم وما دل عليه من الصفات، وأجاب الشرط بقوله: ﴿فعليه﴾

(١) جيد. أخرجه الترمذي ٢٣٩٨ وابن ماجه ٤٠٢٣ وابن حبان ٢٩٠٠ و ٢٩٠١ و ٢٩٢٠ والحاكم ٤٠/١ و ٤١ والدارمي ٣٢٠/٢ والبيهقي ٣٧٢/٣ وأحمد ١٨٥/١ كلهم من حديث سعد بن مالك بأتم منه صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح اه وهو كما قالوا، وفي رواية الترمذي: «فيبتلى الرجل على حسب دينه». ورواية لابن حبان «على حسب دينه».

أي وحده لما علمتم من عظمتها التي لا يدانيها شيء سواه ﴿توكلوا﴾ وليظهر عليكم أثر التوكل من الطمأنينة والثبات والسكينة ﴿إن كنتم﴾ أي كوناً ثابتاً ﴿مسلمين﴾ ﴿جامعين﴾ إلى تصديق القلب إذعان الجوارح؛ وجواب هذا الشرط ما دل عليه الماضي من قوله: ﴿فعليه توكلوا﴾ ﴿فقالوا﴾ أي على الفور كما يقتضيه الفاء ﴿على الله﴾ أي الذي له العظمة كلها وحده ﴿توكلنا﴾ أي فوضنا أمورنا كلها إليه ﴿ربنا﴾ أي أيها الموجد لنا المحسن إلينا ﴿لا تجعلنا فتنة﴾ أي موضع مخالطة بما يميل ويحيل ﴿للقوم الظالمين﴾ أي لا تصبنا أنت بما يظنون به تهاونك بنا فيزدادوا نفرة عن دينك لظنهم أنا على الباطل ولا تسلطهم علينا مما يفتننا عن ديننا فيظنوا أنهم على الحق ﴿ونحننا برحمتك﴾ أي إكرامك لنا ﴿من القوم﴾ أي الأقوياء ﴿الكافرين﴾ أي العريقين في تغطية الأدلة، وفي دعائهم هذا إشارة إلى أن أمر الدين أهم من أمر النفس.

ولما أجابه إلى إظهار الاعتماد عليه سبحانه وفوضوا الأمور إليه، أتبعه ما يزيدهم طمأنينة من التوطن في أرض العدو إشارة إلى عدم المبالاة به، لأنه روي أنه كانت لهم متعبدات يجتمعون فيها، فلما بعث موسى عليه السلام أخبرها فرعون، فأمر الله تعالى أن تجعل في بيوتهم لثلا يطلع عليهم الكفرة فقال تعالى عاطفاً على قوله: ﴿وقال موسى﴾ ﴿وأوحينا﴾ أي بما لنا من العظمة البالغة ﴿إلى موسى وأخيه﴾ أي الذي طلب مؤازرته ومعارضته ﴿أن تبوءا﴾ أي اتخذنا ﴿لقومكما بمصر﴾ وهي ما بين البحر إلى أقصى أسوان والإسكندرية منها ﴿بيوتاً﴾ تكون لهم مرجعاً يرجعون إليه ويأوون إليه ﴿واجعلوا﴾ أي أنتم ومن معكم من قومكم ﴿بيوتكم قبلة﴾ أي مصلى لتعبدوا فيها مستترين عن الأعداء تخفيفاً من أسباب الخلاف ﴿وأقيموا الصلوة﴾ أي بجميع حدودها وأركانها مستخفين ممن يؤذيك جمعاً بين آتي النصر: الصبر والصلوة، وتمرنأ على الدين وتثبيتاً له في القلب.

ولما كان الاجتماع فيما تقدم أضخم وأعز وأعظم، وكان واجب على الأمة كوجوبه على الإمام جمع فيه، وكان إسناده البشارة عن الملك إلى صاحب الشريعة أثبت لأمره وأظهر لعظمتها وأثبت في قلوب أصحابه وأقر لأعينهم، أفرد في قوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي الراسخين في الإيمان من أخيك وغيره.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَاَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ولما ختم ببشارة من دل على إيمانهم إسلامهم بفعل ما يدل على هوان أمر العدو، وكان هلاك المشانئ من أعظم البشائر، وكان ضلال فرعون وقومه بالزينة والمال إضلالاً لغيرهم، سأل موسى عليه السلام إزالة ذلك كله للراحة من شره، فقال تعالى حاكياً عنه: ﴿وقال موسى﴾ أي بعد طول دعائه لفرعون وإظهار المعجزات لديه وطول تكبره على أمر الله وتجبره على المستضعفين من عباده، ولما كان من أعظم أهل الاصطفاء، أسقط الأداة تسناً بهم، وأشار بصفة الإحسان إلى أن هلاك أعدائهم أعظم إحسان إليهم فقال: ﴿ربنا﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿إنك﴾ أكد لما للجهاش من إنكار أن يكون عطاء الملك الأعظم سبباً للإهانة ﴿أتيت فرعون وملأه﴾ أي أشرف قومه على ما هم فيه من الكفر والكبر ﴿زينة﴾ أي عظيمة يتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما ﴿وأموالاً﴾ أي كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما ﴿في الحياة الدنيا﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت؛ ثم بين غايتها لهم فقال مفتتحاً بالنداء باسم الرب ليعيده وأتباعه من مثل حالهم: ﴿ربنا﴾ أي أيها الموجد لنا المحسن إلينا والمدير لأمرنا ﴿ليضلوا﴾ في أنفسهم ويضلوا غيرهم ﴿عن سبيلك﴾ أي الطريق الواسعة التي نهجتها للوصول إلى رحمتك.

ولما بين أن مآلهم الضلال، دعا عليهم فقال مفتتحاً أيضاً بالنداء باسم الرب ثالثاً لأن ذلك من أمارات الإجابة كما أشير إليه في آخر آل عمران وإشارة إلى أنهم لاصلاح لهم بدون هلاكهم وهلاكها: ﴿ربنا اطمس﴾ أي أوقع الطمس وهو التسوية بين المطموس وبين غيره مما ليس له نفعه ﴿على أموالهم﴾.

ولما كان قد رأى منهم من التكبر على الله والتكذيب لآياته والتعذيب لأوليائه ما لا يشفي غيظه منه إلا إدامة شقائهم دنيا وأخرى، وكان عالماً بأن قدرة الله على إيقائهم على الكفر مع تحسيرهم بسلب المال كقدرته على ذلك باستدراجهم إليه بالمال، قال: ﴿واشدد﴾ أي شداً ظاهراً لكل أحد - بما أشار إليه الفك مستعلياً ﴿على قلوبهم﴾ قال ابن عباس: اطبع عليها وامنعها من الإيمان، وأجاب الدعاء بقوله: ﴿فلا يؤمنوا﴾ أي ليتسبب عن ذلك الشد عدم إيمانهم إذا رأوا مبادئ العذاب الطمس ﴿حتى يروا﴾ أي بأعينهم ﴿العذاب الأليم﴾* حيث لا ينفعهم الإيمان فيكونوا جامعين ذل النفوس المطلوب منهم اليوم ليفيدهم العز الدائم إلى شدة الغضب بوضع الشيء في غير موضعه المنتج لدوام ذلهم بالعقاب؛ وهذه الآية منبهة على أن الرضى بكفر خاص لا يستلزم استحسان الكفر من حيث هو كفر؛ قال الإمام الحلبي في كتاب شعب الإيمان المسمى

بالمناهج: وإذا تمنى مسلم كفر مسلم فهذا على وجهين: أحدهما أن يتمناه له كما يتمنى الصديق لصديقه الشيء يستحسنه فيحب أن يكون له فيه نصيب، فهذا كفر لأن استحسان الكفر كفر، والآخر أن يتمناه له كما يتمنى لعدوه الشيء يستفطعه - فيحب أن يقع فيه، فهذا ليس بكفر، تمنى موسى صلوات الله عليه وسلامه بعد أن أجهده فرعون ألا يؤمن فرعون وملاه ليحق عليهم العذاب، وزاد على ذلك أن دعا الله تبارك وتعالى فلم ينكر تعالى ذلك عليه لعلمه أن شدته على فرعون وغلظته عليه لما رآه من عتوه وتجبره هي التي حملته على ذلك، فمن كان في معناه فله حكمه؛ وقد نقل ذلك عنه الزركشي في حرف الثاء من قواعد مرتضياً له، ونقل عنه أيضاً أنه قال: ولو كان في قلب مسلم على كافر فأسلم فحزن المسلم لذلك وتمنى لو عاد إلى الكفر لا يكفر، لأن استقباحه الكفر هو الذي حملة على تمنيه واستحسانه الإسلام هو الحامل له على كراهته؛ ونقل عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه لو قتل عدو للإنسان ظلماً ففرح هل يأثم! إن فرح بكونه عصى الله فيه فنعم، وإن فرح بكونه خلص من شره فلا بأس باختلاف سببي الفرح - انتهى. ويؤيده ما روى البيهقي في دلائل النبوة بسنده عن مقسم مرسل أن النبي ﷺ دعا على عتبة بن أبي وقاص يوم أحد حين كسر ربايته ودمي وجهه فقال: «اللهم لا تحل عليه الحول حتى يموت كافراً!» فما حال عليه الحول حتى مات كافراً إلى النار^(١)، ومسألة أن الرضى بالكفر كفر نقلها الشيخان عن المتولي وسكتا عليها، ولكن قال الشيخ محيي الدين في شرح المذهب: إن ذلك إفراط، فما تقدم من التفصيل عن الحلبي وابن عبد السلام هو المعتمد، والمسألة في أصل الروضة. فإنه قال: لو قال لمسلم: سلبه الله الإيمان، أو لكافر: رزقه الله الإيمان، فليس بكفر لأنه ليس رضى بالكفر لكنه دعاء عليه بتشديد الأمر والعقوبة؛ قلت: ذكر القاضي حسين في الفتاوى وجهاً ضعيفاً أنه لو قال لمسلم: سلبه الله الإيمان، كفر - والله أعلم، وحكى الوجهين عن القاضي في الأذكار وقال: إن الدعاء بذلك معصية.

﴿ وَجَوْرْنَا بِنِيِّ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُوْدُهُ بَغِيًّا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا
 أَدْرَكَهُ الْفُرْقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنْفُؤَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
 ءَأَكْفَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٢﴾ فَأَلْتَوْمُ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ
 خَلَقْنَا ءَأِيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَأَيْنِنَا لَغٰفِلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(١) ضعيف. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٩٦٤٩ عن معمر قال: سمعت الزبير يحدث ببعضه فذكره،

وهذا معضل، وأخرجه البيهقي في الدلائل ٣/٢٦٥ من حديث مقسم مرسلًا.

ولما أخبر سبحانه عن دعائه عليه السلام أخبر بإجابته بقوله مستأنفاً: ﴿قال﴾ ولما كان الموضوع محل التوقع للإجابة، افتتحه بحرفه فقال: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ والبناء للمفعول أدل على القدرة وأوقع في النفس من جهة الدلالة على الفاعل بالاستدلال، وثنى للإعلام بأن هارون عليه السلام مع موسى عليه السلام في هذا الدعاء، لأنه معه كالشيء الواحد لا خلاف منه له أصلاً وإن كان غائباً، وذلك كما بايع النبي ﷺ عن عثمان رضي الله عنه في عمرة الحديبية فضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو غائب في حاجة النبي ﷺ، وكذا ضرب له في غزوة بدر بسهمه وأجره وكان غائباً. (١).

ولما كانت الطاعة وانتظار الفرج وإن طال زمنه أعظم أسباب الإجابة، سبب عن ذلك قوله: ﴿فاستقيما﴾ أي فائتبا على التبعيد والتذلل والخضوع لربكما كما أن نوحاً عليه السلام ثبت على ذلك وطال زمنه جداً واشتد أذاه ولم يضجر؛ ولما كان الصبر شديداً. أكد قوله: ﴿ولا تتبعان﴾ بالاستعجال أو الفترة عن الشكر ﴿سبيل الذين لا يعلمون﴾ ولما أمر بالتأني الذي هو نتيجة العلم، عطف على ذلك الإخبار بالاستجابة قوله: ﴿وجوزنا﴾ أي فعلنا بعظمتنا في إجازتهم فعل المناظر للآخر المباري له، ودل بالصاق الباء بهم على مصاحبتهم سبحانه لهم دلالة على رضاه بفعلهم فقال: ﴿بيني إسرائيل﴾ أي عبدنا المخلص لنا ﴿البحر﴾ إعلماً بأنه أمرهم بالخروج من مصر وأنجز لهم ما وعد فأهلك فرعون وملاه باتباعهم سبيل من لا يعلم بطيشهم وعدم صبرهم، ونجى بني إسرائيل بصبرهم وخضوعهم؛ والالتفات من الغيبة إلى التكلم لما في هذه المجاوزة ومقدماتها ولواحقها من مظاهر العظمة ونفوذ الأوامر ومضاء الأحكام؛ وبين سبحانه كيفية إظهار استجابة الدعوة بقوله مسبباً عن المجاوزة: ﴿فأتبعهم﴾ أي بني إسرائيل ﴿فرعون وجنوده﴾ أي أوقعوا تبعهم أي حملوا نفوسهم على تبعهم، وهو السير في أثرهم، واتبعه - إذا سبقه فلحقه، ويقال: تبعه في الخير واتبعه في الشر. ولما أفهم ذلك، صرح به فقال: ﴿بغياً﴾ أي تعدياً للحق واستهانة بهم ﴿وعدوا﴾ أي ظلماً وتجاوزاً للحد.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٣٠ و ٣٦٩٨ و ٤٠٦٦ و الترمذي ٣٧٠٩ وأبو يعلى ٥٥٩٩ وأحمد ٢/ ١٠١ و ١٢٠ والبيهقي في الدلائل ٣/ ٣١١ من حديث ابن عمر.

وفيه: «وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان...».

ولما كان فاعل ذلك جديراً بأن يرجع عما سلكه من الوعورة، عجب منه في تماديه فقال - عاطفاً على ما تقديره: واستمر يتمادى في ذلك -: ﴿حتى﴾ ولما كانت رؤية انفراج البحر عن مواضع سيرهم مظنة تحقق رجوع الماء إلى مواضعه فيغرق، عبر بأداة التحقق فقال: ﴿إذا أدركه﴾ أي قهره وأحاط به ﴿الغرق﴾ أي الموت بالماء كما سأل موسى في أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم ﴿قال آمنت﴾ أي أوقعت إيمان الداعي لي من التكذيب؛ ثم علل إيمانه بقوله مبدلاً من ﴿آمنت﴾ في قراءة حمزة والكسائي بالكسر مؤكداً من شدة الجزع: ﴿أنه﴾ و على تقدير الباء تعليلاً في قراءة الجماعة أي معترفاً بأنه ﴿لا إله إلا الذي﴾ ويجوز أن يكون أوقع ﴿آمنت﴾ على ﴿أنه﴾ وما بعدها - أي ﴿آمنت﴾ نفى الإلهية عن كل شيء غير من استثنيتها من أن أعبره أو أرجع عنه .

ولما كان قد تحقق الهلاك وعلم أنه لا نجاة إلا بالصدق، أراد الإعلام بغاية صدقه فقال: ﴿آمنت﴾ أي أوقعت التصديق معترفة ﴿به بنو إسرائيل﴾ فعينه تعييناً أزال الاحتمال؛ ثم قال: ﴿وأنا من المسلمين﴾ فكرر قبول ما كان دعي إليه فأباه استكباراً، وعبر بما دل على ادعاء الرسوخ فيه بياناً لأنه ذل ذلاً لم يبق معه شيء من ذلك الكبير ولم ينفعه ذلك لفوات شرطه، فاتصل ذله بذلك بذل الخزي في البرزخ وما بعده، وقد كانت المرة الواحدة كافية له عند وجود الشرط، وزاده تعالى ذلاً بالإيثاس من الفلاح بقوله على لسان الحال أو جبريل عليه السلام أو ملك الموت أو غيره من الجنود عليهم السلام: ﴿ألئن﴾ أي أتجيب إلى ما دعيت إليه في هذا الحين الذي لا ينفع فيه الإجابة لفوات الإيمان بالغيب الذي لا يصح أن يقع اسم الإيمان إلا عليه ﴿وقد﴾ أي والحال أنك قد ﴿عصيت﴾ أي بالكفر ﴿قبل﴾ أي في جميع زمان الدعوة الذي قبل هذا الوقت، ومعصية الملك توجب الأخذ والغضب كيف كانت، فكيف وهي بالكفر! ﴿وكنت﴾ أي كوناً جليلاً ﴿من المفسدين﴾ أي العريقين في الفساد والإفساد؛ ثم أكد - بدل شماتة الأعداء به الذين كانوا عنده أقل شيء وأحقره - بقوله مسيياً عما تضمنه ذلك الإنكار من الإذلال بالإهلاك إشارة إلى أن الماء أحاط به وصار يرتفع قليلاً قليلاً حتى امتد زمان التوبيخ: ﴿فاليوم نجيك﴾ أي تنجية عظيمة . ولما كان ذلك ساراً وكانت المساءة بما يفهم السرور إنكاء، قال دالاً على أن ذلك يعد نزع روحه: ﴿ببذنك﴾ أي من غير روح وهو كامل لم ينقص منه شيء حتى لا يدخل في معرفتك لبس ﴿لتكون﴾ أي كوناً هو في غاية الثبات ﴿لمن خلفك﴾ أي يتأخر عنك في الحياة من بني إسرائيل وغيرهم ﴿آية﴾ في أنك عبد ضعيف حقير، لست برب فضلاً عن أن

تكون أعلى ويعرفوا أن من عصى الملك أخذ وإن كان أقوى الناس وأكثرهم جنوداً، وقد ادعى بعض الملحدين إيمانه بهذه الآية إرادة لما يعيد الله منه من حل العقد الواجب من أن فرعون من أكفر الكفرة بإجماع أهل الملل ليهون للناس الاجترار على المعاصي، وادعى أنه لا نص في القرآن على أنه من أهل النار وضل عن الصرائح التي في القرآن في ذلك في غير موضع وعن أن قوله تعالى: ﴿وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾ [يونس: ٨٣] مع قوله تعالى: ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ [غافر: ٤٣] قياس قطعي الدلالة بديهي النص على أنه من أهل النار، والآية - كما ترى - دليل على قوله: ﴿قل أرايتم إن أتكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾ - الآية، لو كان فرعون مثل قريش، فكيف ولا نسبة لهم منه في شدة الاستكبار التابعة لكثرة الجموع ونفوذ الكلمة بضخامة الملك وعز السلطان والقوة بالأموال والأعوان، وقد روي أن جبريل عليه السلام كان آتاه بفتيا في عبد نشأ في نعمة سيده فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه، فكتب فرعون جزاء العبد الخارج عن طاعة سيده الكافر نعماءه أن يغرق في البحر، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطه فعرفه.

ولما لم يعمل فرعون وآله بمقتضى ما رأوا من الآيات، كان حكمهم حكم الغافلين عنها، فكان التقدير: ولقد غفلوا عما جاءهم من الآيات ﴿وإن كثيراً﴾ أكده لأن مثله ينبغي - لبعده عن الصواب - أن لا يصدق أن أحداً يقع فيه ﴿من الناس﴾ أي وهم من لم يصل إلى حد أول أسنان أهل الإيمان لما عندهم من النوس - وهو الاضطراب - والأنس بأنفسهم ﴿عن آيتنا﴾ أي على ما لها من العظمة ﴿لغفلون﴾ والإصلاح: تقويم العمل على ما ينفع بدلاً مما يضر؛ وإحقاق الحق: إظهاره وتمكينه بالدلائل الواضحة حتى يرجع الطاعن عنه حسيراً والمناصب له مفلولاً؛ والإسراف: الإبعاد في مجاوزة الحق؛ والفتنة: البلية، وهي معاملة تظهر الأمور الباطنة؛ والنجاة: الخلاص مما فيه المخافة، ونظيرها السلامة، وعلقوا النجاة بالرحمة لأنها إنعام على المحتاج بما تطلع إليه نفوس العباد، فهو على أوكد ما يكون من الدعاء إلى الصلاح؛ والوحي: إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء، والإيحاء والإيماء والإشارة نظائر، ولا يجوز أن تطلق الصفة بالوحي إلا لنبي؛ وتبوأ: اتخذ، وأصله الرجوع، فالمتبوأ: المنزل، لأنه يرجع إليه للمقام فيه؛ والطمس: محو الأثر فهو تغير إلى الدثور والدروس؛ والإجابة: موافقة الدعوة فيما طلب بها لوقوعها على تلك الصفة؛ والدعوة: طلب الفعل بصيغة الأمر، وقد تكون بالماضي؛ والمجازة: الخروج عن الحد من إحدى الجهات؛ والبحر: مستقر الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفيه من كان في وسطه،

وهو مأخوذ من الاتساع؛ والاتباع؛ اللحاق بالأول؛ والبغي: طلب الاستعلاء بغير حق؛ والآن: فصل الزمانين الماضي والمستقبل، مع أنه إشارة إلى الحاضر، ولهذا بنى كما بنى «ذا»؛ والبدن: مسكن روح الحيوان على صورته.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

ولما ذكر تعالى عاقبة أمر فرعون وقومه وأنهم لم ينتفعوا بما جاءهم من البيئات مع ما كان فيها من جلي البيان وفي بعضها من الشدائد والامتحانات حتى كان آخرها أنه لما رأى مبدأ الهلاك من انفراق البحر لم يزعج عن لجأه غفلة منه عن عاقبته. وختمها بالإخبار بكثرة الغفلة إشارة إلى أن هذا الخلق في غير القبط أيضاً، أتبع ذلك ذكر خاتمة أمر بني إسرائيل فيما خولهم فيه بعد الإنجاء من النعم المقتضي للعلم القطعي بأنه لا إله غيره، وأن من خالفه كان على خطر الهلاك، وأنهم - مع مشاهدتهم الآيات الآتية بسببهم إلى فرعون - آتاهم من الآيات الخاصة بهم المنجزة لصدق وعده سبحانه لأبائهم ما فيه غاية الإحسان إليهم والإكرام لهم، وأنهم كانوا تحت يد فرعون على طريق واحد، ليس بينهم خلاف، وما اختلفوا فصاروا فرقاً في الاعتقادات وأحزاباً في الديانات حتى جاءهم العلم الموضح من الله، فكان المقتضي لاجتماعهم على الله مفرقاً لهم على سبيل الشيطان لخبث سرائرهم وسوء ضمائرهم وقوفاً مع الشاهد الزائل وجموداً مع المحسوس الفاني ونسياناً للغائب الثابت والمعلوم المتيقن، كل ذلك لأننا قضينا به فالأمر تابع لما نريد، لا لما يأمر به وينهى عنه، فكان أعظم زاجر عن طلب الآيات وظن أنها توجب له الرد على الغوايات، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أي أسكننا بما لنا من العظمة التي تنقطع الأعناق دون عليائها وتتضاءل ثواقب الأفكار عن إحصائها ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ مسكناً هو أهل لأن يرجع إليه من خرج عنه، وهو المراد بقوله: ﴿مُبَوَّأً صِدْقٍ﴾ أي في الأرض المقدسة لأن وعدنا كان قد تقدم لهم بها وعادة العرب أنها إذا مدحت الشيء أضافته إلى الصدق لأنه مع ثباته حبيب إلى كل نفس ويصدق ما يظن به من الخير.

ولما كان المنزل لا يطيب إلا بالرزق، وكان التعبير عنه بالمبوء دالاً على الرزق بدلالة الالتزام، صرح به فقال: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الحسية حلاء واشتهاء من الفواكه والحبوب والألبان والأعسال وغيرها. والمعنوية من الشريعة والكتاب والمعارف كما تقدم وعدنا لأبائهم بذلك. ولما كانوا كغيرهم إذا كانوا على أمور يتواضعون عليها تقاربوا فيها وتوافقوا، وإذا كانوا على حدود حدها لهم المحسن إليهم وحده لم يلبثوا أن يختلفوا عابهم الله بذلك فقال: ﴿فَمَا﴾ أي فتسبب عن

صدقنا لهم في الوعد أنهم ما ﴿اختلفوا﴾ أي أوقعوا الخلف المفضي إلى جعل كل منهم صاحبه خلفه ووراء ظهره. واستهان به ﴿حتى جاءهم العلم﴾ الموجب لاجتماعهم على كلمة واحدة لما له من الضبط حتى يكون أتباعه على قلب واحد. فكأنه قيل: فماذا يفعل بهم؟ لا هم بعقولهم ينتفعون ولا بما جاءهم من الحق يرجعون؟ فقيل مؤكداً لإنكار العرب البعث: ﴿إن ربك﴾ أي المحسن إليك بإيصال الأنبياء بك ووصفك في كتبهم وجعلك صاحب لواء الحمد في القيامة ﴿يقضي بينهم﴾.

ولما كان هذا تهديداً عظيماً، زاده هولاً وعظمة بقوله: ﴿يوم القيمة﴾ أي الذي هو أعظم الأيام ﴿فيما كانوا﴾ أي بأفعالهم الجبلية ﴿فيه يختلفون﴾ فيميز الحق من الباطل، والصديق من الزنديق، ويسكن كلاً داره.

ذكر بعض ما في التوراة من المن عليهم بالأرض المقدسة: قال في أثناء السفر الخامس: قد رأت أعينكم جميع أعمال الله العظيمة التي عمل، فاحفظوا جميع الوصايا التي أمركم الله بها اليوم لتدخلوا الأرض التي تجوزون إليها لتراثوها وتطول أعماركم في الأرض التي أقسم الله لأبائكم أن يعطيهم ويرثها نسلهم الأرض التي تغل السمن والعسل. لأن الأرض التي تدخلونها لتراثوها ليست مثل أرض مصر التي خرجتم منها التي كنتم تحتاجون فيها أن تستقوا بأرجلكم وتسقوها مثل بساتين السقي، ولكن الأرض التي تجوزون إليها لتراثوها هي أرض الجبال والصحارى، وإنما تشرب من مطر السماء. يتعاهدها الله ربكم في كل حين، وعينا الله ربنا فيها منذ أول السنة إلى آخر السنة. فإن أنتم سمعتم الأحكام التي أمركم بها اليوم وتتقون الله ربكم وتعبدونه من كل قلوبكم وأنفسكم يديم نظره إليكم، ويمطر لكم في الخريف والربيع جميعاً، وتستغلون طعاماً وشراباً وزيتاً، وينبت في حرثكم عشباً لمواشيكم، وتأكلون وتشبعون، احفظوا أن لا تخدع قلوبكم وتروغوا إلى الآلهة الأخرى وتسجدوا لها وتعبدوها فيشتد غضب الرب عليكم، ويمنع السماء من المطر والأرض من غلاتها، وتهلكوا سريعاً من الأرض التي يعطيكم الله ربكم، بل اجعلوا هذه الآيات في قلوبكم، وصيروها ميسماً بين أعينكم، وعلموها بينكم أن يتكلموا بها في حضوركم وفي سفركم، وإذا رقدتم وإذا قمتم، واكتبوها على معاقم بيوتكم وأبوابكم لتطول أعماركم وأعمار أولادكم في الأرض التي أقسم الله لأبائكم أن يعطيهم. وإن أنتم حفظتم هذه الوصايا كلها وعملتكم بها وأحببتم الله ربكم وسرتم في طرقه ولحقتكم بعبادته يهلك الرب الملوك كلها من بين أيديكم وترثون شعوباً أعظم وأعز منكم، وكل بلاد تطأها أقدامكم تكون لكم بين البرية ولبنان ومن النهر إلى الفرات: النهر الأكبر، وتكون تخومكم عند البحر الآخر، ولا يقدر أحد أن

يقاومكم، ويلقي الله ريبكم خوفكم وفزعكم على كل الأرض التي تطؤونها كما قال لكم الرب: انظروا! إني أتلو عليكم دعاء ولعناً، أما الدعاء فتصيرون إليه إن أنتم حفظتم وصايا الله ريبكم، وأما اللعن فيدرككم إن أنتم لم تسمعوا وصايا الله ريبكم وزغتم عن الطريق الذي أمركم به اليوم وتبتم آلهة أخرى لم تعرفوها، وإذا أدخلكم الله ريبكم إلى الأرض التي تدخلونها لترثوها اتلوا الدعاء على جبل حوريب واللعن على جبل من حياها في مجاز الأردن خلف الطريق عند مغارب الشمس في أرض الكنعانيين الذين يسكنون المغرب بإزاء الجبال وجبال بلوط - وفي نسخة: مرج ممرى، لأنكم تجوزون الأردن لتدخلوا وترثوا الأرض التي يعطيكم الله ريبكم وتسكنونها وتحفظون وتعملون بجميع الوصايا التي أمركم بها اليوم - انتهى .

وفي سفر يوشع بن نون عليه السلام: ولما كان بعد موسى عبد الله قال الله ليوشع ابن نون خادم موسى عليهما السلام: موسى عبدي مات، والآن فقم فاعبر هذا الأردن أنت، وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل، كل موضع تطؤه أرجلكم لكم أعطيته، كما قلت لموسى عبدي. من البر وهذه للبنان وإلى النهر الكبير نهر الفرات كل أرض الذاعرين، لا يقف أحد قدامك طول أيام حياتك، كما كنت مع موسى أكون معك، لا أدعك ولا أتركك، اشتد وتأيد، فإنك أنت تنحل هذا الشعب الأرض التي قسمت لأبائهم لإعطاء ذلك لهم، لا يزول درس كتاب هذه الشريعة من فيك. وتلهج به نهاراً وليلاً لكي تحفظ للعمل بجميع المكتوب. فحينئذ تنجح طرقك. وحينئذ ترشد، أليس قد أوصيتك؟ اشتد وتأيد، ولا ترهب ولا تنذر، لأن معك الله ربك في جميع ما تسير فيه، ووصى بوضع يوشع عرفاء القوم قائلاً: جوزوا في وسط العسكر ووضوا القوم قائلين لهم: أعدوا لكم زاداً فإنكم بعد ثلاثة أيام عابرون هذا الأردن للدخول لإرث الأرض التي الله ريبكم معطيها لكم، اذكروا ذكر القول الذي أمركم به موسى عبد الله قائلاً: الله ريبكم مريحكم بما أعطاكم هذه الأرض، نساءكم وأطفالكم ومواشيكم تجلسون في مدنكم التي أعطاكم موسى عبد الله في مجاز الأردن وأنتم تجوزون محزومي الخواطر إلى أن يريح الله إخوتكم كما أراحكم فترثوا أيضاً الأرض التي ريبكم معطيكم، حينئذ ترجعون إلى أرض حوزكم التي أعطاكم موسى عبد الله في مجاز الأردن مشرق الشمس، فأجابوا يوشع قائلين: جميع ما أوصيتنا به نعمل، كل موضع ترسلنا نمضي كجميع ما قبلنا من موسى كذاك نقبل منك. إذا كان الله معك كما كان مع موسى، كل إنسان يخالف أمرك ولا يقبل كلامك كجميع ما تأمره به يقتل. فاشتد وتأيد، فبعث يوشع بن نون من الكافرين رجلين جاسوسين في خفية قائلاً:

امضيا! انظروا الأرض كلها مع أريحا، فمضيا ودخلا إلى بيت امرأة سواقة اسمها راحاب واضطجعا ثم، فقيل لملك أريحا: هو ذا أناس من بني إسرائيل قد جاؤوا إلى هنا الليلة لجس البلد. فأرسل ملك أريحا إلى راحاب قائلاً: أخرجي القوم الجائين إليك الذين دخلوا دارك. فإنهم لجس جميع البلد جاؤوا. فأخذت المرأة الرجلين فأخفت أمرهما وقالت: كذلك كان القوم جاؤوا إليّ ولم أعلم من أين هم؟ وكان عند إغلاق الباب في الظلام. ثم خرج القوم ولم أعلم أين مضوا؟ اطلبوهم بسرعة فإنكم تلحقونهم؛ ثم أصعدتهما إلى السطح وظهرتهما في فش الكتان. والقوم طلبوهما في طريق الأردن إلى المعابر - وفي نسخة: إلى المخاضات - ولباب أغلقوا بعد ما خرج الطالبون خلفهما. وهما قبل أن يناما صعدت إليهما راحاب إلى السطح فقالت لهما: قد علمت أن الله سلم إليكم البلد، وأنة قد وقعت هيبتكم علينا. وقد ماج جميع سكان البلد من قبلكم. وأنا قد سمعنا أن الله أبيض لكم بحر القلزم عقب خروجكم من مصر وما عملتم بملكي الأمورانيين الذين في مجاز الأردن: سيحون وعوج اللذين اصطلمتموهما، فعند ما سمعنا ذابت قلوبنا ولم يثبت أيضاً روح في واحد منا من جهتكم، فإن الله ربكم هو إله من في السماوات من فوق ومن على الأرض من تحت، والآن فاحلفوا باسم الله إذ قد عملت معكم فضلاً، فتعملاً أيضاً أنتما مع أهل أبي فضلاً، وتعطيني علامة هي حق. لتستبقوا أبي وأمي وإخوتي وجميع من التصق بهم، وتخلصوا أنفسنا من القتل. فقالا لها: نبذل أنفسنا دونكم للموت إن لم تخبروا بخبرنا هذا. فيكون عند تسليم الله لنا البلد نعمل معك فضلاً وأمانة فأحدرتهما بالجبل من داخل الطاقة إذ منزلها في حائط السور. وفي السور هي ساكنة. وقالت لهما: سيرا إلى الجبل كيلا يلقاكما الطالبون، وبعد ذلك سيرا: لطريقكما، فقالا لها: أبرياء نحن من قسمك هذا الذي استقسمتنا إن لم تفعلي ما نقول لك، هو ذا نحن داخلون إلى البلد فاعقدي خصلة خيط من القرمز في الطاقة التي أخبرتنا منها. وأبوك وأمك وإخوتك وكل بيت أبيك تضمين إليك إلى المنزل، فيكون كل من يخرج من أبواب منزلك إلى خارج دمه في عنقه ونحن أبرياء، وكل من يكون معك في المنزل دمه في أعناقنا إن بطشت به يد. وإن أخبرت بخبرنا هذا فنحن أبرياء من قسمك الذي استقسمتنا، فقالت: كما قلتما، فأطلقتهما ومضيا، وعقدت خصلة القرمز في الطاقة، فمضيا إلى الجبل وجلسا ثم ثلاثة أيام إلى أن رجع الطالبون ولم يجدوهما. ورجع الرسولان وانحدرا من الجبل وجازا الأردن وجاءا إلى يوشع بن نون وقصا له كل ما وافهما وقالا ليوشع: إن الله دفع بأيدينا كل الأرض، وقد ماج جميع

سكانها منا؛ وأدلع^(١) يوشع بالغداة ورحلوا من الكافرين، وجاؤوا إلى الأردن هو وجميع بني إسرائيل وباتوا ثم قبل أن يجوزوا. فلما كان بعد ثلاثة أيام جاز النقباء في وسط العسكر وأمروا القوم قائلين لهم: عند نظركم صندوق عهد الله ربكم والأئمة اللاويين حاملين له أنتم ترحلون من موضعكم وتمشون خلفه، لكن بينكم وبينه بعد مقدار ألفي ذراع بالمساحة، لا تقربوا منه لأجل أن تعرفوا الطريق التي تمشون فيها إذ لم تمشوا فيها أمس وأول أمس. وقال يوشع للقوم: استعدوا فإن غدأ يعمل الله في وسطكم عجائب، وقال يوشع للأئمة: احملوا صندوق العهد وجوزوا قدام القوم. فحملوا صندوق العهد وساروا قدام القوم، وقال الله ليوشع: هذا اليوم ابتدء بتعظيم اسمك بحضرة جميع إسرائيل لكي يعلموا أنني كما كنت مع موسى أكون معك؛ وقال يوشع لبني إسرائيل: تقدموا ههنا وأسمعوا الله ربكم؛ قال يوشع: بهذه الخلة تعرفون أن قادراً حياً لذاته في وسطكم، وأن قارضاً يقرض من قدامكم قبائل الأمم: الكنعانيين والذاعرين - وفي نسخة: الحاثيين المنسوبين إلى حاث جدهم - والحويين أي الفصحاء البلغاء - وفي نسخة: المجتمعين إلى الحي - والربضييين والفلاحين والأمورانيين - أي الرؤساء - واليبوسيين - أي الجبارين القاهرين، ها هو ذا صندوق العهد، سيد كل الأرض جائز قدامكم في الأردن والآن خذوا لكم اثني عشر رجلاً من أسباط إسرائيل: رجلاً واحداً من كل سبط، ويكون عند قرار أقدام أرجل الأئمة حاملي صندوق العهد سيد كل الأرض في مياه الأردن من الأمر العظيم أنه تنقطع مياه الأردن المنحدرة من فوق وتقف طوداً واحداً كأنها في زق محصورة.

ولما ارتحل الشعب وقطعوا خيمهم ليجوزوا الأردن سار الكهنة الذين حملوا التابوت أمام الشعب، فلما انتهوا إلى الأردن وكان ممتلئاً يفيض كل أيام الحصاد انشق الأردن وقام الماء الذي كان ينحدر من فوق كأنه في زق ناحيته، وتباعد عن قرية إدام التي عند صريم جداً، والذي كان يجري إلى البحر العربي الذي يدعى بحر الملح انشق وحر وانقطع، وجاز الشعب حيال أريحا، وقام الكهنة الذين حملوا تابوت العهد في الأردن يابساً حتى عبر جميع الشعب بحر الأردن؛ فلما جاز الشعب جميعاً قال الرب ليوشع: اعمد إلى اثني عشر رجلاً من الشعب: من كل سبط رجل واحد، وقل لهم: خذوا من ههنا من جوف الأردن من تحت أقدام الكهنة اثني عشر حجراً وعبروها معكم وانصبوها في موضع المبيت الذي تبيتون فيه الليلة، فأمرهم يوشع بذلك وأن يحمل كل

(١) أدلع: سار من أول الليل.

رجل حجره على عاتقه، فأخذوها إلى موضع ميبتهم ونصبوها هناك، فمكثت الحجارة - التي أخذوها من الأردن من تحت أقدام الكهنة الذين حملوا التابوت - موضوعة هناك إلى اليوم؛ والكهنة الذين حملوا التابوت كانوا قياماً حتى تمت جميع الأقوال التي أمر الرب يشوع أن يقص على الشعب كما أوصى موسى يشوع، وعجل الشعب على المجاز وجازوا، فلما جاز جميع الشعب وجاز الكهنة الذين كانوا حاملين التابوت أمام الشعب وجاز بنو روبال وبنو جاد ونصف سبط منسا، وهم متسلخون أمام إختوتهم - كما أمر موسى - أربعون ألفاً ذوو قوة، جازوا أمام الرب إلى قاع أريحا للمحاربة. في ذلك اليوم عظم يشوع عند جميع بني إسرائيل وفرقوه كفرقهم من موسى طول أيام حياته، وقال الرب ليشوع: مر الكهنة الذين حملوا تابوت الشهادة يصعدوا من الأردن، فأمرهم، فلما صعدوا رجع ماء الأردن إلى مواضعه أول ما استقرت أقدام الكهنة في الشط وجرى في سواحل الأردن كما كان أولاً، فصعدوا من الأردن في عشر خلت من الشهر الأول - قلت: وهو نيسان على ما قال بعض فضلاء اليهود - ونزلوا الجلجال أقصى مشارق أريحا، فأما الاثنا عشر حجراً التي أخذوها من الأردن فنصبها يشوع في الجلجال، وقال يشوع لبني إسرائيل: إذا سألكم بنوكم غداً وقالوا لكم: ما هذه الحجارة؟ قولوا لهم: إن بني إسرائيل فلق لهم هذا الأردن فجازوه يابساً، لأن الله ربكم يبس ماء الأردن أمامهم حتى جازوه كما فعل الله ربكم ببحر سوف الذي يبسه أمامنا حتى جزناه ليعلم جميع شعوب الأرض أن يد الرب قوية، وتتقوا الله ربكم كل الأيام.

فلما سمع جميع ملوك الأموريين الذين في جانب الأردن الغربي وجميع ملوك الكنعانيين الذين على شاطئ البحر أن الرب يبس ماء الأردن أمام بني إسرائيل حتى جازوا، فزعت قلوبهم ولم يبق فيهم رمق فزعاً من بني إسرائيل وفي ذلك الزمان قال الرب ليشوع: اتخذ سيفاً من طوران واختن بني إسرائيل ثانية، فختن بني إسرائيل ثانية في أكمة الغلف، والذي ختن يشوع جميع الذكور الذين كانوا ولدوا في البرية حين خرجوا من أرض مصر، لأن جميع الرجال الأبطال المقاتلة هلكوا في البرية لأنهم لم يطيعوا الله ربهم وكانوا كلهم مختننين، فأقسم الرب عليهم أن لا يريهم الأرض التي وعد آباءهم أن يعطيهموها الأرض التي تغل السمن والعسل، فبنوهم الذين كانوا من بعدهم هم الذين ختن يشوع لأنهم كانوا غلفاً. فلما ختن جميع الشعب مكثوا مواضعهم في المعسكر حتى برثوا، وقال الرب ليشوع: اليوم صرفت عنكم عار أهل مصر، ودعا اسم ذلك الموضع جلجالاً، ونزل بنو إسرائيل الجلجال وعملوا فصحاً في أربعة عشر يوماً من الشهر الأول عند المساء في قاع أريحا وأكلوا من بر الأرض بعد الفصح وأكلوا

في ذلك اليوم فطيراً وسنبلاً مقلّواً. وارتفع المن عن بني إسرائيل منذ ذلك اليوم حيث أكلوا من بر الأرض ولم ينزل المن لبني إسرائيل بعد ذلك اليوم وأكلوا من بر الأرض وغلات أرض كنعان في تلك السنة. وبينما كان يشوع في قاع أريحا قائماً إذ نظر رجلاً قائماً إزاءه مخترباً سيفه ممسكه بيده، فأقبل يشوع إليه وقال له: أنت منا أم من أعدائنا؟ قال: أنا سيد أجناد الرب، الآن أتيتك، فخر يشوع ساجداً على وجهه على الأرض وقال: ما الذي يقول السيد لعبده؟ قال: اخلع خفيك عن قدميك، فإن الموضع الذي أنت قائم فيه طاهر، ففعل يشوع ذلك؛ وكان بنو إسرائيل قد حاصروا أريحا، ولم يكن يقدر أحد من أهلها يدخل ولا يخرج، قال الرب ليوشع: انظر! إني قد دفعت في يدك أريحا وملكها وكل أجنادها، فليحط بالمدينة جميع الرجال المقاتلة، ودوروا حول المدينة مرة في اليوم، وافعلوا ذلك ستة أيام، ويحمل سبعة من الكهنة سبعة أبواق ويهتفون أمام التابوت، حتى إذا كان اليوم السابع دوروا حول المدينة سبع مرات ويهتف الكهنة بالقرن، فإذا هتفت الأبواق وسمعت أصواتها يهتف جميع الشعب بأعلى أصواتهم صوتاً شديداً، فيقع سور المدينة مكانه، ويصعد الشعب كل إنسان حياله، فدعا يشوع الكهنة وقال لهم: احمّلوا تابوت عهد الرب ويحمل سبعة من الكهنة سبعة قرون وينفخون فيها أمام تابوت الرب، ثم قال للشعب: دوروا حول المدينة، والمتسلخون يجوزون أمام تابوت الرب، فحمل سبعة من الكهنة سبعة قرون وهتفوا أمام تابوت الرب فلم يزلوا ينفخون في القرون، والذين كانوا يحملون التابوت يتبعون أصحاب الأبواق والمتسلخون يسيرون أمام الكهنة الذين يهتفون بالقرن ويسيرون أمام التابوت. وقال يشوع للشعب: لا تهتفوا، ولا تسمعوا أصواتكم، ولا تخرج كلمة من أفواهكم إلى اليوم الذي أمركم أن تهتفوا. فدارت الجماعة بالتابوت كل يوم مرة كما أمرهم يشوع، فلما كان اليوم السابع أدلجوا سحراً وأحاطوا بالمدينة كستهم ولكن في ذلك اليوم السابع داروا حولها سبع مرات، وفي المرة السابعة هتف الكهنة بالقرن وقال يشوع للشعب: اهتفوا لأن الرب قد دفع المدينة في أيديكم، ولكن صيروا هذه المدينة وكل ما فيها حريمة للرب، لا يمسه إنسان منكم، وأبقوا على راحب الزانية - يعني القنداقية كما أخبرني بعض فضلائهم، ويؤيده التعبير عنها فيما مضى بالسواقة والله أعلم - وعلى كل من معها في بيتها لأنها غيبت الدسيسين اللذين أرسلنا، فأما أنتم فاحتفظوا من الحرام، ولا تنجسوا أنفسكم بأكل الحرام، فتصيروا عسكر بني إسرائيل حراماً، فنفخوا في القرون فلما سمع الشعب صوت الأبواق ضجوا كلهم ضجة واحدة شديدة جداً، فوقع سور المدينة فصعد الشعب إلى المدينة كل إنسان حياله، فافتحوها وقتلوا كل من فيها

رجالها ونساءها والمشيمة والصبيان والثيران والحمير والغنم، قتلوها بالسيف، وأما الرجال اللذان اجتسا الأرض فقال لهما يشوع: ادخلا إلى بيت المرأة الزانية - يعني الفندقانية كما مضى - فأخرجها وأخرجها كل من معها في البيت كما حلفتما لها، ففعلوا وأنزلوهم خارج عسكر بني إسرائيل وأحرقوا المدينة وكل من فيها بالنار، وأحيا يشوع الزانية ووالديها وكل من معها، وأقسم يشوع في ذلك الزمان ولعن وقال: ملعوناً يكون أمام الرب الرجل الذي يقوم يبني مدينة أريحا هذه، وكان الرب بعونه مع يشوع ونصره، وشاع خبره في الأرض كلها، وأثم بنو إسرائيل وتناولوا من الحرام، وذلك لأن عاجار ابن كرمي بن زبيدي بن زرح من قبيلة يهودا نحر وأخذ من الحرام وغيب في خيمته، فاشتد غضب الرب على بني إسرائيل، ثم أرسل يشوع رجالاً إلى عاي التي عند بيت آون من مشارق بيت إيل ليجتسوها، فقالوا له: إنه يجزىء في أخذها ألفان أو ثلاثة لأن أهلها قليل، فصعدوا فحاربوهم عند باب المدينة فانهزم بنو إسرائيل وجرح منهم جرحى كثير - فذكر القصة في سجود يشوع وانزعاجه وإخبار الله تعالى إياه أن قومه غلّوا، ثم أمره بالقرعة حتى خرج الذي عنده الغلول وهو عاجار، وكان غلوله طنفسة بابلية وماتت مئقال فضة وسيكة من ذهب فيها خمسون مثقالاً، فأخرجه يشوع مع كل شيء هو له، وقد مضى ذلك في البقرة عند ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ [البقرة: 9٨] وتقدم في المائدة فتح بعض بلاد بيت المقدس بأعجوبة أخرى واستمروا هكذا يفتحونها بلداً بعد بلد، ويقتلون من جابرتها عدداً بعد عدد، ويرون في ذلك من عجائب الأمور وبدائع المقدور ما يبقى على كر الآباد ومَر الدهور، وهم في أثناء ذلك كل قليل يكفرون وينقضون العهود ولا يشكرون كما هو مبين في سفر يوشع بن نون، وقد مضى شيء منه في المائدة عند قوله تعالى ﴿فعموا وسموا﴾ [المائدة: ٧١] - الآية، كل ذلك بعد أن جاءهم من العلم ما لا تدخله مرية ولا يخالطه شك ولا يدنو منه لبس، فبارك من له الأمر كله، لا مضل لمن هدى ولا هادي لمن يضل.

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٤﴾ ﴾

ولما كان ما مضى - من آيات هذه السورة المبينة أن من أريدت شقاوته لا ينفعه مشاهدة الآيات - سبباً لنفي الشك عنها وإثبات اليقين بمضامينها بما سلف من الأدلة على تلك المضامين إلى أن ختم ذلك بدم من عمل عمل الشاك بعد أن جاء ما يوجب اليقين

من العلم، وكان ﷺ كما مضى في آخر التي قبلها أشفق الخلق لا سيما على العرب لا سيما على قومه منهم، وكانت الوصية قد برزت من الجنب الإلهي له بما يوافق طبعه من بذل الجهد في ملاظفتهم، كان ذلك جديراً بأن يحرك طبع البشر لتمني الإجابة لما يقترحون، وكان طلب ذلك بعد الفطام عنه من أفعال الشك في الجملة فأريد صرف النفس عنه بالكلية ولو بالخطور في البال فليل مسبباً عما قبله: ﴿فإن كنت﴾ أي يا أرحم الخلق ﴿في شك﴾ ولم يرد بهذا الكلام حقيقته - والله أعلم - بل تقوية اليقين وتأكيده ورسوخه وتأبيده بأن هذا أمر قد عزم عليه وفرغ منه فلا يحتمل مراجعة، وذلك لأن المعنى أن ثباتهم على الشقاوة أمر لا يعلم إلا من قبلنا، وذلك بأحد أمرين: إما بواسطة الأمين جبرئيل بما يأتي به من الوحي عنا غصاً طرياً محفوظاً من الغير فلا تحريف فيه ولا تبديل، وإما بواسطة أهل الكتاب عن أنبيائهم - وفي ذلك نزول درجتين مع تجويز التخويف والتبديل، وهذا ما لا يرضاه ذو همة عليّة ونفس أبية - فالمعنى: أنا قد أخبرتك بأن الآيات لا تزيد المقضي بشقائه إلا ضلالاً وأنا خبير بذلك ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ فلا تطلب إجابتي إياهم إلى ما يقترحون عليك رجاء إيمانهم فإنهم لا يؤمنون بذلك ﴿فإن كنت﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿في شك﴾ أي ولو قل ﴿مما أنزلنا﴾ أي بعظمتنا واصلحاً على لسان الواسطة ﴿إليك﴾ في ذلك ﴿فسئل﴾ أي بسبب ذلك الشك ﴿الذين يقرءون﴾ أي متتابعين لذلك ﴿الكتب﴾ أي السماوي من اليهود والنصارى، فإنهم من الإحاطة بصحة ما أنزلنا إليك على حد عظيم. ومن آمن منهم أو كان منصفاً جدير بأن يزداد من فواضه في ذلك إيماناً؛ ولما كانوا بعض من أوتي الكتاب في الزمن السالف، أثبت الجار فقال: ﴿من قبلك﴾ وهم عن ذلك الخبر بمراحل، فلا تجنح إلى سؤال غيري، وهذا مضمون قوله تعالى مؤكداً آتياً بحرف التوقع لأن كلاً من الأمرين في أحق مواضعه: ﴿لقد جاءك الحق﴾ أي الثابت الكامل ثباته وهو إمضاء العدل فيهم؛ وزاده تشريفاً وترغيباً فيه بقوله: ﴿من ربك﴾ أي المحسن إليك باصطفائك لذلك، فلذا سيق مساق البيان له من غير واو، فإذا ثبت أنه الحق أي الثابت أعلى الثبات تسبب عنه البعد من تزلزل من جاءه، فناسب اتباعه بقوله: ﴿فلا تكونن﴾ أكده لأنه حقيق بأن لا ينشني عنه أحد بوجه من الوجوه ﴿من الممترين﴾ أي الغافلين عن آيات الله فتطلب الفضل لأهل العدل؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا والله! ما شك طرفة عين ولا سأل أحداً منهم.

ولما نهى عن ذلك لم يبق مما اقتضته القسمة العقلية إلا العناد ممن يمكن منه كما فعل بنو إسرائيل بعد مجيء العلم فأتبعه النهي عن مثل حالهم بقوله: ﴿ولا تكونن﴾ أي

بوجه من الوجوه، والمراد بهذا أتباعه ﴿من الذين كذبوا﴾ أي فعلوا فعل المكذب مستهينين ﴿بآيت الله﴾ أي التي لا أعظم منها بإضافتها إلى من لا أعظم منه ﴿فتكون﴾ أي كوناً راسخاً ﴿من الخسرين﴾ بل اثبت على ما أنت عليه من اليقين والطمأنينة والثقة بالله والسكينة، وهذا ونحوه مما غلظت فيه العبارة دلالة على مزيد قرب المخاطب وإن كان المراد غيره وعظيم منزلته ولطيف خصوصيته كما مضى بيانه عن الإمام أبي الحسن الحرالي رحمه الله في سورة براءة عند قوله تعالى ﴿عفا الله عنك﴾ [براءة: ٤٣] - الآية، وتغليظ العبارة فيه تأديب عظيم لتابعيه؛ والشك: الوقوف بين النقيضين، وهو من شك العود فيما ينفذ فيه، لأنه يقف بذلك الشك بين جهتيه؛ والإنزال: نقل الشيء من علو إلى سفلى؛ والامتراء؛ طلب التشكك مع ظهور الدليل، من مري الضرع وهو مسحه ليدر.

ولما كان ما مضى من هذه الآيات وما كان من طرازها قاضياً بأنه لا تغني الآيات عنهم. صرح به قوله تعالى: ﴿إن الذين حقن﴾ أي وجبت وثبتت ﴿عليهم﴾ أي بأنهم أشقياء، وعبر بالاسم المفهم للإحسان إعلماً بأنه ما أوجب عليهم العذاب إلا إحساناً إليه بما يقاسي من معالجتهم وغير ذلك من الحكمة فقال: ﴿كلمت ربك﴾ أي المحسن إليك في جميع أمرك ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا قبول لهم لتجدد الإيمان ﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ ونسبتها إلى قوله ﴿لقد جاءك الحق﴾ نسبة ﴿لقد جاءك الحق﴾ إلى ﴿فإن كنت في شك﴾ الآية في البيان المستفاد من حذف العاطف، وإذا كان الكلام في معنى واحد كان بمنزلة الكلمة الواحدة فسمي بها ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي حين لا ينفعهم الإيمان لفوات شرطه كما لم ينفع فرعون لذلك ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [الأحزاب: ٩٢].

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّ لَمَاءَ ءَامِنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ولما كان هذا موضع أن يقال: إنما تطلب الآيات لما يرجى من تسبب الإيمان عنها، تسبب عنه أن يجاب بقوله تعالى: ﴿فلولا﴾ أي فهلا ﴿كانت قرية﴾ أي واحدة من قرى الأمم الماضية التي أهلكتها ﴿آمنت﴾ أي آمن قومها عند إتيان الآيات أو عند رؤية أسباب العذاب ﴿فنفعها﴾ أي فتسبب عن إيمانها ذلك أنه نفعها - ﴿إيمانها﴾ ولما

كان معنى «لولا» النفي، كان التقدير: لكن لم تؤمن قرية منهم إلا عند صدم العذاب كما فعل فرعون، لو آمن عند رؤية البحر على حال الفلق أو عند توسطه وقبل انسيابه عليه قُبِل، ولكنه ما آمن إلا بعد انهماره ومسه. وذلك حين لا ينفع لفوات شرطه من الإيمان بالغيب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنهم آمنوا عند المخايل وقت بقاء التكليف فنفعهم ذلك فإنهم ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ ودل على أنه قد كان أظلمهم بقوله: ﴿كَشَفْنَا﴾ أي بعظمتنا ﴿عَنهِمْ﴾ أي حين إيمانهم، روي أنه لم يبق بينهم وبين العذاب إلا قدر ميل ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أي الذي كان يوجب لهم لو برك عليهم هوان الدارين ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فلم يأخذهم وقت رؤيتهم له ﴿وَمَتَّعْنَهُمْ﴾ أي تمتيعاً عظيماً ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهو انقضاء آجالهم مفرقة كل واحد منهم في وقته المضروب له، وما ذكرته في معنى الآية نقله القاضي أبو محمد إسحاق بن إبراهيم البستي في تفسيره المسند عن ابن أبي عمر قال: قال سفيان الثوري: ﴿فلولا كانت قرية آمنت﴾ قال: فلم تكن قرية آمنت، وهذا تفسير معنى الكلام، وأما «لولا» فهو بمعنى هلا، وهي على وجوه تحضيض وتأنيث، أي توبيخ، وهي هنا للتوبيخ. ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى «لولا»، ويلزم كلا من المعنيين النفي؛ والنفع: إيجاب اللذة بفعالها أو ما يؤدي إليها كالدواء الكريه المؤدي إلى اللذة؛ والخزي هو أن يفضح صاحبه، وهو وضع من القدر للغم الذي يلحق به، وأصله التعب.

ولما كان ما مضى ربما أوجب اعتقاد أن إيمان مثل أولئك محال جاءت هذه الآية في مقام الاحتراس منه مع البيان لأن حرص الرسول ﷺ على إيمانهم لا ينفع ومبالغته في إزالة الشبهات وتقرير الدلائل لا تفيد إلا بمشيئة الله تعالى لتوفيقهم وهدايتهم، ولو كان ذلك وحده كافياً لآمنوا بهذه السورة فإنها أزال شبهاتهم وبينت ضلالتهم وحققت بقصتي نوح وموسى عليهما السلام ضعفهم ووهن مدافعاتهم فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ أي إيمان الناس ﴿رَبِّكَ﴾ أي المحسن إليك بإقبال من أقبل لعلمه الخير فيه وإدبار من أدبر لعدم قابليته للخير ﴿لَأَمِنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الكفار.

ولما كان هذا ظاهراً في الكل، صرح به مؤكداً لأن المقام يقتضيه فقال: ﴿كَلِمَةً جَمِيعاً﴾ أي مجتمعين في آن واحد لا يختلفون في شيء منه، ولكن لم يشأ ذلك وأنت لحرصك على امتثال أوامري ووصيتي لك باللطف بخلقي الموافق لما جبلتك عليه من الخير تريد ذلك ﴿أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ﴾ أي الذين لم يرد الله إيمانهم مع ما طبعهم عليه من الاضطراب ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا﴾ أي كوناً جليلاً ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ أي راسخين في الإيمان، وإيلاء الاستفهام الاسم مقدماً على الفعل للإعلام بأن الفعل - وهو هنا الإكراه - ممكن من غير ذلك الاسم وهو هنا الله وحده القادر على تحويل الطباع فإن قدرته قاهرة لكل شيء

ومشيئته نافذة في كل شيء مع الدلالة على أن وقوع خلاف المشيئة مستحيل لا يمكن لغيره تعالى بإكراه ولا غيره، والمشيئة معنى يكون به الفعل مراداً أخذت من الشيء، والمراد بالآية تخفيف ما يلحق النبي ﷺ من التحسر للحرص على إيمانهم ﴿وما كان﴾ أي وما ينبغي ولا يتأتى ﴿لنفس﴾ أي واحدة فما فوقها ﴿أن تؤمن﴾ أي يقع منها إيمان في وقت ما ﴿إلا بإذن الله﴾ أي بإرادة الملك الأعلى الذي له الخلق والأمر وتمكينه، فيجعل الثبات والطمأنينة - اللازمين للإيمان الذي هو أبعد شيء عن السحر - على الذين ينتفعون بقولهم فيلزمون معالي الأخلاق التي هي ثمرات للإيمان ﴿ويجعل الرجس﴾ أي الاضطراب والتزلزل الذي يلزمه التكذيب الذي هو أشبه شيء بالسحر لأنه تخييل ما لا حقيقة له والقدر والقباحة والغضب والعقاب الناشئ عنه .

ولما كان ما في هذه السورة من الدلائل قد وصل في البيان إلى حد لا يحتاج فيه إلى غير مجرد العقل قال: ﴿على الذين لا يعقلون﴾ أي لا يوجد لهم عقل، فهم لذلك لا ينتفعون بالآيات وهم يدعون أنهم أعقل الناس فيتساقطون في مساوىء الأخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ والنفس: خاصة الشيء التي لو بطل ما سواها لم يبطل ذلك الشيء، ونفسه وذاته واحد.

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ نَبِّئِي رَسُولَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكِّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٥﴾ .

ولما تقرر ما مضى من النهي عن الإصغاء إليهم في طلب الآيات، وختم بتعليق الأمر بمجرد المشيئة، كان كأنه قيل: فماذا يقال لهم إذا طلبوا؟ فقال: ﴿قل﴾ أي يا أشرف الخلق لهم غير مهتم بأمرهم ومنبهاً لهم على إبطال مذهب الجبر المتعلق أصحابه بنحو هذه الآية، لأن المشيئة مغيبة والعبد مأمور ببذل الجهد في الطاعة بما له من القدرة والاختيار.

ولما أمر بهذا الفكر فكان ربما ظن لأجله أن للإنسان قدرة مستقلة، نبه على مذهب أهل السنة القائل بالكسب الذي هو - كما قال الإمام علي رضي الله عنه - أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض، فقال معلماً أن من حكم بشقائه لا ينفعه شيء: ﴿انظروا﴾

أي بأبصاركم وبصائركم لتخرجوا بالانتفاع بالعقل عن عداد البهائم؛ قال الإمام: ولو أن الإنسان تفكر في كيفية حكمة الله تعالى في خلق جناح بعوضة لانقطع فكره قبل أن يصل إلى أول مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد، فلذلك أبهم في قوله: ﴿ماذا﴾ أي الذي ﴿في السموات والأرض﴾ أي من الآيات وواضح الدلالات التي أخرجتموها - بإفكم لها - عن عداد الآيات، وهي عند التأمل من أعظم خوارق العادات، وقال الإمام: فكأنه سبحانه نبه على القاعدة الكلية حتى ينتبه لأقسامها، وقال أبو حيان أخذاً من الإمام: السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاته، ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع والفوائد، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان وخصوصاً حال الإنسان - انتهى .

ولما كان ما فيها من الآيات في غاية الدلالة، نبه سبحانه على أن التوقف عن الإيمان بعد التنبيه على كيفية الاستدلال معاندة فقال: ﴿وما﴾ وهي نافية أو استفهامية ﴿تغني الآيت﴾ أي وإن كانت في غاية الوضوح ﴿والنذر﴾ أي والإنذارات أو الرسل المنذرون ﴿عن قوم﴾ أي وإن كانت فيهم قوة ﴿لا يؤمنون﴾ أي للحكم بشقائهم، فكان ذلك سبباً لتهديدهم بقوله: ﴿فهل ينتظرون﴾ أي بجميع قواهم في تكذيبهم للرسول وتخلفهم عن الإيمان ﴿إلا﴾ أي أياماً أي وقائع ﴿مثل أيام﴾ أي وقائع ﴿الذين خلوا﴾ ولما كان أهل الأيام الهائلة بعض من كان قبل، أتى بالجار فقال: ﴿من قبلهم﴾ أي من مكذبي الأمم وهم القبط وقوم نوح ومن طوي بينهما من الأمم، أي من حقوق الكلمة عليهم فنحل بهم بأسنا ثم ننجيكم لإيمانكم كما كنا نحل بأولئك إذا كذبوا رسلنا، ثم ننجي الرسل ومن آمن بهم حقاً علينا ذلك للعدل بين العباد.

ولما تقدمت الإشارة إلى أن الكلمة حقت على الكافرين بعدم الإيمان والرجس الذي هو العقاب، زاد في تهديدهم بالاعتراض بما سببه عن فعلهم فعل من ينتظر العذاب بقوله: ﴿قل فانظروا﴾ أي بجميع جهدكم ما ترونه واقعاً بكم بسبب ما تقرر عندكم مما كان يقع بالماضين في أيام الله، وزاد التحذير استثنافه قوله مؤكداً لما لهم من التكذيب: ﴿إني﴾ وأعلمهم بالنصفة بقوله: ﴿معكم من المنتظرين﴾ .

ولما كان التقدير: فإننا كنا في أيام الذين خلوا نوقع الرجس بالمكذبين، عطف عليه بياناً لما كان يفعل بالرسول وأتباعهم إذا أهلك الظالمين قوله: ﴿ثم ننجي﴾ أي تنجية عظيمة وننجيهم إنجاء عظيماً وجاء به مضارعاً حكاية للأحوال الماضية وتصويراً لها تحذيراً لهم من مثلها وإعلاماً بأنه كذلك يفعل بهذا الرسول ﷺ وأتباعه رضي الله

عنهم، وأشار بأداة التراخي إلى طول زمان الابتلاء وعظيم رتبة التنجية، وحذف مقابل الإنجاء لأن المقام بعد آية ﴿ألا إن أولياء الله﴾ ناظر إلى البشارة أكثر من النظر إلى النذارة ﴿رسلنا﴾ أي الذين عظمتهم من عظمتنا ﴿والذين آمنوا﴾ أي بالرسول وهم معهم في زمانهم ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان تشریفاً للرسول فإنهم بصدد الرسوخ بملازمتهم؛ ثم وصل بذلك تشریفاً للراسخين وترغيباً في مثل حالهم قوله: ﴿كذلك﴾ أي كما حق علينا إهلاك الكافرين هذا الإهلاك العظيم ﴿حق علينا﴾ أي بما أوجبناه على جنابنا الأعظم ﴿ننج المؤمنين﴾ أي العريقين في الإيمان ولو كانوا بعد موت الرسول تنجية عظيمة وتنجيهم إنجاء عظيماً، فالآية من الاحتباك لما أشارت إليه القراءتان بالتخفيف والتثقيل، أو يكون ذلك بني على سؤال من لعله يقول: هل حقوق النجاة مختص بالرسول ومن معهم؟ فقيل: لا، بل ﴿كذلك﴾ أي الحقوق ﴿حقاً علينا﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ننج المؤمنين﴾ في كل زمن وإن لم يكن بين ظهرانيهم رسول، لأن العلة الاتصاف بالإيمان الثابت، فيكون الكاف مبتدأ و«ننج» خبره؛ والنظر: طلب المعنى بالقلب من جهة الذكر كما يطلب إدراك المحسوس بالعين؛ والغنى: حصول ما ينافي الضر وصفة النقص، ونقيضه الحاجة؛ والنذر: جمع نذير، من النذارة وهي الإعلام بموضع المخافة ليقع به السلامة؛ والانتظار: الثبات لتوقع ما يكون من الحال؛ والمثل إن كان من الجنس فهو ما سد مسد غيره في الحس، وإن كان من غيره فالمراد ما كان فيه معنى يقرب به من غيره كقربه من جنسه كتشبيه أعمال الكافر بالسراب؛ والنجاة من النجوة وهي الارتفاع من الهلاك.

ولما تقدم الفطام عن الميل لمن يطلب الآيات، وكان طلبهم لها إنما هو على وجه الشك، وإن لم يكن على ذلك الوجه فإنه فعل الشاك غالباً وتقدمت أجوبة لهم، وختم ذلك بتهديدهم وبشارة المؤمنين الموجبة لثباتهم، ناسبه كل المناسبة أن اتبعت الأمر بجواب آخر دال على ثباته ﷺ وأنه مظهر دينه رضي من رضي وسخط من سخط، لأن البيان قد وصل إلى غايته في قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس﴾ أي الذين هم في حيز الاضطراب، لم ترقهم هممهم إلى رتبة الثبات ﴿إن كنتم﴾ أي كوناً هو كالجبلبة منغمسين ﴿في شك﴾ كائن ﴿من﴾ جهة ﴿ديني﴾ تطلبون لنزوله - بعد تكفل العقل بالدلالة عليه - إنزال الآيات، فأنا لست على شك من صحة ديني وبطلان دينكم فأعرضوه على عقولكم وانظروا ما فيه من الحكم مستحضرين ما لدينكم من الوهي الذي تقدم بيانه في قوله تعالى ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾ [يونس: ٥٩] ونحوه ﴿فلا أعبد﴾ أي الآن ولا في مستقبل الزمان ﴿الذين تعبدون﴾ أي الآن أو بعد الآن ﴿من﴾

دون الله ﴿أي الملك الأعظم لعدم قدرتهم على شيء من ضري، فلا تطمعوا في أنه يحصل لي شك بسبب حصول الشك لكم، فإذا لا أعبد غير الله أصلاً.

ولما كان سلب عبادته عن غيره ليس صريحاً في إثباتها له قال: ﴿ولكن أعبد الله﴾ أي الجامع لأوصاف الكمال عبادة مستمرة؛ ثم وصفه بما يوجب الحذر منه ويدل على كمال قدرته ﴿الذي يتوفكم﴾ بانتزاع أرواحكم التي لا شيء عندكم يعدلها. فلا تطمعون - عند إرادته لنزعها - في المحاولة لتوجيه دفاع عن ذلك. وفي هذا الوصف - مع ما فيه من الترهيب - إشارة إلى الدلالة على الإبداء والإعادة، فكأنه قيل: الذي أوجدكم من عدم كما أنتم به مقرون بعدمكم بعد هذا الإيجاد وأنتم صاغرون، فثبت قطعاً أنه قادر على إعادتكم بعد هذا الإعدام بطريق الأولى فاحذروه لتعبده كما أعبدته فإنه قد أمرني بذلك وأنتم تعرفون غائلة الملك إذا خولف، وقال ﴿إن كنتم في شك﴾ مع أنهم يصرحون ببطلان دينه، لأنهم في حكم الشاك لاضطرابهم عند ورود الآيات، أو لأن فيهم الشاك فغلب لأنه أقرب إلى الحيز؛ والشك: وقوف بين المعنى ونقيضه، وضده الاعتقاد فإنه قطع بصحة المعنى دون نقيضه، وعبر بـ ﴿من﴾ إشارة إلى أن فعلهم ذلك ابتدأ من الدين، ولو عبر بـ ﴿في﴾ لأفهم أنهم دخلوا فيه لأنهم في الشك والشك في الدين، والظرف لظرف الشيء ظرف لذلك الشيء، وترك العطف إشارة إلى أن كل جواب منها كاف على حياله.

ولما قرر ما هو الحقيق بطريق العقل، أتبعه بما ورد من النقل بتأييده وإيجابه بقوله: ﴿وأمرت﴾ أي بأمر جازم ماض ممن لا أمر لأحد معه، وعظم الأمور به بجعله عمدة الكلام بإقامته مقام الفاعل فقال: ﴿أن أكون﴾ أي دائماً كوناً جلياً، ولما كان السياق لما يحتمل الشك من الأمر الباطن، عبر بالإيمان الذي هو للقلب فقال: ﴿من المؤمنين﴾ أي الراسخين في هذا الوصف ﴿وأن أقم﴾ أي أيها الرسول ﴿وجهك﴾ أي كليتك على سبيل الإخلاص الذي لا شوب فيه ﴿للمدين﴾ فوصل أولاً كلمة «أن» بمعنى الأمر أي ﴿أن أكون﴾ دون «أكن» وثانياً بلفظه وهو ﴿أقم﴾ جمعاً بين الأسلوبين، وكلاهما بمعنى المصدر، وخص الثاني بذلك لطوله لأنه كالتفصيل للأول فالخطاب فيه أوكد وألد، وقوله: ﴿حنيفاً﴾ حال من فاعل «أقم» ومعناه: مسلماً مياً مع الدليل - كما أوضحت في البقرة، أي أجمع بين الإيمان بالقلب والإسلام بالجوارح ﴿ولا تكونن﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿من المشركين﴾ الذين هم على ضد صفة الإسلام من الجفاء والغلظة والجمود والقسوة.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ حَقٌّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ .

ولما نهاه عن الشرك، أكده بما هو كالتعليل له بما يلزمه من العبث بالخضوع لما لا ضر فيه ولا نفع بقوله تعالى: ﴿ولا تدع﴾ أي في رتبة من الرتب الكائنة ﴿من دون الله﴾ أي الذي بيده كل شيء ﴿ما لا ينفعك﴾ أي إن فعلت شيئاً من ذلك فأتاك بأسنا ﴿ولا يضرُّك﴾ أي إن أقتت على طاعتنا مع نصرنا ﴿فإن فعلت﴾ أي شيئاً مما نهيناك عنه ﴿فإنك إذا﴾ إذا دعوت ذلك الغير بسبب ذلك ﴿من الظالمين﴾ أي العريقين في وضع الدعوة في غير محلها لأن ما هو كذلك في غاية البعد عن منصب الإلهية؛ ثم قال تعالى عاطفاً على قوله ﴿فإن فعلت﴾: ﴿وإن يمسسك الله﴾ أي الذي لا راد لأمره ﴿بضر﴾ أي أضر كان على أي وجه كان وإن كان ظاهراً جداً بما أنبأ عنه الإظهار ﴿فلا كاشف له﴾ أي أصلاً بوجه من الوجوه ﴿إلا هو﴾ لأنه أراد ما لا يكون غيره فلا ترج سواه في أن يبذله بخير، وعبر بالمس لأنه أخوف ﴿وإن يردك﴾ أي مطلق إرادة ﴿بخير فلا﴾ أي أصابك لا محالة فإنه لا ﴿رَاد﴾ ونبه على أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بأن وضع مكان الضمير قوله: ﴿لفضله﴾ أي عمن يريد به كما يفعل بعض العاتين من أتباع ملوك الدنيا في رد بعض ما يريدون، بل هو بحيث لا ينطق أحد إلا بإذنه فلا تخش غيره، فالآية من الاحتباك: ذكر المس أولاً دليلاً على إرادته ثانياً، والإرادة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً، ولم يستثن في الإرادة كما استثنى في الكشف لأن دفع المراد محال، وعبر بالإرادة في الخير وبالمرس في الضير تنبيهاً على أنه ﷺ مراد بالخير بالذات وبالضر بالعرض تطبيياً لقلبه لما تكرر في هذه السورة من الإخبار بإحقاق العذاب على الفاسقين والإيتاس من الظالمين، فلما تقرر ذلك حسن موقع قوله مبيناً لحال ذلك الفضل: ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي بذلك الفضل أو بالذي تقدم من الخير والضير ﴿من يشاء﴾ أي كائناً من كان من أدنى وأعلى، وبين العلة في كونهم مقهورين بقوله: ﴿من عباده﴾ وهذا كله إشارة إلى أن ما أوجب الإعراض عن معبوداتهم بانسلاله عنها أوجب الإقبال عليه بثبوته له واختصاصه به، وختم الآية بقوله: ﴿وهو الغفور﴾ أي البليغ الستر للذنوب ﴿الرحيم﴾ أي البالغ في الإكرام إشارة إلى أن إصابته بالخير لا يمكن أن يكون إلا فضلاً منه بعد الستر للذنوب والرحمة للضعف، فهو الحقيق بأن يعبد؛ والمس: اجتماع

التباين من غير نقص، ونظيره المطابقة، والمجامعة نقيضها المباينة؛ والكشف: رفع الستار، جعل الضر كأنه مانع من إدراك الإنسان وساتر له.

ولما كثرت في هذه السورة الأوامر والنواهي والأجوبة بسبب ما يقترحونه على وجه التعنت، وختم بأن من دعا غيره كان راسخاً في الظلم لا مجير له منه، ختم ذلك بجواب معلم بأن فائدة الطاعة ليست راجعة إلا إليهم، وضرر النفور ليس عائداً إلا عليهم فقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس﴾ أي غاية كل من له قابلية التحرك والاضطراب ﴿قد جاءكم الحق﴾ أي الكامل بهذا الرسول ﷺ وهذا الكتاب، وذلكم خير عظيم أصابكم الله به، وزاد الرغبة فيه بقوله: ﴿من ربكم﴾ أي المحسن إليكم ﴿فمن﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه من ﴿اهتدى﴾ أي آمن بمحمد ﷺ وعمل بما في الكتاب ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي لأنه تبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فأنقذ نفسه من النار وأوجب لها الجنة ﴿ومن ضل﴾ أي كفر بهما أو بشيء منهما ﴿فإنما يضل عليها﴾ لأنه ترك الباقي وتمسك بما ليس في يده منه شيء لأنه فإن فقد غر نفسه ﴿وما أنا﴾ ولما كان السياق لنفي تصرفه فيهم وأن ذلك إنما هو إلى الله تعالى، كان تقديم ضميرهم أهم فقال: ﴿عليكم بوكيل﴾ فيطلب مني حفظكم مما يؤدي إلى الهلاك ومنعه عنكم كما يطلب من الوكيل.

ولما كان أكثر ذلك وعظماً لهم وتذكيراً ختمه بأمره ﷺ بما يفعله في خاصة نفسه أجابوا أو لمن يجيبوا، فقال عطفاً على قوله ﴿قل يا أيها الناس﴾: ﴿واتبع﴾ أي بجميع جهدك ﴿ما يوحى إليك﴾ وبناه للمفعول لأن ذلك كان بعد أن تقررت عصمته ﷺ وعلم أن كل ما يأتيه من عند الله، فكان ذلك أمكن في أمره باتباع كل ما يأتيه منه سبحانه وفي الإيدان بأنه لا ينطق عن الهوى ﴿واصبر﴾ في تبليغ الرسالة على ما أصابك في ذلك من عظيم الضرر وبلغ الخطر من ضلال من لم يهتد وإعراضه وجفوته وأذاه ﴿حتى يحكم الله﴾ أي الملك الأعظم بين من ضل من أمتك ومن اهتدى ﴿وهو﴾ أي وحده ﴿خير الحكمين﴾ لأنه يوقع الحكم في أولى مواقعه وأحقها وأحسنها وأعدلها، وهو المطلع على السرائر فاعمل أنت بما تؤمر به ويشر وأنذر وأخبر وادع إلى الله بجميع ما أمرك به واترك المدعويين حتى يأمرك فيهم بأمره؛ قال الزمخشري: وروي أنها لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: إنكم ستجدون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني^(١) وتبعه على ذلك أبو حيان وغيره، فإن صح فالسر فيه - والله أعلم - أنه لما

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٦٣ و٣٧٩٤ و٢٣٧٦ والنسائي في الكبرى ٨٣٣٥ وابن حبان ٧٢٧٥ والطيالسي ١٩٦٩ وأبو يعلى ٣٦٤٩ والحاكم ٧٩/٤ وأحمد ٢٢٤/٣ و١١١ و١٨٢ و١٧١ من حديث أنس.

أعلمت هذه الآية أن من اتبع الوحي ابتلي بما ينبغي الصبر عليه وأفهمت أن من كان له أشد اتباعاً كان أشد بلاء، وكان الأنصار رضي الله عنهم أجمعين أحق بهذا الوصف من غيرهم من حيث إنهم كانوا أول قبيلة جمعها الإيمان ومن حيث كانوا له أسهل قياداً وألين عريكة مع كونهم لم يتقدم لهم عشرة بالنبي ﷺ ولا خبرة بأحواله توجب لهم من اتباعه ما يوجب لمن كان من بني عمه قريش يخالطه ويأنس به ويرى منه معالي الأخلاق وكريم الشمائل ما يوفر داعيته على اتباعه، فلما كان ذلك كذلك، خص النبي ﷺ الأنصار رضي الله عنهم لهذا الأمر، فتفضيلهم في ذلك من الجهتين المذكورتين فلا يتوهم تفضيلهم على المهاجرين بل المهاجرون أفضل لأنهم جمعوا إلى النصره الهجرة مع أن أكثرهم له من قرب النسب من رسول الله ﷺ والسبق في الإسلام حظ وافر. هذا ما ظهر لي من مناسبه على تقدير الصحة. والذي في الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أراد أن يقطع للأنصار من البحرين فقالت الأنصار: حتى تقطع لإخواننا من المهاجرين مثل الذي تقطع لنا، وقال: سترون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني^(١) فهذا فيه أن السبب حرصهم على الإنصاف وهو يدل على أن المنصف يقل إنصاف الناس له وهو أمر مستقرى: والوحي: إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء. وهو هنا ما يجيء به الملك إلى النبي عليهما السلام عن الله تعالى فيلقيه إليه على اختصاصه به من غير أن يرى ذلك سواه من الناس؛ والصبر: تجرع مرارة الامتناع من المشتبه إلى الوقت الذي ينبغي فيه تعاطيه ويعين عليه العلم بعاقبته وكثرة الفكر في الخبر الذي ينال به، واعتياد الصبر في خصلة يسهل الصبر في خصلة أخرى لأن الخير يدعو إلى الخير فتمكن الإنسان في خصلة يصير له ملكة تدعوه إلى ماشاكلها، وقد ختم سبحانه السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب والإشارة إلى الإرشاد لما ينفع من ثمرة إنزاله وهو العمل بما دل عليه أو أشار إليه إلى أن ينجلي الحكيم الذي انزله للحكم في الدنيا أو في الآخرة بما لا مرد له مما برزت به مواعيده الصادقة في كلماته التامة، وهذا لعينه هو أول التي بعدها، فكان ختم هذه السورة وسطاً بين أولها وأول التي تليها، ففيه رد المقطع على المطلع وتبع لما استتبع والله الموفق.

(١) تقدم تخريجه في الذي قبله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود

مكية - آياتها مائة وثلاث وعشرون

﴿الرَّ كُنْتُ أَحْكَمْتَ أَيْتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي
لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَنِّعْكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ .

مقصودها وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل في حالتي البشارة والنذارة المقتضي ذلك لمنزله سبحانه وضع كل شيء في أتم محاله وإنفاذه مهما أريد الموجب للقدرة على كل شيء، وأنسب ما فيها لهذا المقصد ما ذكر في سياق قصة هود عليه السلام من أحكام البشارة والنذارة بالعاجل والأجل والتصريح بالجزم بالمعالجة بالمبادرة الناظر إلى أعظم مدارات السورة ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ والعناية بكل دابة والقدرة على كل شيء من البعث وغيره المقتضي للعلم بكل معلوم اللازم منه التفرد بالملك . وسيأتي في الأحقاف وجه اختصاص كل منهما باسمهما ﴿بسم الله﴾ أي الذي له تمام العلم وكمال الحكمة وجميع القدرة ﴿الرحمن﴾ لجمع خلقه بعموم البشارة والنذارة ﴿الرحيم﴾ * لأهل ولايته بالحفظ في سلوك سبيله ﴿الر﴾ .

لما ختمت السورة التي قبلها - كما ترى - بالحث على اتباع الكتاب ولزومه والصبر على ما يتعقب ذلك من مرائر الضير المؤدية إلى مفاوز الخير اعتماداً على المتصف بالجلال والكبرياء والكمال . ابتدئت هذه بوصفه بما يرغب فيه، فقال بعد الإشارة إلى إعادة القرع بالتحدي على ما سلف في البقرة: ﴿كتب﴾ أي عظيم جامع لكل خير، ثم وصفه بقوله: ﴿أحكمت﴾ بناء للمفعول بياناً لأن إحكامه أمر قد فرغ منه على أيسر وجه عنه سبحانه وأتقن إتقاناً لا مزيد عليه ﴿أيته﴾ أي أتقنت إتقاناً لا نقص معه فلا ينقصها الذي أنزلها بنسخها كلها بكتاب آخر ولا غيره، ولا يستطيع غيره نقص شيء منها ولا الطعن في شيء من بلاغتها أو فصاحتها بشيء يقبل، والمراد بـ ﴿محكمت﴾ في آل عمران عدم التشابه .

ولما كان للتفصيل رتبة هي في غاية العظمة، أتى بأداة التراخي فقال: ﴿ثم﴾ أي

وبعد هذه الرتبة العالية التي لم يشاركه في مجموعها كتاب جعلت له رتبة أعلى منها جداً بحيث لم يشاركه في شيء منها كتاب وذلك أنه ﴿فصلت﴾ أي جعلت لها - مع كونها مفصلة إلى حلال وحرام وقصص وأمثال - فواصل ونهايات تكون بها مفارقة لما بعدها وما قبلها، يفهم منها علوم جمة ومعارف مهمة وإشارات إلى أحوال عالية، وموارد عذبة صافية، ومقامات من كل علة شافية، كما تفصل القلائد بالفرائد، وهذا التفصيل لم يشاركه في شيء منه شيء من الكتب السالفة، بل هي مدمجة إدماجاً لا فواصل لها كما يعرف ذلك من طالعها، ويكفي في معرفة ذلك ما سقته منها في تضاعيف هذا الكتاب، وما أنسب ختام هذه الآية للإحكام والتفصيل بقوله: ﴿من لدن﴾ أي نزلت آياته محكمة مفصلة حال كونها مبتدئة من حضرة هي أغرب الحضرات الكائنة من إله ﴿حكيم خبير﴾ منتهية إليك وأنت أعلى الناس في كل وصف فلذلك لا يلحق إحكامها ولا تفصيلها، أرسلناك به قائلاً: ﴿ألا تعبدوا﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿إلا الله﴾ أي الإله الأعظم.

ولما كان هذا معظم ما أرسل به ﷺ ومداره، استأنف الإخبار بأنه أرسله سبحانه مؤكداً له لأجل إنكارهم فقال: ﴿إنني﴾ ولما كان إرساله ﷺ لأجل رحمة العالمين، قدم ضميرهم فقال: ﴿لكم منه﴾ أي خاصة، ثم أجمل القرآن كله في وصفه ﷺ بقوله: مقدماً ما هو أنسب لختام التي قبلها بالصبر: ﴿نذير وبشير﴾ كامل في كل من الوصفين غاية الكمال، وهذا التقدير يرشد إليه قوله تعالى أول التي قبلها ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ [يونس: ٢] مع إيضاحه لما عطف عليه قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه أن﴾ [هود: ٢٥] عطفناه عليه، وإظهاره لفائدة عطفه كما سيأتي إن شاء الله تعالى، ويرجح أن «لا» ناهية جازمة لـ ﴿تعبدوا﴾ عطف ﴿أن استغفروا﴾ عليه، فقد ظهر من تلويح هذا وتصريحه وتصريح ما في بقية السورة أن مقصودها وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل بما يعجز الخلق لأنه من عند من هو شامل العلم كامل القدرة فهو بالغ الحكمة يعيد الخلق للجزاء كما بدأهم للعمل فوجب إفراده بالعبادة وأن يمثل جميع أمره، ولا يترك شيء منه رجاء إقبال أحد ولا خوف إدباره، ولا يخشى غيره. ولا يركن إلى سواه، على ذلك مضى جميع النبيين ودرج سائر المرسلين ﷺ أجمعين.

ولما تقدم أنه نذير وبشير. أتبع ذلك بما يشمل الأمرين بقوله عطفاً على ﴿ألا تعبدوا﴾ مشيراً إلى أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره: ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ أي اطلبوا مع الإخلاص في العبادة أن يغفر لكم المحسن إليكم ما فرطتم فيه؛ وأشار بأداة التراخي إلى علو رتبة التوبة وأن لا سبيل إلى طلب الغفران إلا بها فقال: ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي ارجعوا بالظاهر والباطن رجوعاً لا رجعة فيه وإن كان المراد بها الدوام فجليل

رتبته غير خفي ﴿يمتعكم﴾ أي يمد في تليذكم بالعيش مداً، من متع النهار: ارتفع، والضحي: بلغ غايته، وأمتعته الله بكذا: أبقاه وأنشأه إلى أن يبلغ شبابه؛ ولما، كان التمتع - وهو المتاع البالغ فيه حتى لا يكون فيه كدر - لا يكون إلا في الجنة فلذلك جعل المصدر ﴿متاعاً﴾ وأنه وضع موضع «تمتيعاً»، هذا المصدر ووصفه بقوله: ﴿حسناً﴾ ليدل على أنه أنهى ما يليق بهذه الدار، ولقد كان ما أوتيته الصحابة رضي الله عنهم في زمن عمر رضي الله عنه من الظفر بالإهداء وسعة الدنيا ورغد العيش كذلك ﴿إلى﴾ أي ممتداً إلى ﴿أجل مسمى﴾ أي في علمه إما بالموت لكل واحد أو بانقضاء ما ضربه من الأجل للنعمة التي أشار إليها ﴿ويؤت كل ذي فضل﴾ أي عمل فاضل ﴿فضله﴾ أي جزاء ما قصد بعمله على وجه التفضيل منه سبحانه فإنه لا يجب لأحد عليه شيء، وهو مع ذلك على حسب التفضيل: الحسنة بعشرة أمثالها؛ قال ابن مسعود: وهلك من غلبت آحاده عشراته.

ولما انقضى التبشير مجزوماً به، أتبعه التحذير مخوفاً منه لطفاً بالعباد واستعطافاً لهم فقال: ﴿وإن تولوا﴾ أي تكلفوا أنفسكم ضد ما طبعها الله عليه من سلامة الفطرة وسهولة الانقياد من الإعراض ولو أدنى درجاته بما أشار إليه حذف التاء ﴿فإني أخاف عليكم﴾ أي والعاقل من أبعد عن المخاوف ﴿عذاب يوم كبير﴾ أي لكبر ما فيه من العذاب ممن قدر على إثباتكم، وخص اسم الرب تذكيراً بما له من النعم في الإيجاد والإنشاء والتربية؛ ولما كان الاستغفار - وهو طلب الغفران - مطلوباً في نفسه لكنه لا يعتبر إلا إذا قرن بالتوبة، عطف عليه بـ ﴿ثم﴾ إشارة إلى عظيم رتبته وعلى منزلتها وإن كان المراد بها الدوام عليها فجليل رتبته غير خفي، وفي التعبير عن العمل بالفضل إشارة إلى أنه لم يقع التكليف إلا بما في الوسع مع أنه من معالي الأخلاق، لأن الفضل في الأصل ما فضل عن الإنسان وتعانيه من كريم الشرائع، وما كان كذلك فهو في الذروة من الأحكام، لأنه منع الفعل من الفساد؛ والحكيم من الحكمة وهي العلم بما يجمع عليه مما يمنع الفعل من الفساد والنقض، وبها يميز الحسن من القبيح والفاقد من الصحيح، وقد أشارت الآية إلى أن الاستغفار والتوبة سبب السعة ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ [المائدة: 66] وأن الإعراض سبب الضيق، كما قال ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه» ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ إشارة إلى ثواب الآخرة، فالتوبة سبب طيب العيش في الدنيا والآخرة.

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير في كتابه في مناسبة هذه السورة للتي قبلها: ولما كانت سورة يونس عليه السلام قد تضمنت - من أي التنبيه والتحريك للفطر ومن العظات والتخويف والتهديد والترهيب والترغيب وتقريع المشركين والجاحدين والقطع بهم

والإعلام بالجريان على حكم السوابق ووجوب التفويض والتسليم - ما لم تشتمل على مثله سورة لتكرر هذه الأغراض فيها، وسبب تكرر ذلك فيها - والله أعلم - أنها أعقبت بها السبع الطوال، وقد مر التنبيه على أن سورة الأنعام بها وقع استيفاء بيان حال المتنكبين عن الصراط المستقيم على اختلاط أحوالهم، ثم استوفت سورة الأنعام ما وقعت الإحالة عليه من أحوال الأمم السالفة كما تقدم وبسط ما أجمل من أمرهم، ثم اتبع ذلك بخطاب المستجيبين لرسول الله ﷺ وحذروا وأنذروا، وكشف عن حال من تلبس بهم من عدوهم من المنافقين، وتم المقصود من هذا في سورتي الأنفال وبراءة، ثم عاد الخطاب إلى طريقة الدعاء إلى الله والتحذير من عذابه بعد بسط ما تقدم، فكان مظنة تأكيد التخويف والترهيب لإتيان ذلك بعد بسط حال وإيضاح أدلة، فلماذا كانت سورة يونس مضمنة من هذا ما لم يضمن غيرها، ألا ترى افتتاحها بقوله: ﴿إِنْ رَبِّكُمْ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣] الآيات. ومناسبة هذا الافتتاح دعاء الخلق إلى الله في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ثم قد نبهوا هنا كما نبهوا هناك فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بسورة مثله﴾ [يونس: ٣٨] ثم تأكدت المواعظ والزواجر والإشارات إلى أحوال المكذبين والمعاندين، فمن التنبيه ﴿إِنْ رَبِّكُمْ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣]، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ﴾ [سورة يونس، آية: ٥]، ﴿إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سورة يونس، آية: ٦]، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُ﴾ [يونس: ٣٤]، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [سورة يونس، آية: ٣٥]، ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة يونس، آية: ١٠١] - إلى غير هذا، وعلى هذا السنن تكررت العظات والأغراض المشار إليها في هذه السورة إلى قوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [سورة يونس، آية: ١٠٨] فحصل من سورة الأعراف والأنفال وبراءة ويونس تفصيل ما كان أجمل فيما تقدمها كما حصل مما تقدم تفصيل أحوال السالكين والمتنكبين، فلما تقرر هذا كله أتبع المجموع بقوله: ﴿كُتِبَ أَحْكَمَتْ آيَتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وتأمل مناسبة الإتيان بهذين الاسمين الكريمين وهما ﴿الحكيم الخبير﴾ ثم تأمل تلاؤم صدر السورة بقوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [سورة يونس، آية: ١٠٨] وقد كان تقدم قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧] فأتبع قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بقوله في صدر سورة هود ﴿كُتِبَ أَحْكَمَتْ آيَتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ﴾ [هود: ٤١] فكأنه في معرض بيان الحق والموعظة، وإذا كانت محكمة مفصلة فحق لها أن تكون شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وحق توبيخهم في قوله تعالى: ﴿بَلْ

كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴿ [يونس: ٣٩] والعجب في عمههم مع إحكامه وتفصيله ولكن ﴿الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون﴾ [يونس: ٩٦] وتأمل قوله سبحانه آخر هذه السورة ﴿وكلاً نقص عليك من أنبؤى الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ [هود: ١٢٠]، و﴿جاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ [هود: ١٢٠] فكل الكتاب حق وموعظة وذكرى، وإنما الإشارة - والله أعلم - بما أراد إلى ما تقرر بالإيماء إليه من كمال بيان الصراط المستقيم وملتزمات متبعيه أخذاً وتركاً، وذكر أحوال المتنكبين على شتى طرقهم، واختلاف أهوائهم وغاياتهم وشُرهم إبليس فإنه متبعهم والقائل لجميعهم في إخبار الله تعالى ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقد بسط من أمره وقصته في البقرة والأعراف ما يسر على المؤمنين الحذر منه وعرفهم به وذكر اليهود والنصارى والمشركون والصابئون والمنافقون وغيرهم، وفصل مرتكب كل فريق منهم كما استوعب ذكر أهل الصراط المستقيم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وفصل أحوالهم ابتداء وانتهاء والتزاماً وتركاً ما أوضح طريقهم، وعين حزبهم وفريقهم ﴿أولئك الذين هدى الله﴾ [الأنعام: ٩٠] وذكر أحوال الأمم مع أنبيائهم وأخذ كل من الأمم بذنبه مفصلاً، وذكر ابتداء الخلق في قصة آدم عليه السلام وحال الملائكة في التسليم والإذعان وذكر فريق الجن من مؤمن وكافر وأمر الآخرة وانتهاء حال الخلائق واستقرارهم الآخروي وتكرير دعاء الخلق إلى الله تعالى طمعاً فيه ورحمة وإعلام الخلق بما هو عليه سبحانه وما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنى، ونبه العباد على الاعتبار وعلموا طرق الاستدلال ورغبوا ورهبوا وبشروا وأنذروا وأعلموا بافتقار المخلوقات بجملتها إليه سبحانه كما هو المتفرد بخلقهم إلى ما تخلل ذلك مما يعجز الخلائق عن حصره والإحاطة به ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ [الأحزاب: ٤] فلما تقدم هذا كله في السبع الطوال وما تلاها. أعقب ذلك بقوله: ﴿كتب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [هود: ١] ثم أتبع هذا بالإيماء إلى فصول ثلاثة عليها مدار آي الكتب، وهي فصل الإلهية، وفصل الرسالة، وفصل التكليف، أما الأول فأشار إليه قوله: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ [هود: ٢] وأما فصل الرسالة فأشار إليه قوله سبحانه: ﴿إنني لكم نذير وبشير﴾ [هود: ٢] وأما فصل التكليف فأشار إليه قوله سبحانه ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ [هود: ٣]. وهذه الفصول الثلاثة هي التي تدور عليها آي القرآن وعليها مدار السورة الكريمة، فلما حصل استيفاء ذلك كله فيما تقدم ولم يبق وجه شبهة للمعاندين ولا تعلق للجاحد واتضح الحق وبان قال سبحانه وتعالى: ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ [هود: ١٢٠] إشارة إلى كمال المقصود وبيان

المطلوب واستيفاء التعريف بوضوح الطريق وقد وضح من هذا تلاء هذه السورة الكريمة لما تقدمها، ومما يشهد لهذا - والله أعلم - قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ [هود: ١٧] وقوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا﴾ [هود: ١١٢] فقد وضح طريقك وفاز بالفلاح حزبك وفريقك ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ [هود: ١١٣] فقد عرفتم سبيلهم ومصيرهم فقد بان طريق الحق، وكيف ينكب من جزم سلوكه من الخلق! ونظيره قوله سبحانه ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ [هود: ١٢٠] عقب ما ذكر سبحانه ﴿لمن الملك اليوم﴾ [غافر: ١٦] وقوله: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ [الانفطار: ١٩] فتأمل ذلك والله المستعان - انتهى .

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَبْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَفْشِقُونَ بُيُوتَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾﴾

ولما خوف المنذرون باليوم الكبير كانوا كأنهم قالوا: ما هذا اليوم؟ فكان الجواب: يوم يرجعون إليه، ولما كانوا ربما حملوا الرجوع على مجرد الموت والصيرورة تراباً، نبههم على أنه بغير المعنى الذي يتوهمونه بل بمعنى إعادتهم كما كانوا فقال: ﴿إلى الله﴾ أي الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً وحده ﴿مرجعكم﴾ أي رجوعكم ووقته ومكانه لأجل الحساب لا إلى التراب ولا غيره، وهو بكل شيء عليم، ومنه بدوكم لأخذ الزاد للمعاد، وجعل فاصلة الآية حكماً على المراد فقال: ﴿وهو﴾ أي وحده ﴿على كل شيء﴾ أي ممكن ﴿قدير﴾ أي بالغ القدرة لأنهم يقرون بقدرته على أشياء هي أعظم من الإعادة، فهو قادر على الإعادة كما قدر على البداء، فالآية من الاحتباك: ذكر المرجع أولاً دليلاً على المبدئ ثانياً، وتمام القدرة ثانياً دليلاً على تمام العلم أولاً لأنهما متلازمان.

ولما تقدم من التخويف والإطماع ما هو مظنة لإقبالهم ورهبهم على التولي بخصوصه، فكان موضع أن يقال: هل أقبلوا؟ ف قيل: لا قال مبيناً أن التولي باطناً كالتولي ظاهراً لأن الباطن هو العمدة، مؤكداً لأنه أمر لا يكاد أن يصدق، والتأكيد أقعد في تبكيتهم: ﴿ألا إنهم﴾ أي الكفار المعاندين ﴿يشنون صدورهم﴾ أي يطوونها وينحرفون عن الحق على غل من غير إقبال لأن من أقبل على الشيء أقبل عليه بصدوره ﴿ليستخفوا منه﴾ أي يريدون أن يوجدوا إخفاء سرهم على غاية ما يكون من أمره. فإن

كان مرادهم بالثني الاستتار من الله تعالى فالأمر في عود الضمير إليه سبحانه واضح، وإن كان من النبي ﷺ فالاستخفاء منه استخفاء ممن أرسله، ثم أعلم أن ذلك غير مغن عنهم لأنه يعلم سرهم وعلنهم في أخفى أحوالهم عندهم، وهو حين استغشائهم ثيابهم، فيغطون الوجوه التي تستقر عن بعض ما في القلوب للمتوسمين فقال: ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ أي يوجدون غشيانها أي تغطيتها لرؤوسهم، لاستخفاء كراهية لسماع كلام الله وأخبار رسوله ﷺ ﴿يعلم ما يسرون﴾ أي يوقعون إسراره في أي وقت كان ومن أي نوع كان من غير بطء لتدبر أو تأمل، ولما لم يكن بين علم السر والعلن ملازمة لاختصاص العلقن بما يكون لغيبه أو اختلاف بأصوات ولفظ أو اختلاف لغة ونحو ذلك قال تصريحاً: ﴿وما يعلنون﴾ أي يوقعون إعلانه لا تفاوت في علمه بين إسرار وإعلان، فلا وجه لاستخفائهم نفاقاً، فإن سوق نفاقهم غير نافق عنده سبحانه. ثم علله بما هو أدق من ذلك كله مع شموله للنوعين فقال: ﴿إنه عليم﴾ أي بالغ العلم جداً ﴿بذات الصدور﴾ أي بضمائر قلوبهم التي في دواخل صدورهم التي يشنونها من قبل أن يقع لهم إضمارها، بل من قبل أن يخلقهم؛ وأصل الثني العطف، ومنه الاثنان - لعطف أحدهما على الآخر، والثناء - لعطف المناقب في المدح. ولهذا لما قال العبد في الفاتحة ﴿الرحمن الرحيم﴾ بعد الحمد قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي - كما في حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»^(١) والاستثناء - لعطف الثاني على الأول بالاستخراج منه؛ والاستخفاء: طلب خفاء الشيء: ثم أتبع ذلك بما يدل على شمول العلم والقدرة معاً فقال: ﴿وما﴾ وأغرق في العموم بقوله: ﴿من دابة﴾ ودل على أن الانتفاع بالأموال مخصوص بأهل العالم السفلي بقوله: ﴿في الأرض﴾ أي صغرت أو كبرت ﴿إلا على الله﴾ أي الملك الأعلى الذي، له الإحاطة وحده لا على غيره ﴿ورزقها﴾ أي قوتها وما تنتفع وتعيش به بمقتضى ما أوجبه على نفسه، تحقيقاً لوصوله وحملاً على التوكل فيه، لأن الإفضال على كل نفس بما لا تعيش إلا به ولا يلائمها إلا هو مدة حياتها أدق مما مضى في العلم مع تضمنه لتمام القدرة، والآية مع ذلك ناظرة إلى ترغيب آية ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ فالمراد: أخلصوا العبادة له ولا تفتروا عن عبادته للاشتغال بالرزق فإنه ضمنه لكم وهو عالم بكل نفس فلا تخشوا من أنه ينسى أحداً، وقال: ﴿وفي الأرض﴾ ليعم ما يمشي على وجهها وما في أطباقها من الديدان ونحوها مما لا يعلمه إلا هو، لقد شاهدت داخل حصاة من شاطئ بحر قبرس شديدة الصلابة كأنها العقيق الأبيض دودة عندها ما تأكل، وأخبرني الفاضل عز الدين محمد بن أحمد

(١) تقدم في سورة الفاتحة.

التكروري الكتبي أنه شاهد غير مرة في دواخل حجارة تقطع من جبل مصر الدود عنده ما يأكل من الحشيش الأخضر وما يشرب من الماء؛ ونبه بقوله: ﴿ويعلم مستقرها﴾ أي مكانها الذي تستقر فيه ﴿ومستودعها﴾ أي موضعها الذي تودع فيه قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة أو بعده من قبر أو فلاة أو غير ذلك على ما يحيط به علمه من تفاصيل السكنات والحركات ما كان منها وما يكون من كل ذلك مما يحير الفكر ويدهش الألباب، ثم جعل فاصلة الآية ما هو في غاية العظمة عند الحق وهو ﴿كل﴾ أي من ذلك ﴿في كتب مبين﴾ فإنه ليس كل ما يعلمه العبد يقدر على كتابته ولا كل ما يكتبه يكون مبيناً بحيث إنه كلما أراد الكشف منه وجد ما يريده، وإذا وجدته كان مفهوماً له؛ والدابة: الحي الذي من شأنه الدبيب؛ والمستقر: الموضع الذي يقر فيه الشيء، وهو قراره ومكانه الذي يأوي إليه؛ والمستودع: المعنى المجمعول في قراره كالولد الذي يكون في البطن والنطفة التي في الظهر، وقد جعل سبحانه في كتابة ما ذكر حكماً منها ما للملائكة فيه من العبرة عند المقابلة بما يكون من الأمور المكتوبة قبل وجودها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتِ إِيَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾ .

ولما كان خلق ما منه الرزق أعظم من خلق الرزق وتوزيعه في شمول العلم والقدرة معاً، تلاه بقوله: ﴿وهو﴾ أي وحده ﴿الذي خلق﴾ أي أوجد وقدر ﴿السموات والأرض﴾ وحده لم يشركه في ذلك أحد كما أنتم معترفون ﴿في ستة أيام﴾ ولما كان خلق العرش أعظم من ذلك كله فإن جميع السماوات والأرض بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة. وأعظم من ذلك أن يكون محمولاً على الماء الذي لا يمكن حمله في العادة إلا في وعاء ضابط محكم، تلاه بقوله: ﴿وكان﴾ أي قبل خلقه لذلك ﴿عرشه﴾ مستعلياً ﴿على الماء﴾ ولا يلزم من ذلك الملاصقة كما أن السماء على الأرض من غير ملاصقة. وقد علم من هذا السياق أنه كان قبل الأرض خلق فثبت أنه وما تحته محمولان بمحض القدرة من غير سبب آخر قريب أو بعيد، فثبت بذلك أن قدرته في درجات من العظمة لا تتناهى، وهذا زيادة تفصيل لما ذكر في سورة يونس عليه السلام من أمر العرش لأن هذه سورة التفصيل ونبه بقوله تعالى معلقاً بـ «خلق»: ﴿ليبلوكم﴾ أي أنه خلق ذلك كله لكم سكناً كاملاً بمهده وسقفه من أكله وشربه وكل ما تحتاجونه فيه وما يصلحكم وما يفسدكم ومكنكم من جميع ذلك والحكمة في خلق ذلك أنه يعاملكم معاملة المختبر،

ودل على شدة الاهتمام بذلك بسوقه مساق الاستفهام في قوله: ﴿أَيْكُمْ﴾ أي أيها العباد ﴿أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ على أنه فعل هذه الأفعال الهائلة لأجل هذه الأمور التي هم لها مستهينون وبها مستهزونون، وعلق فعل البلوى عن جملة الاستفهام لما فيه من معنى العلم لأنه طريق إليه، روى البخاري في التفسير عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك، وقال: يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغيض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وببده الميزان يخفض ويرفع^(١). وفي الآية حث على محاسن الأعمال والترقي دائماً في مراتب الكمال من العلم الذي هو عمل القلب والعمل الظاهر الذي هو وظيفة الأركان.

ولما ثبت - بيده الخلق الذي هم به معترفون - القدرة على إعادته، وثبت بالابتلاء أنه لا تتم الحكمة في خلق المكلفين إلا باعادتهم ليجازي كلاً من المحسن والمسيء بفعاله وأنهم ما خلقوا إلا لذلك. عجب من إنكارهم له وأكدته لذلك فقال: ﴿وَلَسَنَّا قُلْتُمْ﴾ أي لهؤلاء الذين ما خلقت هذا الخلق العظيم إلا لابتلائهم ﴿إِنكُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ أي موجودون، بعثكم ثابت قطعاً لا يد منه.

ولما كان زمن البعث بعض الزمن قال: ﴿مَنْ بَعْدَ الْمَوْتِ﴾ الذي هو غاية الابتداء ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أكدته دلالة على العلم بالعواقب علماً من أعلام النبوة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ﴾ أي ما ﴿هَذَا﴾ أي القول بالبعث ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي شيء مثل السحر تخييل باطل لا حقيقة له أو خداع يصرف الناس عن الانهماك في اللذات للدخول في طاعة الأمر.

ولما كان ما تقدم عنهم من الأفعال ومضى من الأقوال مظنة لمعاجلتهم بالأخذ، وكان الواقع أنه تعالى يعاملهم بالإمهال فضلاً منه وكرماً، حكى مقالته في مقابلة رحمته لهم فقال: ﴿وَلَسَنَّا أَخْرَانَا﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يفوتها شيء ﴿عَنْهُمْ﴾ أي الكفار ﴿العذاب﴾ أي المتوعد به ﴿إِلَى أُمَّةٍ﴾ أي مدة من الزمان ليس فيها كدر ﴿معدودة﴾ أي محصورة الأيام أي قصيرة معلومة عندنا حتى تعد الأنفاس ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ على سبيل التكرار ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي العذاب عن الوقوع استعجالاً له تكديماً واستهزاء، وهو تهديد لهم بأنه آتيهم عن قريب فليعتدوا لذلك.

ولما كان العاقل لا ينبغي أن يسأل عن مثل ذلك إلا بعد قدرته على الدفع،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٤ و ٥٣٥٢ و ٧٤١١ و ٧٤١٩ و ٧٤٩٦ وأحمد ٤٦٤/٢ مختصراً

كلاهما من حديث أبي هريرة.

أعرض عن جوابهم وذكر لهم أنهم عاجزون عن دفاعه عند إيقاعه إعلاماً بأنهم عكسوا في السؤال، وتحقيقاً لأن ما استهزؤوا به لاحق بهم لا محالة، فقال مؤكداً لشديد إنكارهم: ﴿ألا يوم﴾ وهو منصوب بخبر «ليس» الدال على جواز تقدم الخبر ﴿بآتيهم ليس﴾ أي العذاب ﴿مصرفاً عنهم﴾ أي بوجه من الوجوه؛ وقدم الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد فقال: ﴿وحاق بهم﴾ أي أدركهم إذ ذاك على سبيل الإحاطة ﴿ما كانوا﴾ أي بجبلاتهم وسيء طبائعهم، وقدم الظرف إشارة إلى شدة إقبالهم على الهزء به حتى كأنهم لا يهزؤون بغيره فقال: ﴿به﴾ ولما كان استعجالهم استهزاء، وضع موضع يستعجلون قوله: ﴿يستهزؤون﴾ أي يوجدون الهزء به إيجاداً عظيماً حتى كأنهم يطلبون ذلك.

﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَةً مِّنْهُ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّمَا لِيَتُوسَّ كَفُورًا ﴿٩﴾
 وَلَيْنَ أَذْقَنَّهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَّاءَ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا
 الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا
 يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا
 أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

ولما كان قولهم ذلك ناشئاً عن طبع الإنسان على الوقوف مع الحالة الراهنة والعمى عن الاستضاءة بنور العقل فيما يزيلها في العاقبة، بين ذلك ليعلم أن طبعه مناف لما تضمنه مقصود السورة من الأحكام الذي هو ثمرة العلم. ويعلم ذلك يعلم مقدار نعمته على من حفظه على ما فطره عليه من أحسن تقويم بقوله مؤكداً لأن كل أحد ينكر أن يكون طبعه كذلك: ﴿ولئن أذقنا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿الإنسان﴾ أي هذا النوع المستأنس بنفسه؛ ولما كان من أقيح الخلال استملاك المستعار. وكانت النعم عواري من الله يمنحها من شاء من عباده، قدم الصلة دليلاً على العارية فقال: ﴿منا رحمة﴾ أي نعمة فضلاً منا عليه لا بحوله ولا بقوته من جهة لا يبرجوها بما دلت عليه أداة الشك ومكانها من التلذذ بها تمكين الذائق من المذوق ﴿ثم نزعناها﴾ أي بما لنا من العظمة وإن كره ذلك ﴿منه﴾. أخذاً لحقنا ﴿إنه ليؤس﴾ أي شديد اليأس من أن يعود له مثلها ﴿كفوراً﴾ أي عظيم الستر لما سلفه له من الإكرام لأن شأنه ذلك وخلقته إلا من رحم ربك ﴿ولئن أذقته نعماء﴾ من فضلنا.

ولما كان استملاكه العارية طبعاً له، لا ينفك عنه إلا بمعونة شديدة من الله. دل عليه بما أفهم أنه لو كان طول عمره في الضر ثم نال حالة يرضاها عقب زمن الضر سواء

بادر إلى اعتقاد أنها هي الحالة الأصلية له وأنها لا تفارقه أصلاً ولا يشوبها نوع ضرر ولا يخالط صفوها شيء من كدر. فقال دالاً على اتصال زمن الضر بالقول بنزع الخافض من الظرف: ﴿بعد ضراء﴾ أي فقر شديد مضر ببدنه، ولم يسند المس إليه سبحانه كما فعل في النعماء تعليماً للأدب فقال: ﴿مسته﴾ أي بما كسبت يدها ﴿ليقولن﴾ مع قرب عهده بالضراء خفة وطيشاً ﴿ذهب السيئات﴾ أي كل ما يسوءني ﴿عني﴾ وقوله ﴿إنه﴾ الضمير فيه للإنسان، المعنى أن الإنسان. فهي كلية مشهورة بمستغرق، أي أن كل إنسان ﴿لفرح فخور﴾ أي خارج عن الحد في فرحه شديد الإفراط في فخره على غيره بكل نعمة تفضل الله عليه بها. لا يملك ضر نفسه ومنعها من ذلك فلذا اتصل بها قوله مستثناً من الإنسان المراد به اسم الجنس: ﴿إلا الذين صبروا﴾ في وقت الشدائد وزوال النعم رجاء لمولاهم وحسن ظن به بسبب إيمانهم الموجب لتقديهم بالشرع ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي من أقوال الشكر وأفعاله عند حلول النعم، فهم دائماً مشغولون بمولاهم شكراً وصبراً، وهم الذين أتم عليهم سبحانه نعمه، وخلقهم في أحسن تقويم. وهم أقل من القليل لعظيم جهادهم لنفوسهم فيما جبلت عليه من الحظوظ والشهوات وغيرها وشياطينهم.

ولما كان كأنه قيل: فما لهم لم يكونوا كذلك! أنتج السياق مدحهم فقال: ﴿أولئك﴾ أي العالو المراتب ﴿لهم مغفرة﴾ إذا وقعت منهم هفوة ﴿وأجر كبير﴾ على صبرهم وشكرهم؛ والذوق: تناول الشيء بالضم لإدراك الطعم كما أن الشم ملابسة الشيء الأنف لإدراك الرائحة؛ والنزع: رفع الشيء عن غيره مما كان مشابهاً له كالقلع والقشط؛ واليأس: القطع بأن الشيء لا يكون، وهو ضد الرجاء، ويؤوس: كثير اليأس، وهو ذم لأنه للجهل بسعة الرحمة الموجبة لقوة الأمل في كل ما يجوز في الحكمة فعله؛ والنعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه، كما أن الضراء مضرّة تظهر الحال بها، لأنها أخرجت مخرج الأحوال الظاهرة من حمراء وعوراء مع ما في مفهومها من المبالغة؛ والسيئة: ما يسوء من جهة نفور طبع أو عقل، وهي هنا المرض والفقر ونحوه؛ والفرح: انفتاح القلب بما يلتذ به؛ وعبرة البغوي: هو لذة في القلب بنيل المشتهى وهو أعظم من ملاذ الحواس؛ والفخر: التناول بتعديد المناقب؛ والصبر: حبس النفس عن المشتهى من المحارم ونحوها، والصبر على مر الحق يؤدي إلى الفوز في الآخرة مع ما فيه من جمال في الدنيا؛ والكبير واحد يقصر مقدار غيره عنه؛ والكثير: جمع يزيد على عدد غيره.

ولما استثنى سبحانه من الجارين مع الطغائشين في الهوى من تحلى برزاة

الصبر الناشئ عن وقار العلم المثمر لصالح العمل، وكان ﷺ رأس الصابرين، وكان ما مضى من أقوالهم وأفعالهم مثل قولهم ﴿ما يحبسهُ﴾ وتثنيهم صدورهم أسباباً لضيق صدره ﷺ، فربما كانت مظنة لرجائهم تركه ﷺ بعض ما يوحى إليه من عيب آلهتهم وتضليل آبائهم وتسفيه أحلامهم، وغير ذلك مما يشق عليهم طمعاً في إقبالهم أو خوفاً من إدمارهم فإنهم كانوا يقولون: ما نراه يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكرنا به من الشر، قال تعالى مسبباً عن ذلك ناهياً في صيغة الخبر: ﴿فلعلك تارك﴾ أي إشفاقاً أو طمعاً ﴿بعض ما﴾ ولما كان الموحى قد صار معلوماً لهم وإن نازعوا فيه بنى للمفعول قوله: ﴿يوحى إليك﴾ كالإنذار وتسفيه أحلام آبائهم ﴿وضائق به﴾ أي بذلك البعض ﴿صدرك﴾ مخافة ردهم له إذا بلغته لهم؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إن﴾ أي مخافة أو لأجل أن ﴿يقولوا﴾ تعنتاً ومغالبة إذ لو كانوا مسترشدين لكفتهم آية واحدة ﴿لولا﴾ أي هلا ولم لا ﴿أنزل عليه كنز﴾ يستغني به ويتفرغ لما يريد، وبنوه للمفعول لأن المقصود مطلق حصوله وكانوا يتهاونون بالقرآن لعلمهم أنه الآية العظمى فكانوا لا يعدونه آية عناداً ومكابرة ﴿أو جاء معه ملك﴾ أي ليؤيد كلامه وليشهد له، فكان النبي ﷺ يضيق صدره بمثل أقوالهم هذه ويثقل عليه أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه فحرکه الله بهذا لأداء الرسالة كائناً فيها ما كان، فكان المعنى: فإذا تقرر أن الإنسان مطبوع على نحو هذا من التقلبات، فلا تكن موضع رجائهم في أن تكون تاركاً ما يغيظهم مما تأمر به، بل كن من الصابرين؛ قال أهل السير: فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه إلا من عصمه الله؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: اثنتا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا.

ولما أفهم هذا السياق الإنكار لما يفتر عن الإنذار، كان كأنه قيل له: هذا الرجاء المرجو منك، والمقصود الأعظم من الرسالة النذارة لأنها هي الشاقة على النفوس، وأما الإشارة فكل من قام يقدر على إبلاغها فلذا قال: ﴿إنما أنت نذير﴾ فيلغهم ما أرسلت به فيقولون لك ما يقدره الله لهم فلا يهمنك فليس عليك إلا البلاغ وما أنت عليهم بوكيل تتوصل إلى ردهم إلى الطاعة بالقهر والغلبة بل الوكيل الله الفاعل لما يشاء ﴿والله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة.

ولما كان السياق لإحاطته سبحانه، قدم قوله: ﴿على كل شيء﴾ منهم ومن غيرهم ومن قبولهم وردهم ومن حفظك منهم ومن غيره ﴿وكيل﴾ فهو يدبر الأمور

على ما يعلمه من الحكم، فإنشاء جاء بما سألوا وإن لم يشأ لم يأت به ولا اعتراض عليه فتوكل عليه في كل أمر وإن صعب، ولعله اقتصر على النذارة لأن المقام يقتضيها من أجل أنهم أهل لها وأنها هي التي يطمعون في تركها بإطماعهم في المؤالفة بالإعراض عما يوجب المخالفة؛ والصدر: مسكن القلب، يشبه به رئيس القوم والعالي المجلس لشرف منزلته على غيره من الناس؛ والكنز: المدفون، وقد صار في الدين صفة ذم لكل مال لم يخرج منه الواجب من الزكاة وإن لم يكن مدفوناً، والآية من الاحتباك: نفي أولاً قدرته ﷺ على الإتيان بما سألوا دليلاً على قدرة مرسله على ذلك وغيره ثانياً. وأثبت الوكالة ثانياً دليلاً على نفيها أولاً.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهَرَفْنَا بِهَا لِابْخُسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

ولما كان ذوو الهمم العوال، لا يصوبون إلى الكنوز والأموال، وكان الملك إنما يراد لتطبيب النفس بثبيت الأمر. وكان فيما يشهد به إعجاز القرآن ببديع نظمه وباهر حكمه وحكمه وزاجر غرائبه ووافر علمه ما يغني عن ذلك، وكان في كل آية منه ما يبين للهمم سفاسف قدهم في الرسالة، كان موضع الإنكار له، فكان كأنه قيل: أيقولون ذلك تعنتاً منهم واقتراحاً وإعراضاً عن معجز القرآن فأعرض عنه فإنه لا يضر في وجه الدليل ﴿أم يقولون﴾ أي مكررين ﴿افتراء﴾ فكان ذلك موضع أن يقال: نعم، إنهم ليقولون ذلك فيقدحون في الدليل فماذا يقال لهم؟ فقيل: ﴿قل﴾ أي لهم على سبيل التنزل ﴿فأتوا﴾ يا معاشر العرب فإنكم مثلي في العربية واللسان والمولد والزمن وفيكم من يزيد عليّ بالكتابة والقراءة ومخالطة العلماء والتعلم من الحكماء ونظم الشعر واصطناع الخطب والنثر وتكلف الأمثال وكل ما يكسب الشرف والفخر ﴿بعشر سور﴾ أي قطع، كل قطعة منها تحيط بمعنى تام يستدل فيها عليه ﴿مثله﴾ أي تكون العشر مثل جميع القرآن في طوله وفي مثل احتوائه على أساليب البلاغة وأفانين العذوبة والامتانة والفحولة والرشاقة حال كونها ﴿مفتريت﴾ أي أنكم قد عجزتم عن الإتيان بسورة أي قطعة واحدة آية أو آيات من مثله فيما هو عليه من البلاغة والإخبار بالمغيبات والحكم والأحكام والوعد والوعيد والأمثال وادعيتكم مكابرة أنه مفترى فارغ عن الحكم فأتوا بعشر مثله في مجرد البلاغة غير ملزمين بحقائق المعاني وصحة المباني - ذكره البغوي عن المبرد، وقد مضى في البقرة عند ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ عن الجاحظ وغيره ما

يؤيده؛ قال أبو حيان: وشأن من يريد تعجيز شخص أن يطالبه أولاً بأن يفعل أمثلاً مما يفعل هو، ثم إذا تبين عجزه قال: افعل مثلاً واحداً - انتهى. فكانهم تحدوا أولاً بجميع القرآن في مثل قوله: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ [الطور: ٣٤] أي في التحتم والتطبيق على الوقائع وما يحدث ويتجدد شيئاً في إثر شيء ثم قطع بعد عجزهم بدوام عجزهم في قوله تعالى: ﴿قل لو اجتمعت الإنس والجن﴾ [الإسراء: ٨٨] تبكيتاً لهم وإخزاء وبعثاً على ذلك وإغراء، ثم تحدوا في سورة يونس عليه السلام بسورة واحدة مثل جميع القرآن غير معتين فيها بالتفصيل إلى السور تخفيفاً عليهم واستهانة بأمرهم، فلما عجزوا تحدوا بعشر مفتراة، ولما خفف عنهم التقيد بصدق المعنى وحقيقة المباني، ألزمهم بما خففه عنهم في يونس من التفصيل ولم يخلهم من التخفيف إشارة إلى هوان أمرهم واحتقار شأنهم بأن جعلها إلى عشر فقط، فلما عجزوا أعيد في المدينة الشريفة لأجل أهل الكتاب تحديهم بسورة، أي قطعة واحدة مقروناً ذلك بالإخبار بدوام عجزهم عن ذلك في قوله تعالى في البقرة ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ [البقرة: ٢٤]، فالمتحدى به في كل سورة غير المتحدى به في الأخرى، وقد مضى في يونس والبقرة ويأتي في سبحان والطور إنشاء الله تعالى ما يتم به فهم هذا المقام، والبلاغة ثلاث طبقات فأعلاها معجز، وأوسطها وأدناها ممكن، والتحدي وقع بالعليا، وليس هذا أمراً بالافتراء لأنه تحدّ فهو للتعجيز وقوله: ﴿وادعوا من استطعتم﴾ أي طلبتم أن يطيعكم ففعل، ولما كانت الرتب كلها تحت رتبته تعالى والعرب مقرة بذلك قال: ﴿من دون الله﴾ أي الملك الأعلى. وأشار إلى عجزهم بقوله: ﴿إن كنتم صديقين﴾ وفي ذلك زيادة بيان وتثبيت للدليل، فإن كل ظهير من سواهم دونهم في البلاغة، فعجزهم عجز لغيرهم بطريق الأولى.

ولما كان أدنى درجات الافتراء إتيان الإنسان بكلام غيره من غير علمه، وكان عجزهم عن المعارضة دليلاً قاطعاً على أنهم لم يصلوا إلى شيء من كلامه تعالى بغير علمه ولا وجدوا مكافئاً له يأتيهم بمثله ثبت قطعاً أن هذا القرآن غير مفترى، فقال تعالى مخاطباً للجميع بخلاف ما في القصص إشارة إلى وضوح الأمر لا سيما في الافتراء عند كل أحد وأن المشركين قد وصلوا من ذل التبكيت بالتحدي مرة بعد مرة وزورهم لأنفسهم في ذلك المضمار كرة في أثر كرة إلى حد من العجز لا يقدرّون معه على النطق في ذلك بنت شفة: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ أي يطلبوا إجابتكم ويوجدوها ﴿فاعلموا﴾ أيها الناس كافة ﴿أنما أنزل﴾ أي ما وقع إنزال هذا القرآن خاصة إلا ملتبساً ﴿بعلم الله﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً بمقتضى أن محمداً واحداً منهم تمنع العادة أن يعثر دون جميع أهل الأرض على ما لم يأذن فيه ربه من كلامه فضلاً عن أن يكون مخترعاً

له، ويجوز أن يكون ضمير «يستجيبيوا» لـ «من» في «من استطعتم» و«لكم» للمشركين، وكذا في قوله: فاعلموا و«أنتم» و«أن» أي واعلموا أن «لا إله إلا هو» فإنه لو كان معه إله آخر لكافأه في الإتيان بمثل كلامه وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله ألهتهم.

ولما كان هذا دليلاً قطعياً على ثبوت القرآن، سبب عنه قوله مرغباً مرهباً: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي منقادون أتم انقياد.

ولما كان في هذا من الحث على الثبات على الإسلام والدخول فيه والوعيد على التقاعس عنه ما من حق السامع أن يبادر إليه، وكان من حق المسلم الإعراض عن الدنيا لسوء عاقبتها، وكان أعظم الموانع للمشركين من التصديق استيلاء أحوال الدنيا عليهم، ولذلك تعنتوا بالكثر، أشار إلى عواقب ذلك بقوله: ﴿من كان يريد﴾ أي بقصده وأعماله من الإحسان إلى الناس وغيره ﴿الحياة الدنيا﴾ أي ورضي بها مع دناءتها من الآخرة على علوها وشرفها ﴿وزينتها﴾ فأخذ إليها لحضورها ونسي ما يوجب الإعراض عنها من فنائها وكدرها ﴿نوف﴾ موصلين ﴿إليهم أعمالهم﴾ أي جزاءها ﴿فيها﴾ أي الدنيا بالجاه والمال ونحو ذلك ﴿وهم فيها﴾ أي في الأعمال أو الدنيا ﴿لا يبخسون﴾ أي لا ينقص شيء من جزائهم فيها، وأما أبدانهم وأرواحهم وأديانهم فكلها بنخس في الدارين معاً، وفي الجملتين بيان سبب حبس العذاب عنهم في مدة إمهالهم مع سوء أعمالهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قِبَلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالْنَّارُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ولما بين حالهم في الدنيا، بين حالهم في الآخرة مشيراً بأداة البعد إلى أنهم أهل البعد واللعنة والطررد في قوله نتيجة لما قبله: ﴿أولئك﴾ أي البعداء البغضاء ﴿الذين ليس لهم﴾ أي شيء من الأشياء ﴿في الآخرة إلا النار﴾ أي لسوء أعمالهم واستيفائهم جزاءها في الدنيا ﴿وحبط﴾ أي بطل وفسد ﴿ما صنعوا فيها﴾ أي مصنوعهم أو صنعهم أي لبنائه

على غير أساس؛ ولما كان تقييد الحبوط بالآخرة ربما أوهم أنه شيء في نفسه قال: ﴿ويظلم﴾ أي ثابت البطلان في كل من الدارين ﴿ما كانوا يعملون﴾ أي معمولهم أو عملهم وإن دأبوا فيه دأب من هو مطبوع عليه لأنه صورة لا معنى لها لبناؤه على غير أساس؛ والزينة: تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة؛ والتوفية: تأدية الحق على تمام؛ وحبوط العمل: بطلانه، من قولهم: حبط بطنه - إذا فسد بالمأكل الرديء.

ولما اتضحت الحجج وانتهضت الدلائل فأغرقتهم عوالي اللجج، كان ذلك موضع الإنكار على من يسوي بين المهتدي والمعتدي، فكيف بمن يفضل إما باعتبار النظر إلى الرئاسة الدنيوية غفلة من حقائق الأمور أو عناداً كمن قال من اليهود للمشركين: أنتم أهدى منهم، فقال: ﴿أفمن كان على بينة﴾ أي برهان وحجة ﴿من ربه﴾ بما آتاه من نور البصيرة وصفاء العقل فهو يريد الآخرة ويبني أفعاله على أساس ثابت ﴿ويتلوه﴾ أي ويتبع هذه البينة ﴿شاهد﴾ هو القرآن ﴿منه﴾ أي من ربه، أو تأيد ذلك البرهان برسالة رسول عربي بكلام معجز وكان ﴿من قبله﴾ أي هذا الشاهد مؤيداً له ﴿كتب موسى﴾ أي شاهد أيضاً وهو التوراة حال كونه ﴿إماماً﴾ يحق الاقتداء به ﴿ورحمة﴾ أي لكل من اتبعه.

ولما كان الجواب ظاهراً حذفه، وتقديره - والله أعلم: كمن هو على الضلالة فهو يريد الدنيا فهو يفعل من المكارم ما ليس مبنياً على أساس صحيح، فيكون في دار البقاء والسعادة هباء منثوراً؛ ولما كان هذا الذي على البينة عظيماً، ولم يكن يراد به واحداً بعينه، استأنف البيان لعلو مقامه بأداة الجمع بشارة لهذا النبي الكريم بكثرة أمته فقال: ﴿أولئك﴾ أي العالو الرتبة بكونهم على هدى من ربهم وتأيد هداهم بشاهد من قبله وشاهد من بعده مصدق له ﴿يؤمنون به﴾ أي بهذا القرآن الذي هو الشاهد ولا ينسبون الآتي به إلى أنه افتراه ﴿ومن يكفر به﴾ أي بهذا الشاهد ﴿من الأحزاب﴾ من جميع الفرق وأهل الملل سواء، سوى بين الفريقين جهلاً أو عناداً ﴿فالنار موعده﴾ أي وعيده وموضع وعيده يصلى سعيها ويقاسي زمهريرها.

ولما عم بوعيد النار، اشتد تشوف النفس لما سبب عنه فقرب إزالة ما حملت من ذلك بالإيجاز، فاقضى الأمر حذف نون «تكن» فقيل: ﴿فلا تك﴾ أي أيها المخاطب الأعظم ﴿في مرية﴾ أي شك عظيم ووهم ﴿منه﴾ أي من القرآن ولا يضيق صدرك عن إبلاغه، أو من الموعد الذي هو النار والخيبة وإن أنعمنا على المتوعد بذلك ونعمناه في الدنيا؛ ثم علل النهي بقوله: ﴿إنه﴾ القرآن أو الموعد ﴿الحق﴾ أي الكامل، وزاد في الترغيب فيه بقوله: ﴿من ربك﴾ أي المحسن إليك بانزاله عليك.

ولما كان كونه حقاً سبباً يعلق الأمل بإيمان كل من سمعه، قال: ﴿ولكن أكثر الناس﴾ أي الذين هم في حيز الاضطراب ﴿لا يؤمنون﴾ بأنه حق لا لكون الريب يتطرق إليه بل لما على قلوبهم من الرين ويؤولون إليه من العذاب المعد لهم ممن لا يبدل القول لديه ولا ينسب الظلم إليه، والقصد بهذا الاستفهام الحث على ما حث عليه الاستفهام في قوله ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ من الإقبال على الدين الحق على وجه مبين لسخافة عقول الممترين وركاكة آرائهم.

ولما كان الكافرون قد كذبوا على الله بما أحدثوه من الدين من غير دليل وما نسبوا إليه النبي ﷺ من الافتراء، أتبع ذلك سبحانه قوله: ﴿ومن أظلم﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ممن افترى﴾ أي تعدد أن اختلق متكبراً ﴿على الله﴾ أي الملك الأعظم ﴿كذباً﴾ الآية، وهو موضع ضمير لو أتى به لقييل: لا يؤمنون ظلماً منهم، ومن أظلم منهم أي هم أظلم الظالمين، فأتى بهذا الظاهر بياناً لما كفروا به لأنه إذا علق الحكم بالوصف دل على أنه علته.

ولما بين أنهم أظلم، أتبعه جزاءهم بقوله استثناءً: ﴿أولئك﴾ المستحقو البعد؛ ولما كان نفس العرض مخوفاً، بنى للمجهول قوله: ﴿يعرضون﴾ أي لذلك وللدلالة على أنهم على صفة الهوان ومستسلمون لكل عارض، فعرضهم في غاية السهولة ﴿على ربهم﴾ أي الذي أحسن إليهم فلم يشكروه، العالم بالخفايا فيفتضحون بين يديه بما قابلوا به إحسانه من اللوم ﴿ويقول﴾ على سبيل التكرار ﴿الأشهاد﴾ وهم الذين آمنوا بالكتب الشاهد بعضها لبعض المشار إليه بقوله ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ والملائكة الذين شهدوا أعمالهم ومن أعضائهم حين يختم على أفواههم ﴿هؤلاء﴾ إشارة بأداة القرب إلى تحقيرهم ﴿الذين كذبوا﴾ متكبرين ﴿على ربهم﴾ في ادعاء الشريك والولد والتحليل والتحریم وغير ذلك بما عراهم من إحسانه وطول حلمه، وفي الإتيان بصفة الربوبية غاية التشنيع عليهم، فتكررت بهذا القول فضيحتهم عند جنسهم وبعدهم عن كل من سمع هذا الكلام لأنه لا أبعد عن القلوب من الكاذب فكيف بالمجتريء بالكذب على الرؤساء فكيف بملك الملوك الذي رباهم وكل من أهل الموقف مرتقب برّه خائف من انتقامه، وكأنه قيل: فما لهم بعد هذا العذاب العظيم بهذه الفضيحة؟ فليل: ﴿آلا لعنة الله﴾ وهي طرد الملك الأعظم وإبعاده، وانظر إلى تهويل الأمر باسم الذات ما أشده ﴿على الظالمين﴾ فكيف بأظلم الظالمين، ثم فصل ظلمهم بقوله: ﴿الذين يصدون﴾ أي يعرضون في أنفسهم ويمنعون غيرهم ﴿عن سبيل﴾ أي دين ﴿الله﴾ أي الملك الذي له الكمال كله مع أنه الولي الحميد ﴿ويبغونها﴾ أي يريدون بطريق الدين الواسعة السهلة ﴿هوجاً﴾ بإلقاء الشبهات والظعن في الدلائل مع كونها في غاية الاستقامة.

ولما كان النظر شديداً إلى بيان كذبهم وتكذيبهم، بولغ في تأكيد قوله: ﴿وهم﴾ أي بضمايرهم وظواهرهم؛ ولما كان تكذيبهم بالآخرة شديداً، قدم قوله: ﴿بالآخرة﴾ وأعاد الضمير تأكيداً لتعيينهم وإثبات غاية الفساد لبواطنهم واختصاصهم بمزيد الكفر فقال: ﴿هم كفرون﴾ أي عريقون في هذا الوصف؛ والعرض: إظهار الشيء بحيث يرى للتوقيف على حالة؛ والصد: المنع بالإغراء الصارف عن الأمر؛ والبغية: طلب أمر من الأمور، وهي إرادة وجدان المعنى بما يطمع فيه؛ والعوج: العدول عن طريق الصواب، وهو في المعنى كالدين بالكسر، وفي غيره كالعود بالفتح فرقاً بين ما يرى وما لا يرى، جعلوا السهل للسهل والصعب للصعب؛ روى البخاري في التفسير عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في النجوى: «يدنى المؤمن من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقره بذنوبه: تعرف ذنب كذا؟ يقول: أعرف رب أعرف - مرتين، ويقول: سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم، ثم يطوي صحيفة حسناته، وأما الآخرون أو الكفار فينادي على رؤوس الأشهاد ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾»^(١).

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾^(٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٣) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ^(٤).

ولما هدهم بأمر الآخرة، أشار إلى بيان قدرته على ذلك في الدارين بقوله: ﴿أولئك﴾ أي البعداء عن حضرة الرحمة ﴿لم يكونوا﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿معجزين﴾ وأشار إلى عجزهم بأنهم لا يقدرّون على بلوغ العالم العلوي بقوله: ﴿في الأرض﴾ أي ما كان الإعجاز - وهو الامتناع من مراد الله - لهم ولا هو في قدرتهم، لأن قدرته على جميع الممكنات على حد سواء.

ولما نفى التعذر بأنفسهم، نفاه من جهة غيرهم فقال: ﴿وما كان لهم﴾ ولما كانت الرتب التي هي دون عظمته سبحانه متكاثرة جداً، بين أنهم معزولون عن كل منها بإثبات الجار فقال: ﴿من دون الله﴾ أي الملك الأعظم، وأغرق في النفي بقوله: ﴿من أولياء﴾

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٥ و ٦٠٧٠ و ٧٥١٤ و ٢٤٤١ ومسلم ٢٧٦٨ وابن ماجه ١٨٣ والبخاري في خلق أفعال العباد ص ٦٢ والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٢١٩ و ٢٢٠ وابن أبي عمير في السنة ٦٠٤ و ٦٠٥ وأحمد ٧٤/٢ و ١٠٥ من حديث ابن عمر.

أي يفعلون معهم ما يفعل القريب من تولي المصالح والحماية من المصائب، ومن لم يقدر على الامتناع وهو حي لم يمتنع بعد موته فكأنه قيل: ماذا يفعل بهم؟ فقيل: ﴿يضعف﴾ أي يفعل فيه فعل من يناظر آخر في الزيادة، وبناء للمفعول لأن المرجع وجود المضاعفة مطلقاً ﴿لهم العذاب﴾ أي بما كانوا يضاعفون المعاصي؛ ثم علل سبب المضاعفة بأنه خلق لهم سمعاً وبصراً فضيعوهما بتصاتهم عن الحق وتعاميهم عنه، فكأن لا فرق بينهم وبين فاقدهما فقال: ﴿ما كانوا﴾ أي بما لهم من فساد الجبلات ﴿يستطيعون السمع﴾ أي يقدرون لما غلب على فطرهم الأولى السليمة بانقيادهم للهوى من التخلق بنقائص الشهوات على أن توجد طاعته لهم فما كانوا يسمعون ﴿وما كانوا﴾ يستطيعون، الإبصار فما كانوا ﴿يبصرون﴾ حتى يعرضوا عن الشهوات فتوجد استطاعتهم للسمع والإبصار، وهو كناية عن عدم قبولهم للحق وأن شدة إعراضهم عنه وصلت إلى حد صارت فيه توصف بعدم الاستطاعة كما يقول الإنسان لما تشتد كراهته له: هذا مما لا أستطيع أن أسمع، وتكون المضاعفة بالكفر والصد، ونفي الاستطاعة أعرق في العيب وأدل على النقص وأنكأ من نفي السمع لأنهم قد يحملونه على الإجابة، وأما نفي البصر فغير منفك عن النقص سواء كان للعين أو للقلب، هذا إن لم تخرج الآية على الاحتباك، وإن خرجت عليه استوى الأمران، وصار نفي الاستطاعة أولاً دالاً على نفيها ثانياً، ونفي الإبصار ثانياً يدل على نفي السمع أولاً.

ولما ثبت أنهم لا سمع ولا بصر، ثبت أنهم لا شيء فقال: ﴿أولئك﴾ أي البعداء البغضاء ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي بتضييع الفطرة الأولى التي هي سهولة الانقياد للخير وصعوبة الانقياد للشر؛ ولما كان العاجز ربما نفعه من كان يخدمه فيكسبه قوة بعد الضعف ونشاطاً بعد العجز، نفى ذلك بقوله عائداً إلى نفي النفع ممن عذرهم أولاً على أحسن وجه: ﴿وضل عنهم ما كانوا﴾ أي كوناً جبلوا عليه فصاروا لا ينفكون عنه ﴿يفترون﴾ أي يتعمدون كذبه مما ادعوا كونهم آلهة، ولا شك أن من خسر نفسه ومن خسرها من أجله بادعاء أنه شريك لخالقه ونحو ذلك كان أخسر الناس، فلذلك قال: ﴿لا جرم﴾ أي لا شك ﴿أنهم﴾ أي هؤلاء الذين بالغوا في إنكار الآخرة ﴿في الآخرة﴾ ولما كان المقام جديراً بالمبالغة في وصفهم بالخسارة، أعاد الضمير فقال: ﴿هم﴾ أي خاصة ﴿الأخسرون﴾ أي الأكثرون خسراً من كل من يمكن وصفه بالخسران؛ والإعجاز: الامتناع من المراد بما لا يمكن معه إيقاعه؛ والمضاعفة: الزيادة على المقدار بمثله أو أكثر؛ والاستطاعة: قوة ينطاع بها الجوارح للفعل؛ وأما «لا جرم» فقد اضطرب علماء العربية في تفسيرها، قال الرضي في شرح الحاجبية والبرهان السفاقي في إعرابه

ما حاصله: والغالب بعد ﴿لا جرم﴾ الفتح، أي في ﴿أن﴾، ف ﴿لا﴾ إما رد الكلام السابق - على ما هو مذهب الخليل - أو زائدة كما في ﴿لا أقسم﴾ لأن في جرم معنى القسم، وهي فعل ماض عند سيبويه والخليل مركبة مع «لا»، وجعلها سيبويه فعلاً بمعنى حق، ف «أن» «فاعله»، وقيل: «جرم» بمعنى حق، وهو اسم لا و «أنهم» خبره؛ وقال الكسائي معناها: لا صد ولا منع؛ وعن الزجاج أنها غير مركبة، ولا نفي لما قيل من أن لهم أصناماً تنفعهم، وجرم - فعل ماض بمعنى كسب وفاعله مضمّر معبر به عن فعلهم، و «أنهم» مفعوله؛ وقال الفراهي: كلمة كانت في الأصل بمعنى لا بد ولا محالة، لأنه يروى عن العرب «لا جرم» - يعني بضم ثم سكون، والفعل - يعني هكذا، والفعل - يعني محرراً، يشتركان في المصادر كالرشد والرعد والبخل؛ والجرم: القطع، أي لا قطع من هذا كما أنه لا بد بمعنى لا قطع، فكثرت وجرت على ذلك حتى صارت بمعنى القسم، فلذلك يجاب بما يجاب به القسم، فيقال: لا جرم لآتينك، ولا جرم أنك قائم، فمن فتح فللنظر إلى أصل ﴿لا جرم﴾ كما نقول: لا بد أن نفعل كذا وأنك تفعل، أي من أن ومن أنك تفعل، ومن كسر فلمعنى القسم العارض في ﴿لا جرم﴾ - انتهى. فتفسيره لها بالقطع نظر منه إلى أن مادة «جرم» بخصوصها دائرة على القطع، والأصنع تفسيرها بالظن نظراً إلى ما تدور عليه المادة من حيث هي - بأي ترتيب كان - من جرم وجرم ورجم ورمج ومجر ومرج، وإنما جعلتها كذلك لأنهم قالوا: جرم النخل: خرصها، وأجرم النخل أيضاً: خرصها، ورجم - إذا ظن، والمجر: العقل، ويلزم الظن اتقاد الذهن ومنه جمرة النار، والجرم - للأرض الشديدة الجر، ويلزم الظن أيضاً اجتماع الفكر، ومنه الجمرة للقبيلة وكل ما شاكلها في الجمع، ومنه الجرم بالكسر وهو الجسد فإنه بالنظر إلى جميعه، والصوت أو جهارته فإنه يجمع فيه الحلق لقطعه، ويلزم الاجتماع أيضاً العظمة، ومنه أجرم - إذا عظم، والجمير كأمير: مجتمع القوم، ومن الجمع الرياء والعقل، فينشأ منه الصفاء، ومنه ﴿مارج من نار﴾ أي لا دخان فيه، ومنه أجرم لونه: صفا، ومن الاجتماع المجر - بالتحريك، وهو أن يملأ بطنه من الماء ولم يرو، والكسب، جرم لأهله - إذا كسب، ومنه الذنب فإنه كسب خاص، ويمكن أن يكون من القطع لأنه يقطع صاحبه عن الخير، ويلزم الاجتماع أيضاً الاستتار ومنه أجمرت الليلة - استتر فيها الهلال، والمجر لما في بطون الحوامل من الإبل والغنم، أو يجعل هذا مما يلزم نفس الظن من الخفاء، ومن الاجتماع الضمور، أجمر الخيل: أضمرها، وشاة مجمرة: مهزولة، ويلزم الاجتماع الصلابة والتمام، ومنه حول مجرم كمعظم: تام، فينشأ الافتراق، ومنه تجرم الليل: ذهب، وابنا جمير كأمير: الليل

والنهار، أو يكون ذلك من لوازم القطع كما يأتي؛ ومن الاجتماع الرجم الذي هو الخليل والنديم، ويلزم الظن الفصل بين الأشياء، ومنه جرام النخل لصرامها؛ والجمرة: الحصاة، فيلزم مطلق الرمي فينشأ الرمي بالجمار، وهي الحجارة فينشأ القتل للمرجوم، وهو يرجع أيضاً إلى نفس القطع، فإنه قطع النفس عما كانت عليه، ويلزم الفصل القذف والعيب؛ والرماج كسحاب: كعوب الرمح لانفصال بعضها عن بعض، والرمج بالفتح وهو إلقاء الطير ذرقه، ويلزم الظن المبالغة في النظر فتأتي المبالغة في الكلام والعزيمة، ومنه المرجام للماد عنقه في السير من الإبل، وأجرم: أسرع في السير، وقد يلزم الظن الحيرة، ومنه حديث مرجم كمعظم: لا يوقف على حقيقته، فيلزم حينئذ الذنب والفساد والقلق والاضطراب، ومنه أمرج العهد: لم يف به، أي جعله مارجاً مزلزلاً، وعلى الاضطراب تدور مادة «مرج» بخصوص هذا الترتيب، أو الترميج: إفساد سطور بعد كتبها، ويلزم الظن الاختلاط، ومنه الجرم للون لأنه لا يخلو عن شوب، وأجرم الدم به: لصق، والإجرام: متاع الراعي، أو هي من الكسب، والجرام كرمان: السمك؛ والمرج: موضع الرعي، وقد علم من هذا أن جميع تصاريف المادة تدور على الاضطراب وهو بين في غير العقل، وأما فيه فإنه يقدر العقل يكون اضطراب الرأي لأن العاقل كلما أنعم النظر انفتح له ما كان مغلقاً فيعدل إليه، فإذا ظهر هذا ظهر أن معنى «لا جرم» أنهم لا ظن ولا اضطراب في أنهم، ويكون نفي الظن في مثل هذا السياق نفياً لجميع ما يقابله إلا العلم الذي هو بمعنى القطع كما إذا قيل: لا شك في كذا ولا ريب، فاتضح أن تفسيرهم لها بـ «حقاً» تفسير معنى لمجموع الكلمتين لأنه إذا نفي في مثل هذا السياق الظن ثبت اليقين والقطع، وإليه يرجع تفسير سيبويه بلا حق لأنه يريد - والله أعلم - أن لا صلة، وموضوعها في الأصل النفي، فهي نافية لصد ما دخلت عليه، فكانه قيل: حق وثبت أنهم كذا وانتفى كل ما يصاده، فهذا وجه كونها صلة مؤكدة، وقريب من ذلك ما قيل في «إنما» نحو إنما زيد قائم، أي أن زيدا قائم، ما هو إلا كذلك، فقد بان أن النافي مثل ذلك مؤكد - والله الموفق.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۗ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الِئْمِ ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْنَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا

مِنْ فَضْلِ بَلِّ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٦٧﴾ .

ولما توعد الكافرين وأخبر عن مآلهم بسببه، كان موضع أن يسأل عن حال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أوجدوا هذه الحقيقة ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولما كان حاصل ما مضى من وصف الكافرين بعد مطلق الأعمال السيئة الإعراض عن ربهم والنفرة عن المحسن إليهم جلافة وغلظة، وصف المؤمنين بالإقبال عليه والطمأنينة إليه فقال: ﴿وَأَخْبَتُوا﴾ أي خشعوا متوجهين منقطعين ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي المحسن إليهم فشكروه فوقهم لاستطاعة السمع والإبصار.

ولما ذكر وصفهم ذكر جزاءهم عليه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي العالو الرتبة ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ ولما كانوا مختصين بها أو بالخلود من أول الأمر، أعاد الضمير فقال: ﴿هُمْ﴾ فيها أي خاصة لا في غيرها ﴿خَالِدُونَ﴾ .

ولما استوفى أوصاف الحزبين وجزاءهم، ضرب لكل مثلاً بقوله: ﴿مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي الكافرين والمؤمنين، وهو من باب اللف والنشر المرتب، فإن الكافر ذكر فيما قبل أولاً ﴿كَالْأَعْمَى﴾ أي العام العمى في بصره وبصيرته ﴿وَالْأَصْمَى﴾ في سمعه كذلك، فهذا للكافرين ﴿وَالْبَصِيرَ﴾ بعينه وقلبه ﴿وَالسَّمِيعَ﴾ على أتم أحوالهما، وهذا للمؤمنين، وفي أفراد المثل طباق أيضاً ﴿هَلْ يَسْتَوِينَ﴾ أي الفريقان ﴿مِثْلًا﴾ أي من جهة المثل. ولما كان الجواب قطعاً لمن له أدنى تأمل: لا يستويان مثلاً فلا يستويان مثولاً، حسن تسبب الإنكار عنه في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي يحصل لكم أدنى تذکر بما أشار إليه الإدغام فتعلموا صدق ما وصفوا به بما ترونه من أحوالهم، وذلك ما قدم في حق الكفار من قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ الآية؛ والإخبارات: الخشوع المستمر على استواء فيه، وأصله الاستواء من الخبت، وهو الأرض المستوية الواسعة، ولعله وصله بالي في موضع اللام إشارة إلى الإخلاص أي إخباراً ينتهي إلى ربهم من غير أن يحجب عنه؛ والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بحال الأول، والأمثال لا تغير عن صورتها.

ولما تم ذلك على أوضح المسالك، وختم بالحث على التذکر، وكان تقديم ذكر كتاب موسى محرراً لتوقع ذكر نبئه ونبا غيره من الرسل، عطف - مقروناً بحرف التوقع على العامل الذي قدرته في قوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أو على قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ وهو أحسن وأقرب - قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي الذين هم على لسانه؛ وما بعد ذلك من القصص تقريراً لمضمون هذا المثل وتثبيتاً وتسلياً وتأييداً وتعزية لهذا النبي الكريم لثلا يضيق صدره بشيء مما أمر بإبلاغه حرصاً

على إيمان أحد وإن كان أقرب الخلائق إليه وأعزهم عليه كما تقدمت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ وقوله: ﴿وضائق به صدرك﴾ ويأتي في قوله: ﴿وكلأ نقص عليك من أنبؤى الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ فوضح أن هذه القصص لهذا المعنى سيقت، وأن سياقها في الأعراف وغيرها كان لغير ذلك كما تقدم وأن تضمن هذا الغرض بيان إهلاك من كانوا أشد من العرب قوة وأكثر جمعاً وأمكن أمراً وأقوى عناداً وأعظم فساداً وأحد شوكة وما اتفق في ديارهم من الطامات والأهوال المفطعات تحذيراً من مثل حالهم بارتكاب أفعالهم، ففرق بين ما يساق للشيء وما يلزم منه الشيء، ولهذا الغرض المقصود هنا طولت قصة نوح في هذه السورة ما لم يطوله في غيرها، وصدرت بقوله: ﴿إني﴾ أي قائلاً على قراءة الجمهور بالكسر، والتقدير عند ابن كثير وأبي عمرو والكسائي: ملتبساً بأني ﴿لكم﴾ أي خاصة ﴿نذير مبين﴾ أي مخوف بليغ التحذير، أبين ما أرسلت به غاية البيان، وذكر فيها أنه طالت مجادلتهم وأنه لما وضح له أمر الله تعوذ من السؤال فيه وفي كل ما يشبهه، وخللت قصته بقوله: ﴿أم يقولون افتزء﴾ خطاباً لهذا النبي الكريم وختمت بقوله: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ وذكرت قصة إبراهيم عليه السلام لما ضمته من أنه بشر الولد بما لم يجر بمثله عادة فلم يتردد فيه، وأنه جادل الرسل في قوم ابن أخيه لوط، وأنه لما تحقق حتم الأمر وبت الحكم سلم لربه مع كونه حليماً أوهاً منيباً إلى غير ذلك مما يؤمىء إليه سياق القصص، فكانه قيل: إنما أنت نذير أرسلناك لتبلغ ما أرسلت به من الإنذار وإن شق عليهم وعزتنا لقد أرسلنا من قبلك رسلاً منذرين فدعوا إلى ما أمرت بالدعوة إليه وأنذروهم ما يشق عليهم من بأسنا امتثالاً لأمرنا وما تركوا شيئاً منه خوفاً من إعراض ولا رجاء في إقبال على أن أمهم قالوا لهم ما قالت لك أمتك كما يشير إليه قوله تعالى عن نوح: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ - الآية، وقد كان في المخالفين من أمهم القريب منهم نسبه والعزيز عليهم أمره من ابن وصاحبه وغيرهما، هذا مع أن قصصهم دليل على قوله تعالى: ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ وزجر لهم عن مثل قولهم: ﴿ما يحبس﴾ وتأييد لقوله: ﴿ومن قبله كتب موسى إماماً ورحمة﴾ - وغير ذلك مما تقدم، فقد علم من هذا الوجه في تكرير هذه القصص، وأنه في كل سورة لمقصد يخالف المقصد في غيرها وإن كان يستفاد من ذلك فوائد أخر: منها إظهار القدرة في بيان الإعجاز بتصريف المعنى في الوجوه المختلفة لما في ذلك من علو الطبقة في البلاغة لأنه ربما قال متعنت عند التحدي: قد استوفى اللفظ البليغ على الأسلوب الأكمل البديع في هذه القصص فلم تبق لنا ألفاظ نعبر بها عن هذه المعاني حتى نأتي بمثل هذه القصة؛ فأتى بها ثانياً

إظهاراً لعجزه وقطعاً لحجته، وربما كررت ثالثاً ورابعاً تؤكداً لذلك وتمكيناً للاعتبار بضروب البيان وتصبيراً للنبي ﷺ على أذى قومه حالاً فحالاً، فإن قيل: فما بالها تأتي تارة في غاية البسط وتارة في غاية الإيجاز وتارة على الوسط؟ قيل: هذا من أعلى درجات البلاغة وأجل مراتب الفصاحة والبراعة، فإن قيل: فإننا نرى القصة تبسط في بعض السور غاية البسط ثم توجز في غيرها غاية الإيجاز ويؤتى فيها ما لم يؤت في المبسوطة كما في العنكبوت فإنه عين فيها مقدار لبثه وأنه كان ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم لا استوعبت جميع المعاني في الموضع المبسوط كما هو الأليق بمقام البسط لا سيما لمن لا يخفى عليه شيء ولا ينسى، وإذا وقع حذف كان في الموجزة، قيل: قال شيخنا حافظ العصر أبو الفضل بن حجر: إن الإمام أبا حاتم بن حبان البستي ذكر في كتابه التقاسيم والأنواع: إنما لم يرتبه ليحفظ إذ لو رتبته ترتيباً سهلاً لاتكل من يكون عنده على سهولة الكشف منه فلا يتحفظه، وإذا وعر طريق الكشف كان أدعى إلى حفظه ليكون على ذكر من جميعه، وذكر أنه فعل ذلك اقتداءً بالكتاب العزيز فإنه ربما أتى بالقصص غير مرتبة، قال شيخنا: ومن هنا يظهر أن من أسرار تخصيص بعض الموجزات بما ليس في المبسوط الحث على حفظ الجميع - انتهى. وهذه فوائد ينبغي إهمالها بل تستعمل حيث أمكن، والعمدة في المناسبة الوجه الأول وهو أنها في كل سورة لمناسبة تخص تلك السورة، ثم يراعى في البسط وغيره المعاني المناسبة للمقصد الذي سبقت له القصة - والله الموفق. واللام في «لقد» للقسم: قال الإمام أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: لأنها تدخل على الفعل والحرف الذي يختص بالفعل مما يصح معناه معه. ولام الابتداء للاسم خاصة، ومعنى (قد) توقع الخبر للتقريب من الحال، يقال: قد ركب الأمير - لقوم يتوقعون ركوبه فعلى هذا القول جرى «ولقد أرسلنا» والإبانة: إظهار المعنى للنفس بما يمكن إدراكه. وأصله القطع، فالإبانة قطع المعنى من غيره ليظهر في نفسه - انتهى. والمقصود من الرسالة قوله سبحانه: «أن» أي نذير لأجل أن «لا تعبدوا» أي شيئاً أصلاً «إلا الله» أي الملك الأعظم - ومعنى النذارة قوله: «إني أخاف عليكم» وعظم العذاب المحذر منه بقوله: «عذاب يوم أليم» وإذا كان اليوم مؤلماً فما الظن بما فيه من العذاب! فهو إسناد مجازي مثل نهاره صائم، ولم يذكر بشارة كما تقدم عن النبي ﷺ في قوله: «إني لكم منه نذير وبشير» [هود: ٢] إرشاداً إلى ما سبقت له القصة من تقرير معنى «إنما أنت نذير» [هود: ١٢] ولذلك صرح بالألم بخلاف الأعراف، وكذا ما أمر به النبي ﷺ أول هذه من عذاب يوم كبير، وهما متقاربان؛ ثم ساق سبحانه جواب قومه على وجه هو في غاية التسلية والمناسبة للسياق

بقوله: ﴿فقال﴾ أي فتسبب عن هذا النصح العظيم أن قال؛ ولما كان هذا بعد أن تبعه بعضهم قال: ﴿الملا﴾ وبين أن الجدل مع الضلال بعد أن بين أنهم هم الأشراف زيادة في التسلية بقوله: ﴿الذين كفروا﴾ وبين أنهم أقارب أعزة بقوله: ﴿من قومه﴾ أي الذين هم في غاية القوة لما يريدون محاولة القيام به ﴿ما نرك﴾ أي شيئاً من الأشياء ﴿إلا بشراً﴾ أي آدمياً ﴿مثلنا﴾ أي في مطلق البشرية، لست بملك تصلح لما لا تصلح له من الرسالة، وهذا قول البراهمة، وهو منع نبوة البشر على الإطلاق، وهو قول من يحسد على فضل الله ويعمى عن جلي حكمته فيمنع أن يكون النبي بشراً ويجعل الإله حجراً.

ولما كانت العظمة عندهم منحصرة في عظمة الأتباع قالوا: ﴿وما نرك﴾ ولما نفوا الرؤية عنه فتشوف السامع إلى ما يقع عليه من المعاني، بينوا أن مرادهم رؤية من اتبعه فقالوا: ﴿اتبك﴾ أي تكلف اتباعك ﴿إلا الذين هم﴾ أي خاصة ﴿أراذلنا﴾ أي كالحائك ونحوه، وليس منا رذل غيرهم، وهو جمع أرذل كأكلب جمع رذل ككلب، والرذل: الخسيس الدنيء، وهذا يتج أنه لم يتبعك أحد له قدر؛ قالوا: و﴿اتبك﴾ عامل في قوله: ﴿بادي الرأي﴾ وهو ظرف أي اتبعوك بديهة من غير تأمل، فاتباعهم لا يدل على سداد لما اتبعوه من وجهين: رذالتهم في أنفسهم، وأنهم لم يفكروا فيه، لكن يضعفه إيراد الاتباع بصيغة الافتعال التي تدل على علاج ومجازبة، فالأحسن إسناده - كما قالوه أيضاً - إلى أراذل. أي أنهم بحيث لا يتوقف ناظرهم عند أول وقوع بصره عليهم أنهم سفلة أسقاط، ويجوز أن يكون المراد «بادي رأيك» أي أنك تظن أنهم اتبعوك، ولم يتبعوك.

ولما كانوا لا يعظمون إلا بالتوسع في الدنيا، قالوا: ﴿وما نرى لكم﴾ أي لك ولمن تبعك ﴿علينا﴾ وأغرقوا في النفي بقولهم: ﴿من فضل﴾ أي في شرف ولا مال، وهذا - مع ما مضى من قولهم - قول من يعرف الحق بالرجال ولا يعرف الرجال بالحق، وذلك أنه يستدل على كون الشيء حقاً بعظمة متبعه في الدنيا، وعلى كونه باطلاً بحقارته فيها، ومجموع قولهم يدل على أنهم يريدون: لو صح كون النبوة في البشر لكانت في واحد ممن أقروا له بالعلو في الأرض، وعمل ﴿اتبك﴾ في ﴿بادي﴾ يمنعه تمادي الاتباع على الإيمان، فانتفى الطعن بعدم التأمل ﴿بل نظنكم كذابين﴾ أي لكم هذا الوصف لازماً دائماً لأنكم لم تتصفوا بما جعلناه مظنة الاتباع مما يوجب العظمة في القلوب والانتقياد للنفوس بالتقدم في الدنيا بالمال والجاه؛ فكان داؤهم بطر الحق وغمط^(١) الناس، وهو احتقارهم، وهذا قد سرى إلى أكثر أهل الإسلام، فصاروا لا

(١) غمط النعمة أي: لم يشكرها ويقال غمط عيشه أي: بطره وحقره. وغمط الناس: الاحتقار لم

يعظمون إلا بذلك، وهو أجهل الجهل لأن الرسل أنت للتهديد في الدنيا وانظر إلى رضاهم لأنفسهم بالعدول عن البيعة إلى اتباع الظن ما أرداه! وهذا أفطع مما حكي هنا من قول قريش ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ وأبشع؛ والبشر: الإنسان لظهور بشرته أي ظاهر جلده لأن الغالب على غيره من الحيوان سترها بالصوف أو الشعر أو الوبر أو الريش؛ والمثل: الساد مسد غيره في الحس بمعنى أنه لو ظهر للمشاهدة لسد مسده؛ والردل: الحقير بما عليه من صفات النقص وجمعه؛ والفضل: الزيادة من الخير، والإفضال: مضاعفة الخير التي توجب الشكر.

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِنِّي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن آجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَّوْا رَبِّهِمْ وَلِكِنِّي أَرْذَلُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمُ أَفَلَآ لَنذَكِّرُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ .

ولما كان ختام جوابهم أشده، بدأ في جوابه برده مبيناً لضلالتهم مغضباً عن شناعاتهم شفقة عليهم ومحبة لنجاتهم، فقال تعالى حكاية عنه: ﴿قال يقوم﴾ وشرع يكرر هذه اللفظة كل قليل تذكيراً لهم أنه منهم لتعطفهم الأرحام وتردهم القرايات عن حسده أو اتهامه إلى قبول ما يلقي إليهم من الكلام، وأشار بأداة البعد - مع قريبهم - إلى مباحثتهم فيما يقتضي غاية القرب ﴿أرايتم﴾ أي أخبروني ﴿إن كنت﴾ على سبيل الفرض منكم والتقدير ﴿على بينة﴾ أي برهان ساطع، وزاد ترغيباً فيه بقوله: ﴿من ربي﴾ أي الذي أوجدني وأحسن إليّ بالرسالة وغيرها يشهد بصحة دعواي شهادة لا يتطرق إليها عند المنصف شبهة فكيف بالظن! ﴿وأنتي﴾ فضلاً منه عليّ لا لمعنى فيّ أزيد عليكم به، بل ﴿رحمة﴾ أي إكراماً بالرسالة بعد النبوة، وعظمتها بقوله: ﴿من عنده﴾ فيها فضل عظيم النور واضح الظهور.

ولما كانت البيعة من الرحمة، وحد الضمير فقال: ﴿فعميت﴾ أي فتسبب عن تخصيصي بها أن أظلمت، ووقع ظلامها ﴿عليكم﴾ أي فعميتم أنتم عنها لضعف عقولكم ولم يقع عليكم شيء من نورها، وذلك أن الدليل إذا كان أعمى عاد ضرره على التابع بالحيرة والضللال، وهو معنى قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالبناء للمفعول مشددة ﴿أنزلنكموها﴾ وقوله: ﴿وأنتم لما كرهون﴾ مع تسميته لها بينة - إشارة إلى أنها لم تعم ولا خفيت عليهم لقوة نورها وشدة ظهورها، وإنما هم معاندون في نفهم لفضله وفضل من تبعه، والتعبير عن ذلك بالجملة الاسمية واسم الفاعل إشارة إلى

أن أفعالهم أفعال من كراهته لها ثابتة مستحكمة، وكأنه لم يكن مأموراً بالقتال كما كان نبينا ﷺ في أول الأمر، والآية ناظرة إلى قوله تعالى: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [يونس: ٩٩] ويجوز أن يكون ذلك كناية عن أنهم معاندون مع قطع النظر عن الجهاد وغيره فإن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بالمجادلة للمعاندين إلى أن يلزمهم الحجة، وهي لا تفيد إلا الإلزام في الظاهر مع الإنكار والكرهية في الباطن، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة للكاملين، وبالموعظة والخطابة للمنافقين الذين لا يعاندون ويحسنون الظن في الداعي، فيكون المعنى أن البينة لم تنفعكم لشكاسة وإعوجاج في طباعكم، فلم يبق إلا الموعظة وهي لا تفيد إلا مع حسن الظن، وأما مع الكراهة فلا ينفعكم النصح، فلا فائدة في المجادلة إلا الإلزام، وهو مع الكراهة غير نافع لكم.

ولما كان نفي ذلك عاماً للفضل الدنيوي، وكان الاتصاف بقله ما في اليد إنما يكون ضاراً إذا كان صاحبه يسأل غيره، نفى عنه هذا اللزام العائب فقال مجيباً عن نفيهم الفضل عنه وعن أتباعه بأنه قد يرد منهم على ذلك ثواباً دنيوياً: ﴿ويقوم﴾ استعطافاً لهم ﴿لا أستلکم﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿عليه﴾ أي الإنذار كما يأخذ منكم من ينذركم أمر من يريد منكم من ينذركم أمر من يريد بكم بئس ما تكرهون في أمور دنياكم حتى تكون عاقبة ذلك أن تتهموني ﴿مالاً إن﴾ أي ما ﴿أجري إلا على الله﴾ أي الذي له الجلال والإكرام فبيده الخزائن كلها، ونبه بهذا على أنه لا غرض له من عرض دنيوي ينفر المدعو عنه فوجب تصديقه، وفيه تلقين للجواب عن قول قريش: لولا ألقي إليه كنز - كما سيأتي بأبين من ذلك عقب قصة يوسف عليه السلام في قوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ لأن هذه القصص كالشيء الواحد متتابعة في بيان حقيقة هذا القرآن والتأسية في الاقتداء بالرسول في الصبر على أداء جميع الرسالة مع ما يلزم ذلك من جليل العبر وبديع الحكم، فلما اتحد الغرض منها مع تواليها اتحدت متفرقاتها.

ولما كان التعبير برذالة المتبع مما ينفر أهل الدنيا عن ذلك التابع، بين لهم أن شأنه غير شأنهم وأنه رقيق على من آمن به رقيق به رحيم له وإن كان متأخراً في الدنيا محروماً منها خوفاً من الله الذي اتبعوه فيه فقال: ﴿وما أنا﴾ وأغرق في النفي بقوله: ﴿بطارد الذين آمنوا﴾ أي أقروا بألسنتهم بالإيمان؛ ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لإنكارهم ﴿إنهم ملقوا ربهم﴾ أي المحسن إليهم بعد إيجادهم وتربيتهم لهدايتهم، فلو طردتهم لشكوني إليه فلا أرى لكم وجهاً في الإشارة إلى طردهم ولا في شيء مما أجتُموني به ﴿ولكني أركم﴾ أي أعلمكم علماً هو كالرؤية ﴿قوماً تجهلون﴾ أي تفعلون أفعال أهل الجهل فتكذبون الصادق وتعيرون المؤمنين بما لا يعينهم وتتسون لقاء الله وتوقعون

الأشياء في غير مواقعها، وفي تعبيره بـ ﴿تجهلون﴾ دون ﴿جاهلين﴾ إشارة إلى أن الجهل متجدد لهم وهو غير عادتهم استعطافاً لهم إلى الحلم، ثم عطف إلى صريح الاستعطاف في سياق محذر من سطوات الله فقال: ﴿ويقوم﴾ أي الذين هم أعز الناس عليّ ﴿من ينصرنى من الله﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿إن طردتهم﴾ ولو لم يشكوني إليه لاطلاعاً على ما دق وجل: ولما تم الجواب عن ازدرائهم، سبب عنه الإنكار لعدم تذكرهم ما قاله لهم بما يجدونه في أنفسهم فقال: ﴿أفلا تذكرون﴾ أي ولو أدنى تذكر - بما يشير إليه الإدغام - فتعلموا أن من طرد صديقاً لكم عاديتموه وقصدتموه بالأذى، فترجعوا عما طرأ لكم من جهل إلى عادتكم من الحلم الباعث على التأمل الموقف على الحق؛ والطرْد: إبعاد الشيء على جهة الهوان؛ والقوم: الجماعة الذين يقومون بالأمر، اسم جمع لا واحد له من لفظه؛ والتذكير: طلب معنى قد كان حاضراً للنفس، والتفكير طلبه وإن لم يكن حاضراً.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ^(٢١) إِذَا لِمَنْ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَدْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاِنَّا بِمَا نَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٤﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾ .

ولما كان نفيهم للفضل شاملاً للأموال وعلم الغيب، أقرهم على ذلك منبهاً على خطئهم فيه بأنه لم يقل بينهم قط ما يكون سبباً له، فقال عاطفاً على قوله ﴿لا أسئلكم عليه أجراً﴾؛ ﴿ولا أقول لكم﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿عندي خزائن الله﴾ أي الملك الأعظم فأنفضل عليكم بها؛ ولما كان من الجائز أن يمكن الله من يشاء من خزائن الأرزاق ونحوها فيسوغ له أن يطلق ملك ذلك مجازاً، ولا يجوز أن يمكنه من علم الغيب، وهو ما غاب عن الخلق كلهم، لأنه خاصته سبحانه، قال عاطفاً على ﴿أقول﴾ لا على المقول: ﴿ولا أعلم الغيب﴾ لا حقيقة ولا مجازاً فأعلم وقت ما توعدون به أو ما في قلوب المؤمنين مما قد يتوهم به من سوء، وأعلمهم أنه لا مانع من إرسال البشر بقوله: ﴿ولا أقول إني ملك﴾ فتكون قوتي أفضل من قوتكم أو خلقي أعظم قدراً من خلقكم ونحو ذلك من الفضل الصوري الذي جعلتموه هو الفضل، فلا تكون الآية دليلاً على أفضلية الملائكة، وتقدم في الأنعام سر إسقاطه ﴿لكم﴾ .

ولما كان تعريضهم بنفي الملكية عنه من باب الإزراء، أتبعه تأكيد قبوله لمن آمن

كائنًا من كان وإن ازدروه بقوله: ﴿ولا أقول للذين﴾ أي لأجل الذين ﴿تزدري﴾ أي تحققر ﴿أعينكم﴾ أي تقصرون به عن الفضل عند نظركم له وتعيبونه ﴿لن يؤتهم الله﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿خيرًا﴾ ولما كان كأنه قيل: ما لك لا تقول ذلك؟ أجب بما تقديره: لأنني لا أعلم ضمائرهم ولا أحكم إلا على الظاهر: ﴿الله﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿أعلم﴾ أي حتى منهم ﴿بما في أنفسهم﴾ ومن المعلوم أنه لا يظلم أحداً، فمن كان في نفسه خير جزاه عليه، ويجوز أن يكون هذا راجعاً إلى ﴿بادي الرأي﴾ بالنسبة إليه ﷺ كما تقدم؛ ثم علل كفه عن ذلك بقوله مؤكداً لإنكارهم ظلمه على ذلك التقدير: ﴿إني إذا﴾ أي إذا قلت لهم ذلك ﴿لمن الظالمين﴾ أي العريقين في وضع الشيء في غير موضعه؛ والخزائن: أخبية المتاع الفاخرة، وخزائن الله مقدوراته لأنه يوجد منها ما يشاء، وفي وصفها بذلك بلاغة؛ والغيب: ذهاب الشيء عن الإدراك، ومنه الشاهد خلاف الغائب، وإذا قيل: علم غيب، كان معناه: علم من غير تعليم؛ والازدراء: الاحتقار، وهو افتعال من الزراية، زريت عليه - إذا عبته، وأزريت عليه - إذا قصرت به؛ والملك أصله مآلك من الألوكة وهي الرسالة.

فلما استوفى نقض ما أبرموه في زعمهم من جوابهم على غاية الإنصاف واللين والاستعطف، استأنف الحكاية عنهم بقوله: ﴿قالوا﴾ أي قول من لم يجد في رده شبهة يديها ولا مدفعاً يغير به: ﴿يثوح قد جادلتنا﴾ أي أردت قتلنا وصرفنا عن آرائنا بالحجاج وأردنا صرفك عن رأيك بمثل ذلك ﴿فأكثرت﴾ أي فتسبب عن ذلك وعن تضجرنا أنك أكثرت ﴿جدالنا﴾ أي كلامنا على صورة الجدل ﴿فأنتنا﴾ أي فتسبب عن ذلك وعن تضجرنا أنا نقول لك: لم يصح عندنا دعواك، اثنتنا ﴿بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت﴾ أي كوناً هو جبلة لك ﴿من الصديقين﴾ أي العريقين في الصدق في أنه يأتينا فصرحوا بالعناد المبعد من الإنصاف والاتصاف بالسداد وسموه باسمه ولم يسمحوا بأن يقولوا له: يا ابن عمنا، مرة واحدة كما كرر لهم: يا قوم، فكان المعنى أنا غير قابلين لشيء مما تقول وإن أكثرت وأطلت - بغير حجة منهم بل عناداً وكبراً فلا تتعب، بل قصر الأمر بما تتوعدنا به، وسموه وعداً سخرية به، أي أن هذا الذي جعلته وعيداً هو عندنا وعد حسن سار باعتبار أننا نحب حلوله، المعنى أنك لست قادراً على ذلك ولا أنت صادق فيه، فإن كان حقاً فائتنا به، فكأنه قيل: ماذا قال لهم؟ فقيل: ﴿قال﴾ جرياً على سنن قوله ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾: ﴿إنما يأتيكم به الله﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء فتبرأ من الحول والقوة ورد ذلك إلى من هو له، وأشار بقوله: ﴿إن شاء﴾ إلى أنه مخير في إيقاعه وإن كان قد تقدم قوله به إرشاداً إلى

أنه سبحانه لا يجب عليه شيء ولا يقبح منه شيء، بل ولا يسأل عما يفعل وإن كان لا يقع إلا ما أخبر به؛ ثم بين لهم عجزهم وخطأهم في تعرضهم للهلاك فقال: ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي في شيء من الأوقات لشيء مما يريد به سبحانه؛ والإكثار: الزيادة على مقدار الكفاية؛ والمجادلة: المقابلة بما يقتل الخصم عن مذهبه بحجة أو شبهة، وهو من الجدل وهو شدة الفتل والمطلوب به الرجوع عن المذهب، والمطلوب بالحجاج ظهور الحجة، فهو قد يكون مذموماً كالمراء، وذلك حيث يكون للتشكيك في الحق بعد ظهوره، وحيث قيد الجدال بـ ﴿التي هي أحسن﴾ [العنكبوت: ٤٦] فالمراد به إظهار الحق.

ولما بين أنهم إنما هم في قبضته سبحانه، زاد في بيان عظمته وأن إرادته تضحل معها كل إرادة في سياق دال على أنه بذلك ناصح لهم وأن نصحه خاص بهم، فقال جواباً لما وهموا من أن جداله لهم كلام بلا طائل: ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ وذكر إرادته لما يريد أن يذكره من إرادة الله فقال: ﴿إن أردت﴾ أي جمعت إلى فعل النصح إرادة ﴿أن أنصح لكم﴾ بإعلام موضع الغي ليتقى والرشد ليتبع، وجزاءه محذوف تقديره: لا ينفعكم نصحي ﴿إن كان الله﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿يريد أن يغويكم﴾ أي يضلكم ويركبكم غير الصواب فإنه إرادته سبحانه تغلب إرادتي وفعلي معاً لا ينفعكم شيء إشارة إلى أنكم لا تقدرون على دفع العذاب بقوة فتكونوا غالبين، ولا بطاعة فتكونوا محبوبين مقربين إن كان الله يريد إهلاككم بالإغواء، وإن أردت أنا نجاتكم، ولم يقل: ولا ينفعكم نصحي إن نصحت لكم، إشارة إلى أنني لا أملك إلا إرادتي لنصحكم، فإذا أردته فغاية ما يترتب عليه من فعلي وقوع النصح وإخلاصه لكم، وأما النفع به فلا شيء منه إليّ، بل هو تابع لمراد الله، فإن أراد غوايتكم حصلت لا محالة، ولم يقع ما قد يترتب على النصح من عمل المنصوح بمقتضاه المستجلب للنفع المستدفع للضرر؛ ثم رغبهم في إحسانه ورهبهم من انتقامه معللاً لعدم ما لا يريد: ﴿هو ريبكم﴾ أي الموجد لكم المدير لأموالكم فهو يتصرف وحده لما يريد.

ولما كان التقدير: فمنه مبدؤكم، عطف عليه قوله: ﴿واليه﴾ أي لا إلى غيره ﴿ترجعون﴾ أي بأيسر أمر وأهونه بالموت ثم البعث فيجازيكم على أعمالكم كما هي عادة الملوك مع عمالهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾
وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّمَ أَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٦﴾

وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِطِ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٢٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ .

ولما كان مضمون هذه الآية نحو مضمون قوله: ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ فإن النذير من ينصح المنذر، والوكيل هو المرجوع إليه في أمر الشيء الموكول إليه، وما قبلها تعريض بنسبة نوح عليه السلام إلى الافتراء، تلاه بما تلا به ذلك من النسبة إلى الافتراء وإشارة إلى أن هذه القصص كلها للتسلية في أمر النذارة والتأسية فكأنه قيل: أيقولون لك مثل هذه الأقوال فقد قالوها لنوح كما ترى، ثم والى عليهم من الإنذار ما لم يطمعوا معه في ترك شيء مما أمرناه به أعجبهم أو أغضبهم، فلك به أسوة وحسبك به قدوة في أن تعد كلامهم عدماً وتقبل على ما أرسلناك به من بذل النصيحة بالنذارة: ﴿أم يقولون﴾ في القرآن ﴿افتراه﴾ إصراراً على ما تقولوه فدمغه الدليل وأدحضته الحجة فكأنه قيل: نعم، إنهم يقولون ذلك، فقيل: لا عليك فإنه قول يقصدون به مجرد العناد وهم يعلمون خلافه بعد ما قام عليهم من الحجج التي وصلوا معها إلى عين اليقين فلا يهمنك قولهم هذا، فإنهم يجعلونه وسيلة إلى تركك بعض ما يوحى إليك فلا تفعل، بل ﴿قل﴾ في جواب قولهم هذا ﴿إن افتريته﴾ أي قطعت كذبه ﴿فعلني﴾ أي خاصاً بي ﴿إجرامي﴾ أي وباله وعقابه دونكم وإذا استعلى عليّ الإجمام عرف ذلك لأرباب العقول وظهر ظهوراً أفتضح به وأنتم أعرف الناس بأني أبعد من ذلك مما بين اجتماع الضدين وارتفاع التقيضين لما تعلمون مني من طهارة الشيم وعلو الهمم وطيب الذكر وشريف القدر وكريم الأمر، هذا لو كنت قادراً على ذلك فكيف وأنا وأنتم في العجز عنه سواء ﴿وأنا بريء﴾ أي غاية البراءة ﴿مما تجرمون﴾ أي توجدون إجرامه، ليس عليّ من إجرامكم عائد ضرر بعد أن أوضحت لكم وكشفت عنكم غطاء الشبه، إنما ضرره عليكم فاعلموا على تذكرك هذا المعنى فإن سوق جوابهم على هذا الوجه أنكى لهم من إقامة حجة أخرى لأنهم يعلمون منه أنه إلزام لهم بالفضيحة لانقطاعهم لدى من له وعي، ويمكن أن يكون التقدير: هل انتبه قومك يا محمد فاعلموا قبح مثل هذه الحال وأنها حال المعاندين، فرجعوا تكراً عن ركوب مثلها واستحياء ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي كذبه متعمداً استمراراً على العناد وتمادياً في البعاد كما تمادى قوم نوح فيحل بهم ما حل بهم، أي هل رجعوا بهذا المقدار من قصة قوم نوح أم هم

مستمرون على ما نسبوك إليه في أوائل السورة من افتراءه فيحتاجون إلى تكميل القصة بما وقع من عذابهم ليخافوا مثل مصابهم؛ وافتراء الكذب: افتعاله من قبل النفس فهو أخص من مطلق الكذب لأنه قد يكون تقليداً للغير.

ولما فرغ من هذه الجملة التي هي المقصود بهذا السياق كله وإن كانت اعتراضية في هذه القصة، رجع إلى إكمالها بياناً لأن نوحاً عليه السلام كان يكشف قومه بجميع ما أمر به وإن عظمت مشقته عليهم بحيث لم يكن قط موضع رجاء لهم في أن يترك شيئاً منه وتحذيراً لكل من سمع قصتهم من أن يحل به ما حل بهم فقال: ﴿وَأوحى﴾ أي من الذي لا موحى إلا هو وهو ملك الملوك ﴿إلى نوح﴾ بعد تلك الخطوب ﴿أنه لن يؤمن﴾ بما جئت به ﴿من قومك إلا من﴾ ولما كان الذي يجيب الإنسان إلى ما يسأله فيه يلوح عليه مخايل قبل الإجابة يتوقع السائل بها الإجابة، قال: ﴿قد آمن فلا﴾ أي فتسبب عن علمك بأنه قد تم شقاهم أنا نقول لك: لا ﴿تبتئس﴾ أي يحصل لك بؤس، أي شدة يعظم عليك خطبها بكثرة تأملك في عواقبها ﴿بما كانوا﴾ أي بما جبلوا عليه ﴿يفعلون﴾ فإننا نأخذ لك بحقك منهم قريباً، وكأنه كان أعلمه أنهم إن لم يجيبوه أغرقهم وأنجاه ومن معه في فلك يحملهم فيه على متن الماء فقال: ﴿واصنع الفلك﴾ حال كونك محفوظاً ﴿بأعيننا﴾ نحفظك أن تزيغ في عملها، وجمع مبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل ﴿ووحينا﴾ فنحن نلهمك أصلح ما يكون من عملها وأنت تعلم ما لنا من العظمة التي تغلب كل شيء ولا يتعاضمها شيء، فلا تهتم بكونك لا تعرف صنعتها؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله أوحى إليه أن يصنعه مثل جوجو الطائر - أي صدره. وأشار إلى شفقتة على قومه وحبه لنجاتهم كما هو حال هذا النبي الكريم مع أمته فقال: ﴿ولا تخاطبني﴾ أي بنوع مخاطبة وإن قلت ﴿في الذين ظلموا﴾ أي أوجدوا الظلم واستمروا عليه في أن أنجيهم؛ ثم علل النهي بأن الحكم فيهم قد انبرم فقال: ﴿إنهم مغرورون﴾ قد انبرم الأمر بذلك؛ والابتئاس: حزن في استكانة، لأن أصل البؤس الفقر والمسكنة؛ والوحي: إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء، وقد يكون إفهاماً من غير كلام بإشارة ونحوها، وقد يكون بكلام خفي؛ والفلك: السفينة، يؤنث ويذكر، واحده وجمعه سواء، وأصله الإدارة من الفلكة.

ولما أمره تعالى ونهاه، أخبر أنه امثل ذلك بقوله عاطفاً على ما تقديره: فأيس من إيمان أحد منهم فترك دعاهم وشرع يسلي نفسه: ﴿ويصنع﴾ أي صنعة ماهر جداً، له ملكة عظيمة بذلك الصنع ﴿الفلك﴾ فحلى فعله حال علمه بأنه سبحانه بت الأمر بأنه كان يعمل ما أمره به سبحانه ولم يخاطبه فيهم ولا أسف عليهم، وأشار إلى أنهم ازدادوا

بغياً بقوله: ﴿وكلما﴾ أي والحال أنه كلما ﴿مر عليه ملا﴾ أي أشرف ﴿من قومه﴾ وأجاب «كلما» بقوله: ﴿سخرها منه﴾ أي ولم يمنعهم شرفهم من ذلك، وذلك أنهم رأوه يعاني ما لم يروا قبله مثله ليجري على الماء وهو في البر وهو على صفة من الهول عظيمة فعن الحسن أن طولها ألف ذراع ومائتا ذراع وعرضها ستمائة، فقالوا: يانوح! ما تصنع؟ قال: أبني بيتاً على الماء، ويجوز أن يكون ﴿سخرها﴾: صفة لملا، وجواب ﴿كلما﴾ ﴿قال﴾، ولما أياسه الله من خيرهم، ترك ما كان من لينة لهم واستعطفهم فعلم أن ذلك ما كان إلا له سبحانه، فقال حاكياً عنه استثنافاً: ﴿قال إن تسخروا منا﴾ ولما كانوا يظنون أنه غائب في عمله كان عندهم موضعاً للخزي والسخرية، وكان هو ﷺ عالماً بأن عملهم سبب لخزيهم بالعذاب المستأصل، فكان المعنى: إن تسخروا منا - أي مني وممن يساعدني - لظن أن عملنا غير مثمر ﴿فإننا نسخر﴾ أي نوجد السخرية ﴿منكم﴾ جزاء لكم ﴿كما تسخرون﴾ منا الآن لأن عملنا منج وعملكم ليس مقتصراً على الضياع بل هو موجب لما توعدون من العذاب فأنتم المخزيون دوني. ولما كان قوله ﴿نسخر منكم﴾ واقعاً موقع هذا الإخبار، حسن الإتيان بالفاء المؤذنة بتسبب العلم المذكور عنه في قوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي يفضحه فيذله، وكان المراد به عذاب الدنيا ﴿ويحل عليه﴾ أي حلول الدين الذي لا محيد عنه ﴿عذاب مقيم﴾ وهو عذاب الآخرة، وقد مضى نحوه في الأنعام عند قوله ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾؛ والسخرية: إظهار ما يخالف الإبطان على جهة تفهم استضعاف العقل، من التسخير وهو التذليل استضعافاً بالقهر، وهي تفارق اللعب بأن فيها خدعة استنفاض، فلا تكون إلا بحيوان، واللعب قد يكون بجماد لأنه مطلق طلب الفرح؛ والخزي: العيب الذي تظهر فضيحته والعار به، ونظيره الذل والهوان؛ واستمر ذلك دأبه ودأبهم ﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ أي وقت إرادتنا لإهلاكهم ﴿وفار﴾ أي غلا وطفح ﴿التنور﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد أنه الحقيقي الذي يخبز فيه، وهذا هو الظاهر فلا يعدل عنه إلا بدليل، لأن صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل عبث كما قاله أهل الأصول ﴿قلنا﴾ بعظمتنا ﴿احمل﴾ ولما كان الله تعالى قد أمره أن يجعل لها غطاء - كما قال أهل التفسير - لئلا تمتلئ من شدة الأمطار، كانت الظرفية فيها بخلاف غيرها من السفن واضحة فلذلك قال: ﴿فيها﴾ أي السفينة ﴿من كل زوجين﴾ من الحيوانات، والزوج فرد يكون معه آخر لا يكمل نفعه إلا به ﴿اثنتين﴾ ذكراً وأنثى ﴿وأهلك﴾ أي احملهم، والأهل: العيال ﴿إلا من سبق﴾ غالباً ﴿عليه القول﴾ بآني أغرقه وهو امرأته وابنه كنعان ﴿ومن﴾ أي واحمل فيها من ﴿آمن﴾

قال أبو حيان: وكانت السفينة ثلاث طبقات: السفلى للوحوش، والوسطى للطعام والشراب، والعليا له ولمن آمن معه؛ ثم سلى المخاطب بهذه القصص ﷺ وذكره نعمته بكثرة من اتبعه مع صدعهم بمؤلم الإنذار على قصر الزمان دون نوح عليهم السلام مع تطاول الزمن فقال: ﴿وما﴾ أي والحال أنه ما ﴿آمن﴾ كائناً ﴿معه﴾ أي بإنذاره ﴿إلا قليلاً﴾ بسبب تقديرتنا لا باغضائهم بما كوفحوا به من الإنذار؛ والتنور - قال أبو حيان: وزنه فعول عند أبي علي وهو أعجمي، وقال ثعلب: وزنه تفعل من النور، وأصله تنوور، همزت الواو ثم خففت وشدت الحرف الذي قبلها، والزوج قد كثر على الرجل الذي له امرأة؛ قال الرماني: وقال الحسن في ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ [الذريات: ٤٩]: السماء زوج والأرض زوج، والشتاء زوج، والصيف زوج، والليل زوج، والنهار زوج، حتى يصير الأمر إلى الله الفرد الذي لا يشبهه شيء، ومعنى ذلك في صحيح البخاري^(١) وأقل ما قيل فيمن كان في السفينة ثمانية: نوح وامرأة له، وثلاثة بنين: سام وحام ويافت، ونساؤهم؛ وأكثر ما قيل أنهم ثمانون - روي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِنَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَضِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأَهُ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ .

ولما أتاه الأمر بذلك، بادر الامتثال فجمع من أمره الله به إلى السفينة بعد أن היאها لهم ﴿وقال﴾ أي لمن أمر بحمله ﴿اركبوا﴾ ولما كانت الظرفية أغلب على السفينة قال: ﴿فيها﴾ أي السفينة؛ ولما أمرهم بالركوب فركبوا، استأنف قوله، أو أمرهم بالركوب قائلين: ﴿بسم الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿مجراها ومرسها﴾ أي إجرائها وإرساءها ومحلها ووقتها، وقرأ الحسن وقتادة وحמיד الأعرج وإسماعيل بن مجالد عن عاصم بكسر الراء والسين كسراً خالصاً بعده ياءان خالصتان على أن الاسمين صفتان للجلالة؛ ثم علل نجاتهم بالإجراء والإرساء اعترافاً بأنه لا نجاة إلا بعفوه بقوله: ﴿إن ربي﴾ أي المحسن إلي بما دبر مني هذا الأمر وغيره، وزاد في التأكيد تطيباً لقلوب من معه معرفاً لهم بأن أحداً لن يقدر الله حق قدره وأن العبد لا يسعه إلا الغفران فقال:

(١) قال البخاري في تفسير سورة الذريات: زوجي: الذكر والأنثى، واختلاف الألوان: حلو وحامض.

وذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/١٤٠ عن مجاهد مثل كلام الحسن الذي ذكره المصنف.

﴿لغفور﴾ أي بالغ الستر للزلزلات والهبوات ﴿رحيم﴾ * أي بالغ الإكرام لم يريد، فركبوها واستمروا سائرين فيها يقولون: بسم الله ﴿وهي﴾ أي والحال أنها ﴿تجري بهم﴾ .

ولما كان الماء مهيباً للإغراق، فكان السير على ظهره من الخوارق، وأشار إلى ذلك بالظرف فقال: ﴿في موج﴾ ونبه على علوه بقوله: ﴿كالجبال﴾ أي في عظمه وتراكمه وارتفاعه، فالجملة حال من فركبوها، المقدر لأنه لظهوره في قوة الملفوظ، وكان هذه الحال مع أن استدامة الركوب ركوب إشارة إلى سرعة امتلاء الأرض من الماء وصيرورته فيها أمثال الجبال عقب ركوبهم السفينة من غير كبير تراخ، قالوا: وكان أول ما ركب معه الذرة، وآخر ما ركب معه الحمار، وتعلق إبليس بذنبه فلم يستطع الدخول حتى قال له نوح عليه السلام: ادخل ولو كان الشيطان معك - كذا قالوا، وقيل: إنه منع الحية والعقرب وقال: إنكما سبب الضر، فقالا: احملنا ولك أن لا نضر أحداً ذكرك، فمن قال ﴿سلم على نوح في العلمين﴾ * إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴿[الصفات: ٧٩ - ٨٠] لم تضراه. ولما كان ابتداء الحال في تفجر الأرض كلها عيوناً وانهمار السماء انهماراً - مرشداً إلى أن الحال سيصير إلى ما أخبر الله به من كون الموج كالجبال لا ينجي منه إلا السبب الذي أقامه سبحانه، تلا ذلك بأمر ابن نوح فقال عاطفاً على قوله ﴿وقال اركبوا﴾ ﴿ونادى نوح ابنه﴾ أي كنعان وهو لصلبه - نقله الرماني عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك ﴿وكان﴾ أي الابن ﴿في معزل﴾ أي عن أبيه في مكانه وفي دينه لأنه كان كافراً، وبين أن ذلك المعزل كان على بعض البعد بقوله: ﴿يبنى﴾ صغره تحنناً وتعطفاً ﴿اركب﴾ كائناً ﴿معنا﴾ أي في السفينة لتكون من الناجين ﴿ولا تكن﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿مع الكافرين﴾ * أي في دين ولا مكان إشارة إلى أن حرص الرسل عليهم السلام وشفقتهم - وإن كانت مع رؤية الآيات العظام والأمور الهائلة - ليست سبباً للين القلوب وخضوع النفوس ما لم يأذن الله، انظر إلى استعطف نوح عليه السلام بقوله ﴿يبنى﴾ مذكراً له بالبنوة مع تصغير التحنن والترأف وفضاظة الابن مع عدم سماحه بأن يقول: يا أبت، ولم يلن مع ما رأى من الآيات العظام ولا تناهى لشي منها عن تقحم الجهل بدلاً من العلم وتعسف الشبهة بدلاً من الحججة .

ولما كان الحال حال دهش واختلال . كان السامع جديراً بأن لا يصبر بل يبادر إلى السؤال فيقول: فما قال؟ فقيل: ﴿قال﴾ قول من ليس له عقل تبعاً لمراد الله ﴿سأوي إلى جبل يعصمني﴾ أي بعلوه ﴿من الماء﴾ أي فلا أغرق ﴿قال﴾ أي نوح عليه السلام ﴿لا عاصم﴾ أي لا مانع من جبل ولا غيره موجود ﴿اليوم﴾ أي لأحد ﴿من أمر الله﴾

أي الملك الأعظم المحيط أمره وقدرته وعلمه، وهو حكمه بالغرق على كل ذي روح لا يعيش في الماء ﴿إلا من رحم﴾ أي إلا مكان من رحمة الله فإنه مانع من ذلك وهو السفينة، أو لكن من رحمه الله فإن الله يعصمه.

ولما ركب نوح ومن أمره الله به وأراد. ولم تبق حاجة في تدرج ارتفاع الماء، فعلاً وطمأ وغلب وعتاً فهال الأمر وزاد على الحد والقدر، قال تعالى عاطفاً على ما تقديره: فلم يسمع ابنه ذلك منه بل عصى أباه كما عصى الله فأوى إلى الجبل الذي أراه فعلاً الماء عليه ولم يمكنه بعد ذلك اللحاق بأبيه ولا الوصول إليه: ﴿وحال بينهما﴾ أي بين الابن والجبل أو بينه وبين أبيه ﴿الموج﴾ المذكور في قوله ﴿في موج كالجبال﴾ ﴿فكان﴾ أي الابن بأهون أمر ﴿من المغرقين﴾ وهم كل من لم يركب مع نوح عليه السلام من جميع أهل الأرض؛ قال أبو حيان: قيل كانا يتراجعان الكلام فما استتمت لمراجعة حتى جاءت موجة عظيمة وكان ركباً على فرس قد بطر وأعجب بنفسه فالتقمته وفرسه وحيل بينه وبين نوح عليه السلام فغرق - انتهى. والركوب: العلو على ظهر الشيء، ركب الدابة والسفينة والبر والبحر؛ والجري: مر سريع؛ يقال: هذه العلة تجري في أحكامها، أي تمر من غير مانع، والموج جمع موجة - لقطعة عظيمة من الماء الكثير ترتفع عن حملته، وأعظم ما يكون ذلك إذا اشتدت الرياح؛ والجبل: جسم عظيم الغلظ شاخص من الأرض هو لها كالوتد؛ والعصمة: المنع من الآفة ﴿وقيل﴾ أي بأدنى إشارة بعد هلاك أهل الأرض وخلوها من الكافرين وتدمير من في السهول والجبال من الخاسرين، وهو من إطلاق المسبب - وهو القول - على السبب - وهو لإرادة - لتصوير أمر ومأمور هو في غاية الطاعة فإنه أوقع في النفس.

ولما كان كل شيء دون مقام الجلال والكبرياء والعزة بأمر لا يعلمه إلا الله، دل على ذلك بأداة البعد فقال ﴿يا أرض ابلعي﴾ أي اجذبي من غير مضغ إلى مكان خفي بالتدرج، وعين المبلوع لثلا يعم فتبتلع كل شيء على ظهرها من جبل وغيره، ولذلك أفرد ولم يجمع فقال: ﴿ماءك﴾ أي الذي تجدد على ظهرك للإغراق ليكون ذلك كالغذاء للاكل الذي يقوي بدنه به فيقوى به على الإنبات وسائر المنافع وجعله ماءها لاتصاله بها اتصال الملك بالمالك ﴿ويسماء أقليمي﴾ أي أمسكي عن الأمطار، ففعلتا مبادرتين لأمر الملك الذي لا يخرج عن مراده شيء ﴿وغيض الماء﴾ أي المعهود، حكم عليه بالدوبوب في أعماق الأرض، من المتعدي فإنه يقال: غاض الماء وغاضه الله، كما يقال: نقض الشيء ونقضته أنا ﴿وقضي الأمر﴾ أي فرغ وانبت وانبرم في إهلاك من هلك ونجاة من نجا كما أراد الجليل على ما تقدم به وعده نوحاً عليه السلام، لم يقدر

أحد أن يحبسه عنهم ولا أن يصرفه ولا أن يؤخره دقيقة ولا أصغر منها. فليحمد الله من آخر عنه العذاب ولا يقل ما «يحبسه» لثلاث يأتيه مثل ما أتى هؤلاء أو من بعدهم ﴿واستوت﴾ أي استقرت واعتدلت السفينة ﴿على الجودي﴾ إشارة باسمه إلى أن الانتقام العام قد مضى، وما بقي إلا الجود بالماء والخير والخصب والرحمة العامة، وهو الجبل بالموصل بعد خمسة أشهر؛ قال قتادة: استقلت بهم لعشر خلون من رجب وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء ﴿وقيل﴾ أي إعلماً بهوان المهلكين والراحة منهم ﴿بعداً﴾ هو من بعد - بالكسر مراداً به البعد من حيث الهلاك، فإن حقيقته بعدُ بعيد لا يرجى منه عود، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء، وعبر بالمصدر لتعليقه باللام الدالة على الاستحقاق والاختصاص ﴿للقوم﴾ أي المعهودين في هذه القصة التي كان فيها من شدة القيام فيما يحاولونه ما لا يعلمه إلا الله ﴿الظلمين﴾ أي العريقين في الظلم، وهذه الآية تسع عشرة لفظة فيها أحد وعشرون نوعاً من البديع - عدها أبو حيان وقال: وروي أن أعرابياً سمعها فقال: هذا كلام القادرين. وذكر الرماني عدة من معانيها، منها إخراج الأمر على جهة التعظيم لفاعله من غير معاناة ولا لغوب، ومنها حسن تقابل المعاني، ومنها حسن ائتلاف الألفاظ، ومنها حسن البيان في تصوير الحال، ومنها الإيجاز من غير إخلال، ومنها تقبل الفهم على أتم الكمال؛ والبلع: إجراء الشيء في الحلق إلى الجوف؛ والإقلاع: إذهاب الشيء من أصله حتى لا يبقى له أثر؛ والغيب: غيبة الماء في الأرض على جهة النشف وإبراز الكلام على البناء للمفعول أدل على الكبرياء والعظمة للفاعل للإشارة إلى أنه معلوم لأنه لا يقدر على مثل هذه الأفعال غيره، ونقل الأصبهاني عن صاحب المفتاح فيها كلاماً أغلى من الجوهر.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٥٥) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَاكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْطُ إِسْلَمِي مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمِتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَنَا عَذَابُ الْيَوْمِ ﴿٥٨﴾ .

ولما كان الاستثناء من أهله في قوله: ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ يجوز أن يراد به امرأته فقط، فتكون نجاة ابنه جائزة، وكان ما عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من فرط الشفقة على الخلق لا سيما الأقارب يحملهم على السعي في صلاحهم ما كان

لذلك وجه كما تقدم مثل ذلك في قوله تعالى ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] لأن أجنحة الخلق كسيرة وأيديهم قصيرة وأمرهم ضعيف وحالهم رث، فأدنى هوان يورثهم الخسران، وأما جناب الحق ففسيح وشأنه عظيم وأمره عليّ، فلا يلحقه نقص بوجه ولا يدانيه ضرر ولا يعتري أمره وهن، لما كان ذلك كذلك، سأل نوح عليه السلام نجاة ولده كما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ أي الذي عوده بالإحسان الجزيل، ودل سبحانه بالعطف بالفاء دون أن يأتي بالاستئناف المفسر للدعاء على أن ما ذكر هنا من نداء نوح عليه السلام بعض ندائه وأن هذا المذكور مرتب معقب على شيء منه سابق عليه أقربه أن يكون ما أرشده إليه سبحانه في سورة المؤمنين ويشعر به قوله تعالى بعد هذا جواباً له ﴿يَنُوحِ اهْبِطْ بِسَلْمٍ مِنَّا﴾ فيكون تقدير الكلام قال: رب أنزلني منزلاً مباركاً - وما قدر له من الكلام ﴿فَقَالَ﴾ أي عقبه لما حملة على ذلك من رحمة النبوة وشفقة الأبوة وسجية البشر متعرضاً لنفحات الرحمة وعواطف العفو؛ أو الفاء تفصيل لمجمل «نادى» مثل ما في: توضع فغسل ﴿رب إن ابني﴾ أي الذي غرق ﴿من أهلي﴾ أي وقد أمرتني بحمل أهلي، وذلك الأمر محتمل للإشارة إلى إرادة نجاتهم ﴿وإن وعدك الحق﴾ أي الكامل في نجاتهم إلا من سبق عليه القول، وقد علمت ذلك في المرأة الكافرة ﴿وَأنت أحكم الحكمين *﴾ لأنك أعلمهم، ومن كان أعلم كان أحكم فتعلم أن قولك ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ يصح باستثنائها وحدها، فإن كان ابني ممن نجا فأتني به؛ وإن كان هذا الدعاء عند حيلولة الموج بينهما فالمعنى: فلا تهلكه ﴿قال ينوح﴾ وأكد في نفي ما تقدم منه إثباته فقال: ﴿إنه ليس من أهلك﴾ أي المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره، ولهذا علل بقوله: ﴿إنه عمل﴾ أي ذو عمل، ولكنه جعله نفس العمل في قراءة الجماعة مبالغة في ذمه، وذلك لأن الجواهر متساوية الأقدام في نفس الوجود لا تشرف إلا بآثارها، فبين أنه ليس فيه أثر صالح أصلاً، ويثبت قراءة يعقوب والكسائي بالفعل أن من باشر السوء مطلق مباشرة وجبت البراءة منه، ولا سيما للأمر فلا يواصل إلا بإذن، وعبر بالعمل دون الفعل لزعمه أن أعماله مبنية على العلم، وأكده لما لا يخص من سؤال نوح عليه السلام هذا ﴿غير صالح﴾ بعلمي، وقد حكمت في هذا الأمر أنني لا أنجي منه إلا من اتصف بالصالح وأنا عليم بذات الصدور، وأنت يخفي عليك كثير من الأمور فربما ظننت الإيمان بمن ليس بمؤمن لبناك الأمر على ما نراه من ظاهره؛ وقد نقل الرمانى عن الحسن أنه كان يناقق بإظهار الإيمان، وهذا يدل على أن الموافق في الدين ألصق ما يكون وإن كان في غاية البعد في النسب، والمخالف فيه أبعد ما يكون وإن كان في غاية القرب في النسب.

ولما تسبب عن هذا الجواب أن ترك السؤال كان أولى، ذكر أمراً كلياً يندرج فيه فقال: ﴿فلا تسألن﴾ أي بنوع من أنواع السؤال ﴿ما ليس لك به علم﴾ فلا تعلم أصواب السؤال فيه أم لا، لأن اللائق بأمثالك من أولى القرب بناء أمورهم على التحقيق وانتظار الإعلام منا، انظر إلى قول موسى عليه السلام في حديث الشفاعة في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها^(١). ومن المعلوم أن تلك النفس كانت كافرة من آل فرعون ﴿إني أعظك﴾ بمواعظي كراهية ﴿أن تكون﴾ أي كوناً تتخلق به ﴿من الجهلين﴾ أي في عداد الذين يعملون بالظن لأنهم لا سبيل لهم إلى الوقوف على حقائق الأمور من قبلنا فتسأل مثل ما يسألون.

ولما انجلى للسامع ما هو فيه ﷺ من علو المقام وعظيم الشأن الموجب للعقاب على كثير من الصواب فتشوف للجواب، استأنف بيانه بقوله: ﴿قال﴾ أي مبادراً على ما يقتضيه له من كمال الصفات ﴿رب﴾ أي أيها المحسن إليّ، وأكد دلالة للسامعين على عظيم رغبته فقال: ﴿إني أعوذ بك أن﴾ أي من أن ﴿أسألك﴾ أي في شيء من الأشياء ﴿ما ليس لي به علم﴾ تادباً بإذتك واتعاضاً بموعظتك وارتقاء لما رقيتني إليه من علو الدرجة ورفيع المنزلة ﴿ولا تغفر لي﴾ أي الآن وفي المستقبل ﴿وترحمني﴾ أي تستر زلاتي وتمحها وتكرمني ﴿أكن من الخسرين﴾ أي العريقين في الخسارة فكأنه قيل: ماذا أجيب عن ذلك؟ فقيل: ﴿قيل﴾ بالبناء للمفعول دلالة على العظمة والجلال الذي تكون الأمور العظيمة لأجله بأدنى إشارة ﴿ينوح أهبط﴾ أي من السفينة ﴿بسلم﴾ أي عظيم ﴿منا﴾ أي ومن سلمنا عليه فلا هلك يلحقه ﴿وبركت﴾ أي خيرات نامية عظيمة صالحة ﴿عليك﴾ أي خاصة بك ﴿وعلى أمم﴾ ناشئة ﴿ممن معك﴾ لكونهم على ما يرضينا ولا نمتعهم بالدنيا إلا قليلاً، ولهم إذا رجعوا إلينا نعيم مقيم، وقد دخل في هذا الكلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ﴿وأمم﴾ أي منهم ﴿سنمتعهم﴾ في الدنيا بالسعة في الرزق والخفض في العيش على وفق علمنا وإرادتنا ولا بركات عليهم منا ولا سلام، فالآية من الاحتباك: ذكر البركات والسلام أولاً دليلاً على نفيهما ثانياً، والمتاع ثانياً، دليلاً على حذفه أولاً ﴿ثم يمسه﴾ أي في الدارين أو في الآخرة أو فيهما ﴿عذاب اليم﴾ لجرهم على غير هدينا وجرأتهم على ما يسخطنا، ويجوز أن يكون ﴿وأمم﴾ مبتدأ من غير تقدير صفة محذوفة، فيكون المسوغ للابتداء كون المقام مقام التفضيل؛

(١) صحيح. هو بعض قول موسى عليه السلام في حديث الشفاعة أخرجه البخاري ٣٣٤٠ و ٣٣٦١ و

٤٧١٢ ومسلم ٤٩١ والترمذي ٢٤٣٤ وابن حبان ٦٤٦٥ والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٢٥

وابن أبي عاصم في السنة ٨١١ وأحمد ٤٣٥/٢ و ٤٣٦ كلهم من حديث أبي هريرة.

والعياذ: طلب النجاة بما يمنع من الشر؛ والبركة: ثبوت الخير بنمائه حالاً بعد حال، وأصله الثبوت، ومنه البروك والبركة لثبوت الماء فيها.

ذكر قصة نوح عليه السلام من التوراة وهو نوح بن لمك بن متوشلح بن خنوخ بن يارد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام، وذلك لأنه في أوائل السفر الأول منها: وإن آدم طاف نحو حليلته فحبلت وولدت ابناً فسماه شيث وقال: الآن أخلف الله عليّ نسلًا آخر بدل هايل الذي قتله قابيل، وذلك بعد أن عاش آدم مائة وثلاثين سنة، وكان جميع حياة آدم تسعمائة وثلاثين سنة، وعاش شيث مائة وخمس سنين فولد له أنوش، وكان جميع حياة شيث تسعمائة واثنيتي عشرة سنة، فعاش أتوش تسعين سنة فولد له قينان وكان جميع حياة أنوش تسعمائة وخمس سنين، وعاش قينان سبعين سنة فولد له مهلايل وكان جميع حياة قينان تسعمائة وعشرين سنة، وعاش مهلايل خمساً وستين سنة فولد له يارد وكانت مائة واثنيتي وستين سنة فولد له خنوخ فكانت جميع حياة يارد تسعمائة واثنيتي وستين سنة، وعاش خنوخ خمساً وستين سنة فولد له متوشلح وكانت جميع حياة خنوخ ثلاثمائة وخمساً وستين سنة، وعاش متوشلح مائة وسبعاً وثمانين سنة فولد له لمك وكانت جميع حياة متوشلح تسعمائة وتسعاً وستين سنة، وعاش لمك مائة واثنيتي وثمانين سنة فولد له ابن فسماه نوحاً، ثم قال: هذا يريحنا من أعمالنا، وكذ أيدينا في الأرض التي قد لعنها الله، وكانت جميع أيام حياة لمك سبعمائة وسبعاً وسبعين سنة، وتوفي ونوح ابن خمسمائة سنة. فولد لنوح بنون: سام وحام ويافت، فلما بدأ الناس أن يكثروا على وجه الأرض وولد لهم البنات نظر بنو الأشراف منهم بنات العامة حسناً جداً فأخذوا منهم النساء على ما اختاروا وأحبوا، فقال الله عند ذلك: لا تحل عنايتي وشفقتي على هؤلاء الناس لأنهم يتبعون أهواء الجسد واللحم وكانت على الأرض جبابرة في تلك الأيام ومن بعدها، لأن بني الأشراف دخلوا على بنات العامة فولد لهم جبابرة مذكورون، فرأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض هوىء فكرهم وحقدهم ردىء في جميع الأيام، فقال الرب: أمحق الذين خلقت وأبيدهم عن جديد الأرض من الناس والبهائم حتى الهوام وطير السماء؛ وظفر نوح من الله برحمة ورافة، وكان نوح رجلاً باراً تقياً في حقه فأرضى الله، وفسدت الأرض بين يدي الله وامتألت إثماً وفجوراً، فرأى الرب الإله أن الأرض قد فسدت وقال الله لنوح: قد وصل إلى أمر جميع الناس وسوء أعمالهم لأن الأرض قد امتألت إثماً وفجوراً بسوء سيرتهم. فهأنذا مفسدهم مع الأرض فاتخذ لك أنت تابوتاً مربعاً من خشب الساج - وفي نسخة: الشمشار - واجعل في التابوت علالي. واطلها بالقار من داخلها وخارجها،

وليكن طول الفلك ثلاثمائة ذراع. وعرضه خمسين ذراعاً، وسمكه ثلاثين ذراعاً، واجعل في التابوت كوى وليكن عرضها من أعلاها ذراعاً واحداً، واجعل باب الفلك في جانبه، واجعل فيه منازل أسفل وأوسط وعلالي. وهأنذا محدر ماء الطوفان على الأرض لأفسد به كل ذي لحم فيه نسمة الحياة من تحت السماء، ويبيد كل ما على الأرض، وأثبت عهدي بيني وبينك. وتدخل التابوت أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك، ومن كل حي من ذوي اللحوم من كل صنف اثنان لتحيى معك، ولتكن ذكوراً وإناثاً، من كل الطيور كأجناسها. ومن الأنعام لأصنافها، ومن كل الهوام التي تدب على الأرض لجواهرها، اثنين اثنين أدخل معك من كلها لتستحيها ذكراً وأنثى، واجعل من كل ما يؤكل فاخزنه معك، وليكن مأكلك ومأكلها؛ فصنع نوح كل شيء كما أمر الله ثم قال الله لنوح: ادخل أنت وكل أهل بيتك إلى التابوت لأنني إياك وجدت باراً تقياً في هذا الحقب، ومن كل الأنعام الزكية أدخل معك سبعة سبعة من الذكور والإناث، ومن الأنعام التي ليست بزكية أدخل معك اثنين ذكوراً وإناثاً. ومن الطير الزكي سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً، ومن الطير الذي ليس بزكي اثنين اثنين ذكوراً وإناثاً، ليحيى منها نسل على وجه الأرض، لأنني من الآن إلى سبعة أيام أهبط القطر على وجه الأرض أربعين يوماً ولياليها، وأبدي كل ما خلقت على وجه الأرض؛ فصنع نوح كما أمره الرب الإله. فلما كان بعد ذلك بسبعة أيام نزلت مياه الطوفان، تفجرت مياه الغمر وتفتحت مخاب^(١) السماء. وأقبلت الأمطار على وجه الأرض أربعين نهاراً وأربعين ليلة، وفي هذا اليوم دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح ونساء بنيه الثلاث معه الفلك هم وجميع السباع لأجناسها وجميع الدواب لأصنافها وكل حشرة تدب على الأرض بجواهرها وجميع الطيور لأجناسها، ودخل مع نوح التابوت من كل عصفور ومن كل ذي جناحين اثنان اثنان، ومن كل ذي لحم فيه روح الحياة وكل شيء دخل من ذوي اللحوم دخلوا ذكوراً وإناثاً كما أمر الله نوحاً، ثم أغلق الله الباب عليه، وكان الطوفان على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة، وكثرت المياه حتى احتملت التابوت فارتفع عن الأرض، وغرزت المياه وكثرت على الأرض جداً وجعل التابوت يسير على وجه الماء واشتدت المياه على وجه الأرض جداً جداً. وتوارت جميع الجبال العالية الشاهقة التي تحت السماء، وارتفعت المياه من فوق كل جبل خمسة عشر ذراعاً، وياد كل ذي لحم على الأرض من الطيور أجمع والسباع والدواب وجميع الحشرة التي تدب على الأرض وجميع الناس والبهائم، ومات كل شيء كان فيه نسمة الحياة مما في

(١) نَعَبْتُ الماء: فَجَّرْتُهُ وَالثَّعْبُ: مَسِيلُ الْمَاءِ فِي الْوَادِي.

الييس . وبقي نوح ومن معه في الفلك ، واشتدت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً ؛ وإن الله ذكر نوحاً وكل السباع والدواب وجميع الطيور التي معه في التابوت . فأهاج الله ريحاً على وجه الأرض فسكنت المياه والأمطار . واشتدت يناابيع الغمر وميازيب وغاضت المياه بعد مائة وخمسين يوماً ، وسكن التابوت ووقف في الشهر السابع لثلاث عشرة ليلة بقيت من الشهر على جبال قودي وجعلت المياه تنصرف وتنتقص إلى الشهر العاشر ، وظهرت رؤوس الجبال في أول يوم الشهر العاشر ، فلما كان بعد ذلك بأربعين يوماً فتح نوح الكوة التي عملها في التابوت فأرسل الغراب ، فخرج الغراب من عنده فلم يعد إليه حتى يبست المياه عن وجه الأرض ، ثم أرسل الحمامة من بعده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض فلم تجد الحمامة موضعاً لموطئ رجلها فرجعت إلى التابوت لأن المياه كانت بعد على وجه الأرض ، فمد يده فأخذها وأدخلها إليه وانتظر سبعة أيام أخرى ، ثم عاد فأرسل الحمامة فعدت عند المساء وفي منقارها ورقة زيتون ، فعلم أن الماء قد غاض عن وجه الأرض فصبر أيضاً سبعة أيام آخر ، ثم أرسل الحمامة فلم تعد إليه أيضاً ، ففتح نوح باب الفلك فرأى فإذا وجه الأرض قد ظهر وجفت الأرض . فكلم الرب الإله نوحاً وقال له : اخرج من التابوت أنت وامراتك وبنوك ونساء بنيك معك وكل السباع التي معك من كل ذي لحم والطيور والدواب ، وأخرج كل الهوام التي تدب على الأرض معك ، ولتتولد وتنمو في الأرض وتكثر وتزداد على الأرض . فخرج نوح ومن ذكر وبنى للرب مذبحاً وأخذ من جميع الدواب والطيور الزكية فأصعد منها على المذبح قرباناً للرب الإله ، فقال الرب الإله : لا أعود ألعن الأرض أبداً من أجل أعمال الناس لأن هوى قلب الإنسان وحقده رديء منذ صباه ولا أعود أيضاً أبعد كل حي كما فعلت ، ومن الآن جميع أيام الأرض يكون فيها الزرع والحصاد والبرد والحر والقيظ والشتاء ، فبارك الله على نوح وبنيه وقال لهم : انموا واكثروا واملؤوا الأرض ، وليغش رعبكم وخوفكم جميع السباع وبهائم الأرض وكل طيور السماء وكل دابة تدب على الأرض ، وجميع حيتان البحور تكون تحت أيديكم ، وكل الدواب الطاهرة الحية تكون لأكلكم ، وقد جعلت الأشياء كلها حلالاً لكم مثل عشب البرية وخضرها ، وأما المخنوق الذي دمه فيه فلا تأكلوه فإن دمع نفسه ، وأما دماؤكم من أنفسكم فأطلبها بالنهي من يد جميع الحيوان ومن يد جميع الناس ، أي إنسان قتل أخاه طالبته بدمه ، ومن سفك دم الإنسان سفك دمه لأن الله خلق آدم بصورته ، وأنتم فأنموا واكثروا وولدوا في الأرض واكثروا فيها ؛ وقال الله لنوح ولبنيه معه : هأنذا مثبت عهدي بيني وبينكم ومع أنسالكم من بعدكم ومع كل نفس حية منكم ،

ومع الطيور والدواب ومع كل سباع الأرض جميع الذين خرجوا من الفلك . وأثبت عهدي بيني وبينكم فلا يبيد كل ذي لحم أيضاً بماء الطوفان ولا يهبط الطوفان أيضاً ليفسد جميع الأرض، قال الله لنوح: هذه علامة لعهدي الذي أجعله بيني وبينكم وبين كل نفس حية معكم في جميع أحقاب العالم، قد أظهرت قوسي في السحاب فهي أمانة ذكر العهد الذي بيني وبينك وبين أهل الأرض، فإذا أنشأت السحاب في الأرض وأظهرت قوس السحاب فاذكروا العهد الذي بيني وبينكم، وكان بنو نوح الذين خرجوا معه من التابوت سام وحام ويافث، وحام يكنى أبا كنعان، هؤلاء الثلاثة ثم بنو نوح، وتفرق الناس من هؤلاء في الأرض كلها؛ ثم ذكر أن نوحاً عليه السلام نام فرأى حام عريه فأظهر ذلك لأخويه، فتناول سام ويافث رداء فألقياه على أكتافهما ثم سعيا على أعقابهما مدبرين فواريا عرى أبيهما، فلما علم نوح ما صنع ابنه الأصغر دعا عليه أن يكون عبداً لأخويه، وكانت جميع أيام حياة نوح تسعمائة سنة وخمسين سنة، ثم توفي عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام؛ ثم ذكر أن الناس بعده أرادوا أن يبنوا صرحاً لاحقاً بالسماء، واجتمع جميعهم على ذلك لأن لغتهم كانت واحدة ورأيهم واحد ففرق الله ألسنتهم وفرقهم من هنالك على وجه الأرض ولم يبنوا القرية التي هموا بها، ولذلك سميت بابل وبوبال معناه بالعبراني: الشتات، وما في تفسير البغوي وغيره من أن عوج ابن عوق - بضمهما كما في القاموس - كان في زمن نوح وسلم من الطوفان، وأن الماء لم يجاوز ركبتيه ونحو هذا كذب بحت منابذ لقوله تعالى: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرورون﴾ [هود: ٢٧] وقوله: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ وقوله: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح: ٢٦] ونحوها، فإن كل من ذكر ذلك ذكر أن موسى عليه السلام قتله كافراً.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا اسْتَلْكُم عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

ولما تمت هذه القصة على النحو الوافي ببيان اجتهاد نوح عليه السلام في إبلاغ الإنذار من غير مراعاة إقبال ولا إدبار، وكانت مع ذلك دالة على علم تام واطلاع على دقائق لا سبيل إليها إلا من جهة الملك العلام، فهي على إزالة اللبس عن أمره ﷺ

أوضح من الشمس، قال تعالى منبهاً على ذلك: ﴿تلك﴾ أي هذه الأنباء البديعة الشأن الغربية الأمر البعيدة عن طوق المعارض، العلية الرتب عن يد المتناول ﴿من أنباء الغيب﴾ أي أخباره العظيمة، ثم أشار إلى أنه لا يزال يجدد له أمثالها بالمضارع في قوله: ﴿نوحياً إليك﴾ فكأنه قيل: إن بعض أهل الكتاب يعلم بعض تفاصيلها، فأشار إلى أن ذلك مجموع غيب وبما يعلمونه غيب نسبي بقوله: ﴿ما كنت تعلمها﴾ أي على هذا التفصيل ﴿أنت﴾ ولما كان خفاءها عن قومه دليلاً على خفائها عنه لأنه لم يخالط غيرهم قال: ﴿ولا قومك﴾ أي وإن كانوا أهل قوة في القيام على ما يحاولونه وعدداً كثيراً، ومنهم من يكتب ويخالط العلماء.

ولما كان زمان خفاء ذلك عنهم - وإن كان عاماً لهم - بعض الزمان الماضي، أدخل الجار فقال: ﴿من قبل هذا﴾ أي من إيحائي إليك حتى يطرق الوهم حينئذ أنك تعلمتها من أحد منهم وإن كان يعلم كثيراً منها أهل الكتاب كما رأيت عن نص التوراة فبان أن لا غرض لقومك إلا العناد ﴿فاصبر﴾ على ذلك ولا تفتقر عن الإنذار فستكون لك العاقبة كما كانت لنوح لأجل تقواه ﴿إن العاقبة﴾ أي آخر الأمر من الفوز والنصر والسعادة ﴿للمتقين﴾ أي العريقين في مخافة الله في كل زمن، وقد تضمنت القصة البيان عما يوجبه حال أهل الخير والإيمان وأهل الشر والطغيان من الاعتبار بالنبا عن الفريقين ليحتبي حال هؤلاء ويتقي حال أولئك لسوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

ولما تم من ذلك ما هو كفيل بغرض السورة، وختم بأن العاقبة دائماً للمتقين، أتبع بالدليل على ذلك من قصص الأنبياء مع الوفاء بما سيقنت له قصة نوح - على جميعهم السلام - من الحث على المجاهرة بالإنذار فقال تعالى: ﴿والى﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ﴿عاد أخاهم﴾ وبينه فقال: ﴿هوداً﴾ ولما تقدم أمر نوح مع قومه، استشرف السامع إلى معرفة ما قال هود عليه السلام هل هو مثل قوله أو لا؟ فاستأنف الجواب بقوله: ﴿قال يقوم﴾ الذين هم أعز الناس لدي ﴿اعبدوا الله﴾ أي ذا الجلال والإكرام وحده؛ ثم صرح وعلل فقال: ﴿ما لكم﴾ وأغرق في النفي فقال: ﴿من إله﴾ أي معبود بحق ﴿غيره﴾ فدعا إلى أصل الدين كما هو دأب سائر النبيين والمرسلين؛ ثم ختم ذلك بمواجهتهم بما يسوءهم من الحق وما ثناه عن ذلك رجاء ولا خوف فقال: ﴿إن﴾ أي ما ﴿أنتم إلا مفترون﴾ أي متعمدون الكذب على الله في إشراككم به سبحانه لأن ما على التوحيد من أدلة العقل غير خاف على عاقل فكيف مع تنبيه النقل! وذلك مكذب لمن أشرك، أي فاحذروا عقوبة المفترين؛ ثم نفى أن يكون له في ذلك غرض غير نصيحهم بقوله موضع ﴿إني ناصح لكم بهذا الأمر فلا يسوءكم مواجهتي لكم فيه بما تكرهون﴾

﴿يقوم﴾ مكرراً لاستعطاف ﴿لا أسألكم﴾ أي في المستقبل كما لم أسألكم في الماضي ﴿عليه﴾ أي على هذا الإنذار ﴿أجراً﴾ أي فليست موضع تهمة ﴿إن﴾ أي ما؛ ﴿أجري﴾ ثم وصف من توكل عليه سبحانه بما يدل على الكفاية فعلي وجوب شكره فقال: ﴿إلا على الذي فطرني﴾ أي ابتداء خلقي ولم يشاركه في أحد فهو الغني المطلق لا أوجه رغبتني إلى غيره كما يجب على كل أحد ذلك لكونه فطرة.

ولما كان الخلاف الذي لا حظ فيه جهة الدنيا لا يحتاج الإنسان في الدلالة على أن صاحبه ملجأ إليه من جهة الله، وأنه لا نجاة إلا به إلى غير العقل، سبب عن قوله هذا الإنكار عليهم في قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾.

ولما دعاهم مشيراً إلى ترهيبهم مستدلاً على الصدق بنفي الغرض، رغبتهم في إدامة الخوف مما مضى بقوله: ﴿ويقوم﴾ ومن هم أعز الناس علي ولهم قدرة على ما طلب منهم ﴿استغفروا ربكم﴾ أي اطلبوا غفرانه بطاعتكم له لما يجب له بإحسانه إليكم. وأشار إلى علو رتبة التوبة بأداة التراخي فقال: ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي تسموا عالي هذه الرتبة بأن تطلبوا ستر الله لذنوبكم ثم ترجعوا إلى طاعته بالندم والإقلاع والاستمرار ﴿يرسل السماء﴾ أي الماء النازل منها أو السحاب بالماء ﴿عليكم مدراراً﴾ أي هاطلة بمطر غزير متتابع ﴿ويزدكم قوة﴾ أي عظيمة مجموعة ﴿إلى قوتكم﴾ ثم عطف على قوله ﴿استغفروا﴾ قوله: ﴿ولا تتولوا﴾ أي تكلفوا أنفسكم غير ما جبلت عليه من سلامة الانقياد فتبالغوا في الإعراض - بما أشار إليه إثبات التاء ﴿مجرمين﴾ أي قاطعين لأنفسكم - ببناء أمركم على الظنون الفاسدة عن خيرات الدنيا والآخرة.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٧﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيئِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

ولما محتض لهم النصح على غاية البيان، ما كان جوابهم إلا أن ﴿قالوا﴾ أي عاد بعد أن أظهر لهم هود عليه السلام من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر ﴿يهود﴾ نادوه باسمه غلظة وجفاء ﴿ما جئتنا ببينة﴾ فأوضحوا لكل ذي لب أنهم مكابرون لقويم العقل وصريح النقل، فهم مفترون كما كان العرب يقولون للنبي ﷺ بعد أن اتاهم من الآيات على يده ما يفوت الحصر ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ ﴿وما نحن﴾ وأغرقوا في النفي فقالوا: ﴿بتاركي آلهتنا﴾ مجاوزين لها أو صادرين ﴿عن قولك﴾ وتركهم للعطف بالفاء -

المؤذنة بأن الأول سبب للثاني أي الواو في قولهم: ﴿وما نحن لك﴾ أي خاصة، وأغرقوا في النفي فقالوا: ﴿بمؤمنين *﴾ - دليل على أنهم تركوا إتباعه عناداً، لا أنهم يعتقدون أنه لم يأت ببينة؛ وإلى ذلك يرشد أيضاً تعبيرهم بالاسمية التي تدل على الثبات فإذا نفي لم ينتف الأصل؛ والبينة: الحجة الواضحة في الفصل بين الحق والباطل، والبيان: فصل المعنى من غيره حتى يظهر للنفس محرراً مما سواه، والحامل على ترك البينة بعد ظهورها صد الشبهة عنها أو تقليد الرؤساء في دفعها واتهام موردها أو اعتقاد أصول فاسدة تدعو إلى جحدها أو العناد للحسد ونحوه، والجامع له كله وجود الشبهة.

ولما قالوا هذا الكلام البين الفساد من غير تعرض لنقض ما قال لهم بنوع شبهة، كان كأنه قيل لهم: هذا الذي قلته لكم وهو لا أبين منه ولا أعدل، افرضوا أنه ما ظهر لكم صحته فما تقولون إنه حملني عليه مع أن فيه منابذتكم وأنتم أولاد عمي وأعز الناس عليّ؟ فقالوا: ﴿إن نقول إلا اعترك﴾ أي أصابك وغشيك غشياناً التصق بك التصاق العروة بما هي فيه مع التعمد والقوة ﴿بعض آلهتنا بسوء﴾ من نحو الجنون والخبال فذاك الحامل لك على النهي عن عبادتها.

ولما كان الطبع البشري قاضياً بأن الإنسان يخشى ممن مسه بسوء وهو يتوهم أنه قادر على ضرره فلا يواجهه بما يكره، وكان قولهم محرراً للسامع إلى الاستعلام عن جوابه لهم، استأنف سبحانه الإخبار عنه بقوله: ﴿قال﴾ نافياً لما قالوا مبيناً أن آلهتهم لا شيء ضاماً لهم معها، وأكد لأنهم بحيث لا يظنون أن أحداً لا يقول ما قاله ﴿إني أشهد الله﴾ أي الملك الأعظم ليقوم عذري عنده وعدل أدياً مع الله عن أن يقول: وأشهدكم - لثلاث يتوهم تسوية - إلى صيغة الأمر تهاوناً بهم فقال: ﴿واشهدوا﴾ أي أنتم لتقويم الحجة عليكم لأیکم ويبين عجزكم ويعرف كل أحد أنكم بحيث يتهاون بكم وبدينكم ولا يبالي بكم ولا به ﴿إني بريء مما تشركون *﴾ وبين سفولها بقوله: ﴿من دونه﴾ كائناً ما كان ومن كان، فكيف إذا لم يكن إلا جماداً ﴿فكيدوني﴾ حال كونكم ﴿جميعاً﴾ أي فرادى إن شئتم أو مجتمعين أنتم وآلهتكم.

ولما كانت المعاجلة في الحرب أهول، وكان شأنها أصعب وأخطر، بين عظمها بأداة التراخي فقال: ﴿ثم لا تنظرون *﴾ والكيد: طلب الغيظ بالسر في مكر، وهذه الآية من أعلام النبوة الواضحة لهود عليه السلام، فكأنه قيل: هب أن آلهتنا لا شيء، فما حملك على الاجترار على مخالفتنا نحن وأنت كثرتنا وقوتنا وأنت لا تزيد على أن تكون واحداً منا فقال: ﴿إني﴾ أي جسرت على ذلك لأنني ﴿توكلت﴾ معتمداً ﴿على﴾ الله ﴿الملك المرهوب عقابه الذي لا ملك سواه ولا رب غيره؛ وبين إحاطة ملكه بقوله:

﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي الذي أوجدنا ودبر أمورنا قبل أن يخلقنا فعلم ما يعمل كل منا في حق الآخر لأنه ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي صغرت أو كبرت ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ﴾ أي أخذ قهر وغلبة ﴿بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي قادر عليها، وقد صار الأخذ بالناصية عرفاً في القدرة، لأن الكل جارون مع مراده لا مع مرادهم بل لا ينفك أحد عن كراهة لبعض ما هو فيه فدل ذلك قطعاً على أنه بغير مراده وإنما هو بمراد قاهر قهره على ذلك وهو الملك الأعلى سبحانه؛ والناصية: شعر مقدم الرأس، ومن أخذ بناصره فقد انقاد لأخذه لا يستطيع ميلاً ﴿إِنْ﴾ أي لأن ﴿رَبِّي﴾ أي المحسن إليّ بما أقامني فيه ﴿عَلَى صِرَاطٍ﴾ أي طريق واسع بين ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ ظاهر أمره لكل أحد لا لبس فيه أصلاً ولا خلل ولا اضطراب ولا اعوجاج بوجه، فلذلك كان كل من في الكون يتأله ويدعو ويخافه ويرجوه وإن اتخذ بعضهم من دونه شركاء، وأما ما يعبد من دونه فلا يعظمه إلا عابده، وأما غير عابده فإنه لا يقيم له وزناً؛ فصح بهذا أنه غالب على كل شيء غلبة يعلمها كل موجود من غير خفاء أصلاً، فهو مرجو مرهوب بإجماع العقلاء بخلاف معبوداتكم، والحاصل أنه يلزم الصراط المستقيم الظهور، فيلزم عدم الاختلاف لانتفاء اللبس، فمن كان عليه كان عليّ القدر شهير الأمر، بصيراً بما يريد، مع الثبات والتمكن، مرهوب العقاب، مقصوداً بالاتباع والمحبة، من لم يقبل إليه ضل، ومن أعرض عنه أخذ لكثرة أعدائه وعز سلطانه، فظهرت قدرته على عصمة من يتوكل عليه وعجز معبوداتهم معهم، لأن نواصي الكل بيده وهو ربها وربهم ورب كل شيء، فقد انطبق ختام الآية على قولهم ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ رداً له لأن من كان على صراط مستقيم لم يكن شيء أبين من أمره، وعلى جوابه في توكله وما في حيزه أتم انطباق؛ والناصية: مقدم الشعر من الرأس، وأصلها الاتصال من قولهم: مفاضة تناصي مفاضة - إذا كانت متصلة بها.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَضِيَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ إِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ .

ولما استوفى تشييده أمره وهدم قولهم، أخذ يحذرهم فقال مبيناً أن العدول عما جاء به لا يكون إلا بمعالجة الطبع السليم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ولو أدنى تولية - بما يشير إليه حذف التاء، فعليكم اللوم دوني، لأنني فعلت ما عليّ ﴿فَقَدْ﴾ أي بسبب أنني قد

﴿أبلغتكم ما﴾ أي كل شيء ﴿أرسلت﴾ أي تقدم إرسالي من عند من لا مرسل في الحقيقة غيره ﴿به إليكم﴾ كاملاً لم أَدع منه شيئاً رجاء لإقبالكم ولا خوفاً من إعراضكم، فأبَيْتُم إلا التَّكْذِيب لي والاستكبار عما جئت به، فالذي أرسلني ينتقم منكم فيهلككم ﴿ويستخلف ربي﴾ أي يوجد المحسن إليّ بإقامتي فيما يرضيه ﴿قوماً غيركم﴾ يخلفونكم في دياركم وأموالكم، فتكونون أعداءه، ويكون المستخلفون متعرضين لأن يكونوا أولياء مع كونهم ذوي بأس وقوة فيختص الضرر بكم ﴿ولا تضرونه﴾ أي الله بإعراضكم ﴿شيئاً﴾ ثم علل وعيده لهم بقوله مؤكداً لأن العاصي فاعل بعصيانه فعل من يظن أن الله غافل عنه: ﴿إن ربي﴾ أي المحسن إليّ المدبر لمصالحه.

ولما كان الأهم في هذا السياق بيان استعلائه وقدرته، قدم قوله: ﴿على كل شيء﴾ صغيراً أو كبيراً جليلاً أو حقيراً ﴿حفيظ﴾ أي عالم بكل شيء وقادر على كل شيء وبالغ الحفظ له، فيعلم ما يعمل محفوظه فيجازيه بما يستحق من نعمه ونقمه، فهو تعليل لاستخلاف غيره وتزهره عن لحوق ضرر، لأن الحفظ: الحراسة، ويلزمها العلم والقدرة، فمن القدرة حافظ العين، أي لا يغلبه نوم، والحفيظة - للحمية والغضب، ومنهما معاً المحافظة - للمواظبة على الشيء؛ والتولي عن الشيء: الذهاب إلى غير جهته إعراضاً عنه؛ والإبلاغ: إلحاق الشيء نهايته؛ والاستخلاف: جعل الثاني بدلاً من الأول يقوم مقامه؛ والضرر: إيجاب الألم بفعله أو التسبب له.

ولما تم ذلك كان كأنه قيل: فلم يرجعوا ولم يرجعوا لبينة ولا رغبة ولا رهبة فأنزلنا بهم أمرنا ﴿ولما جاء أمرنا﴾ أي وقت إرادتنا لإهلاك عاد ﴿نجينا﴾ أي تنجية عظيمة بما لنا من العظمة ﴿هوداً والذين آمنوا﴾ كائنين ﴿معه﴾ في الإيمان والنجاة من قومهم فلم يقدروا أن يصلوا إليهم بسوء مع اجتهادهم في ذلك وإعجابهم بقواهم ويقال: إن الذين آمنوا كانوا أربعة آلاف.

ولما كان سبحانه بحيث لا يجب عليه لأحد شيء لأنه لا يقدر أحد أن يقدره حق وإن اجتهد في طاعته، فإن طاعته نعمة منه عليه، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿برحمة منا﴾ تحقيقاً لتوكل عبدنا؛ ولما بين إنجاءهم من قومهم بين إنجاءهم مما أهلكهم به فقال مكرراً ذكر التنجية دلالة على أن عذابهم كان في غاية الفظاعة: ﴿ونجينهم﴾ أي بما لنا من العظمة، وبين فظاعة ما أهلك به أعداءهم بقوله: ﴿من عذاب غليظ﴾ أي أهلكنا به مخالفهم وهو الريح الصرصر، وهذا أولى من حمله على عذاب الآخرة لما يأتي من قوله ﴿ومن خزي يومئذ﴾ كأنهم كانوا إذا رأوا مخايل العذاب قصدوا نبيهم ومن آمن به ليهلكوهم قبلهم كما صرح به في قصة صالح؛ والنجاة: السلامة من الهلاك؛ وحقيقة الغلظة عظم الجثة، فاستعير للعذاب لثقله على النفس وطول مكثه.

ولما تمت قصتهم على هذا الوجه البديع والأسلوب المطرب، قال تعالى عاطفاً على قوله ﴿تلك من أنبؤ الغيب﴾: ﴿وتلك عاد﴾ أي قصة القوم البعداء البغضاء، ما كنت تعلمها على هذا التفصيل أنت ولا قومك ولا أهل الكتاب، وإنما نفيت عن أهل الكتاب لأنهم لا يعلمون إلا ما له أصل عن أنبيائهم، وهذه وقصة ثمود ليستا في التوراة ولا شيء من أسفار أنبيائهم، وسألت بعض علمائهم فلم أجد عنده شيئاً من علمها ولا حرفاً واحداً ولا سمع بعاد ولا هود، وتلخيص قصتهم أنهم ﴿جحدوا﴾ أي كذبوا عناداً واستهانة ﴿بآيت ربهم﴾ المحسن إليهم ﴿وعصوا رسله﴾ فإن من عصى واحداً منهم فقد عصى الكل لانفاقهم على أمر واحد مع التساوي في مطلق المعجزة ﴿وابتعوا﴾ أي بغاية جهدهم ﴿أمر كل جبار﴾ أي قاهر بليغ القهر يجبر غيره على ما يريد، وهذا يدل على أنه لا عذر في أصل الدين بوجه فإن الضمائر لا يعلمها إلا الله فيمكن كل أحد مخالفة الجبار فيه ﴿عنيد﴾ أي طاغ باغ لا يقبل الحق بوجه، فأهلكوا ولم يمنعهم تجبرهم ولا أغنى عنهم عنادهم وتكبرهم ﴿وأتبعوا﴾ جميعاً بعد إهلاكهم بأيسر وجه لعظيم قدرة المتبع ﴿في هذه الدنيا﴾ حقرها في هذه العبارة بما أشارت إليه الإشارة مع التصغير، وبما دل على الدنو وبأن من اغتر بها فهو ممن وقف مع الشاهد لما له من الجمود ﴿لعنة﴾ أي طرداً وبعداً وإهلاكاً ﴿ويوم القيمة﴾ أي كذلك بل أشد، فكأنه قيل: أفما لمصيبتهم من تلاف؟ فقيل: لا، ﴿ألا﴾ مفتتحاً للإخبار عنهم بهذه الأداة التي لا تذكر إلا بين يدي كلام يعظم موقعه ويجل خطبه، والتأكيد في الإخبار بكفرهم تحقيق لحالهم، وفيه من أدلة النبوة وأعلام الرسالة الرد على طائفة قد حدثت بالقرب من زماننا يصوبون جميع الملل وخصوا عاداً هذه لكونها أغناهم بأن قالوا: إنهم من المقربين إلى الله وإنهم بعين الرضى منه، فالله المسؤول في الإدالة عليهم وشفاء الصدور منهم، وهم أتباع ابن عربي الكافر العنيد أهل الاتحاد، المجاهرون بعظيم الإلحاد، المستخفون برب العباد، فلذلك قال تعالى مبيناً لحالهم بياناً لا خفاء معه: ﴿إن عاداً كفروا﴾ ولم يقصر الفعل، بل عداه إعظماً لطغيانهم فقال: ﴿ربهم﴾ أي غطوا جميع أنوار الظاهر الذي لا يصح أصلاً خفاءه لأنه لا نعمة على مخلوق إلا منه، فكان كفرهم أغلظ الكفر، ومع ذلك فلم يثن هود عليه السلام عن إبلاغهم جميع ما أمر به ولا ترك شيئاً مما أوحى إليه فلك به أسوة حسنة وفيهم قدوة، ومن كفر من أحسن إليه بعد بعداً لا قرب معه.

ولما كان الأمر عظيماً والخطب جليلاً، كرر الأداة التي تقال عند الأمور الجليلة فقال: ﴿ألا بعداً لعاد﴾ هو من بعد - بكسر العين إذا كان بعده بالهلاك، وبينهم بقوله: ﴿قوم هود﴾ تحقيقاً لهم لأنهم عادان: الأولى والآخرة، وإيماء إلى أن استحقاقهم

للإبعاد بما جرى لهود عليه السلام معهم من الإنكار والدعاء عليهم بعد الهلاك كناية عن الإخبار بأنهم كانوا مستحقين للهلاك؛ والجحد: الخبر عما يعلم صحته أنه لا يعلمها، وهو ضد الاعتراف كما أن النفي ضد الإثبات، فهو خبر بمجرد العدم فهو أعم؛ والعصيان خلاف ما أمر به الداعي على طريق الإيجاب؛ واللعنة: الدعاء بالإبعاد، وأصلها الإبعاد من الخير؛ والإتباع: جعل الثاني على أثر الأول، والإبلاغ أخص منه، والمراد هنا بلوغها لهم لأن الذي قضى بذلك قادر وقد ألحق بهم عذاب الدنيا المبعد لهم من مظان الرحمة.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿١١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا لَلْإِثْمَ شِرْكًا وَمَا نَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾ ﴾ .

ولما انقضت قصة عاد على ما أراد سبحانه، أتبعها قصة من كانوا عقبهم في الزمن ومثلهم في سكنى أرض العرب وعبادة الأوثان والمناسبة في الأمر المعذب به لأن الموصل للصيحة إلى الأسماع هو الريح وفي خفاء أمرهم، مفصلاً على أهل ذلك الزمان فقال: ﴿ * وإلى ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ﴿ ثمود أخاهم ﴾ وبينه بقوله: ﴿ صلحاً ﴾ ثم أخرج قوله ﷺ على تقدير سؤال فقال: ﴿ قال يقوم ﴾ أي يا من يعز علي أن يحصل لهم سوء ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي الملك الأعظم وحده لأن عبادتكم له مع غيره ليست بشيء؛ ثم استأنف تفسير ذلك فقال: ﴿ ما لكم ﴾ أغرق في النفي فقال: ﴿ من إله غيره ﴾ جرياً على مناهج الدعاة إلى الله في أصل الدين، وهو أفراد المنعم بالعبادة.

ولما أمرهم بذلك، ذكرهم قدرته ونعمته مرغباً مرهباً فقال: ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ أنشأكم ﴾ أي ابتداء خلقكم ﴿ من الأرض ﴾ بخلق آدم عليه السلام منها بغير واسطة ويخلقكم من المني من الدم وهو من الغذاء وهو من النبات وهو من الأرض كما أنشأ أوثانكم منها ﴿ و ﴾ رفع مقداركم عليها بأن ﴿ استعمركم ﴾ أي أهللكم لما لم يؤهل له الأوثان من أن تكونوا عماراً ﴿ فيها ﴾ فلا تنسوا حق إلهكم وما فضلكم به من حق أنفسكم بخضوعكم لما لا يساويكم فكيف بمن أنشأكم وإياها؛ والإنشاء: الابتداء بالإيجاد من غير استعانة بشيء من الأسباب.

ولما بين لهم سبحانه عظمتهم، وكان الشيطان قد شبه عليهم لأنه لعظمتهم لا يوصل إليه بوسيلة كما هو حال الملوك وألقى إليهم أن الأوثان وسائل، نفى ذلك مبيناً طريق الرجوع إليه بقوله: ﴿ فاستغفروه ﴾ أي فأقبلوا بكل قلوبكم عليه طالبين أن يستر ذنوبكم؛

وذكر شرط المغفرة بقوله مشيراً بأداة البعد إلى عظيم المنزلة: ﴿ثم توبوا﴾ أي ارجعوا بجميع قلوبكم ﴿إليه﴾ ثم علل ذلك بلطفه وعطفه ترغيباً في الإقبال إليه فقال مؤكداً لأن من يرى إمهاله للعصاة يظن الظنون ومن عصاه كان عمله عمل من ينكر قربه وإجابته: ﴿إن ربي﴾ الذي أخلصت له العبادة لإحسانه إليّ وأدعوكم إلى الإخلاص له لإحسانه إليكم ﴿قريب﴾ من كل من أقبل إليه من غير حاجة إلى معاناة مشي ولا حركة جارحة ﴿مجيب﴾ لكل من ناداه لا كمعبوداتكم في الأمرين معاً.

ولما دعاهم إلى الحق ونصب لهم عليه من الأدلة ما هم به معترفون وذكرهم نعمه مومناً إلى التحذير من نقمه، وسهل لهم طريق الوصول إليه، ما كان جوابهم إلا أن سلخواه من طور البشرية لمحض التقليد، فلذلك استأنف الإخبار عن جوابهم بقوله: ﴿قالوا﴾ أي ثمود ﴿يصلح﴾ نادوه باسمه قلة أدب منهم وجفاء ﴿قد كنت فينا﴾ أي فيما بيننا إذا تذاكرنا أمرك ﴿مرجوا﴾ أي في حيز من يصح أن يرجى أن يكون فيه خير وسودد ورشد وصلاح، واستغرقوا الزمان فحذفوا الجار وقالوا: ﴿قبل هذا﴾ أي الذي دعوتنا إليه فأما بعد هذا فانسلخت من هذا العداد؛ ثم بينوا ما أوجب سقوطه عندهم بقولهم منكرين إنكار محترق ﴿أنتهنا﴾ أي مطلق نهى ﴿أن نعبد﴾ أي دائماً ﴿ما يعبد أبائنا﴾ وعبروا بصيغة المضارع تصويراً للحال كأن آباءهم موجودون فلا تمكن مخالفتهم إجلالاً لهم، فأجلوا من يرونه سبباً قريباً في وجودهم ولم يهابوا من أوجدتهم وآباءهم أولاً من الأرض وثانياً من النطف، ثم خولهم فيما هم فيه، ثم فزعوا - في أصل الدين بعد ذكر الحامل لهم على الكفر المانع لهم من تركه - إلى البهت بأن ما يوجب القطع لكل عاقل من آيته الباهرة لم يؤثر عندهم إلا ما هو دون الظن في ترك إجابته، فقالوا مؤكداً لأن شكهم حقيق بأن ينكر لأنه في أمر واضح جداً لا يحتمل الشك أصلاً: ﴿وإننا لفي شك﴾ وزادوا التأكيد بالنون واللام وبالإشارة بالظرف إلى إحاطة الشك بهم ﴿مما﴾ ولما كان الداعي واحداً وهو صالح عليه السلام لم يلحق بالفعل غير نون واحدة هي ضميرهم بخلاف ما في سورة إبراهيم عليه السلام فلذلك قالوا: ﴿تدعوننا إليه﴾ من عبادة الله وحده ﴿مريب﴾ أي موقع في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين؛ والرجاء: تعلق النفس لمجيء الخير على جهة الظن، ونظيره الأمل والطمع؛ والنهي: المنع من الفعل بصيغة لا تفعل.

﴿قَالَ يَنْقُومِ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿١١﴾ وَيَنْقُومِ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءً فَاخْذُكُمُ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٢﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ

تَمَعُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ عَيْرٍ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿١٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ إِثْمُودَ ﴿١٨﴾ .

ولما أبرزوا له أمرهم في قالب الشك على سبيل الجزم، قابلهم بمثله على سبيل الفرض إنصافاً لهم لثلاث يلائم الخطاب حال المخاطبين، فاستأنف سبحانه الإخبار عنه بذلك في قوله: ﴿قال﴾ أي صالح نادياً لهم إلى النظر في أمره برفق ﴿يقوم أروءيتم﴾ أي أخبروني ﴿إن كنت﴾ أورده بصيغة الشك لأن خطابه للجاحدين ﴿على بينة من ربي﴾ أي المحسن إليّ، لا شك عندي فيها ﴿وأتني منه رحمة﴾ أي أوامر هي سبب الرحمة ﴿فمن ينصرنني﴾ وأظهر موضع الإضمار وعبر بالاسم الأعظم لاقتضاء المقام التهويل فقال: ﴿من الله﴾ أي الملك الأعظم ﴿إن عصيته﴾ أي إن وقوعكم في الشك على زعمكم حملكم على هيئة الإباء في التلبس بأعمالهم مع زوالهم واضمحلالهم ولو كانوا موجودين وعصيتموهم لم تبالوا بهم، وأما أنا فالذي أمرني بعبادته حي قادر على جزاء من يطيعه أو يعصيه، وأقل ما يحمل على طاعته الشك في عقوبته، وهو كاف للعاقل في ترك الخطر ﴿فما﴾ أي فتسبب عن نهيكم لي عن الدعاء إليه سبحانه أنكم ما ﴿تزيدونني﴾ بذلك شيئاً في عملي بما ترومونه مني من عظمي عنه باتباعكم في عملكم أو الكف عنكم لأصير في عداد من يرجى عندكم ممن له عقل ﴿غير تخسير﴾ أي إيقاعي في الخسارة على هذا التقدير: فلا تطمعوا في تركي لشيء من مخالفتكم ما دتم على ما أنتم عليه، والآية كما ترى ناظرة إلى قوله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ .

ولما أخبرهم أن معصية الله خسران، ذكرهم أمر الناقة التي أخرجها سبحانه لهم من الأرض شاهداً على كونهم مساوين للأوثان في كونهم منها مفضلين عليها بالحياة محذراً لهم من شديد انتقامه فقال: ﴿ويقوم هذه﴾ إشارة إلى حاضر، وذلك بعد أن أخرجها لهم سبحانه عندما دعاه صالح عليه السلام؛ وبين الإشارة بقوله: ﴿ناقة الله﴾ أي الملك الأعلى، ثم بني حالاً من ﴿آية﴾ مقدماً عليها لثلاث يكون صفة لها فقال: ﴿لكم﴾ أي خاصة لنظركم إياها عندما خرجت ولكل من سمع بها بعدكم، وليس الخبر كالمعاينة، أشير إليها حال كونها ﴿آية﴾ بكون الله تعالى أخرجها لكم من صخرة، وهي عشراء على حسب ما اقترحتم وأنتم تشاهدون وبكونها تنفرد بشرب يوم، وتنفردون كلكم بشرب يوم وتنفرد برعي يوم، وتنفرد جميع الحيوانات من دوابكم ووحوش

بلادكم برعي يوم إلى غير ذلك مما أنتم له مبصرون وبه عارفون ﴿فذروها﴾ أي اتركوها على أي حالة كان ترككم لها ﴿تأكل﴾ أي مما أرادت ﴿في أرض الله﴾ أي الملك الذي له الأمر كله التي خلقها منها ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ والأكل: مضغ يقع عند بلع؛ والمس مطلق الإصابة ويكون بين الحيوان وغيره، واللمس أخص منه لما فيه من الإدراك ﴿فياخذكم﴾ أي فيتسبب عن ذلك أن يأخذكم ﴿عذاب قريب﴾ أي من زمن إصابتكم لها بالسوء؛ ثم أشار إلى قرب مخالفتهم لأمره فيها بقوله مسبباً عن أوامره ونواهيه ومعقبات: ﴿فمقروها﴾ أي الناقة ﴿فقال﴾ أي عند بلوغه الخبر ﴿تمتعوا﴾ أي أنتم تعيشون ﴿في داركم﴾ أي داركم هذه، وهي بلدة الحجر ﴿ثلثة أيام﴾ أي بغير زيادة عليها، فانظروا ماذا يغني عنكم تلذذكم وترفهم وإن اجتهدتم فيه.

ولما كان كأنه قيل: هل في هذا الوعيد مثنوية، قال مجيباً: ﴿ذلك﴾ أي الوعد العالي الرتبة في الصدق والغضب ﴿وعد غير مكذوب﴾ أي فيه؛ والتمتع: التلذذ بالمدركات الحسان من المناظر والأصوات وغيرها مما يدرك بالحواس، وسميت البلاد داراً لأنها جامعة لأهلها - كما تجمع الدار - ويدار فيها، وأشار إلى تعقب العذاب للأيام وتسببه عن الوعيد المعين بقوله: ﴿فلما جاء أمرنا﴾ بالفاء بخلاف ما في قصة هود وشعيب عليهما السلام، أي مع مضي الأيام كان أول ما فعلنا أن ﴿نجينا﴾ بما لنا من العظمة أوليائنا ﴿صلحاً والذين آمنوا معه﴾ من كيد قومهم، وبين أن إحسانه سبحانه لا يكون إلا فضلاً منه بقوله: ﴿برحمة منا﴾ وذلك أنه عليه السلام قال لهم: تصبحون غداً يوم مؤنس - يعني الخميس - ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون يوم عروبة - يعني الجمعة - ووجوهكم محمرة، ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب يوم أول - أي الأحد - فقال التسعة رهط الذين عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً قد كنا ألحقناه بناقته، فأتوه ليلاً لبيئته في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح: أنت قتلتهم! ثم هموا به فقامت عشيرته دونهم ولبسوا السلاح وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً فقد وعدكم أن العذاب يكون بكم بعد ثلاث، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ريبكم عليكم إلا غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم وراء ما تريدون، فانصرفوا فلما أصبحت وجوههم مصفرة عرفوا أنه قد صدقهم، فطلبوه ليقتلوه فجاء إلى بطن منهم يقال له (بنو غنم) فنزل على سيدهم رجل فغيبه عنده، فعدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه فقالوا: يا نبي الله! إنهم يعذبوننا لنذلهم عليك، أفندلهم؟ قال: نعم، فدلوهم عليه فأتوه فقال الغنمي: نعم عندي ولا سبيل إليه، فتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم كذا ذكر ذلك البغوي عن ابن إسحاق ووهب وغيرهما مطولاً.

ولما ذكر نجاتهم من كل هلكة، ذكر نجاتهم من خصوص ما عذب به قومهم فقال: ﴿ومن﴾ أي ونجيناهم من ﴿خزي﴾ أي ذل وفضيحة ﴿يومئذ﴾ أي يوم إذ جاء أمرنا بإهلاكهم بالصيحة وحل بهم دونهم فرقاً بين أوليائنا وأعدائنا، وحذف «نجينا» هنا يدل على أن عذابهم دون عذاب عاد؛ ثم عقب ذلك بتعليله إهلاكاً وإنجاء باختصاصه بصفات القهر والغلبة والانتقام فقال: ﴿إن ربك﴾ أي المحسن إليك كما أحسن إلى الأنبياء من قبلك ﴿هو﴾ أي وحده ﴿القوي﴾ فهو يغلب كل شيء ﴿العزيز﴾ أي القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحد عليه أو على الامتناع منه، من عز الشيء أي امتنع، ومنه العزاز - للأرض الصلبة الممتنعة بذلك عن التصرف فيها؛ والخزي: العيب الذي تظهر فضيخته ويستحي من مثله؛ ثم بين إيقاعه بأعدائه بعد إنجائه لأوليائه فقال معظماً للأخذ بتذكير الفعل: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ وأشار إلى عظمة هذه الصيحة بإسقاط علامة التأنيث وسبب عنها قوله: ﴿فأصبحوا في ديارهم جثمين﴾ أي ساقطين على وجوههم، وقيل: جاثين على الركب موتى لا حراك بهم، وتقدم سر التعبير بالديار مع الصيحة والدار مع الرجفة في الأعراف، وخصت هود بما ذكر فيها لأن لمقصودها أعظم نظر إلى التفصيل، وكل من الديار والصيحة أقرب إلى ذلك.

ولما كان الجثوم كناية عن الموت أوضحه بقوله: ﴿كان﴾ أي كأنهم ﴿لم يغنوا﴾ أي يقيموا أغنياء لاهين بالغناء ﴿فيها﴾ ثم نبه - على ما استحقوا به ذلك لمن لعله يغفل فيسأل - بقوله مفتتحاً بالأداة التي لا تقال إلا عند الأمور الهائلة: ﴿ألا إن ثموداً﴾ قراءة الصرف دالة على الاستخفاف بهم لطيشهم في المعصية ﴿كفروا ربهم﴾ أي أوقعوا التغطية والستر على المحسن إليهم بالخلق والرزق والإرسال وهو الظاهر وبصفاته وأفعاله، فلا يخفي على أحد أصلاً، فيإصال الفعل دون قصره كما في أكثر أضرابه بيان لغلظة كفرهم؛ ثم كرر ذلك تأكيداً له وإعلاماً بتأييد هلاكهم بقوله: ﴿ألا بعداً لثمود﴾ ترك صرفهم في قراءة غير الكسائي إيذاناً بدوام لبثهم في الطرد والبعد؛ والصيحة: صوت عظيم من فم حي، والجثوم لدوام مكان واحد أو السقوط على الوجه، وقيل: القعود على الركب؛ وقال ﴿أصبحوا﴾ زيادة في التخويف والتأسيب بما وقع لهم من التحسير لو أدركه أحد منهم لأن الإنسان يفرح إذا أصبح بقيامه من نومه مستريحاً قادراً على ما يريد من الحركات للاستمتاع بما يشتهي من التصرفات، فأصبح هؤلاء - بعد هذه الصفة على ما قص الله - خفوتاً أجمعين كنفس واحدة رجالاً ونساء صغاراً وكباراً كأنهم لم يكونوا أصلاً، ولا أصدرتوا فضلاً ولا وصلاً كأنهم لم يكونوا للعيون قرة، ولم يعدوا في الأحياء مرة كأن لم يغنوا أي يقيموا لانقطاع آثارهم إلا ما بقي من أجسادهم الدالة

على الخزي؛ والمغاني: المنازل، وأصل الغناء: الاكتفاء؛ ومعنى «ألا» التنبيه؛ قال الرماني: وهي ألف الاستفهام دخلت على «لا» فالألف تقتضي معنى، و«لا» تنفي معنى، فاقضى الكلام بهما معنى التنبيه مع نفي الغفلة - انتهى. وكان حقيقته - والله أعلم - أن «لا» دخلت على ما بعدها فنفته، ثم دخلت عليها همزة الإنكار فنفتها، ومن المعلوم أن نفي النفي إثبات فرجع المعنى كما كان على أتم وجوه التنبيه والتأكيد، لأن إثبات المعنى بعد نفيه أكد من إثباته عرياً عن النفي ولا سيما إذا كان المفيد لذلك الإنكار، وهذا المعنى مطرد في ألا العرضية وهلا التخصيصية ونحوهما، ويمشي في كل صلة بأن تردّها إلى أصل مدلولها في اللغة ثم تتصرف بما يقتضيه الحال - والله الهادي! ولما جاز الصرف في ثمود باعتبار أنه اسم أبي القبيلة وعدمه باعتبار إطلاقه على القبيلة اختير الصرف في النصب فقط لخفته.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيفٍ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿١٧﴾ وَأَمْرَانُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿١٨﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَى أَنَّى أَكُونُ بِوَجْهِكَ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٢١﴾ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٢٢﴾ يَتَابَعِرْهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا عِدَابٌ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٢٣﴾﴾

ولما انقضت القصة على هذا الوجه الرائع، أتبعها قصة لوط عليه السلام إذ كانت أشهر الوقائع بعدها وهي أفضح منها وأروع، وقدم عليها ما يتعلق بها من أمر إبراهيم عليه السلام وذكر بشراه لما في ذلك كله من التنبيه لمن تعنت بطلب إنزال الملائكة في قولهم ﴿أو جاء معه ملك﴾ على أن ذلك ليس عزيزاً عليه. وقد أكثر من فعله ولكن نزولهم مرهب، وأمرهم عند المكاشفة مرعب، وأما مع الستر فلا يقطع تعنتهم، هذا مع ما في ذلك من مناسبة أمر هذا الولد لأمر الناقة في تكوين كل منهما بخارق للعادة إشارة إلى تمام القدرة وكمال العلم المبني عليه أمر السورة في إحكام الكتاب وتفصيله وتناسب جدالي نوح وإبراهيم عليهما السلام في أن كلاً منهما شفقة على الكافرين ورجاء لنجاتهم من العذاب بحسن المثاب، ولعله سبحانه كرر «لقد» في صدرها عطفاً على ما في قصة نوح للتنبيه على مثل الأغراض، لأن «قد» للتوقع فجاءت لتؤذن بأن السامع في حال توقع لذلك لأنه إذا انقضت قصة توقع الخبر عما بعدها فقال تعالى: ﴿ولقد﴾ قال

الرماني: ودخلت اللام لتأكيد الخبر كما يؤكد القسم ﴿جاءت رسلنا﴾ أي الذين عظمتهم من عظمتنا، قيل: كانوا جبرئيل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ﴿إبراهيم﴾ هو خليل الله عليه السلام ﴿بالبشرى﴾ أي التي هي من أعظم البشائر وهي إكرامه بإسحاق عليه السلام ولدأله من زوجته سارة رضي الله عنها، جاءوه في الصفة التي يحبها وهي صفة الأضياف، فلم يعرفهم مع أنه الخليل بل أنكرهم كما قال تعالى في الذاريات ﴿قال سلم قوم منكرون﴾ [الذاريات: ٢٥] فيحمل إنكاره أولاً على الاستغراب بمعنى أنه لم ير عليهم زي أهل تلك البلاد ولا أثر السفر، فكأنه قيل: ما كان من أمرهم؟ فقيل: ﴿قالوا سلماً﴾ أي سلمنا عليك سلاماً عظيماً ﴿قال سلم﴾ أي ثابت دائم عليكم لا زوال له أبداً، فللرفع مزية على النصب لأنه إخبار عن ثابت، والنصب تجديد ما لم يكن، فصار مندرجاً في ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ [النساء: ٨٦] ثم أكرم نزلهم وذهب يفعل ما طبعه الله عليه من سجايا الكرم وأفعال الكرام في أدب الضيافة من التعجيل مع الإتيان ﴿فما لبث﴾ أي فتسبب عن مجيئهم وتعقبه أنه ما تأخر ﴿أن جاء بعجل حنيذ﴾ أي مشوي على حجارة محماة في أخدود وفوقه حجارة محماة ليشتد نضجه، فكان بعد الشئ يقطر دسمه لأنه سمين، كل ذلك وهو لا يعرف أنهم ملائكة، بل هو قاطع بأنهم ممن يأكل، وهذا ناظر إلى قول قوم نوح ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ وقوله ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم﴾ الآية، أي إن الله جعل المعاني في القلوب وناط بها السعادة والشقاوة، وقد تخفى تلك المعاني كما خفي على أكمل أهل ذلك الزمان أن ضيفه ملائكة حتى خاف منهم وقد أتوه بالبشرى، فلا ينبغي لأحد أن يحتقر أحداً إلا بما أذن الله فيه.

ولما وضع الطعام بين أيديهم لم يلموا به ﴿فلما رأى أيديهم﴾ أي الرسل عقب الوضع سواء ﴿لا تصل إليه﴾ أي إلى العجل الذي وضعه ليأكلوه ﴿نكرهم﴾ أي اشتدت نكارته لهم وانفعل لذلك، وهذا يدل على ما قال بعض العلماء: إن نكر أبلغ من أنكر ﴿وأوجس﴾ أي أضمر مخفياً في قلبه ﴿منهم خيفة﴾ أي عظيمة لما رأى من أحوالهم وشاهد من جلالهم، وأصل الوجوس: الدخول، والدليل - على أن خوفه كان لعلمه بالتوسم أنهم ملائكة نزلوا لأمر يكرهه من تعذيب من يعز عليه أو نحو هذا - أنهم ﴿قالوا لا تخف﴾ ثم عللوا ذلك بقولهم ﴿إننا أرسلنا﴾ أي ممن لا يرد أمره ﴿إلى قوم لوط﴾ فإنهم نفوا الخوف عنه بالإعلام بمن أرسلوا إليه، لا بكونهم ملائكة، قالوا ذلك وبشروه بالولد ﴿وامراته﴾ أي جاءته الرسل بالبشرى أي ذكروها له والحال أن زوجة إبراهيم التي هي كاملة المروءة وهي سارة ﴿قائمة﴾ قيل: على باب الخيمة لأجل ما لعلها تفوز به من المعاونة على خدمتهم، فسمعت البشارة بالولد التي دل عليها فيما مضى قوله

﴿بالبشرى﴾ ﴿فضحكت﴾ أي تعجبت من تلك البشري لزوجها مع كبره، وربما ظنته من غيرها لأنها - مع أنها كانت عقيماً - عجوز، فهو من إطلاق المسبب على السبب إشارة إلى أنه تعجب عظيم ﴿فبشرئها﴾ أي فتسبب عن تعجبها أنا أعدنا لها البشري مشافهة بلسان الملائكة تشریفاً لها وتحقيقاً أنه منها ﴿يأسحق﴾ تلهه ﴿ومن وراء إسحق يعقوب﴾ أي يكون يعقوب ابناً لإسحاق، والذي يدل على ما قدرته - من أنهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت - ما يأتي عن نص التوراة، والحكم العدل على ذلك كله قوله تعالى في الذاريات ﴿قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها﴾ [الذاريات: ٢٨ - ٢٩] - الآية.

ولما شافهوها بذلك، صرحت بوجه العجب من أنه جامع بين عجيبين في كونه منه ومنها بأن ﴿قالت يويلتي﴾ وهي كلمة تؤذن بأمر فظيع تخف على أفواه النساء ويستعملنها إلى اليوم، لكنهن غيرن في لفظها كما غير كثير من الكلام؛ والويل: حلول الشر، والألف في آخره بدل عن ياء الإضافة، كنى بها هنا عن العجب الشديد لما فيه من الشهرة ومراجعة الظنون؛ وقال الرماني: إن معناها الإيدان بورود الأمر الفظيع كما تقول العرب: يا للدواهي! أي تعالين فإنه من أحيانك فحضور ما حضر من أشكالك.

ولما كان ما بشرت به منكرأ في نفسه بحسب العادة قالت: ﴿ءألد وأنا﴾ أي والحال أنني ﴿عجوز وهذا﴾ أي من هو حاضري ﴿بعلي شيخاً﴾ ثم ترجمت ذلك بما هو نتیجته فقالت مؤكدة لأنه - لما له من خرق العوائد - في حيز المنكر عند الناس: ﴿إن هذا﴾ أي الأمر المبشر به ﴿لشيء عجيب﴾ فكأنه قيل: فماذا قيل لها؟ فقيل: ﴿قالوا﴾ أي الملائكة متعجبين من تعجبها ﴿أتعجبين من أمر الله﴾ أي الذي له الكمال كله، وهو لا ينبغي لك لأنك معتادة من الله بما ليس لغيركم من الخوارق، والعجب إنما يكون مما خرج عن أشكاله وخفي سببه، وأنت - لثبات علمك بالسبب الذي هو قدرة الله على كل شيء وحضوره لديك مع اصطفاء الله لكم وتكرر خرقه للعوائد في شؤونكم - لست كغيرك ممن ليس كذلك؛ ثم عللوا إنكارهم لتعجبها بقولهم: ﴿رحمت الله﴾ أي كرامة الذي له الإحاطة بصفات الجلال والإكرام ﴿وبركته﴾ أي خيراته النامية الثابتة ﴿عليكم﴾ وبينوا خصوصيتهم بإسقاط أداة النداء مدحة لهم فقال: ﴿أهل البيت﴾ قد تمرتم على مشاهدة العجائب لكثرة ما ترون من آثاره بمثل ذلك وغيره؛ ثم علل إحسانه إليهم مؤكداً تثبيتاً لأصل الكلام الذي أنكرته فقال: ﴿إنه﴾ أي بخصوص هذا الإحسان ﴿حميد مجيد﴾ أي كثير التعرف إلى من يشاء من جلائل النعم وعظيم المقذور بما يعرف أنه مستحق الحمد على المجد، وهو الكرم الذي ينشأ عنه الجود، فلما سمعوا ذلك

واطمانوا، أخذ في قص ما كان بعده، فقال مشيراً بالفاء إلى قلة زمن الإنكار الذي هو سبب الفزع: ﴿فلما ذهب﴾ بانكشاف الأمر ﴿عن إبراهيم الروغ﴾ أي الخوف والفرع الشديد ﴿وجاءته البشرية﴾ فامتلاً سروراً ﴿بجادلنا﴾ أي أخذ يفعل معنا بمجادلة رسلنا فعل المجادل الذي يكثر كلامه إرادة القتل مخاطبه عما يقوله ﴿في قوم لوط﴾ أي يسألنا في نجاتهم سؤالاً يحرص فيه حرص المجادل في صرف الشيء، من الجدل وهو القتل، ووضع المضارع موضع الماضي إشارة إلى تكرار المجادلة مع تصوير الحال، أي جادلنا فيهم جدالاً كثيراً؛ ثم علل مجادلته بقوله: ﴿إن إبراهيم لحليم﴾ أي بليغ الحلم، وهو إمهال صاحب الذنب على ما يقتضيه العقل ﴿أواه﴾ أي رجاع للتأوه خوفاً من التقصير ﴿منيب﴾ أي رجاع إلى الله بالسبق في ارتقاء درج القرب، فهو - لما عنده هذه المحاسن - لا يزال يتوقع الإقلاع من العصاة. ولما كان أكثر المجادلة لما عنده من الشفقة على عباد الله لما له من هذه الصفات الجليلة، أعلمه الله أن الأمر قد ختم بقوله حكاية أن الرسل قالت له بعد طول المجادلة منادين بالأداة التي هي أم الباب إعلماً بأن ما بعدها عظيم الشأن عالي المنزلة: ﴿يا إبراهيم أعرض﴾ أي بكليتك ﴿عن هذا﴾ أي السؤال في نجاتهم؛ ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لأنه بمجادلته في حيز من ينكر بت الأمر: ﴿إنه قد﴾ افتتحه بحرف التوقع لأنه موضعه ﴿جاء أمر ربك﴾ أي الذي عودك بإحسانه الجسم، فلولا أنه حتم الأمر بعذابهم لأمهلم لأجلك، ولذا عطف على العلة قوله مؤكداً إعلماً بأنه أمر قد انبرم ومضى: ﴿وانهم آتيم﴾ أي إتياناً ثابتاً ﴿عذاب غير مردود﴾ أي بوجه من الوجوه من أحد كائناً من كان؛ والإعراض: الانصراف؛ وحقيقته الذهاب عن الشيء في جهة العرض؛ والرد: إذهب الشيء إلى ما جاء منه كالرجع؛ والدفع أعم لأنه قد يكون إلى جهة القدام؛ فلما علم مراد الله تعالى فيهم، قدمه على مراده ولم ينطق بعده بينت شفة.

ذكر هذه القصة من التوراة: قال في السفر الأول: واستعلن الله لإبراهيم في مرج - وفي نسخة: بين بلوط ممرى الأموراني - وكان جالساً على باب خيمته إذ اشتد النهار، فرفع عينيه فنظر فإذا هو بثلاثة رجال وقوف على رأسه، فلما رآهم أحضر إليهم من باب الخيمة وسجد على الأرض وقال: يا رب - وفي نسخة: يا ولي الله - إن كان لي عندك مودة فلا تبعد عن عبدك حتى آتي بماء أغسل به أرجلكم، واتكثوا تحت الشجرة وأصيبوا شيئاً من الطعام تقرون به أنفسكم، ثم حينئذ تجوزون لأنكم مررتم بعبدكم بغتة، فقالوا له: اصنع كما قلت، فاستعجل إبراهيم فأحضر إلى الخيمة إلى سارة وقال: عجلي بثلاثة أصع من درمك - وفي نسخة: دقيق سميد - فاعجنيه واخبزي منه مليلاً،

وسعى إلى قطع البقر فأخذ عجلاً سميناً شاباً فدفعه إلى الغلام وأمر بتعجيل صنعته وأخذ سمناً ولبناً والعجل الذي صنع له أيضاً فقربه إليهم، وكان هو واقفاً بين أيديهم تحت الشجرة وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: في الخيمة، فقال له: إني أرجع إليك في مثل هذا الحين من قابل وهي في الحياة ولها منك ابن، فسمعت سارة وهي على باب الخيمة مستترة وكان هو خلفها، وكان إبراهيم وسارة قد شاخا وقدم سنهما وانقطع عن سارة سبيل النساء، فضحكت سارة في قلبها وقالت: أمن بعد ما بليت أرجع شابة وسيدي قد شاخ؟ فقال الله لإبراهيم: لم ضحكت سارة وقالت: أنى لي بالولد وقد شخت؟ أيعسر هذا على الله؟ إني أرجع إليك في مثل هذا الحين من قابل وهي حية ولها ابن، فجحدت سارة وقالت: كلا ما ضحكت، لأنها فزعت، فقال: كلا! ولكنك قد ضحكت، ثم قام الرجال وتعمدوا طريق سدوم وعامورا، وانطلق معهم إبراهيم ليشيعهم. وقال الله: أأنتم عبدي إبراهيم شيئاً مما أصنع؟ وإبراهيم يكون رئيساً لشعب عظيم كبير، وتبارك به شعوب الأرض، لأنى عالم أنه يوصي بنيه وأهل بيته من بعده أن يحفظوا طرق الرب ليعملوا بالبر والعدل، لأن الرب يكمل لإبراهيم جميع ما وعده به. فقال الرب لإبراهيم: لقد وصل إليّ حديث سدوم وعاموراً وقد كثرت خطاياهم جداً، ثم ولى القوم ومضوا إلى سدوم، وكان إبراهيم بعد واقفاً قدام الرب، فدنا إبراهيم وقال: يا رب! تهلك الأبرار مع الفجار بغضب واحد؟ إن كان في القرية خمسون باراً أتهلكهم بغضب واحد؟ حاشاك يا رب أن تصنع هذا الصنيع وتهلك البريء مع السقيم، ويكون البريء بحال السقيم، حاشا لك يا حاكم الأرض كلها! لا يكون هذا من صنيعك! فقال الرب: إن وجدت بسدوم خمسين باراً في القرية عفوت عن جميع البلد من أجلهم، فأجاب إبراهيم وقال: إني قد بدأت بالكلام بين يدي الرب، وإنما أنا تراب ورماد، فإن نقص من الخمسين باراً خمسة تخرب القرية كلها من أجل الخمسة؟ فقال: لا أخرجها إن وجدت بها خمسة وأربعين باراً، فعاد إبراهيم وقال له: فإن وجد فيها أربعون؟ فقال: لا أخرجها إن وجدت فيها أربعين، فقال: لا يمكن الرب كلامي فأتكلم، فإن كان هناك ثلاثون؟ فقال: لا أخرجها إن وجدت فيها ثلاثين، فقال: إني قد أمعنت في الكلام بين يدي الرب، فإن وجد بها عشرون؟ فقال: لا أخرجها من أجل العشرين، فقال لانشقن على الرب، فأتكلم هذه المرة يا رب فقط، فإن وجد بها عشرة رهط؟ فقال: لا أفسدها من أجل العشرة؛ فارتفع استعلان الرب عن إبراهيم لما فرغ إبراهيم من كلامه ورجع إبراهيم إلى موضعه - انتهى. وقد مضى أمر حبل سارة وولادها في البقرة.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
 وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَهُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ
 لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي
 بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

ولما انقضى أمر إنبائهم ببشارة الأولياء وهلاك الأعداء، وعلم من ذلك أنهم لا ينزلون إلا للأمر الهائلة والأحوال المعجبة، أخذ يقص أمرهم مع لوط عليه السلام، فقال عاطفاً على ما تقديره: فعلوا مع إبراهيم انفصالهم عن إبراهيم عليه السلام ما ذكر، ثم فارقه نحو لوط، ولم يذكر الحرف المصدرى لأن سياقه ومقصود السورة لا يقتضي ذلك كما نشير إليه في العنكبوت: ﴿ولما جاءت رسلنا﴾ على ما قارنهم من عظمتنا ﴿لوطاً﴾ بعد انفصالهم عن إبراهيم عليه السلام، وبين البلدين ثمانية أميال، وقيل: أربعة فراسخ، استضافوه فلم يجد بدأ من قبولهم على ما أوصى الله بالضيف مطابقاً لعوائد أهل المكارم، فقبلهم وأزمع المقاتلة عنهم لما رأى من حسن أشكالهم ورونق جمالهم مع ما يعلم من قبح أفعال قومه وخبث سرائرهم، ولما جاوزوه على هذه الصفة ﴿سيء بهم﴾ أي حصلت له المساءة بسبب مجيئهم إلى قريته لما يعلم من لؤم أهلها، والتعبير عن هذا المعنى بالمبني للمفعول أحضر وأوقع في النفس وأرشق ﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ أي ذرعه أي اتساعه في كل وقت قوة أوتيتها، وهو مثل يقال لمن لم يجد من المكروه مخلصاً، ومادة ذرع - بأي ترتيب كان - تدور على الاتساع لأنه لا يذرع إلا الكثير، وذرع الرمل: اتسع، وموت ذريع: فاش، والمذرع: الذي أمه عربية وأبوه غير عربي، فهو أكثر انتشاراً ممن انحصر في أحدهما؛ والذريعة: ما يختلي به الصيد، فهو يوسع له من الأمل ما يحمله على الإقدام، وحلقة يتعلم عليها الرمي، لأنها تسع السهم، أو لأن مصيبتها واسع الأمر في صناعة الرمي، والوسيلة لأنها توصل المتوسل؛ والذعر: الخوف، لاتساع الفكر فيه وتجويز أدنى احتمال؛ والعدر: إيساع الحيلة في وجه يزيل ما ظهر من التقصير، من العذور - للحمار الواسع الجوف، وهو أيضاً الملك لسعته، والعدار: أوسع ما في الوجه، وأعدرت الغلام: خنتته، أي أوسعت أكرته، والإعذار - لطعام الختان ونحوه منه، وعذرة الجارية موجبة لعذرها في النفرة للخوف على نفسها، والعذرة: وجع في الحلق، وهو سقوطه حتى يغمز^(١)، كأنه شبه بعذرة البكر في سده الحلق بما يوجب الغمز، وكذا العذرة - للناسية لبذل الجهد في المدافعة عنها،

(١) غمزه بيده: شبه نخسه والتعأمز أن يشير بعضهم إلى بعض بأعينهم.

والعذراء: نجم إذا طلع اشتد الحر فاتسع بساط الأرض، والعذرة - بفتح ثم كسر: فناء الدار، وبه سمي الحدث، والعذراء: شيء من حديد يعذب به الإنسان، كأنه سمي لأنه يوسع الخوف بما يجنب ما يوجب الاعتذار، فلا تزال تلك الحديدية بكرة لا يوجد من يعذب بها، وأما عذر - بالتشديد - إذا قصر فهو للسلب، أي فعل ما لا يوجد له عذر، وكذا تعذر الأمر أي صعب، يعني أنه تجتنب العذر فلم يبق لسهولته وجه، وأعذر - إذا كثرت عيوبه، أي دخل فيما يطلب له العذر كأنجد.

ولما ذكر حاله، ذكر قاله بقوله: ﴿وقال﴾ أي لوط ﴿هذا﴾ أي اليوم ﴿يوم عصيب﴾ أي شديد جداً لما أعلم من جهالة من أنا بين ظهرانيهم، وهو مشتق من العصب وهو أطناب المفاصل وروابطها، ومداره على الشدة ﴿وجاءه قومه﴾ أي الذين فيهم قوة المحاولة ﴿يهرعون﴾ أي كأنهم يحملهم على ذلك حامل لا يستطيعون دفعه ﴿إليه﴾ أي في غاية الإسراع فعل الطامع الخائف فوت ما يطلبه، فهو يضطرب لذلك، أو لأجل الرعب من لوط عليه السلام أو من الملائكة عليهم السلام.

ولما كان وجدانهم - فكيف عصيانهم - لم يستغرق زمن القبل، أدخل الجار فقال: ﴿ومن قبل﴾ أي قبل هذا المجيء ﴿كانوا﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿يعملون﴾ أي مع الاستمرار ﴿السيئات﴾ أي الفواحش التي تسوء غاية المساءة فضربوا بها ومرنوا عليها حتى زال عندهم استقباحها، فهو يعرف ما يريدون، وكأنهم كانوا لا يدعون مليحاً ولا غيره من الغريب، فلذلك لم يذكر أن الرسل عليهم السلام كانوا على هيئة المرد الحسان، ولا قيد الذكران في قصتهم في موضع من المواضع بالمرودية. فكأنه قيل: فما قال لهم؟ فقيل: ﴿قال يقوم﴾ مستعظماً لهم ﴿هؤلاء بناتي﴾ حادياً لهم إلى الحياء والكرم.

ولما كان كأنه قيل: ما نفعل بهن؟ قال: ﴿هن﴾ ولما كان في مقام المدافعة باللين، قال إرخاء للعنان في تسليم طهارة ما يفعلونه على زعمهم مشيراً بلطافة إلى خبث ما يريدونه: ﴿أطهر لكم﴾ وليس المراد من هذا حقيقته، بل تنبيه القوم على أنهم لا يصلون إليهم إلا إن وصلوا إلى بناته لأن الخزي فيهما على حد سواء أو في الضيف أعظم، ومثل هذا أن يشفع الإنسان فيمن يضرب، فإذا عظم الأمر ألقى نفسه عليه فصورته أنه فعله ليقه الضرب بنفسه، ومعناه احترامه باحترامه، وعلى هذا يدل قوله في الآية الأخرى ﴿إن كنتم فعلين﴾ وهنا قوله: ﴿فاتقوا الله﴾ أي الملك الأعظم في هذا الأمر الذي تريدونه ﴿ولا تخزون﴾ أي توقعوا بي الفضيحة التي فيها الذل والهوان والعار ﴿في ضيفي﴾ إذ لا يشك ذو مسكة من أمره في أن التقوى إذا حصلت منعت من الأمرين، وأن الخزي على تقدير عدمها في البنات أعظم لأنه عار لازم للزوم البنات

للأب، وكل هذا دليل على أنه لا يشك أنهم آدميون ولم يلم بخاطره أنهم ملائكة، فهو تنبيه للكفار على أنه لا ينتفع بإنزال الملائكة إلا البار الراشد التابع للحق؛ ثم أنكر أشد الإنكار حالهم في أنهم لا يكون منهم رشيد حثاً على الإقلاع عن الغي ولزوم سبيل الرشيد فقال: ﴿ليس منكم رجل﴾ أي كامل الرجولية ﴿رشيد﴾ * كامل الرشيد ليكفكم عن هذا القبيح، فلم يكن منهم ذلك، بل ﴿قالوا لقد علمت﴾ أي يا لوط مجرين الكلام على حقيقته غير معرجين على ما كني به عنه ﴿ما لنا في بنتك﴾ وأغرقوا في النفي فقالوا: ﴿من حق﴾ أي حجة ثابتة، ولم يريدوا به ضد الباطل لأن البنات والضيف في نفي حقهم عنهم سواء، وأكدوا معلمين بما لهم من الرغبة في الفجور وقاحة وجرأة فقالوا: ﴿وإنك لتعلم﴾ أي علماً لا تشك فيه ﴿ما نريد﴾ * وهو إتيان الذكور للتطرق والتطرف، فحملوا عرضه لبناته على الحقيقة خبثاً منهم وشرعوا يبنون على ذلك بوقاحة وعدم مبالاة بالعظائم، فأخبر تعالى عن قوله لهم على طريق الاستئناف بقوله: ﴿قال﴾ أي متمنياً أن يكون له بهم طاقة ليروا ما يصنع من الإيقاع بهم متفجعاً على فوات ذلك ﴿لو أن لي بكم﴾ أي في دفعكم ﴿قوة﴾ بنفسي ﴿أو﴾ لو أنني ﴿أوي﴾ من الأعوان والأنصار ﴿إلى ركن شديد﴾ * أي جماعة هم كالركن الموصوف بالشدة لحلت بينكم وبين ما جئتم له، وحذفه أبلغ لذهاب النفس فيه كل مذهب؛ والسوء: ما يظهر مكروهه لصاحبه؛ والعصيب: الشديد في الشر خاصة كأنه التف شره؛ والقوة خاصة يمكن أن يقع بها الفعل وأن لا يقع؛ والركن: معتمد البناء بعد الأساس، والركن هنا من هو مثله؛ والشدة: مجمع يصعب معه الإمكان، ووصفه الركن بالشدة وهو يتضمنها تأكيد يدل على أن قومه كانوا في غاية القوة والجلادة، وأنه كان يود معاجلتهم لو قدر. وذلك أن مادة (ركن) بكل ترتيب تدور على الرزانة، من ركن - بالضم بمعنى رزن، ويلزمهما القوة، ومنه الركن للجانب الأقوى والأمر العظيم وما يتقوى به من ملك وجند وغيره والعز والمنعة، ومن ذلك النكر بالضم للدهاء والفتنة، والنكر للنكر والأمر الشديد وما يخرج من الزحير من دم أو قيح، ونكر الأمر: صعب وطريق ينكور: على غير قصد، والمنكر ضد المعروف لأن الشيء إذا جهل صعب أمره، وتناكر القوم: تعادوا، والتنكر: التغيير من حال يسر إلى حال يكره، والمكنر - كمحدث: الضخم السمج، ويلزم الرزانة أيضاً الميل والسكون، ومنه ركن إليه - بالفتح: مال وسكن، وركن بالمنزل - بالكسر: أقام؛ والكنارة - بالكسر والتشديد: الشقة من ثياب الكتان، لأنه يمال إليه لبهجته، وكذا الكنارات للعيدان والطبول، والكران ككتاب للعود أو الصنج، أو يكون ذلك من الشدة لقوة أصواتها - والله أعلم.

﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمِزُكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكْتُبُ إِنَّهُ كَمُصِيبِهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

فلما عظم الشقاق وضاق الخناق كان كأنه قيل: فما قال له الرسل؟ فقيل: ﴿قالوا﴾ ودلوا بحرف النداء الموضوع للبعد على أنه كان قد خرج عن الدار وأجاف بابها وأن الصباح كان شديداً ﴿يلوط﴾ إنك لتأوي إلى ركن شديد؛ ثم عللوا ذلك بقولهم: ﴿إننا رسل ربك﴾ أي المحسن إليك بإحسانك وكل ما ترى مما يسوءك ويسرك؛ ثم لما ثبت له ذلك كان من المحقق أنه سبب في ألا يداينه معه سوء فأوضحوه بقولهم: ﴿لن يصلوا إليك﴾ من غير احتياج إلى الربط بالفاء، أي ونحن مهلكوهم وقالوا مدنهم بهم ﴿فأسر﴾ أي سر بالليل ماضياً ﴿بأهلك﴾ موقعاً ذلك السير والإسراء ﴿يقطع﴾ أي بطائفة، أي والحال أنه قد بقي عند خروجك جانب ﴿من الليل ولا يلتفت﴾ أي ينظر إلى ورائه ولا يتخلف ﴿منكم أحد﴾ أي لا تلتفت أنت ولا تدع أحداً من أهلك يلتفت ﴿إلا امرأتك﴾ استثناء من «أحد» بالرفع والنصب لأن المنهي كالمنفى في جواز الوجهين، والنهي له ﷺ، فالفعل بالنسبة إليه منهي، وبالنسبة إليهم منفي. ويمكن أن يكون أخرجها معه لأن معنى الاستثناء أنه غير مأمور بالإسراء بها إلا أنه منهي عنه، واستثناءها من الالتفات معهم مفهم أنه لا حجر عليه في الإسراء بها، أو أنه خلفها فتبعتهم والتفتت، فيكون قراءة النصب من ﴿أهلك﴾، وقراءة الرفع من ﴿أحد﴾ ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل مخالفتها للمستثنى منه في عدم النهي، ولذلك عللوا ما أفهمه إهمالها من الإسراء والنهي من أنها تلتفت بقولهم مؤكدين لأن تعلق الأمل بنجاتها شديد رحمة لها: ﴿إنه﴾ أي الشأن ﴿مصيبها﴾ لا محالة ﴿ما أصابهم﴾ سواء التفت أو لا، تخلفت أو لا، ثم ظهر لي من التعبير في حقها باسم الفاعل وفي حقهم بالماضي أنه حكم بإصابة العذاب لهم عند هذا القول للوط عليه السلام لأن ذنوبهم تمت، وأما هي فإنما يبرم الحكم بذلك في حقها عند تمام ذنوبها التي رتبت عليها الإصابة وذلك عند الالتفات.

ولما عبروا بالماضي تحقيقاً للوقوع وتنبهاً على أنه تقدم دخولها معهم في أسباب العذاب، كان منبهاً لأن يقال: كان الإيقاع بهم قد دنا بهم جداً؟ فقيل: نعم، وأكد تحقيقاً للوقوع لتليذاً به ولأنه - لقرب الوقت - بحيث ينكر: ﴿إن موعدهم﴾ أي لا ابتداء الأخذ ﴿الصبح﴾ وكان لوطاً عليه السلام أبطأ في جميع أهله وما يصلحهم، فكان فعله

فعل من يستبعد الصبح، فأنكروا ذلك بقولهم: ﴿اليس الصبح بقريب *﴾ أي فأسرع الخروج بمن أمرت بهم؛ والإسراء: سير الليل كالسرى.

ولما انقضى تسكين لوط عليه السلام والتقدم إليه فيما يفعل، أخبر تعالى عن حال قومه فقال: ﴿فلما جاء أمرنا﴾ بالفاء لما مضى في قصة صالح عليه السلام من التسيب والتعقيب، أي فلما خرج منها لوط بأهله جاءها أمرنا، ولما جاء أمرنا الذي هو عذابنا والأمر به ﴿جعلنا﴾ بما لنا من العظمة ﴿عاليتها﴾ أي عالي مدنهم وهم فيها ﴿سافلها وأمطرنا عليها﴾ أي على مدنهم بعد قلبها من أجلهم وسيأتي في سورة الحجر سر الإتيان هنا بضمير «ها» دون ضمير «هم» ﴿حجارة من سجيل﴾ أي مرسله من مكان هو في غاية العلو ﴿منضود﴾ بالحجارة هي فيه متراكبة بعضها على بعض حال كونها ﴿مسومة﴾ أي معلمة بعلامات تدل على أنها معدة للعذاب من السيمة والسومة وهي العلامة تجعل للإبل السائمة لتتميز إذا اختلطت في المرعى، وفي الذاريات ﴿حجارة من طين﴾ [الذاريات: ٣٣] وذلك أن الحجارة أصلها تراب يجعل الله فيه بواسطة الماء قابلية للاستحجار كما جعل فيه قابلية التحول إلى المعدن من الذهب والفضة والحديد وغيرها، فباعتبار أصله هو طين، وباعتبار أوله حجر وكبريت وناار، ولعل حجر الكبريت أثقل الحجارة مع ما فيه من قوة النار وقبح الريح؛ ثم فخمها بقوله: ﴿عند ربك﴾ وعبر بالرب إشارة إلى كثرة إحسانه وإليه وأنه إنما أمره ﷻ بالإنذار رحمة لأمته التي جعلها خير الأمم وسيجعلها أكثر الأمم، ولا يهلكها كما أهلكهم؛ ومادة سجل - بأي ترتيب كان - تدور على العلو، من المجلس لما ارتفع عن الغور وهو النجد، ويلزم منه الغلظ والعلو، ومن الغلظ المجلس للغليظ من الأرض والجمل الوثيق، ويلزم العلو التصويب ومنه جلس - إذا قعد؛ والسجل للدلو العظيمة، ويكون غالباً في مقابلتها أخرى، كلما نزلت واحدة طلعت الأخرى، فتأتي المساجلة بمعنى المباراة والمفاخرة، والسجل: الضرع العظيم، والسجل - بالكسر وشد اللام: الكتاب لأنه يذكر فيه ما يكون به المفاخرة والمغالبة؛ وسلج الطعام: بلعه، والسلجان: نبات رخو، كأنه سمي بذلك لأن أغصانه تأخذ إلى أسفل لرخاوتها، وقد دل على هذا المعنى في هذه الآية بثلاثة أشياء: الإمطار، ولفظ «على»، وسجيل.

ولما كان المعنى أنها من مكان هو في غاية العلو ليعظم وقعها، حسن كل الحسن اتباع ذلك قوله: ﴿وما هي﴾ على شدة بعد مكانها ﴿من الظالمين﴾ أي من أحد من العريقين في الظلم في ذلك الزمان ولا هذا ولا زمن من الأزمان ﴿ببعيد﴾ لثلاث يتوهم الاحتياج في وصولها إلى المرمى بها إلى زمن طويل.

ذكر هذه القصة من التوراة: قال في السفر الأول بعد ما مضى في قصة بشرى إبراهيم عليه السلام: فأتى الملكان إلى سدوم عشاء، وكان لوط جالساً على باب سدوم، فنظر إليهما لوط فتلقاهما، ثم خر على وجهه ساجداً على الأرض وقال: إني طالب إليكما يا سيدي، اعدلا إلى منزل عبدكما فيتنا فيه واغسلا أقدامكما وبكرا فانطلقا في طريقكما، فقالا: كلا! ولكننا نبين في السوق، فألح عليهما لوط إلحاحاً شديداً فانصرفا معه ودخلا منزله فأعد لهما طعاماً، ومن قبل وقت الهجوم إذا أهل القرية أهل سدوم قد أحاطوا بالباب من الشبان إلى المشايخ جميع الشعب بأسره، فدعوا بلوط وقالوا له: أين الرجلان اللذان أتياك ممسين أخرجهما إلينا فنعرفهما - وفي نسخة: حتى نواقعهما - فخرج لوط إليهم وأغلق الباب خلفه، فقال لهم لوط: لا تسيئوا بي يا إخوة! هذا لي بتتان لم يمسهما رجل، أخرجهما إليكم فاصنعوا بهما ما حسن في أعينكم، ولا ترتكبوا من هذين الرجلين شيئاً لأنهما ولجا ظلال بيتي، فقالوا له: تنح عنا، إن واحداً أتى ليسكن بيتنا فصار يحكم فينا، فالآن نسيء إليك أكثر منهما، فجاهد لوط القوم جداً فدنوا ليكسروا الباب فمد الرجلان أيديهما فأدخلا لوطاً إليهما إلى منزله، ثم إن القوم الذين كانوا بالباب ضربوا بالعشى من كبيرهم حتى صغيروهم فأعيوا في طلب الباب، فقال الملكان للوط: ما تصنع هاهنا؟ اعمد إلى أختانك وبنيتك وجميع ما لك في هذه القرية فأخرجهم من هذه البلدة لأننا نريد الخسف بالبلدة لأن فعالهم وخبث صنيعهم قد بلغ الرب، فأرسلنا الرب لتفسدها، فخرج لوط وكلم أختانه وأزواج بناته وقال لهم: قوموا فاخرجوا من هذه القرية فإن الرب مزعم لخرابها، وكان عند أختانه كالمستهزىء بهم، فلما كان عند طلوع الصبح ألح الملكان على لوط وقالوا له: قم فأخرج امرأتك وابنتيك اللتين معك لكيلا تبتلي بخطايا أهل هذه القرية، فأبطأ لوط فأخذ الملكان بيده وبيد امرأته وابنتيه لأن الله رحمه فأخرجاه وصيراه خارجاً عن القرية، فلما أخرجاهم خارجاً قالوا له: انج بنفسك ولا تلتفتن إلى خلفك ولا تقف في شيء من جميع القاع، والتجئ إلى الجبل وخلص نفسك، فقال لهما لوط: أطلب إليكما يا سيدي أن أظفر الآن لأن عبدكما برحمة ورافة وكثرت نعمكما إليّ لتحبي نفسي، لست أقدر أن أنجو إلى الجبل، لعل الشر يرهقني فأموت، وهذه القرية هي قريبة للهرب إليها وهي صغيرة، أتأذنان لي بالهرب إليها لأنها حقيرة، فلتحيا نفسي، فقال له: قد شفعتك في هذا أيضاً فلا أقلب هذه القرية التي سألت، أسرع فانج نفسك إلى هناك، لأننا لسنا نقدر أن نعمل شيئاً حتى تدخلها، ولذلك سميت تلك القرية صاغار - وفي نسخة: زغر - فشرقت الشمس على الأرض وقد دخل لوط صاغار، وفي نسخة: زغر - فأهبط الرب على

سدوم وعامورا ناراً وكبريتاً من بين يدي الرب من السماء فقلب هذه القرى والقاع بأسره، وأهلك جميع سكانها وجميع من فيها وجميع نبت الأرض، فالتفتت امرأته إلى خلفها لتتظر فصارت نصبة ملح، فأدلج إبراهيم باكراً إلى الموضع الذي كان يقف فيه بين يدي الرب؛ فمد بصره نحو سدوم وعامورا وإلى جميع أرض القاع فنظر فإذا دخان القرية يرتفع كدخان الأخدود، فلما خسف الله قرى القاع ذكر الله إبراهيم فأرسل لوطاً من المأفوكة إذ قلب الله القرى التي كان ينزلها لوط فطلع لوط من صاغار - وفي نسخة: زغر - فسكن الجبل هو وابنتاه معه لأنه تخوف أن يسكن صاغار، فجلس في مغارة.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِحَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَوفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ۝ ﴾ .

ولما انتهت القصة معلمة بما قام به لوط عليه السلام من أمر الله غير وإن لرغبة ولا رهبة وبما في إنزال الملائكة من الخطر، أتبعنا أقرب القصص الشهيرة إليها في الزمن فقال تعالى: ﴿ * وإلى ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ﴿ مدين ﴾ وهم قبيلة أبيهم مدين بن إبراهيم عليه السلام ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ فكان قائلاً قال: ما قال لهم؟ فقيل: ﴿ قال ﴾ ما قال إخوانه من الأنبياء في البداية بأصل الدين: ﴿ يقوم ﴾ مستعظفاً لهم مظهراً غاية الشفقة ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي الملك الأعلى غير مشركين به شيئاً لأنه واحد ﴿ ما لكم ﴾ وأغرق في النفي فقال: ﴿ من إله غيره ﴾ فلقد اتفقت - كما ترى - كلمتهم واتحدت إلى الله وحده دعوتهم، وهذا وحده قطعي الدلالة على صدق كل منهم لما علم قطعاً من تباعد أعصارهم وتناهي ديارهم وأن بعضهم لم يلم بالعلوم ولا عرف أخبار الناس إلا من الحي القيوم؛ قال الإمام شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي في كتابه «رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية» في ذكر الأنبياء: اتحدت مصادرهم كأنهم بنيان مرصوص، عبروا بالسنة مختلفة تنتهي إلى بحر متصل بالقلوب متحد بها يستمد من البحر المحيط بعالمي الشهادة والغيب، واختلفت الموارد من الشرائع بحسب ما اقتضت الحكمة الإلهية من مصلحة أهل كل زمان وكل ملة، فما ضر اختلافهم في الفروع مع اتحادهم في الأصول، وقال قبل ذلك: إن الفلاسفة لما لم يغترفوا من بحار الأنبياء وقفت بهم أفراس أفكارهم في عالم الشهادة، فلما حاولوا الخوض في الإلهيات انكشفت عورة جهلهم وافتضحوا باضطرابهم واختلافهم ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ [الحشر: ١٤] القطع بهم سير الفكر في منتهى عالم الملك والشهادة، ولم يدخل

إسكندر نظرهم ظلمات عالم الغيوب حتى يظفروا بعين الحياة التي من شرب منها لا يموت - انتهى .

ولما دعا إلى العدل فيما بينهم وبين الله، دعاهم إلى العدل فيما بينهم وبين عبيده في أقبح ما كانوا قد اتخذوه بعد الشرك ديدناً فقال: ﴿ولا تنقصوا﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿المكيال والميزان﴾ لا الكيل ولا آتة ولا الوزن ولا آتة؛ والكيل: تعديل الشيء بالآلة في القلة والكثرة؛ والوزن: تعديله في الخفة والثقل، فالكيل للعدل في الكمية والوزن للعدل في الكيفية؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إني أركم بخير﴾ أي بسعة تغنيكم عن البخس - مرهباً ومرغباً بالإشارة إلى أن الكفر موجب للنقمة كما أن الشكر موجب للنعمة .

ولما كان كأنه قيل: فإني أخاف عليكم الفقر بالنقص، عطف عليه مؤكداً لإنكارهم: ﴿وإني أخاف عليكم﴾ به وبالشرك ﴿عذاب يوم محيط﴾ بكم صغاراً وكباراً وبأموالهم طيباً وخبيثاً، أي مهلك كقوله ﴿وأحيط بشمره﴾ [الكهف: ٤٢] وأصله من إحاطة العدو، ووصف اليوم بالإحاطة أبلغ لأنه محيط بما فيه من عذاب وغيره، والعذاب محيط بالمعذب فذكر المحيط بالمحيط أهول، وهو الدائر بالشيء من كل جانب، وذلك يكون بالتقاء طرفيه؛ والنقصان: أخذ شيء من المقدار كما أن الزيادة ضم شيء إليه، وكلاهما خروج عن المقدار؛ والوزن: تعديل الشيء بالميزان، كما أن الكيل تعديله بالمكيال، ومن الإحاطة ما رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم ينقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا^(١).

ولما كان عدم النقص قد يفهم منه التقريب، أتبعه بما ينفي هذا الاحتمال وللتنبية على أنه لا يكفي الكف عن تعمد التطفيف، بل يلزم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها، ولأن التصريح بالأمر بالشيء بعد النهي عن ضده أوكد، فقال مستعظفاً لهم بالتذكير بأنه منهم يسوء ما يسوءهم وبأنهم لما أعطاهم الله من القوة جديرون بأن يعرضوا عن تعاطي سفاسف الأخلاق وردائلها: ﴿ويقوم﴾ أي أيها الذين لهم قوة في القيام فيما ينوبهم ﴿أوفوا﴾ أي أتموا إتماماً حسناً ﴿المكيال والميزان﴾ أي، المكيل

(١) حسن . أخرجه ابن ماجه ٤٠١٩ والبزار ٦١٧٦ بأتم منه وأبو نعيم في الحلية ٣/٣٢٠ مختصراً كلهم من حديث ابن عمر . قال البوصيري في الزوائد: هذا حديث صالح للعمل به، واختلفوا في ابن أبي مالك وأبيه ا هـ . قال الذهبي في الميزان: ابن أبي مالك هو خالد بن يزيد قال أحمد: ليس بشيء وقال النسائي: غير ثقة . وذكره الهيثمي في المجمع ٣١٧/٥ (٩٦١٥) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات ا هـ فالحديث حسن بطريقه .

والموزون وآتتهما؛ وأكده بقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي العدل السوي، فصار الوفاء مأموراً به في هاتين الجملتين مراراً تأكيداً له وحرصاً عليه وإظهاراً لعموم نفعه وشمول بركته، فزال بالمجموع توهم المجاز على أبلغ وجه، وقد مضى في الأنعام ويأتي في هذه السورة عند ﴿غير منقوص﴾ أن الشيء يطلق مجازاً على ما قاربه؛ ثم أكد أيضاً بتعميم النهي عن كل نقص بذلك وغيره في جميع الأموال فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾ أي تنقصوا على وجه الجحد والإهانة ﴿الناس أشياءهم﴾ ثم بين أن أفعالهم ثمرة الهجوم عن غير فكر لأنها ليست ناشئة عن شرع فأولها سفه وآخرها فساد فقال: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي تتصرفوا وتضطربوا فيها عن غير بصيرة ولا تأمل حال كونكم ﴿مفسدين﴾ أي فاعلين ما يكون فساداً في المعنى كما كان فساداً في الصورة، فهو دعاء إلى تقديم التأمل والتروي على كل فعل وذلك لأن مادة «عتى» بكل ترتيب دائرة على الطلب عن غير بصيرة، من العيث - للأرض السهلة، فإنها لسهولتها يغتر بها فيسلكها الغبي بلا دليل فيأتي الخفاء والجهل، ومنه التعيث - لطلب الأعمى الشيء؛ والأعشى: الأحمق الثقيل، واللون إلى السواد، والكثير الشعر، ويلزم ذلك اتباع الهوى فيأتي الإفساد والمسارة فيه، وذلك هو معنى العثى؛ قال أئمة اللغة: عثى وعاث: أفسد، وفي مختصر العين للزبيدي: عثى في الأرض بمعنى عاث يعيث عيثاً، وهو الإسراع في الفساد، فالمعنى على ما قال الجمهور: ولا تفعلوا الفساد عمداً وهو واضح، وعلى ما قدرته من أصل المعنى الذي هو للمدار أوضح، وعلى ما قال الزبيدي: ولا تسرعوا فيه، فلا يظن أنه يكون الإسراع حيثئذ قيدا حتى ينصب النهي إليه، بل هو إشارة إلى أنه لا يكون الإقدام بلا تأمل إلا كذلك لملاءمته للشهوة - والله أعلم؛ والوفاء: تمام الحق؛ والبخس: النقص، فهو أخص من الظلم لأنه وضع الشيء في غير موضعه.

﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (٨٦) قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَرُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَلَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَلَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) .

ولما كان نظرهم بعد الشرك مقصوراً على الأموال، وكان نهيه عما نهى عنه موجباً لمحققها في زعمهم، كانوا كأنهم قالوا: إنا إذا اتبعناك فيما قلت فنيت أموالنا أو قلت فتضععت أحوالنا، فلا يبقى لنا شيء؟ فقال: ﴿بقيت الله﴾ أي فضل الملك الأعلى

المستجمع لصفات الكمال، وبركته في أموالكم وجميع أحوالكم وإبقائه عليكم نظره إليكم الموجب لعفوه الذي هو ثمرة اتباع أمره ﴿خير لكم﴾ مما تظنونه زيادة بالنقص والظلم، وذلك أن بقية الشيء ما فضل منه، وتكون أيضاً بمعنى البقيا، من أبقى عليه يبقي إبقاءً، واستبقيت فلاناً - إذا عفوت عن ذنبه، كأن ذلك الذنب أوجب فناء وده أو فناه عندك، فإذا استبقيته فقد تركت ما كان وجب، ويقولون: أراك تبقي هذا ببصرك - إذا كان ينظر إليه - قاله الإمام أبو عبد الله القزاز في ديوانه الجامع، وسيأتي في آخر السورة بيان ما تدور عليه المادة.

ولما كانت خيرية ما يبقيه العدل من الظهور بمحل لا يخفى على ذي لب، تركها وبين شرطها بقوله: ﴿إن كنتم﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿مؤمنين﴾ أي راسخين في الإيمان إشارة إلى أن خيريتها لغير المؤمن مبنية على غير أساس، فهي غير مجدية إلا في الدنيا، فهي عدم لسرعة الزوال والنزوح عنها والارتحال، ودلت الواو العاطفة على غير مذكور أن المعنى: فأمنوا فاعلين ما أمرتكم به لتظفروا بالخير فإنما أنا نذير ﴿وما أنا﴾ وقدم ما يتوهمونه من قصده للاستعلاء نافية له فقال: ﴿عليكم﴾ وأعرق في النفي فقال: ﴿بحفيظ﴾ أعلم جميع أعمالكم وأحوالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها فساداً؛ وأصل البقية ترك شيء من شيء قد مضى.

ولما كان حاصل ما دعاهم إليه ترك ما كان عليه أبأؤهم من السفه في حق الخالق بالشرك والخلائق بالخيانة، وكان ذلك الترك عندهم قطيعة وسفهاً، كان ذلك محكاً للعقول ومحزراً للآراء يعرف به نافذها من جامدها، فكان كأنه قيل: ما قالوا؟ فقيل: ﴿قالوا يشعيب﴾ سموه باسمه جفاء وغلظة وأنكروا عليه مستهزئين بصلاته ﴿أصلوتك تأمرك﴾ أي تفعل معك فعل من كان يأمر دائماً بتكليفنا ﴿أن نترك ما يعبد﴾ أي على سبيل المواظبة ﴿أباؤنا أو﴾ نترك ﴿أن نفعل﴾ أي دائماً ﴿في أموالنا ما نشاء﴾ من قطع الدرهم والدينار وإفساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون إفساداً للمال، يعنون أن ما تأمرنا به لا يمشي على منهاج العقل، فما يأمرك به إلا ما نراك تفعله من هذا الشيء الذي تسميه صلاة، أي أنه من وادي: فعلك للصلاة؛ ومادة صلا - واوية ويائية مهموزة وغير مهموزة بجميع تقاليها - تدور على الوصلة، فالصلاة لصلة العبد بربه، وكذا الدعاء والاستغفار، وصلوات اليهود: كنائسهم اللاتي تجمعهم، والصلا: وسط الظهر ومجمعه وما حول الذنب أيضاً، والمصلى من الخيل: التابع للسابق، وصال الفحل - إذا حمل على العانة، ولصوت الرجل ولصيته: عبته، كأنك ألصقت به العيب، والواصلة واضحة في ذلك، وكأنها الحقيقة التي تفرعت منها جميع معاني المادة، وسيأتي شرح ذلك عند

قوله تعالى ﴿بالغدو والآصال﴾ في سورة الرعد إن شاء الله تعالى، فمعنى الآية حينئذ: أما تعانيه من الصلوات: الحقيقية ذات الأركان، والمعنوية من الدعاء والاستغفار وجميع أفعال البر الحاملة على أنواع الوصل الناهية عن كل قطيعة تأمرك بمجاهرتنا لآبائنا بالقطيعة مع تقدير حضورهم ومشاهدتهم لما نفعل مما يخالف أغراضهم وبترك التنمية لأموالنا بالنقص وهو مع مخالفة أفعال الآباء تبذير فهو سفه - فدارت شبهتهم في الأمرين على تقليد الآباء وتنزيههم عن الغلط لاحتمال أن يكون لأفعالهم وجه من الصواب خفي عنهم، وزادت في الأموال بظن التبذير - فقد صرت بدعائنا إلى كل من الأمرين حينئذ داعياً إلى ضد ما أنت متلبس به ﴿إنك﴾ إذا ﴿لأنت﴾ وحدك ﴿الحليم﴾ في رضاك بما يغضب منه ذوو الأرحام ﴿الرشيد﴾ في تضييع الأموال، يريدون بهذا كما زعموا - سلخه من كل ما هو متصف به دونهم من هاتين الصفتين الفائقتين بما خيل إليهم سفههم أنه دليل عليه قاطع، وعنوا بذلك نسبته إلى السفه والغي على طريق التهكم.

ولما اتهموه بالقطيعة والسفه، شرع في إبطال ما قالوا ونفي التهمة فيه، وأخرج مخرج الجواب لمن كأنه قال: ما أجابهم به؟ فقيل: ﴿قال يقوم﴾ مستعظفاً لهم بما بينهم من عواطف القرابة منبهاً لهم على حسن النظر فيما ساقه على سبيل الفرض والتقدير ليكون أدعى إلى الوفاق والإنصاف ﴿أرءيتم﴾ أي أخبروني ﴿إن كنت﴾ أي كوناً هو في غاية الثبات ﴿على بينة﴾ أي برهان ﴿من ربي﴾ الذي أحسن إليّ بما هو إحسان إليكم، وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله ﴿و﴾ قد ﴿رزقني﴾ وعظم الرزق بقوله: ﴿منه رزقاً حسناً﴾ جليلاً ومالاً جماً حلالاً لم أظلم فيه أحداً، والجواب محذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب، ويمكن أن يقال فيه: هل يسع عاقلاً أن ينسبني إلى السفه بتبذير المال بترك الظلم، أو يسعني أن أحلم عمن عبد غيره وأترك دعاءكم إلى الله، فقد بان بهذا أنني ما أمرتكم بما يسوءكم من ترك ما ألفتكم وتعرضت لغضبكم كلكم، وتركت مثل أفعالكم إلا خوفاً من غضبه ورجاء لرضاه، فظهر أن لا تهمة في شيء من أمري ولا خطأ، ما فعلت قط ما نهيتكم عنه فيما مضى ﴿وما أريد﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿أن أخالفكم﴾ أي بأن أذهب وحدي ﴿إلى ما أنهكم عنه﴾ في المستقبل، وما نقص مال بترك مثل أفعالكم، فهو إرشاد إلى النظر في باب:

لا تنه عن خلق وتأتي بمثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فابدأ بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم

وقد نبهت هذه الأجوبة الثلاثة على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتي ويذر أحد حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها حق الله وثانيها حق النفس وثالثها حق العباد على

وجه الإخلاص في الكل فثبت ببعده عن التهمة مع سداد الأفعال وحسن المقاصد - حلمه ﷺ ورشده، لذلك أتبعه بما تضمن معناه مصرحاً به فقال: ﴿إِنْ﴾ أي ما ﴿أريد﴾ أي شيئاً من الأشياء ﴿إلا الإصلاح﴾ وأقر بالعجز فقال: ﴿ما استطعت﴾ أي مدة استطاعتي للإصلاح وهو كما أردت فإن مالي - مع اجتنابي ما أنتم عليه - صالح، ليس بدون مال أحد منكم، فعلم، مشاهدة أن لا تبذير في العدل، وأما التوحيد فهو - مع انتفاء التهمة عنى فيه - دعاء إلى القادر على كل شيء الذي لا خير إلا منه ولا محيص عن الرجوع إليه؛ ثم تبرأ من الحول والقوة، وأسند الأمر إلى من هو له فقال: ﴿وما توفيقي﴾ أي فيما استطعت من فعل الإصلاح ﴿إلا بالله﴾ أي الذي له الكمال كله؛ ثم بين أنه الأهل لأن يرجى فقال مشيراً إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ ﴿عليه﴾ أي وحده ﴿توكلت﴾ ولما طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتي ويذر من الله والاستعانة به في مجامع أمره وأقبل عليه بكليته وحسم أطماع الكفار عنه وأظهر الفراغ عنهم وعدم المبالاة بهم، وكان في قوله ﴿ما استطعت﴾ إقرار بأنه محل التقصير، أخبر بأنه لا يزال يجدد التوبة لعظم الأمر، وعبر عن ذلك بعبارة صالحة للتحذير من يوم البعث تهديداً لهم فقال منبهاً على معرفة المعاد ليكمل الإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿والإله﴾ أي خاصة ﴿أنيب﴾ أي أرجع معنى سبقي للتوبة وحساً تيقني بالبعث بعد الموت؛ والتوفيق: خلق قدرة ما هو وفق الأمر من الطاعة، من الموافقة للمطابقة؛ والتوكل على الله: تفويض الأمر إليه على الرضاء بتدبيره مع التمسك بطاعته.

﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرَمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوَبْنَا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ .

ولما بين لهم عذره بما انتفت به تهمته، أتبعه بما يدلهم على أن الحق واضح لهم وضوحاً لم يبق معه إلا المعاندة، فحذرهم عواقبها وذكرهم أمر من ارتكبتها فقال: ﴿ويقوم﴾ وأعز الناس علي ﴿لا يجرمنكم﴾ أي يحملنكم ﴿شقاقي﴾ أي شقاكم لي على ﴿أن يصيبكم﴾ من العذاب ﴿مثل ما﴾ أي العذاب الذي ﴿أصاب قوم نوح﴾ بعد طول أعمارهم وتنائي أقطارهم ﴿أو قوم هود﴾ على شدة أبدانهم وتمادي أمانهم ﴿أو قوم صالح﴾ مع نحتهم البيوت من الصخور وتشيدهم عوالي القصور.

ولما كان للمقاربة أثر في المشاكلة والمناسبة، غير الأسلوب تعظيماً للتهويل

فقال: ﴿وما قوم لوط﴾ أي على قبح أعمالهم وسوء حالهم وقوة أخذهم ووبالهم ﴿منكم يبعيد﴾ أي لا في الزمان ولا في المكان فأنتم أجدر الناس بذكر حالهم للاتعاظ بها، وإنما فسرت جرم بحمل لأن ابن القطاع نقل أنه يقال: جرمت الرجل: حملته على الشيء، وقد عزا الرماني تفسيرها بذلك للحسن وقتادة، ويجوز أن تفسر بما تدور عليه المادة من القطع، أي لا يقطعنكم شقاقي عن اتباع ما أدعوكم إليه خوف أن يصيبكم، وقد جوزة الرماني.

ولما رهبهم، أتبعه الترغيب في سياق مؤذن بأنهم إن لم يبادروا إلى المتاب بادرهم العذاب، بقوله عاطفاً لهذا الأمر على ذلك النهي المتقدم: ﴿واستغفروا ربكم﴾ أي اطلبوا ستر المحسن إليكم، ونبه على مقدار التوبة بأداة التراخي فقال: ﴿ثم توبوا إليه﴾ ثم علل ذلك مرغباً في الاقبال عليه بقوله: ﴿إن ربي﴾ أي المختص لي بما ترون من الإحسان ديناً ودنيا ﴿رحيم ودود﴾ أي بليغ الإكرام لمن يرجع إليه بأن يحفظه على ما يرضاه بليغ التحبب إليه، ولم يبدأ بالاستعطف على عادته بقوله: يا قوم، إشارة إلى أنه لم يبق لي وقت آمن فيه وقوع العذاب حتى أشتغل فيه بالاستعطف، فربما كان الأمر أعجل من ذلك فاطلبوا مغفرته بأن تجعلوها غرضكم ثم توصلوا إليها بالتوبة؛ فثم على بابها في الترتيب، وأما التراخي فباعتبار عظم مقدار التوبة وعلو رتبها لأن الغفران لا يحصل بالطلب إلا إن اقترن بها، هذا الشأن في كل كبيرة من أنها لا تكفر إلا بالتوبة، وذلك لأن الطاعة المفعولة بعدها يكون مثلها كبيرة في جنس الطاعات كما أن تلك كبيرة في جنس المعاصي فلا تقوى الطاعة على محوها وتكرر الطاعات يقابله تكرر المعاصي بالإصرار الذي هو بمنزلة تكرير المعصية في كل حال، فلما رآه لا يتزع عنهم ولم يقدرُوا لكلامه على جواب، أيأسوه من الرجوع إليه بأن أنزلوا أنفسهم عناداً في الفهم لهذا الكلام الواضح جداً إلى عداد البهائم، وهددوه فأخبر تعالى عنهم بذلك استئنافاً في جواب من يقول: ما قالوا بعد هذا الدعاء الحسن؟ بقوله: ﴿قالوا يشعيب﴾ منادين له باسمه جفاء وغلظة ﴿ما نفقه﴾ أي الآن لأن «ما» تخص بالحال ﴿كثيراً مما تقول﴾ وإذا لم يفهم الكثير من الكلام لم يفهم مقصوده، يعنون: خفض عليك واترك كلامك فإننا لا نفهمه تهاوناً به كما يقول الإنسان لخصمه إذا نسبه إلى الهديان: أنا لا أدري ما تقول، ولما كان غرضهم مع العناد قطع الأمر، خصوصاً عدم الفهم بالكثير ليكون أقرب إلى الإمكان، وكانهم - والله أعلم - أشاروا إلى أنه كلام غير منتظم فلا حاصل له ولا لمضمونه وجود في الخارج.

ولما كان في ذلك إشارة إلى أنه ضعيف العقل لأن كلامه مثل كلام المجانين،

أتبعوه قولهم: ﴿وإننا لنراك﴾ أي رؤية مجددة مستمرة ﴿فينا ضعيفاً﴾ أي في البدن وغيره، فلا تتعرض لسخطنا فإنك لا تقدر على الامتناع من مكروه نحله بك بقوة عقل ولا جسم ولا عشيرة، وأشاروا إلى ضعف العشيرة بتعبيرهم بالرهط في قولهم: ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي قتلناك شر قتلة - فإن الرهط من ثلاثة إلى عشرة وأكثر ما قيل: إن فخذ أريعون - فما أنت علينا بممتنع لضعفك وقلة قومك ﴿وما أنت﴾ أي خاصة، لأن «ما» لنفي الحال اختصاص بالزمان، والقياس أن يكون مدخولها فعلاً أو شبهه، وحيث أوليت الاسم لا سيما الضمير دل على أن التقديم للاهتمام والاختصاص ﴿علينا بعزيز*﴾ بكريم مودود، تقول: أعزت فلاناً - إذا كان له عندك ود، بل قومك هم الأعزة عندنا لموافقتهم لنا، ولو كان المراد: ما عززت علينا، لكان الجواب: لم لا أعز وقد شرفني الله - أو نحو هذا، ويصح أن يراد بالعزيز القوي الممتنع، ويصير إفهامه لامتناع رهطه محمولاً على أن المانع لهم موافقتهم لهم لا قوتهم؛ والفقه: فهم الكلام على ما تضمن من المعنى، وقد صار اسماً لضرب من علوم الدين، وأصل الرهط: الشدة، من الترهيط لشدة الأكل، ومنه الراهطاء: جحر اليربوع لشدته وتوثقه ليخبأ فيه ولده.

﴿ قَالَ يَنْقُورِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذْتُمُوهُ وِرَاءَ كُمِ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٥٦﴾ وَيَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَنِلُّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٥٨﴾ كَانَ لَرِيعَتُونَا فِيهَا أَلْبَعْدَأَلْمِينَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٥٩﴾ ۝﴾

ولما كان تخصيصهم نفي العزة به يفهم أن رهطه عليهم أعزة، أنكر عليهم ذلك في سياق مهدد لهم فقال تعالى حاكياً عنه استئنافاً: ﴿قال﴾ أي شعيب ﴿يقوم﴾ ولم يخل الأمر من جذب واستعطاف بذكر الرحم العاطفة ﴿أرهطي﴾ أي أقاربي الأقربون منكم ﴿أعز عليكم من الله﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة حتى نظرتهم إليهم في لقرابتي منهم ولم تنظروا إلى الله في قربي منه بما ظهر علي من كرامته ﴿واتخذتموه﴾ أي بما كلفتم به أنفسكم مما هو خلاف الفطرة الأولى ﴿وراءكم﴾ أي عرضتم عنه إعراض من جعل الشيء وراءه؛ وحقق معنى الورا بقلوه: ﴿ظهرياً﴾ أي جعلتموه كالشيء الغائب عنكم المنسي عندكم الذي لا يعبا به، ولم تراقبوه في نسبتي إليه بالرسالة والعبودية.

ولما كان معنى الكلام لأجل الإنكار: إنكم عكستم في الفعل فلم تعرفوا الحق لأهله إذ كان ينبغي لكم أن لا تنسوا الله بل تراقبوه في كل أموركم، حسن تعليل هذا

المفهوم بقوله: ﴿إِنْ رِيبِي﴾ أي المحسن إليّ؛ ولما كان المراد المبالغة في إحاطة علمه تعالى بأعمالهم قدم قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ مَحِيطٌ﴾ من جليل وحقير، فهو مقتدر في كل فعل من أفعالكم على إنفاذه وإبطاله، فهو محيط بكم لا يرده عن نصرتي منكم والإيقاع بكم مراعاة أحد لعزة ولا قوة، بل لكم عنده أجل هو مؤخركم إليه لأنه لا يخشى الفوت؛ والاتخاذ: أخذ الشيء لأمر يستمر في المستأنف كاتخاذ البيت؛ والمحيط: المدير على الشيء كالحائط يحصره بحيث لا يفوته منه شيء.

ولما ختم الآية بتهديدهم بما بين أن تهديدهم له عدم لا يبالي به، أتبعه ما يصدقه من أنه ليس بتارك شيئاً من عمله لشيء مما جبلوا به، وزاد في التهديد فقال: ﴿وَيَقُومِ أَعْمَلُوا﴾ أي أوقعوا العمل لكل ما تريدون قارين مستعلين ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي حالكم الذي تتمكنون به من العمل ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على ما صار لي مكانة، أي حالاً أتمكن به من العمل لا أنفك عنه ما أنا عامل من تحذيري لمن كفر وتبشيري لمن آمن وقيامي بكل ما أوجب عليّ الملك غير هائب لكم ولا خائف منكم ولا طامع في مؤالفتكم ولا معتمد على سواه.

ولما كانت ملازمتهم لأعمالهم سبباً لوقوع العذاب المتوقع به ووقوعه سبباً للعلم بمن يخزي لمن يعلم أي هذين الأمرين يراد، ذكره بعد هذا التهديد فحسن حذف الفاء من قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي بوعد لا خلف فيه وإن تأخر زمانه، وسوقه مساق الجواب لمن كأنه قال: ما المراد بهذا الأمر بالعمل المبالغ قبل في النهي عنه؟ وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام ما يوضحه. وأحسن منه أنهم لما قالوا ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ كذبهم - في إخراج الكلام على تقدير سؤال من هو منصب الفكر كله إلى كلامه - قائل: ماذا يكون إذا عملنا وعملت؟ فهذا وصل خفي مشير إلى تقدير السؤال ولو ذكر الفاء لكان وصلاً ظاهراً، وقد ظهر الفرق بين كلام الله العالم بالأسباب وما يتصل بها من المسببات المأمور بها أشرف خلقه ﷺ في سورة الأنعام والزمم والكلام المحكي عن نبيه شعيب عليه السلام في هذه السورة ﴿مَنْ﴾ أي أينما أو الذي ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ولما كان من مضمون قولهم ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ النسبة إلى الكذب لأنه التكلم بما ليس له نسبة في الواقع تطابقه، قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي مني ومنكم، فالتقدير إن كانت «من» موصولة: ستعلمون المخزي بالعذاب والكذب أنا أو أنتم، وإن كانت استفهامية: أينما يأتيه عذاب يخزيه وأينما هو كاذب، فالزموا مكانتكم لا تتقدموا عنها ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أي انتظروا ما يكون من عواقبها.

ولما كانوا يكذبونه وينكرون قوله، أكد فقال: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ لمثل ذلك،

وإنما قدرت هذا المعطوف عليه لفصل الكلام في قوله ﴿سوف﴾ ويجوز عطفه على ﴿اعملوا﴾ وجرده ولم يقل: مرتقب، إشارة إلى أن همه الاجتهاد في العمل بما أمره الله لأنه مبالغ في ارتقاب عاقبته معهم استهانة بهم.

ولما كان كأنه قيل: فأخذوا الكلام على ظاهره ولم ينتفعوا بصادع وعيده وباهره، فاستمروا على ما هم عليه من القبيح إلى أن جاء أمرنا في الأجل المضروب له، قال عاطفاً عليه، وكان العطف بالواو لأنه لم يتقدم وعيد بوقت معين - كما في قصتي صالح ولوط عليهما السلام - يتسبب عنه المجيء ويتعقبه: ﴿ولما جاء أمرنا﴾ أي تعلق إرادتنا بالعذاب ﴿نجينا﴾ بما لنا من العظمة ﴿شعيباً﴾ أي تنجية عظيمة ﴿والذين آمنوا﴾ كائنين معه ﴿منهم ومما عذبناهم به، وكان إنجاءنا لهم ﴿برحمة منا﴾ ولما ذكر نجاة المؤمنين، أتبعه هلاك الكافرين فقال: ﴿وأخذت الذين ظلموا﴾ أي أوقعوا الظلم ولم يتوبوا ﴿الصيحة﴾ وكأنها كانت دون صيحة ثمود لأنهم كانوا أضعف منهم فلذلك أبرز علامة التأنيث في هذه دون تلك.

ولما ذكر الصيحة ذكر ما تسبب عنها فقال: ﴿فأصبحوا﴾ أي في الوقت الذي يتوقع الإنسان فيه السرور وكل خير ﴿في ديارهم جثمين﴾ أي ساقطين لازمين لمكانهم.

ولما كان الجثوم قد لا يكون بالموت، أوضح المراد بقوله: ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي لم يقيموا في ديارهم أغنياء متصرفين مترددين مع الغواني لاهين بالغناء؛ ولما كان مضمون ذلك الإبعاد أكده بقوله: ﴿ألا بعداً لمدين﴾ بعداً مع أنه بمعنى ضد القرب معه هلاك، فهو من بعد بالكسر وأيد ما فهمته من أن أمرهم كان أخف من أمر ثمود بقوله: ﴿كما بعدت ثمود﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوهُ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَتَسَّ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ .

ولما كان شعيب ختن موسى عليهما السلام، كان ذكر قصته هنا متوقفاً مع ما حرك إلى توقعها من ذكر كتابه أول السورة وما في عصا موسى من مناسبة ناقة من ختم بالتشبيه بحالهم، فذكرها بعدها مفتتحاً لها بحرف التوقع فقال مؤكداً تنبيهاً على أن فرعون فعل فعل قريش في الإدبار عن الآيات العظيمة ولم يترك موسى عليه السلام شيئاً مما أوحى إليه من إنذاره: ﴿ولقد أرسلنا﴾ أعاد الفعل وأبرزه في مظهر العظمة إشارة إلى

باهر معجزاته ﴿موسى بآيتنا﴾ أي المعجزات التي أظهرها ﴿وسلطن﴾ أي أمر قاهر للقبط، والظاهر أنه حكاية موسى عليه السلام منه على ما كان له من السطوة والتحرق عليه ﴿مبين﴾ أي بين بنفسه، وهو في قوة بيانه كأنه مبين لغيره ما فيه من الأسرار، والآية تعم الأمانة والدليل القاطع، والسلطان يخص القاطع، والمبين يخص ما فيه جلاء ﴿إلى فرعون﴾ طاغية القبط ﴿وملئه﴾ أي أشرف قومه الذين تتبعهم الأذناب، لأن القصد الأكبر رفع أيديهم عن بني إسرائيل.

ولما كان الناصح لنفسه من لا يتبع أحداً إلا فيما يعلم أنه صواب، قال معجباً من الملأ مشيراً إلى سرعة تكذيبهم بالبينات وإتباعهم فيما ضلاله لا يخفى على من له مسكة: ﴿فاتبعوا﴾ أي فتسبب عن هذا الأمر الباهر أن عصى فرعون وحمل ملؤه أنفسهم على أن تبعوا لإرادتنا ذلك منهم ﴿أمر فرعون﴾ أي كل ما يفهمون عنه أنه يهواه ويأمره به وتبعهم السفلة فأطبقوا على المنازلة إلا من شاء الله منهم ﴿وما﴾ أي والحال أنه ما ﴿أمر فرعون برشيد﴾ أي سديد، مع أن في هذا التعقيب بعد ذكر ثمود من التذكير بآيتي الناقة والعصا إشارة إلى القدرة على البعث المذكور أول السورة الموجب خوفه لكل خير كما أن ذلك أيضاً كان من فوائد تعقيب قصة إبراهيم لقصة صالح عليهما السلام، واقتصر هنا على ذكر فرعون وقومه لأن المقصود من هذه القصص - كما تقدم - التثبيت في المكافحة بإبلاغ الإنذار وإن اشتدت كراهية المبلغين وقل المتبع منهم، وأن لا يترك شيء منه خوف إصرارهم أو إدبارهم ولا رجاء إقبالهم وكثرة مؤمنهم، وهذه حال آل فرعون، وأما بنو إسرائيل فإنهم لم يتوقفوا إلا خوفاً من فرعون في أول الأمر، ثم أطبق كلهم على الإتياع، ثم صاروا بعد ذلك كل قليل يبذلون لا كراهية للإنذار بل لغير ذلك من الأمور وعجائب المقدور كما بين في قصصهم؛ والملأ: الأشراف الذين تملأ الصدور هيبتهم عند رؤيتهم؛ والإتياع، طلب الثاني للتصرف بتصرف الأول في أي جهة أخذ، وقد يكون عن كره بخلاف الطاعة؛ والأمر: الإيجاب بصيغة «أفعل» وهو يتضمن إرادة المأمور به في الجملة، وقد لا يراد امتثال عين المأمور؛ والرشيد: القائد إلى الخير الهادي إليه؛ ثم أوضح عدم رشد أمر فرعون بقوله: ﴿يقدم قومه﴾ أي الذين كان لهم قوة المدافعة ﴿يوم القيمة﴾ ويكونون له تبعاً كما كانوا في الدنيا، وأشار بإيراد ما حقه المضارع ماضياً إلى تحقق وقوعه تحقق ما وقع ومضى فقال: ﴿فأوردتهم النار﴾ أي كما أوردتهم في الدنيا غطاءها وهو البحر. ولما كان التقدير: فبئس الواردون، عطف عليه بيان الفعل والمفعول فقال: ﴿وبئس الورد المورود﴾ كما كان البحر إذ وردوه أقبح ورد ورده إنسان، لأن الورد يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، وهذا يفيد ضد ذلك.

ولما كان فرعون موصوفاً بعظم الحال وكثرة الجنود والأموال وضحامة المملكة، حقر تعالى دنياه بتحقيق جميع الدنيا التي هي منها بإسقاطها في الذكر اكتفاء بالإشارة إليها ولم يثبتها كما في قصة عاد فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ بينائه للمفعول لأن المنكي الفعل لا كونه من معين ﴿في هذه﴾ أي الحياة الخسيسة ﴿لعنة﴾ فهم يلعنون فيها من كل لاعن من المسلمين وغيرهم من أهل الملل فلعنة الله على من حسن حالهم وارتضى ضلالهم لإضلال العباد من أهل الإلحاد بفتنة الاتحاد ﴿ويوم القيامة﴾ أيضاً يلعنهم اللاعنون، حتى أهل الاتحاد الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين؛ ثم بين ما يحق أن يقوله سامع ذلك بقوله: ﴿بئس الرفد المرفود﴾ أي التبع المتبوع والعون المعان، فإن اللعنة تابعة لعذابهم في الدنيا ومتبوعة باللعنة في الآخرة والعذاب رقد لها وهي رقد له، ومادة «رقد» تدور على التبع، أو يكون المراد أن لعنهم لا يزال مترادفاً تابعاً بعضه لبعض، فكل لعنة تابعة لشيء من الخزي: عذاب أو لعن، متبوعة بلعنة مضافة إليها، وسمي ذلك رقداً وهو حقيقة العون من باب قولهم: تحية بينهم ضرب وجيع ومعنى ﴿يقدم﴾ أنه يكون قدامهم غير سائق لهم، بل هم على أثره متلاحقين، فيكون دخولهم إلى النار معاً؛ والقيامة: القومة من الموت للحساب؛ والإتباع: طلب الثاني للحاق بالأول كيف تصرف؛ واللعن من الله: الإبعاد من الرحمة بالحكم بذلك، ومن العباد: الدعاء به.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١١٣﴾﴾

ولما كانت هذه الأخبار على غاية من التحذير، لا يعرفه إلا بالغ في العلم، كان من المعلوم قطعاً أنه ﷺ لم يأت بها إلا من عند الله للعلم المشاهد بأنه لم يعان علماً ولا ألم بعالم يوماً، هذا مع ما اشتملت عليه من أنواع البلاغة وتضمنته من أنحاء الفصاحة وأومات إليه بحسن سياقاتها من صروف الحكم وإفادة تفصيلها من فنون المعارف، فلذلك استحقت أن يشار إليها بأداة البعد إيماء إلى بعد المرتبة وعلو الأمر فقال تعالى: ﴿ذلك﴾ أي النبا العظيم والخطب الجسيم ﴿من أنباء القرى﴾ وأكد هذا المعنى بلفظ النبا لأنه الخبر بما فيه عظيم الشأن، ومنه النبي، وأشار بالتعبير بالمضارع

في قوله: ﴿نقصه عليك﴾ إلى أنا كما قصصناها عليك في هذا الحال للمقصد المتقدم سنقصها عليك لغير ذلك من الأغراض في فنون البلاغة وتصاريف الحكم كما سترى عند قصه؛ ثم أشار بما أخبر من حلها بقوله: ﴿منها﴾ أي القرى ﴿قائم وحصيد﴾ إلى أنك مثل ما سمعت ما قصصنا عليك من أمرها بأذنك ووعيته بقلبك تحسها بعينك بمشاهدة أبنيتها وآثارها قائمة ومستحصدة، أي متهدمة لم يبق من بنيانها إلا بعض جذرانها.

ولما كان فيما تقدم في هذه السورة من القصص أشد تهديد وأعظم وعيد لمن له تبصرة، صرح لغليظي الأكياد بأن الموجب للإيقاع بهم إنما هو الظلم، فقال تعالى عاطفاً على نحو أن يقال: فعلنا بهم وأنبأناك به: ﴿وما ظلمنهم﴾ في شيء منه ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ واعتمدوا على أندادهم معرضين عن جنابنا آمنين من عذابنا فأخذناهم ﴿فما﴾ أي فتسبب عن اعتمادهم على غيرنا أنه ما ﴿أغنت عنهم﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿التهتم التي﴾ وصور حالهم الماضية فقال: ﴿يدعون﴾ أي دعوها واستمروا على دعائهم لها إلى حين الأخذ، وبين خسة رتبها فقال: ﴿من دون الله﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال؛ وذكر مفعول «أغنت» معرقاً في النفي فقال: ﴿من شيء﴾ أي وإن قل ﴿لما جاء أمر﴾ أي عذاب ﴿ريك﴾ أي المحسن إليك بتأخير العذاب المستأصل عن أمتك وجعلك نبي الرحمة ﴿وما زادوهم﴾ في أحوالهم التي كانت لهم قبل عبادتهم إياها ﴿غير تشبيب﴾ أي إهلاك وتخسير، فإنهم كانوا في عداد من يرجى فلاحه، فلما تورطوا في عبادتها ونشبوها في غوايتها وبعدوا عن الاستقامة بضلالتها خسروا أنفسهم التي هي رأس المال فكيف لهم بعد ذلك بالأرباح؛ والقص: إتياع الأثر، فهو هنا الإخبار بالأمور التي يتلو بعضها بعضاً؛ والدعاء: طلب الطالب الفعل من غيره، ونداء الشيء باسمه بحرف النداء، وكلا الأمرين مرادان؛ و﴿من دون الله﴾: من منزلة أدنى من منزلة عبادة الله لأنه من الأدون، وهو الأقرب إلى جهة السفلى؛ والتب: الهلك والخسر.

ولما كان المقصود من ذلك رمي قلوب العرب بما فيه من سهام التهديد ليقنعوا عما تمكنوا فيه من عمى التقليد، قال تعالى معلماً بأن الذي أوقع بأولئك لظلمهم وهو لكل ظالم بالمرصاد سواء ظلم نفسه أو غيره: ﴿وكذلك﴾ أي ومثل ذلك الأخذ العظيم ﴿أخذ ريك﴾ ذكره بوصف الإحسان ما له إليه من البر لثلا يخاف على قومه من مثل هذا الأخذ ﴿إذا أخذ القرى﴾ أي أهلها وإن كانوا غير من تقدم الإخبار عنهم وإن عظموا وكثروا، ولكن الإخبار عنها أهول لأنه يفهم أنه ربما يعمها الهلاك لأجلهم بشدة الغضب من فعلهم كقرى قوم لوط عليه السلام ﴿وهي ظالمة﴾ روى البخاري في التفسير عن أبي

موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(١) ثم قرأ «وكذلك أخذ ربك» الآية.

ولما كان مثل هذا الآخذ لا يدانيه مخلوق ولا يقدر عليه ملك، حسن كل الحسن إتباع ذلك قوله: «إن أخذه اليم» أي مؤلم قاطع للأمال مالىء البدن والروح والنفس بالنكال «شديد» أي صعب مفتت للقوى، ولعله عبر هنا باسم الرب مضيفاً له إلى المنبأ بهذه الأنباء مكرراً لذلك في هذا المقام الذي ربما سبق فيه الوهم إلى أنه باسم الجبار والمنتقم مثلاً أليق، إشارة إلى أنه سبحانه يربيك أحسن تربية في إظهارك على الدين كله وانقياد العظماء لأمرك وذل الأعزة لسطوتك وخفض الرؤوس لعلو شأنك، فلا تتكلف أنت شيئاً من قصد إجابتهم إلى إنزال آية أو ترك ما يغيظ من إنذار ونحو ذلك - والله الموفق.

ولما كان مما جر هذه القصص وهذه المواعظ تكذيبهم لما يوعدون من العذاب الناشئ عن إنكار البعث المذكور في قوله تعالى: «ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت»، أشار تعالى إلى تحقق أمر الآخرة وأنه مما ينبغي الاهتمام به رداً للمقطع على المطلع، وإعلاماً بأنه لا فرق بينه وبين ما تحقق إيقاعه من عذاب هذه الأمم في القدرة عليه بقوله مؤكداً لأجل جحودهم أن يكون في شيء مما مضى دلالة عليه بوجه من الوجوه: «إن في ذلك» أي النبأ العظيم والقصص والوعظ بما يذكر «لآية» أي لعلامة عظيمة ودلالة بته ولما كان وجود الشيء عدماً بالنسبة إلى ما لا نفع له به، قال: «لمن خاف عذاب» يوم الحياة «الآخرة» لأنه نفع خاص به، وإنما كان آية له لأنه إذا نظر إلى إهلاكه للظالمين إهلاكاً عاماً بسبب ظلمهم وإنجائه للمؤمنين، علم أنه قادر على ما يريد، وأنه لا بد أن يجازي كلاً بما فعل، فإذا رأى أن ظلمة كثيرين يموتون بغير انتقام، علم أنه لا بد من يوم يجازيهم فيه، وهو اليوم الذي أخبرت به عنه رسله، وزاد في الإشارة إلى تهويله بإعادة اسم الإشارة في قوله: «ذلك» أي اليوم العظيم الذي يكون فيه عذاب الآخرة «يوم» وأشار - إلى يسر البعث وسهولته عليه وأنه أمر ثابت لا بد منه - باسم المفعول من قوله: «مجموع له» أي لإظهار العدل فيه والفضل «الناس» أي كل من فيه أهلية التحرك والاضطراب وما ثم يوم غيره يكون بهذه الصفة أصلاً.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٦ ومسلم ٢٥٨٣ والترمذي بإثر ٣١١٠ والنسائي في الكبرى ١١٢٤٥ وابن ماجه ٤٠١٨ وابن حبان ٥١٧٥ والطبري ١٨٥٥٩ والبيهقي ٩٤/٦ وفي الأسماء والصفات ٨٢/١ كلهم من حديث أبي موسى. - وأورده السيوطي في الدر ٤٧٤/٤ وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

ولما لم يسبقه يوم اجتمع فيه جميع الخلق من الجن والإنس والملائكة وجميع الحيوانات أحياء، كان ذلك مسوغاً لأن تعد شهادة غيره عدماً فقال تعالى: ﴿وذلك﴾ أي اليوم العظيم ﴿يوم مشهود﴾ أي هو نفسه لهم ولغيرهم من جميع الخلق، فيكون تنوينه للتعظيم بدلالة المقام، أو يكون المعنى أنه أهل لأن يشهد، وتتوفر الدواعي على حضوره لما فيه من عجائب الأمور والأحوال العظام والمواقف الصعبة، فلا يكون ثم شغل إلا نظر ما فيه والإحاطة بحوادثه خوف التلاف ورجاء الخلاص؛ والآية: العلامة العظيمة لما فيها من البيان عن الأمر الكبير؛ والخوف: انزعاج النفس بتوقع الشر، وضده الأمن وهو سكون النفس بتوقع الخير؛ والعذاب: استمرار الألم.

﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴿١٠٥﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

ولما تقدم قولهم ﴿ما يحبسه﴾ كان كأنه قيل في الرد عليهم: نحن قادرون على تعجيله، وهو - كما أشرنا إليه في هذه الآية - عندنا متى شئنا في غاية السهولة: ﴿وما تؤخره﴾ أي اليوم أو الجزء مع ما لنا من العظمة والقدرة التامة على إيجاده لشيء من الأشياء ﴿إلا لأجل﴾ أي لأجل انتهاء أجل ﴿معدود﴾ سبق في الأزل تقديره ممن لا يبدل القول لديه وكل شيء في حكمه، فهو لا يخشى الفوت؛ ومادة «أجل» بتركيبتها الأربعة: أجل وجأل وجلأ ولجأ تدور على المدة المضروبة للشيء، فالأجل - محركة: مدة الشيء وغاية الوقت في الموت وحلول الدين من تسمية الجزء باسم الكل، والتأجيل: تحديد الأجل، ويلزمه التأخير، ومنه أجل الشيء كفرح - إذا تأخر، والأجلة: الآخرة، وأجل الشيء - بالفتح: حبسه ومنعه، لأن الأجل حابس ومانع للمؤجل، ومنه أجلى كجمزى، وهو مرعى لهم معروف كأنه لحسنه يحبس الراعي فيه، وأجل الشر عليهم: حناه وأثاره وهيجه، ولأهله: كسب وجمع واحتال، لأن ذلك كله من لوازم ذي الأجل، أو المعنى أنه أوجد أجل ذلك، وكمقعد ومعظم: مستتقع الماء، لأنه محيط به إحاطة الأجل بالمؤجل، وأجله فيه تأجيلاً: جمعه فتأجل، والمأجل: الحوض يحبس فيه الماء، وأجلوا ما لهم: حبسوه في المرعى، والأجل - بالكسر: قطع من بقر الوحش، تشبيهاً له في اجتماعه من حيث إنه أحسن له بالأجل لأنه - كما قيل - حصن حصين، والأجل - بالكسر أيضاً: وجع في العنق، لأنه من أسباب حلول الأجل، وأجله: داواه منه، وبالضم جمع أجيل للمتأخر وللمجتمع من الطين يجعل حول النخلة، لإحاطته بها إحاطة الأجل وتحصينه لها، وتأجل القوم: تجمعوا، لأن التجمع

أحصن لهم، وأجل - بفتحتين ثم سكون: جواب كنعم وزناً ومعنى إلا أنه أحسن منه في التصديق، ونعم منه في الاستفهام، وحقيقة ذلك الإخبار بأن أجل - أي وقت - ذلك الفعل الموجب أو المستفهم عنه قد حضر، وفعلت ذلك أجلك - من غير «من» - ومن أجلك، ومن أجلاك ومن أجلالك ويكسر في الكل، أي من جلك - قاله في القاموس، وقال في فصل الجيم: وفعلته من جلك - بالضم - وجلالك وجلك - محركة - وتجلتلك وإجلالك - بالكسر، ومن أجل إجلالك ومن أجلك بمعنى - انتهى. وحقيقته أن فعلي مبتدئ من أجلك - بالتحريك، أو تكون «من» سببية، أي أجلك سبب فيه، ولولا وجودك ما فعلته فهو لتعظيمك؛ والملجأ واللجأ - محركة: المعقل والملاذ، كأنه شبه بالأجل، ومنه لجأ إليه - كمنع وفرح: لاذ، وألجأ أمره إلى الله: أسنده، وألجأ فلاناً إلى كذا: اضطره، والتلجئة: الإكراه، واللجأ - محركاً: الضفدع، لالتجائها إلى الماء؛ ومن ذلك الجيال - كصقيل، وجيلال وجيلالة ممنوعين، وجيل بلا همز كله اسم الضبع لكثرة لجائها إلى وجارها، ومنه جئل - كفرح - جالاناً: عرج، كأنه تشبيه بمشيئها، لأن من أسمائها العرجاء، أو تشبيه بمشية الراقي في درج الملجأ، أي الحصن، وكذا الأجل - كقنب وقبر - وهو ذكر الأوعال، لأن قرونه كالحصن له، وجيلالة الجرح: غثيته، وهو مريه، لأنه من أسباب قرب الأجل، وكذا الاجئلال - أي الفرع - ربما كان سبباً لذلك، وربما كان سبباً للمبادرة إلى الحصن، وجأل - كمنع: ذهب وجاء، والصوف: جمعه واجتمع - لازم متعدد، كله من لوازم الأجل بمعنى المدة، وجلاً بالرجل - كمنع: صرعته، وبثوبه: رماه، كأنه جعله في قوة من حضر أجله، وإن شئت قلت في ضبط ذلك: إن المادة - مع دورانها على المدة - تارة تنظر إلى نفس المدة، وتارة إلى آخرها، وتارة إلى امتدادها وتأخرها، وتارة إلى ما يدني منه، وتارة إلى منفعتها، وتارة إلى ما يلزم فيها، فمن النظر إلى نفس المدة: التأجيل بمعنى تحديد الأجل، وهو مدة الشيء، وفعلت هذا من أجلك، أي لولا وجودك ما فعلته، وأجل بمعنى نعم، أي حضرت مدة الفعل، ومن النظر إلى الآخر: دنا الأجل - في الموت والدين، ومن النظر إلى التأخر: أجل الشيء - إذا تأخر، والآجلة: الآخرة، ومن النظر إلى السبب المدني: الأجل - بالكسر - لوجع في العنق، وجيلالة الجرح - لغثيته أي مريه، وجلاً بالرجل: صرعه، وبثوبه: رماه، وأجل الشر عليهم: جناه، أو أثاره وهيجه، والاجئلال: الفرع، ومن النظر إلى المنفعة وهي أن التأجيل الذي هو تحديد الأجل للشيء مانع من أخذه دون ما ضرب له من المدة: الاجل - بالكسر - للقطيع من بقر الوحش، وأجل الشيء: حبسه ومنعه، وأجلى كجمزي: مرعي لهم معروف، وتأجل القوم: تجمعوا، وجأل الصوف:

جمعه، واللجأ والملجأ: المعقل والملاذ، والضفدع للزومها ملجأها من الماء، والجبال للضبيع للزومها وجارها، ولذلك تسمى أم عامر، وجثل - كفرح: عرج، كأنه شبه بمشيتها لأنها تسمى العرجاء، والأجل كقنب وقبر - لذكر الأوعال، لتحصنه بقرونه، والأجل - بالضم: المجتمع من الطين يجعل حول النخلة، والمآجل: الحوض يحبس فيه الماء، ومستنقع الماء مطلقاً، وأجله تأجيلاً: جمعه، ومن النظر إلى ما يلزم في المدة: أجل لأهله: كسب وجمع وجلب واحتال، وجأل - كمنع: جاء وذهب؛ فقد تبين أن المراد بالأجل هنا الحين.

ولما كان كأنه قيل: يا ليت شعري ماذا يكون حال الناس إذا أتى ذلك الأجل وفيها الجبايرة والرؤساء وذوو العظمة والكبراء! أجيب بقوله: ﴿يوم يأت﴾ أي ذلك الأجل لا يقدر على الامتناع بل ولا على مطلق الكلام، وحذف ابن عامر وعاصم وحمزة الياء اجتزاء عنها بالكسرة كما هو فاش في لغة هذيل، وكان ذلك إشارة إلى أن شدة هولته تمنع أهل الموقف الكلام أصلاً في مقدار ثلثيه، ثم يؤذن لهم في الكلام في الثلث الآخر بدلالة المحذوف وقرينة الاستثناء، فإن العادة أن يكون المستثنى أقل من المستثنى منه ﴿لا تكلم﴾ ولو أقل كلام بدلالة حذف التاء ﴿نفس﴾ من جميع الخلق في ذلك اليوم الذي هو يوم الآخرة، وهو ظرف هذا الأجل وهو يوم طويل جداً ذو ألوان وفنون وأهوال وشؤون، تارة يؤذن فيه في الكلام، وتارة يكون على الأفواه الختام، وتارة يسكتهم الخوف والحسرة والآلام، وتارة ينطقهم الجدل والخصام ﴿إلا بإذنه﴾ أي بإذن ربك المكرر ذكره في هذه الآيات إشارة إلى حسن التربية وإحكام التدبير.

ولما علم من هذا أنه يوم عظمة وقهر، سبب عن تلك العظمة تقسيم الحاضرين فقال: ﴿فمنهم﴾ أي الخلائق الحاضرين لأمره ﴿شقي﴾ ثبتت له الشقاوة فيسر في الدنيا لأعمالها ﴿وسعيد﴾ ثبتت له السعادة فمشى على منوالها؛ والتأخير: الإذهاب عن جهة الشيء بالإبعاد منه، وضده التقديم؛ والأجل: الوقت المضروب لوقوع أمر من الأمور؛ واللام تدل على العلة والغرض والحكمة بخلاف «إلى»؛ والشقاء: قوة أسباب البلاء.

ولما كان أكثر الخلق هالكاً مع أن المقام مقام تهديد وتهويل، بدأ تعالى بالأشقياء ترتيباً للنشر على ترتيب اللف فقال: ﴿فأما الذين شقوا﴾ أي أدركهم العسر والشدة ﴿ففي النار﴾ أي محكوم لهم بأنهم يدخلون النار التي هي النار لو علمتم ﴿لهم فيها زفير﴾ أي عظيم جداً ﴿وشهيق﴾ من زفر - إذا أخرج نفسه بعد مدّه إياه، وشهق - إذا تردد البكاء في صدره - قاله في القاموس؛ وقال ابن كثير في تفسير سورة الأنبياء:

الزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف، وعن الضحاك ومقاتل: الزفير أول نهيق الحمام، والشهيق آخره حين يفرغ من صوته إذا رده في جوفه، وسيأتي كلام الرماني في ذلك ﴿خلدين فيها﴾ أي بلا انقطاع، وعبر عنه بقوله جرياً على أساليب العرب: ﴿ما دامت السموات والأرض﴾.

ولما كان له شيء لا يقبح منه شيء وهو قادر على كل شيء، دل على ذلك بقوله: ﴿إلا ما شاء﴾ أي مدة شاءها فإنه لا يحكم لهم بذلك فيها فلا يدخلونها.

ولما كان الحال في هذه السورة مقتضياً - كما تقدم - لتسليية النبي ﷺ عما أخبر به سبحانه في قوله ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ - الآية، من ضيق صدره، ولذلك أتى بهذه القصص كما مضى بيان ذلك، عبر باسم الرب إشارة إلى أنه يحسن إليه بكل ما يسر قلبه ويشرح صدره فقال: ﴿ربك﴾ وقد جرى الناس في هذا الاستثناء على ظاهره ثم أطالوا الاختلاف في تعيين المدة المستثناة، والذي ظهر لي - والله أعلم - أنه لما تكرر الجزم بالخلود في الدارين وأن الشرك لا يغفر والإيمان موجب للجنة فكان ربما ظن أنه لا يمكن غير ذلك كما ظنه المعتزلة لا سيما إذا تؤمل القطع في مثل قوله ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ مع تقييد غيره بالمشيئة في قوله ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ جاء هذا الاستثناء معلماً أن الأمر فيه إلى الله تعالى كغيره من الأمور، له أن يفعل في كلها ما يشاء وإن جزم القول فيه، لكنه لا يقع غير ما أخبر به، وهذا كما تقول: اسكن هذه الدار عمرك إلا ما شاء زيد، وقد لا يشاء زيد شيئاً، فكما أن التعليق بدوام السماوات والأرض غير مراد الظاهر كذلك الاستثناء لا يشاء الله قطع الخلود لأحد من الفريقين، وسوقه هكذا أدل على القدرة وأعظم في تقليد المنة، ثم رأيت الإمام أبا أحمد البغوي قد ذكر معنى هذا آخر ما أورده في تفسيره من الأقوال في الآية وحكي نحوه عن الفراء، ومثله بأن تقول: والله لأضربنك إلا إن أرى، وعزيمتك أن تضربه، وعزاه الطحاوي في بيان المشكل إلى أهل اللغة منهم الفراء.

ولما كان تخليد الكفار من الحكم بالقسط بين الفريقين لأنه من أكبر تنعيم المؤمنين الذين عادوهم في الله كما تقدم التنبيه عليه أول سورة يونس عليه السلام عند قوله ﴿ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط﴾ كان ربما توهم أن الاستثناء لو أخذ على ظاهره لم يكن إخراجهم من النار حيناً، نفى هذا التوهم بقوله: ﴿إن ربك﴾ أي المحسن إليك ﴿فعال لما يريد﴾ أي لا يجوز عليه البدء بالرجوع عما أراد ولا المنع عن مراده ولا يتعذر عليه شيء منه مع كثرة المرادات فلا اعتراض عليه ولا يلزمه لأحد

شيء، بل له أن يخلد العاصين في الجنة ويخلد الطائعين في النار، ولكنه كما ثبت ذلك ليعتقد لكونه من صفة الكمال ثبت أنه لا يفعل ذلك سبحانه ولا يبدل القول لديه لأن ذلك من صفات الكمال أيضاً مع أن في ختم الآية بذلك ترجية لأهل النار في إخراجهم منها زيادة في عذابهم.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُورٍ ﴿١١٥﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴿١١٦﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا حِزْبٌ لَكَ أَنتَ أَنتَ الْمَسْكُوتُ ﴿١١٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا حِزْبٌ لَكَ أَنتَ أَنتَ الْمَسْكُوتُ ﴿١١٨﴾ وَلَا تَطْفُوا إِنَّهُ يَمَا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١١٩﴾ فَاصْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفُوا إِنَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ۞ .

ولما تم أمر الأشقياء، عطف عليه قسيمهم فقال: ﴿وأما الذين سعدوا﴾ أي فازوا بمطالبهم وتيسر أمرهم ﴿ففي الجنة﴾ أي التي صارت معلومة من الدين بالضرورة ﴿خالدين فيها﴾ دائماً أبداً ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ على ما جرت به عادة العرب في إرادة التأييد بلا آخر بمثل هذا ﴿إلا ما شاء ربك﴾ وأدل دليل على ما قلت في الاستثناء قوله: ﴿عطاء﴾ هو نصب على المصدر ﴿غير مجذوذ﴾ أي مقطوع ولا مكسور ولا مفصول - لعطاء من الأعطية ولا مفرق ولا مستهان به: لأنهم لو انفكوا من النعيم حقيقة أو معنى ولو لحظة لكان مقطوعاً أو منقوصاً؛ وفي الختم بذلك من الجزم بالدوام طمأنينة لأهل الجنة زيادة في نعيمهم عكس ما كان لأهل النار؛ قال أبو الحسن الرماني: والزفير: ترديد النفس مع الصوت حتى تنتفخ الضلوع، وأصله الشدة من المزفور الخلق، والزفر: الحمل على الظهر، لشدته، والزفر: السيد لأنه يطبق حمل الشدائد، وزفرت النار - إذا سمعت لها صوتاً في شدة توقدها، والشهيق: صوت فطيع يخرج من الجوف بمد النفس، وأصله الطول المفرط من قولهم: جبل شاهق أي ممتنع طولاً؛ والخالد: الكائن في الشيء أبداً؛ والدائم: الباقي أبداً، ولهذا يوصف الله تعالى بالدائم دون الخالد.

ولما أخبره تعالى بوقوع القضاء بتمييز الناس في اليوم المشهود إلى القسمين المذكورين على الحكم المشروح مرهبا ومرغبا، كان ذلك كافياً في الثبات على أمر الله والمضي لإنفاذ جميع ما أرسل به وإن شق اعتماداً على النصره في ذلك اليوم بحضرة تلك الجموع، فكان ذلك سبباً للنهي عن القلق في شيء من الأشياء وإن جل وقعه وتعاضم خطبه، فقال تعالى: ﴿فلا﴾ ولما كان ما تضمنه هذا التقسيم أمراً عظيماً وخطباً

جسيماً، اقتضى عظيم تشوف النفس وشديد شوقها لعلم ما سبب عنه، فاقتضى ذلك حذف النون من «كان» إيجازاً في الكلام للإسراع بالإيقاف على المراد والإبلاغ في نفي الكون على أعلى الوجوه فقال: ﴿تلك﴾ أي في حالة من الأحوال ﴿في مرية﴾ والمرية: الشك مع ظهور الدلالة للتهمة - قاله الرماني ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ أي لا تفعل فعل من هو في مرية بأن تضطرب من أجل ما يعبدون مواظبين على عبادتهم مجددين ذلك في كل حين فتتجعج نفسك في إرادة مبادرتهم إلى امتثال الأوامر في النزوع عن ذلك بالكف عن مكاشفتهم بغائظ الإنذار والطلب لإجابة مقترحاتهم رجاء الازدجار كما مضى في قوله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ - الآية، وذلك أن مادة مرى - بأي ترتيب كان - تدور على الاضطراب، وقد يلزمه الطرح والفصل: رمى يرمي رمياً، والمرماة: ظلف الشاة لأنه يطرح، والرمي: قطع من السحاب رفاق؛ والريم: البراح، ما يريم يفعل كذا: ما يزال، والريم: الدرج للاضطراب فيها، والقبر لنبذه في جانب من الأرض وطرح الميت فيه، وريم فلان بالمكان: أقام به مجاوزاً لغيره منفصلاً عنه كأنه رمى بنفسه فيه، وريمت السحابة - إذا دامت فلم تقلع، لأن من شأنها رمي القطر، ومرى الضرع: مسحه للحلب، والريح تمرى السحاب، والمري: المعدة لقفدها ما فيها، والمرية: الشك، أي تزلزل الاعتقاد، والميرة: جلب الطعام؛ ثم استأنف تعالى خبراً هو بمنزلة العلة لذلك فقال: ﴿ما يعبدون﴾ أي يوقعون العبادة على وجه الاستمرار ﴿إلا كما يعبد آباؤهم﴾ ولما كانت عبادتهم في قليل من الزمن الماضي أدخل الجار فقال: ﴿من قبل﴾ أي أنهم لم يفعلوا ذلك لشبهة إذا كشف عنها القناع رجعوا، بل لمحض تقليد الآباء مع استحضارهم لتلبسهم بالعبادة كأنهم حاضرون لديهم يشاهدونهم مع العمى عن النظر في الدلائل والحجج كما كان من قصصنا عليك أخبارهم من الأمم في تقليد الآباء سواء بسواء مع عظيم شكيمتهم وشدة عصبيتهم للأجانب فكيف بالأقارب فكيف بالآباء! فأقم عليهم الحجة بإبلاغ جميع ما نأمرك به كما فعل من قصصنا عليك أنباءهم من إخوانك من الرسل غير مخطر في البال شيئاً مما قد يترتب عليه إلى أن يتفد ما نريد من أوامرنا كما سبق في العلم فلا تستعجل فإننا ندبر الأمر في سفول شأنهم وعلو شأنك كما نريد ﴿وإننا﴾ بما لنا من العظمة ﴿لموفوهم نصيبهم﴾ من الخير والشر من الآجال وغيرها وما هو ثابت ثباتاً لا يفارق أصلاً؛ ولما كانت التوفية قد تطلق على مجرد الإعطاء وقد يكون ذلك على التقريب، نفى هذا الاحتمال بقوله: ﴿غير منقوص﴾ والنصيب: القسم المجعول لصاحبه كالحظ؛ والمنقوص: المقدار المأخوذ جزء منه؛ والنقص: أخذ جزء من المقدار.

ولما ذكر في هذه الآية إعراضهم عن الإتيان مع ما أتى به من المعجزات وأنزل عليه من الكتاب، سلاه بأخيه موسى عليهما السلام لأن الحال إذا عم خف، وابتدأ ذكره بحرف التوقع بما دعا إلى توقعه من قرب ذكره مع فرعون مع ذكر كتابه أول السورة فقال تعالى: ﴿ولقد آتينا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿موسى الكتاب﴾ أي التوراة الجامعة للخير.

ولما كان الضار والمسلمي نفس الاختلاف، بني للمفعول قوله: ﴿فاختلف فيه﴾ فآمن به قوم وكفر به آخرون مع أنه إمام ورحمة وكتب سبحانه له فيه من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وكان معجباً لأهل ذلك الزمان كما اختلف في كتابك مع إعجابه لأهل هذا الزمان وبيانه للهدى أتم بيان، إشارة إلى أن الخلق مهما جاءهم عن الله، وهو لا يكون إلا مصحوباً بالأدلة القاطعة نأوا عنه واختلفوا فيه، ومهما تلقفوه عن آبائهم تلقفوه بالقبول وناضلوا عنه وسمحوا فيه بالمهيج وإن كان منابذاً للعقول، فكان قوم موسى باختلافهم في الكتاب كل قليل يابئ فريق منهم بعض أحكامه ويريدون نقض إبرامه كما سلف بيانه غير مرة عن نص التوراة وسفر يوشع إلى أن آل أمرهم الآن إلى أن صاروا ثلاث فرق: ربانيين، وقرايين، وسامرة؛ يضلل بعضهم بعضاً، ومع ذلك فلم يعاجلهم بالأخذ مع قدرته على ذلك كما فعل بمن قص أمره من الأمم لما سبق من حكمه بتأخيرهم إلى الأجل المحدود، وفصل بين هذا وبين قصة موسى عليه السلام مع فرعون ليكون مع ما دعا إلى تقديم ما تقدم من الآيات أوقع في التسلية وأبلغ في التعزية والتأسية كما هو شأن كل ما ألقى إلى المحتاج شيئاً فشيئاً ﴿ولولا كلمة﴾ أي عظمة لا يمكن تغييرها لأنها من كلام الملك الأعظم ﴿سبقت من ربك﴾ أي المحسن إليك وإليهم بإرسالك رحمة للعالمين ﴿لقضي﴾ أي لوقع القضاء ﴿بينهم﴾ أي بين من اختلف في كتاب موسى عاجلاً، ولكن سبقت الكلمة أن القضاء الكامل إنما يكون يوم القيامة كما قال في سورة يونس ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ - الآية.

ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين أنه به، فقال مؤكداً لأن كل طائفة من اليهود تنكر شكها فيه وفعلها فعل الشاك: ﴿وإنهم لفي شك﴾ أي عظيم محيط بهم ﴿منه﴾ أي من القضاء أو الكتاب ﴿مريب﴾ أي موقع في الريب والتهمة والاضطراب مع ما رأوا من الآيات التي منها سماع كلام الله ورؤية ما كان يتجلى في جبل الطور من الجلال ويتبدى لهم في قبة الزمان من خارق الأحوال ﴿وإن كلاً﴾ من المختلفين في الحق من قوم موسى وغيرهم ممن هو على الحق وممن هو على الباطل؛ و ﴿إن﴾ عند نافع وابن كثير وأبي بكر عن عاصم عاملة مع تخفيفها من الثقيلة في قراءة غيرهم اعتباراً

بأصلها ﴿لما﴾ هي في قراءة ابن عامر وحمزة وعاصم بالتشديد الجازمة حذف فعلها - قال ابن الحاجب: وهو شائع فصيح، وفي قراءة غيرهم بالتخفيف مركبة من لام الابتداء و ﴿ما﴾ المؤكدة بنفي نقيض ما أثبتته الكلام ليكون ثبوته مع نفي نقيضه على أبلغ وجه.

ولما كان الشرط في حذف الفعل بعد «لما» الجازمة أن يكون مما يتوقع بوقوع فعل قبلها يدل عليه، كان التقدير: يقض بينهم، وسيقضي وهو معنى ما قرن بعدها بلام القسم من قوله: ﴿ليوفينهم ربك﴾ أي المحسن إليك بإقامتك على المنهاج الأعدل والفضل من العباد ﴿أعمالهم﴾ لا يدع منها شيئاً لأنه لا يخفى عليه منها شيء، والسياق يقتضي أن يكون ﴿ما﴾ في ﴿لما﴾ في قراءة التخفيف للتأكيد على النحو الذي مر غير مرة أن النافي إذا زيد في سياق الإثبات كان كأنه نفي النقيض تأكيداً لمثبت ﴿إنه بما يعملون﴾ قدم الظرف لتأكيد الخبر ﴿خبير﴾ فإذا علمت أن شأنك في أمتك شأن الرسل في أمهم وأنه لا بد من الاختلاف في شأن الرسول والكتاب كما جرت بذلك السنة الإلهية وأن الجزاء بالأعمال كلها لا بد منه ﴿فاستقم﴾ أي أوجد القوم بغاية جهدك بسبب أنك لا تكلف إلا نفسك وأن الذي أرسلك لا يغفل عن شيء، ومن استقام استقيم له.

ولما كان من المقطوع به أن الأمر له ﷺ من له الأمر كله، بني للمفعول قوله: ﴿كما أمرت﴾ أي كما استقام إخوانك من الأنبياء في جميع الأصول والفروع سواء كان في نفسك أو في تبليغ غيرك معتدلاً بين الإفراط والتفريط ولا يضيق صدرك من استهزائهم وتعنتهم واقتراحهم للآيات وإرادتهم أن تترك بعض ما يوحي إليك من التشنيع عليهم والعيب لدينهم بل صارحهم بالأمر واتركهم وأهواءهم، نحن ندبر الأمر كما نريد على حسب ما نعلم.

ولما كان الفاصل بين المعطوف والمعطوف عليه يقوم مقام تأكيد الضمير المستتر، عطف عليه قوله: ﴿ومن﴾ أي وليستقم أيضاً من ﴿تاب﴾ عن الكفر مؤمناً ﴿معك﴾ على ما أمروا تاركين القلق من استبطانهم للنصرة كما روى البخاري وأبو داود والنسائي عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلنا: ألا تدعو الله لنا، فقعده وهو محمر وجهه فقال: كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع فوق رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم

تستمعجلون^(١)؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على النبي ﷺ آية أشد ولا أشق من هذه الآية. والاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة.

ولما كانت وسطاً بين إفراط وتفریط وكان التفریط لا يكاد يسلم منه إلا الفرد النادر، وهو في الأغلب يورث انكسار النفس واحتقارها والخوف من الله، وكان الإفراط يورث إعجاباً، وربما أفضى بالإنسان إلى ظن أنه شارع فينسلخ لذلك من الدين، طوى التفریط ونهى عن الإفراط فقال: ﴿ولا تطغوا﴾ أي تتجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة إفراطاً، فإن الله تعالى إنما أمركم ونهاكم لتهديب نفوسكم لا لحاجته إلى ذلك ولن تطبيقوا أن تقدرُوا الله حق قدره، والدين متين لن يشاده أحد إلا غلبه، فقد رضي منكم سبحانه الاقتصاد في العمل مع حسن المقاصد، ويجوز أن يكون المعنى: ولا تبتركم النعمة فتخرجكم عن طريق الاستقامة يمنة أو يسرة.

ولما نهي عن الإفراط وهو الزيادة تصریحاً، فأفهم النهي عن التفریط، وهو النقص عن المأمور تلويحاً من باب الأولى، على ذلك مؤكداً تنزيلاً لمن يفرط أو يفرط منزلة المنكر فقال: ﴿إنه بما تعملون﴾ قدم الظرف لما تقدم من تأكيد الإبصار ﴿بصير﴾ ومادة «طغى» واوية ويائية بكل ترتيب تدور على مجاوزة الحد مع العلو، فالغطاء: ما ستر به الشيء عالياً عليه، ولا يكون ساتراً لجميعه إلا إذا فضل عنه فتجاوز حده، وغطى الليل - إذا غشي، وكل شيء ارتفع فهو غاط. وطغى السيل - إذا جاء بماء كثير، والبحر: هاجت أمواجه، والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان، والغائط والغيط: المطمئن من الأرض، لأن ما كان كذلك وكانت أرضه طيبة كانت لا تزال ريثاً فيعلو ما نبت فيها ويخصب فيتجاوز الحد في ذلك، ومنه الغوطة - لموضع بالشام كثير الماء والشجر.

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٦) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِينَ (١١٧) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٨) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٩) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١٢٠).

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٤٣ و ٣٨٥٢ وأبو داود ٢٦٤٩ والنسائي ٢٠٤/٨ وابن حبان ٢٨٩٧ و ٦٦٩٨ والطبراني ٤/ (٣٦٣٨) و (٣٦٣٩) و (٣٦٤٠) والبيهقي ٥/٦ وأحمد ١٠٩/٥ و ١١٠ و ١١١ و ٣٩٥/٦ كلهم من حديث خباب بن الارت.

ولما نهى عن الإفراط في الدين، أتبعه النهي عن التفريط بالتقصير فيه بسفول الهمم على وجه عام، وكان الحب في الله والبغض منه أوثق عرى الإيمان، إشارة إلى ضده الذي هو من أوثق عرى الشيطان فقال: ﴿ولا تركزوا﴾ أي شيئاً من ركون، وقال: ﴿إلى الذين ظلموا﴾ أي وجد منهم الظلم ولم يقل الظالمين، أي بالميل إليهم بأن تناقل أنفسكم نحوهم للميل إلى أعمالهم ولو بالرضى بها والتشبه بهم والتزّي بزيمهم، وحاصل الآيتين: لا تظلموا بأنفسكم ولا تستحسنوا أفعال الظالمين، وفسر الزمخشري الركون بالميل اليسير، وهو حسن من جهة المعنى لكني لم أره لغيره من أهل اللغة، وقال الرماني - وهو أقرب: الركون: السكون إلى الشيء بالمحبة والانصباب إليه، ونقيضه النفور عنه. وهو على التفسير الثاني في ﴿تظفوا﴾ من عطف الخاص على العام، والآية ملتفتة إلى قوله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ ﴿فتمسك النار﴾ أي فتسبب عن ركونكم إليهم مسها لكم فلا تقدرُوا على التخلص منها بنوع حيلة من أنفسكم؛ ومن إجلال النبي ﷺ إفراده بالخطاب في الأمر بأفعال الخير، والإتيان بضمير الجمع في النهي عن أفعال الشر - نبه على ذلك الإمام أبو حيان.

ولما كان كل موجود سوى الله في قهره وتحت أمره، قال تعالى: ﴿وما لكم﴾ ولما كان دون رتبته تعالى من الرتب والذوات ما لا يحصيه غيره سبحانه، أدخل الجار تبعيضاً فقال: ﴿من دون الله﴾ أي الملك الأعظم، وأغرق في النفي فقال: ﴿من أولياء﴾ أي يخلصونكم من عذابه لما تقرر أن ﴿دون﴾ من الأدون وهو الأقرب إلى جهة السفلى؛ والولي: المختص بأن من شأنه تولي المعونة عند الحاجة، وأشار إلى أن نصر مَنْ لا ناصر له من الله محال بأداة البعد وبناء الفعل للمفعول فقال: ﴿ثم لا تنصرون﴾ أي ثم إذا فإنكم هذا وذاك فما أبعدكم من النصرة!

ولما كان العلم حاصلًا بما سبق من الحكم من أن الآدمي محل العجز والتقصير، أتبع ذلك بأعلى مكفر لما يوجب العجز ويقضي به الفتور والوهن من الصغائر وأعمه وأجلبه للاستقامة، وذلك يدل على أنها بعد الإيمان أفضل العبادات، فقال تعالى: ﴿وأقم الصلاة﴾ أي اعملها على استواء ﴿طرفي النهار﴾ بالصبح والعصر كما كان مفروضاً بمكة في أول الأمر قبل الإسراء، ويمكن أن يراد مع ذلك الظهر لأنها من الطرف الثاني ﴿وزلفاً﴾ أي طوائف ودرجات وأوقات، جمع زلفة ﴿من الليل﴾ يمكن أن يكون المراد به التهجد، فقد كان مفروضاً في أول الإسلام، ويمكن أن يراد المغرب والعشاء مع الوتر أو التهجد؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إن الحسنات﴾ أي الطاعات كلها الصلاة وغيرها المبنية على أساس الإيمان ﴿يذهبن السيئات﴾ أي الصغائر، وأما الكبائر

التي يعبر عنها بالفواحش ونحوه فقد تقدم في قصة شعيب عليه السلام عند قوله ﴿ثم توبوا إليه﴾ أنه لا يكفرها إلا التوبة لما فيها من الإشعار بالتهاون بالدين، واجتنابها لا يكفر إلا إذا كان عن نية صالحة كما أفهمه صيغة الافتعال من قوله ﴿إن تجتنبوا﴾ [النساء: ٣١]؛ روى البخاري في التفسير عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله عليه ﴿أقم الصلوة طرفي النهار﴾ - الآية، قال الرجل: ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي^(١). وهذا الحديث يؤيد قول ابن عباس رضي الله عنهما: إن هذه الآية من هذه السورة المكية مدنية.

ولما تم هذا على هذا الوجه الأعلى والترتيب الأولى، قال تعالى مادحاً له ليعرف مقداره فيلزم: ﴿ذلك﴾ أي الأمر العالي الرتبة الذي تقدم من الترغيب والترهيب والتسليّة وتعليم الداء والدواء للخلاص من الشقاء ﴿ذكرى﴾ أي ذكر عظيم ﴿للمذكرين﴾ أي لمن فيه أهلية الذكر والانتباه به بحضور القلب وصفاء الفكر ونفوذ الفهم.

ولما كان الصبر لله على المكاره أعلى الطاعة، أتبع ذلك قوله: ﴿واصبر﴾ أي ليكن منك صبر على الطاعات وعن المعاصي ولا تترك إنذارهم بما أمرت به مهما كان ولا تخفهم، فإن العاقبة لك إذا فعلت؛ ولما كان مقام الصبر صعباً والاستقامة على المحمود منه خاصة خطراً، وكانت النفس - لما لها من الجزع في كثير من الأحوال - كالمنكرة، أكد قوله: ﴿فإن﴾ الصبر هو الإحسان كل الإحسان وإن ﴿الله﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿لا يضيع﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿أجر المحسنين﴾ أي العريقين في وصف الإحسان بحيث إنهم يعبدون الله كأنهم يرونه، فلذلك يهون عليهم الصبر، وذلك لأن الطاعة كلفة فلا تكون إلا بالصبر، وكل ما عداها فهو هوى النفس لا صبر فيه، فالدين كله صبر «حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات»^(٢) ولذا فضل ثواب الصابر ﴿إنما يوفى الصبرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠] والصبر المحمود: حبس النفس عن الخروج إلى ما لا يجوز من ترك الحق، ونقيضه الجزع، قال الشاعر:

إن تصبراً فالصبر خير مغبةً وإن تجزعا فالأمر ما تريان

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٦ و ٤٦٨٧ و مسلم ٢٧٦٣ و الترمذي ٣١١٤ و النسائي في الكبرى ٧٣٢٦ و ٣٢٦ و ابن ماجه ١٣٩٨ و ٤٢٥٤ و الواحدي في الأسباب ٥٣٩ و البيهقي في السنن ٢٤١/٨ و أحمد ٣٨٥/١ و ٤٣٠ من حديث ابن مسعود.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٨٧ و مسلم ٢٨٢٣ و أبو داود ٤٧٤٤ و الترمذي ٢٥٦٠ و النسائي ٣/٧ و القضاعي في الشهاب ٥٦٧ و ابن حبان ٧١٩ و أحمد ٢/٢٦٠ من حديث أبي هريرة بعضهم مطولاً وبعضهم مختصراً.

وهو من الصبر الذي هو المر المعروف لأنه تجرع مرارة الحق بحبس النفس عن الخروج إلى المشتبهى مع الزاجر المعتبر من الشرع والعقل، فهو أكره شيء إلى النفس، والمعين عليه ما في استشعار لزوم الحق من العز والأجر بالطاعة والعلم بما يعقب من الخير في كل وجه وعادة النفس له، وقد غلب إطلاقه على الحق حتى لا يجوز إطلاقه إلا فيه - قاله الرماني.

ولما كان ما تقدم كله مشيراً إلى استبعاد إيمان المعاندين بشيء من تدبير آدمي كما تكاد القصص تنطق به، وكذا الإعلام بأن عبادتهم إنما هي للتقليد وباختلاف قوم موسى في كتابه الذي هو هدى ورحمة، وكل ذلك فطماً عن طلب ما قد يهجم في الخاطر من تمني إجابتهم إلى ما يقترحون أو الكف عن بعض ما يغيظ من الإنذار، وكان من طبع البشر البعد عن الانتهاء عن الخواطر إلا بعد التجربة، كان ذلك ربما أوجب أن يقال: لو أجيئوا إلى سؤالهم لربما رجعوا عن كثير مما هم فيه، فدعاهم ذلك إلى الرشاد، فتسبب عنه أن يقال دفعاً له: ﴿فلولا كان﴾ ويجوز أن يكون مناسبتها أنه لما ذكر إهلاك القرون الماضية والأمم السالفة بما مضى إلى أن ختم بالأمر بالصبر على الإحسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان من الجائز أن يقع في فكر الاعتراض بأن يقال: ما الموجب لذلك؟ فيبين أن سبب الهلاك الإعراض عن نهى متتهك الحرمات والمجترى على هتك الأستار الجليلة والرتع في الحمى مع تمكنهم بما أودع فيهم سبحانه من القوى والقدرة على اختيار جانب الخير والإعراض عن جانب الشر فقال تعالى: ﴿فلولا﴾ بصيغة تحتل التخصيص، وفيها معنى التفجع والتأسف لاعتبار كل من كان على مثل حالهم ﴿من القرون﴾ أي المهلكين الأشداء الكائنين في زمان ما.

ولما كان المراد القرون التي تقدم ذكر إهلاكها، وكانت أزمنتهم بعض الزمان الماضي، أتى بالجار فقال: ﴿من قبلكم أولوا﴾ أي أصحاب ﴿بقية﴾ أي حفظ وخير ومراقبة لما يصلحهم، لأن مادة «بقي» تدور على الجمع، ويلزمه القوة والثبات والحفظ، من قولهم: ابقه بقوتك مالك - وزن ادعه - أي احفظه حفظك مالك، ويلزمه النظر والمراقبة: بقيت الشيء - إذا نظرت إليه ورصدته، ويلزمه الثبات: بقي بقاء - إذا دام، والخير والجودة؛ قال الزمخشري: لأن الرجل يستبقي مما يخرج منه أجوده وأفضله، ويقال: فلان من بقية قوم، أي من خيارهم، وسيأتي شرح ذلك مستوفى عند قوله تعالى ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ إن شاء الله تعالى ﴿ينهون﴾ أي يجددون النهي في كل حين إشارة إلى كثرة المفسدين ﴿عن الفساد﴾ الكائن ﴿في الأرض﴾ و «لولا» هنا كالتي في يونس توبيخية أو استفهامية كما جوزهما الرماني، ويجوز أن تكون تخصيصية كما قال

الزمخشري، ويكون للسامع لا للمهلك، لأن الآية لما تضمنت إهلاك المقر على الفساد كان في ذلك أقوى حث لغيرهم على الأمر والنهي وأوفى تهديد زاجر عن ارتكاب مثل حالهم الموقع في أضعاف نكالهم، وفي تعقيب هذه الآية لآية الصبر إشارة إلى أن الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الذروة العليا، والآية ناظرة إلى قوله تعالى ﴿إنما أنت نذير﴾.

ولما كانت المعاني الثلاثة متضمنة للنفي، كان المعنى: لم يكن من يفعل ذلك، فاتصل الاستثناء في قوله: ﴿إلا قليلاً﴾ أي صالحين ﴿ممن أنجينا منهم﴾ والظاهر أن «من» بيانية، أي هم الذين أنجينا فإنهم نهوا عن الفساد، عبر بالإنجاء لأنه الدال على الخير الحامل للنهي عن الفساد دون التنجية الدالة على التدرج والإبلاغ في الإنجاء فلو عبر بها فسد المعنى ﴿واتبع﴾ الأكثر وهم ﴿الذين ظلموا﴾ أي أوقعوا الظلم بترك النهي عن الفساد، وما أحسن إطلاقتها عن التقييد بـ ﴿منهم﴾ ﴿ما﴾ ولما كان المبطر لهم نفس الترف، بني للمفعول قوله: ﴿أترفوا فيه﴾ فأبطرتهم النعمة حتى طغوا وتجبروا ﴿وكانوا مجرمين﴾ أي متصفين على سبيل الرسوخ بالإجرام، وهو قطع حبل الله على الدوام، فأهلكهم ربك لإجرامهم، ولولا ذلك لما فعل، فإن إهلاكهم على تقدير الانفكاك عن الإجرام يكون ظمناً على ما يتعارفون.

ولما لاح بما مضى أن العبرة في الإهلاك والإنجاء للاكثر، قرره وأكده وبينه بقوله: ﴿وما كان ربك﴾ ذكر سبحانه بالوصف المفهم للإحسان تبييناً له وتأميناً ﴿ليهلك القرى﴾ أي إهلاكاً عاماً ﴿بظلم﴾ أي أي ظلم كان، صغير أو كبير ﴿وأهلها مصلحون﴾ أي في حال ظلم بأن يوقع إهلاكهم في حال إصلاحهم الذي هم عريقون فيه، فيكون الإهلاك في غير موقعه على ما يتعارف العباد مع العلم بأن له أن يفعل ذلك في نفس الأمر لأنه لا يسأل عما يفعل؛ والإهلاك: إيجاب ما يبطل الإحساس، والهلاك: ضياع الشيء وهو حصوله بحيث لا يدرى أين هو؛ والإصلاح: إيجاب ما يستقيم به الأمر على ما يدعو إليه العقل.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۗ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١١٩﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُوثِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ١٢١﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ١٢٢﴾.

ولما كان مثل هذه الآيات ربما أوهم أن إيمان مثل هؤلاء مما لا يدخل تحت المشيئة، نفى ذلك الوهم مبيناً انفكك المشيئة عن الأمر بقوله: ﴿ولو شاء ربك﴾ أي المحسن إليك بكل إحسان يزيدك رفعة ﴿لجعل الناس﴾ أي كلهم ﴿أمة واحدة﴾ على الإصلاح، فهو قادر على أن يجعلهم كلهم مصلحين متفقين على الإيمان فلا يهلكهم، ولكنه لم يشأ ذلك، بل شاء اختلافهم والأمر تابع لمشيئته فاختلفوا ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ أي ثابتاً اختلافهم لكونهم على أديان شتى ﴿إلا من رحم ربك﴾ أي المحسن إليك بالتأليف بينهم في جعلهم من أهل طاعتك فإنهم لا يختلفون في أصول الحق. ولما كان ما تقدم ربما أوجب أن يقال: لم لم يقبل بقلوبهم إلى الهدى ويصرفهم عن موجبات الردى إذا كان قادراً؟ قال تعالى مجيباً عن ذلك: ﴿ولذلك﴾ أي الاختلاف ﴿خلقهم﴾ أي اخترعهم وأوجدهم من العدم وقدرهم، وذلك أنه لما طبعهم سبحانه على خلائق من الخير والشر تقتضي الاختلاف لتفاوتهم فيها، جعلوا كأنهم خلقوا له فجزوا مع القضاء والقدر، ولم يمكنهم الجري على ما تدعو إليه العقول في أن الاتفاق رحمة والاختلاف نقمة، فاستحق فريق منهم النار وفريق الجنة، وليس ذلك مخالفاً لقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] بل هو من شكله، أي أنه تعالى لما ركبهم على العجز ومنحهم العقول مع نصب الأدلة، كان ذلك مهياً للعبادة فكانوا كأنهم ما خلقوا إلا لها أي ما خلقتهم إلا ليعرفون بنفوذ أفضيتي وتصاريفي فيهم فيعبدون، أي يخضعوا لي فمن كان منهم طائعاً فهو عابد حقيقة، ومن كان عاصياً كان عابداً مجازاً، أي خاضعاً للأمر لنفوذه فيه وعجزه عن الامتناع كما قال تعالى ﴿والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ [الرعد: ١٥]، فقد بان أن خلقهم للعبادة فقط ينافي خلقهم للاختلاف، لأن جريهم في قضائه بالاختلاف عبادة وسجود لغة، وذلك أن مادتي عبد وسجد تدوران على الخضوع والذل والانقياد، وبذلك كان الكل عبيد الله، أو الإشارة إلى مجمع الاتفاق والاختلاف ليظهر فضله على من ثبتهم ويظهر عدله فيمن خذلهم.

ولما كان هذا الاختلاف سبب الكفر الذي أرسل رسله بالقتال عليه، كان ربما ظن أنه بغير مشيئته، فبين أنه إنما هو بمراده ولا اعتراض عليه فقال: ﴿وتمت﴾ أي فبادروا إلى ما خلقهم لهم معرضين عن أوامره ولم تغن عنهم عقولهم، وتمت حينئذ ﴿كلمت ربك﴾ أي المحسن إليك بقهر أعدائك التي سبقت في الأزل وهي وعزتي ﴿لأملأن جهنم﴾ أي التي تلقى المعذب فيها بالتجهم والعبوسة ﴿من الجنة﴾ أي قبيل الجن، قدمهم لأنهم أصل في الشر، ثم عم فقال: ﴿والناس أجمعين﴾ فمشوا على ما أراد

ولم يمكنهم مع عقولهم الجيدة الاستعداد وقواهم الشداد غير إلقاء القياد، فمن قال: إنه يخلق فعله أو له قدرة على شيء فليفعل غير ذلك بأن يخبر باتفاقهم ثم يفعله ليطمئنه قوله. وإلا فليعلم أنه مريب مقهور فيسمع رسالات ربه ويقبل إليه بقلبه وقلبه.

ولما أخبر سبحانه بما فعل بالقرى الظالمة، وحذر كل من فعل أفعالهم بسطواته في الدنيا والآخرة، وأمر باتباع أمره والاعراض عن اختلافهم الذي حكم به وأراده، عطف على قوله ﴿نقصه عليك﴾ قوله: ﴿وكلاً نقص﴾ أي ونقص ﴿عليك﴾ كل نبأ أي خبر عظيم جداً ﴿من أنباء الرسل﴾ مع أمهم: صالحهم وفسادهم، فعم تفخيماً للأمر، ولما كان الذي جرّ هذه القصص ما مضى من قوله: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾، وكان ساكن الصدر القلب، وهو الفؤاد الذي به قوام الإنسان بل الحيوان، وهو أحرّ ما فيه، ولذا عبر عنه بما اشتق من الفؤاد وهو الحرف، وكان من لازم الحرارة الاضطراب والتقلب الذي اشتق منه القلب فيضيق به الصدر، أبدل من ﴿كلاً﴾ قوله: ﴿ما نثبت﴾ أي تثبتاً عظيماً ﴿به فؤادك﴾ أي فيسكن في موضعه ويطمئن أو يزداد يقينه فلا يضيق الصدر من قولهم ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ ونحوه، وبهذا تبين أن المراد بذلك العام خاص لحصول المقصود به، وهو التسلية نظراً إلى قوله تعالى ﴿وضائق به صدرك﴾ لأن المشاركة في الأمور الصعبة تهون على الإنسان ما يلقي من الأذى، والإعلام بعقوبات المكذبين فيها تأنيس للمكروب؛ والتثبيت: تمكين إقامة الشيء؛ والفؤاد: العضو الذي من شأنه أن يحمي بالغضب الحال فيه، من المفتاد وهو المستوي.

ولما بين أن كل ما قص عليه من أخبارهم يستلزم هذا المقصود، بين أنه ليس كما يعلل به غالباً من الأخبار الفارغة والأحاديث المزخرفة الباطلة ولا مما ينقله المؤرخون مشوباً بالتحريف فقال: ﴿وجاءك في هذه﴾ أي الأخبار ﴿الحق﴾ أي الكامل في الثبات الذي لا مرية فيه، وفائدة الظرف التأكيد لعظم المقصود من آية ﴿فلعلك﴾ وصعوبته.

ولما كان الحق حقاً بالنسبة إلى كل أحد عرفه ونكر ما هو خاص بقوم دون قوم فقال: ﴿وموعظة﴾ أي مرقق للقلوب ﴿وذكرى﴾ أي تذكير عظيم جداً ﴿للمؤمنين﴾ أي الراسخين في الإيمان، وقد تضمنت الآية الاعتبار من قصص الرسل بما فيها من حسن صبرهم على أمهم واجتهادهم على دعائهم إلى عبادة الله بالحق وتذكير الخير والشر وما يدعو إليه كل منهما من عاقبة النفع والضرر للثبات على ذلك جميعه اقتداء بهم.

ولما ذكر نفع هذا الحق، كان كأنه قيل: فعظهم بذلك وذكرهم به، فعطف عليه

قوله: ﴿وقل﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله ﴿واصبر﴾ أي اصبر على ما أمرناك به من تبليغ وحيناً وامتثاله، وقل ﴿للذين﴾ أي لم تؤثر فيهم هذه الموعظة فهم ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا يتجدد لهم إيمان منذراً لهم ﴿اعملوا﴾ متمكنين ﴿على مكانتكم﴾ أي طريقتم التي تتمكنون من العمل عليها.

ولما كان العمل واجباً عليه ﷺ وعلى كل من تبعه فهم عاملون لا محالة سواء عمل الكفار أو لا، قال مؤكداً لأجل إنكار الكفار أن يدوموا على العمل المخالف لهم مع ما يصل إليهم لأجله من الضر، معرباً له عن فاء السبب لذلك والاستئناف: ﴿إنا﴾ أي أنا ومن معي ﴿عملون﴾ أي ثابت عملنا لا نحول عنه لأن ما كان الله فهو دائم بدوامه سبحانه، وحذف النون الثانية اكتفاء بمطلق التأكيد لأنه كافٍ في الإعلام بالجزم في النية، وفيه تأدب بالإشارة إلى أن المستقبل أمر لا اطلاع عليه لغير الله فينبغي أن لا يبلغ في التأكيد فيه غيره، وهذا بخلاف ما في سورة فصلت مما هو جارٍ على السنة الكفرة ﴿وانظروا﴾ أي ما أنتم منتظرون له من قهرنا ﴿إنا منتظرون﴾ أي ما وعدنا الله في أمركم، فإن الله مهلكهم ومنجيك لأنه عالم بغيب حالك وحالهم وقادر عليكم؛ والانتظار: طلب الإدراك لما يأتي من الأمر الذي يقدر النظر إليه؛ والتوقع: طلب ما يقدر أنه يقع، وهما يكونان في الخير والشر ومع العلم والشك، والترجي لا يكون إلا مع الخير والشك.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولما تضمن هذا التهديد العلم والقدرة، قال عاطفاً على ما تقديره: فله كل ما شوهد من أمرنا وأمركم وأمر عالم الغيب والشهادة كله ما كان من ابتداء أمورنا ﴿ولله﴾ أي المحيط وحده بكل شيء مع ذلك ﴿غيب السموات والأرض﴾ أي جميع ما غاب علمه عن العباد فهو تام العلم، ومنه ما ينهى عنه وإن ظن الجهلة أنه خارج عن قدرته لما أظهر من الزجر عنه ومن كراهيته.

ولما كان السياق هنا لأنه سبحانه خلق الخلق ذواتهم ومعانيهم للاختلاف، وكان تهديدهم على المعاصي ربما أوهم أنه بغير إرادته، فكان ربما قال جاهل: أنا بريء من المخالفين لأوليائه كثيراً جداً، وعادة الخلق أن من خالفهم خارج عن أمرهم، كان الجواب على تقدير التسليم لهذا الأمر الظاهر: فله كان الأمر كله ظاهراً وباطناً ﴿واليه﴾ أي وحده ﴿يرجع﴾ بعد أن كان ظهر للجاهل أن خرج عنه؛ والرجوع: ذهاب الشيء

إلى حيث ابتدأ منه ﴿الامر كله﴾ في الحال على لبس وخفاء، وفي المال على ظهور واتضح وجلاء، فهو شامل القدرة كما هو شامل العلم، فلا بد من أن يرجع إليه أمرك وأمر أعدائك، أي يعمل فيه عمل من يرجع إليه الأمر فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولذلك سبب عن إسناد الأمور كلها إليه قوله: ﴿فاعبده﴾ أي وحده عبادة لا شوب فيها ﴿وتوكل﴾ معتمداً في أمورك كلها ﴿عليه﴾ فإنه القوي المتين، وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد.

ولما كانت العادة جارية بأن العالم قد يغفل، نزه عن ذلك سبحانه نفسه فقال مرغباً مرهباً: ﴿وما ربك﴾ أي المحسن إليك بما يعلمه بإحاطة علمه إحساناً، وأغرق في النفي فقال: ﴿بغافل عما تعملون﴾ ولا تهديد أبلغ من العلم، وهذا بعينه مضمون قوله تعالى ﴿كتب أحكمت آيته ثم فصلت من لدن حكيم خبير الا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير﴾ [هود ١ - ٢].

تم الجزء الثالث ويليه إن شاء الله الجزء الرابع

وأوله: تفسير سورة يوسف

الفهرس

٥٦.....	الآيات: ٧٢ - ٧٤
٥٨.....	الآيات: ٧٥ - ٧٩
٦١.....	الآيات: ٨٠ - ٨٥
٦٧.....	الآيات: ٨٦ و٨٧
٦٨.....	الآيات: ٨٨ و٨٩
٧١.....	الآيات: ٩٠ - ٩٦
٧٤.....	الآيات: ٩٧ - ١٠٠
٧٦.....	الآيات: ١٠١ - ١٠٣
٧٨.....	الآيات: ١٠٤ - ١٠٩
٨١.....	الآيات: ١١٠ - ١١٧
٨٣.....	الآيات: ١١٨ - ١٢٤
٨٥.....	الآيات: ١٢٥ - ١٢٨
٨٨.....	الآيات: ١٢٩ - ١٣٢
٩٠.....	الآيات: ١٣٣ - ١٣٧
١٠٣.....	الآيات: ١٣٨ - ١٤١
١٠٦.....	الآيات: ١٤٢ - ١٤٤
١١٠.....	الآيات: ١٤٥ - ١٤٨
١١٣.....	الآيات: ١٤٩ - ١٥١
١١٦.....	الآيات: ١٥٢ - ١٥٤
١٢٠.....	الآيات: ١٥٥ و١٥٦

تفسير سورة الأعراف

٣.....	الآيات: ٢ و١
٧.....	الآيات: ٣ - ٧
٩.....	الآيات: ٨ - ١١
١٢.....	الآيات: ١٢ - ١٦
١٤.....	الآيات: ١٧ - ٢٠
١٧.....	الآيات: ٢١ - ٢٤
١٩.....	الآيات: ٢٥ - ٢٧
٢٣.....	الآيات: ٢٨ - ٣١
٢٧.....	الآيات: ٣٢ - ٣٤
٢٩.....	الآيات: ٣٥ - ٣٧
٣١.....	الآيات: ٣٨ و٣٩
٣٣.....	الآيات: ٤٠ - ٤٢
٣٤.....	الآيات: ٤٣ - ٤٦
٣٧.....	الآيات: ٤٧ - ٥١
٣٩.....	الآيات: ٥٢ - ٥٤
٤٣.....	الآيات: ٥٥ - ٥٧
٤٥.....	الآيات: ٥٨ - ٦٠
٤٨.....	الآيات: ٦١ - ٦٨
٥٣.....	الآيات: ٦٩ - ٧١

٢٢٨	الآيات: ٤٩ - ٥٢
٢٣٠	الآيات: ٥٣ - ٥٧
٢٣٥	الآيات: ٥٨ - ٦٣
٢٣٨	الآيات: ٦٤ - ٦٧
٢٤٥	الآيات: ٦٨ - ٧١
٢٤٧	الآيات: ٧٢ و٧٣
٢٥٣	الآيات: ٧٤ و٧٥

تفسير سورة براءة

٢٦١	الآيات: ١ و ٢
٢٦٧	الآيات: ٣ - ٥
٢٧٢	الآيات: ٦ - ٩
٢٧٦	الآيات: ١٠ - ١٤
٢٨٠	الآيات: ١٥ - ١٨
٢٨٩	الآيات: ١٩ - ٢٤
٢٩٣	الآيات: ٢٥ - ٢٧
٢٩٦	الآيات: ٢٨ و٢٩
٣٠٠	الآيات: ٣٠ - ٣٣
٣٠٥	الآيات: ٣٤ - ٣٦
٣٠٨	الآية: ٣٧
٣١٧	الآيات: ٣٨ - ٤١
٣٢٢	الآيات: ٤٢ و٤٣
٣٢٧	الآيات: ٤٤ - ٤٧
٣٣٠	الآيات: ٤٨ - ٥١
٣٣٢	الآيات: ٥٢ - ٥٤

١٢٤	الآية: ١٥٧
١٣٤	الآيات: ١٥٨ و١٥٩
١٣٧	الآيات: ١٦٠ - ١٦٣
١٤١	الآيات: ١٦٤ - ١٦٧
١٤٣	الآيات: ١٦٨ و١٦٩
١٤٦	الآيات: ١٧٠ - ١٧٣
١٥٠	الآيات: ١٧٤ - ١٧٨
١٥٨	الآيات: ١٧٩ - ١٨٤
١٦٣	الآيات: ١٨٥ - ١٨٨
١٦٧	الآيات: ١٨٩ - ١٩٦
١٧٢	الآيات: ١٩٧ - ٢٠١
١٧٦	الآيات: ٢٠٢ - ٢٠٦

تفسير سورة الأنفال

١٨١	الآيات: ١ - ٣
١٨٥	الآيات: ٤ - ٩
١٩١	الآيات: ١٠ - ١٣
١٩٥	الآيات: ١٤ - ٢١
١٩٩	الآيات: ٢٢ - ٢٤
٢٠٤	الآيات: ٢٥ - ٢٧
٢٠٧	الآيات: ٢٨ - ٣٠
٢١٠	الآيات: ٣١ - ٣٥
٢١٥	الآيات: ٣٦ - ٤٠
٢١٨	الآيات: ٤١ - ٤٦
٢٢٥	الآيات: ٤٧ و٤٨

٤٢٠	الآيات: ١١ و ١٠	٣٣٣	الآيات: ٥٩ - ٥٥
٤٢٣	الآيات: ١٤ - ١٢	٣٣٦	الآيات: ٦٢ - ٦٠
٤٢٤	الآيات: ١٨ - ١٥	٣٤٢	الآيات: ٦٧ - ٦٣
٤٢٨	الآيات: ٢٠ و ١٩	٣٤٥	الآيات: ٦٩ و ٦٨
٤٢٩	الآيات: ٢٣ - ٢١	٣٥٦	الآيات: ٧١ و ٧٠
٤٣٢	الآية: ٢٤	٣٥٩	الآيات: ٧٤ - ٧٢
٤٣٤	الآيات: ٢٩ - ٢٥	٣٦٣	الآيات: ٨٠ - ٧٥
٤٣٨	الآيات: ٣٣ - ٣٠	٣٦٨	الآيات: ٨٥ - ٨١
٤٤٠	الآيات: ٣٦ - ٣٤	٣٧٢	الآيات: ٩٣ - ٨٦
٤٤٢	الآيات: ٤٠ - ٣٧	٣٧٦	الآيات: ٩٨ - ٩٤
٤٤٦	الآيات: ٤٥ - ٤١	٣٧٨	الآيات: ١٠٠ - ٩٩
٤٤٩	الآيات: ٤٩ - ٤٦	٣٨٠	الآيات: ١٠٤ - ١٠١
٤٥١	الآيات: ٥٣ - ٥٠	٣٨٣	الآيات: ١٠٨ - ١٠٥
٤٥٣	الآيات: ٥٧ - ٥٤	٣٨٧	الآيات: ١١١ - ١٠٩
٤٥٧	الآيات: ٦٠ - ٥٨	٣٩٠	الآيات: ١١٤ - ١١٢
٤٥٩	الآيات: ٦٣ - ٦١	٣٩٥	الآيات: ١١٧ - ١١٥
٤٦١	الآيات: ٦٧ - ٦٤	٣٩٧	الآيات: ١٢٠ - ١١٦
٤٦٤	الآيات: ٧٣ - ٦٨	٤٠١	الآيات: ١٢٢ و ١٢١
٤٦٨	الآيات: ٧٨ - ٧٤	٤٠٣	الآيات: ١٢٥ - ١٢٣
٤٧١	الآيات: ٨٣ - ٧٩	٤٠٥	الآيات: ١٢٩ - ١٢٦
٤٧٣	الآيات: ٨٧ - ٨٤	تفسير سورة يونس	
٤٧٥	الآيات: ٨٩ و ٨٨	٤١١	الآيات: ٣ - ١
٤٧٧	الآيات: ٩٢ - ٩٠	٤١٦	الآيات: ٥ و ٤
٤٨٠	الآية: ٩٣	٤١٨	الآيات: ٩ - ٦

٥٤٠	الآيات: ٤٩ - ٥٢
٥٤٢	الآيات: ٥٣ - ٥٦
٥٤٤	الآيات: ٥٧ - ٦٠
٥٤٧	الآيتان: ٦١ و٦٢
٥٤٩	الآيات: ٦٣ - ٦٨
٥٥٢	الآيات: ٦٩ - ٧٦
٥٥٧	الآيات: ٧٧ - ٨٠
٥٦٠	الآيات: ٨١ - ٨٣
٥٦٣	الآيتان: ٨٤ و٨٥
٥٦٥	الآيات: ٨٦ - ٨٨
٥٦٨	الآيات: ٨٩ - ٩١
٥٧٠	الآيات: ٩٢ - ٩٥
٥٧٢	الآيات: ٩٦ - ٩٩
٥٧٤	الآيات: ١٠٠ - ١٠٣
٥٧٧	الآيات: ١٠٤ - ١٠٧
٥٨١	الآيات: ١٠٨ - ١١٢
٥٨٦	الآيات: ١١٣ - ١١٧
٥٨٩	الآيات: ١١٨ - ١٢٢
٥٩٢	الآية: ١٢٣

٤٨٧	الآيات: ٩٤ - ٩٧
٤٨٩	الآيات: ٩٨ - ١٠٠
٤٩١	الآيات: ١٠١ - ١٠٥
٤٩٥	الآيات: ١٠٦ - ١٠٩

تفسير سورة هود

٤٩٨	الآيات: ١ - ٣
٥٠٣	الآيات: ٤ - ٦
٥٠٥	الآيتان: ٧ و٨
٥٠٧	الآيات: ٩ - ١٢
٥١٠	الآيات: ١٣ - ١٥
٥١٢	الآيات: ١٦ - ١٩
٥١٥	الآيات: ٢٠ - ٢٢
٥١٩	الآيات: ٢٣ - ٢٧
٥٢٣	الآيات: ٢٨ - ٣٠
٥٢٥	الآيات: ٣١ - ٣٤
٥٢٨	الآيات: ٣٥ - ٤٠
٥٣١	الآيات: ٤١ - ٤٤
٥٣٤	الآيات: ٤٥ - ٤٨

